# المؤلفات الفلسفية

منتخبة

## بليخانوف



ترجمة

الدكتور فؤاد أيوب

مصادر الاشتراكية العلمية

دار دمشق للطباعة والنشر

المجلد الثاني

مصادر الاشتراكية العلمية

# بليخانوف

# المؤلفات الفلسفية

المجلد الثاني

ترجمة

الدكتور فؤاد أيوب



نقل هذا الكتاب الى العربيـــة

بالاعتماد على الترجمة الانكليزية

الصادرة عن دار التقدم في موسكو

في ١٩٦٧ تحت عنوان

**GEORGI PLEKHANOV**

**SELECTED**

**PHILOSOPHICAL WORKS**

**IN FIVE VOLUMES**



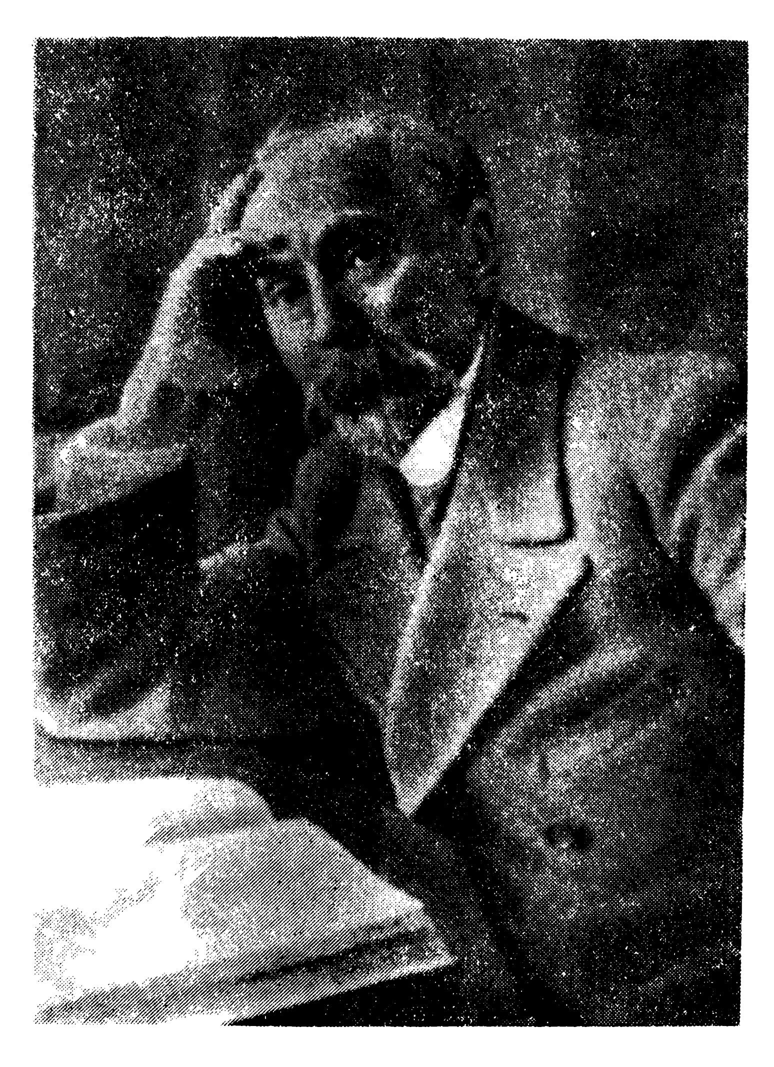
**ط ١ ٠ ٣٠٠٠ ٠ / ١٩٨٢**

دار دمشق سورية ــ دمشق شارع بور سعيد

☎ ١١١٠٢٢
١١١٠٤٨

# محتويات الكتاب





Г. Плехановъ.

# دفاع جورج بليخانوف عن المادية الجدلية

# والتاريخية واقامة الدليل عليها

# فى النضال ضـد التحريفيـة

كان جيورجي فالنتينوفيتش بليخانوف الماركسي البارز في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مقاتلا في سبيل النظرة العلمية المادية عن العالم وضد الفلسفة المثالية والتحريفية الفلسفية وقد حقق في دفاعه عن المادية الجدلية والتاريخية ضد أعداء الماركسية العلنيين والمستترين قدرا كبيرا من العمل القيم خلال العقدين الاولين من نشاطاته الماركسية ١٨٨٣ - ١٩٠٣ وذلك بتحليله وتطويره عددا من مسائل الفلسفة الماركسية

وكان فهمه لنظرية المادية التاريخية أعمق وأصح حتى درجة كبيرة من فهم المنظرين الرئيسيين للاشتراكية الديموقراطية الاوروبية الغربية في ذلك الزمان ، حيث أكد على الروابط الباطنة بين التأويل المادي للتاريخ والمادية الجدلية ونهض ضد المحاولات الرامية الى فرض آراء مثالية على الماركسية هي غريبة عليها ولقد كتب بليخانوف يقول ان جميع مظاهر نظرة ماركس الى العالم مترابطة بصورة وثيقة الامر الذي تترتب عليه أنه ليس في وسع المرء أن يحذف احدها بصورة اعتباطية ويستعيض عنه بمجموعة من الآراء التي انتزعت بصورة لا تقل اعتباطا عن ذلك من نظرة الى العالم مغايرة كليا

واولى بليخانوف اهتمامه قبل كل شيء في دفاعه عن فلسفة الماركسية لدراسة وتعميم مسائل بالغة الاهمية من المادية التاريخية مثل العلاقة بين الوجود

الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، وسبل التطور الاجتماعي ، ودور الجماهير والفرد في التاريخ وماهية الاشكال المتنوعة للوعي الاجتماعي مثل الفن والدين والتفاعل ما بينهما والاستقلال النسبي لتطور الايديولوجيات وقس على ذلك

وشن بليخانوف النضال في سبيل انتصار النظرة العلمية المادية الى العالم في الحركة العمالية الروسية والعالمية عند منعطف القرن وذلك في ظروف تفاقم النزاع السياسي والايديولوجي في المجتمع

فقد اتسمت نهاية القرن التاسع عشر والسنوات الاولى من القرن العشرين بتصاعد النضال الذي تخوضه البورجوازية وايديولوجيوها ضد الماركسية وفلسفتها، حيث شن ايديولوجيو البورجوازية والتحريفيون ـ محرضوها في حركة الطبقة العاملة ـ هجوما واسع النطاق على الفلسفة الماركسية

وكتب لينين يقول كانت جدلية التاريخ بحيث أجبر انتصار الماركسية النظري أعداءها على **التنكر** في زي الماركسيين* فقد اصبحت الماركسية الزي الشائع في الحلقات البورجوازية والبورجوازية الصغيرة وكانت موضع السجال والنقد وطولبت بتقديم التنازلات وقامت محاولات لدمجها مع الليبرالية والاتجاهات المتنوعة للايديولوجية البورجوازية وان ليبراليين بورجوازيين من نمط وولف وبرنتانو وسومبارت قد عملوا انطلاقا من هذه الخلفية واستخدم أعداء الماركسية العلنيون والمستترون في نضالهم ضدها الكانطية الجديدة وما يسمى نظرية العوامل الانتقائية محاولين بذلك تحويل الماركسية الى المادية الاقتصادية المبتذلة ، والاستعاضة عنها «بالاشتراكية **السلطوية**» ، وهكذا دواليك.

ان المحاولات التي بذلها أعداء النظرية الماركسية البورجوازيون ومثلهم أصدقاؤها المزيفون في المعسكر الاشتراكي الديموقراطي من أجل تحويل الماركسية الى عقيدة ومن أجل تشويهها قد عارضها انجلز بحزم مؤكدا على الحاجة الى النضال ضد تهريب الايديولوجية البورجوازية الى حركة الطبقة العاملة فقد فضح في مراسلاته المحاولات البورجوازية لتحريف الماركسية وبالخاصة الفهم المادي للتاريخ • وكتب مايلي في رسالة الى بول ارنست بتاريخ ٥ حزيران ١٨٩٠: «فيما يتعلق بمحاولتك معالجة الامر ماديا يجب ان أقول في المحل الاول ان الطريقة المادية تتحول الى نقيضها اذا لم تؤخذ من حيث هي مبدأ المرء المرشد في البحث التاريخي بل من حيث هي نموذج جاهز يصوغ المرء وفقا له حقائق التاريخ بحيث تكون مناسبة له** لقد أخضع انجلز لتحليل نقدي جامع الكتابات النظرية للاشتراكيين الديموقراطيين الالمان في ذلك الحين ، بما فيهم كارل كاوتسكي الذي كشف منذ ذلك

* [ لينين **المؤلفات الكاملة** ، المجلد الثامن عشر ص ٥٨٤ ]

** [ كارل ماركس وفريديريك انجلز ، **مراسلات مختارة** ، منشورات دار دمشق ، ص ٤٩٠ ].

الحين عن انحرافات عن الماركسية الثورية وفي الوقت نفسه ابتهج انجلز بصدور اعمال ماركسية حقيقية مثل **أسطورة ليسنغ** لفرانز مهرنغ **وتطور النظرة الاحادية عن التاريخ** لبليخانوف فعبر في رسالة الى اوغست بيبل بتاريخ ١٦ آذار ١٨٩٢ عن تقديره العالي لكتاب مهرنغ مع الاشارة في الوقت نفسه الى نقائصه ، وأيد كذلك اعمال بليخانوف ، وأبدى اهتمامه بها ، ورحب بترجمتها الى اللغات الاخرى

وبعد وفاة انجلز هب ايديولوجيون بورجوازيون من طراز بارث ولاكومب وسكولتزه — غافرنيتز وكاربيف ضد الفهم المادي للتاريخ وكان أعداء الماركسية العلنيون يحصلون على التأييد من جانب المحرفين في الاممية الثانية الذين تبنوا نظرتهم المثالية الى العالم وتطوريتهم المبتذلة واسلوبهم في « نقد المادية التاريخية ولا نكاد يوجد مذهب مثالي واحد لم يسع المحرفون الى التوفيق بينه وبين الماركسية فقد دعا برنشتاين الى العودة الى كانط ، وطالب كونراد شميدت بدمج الماركسية بالكانطية الجديدة وأعلن فولتمان أنه من الواجب التوفيق بين الماركسية من جهة والكانطية الجديدة و الدارونية الاجتماعية من جهة ثانية ، فيما حاول ستاوندجر الربط بين الماركسية وبين الكانطية الجديدة والماخية وكتب لينين يقول « في ميدان الفلسفة ، كانت التحريفية تتجرجر في أذيال « العلم » البورجوازي الاستاذي*

لقد سعى المحرفون الى فصل نظرية ماركس الاقتصادية ونظرية الشيوعية العلمية عن المادية التاريخية والى تشويهها بروح المادية المبتذلة مكملين » ماركس بالكانطية الجديدة والماخية

ونشرت مقالات مبررة بصورة قذرة بقلم انتقائيين ومثاليين في **نيوزيت**، الصحيفة النظرية للاشتراكيين الديموقراطيين الالمان وبالخاصة في الصحيفة **فورفارتس ،** وكانت كلتا الصحيفتان مؤيدتين حازمتين للكانطية الجديدة ومناوئتين للمادية

وكثيرا ما لم تكن الصحافة الاشتراكية الديموقراطية تجد متسعا للكتابات المدافعة عن الفلسفة الماركسية ضد التشويهات المثالية والتعميمية وهكذا لم تنشر **فورفارتس** مقالة بقلم بليخانوف بعنوان « الرفيق بول ارنست والفهم المادي للتاريخ » تنقد التشويهات المثالية للمادية التاريخية

وفي أواسط التسعينات حاولت البورجوازية الروسية أيضا أن تخضع حركة الطبقة العاملة لمصالح المجتمع البورجوازي وتكيفها معها فسعى بعض «الماركسيين الشرعيين من نمط ستروفه وتوغان — بارانوفسكي وبولغاكوف الى مراجعة الماركسية وفلسفتها لقد كانت « الماركسية الشرعية » نوعا من التحريفية الاممية.

ونهض « الماركسيون الشرعيون » ، في ميدان الفلسفة ، ضد المادية الفلسفية

---

* [ لينين ، **المؤلفات الكاملة** ، المجلد الخامس عشر ص ٢٣ ] .

الماركسية والجدلية المادية اللتين عارضوهما بالمثالية الكانطية الجديدة وبنظرية التطور المبتذلة ولينين الذي سمي الآراء الفلسفية للماركسيين الشرعيين بالانتقائية يعتبرها انعكاسا مباشرا للفلسفة البورجوازية في ذلك الحين

ان سروفه وبرنستاين وغيرهما من التحريفيين قد تأثروا حتى درجة كبيرة خطا فلاسفة كانطيين جددا من امثال ريل وسيمل وستاملر ورددوا افتراءاتهم على الماركسية وكما كتب ناومان ، هذا العدو اللدود للماركسية في صحيفة داي هايلف « لا تقول برنشتاين في نقده للماركسية شيئا باستثناء ما تردد كثيرا في الحلقات القومية الاجتماعية وهو يقول هذه الاشياء جميعا بحذق وبصورة بالغة الجودة لكن الامر الهام في المحل الاول هو انه هو بالذات قائل هذه الاشياء فاذا نحن قلنا ذلك فان عدوا هو قائله اذن واذا قال هو الشيء نفسه فهذا القول يصدر عن رفيق اذن

لما ما كانت هجمات التحريفيين ضد نظرية الماركسية لا تصادف اية مقاومة جدية ضمن الاممية الثانية وان ماركسيين ثوريين مثل بول لافارغ وولهم ليبكنخت وفرانز مهرنغ قد استهانوا بخطر الاتجاه التحريفي وعلى الاخص نضال برنشتاين ضد المادية الماركسية ، وكان بول لافارغ ميالا الى اعتبار « نقد » برنشتاين للماركسية نتيجة لاعيائه الفكري كما تحدث ولهلم ليبكنخت عن البرنشتاينية من حيث هي اتجاه فكري لا يمكن اخذه بعين الاعتبار وفي رأي فرانز مهرنغ لم تكن التحريفية وليدة الشروط الاجتماعية والتاريخية لتطور حركة الطبقة العاملة ، فهو يقول لم تكن التحريفية قط اكثر من مزاج في المانيا

كانت الاورثوذكسية الرسمية في الحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني هي الخلافات داخل الحزب بأسرع وقت ممكن ولم تكن هجوم كاوتسكي على ين عملا طوعيا بل نتيجة لضغط الاشتراكيين الديموقراطيين العاديين.

وفيما عدا ذلك فان تأثيرا كبيرا بهذا الصدد مارسته مقالات بليخانوف السجالية في نيوزيت ، الموجهة ضد كونراد شميدت وبرنشتاين وكذلك نقد التحريفية الصادر عن اعضاء من الجناح اليساري للاشتراكية الديموقراطية الالمانية

وفي هذه الشروط كان لدفاع بليخانوف الحازم عن الاسس العلمية للنظرة الماركسية الى العالم والطريقة الجدلية اهمية عظيمة في المبدأ ، بالنسبة الى حركة الطبقة العاملة الاممية فأصبحت كتاباته معروفة جيدا في أوروبا الغربية ولعبت دورا هاما في فضح التحريفية على اعتبارها ايديولوجية بورجوازية في صفوف حركة الطبقة العاملة لقد نهض بليخانوف ضد هؤلاء الاعداء الجدد للماركسية في حركة الطبقة العاملة ليس في الصحافة وحدها بل كذلك في محاضرات كان جمهورها كبيرا على الدوام في فرنسا وسويسرا واماكن اخرى وكانت كتاباته تستهدف الحيلولة دون تغلغل النظرة البورجوازية الى العالم في حركة الطبقة العاملة . واما يعلق

بليخانوف اهمية كبرى على التثقيف النظري للطبقة العاملة وطليعتها الاشتراكيـة الديموقراطية تقول بدون نظرية ثورية لا وجود للحركة الثورية بالمعنى الحقيقي للكلمة* ولقد ادرك الاهمية الهائلة التي تتسم بها المادية الماركسية في نشر افكار الاشتراكية العلمية في روسيا وفي دحض آراء خصومها ، فكتب يقول منذ عام ١٨٩٢ ان الرجعية الظافرة تتنكر في بلادنا فيما تتنكر بزي فلسفي ولسوف يضطر الاشتراكيون الروس الى اخذ هذه الرجعية الفلسفية بعين الاعتبار وبالتالي دراسة الفلسفة**

ان كتابات بليخانوف العائدة الى النصف الثاني من التسعينات والسنوات الاولى من القرن الحالي حتى عام ١٩٠٣ والمشتملة في هذا المجلد ذات اهمية خصوصية في النضال ضد الرجعية الفلسفية والتحريفية الفلسفية وتتضمن هذه الاعمال نقدا للفلسفة الكانطية الجديدة ، والفهم المثالي للتاريخ ونظرية العوامل الانتقائية و المادية الاقتصادية والتطورية المبتذلة عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع البورجوازيين الرجعيين ، وكذلك لاشكال متنوعة من تصحيح المادية الجدلية والتاريخ على يد الماركسيين الشرعيين وانصار برنشتاين ومن لف لفهم وتشكل هذه الاعمال اسهاما قيما في تاريخ الفلسفة الماركسية

والمقالات المتضمنة في هذا المجلد من **المؤلفات الفلسفية المختارة** لبليخانوف تنقسم حسب مضمونها الى ثلاث مجموعات تشتمل المجموعة الاولى منها على الكتابات التي تميط اللثام عن الرابطة الباطنة بين المادية الماركسية الحالية والمادية السابقة وتقدم تحليلا لافكار الماديين الفرنسيين ، مع تشديد خاص على الثورة التي حققتها الماركسية في ميدان الفلسفة وتتشكل المجموعة الثانية من مقالات تقيم الدليل على الفهم المادي للتاريخ في خضم النضال ضد الايديولوجيين البورجوازيين اما المجموعة الثالثة فتشتمل على مقالات تنقد « نقاد الماركسية من امثال ادوارد برنشتاين وكونراد شميدت وبيوتر ستروفه وغيرهم من التحريفيين

وكتابات بليخانوف المنشورة في هذا المجلد ضد التحريفية الفلسفية يمهد لها عمله البارز **دراسات في تاريخ المادية** الذي يقدم نظرة تاريخية فلسفية ممتازة عن تطور المادية الفرنسية ويكشف بصورة حية عن دورها في تاريخ الفلسفة ويصف الدور الذي لعبته مادية ماركس من حيث هي الانجاز الاسمى للفلسفة المادية ان كتاب بليخانوف **دراسات في تاريخ المادية** ، مثله كمثل اعمال عديدة اخرى له ، يظهره من حيث هو مؤرخ ماركسي بارز للفلسفة ويشير لينين ايضا في نقده المراجعة الكانطية الجديدة للماركسية الى هذا الكتاب على اعتباره مؤلفا ماركسيا يتضمن

* [ بليخانوف المؤلفات الفلسفية ، المجلد الاول ، منشورات دار دمشق ص ٤٤ ]

** [ المصدر نفسه ، ص ١٢٧ ]

عرضا منهجيا وقيما للمادية الجدلية ويبين انها الحصيلة المنطقية والحتمية للتطور الاحدث للفلسفة وغيرها من العلوم الاجتماعية

وكان صدور كتاب بليخانوف **دراسات في تاريخ المادية** مناسبا على أفضل وجه ابان النضال ضد الرجعية والمراجعة الكانطية الجديدة للماركسية ولقد شدد بليخانوف على ان مؤرخي الفلسفة البورجوازيين من امثال يوبرفيغ ولانج وغيرهما يشوهون تاريخ المادية ، ويقدمون أحكاما مزورة عنها ، ويحاولون أن يفسروا بصورة خاطئة مادية ماركس الجدلية في زمنهم وكانت هذه الاوضاع نموذجية في روسيا أيضا حيث كانت المجلة الرجعية **مسائل الفلسفة وعلم النفس** مثلا التي تأسست عام ١٨٨٩ تطعن في المادية الفلسفية ، بما فيها المادية الروسية في القرن التاسع عشر

وحين انتقدت **دراسات** بليخانوف مزوري تاريخ المادية طرحت المبادىء الاساسية لنظرية الماديين الفرنسيين وقدمت تحليلا مفصلا وعميقا لآرائهم الاجتماعية السياسية ويبين بليخانوف هنا تقدمية النظرة الى العالم لدى دولباخ وهيلفيتيوس التي كانت تتفق من جهة واحدة مع الشروط الاجتماعية للبورجوازية الفرنسية التي كانت ثورية وقتذاك وتتفق من جهة ثانية مع المستوى الذي بلغه العلم خلال تلك المرحلة

وبين بليخانوف في دراسته النقدية لآراء الماديين الفرنسيين المحدودية المحتومة تاريخيا لنظرة المادية الفرنسية ، وطابعها الميتافيزيائي ، وعجزها عن تفسير قوانين التطور الاجتماعي تفسيرا صحيحا لقد كان الماديون الفرنسيون عاجزين عن القضاء على التناقضات في تصورهم عن التاريخ الذي كان ينادي بأن آراء الناس مرهونة بالبيئة الاجتماعية وبأن هذه البيئة الاجتماعية مرهونة بآراء الناس لقد كانوا عاجزين عن اكتشاف القوانين التي تتحكم في الحياة الاجتماعية الانسانية ، فسقطوا في تأملات غامضة ومختلطة عن صفات الطبيعة الانسانية من حيث هي سبب التطور الاجتماعي ، وقد نهضوا في تفسيراتهم للظواهر الاجتماعية يؤيدون المذهب الطبيعي.

وتبين دراسة بليخانوف عن ماركس أن تطور الفلسفة أغنى المادية بالطريقة الجدلية التي هي الانجاز العظيم للفلسفة الهيغلية ومهما يكن من شيء ، فان طريقة هيغل الجدلية قد أعيد صهرها بصورة جذرية من قبل ماركس الذي قدم مع انجلز نقدا عميقا للمثالية الهيغلية وكتب بليخانوف في وقت لاحق يقول « ان **الفهم المادي** للطبيعة **يقوم في أساس جدليتنا** ، وهو ينهض على أساسها ، ولا بد أن ينهار اذا قدر للمادية السقوط

ويشدد بليخانوف على الاهمية الاستثنائية للطريقة الجدلية الماركسية التي كان ابداعها ثورة في العلم الاجتماعي ، وقد كان محقا حين قال في خطاب بعنوان

آراء كارل ماركس الفلسفية والاجتماعية ما يلي « كان ظهور فلسفة ماركس المادية ثورة حقيقية الثورة الاعظم في تاريخ الفكر البشري* »

وبرهن بليخانوف على الاستمرارية التاريخية بين الماركسية والفلسفة التقدمية والعلوم الاجتماعية في الماضي مثبتا ان الماركسية هي الحصيلة المنطقية لقرون من تطور الفكر الانساني وقد قضت على التناقضات الملازمة للفكر النظري السابق

وقدم بليخانوف في كتاباتــه عرضا لامعا عن الفهم المادي للتاريخ كما اكتشفه ماركس ونهض يدافع عن مبادئه ، مشددا على الفعالية الهائلة التي تتسم بها النظرية الماركسية هذا المصدر لطاقة غير محدودة لدى البروليتاريا والمرشد لها في نضالها في سبيل التحرر

وعمل بليخانوف الشيء الكثــير للكشف عن الروابط بين النظرية الماركسية ونشاطات البروليتاريا العملية ، مبينا فعالية هذه النظرية ، ومسميا المادية الجدلية « **فلسفــة الفعــل** » .

وقدم بليخانوف في دفاعه عن النظرية الماركسية عن المادية التاريخية مجموعة جديدة من الحجج وشدد على مظاهر جديدة في هذه النظرية عولجت من قبل بصورة ناقصة في الادبيات الماركسية انه يعتبر الفهم المادي للتاريخ طريقة علمية تؤول الى تقرير الحقيقة في مجال الظواهر الاجتماعية لكنها ليست في حال من الاحوال مجموعة تقرير الحقيقــة في مجال الظواهر الاجتماعية ، لكنهــا ليست في حال من الاحوال مجموعة من الاستنتاجات الروتينيــة كل من يريد أن يبين انه نصير جدير بهذه الطريقة يجب الا يقتصر على الترديد البسيط بأنه ليس الوعي هو الذي يقرر الوجود بــل الوجود هو الذي يقرر الوعي ؛ ان من واجبــه . على النقيض من ذلك ان يسعى الى فهم كيف يحدث تقرير الوعي بالوجود فعليا وليس مــن سبيل آخر لذلك سوى دراسة الوقائع وتقرير روابطها السببية »

وانتقد بليخانوف بصورة جامعة «نظرية العوامل» التي تستخدمها البورجرازية في نضالها ضد الفهم المادي للتاريخ فحين يصف في مقالتــه الرائعة التي تحمــل عنوان « في الفهم المادي للتاريخ ( ١٨٩٧ ) الموضوعات الاساسية للمادية التاريخية يورد هذه الملحوظة الثاقبة عن « نظرية العوامل انــه يتبين ان العوامل » التاريخية مجرد تجريدات ، فاذا ما تبدد ضبابها اتضح ان البشر لا يخلقون تواريخ متعددة ومنفصلة ــ تاريخ القانون ، والاخلاق ، والفلسفة ، وهكذا دواليك ــ بــل يخلقون تاريخا وحيدا لعلاقاتهم الاجتماعيــة الخاصة التي تحددها حالــة القوى المنتجة في كل مرحلة معينة **ان ما نسميــه الايديولوجيات هو مجرد الانعكاسات**

---

* [ انظـر ص ٤٢٥ من هــذا المجلد ]

متعددة الاشكال في ذهن البشر لهذا التاريخ الواحد وغير المنقسم* »

بليخانوف بصواب تام ، في تقريره الطبيعة الانتقائية « لنظرية العوامل ».
الى ان الرابطة بين الظواهر في المجتمع مفهوم بصورة أعمق من الجدلية التي تتطلب التحقق من اسس التقدم التاريخي والارتفاع فوق وجهة نظر التفاعل البسيط.

ويشير الى ان التفاعل بحد ذاته لا يفسر شيئا على الاطلاق بحيث ان كل اشارة اليه هي مجرد التهرب من اي جواب ان الامر الضروري هو التحليل العلمي لهذا التفاعل وهو التحليل الذي قاد ماركس الى تقرير حقيقة لا جدال فيها تثبتها ممارسة الحياة باجمالها ان اسس علاقات البشر الاجتماعية قائمة على القوى المنتجة التي يسبب تطورها ثورة في العلاقات بين المنتجين وبالتالي في اجمالي البنية الاجتماعية

ويقدم بليخانوف في مجموعة من المقالات تدافع عن المادية التاريخية نقدا عميقا للمادية الاقتصادية مبينا أن هذه المادية الاقتصادية هي في آخر تحليل نوع من المثالية التاريخية

فقد أخضع بليخانوف لنقد عميق ومتين الاسس موقف اليقينية الملازمة للمادية الاقتصادية وهو موقف ينسبه أعداء الماركسية الى المادية التاريخية ، مشددا على أن الفهم المادي للتاريخ لا يفرض في حال من الاحوال العطالة على انصاره، بل الامر على النقيض من ذلك اذ يخلق وحده اليقين التام والمؤسس علميا بالواجب الذي يفرض على البشر الانخراط في العمل النشيط للاسراع بالتقدم التاريخي فوفقا للمادية الجدلية وحدها العلاقات الاجتماعية في المجتمع الانساني ) علاقات بين الناس وليس في الامكان ان تتم خطوة رئيسية في التقدم التاريخي للجنس البشري دون اشتراك لا الناس فحسب بل عدد هائل من الناس . يعني الجماهير**

ان نقد بليخانوف « للمادية الاقتصادية قد آل به الى الاستنتاج بأن انصارها في العلوم التاريخية يجهلون دور الجماهير في التاريخ ولا يستطيعون أن يقدموا أي تفسير لدور البشر النشيط في تنمية القوى المنتجة وفي التبدلات في الحياة الاجتماعية ؛ انهم يسقطون في المثالية حين يحاولون تفسير أسباب التطور التاريخي. وحين يبين بليخانوف الطبيعة الفاعلة التي تتسم بها نظرية ماركس وانجلز يشير الى انه « في نظرية هؤلاء وفي هذه النظرية وحدها يعني في الجدلية المادية وحدها ، ينعدم أي أثر للتعصب***

---

* [ انظر ٢٥٦ من هذا المجلد ]

** [ انظر ص ٢٠٥ من هذا المجلد ]

*** [ انظر ص ٢٢٣ من هذا المجلد ]

ويؤكد بليخانوف في نضاله ضد المثالية و المادية الاقتصادية » المبتذلة ، وذلك بصورة مفصلة ومن مختلف وجهات النظر على تطور الايديولوجيات المستقل نسبيا وعلى القوة التي لا تغلب التي تتصف بها الافكار التقدمية في التقدم التاريخي كما يؤكد على الفعل الانعكاسي للافكار على قاعدة المجتمع الاقتصادية انه يشير الى انه حين يتفق فكر الطبقة التقدمية مع مصالحها الاقتصادية الفعلية يكشف عن فهم صحيح لمجرى التاريخ الفعلي ويعبر عنه بصورة مضبوطة

وفي استعراضه كتابا ماركسيا قيما بقلم لابريولا عن المادية التاريخية ، حيث يقدم بليخانوف المبادىء الاساسية للفهم المادي للتاريخ ينتقد بصورة سديدة موضوعات المؤلف الفردية المغلوطة عن دور الخصائص العرقية في تطور الايديولوجيات التاريخي ، وينتهي الى النتيجة بأنه لدى تطبيقها على الشعوب التاريخية ، فان « كلمة عرق لا يمكن ولا يجوز ان تستخدم بخصوصها بصورة عامة فنحن لا نعرف شعبا تاريخيا واحدا يمكن تسميته شعبا خالص العنصر ، بل كل شعب من هذه الشعوب حصيلة التهجين والتصالب الطويلين والشديدين لعناصر اثنية متنوعة

وفي هذه الحال كيف يستطيع المرء ان يحدد اثر العرق » في تاريخ الديولوجيات أي شعب كان* »

وفي مقالات كتبت في التسعينات وفي السنوات الاولى من هذا القرن ، وفيها ينتقد بليخانوف نظريات مناوئة للماركسية ، يركز انتباهه على شرح آراء ماركس وانجلز المادية عن التطور التاريخي والدفاع عنها ويحلل أسباب تطور المجتمع وهو يؤكد على الطبيعة الموضوعية لسبل التقدم التاريخي الخاضعة للقوانين ويعرف بليخانوف القارىء بعبارات نافذة بالموضوعات الاساسية في مقدمة ماركس لكتابه **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** . الا وهي أن العلاقات الاقتصادية بين الناس رهن بحالة القوى المنتجة التي تقرر بصورة مباشرة المؤسسات والآراء القانونية والسياسية والفن والعلم وهلم جرا

ولقد تأثر بليخانوف خطا ماركس في وسم البنية الفوقية السياسية والقانونية والاشكال المختلفة للوعي الاجتماعي وفي الكشف عن اهميتها في تطور حياة المجتمع الاقتصادية فكتب يقول أن تطور الانسانية التاريخي يتسم بانعطافات ذات اهمية عظيمة ونائفة ومهما نكن من شيء ، فان هذه الحركة « **لا تحدث قط على صعيد الاقتصاد وحده** فالانتقال من النقطة ب الى النقطة ج ، ومن النقطة ج الى النقطة د ، وهكذا دواليك ، يتطلب كل مرة انتفاضة في البنية الفوقية » وحدوث بعض التبدلات فيها ولا يمكن بلوغ نقطة مرغوب بها الا بعد حدوث مثل هذه التبدلات.

---

* [ انظر ص ٢٤٣ من هذا المجلد ]

ان الطريق من نقطة انعطافية الى نقطة انعطافية اخرى تمر « بالبنية الفوقية » دائما فالاقتصاد لا يستطيع على وجه التقريب ان ينتصر بنفسه قط ولا يمكن ان ينال عنه قط fara da se لا ابدا من تلقاء نفسه بل دائما بواسطة البنية الفوقية وحدها ، دائما من خلال بعض المؤسسات السياسية ومن خلالها وحدها .

علام تتمحور المؤسسات السياسية لاي بلد معين ؟ اننا نعرف من قبل انها تعبر عن العلاقات الاقتصادية ومهما يكن من شيء . فلا بد لهذه المؤسسات السياسية المستدعاة اقتصاديا من المرور اولا بهدف ذلك التعبير العملي بأذهان الناس في صورة مفاهيم معينة وهذا هو السبب في ان الانسانية لا تستطيع في تقدمها الاقتصادي ان تنتقل قط من نقطة انعطافية الى اخرى دون ان تجتاز اولا ثورة كاملة في مفاهيمها* » .

ويتأثر بليخانوف خطا ماركس وانجلز ويطور آراءهما عن الدور الفاعل الذي تلعبه الافكار في حياة المجتمع ، مؤكدا على أن الماركسية وحدها وهي التي فهمت المصدر الذي تنبع الافكار منه ، تدرك بصورة سديدة القوة الاجتماعية العريضة التي تتحلى بها الافكار التقدمية في تبديل العلاقات الاجتماعية

وحين يحلل بليخانوف نمط الانتاج على اعتباره قاعدة المجتمع وتطوره يشدد على المنطق الباطن لنمو القوى المنتجة والدور الفعال للعلاقات الانتاجية فتطور نمط الانتاج هو الذي يقرر امكانية وحدود التأثير الذي تمارسه المظاهر الاخرى الخاصة بالشروط المادية للحياة الاجتماعية ، وعلى الاخص مظهر البيئة الجغرافية

وعلى اي حال ، فان بليخانوف ينحرف احيانا ، في دعايته لموضوعات النظرية الماركسية عن المادية التاريخية ، عن هذه النظرية في معالجته أسباب تطور القوى المنتجة فكتاباته تتضمن بعض الاحكام المتناقضة في هذا الشأن وبعض المبالغة في الدور الذي تلعبه البيئة الجغرافية في تطور المجتمع حيث يؤكد احيانا أن تطور القوى المنتجة رهن بخصائص البيئة الجغرافية

ويعبر بليخانوف في مقالة بعنوان « في الفهم المادي للتاريخ » عن موضوعة مغلوطة بخصوص أصل الدولة وماهيتها ، معلنا بشأن بيان لابريولا عن أن الدولة هي السيادة المنظمة لطبقة على طبقة أخرى بأن تلك ليست الحقيقة الكاملة زاعما أن قيام الدولة في اليونان يجب أن يعزى حتى درجة كبيرة الى الحاجة الى التقسيم الاجتماعي للعمل ولا تقدم كتاباته اي تحليل مفصل للفهم المادي للدولة من حيث هي تنظيم قسري لسيطرة الطبقة الواحدة على الطبقة الاخرى ، تنظيم من أجل قمع الطبقات المضطهدة ؛ انه لا يفعل سوى الاتيان بصورة عابرة على ذكر هذه الوظيفة الداخلية الرئيسية للدولة في مجتمع تناحري

---

* [ انظر ص ٢٠٧ – ٢٠٨ من هذا المجلد ]

وتتسم كتابات بليخانوف في مناقشة مسألة دور الفرد في التاريخ بأهمية خصوصية فمقالته « في مسألة دور الفرد في التاريخ ( ١٨٩٨ تشكل أحد العروض الاروع في طرح هذه القضية بصورة علمية في الادبيات الماركسية للقرن التاسع عشر

ويحاول بليخانوف دائما ان يعالج هذه المسألة في جميع مظاهرها ، مع التسديد بصورة خصوصية على الامور التالية ١ — الفرد والضرورة ؛ ٤ — الفرد ومجرى التطور التاريخي الخاضع للقوانين ٣ — الفرد والمصادفة التاريخية ؛ ٤ — الفرد وتطور القوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية ؛ ٥ — الدور الفعال للفرد في تطور الاحداث التاريخية

وفي هذه المقالة ذات المضمون العميق جدا والشكل البارز أقام بليخانوف الدليل على صحة الحل الماركسي لقضية دور الفرد في التاريخ وقدم اعتبارات نظرية بالغة الاهمية وجمهرة من الحقائق المسخصة ودحض بذكاء متألق الآراء السوسيولوجية التي ينادي بها الكانطيون الجدد من أمثال سيمل وسساملر ولقد عالج بليخانوف بعمق الموضوعة الماركسية عن العلاقة بين الحرية والضرورة ، مؤكدا على أن نشاطات الفرد الحرة هي تعبير حر وشعوري عن الضرورة ان وعي الضرورة يجعل الفرد قوة اجتماعية هائلة ، وهو السبب في أن « وعي الضرورة المطلقة لظاهرة معينة لا يمكن الا ان يشدد من طاقة الانسان الذي يتعاطف مع هذه الظاهرة ويعتبر نفسه احدى القوى التي كانت سببا في قيامها*

وكائنا ما كان نفوذ اي فرد فانه لا يستطيع ان يغير المنحى العام للتطور التاريخي ، لكنه يستطيع بفضل ما يتسم به ذهنه وخلقه من صفات فردية أن يعدل بعض الخصائص المفردة للاحداث والبعض من عواقبها الخصوصية وفضح بليخانوف زور العبادة البورجوازية للشخصية ، مشيرا بصواب تام الى أن « كل موهبة تصبح **قوة اجتماعية هي نتاج العلاقات الاجتماعية**** » .

وحلل بليخانوف في الوقت نفسه دور الافراد البارزين الذين هم احد بصيرة واشد حوافز من سواهم ، وبالتالي يساعدون في انجاز المهام التاريخية التي يطرحها التقدم التاريخي الخاضع للقوانين ان في مكنة الفرد البارز ان يمارس تأثيرا ايجابيا ومعجلا أو سلبيا ومؤخرا في مجرى التطور التاريخي

وفي عام ١٨٩٨ نهض بليخانوف بنجاح عظيم ضد التحريفية في صفوف الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان وهو عمل امتد أثره الى أبعد من الاشتراكية الديموقراطية الالمانية وكان مرحلة هامة في نضال الماركسية ضد الفلسفة البورجوازية واثرها في الحركة العالمية للطبقة العاملة

---

* [ انظر ص ٢٩٥ من هذا المجلد ]

** [ انظر ص ٣١٥ من هذا المجلد ]

وكان لينين يقدر تقديرا ايجابيا مقالات بليخانوف ضد برنشتاين وكونراد شميدت وهو نقدم الملحوظة التالية في رسالة الى أ ن بوتريسوف بتاريخ ٢٧ حزيران ١٨٩٩ قرات بسرور بالغ واعدت قراءة **دراسات في تاريخ المادية** كما قرات المقالات التي كتبها المؤلف نفسها في **نيوزيت** ضد برنشتاين وكونراد شميدت **نيوزيت** العدد الخامس ، ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ ؛ اما الاعداد الاخيرة فلم أطلع عليها وقد قرات كتاب ستاملر ( Wirtschaft und Recht ) الذي امتدحه الكانطيون عندنا ( ب ستروفه وبولغاكوف ) بصورة فائقة ، وأنا انحاز بصورة جازمة الى جانب الاحادي*

ويسدد لينين في مقالة بعنوان برنامجنا كتبها من أجل **صحيفة العمال** ( ١٨٩٩ ) على أن بليخانوف كان محقا تماما في نقده النافذ لبرنشتاين

ويدين بليخانوف الرضا عن الذات واللامبالاة حيال الفلسفة المادية وهما صفتان كانتا واسعتي الانتشار بين قادة الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان واحزاب عديدة اخرى تنتسب الى الاممية الثانية . وفي رسالة الى اكسيلرود بتاريخ ١٢ شباط ١٨٩٨ يعبر عن دهشته لسلوك كاوتسكي الذي لم يقتصر على الصمت بل سمح بظهور مقالات مناوئة للماركسيين بقلم بعض التحريفيين في **نيوزيت** ، ويكتب يقول مؤكدا على أن مقالات برنشتاين تعني التخلي التام عن التكتيك الثوري وعن الشيوعية اود ان أسأل كاوتسكي عن رايه في هذه الامور جميعا ومهما يكن من شيء فما أسرع ان ادرك ان كاوتسكي يعارض اية افعال وتدابير حازمة ضد برنشتاين وانصاره ، وما أكثر ما طلب من بليخانوف أن يخفف من حدة بياناته ضد التحريفيين وفي رسالة بتاريخ الرابع من حزيران ١٨٩٨ كتب كاوتسكي الى بليخانوف ما يلي « أود فقط أن أطلب منك السماح لي بالتخفيف من شكل بعض هجماتك الشخصية ضد برنشتاين وكونراد شميدت »

ان مراسلات بليخانوف ـ كاوتسكي تبين ان بليخانوف كان راغبا في حفز كاوتسكي على توجيه نقد حازم الى التحريفيين واساتذتهم البورجوازيين من امثال ج وولف وبهذا الصدد فان رسالته الى كاوتسكي بتاريخ العشرين من أيار ١٨٩٨ ذات أهمية بالغة ،حيث طلب فيها ما يلي « أيمكن أن تكون على اتفاق معبرنشتاين؟ ان مثل هذا الاعتقاد سوف يسبب لي الما كبيرا لكن اذا لم نكن الامر كذلك ، فلماذا لا ترد عليه

وفي واقع الامر ، فقد منع كاوتسكي نشر مقالات بليخانوف في **نيوزيت** ، وعبر في وقت لاحق عن الاسف لان بعض هذه المقالات ظهرت فيها

---

* [ لينين ، **المؤلفات الكاملة** ، المجلد الرابع والثلاثون ، ص ٤٠ ويقصد لينين «بالاحادي» بليخانوف مؤلف كتاب **تطور النظرة الاحادية عن التاريخ** ]

ولما كان بليخانوف على قناعة راسخة بأن التحريفية الفلسفيــة تلحق ضررا هائلا بحركة الطبقة العاملــة ، فقــد عني جدا بالنضال ضد برنشتاين وأنصاره من الان فصاعدا سوف تكون هذه حربا شاملة ، ومن واجبنا ان نتسلح لهــا

وحتى قبل ان تنشر مقالاته في نيوزيت القى بليخانوف محاضرة في جنيف ، في ربيع عام ١٨٩٨ بعنوان « في الازمة المزعومة في الماركسية ، انتقد فيها التحريفية الفلسفية واعطى في الوقت نفسه تقديرا سياسيا للصدام المناوىء للماركسية بين الليبراليين البورجوازيين والتحريفيين وكان بليخانوف على حق تام في التأكيد على ان الايديولوجيــين البورجوازيين من امثــال برنتانو و وولف وسكولتزه ـ غافرنيتز وضعوا ، بنقدهم للماركسية ، الاسس من أجل الآراء التحريفية ، وعلى الاخص آراء برنشتاين

وفي تموز ١٨٩٨ نشرت نيوزيت مقالا لبليخانوف بعنوان « برنشتاين والمادية »، وفي تشرين الاول من السنة نفسها نشرت مقالا آخر ضد كونراد شميدت وجاءت بعد ذلك مجموعة من المقالات الاخرى

ولقد أماط بليخانوف اللثام ، في نضاله ضد التحريفية الفلسفية لبرنشتاين وشميدت واشباههما ، عن الاهمية الاجتماعية والسياسية التي تتصف بها جاذبية الكانطية الجديدة بالنسبة الى الايديولوجيين البورجوازيين ، كما يتصف بها نضالهم ضد المادية ، فكتب يقول ان نفور البورجوازية من المادية وتفضيلها لفلسفة كانط يمكن تفسيرهما جيدا بحالة المجتمع الراهن فالبورجوازية ترى في مذهب كانط سلاحا روحيا جبارا في النضال ضد المطامح الاولية للطبقة العاملة*

وتحدث بليخانوف عن محاولات كونراد شميدت التي لا جدوى منها في سبيل اسقاط اعتبار النقد الموجه الى الكانطية من جانب ماركس وانجلز مستكملا نقده المنطقي لفلسفة كانط واحدث اتباعه باظهار الجذور الطبقية لهذه الفلسفة

لقد بين بليخانوف في نقده آراء برنشتاين وشميدت الفلسفية ، أن الماديــة والمثالية الكانطية غير قابلتين للاتفاق مطلقا وعمم الموضوعات التي قدمها مؤسسا الماركسية عن أوليــة المادة وعن طبيعــة الشعور الثانوية وعن موثوقية المعرفة وعن دور نشاطات البشر العملية في عملية المعرفة

وحاول بليخانوف دون نجاح ان ينشر في نيوزيت مقالا بعنوان النفاق ضد كانط أو ارادة الهر برنشتاين ووصيته ، وهو مقال يدافع عن الجدليــة المادية ولقد كتبت هيئة تحرير نيوزيت ، في هامش لمقالة بليخانوف « المادية أم الكانطية ، ما يلي قررنا وقف المناقشة في هذا الموضوع نظرا لضيق المكان من جراء وفــرة المواد التي تلقيناها وهكذا اوقف كاوتسكي نشر مقالات بليخانوف ضد التحريفية.

* [ انظر ص ٣٦٩ من هـذا المجلـد ]

وقد نشرت مقالته « النفاق ضد كانط » عام ١٩٠١ في **زاريا** ( **الفجر** ) ، **وهي المجلة** النظرية للماركسيين الروس التي كان لينين **يصدرها**

لقد دافع بليخانوف في نضاله ضد التحريفيين عن الطريقة الجدلية الماركسية وفضح ميتافيزياء التحريفيين وسفسطتهم وأوضح المبادىء الاساسية للجدلية والمادية وأعطاها شكلا مشخصا مشددا على مضمونها الثوري

ولقد انتقد التطورية المبتذلة في تطبيقها على التطور التاريخي ونادى بموقف جدلي في دراسة التاريخ وكان يرى في الجدلية الماركسية جبر الثورة وتجسيدا عميقا للجيشانات الثورية في المجتمع وحسب تعبيره فان انكشاف الحقيقة **المشخصة من حيث هي نتيجة دراسة جامعة للخصائص الفعلية لاي موضوع هو** احدى الصفات المميزة للجدلية

وجنبا الى جنب مع دفاعه عن المادية الفلسفية والجدلية الماركسية ردّ بليخانوف الهجمات التحريفية ضد المادية التاريخية وبين أن الفهم المادي للتاريخ هو التأويل العلمي الاوحد لهذا التاريخ

لقد انتقد برنشتاين لرفضه النظرية الماركسية عن الصراع الطبقي والثورة فكتب يقول فاذا كان الهر برنشتاين رفض **المادية** تحاشيا لتهديد احدى المصالح الايديولوجية للبورجوازية المعروفة باسم **الدين** ، فان رفضه **الجدلية** نجم عن احجامه عن اخافة البورجوازية نفسها « **بأهوال ثورة عنيفة*** » .

وكانت هجمات بليخانوف ضد التحريفية الفلسفية ذات اهمية فائقة في الدفاع عن الفلسفة الماركسية وفي تقوية تأثيرها في الحركة الاممية للطبقة العاملة

وعلى الرغم من أن بليخانوف انتقد التحريفيين من موقف المادية الجدلية الحازمة فان كتاباته لم تخل من بعض الاخطاء

فقد قدم بعض التنازلات للادرية في بعض مسائل نظرية المعرفة وهكذا أعطى صياغة خاطئة لعدم قابلية ماهية المادة للمعرفة وذلك في مساجلته مع برنشتاين وشميدت** وفي مقالة بعنوان المادية مرة اخرى ١٨٩٩ قدم من جديد بعض الموضوعات بروح « نظرية الهيروغليفات التي تشكل تنازلا للادرية

وبالرغم من بعض الاخطاء والنقائص في نقد بليخانوف للتحريفية فقد كانت هجماته ضد المثالية الكانطية و الماركسيين الشرعيين والبرنشتانيين احداثا بارزة في حياة الاشتراكية الديموقراطية الثورية

ففي رسالة مفتوحة الى كاوتسكي بعنوان « علام يجب ان نشكره ؟ » نشرت في **Sächsische Arbeiterzeitung** وكانت دفاعا عن اشتراكية ماركس العلمية كتب

---

* [ انظر ص ٣٧٣ من هذا المجلد ]

** [ انظر ص ٣٢٥ – ٣٢٦ من هذا المجلد ]

بليخانوف يقول ان المسألة هي في الوقت الحاضر « من يجب ان يدفن من - ما اذا كان برنشتاين سوف يدفن الاشتراكية الديموقراطية ام ان الاشتراكيــة الديموقراطية سوف تدفــن برنشتــاين* » ولقــد برهــن علــى أن برنشتــاين يتأثــر خطــا العلماء البورجوازيين في رفضهم نظرية ماركس عن الشيوعية العلمية وعلى أن حجج التحريفيين المبتذلــة لا تتضمن شيئا لم يقدمــه من قبل خصوم الماركسيــة البورجوازيــون .

وان الخطاب البغيض الذي القــاه كاوتسكي في مؤتمر الحزب في شتوتغارت دفاعا عن برنشتاين قد أثار الاستياء لدى الفئة الثورية من الاشتراكية الديموقراطية الالمانية والتأييد من جانب الانتهازيين

وكان لبليخانوف نفــوذ ملحــوظ علــى العناصر اليساريــة في الاشتراكيــة الديموقراطيــة الالمانيــة اذ أعقبــت مقالاتــه في نيوزيت مقالات ضــد برنستاين والتحريفيين الآخرين بقلم فرانز مهرنغ الذي عبر عن تضامنه مع آراء بليخانوف

وطالب بليخانوف بطرد برنشتاين من الحزب الاشتراكي الديموقراطي وفي عام ١٩٠٢ كتب مايلي في ايسكرا معارضا موقف المصالحة حيال التحريفيين ان المعجبين الامميين « بالموقف الودي في المساجلة » عاجزون عن فهم الحقيقة التالية وهي ان « الاورثوذكسيين » ليســوا في الجوهر في حال من الاحــوال أصدقــاء للتحريفيين ، بل ينبغي لهم أن يشنوا نضالا قاتلا ضدهم ، هذا اذا كانوا راغبين عن خيانة قضيتهم الخاصة

لقد كان نقد بليخانوف للتحريفيين عاملا هاما في نضال الاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين ضد الانتهازية في الاممية الثانية وكما يقول لينين ، فقد « كان بليخانوف الماركسي الوحيد في الحركة الاشتراكية الديموقراطية الاممية الذي انتقد السفاهات المعقولة للتحريفيين من وجهة نظر المادية الجدلية الحازمة** »

وفي السنوات الاولى من هــذا القرن اتخذ بليخانوف التدابير اللازمــة لنشر مقالاته النقدية ضد التحريفيين في الصحافة الروسية ، وهو أمر كانت تتطلبه المصالح الحيوية لحركة الطبقة العاملة الروسية ، وذلك بقدر ما لقيت مراجعة الماركسية من جانب برنشتاين تأييــدا تاما ليس لدى « الماركسيين الشرعيين وحدهم وهــم ايديولوجيو البورجوازية الليبرالية ، بل لدى الانتهازيين في حركــة الطبقة العاملــة ايضا أي الاقتصاديين الذين اعلنوا انهم انصار لبرنشتاين وكان الماركسيون الشرعيون قد جعلوا من قبــل يراجعون الماركسية الثوريــة وفق الخطوط التي اتبعهــا في وقت لاحــق برنشتاين وكونراد شميــدت وفي تشرين الثاني ١٨٥٨

* [ انظــر ص ٣٥٥ من هــذا المجلــد ]

** [ لينين ، المؤلفات الكاملــة ، المجلد الخامس عشر ، ص ٣٣ ] .

كتب « الماركسي الشرعي » بولغاكوف الى بليخانوف يقول « أما بخصوص مساجلتك مع شميدت ، فأنت تدرك اني اتخذ موقفا فلسفيا مغايرا لموقفك وبشأن مساجلتك مع برنشتاين في **Sächsische Arbeiterzeitung**، فلا بد لي من اخبارك بكل صراحة اني لست في صفك »

وتشكلت في روسيا جبهة متحدة ضد الاشتراكية الديموقراطية الثورية من الاقتصاديين و الماركسيين الشرعيين » كانت تدافع عن موقف البرنشتاينية وفي ٢١ نيسان ١٨٩٩ كتب بليخانوف الى اكسيلرود يقول :« ان النضال ضد البرنشتاينية في روسيا هو المهمة الاشد الحاحا في الوقت الحاضر فلا بد لنا أن نعارض نفوذ **الماركسيين السلطويين** عندنا بنفوذنا على اعتبارنا **ماركسيين ثوريين**

وبهذا الهدف كتب بليخانوف في السنوات الاولى من القرن العشرين سلسلة من المقالات ضد الماركسيين الشرعيين والاقتصاديين دفاعا عن النظرية الماركسية ففي مقدمة الطبعة الروسية الثانية من **بيان الحزب الشيوعي** ١٩٠٠ وفي مقالاته ضد ستروفه درس بليخانوف القضايا الاهم في النظرية الماركسية وعلى الاخص نظرية النضال الطبقي وفي الوقت نفسه تعمق في الآراء التي اعتنقها أسلاف الماركسية معطيا تقديرا لآراء الاشتراكي الطوباوي سان سيمون والمؤرخين الذين جاؤوا بعد عصر عودة الملكية ، تييري ومينيه وغيزو ومهما يكن من شيء فقد كان بليخانوف في وصفه آراء السابقين لماركس وانجلز يبالغ في المقاربة بينها وبين النظرية الماركسية عن النضال الطبقي دون التشديد الواجب على الفارق النوعي وهكذا كتب ما يلي ان راي ماركس وانجلز في الصراع الطبقي وأهمية السياسة في هذا الصراع وتبعية الدولة للطبقات الحاكمة يماثل آراء غيزو ورهطه من المفكرين عن هذا الموضوع والفارق الوحيد هو أن ماركس وانجلز دافعا عن مصالح البروليتاريا ، بينما دافع الآخرون عن مصالح البورجوازية*

ولقد شدد بليخانوف ، في استعراضه الموضوعات الماركسية الاساسية عن النضال الطبقي ، على أن النضال الطبقي عاقبة عمومية لانقسام المجتمع الى طبقات وعلى أن نضال الطبقة العاملة يقود الى دكتاتورية البروليتاريا التي يتوقف اسلوب تطبيقها ، حسب رايه ، على عدد من الظروف « ولما كان الديموقراطيون الاشتراكيون عاجزين عن التكهن بجميع الظروف التي تضطر البروليتاريا لان تفوز بسيادتها فيها، فهم لا يستطيعون لهذا السبب بالضبط ان يرفضوا **الاسلوب العنيف** في العمل** ».

وقد استغرقت مسائل نضال البروليتاريا الطبقي والثورة الاجتماعية قدرا كبيرا جدا من الاهتمام في مقالات بليخانوف ضد ستروفه التي نشرت للمرة الاولى في **زاريا** في ١٩٠١ — ١٩٠٢

* [ انظر ص ٤٥٢ من هذا المجلد ]

** [ انظر ص ٤٧٢ من هذا المجلد ]

ولقد قام بليخانوف يناهض ستروفه متأخرا حتى درجة ما فقد لاذ بالصمت وامتنع عن اية مساجلة مع ستروفه في اواسط التسعينات حين كان لينين يخوض نضالا حادا ضد « الماركسيين الشرعيين ولم يكن بليخانوف قد هب لمناهضة الماركسية الرجعية » عام ١٨٩٤ حين قدم لينين نقده المفصل لآراء ستروفه البورجوازية الليبرالية ، بل حاول في سياق المساجلة مع النارودنيين ان يدافع عن مؤلف ستروفه **ملحوظات نقدية عن مسالة تطور روسيا الاقتصادية** ، كاشفا عن العجز عن فهم المعنى البورجوازي لشعار ستروفه لنتعلم من الراسمالية وان تحليلا للمراسلات بين « الماركسيين الشرعيين » وبليخانوف يبين انه لم ير فيهم في التسعينات أعداء للماركسية وكان يعتمد على العمل معهم كان يعتبر في ذلك الحين « الماركسيين الشرعيين » حلفاء حازمين للماركسيين الثوريين فيما كان لينين يقول بامكانية الاتفاقات المؤقتة فقط معهم

وحين نفي لينين الى منطقة نائية في سيبريا عبر عن الرغبة في أن تباشر القوى الاشتراكية الديموقراطية الثورية نضالا ضد الكانطية الجديدة التي كان اعداء الماركسية قد بدأوا في استخدامها كأساس فلسفي للنضال ضد الماركسية ، فكتب بهذا الصدد في ايلول ١٨٩٨ يقول اني بالغ الدهشة لان مؤلف **دراسات في تاريخ الماركسية** لم يعبر عن رايه في الادب الروسي ولا يعارض بكل عنفوان الكانطية الجديدة تاركا ستروفه وبولفاكوف يناظران في المسائل النوعية لهذه الفلسفة وكأنها أصبحت مسبقا قسما من آراء التلامذة الروس*

ولم يكن بد لبليخانوف في وقت لاحق ، في مقالاته ضد ستروفه ، من الاعتراف بخطيئته مقررا انه اعتقد بصورة غير صائبة بأن « تنهزم بصورة تدريجية هذه النظرية البورجوازية في آرائه ( آراء ستروفه ) على يد ذلك العنصر من **الماركسية** الموجود فيها**

ونشر بليخانوف تحت تأثير لينين عددا من المقالات ضد ستروفه في السنوات الاولى من هذا القرن

ودفاع بليخانوف في هذه المقالات عن الفهم المادي للتاريخ ، وتطبيق الجدلية المادية على تحليل العلاقات الاجتماعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتصفان بأهمية فائقة بالنسبة الى الحزب الماركسي في روسيا وبالنسبة الى حركة الطبقة العاملة في الخارج

وكما أشار لينين منذ عام ١٨٩٤ ، فقد كانت « الماركسية الشرعية انعكاسا مباشرا للماركسية في الادبيات البورجوازية ، وهي تطورت بمساعدة البرنشتاينية

---

* [ لينين **المؤلفات الكاملة** ، المجلد الرابع والثلاثون ، ص ٢٦ ] .

** [ انظر الصفحة ٤٩٠ من هذا المجلد ]

الى اتجاه بورجوازي ليبرالي نموذجي وكان هجوم برنشتاين على الماركسية مصدر تشجيع كبير للماركسيين الشرعيين الذين أثاروا بدورهم ضوضاء صاخبة في الصحافة بخصوص مسألة البرنشتاينية التي رأوا في ظهورها برهانا على صحة آرائهم التحريفية

وقد لخص ستروفه مراجعته للمذهب الماركسي في مقالته نظرية ماركس عن التطور الاجتماعي التي نشرت عام ١٨٩٩ في المجلة البورجوازية الالمانية **Archiv für soziale Gesetzgebung und Statistik** وهو يصرح في هذه المقالة دون مواربة بأنه كتب مقالته تحت التأثير المباشر لكتيب برنشتاين

ورسمت مقالات بليخانوف الثلاث ضد ستروفه تطور آراء ستروفه المناهضة للماركسية واخضعتها لنقد جامع كاشفة عن الاسس النظرية لما يقوم به ستروفه من مراجعة لنظرية ماركس عن الثورة ، ومنتهية الى الاستنتاج بأن وجهة نظر مدرسة برنتانو البورجوازية تسود في آرائه ان ما يعمد اليه ستروفه من طرح ميتافيزيائي للتناقضات بين القانون والاقتصاد يلف بالالتباس والغموض قضية التناقض بين قوى المجتمع المنتجة وبنيته الاقتصادية

واما ينقد بليخانوف آراء ستروفه المناهضة للماركسية عن ثلم التناقضات في المجتمع الراهن يعارض تأكيداته بوقائع تاريخية تبين أن التطور الاجتماعي يتحقق بواسطة احتداد التناقضات ، كما يبين بالاستناد الى أمثلة مقنعة ان المزيد من تفاقم التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يجري في المجتمع الرأسمالي ومن هنا يستنتج أن التاريخ المعاصر أيضا يتطور وفقا لقانون تفاقم التناقضات وليس وفقا لقانون ثلمها

وكان بليخانوف على حق حين اشار الى أن ستروفه ليس بأول ولا بآخر من نادى بأن التناقضات بين البورجوازية والبروليتاريا تثلم وهو مفهوم أصبح واسع الانتشار بين المفكرين البورجوازيين تحت لصاقة الاشتراكية النقدية ان « ثلم التناقض بين الرأسماليين والعمال هو في الوقت الحاضر موضوع شائع جدا في الادبيات الاقتصادية البورجوازية*

واما رفض بليخانوف آراء الاقتصاديين البورجوازيين غوسشن وسكولتزه — غافرنيتز وميلغول ، هؤلاء الانصار لمدرسة باستيا ، فقد استخلص استنادا الى الوقائع والارقام ان التناقضات الاجتماعية ، اذا ما أخذت بعين الاعتبار من مظهرها الاقتصادي تنمو اكثر فأكثر كما ان التفاوت في توزيع الدخل الوطني يشتد ، وكذلك درجة استثمار العمال من قبل الراسماليين وهو يقول : ان الطبقة

* [ انظر ص ٥٢٢ من هذا المجلد ]

العاملـة اصبحت افقر **نسبيا** لان **نصيبها** من المنتج القومي نقص نسبيا* وفي رايه ان تردي شروط العمال اكتسب طابعا مطلقـا في بعض الاوقات والاماكن ان الساحة المعاصرة تشهد على صحة القانون العمومي الذي اكتشفه ماركس عن التراكم الراسمالي وتفاقم التناقضات الطبقيـة

ولقد فضح بليخانوف بنجاح في الوقت نفسه « الاسس » الفلسفية لمراجعـة ستروفه لنظرية الثورة عند ماركس فقد حاول ستروفه ، بمساعدة المبدأ الكانطي عن تدرج التغير ، ان يبرهن على استحالة الثورة الاجتماعية ؛ انه يرفض النظرية الجدلية عن الوثبات التي اقترح الاستعاضة عنها بالمبدأ الميتافيزيائي عن التدرجية

ان بليخانوف ، خلافا لستروفه وغيره من الماركسيين الشرعيين قد دافع عن وجهة نظر الجدلية الماركسية في مسألة الوثبات واقام عليها الدليل ، مبينا أن هذه الوثبات ملازمة للواقـع بالذات ، وانهـا اساسية حتى في عمليـة الاصلاحات الاجتماعية ؛ ان القانون الجدلي لانتقال التبدلات الكمية الى تبدلات اساسية ونوعية بواسطة الوثبـة قانون عمومي ولقـد اماط بليخانوف اللثام عن المعنى الاجتماعي والسياسي للحملة التي يشنها ضد الجدلية ستروفه وبردياييف وغيرهما من مناوئي الماركسية فقد تبنى « الماركسيون الشرعيون » ، مثلهم مثل انصار برنشتاين ، في انكارهم نظرية الثورة الماركسية ، المبـدأ التطوري المبتذل « للشكل القانوني عموما » لاي تغير في الظواهر ، وكان هدفهم المناداة بأن الاصلاح الاجتماعي هو سبيل التطور الوحيد ، وبذلك رفض الثورة الاجتماعية

ولقد كتب بليخانوف في دحضه حجج ستروفه الكلمات الساخرة التاليـة

ومع ذلك تصدى السيد ستروفه ليبرهن لنا على أن الطبيعة لا تقوم بوثبات وعلى أن الذهن لا يطيقها كيف يمكن ان يكون ذلك ؟ أو لعله يقصد ذهنه الخاص وحده ، الذي **لا يطيق الوثبات** في الحقيقة لهذا السبب البسيط ، الا وهو انه ، كما يقولون **« لا يستطيع ان يطبق دكتاتورية البروليتاريا** ** »

ويعد نقد بليخانوف للاشتراكية المناقبية الكانطية الجديدة من بين أروع كتاباته ضد أعداء الماركسية ففصـل الاشتراكيـة عن العلم وتحويلهـا الى مثل أعلى اخلاقي هذا ما ينحرف عن الحياة الواقعية عن نضال البروليتاريا في سبيل الثورة والاستيلاء على السلطة السياسية هذا هو الواجب الذي يعمل له « النقد البورجوازي للماركسية ان التحويل الاخلاقي للاشتراكية يعني قبل كل شيء نضالا ضـد النظرية الماركسية عن الثـورة ودكتاتورية البروليتاريا لقـد هب

* [ انظـر ص ٥٥٦ من هـذا المجلـد ]

** [ انظـر ص : ٥٧٨ من هـذا المجلـد ]

**التحريفيون** للاستعاضة عن اشتراكية ماركس العلمية بالتبشير المعسول بطموح مسالم الى مثل أعلى اشتراكي

ويقول بليخانوف وبالنسبة الينا ، فان مثلا أعلى غير قابل للتحقيق بصورة واضحة ليس هو بالمثل الاعلى ، بل هو مجرد **ترهة** لا اخلاقية ان **حقيقة المستقبل هي مثلنا الاعلى** ، المثل الاعلى للاشتراكية الدىموقراطية الثورية*

ولقد بين بليخانوف ان المثل العليا للماركسية راسخة في العلم فأنصار الماركسية يعتبرون ان تحقيق مثلهم الاعلى مسألة ضرورة تاريخية وهو يشير قائلا والعناية بمستقبل الطبقة العاملة معناها القتال في سبيل هدفها النهائي القتال الآن ــ اليوم ، وغدا وفي اليوم الذي بعده وفي كل دقيقة**

ولقد فضح بليخانوف الطرق السفسطائية التي يستخدمها خصوم الماركسية وسعيهم الى معارضة ماركس الحقيقي والثوري بماركس آخر من اختراعهم ــ « ماركس المصلح لقد طرح التحريفيون من الماركسية جميع موضوعاتها الرئيسية الواحدة تلو الاخرى ، هذه الموضوعات التي تشكل السلاح الفكري للبروليتاريا في نضالها ضد الراسمالية ويشير بليخانوف الى أن هذه الموضوعات تشتمل على الجدلية ، والمادية ونظرية التناقضات الاجتماعية من حيث هي محرك التطور الاجتماعي ونظرية القيمة ونظرية فضل القيمة والثورة الاجتماعية ودكتاتورية البروليتاريا ان خصي الماركسية انما هو مسخ بورجوازي لها

ولم تكن مقالات بليخانوف ضد ستروفه وغيره من النقاد البورجوازيين بريئة من العيوب ، وبالخاصة من بعض عناصر التجريد والاكاديمية فهو في نقده ستروفه لم يعالج الشروط التاريخية المشخصة للتطور الاجتماعي أو النضال ضد الانتهازية في روسيا كما لم يحلل الجذور الطبقية للماركسية الشرعية ان بيانات بليخانوف ضد الماركسية الشرعية تتخلف من حيث العمق والفاعلية عن النقد الحاسم الذي أخضع لينين له « الماركسيين الشرعيين » منذ ١٨٩٤ ــ ١٨٩٥

ومهما يكن من شيء ، فان مقالات بليخانوف ضد ستروفه هي على العموم، وثيقة نظرية هامة من وثائق الماركسية الثورية

ويجدر بالملاحظة ان بليخانوف ولينين حين كانا عضوين في هيئة تحرير **ايسكرا** ، تبادلا مراسلات نشيطة قدم لينين فيها عددا من الملحوظات بشأن مقالات بليخانوف ضد برنشتاين وستروفه وقد كتب بليخانوف الى لينين قائلا : « أشكرك جزيل الشكر لملحوظتك عن مقالتي ضد برنشتاين .

* [ انظر ص ٥٩٣ من هذا المجلد ]

** [ انظر ص ٥٩٨ من هذا المجلد ]

ان كتابات بليخانوف الفلسفية بين منتصف التسعينات وعام ١٩٠٣ يعني إبان الاستعدادات لتشكيل حزب ماركسي للطبقة العاملة في روسيا وهي الكتابات المكرسة للدفاع عن أفكار المادية الجدلية والتاريخية واقامة الدليل عليها وتطويرها ، وللنضال ضد الليبراليين البورجوازيين والتحريفيين ، بالرغم من اخطائها وبعض الانحرافات عن الماركسية قد كانت بمجموعها انجازا جازما لنظرية الماركسية

وعلى اي حال فقد أظهر بليخانوف حتى منذ عشية المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي ١٩٠٣ بعض الانحرافات عن الماركسية الثورية في المسائل السياسية حيث استعظم دور البورجوازية واخفق في فهم الدور القيادي للبروليتاريا في الثورتين البورجوازية الديموقراطية والاشتراكية واهمية التحالف بين الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين

وقد قادت هذه الاخطاء بليخانوف الى الانتهازية السياسية والتكتيكية ، الى اتخاذه موقف المنشفية ــ هذا الاتجاه الانتهازي في حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي

فبليخانوف الذي كان أحد القادة السياسيين والمنظرين للاممية الثانية اخفق في فهم جوهر العصر التاريخي الجديد الذي بدأ عند منعطف القرن ، وكان عاجزا عن تطبيق الماركسية بصورة خلاقة على شروط عصر الامبريالية والثورات البروليتارية لقد كانت الآراء السياسية الخاطئة التي اعتنقها قادة الاممية الثانية ومنظروها وتساهلهم حيال الانتهازية ملازمة لبليخانوف بدرجة أو بأخرى كما أن الحلول الخاطئة التي قدمها للقضايا السياسية والنظرية الرئيسية للثورة الروسية والعالمية كانت مرتبطة بعزلته عن النشاط العملي لحركة الطبقة العاملة في روسيا فهو لم يميز التبدلات الجذرية اتي جلبها العصر التاريخي الجديد الى حركة الطبقة العاملة الروسية واخفق في ادراك ان مركز الحركة الثورية انتقل من الغرب الى الشرق ــ الى روسيا

وحين انتقد لينين بلا هوادة انتهازية بليخانوف السياسية لم تغب عن انظاره قط خدماته للنظرية الماركسية فقد رأى لينين في بليخانوف مدافعا مناضلا عن الفلسفة الماركسية ومنظرا بارزا لها فكتب عنه يقول كانت الخدمات التي قدمها في الماضي عظيمة فقد كتب خلال السنوات العشرين بين ١٨٨٣ و ١٩٠٣ عددا كبيرا من الدراسات الرائعة وعلى الاخص تلك الدراسات ضد الانتهازيين والماخيين والنارودنيين*

* لينين **المؤلفات الكاملة** ، المجلد العشرون ، ص ٣٥٨ .

لقد راى لينين في كتابات بليخانوف العرض الاروع الذي كتب حتى ذلك الحين عن الفلسفة الماركسية ، وبالخاصة المادية التاريخية ، واشار الى ان جيلا كاملا من الماركسيين الروس تعلم من أعماله وقد كتب عام ١٩٢١ يقول في تقدير للميراث الفلسفي الذي خلفه ولاضف ضمن قوسين في مصلحة الاعضاء الحزبيين الشبان أنه **ليس في مقدوركم** أن تأملوا في ان تصبحوا شيوعيين **فعليين** واذكياء دون أن تدرسوا ـ واعني أن **تدرسوا** ـ جميع كتابات بليخانوف الفلسفية ، لانه لم يكتب شيء عن الماركسية أفضل منها في اي مكان في العالم❋

❋ ❋ ❋

---

❋❋ المصدر نفسه ، المجلد الثاني والثلاثون ، ص ٩٤




المجلد الثاني

# دراسات في تاريخ المادية

## مقدمة

حاولت في الدراسات الثلاث التي أضعها أمام القارىء الالماني أن أفسر واشرح الفهم المادي للتاريخ عند كارل ماركس ، وهو أحد أعظم الانجازات في الفكر النظري للقرن التاسع عشر

وادرك جيدا أن هذا اسهام متواضع جدا فلا بد من كتابة تاريخ كامل للمادية من أجل تقديم البرهان الواضح على ما يتحلى به هذا الفهم للتاريخ من قيمة واهمية كبيرتين ونظرا لاني لست في وضع يمكنني من كتابة ذلك التاريخ ، فلا بد لـي من الاقتصار ، في بعض دراسات ، على المقارنة بين المادية في القرن الثامن عشر والمادية في يومنـا الراهن

ولقد اخترت من بين جميـع ممثلي المادية الفرنسيـة دولباخ وهيلفيتيوس اللذين هما في رايي من وجهات نظر عديدة ، مفكران بارزان لم ينالا حتى اليـوم ما يستحقان من تقدير

فقد كان هيلفيتيوس موضعا للطعن وعرضة للافتراء في مناسبات كثيرة لكن القليلين تكلفوا عناء محاولة فهمه وحين انصرفت الى وصف كتاباته ونقدها كان لا بد لي أن اقلب تربة عذراء اذا جاز لي أن استخدم هذا التعبير وكانت الخطوط الموجهة الوحيدة التي امكنني الانتفاع بها عدة ملحوظات مقتضبة صادفتها في اعمال هيغل وماركس وليس لي أن احكم حتى اي مدى انتفعت بصورة مناسبة مـن الاشياء التي استعرتها من هذين المعلمين الكبيرين في ميدان الفلسفة

اما دولباخ الذي كان أقل جرأة من هيلفيتيوس في مجال المنطق ودونه مـن حيث هو مفكر ثوري فقد أثار سخط الغير ، حتى في حياته ، بدرجة اقل كثيرا مما فعل مؤلف **في الفكر** في يوم من الايام لقـد كان خوف الناس منه اقـل ، وكان استياؤهم منه دون ذلك ، وكان حظه من انصافهم أفضل ومع ذلك لم يفهموه ، هو الآخر الا بصورة ناقصه

ولم يكن بد للفلسفة المادية ، مثلها في ذلك كمثل اي نظام فلسفي حديث آخر ، ان تقدم تفسيرا لنوعين من الظواهر ظواهر الطبيعة من جهة واحدة وظواهر تطور الجنس البشري من جهة ثانية ولقد كان الفلاسفة الماديين في القرن الثامن عشر ـ على الاقل اولئك الذين اتخذوا موقفا قريبا من لوك ـ فلسفتهم التاريخية الخاصة ، وذلك بقدر ما كانت لهم فلسفة طبيعية ويكفي المرء ليتحقق من ذلك ان يطالع كتاباتهم بشيء يسير من الانتباه وبالتالي فان من واجب مؤرخي الفلسفة بكل تأكيد أن يعرضوا آراء الماديين الفرنسيين عن التاريخ وان يخضعوها النقد مثلما فعلوا بشأن فهمهم للطبيعة وهي مهمة لم تنفذ حتى الآن وهكذا فان مؤرخي الفلسفة حين يتحدثون عن دولباخ مثلا لا يأخذون عادة بعين الاعتبار الا كتابه **نظام الطبيعة** الذي لا يستقصون فيه قط الا ما يمت بصلة الى فلسفة الطبيعة والى الاخلاق وانهم ليتجاهلون آراء درلباخ التاريخية المبعثرة بغزارة كبيرة في **نظام الطبيعة** وفي مؤلفاته الاخرى وبالتالي فلا عجب اذا كان الناس عامة لا يملكون ادنى فكرة عن تلك الاراء واذا كان انطباعهم عن دولباخ ناقصا ومغلوطا تماما واذا ما اخذ المرء بعين الاعتبار ان علم الاخلاق عند الماديين الفرنسيين قد اسيء تأويله بصورة دائمة على وجه التقريب ، فلا بد من الاقرار بأن اشياء كثيرة في تاريخ المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر لا تبرح في حاجة الى التنقيح

ويجب أن نتذكر ايضا أن الموقف الذي اتينا على ذكره لا يصادف في الابحاث العامة في تاريخ الفلسفة فحسب ، بل كذلك في الكتابات الخاصة عن تاريخ المادية وهي على اي حال قليلة العدد بعد ) ، والامثلة عليها المؤلف الكلاسيكي لفريدريخ البرت لانج بالالمانية وكتاب من تاليف الفرنسي جول اوغست سورى (١)

واما ماركس ، فيكفي أن نذكر أن احدا من مؤرخي الفلسفة عامة او مؤرخي المادية خاصة لم يكلف نفسه عناء حتى الاتيان على ذكر فهمه المادي للتاريخ

اذا كان لوح خشبي ملتويا امكن تصحيح التوائه باحنائه في الاتجاه المعاكس وتلك هي الطريقة التي التزمتها في هذه **الدراسات** فقد كان لا بد لي ، قبل كل شيء ان اصف الآراء التاريخية للمفكرين الذين اعالجهم

ومن وجهة نظر مدرسة الفكر التي يشرفني الانتساب اليها **ليست حركة الفكر شيئا آخر سوى انعكاس حركة العالم المادي المنقولة الى دماغ الانسان والمترجمة في اشكال فكرية (٢) ))** . ان كل من يريد ان ينظر الى تاريخ الافكار من وجهة النظر هذه ينبغي له ان يحاول ان يفسر كيف وبأية طريقة نشأت افكار عصر معين من شروطه الاجتماعية ، يعني من شروطه الاقتصادية في الدرجة الاولى وان تقديم مثل هذا التفسير مهمة كبيرة ونبيلة سوف يبدل انجازها تاريخ **الايديولوجيات** بصورة تامة ، وقد حاولت في هذه **الدراسات** ان اقوم بخطوة نحو انجازها ومهما يكن من شيء فاني لم اتمكن من تكريس ما يكفي من الانتباه لها وذلك للسبب

البسيط التالي ان من واجب المرء ، قبل **الاجابة عن السؤال لماذا** جرى تطور الافكار **بطريقة معينة** ، ان **يعلم اولا كيف** حدث **هذا التطور** وفيما يتعلق بموضوع هذه **الدراسات** ، فان ذلك يعني ان تفسير **لماذا تطورت الفلسفة المادية بالطريقة** التي تطورت بها عند دولباخ وهيلفيتيوس في **القرن الثامن** عشر وعند ماركس في القرن التاسع عشر لا يمكن أن يتم الابعد ان يبين بصورة جلية **ما كانت عليه تلك الفلسفة في واقع الامر** ، وهي التي ما أكثر ما اسيء **فهمها** ، بل شوهت تشويها تاما **لا بد من تنظيف الارض قبل أن يكون بالامكان مباشرة البناء .**

بضع كلمات أخرى قد **يجد** القارىء **اني عالجت** بصورة ناقصة نظرية المعرفة عند هؤلاء المفكرين واستطيع ان اعترض **على ذلك بأني** فعلت كل ما في وسعي كي اعرض آراهم بهذا الشأن بصورة **دقيقة** **وعلى اي** حال فنظرا لاني لا احسب **نفسي في عداد** انصار **السكولاستيكية النظرية المعرفية** الشائعة جدا اليوم فلم يكن في نيتي البتة **أن** اتوقف كثيرا **عند هذه المسألة** الثانوية تماما

جنيف **يوم رأس** السنة ١٨٩٦

**ج . بليخانوف**

***

# ١

# دولبـاخ

سوف نتحدث عن أحد الماديين

لكن أولا ما المقصود بالماديـة ؟

لنتوجه الى اعظم الماديين المحدثين يقول انجلز في كتابه الممتاز **لودفيـغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** شتوتغارت ، ١٨٨٨ )

« ان المشكلة الاساسية الكبرى التي شغلت كل الفلسفة ، والفلسفة الحديثة بوجه خاص ، هي مشكلة علاقة الفكر بالوجود بيد أنه لم يكن لهذه المشكلة ان تطرح في حدتها التامة ، ولم يمكن لها أن تكتسب أهميتها الكاملة الا عندما استيقظت الانسانية في أوروبا من سباتها الشتوي الطويل في العصور الوسيطة المسيحية فهذه المشكلة المتعلقة بوضع الفكر من حيث علاقته بالوجود ـ وقد لعبت الى ذلك دورا عظيما في الفلسفة المدرسية خلال العصور الوسيطة ـ مشكلة معرفة ايهما العنصر الاولي الروح أم الطبيعة ، هذه المشكلة اتخذت هذا الشكل الحاد بالنسبة الى الكنيسة هل خلق الله العالم ، أم ان هذا العالم موجود منذ الازل ؟

« وقد انقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين حسب اجابتهم بهذه الصورة أو تلك، على هذا السؤال فاولئك الذين اكدوا أولية الروح على الطبيعة واعترفوا نتيجة ذلك بفكرة خلق العالم على نحو ما ، اولئك الفلاسفة يؤلفون معسكر المثالية أما الفلاسفة الآخرون الذين اعتبروا الطبيعة بمثابة العنصر الاول فينتمون الى مختلف مدارس المادية (٣) »

ولقد كان دولباخ يقبل بهذا التعريف للمادية بكل طيبة خاطر وهو بالذات لم يقل شيئا آخر فعنده ان ما نسميه الحياة الذهنية للحيوانات لا يعدو كونه ظاهرة طبيعية وفي رأيه انه ليست بنا حاجة الى الخروج من حدود الطبيعة بحثا عن حل للقضايا التي واجهتنا بها * هذا بالغ البساطة وما ابعده عن

---

* راجع **الحس السليم المستقى في الطبيعة** ، المتبوع بوصية القس ميسليه ، في باريس ، العام الاول من الجمهورية ، **الجزء الاول** ، ص ١٧٥

التأكيدات المذهبية التي ما اكثر ما تعزى الى الماديين دون أساس على الاطلاق وصحيح ان دولباخ لم ير في المادية سوى المادة **أو انواع من المادة ، والحركة أو الحركات*** ، وهو ما يعتمد النقاد عليه ، **مثلا** ف داميرون في محاولة الايقاع بصاحبنا المادي انهم يدسون عليه **مفهومهم عن المادة** ويحاولون انطلاقا من هذا المفهوم البرهان بصورة ظافرة على **أن المادة** كافية وحدها من أجل تفسير جميع الظواهر المادية **

هذه حيلة سهلة ، لكن مكشوفة ان **النقاد الذين من هذا العيار** لايفهمون، أو يزعمون انهم لا يفهمون ، ان في مكنة **المرء ان يملك مفهوما** عن المادة مختلفا عن مفهومهم ويقول دولباخ

> **« اذا كنا نعني بالطبيعة تراكما من المواد الميتة التي لا تملك** أية خصائص والتي **هي** منفعلة بصورة خالصة ، **فاننا** سوف **نلزم اذن ، بطبيعة** الحال ان نبحث خارج **الطبيعة** عن مبدأ حركاتها **لكن** اذا كنا **نعني بالطبيعة ما هي عليه في واقع الامر – كلا واحدا تملك فيه الاقسام** المختلفة **خصائص مختلفة وتفعل** وفقا لهذه الخصائص المختلفة ، **وهي تفعل وتتفاعل** باستمرار **في بعضها بعضا** وتملك وزنا وتدور حول مركز واحد مشترك فيما ينطلق غيرها **نحو المحيط** ، وتتجاذب وتتدافع وتتحد وتنفصل ، وهي تنتج وتحلل في الاصطدامات المستمرة **والالتقاءات** المتواصلة جميع الاجرام التي نراها – فان شيئا لن يحملنا اذن على **الاستنجاد** بقوى فوق طبيعية من أجل تفسير كيفية تشكل الاشياء والظواهر التي نراها*** »

ولقد اعتقد لوك من قبل انه في الامكان أن **تملك المادة** القدرة على التفكير

---

* الطبيعة المفهومة بالمعنى الاوسع للكلمة ، **هي كل واسع** ناشيء عن مركب من مواد مختلفة نشاهد في الكون تراكيبها المختلفة وحركاتها **المختلفة** » ( **نظام الطبيعة أو قوانين العالم الفيزيائي والعالم الاخلاقي** ، لندن ١٧٨١ الجزء الاول ، ص : ٣ ) ويعترف دولباخ أيضا بأربعة عناصر اقرتها الفلسفة القديمة قبله الهواء والنار والتراب والماء

** وهكذا يرى داميرون ان المادة لا يمكن أن تملك **القدرة على التفكير** لماذا ؟ لان « المادة لا تفكر ولا تعرف ، ولا تفعل ( **مذكرات في خدمة تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر** باريس ١٨٥٨ ، ص ٤٠٩ )

يا له من منطق مذهل وعلى أي حال ، فقد أخطأ **فولتير وروسو أيضا في هذه** المسألة وذلك في نضالهما ضد الماديين وهكذا **يؤكد فولتير** للقارىء **مثلا ان « اية مادة فعالة** تكشف عن جوهرها غير المادي الذي يؤثر فيها » وعند روسو أن المادة « ميتة » **انه لم يستطع قط** يتخيل جزيئا حيا »

*** **نظام الطبيعة** ، الجزء الاول ، ص ٢١. الفقرة **مأخوذة عن طبعة** عام ١٧٨١ .

اما عند دولباخ ، **فقد كان افتراضا** له نصيب كبير من الرجحان حتى في فرضية اللاهوت يعني **مع افتراض** وجود محرك جبار للمادة * وان الاستنتاج الذي ستخلصه دولباخ **لبالغ البساطة** وشديد الاقناع في الحقيقة

« **نظرا لان الانسان ، الذي** هو مادة ولا يملك افكارا الا عن المادة حائز على القدرة على **التفكير** ، **فان في** مقدور المادة ان تفكر ، أو **هي** قادرة على ذلك التبدل النوعي الذي نسميه **الفكر**** »

بم يرتهن **هذا التبدل ؟ يقدم** دولباخ هنا فرضيتين نجدهما سواء في الاحتمال فقد يفترض **ان** حساسية المادة « نتيجة تنظيم نتيجة رابطة ملازمة للحيوان بحيث ان **المادة الميتة والجامدة** تكف عن كونها ميتة وتصبح قادرة على الاحساس عند **تحويلها حيوانيا** يعني حين تتحد بحيوان وتتوحد معه افلسنا نرى يوميا ان الحليب والخبز والخمر تتحول الى مادة الانسان الذي هو مخلوق يملك الحساسية **؟ ان هذه** المواد الميتة تصبح اذن ذات حساسية حين تمتزج بمخلوق يتحلى بالحساسية أما الفرضية الثانية فهي التي يعالجها ديدرو في كتابه الممتاز **حوار مع دالا مبير**

« يعتقد **بعض الفلاسفة** ان الحساسية صفة عمومية للمادة وانه لعديم الجدوى **في هذه الحالة البحث عن المصدر** الذي جاءتها هذه الصفة منه ، وهي التي نعرفها من نتائجها **واذا اقر المرء بهذه** الفرضية فشأنه يكون اذن شأن من يميز نوعين من الحركة **في الطبيعة تعرف احداهما** باسم **القوة الحية** وتعرف الاخرى باسم القوة **الميتة** ، وعندئذ سوف **يميز المرء** نوعين من الحساسية احداهما فاعلة أو حية والاخرى جامدة أو ميتة ، **واذن فالتحويل الحيواني** لمادة ما لن يعني سوى دمار العقبات التي تمنعها من أن تكون **حساسة وفاعلة** »

وكيفما كان **الامر ، وأيا من** هاتين الفرضيتين عن الحساسية قبلنا ، **فان** « الكائن غير الممتد الذي **يفترض انه** النفس الانسانية لا يمكن أن يكون ذاتا ***

ولعل القارىء **يقول ان ايا** من الفرضيتين لا تتسم بما يكفي من الوضوح وهو ما ندركه جيدا ، **كما أدركه** دولباخ بصورة **لا تقل** عنا ان تلك الخاصة

---

* **الحس السليم ، الجزء الاول ،** ص ١٧٦

** **نظام الطبيعة ، الجزء الاول ،** ص ٨١ ، هامش ٢٦

*** **نظام الطبيعة ، الجزء الاول ،** ص ٩٠ – ٩١ وان **لامتري** يعتبر هو الآخر ان الفرضيتين سواء في الاحتمال **على وجه التقريب** **لقد** كان **لانج على خطا تام** حين نسب اليه رأيا مغايرا وهو ما يتضح من قراءة متمعنة **للفصل السادس من مبحث النفس** بل ان **لامتري** يفترض « فلاسفة جميع العصور » باستثناء **الديكارتيين طبعا** قد اقروا بأن المادة تملك القدرة على الاحساس » ( راجع **المؤلفات** ، امستردام **١٧٦٤** ، **الجزء الاول** ، ص ٩٧ –

للمادة التي نسميها الاحساس لغز من العسير حله ويقول دولباح لكن

« ابسط حركات جسدنا هي بالنسبة الى رجل يعمل الفكر فيها ألغاز يصعب حلها بقدر الفكر نفسه *

ولقد قال جاكوبي مرة أثناء حديث مع ليسنغ في رايي أن سبينوزا على قدر كاف من الجودة لكن اسمه نوع رديء من الخلاص بالنسبة الينا وهذا ما رد عليه لبسنغ قائلا اجل ، اذا كنت تريد الامر على هذا الفرار ومع ذلك هل تعرف ما هو افضل ؟ **

ويستطيع الماديون أن يردوا بالطريقة نفسها على جميع مآخذ خصومهم هل تعرفون ما هو أفضل ؟ أين هو ذلك الشيء الافضل الواجب البحث عنه ؟ افي المثالية الذاتية لبركلي ؟ أفي المثالية المطلقة لهيغل ؟ أفي اللاادرية عند الكانطيين الجدد في عصرنا ؟

ويؤكد لانج ما يلي

ان المادية تأخذ بعناد عالم الظواهر الحسية على أعتباره عالم الاشياء الفعلية***».

ولقد كتب هذه الملحوظة بخصوص محاكمة دولباخ ضد بركلي وهي تخلق الانطباع بأن دولباح كان جاهلا بأمور كثيرة بالغة البساطة ولقد كان في مقدور فيلسوفنا ان يجيب بنفسه

« نحن لا نعرف جوهر أي كائن ، اذا كان المرء يقصد بكلمة « جوهر » ما يشكل الطبيعة الخاصة بذلك الكائن ؛ اننا نعرف المادة من خلال الادراكات والاحساسات وحدها، ومن خلال الافكار التي تمنحنا اياها ؛ ولا نحكم الا في وقت لاحق ما اذا كانت صالحة أم طالحة وذلك وفقا لبنية أعضائنا****

« اننا لا نعرف جوهر المادة أو طبيعتها الحقيقية وذلك بالرغم من قدرتنا على تحديد بعض خصائصها وصفاتها وفقا لطريقة تأثيرها فينا*****

هذا غريب أليس كذلك ؟ اننا نرى هنا صاحبنا القديم اللطيف دولباح وكأنه احد انصار نظرية المعرفة الحالية كيف أخفق لانج في أن يرى فيه رفيقا في الفلسفة ؟

كان لانج يرى جميع الانظمة الفلسفية في كانط بالضبط مثلما كان مالبرانش يرى جميع الاشياء في الله ولقد وجد انه من الامور التي يستحيل تخيلها أن

---

* **الحس السليم** الجزء الاول ، ص ١٧٧

** **أعمال جاكوبي** ، المجلد الرابع ص ٥٤

*** **تاريخ المادية** ، المجلد الثاني ، ايزرلون ١٨٧٣ الجزء الاول ، ص ٣٧٨ .

**** **نظام الطبيعة** ، الجزء الثاني ، ص ٩١ ـ ٩٢

***** **المصدر نفسه** ، ص ١١٦

يكون ثمة اناس حتى بين الماديين يملكون قبل صدور **نقد العقل الخالص** (٤) معرفة ببعض الحقائق التي كانت هزيلة وعقيمة بالمعنى الصحيح للكلمة ، لكنها كانت تبدو في نظره الاكتشافات العظمى في الفلسفة المعاصرة لقد قرأ دولباخ بعين متحاملة

**لكن ليس هذا كل شيء فثمة فارق** شاسع بين دولباخ ولانج فعند لانج ، كما هو الامر بالنسبة الى جميع الكانطيين كان (( **الشيء في ذاته** )) امراً غير قابل للمعرفة اطلاقا وعند دولباخ ، كما هو الامر بالنسبة الى جميع الماديين ، كان عقلنا يعني العلم قادرا تماما على اكتشاف **على الاقل بعض خصائص** (( الشيء في ذاته ولم يكن مؤلف **نظام الطبيعة** مخطئا في هذه النقطة ايضا

لنطبق خط التفكير التالي نحن نشيد خطا حديديا ، وهذا يعني بالمصطلحات الكانطية اننا ننشيء بعض **الظواهر** لكن ما الظاهرة ؟ انها نتيجة فعل الشيء في ذاته فينا وهكذا فحين نشيد خطا حديديا نجعل شيئا في ذاته يؤثر **فينا** بطريقة ما مرغوبة **منا** لكن ما الذي يعطينا الوسيلة من اجل التأثير في « الشيء في ذاته بهذه الطريقة ؟ معرفة خصائصه ولا شيء سوى هذه المعرفة

ان قدرتنا على الحصول على معرفة وثيقة كافية بالشيء في ذاته عميمة الفائدة بالنسبة الينا لانه لا يمكننا بدونها الاستمرار في الوجود على سطح الارض ، والارجح اننا كنا نحرم لذة الانصراف الى الميتافيزياء

ويجزم الكانطيون بان الشيء في ذاته غير قابل للمعرفة وعدم قابلية المعرفة هذه تمنح لامب وجميع البورجوازيين الصغار الافاضل ، في رأيهم ، الحق الثابت في الههم الاكثر شاعرية أو مثالية ويفكر دولباخ بصورة مغاير فهو يقول

« يكررون لنا بصورة متواصلة ان حواسنا لا تبين لنا سوى خارج الاشياء ، وان اذهاننا المحدودة لا تستطيع تصور الله لنقر بأن الامر كذلك بيد ان هذه الحواس لا ترينا حتى خارج الالوهية وان هذا ليعني حسب تكويننا اننا لا نملك اية أفكار عن الاشياء التي لا وجود لها بالنسبة الينا *

---

* **نظام الطبيعة** ، الجزء الثاني ص ١٠٦ - ١١٣ ولقد قال فيورباخ الشيء نفسه وعلى العموم فنقده للدين يتضمن أشياء كثيرة تشبه نقد دولباخ واما عن تحول « الشيء في ذاته » الى الله، فانه جدير بالملاحظة الكنيسة حددوا الههم بذات الطريقة بالضبط التي يحدد بها الكانطيون الشيء في ذاته الخاص بهم ومثال ذلك أن الله لايدخل فيأية مقولة في رأي القديس أوغسطينوس. « وهكذا يمكن أن تكون تلك هي فكرتنا عن الله ، اذا كان في مستطاعنا وبقدر ماهو في مستطاعنا خالق لا نقص فيه ، صالح دون صفة ، كبير دون مقدار ، حاضر دون مقام ، كامل في كل مكان دون تحديد ، ابدي دون زمان » ( راجع اوبرفيغ **موجز تاريخ الفلسفة** ، برلين ١٨٨١ الجزء الثاني ونحن نحيل الى هيغل جميع القراء الذين يودون ان يحصلوا على فكرة عن جميع تناقضات « الشيء في ذاته » (٦) .

ومما لا ريب فيه ان الانعدام التام لاية فكرة عن التطور كان نقطة ضعف في المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر كما كان ذلك شأنه في أي نوع كان من المادية السابقة لماركس وصحيح أن اناسا مثل ديدرو توصلوا أحيانا الى تخمينات رائعة يمكن ان تشرف أبرز انصار نظرية التطور في الوقت الراهن ومهما يكن من شيء ، فان مثل هذه الحالات من نفوذ البصيرة لم تكن على صلة بجوهر عقيدتهم ، بل كانت استثناءات على وجه التقريب وهي لا تفعل من حيث هي استثناءات الا اثبات القاعدة لقد كان « الفلاسفة » ، سواء أكانوا يعالجون الطبيعة أم الاخلاق أم التاريخ يعاملون القضية بنفس الانعدام للطريقة الجدلية ومن وجهة النظر الميتافيزيائية نفسها وأنه لمما يبعث على الاهتمام ان نرى كيف يحاول دولباخ بلا كلل أن يجد فرضية عن أصل كوكبنا والجنس البشري تكون على قدر من الاحتمال. ان القضايا التي حلتها العلوم الطبيعية بصورة جازمة حاليا قد كانت عصية على الحل في نظر فلاسفة القرن الثامن عشر *

لم تكن الارض دائما كما هي عليه اليوم أيعني ذلك انها تشكلت بصورة تدريجية ، خلال عملية تطورية طويلة ؟ كلا ، بل لعل الامور جرت كما يلي

ربما كانت الارض كتلة انفصلت من جرم سماوي آخر وربما كانت نتيجة البقع أو القشور التي يشاهدها الفلكيون على قرص الشمس وهي تستطيع الانتشار من هناك في نظامنا الكوكبي ، وربما كانت هذه الكرة مذنبا هامدا ومنتقلا كان يحتل في يوم من الايام مكانا مختلفا في ارجاء الفضاء **

ربما كان الانسان البدائي يختلف عن نظيره الحاضر أكثر مما يختلف حيوان رباعي الاطراف عن حشرة فالانسان يمكن تصوره في عملية تغير متصلة ، مثله في ذلك مثل جميع الاشياء الاخرى الموجودة على كرتنا الارضية وفوق جميع الاجرام السماوية الاخرى وهكذا فلا تناقض في التفكير بأن الانواع تختلف باستمرار *** »

ان هذا ليتردد صداه بروح نظرية التطور تماما وعلى أي حال ، فلا يجوز أن ننسى أن دولباخ كان يرى أن هذه الفرضية محتملة نظرا « **للتبدلات في موقع كرتنا الارضية** » . وان كل من لا يقبل بهذا الشرط يستطيع ان يعتبر الانسان « **نتيجة مفاجئة للطبيعة** » ولا ينضم دولباخ بحزم تام الى فرضية تطور الانواع ، فهو يقول

---

* انه لما يبعث على الدهشة حقا أن ديدرو يعجب **بمذهب هيراقليطس الاخلاقي** ، لكن لايقول شيئا من جدليته ، أو اذا شئتم يقول بعض الكلمات التافهة فحسب حين ينظر في كتابه **الفيزياء** . **مؤلفات ديدرو** ، باريس ١٨١٨ ، الجزء الثاني ، ص ٦٢٥ – ٦٢٦ ( **الموسوعة** ) .

** **نظام الطبيعة** ، الجزء الاول ، ص : ٧٠

*** المصدر نفسه ، ص ٧٣

كان لا بد للمرء يرفض التخمينات السابقة وان يؤكد أن الطبيعة تفعل بحصيلة معينة من القوانين الثابتة والعامة ؛ اذا اعتقد المرء أن الانسان ورباعي الاطراف والسمكة والحشرة والنبتة ، الخ هم جميعا منذ الازل وسوف يبقون الى الابد كما هم عليه ؛ اذا وافق المرء على أن النجوم تألقت في الجلد منذ الازل » ( وهكذا فان « حصيلة معينة من القوانين الثابتة والعامة تحول بنتيجة ذلك دون أي تغير ج ب

قال المرء انه لا يجوز السؤال لماذا الانسان هو ما هو عليه أكثر مما يجوز السؤال لماذا الطبيعة هي كما تراها أو لماذا العالم موجود ـ فاننا لن نعترض على ذلك كله فأي نظام يتخذه المرء قد يجيب بصورة متساوية في الجودة على جميع المصاعب التي تضايقه لم يعط الانسان ان يعرف جميع الاشياء لم يعط أن يعرف اصله ، لم يعط أن يسبر ماهية الاشياء أو ان يبلغ المبادىء الاولية*

هذه الاشياء جميعا تبدو لنا اليوم غير قابلة للتصديق ، لكنه لا يجوز للمرء أن ينسى تاريخ العلوم الطبيعية ويجب أن نتذكر أن العالم الكبير كوفيه ، قبل زمن طويل من صدور **نظام الطبيعة** ، كان في صراع ضد أية فكرة عن التطور في العلوم الطبيعية

لنأخذ الآن بعين الاعتبار الفلسفة الاخلاقية عند دولباح

ان شارل باليسو ، وهو مؤلف طواه النسيان تماما ، لكنه كان موضع اهتمام بالغ في القرن الماضي ، ينطق احدى شخصيات ملهاة له ( فالير ) بالكلمات التالية

**Du globe où nous vions despote universel**

**Jl n'est qu'un seul ressort, l'intérêt personnel** **

فترد عليه شخصية أخرى ( كاروندا س )

**j'aurais quelque regret à tromper Cydelise**

**Mais je vois clairement que la chose est permise*****

وهكذا حاول باليسو السخرية من أفكار الفلاسفة « **المقصود تحقيق السعادة مهما يكن السبيل الى ذلك** » ـ ان هذه الكلمة الجامعة التي ينطق فالير بها تعبر عن رأي باليسو في علم الاخلاق عند « الفلاسفة » لم يكن باليسو سوى « **مجبّر بائس** » ، لكن أكان ثمة كتاب كثيرون عن تاريخ الفلسفة قدموا أي حكم

---

* المصدر نفسه ، ص ٧٥ يشمل دولباخ ايضا ، في عداد القضايا التي لم يعط الانسان حلها المسألة التالية « ما الذي جاء أولا الحيوان قبل البيضة ، ام البيضة قبل الحيوان ؟ وان هذا ليشكل تحذيرا الى العلماء الذين يحبون الاسهاب بشأن حدود العلم التي لا يمكن عبورها !

** [ الطاغية العمومي للعالم الذي نحيا فيه والحافز الاوحد لجميع الامور ـ تلك هي المصلحة الشخصية ]

*** [ سوف ينتابني بعض الاسف لخداع سيداليز لكني أرى بوضوح ان الامر جائز ] .

آخر عن علم الاخلاق المادي للقرن الثامن عشر ؟ ان علم الاخلاق هذا قد اعتبر بصورة عمومية على وجه التقريب ، طوال القرن الحالي ، **امرا مخزيا** ، عقيدة لا تناسب عالما فاضلا او فيلسوفا يحترم نفسه وكان الناس من امثال لامتري ودولباخ وهيلفيتيوس يعتبرون خطرين سفسطائيين لا يبشرون سوى بالمتعة الحسية والانانية* ومع ذلك فان ايا من هؤلاء الكتاب لم يبشر قط بأي شيء من هذا النمط ، وهو ما تبينه مطالعة كتبهم بقدر يسير من الانتباه

فعل الخير والمساعدة على سعادة الغير وتقديم العون لهم — هذه فضيلة فلا يمكن ان يكون من الفضيلة في شيء الا ما يؤول الى خير المجتمع وهناءته وأمنه »

ان **الشعور الانساني** هو الفضيلة الاجتماعية الاولية ، وهي تجسد جميع الفضائل الاخرى هي أخذت بمعناها الاوسع ، فهي الشعور الذي يمنح جميع كائنات نوعنا الحقوق في قلبنا واذا هي زرعت في حساسية مرهفة ، مكنتنا من صنع الخير الذي تجعلنا قدراتنا قمينين به وانها لتؤول الى الحب ، وفعل الخير ، والسماحة ، والرفق ، والرأفة بأشباهنا من المخلوقات**

ما مصدر تلك التهمة التي لا أساس لها ؟ كيف يمكن أن يسود الاعتقاد بها بصورة عمومية على وجه التقريب ؟

اولا **الجهل** هو الملوم فما أكثر ما يجري الحديث عن الماديين الفرنسيين ، لكن أحدا لا يقرؤهم ولذا فلا عجب اذا استمر هذا المستبق في الوجود بعدما تأصلت جذوره

وان لهذا المستبق نفسه مصدرين وكلاهما غزيران على حد سواء

لقد كانت الفلسفة المادية للقرن الثامن عشر فلسفة ثورية فهي لم تكن سوى التعبير الايديولوجي عن نضال البورجوازية ضد الاكليروس والنبالة والملكية المطلقة ومن المفروغ منه ان البورجوازية ما كان يمكن ، في نضالها ضد النظام البالي ان تضمر أي احترام لنظرة عن العالم موروثة عن الماضي وان تبجل ذلك النظام أزمان مختلفة وظروف مختلفة ، وفلسفة مختلفة كما عبر عن ذلك ديدرو بصورة ممتازة في مقالته عن هوبس في **الموسوعة** • ولم يكن لدى فلاسفة

---

* ان دي لامتري وهيلفيتيوس سفسطاليان لعلم الاخلاق المادي هيتنر **تاريخ الادب في القرن الثامن عشر** ، براونشفيغ ١٨٨١ الجزء الثاني ص ٣٨٨ ) الشيء القاضي بالنسبة الى المادية هو تهاونها وتغذيتها وتشجيعها لاحط غرائز الانسان للدناءة التي خلق منها فريدر سكولتزه Die Grundgedunken des Materialismus und die kritik derselben لايبزغ ١٨٨٧ ص ٥٠

** **السياسة الطبيعية او مقالة عن المبادىء الحقيقية للحكم** ، بقلم قاض سابق ( دولباخ ) ، ١٧٧٣ • ص ٤٥ — ٤٦ •

الايام الطيبة القديمة ، الذين حاولوا أن يعيشوا في سلام مع الكنيسة ، أية اعتراضات على أخلاق تزعم ان الدين الموحي به مصدرها أما فلاسفة الازمان الجديدة فكانوا يريدون أن تكون الاخلاق حرة من اي تحالف مع « **التطير** » .

ليس شيء يمكن أن يكون أشد ضررا بالاخلاق الانسانية من كونها منصهرة مع الاخلاق الالهية فحين يربط المرء بين الاخلاق الحسية المبنية على التجربة والعقل والدين الصوفي المناقض للعقل والمبني على التوهم والسلطان ، لن يكون في مقدوره الا أن يشوش الاخلاق السابقة ويضعفها ، بل يدمرها *

ان هذا الانفصال للاخلاق عن الدين ما كان يمكن أن يكون على هوى جميع الناس ، وهو يوفر بصورة مسبقة الاساس من أجل الطعن في علم الاخلاق لدى الماديين ولم يكن هذا كل شيء أن « الاخلاق الدينية تبشر بالتواضع وتعذيب الجسد وكبت الاهواء وهي تعد اولئك الذين يقاسون على هذه الارض الدنيا بالجزاء في العالم الآتي أما الاخلاق الجديدة فقد أعادت الاعتبار الى الجسد ، وأقامت من جديد حقوق الاهواء** ، وجعلت المجتمع مسؤولا عن مصائب أعضائه *** لقد أرادت على غرار هايني « **ان تقيم ملكوت السموات على الارض** » (٧) . وههنا يكمن جانبها الثوري ، لكن ههنا يقوم أيضا خطلها في نظر اولئك الذين كانوا يؤيدون البنية الاجتماعية القائمة وقتذاك

---

* **النظام الاجتماعي أو المبادىء الطبيعية للاخلاق والسياسة مع دراسة لاثر الحكم في العادات** بقلم مؤلف **نظام الطبيعة** ، لندن ١٧٧٣ الجزء الاول ص ٨٦ قارن مع مقدمة **الاخلاق العمومية** للمؤلف نفسه لن نعالج هنا الاخلاق الدينية التي لا تعترف بحقوق العقل نظرا لانها تستهدف قيادة الناس في طرق فوق طبيعية

** الاهواء أوزان معدلة حقيقية للاهواء فلا نسعين الى دمارها ، بل لنحاول أن نوجهها ، فلنعدل تلك الاهواء الضارة بتلك الاهواء النافعة للمجتمع ان العقل ، ثمرة التجربة ، هو مجرد فن اختيار الاهواء التي ينبغي لنا الاصغاء اليها في سبيل سعادتنا الخاصة ( **نظام الطبيعة** ، الجزء الاول

*** لا يقل أحد ان الحكومة لا تستطيع ان تجعل جميع رعاياها سعداء ؛ مما لا ريب فيه انه ليس في مقدورها ارضاء نزوات بعض المواطنين الكسالى الذين لا يعرفون ما يبتكرون من أجل تبديد ضجرهم ؛ وعلى أي حال فهي تستطيع ويجب عليها أن تنصرف الى تلبية الحاجات الفعلية للجماهير ان المجتمع ينعم بكل السعادة التي هو قمين بها عندما يحصل العدد الاعظم من أعضائه على المطعم والملبس والمسكن وبكلمة واحدة يستطيعون دون جهد مفرط يلبوا الحاجات التي جعلتها الطبيعة ضرورية لهم أمما بكاملها ملزمة بنتيجة الجنون البشري بأن تكد وتعرق وتسقي الارض بدموعها كيما ترضي ترف ونزوات وفساد عدد صغير من المجانين حفنة من الناس الذين لا نفع لهم الذين أصبحت الهناءة مستحيلة عليهم لان مخيلتهم مطلقة العنان لا تعرف حدودا ( المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ ) .

لقد كتب غريم في **المراسلات الادبية** (٨) يقول ان شعرا هازلا انتشر في باريس في اعقــاب صدور كتاب هيلفيتيوس **في الفكر** ، وكان يعبر عن تخوف النــاس المحترمين

Admirez tous cet auteur - la
Qui de « l'erprit » intitule
Un livre qui n'est que matière *

وبالفعل فان كل الاخلاق المادية قد كانت (( **مادة** )) بالنسبة الى اولئـك الذين لا يفهمونها وكذلك بالنسبة الى اولئك الذين يفضلون ، بالرغم من **فهمهم** لها بصورة ممتازة ، (( **ان يحتسوا الخمرة وهم يبشرون علانية بشرب المياه** )) (٩) •

ويكفي هذا لايضاح كيف ولماذا يقف شعر جميع البورجوازيين الصغار فــي جميع الامم المتحضرة » حتى يومنا هذا حيال الاخلاق المادية

ومع ذلك فقد كان بين خصوم الاخلاق المادية أناس مثــل فولتير وروسو أيكون مثل هؤلاء بورجوازيين صغارا ايضا ؟

وأما روسو ، فلم يكن بورجوازيا صغيرا البتة في هذه الحالة ، لكنه لا بد من الاقرار بأن بطريرك فيرنيي (١٠) ادخل قدرا جوهريا من النزعة البورجوازية الصغيرة الى هــذه المناقشــة

حين يأتي الانسان الى العالم لا يحمل معه الا القدرة على **الاحساس** ، وجميع القدرات المعروفة بالقدرات **الذهنية** تتطور انطلاقا من هذه القدرة . وان بعض الانطباعات او الاحاسيس التي يحصل عليها المرء من الاشياء التي يصادفها تسره ، فيما يؤلمــه غيرها وهو يرضى عن بعضها التي يريدها أن تستمر أو أن تتجدد بالنسبة اليه ، فيما يستنكر غيرها ويتجنبها قدر استطاعته وبكلام آخــر فان الاسان يحب بعض الاحاسيس والاشياء التي تسببها ويكــره انطباعات اخرى وما يستثيرها ونظرا لان الانسان يحيا في مجتمع فهو محاط بمخلوقات مماثلة له ، وهي تحس بالضبط مثل احساسه وان هذه المخلوقات جميعــا تسعى الى المتعة وتخشى الالم وهي تسمي **خيرا** كل ما يمنحها المتعــة **وشرا** كل ما يسبب لها الالم وان كل ما يفيدها باستمرار تسميه **فضيلة** ، فيما تسمي **رذيلة** جميع الاشياء التي تسيء اليها في تكوين البيئة المحيطة بها وان من يحسن الصنع لاخوته البشر يسمى **صالحا** ، اما الذي يسيء اليهم فيدعى **شريرا** • وبالتالي يترتب على ذلك في المحل الاول ان الانسان ليس في حاجة الى المعونة الالهيــة كي يميز **الفضيلة** مــن **الرذيلة** ، وفي المحل الثاني ، فلا بد كي يكون البشر فاضلين من أن **يمنحهم** انجاز الفضيلة **لــذة** ان يكون **سارا** بالنسبة اليهم فلا بد أن يحب الانسان الرذيلة اذا كانت تسعده وليس الانسان شريرا الا لان من مصلحته أن يكون كذلك

* [ اعجبوا جميعا بهذا المؤلف الذي عنون كتابه **في الفكر** مع أنه لا يشتمل الا على المادة ]

وما أكثر ما يصادف الناس الاشرار والطالحون في عالمنا هذا وما ذلك الا لعدم وجود حكومة تمكنهم من العثور على المصلحة في العدالة والشرف والرافة وعلى العكس من ذلك فان المصالح الراسخة في كل مكان تدفعهم الى الظلم والشر والجريمة

**« وهكذا فليست الطبيعة هي التي تخلق الاشرار ، بل مؤسساتنا هي التي تجعلهم أشرارا* »**

**ذلك** هو **المظهر** الصوري للاخلاق المادية التي نقلناها على وجه التقريب في كلمات دولباخ نفسه الذي كثيرا ما تفتقر أفكاره الى الوضوح وهكذا فانه من قبيل اللغو أن نقول انه **اذا كانت الرذيلة تسعد** الانسان **فيجب أن يحب الرزيلة ؛** فاذا كانت الرذيلة تسعد الانسان حقا **فهويحبها بصورة مسبقة** اذن وان انعدام الوضوح هذا عند دولباخ كثيرا ما يؤول الى عواقب بائسة وهكذا فهو يقول في موضع واحد ان **« المصلحة هي الحافز الوحيد للافعال البشرية »** ، وفي موضع آخر يعطي التعريف التالي « اننا نسمي **مصلحة** ذلك الشيء الذي يربط به اي انسان رخاءه بصورة تتفق مع مزاجه وافكاره ؛ وبكلام آخر فان **المصلحة** هي بكل بساطة ما يعتبره كل واحد منا ضروريا من أجل سعادته** وان هذا التعريف واسع جدا بحيث لا يستطيع المرء من بعد ان يحدد الفارق بين الاخلاق المادية والدينية*** ؛ وان اي نصير لهذه الاخلاق الاخيرة يستطيع ان يقول ان خصومه اخترعوا مصطلحات جديدة فحسب ، بحيث يفضلون أن يصفوا بالمصلحة الذاتية تلك الافعال التي كانت توصف فيما مضى **بالنزاهة** . ومهما يكن من أمر فان في مقدور المرء أن يفهم بسهولة ما الذي كان دولباخ يقصده حين قال انه اذا كانت الرذيلة تسعد الانسان ، فان من واجبه ان يحب الرذيلة انه يحمل المجتمع مسؤولية رذائل أعضائه****

ولقد ثار فولتير ضد دولباخ بسبب نصيحته المزعومة الى الناس بأن ينصرفوا الى الرذيلة اذا كانت في مصلحتهم وان هذا ليذكرنا بالاب **دي ليناك** الذي جعل مهتديا الى الاخلاق الجديدة يجيب عن سؤال عما اذا كان سوف يحب مصالح امته كما يلي في حدود ما يكون ذلك في مصلحتي ومع ذلك فقد كان فولتير أكثر

---

* **نظام الطبيعة** ، الجزء الاول ، ص ٣٠٦

** المصدر نفسه ص ٢٦٨

*** ليس هذا التعريف واسعا جدا فحسب بل هو لغو أيضا طالما أنه لا يقول شيئا سوى أن الانسان لا يريد الا ما يريده فقط ولقد أشار الى ذلك **تورغو** في تحليله لنظرية الاخلاقية عند هيلفيتيوس

**** لا بد للمرء في المجتمعات الفاسدة هو نفسه فاسدا كي يكون سعيدا » **نظام الطبيعة** ، الجزء الثاني ، ص ٢٣٧

اطلاعا من دي لينياك في هذا الشأن   لقد كان يعرف لوك معرفة جيدة ، ولا بد انه شاهد ان الاخلاق المادية انما تواصل قضية الفيلسوف الانكليزي   ولقد قال فولتير نفسه ، في كتابه **مبحث الميتافيزياء ،** أشياء عن الاخلاق أعظم جرأة مما نطق به دولباخ في يوم من الايام   وعلى أي حال ، فقد كان البطريرك يستشعر الخوف ، اذ كان يخشى أن يصبح الناس بالغي التهور بعد أن ينقلبوا الى ملحدين واخلاقيين نفعيين   ولقد كتب الى مدام نيكر ( ٢٦ ايلول ١٧٧٠ ) يقول   بعد اخذ جميع الامور بعين الاعتبار ، فقد كان عصر فيدرا والحاقد عصرا أفضل (١١) » من المؤكد انه كان أفضل   لقد كان الشعب مكبوحا بصورة أفضل جدا في ذلك الحين

والامر الابعث على الضحك هو أن فولتير يعارض أخلاق دولباخ بالحجةالتالية:

لا يستطيع مجتمعنا وجودا دون فكرتي العدالة والظلم   وهو   الله   بين لنا الطريق من أجل بلوغها   وهكذا فان صالح المجتمع مقرر يحزم على اعتباره قاعدة ثابتة الفضيلة ، وذلك من بكين حتى ايرلندا » .

يا له من اكتشاف يتوصل اليه فيلسوف ملحد !

وكانت استنتاجات روسو مغايرة، فقد كان يرى أن الاخلاق النفعية لاتستطيع ان تفسر أكثر الافعال البشرية الاصيلة   وانه ليسأل « ما المقصود من التضحية بحياة المرء على مذبح مصالحه الخاصة ؟ » وهو يضيف اذن أنه يجد مما يبعث على النفور تلك الفلسفة التي تشكل مصدر ازعاج للاعمال الفاضلة ، ولا تفلت من المصاعب الا بما تنسبه من النوايا الدنيئة والحوافز الشريرة الى الاعمال الفاضلة ، وهي   ملزمة باذلال سقراط والافتراء على ريغولوس (١٢) »   ولا بد لنا في سبيل تقدير ما يعنيه هذا اللوم من تقديم الاعتبارات التالية

لقد انصرف الماديون أولا وقبل كل شيء ، في نضالهم ضد   الاخلاق الدينية   ، الى البرهان على قدرة الناس على معرفة ما هي الفضيلة دونما أدنى مساعدة من السماء   ويقول دولباخ

أيحتاج البشر الى الوحي فوق الطبيعي كي يتعلموا أن العدل ضروري من اجل الحفاظ على المجتمع ، أو ان الظلم لا يفعل الا الجمع بين عدوين كانا مهيأين لالحاق الاذى ببعضهما بعضا ؟ أكان من الضرورة بمكان أن يتحدث الله اليهم كي يدركوا أن الناس الذين تجمعوا يجب أن يحبوا بعضهم بعضا وان يتعاونوا ؟ أكانت المعونة لازمة لهم كي يكتشفوا من عل أن الثأر شر   انتهاك لقوانين البلاد التي تعنى ، اذا كانت عادلة ، بالثأر للمواطنين؟

ألا يدرك كل امرىء يقدر حياته أن الرذيلة والشهوانية واللذة الحسية تقصر هذه الحياة ؟ وأخيرا ألم تثبت التجربة لكل كائن مفكر أن الجريمة موضع الحقد لزملائه من البشر [ يعني زملاء المجرم – ج ب ]   الرذيلة تسيء الى الملوثين بها ، وان الفضيلة تعود بالاحترام والمحبة على اولئك الذين يعملون بها ؟ اذا فكر البشر قليلا في

الاشياء التي يصنعونها وفي مصالحهم الحقيقية وفي هدف المجتمع فسوف ينجزون واجباتهم حيال بعضهم بعضا **ان صوت العقل يكفينا كي نعلم ما هو واجبنا حيال المخلوقات من اشباهنا* »**

وبما أن العقل كاف ليعلمنا واجباتنا ، فان وساطة الفلسفة مطلوبة لتبين لنا أن الفضيلة تكمن في مصلحتنا الخاصة التي نفهمها بصورة صحيحة وان من واجب هذه الفلسفة أن تبين لنا ايضا أن سلوك أشهر أبطال الانسانية ما كان يتغير فيما لو كانت سعادتهم الخاصة شاغل تفكيرهم الوحيد. وهكذا ينشأ تحليل سيكولوجي في الحقيقة انه غالبا ما **ينل سقراط ويفتري على ريفولوس** بصورة جلية وبالتالي فلم يكن اللوم الموجه من روسو عديم الاساس ، سوى أن « مواطن جنيف نسي أن سقراط المفترى عليه غالبا ما يرتكب نفس الخطيئة التي يلام الماديون عليها**

ان جماعة الانوار ــ في اليونان وفي فرنسا وفي المانيا وفي روسيا تشيرنيشفسكي واتباعه ــ قد ارتكبوا نفس الخطيئة بالذات لقد حاولوا ان **يبرهنوا** على ما لا يمكن البرهان عليه ، بل يجب أن يتعلمه المرء من حياة المجتمع بالذات*** ان التطور الاخلاقي للجنس البشري يتأثر بالضرورة الاقتصادية عن

---

* **المسيحية المكشوفة أو دراسة مبادىء الدين المسيحي ونتائجه** ، لندن ، ١٧٥٧ ،ص ١٢٠ ــ ١٢٨ ولقد وصف هذا الكتاب بأنه أفظع كتاب صدر على سطح الارض والحقيقة انه طبع في نانسي وليس في لنــدن

** ومع ذلك ــ أية ملكية ( كذا يجب ن تقوم المنافسة عليها مع صديق ؟ أي عبد محب لاشخاصنا أو مكد لمصلحتنا ؟ أي جواد قادر على تقديم مثل هذه الخدمة لنا ؟ من أين وممن نستطيع في كل الازمان وفي جميع المناسبات أن نحصل على مثل هذه المنافع الكثيرة والاساسية ( كزينوفون ، **ذكريات سقراط** ، الجزء الثاني ، الفصل الرابع ) ولم ننطق الماديون الفرنسيون قط بما يضاهي هذا القول في سخريته أيكون معنى ذلك أن سقراط افترى على نفسه ؟

*** وعلى حال فقد كان ذلك يتفق كليا مع روح العصر في القرن الثامن عشر ولم يتخلف أنصار الاخلاق الدينية في حال من الاحوال عن الماديين في هذا المضمار ، وكانوا أحيانا يقدمون براهين مسلية تماما وهذا مثال رائع على ذلك حسب هيلفيتيوس باشر اليسوعيون في تمثيل مسرحية راقصة في روان عام ١٧٥٠ كان موضوعها بيــان اللذة تهيء الشباب للفضائل الحقيقية يعني كان فصلها الاول عن الفضائل المدنية ، والثاني ــ عن الفضائل العسكرية ، بينما كان الفصل الثالث عن الفضائل الخاصة بالدين ولقد سعوا في هذه المسرحية الراقصة الى اثبات حقيقة الديانة المجسدة تنجز من خلال الرقص à pas de deux [ بالخطوة الثنائية ] بكل لذة وهي اللذة التي كساها اليسوعيون بالبنطال كي يمنحوها مزيدا من الحدة على حد تعبير **الجانسيين**(١٢) في تلك الايام لكن اذا كان في مقدور اللذة حسب رأيهم أن تؤثر في الانسان ، فما عسى ن تفعل المصلحة به اذن ؟ ألا ترتد كل مصلحة فينا الى البحث عن اللذة ؟ ( **في الانسان** ، الجزء الاول ، القسم الثاني الفصل السادس عشر

كثب متكيفا بالضبط مع حاجات المجتمع الفعلية وبهـذا المعنى نمكن ويجب القول ان المصلحة تشكل أساس الاخلاق وعلى أي حال ، فان عملية هذا التكيف التاريخية تجري خلف ظهور البشر ، دونما اعتبار لارادة الافراد وذهنهم وان خطأ سلوكيا تمليه المصلحة يبدو وكأنه أمر صادر عن الالهـة أو شعور فطري أو عقـل ، أو طبيعة لكن أي نوع من المصلحة هي تلك التي تملي على الافراد هـذا السلوك او ذاك اهي المصلحة الذاتية ؟ أجل في حالات لا تحصى وعلى أي حال ، فبقدر ما يصغي الافراد الى صوت مصالحهم الخاصة لا يكون المطلوب منا أن نوضح مسألة الاعمال الفاضلة اذن ان مثل هـذه الاعمال تعكس مصلحـة **الشيء الموجود** ،**المصلحة الاجتماعية** ، وهذه المصلحـة الاجتماعية هي التي تمليها ان جدلية التطور التاريخي لا تؤول فقط الى « تحول العقل الى العبث والمنفعة الى الشر (١٤) ، بل كذلك الى تحول المصالح **الانانية** للمجتمع او لطبقة فيه ، في الغالب ، الى دوافع مليئة **بالايثار** والبطولة في قلوب الافراد ويكمن سر هذا الانقلاب في تأثير البيئة الاجتماعية ولقد اجاد الماديون الفرنسيون تقدير هذا التأثير فكانوا لا ينون يكررون أن التربيـة تقرر الاشياء جميعا وان الناس يصيرون الى ما هم عليه ولا يولدون كذلك ومع ذلك فقـد نظروا الى هذه العملية الخاصة **بالتكوين الاخلاقي** ووصفوها من حيث هي مجموعة من الافكار تتكرر في كل برهة في فكر كل واحد من الافراد ، وهي تتعدل بصورة مباشرة وفقا للظروف المؤثرة في المصلحة الذاتية لاي امرىء لديه حافز للعمل وتتشكل مهمة الاخلاقي من تلقاء ذاتها من وجهة النظر هذه كما رأينا من قبل فلا بد من حماية تفكير الافراد من الاخطاء ، ومن اظهار الحقيقه الاخلاقية لهم. وفي هذه الحال ، فما معنى اظهار الحقيقة الاخلاقية ؟ ان معناها بيان أين تقوم المصلحة السخصية التي فهمت على افضل وجـه ان معناها الثناء على ذلك الاستعداد الخاص في القلب المؤدي الى عمل حميد وبهذه الطريقة قام ذلك التحليل السيكولوجي الذي نهض روسو ضده وبهذه الطريقة ظهرت تلك المدائح التي لا نهاية لها تمجيدا للفضيلة وقـد كان غريم يسميها (١٥)Capucinades. ولقد كانت هذه المدائح مميزة حتى درجة رفيعة الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر بينما الآخرون يتصفون بتحليل خاطيء لحوافز السلوك. ومهما يكن من شيء، فان انعدام الطريقة الجدلية جلي في **جميع الاعمال** التي كتبوها وهو يثار **منهم جميعا** بصورة متساوية

وما أكثر ما استنجد روسو في مساجلته ضد الاخلاق المادية **بالضمير** هذه العريزة الالهية هذا الشعور الفطري وقس على ذلك ولقد كان مـن اليسير على الماديين أن يفسروا ذلك الشعور من حيث هو ثمرة التربية والعادة

وعلى اي حال فقد فضلوا أن يقدموه من حيث هو مجموعة من الافكار تقوم على اساس ادراك شامل للمصلحة الشخصية وعند دولباخ أنه يمكن تعريف الضمير من حيث هو معرفة الآثار التي تحدثها أفعال المرء في الآخرين وبالمقابل في انفسنـا

« الضمير الاثم هو اليقين أو الخوف من استحقاق المرء لحقد الآخرين أو ازدرائهم من جراء سلوكه حيالهم*

ومن الجلي انه ما كان يمكن لروسو أن يرضى بمثل هذا التعريف ، كما لا نقل عن ذلك جلاء ان الماديين ما كان يمكن أن يقبلوا بوجهة نظره اذ ان ادنى اعتراف بالشعور الفطري سوف يؤول الى هزيمة فلسفتهم بأكملها وان في مكنة المادية الجدلية اليوم بكل يسر أن تعرب ذلك القسم من الحقيقة المتضمن في بيانات روسو وفي بيانات الماديين الفرنسيين على حد سواء

وهكذا فان جميع القوانين الاخلاقية تصدر عن العقل » ولكن بم يسترشد العقل في بحثه عن هذه القوانين ؟ يجيب دولباخ دونما ادنى تردد **بالطبيعة** .

ان الانسان كائن شاعر وذكي وعقلاني ، ولا يحتاج العقل الى معرفة أي شيء سوى أن يمنحنا الاخلاقية **الجامعة** »

ويمكن تهجئة سيكولوجية هذا الاستنجاد « بالطبيعة » بكل سهولة ، وهو ما شرحه دولباخ بنفسه على أي حال مما لا ريب فيه انه لا بد من سلطة تملك الحق في أمرتنا كي تفرض علينا الواجبات وتملي علينا القوانين الملزمة لنا لكن الماديين كانوا في حرب ضد جميع السلطات التقليدية ولذا استنجدوا بالطبيعة بحثا عن سبيل الى الخروج من هذه الصعوبة أيمكن لاي انسان ان ينكر هـذا الحق على الضرورة ؟ أيمكن للمرء أن يشك في متطلبات هذه الطبيعة التي تمارس الحقوق السائدة على جميع الموجودات ؟ لقد كان هذا كله « طبيعيا » جدا في ذلك الحين ، لكنه لا بد من التأكيد على أن دولباخ ، مثله كمثل معظم معاصريه ، انما كان يشير الى طبيعة « **الانسان** » التي هي شيء مختلف كل الاختلاف عن الطبيعة التي لا بد لنا من النضال ضدها في سبيل وجودنا

وكان مونتسكيو على يقين من أن الفوارق في المناخ تنتج تنوعا في القوانين »، وقد قدم اثباتا لهذه العلاقة براهين أبعد ما تكون عن الحسم ، في حين برهن الفلاسفة الماديون على ذلك دونما صعوبة كبيرة ولقد سأل دولباخ أيمكن للمرء أن يقول أن الشمس التي شعت على الاغريق والرومان هؤلاء الذين كانوا يغارون غيرة

---

* **النظام الاجتماعي** ، الجزء الاول ، ص ٥٠ راجع أيضا **الاخلاق الجامعة** ، الجزء الاول ، ص ٤ - ٥ .

عظيمة على الحريات لم ترسل الاشعة نفسها على ذريتهم العقيمة * ؟ » ومهما يكن من أمر فان خـط مونتسكيو في التفكير لم يكـن خاطئا اذا نحن تعمقنا في الامور فنحن نعرف اليوم اهمية البيئة الجغرافيـة بالنسبة الى تاريخ الجنس البشري واذا كان مونتسكيو مخطئا فهذا لا يعني ان اولئك الذين هاجموه بهذا الشـن فهموا بصورة أفضـل ما سوف يسميه هيغـل في وقت لاحق الاساس الجغرافي للتاريخ العالمي فهم ما كانوا يملكون أدنى معرفة بالموضوع ، لا المعرفة الصحيحة ولا المعرفة الخاطئـة ، وكانت الطبيعـة البشرية المفتاح الذي توقعوا استخدامه ليفتحوا جميع الابواب في بنيان الاخلاق والسياسة والتاريخ ولشد ما يصعب علينا اليوم أن ندرك ادراكا واضحا وجهة للنظر كانت شائعة على نطاق واسع بين الكتاب في القرن الثامن عشر

ومثال ذلك أن سـوار يقول ان تطور الفنون خاضع لنفس التدرج الذي يشاهده المرء في تطور الجنس البشري واننا لنطبق بلهفة على هذه الفكرة ، حاسبين أن المؤلف يوشك أن يميط اللثام عن الاسباب الخفية للتطور الانساني التي تعطي التوجه لفكر البشر واستنارتهم ( « lumières » ) ، بينما هي مستقلة عـن ارادتهم كل الاستقلال ويعتقد البعض انهم يفلتون بفضل سوار من تلك الحلقة المفرغة التي كانت فلسفة التاريخ في القرن الثامن عشر تدور فيها بصورة ميئوس منها كليا بيد انهم يتعجلون الامور جدا ويخطئون بصورة عميقة ان الاسباب التي تخضع لها تطور الفنون انما تتوقف على طبيعة ـ « الانسان

« لا يملك الانسان في طفولته سوى حواسه ومخيلته وذاكرته ، وهو لا يحتاج سوى للاغاني والاقاصيص ثم يأتي عصر الاهواء ، فاذا النفس تريد أن تثار وأن تضطرب، ومن بعد يتوسع الذهن ويتقوى العقل ولا بد لهاتين القدرتين بدورهما من أن توضعا موضع الممارسة فتشمل فعالياتهما جميع الامور التي تؤثر في فضول الانسان واذواقه ومشاعره وحاجاته**

ويعترف جميع العلماء الطبيعيين اليوم بأن تعاقب الاشكال التي تمر بهـا العضوية الفردية منذ المضغة حتى تطورها التام تكرار للتبدلات الشكلية التي مر

---

* السياسة الطبيعية ، الجزء الثاني ص ١٠ ؛ النظام الاجتماعي ، الجزء الثالث ـ ٨ ومن جانبه ، لم يكل فولتير قط عن شن الحرب ضد رأي مونتسكيو الذي لم يقل على أي حال شيئا جديدا في هذه المسألة بل كرر فحسب آراء بعض الكتاب الاغريق والرومان وطلبا للوضوح سوف نضيف دولباخ كثيرا ما تحدث عن تأثير المنـاخ بصـورة سطحية أكثر مما فعـل مونتسكيو ويقول دولباخ في نظام الطبيعة ان مناخا معينا ، في جوهره ينظم الناس ويعيرهم بحيث يصبحون اما نافعين واما ضارين جدا بالنسبة الى جنسهم » ( ! )

** في تطور الآداب في القرن الثامن عشر في خليط من الادب ، باريس السنة ١٢ ، المجلد الثالث ص ٣٨٢ .

بها أسلاف الجنس الذي تنسب تلك العضوية اليه ان تطور **تكون الجنين** يلخص **تطور الجنس** وان في مقدور المرء أن ينظر بالطريقة نفسها الى تعاقب الاشكال التي يجتازها ذهن كل انسان منذ الطفولة حتى التطور الكامل على اعتبارها نوعا من تلخيص التبدلات الطويلة والبطيئة التي مرّ بها اسلاف الانسان في سياق التاريخ وانا لنعتقد انه يمكن القيام في هذا الحقل بابحاث رفيعة الاهمية لكن ما عسانا نقول عن عالم طبيعي يرى في تاريخ تكون الجنين الخاص بعضوية مفردة أساسا كافيا من أجل تبدلات الجنس ؟ لكن ذلك هو على وجه الدقة نمط تفكير سوار ومعه جميع « فلاسفة القرن الثامن عشر الذين كانت لديهم فكرة غامضة عن سياق تطور الجنس البشري

وفي هذا يتفق غريم كل الاتفاق مع سوار ، فيسأل أي امرىء لم يبدأ بأن يكون شاعرا وينتهي بأن يكون فيلسوفا** ؟ وكان هيلفيتيوس الوحيد الذي فهم ان هذا الواقع يمكن ان ينشأ عن أسباب أخرى أعمق مما يحسب سوار لكننا لم نصل الى الى هيلفيتيوس بعد

ان الانسان كائن شاعر وذكي وعقلاني هكذا خلق وهكذا كان على الدوام وهكذا سوف يبقى دائما رغما عن جميع اخطائه وبهذا المعنى تكون طبيعة الانسان ثابتة فما هو اذن الشيء الباعث على الدهشة في كون القوانين الاخلاقية والسياسية التي تمليها هذه الطبيعة ذات مغزى عمومي وثابت ودائم ؟ ولم تعلن هذه القوانين بعد ولا بد من الاعتراف بأنه « ليس ما هو أكثر شيوعا من مشاهدة القوانين المدنية في تناقض مع قوانين الطبيعة وانما مرّد هذه القوانين المدنية الفاسدة الى « فساد الاخلاق واخطاء المجتمعات ، أو الطغيان الذي يقسر الطبيعة على الانحناء لسلطانه*** فلتقل الطبيعة كلمتها تعرفوا الحقيقة بصورة جازمة ان الاخطاء لا حصر لها لكن الحقيقة واحدة

« لا وجود للاخلاق بالنسبة الى المسخ أو المجنون ، فالاخلاق العمومية لا يمكن انشاؤها الا بالنسبة الى المخلوقات العاقلة والمتعضية بصورة طبيعية ، فالطبيعة لا تتغير في هذه المخلوقات والمشاهدة وحدها تكفي لاستدلال القواعد الثابتة التي ينبغي لها اتباعها****

---

* من المفروغ منه أننا يجب أن نخص بأعظم الاهتمام الاثر الهائل الذي يمارسه التكيف مع البيئة الاجتماعية على تطور الفرد الروحي والاخلاقي

** **مراسلات أدبية** ، آب ١٧٧٤

*** **السياسة الطبيعية** ، الجزء الاول ، ص ٥٢

**** يؤكد كوندورسيه ، الذي ثار ضد آراء فولتير في هذا الموضوع الخاص ، وهي الآراء المضادة لآرائه على طول الخط ( **الفيلسوف الجاهل** (١٦) كثيرا ما غير البطريرك آراءه ) ان أفكار العدل والحق تطورت «بالتأكيد بالطريقة نفسها بالنسبة الى جميع الكائنات المتحلية بالقدرة على الشعور» واكتسا

ولكن كيف يمكن تفسير أن دولباخ نفسه كتب السطور التالية

ان المجتمعات مثلها مثل سائر الاجرام الطبيعية تجتاز التحولات والتبدلات والثورات فهي تتكون ، وتنمو وتنحل ، بالضبط على غرار الكائنات جميعا ، ولا يمكن لنفس القوانين الواحدة ان تناسبها في ظروف مختلفة من التطور فاذا هي كانت نافعة في مرحلة معينة أصبحت عديمة المنفعة وضارة في مرحلة أخرى

هذا كله بسيط جدا فدولباخ يستخلص نتيجة واحدة من المحاكمة آنفة الذكر الا وهي أن القوانين البائدة والبالية المقصود قوانين فرنسا في ذلك الحين يجب أن تلغى ان تحصن أي قانون يشهد **ضده** بالاحرى منه **معه** ، وليس مثال اجدادنا بدليل مؤيد له وكان في مقدور دولباخ أن يثبت ذلك نظريا ، باستنجاده بالعقل فحسب الا أنه تظاهر نظرا لمستبقات قرائه ، بأنه يمسك بوجهة النظر التاريخية وينطبق الامر نفسه على تاريخ الاديان فقد كرس الفلاسفة قدرا كبيرا من الاهتمام لهذا الموضوع وغرضهم اثبات أن الدين المسيحي الذي يزعم قيامه على الوحي يشبه الاديان الدنسة كل الشبه وكانت تلك ضربة موجهة الى الايمان المسيحي البغيض وبعد توجيهها لم يعن أي من الفلاسفة بدراسة تاريخ الاديان المقارن لقد كانت الازمان ثورية وكانت جميع الحقائق المعلنة من قبل الفلاسفة وغالبا ما كانت تتناقض ) تستهدف أغراضا عملية مباشرة

وسوف نلاحظ عند هذه النقطة أن الطبيعة الانسانية كثيرا ما قادت الفلاسفة الماديين الى أبعد مما كانوا يتوقعون لقد كان التمييز المرسوم في الاغلب بين الانسان **الحكمي** و **الاخلاقي** يساء استخدامه بصورة مبالغ فيها ان الانسان كائن حكمي خالص والانسان الاخلاقي هو المخلوف الحكمي نفسه ، سوى انه يؤخذ بعين الاعتبار من زاوية معينة ، يعني بالنظر الى بعض من مواهبه من حيث هي رهن بتعضيه . وبالتالي فان « **جميع أخطاء البشر أخطاء حكمية** * ». وهكذا فان ما يترتب على الطب ، أو بالحري على الفيزيولوجيا هو واجب تزويدنا بمفتاح للقلب الانساني كما أن من واجب العلم نفسه أن يفسر لنا التبدلات التاريخية التي طرات على الجنس البشري

« في الطبيعة ، حيث الاشياء جميعا مترابطة تفعل الاشياء جميعا وتتفاعل وتتحرك وتتبدل ، وتتركب وتتحلل وتتكون وتتعرض للدمار وليس ثمة ذرة واحدة

---

الافكار « **وبالتالي فهي ستكون نفسها** » وانه لصحيح بالطبع أن الناس « غالبا ما يغيرونها لكن كل مخلوق يفكر بصورة سليمة سوف ينتهي الى نفس الافكار في الاخلاق كما في الهندسة ان مثل هذه الافكار هي النتيجة الضرورية للحقيقة التي لا جدال فيها والتي تقول البشر كائنات شاعرة وذكية » في هامش لكتاب **الفيلسوف الجاهل** في طبعه **كيهل** لمؤلفات فولتير ) .

* **نظام الطبيعة** ، الجزء الاول ، ص ٥

الا وتلعب دورا هاما وضروريا ، ليس ثمة جزيء واحد غير ملموس الا ويؤدي الى نتائج هائلة اذا هو وضع في ظروف ملائمة ان الزيادة في مرارة صفراء رجل متعصب والدم المتوقد جدا في قلب فائح والهضم المضطرب في معدة عاهل ونزوة تمر في ذهن امراة » ( وهي جزيء أيضا — ج ب ) هـي أسباب كافيـة لاندلاع نيران الحروب ، وارسال الملايين من البشر الى الموت وتدمير الحصون ، وتهديم المدن ونشر الخراب والبؤس لقرون عديدة*

ثمة قول مأثور عن تلك الذرة من الرمال التي سقت طريقها الى مثانة كرومويل، وبذلك أدت الى اعادة تكوين لوحة العالم بأكملها وليس في هذا القول شيء أكثر أو أقل مما في أفكار دولباخ عن « الذرات و الجزيئات من حيث هي أسباب الاحداث التاريخية ، والفارق الوحيد هو أننا ندين بذلك القول المأثور الى انسان من أصحاب التقوى يرى أن الله هو الذي ادخل تلك الذرة القاضية من الرمال الى حسد الوصي ولم يكن دولباخ ليقبل بفكرة الله ، لكنه ما كان ليعترض ، في جميع الامور الاخرى على هذا القول المأثور

ان الاقوال التي من هذا النمط تتضمن حبـة من الحقيقة الا أن هذه الحقيقة تنتسب الى الحقيقة الكاملة بالضبط مثل انتساب حبـة أو ذرة الى إجمال المادة في الكون ولما كانت هذه الحقيقة لا متناهية في الصغر ، فهي لاتتقدم بنا خطوة واحدة في دراستنا للظواهر الاجتماعية واذا نحن لم نفعل في العلم التاريخي شيئا سوى انتظار قدوم ذلك العبقري الذي كان لابلاس يحلم به — هذا العبقري الذي سوف يكشف لنا ، بمساعدة الميكانيك الذري ، جميع أسرار ماضي الجنس البشري وحاضره ومستقبله — فان في مقدورنا أن نستسلم لسبات طويل وهادىء لان مجيء هذا العبقري المدهش لن يحدث عاجلا

عرفنا بمساعدة التجربة العناصر الكامنة خلف مزاج أي انسان أو معظم الافراد الذين يتشكل منهم شعب ما فسوف نعرف ما الذي يحبونه وأية قوانين يحتاجون ، وما هي المؤسسات النافعة لهم** »

وعلى أي حال ، فما عساه يحل اذن (( بالاخلاق العمومية )) و (( السياسات المتفقة مع الطبيعة )) ؟ ليس لدى دولباخ ما يقول في هذا الشأن ، لكنه يعلق بحماسة متعاظمة ابدا على سائر القوانين الاخلاقية والسياسية والاجتماعيـة التي تشتق

---

* المصدر نفسـه ، ص ٢١٤

** نظام الطبيـعة ، المجلد الاول ، ص ٦٠.

ويلاحظ السيد جول سورى بكـل سذاجة بخصوص هـذه الكلمات ان هذه الفكرة الخاصة بالبارون دولباخ قد أصبحت جزئيا حقيقة واقعة ! ) وعلى أي حال فان الاحصاء الاخلاقي بالاحرى من الفيزيولوجيا هو الذي يبدو انه سيقدم أجل الخدمات لفيزياء الاخلاق Bréviaire de l'histoire du materialisme مختصر تاريخ المادية ] ، باريس ١٨٨١ ، ص ٦٥٣ .

بالضرورة من طبيعة الانسان حين يؤخذ بعين الاعتبار كمخلوق شاعر الخ

ولقد كان من (( **الطبيعي** )) جدا في ايام دولباح ، أن تكون الام الطبيعة ، سياسيا وأخلاقيا بالضبط في صف تلك القوانين التي كانت البورجوازية الفرنسية تتطلبها حين كانت مهيأة كي تصبح « كل شيء (١٧)

ان اتفاقا ضمنيا ، عقدا اجتماعيا يقوم بين المجتمع واعضائه ويتجدد هذا العقد في كل لحظة ويقصد منه تأمين الضمانات المتبادلة لحقوق المواطنين،واقدسها **الحرية والملكية والامن** . وفضلا عن ذلك ، فأن

« الحرية والملكية والامن هي الروابط التي تربط الناس بالارض التي يعيشون عليها ولا وجود للوطن اذا زالت هذه الميزات* »

والملكية هي روح هذا الثالوث المقدس ان الامن والحرية ضروريان في المجتمع.

لكنه من المحال بالنسبة الى الانسان يحافظ على وجوده أو يجعل هذا الوجود سعيدا لم يكن في مستطاعه الاستمتاع بالميزات التي وفرتها له جهوده وشخصيته» ولذا فان قوانين الطبيعة منحت كل انسان الحق المدعو ملكية .ولايستطيع المجتمع أن يحرم الانسان من ملكيته (( **لانه انما وجد لضمان هذه الملكية** ))

وهكذا كانت الملكية الهدف والحرية والامن الوسيلتين فلندرس هذا الحق المقدس في هذا الضوء وبمزيد من التفاصيل

ما مصدره ؟ انه قائم على أساس العلاقة الضرورية التي تقوم بين الانسان ونتاج عمله وهكذا يصبح الحقل ، بطريقة ما ، جزءا من الانسان الذي يزرعه ، لان ارادته وذراعيه وقوته وكده ، وباختصار (( **صفاته الفردية الصميمية ، تلك التي تخص شخصه** )) ، هي التي جعلت **ذلك الحقل ما هو عليه** :

« ان هذا الحقل المروي بعرقه يصبح جاز التعبير موحدا معه ان محصوله يخصه بمثل الطريقة التي تخصه بها أعضاؤه وقدراته لان ذلك النتاج ما كان يوجد قط بدون عمله ، أو على الاقل ما كان يوجد بمثل طريقة وجوده الحالية**

هكذا كان دولباح يرى البورجوازية في صورة نتاج العمل الخاص بالمالك ولا يحول ذلك على أي حال ، دون اعتباره الرفيع للتجار والصناعيين هؤلاء المحسنين الذين يمنحون المجتمع بأسره الاعمال والحياة بينما هم يثرون***

---

* **السياسة الطبيعة** ، المجلد الاول ، ص ١٣ — ١٤ ، ٣٨ ، ١٢٥

وبالتالي فان الهدف الكبير والرئيسي الذي يسعى اليه البشر حين يتحدون في رابطات تخدم مصلحتهم المشتركة ويخضعون أنفسهم للحكومة هو **الحفاظ على ملكيتهم** التي تفتقر في الحالة الطبيعية الى أشياء كثيرة جون لوك **مبحثان في الحكومة المدنية** لندن ١٨٨٤ الكتاب الثاني ، الفصل التاسع ، « في أغراض المجتمع السياسي والحكومة ، ص ٢٥٦

** **السياسة الطبيعية** ، المجلد الاول ، ص ٣٩

*** **الاخلاق العمومية** ، المجلد الثاني ، ص ٢٤٩

ويبدو أنه توصل الى فهم صحيح وان لم يكن واضحا كل الوضوح عن اصول ثروة الصناعيين ، فهو يقول

**« ... بينما يكسب الشغيل معيشته من عمله ، فهو يزيد باستمرار ثروة اولئك الذين يقدمون العمل له » .**

وبعد فهل تنتج هذه الثروة عن **« الصفات الفردية الصميمية ، تلك التي تخص شخصه »** فقط ( **« كم من الحرفيين من مختلف الانواع يديرون عجلات المانيفاكتورات* ! )** ؟ كلا بكل تأكيد ! ولكن ماذا في ذلك ؟ ان الصناعيين والتجار أناس فائدتهم عميمة جدا أفلا ينبغي اذن للمجتمع الممتن أن يكافىء بالثروة والشرف اولئك الذين يخدمونه بمثل هذه الطريقة الجيدة ؟ ولا تقوم المشكلة في الحقيقة التالية التي لا مراء بها وهي ان « الحرفي يضاعف من ثروة الصناعي بل في المستبقات الغوتية والهمجية التي من نتيجتها النظر الى الصناعي والتاجر باحترام دون ما يستحقان

ان التاجر المسالم يبدو بغيضا في عيني الجندي الذي لا يرى أن هذا الرجل ، الذي يزدريه ، **يلبسه ويطعمه** ويمون جيشه** كذا

ويحتفظ دولباح بلغة مختلفة للملكية الاقطاعية انه ينظر الى مثل هؤلاء الملاكين — الاغنياء والعظام — على اعتبارهم أعضاء في المجتمع ضارين ولا فائدة منهم ويهاجمهم دون كلل ، اذ هم الذين يهددون **« ثمار عمل الاخرين »** ، ويدمرون حرية مواطنيهم ويهينون أشخاصهم هكذا تنتهك الملكية دون انقطاع***

ونحن نعلم أن المجتمع وجد من أجل الحفاظ على الملكية ، بيد أن العقد الاجتماعي الضمني يشير ، وهذا من واجبه ، الى الملكية البورجوازية وحدها ولا تترتب على المجتمع حيال الملكية الاقطاعية الا واجب واحد — الغاؤها التام والمطلق ان دولباخ يؤيد الغاء امتيازات النبالة والالتزامات حيالها ، من ضرائب ، وسخرة ، وحقوق اقطاعية ، وما شابه****

عمد النبلاء ، الذين ينبغي للعاهل انتزاع حقوقهم الضارة ، الى الاشارة الى الحقوق المقدسة للملكية فيمكن الرد عليهم بأن الملكية ليست شيئا آخر سوى حق الحيازة بصورة عادلة ؛ ان كل ما يعارض المصلحة الوطنية لا يمكن أن يتسم بالعدل مطلقا، وان كل ما يسيء الى ملكية المزارع لا يمكن أن يعتبر حقا قط لانه مجرد اغتصاب ،

---

* المصدر نفسه

** المصدر نفسه ، القسم الثاني ، ص ٢٤٠

*** **السياسة الطبيعية** ، القسم الاول، ص ٤٢

**** ومن المؤكد أنه لا يستثني امتيازات النقابات الحرفية أو أية امتيازات غيرها ، أو « ثروة الاكليروس .

انتهاك لحقوقه ، هو الذي يعود بقاؤه بمنفعة على الامة اعظم حتى درجة كبيرة من مزاعم حفنة من السادة الذين لا يكتفون بعدم القيام بأي عمل على الاطلاق بل يعارضون الاعمال التي هي بالغة الاهمية لهم وللمجتمع على حد سواء*

ان النبلاء « **يفضلون ألا يعملوا شيئا** » ، فهم لا ينجزون أية وظيفة نافعة في المجتمع وبذلك يدينون أنفسهم في عيني فيلسوفنا ولقد كان زمان كان النبلاء يمضون فيه الى الحرب على نفقتهم الخاصة ، وبالتالي حظوا ببعض الامتيازات على أساس قانوني عادل ولكن بناء على أي أساس قانوني يحظون بنفس الامتيازات في مجتمع ينفق العاهل على الجيش فيه ، ولم يعد النبلاء فيه ملزمين بالخدمة على الاطلاق** ؟

ولقد جاء زمان جعلت البروليتاريا تستخدم فيه حيال حقوق الرأسماليين نفس المقياس الذي استخدمه قبل مائة عام ممثلو البورجوازية حيال امتيازات النبالة

ولا يجوز الاعتقاد بأن التضاد بين البورجوازية والنبالة انعكس في ذهن دولباح على اعتباره تضادا بين الملاكين العقاريين والملاكين الحضريين من مختلف الانواع لا شيء من هذا القبيل فلم يكن دولباخ منحازا في حال من الاحوال الى جانب الملكية المنقولة ، بل الامر على النقيض من ذلك ، اذ كان يعتبر أن الملكية العقارية هي الشيء الاساسي هي الملكية par excellence [ الممتازة ] فيقول « **ان ملكية الارض تشكل المواطن الحقيقي** » . ان شرط الزراعة هو مشعر الوضع الاقتصادي العام في البلاد « فالفقراء » هم ، قبل كل شيء ، «المزارعون»، والدفاع عنهم يضاهي الدفاع عن الريفيين المضطهدين من قبل « عظام العالم » ، يعني النبالة وان دولباخ ليمضي بعيدا جدا حتى ليقول ، مع الفيزيوقراطيين(١٨)، ان الضرائب جميعا تقع على الارض بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، مثلها كمثل جميع الاشياء الاخرى ، الجيدة أو الرديئة ، التي تصيب الامة

« انما الحرب يراد منها الدفاع عن ملكية الارض ، وانما التجارة ضرورية من أجل الحفاظ على ثمار الارض في التداول ، وانما الفقه نافع بغرض تأمين الاراضي لاصحابها*** »

ان الارض مصدر ثروة الامة بكاملها ، ولهذا السبب يجب تحريرها في أسرع وقت ممكن من النير الاقطاعي الذي يئيد عليها بشدة وهذه حجة أخرى في مصلحة الاتجاهات الثورية للبورجوازية !

---

* L'Ethocratie ou le gouvernement fondé sur la morale [ **الحكم الاخلاقي أو الحكومة القائمة على الاخلاق** ] ، امستردام ، ١٧٦٦ ، ص ٣٠ – ٣١ .

** المصدر نفسه ، ص ٥٢

*** **السياسة الطبيعية** ، الجزء الاول ، ص ١٧٦

لم تكن المساواة تنطوي على أي اغراء بالنسبة الى رجل مثل دولباخ ، بل كان على النقيض من ذلك يعتقد أنها وهم ذميم حتى الدرجة القصوى ولايملك الناس جميعا نفس التعضي بل هم متفاوتون على الدوام في قواهم البدنية والاخلاقية والفكرية

ان رجلا ضعيف البدن أو الذهن ملزم على الدوام بالاعتراف بتفوق اولئك الذين هم أقوى وأجد وأذكى منه ان المرء المجد يزرع قطعة أكبر من الارض ويزيدها خصبا بالمقارنة مع ما يستطيع أن يفعله امرؤ آخر وهبته الطبيعة جسدا اضعف وهكذا وجد التفاوت في الملكية والحيازات منذ البداية* »

وان في مقدور الاب مابلي أن يرد تماما على مثل هذه الحجج بأنها تناقض بكل وضوح منطلق الفلسفة السياسية الحديثة الا وهو الحقوق المتساوية بصورة مطلقة لجميع الناس الاقوياء منهم والضعفاء **

ان الزمان لم ينضج بعد من أجل « المساواة ولم يكن بدّ لمابلي نفسه من الاعتراف بأنه

« ليس في مقدور أية قوة بشرية أن تحاول اليوم اعادة المساواة دون أن تسبب قدرا من الفوضى أعظم مما يود المرء تفاديه***

ولقد برهن المنطق الموضوعي للتطور الاجتماعي أنه الى جانب المنظرين البورجوازيين

وكان دولباخ منظرا متطرفا للبورجوازية ، بل متحذلقا لقد ثار ضد « البابا والاساقفة الذين حددوا الاعياد والزموا الناس بالبطالة ، كما حاول أن يبين أن نجاح التجارة والصناعة يتنافر مع أخلاق دين لعن مؤسسه الاغنياء وانكر عليهم الدخول الى ملكوت السموات » ولقد هاجم دولباخ من جهته بكل عنف « العدد الذي لا يحصى من الكهنة والرهبان والنساك والراهبات الذين لا وظيفة لهم سوى رفعأيديهم العاطلة الىالسماء والصلاة ليلنهار لكسب العطف للمجتمع»،كما ثار ضد الصوم الكاثوليكي لان « القوى التي تعتبرها الكنيسة الكاثوليكية هرطوقية هي على وجه التقريب القوى الوحيدة التي تنتفع من الامتناع عن اللحم فالانكليز يبيعونها

---

* المصدر نفسه ، ص : ٢٠

** كانت صفاتي البدنية أو الخلقية تمنحني حقا على انسان أقل مواهب مني فيما يتعلق بالطبيعة ؛ اذا لم يكن في مقدوري أن أطلب منه ما لا يجب عليه أن يطلبه مني – فأخبروني اذن ، أرجوكم على أي أساس استطيع أن أزعم أن شروطنا متفاوتة يجب ان يبرهن لي بفضل اية صفة استطيع ان اقدر تفوقي « **شكوك مقترحة على الفلاسفة الاقتصاديين عن النظام الطبيعي والاساسي للمجتمعات السياسية** ، لاهاي ، ١٧٦٨ ، ص ٢١ )

*** **السياسة الطبيعية** ، الجزء الاول ، ص ١٥

السمك والهولنديون السردين * هذه الامور جميعا كانت « **طبيعية** » تماما لكنه حين لا يفوت دولباح مثله كمثل فولتير وكثيرين غيره فرصة واحدة كي يسير الى قصة الالفي خنزير التي أغرقتها الشياطين بموافقة يسوع المسيح ، وحين يلوم المؤسس الاسطوري للمسيحية لانعدام الاحترام عنده للملكية الخاصة ، وحين يتحدث باللهجة نفسها ضد الرسل الذين كثيرا ما كانوا يلتقطون سنابل القمح في الحقول التي لا تخصهم وحين تصالح لفترة قصيرة مع المسيح لمجرد أن ابن الانسان لم يتقيد بيوم السبت ** ـ فقد كان متحذلقا وباعثا على السخرية ، مبينا افتقاره التام الى أي فهم للتاريخ

كان دولباح يرى في البورجوازية التي كان ناطقا باسمها ومدافعا عنها القسم الاشرف والاذكى والانبل والاكثر ثقافة من الامـة ولشد ما كان يمكن للبورجوازية أن تخيفه في وقتنا الحاضر

ان البخل يقصد « **الجشع** » ) هوى بغيض وأناني وضد اجتماعي ، وبالتالي فهو متنافر مع الوطنية الحقيقية ، وحب الصالح العام ، وحتى مع الحرية الحقيقية ان الاشياء جميعا مسمومة عند الناس الذين تلوثوا بهذا الوباء الكريه ؛ فالامر الوحيد المطلوب هو عقد الصفقة السليمة*** »

ويذكرنا هذا جدا بسالوست لكننا نستطيع في الوقت نفسه أن نقول أن الفضائح التي تتعاقب حاليا بسرعة في فرنسا والمانيا وايطاليا (١٩) ، وعلى العموم حيثما قاربت البورجوازية نهايتها ، قد تكهن بها فيلسوفنا

ليس في العالم أشرس من تاجر اهاجه الجشع ، حالما يصبح الاقوى ، وحين يكون على يقين من أن جرائمه النافعة سوف تلاقي الترحاب في البلاد**** »

في الحقيقة ليس ما هو أشرس انا نعرف ذلك بصورة أفضل جـدا ممـا عرفه « فيلسوفنا » في يوم من الايام !

لقد كان دولباح في معظم الحالات ينظر الى « الثروة » من وجهة نظر الخطيب العاطفي الذي يقـول « **الاغنياء يفسدون الاخلاق** » . ان الرجـل الذي هاجـم الاخلاق الدينية باسم الثروة قد هب بعدئذ ضد الجشع باسم « **الفضيلة** » . انـه يقـول

---

* **المسيحية المكشوفة** ، الح ١٧٥٧ ١٧٦ ١٧٩ ١٩٠ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣

** لعله شعر ، مثل شعورنا كم يعود بالمنفعة على الشعب الغاء عدد كبير من الاعياد « **التاريخ النقدي ليسوع المسيح او التحليل القياسي للاناجيل** [ دون تاريخ للصدور ] ، ص : ١٥٧ )

*** L'Ethocratie [ **الحكم الاخلاقي** ] ، ص

**** **السياسة الطبيعية** ، الجزء الثاني ص ١٤٦

« ان اليقظة القصوى تستطيع وحدها أن تمنع أو على الاقل تدرأ الشرور التي يستتبعها هـذا الهوى*

ومع تأييده لحرية التداول المطلقة باختصار ، ان التجارة تتطلب الحريـة الاكمل فبقدر ما تكون التجارة اكثر حرية يزداد انشارها ولا يجوز للحكومة ان تصنع للتاجر شيئا سوى **الامتناع عن التدخل في عمله**** ) حاول ان يثبت انه من واجب السياسة أن تصنع كل شيء ممكن لتمنع أي تكاثر لحاجات رعاياها ( سوف تنتهي هذه الحاجات لان تصبح بالغة النهـم ما لم يضع الحذر حدودا لهـا*** لقد نادى بتدخل الدولة واصبح من انصار الحماية بـل رجعي على وجه التقريب

سوف نسمي نافعة تلك التجارة الي تزود الامم بالاشياء الضرورية لمعيشتها بحاجاتها الاولية ، وحتى بما يلزم لرفاهيتها واشباع رغباتها ؛ ولسوف نسمي **عديمة المنفعة وخطرة تلك التجارة** التي لا تزودالمواطنين الا بالاشياء التي ليسوا هم بحاجة اليها والتي لا تصلح الا لارضاء حاجات غرورهم الوهمية

وكان دولباخ يمضي بعيدا بهدف قهر هذا الغرور الذي ينتشر في رأيه حتى الى الارياف وذلك بواسطة **الاتباع** ، وبواسطة **الترف** الذي يفسد «الاخلاق» ( mœurs ) ويؤول الى خراب اكثر الامم ازدهارا**** ان السوق الداخلية هي السوق الطبيعية جدا للمنتجات الصناعية لاي بلد ولا بد من ضمان هذه السوق للصناعة ولم يكن في مقدور دولباخ أن يفهم تلك الحمى اللامعقولة في سبيـل اكتساف حقول جديدة للصناعة ، التي يترتب عليها أن الكرة الارضية ليست بعد الان على قدر كاف من السعة بالنسبة الى التاجر المحموم وان الامم مستعدة لتطع بعضهـا بعضا من أجـل شرائح من الرمال يريهـم جشعهـم الكنـوز فيها***** وما كان يجد عبارات على قدر كاف من العنف لتوبيخ شعب البيون هؤلاء الذين كان يعتقد انهم اتخذوا هدفا مجنونا هو الاستيلاء على التجارة العالمية وامتلاك البحار****** وكان يخشى التفاوت المفرط في توزيع الثروات ويعتبره مصـدر عدد كبير من الشرور في المجتمع ولقد نهض للدفاع عن المزارع الصغيرة وكان يرى أن المزارع البريطانية كبيرة جدا ممـا

---

* **السياسة الطبيعية** ، ص ١٤٥

** المصدر نفسـه ، ص ١٥٠

*** المصدر نفسـه ، ص ١٥١

**** **الحكم الاخلاقي** ، الفصل الثامن ؛ **النظام الاجتماعي** ، القسم الثالث ، ص ٧٣ .

***** **السياسة الطبيعية** ، الجزء الثاني ص ٥٤

****** المصدر نفسـه ، ص ١٥٥

يؤدي في العالب الى تحـول المزارعين المؤاكرين الى **احتكاريين*** » ان مصالح الدولة مرتبطة على الدوام بمصالح العدد الاكبر من الناس ، وهي تتطلب ان يكون عدد كبير من المواطنين نشيطين عاملين في امور نافعة ومستمتعين بظروف تتيح لهم ان يوفروا حاجات البلاد دونما اساءة الى انفسهم فالانسان الذي لا يملك شيئا لا يملك وطنـا**

وانه لواضح تماما ان فيلسوفنا لم يحب اوضاع البريطانيين الاجتماعية حيث حققت البورجوازية من قبل ثورتها المجيدة فهو يتحدث عن هذا البلد بنفور عظيم وكان يقول

« لا تكفي الثروة من أجل صنع السعادة ، بل لا بد أيضا من القدرة على استخدام الثروات بطريقة تؤدي الى الهناءة ؛ ولا تكفي الحرية من أجل صنع السعادة ، بل يجب الا ينساء استعمال الحرية يجب ألا تستخدم بطريقة ظالمة

وبهذا المعنى فان البريطانيين مقصرون جدا شعب بلا أخلاق شعب ظالم بحق الآخرين شعب يتحرق بالظمأ الى الذهب شعب فاتح ، شعب مناوىء لحرية الغير أمة دنيئة ، شريرة فاسدة — هكذا كان دولباخ يرى البريطانيين ولقد وجه ضدهم احدى Capucinades [ المواعظ ] التي كتبهـا عن الفضيلة

أيهـا البريطانيون ارعوا الحكمة والعقل ؛ اعملوا على إحكام حكومتكم وقوانينكم تحاشوا الترف القاتل للاخلاق والحرية خافوا نتائج التعصب الديني والسياسي الخ***

وعلى اي حال فغالبا ما كانت الساحة الاجتماعية البريطانية تدفعه نحـو نمط من التفكير أشد تطرفا حتى درجة كبيرة مما أشرنا اليه لتونا ومثال ذلك اصراره على أن الضريبة الباهظة من أجل الفقراء لم تنقص ولا يمكن أن تنقص عدد الفقراء البريطانيين وانه ليهتف

انه لصحيح جدا ان الامم حيث يوجد العدد الكبير من الاغنياء تضم عددا مـن البائسين أعظم من السعداء وانه لصحيح جـدا التجارة تغني عددا ضئيلا مـن المواطنين بينما تخلف الباقين منهم في حالة العوز****

وقد تبدو هذه الافكار جميعا مشوشة ومتناقضة لكن — وسوف نلاحظ ذلك مرة اخرى — يجب الا ننسى أننا نعالج منظرا للبورجوازية التي كانت في ذلك الحين طبقة ثورية وبالتالي قادرة على الانطواء على مشاعر نبيلة لقد كانت —

---

* **الحكـم الاخلاقي** ، ص ١٢٢ الهامش

** المصدر نفسـه ص ١١٧

*** راجع **النظام الاجتماعي** ، المجلد الثاني ، الفصل السادس

**** **الحـكم الاخلاقي** ، ص — ١٤٧

أو بالاحرى كان ممثلوها الافضل وهم أناس أصحاب قلب وعقل مفكرون على حد تعبير دولباخ ـ تحلم بمملكة العقل ، بالسعادة الشاملة ، بملكوت السموات على الارض أكان يمكن الا أن يراودهم النفور من العواقب التي لا مفر لها لمنازعهم الاجتماعية الخاصة ؟ أكان يمكن لهذا النفور الا أن يورطهم في التناقضات مع انفسهم ؟ دلّ فتاة جميلة على عجوز شمطاء مضطربة الحال ، أحنى المرض ظهرها ، ولسوف تصاب بالهلع ، وتظل مع ذلك راغبة في الحياة ، يعني في التقدم في السن ، يعني في بث الهلع في الآخرين بدورها مشهد قديم لكنه يتكرر أبدا !

ان كل من يريد الحصول على فكرة مشخصة عن سيكولوجية الفلاسفة الفرنسيين للقرن الثامن عشر يحسن صنعا اذا توجه الى الكتاب الروس في المرحلة بين نهاية حكم الامبراطور نقولاس الاول حتى أيامنا الراهنة ولسوف يصادف اذن نفس الانعدام لاي فهم للتاريخ ونفس المواعظ النافلة ونفس التناقضات وصحيح انه كان اشتراكيون بين الكتاب الروس لهذه المرحلة ، مثل تشيرنيشفسكي، لكنه كان في عدادهم أيضا الكثيرون الذين هبوا ضد « البورجوازية » من جراء سوء الفهم فقط طالما انهم كانوا عاجزين عن تقدير معزى مطالبهم الخاصة وغالبا ما كان كتابنا « الشرعيون » يريدون بالضبط ما كان دولباخ وأصدقاؤه يريدونه ، لكنهم كانوا على قدر كاف من السذاجة ليعتبروه اشتراكية ولقد كان الفرنسيون العظام على استعداد للقسم بأن هذه فلسفة أما من جانبنا فاننا على يقين من أن للزهرة نفس الرائحة مهما كان الاسم الذي يطلق عليها

وفيما كان دولباخ يشاطر الفيزيوقراطيين أفكارهم الاقتصادية وما اكثر ما كان يسبح بفضلهم* فانه لم يشاطرهم نزوعهم الى الاستبداد المشروع لقد كان مؤيدا متحمسا للحكم التمثيلي ، ولم يكن الاستبداد في نظره طريقة للحكم في حال من الاحوال

لا يمكن اعتبار الاستبداد الا صراعا غير متكافىء بين عصابة مسلحة واحدة أو عدة عصابات مسلحة وبين مجتمع لا حول له ولا قوة**

ولقد طرح فيلسوفنا على نفسه « **أسئلة طبيعية** » عديدة كانت تصادف تفهما لها في الجمعية التأسيسية الفرنسية وكانت هذه الاسئلة المميزة جدا كما يلي

أيجب أن يخضع الكل لجزء منه أيجب تجرف ارادة رجل واحد الجميع ؟ أثمة في أي مجتمع كائن مميز يستطيع الاعراض عن واجب كونه نافعا ؟ أيكون العاهل الشخص الوحيد الطليق من الروابط التي تربط جميع الآخرين ببعضهم بعضا ؟

---

* « الكتاب المندفعون والفاضلون المواطنون الشرفاء لا يمكن اضافة شيء الى الآراء النافعة التي املاها عليهم اهتمامهم بالصالح العام ( **الحكم الاخلاقي** ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ) .

** **السياسة الطبيعية** ، ص ٤٤

أيستطيع رجل واحد أن يربط الباقين جميعا الى بعضهم بعضا دون أن يُربط هو نفسه من جانبهم ؟ أيكون امتلاك القوة السائدة ، وهي ظالمة في أصلها وباقية بفعل القوة ومقبولة من جراء الضعف وحده ، حقا لا يمكن قط تدميره بواسطة العدل والعقل والقوة ؟ »

ان هذا ليذكرنا بالعبارة الشهيرة سوف نصبح نحن أنفسنا غزاة (٢٠) ، كما تذكرنا الفقرة التالية بمشهد آخر من الثورة الكبرى

« ليست السلطة العليا سوى حرب الواحد ضد الجميع حالما ينتهك العاهل الحدود المرسومة له من قبل ارادة الشعب »

ما الذي يمكن أن يقال اعتراضا على هذا المشهد في **قاعة لالعاب الكرة** (٢١) . ان سائر كتابات دولباخ على وجه التقريب مشربة بحقد لا هوادة فيه ضد الاستبداد ويلمس المرء ان ما يكمن خلف جميع أقواله في هذا الشأن هو الواقع الكئيب وليس نوعا من النظرية المجردة وقياسا على ذلك فليست النظرية المجردة بل الواقع الكئيب هو الذي يحمله كذلك على الاستنجاد بالحرية — وهي ابنة العدالة والقانون ، موضع محبة جميع القلوب النبيلة وما أكثر ما يبدو انه يستشعر اقتراب العاصفة السياسية ، ويقول

لا يستطيع المواطن دون التهرب من واجبه أن يرفض الانحياز الى جانب بلاده ضد الطاغية الذي يضطهدها »

من يدري ؟ لعل هذه الكلمات ، قبل أن تسجل على الورق ، قد لفظت وتبنيت في احدى المناقشات الفلسفية في منزل دولباخ حيث يقول مورّوليه انه كانت تقال أشياء كان يمكن أن تصعق البيت بالصاعقة مائة مرة على الاقل لو أن مثل هذه الشرارات تنطلق من مثل هذه الاسباب ومن المرجح أن ديدرو كان متفقا مع دولباخ بل تجاوزه ولعل غريم صفق مؤيدا يا للرجل البائس ، فلسوف يعير آراءه عندما تنفجر العاصفة لا في **صالـون** مفروش بصورة مترفة ، بل على حلبة تاريخية فسيحة

وبالفعل ، أكان يمكن لسلوك دولباخ أن يكون افضل من ذلك بعد العاشر من آب (٢٢) ؟ أفما كان يكرر قوله في جمعية يعقوبية أليس الطاغية المخلوق الابغض الذي يمكن للجريمة أن تنجبه * ؟ اذا شئنا الصراحة ، فنحن لا نملك ية معلومات في هذا الشأن لكنه أكثر من مرجح أن دولباخ ما كان ليتعامل مع الجمهوريين المتطرفين بل كان سيعتبرهم أيضا من حيث هم طغاة وأعداء للوطن الام متعصبون ودجالون سياسيون

كان دولباخ يحترم الحرية لكنه كان يخشى « **الاضطرابات** » ، وكان على يقين من أن الادوية العنيفة خطرة على الدوام في السياسة وفي الطب على حد

* المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٤٤ سوف نستشهد باستمرار بهذا الكتاب في تقديم آراء دولباخ السياسية ونشير الى المصادر الاخرى كلما دعت الضرورة الى ذلك

سواء    ولقد كان يتعامل بكل طيبة مع مليك بشرط أن يكون هذا المليك « فاضلا »
على الاقل   وبالرغم مما يقول من أن مثل هؤلاء الملوك نادرون جدا مثل النيازك ،
فقد كان يحلم باستمرار   بحكيم على العرش     ولقد كانت برهة حسب فيها
خلال حكم وزارة تورغو   ان حلمه تحقق   ولقد أهدى كتابه **الحكم الاخلاقي** الى
لويس السادس عشر   المليك العادل   الانساني   المحب للخير   صديق الحقيقة
والفضيلة والبساطة   عدو التملق والرذيلة والابهة والاستبداد   معيد النظام
والاخلاق   والد شعبه     وهكذا دواليك   ولعله بدل في وقت لاحق رأيه في
لويس السادس عشر   لكن خوفه من الحركة الشعبية « **المضطربة** » لم يفارقه
لقد كان الشعب يتألف ، في نظر دولباخ   من   فقراء ،   لكن

**« الفقر ، الذي غالبا ما يصبح العوبة أهواء السلطة ونزواتها ، يفسد قلب الانسان او يثير الغضب فيه »**

وما استكان « الفقير   لشرطه « تفتت نشاطه الروحي كليا ؛ انه يحتقر نفسه، لانه يرى نفسه منبوذا وموضع الازدراء العام *   **لكن الامور تسوء اذا هو ثار**

نظرة خاطفة الى تاريخ الديموقراطيات القديمة والحديثة على السواء سوف تبين أن الحمى والشغب هما اللذان يثيران على الشعب عادة** »

**كلما كان الشعب مالكا لسلطة حملت الدولة في احشائها مبدأ دمارها** الخاص *** »

ولو أن دولباخ خير بين الحكم المطلق والديموقراطية لفضل الحكم المطلق
لقد كان مونسكيو على خطأ فاحش حين سمى الفضيلة القوة المحركة في شكل
الدولة الجمهوري   ان للجمهورية صنما آخر   **المساواة** ، « **هذه المساواة التي لا تصادف الا في الروايات والتي ليست في ماهيتها شيئا آخر سوى الحسد** » .
ان طغيان الديمقراطية هو « **الشكل الاشرس والاقل عقلانية** » للاستبداد   ولم يكن
دولباخ يرى في الصراع الطبقي في اثينا القديمة سوى « **العنف الرعاعي** »   كما
أن الثورة الانكليزية الاولى لم تثر فيه الا الرعب من   التعصب الديني
لدى الشعب

«مما لا ريب فيه   الشعب لم يصنع كي يأمر   فهو عاجز   ذلك   الحرية العريضة سوف تفسح فيه عاجلا الى فجور

---

* **الحكم الاخلاقي** ، ص ١١٩ —   ان شعبا ملزم بالعمل لمعيشته يكون عادة عاجزا عن التفكير ( **نظام الطبيعة** ، الجزء الثاني   ص ٢٤٨ )

** **السياسة الطبيعية** ، الجزء الثاني ، ص ٢٣٨

*** المصدر نفسه ، ص ٢٤٠

لقد خلق كي يكون نشيطا و البطالة تفسده وتجعله صفيقا * فلا بد من كبح جماح الشعب وحمايته من حماقته الخاصة

ملكية مطلقة تمنح حرية العمل التامة لبورجوازية مثقفة و فاضلة ــ هذا هو المثل الاعلى السياسي لفيلسوفنا وملك مواطن ما اكثر ما استعمل دولباخ هذا التعبير ) ينتخب من قبل مواطنيه ليكون جهازا لارادة الجميع ومنفذا لها وطبقة للملاكين تعبر عن هذه « الارادة » ــ هذا هو ما تدعو اليه السيدة «الطبيعة» من خلال وساطة دولباخ ويخطىء لانج خطأ جسيما حين ينسب اليه عقيدة راديكالية في السياسة ** لقد كانت الراديكالية شيئا محالا من وجهة النظر السيكولوجية عند فلاسفة القرن الثامن عشر ولقد رأينا من قبل ما هي فكرتهم عن الشعب وما كان يمكن أن تكون لهم فكرة أخرى طالما أن الشعب الفرنسي لا يبرح بعد كتلة ميتة وعاطلة ، مثله كمثل المادة عند الميتافيزيائيين وبنتيجة ذلك فانه لم يتبق سوى بورجوازية متفلسفه وليبرالية ومهما يكن من شيء فان راديكالية حازمة وشاملة هي في المحل الاول عقيدة لا تناسب البورجوازية من حيث هي طبقة حتى في اللحظات الاشد ثورية من حياتها التاريخية وهو ما برهنت عليه الثورة الفرنسية جيدا ) أكان يمكن لتجمع من سائر الناس المفكرين أن يكون كبير العدد أكان يمكن اعتبارهم قوة سياسية قادرة على أن تهز المجتمع من قمه حتى أعماقه ؟ كان الفلاسفة مدركين جيدا أن الامر لم يكن كذلك ، وهذا هو السبب في عودتهم المتصلة الى حلمهم عن حكيم على العرش يعمل على تحقيق طموحاتهم وهذه حقيقة مفيدة ومميزة ! حين أصبح تورغو وزيرا كتب دولباخ الراديكالي هذا العدو الالد للطغاة والمستبدين ، ان الحكم المطلق بالغ المنفعة اذا هو بدأ بالتخلص من حالات سوء الاستعمال ، وبالغاء الظلم ، وبتقويم الرذائل، وقس على ذلك وعنده ان الاستبداد يكون أفضل أشكال الحكم اذا ما ضمن المرء أن الذين سوف يمارسونه هم دائما من أمثال تراجان وتيتوس أو انطونيوس»، لكنه ما كان يستطيع أن ينسى انه يساس عادة من قبل اولئك العاجزين عن استخدامه بصورة حكيمة ؛ ولقد كان يعتقد في الوقت نفسه أن العرش الفرنسي سيؤول الى ند لتيتوس وما كان يريد شيئا أفضل***

ان الحاجة تمس الى قاعدة اجتماعية اذا كان لا بد من اصلاح المجتمع وحيث لا تتوفر هذه القاعدة فان راديكالية اولئك الناقمين على السلطة القائمة لأبعد

---

* نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٨٥ **النظام الاجتماعي** ، الجزء الثالث ، ص ٨٥

** المصدر نفسه ، ص ٣٨٠ وعلى أي حال فقد كان لانج يقصد **نظام الطبيعة** وحده ومن الواضح لم يكن على معرفة **بالسياسة الطبيعية** و **الحكم الاخلاقي** و **النظام الاجتماعي** أو **الاخلاق العموميــــة**

*** الحكم **الاخلاقي** ، ص

ما تكون عن الاستمرار ولقد شاهدنا ذلك في روسيا عند ارتقاء الكسندر الثاني سدة العرش وحين اخـذ على عاتقه قضيـة الغاء نظـام ملكيـة الاقنان فان الراديكاليين عندنا مثل هرتزن وباكونين اعلنوا انهم غلبوا على أمرهم بفعل حكمة الامبراطور وشربوا نخب تيتوس بل لقد كان تشيرنيشفسكي نفسه مستعدا للاعتراف بأن الاستبداد افضل اشكال الحكم عندما يتخلص من حالات سوء الاستعمال ويلغي الظلم ، وقس على ذلك »

ان بييلنسكي ، وهو اجرأ والمـع الناطقين باسم انصار الغرب (٢٣) في الادب الروسي ابان حكم نقولاس الاول قد قال مرة ، قبل وفاته بثمانية عشر شهرا ان كل تقدم على الاطلاق في روسيا يأتي من فوق ولعل نقولاس الاول يشبه كائنا من كان في العالم باستثناء « تيتوس » أو تراجان ولكن ما عسى أن يفكر فيه بييلنسكي سوى ذلك اذن ؟ وعلى أي شيء آخر كان في مقدوره أن يعلق آماله ؟ لقد كان الشعب الروسي من وجهة نظر نصير للغرب كتلة عاطلة وميتة لا يساوي شيئا دون ارشاد من قبل سلطة حاسمة وحين بدات حركة ثورية بين الشبيبة الطلابية بعد بضعة عقود ، فان « الانتليجنتزيا » عندنا افلتت من المأزق بانفصالها عن « **الغرب** » ، معلنة أن الروس انضج للثورة و الاشتراكية » من اي شعب آخر وهكذا اصبح المعجبون ببييلنسكي وتشيرنيشفسكي الان ، في جوهرهم ، **عصاة من أصحاب النزعة السلافية** (٢٤) .

يقول دولباخ ان الكثيرين من الملوك يحكمون في الاغلب بقسوة بالغة لانهم لا يعرفون الحقيقة ؛ انهم ينفرون من الحقيقة لانهم يجهلون ميزاتها التي لا تقدر ان حاكما حكيما لن يحتفظ بسلطته الخاصة غير المحدودة بل يضحي بقسم منها بحيث يستخدم بصورة افضل ذلك القسم الذي احتفظ به ولقد كررت الفكرة نفسها قبل بضعة سنوات السيدة تسيبريكوفا في رسالتها الشهيرة الى الكسندر الثالث ولم تكن هذه السيدة تدعي الراديكالية في حال من الاحوال*.

وحين أصدر الامبراطور الالماني في مطلع عام ١٨٩٠ مراسيمـه عن مسألة العمل (٢٥) ، كانت الصحافة الروسية الليبرالية و « الراديكالية على يقين من ان المانيا يحكمها عاهل حكيم

كان الحكيم على العرش » هو (٢٦) deus ex machina بالنسبة الى الفلسفة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، اذ كان في مكنتـه أن يحـل في الحال جميـع الصعوبات النظرية وجميع التناقضات الناشئة عن وجهة النظر الميتافيزيائية التي كان الفلاسفة ينظرون منها الى سائر الظواهر الاجتماعية كيف كان رجال الانوار الفرنسيون يرون مجرى التاريخ ؟ كانوا يرونه من حيث هو تعاقب للاحداث

---

* سألت السيدة تسيبريكوفا الامبراطور ما عسى يقول التاريخ عنه استمر يحكم بالطريقة نفسها وكان ما كتبه القيصر على هامش رسالة هذه المرأة : « وما شأنك انت » ؟

لا ينتهي ومعظمها احداث كئيبة دونما ترابط باطن على الاطلاق ودون خضوع لأي قياس ويقول كونديااك مثقفا تلميذه

« قد تشاهد احيانا أزمانا سعيدة ، حيث المعرفة والقوانين والاخلاق تحقق الازدهار للدول بيد أنك سوف تشاهد في الاغلب أزمانا تعيسة ، حيث الجهالة والمستبقات والاخطاء والرذيلة قد هيأت الكوارث للشعوب ودمرت أكثر الامبراطوريات ازدهارا*

لماذا كانت الامور كذلك ؟ لان الانوار » كانت معدومة

ان الفنون والعلوم التي ولدت في احشاء الهمجية انارت على التعاقب عددا قليلا الامم المميزة هذا كوكب يختفي عن البعض بقدر ما ينكشف للبعض الآخر وهو لا ينير على الدوام الا رقعة محدودة**

ولقد عبر فولتير عن الفكرة نفسها بمزيد من الايجاز والقوة في كتابه **دراسة في العادات** حيث يقول (( لقد بدأ العقل في الشروق لتوه )) . وهكذا لم يكن في مقدور الماضي أن يشاهد سوى اللاعقل والجنون ، واللاعقل والجنون لا يخضعان لاي قانون ، وهما على العموم لا يستأهلان الدراسة ، بل يكفي تقرير وجودهما ولقد كتب فولتير يقول عن البرابرة الاسيويين « لا تستأهل عصورهم القديمة وصفا تاريخيا اكثر مما تستأهل ذلك الذئاب والنمور في بلادهم*** وكان فولتير مع ذلك أفضل دراسي التاريخ الذي خصه بوقت طويل . ولقد وضع موضع التساؤل بكل عنفوان الراي الذي تنادي به بطلته (( اميلي الالهية )) التي لم تكن قط قادرة على مطالعة أي كتاب جدي عن تاريخ الشعوب الحديثة**** ان القليلين جدا كانوا يعرفون التاريخ مثل معرفة فولتير له

ويقول دولباخ

« يبدأ الانسان بأكل جوز البلوط وبمنافسة الوحوش في سبيل طعامه ؛ وانه ينتهي بقياس السموات فاما فلح الارض وزرعها اخترع الهندسة وكي يحتمي من البرد غطى نفسه اولا بجلود الحيوانات التي تغلب عليها ، لكنكم ترونه بعد قرون عديدة يمزج الذهب بالحرير وكان كهف أو جذع شجرة مسكنه الاول ، لكنه يصبح معماريا ويبني القصور*****

ونستطيع في أيامنا دون أن نأتي على ذكر ماركس وانجلز ان نشير الى مورغان الذي اتخذ منطلقا له تطور القوى الانتاجية للجنس البشري الامر الذي مكنه من التغلغل بنجاح الى سر تقدمه التاريخي ولم يدرك دولباخ قط انه طرح

---

* موجز الدراسات من أجل تثقيف امير بارم ، جنيف ١٧٧٠ ، الجزء الرابع ، ص ١ — ٢

** المصدر نفسه ، ص

*** دراسة في العادات ، الفصل ٥٣

**** انظر مقدمة دراسة في العادات .

***** النظام الاجتماعي ، الجزء الاول ، ص ١٩١

الحقائق الاساسية للتاريخ البشري فهو لم يفعل ذلك الا بيانا للانتصارات التي حققها « العقل واثباتا ضد روسو لان الحياة المتحضرة افضل من حالة التوحش حين أخطأ الجنس البشري أصبح بائسا » ـ هذه هي فلسفة التاريخ عند دولباخ في كلمات معدودة* ولو انه اضطر الى الدخول في التفاصيل لاضاف ان حضارة الازمان القديمة سقطت من جراء « الترف » ، وان الاقطاعية نشأت عن « السلب والاضطرابات والحروب » ، وانه « لم يكن بد من قطع رأس تشارلز الاول بسبب الخلافات الدينية وانعدام التهاون عنده » ، وان يسوع كان دجالا ، الخ ولشد ما سوف تكون دهشته عظيمة اذا علم أنه لم ير الا « خارج الظواهر

لم ير الفلاسفة في التاريخ شيئا آخر سوى نشاطات البشر الواعية ( الاكثر أو الاقل حكمة » ، لكنها في الاغلب النقيض من ذلك كما رأينا من قبل ) ومهما يكن من أمر فاذا لم يتبين المرء في التاريخ شيئا آخر سوى نشاطات البشر الواعية فمعنى ذلك انه يضيق أفقه حتى درجة كبيرة وانه سطحي بصورة تبعث على الذهول فنحن نرى في كل حركة تاريخية عظمى رجالا يقفون في مقدمة معاصريهم يعبرون عن اتجاهاتهم ويصوغون طموحاتهم وانه ليمكن ، قياسا على ذلك بالضبط، أن يظهر اناس آخرون يركبون موجة الرجعية السياسية ويناضلون ضد الاتجاهات التجديدية ويعارضون مساعي المجددين واذا لم يكن التاريخ مصنوعا من شيء آخر سوى نشاطات البشر الواعية ، فان « الرجال العظام » وحدهم هم ، بالضرورة، سبب الحركة التاريخية وانه ليترتب على ذلك اذن أن الدين والاخلاق والعادات والاعراف وطبيعة الناس بأكملها هي من صنع رجل عظيم واحد أو عدة رجال عظام عملوا ونصب اعينهم أهداف محدودة لنر ما يقوله دولباخ عن الشعب اليهودي لقد قاد موسى الاسرائيليين الى الصحراء و

« عودهم الطاعة العمياء ولقنهم السماء وخرافة رائعة عن اجدادهم واحتفالات غريبة قيد الجبار بها المفضلين عنده وقبل كل شيء بث فيهم حقدا مسموما ضد آلهة الامم الاخرى والشراسة الاكمل ضد عبادها ولقد حولهم بفضل المذابح والعنف الى عبيد خنوعين لارادته مستعدين لدعم اهوائه وللتضحية بأنفسهم من أجل ارضاء اغراضه الطموحة وبكلمة واحدة فقد حول العبرانيين الى ابالسة للحمى والشراسة وهكذا بعدما بث فيهم روح الدمار اطلعهم على اراضي جيرانهم واملاكهم هذه التي خصهم بها الله نفسه** »

ومن وجهة النظر هذه ليس تاريخ الشعب اليهودي شيئا خارجا عن المألوف. لقد كان لكل شعب موساه ، وان لم يكن أمثال موسى هؤلاء على مثل وحشية

---

* نظام الطبيعة ، الجزء الاول ، ص ٣٢ انظر ايضا مقدمة النظام الاجتماعي

** المسيحية المكشوفة ، ص ٣٥

موسى اليهودي طالما أن التاريخ في راي دولباخ وفولتير على حد سو لم يعرف قط شعبا شريرا بقدر شعب اسرائيل

« جرت العادة أن يخرج من وسط الامم المتحضرة اشخاص يجلبون العادات الاجتماعية والزراعة والفنون والقوانين والآلهة ودساتير الايمان والآراء الدينية الى الاسر أو الارهاط التي لا تبرح مشتتة ولم تتحد بعد في أجسام قومية انهم يلطفون اخلاقها ويجمعونها الى بعضها بعضا ويعلمونها تنتفع من قواها وان تتعاون كي تلبي حاجاتها بقدر أكبر من اليسر وإما يجعلون وجودها بهذه الطريقة أهنأ يكسبون محبتها واحترامها ويفوزون بحقهم في وصف الآراء ويحملونها على اتخاذ تلك الآراء التي ابتدعوها بأنفسهم أو استعاروها من البلدان المتحضرة التي جاؤوا منها ان التاريخ يبين لنا أشهر الشارعين كانوا رجالا اغتنوا بالمعرفة النافعة المتوفرة لدى الامم المتمدنة وحملوا الى المتوحشين الجهلة والعاجزين فنونا تخص هذه الامم الاخيرة وغير معروفة بعد هؤلاء كانوا أمثال باخوس واورفيوس وتربتوليموس ، » الخ*

اجتاز جميع الشعوب المتحضرة في اليوم الراهن مرحلة التوحش في بداية تطورها ؟ ان هـذا السؤال الذي يمكن الجواب عنه بكل سهولة اليوم قـد سبب لفيلسوفنا قدرا كبيرا من المتاعب فهو لم يكن يملك أي رأى جازم عن أصل الجنس البشري فكيف له اذن أن يعطي وصفا عن شرطه الاجتماعي البدائي ؟ انه لمـن المرجح حتى درجة رفيعة أن الشعوب المتحضرة جميعا انطلقت من حالة التوحش لكن كيف توصف حالة التوحش هذه بالذات؟ عند هذه النقطة يظهر deus ex machina جديد ــ الجيشانات الرهيبة التي جرت في قشرة الارض ولعل هذه الجيشانات دمرت القسم الاكبر من الجنس البشري أكثر من مرة ، واولئك الذين لم يبيدوا كانوا عاجزين عن أن ينقلوا الى الاجيال التالية المعرفة والفنون التي كانت موجودة قبل مثل هذه الكوارث وهكـذا فلعل البشر ارتدوا الى التخلف من جديد في مناسبات عديدة بعدما بلغوا درجة معينة من الحضارة

لعل هذه التجددات الدورية للجنس البشري هي السبب في الجهل العميق الذي نراه غارقا فيه بشأن المواضيع ذات الاهمية العظمى بالنسبة اليه وقد يكون ذلك المصدر الحقيقي لقصورات معرفتنا وللعيوب البادية في المؤسسات السياسية والدينية**

ولقد رأينا من قبل أن البشر لم يعطوا أن يعرفوا ما الذي جاء أولا ــ البيضة أم الحيوان ونحن نعرف الآن أن دولباخ لم يعط أن يعرف ما اذا سبقت الحضارة حالة التوحش أو العكس بالعكس

كان دولباخ راضيا بمعرفة ان « الجنس البشري اصبح بائسا بنتيجة الخطأ » الذي ينبغي تخليصه منه . ولم يبخل بالوقت أو المال في سبيل تحقيق هذه الرسالة

---

* نظام الطبيعة ، الجزء الثاني ، ص ٢٤ ــ ٢٥

** المصدر نفسه ، ص ٢٥ ــ ٢٦

النبيلة واهبا حياته بأسرها للصراع ضد (( المستبقات )) التي يشكل الدين أعندها واخبثها وقد خاض فيلسوفنا نضالا متصلا ضده لقد وفر فولتير الكائن الاعلى في نضاله ضد « الشائن »[ « l'infâme » ] ، وكل ما سعى اليه هو أن يرده الى العقل فقد كان دستوريا في شؤون الدين وكل ما يبتغيه هو أضعاف جبروت الله من خلال القوانين الابدية للطبيعة كما يفسرها الفلاسفة وعلى اي حال فقد كان الماديون الفرنسيون في الشؤون السماوية جمهوريين صريحين، فقد قطعوا رأس الله على المقصلة قبل زمن طويل من اختراع الدكتور غيللوتين الطيب لها كانوا يكرهونه كما لو كان عدوهم الشخصي فهذا الطاغية الشرير والمنتقم والشرس يستثير حقدهم النبيل من حيث هم بشر ومواطنون ويهتف دولباخ

« من المحال حب كائن لا يمكن تثير فكرته الا الخوف كيف يمكن لمرء يتطلع دون خوف في وجه الله الذي يعتبره على قدر كاف من الهمجية كي يدينا ؟ ليس في مقدور انسان على الارض ينطوي على شرارة واحدة من الحب لاله يهيىء عقابا لا حدود له في ديمومته وقسوته لتسعة وتسعين بالمائة من ابنائه واذن فاستخلصوا نتائجكم ، أيها اللاهوتيون ، بأن الهكم ، وفقا لمبادئكم الخاصة ، اخبث من اخبث البشر*».

وكان الماديون الانكليز من معاصري دولباخ أكثر ودا حيال اله اليهود القدماء الذي لم يضمروا له سوى (( شعور بالمحبة )) و (( الاحترام )) . كانت الشروط الاجتماعية التي يعيشون فيها مغايرة كليا ان جسمين مركبين من نفس العناصر الواحدة لكن بنسب مختلفة ، لا يملكان نفس الخصائص الكيميائية وفيما عدا ذلك فان الفوسفور الاصفر يختلف اختلافا كبيرا عن النوع الاحمر منه. ولا يدهش هذا الامر أيا من الكيميائيين الذين يقولون ان ذلك يتوقف على البنية الذرية لنفس العناصر الواحدة وفضلا عن ذلك فما أكثر ما يعجب الناس لان نفس الافكار الواحدة تملك نفس اللون وهي تقود الى نتائج عملية متغايرة في بلدان مختلفة هي على العموم عظيمة التشابه في البنية الاجتماعية ليست حركة الافكار الا انعكاسا للحركة الاجتماعية ، وان الطرق المختلفة التي تسلكها الافكار وتدرجاتها المغيرة باستمرار تقابل بالضبط التجمعات المختلفة للقوى في الحركة الاجتماعية ان اشكال التفكير تتوقف دائما على اشكال الوجود**

يقول المادي الانكليزي بريستلي

أما ان المصالح العامة للفضيلة سوف تضمن بصورة فعالة بواسطة الايمان كاف في الحياة الآتية لقاء كل ما صنع من خير أو شر في الحياة الراهنة ، فهذا ما يمكن

---

* الحس السليم المستقى في الطبيعة ، الجزء الاول ، ص ٨٩ – ٩٣

** نفس الفكرة الواحدة التي يعبر عنها رجلان يلاحقان غايات عملية مختلفة غالبا ما يكون لها معنيان متغايران كليا وفي راي دولباخ ان الدين الحقيقي في أي بلد هو دين الجلاد ويقول هوبس الشيء نفسه جوهريا وما أشد اختلاف معنى هذه الافكار في فلسفتي هذين الرجلين !

انكاره بكل صعوبة*
وكان الأليهي الفرنسي فولتير ينادي بالراي نفسه بـل لقد كتب بطريرك فيرنيي قدرا كبيرا من اللغو في هذا الموضوع وأما المادي **الفرنسي** دولباخ فكان يفكر على هـذا الغرار

ان جميع الناس على وجه التقريب يؤمنون باله يقتص ويكافىء ، ومع ذلك نشاهد الاشرار في جميع البلاد اعظم عددا من الاخيار تحرينا عن السبب الحقيقي لمثل هذا الفساد واسع الانتشار اكتشفناه في الافكار الدينية بالذات وليس في المصادر الوهمية التي اخترعتها الاديان المختلفة في العالم كي تفسر الانحطاط الانساني ان البشر فاسدون لانهم في كل مكان تقريبا يحكمون بصورة سيئة ، وهم يحكمون بصورة خسيسة لان الدين اله الملوك ؛ وان هؤلاء الملوك الذين ضمنوا الحصانة من العقوبة وهم انفسهم فاسدون ، قد جعلوا بالضرورة شعوبهم بائسة وشريرة ان الناس الذين اخضعوا لاسياد غير عقلانيين لم يسترشدوا بالعقل قط ونظرا لان الدجالين المتكهنين اعموهم بات العقل عديم المنفعة لهم... **

وهكذا ينظر الى الدين على اعتباره القوة المحركة الرئيسية في التاريخ ان الذي يقف امامنا هو بوسويه مقلوبا فقـد كان مؤلف **مقالة في التاريخ العمومي** على يقين من أن الدين رتب جميع الامور على أفضل طريقة ، فيما كان دولباخ يعتقد انه انحط بجميع الامور حتى الحالة الاسوأ وكان هذا الفارق الخطوة الوحيدة الى الامام التي قامت بها فلسفة التاريخ في سياق قرن كامل ، وهي خطوة كانت عواقبها العملية هائلة ، لكنها لم تساعد البتة في فهم الحقائق التاريخية كان « الفلاسفة عاجزين عن الافلات من **دائرة** مفلقة فالانسان من جهه واحدة نتاج بيئته الاجتماعية:

« يجب أن نبحث في التربية عن المصدر الرئيسي لرذائل البشر وفضائلهم وعن الاخطاء والحقائق التي تمتلىء رؤوسهم بها وعن العادات الحميدة أو البغيضة التي يعتادونها ، وعن الصفات والمواهب التي يكتسبونها... ***

ومن جهة ثانية ، فان جميع الاضطرابات في المجتمع تنشأ عن « **الجهل بأوضح مبادىء السياسة** » . ان البيئة الاجتماعية يخلقها « **الرأي العام** » ، يعني الانسان. وان هذا التناقض الاساسي يظهر مرارا وتكرارا في أشكال متنوعة ، في كتابات دولباخ كما يظهر على أي حال في كتابات جميع « الفلاسفة » الاخرين

١ً ـ **الانسان نتاج البيئة الاجتماعية** وبالتالي يترتب بمنطق تام ان **الرأي العـام** لا يحكم العالـم

---

* **مناقشة حرة لعقيدة المادية والضرورة الفلسفية في مراسلة بين الدكتور برايس والدكتور بريستلي** ، لندن ١٧٧٨ المقدمة ، ص ز ـ ح

** **نظام الطبيعة** ، الجزء الثاني ص ٢١٩

*** **النظام الاجتماعي** ، الجزء الاول ١٥

« انما البشر هم ما يصنعه منهم تنظيمهم الخاص كما تعدله العادات والتربية ومثال الغير والحكومة والظروف ، سواء أكانت دائمة أم عابرة وان أفكارهم الدينية وانظمتهم الوهمية ملزمة بالخضوع أو التكيف مع مزاجهم ، وميولهم ، ومصالحهم* »

اذا عمد المرء الى دراسة الامور برباطة جأش فسوف يجد ان اسم الله خدم على الارض دائما وعلى وجه الحصر كذريعة للاهواء البشرية** »

ان الاشياء من حولنا ، والمصالح العابرة والعادات الراسخة والرأي العام ، تملك زخما أقوى حتى درجة كبيرة من الكائنات الوهمية أو التأمل الذي يتوقف هو نفسه على ذلك التنظيم*** »

ان قوة التأمل و الكائنات الوهمية تتضاءل أكثر فأكثر لان المرء لا يستطيع الا بكل صعوبة أن يقع على رجلين من بين مائة الف رجل يتساءلان ما الذي يجب فهمه من كلمة الله ولان الناس يُستحثون للفعل ليس بدافع اعتبارات عامة للعقل بل بدافع الاهواء، كما لاحظ **بايلي** من قبل ، وسنيكا من قبله أيضا****

٢ً ــ **الانسان نتاج البيئة الاجتماعية . وأما بخصوص الآلهة ، فقد خلقها الانسان على صورته**

حين يعبد الانسان الله فانما يعبد نفسه***** ( راجع فيورباخ )

أليس من الواضح أن الله الجبار المتأثر بالمديح والمتلهف الى توكيدات العبادة المستمرة من جانب رعاياه ، قد خلق على صورة الملوك الارضيين******

٣ً ــ **الانسان نتاج البيئة الاجتماعية .**

اذا منحنا بعض التفكير الى ما يجري أمام اعيننا تبين لنا اثر الادارة يعني الحكومة ؛ سوف نرى الآن لماذا وكيف يقتصر تأثير البيئة الاجتماعية ، بالنسبة الى الفلاسفة على تأثير الحكومة وحدها ) « **في الخلق والآراء** والقوانين والعادات والتربية والاخلاق عند الشعوب*******

---

* **نظام الطبيعة** ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٩

** المصدر نفسه ، ص ٢٩٤

*** المصدر نفسه ، ص ٢٩٢

**** المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ و ٢٩٥

***** **الحس السليم** ، الجزء الاول ، ص ٥٧

****** **المسيحية المنكشفة** ، ص ١٧٦

******* **النظام الاجتماعي** ، الجزء الثالث ، ص ٥٠ ولقد مضى غريم الى ابعد من ذلك **في هذا الاتجاه** ، فكتب يقول ان زخم أكثر الآراء جسارة معدوم عادة ومهما يكن من أمر ، فليس هناك كتاب واحد ، مهما يكن ملهما قادراً على افساد الاخلاق ، كما انه لا يتوقف على أي فيلسوف لسوء الحظ ، ان يجعل الاخلاق كاملة ان الحكم والتشريع وحدهما يملكان هذه القدرة ، ولا تجد الاخلاقية العامة مستواها الصحيح من الصلاحية أو تفسد الا بعد تدخلهما الفاعل ، وليس للكتب أدنى علاقة بهذا الشأن » ( **مراسلات أدبية** ، كانون الثاني ١٧٧٢

وبالتالي فان شرور المجتمع هي التي تجعل الانسان سيئا      فالانسان يصبح ذئبا بالنسبة الى أقرانه*

**الجانب الآخر من التضاد .**

**١ ـ البيئة الاجتماعية ناشئة عن « الراي العام » ، يعني البشر .** وبالتالي نترتب بمنطق تام ان الراي العــام يحكــم العالم وان الجنس البشري أصبح بائسا بنتيجة الخطأ ( انظر أعلاه )

استشرنا التجربة وجدنا انه ينبغي لنا أن نفتش في الآراء والاوهام الدينية عن المصدر الحقيقي لجملة الشرور التي نجدها في كل مكان تجرف الانسانية    أن الجهل والاسباب الطبيعية قادتها الى خلق آلهتها    والخيبة جعلت هذه الآلهة رهيبة    وان تصورا مهلكا عن هذه الالهة قد طارد الانسان دون أن يجعله أفضل في حال من الاحوال، بل جعله يرتجف دون جدوى ، وملأ ذهنه بالاوهام ، وعارض تقدم العقل ، وأعاق البحث عن الهناءة    ولقد جعلته هذه المخاوف عبدا لاولئك الذين خدعوه بحجة الاهتمام بصالحه ؛ ولقد صنع الشر حين قيل له أن آلهته تتطلب الجرائم ؛ وعاش في الشدة لانه سمع مرارا وتكرارا ان آلهته حكمت عليه بالشقاء ؛ ولم يجرؤ قط على مقاومة الهته أو طرح اغلاله ، لان ذهنه حشر بأن الحماقة والتخلي عن العقل والبلادة الروحية واذلال النفس هي أفضل الوسائل لكسب السعادة الابدية**

**٢ ـ البيئة الاجتماعية ناشئة عن الرأي العام ، يعني البشر .**

« **كان جنون مكرس من السماء اقل ما يلزم لحمل كائنات تحب الحرية** وتسعى باستمرار الى السعادة على الايمان بأن المكلفين بالسلطة العامة تلقوا من الآلهة الحق في استعبادها واشقائها    كانت الاديان ضرورية لتسبغ على الالوهية صفات الطاغية بحيث يعتقد البشر أن الطغاة الظالمين هم الممثلون الارضيون لتلك الالوهية***

**٣ ـ البيئة الاجتماعية ناشئة عن الرأي العام ، يعني البشر .**

لماذا نرى ان الامم التي كانت ذات يوم نبيلة بطبيعتها قد سحقت تحت النير المخزي للاستبداد الشنيع ؟ ذلك لان الرأي العام تغير    لان التطير ، وهو شريك الطغيان ،

---

* **السياسة الطبيعية** ، الجزء الاول ، ص : ١١ ـ ١٢

** **نظام الطبيعة** ، الجزء الاول ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١    ولقد عرّف سوار الرأي العام كما يلي « اعني بالرأي العام حصيلة الحقائق والاخطاء المنتشرة في أمة    وهي الحصيلة التي تحدد احكامها عن الكرامة أو الازدراء ، والحب أو الحقد ، حصيلة تصنع ميولها وعاداتها ، وعيوبها وجداراتها ـ وباختصار اخلاقها وسلوكها    ولا بد من القول أن هذا الرأي العام هو الذي يحكم العالم    ( المؤلف المذكور ، ص ٤٠٠

*** **السياسة الطبيعية** ، الجزء الثاني ، ١١

نجح في افساد النفوس وفي جعلها جبانة ومذعورة وعديمة الشعور لماذا نرى الامم قد تسممت بالحافز التجاري والطموح الى الثروات ؟... ذلك لان الرأي العام اقنعها بأن المال وحده يجلب السعادة الحقيقية ، بالرغم من انه لا يعدو كونه بديلا مضللا ولا يسهم مطلقا في الصالح العام » ، الخ ، الخ*

لم تعرف الامم قط ما هي الاسس الحقيقية للسلطة ولم تجرؤ على أن تطلب السعادة من ملوكها المكلفين بتوفيرها لهم لقد حسبت أن للملوك ، الذين يرتدون ثياب الالهة ،الحق الولادي في التحكم في بقية البشر الفانين وبنتيجة مثل هذه الاراء انحلت السياسة الى الفن القاتل القائم على التضحية بسعادة الجميع على مذبح نزوات رجل واحد أو عدد من الاشرار اصحاب الامتيازات** »

لم يُعط الانسان ان يعرف ما اذا كانت البيضة جاءت قبل الحيوان او العكس بالعكس ؛ ولم يعط الماديون في القرن الثامن عشر أن يعرفوا ما اذا كان الرأي العام هو الذي يخلق البيئة الاجتماعية أو العكس بالعكس وفي الحقيقة انه ليس ما هو أصعب من الاجابة عن هذا السؤال بالنسبة الى امرىء لا يستطيع التخلي عن وجهة النظر الميتافيزيائية

واذا كانت الافكار الموروثة لا وجود لها كما بين لوك ذلك ؛ واذا لم يكن الانسان شيئا سوى « الاحساس كما نادى ماديو القرن الثامن عشر ؛ واذا كانت تصوراتنا الذهنية ، يعني الصور ، الانطباعات التي تتلقاها حواسنا ، تنشأ بفضل احساساتنا ؛ واذا لم يكن الانسان حرا في تفكيره اكثر مما هو حر في أفعاله »، فانه من المستغرب جدا ان نبحث في الرأي العام عن سر أي عمل يقوم به ان تصوراتنا الذهنية هي كما تصنعها الاحساسات التي نتلقاها وعلى أي حال فليست الطبيعة وحدها ـ بمعنى الكلمة الحقيقي ـ هي التي تولد هذه الانطباعات فينا فالانسان يقع منذ الولادة تحت سلطان البيئة الاجتماعية التي تقولب ذهنه هذا الذهن الذي هو شمع طري مكيّف بحيث يستقبل جميع الانطباعات الواقعة عليه*** وبنتيجة ذلك فان ذلك الذي يريد ان يفهم تاريخ « الرأي العام »يجب **أن يسعى لان يدرك بكل وضوح ما المقصود من تاريخ البيئة الاجتماعية** ، من تطور المجتمع تلك كانت النتيجة التي لا مفر منها والتي خلصت اليها أخيرا المادية **الحسية ان تمثال كوندياك الشهير ما كان يمكن أن يهدأ الا حين بات في مقدوره** أن يعزو التقلبات في « آرائه الى التغيرات الطارئة على علاقاته الاجتماعية ، العلاقات مع اشباهه (٢٧) »

---

* **النظام الاجتماعي** ، الجزء الثالث ، ص ٩ ـــ

** **نظام الطبيعة** ، الجزء الاول ، ص ٢٩١

*** **الحس السليم** ، الجزء الاول ، ص : ٣٢

وهكـذا كان **لا** بـد من الاستنجاد بالتاريخ ومهما يكـن من شيء فان الفلاسفة الذين لم يروا في التاريخ الا فعاليات الانسان الشعورية ما كان يمكن ن يميزوا شيئا فيه سوى « الآراء البشرية وهكذا كان **لا** بد لهم من القيام ضد **التناقض** الآراء **نتائج** البيئة الاجتماعية ؛ الآراء **أسباب** الخصائص المتنوعة لهـذه البيئة وكان لا بد لهذا التناقض من القاء الاضطراب في أفكار « الفلاسفة لانهم كانوا ينادون كما فعل جميع الميتافيزيائيين ، بأن **النتيجة والسبب** – على الاقل فيما يتعلق بالحياة الاجتماعيـة – فكرتان ثابتتان جامدتان متحجرتان اذا جـاز التعبير. وما كان يمكن لغريم ان يقول ان **أثر الآراء معدوم** الا على اعتباره ميتافيزيائيا.
التفاعل بين المظاهر المتنوعة للحيـاة الاجتماعية – تلك كانت وجهـة النظر الارفع و الاكثر فلسفية التي كان في مكنة « الفلاسفة تحقيقها وتلك كانت وجهة نظر مونتسكيو وعلى أي حال فان التفاعل هذه **الحقيقة الاوثق للعلاقة بين السبب والنتيجة** كما كان هيغل يسميه لا يفسر شيئا في العملية التطورية للتحركات الاجتماعيـة

لم يمض المرء الى أبعد من أعتبار المضمون من وجهة نظر التفاعل وحدها فذلك هو في حقيقة الامر نمط للاعتبار لا يتضمن اية فكرة على الاطلاق ؛ اننا نعالج حقيقة جافة ...بى مطلب الوساطة الذي هو الحافز الرئيسي لتطبيق علاقة السببية*

ومهما يكن من شيء فقد تحدث أمور أبعث من ذلك على الازعاج
الانسان نتاج البيئة الاجتماعية ان طبيعة البيئة الاجتماعية مرهونة باعمال « **الحكومة** » وان أعمال الحكومة والفعاليات التشريعية تنتسب سلفا الى حقل **النشاطات الشعورية** للبشر وان مثل هـذه النشاطات ، بدورهـا ، تتوقف على آراء اولئك الذين يفعلون ان الطرف الواحد من التناقض الموضوعة ) قد تبدل بصورة غير ملموسة لقد أصبح متماثلا كل التماثل مـع خصمه القديم – النقيضة ولقد يبدو ان الصعوبة زالت و الفيلسوف يواصل السير في طريق ابحاثه بضمير مرتاح ان وجهة نظر التفاعل لم تبلغ حتى ر فضت
لكن ليس هذا كل شيء ان هـذا الحل الظاهري للتناقض لا يعدو كونه انفصالا تاما عن المادية ان الدماغ الانساني هذا الشمع الطري الذي يعطي قالبا من قبل الانطباعات الناجمة عن البيئة الاجتماعية ، يتحول آخر الامر الى خالق للبيئة التي يدين لها بانطباعاته وبما ان المادية الحسية أصبحت عاجزة عن تحقيق اي تقدم لاحق فقد عادت ادراجها على الطريق نفسها
ثانيا ، ان مؤلف **نظام الطبيعة** سوف يؤكد لنا ان تأثير الحكم في الخلق **والآراء والقوانين** والعادات الح قابل للتمييز بكـل سهولة وبنتيجة ذلك فان الحكـم

* الموسوعة ، مشورات ليوبولد فون هيننغ ص ١٥٥ – ١٥٦ وما يليها .

يمارس تأثيرا في القوانين وان هذا ليبدو بسيطا جدا وواضحا على اكمل وجه لكنه لا يعني سوى ان القانون المدني الخاص بكل شعب انما يصدر عن قانونه العام ان القانون الواحد تتوقف على القانون الآخر و « **القوانين** » على غيرها من « **القوانين** » . ان التناقض يزول ، لكن لسبب وحيد هو انه قد تبين ان احد طرفيه هو في حقيقة الامر مجرد لغو تافه وهو ذلك الطرف الذي كان يجب ان يصوغ النتيجة الاخيرة الواجب استخلاصها من المادية الحسية

ولا بد من انجاز ما يلي في سبيل الخلاص من هذه الصعوبات

١ً ـ يجب الاعراض عن وجهة النظر الميتافيزيائية التي تستبعد أية فكرة عن التطور والتي شوشت مفاهيم الفلاسفة المنطقية ايما تشويش وعندئذ فقط يعطى الناس ان يعرفوا ما اذا كانت البيضة سبقت الحيوان أو الحيوان سبق البيضة في العلوم الطبيعية والتاريخية على حد سواء

٢ً ـ يجب الوصول الى القناعة الاساسية بأن طبيعة الانسان التي كان ماديو القرن الثامن عشر يتعاملون بها لا تقدم أي تفسير على الاطلاق لتطور الانسانية التاريخي كان من الضرورة بمكان بلوغ مرحلة تعلو على وجهة نظر العلوم الطبيعية ، يعني وجهة نظر **العلوم الاجتماعية** . كان لا بد من ادراك أن للبيئة الاجتماعية قوانينها التطورية الخاصة التي لا تتوقف على الانسان من حيث هو « مخلوق شاعر وذكي وعقلاني » ، والتي تمارس بدورها تأثيرا حاسما في حواسه وصوره الذهنية وأفكاره

وان المادية الجدلية في القرن التاسع عشر هي التي حققت هذه المهمة كما سنرى ومهما يكن من شيء فاننا نود قبل الحديث عن اكتشافاتها البارزة أن نستعرض آراء رجل فعلت قدوته ومنطقه الجسور الشيء الكثير من أجل كشف قصور المادية الميتافيزيائية وعوزها ، وهذا الرجل هو **هيلفيتيوس** .

✶ □ ✶

# ٢

# هيلفيتيوس

ان هيلفيتيوس هذا الملتزم الانيق والانسان المستقيم والمنزه والطيب ، الذي يلقبه فولتير أتيكوس في ذكرياته التاريخية المداهنة ، قد ارتأى ان يكتب كتابا ؛ وكيما يحقق ذلك جمع في لقاءات الفلاسفة المدعوين من طرفه الى مائدته ، نظرياتهم وآراءهم ومفارقاتهم ولما كان بارعا في المناقشات المهمة ، فقد استدرج الى المسرح ذكاء ديدرو المتألق تارة ، وحصافة سوار أو فكر الاب غاليان الفكه واللاذع تارة أخرى ومن بعد قدم في مجموعة من المعارف ، جميع الآراء المتنوعة التي سجلها بكل تلك الامانة وكانت حصيلة هذه المحادثات مثلما سمعت وحللت ولخصت كتاب في **الفكر** ، يعني المادية في الميتافيزياء ، والمصلحة الشخصية في الاخلاق*

يعرف القارىء الآن كيف شاهد عمل هيلفيتيوس الرئيسي النور ونستطيع في هذه الحالة الخاصة أن نصدق تماما ديموجو لان هذا الثرثار لم يفعل سوى تكرار رواية تناقلها طوال قرن كامل متحدث أدبي عن متحدث آخر ولقد كان ديموجو متحدثا حسن النية ، اذ لم يتكلم بالسوء عن هيلفيتيوس مطلقا بل ترك للقارىء أن يظن ما يشاء وكان هناك متحدثون اخرون اقل ودا واكثر صراحة ، ويعرف القارىء منهم أن فيلسوفنا كان يعمل ، في ابحاثه ، بحافز الغرور المفرط ونحن ندين لهذا الغرور بسفسطات « هيلفيتيوس ، وهذا الغرور هو الذي منعه من ابداع أي شيء حازم وأساسي وكان المتحدثون يتميزون دائما بحصافة فائقة وانه ليناسبهم جدا وعلى الدوام أن ينصرفوا الى كتابة تاريخ الادب والسياسة والامور جميعا صريحة وواضحة في عروضهم ، وأنت تقرؤهم بمتعة

---

* ديموجو **تاريخ الادب الفرنسي منذ اصوله حتى ايامنا الراهنة ، الطبعة الثانية** والعشرون ، باريس ١٨٨٦ ٤٩٣ ــ ٤ــ٤ ويشكل الكتاب قسما من **التاريخ العمومي** الذي نشره فريق من الاساتذة باشراف ف . دورو

كبيرة ، وبجهد قليل وبمنفعة عظيمة وانك لتفضلهم على ذلك الصنف من الكتاب الذين يغوصون في التاريخ مثل هيغل العجوز الطيب اعمق مما يفعل هؤلاء المتحدثون ان مثل هؤلاء الكتاب اناس مضجرون جدا لكن

وحين يتحدث هيغل عن الدور الذي يلعبه العظام في التاريخ يثور ضد « **دراسة الانسان الحقيرة التي بدلا من أن تتخذ موضوعا للبحث الصفات العامة والاساسية للطبيعة الانسانية تنهمك بصورة رئيسية في الخصوصي والعابر ، في الحوافز الفردية ، والاهواء ، وقس على ذلك** » ففي رايه ان « **الرجال العظام ارادوا ما صنعوا وصنعوا ما ارادوا** » . ويمكن ان يقال الشيء نفسه طبعا لكن بكلمات اخرى عن جميع اولئك الذين عملوا بقدر أكبر أو أقل من النجاح في مصلحة الجنس البشري وذلك وفقا لفهمهم الحمل الخصوصي الذي اشتغلوا فيه وانه ليمكن ايضا ان يقال ان « **وجهة نظر الحسد** » التي كان هيغل يحمرها احتقار لا تساعدنا في حال من الاحوال في فهم وتقدير المراحل المختلفة من التاريخ وانه ليمكن أن يقال لكن هناك الشيء الكثير مما يمكن أن يقال ، انما هل سيجد ذلك آذانا صاغية ؟ ولقد حصل المتحدثون على اذن افضل اصفاء حتى درجة كبيرة ومثال ذلك انهم حين يؤكدون أن هيلفيتيوس كان سفسطائيا خطيرا ، وانسانا مغرورا وفارغا فقد ظلوا راضين ايما رضى عن انفسهم وعن ذكائهم واستقامتهم وهم يصدرون هذه الادانة

ولقد تعرض هيلفيتيوس لمعاملة حقيرة بصورة خاصة على أيدي المؤرخين الالمان ان خلقه قد يحصل على حقه أحيانا في فرنسا بعد* لكن التساهل الذي في غير مكانه حيال هذا الرجل الخطير أمر يحذر جانبه في المانيا حيث تعرض هيلفيتيوس للشتم أكثر مما تعرض له **لامتري** بالذات فعلى الرغم من ان هذا الاخير كان على قدر كبير من الخطر فان جلالته فريدريك الكبير سعيد الذكر تفضل فتفوه بكلمات لطيفة عنه بعد وفاته **Nobuntas regis suprema lex، هذا ما يدركه العلماء الالمان أكثر من اي انسان آخر وذلك لانهم علماء بالضبط

يا لها من حقيقة مدهشة ! فعلى الرغم من ان نظريات هيلفيتيوس اخافت حتى « الفلاسفة خصومه بما فيهم اناس من عيار ديدرو فقد كان في فرنسا عرضة للهجوم **بعد** الثورة أكثر منه **قبلها** . ويعترف لاهارب ان دحضه «لسفسطات» هذا الرجل عام ١٧٨٨ **ترك انطباعا أضعف جدا** مما فعل بعد تسع سنوات في

---

* لشد ما ينبغي الحذر من الاوهام الناشئة عن الروح المنهجي ان لهيلفيتيوس فضائل لكن كتابه قضاء على اية فضيلة لاهارب **دحض كتاب « في الفكر »** ، محاضرة القيت في الكلية الجمهورية في جلسات ٢٨ و ٢٩ آذار و ٣ و ٥ نيسان ، باريس السنة الخامسة من الجمهورية [ ١٧٩٧ ] ، ص ١٨٧

** [ ارادة الملوك هي القانون الاعلى ]

١٧٩٧ ويقول لاهارب ان الناس لم يدركوا الا في ذلك الحين ان الفلسفة المادية عقيدة مسلحة ، عقيدة ثورية وما كانت البورجوازية في ١٧٩٧ في حاجة بعد الآن الى مثل هذه النظريات التي سوف تشكل تهديدا متصلا لمكاسبها: كان لا بد التخلص من المادية ، وقد تم التخلص منها ، دون ان يطرح السؤال قط عما اذا كانت البراهين المقدمة من المتملقين امثال لاهارب صالحة حقا كما وصفت ان الازمان تنتج حاليا مطامح جديدة وهذه المطامح تنتج فلسفات جديدة*

وأما فيما يتعلق بالمتحدثين فقد كانت لديهم أسباب وجيهة للشكوى من هيلفيتيوس فهم لا يستطيعون فهمه الا في مناسبات نادرة والسبب في ذلك لا يقتصر على كون أفكاره تتجاوز مدى افهامهم لقد كان لهيلفيتيوس طريقة أصيلة في التعبير عن نظرياته ، وهي طريقة قمينة بارباك المتحدثين لقد كان يحترم أقل من أي كاتب آخر في أيامه ما كان نوردان يسميه كذبة اتفاقية ولما كان رجلا اجتماعيا ومراقبا نافذ البصيرة فقد كانت لديه معرفة ممتازة بالمجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر ؛ ولما كان كاتبا لاذعا وهجاء ، فانه لم يفوت فرصة واحدة ليخبر هذا المجتمع بحقائق خاصة به كان من الصعب ابتلاعها كما لم تكن تملك أي شيء مشترك مع تلك الحقائق البريئة التي يزل اللسان بها دائما ومن هنا كان ذلك القدر الكبير من سوء الفهم الذي أعقب ذلك ان أقواله عن معاصريه قد اعتبرت **مثله الاعلى** . وتقول عنه مدام دي بوفلرز انه اماط اللثام عن اسرار الناس جميعا (٢٨) ، وهي تعتقد أن قيمة واهمية كتابه **في الفكر** يكمنان كلهما في هذه الحقيقة وان هذا التعويض قد آل أيضا الى ما يلي حين قام موضوع الاحترام للفضيلة قال هيلفيتيوس انها موضع الازدراء في الامبراطوريات الاستبدادية وكل ما هنالك ان اسمها كان موضع الاجلال

---

* كان مارا ينفر من هيلفيتيوس أيضا ويعتبر هذا الفيلسوف مجرد « ذهن كاذب وسطحي و نظامه سخيفا ، وكتابه « نسيجا متصلا من السفسطة المزوقة بكل عناية بعرض مقصود لسعة الاطلاع راجع **في الانسان أو في مبادىء وقوانين تأثير النفس في الجسد والجسد في النفس** بقلم جان ـ بول مارا ، دكتور في الطب ، امستردام ١٧٧٥ ، ص ف ـ س من الاحاديث الاولية ) ولا ينتسب كتاب مارا هذا الى المرحلة الثورية في حياته ونفضلا عن ذلك ، فان آراء **الثوريين** ليست آراء **ثورية** دائما وفي رأي مارا الانسان ، مثله كمثل أي حيوان ، مركب من جوهرين متميزين ـ النفس والجسد الحكمة الازلية وضعت النفس في **غلاف الدماغ** ( و سيالة الاعصاب هي رباط الاتصالات بين هذين الجوهرين المتغايرين » « ان السيالة العصبية هي العامل الاولي في الاعمال الالية وفي الاعمال الحرة تكون خاضعة للنفس وتصبح الاداة التي تستخدمها من أجل انجازها الجزء الاول ص ٢٤ ٤٠ ٧. هذا كله مبتذل بصورة تبعث على الذهول وان مارا ليذكرنا حتى درجة كبيرة **بدوهرنغ** في تفسيره للسابقين له **وفي** اعتباره الذاتي النزق .

« لهجت الالسنة بها كل يوم واذا هي طلبت من المواطنين فالمسألة في هذه الحال مسألة حقيقة تطلب بشرط ان يكون المرء على ما يكفي من الحذر بحيث لا يقول شيئا منها

ولقد ايدت هذه الموضوعة مدام دي بوفلرز التي وصفتها بأنها صحيحة وذكية ولذيذة وأكدت أنها تكشف عن أسرار جميع الناس واستطرد هيلفيتيوس يوضح السبب في أن الامور لا يمكن أن تكون مغايرة لما هي عليه في رأيه فبين كيف أن مصالح الناس تحملهم في الدول الاستبدادية على كراهية الفضيلة وتوافق مدام دي بوفلرز من جديد ومن بعد يأتي من هو شبيه **بلامب**، الماني عادة لكن فرنسي احيانا، فيرفع بدوره صوته قائلا ان هيلفيتيوس يضمر الازدراء للفضيلة. وحين يتعلق الامر بالحب فان هيلفيتيوس يقول انه حيث لا يسهم الاغنياء والكبار في الحكومة فلا بد لهم من الانصراف الى المغامرات العشقية على اعتبارها افضل ترياق للضجر وتبتسم مدام دي بوفلرز بمكر هنا ان هذا الجورب الازرق الفاتن يدرك ذلك بصورة أفضل من ادراك الفيلسوف له ومهما يكن من شيء، فان الفيلسوف لا يتوقف عند هذا الحد بل يتساءل كيف يمكن للحب أن يصبح عملا وانه ليجد أن « الحب يجب أن يطوق بالاخطار، وانه لا بد من قيام غيرة يقظة باستمرار في سبيل رغبات العاشق ولا بد أن يجد العاشق باستمرار الوسائل لتضليل حب سيدته ولقد انتهى الى الاستنتاج بان « **المغناج عشيقة مبهجة** » في هذه الشروط وتوافق مدام دي بوفلرز مرة أخرى لكن امرأة تدعى فراو **بوشهولتز** (٢٩) تظهر على المسرح اذن وهي تتهم فيلسوفنا شاحبة الوجه استياء، بأنه يمجد الغنج ويهاجم فضيلة المرأة، الفضيلة المختبرة لفراو بوشهولتز وهكذا دواليك ويكرر هذا دون انقطاع وينتشر ان مثل هذه المغالطة في فهم هيلفيتيوس استمرت حتى أيامنا الراهنة، واستقرت في اذهان اولئك الذين لم يقرؤوه قط وعلى اي حال، فان مطالعة هيلفيتيوس لن تغير في الامر شيئا على وجه التقريب، لانه لن يقرأ الا من خلال عيني فراو بوشهولتز، وهي سيدة قصيرة البصر جدا، وان كانت فاضلة جدا وشهيرة جدا

هل كان هيلفيتيوس، بمعنى الكلمة الدقيق، ما يمكن ان يسمى ماديا ؟ هذا ما يطاله الشك في الاغلب، بسبب من سمعته يقول لانج

بوفون المفكر والمتحفظ وغريم المتكتم والدبلوماسي وهيلفيتيوس الفارغ والسطحي يقفون جميعا على مقربة من المادية دون اعتناق أي وجهة نظر حازمة أي انجاز متماسك لفكرة اساسية وهو ما يميز لامتري بالرغم من كل طيش التعبير عنده*

---

* **تاريخ المادية**، برلوهن ١٨٧٣ الجزء الاول، ص ٣٦٠ .

وان جول ـ اوغستان سوري ، وهو فرنسي يردد أقوال هذا الالماني الكانطي الجديد ، قد كرر الرأي نفسه كلمة فكلمة*

واننا لنود أن ننظر الى الموضوع بعيوننا الخاصة

ان مسألة ما اذا كان في الانسان جوهر غير مادي يدين له بحياته الذهنية لم تدخل في نطاق دراسات هيلفيتيوس الذي تطرق اليها بصورة عابرة فقط وعالجها بحذر فائق فمن جهة واحدة لم تكن لديه رغبة في اثارة استياء المراقبين ، وهو ما حمله على التحدث باحترام واضح عن الكنيسة التي « **قررت ايماننا في هذه النقطة** » . ومن جهة أخرى كان يبغض تحليقات الخيال الفلسفي فهو يقول ان من واجبنا ان نتابع آية مشاهدة ونتوقف عندما تغادرنا ونملك الشجاعة على عدم معرفة ما لا تمكن معرفته بعد وان هذا ليفوح برائحة « التحفظ » بالاحرى من الغرور أو السطحية ولا بدّ ان لانج كان يستشعر ذلك ويسجله لو كان الامر يتعلق بكاتب أقل خطرا لكن بما انه يعالج هيلفيتيوس فانه يستعمل مقياسا مختلفا كان يعتقد انه من الجلي ان المؤلف «الفارغ» و «السطحي» لكتاب **في الفكر** لا يمكن ان يكون الا « فارغا » و « سطحيا **

كان هيلفيتيوس في الحقيقة يشاطر المادي الانكليزي **جون تولاند** جميع آرائه في المسائل الاساسية « للميتافيزياء ( مثلا المادة والمكان واللامتناهي وما شابه). وهذا ما يمكن أن نتبينه من مقارنة بين كتاب هذا الاخير **رسائل الى سيرينا** ( لندن ١٧٠٤ ) وبين **في الفكر** ، الحديث الاول ، الفصل الرابع ومما لا ريب فيه ان تولاند كان ماديا بارزا في نظر لانج الذي كان يعتبر آراءه **واضحة قدر الامكان** ؛ وأما هيلفيتيوس ، فانه لم يفعل الا مقاربة المادية ، لان سطحيته منعته من الاعتناق الجازم لاية فكرة اساسية **هكذا يكتب التاريخ !** ما اشد ضرر تأثير الناس السطحيين ان « **احصف البشر** » يصبحون **سطحيين** عندما يطالعون اولئك الناس السطحيين

هل المادة قمينة بالاحساس ؟ يقول هيلفيتيوس

« لقد نوقش هذا الموضوع بصورة مطولة جدا وغامضة جدا ولم يتجرأ الناس الا في وقت متأخر جدا على التساؤل عما تعنيه هذه الحجة كلها ، وعلى تعليق أية فكرة واضحة بكلمة « مادة فاذا ما حدد معناها اولا فلا بد من الاعتراف اذن بأن البشر

---

* **كتاب تاريخ المادية** ، باريس ١٨٨٣ ، ص ٦٤٥ ـ ٦٤٦

** عند هيلفيتيوس اننا لا نعتبر أمرا **موثوقا** الا وجودنا الخاص بينما وجود الآخرين هو على النقيض من ذلك مجرد **احتمال** ، احتمال لا شك انه كبير جدا ، **ويضاهي الجلاء في الحياة** العملية ، ومع ذلك فهو احتمال ليس غير ولقد كان لانج يضع أي امرىء آخر يؤيد مثل هذا الرأي **في** صف الاذهان « النقدية » وعلى أية حال ، فانه لم يكن في مقدور أي « نقدية ان ترد الاعتبار الى هيلفيتيوس وتزيل لوثة « السطحية » التي كانت اول ما لفت انتباه هذا المؤرخ الشامل للمادية

هم جاز لي هذا التعبير ، خالقو المادة ، وبأن المادة لم تكن نوعا ما من الخليقة ، وبأنه ليس في الطبيعة الا أفراد فقط اعطوا اسماء الاجسام ، وبان المرء لا يستطيع أن يفهم من كلمة « مادة الا مجموعة من الصفات المشتركة بين جميع الاجسام وحين يتم تحديد معنى هذه الكلمة على هذا الفرار فانه لن يتبقى سوى معرفة ما كان اكتشاف قوة ما مثل الانجذاب لن يؤول الى افتراض ان الاجسام يمكن ايضا تملك صفات مجهولة عديدة مثل القدرة على الاحساس التي يمكن تكون وهي لا تتظاهر الا في أجسام الحيوانات المتعضية مشتركة مع ذلك بين جميع الافراد واما ارجعت المسألة الى هذه النقطة فان في مكنة المرء ان يرى أنه اذا كان من المحال البرهان على جميع الاجسام عديمة الاحساس بصورة مطلقة فليس في مقدور أي انسان لم ينوره الوحي في هذا الشأن اننا نعرف مغزى مثل هذا الاحترام لدى « الفلاسفة للوحي والعقيدة الكنسية عموما — ج ب ) يحل المسألة الا بواسطة حساب ومقارنة احتمال هذا الرأي مع احتمال الرأي المضاد

وبنتيجة ذلك فانه لم تكن ثمة حاجة على الاطلاق ، في سبيل انهاء هذه الحجة ، الى بناء أنظمة مختلفة للعالم والضياع في تركيب من الامكانات ، والقيام بجهود ذهنية هائلة قادت ، وما كان يمكن الا ان تقود بالفعل الى اخطاء اكثر او اقل براعة*

ان هذا الشاهد المطول يبين جيدا القرابة بين مادية **هيلفيتيوس** ومادية **تولاند**** وطبيعة ما يمكن ان يسميه المرء شكية هيلفيتيوس أو احتماليته ومهما يكن من شيء ففي رأيه ان الذين انصرفوا الى تحليقات الخيال الفلسفي ليسوا الماديين بل المثاليون من مختلف المدارس ؛ وانه ليوصيهم اذن بالحذر والحرص والاعتبار الواجب للاحتمالات وان مثل هذين الحذر والحرص سوف يبينان لهم ان انكارهم لحساسية المادية اختلاق من مخيلتهم وان ما يمنعهم من توحيد فكرة الجسم مع القدرة على الاحساس ليس خصائص « **الاجسام** » بل **تعريف** المادة يعني **كلمة** واحدة ليس غير وليست الشكية هنا الا سلاحا موجها

---

* **في الفكر** ، الحديث الاول ، الفصل الرابع

** يبدو ان مرد هذه القرابة انه نسب الى هيلفيتيوس كتاب عنوانه **تقدم العقل في البحث عن الحقيقة** ، وقد اعيد نشره في طبعة باريس لاعماله عام ١٨٤٨ ولا يضم الكتاب صفحة واحدة من الكتابة الاصيلة ، بل يتألف من جهة واحدة من ترجمة بعض **الرسائل الى سيرينا** لتولاند وقد الحقت بها من جهة ثانية فقرات عديدة **من نظام الطبيعة** ومن كتب اخرى كانت معروفة اكثر او اقل في ذلك الزمن. ولقد جمعت هذه الاشياء جميعا بلا عناية ولم تكن مفهومة من المؤلف الا بصورة رديئة وما كان أن تكون لهيلفيتيوس علاقة بمثل هذا المؤلف مطلقا

وثمة كتاب آخر ينسب اليه **المعنى الحقيقي لنظام الطبيعة** . ولعله مكتوب بقلمه ، لكننا لا نملك دليلا ثابتا بهذا الخصوص وسوف نمتنع عن الاستشهاد به ، وعلى الاخص لانه لا يضيف شيئا الى ما نجده في كتابيه **في الفكر** و **في الانسان** .

ضد اعداء المادية. وكذلك كان الامر عندما تحدث هيلفيتيوس عن **«وجود الاجسام»**. ليست القدرة على الاحساس في المادة الا احتمالا مجردا ! هذا صحيح تماما لكن ما الذي يثبته ضد الماديين ؟ وعلى اي حال ، فان وجود الاجسام بالذات قد كان بدوره مجرد احتمال ، ومع ذلك فانكاره من قبيل السخف هكذا كان تفكير هيلفيتيوس يعمل ، واذا اثبت ذلك شيئا ، فانه يثبت في المحل الاول ان شكوكه الشكية غادرته

لقد كان هيلفيتيوس يعرف جيدا ، مثله كمثل معاصريه ، اننا لا نحصل على معرفة بالاجسام **الا من خلال الاحساسات التي تنتجها** فينا وان هذا ليثبت مرة اخرى ان لانج كان على خطل حين يؤكد ان « **المادية تعتبر بعناد عالم الظاهر الحسي من حيث هو عالم الاشياء الفعلية** * » . ولم يمنع هذا هيلفيتيوس على اي حال عن ان يكون ماديا حازما وانه ليستشهد « **بكيميائي انكليزي شهير** » كان من الواضح انه يشاطر رايه المتعلق بحساسية المادة واليكم ما يقوله هذا الكيميائي

« اننا نميز في الاجسام نوعين من الصفات الصفات التي وجودها دائم وثابت مثل عدم النفوذ ، والوزن ، والحركة ، الخ ، وهي صفات تنتسب الى الفيزياء العامة بيد أن هذه الاجسام بالذات تملك صفات أخرى وجودها سريع الزوال وقصير الامد يتحقق ويدمر بصورة متتابعة بفعل بعض التركيبات والتحليلات أو الحركات في الجزيئات الباطنة ان هذه الانواع من الخصائص تشكل فروعا مختلفة للعلوم الطبيعية الكيمياء ، الخ انها تنتسب الى الفروع الخاصة للفيزياء ومثال ذلك ان الحديد يتركب من الفلوجستون جوهر غير قابل للاحتراق ) ونوع خاص من التراب ، وهو في هذه الحالة من التركيب خاضع للقوة الجاذبة لحجر مغناطيسي لكن حين يتحلل الحديد تزول هذه الخاصية فليس لحجر المغناطيس فعل في التراب الحديدي الذي انتزع منه الفلوجستون

« والآن ما هو السبب في أن التعضي في المملكة الحيوانية ، لا ينتج بطريقة مماثلة تلك الصفة المفردة المسماة القدرة على الاحساس ؟ ان جميع الظواهر في الطب والتاريخ الطبيعي تبرهن بوضوح على ان هذه القوة هي في الحيوانات نتيجة لبنية أجسامها فحسب ، وان هذه القدرة تبدأ مع تشكل اعضائها ، وبحتفظ بها ما عاشت ، ثم تفقد اخيرا مع انحلال هذه الاعضاء نفسها

« واذا سألني الميتافيزيائي ما الذي يحدث بعدئذ لقدرة الاحساس عند الحيوان. أجبت أن ما يجري هو بالضبط ما يحدث للقدرة على الانجذاب بفعل الحجر المغناطيسي

---

* **تاريخ المادية** ، الجزء الاول ، ص ٣٧٨ ومن العجيب كيف يجد لانج « **عنصرا** » من **العقيدة الكانطية** عند روبينه الذي لا يقول عن الشيء في ذاته الا ما قاله دولباخ وهيلفيتيوس ولا يقل من ذلك اثارة للعجب أن يعد مؤلف **في الطبيعة** من قبل لانج بين الماديين ، فيما يعتبر أن هيلفيتيوس قاربهم فحسب يا له من مقياس غريب كان لانج يسترشد به !

عند الحديد المحلل* »

لم يكن هيلفيتيوس **ماديا** فحسب ، بل كان « **احزم** » معاصريه في التزامه بالفكرة الاساسية للمادية ولقد كان « **حازما** » جدا بحيث ارعب الماديين الآخرين الذين لم يجد أي منهم الجراة على اتباعه في استنتاجاته الجسورة وبهذا المعنى فقد وقف في واقع الامر قريبا من أمثال دولباخ نظرا لانهم ما كانوا يستطيعون سوى **مقاربته** .

ليست النفس داخلنا أكثر من القدرة على الاحساس والذهن هو حصيلة هذه القدرة كل شيء في الانسان احساس

ان الحساسية البدنية هي المصدر الرئيسي لحاجاته واهوائه واجتماعيته وافكاره واحكامه ورغباته وافعاله ان الانسان آلة لا بد وقد تحركت بفعل الحساسية البدنية ان تفعل كل ما تقوم به**

وهكذا يتماثل منطلق هيلفيتيوس كليا مع منطلق دولباخ ذلك هو الاساس الذي بنى عليه صاحبنا السفسطائي الخطير فلنر الآن بمزيد من الامعان ما هو الشيء الاصيل في هندسة بنائه

ما المقصود من الفضيلة ؟ ليس هناك فيلسوف واحد في القرن الثامن عشر لم يناقش هذه المسألة على طريقته الخاصة وكانت المسألة بالغة البساطة بالنسبة

---

* هذه الفقرة مقتبسة من كتاب **في الانسان** ، القسم الثاني ، الفصل الثاني ويشار في طبعة ١٧٧٣ الى أن هذا الشاهد مأخوذ من **مبحث في مبادىء الكيمياء** الذي لم نتمكن من العثور عليه ومهما يكن من شيء ، فان في مقدورنا أن نستشهد بما قال **بريستلي** في مناقشته مع **برايس** كي احمل قصدي ، امكن أقرب الى الافهام استخدم المقارنة التالية إن قوة **القطع** في موسى تتوقف على تماسك معين وعلى ترتيب الاجزاء التي تتشكل الموسى منها واذا افترضنا ان هذه الموسى انحلت كليا في مائع حمضي ما ، فمن المؤكد ان قوتها على القطع **تفقد** ، او **تكف عن الوجود** ، بالرغم من أن أي جزيء من المعدن الذي كان يشكل الموسى لم يتلاش بفعل هذه العملية وان **شكلها السابق، وقوة القطع** ، الخ، يمكن ان تسترد بعد ترسيب المعدن وهكذا حين ينحل الجسد بفعل التفسخ تتوقف كليا قدرته على التفكير » ( **مناقشة حرة للعقيدة المادية** ، الخ ، لندن ١٧٧٨ ، ص ٨٢ ٨٣ ) وتلك كانت بالفعل وجهة نظر **الكيميائي** الذي استشهد هيلفيتيوس به وفي هذه الحال لاتعنينا في حال من الاحوال الاراء الدينية التي كان في مقدور بريستلي توفيقها مع ماديته ، كما انه ليس ثمة حاجة الى التأكيد على ان الاراء عن الكيمياء التي كان الماديون في القرن الماضي ينادون بها ليست هي آراء ازماننا الراهنة

** **في الانسان** ، القسم الثاني ، الفصل العاشر وكان هيلفيتيوس يدرك جيدا ان الانسان يملك ذاكرة لكنه يقول مع ذلك ان عضو الذاكرة بدني فقط ووظيفته تستقيم في احياء انطباعاتنا السابقة ولذا كان من الواجب ان يثير فينا احساسات فعلية وهكذا فان الامر كله يعود الى القدرة على الاحساس كل شيء في الانسان احساس

الى هيلفيتيوس  ان الفضيلة تستقيم في معرفـــة واجبات الناس حيال بعضهم بعضا  وبالتالي فهي تفترض تكوين المجتمع

لو اني ولدت في جزيرة مهجورة وتركت لرغباتي الخاصة لعشت هناك بلا رذيلة ولا فضيلة ، وبالتالي ما كان في مقدوري اظهار أي منهما  فما الذي يجب أن نفهمه اذن من هاتين الكلمتين ــ فاضل ورذيل ؟ الاعمال الضارة أو النافعة للمجتمع  ان هذه الفكرة البسيطة والواضحة لافضل في رأيي من أي كلام منمق وغامض عن الفضيلة* »

الصالح العام ــ هذا هو مقياس الفضيلة وأساسها  وبالتالي فان اعمالنا تكون **ارذل** بقدر ما تكون **أضر** بالمجتمع ، وهي تكون **أفضـــل** بقدر ما تكون **أنفـــع** للمجتمع  Salus populi - suprema lex  ان « فضيلة » فيلسوفنا هي قبل كل شيء فضيلة **سياسية**  ولا يؤدي **التبشير** بالاخلاق الى أي مكان  فالتبشير لن ينتج بطلا قط  ان الواجب هو اعطاء المجتمع تنظيما يعلم اعضاءه احترام الصالح العام  ولا تعني **الاخلاق الفاسدة** الا الانفصال بين المصلحة الاجتماعية والمصلحة الخاصة  وان الشارع الذي يعرف كيف يمكن التخلص من هذا الانقسام هو افضل مبشر بالاخلاق

وما أكثر ما يقال ان « نفعية » جون ستوارت ميل من حيث هي تعليم اخلاقي تتفوق حتى درجة كبيرة على اخلاق الماديين في القرن الثامن عشر نظرا لان هؤلاء كانوا يسعون الى جعل المصلحة الشخصية أساسا للاخلاق ، بينما دفع الفيلسوف الانكليزي الى المقدمة بمبدأ السعادة العظمى للعدد الاعظم  ويستطيع القارىء أن يرى الآن ، في هذا المجال ، ان جدارة جون ستوارت ميل أكثر من مشكوك فيها فليست سعادة العدد الاعظم الا نسخة رديئة ، دونما أية مسحة ثورية ، عما كان الماديون الفرنسيون يسمونه  الصالح العام  واذا كان الامر كذلك فما هو مصدر الراي الذي يرى في  نفعيـــة  جون ستوارت ميل تعديلا موفقا للعقيدة المادية للقرن الثامن عشر ؟

ما هو مبدأ السعادة العظمى للعدد الاعظم مـــن الناس ؟ انه نوع من **تكريس** السلوك البشري  وبهذا المعنى ما كان يمكن للماديين أن يعتمدوا على اي شيء في كتاب ميل الشهير  ومهما يكـــن من شيء  فان الماديين لـــم يرضوا بالبحث عن **تكريس ،** بل كانوا يواجهون مهمة حل **قضية علمية**  كيف يمكن للانسان ، اذا هو لم يكن أكثر من احساس ، ان يتعلم تقدير الصالح العام ؟ بواسطة اية معجزة يستطيع أن ينسى انطباعاته الحسية وان ينجز اهدافا يلوح ان لا علاقة لهـــا مطلقا بهذه الانطباعات ؟ ان الماديين قد اتخذوا بالفعل  في نطاق **هذه القضية** وداخل حدودها، **المصلحة الشخصية** منطلقا لهم  لكن هذا العمل ما كان يعني في هذا السياق سوى تكرار ان الانسان كائن شاعر ولا شيء أكثر من ذلك  وهكـــذا لم تكن المصلحـــة

* المصدر نفسه ، الفصل السادس عشر  الملحوظة الاخيرة لهذا الفصل

الشخصية بالنسبة الى الماديين مبدأ اخلاقيا بل حقيقة علمية ليس غير*
ولقد افلت دولباخ من صعوبة هذه القضية بفضل مصطلحات غامضة

« وهكذا فحين نقول ان المصلحة هي الحافز الوحيد للاعمال الانسانية نريد ان نشير بذلك الى ان كل انسان يعمل بطريقته الخاصة من اجل رفاهيته التي يجدها في غرض ما مرئي مستتر ، واقعي أو وهمي ، والى أن نظام سلوكه بأسره معين في سبيل الحصول على هذا الغرض **

وبكلام آخر ، فهذا يعني ان المصلحة الشخصية لا يمكن ارجاعها بكل بساطة الى مطالب « انطباعاته الحسية وعلى اي حال فقد كان الانسان مجرد احساس في الوقت نفسه بالنسبة الى دولباخ وسائر الماديين في القرن الثامن عشر على حد سواء ان ثمة وثبة منطقية هنا وهي السبب في أن علم الاخلاق عند دولباخ يثير في مؤرخي الفلسفة قدرا من الاشمئزاز أقل مما يثيره علم الاخلاق عند هيلفيتيوس ويرى لانج ان « علم الاخلاق عند دولباخ صارم ونقي***
أما هتنر فيرى فيه من جانبه شيئا مختلفا يختلف بصوره جوهرية عن علم الاخلاق عند هيلفيتيوس****

كان مؤلف **في الفكر** الفيلسوف الوحيد في القرن الثامن عشر الذي وجد الجرأة على التطرق الى مسألة **أصل** العواطف الانسانية ولقد كان الوحيد الذي تجرأ على اشتقاقها من **الانطباعات الحسية » للانسان**

**ان الانسان قمين باللذة الجسدية والالم الجسدي ، وهو يتجنب الالم وينجذب الى اللذة ان هذا التجنب وهذا الانجذاب الدائمين والثابتين يحملان اسم حب الذات** الذي هو غير **منفصل عن الانسان ؛ انه احساسه الرئيسي**

« انها من بين جميع الحواس الحاسة الوحيدة من هذا النوع ، ونحن ندين لها بجميع رغباتنا وبجميع اهوائنا التي ليست سوى تطبيق حاسة حب الذات على هذا الشيء أو ذاك »

« انظروا في كتب التاريخ وسوف تجدون انه في جميع البلدان حيث حصلت بعض الفضائل على التشجيع بفعل الترجي في لذات الحواس ، فقد كانت مثل هذه

---

* كان تشارلز داروين يدرك جيدا ما لا يفهمه الفلاسفة المنادون بالاخلاق الا في الندرى « لقد افترض الفلاسفة من قبل ان اساس الاخلاق يكمن في شكل من الانانية ؛ لكن « مبدأ السعادة العظمى » قد طرح مؤخرا بصورة بارزة ومهما يكن من شيء ، فانه من الاصح التحدث عن هذا المبدأ الاخير من حيث هو مقياس السلوك لا حافزه » [ **اصل الانسان** ، الطبعة الالمانية ، شتوتغارت ١٨٧٥ ، ص ١٥٤ ]

** **نظام الطبيعة** ، لندن ١٧٨١ ، الجزء الاول ، ص ٢٦٨

*** **تاريخ المادية** ، الجزء الاول ، ص : ٣٦٢

**** **تاريخ الادب في القرن الثامن عشر** ، برونشفيغ ١٨٨١ ، المجلد الثاني ، ص ٣٩٨ .

الفضائل الاكثر شيوعا وكانت توفر الشهرة الاعظم* »

ان الشعوب التي كان انصرافها أعظم الى الحب قد كانت الشعوب الاشجع لان النساء في بلدانها لم يمنحن عواطفهن سوى للشجعان وحدهم فعند الساميين كانت الفتاة الاجمل مكافأة لصاحب الاقدام العسكري الاعلى وفي سبارطه كان في قدرة الحكيم ليكورغوس الذي كان على يقين من أن اللذة هي الحافز الوحيد والعمومي في البشر ان يحول الحب الى ملهم للشجاعة فابان الاعياد العامة كانت الفتيات اللاسيدايمونيات الشابات والجميلات ونصف العاريات يغنين ويرقصن في الاجتماعات الشعبية وكلمات اغانيهن تعيب الجبناء وتمجد الشجعان ان الرجال الجديرين وحدهم يستطيعون أن يتوقعوا الحظوة لدى الجنس اللطيف ولذا حاول السبارطيون ان يكونوا بواسل كان هوى **العشق** يلهب في افئدتهم **الهوى الى المجد** ومهما يكن من شيء فان المؤسسات «الحكيمة» التي انشأها ليكورغوس لم تحقق حدود الممكن وفي الحقيقة ، لنفترض ان

« أجمل الفتيات اللاسيدايمونيات تكرس لمكافأة الجدارة اقتداء بالعذارى المكرسات لايزيس اوفيستا فأخذهن المحاربون وقد قدمن عاريات في الاجتماعات جائزة لشجاعتهم بحيث اختبر الابطال الشبان في نفس اللحظة الواحدة السكرة المزدوجة للحب والمجد مهما يكن مثل هذا التشريع غريبا على اخلاقنا وبعيدا عنها ، فمن المؤكد انه جعل السبارطيين اكثر فضيلة واعظم بسالة لان قوة الفضيلة تتناسب دائما مع درجة اللذة المعينة كمكافأة لها »

يتحدث هيلفيتيوس هنا عن سكرة مزدوجة ـ بالحب **والمجد** ولا يجوز ان يساء فهم ذلك ان جميع الاشياء في التعطش الى المجد يمكن ارجاعها الى انطباعات حسية فنحن نحب المجد بالضبط مثلما نحب الثروة ، **من اجل القوة** التي يمنحانها لكن ما هي القوة ؟ انها طريقة لوضع الغير في خدمة سعادتنا بيد ان السعادة ، في جوهرها ، قابلة للرد الى المتعة الحسية **ليس الانسان شيئا سوى الاحساس** فليست مثل هذه الاهواء جميعا من هوى المجد والقوة والثروة وما شابه ، سوى مجرد **اهواء مصطنعة** يمكن اشتقاقها من الحاجات البدنية ولا بد للمرء ، كي يفهم هذه الحقيقة بصورة افضل من ان يتذكر دائما ان احاسيسنا بالمتعة والالم من نوع مضاعف ـ المتعة أو العذاب **الفعليين** ، والمتعة او العذاب **المتوقعين** فأنا اعاني آلام الجوع فأختبر **الالم الفعلي** . وانا اتوقع ان اجوع حتى الموت ، فاختبر **عذابا متوقعا** .

« رجل يحب العبدات الفاتنات واللوحات الجميلة عثر على كنز فسوف يستخفه الطرب وعلى أي حال ، فسوف يقال انه لم يختبر بعد اية لذة بدنية وهذا

* **في الانسان** ، القسم الرابع ، الفصل الرابع **في الفكر** ، الخطاب الثالث ، الفصل الخامس عشر .

صحيح ، لكنه حصل في تلك اللحظة على الوسيلة التي تمكنه من نيل أغراض رغباته وبالفعل ، فان هـذا التوقع للذة التي باتت في متناول اليد هو لذة منذ الآن

ومن المفروغ منـه أن **التوقع** لا يناقض في حال من الاحوال نقطـة انطلاق هيلفيتيوس ، فهو مجرد نتيجة **للذاكرة** . فاذا توقعت ان انعـدام الطعام سوف يسبب المـا لي ، فذلك لاني اختبرت مثل ذلك الالم من قبل بيد أن الذاكرة تملك خاصية « ممارسة درجة معينة من التأثير نفسه في اعضائنا » مثل الالم والمتعة

« ولذا كان من الجلي ان جميع الآلام واللذات التي تعتبر باطنة هي مجرد احاسيس بدنية وان على المرء الا يفهم من كلمتي **باطنة او خارجية** سوى الانطباعات المثـارة اما بفعل الذاكرة واما بوجود الاشياء الفعلي »

فما دمت قادرا على التوقـع يعني على **الانطباعات الحسية** ، فاني احزن لوفاة صديق لي كان حديثه يساعد في تبديد مللي ، « هذا الضيق الروحي الذي هو الم بدني في حقيقة الامر لقد كان يجازف بحياته وثروته لينقذني من الموت أو العذاب ، ولقد حاول دائما ، بمعونة اللذات من كل صنف ولون ، ان يزيد من متعتي وان الشعور بأن وفاة صديقي حرمتني من مصادر لذتي يحمل الدموع الى عينيَّ

تغلغل المرء في أعماق نفسه وبحث هناك فسوف يرى في جميع هذه المشاعر مجرد تطور اللذة أو الالم الجسديين

ومهما يكن من شيء ، فرب من يعترض ، جوابا على هيلفيتيوس ، بأن صديقك كان على استعداد للمجازفة بحياته وثروته ليخلصك من الالم ، وهـذا ما قلتـه بنفسك وبنتيجـة ذلك فقـد اعترفت بأن ثمـة اناسا قـد يعيرون اذنا صماء لانطباعاتك الحسية كي يحققوا هدفا مثاليا

ولم يعط فيلسوفنا جوابا مباشرا عن هذا الاعتراض وعلى أي حال ، فانه من اليسير فهم ان هذا ما كان ليضايقه فقد كان في مقدوره ان يسأل ما هو حافز الاعمال البطولية ؟ **توقع المكافأة** ان ثمة خطرا كبيرا في مثل هذه الاعمال ، لكن المكافأة اكبر بقدر ما يكبر الخطر ان المصلحة ( الانطباع الحسي ) توحي بأن الثواب يستحق المخاطرة واذا كان الامر كذلك بالنسبة الى المآثر الكبيرة والمجيدة ، فليس في انكار الذات لدى الصديق أمر فائق على الاطلاق

ثمة اناس كرسوا انفسهم للعلم وهم يفسدون صحتهم لكثرة ما يحدقون في الكتب ويعانون مختلف صنوف الحرمان كي يجمعوا **المعرفة** وقد يقال انه ليس بين حب العلم والمتعة البدنية اية علاقة مشتركة ، وهو ما ليس بصحيح لماذا ينكر **البخيل** على نفسه **ضرورات الحياة** ؟ لانه يريد ان يضاعف من وسائل متعته غدا وبعد غد ــ وباختصار ، في المستقبل ممتاز ! لنقبل بأن الشيء نفسه يحدث مع **طالب العلم أو العالم** ، وسوف نحصل على جواب اللغز .

« يريد البخيل ان يكون له قصر منيف ، وصاحب الموهبة زوجة جميلة ، ولا بد في سبيل تحقيق هذه الاهداف من الثروة ومن الشهرة العظيمة ويعمل الرجلان ، كل بطريقته الخاصة ، كي يبنيا ـ أحدهما كنوزه ، والاخر شهرته لكن هما خلال الزمن المبذول في الحصول على تلك الثروة أو هذه الشهرة ، تقدما في السن أو اكتسبا عادات لا يستطيعان الخلاص منها دون جهد يحول سنهما دونه فان البخيل وصاحب الموهبة سوف يقضيان ، الاول دون قصر ، والآخر دون عشيقته* »

كان هذا كله كافيا لاثارة الاستياء لدى جميع الناس المحترمين في سائر ارجاء العالم ولايضاح السبب والطريقة اللذين حصل هيلفيتيوس بهما على سمعته السيئة . وكان ذلك كافيا أيضا للكشف عن الضعف في « تحليله » ولسوف نضيف شاهدا آخر الى تلك الشواهد التي اوردناها حتى الآن

« وفضلا عن ذلك ، فحين يقبل المرء بأن اهواءنا تصدر في الاصل عن الحساسية الجسدية فقد يجد كذلك ان مثل هذه الاهواء ، في الشروط الراهنة للامم المتحضرة ، توجد بصورة مستقلة عن السبب الذي انتجها ولذا سوف احاول ، أذ ارسم تحول الالم البدني واللذة الى نقيضيهما المصطنعين ، أن أبين أن الالم واللذة البدنيين هما على أي حال ، بصورة دائمة ، ما نتفاداه أو نسعى اليه في الاهواء التي من نمط البخل والطموح والكبرياء والصداقة التي يبدو ان غرضها أبعد ما يكون عن الانتساب الى لذات الحواس** »

وهكذا ، **لا وراثة** وفي راي داروين ان

« قدرات الانسان الذهنية والاخلاقية متحولة جدا ونحن نملك جميع الاسباب للاعتقاد بأن لدى هذه التحولات ميلا الى الانتقال بالوراثة*** »

ان قدرات الانسان بالغة التحول في راي هيلفيتيوس ، لكن التغيرات لا تنتقل من جيل الى جيل في حين أن قاعدتها ـ القدرة على الانطباعات الحسية ـ تظل ثابتة لا تتبدل ولقد كان هيلفيتيوس نافذ البصيرة بما فيه الكفاية كي يميز ظاهرة التحول فهو يرى أن

« نفس العرق الواحد من الماشية ينمو بصورة اقوى او اضعف ، ويتقدم أو ينحط ، وفقا لطبيعة المرعى أو غزارته »

ولاحظ ان الشيء نفسه ينطبق على **السنديان** .

« شاهد المرء سنديانا صغيرا وطويلا وسنديانا ينمو بصورة مستقيمة او ملتوية ، وليس فيه سنديانة تشبه الاخرى مطلقا ، فما السبب في ذلك ؟ لعل السبب

---

* **في الانسان** ، القسم الثاني ، الفصل العاشر

** **في الفكر** ، الخطاب الثالث ، الفصل التاسع

*** [ **اصل الانسان** ، الطبعة الالمانية ، شتوتغارت ١٨٧٥ ، ص : ١٠٦ ] .

في ذلك انها لم تزرع بالطريقة نفسها بالضبط ، أو توضع في نفس النوع من المكان ، أو تتعرض لنفس النوع من الريح ، أو تنصب في نفس النوع من التربة »

ان هذا لتفسيرا معقولا جدا لكن هيلفيتيوس لم يتوقف عند هذا الحد ، بل تساءل

« أتكون الفوارق بين الكائنات قائمة في مضغها ام في تطورها » ؟

وما كان يمكن أن ينشأ مثل هذا السؤال في ذهن متعصب وعلى أي حال ، فلنلاحظ مضمون اللغز **إما** في المضغة **أو** في التطور ولم يشك فيلسوفنا مطلقا حتى في امكانية ان يترك تطور النوع طابعه في بنية المضغة تاريخ **النوع** ؟ هذا ما لم يكن له وجود عنده أو عند معاصريه كان همه كله منصرفا الى الفرد انه لا يُعنى الا بالطبيعة **الفردية** ، ولم يشاهد الا التطور **الفردي** ما ابعدنا عن الرضا بنظرية داروين عن وراثة الاخلاق الفطرية والقدرات الذهنية ما تلك الا الصفحة الاولى في علم طبيعي تطوري بيد اننا نعرف على خير وجه ان هذا العلم الاخير ، مهما تكن النتائج التي يؤول اليها ، لن يحقق النجاح الا اذا استخدمت **الطريقة الجدلية** في دراسة الظواهر ذات الطبيعة الجدلية جوهرا ولقد ظل هيلفيتيوس **ميتافيزيائيا** حتى حين شعر بانجذاب غريزي الى وجهة نظر اخرى ومناقضة تماما ـ وجهة النظر **الجدلية** .

ولقد اعترف بأنه « **لا يعرف شيئا** » عما اذا كانت الفوارق بين الكائنات « تقوم » على وجه الحصر في تطورها « **الفردي** » كانت مثل هذه الفرضية تلوح بالغة الجراة في نظره وبالفعل فقد كانت تؤول الى ما كان لوكريس يعتبره ، وهو معروف جيدا لدى « الفلاسفة » الماديين سخافة فاضحة

**. Ex omnibus rebus**
**Omne genus nasci passat .**
**Nec fructus idem arboribus constare solerent**

**Sed mutarentur ferreomnes omnia passent***

ومهما يكن من شيء ، فحين كانت القضية محدودة والمسألة متعلقة بجنس واحد ، اي **الانسان** ، فان مثل هذه الشكوك لم تراود هيلفيتيوس **مطلقا** لقد قرر بصورة ايجابية وبأعظم ثقة ان جميع « الفوارق بين الناس تكمن في تطورهم

* [ من اي زمان
يمكن لاي نوع أن يولد
والاشجار سوف تعطي دائما
ثمارا متصلة لكن متغيرة فأي شيء يمكن ان ينتج اي شيء ] .

وليس في مضغهم او وراثتهم فنحن جميعا نملك نفس القدرات عند الولادة وتنشئتنا هي وحدها التي تجعلنا مختلفين الواحد عن الآخر ولسوف نرى أدناه ان هذه الفكرة بالرغم من افتقارها الى الدليل المادي الضروري قد اثبتت انها بالغة الخصب لكنه بلغها على أي حال من **الطريق الخاطئة** ، واصل تفكيره واضح كلما اعتمد عليها وكلما حاول البرهان عليها وتبين هذه الفكرة ان ديدرو كان على صواب مطلق حين قال ان **بيانات** هيلفيتيوس اقوى من **براهينه** لقد كانت الطريقة الميتافيزيائية في مادية الثامن عشر تثأر باستمرار من اتباعها الاكثر جرأة والاعظم منطقية

اننا نحس دائما حافزا الى المتعة الشخصية ونحاول دائما ان نتجنب الالم الجسدي هذا بيان هام لكن كيف يتم البرهان عليه ؟ يأخذ هيلفيتيوس كمنطلق له الانسان البالغ الناضج صاحب « الاهواء » التي حوافزها متعددة ومعقدة حتى الدرجة القصوى والتي تدين بأصلها من دون أدنى شك **للبيئة، الاجتماعية** ، يعني **لتاريخ النوع** ، ثم يحاول ان يستخلص هذه الاهواء من الانطباعات الحسية ان شيئا ينشأ بصورة مستقلة عن **الذهن** يقدم الينا على اعتباره النتيجة الآنية الفورية لهذا الذهن بالذات **فالعادة والغريزة** تتخذان شكل **تفكير** يثيره في الانسان هذا الشعور أو ذاك ولقد بينا في دراستنا عن دولباخ ان هذه الخطيئة خاصة بجميع الفلاسفة الذين هبوا للدفاع عن الاخلاقية النفعية وعلى أي حال فان هذه الخطيئة تتخذ عند هيلفيتيوس نسبا يؤسف لها ففي اللوحة التي رسمها يضمحل **التفكير** بمعنى الكلمة الحقيقي مفسحا المكان لعدد من **الصور الذهنية** التي تنتسب جميعا دون استثناء الى (( **الانطباعات الحسية** )) ومما لا ريب فيه أن هذه الانطباعات الحسية وهي **سبب فعال لعاداتنا الاخلاقية لكنه سبب بعيد جدا** ، تصبح **السبب الاولي** لافعالنا وهكذا يقدم لنا **وهم** من حيث هو حل القضية وعلى اي حال فمن المفروغ منه أن القضية لا يمكن أن تنحل في حامض الوهم وفيما عدا ذلك فان هيلفيتيوس بتحليله » سوف يحرم مشاعرنا الاخلاقية من صفاتها الخصوصية وبذلك **يشطب هذه س** ، هذه الكمية المجهولة، التي سوف يحدد مغزاها ؛ لقد كان يريد ان يثبت ان جميع مشاعرنا مشتقة من الانطباعات الحسية ، وكيما يثبت مراده وصف الانسان على اعتباره يطارد باستمرار لذات الجسد العبدات الجميلات وما شابه وحقيقة الامر ان تأكيده افصح من البراهين التي يقدمها

وبعد هذه الايضاحات جميعا لا حاجة بنا الى التأكيد كما فعل **لاهارب** وكثيرون غيره ، على ان **نيوتن لم ينصرف الى حساباته الرياضية العملاقة في** سبيل الحصول على عشيقة جميلة بالتأكيد لا ! وعلى اي حال فهذه الحقيقة لا تتقدم

بنا خطوة واحدة لا في علم « الانسان » ولا في تاريخ الفلسفة فثمة قضايا أعظم اهمية جدا من تأكيد مثل هذه « **الحقائق** » .

أيمكن التفكير بصورة جدية في ان هيلفيتيوس يمكن أن يتصور الانسان من حيث هو كائن حسي وذكي فقط ؟ يكفي ان نقلب أوراق كتاباته كي نتبين أن الامر ليس كذلك ومثال ذلك انه على ادراك جيد بأن ثمة اناسا ينتقلون بالفكر الى المستقبل ويتوقعون مديح الاجيال الآتية واحترامها قد تخلوا عن مجد اللحظة الراهنة وما يمكن ان يحصلوا عليه فيها من احترام من أجل الرجاء البعيد احيانا في كسب مجد واحترام أعظم ؛ ان هؤلاء اناس ، على العموم ، « لا يرغبون الا في احترام المواطنين المحترمين* » ولقد ادركوا بوضوح تام انهم لن يتمتعوا **بقدر كبير من اللذة الحسية** ويستطرد هيلفيتيوس فيقول ان ثمة اناسا **يضعون شيئا فوق العدالة** ، موضحا ان فكرة العدالة في ذاكرات مثل هؤلاء الناس ترتبط بوثوق بفكرة السعادة بحيث تشكل الفكرتان كلا واحدا لا يتجزأ ولقد ظهرت عادة تذكرهما بصورة متواقتة ، و حين تتأصل هذه العادة يصبح أمرا يتعلق بالكرامة أن يظل المرء عادلا وفاضلا باستمرار ، ومن بعد فليس ثمة ما لا يضحي المرء به من أجل هذه الكرامة النبيلة** ومن المؤكد انه ليس ثمة حاجة بعد الآن بالنسبة الى هؤلاء الناس ، ليستحضروا في اذهانهم لوحات مثيرة للذة كيما يسترشدوا بالعدالة. وفيما عدا ذلك فقد أيد فيلسوفنا الرأي القائل ان الانسان يجعل عادلا أو ظالما بفعل تنشئته وان قوة هذه التنشئة لا حدود لها وان « **رجل الخلق الكريم هو كليا نتاج التنشئة والمحاكاة***** » ولقد تحدث عن آلية عواطفنا وقوة **تداعي الافكار** بالطريقة التالية

كانت لدي بسبب شكل الحكم جميع الاسباب للخوف من الشخصيات العالية ، فلا بد لي بصورة آلية من احترام أية عظمة ، حتى في سيد اجنبي لا يستطيع شيئا ضدي واذا كنت قد ربطت في ذاكرتي بين فكرة الفضيلة وفكرة السعادة ، فلسوف أرعى الفضيلة حتى اصبحت عرضة للاضطهاد واني لادرك جيدا ان هاتين الفكرتين سوف تنفصلان آخر الامر لكن ذلك سوف يكون من صنع الوقت ، حتى اذا كان وقتا طويلا ويضيف في الختام « ولا بد للمرء من تفكير طويل في هذه الحقيقة كي يعثر على حل عدد لامتناه من القضايا الاخلاقية التي لا يمكن حلها دون معرفة بهذا التداعي بين افكارنا****

---

* **في الانسان** ، القسم الرابع ، الفصل السادس

** المصدر نفسه الفصل العاشر ، الملحوظة الاخيرة لهذا الفصل

*** المصدر نفسه ، الفصل الثاني والعشرون

**** المصدر نفسه ، القسم الثامن الفصل الرابع

ولكن ما معنى هذا كله ؟ كتلة من التناقضات ، وكل تناقض منها أشد صراخا من الآخر ؟ من المؤكد ان الامر كذلك ! فما اكثر ما يقع **الميتافيزيائيون** ضحايا مثل هذه التناقضات ان مناقضة انفسهم لدى كل خطوة نوع من المرض المهني عندهم ، وهو سبيلهم الوحيد الى المصالحة مع لغزهم المبيت ولقد كان هيلفيتيوس بعيدا عن ان يكون استثناء لهذه القاعدة بل الامر على النقيض من ذلك اذ لما كان صاحب ذهن حي وباحث ، فقد دفع بهذه العملة اكثر من سواه ثمن اخطاء طريقته. ولم يكن بد من اثبات حقيقة هذا الخطأ ، وبذلك تبيان محسنات الطريقة الجدلية ، لكنه لا يجوز الاعتقاد بأن مثل هذه الاخطاء يمكن استئصالها بالاستياء الاخلاقي الذي في غير موضعه ، أو بحقائق عديدة ضئيلة بصورة لا متناهية هي فضلا عن ذلك قديمة قدم العالم

ويقول لاهارب عن فيلسوفنا يلاحظ المرء وهو يقرؤه ان مخيلته لا تستلهم الا الافكار المتألقة والبهيجة وهو الشيء الاقل ملاءمة لذهن الفيلسوف*
وهذا يعني أن هيلفيتيوس تحدث عن « الانطباعات الحسية » وجعل منها منطلقا لبحثه ، وذلك لمجرد كونه ميالا بصورة مفرطة للحوافز الحسية وثمة اقاصيص كثيرة عن حبه « للعشيقات الجميلات » ، وهو الحب الذي كان يوصف من حيث هو تكملة لغروره ولسوف نمتنع عن أي تقدير لمثل هذه المقاصد « النقدية ومهما يكن من أمر ، فاننا نرى انه مما يبعث على الاهتمام أن نرسم مقارنة في هذا المجال بين**هيلفيتيوس** و **تشيرنيشفسكي** . فقد كان **رجل الانوار الروسي** الكبير أي شيء ما عدا رجلا « انيقا »، أو « ملتزما » أو « مغرورا » ( لم يتهمه كائن من كان بهذا الضعف ) أو عاشقا للعبدات الجميلات ومع ذلك فان هيلفيتيوس ، من بين جميع الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر هو الاكثر شبها به فقد كان تشيرنيشفسكي يتميز ، في اثبات التأكيدات التي يقدمها ، بنفس الجسارة المنطقية وبنفس الازدراء للعاطفية ، وبنفس الطريقة ، وبنفس النوع من الاذواق ، وبنفس الاسلوب العقلاني في تقديم الادلة ،وغالبا بنفس الاستنتاجات والامثلة حتى اكثرها ضآلة** كيف يمكن تفسير مثل هذا الاتفاق ؟ ايكون هذا انتحالا من جانب

---

* دحض كتاب « في الفكر » ، ص ٨

** أوصى هيلفيتيوس باتباع مثال علماء الهندسة قدمت لهم قضية معقدة في الميكانيك، فماذا يفعلون ؟ انهم يبسطونها فيحسبون سرعة الاجسام في الحركة ، بغض النظر عن كثافتها ومقاومة السوائل المحيطة واحتكاك الاجسام الاخرى الخ ( **في الانسان** ، القسم التاسع الفصل الاول ولقد اوصى تشيرنيشفسكي بالعبارات نفسها على وجه التقريب **بتبسيط** قضايا الاقتصاد السياسي ولقد اتهم هيلفيتيوس بالافتراء على سقراط وريغولوس لكن ما يقوله تشيرنيشفسكي عن الانتحار الشهير للوكريسيا العفيفة التي لم ترغب في البقاء على قيد الحياة بعد اغتصابها يذكرنا بصورة مرموقة بأفكار هيلفيتيوس عن الاسيرة البطلة التي وقعت في أيدي القرطاجيين.

الكاتب الروسي حتى الآن لم يتجرأ انسان فيقذف بمثل هذه التهمة ضد تشيرنيشفسكي ولنتخيل ان ثمة اسسا لذلك لسوف نضطر اذن الى القول ان تشيرنيشفسكي سرق افكار هيلفيتيوس المشتقة بدورها من مزاج هذا الاخير الشهواني وغروره غير المحدود يا له من وضوح باعث على الذهول يا لها من فلسفة عميقة عن تاريخ الفكر الانساني

وحين نسجل اخطاء هيلفيتيوس يجب الا ننسى انه اخطأ بالضبط في تلك النقطة حيث اخطأت كل الفلسفة المثالية ( أو الثنائية بالاحرى التي خاضت النضال ضد المادية الفرنسية لقد استخدم سبينوزا وليبنز احيانا بحذق تام السلاح الجدلي وعلى الاخص ليبنز في دراسات جديدة في الفهم الانساني ) ، ومع ذلك ظل موقفهما المشترك ميتافيزيائيا وفضلا عن ذلك فما ابعد ما كان ليبنز و سبينوزا عن الدور القيادي في الفلسفة الفرنسية الرسمية للقرن الثامن عشر التي كان يسودها نوع من الديكارتية الاكثر او الاقل تعديلا وتعميما وعلى أي حال ، فلم تكن هذه الديكارتية تنطوي على أوهى فكرة عن التطور* لقد كان عجز الطريقة حتى درجة ما شيئا ورثته المادية عن السابقين الثنائيين لها لا يجوز للمرء أن يخدع نفسه في هذا الشأن اذا كان الماديون مخطئين ، فلا يعني هذا في حال من الاحوال ان خصومهم مصيبون لا شيء من هذا القبيل ! ان خصومهم مخطئون بصورة مضاعفة ومثلثة ــ وباختصار اشد خطأ بما لا يقاس

ما الذي نتعلمه عن أصل مشاعرنا الاخلاقية من لاهارب الذي مما لا ريب فيه لم يفوت اية فرصة كي يوجه جميع المدافع الثقيلة للفلسفة الطيبة القديمة

وكان تشيرنيشفسكي يعتقد ان من واجب الاقتصاد السياسي يعالج بصورة رئيسية ليس ما هو موجود بل ما يجب ان يكون ولنقارن هذا بما كتبه هيلفيتوس في رسالة الى مونتسكيو تذكر اني اعترفت في مناقشة عند لابريد بشأن مبادىء مونتسكيو ) انها تنطبق على الشؤون الراهنة لكن الكاتب الذي يريد أن يكون نافعا للشعب يجب أن يعنى بالمبادىء الاساسية الحقيقية للمستقبل وبنظام افضل للامور بالاحرى من تكريس مبادىء تصبح خطيرة حالما تستولي الاهواء عليها وذلك بغرض استخدامها وتأييدها راجع مؤلفات هيلفيتيوس الكاملة ، باريس ١٨١٨ المجلد الثالث ص ٢٦١ ويمكن أن نضيف أمثلة عديدة أخرى الى هذا المثال المدهش لكننا نفضل أن نبين الاتفاق في هذين الكاتبين اللذين يفصل قرن تقريبا بينهما وذلك بقدر ما تتوفر الفرصة له في عرضنا لنظرية هيفيتيوس

* يقول فلنت يبين ديكارت على أي حال في فقرات عديدة من كاباته انه نظر الى الحقائق الاجتماعية نظرة واضحة وثاقبة وهكذا يفعل مالبرانش لكن فلنت هذا نفسه يعترف بأن « ديكارت لم يكن يملك أية فكرة على الاطلاق عن علم للتاريخ وان « العلم التاريخي لم يأخذ في الازدهار في فرنسا الا مع انحطاط الديكارتية راجع فلسفة التاريخ في فرنسا والمانيا ، أدنبره ولندن ١٨٧٤ ، ص ٧٦ ــ ٧٨ )

ضد هيلفيتيوس ؟ وآسفاه ، القليل جدا انه يؤكد لنا ان « جميع اهوائنا معطاة **مباشرة من الطبيعة** » ، وانها « من طبيعتنا **بالذات** » ( **التشديد من لاهارب** ) « بالرغم من ا.. ـ .. ن تصبح مبالغا بها بنتيجة فساد المجتمعات الكبيرة **فقط** وانه ليمصي يروي لنا ان المجتمع هو من مرتبه طبيعية ، بحيث كان « هيلفيتيوس على خطأ تام حين سمى تلك الاشياء الناجمة عن نظام طبيعي وضروري أشياء مصطنعه وان للانسان مقياسا آخر لاحكامه غير مصالحه الخاصة وان « هذا المقياس هو حس العدالة » ؛ وان « اللذة والالم لا يمكن أن يكونا القوة المحركة الوحيدة الا في الحيوانات الدنيا وحدها لكـن الله ، والضمير والقوانين المستقـة من كليهما ـ هـذا ما يجب ان يسترشد الانسان به* هذا عميق جدا أليس كذلك ؟ لقد اتضحت الامور تماما آخر الامر

لنلق الآن نظرة اعجاب على خصم آخر لصاحبنا السفسطائي وهو هذه المرة رجل من القرن التاسع عشر بعدما قرأ هذا الرجل في كتاب **في الفكر** ان المصلحة المشتركة هي مقياس الفضيلة وان أي مجتمع يعتبر تلك الاعمال النافعة له فاضلة ، وان أحكام البشر على أفعال اولئك الذين من حولهم تتغير بصورة متفقة مع مصالحهم اطلق العنان في سحنة ظافرة لفيضان من الكلمات

« جرى التأكيد على أن احكام الرأي العام بشأن الاعمال الفردية تملك الحق في العصمة بقدر ما يؤيدها غالبية الافراد ، فان عددا من الاستنتاجات المستخلصة من هذا المبدأ لا بد من الاعتراف بها اذن ، وكل منها اسخف من الآخر ، مثل آراء الغالبية هي وحدها متفقة مع الحقيقة تصبح الحقيقة وهما حين تكف من كونها راي الاكثرية وتتحول الى راي الاقلية ، وعلى العكس من ذلك يصبح الوهم حقيقة حين يصبح رأي الاكثرية بعدما كان راي الاقلية لفترة طويلة من الزمن** »

يا له من رجل ساذج ! ان دحضه لهيلفيتيوس ، الذي لم يتمكن قط من فهم نظرياته ليتسم بالجدة حقا

---

* **دحض كتاب « في الفكر »** ، ص ٥٧ ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨ و ٦٩

** **دحض جديد لكتاب « في الفكر »** ، في كليرمون ـ فيران ، ١٨١٧ ، ص ٤٦ ان طريقة المؤلف المجهول في ايراد البراهين تذكر المرء بالحجج التي اختبرها المثقف ـ المثقف الكبير داميرون ففي بداية **في الفكر** كتب هيلفيتيوس ان الانسان يدين بتفوقه على الحيوانات ، **في جملة** اسباب اخرى لبنية اطرافه ويرعد داميرون قائلا « **انت تعتقد ان اعطاء الحصان يدي الانسان** سوف يمنحه عقل الانسان ان ذلك لن **يعطيه** شيئا باستثناء جعل حياة الحصان مستحيلة عليه » ( **مذكرات من أجل تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر** ، باريس ١٨٥٨ الجزء الاول ، ص ٤٠٦ وان استاذا ساذجا للاهوت في سان بطرسبورغ كتب بالطريقة عينها بالضبط يدحض نظرية داروين ألق بدجاجة في الماء وفي رأي داروين انه ستنمو لها في الحال اغشية بين اصابعها اما انـا فأؤكد على أي حال الدجاجة التاسعة سوف تقضي بصـورة تبعث على أعظم الرثاء » .

بل ان اناسا أعظم مكانة حتى درجة كبيرة ، لانج مثلا ، لا يرون في هذه العقيدة شيئا باستثناء الدفاع عن « المصلحة الشخصية » وانه ليعتبر من قبيل البدهيات انه لا علاقة البتة لمذهب آدم سميث الاخلاقي بأخلاق الماديين الفرنسيين ان هاتين العقيدتين متضادتان على طول الخط وكان لانج ، الذي لم يكن سوى الازدراء لهيلفيتيوس ينطوي على أعظم الاحترام لآدم سميث بوصفه أخلاقيا فهو يقول

ان استدلال الاخلاق من التعاطف عند آدم سميث بالرغم من عدم قيامه على اسس كافية حتى بالنسبة الى ذلك الحين يظل حتى أيامنا الراهنة احدى المحاولات الاخصب من أجل تجسيد طبيعي وعقلاني للاخلاق »

وكان بودريلار وهو مؤلف فرنسي لتعليق على كتاب **نظرية المشاعر الاخلاقية**، **يعتبر** تلك المحاولة ارتكاسا صحيا ضد « انظمة المادية والانانية وكان سميث نفسه لا يشعر على وجه التقريب بأي تعاطف مع أنظمة الاخلاق عند الماديين ، ولا بد انه وجد نظرية هيلفيتيوس « **بالغة الحماسة** » ، مثله في ذلك مثل **مانديفيل** . وفي الحقيقة أن نظرية سميث تلوح للوهلة الاولى النقيض مما نجده في أعمال هيلفيتيوس ونرجو الا يكون القارىء قد نسي ما يقوله هذا الاخير عن الاسف الذي نحسه لفقدان صديق لنا فلنقرأ الآن ما كتبه الانكليزي الشهير في هذا الشأن

« اننا نتعاطف حتى مع الموتى واننا لنحسب انه امر تعيس يحرموا من نور الشمس ، وان يحال بينهم وبين الحياة والحديث ، وان يضجعوا في قبر بارد ، فريسة للفساد وزواحف الارض ، وان يغيبوا عن الفكر في هذا العالم ، بل ان يمحوا خلال وقت قصير من مشاعر اعز اصدقائهم واقربائهم بل من ذاكرتهم ايضا أما ان تعاطفنا لا يمكن أن يوفر لهم أي عزاء ، فهذا ما يبدو زيادة في مصابهم* الخ

هذا بالطبع شيء مختلف كل الاختلاف لكن لنلق نظرة اكثر إمعانا الى هذه الحجة ما المقصود من « **التعاطف** » عند آدم سميث ؟

« مهما امكن ان يعتبر الانسان أنانيا ، فمن المؤكد ان في طبيعته بعض المبادىء التي تحمله على الاهتمام بمصير الغير وتجعل سعادتهم ضرورية بالنسبة اليه ، بالرغم من انه لا يحصل على شيء من هذه السعادة باستثناء لذة مشاهدتها واما اننا نتعرض للالم حيال آلام الاخرين ، فهذه حقيقة واضحة جدا بحيث لا تتطلب اية امثلة لاثباتها

ويتضح مصدر هذه الحساسية حيال آلام الآخرين فيما يلي

---

* **نظرية المشاعر الاخلاقية** ، لندن ١٨٧٣ ، ص ١٢ ، ١٣ نشر هذا المؤلف للمرة الاولى عام ١٧٥٧ .

« لما كنا **لا** نملك اية خبرة فورية بما يحسه البشر فاننا **لا** نستطيع أن نشكل اية فكرة عن الطريقة التي يتألمون بها لكن حين نتصور ما سوف نحسه نحن أنفسنا في وضع مشابه * »

اتعتقدون انه ليس في أعمال هيلفيتيوس ما يشبه هذه النظرية عن التعاطف؟ انه يتساءل في كتابه **في الانسان** ( القسم الثاني الفصل السابع ) ما المقصود من الانسان الانساني ويجيب « **ذلك الذي تشكل رؤية بؤس الغير مشهدا محزنا بالنسبة اليه** » لكن من أين تأتي هذه القدرة على الشعور بآلام الغير ؟ اننا ندين بها للذكريات التي تعلمنا ان نوحد أنفسنا مع الآخرين

اذا اكتسب الطفل عادة توحيد نفسه مع البائسين ، فان تأثره يشتد حيال بؤسهم بحيث يظهر يأسى لمصابهم الشفقة حيال الجنس البشري برمته وبنتيجة ذلك حيال نفسه بالذات وعندئذ فان عددا **لا** متناهيا من العواطف المتنوعة تنصهر بالشعور البدئي وحصيلتها جميعا تضم احساسا جامعا باللذة التي تفرح نفسا نبيلة ، فيما هي تخفف عن البائس وهو احساس **لا يتمكن دائما من تحليله** » .

ولسوف يوافق القارىء على أن سميث كان ينظر الى نقطة الانطلاق في استنتاجه ــ التعاطف ــ بالطريقة نفسها على وجه الدقة ومهما يكن من شيء ، فقد جمع هيلفيتيوس بين التعاطف ومشاعر أقل جاذبية ففي رأيه أن

« **المرء يعزي البائسين** ١ ــ ليتخلص من الغصات الجسدية المسببة عن مشاهدة آلامهم ، ٢ ــ ليستمتع بمشهد الامتنان الذي يثير فينا على الاقل رجاء غامضا في بعض المنفعة البعيدة ، ٣ ــ ليقوم بعمل يدل على القوة تبعث ممارسته السرور دائما لانها تخلق في اذهاننا صورة اللذات المصاحبة لتلك القوة ، ٤ ــ لان فكرة الهناءة متشاركة دائما ، في حالة التربية الجيدة ، مع فكرة الاحسان ، وذلك نظرا لان هذا الاحسان ، اذ يكسبنا احترام الناس ومحبتهم يمكن اعتباره ، مثله مثل الثروة ، قدرة او وسيلة للافلات من الالم والحصول على اللذة

وليس هذا بالطبع ما قاله سميث تماما ، لكنه **لا** يغير شيئا فيما يخص التعاطف ؛ انه يبين أن هيلفيتيوس توصل الى نتائج هي العكس تماما عن النتائج التي استخلصها مؤلف **نظرية المشاعر الاخلاقية** . فعند هذا الاخير ان حس التعاطف لاصق بطبيعتنا أما عند هيلفيتيوس فان طبيعتنا لا تشتمل الا على انطباع حسي ليس غير ولقد وجد نفسه مضطرا لان يقسم الى اجزائه المركبة ما لم يفكر سميث حتى في التعرض له لقد تقدم سميث في اتجاه واحد ، أما هيلفيتيوس فقد اختار الاتجاه **المضاد** . فما الاسباب الباعثة على الدهشة اذا تباعدا اكثر فأكثر ، ولم يلتقيا من بعد قط ؟

---

* المصدر نفسه ، ص ٩ ، ١٠

مما لا ريب فيه ان هيلفيتيوس لم يكن ميالا في حال من الاحوال الى تمرير جميع مشاعرنا من خلال مرشح التعاطف على اعتبار ذلك احدى مراحل تطورها فهو لم يكن ضيق التفكير في هذا الشأن ان تعاطف سميث قد جعله يتحاشى وجهة النظر **النفعية** فعنده كما هو الامر عند هيلفيتيوس توفر المصلحة الاجتماعية الاساس والتكريس للاخلاق* سوى انه لم يخطر قط في باله ان يستخلص ذلك الاساس وهذا التكريس من العناصر الاولية للطبيعة الانسانية انه لم يتساءل عما يشكل أساس الحكمة الاسمى التي تشرف على جملة الميول الشرية بل رأى حقيقة عارية حيث ما كان يمكن لهيلفيتيوس أن يرى سوى **عملية تطورية** • ويلاحظ سميث

« وعلى أي حال ، فان اجمال ذلك التفسير للطبيعة الانسانية ، الذي يستخلص جميع المشاعر والعواطف من حب الذات يبدو لي انه نشأ من بعض الالتباس في فهم نظام التعاطف**

ولقد كان من واجبه أن يقول ان هذا النظام مجرد محاولة للكشف عن **أصل** عواطفنا ومشاعرنا ، فيما كان هو نفسه راضيا بوصف لها اكثر او اقل كفاءة***.

لقد كانت التناقضات التي تعثر هيلفيتيوس بها نتيجة لطريقته الميتافيزيائية ، وهو ما اشرنا اليه مرات عديدة وكان ثمة تناقضات عديدة ايضا منشؤها تضييقه في الاغلب **وجهة نظره النظرية** كيما يحقق الامكانية واليسر في انجاز بعض الاهداف

---

* لا نحب بلادنا على اعتبارها مجرد جزء من المجتمع الكبير للجنس البشري اننا نحبها لذاتها وبصورة مستقلة عن مثل هذا الاعتبار ان الحكمة التي استنبطت نظام العواطف الانسانية ، كما استنبطت جميع أقسام الطبيعة الاخرى ، ارتأت فيما يبدو ان مصلحة المجتمع الكبير للجنس البشري تتحقق على أفضل صورة بتوجيه الاهتمام الرئيسي لكل فرد الى تلك الحصة الخصوصية منها التي تقع اكثر من غيرها ضمن مجال قدراته وفهمه على حد سواء » المؤلف المذكور ص ٢٠٣ ـ ٠٤

** المصدر نفسه ، ص ٢٣١

*** هذا كله واضح جدا ومع ذلك يصعب فهمه فيما يبدو ويقول هكسلي « مما لا ريب فيه ان الفضيلة نافعة ، لكن لا بد ان يحسد ذلك الانسان الذي تبدو له طرقها لعوبة بأية طريقة كانت ان حساب الهناءة العظمى لا يتم بمثل السهولة التي تجمع بها ثلاثة ارقام ان القانون الاخلاقي يعتمد آخر الامر على حدوس غريزية **( هيوم ، حياته وفلسفته ،** الترجمة الفرنسية بقلم غ كومباريه ، باريس ١٨٨٠ ، ص ٢٨١ ٢٨٤ واذا كان العالم الطبيعي الانكليزي الكبير يقصد ان يدحض ، بمثل هذه الاعتبارات ، الاخلاق المادية للقرن الثامن عشر فانه يخطىء خطأ فادحا ، ولا بد انه نسي داروين وعلى اي حال ، فلا بد انه ما كان يفكر الا في رجال ادنى ، مثل بنتام وجون ستوارت ميل وفي هذه الحال ، فقد كان على صواب

العملية وهذا ما يمكن مشاهدته على أي حال في حالة افتراء «مؤلفنا على ريغولوس

لقد قام هيلفيتيوس يبرهن على انه لم يكن في مكنة ريغولوس ، من حيث هو قائد عسكري ووفقا للاعراف الرومانية القديمة ، ان يتصرف بغير الطريقة التي تصرف بها ، حتى اذا كان يسعى خلف غاياته الخاصة ذلك كان الافتراء » الذي اثار غيظ **جان جاك** . وعلى أي حال ، فان هيلفيتيوس لم يقصد في حال من الاحوال ان ريغولوس سعى حقا خلف غاياته الخاصة **« مما لا ريب فيه ان عمل ريغولوس كان نتيجة حماسة جارفة استحثته للفضيلة »** . ماذا كان القصد من افترائه » اذن ؟ كان القصد منه ان يبين ان مثل هذه الحماسة ما كان يمكن ان تتقد الا في روما وحدها ان تشريع الجمهورية الاكثر « كمالا يستطيع ان يربط بصورة وثيقة مصالح مواطنيها الخاصة بمصالح الدولة* ومن هنا كانت بطولة الرومان القدماء **وكانت النتيجة العلمية التي يجب ان تستخلص من ذلك انه اذا تعلم الناس ان يتصرفوا بالطريقة ذاتها ، فسوف يظهر رجال بطوليون مثل ريغولوس بكل تأكيد** . وكيما تؤثر هذه النتيجة في القارىء لم يكسف لـه هيلفيتيوس سوى عن جانب واحد من المسألة لكن هذا لا يشكل برهانا على ان تأثير العادة ، وترابط الافكار ، و العواطف و الحماسة » ، والكبرياء النبيلة ، وغير ذلك قد غابت عن ناظريه لا شيء من هذا القبيل كل ما في الامر انه كان عاجزا عن العثور دائما على الروابط بين ذلك التأثير والمصلحة الشخصية او الانطباعات الحسية بالرغم من محاولته ذلك ، نظرا لانه لم ينس قط أن **الانسان ليس سوى احساس** واذا هو لم يكن كفؤا للمهمة فمه ذلك الا بسبب الطبيعة الميتافيزيائية للمادية في عصره لكن ما يشرفه دائما انه استخلص جميع النتائج من مبدئه الاساسي .وان ما يتسم به **الاتجاه العملي** من تفوق هو بالذات ما يفسر موقفه اللامبالي من مسألة ما اذا كان البشر جميعا قد ولدوا بنفس الامكانيات بل لم يكن في مقدوره ان يطرح هذه المسألة بصورة صحيحة لكن ماذا كان يقصد ان يقول حين تطرق اليها ؟ هذا ما فهمه **غريم** جيدا ، هو الذي لم يكن منظرا كبيرا فقد تحدث في كتابه **مراسلات أدبية ( تشرين الثاني ١٧٧٣ )** بالعبارات التالية عن **في الانسان**

« غرضه الرئيسي أن يبين ان العبقريات والفضائل والمواهب التي تدين لها الامم بعظمتها وهناءتها ليست نتائج للفوارق في الطعام او المزاج او الحواس الخمس ، وهي ما لا تمارس القوانين والادارة أي تأثير فيها ، بل للتربية التي تملك القوانين والحكومات.

---

* **في الفكر** ، الخطاب الثالث ، الفصل الثاني عشر .

الاشراف التام عليها* »

ان **القيمة العملية** لمثل هذه النظرة في أيام الهيجان الثوري يمكن أن تفهم بسهولة تامة

اذا لم يكن الانسان أكثر من آلة تسيرها «الانطباعات الحسية»، آلة **ملزمة** بأن تفعل كل ما تفعله هذه الانطباعات، فان دور « **الارادة الحرة** » في حياة اي شعب أو فرد تساوي الصفر اذن واذا كانت « الانطباعات الحسية » تصنع مبدأ ارادات الناس وحاجاتهم واهوائهم ونساطاتهم الاجتماعية وافكارهم واحكامهم وافعالهم فانه من الجلي اذن ان مفتاح مصائر الجنس البشري يجب ان يبحث عنه في الانسان أو في « **طبيعته** » ؛ واذا كان البشر جميعا متكافئين في المواهب الفكرية فان السمات الوهمية للعرق أو الخلق القومي لا يمكن بالطبع أن تفسر اي شيء اذن في الاوضاع الحالية أو السابقة لاية امة كانت ان هذه النتائج الثلاث التي لا مفر منها منطقيا هي بصورة مسبقة مقدمة بالغة الاهمية لفلسفة التاريخ ككل

وعد هيلفيسيوس ان سائر الامم التي تعيش في **نفس الشروط** تملك **نفس النوع من القوانين ، وتتسم بالروح نفسه** ، وتحفزها نفس الاهواء ولهذا السبب **نجد بين الهنود الاميركيين عادات الجرمان القدامى** » ؛ ولهذا السبب « **تخضع آسيا، التي يسكنها في الاغلب الملايين ، لقوانيننا الاقطاعية القديمة** » ؛ ولهذا السبب « **لم تكن الصنمية أول الاديان فحسب ، بل ان عبادتها التي لا تبرح قائمة اليوم في افريقيا بأسرها على وجه التقريب كانت العبادة العمومية في يوم من الايام** » ؛ وللسبب نفسه فان **الميثولوجيا** الاغريقية **تملك صفات** عديدة مماثلة لصفات الميثولوجيا **السلتية** ؛ وللسبب نفسه أخيرا ، فقد كان لاعظم الشعوب تنوعا نفس **الامثال** غالبا وعلى العموم فان ثمة تشابها مذهلا في مؤسسات الشعوب البدائية وروحها وايمانها ان الشعوب ، مثلها كمثل الافراد ، تتشابه **أكثر مما يبدو**

---

* لم يكن دولباخ يشاطر هيلفيتيوس هذا الراي ، بالرغم من انه سماه « **اخلاقيا شهيرا** ». **فقد كان يرى انه من « الخطل الاعتقاد بأن التربية تستطيع أن تصنع بالانسان كل شيء بل كل ما تستطيعه هو استخدام المواد المعطاة من الطبيعة ، فهي لا يمكن ان تزرع بنجاح الا في تربة وفرتها الطبيعة »** انظر **الاخلاق العمومية** ، القسم الخامس ، الفصل الثالث انظر ايضا القسم الاول الفصل الرابع ) وفضلا عن ذلك فان دولباخ **لا يسأل ما النصيب الذي يقدمه المجتمع فيما يسميه طبيعة** الفرد وعلى أي حال ، فقد كان هيلفيتيوس نفسه يدرك جيدا ان رأيه **لا يمكن اثباته على وجه** الدقة كان كل ما يعتقده هو انه يمكن على الاقل تأكيد ان « هذا التأثير » يعني تاثير التنظيم في أذهان شعب حقق تطورا جيدا ) « قد كان ضئيلا جدا حتى يمكن اعتباره مقدارا مهملا في الحسابات الجبرية ، بحيث ان ما نسب من قبل الى فعل الخصائص البدنية ولم يفسر بهذا السبب يفسر على خير وجه بالاسباب الاخلاقية » يعني تأثير البيئة الاجتماعية ـ ج ب ) ولقد تحدث تشيرنيشيفسكي بالعبارات نفسها تقريبا عن اثر العرق في مصائر الشعوب

المصلحة **والحاجات** ـ **هؤلاء** هم المعلمون الكبار والوحيدون للجنس البشري

ما السبب في ان الجوع هو السبب المألوف للافعال البشرية ؟ لانه من بين جميع حاجات الانسان اكثرها تواترا واعظمها الزاما واشدها احساسا ان الجوع يرهف ذكاء الحيوانات ؛ انه يجبرنا على ممارسة قدراتنا ــ نحن البشر الذين نحسب انفسنا متفوقين حتى درجة كبيرة على الحيوانات انه يعلم المتوحش أن يشد القوس وان يحوك الشباك وان ينصب الاشراك ومرة أخرى فان الجوع هو الذي يجبر ، في الامم المتحضرة ، جميع المواطنين على العمل ، وعلى فلاحة الارض ، وعلى تعلم الحرف وعلى القيام بأية مهمة كانت وان الجنس البشري ليدين له بفن اخصاب الارض وصناعة المحاريث ، بمثل الطريقة التي نشأ بها فن البناء وصناعة الثياب من الحاجة الى طلب الحماية من العناصر **.ولولا حاجاته لما شعر الانسان بحافز الى العمل .**

ان أحد الاسباب الرئيسية لجهل الافريقيين وتخلفهم هو خصب هذا القسم من العالم ؛ انه يلبي جميع الحاجات دون زراعة الارض تقريبا ، وبالتالي لا يملك الافريقيون أي حافز الى التفكير ، وهم لا يصنعون به الا القليل ويمكن ان يقال الشيء نفسه عن الكاريبيين فاذا هم كانوا أقل جدا من المتوحشين الامريكيين الشماليين ، فذلك لانه لا بد لهولاء من العمل بصورة اشق لتأمين طعامهم

**ان الحاجات توفر مقياسا مضبوطا لحزم الفكر الانساني .**

« ان سكان كامشاتكا ، الذين لا مثيل لحماقتهم من بعض وجهات النظر بارعون بصورة مذهلة من وجهات نظر اخرى فاذا كان المقصود صنع الثياب ، فانهم يتفوقون في البراعة على الاوربيين لماذا ؟ لانهم يقطنون منطقة من العالم متقلبة الطقس جدا وبالتالي حيث الحاجة الى الثياب ملموسة باستمرار حاجة مألوفة هي حافز دائم*

لكننا اذا كنا ندين بفن فلاحة الارض لوجود الحاجات ، فان هذا الفن الذي صار اكتشافه وممارسته يأخذ في ممارسة تأثير هام ، بل حاسم ، في مؤسساتنا وافكارنا ومشاعرنا

مما لا ريب فيه أن ساكن الغابة ، وهو رجل عار ، ولا كلام عنده ، قد يحصل على فكرة متميزة عن القوة أو الضعف لكنه لن يحصل على أية فكرة عن العدالة والقانون »

---

* يقودنا هذا الى مسألة تأثير المناخ وكما سوف يرى القارىء ، فالاشارة ليست الى التأثير المباشر للمناخ في أخلاق الناس وهو ما تحدث مونتسكيو عنه ففي رأي هيلفيتيوس ان هذا التأثير يتم التعبير عنه بواسطة الفنون ، يعني بفضل التطور الاسرع او الابطأ للقوى الانتاجية . وهاتان وجهتا نظر مختلفتان كليا .

**ان مثل هذه الافكار تفترض بصورة مسبقة وجود المجتمع ، وهي تتغير يدا بيد مع مصالح المجتمع .** لماذا كانت السرقة مسموحا بها في سبارطه ؟ ولماذا كان اللصوص الذين يقبض عليهم هناك في الجرم المشهود لا يعاقبون الا لافتقارهم الى البراعة ؟ أيمكن أن يكون أغرب من هذا العرف ؟

« ومهما يكن من شيء فاذا تذكر المرء قوانين ليكورغوس والازدراء الذي كان الذهب والفضة موضعا له في جمهورية حيث القوانين لا تسمح بتداول سوى النقود المسكوكة من الحديد الثقيل وسريع العطب ، فانه سيدرك ان سرقات الدواجن والخضار هي الوحيدة التي يمكن ارتكابها وان مثل هذه اللصوصية ، المنفذة دائما ببراعة والمنكرة دائما بحزم قد ثبتت اللاسيدايمونيين في ممارسة الشجاعة واليقظة ان القانون الذي يسمح بالسرقة يمكن ان يكون عميم الفائدة بالنسبة الى مثل هذا الشعب

لنر من جهة اخرى كيف كانت الامور عند **السكيثيين** . هؤلاء كانوا يعتبرون السرقة الجريمة الابفض ، وهو رأى يحتمه اسلوبهم في الحياة ويقول ارسطو

« كانت قطعانهم ترعى دون حراسة في السهوب ، فلشد ما كانت سرقتها سهلة وما أعظم الفوضى التي كانت سوف تترتب على التهاون حيال مثل هذه السرقات ولذا كانت قوانينهم تستهدف حماية قطعانهم

ان الشعوب التي تتشكل ثرواتها من الماشية حصرا ما كانت تحتاج **ملكية الارض الخاصة** ، التي ظهرت للمرة الاولى بين زارعي الارض ، **هؤلاء** الذين كانت تلك الملكية اساسية كليا بالنسبة اليهم ان الشعوب المتوحشة التي تهيم في الغابات لا تعرف سوى العلاقات الطارئة وسريعة الزوال بين الرجل والمراة ، **والزواج الوثيق** قد طبق من قبل الشعوب المستقرة والزراعية

« بينما الزوج يشق الارض العذراء او يزرع حقوله ، تطعم الزوجة الدواجن ، وتسقي الحيوانات ، وتجز الخراف ، وتشتغل في المنزل او في باحة الدواجن ، او تطهو الطعام للزوج والاولاد والخدم »

وبالتالي فان ثبات الزواج في هذه الحال ليس عبئا في حال من الاحوال بل له اعظم الفائدة وقد وضعت قوانين الزواج في البلدان الكاثولية لمثل هذا النوع من العلاقة ، فهي تتكيف مع مصالح ودوافع **اولئك المنخرطين في الزراعة .** ومن جهة ثانية فهي عبء بالنسبة للناس من اصحاب الدوافع الاخرى ، وبالخاصة **« كرماء المحتد »** و **« الاثرياء »** و **« المتبطلين »** الذين لا يجدون في الحب وسيلة لارضاء حاجات فعلية وملحة بل مجرد تسلية ، **وسيلة ضد الضجر** . وان مشاهد الاخلاق العائلية بين الطبقات الطفيلية في المجتمع التي وصفها الكونت **ليون تولستوي** في كتابه **لحن كروتزر** ، كما فعل **فوريه** من قبله ، تذكرنا بصورة رئيسية بما كتبه هيلفيتيوس عن الحب والزواج بين **« المتبطلين »**

ان الشعب الزراعي يختلف بالضرورة **في خلقه** عن الشعب البدوي .

« ان في كل بلد عددا معينا من المواضيع التي لا بد لكل الناس من معالجتها وهم ينشأون ، والانطباع المتماثل عن هذه الاشياء يولد في المواطنين ذلك التماثل في الافكار والمشاعر الذي يسمى الروح القومي أو الخلق

وليس من العسير ان ندرك أن مثل هذه (( **المواضيع** )) التي تملك هذا التأثير الحاسم في التربية تختلف لدى شعوب تعيش في شروط بالغة التفاوت ومثال ذلك بين تلك الشعوب العاملة في **الزراعة** وفي **القنص** ولا يقل عن ذلك وضوحا ان خلق الشعب يمكن أن يتغير ان الفرنسيين يعتبرون اصحاب نزوع الى **المرح**، لكنهم لم يكونوا كذلك على الدوام وهكذا يقول الامبراطور جوليان عن الباريسيين احبهم لان خلقهم ، كخلقي ، صارم وجدي* لكن لنأخذ الرومان بعين الاعتبار كم من القوة والفضيلة وحب الحرية وبغض العبودية قد دمغهم ابان الجمهورية ! وأي ضعف وجبن وخسة عندما استلم الاباطرة الاعنة ان مثل هذه الخسة كانت امرا لا يطاق حتى بالنسبة الى تبريوس وفضلا عن ذلك فان خلق الشعب لا يتعرض للتبدل مع الاحداث التاريخية وحدها فهو لا يظل على حاله في جميع المراحل حتى بالنسبة الى شعوب **ذات دوافع متباينة** ان أذواق المحاربين وعاداتهم تختلف عن أذواق الكهنة وعاداتهم فيما اذواق المتبطلين وعاداتهم لا تكون مثلها عند الفلاحين والحرفيين هذه الامور جميعا تتوقف على التربية التي أخضعت المرأة للرجل وان هذا النوع من الخضوع لا يعمل بالطريقة نفسها لدى جميع الطبقات الاجتماعية ان النساء اللائي هن ملكات نساء مثل اليزابيت ، وكاترين الثانية ، الخ** ) لسن في حال من الاحوال دون الرجال في المواهب الفكرية وينطبق الامر نفسه على « سيدات البلاط اللائي يتميزن بمثل ذكاء أزواجهن وان السبب في ذلك هو أن الجنسين عندهم بالرغم من كل الفارق في الوضع الاجتماعي ، يحصلان على **تنشئة سواء في الرداءة** )) .

---

* أما بالنسبة الى معاصريه الفرنسيين فان هيلفيتيوس يلاحظ أن الامة الفرنسية لا يمكن أن تكون مرحة لان كوارث العصر اضطرت الامراء الى فرض ضرائب باهظة على البلاد بحيث تحيا طبقة الفلاحين التي تضم لوحدها ثلثي الامة في العوز وليس العوز بهيجا ابدا » وانه ليسخر من الطريقة في وصف الخلق القومي ليس على العموم ما هو ابعث على السخرية وأكثر خطلا من الاوصاف التي تعطى عن خلق مختلف الشعوب فالبعض يصفون امتهم وفقا لمجتمعهم الخاص بحيث يجعلونها مرحة أو كئيبة أو خشنة أو ذكية والآخرون ينسخون ما كتبه الوف الكتاب من قبلهم ؛ انهم لا يدرسون قط التغير الذي لا بد ان يحدث بالضرورة في خلق أمة ما ، والتبدلات التي تجري في الحكم وفي الاخلاق ( **في الفكر** ، الخطاب الثالث ، الفصل الثلاثون )

** كانت كاترين الثانية قادرة على خداع هيلفيتيوس كما خدعت الكثيرين غيره انه يتحدث عنها دائما بأدفأ العبارات وكان على يقين من أن هذه الميسألينا الشمالية هاجمت **بولونيا** في مصلحة **التسامح** .

ان المفاهيم المختلفة عن الجمال تتوقف على انطباعات الطفولة

« اذا أعجبت على وجه الخصوص بأي امرأة بالذات فهي تنطبع في ذاكرتي من حيث هي نموذج للجمال ، فاحكم على النساء الاخريات وفقا لشبههن الاكثر أو الاقل بتلك الصورة ومن هنا كان التنوع في الاذواق »

وهكذا فان هذه الامور جميعا مسألة عادة لكن نظرا لان عادات أي شعب معين لا تظل على حالها دائما فان اذواقه واحكامه على الجمال في شؤون الفن والطبيعة تتعرض للتغير ايضا* ما السبب في اننا لا نحب الروايات الوسيطية ؟

« ما السبب في أن **اسلوب** كورنيل يحوز على تقدير اعظم حتى درجة كبيرة في عصر هذا الشاعر الشهير منه في يومنا الحاضر ؟ الاشارة بالطبع هي الى عصر هيلفيتيوس – ج ب ) ذلك لان الايام المضطربة للعصبة والفروند ٣٠ قد انتهت وكانت الاذهان المتقدة بعد بفعل نيران الفتنة أكثر جراة واعظم تقديرا لروح الاقدام وأشد نزوعا الى الطموح وهذا هو السبب في الصفات التي اسبغها كورنيل على ابطاله والمشاريع التي وصفها في رؤوس هؤلاء الطموحين كانت اكثر اتفاقا مع روح عصرنا هذا ، حيث لا يصادف الا القلة من الابطال والقنة من المواطنين والقلة من الطموحين وحيث أعقبت الازمان الهانئة العواصف وحيث خمدت براكين الفتنة في كل مكان »

وكيما نفهم بصورة افضل آراء هيلفيتيوس عن دور (( **المصلحة** )) في تاريخ الجنس البشري سوف نتوقف لفترة اطول عند **المغامرة الروبنسية** التي تفتق ذهنه عنها ان صاحبه روبنسون تمثله (( **عائلات عديدة** انسحبت الى **جزيرة** ان همها الاول اقامة الاكواخ وزراعة الارض الضرورية لمعيشتها اذا كان في الجزيرة أرض صالحة للزراعة أكثر مما يحتاج اليه المعمرون الاولون فلسوف يكونون جميعا على وجه التقريب سواء في الثروة ، وسوف يكون **اغناهم** اصحاب الايدي الاقوى والاجتهاد الاعظم .**وبنتيجة ذلك فليست مصالحهم بالغة التعقيد ،** و بالتالي سوف يكفيهم ان تكون لديهم قوانين قليلة واذا هم اضطروا الى اختيار زعيم فسوف يظل هذا الزعيم مزارعا مثل الآخرين جميعا و الامتياز الوحيد الذي قد يمنح له هو انتقاء قطعة من الارض **وفيما عدا ذلك ، فلن تكون له أية سلطة أخرى** )) .

لكنه مع زيادة حجم السكان وكثافتهم لن يبقى مزيد من الارض يشغله الناس ما عسى أن يفعل ذلك الذي لا يملك أية ملكية عقارية على الاطلاق اذا

* ان ما يقوله هيلفيتيوس عن حكمنا على الجمال يتضمن بصورة مضغية حتى درجة ما ، النظرية الاخلاقية عند تشيرنيشفسكي ، لكن بصورة مضغية **فحسب** ففي هذا المجال الخصوصي يقودنا التحليل الذي قدمه الكاتب الروسي الى أبعد كثيرا ويؤول بنا الى نتائج اهم حتى درجة بالغة .

استثنينا امورا مثل السرقة واللصوصية **أو الهجرة** ، فان الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفعله **هو الالتجاء الى ابتكارات جديدة .** ان رجلا قادرا على ابتكار سلعة استهلاكية او ترفية جديدة تجد استعمالا شائعا سوف يكسب معيشته بمقايضة ما صنعت يداه لقاء ما ينتجه المزارعون أو الحرفيون ولعله يؤسس مانيفكتورة ، فيقيمها في بقعة لطيفة وملائمة ، وعادة على ضفة نهر تنتشر فروعه عميقا داخل البلاد بحيث يسهل نقل بضائعه وهو لن يظل بالطبع الصناعي الوحيد في الجزيرة **فالتكاثر المتواصل للسكان** سوف يؤدي الى اختراع سلع استهلاكية أو ترفية اخرى وعندئذ تنهض مانيفكتورات جديدة وان عددا من هذه المانيفاكتورات سوف تشكل مقاما بادىء الامر ومن بعد مدينة هامة

وسرعان ما تضم هذه المدينة اغنى المواطنين ، ذلك ان الارباح من التجارة تكون كبيرة على الدوام حين يكون التجار قليلي العدد بعد وتكون المزاحمة ضئيلة بعد وتؤول الثروة الى مختلف انواع التسليات ويغادر الملاكون الاثرياء أراضيهم ليقيموا على الاقل عدة أشهر من كل سنة في المدينة حيث يتبعهم الناس الافقر املا في العثور على معيشة هناك وباختصار فقد اصبحت مدينتنا **عاصمة .**

وهكذا فان لدينا الان الاغنياء والفقراء ، واصحاب العمل والشغيلة العاديين لقد ولت المساواة الاصلية ان لدينا الآونة شعبا يتألف ، تحت نفس الاسم الواحد من **« عدد لامتناه من الناس المختلفين الذين تتضارب مصالحهم اكثر أو اقل ان هناك عددا من الامم يضاهي عدد الطبقات .** وهذه العملية الخاصة بتشكل طبقات ذات مصالح متباينة بل متناقضة لا مندوحة عنها في تاريخ الشعوب انها تجري بسرعة أكبر أو أقل ، بيد انها تتواصل باستمرار وسوف تستمر في ذلك أبدا

ان رجلا يكد اكثر سوف يكسب اكثر ، والاكثر اقتصادا يوفر اكثر ، ومع الثروة التي كسبها من قبل سوف يكسب المزيد من الثروة ايضا هذا كله محتم ومن بعد فان هناك الورثة الذين يرثون ميراثات كبيرة وثمة تجار يوظفون مبالغ طائلة في السفن التي تدر عليهم ارباحا هائلة ذلك ان المال يجلب المال في أي نوع من التجارة وهكذا فان التوزيع المتفاوت للمال هو العاقبة المحتومة لادخاله الى اية دولة

بيد ان هذه العاقبة الضرورية تستتبع نتائج لا تقل ضرورة عنها ان اولئك الذين لا يملكون شيئا ــ وعددهم يتعاظم باستمرار بنتيجة تكاثر السكان ــ سوف يتنافسون أكثر فأكثر بحثا عن عمل ما **ولسوف يختصرون حاجاتهم اكثر فاكثر .** وبنتيجة ذلك يستمر التفاوت في النمو ، وتصبح الفاقة أشد انتشارا **« الغني يبيع ، والغني يبتاع »** ، وعدد الملاكمين يتناقص بثبات **وعندئذ تزداد القوانين شدة يوما بعد يوم .** ان القوانين الضعيفة تناسب الاشراف على شعب من الملاكين « عند الجرمان والمغول والسكاندينافيين ، كانت الغرامات الابهظ أو الاقل ثقلا

العقوبات الوحيدة المنزلة بالجرائم المختلفة ويختلف الامر حين يشكل **غير المالكين** القسم الاكبر من الامة ان الرجل الفقير لا يمكن أن يعاقب في ممتلكاته ، بل لا بد أن يعاقب في شخصه ، ومن هنا كانت **العقوبة الجسدية** وبقدر ما يكون عدد الفقراء أكبر تكثر السرقات واعمال السطو والجرائم ولا بد من استخدام القوة لمجابهتها ان الرجل الذي لا يملك ملكية يستطيع بكل سهولة ان يغير مكان اقامته بحيث يستطيع المذنب ان يفلت من العقاب بيسر ولـذا يصبح من الضرورة بمكان اعتقال المواطنين مع التقيد ببعض الشكليات ، على الاغلب عند أول أشتباه ان التوقيف عقوبة اعتباطية بصورة مسبقة ، وما اسرع ان تناولت الملاكين انفسهم ، وهي تستعيض عن الحرية بالعبودية » وان العقوبة الجسدية ، وقد كانت مطبقة بادىء الامر على الفقراء وحدهم سرعان ما شملت بدورها الملاكين ان جميع المواطنين يخضعون على قدم المساواة لقوانين الدم فالاشياء جميعا تتحد من أجل اقامتها

ويؤدي تزايد عدد المواطنين الى ظهور الحكومة **التمثيلية** ، لانه لم يعد في مقدور الجميع ان يجتمعوا في أحد الامكنة كي يناقشوا الشؤون العامة وفيما لا يبرح المواطنون متساوين على وجه التقريب ، فان ممثليهم يتخذون قوانين **تتفق مع المصلحة العامة** . لكنه مع تآكل الحرية البدائية ومع التعقيد المتعاظم لمصالح المواطنين **يأخذ الممثلون في فصل مصالحهم الخاصة عن مصالح الشعب الذي يمثلونه ؛ انهم يصبحون أعظم استقلالا عن اولئك الذين انتدبوهم ويكتسبون تدريجيا سلطة تعادل سلطة الامة بأكملها .**

« اليس من الواضح ان انقسام مصالح المحكومين ، في بلاد كبيرة وكثيرة السكان ، سوف يزود الحكومات دائما بالوسائل للتعدي على السلطة التي يتوق الانسان اليها دائما من جراء حبه الطبيعي للسلطان

وفي الحقيقة ان الملاكين المستغرقين في ملكيتهم ، يكفون عن كونهم مواطنين » من جهة واحدة ، ومن جهة ثانية يصبح غير المالكين اعداء سريين لهم ، ويكون في الامكان تسليحهم من قبل طاغية أو طغاة ، كلما اراد أو ارادوا ذلك ، من أجل العمل ضد المالكين

وعندئذ فان البلادة الذهنية عند اولئك الذين يندبون للسلطة والرغبة الفاعلة في السلطان عند اولئك الذين تندب تلك السلطة اليهم تنذران بتبدلات كبيرة في الدولة وفي مثل هذه الاوقات تشجع الامور جميعا على الطموح عند الاخيرين

وتضمحل **الحرية** ، وينمو منظور **الطغيان** عاجلا وهكذا يؤدي **تكاثر عدد السكان** الى ظهور الحكم التمثيلي ويؤدي تعارض **مصالحهم** الى حكم الاستبداد

يقول هيلفيتيوس في فقرة من كتابه **في الانسان** ، الذي استقينا منه بصورة رئيسية في عرضنا السابق انه اعتمد في النتائج التي استخلصها **على الخبرة**

**وكزينوفون** . هذه كلمات مميزة جدا لقد رأى بكل وضوح ، مثله مثل دولباخ و « الفلاسفة الآخرين في عصره ، دور الصراع الطبقي في التاريخ لكنه لم يمض في تقديره لهذا الصراع الى ابعد كثيرا مما مضى « كزينوفون » ، يعني **كتاب العصور القديمة** . ففي رأيه ان الصراع الطبقي ولد **الطغيان ، الطغيان في الاغلب ، ولا شيء غير الطغيان** . وعنده ان « **غير المالكين** » كانوا مجرد سلاح خطير في ايدي الاغنياء الطموحين ان كل ما هم قادرون عليه هو أن يبيعوا انفسهم لاي امرىء « **يرغب في شرائهم** » ، وان يسعوا الى ذلك ولم يكن يقصد البروليتاريا الحالية ، بل بروليساريا العصور القديمة ، وعلى الاخص في روما وبنتيجة ذلك فانه لم ير التطور الاجتماعي الا في **دائرة مغلقة** .

يثري المرء في التجارة ، ويضم الى ملكيته عددا لامتناهيا من الملكيات الصغيرة ومن ثم ينقص عدد المالكين وبنتيجة ذلك عدد اولئك الذين ترتبط مصالحهم بصورة بالغة الوثوق بالمصلحة الوطنية ؛ وعلى العكس من ذلك ، يتزايد عدد الناس الذين لا يملكون والذين لا مصلحة لهم في الشؤون العامة فاذا كان مثل هؤلاء الناس مستعدين دائما لخدمة أي امرىء يدفع لهم فكيف يمكن للمرء ان يتوهم ان اولئك الذين في السلطة لن يستخدموهم قط في سبيل اخضاع مواطنيهم ؟

تلك هي النتيجة الضرورية لتزايد السكان المفرط في اي امبراطورية وتلك حلقة مفرغة لم تتمكن حتى الآن اية حكومة معروفة من الافلات منها

كان **هيلفيتيوس** بعيدا جدا عن النظر الى البريطانيين بعين الشك مثل دولباخ. وعلى اي حال فقد وجد ان شروط بريطانيا الاجتماعية والسياسية معيبة جدا من وجهات نظر عديدة لكنه كان يعتبرها البلد الاكثر حرية والاعظم استنارة في العالم ومع ذلك لم يعتبر الحرية الانكليزية ، وقد كان بالغ الرضا عنها ، موثوقا بها جدا كان يعتقد أن فارق المصالح الذي تطور بعيدا جدا في بريطانيا سوف يؤول عاجلا أو آجلا الى عاقبته المحتومة ـ ظهور **الطغيان** . ولا بد من الاعتراف بأن التاريخ الايرلندي ، على الاقل ، لم يدحضه بصورة مبالغ فيها

وتبين آراء فيلسوفنا عن تكاثر البشر مرة اخرى مبلغ افتقار النظرية المالتوسية الى الاصالة ولن ننتقد تلك الآراء هنا ، أو آراء هيلفيتيوس بخصوص أصل الملكية والعائلة بل يكفينا ان نسجل وجهة نظره التاريخية الفلسفية الجامعة* ومهما يكن من أمر ، فلا بد لنا ، كي ننتهي من خصائصها ، أن نأخذ كذلك بعين الاعتبار العواقب الاخرى « لتكاثر المواطنين » ، أو بصورة اصح تعاظم التفاوت في الملكية بصورة دائمة وحتمية

---

* سوف نسجل بصورة عابرة فقط ان دولباخ كان يعتبر « تكاثر المواطنين » من الموقف المعارض على طول الخط اذ يقتصر معناه بالنسبة اليه على نمو قوة الدولة وثروتها ، وكان يتفق في ذلك مع معظم كتاب القرن الثامن عشر

ليس ما هو اخطر على الناس من **ناس بلا ملكية !** وليس ما هو في مصلحة اصحاب العمل اكثر من مثل هؤلاء الناس وليس شيء آخر يخدم مصالحهم بصورة افضل .« **بقدر ما يكثر الفقراء يقل الاجر الذي يدفعه اصحاب العمل لقاء عملهم »** لكن اصحاب العمل هم بالفعل السلطة الحقيقية في بلد تجاري ان المصلحة العامة يضحى بها على مذبح مصلحتهم الخاصة التي تحرك جميع اعمالهم وتشكل المقياس لاحكامهم وهذا امر نصادفه في كل مجتمع ذي مصالح معقدة ومتضاربة فهو ينقسم الى مجتمعات صغيرة تحكم على فضائل المواطنين واذهانهم وجداراتهم من زاوية مصالحها الخاصة ومع مرور الزمن تسيطر على الامة **مصالح الاقوياء** وتحتل المكانة الاعظم

واننا نعرف من قبل ان **فساد الاخلاق** يحدث بصورة عمومية حيثما تنفصل المصلحة الخاصة عن **المصلحة العامة** . ان التفاوت المتعاظم ابدا في الملكية لا بد بالتالي ان **يولد** فساد الاخلاق ويزيد منه وفي الحقيقة ان ذلك هو ما يجري ان **المال** ، الذي يعمل على زيادة التفاوت ، يحط من قدر **الفضيلة** . ففي بلد « **حيث لا يوجد اي تداول للمال** » تكون الامة الموزع العادل الوحيد للمكافآت «ان الاحترام العام ، هذه الموهبة المعترف بها عامة لا يمكن ان يمنح سوى للافكار والاعمال النافعة للامة وبنتيجة ذلك فان اي مواطن يرى ان الفضيلة ضرورة في البلدان حيث **يتداول النقد** يستطيع مالكه ان يعطيه لاي شخص أو اشخاص يوفرون له المتعة الاعظم ، وهذا ما يفعله عادة ومهما يكن من شيء ، فان مثل هذا الشخص أو الاشخاص لا يحظون عادة بالاحترام الاعظم بحيث تمنح المكافآت في الاغلب للاعمال التي تكون «نافعة للاغنياء وحدهم. لكنها تسيء الى المجتمع» ان المكافآت المعطاة **للرذيلة** تخلق السفلة في حين أن حب المال الذي يخنق الروح وكل فضيلة وطنية لا ينتج سوى الادنياء والمحتالين والغشاشين ان حب الثروة لا يشمل جميع طبقات المواطنين الا ويثير عند الفريق الحاكم الرغبة في السرقة والازعاج ومنذئذ فان بناء مرفأ وانتاج الاسلحة والقيام بمشروع عمل او حربا يؤكد أن فتيلها اشعل دفاعا عن شرف الامة — وباختصار ,اية ذريعة لنهب الشعب تستغل في الحال ومن بعد فان جميع الرذائل الناجمة عن الجشع تفرض نفسها على الامبراطورية وتلوث جميع اعضائها بالتالي وتؤدي في النهاية الى دمارها

وكما بينا من قبل في الدراسة المخصصة لدولباخ كان هذا الاخير يعتبر هو الآخر الجشع امَّ جميع الرذائل ,والسبب في دمار الامة بيد اننا لا نصادف عند **دولباخ** الا الخطابات عن الموضوع في حين حاول **هيلفيتيوس** ان يتغلغل في قوانين التطور الاجتماعي كان دولباخ يرغي ويزبد ضد « الترف اما هيلفيتيوس فقد سجل ان الترف نتيجة توزيع الثروات المتفاوت ولقد دعى دولباخ الشارعين

الى مكافحة اي نزوع الى الترف اما هيلفيتيوس فكان يجد ان مثل هذا الصراع ليس عديم الجدوى فحسب ، بل هو ضار جدا بالمجتمع وقبل كل شيء فان القوانين المناهضة للترف التي يمكن التهرب منها بكل سهولة هي اعتداء على حق الملكية هذا « الحق الاقدس » وثانيا فانه لا بد في سبيل كبت الترف من الغاء المال بالضرورة » ، و ليس في مكنة اي امير ان يعمل لمثل هذا الفرض ، واذا هو فعل فليس ثمة امة في اوضاع اوروبا الراهنة مستعدة للنزول عند رغباته ان تنفيذ مثل هذه الخطة معناه دمار الامة التام

ليس للترف وجود الا حيث يكون التفاوت في الملكية كبيرا وفي بلد حيث الملكية متساوية على وجه التقريب بين المواطنين لا يمكن ان يوجد الترف مهما حقق هؤلاء المواطنون من ازدهار أو بالاحرى لا يكون الترف كارثة بل بركة اجتماعية عظيمة في مثل هذا البلد لكنه بما ان الثروة موزعة بصورة غير متساوية البتة ، فان الغاء الترف سوف يعني وضع حد لانتاج كثرة من السلع وبالتالي سوف يحرم عددا كبيرا من الفقراء من العمل . وبنتيجة ذلك تكون الحصيلة الاخيرة النقيض تماما من القصد الاصلي ويستخلص هيلفيتيوس ان سخط الاخلاقيين على الرف ينبع من جهالتهم *

وهكذا فان لدينا هنا قانونا ثابتا للتطور الاجتماعي ان الشعب يرتفع من الفقر الى الغنى ومن الغنى يبلغ التوزيع المتفاوت للثروة وفساد الاخلاق ، والترف والفسق ومن بعد يخلص الى الطغيان ومن الطغيان الى الدمار .

« ان مبدأ الحياة الذي يتطور في شجرة البلوط المهيبة ، فيرفع جذعها وينشر اغصانها ويزيد من حجمها ويسود بها على الغابة هو في الوقت نفسه مبدأ ذبولها »

وليس في قدرة الشعوب في ظل شكل الحكم الراهن ان تنحرف عن هذه الدرب بالغة الخطورة للتطور بل ان الابطاء على هذه الدرب يشكل خطرا عليها فالركودة سوف تؤول الى كوارث لا تحصى ، وربما الى انقطاع الحياة بالذات

ان عدد مصانع النسيج وبالخاصة طبيعتها ، وقف في كل بلد على ثروته ونمط توزيع هذه الثروة فاذا كان المواطنون ميسورين جميعا فسوف يرغبون جميعا في ارتداء ملابس جيدة الامر الذي سيؤدي الى ظهور مصانع نسيج آلية تنتج اقمشة لا هي فائقة النعومة ولا هي فائقة الخشونة واذا كان معظم المواطنين فقراء بالاحرى فلن تقوم اذن الا تلك المشاريع التي تلبي حاجات الطبقة الغنية

---

* كذلك يعرض الامر في كتابه في الانسان ولقد عبر هيلفيتيوس في كتابه في الفكر عن رأيه بعبارات غامضة لكنه نوه هنالك ايضا بأن مسألة الترف لا يمكن حلها بمثل السهولة التي يفترضها الاخلاقيون » وفي راي ديدرو ان الفقرة التي تعالج الترف هي من بين أروع الفقرات في الكتاب . راجع المؤلفات ، المجلد الاول ، القسم الاول مقالة « في كتاب في الفكر » .

ولن تنتج الاقمشة فخمة ، وبالغة المتانة وهكذا فان « جميع الظواهر ، في ظل اي شكل من الحكم ، تتوقف بعضها على البعض الآخر

ان انتاج **الاقمشة القطنية** هو احد الفروع الاهم في الصناعات الراهنة ومثل هذه الاقمشة ليست معينة للمستهلكين الاثرياء . **وهكذا لا يتفق راي هيلفيتيوس مع الواقع*** ومهما يكن من شيء فالحقيقة التي تظل قائمة هي ان **الظواهر ، في ظل اي شكل للحكم ، تتوقف بعضها على البعض الآخر** •ولقد رأينا من قبل أمثلة عديدة على ذلك ، وسوف نورد هنا مثالا آخر

ان متطلبات الناس تعلمهم كيف يزرعون الارض ، وهذه المتطلبات هي التي تولد الفنون والعلوم ومرة أخرى فان هذه المتطلبات هي التي تؤدي الى ركودة هذه الفنون والعلوم أو تقدمها في هذا الاتجاه أو ذاك وحالما يخرج الى الوجود التفاوت الكبير في الملكية تنشأ كثرة من **فنون المتعة** الهادفة الى تسلية الاثرياء وتبديد ضجرهم ان المصلحة لا تكف قط عن كونها المعلم الكبير والوحيد للجنس البشري وكيف يمكن ان يكون الامر خلاف ذلك ؟ لا يجوز أن ينسى ان اية مقارنة للاشياء فيما بينها تفترض الانتباه ، وأي انتباه يفترض الجهد ، وأي جهد يفترض الحافز الذي يثيره ولا جدال في أن تشجيع التربية هو في مصلحة أي مجتمع لكنه نظرا لان المكافآت على الخدمات لا تذهب دائما الى اولئك الذين يخدمون المصلحة العامة بل على الاغلب الى اولئك الذين يخدمون مصالح الاقوياء ، فلن يصعب على الفهم السبب في ان العلوم والفنون والادب تتخذ اتجاها يتفق مع مصالح هؤلاء الاقوياء لم لا تتألق العلوم والفنون في بلد مثل اليونان حيث كانت تحظى بالتبجيل العمومي والدائم ولم كانت ايطاليا غنية بالخطباء المفوهين؟ أيكون مرد ذلك الى تأثير مناخها ، كما تؤكد ذلك الحماقة الحكيمة لبعض المتحذلقين الاكاديميين ؟ اننا نصادف جوابا لا يدحض على ذلك في حقيقة ان روما فقدت بصورة متواقتة بلاغتها وحريتها

« حاولوا ان تجدوا الاسباب لاتهامات الهمجية والحماقة الموجهة باستمرار ضد شعوب الشرق من قبل الاغريق والرومان وجميع الاوروبيين ، وسوف تجدون أن الشعوب الشرقية اعتبرت همجية وحمقاء من قبل جميع الشعوب المثقفة في أوروبا وموضعا للازدراء من جانب الامم الحرة والاجيال التالية ، وذلك بسبب ان هذه الشعوب الشرقية لم تفهم من كلمة ذكاء الا افكارا مبعثرة ومتفرقة كانت نافعة لها وكذلك بسبب

---

* يعرف هيلفيتيوس مجتمعات حيث « المال في التداول » ومجتمعات اخرى لا يتداول فيها وعلى اي حال فان المنتجات تتخذ عنده دائما **شكل السلع في كلتا الحالتين** ، الامر الذي يبدو في نظره **طبيعيا** جدا بقدر الملكية الخاصة إن آراءه الاقتصادية معيبة جدا وحتى افضلها اساسا وأكثرها نضوجا لا يرتفع فوق الآراء الاقتصادية لدافيد هيوم .

ان الطغيان ، في آسيا باسرها على وجه التقريب ، حظر دراسة الاخلاق والميتافيزياء والفقه والسياسة ، وباختصار قرابة جميع العلوم التي تنفع الجنس البشري »

واذا كانت جميع الامم ، كما قيل أعلاه ، تملك في ذات الشروط ذات القوانين وذات **الروح** وذات النزعات ، فلا بد اذن من عزو ذلك الى المصالح عينها ان تركيب المصالح هو الذي يقرر تطور الروح الانساني

ان مصالح الدول ، مثلها كمثل مصالح مواطنيها الخاصين والشؤون الانسانية فيها ، خاضعة لالف والف تحول ، فالقوانين نفسها ، بل العادات والافعال نفسها ، تصبح نافعة حينا وضارة بالنسبة الى الشعب نفسه ؛ ويترتب على ذلك ان نفس القوانين تتخذ حينا وترفض حينا ، وان نفس الافعال تسمى **فاضلة** حينا **وشريرة** حينا — « وهي موضوعة لا يمكن رفضها الا بافتراض ان ثمة افعالا هي في نفس الوقت الواحد فاضلة وضارة بالدولة الامر الذي سيكون معناه تقويض اسس كل تشريع وكل مجتمع

ان لدى شعوب بدائية عديدة عادة قتل شيوخها وليس ما يبدو للوهلة الاولى ابغض من مثل هذه العادة ، لكن شيئا من التفكير يقود المرء الى الاعتراف بأن مثل هذه الشعوب ملزمة ، في شروط معينة ، بأن تعتبر قتل الشيوخ عملا فاضلا وان محبة الشبان لذويهم المتقدمين في السن والمضعفين لا بد ان تحملهم على مثل هذا السلوك فليس لدى المتوحشين كفايتهم من الغذاء ، والشيوخ عاجزون عن الحفاظ على حياتهم بواسطة القنص ، نظرا لان هذا القنص يتطلب قدرة بدنية فائقة على الاحتمال ولذا كان مقدرا لهم إما أن يموتوا موتا بطيئا وقاسيا جوعا وإما ان يصبحوا عبئا على اولادهم وعلى المجتمع بأسره ، هذا المجتمع الذي لا يستطيع ، من جراء فقره ، أن يحمل ذلك العبء ولذا كان من الافضل وضع حد لهذه العذابات بقتل الاهلين قتلا سريعا لا مندوحة عنه

« ذلك اصل عادة بغيضة جدا ؛ كذلك يجد شعب من الرحّل نفسه مضطرا جاز التعبير وهو ملزم من جراء الحاجة الى القنص ونقص ضرورات الحياة لقضاء ستة أشهر من السنة في غابات شاسعة ، الى ارتكاب مثل هذه الاعمال الهمجية وهذا هو السبب في أن قتل الآباء في مثل هذه البلدان يستوحي نفس المبدأ الانساني الذي يحملنا على النظر اليه بكل هلع ، وهو يتحقق وفقا له

لقد تساءل دولباح عن السبب في أن قوانين الشعوب الايجابية غالبا ما تتضارب مع قوانين « **الطبيعة** » و « **العدالة** » ، وخرج بجواب بسيط ، فقال ان تلك القوانين الفاسدة نتيجة لاخلاق فاسدة ، لاخطاء ارتكبتها المجتمعات ، أو للطغيان الذي يجبر الطبيعة على الانحناء لسلطانه* ولم يرض مثل هذا الجواب هيلفيتيوس الذي كان يعتبر أن « **المنفعة الفعلية او على الاقل الظاهرية** »

* **السياسة الطبيعية** ، لندن ١٧٧٣ ، المجلد الاول ، ص ٣٧ — ٣٨ .

هي أساس القوانين والعادات الذي نبحث عنه بصورة طبيعية جدا في « الفسق » أو في الاخطاء وانه ليقول

« مهما افترض المرء ان الشعوب حمقاء ، فمن المؤكد انه ما كان في مقدورها ، مسترشدة بمصالحها الخاصة ، ان تتبنى دون مبررات كافية تلك العادات المضحكة التي يصادفها المرء قائمة لدى بعضها ان غرابة مثل هذه العادات تنبع من تنوع مصالح الشعوب ان **تلك الاخلاق والقوانين التي تستمر في الوجود بعد زوال الاسباب في تطبيقها والتي اصبحت بذلك مغيظة للمجتمع هي وحدها الاهل للحقد** . ان جميع العادات التي لا تجلب الا محسنات عابرة اشبه بالصقلات التي ترفع بعد اكتمال بناء القصر »

تلك هي النظرية التي لا تترك الا مجالا ضيقا جدا **للقانون الطبيعي والعدالة المطلقة** ، هذا اذا تركت لهما اي مجال على الاطلاق ولقد بدت هذه النظرية بادىء الامر خطيرة حتى بالنسبة الى رجال مثل ديدرو الذي اعتبرها مفارقة خالصة في الحقيقة ان المصلحة العامة والخاصة هي التي تحول فكرة ما هو عادل وما هو ظالم ؛ لكن جوهرها مستقل عن ذلك لكن ما هو جوهر هـذه الفكرة ؟ علام تتوقف ؟ لم يقل ديدرو شيئا في هذا الشأن بل اقتصر على ايراد بعض الامثلة التي نقصد منها البرهان على ان العدالة مطلقة ومهما يكن من امر فان هـذه الامثلة ابعد ما تكون عن الاقناع اليس عملا فاضلا **في كل مكان وزمان ان يعطى الماء لرجل يموت عطشا** ؟ انه لكذلك طبعا ، لكن اكثر ما يمكـن ان يثبته ذلك هو ان ثمة مصالح مشتركة بين البشر في كل مكان وفي كل زمان وفي مختلف مراحل تطورهم ان « **اعطاء الماء للشرب** » لن يمضي بنا الى أبعد من هذه المحاكمة لفولتير

فلأسال تركيا أو فارسيا أو مالاباريا عن المال الذي اقرضته اياه ولسوف يعترف انه من العدل ان يكون من واجبه ان يدفعه لي هذا أمر لا يطاله شك مطلقا لكن ما أهزل هذه الاخلاق المطلقة ،مهما تكن إلاهة **مبجلة** ! وكما يقول لوك « اولئك الذين يدافعون عن المبادىء العملية الفطرية لا يخبروننا بحقيقتها »... ولقد كان في مقدور هيلفيتيوس ان يقول الشيء نفسه عن اولئك الذين يدافعون عن « **الاخلاق العمومية** » .

انه من الجلي تماما أن آراء هيلفيتيوس عن مسألة الاخلاق لم تتفق بصورة تامة الا مع مبادىء الحسية المادية وعلى أي حال ، فانه لم يفعل سوى تكرار وشرح افكار استاذه لوك الذي كان ايضا استاذ دولباخ وديدرو وفولتير لم يكن الخير والشر يعنيان بالنسبة الى الفيلسوف الانكليزي سوى اللذة او الالم ، وبالتالي فان **الخير أو الشر** ، بالمعنى **الاخلاقي** ، ليسا الا ما يتطابق مع القانون أو ينحرف عنه هذا القانون الذي يأتينا بواسطته الخير والشر بفعل ارادة الشارع وسلطانه » ولقد قال لوك قبـل هيلفيتيوس بوقت طويل : « تقبـل الفضيلة عموما ... لانها نافعة ... »

« من يتمعن في تاريخ الجنس البشري وينظر في الخارج الى قبائل البشر المتعددة ويراقب اعمالها في لا مبالاة ، سوف يقتنع بأنه لا وجود على وجه التقريب لذلك المبدأ من الاخلاقية الواجب تسميته أو تلك القاعدة من الفضيلة الواجب التفكير فيها باستثناء تلك التي هي ضرورية بصورة مطلقة لتماسك المجتمع والتي هي عادة مهملة أيضا بين المجتمعات المتميزة الا وهما بطريقة أو بأخرى موضع الازدراء والادانة من قبل النمط العام لمجتمعات كاملة من البشر تساس بآراء عملية وقواعد للمعيشة معارضة لتلك كل المعارضة »

وهذا هو بالضبط ما يقوله لنا هيلفيتيوس ، مع هذا الفارق الوحيد ، الا وهو ان هيلفيتيوس يعرف كيف يكون واضحا في المكان المناسب فعلى اساس «اللذة» و الالم أخذ على عاتقه مهمة ان ينسب الى **المصالح** التغيرات التاريخية في **ارادة الشارع** . ولقد كان هذا منطقيا على خير وجه ، بل أكثر مما يجب ، بالنسبة الى الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر الذين كان حزبهم حزبا مناضلا حقا وفعلا فلقد استشعروا في نضالهم ضد النظام القائم وقتذاك الحاجة الى الاسترشاد بسلطة لا تخضع لمثل التساؤل الذي تخضع له المصالح المتغيرة باستمرار ولقد وجدوا هذا النوع من السلطة في (( **الطبيعة** )) ، ولم تكن الاخلاق والسياسة المعتمدتان على هذا الاساس اقل نفعية في حال من الاحوال وكان salus populi* القانون الاسمى بصورة لا تقل عن ذلك بالنسبة اليهم** بيد انه كان يعتقد في ذلك الحين ان تلك المنحة مرتبطة بصورة وثيقة بقوانين ثابتة خاصة تنطبق بصورة متساوية على جميع (( **المخلوقات التي تملك عقولا ومشاعر** )) . وان مثل هذه القوانين التي كانت مرغوبة بكل هوى والمستنجد بها والمنظور اليها من حيث هي التعبير الامثل عن مطامح البورجوازية الاجتماعية والسياسية ، قد سميت **القوانين الطبيعية** ونظرا لان المصدر **السيكولوجي** للافكار التي أثارت الرغبة في مثل هذه القوانين كان مجهولا ولان مصدرها المنطقي طواه النسيان، فقد صار التاكيد ، كما فعل ديدرو في المقالة آنفة الذكر على أن **ماهيتها مستقلة عن أية مصلحة** ، الامر الذي عاد بالفلاسفة القهقرى تقريبا الى نفس تلك **الافكار الفطرية** التي سقط اعتبارها منذ أيام لوك

---

* [ خلاص الشعب ]

** وعلى أي حال ، فان **الشعب** الذي كان **خلاصه** مطلوبا لم يكن المقصود منه دائما اولئك الذين يعملون ويسحون وعند فولتير أن العرق البشري لا يمكن ان يوجد بدون « عدد كبير من الناس النافعين الذين لا يملكون شيئا ثمة حاجة الى رجال لا يملكون الا ايديهم والارادة الطيبة وهم احرار في يبيعوا عملهم لاي امرىء يدفع لهم أكثر انظر **القاموس الفلسفي** ، الفن المساواة والملكية .

لا مبادىء عملية فطرية ليس ثمة فكرة طبعتها الطبيعة في الذهن
**هذا ما قرره لوك الذي أضاف إن كل شيعة تعتبر فطرية تلك المبادىء المتفقة مع** ايمانها ولم يسع الفلاسفة لتحقيق المزيد فعندهم ان الاعتراف بوجود الافكار الفطرية يضاهي الانحناء امام مبادىء العصبة التي ينادي بها أنصار الماضي، والتي كانوا هم الفلاسفة يزدرونها وما دامت الطبيعة **لا تطبع** أي شيء في اذهاننا فالمؤسسات **البالية** والاخلاق **البالية** لا تدين بوجودها للطبيعة اذن ومع ذلك فثمة قانون طبيعي – قانون عمومي مطلق – يمكن اكتشافه من قبل **عقل** الانسان **وذلك بمساعدة التجربة** . لقد كان العقل في صف الفلاسفة وكان على **الطبيعة** بنتيجة ذلك ان تفصح عن تأييدها لطموحاتهم وبالتالي « **فالمبادىء الفطرية** » تخص **الماضي** الذي يجب تدميره بينما **القانون الطبيعي** هو **المستقبل** الذي كان المجددون يستدعونه انهم لم يرفضوا **العقائدية** ، بل وسعوا حدودها فقط تعبيدا للطريق امام البورجوازية وكانت آراء هيلفيتيوس تشكل تهديدا لهذا النوع الجديد من العقائدية وهو السبب في رفض معظم الفلاسفة لها وعلى اي حال فلم يمنعه ذلك من ان يكون احزم انصار جون لوك

ولم تكن آراؤه اقل تهديدا للراي واسع الانتشار في القرن الثامن عشر بأن العالم يسوسه **الرأي العام** . لقد رأينا من قبل ان آراء البشر ، عند هيلفيتيوس، تمليها مصالحهم ؛ ولقد رأينا كذلك ان هذه المصالح لا تتوقف على الارادة البشرية ( لنتذكر مثال المتوحشين الذين يقتلون شيوخهم بدافع الضرورة الاقتصادية ان « **تقدم الثقافة** » ، وهو ما يريد الفلاسفة ان يفسروا به مجرى التاريخ بأسره لابعد مايكون عن تفسير اي شيء بل يحتاج هو نفسه الى التفسير **وان العثور على هذا التفسير سوف يكون معناه ثورة فعلية في ميدان « الفلسفة »** . ومن المؤكد ان هيلفيتيوس ارتاب فيما سوف تكون عليه عواقب مثل هذه الثورة معترفا بأنه غالبا ما استشعر في دراسته لطريق تطور الفكر الانساني السك في أن « **جميع الاشياء في الطبيعة تحدث وتفعل من تلقاء ذاتها** » وان **إحكام الفنون والعلوم هو من عمل العبقرية أقل منه من عمل الزمان والضرورة** » وكان يعتقد ان التقدم « **المنتظم** » للعلوم في جميع البلدان يقر هذا الراي

> في الحقيقة انه اذا كان **الناس لم يأخذوا في كتابة النثر جيدا الا بعد ما تعلموا ان يفعلوا ذلك شعرا** ، وذلك عند جميع الامم كما يلاحظ هيوم ، فاني ارى اذن ان التقدم الثابت للعقل الانساني نتيجة سبب عام وغامض*

ومما لا ريب فيه ان هذا النمط من اللغة من بين جميع الاشياء التي تعلمها القارىء من آراء فيلسوفنا التاريخية ، سوف يبدو بالغ الاحتراس والتردد لكن هذه اللغة **الغامضة** بالذات هي التي تميط اللثام عن مبلغ **غموض** المفاهيم التي كان

---

* **في الانسان** ، القسم الثاني الفصل الثالث والعشرون .

هيلفيتيوس يجمع بينها وبين كلمات **المصلحة وحاجات الشعب** التي يبدو معناها بالغ الوضوح وأبعد ما يكون عن الالتباس

ان القوانين والعادات مهما بدت لنا غريبة ، **تملك على الدوام** أساسا لها في (( **المنفعة الفعلية الوهمية على الاقل** )) لكن ما هي **المنفعــة الوهمية** ؟ عــلام تتوقف وما منشؤها ؟ من الواضح انها تنشأ من **الرأي** العام وان هذا ليعود مرة اخرى الى تلك **الحلقة المفرغة** التي كنا نريد الافلات منها ان **الرأي وقف على المصلحة ، والمصلحة وقف على الرأي** . وان ما تجدر ملاحظته هو انه **لم يكن في مقدور هيلفيتيوس الا العودة الى تلك الحلقة** . وصحيح انه ربط بين اصول اكثر القوانين والعادات والآراء تنوعا وغرابة وبين حاجات **المجتمع الفلعية** ، لكنه كان يواجه على الدوام في تحليله ثمالة لم يكن في مقدور أي من كواشفه **الميتافيزيائية** ان يحلهــا **وكانت هذه الثمالة ، اولا وقبل كل شيء ، الدين** .

ان جميع الاديان تصدر عن خوف الانسان من **قوة خفية** ما ، من جهله بقوة الطبيعة كما ان جميع الاديان الكاذبة تتشابه **ومن أين** جاء هذا **الانتظام** ؟ انه نتيجة لكون الشعوب التي تحيا في نفس الشروط **تملك دائما** روحا متشابها وقوانين متشابهة وخلقا متشابها

« ان السبب في ذلك هو ان البشر الذين تحركهم **نفس** المصلحة على وجه التقريب والذين يملكون فيما بينهم على وجه اتقريب نفس **الاشياء** للمقارنة ما بينها وبعس الاداة يعني نفس الذهن من أجل تراكيبها ، كان **لا بد** بالضرورة يبلغوا النتائج نفسها ذلك الجميع على وجه العموم يركبهم الغرور الجميع ينظرون الى الانسان من حيث هو الاثير الاوحد لدى السموات وموضع رعايتها الرئيسي

ويؤدي هذا الغرور بالبشر الى الايمان بكل **الهراء** الذي يريدهم **المحتالون** ان يقبلوا به افتحوا التوراة ( **ان هيلفيتيوس لا يتحدث ، تسترا** ، الا عن (( **الاديان الكاذبة** )) ) ان في الامكان تفسيرها بالف طريقة **مختلفة** ، **وهي** غامضة وعصية على الفهم لكن العمى البشري عظيم **جدا** بحيث **لا يبرح هذا** الكتاب المليء بالتزوير واللغو هذا العمل حيث يوصف الله على اعتباره **طاغية** يستحق اللعنة يعتبر مقدسا حتى يومنا هذا وبالتالي فالمصلحة التي **تولد الايمان** الديني نابعة عــن الغرور – **مصلحة وهمية** ، وهي بدلا من ان تشرح **لنا** مصدر المشاعر الانسانية لا تعدو كونها هي نفسها تعبيرا عن هذه المشاعر **ان** « منفعة الدين (( **منفعــة وهمية** )) ليس غير وما كان في مقدور **أي فيلسوف من** القرن الثامن عشر على الارجح ان ينظر الى هذا العدو (( **الشرير** )) **للعقل بأي طريقة** اخرى

فاذا أخذنا بعين الاعتبار الغرور والجهل ، **هذين الرائدين** للخوف ، فان في امكاننا ان نفهم بكل سهولة الوسائل التي يبني بها **رجال** الذين نفوذهم ويحافظون عليــه .

ان الهدف الرئيسي الذي يضعه الكهنة نصب عيونهم في كل ديانة هو ان يطمسوا فضول الانسان وان يحولوا انظاره عن دراسة اية عقيدة يكون سخفها جليا جدا بحيث لا يمكن أن يفلت من انتباهه

وكان لا بد في سبيل ذلك من تملق الاهواء البشرية ؛ كان لا بد في سبيل الابقاء على عمى الناس ان تكون لدى هؤلاء الناس الرغبة في ان يكونوا عميانا وان يسعوا الى ذلك ليس ما هو أسهل بالنسبة الى الراهب البوذي الخ

انا نرى أولا أن العقائد والطقوس الدينية اخترعها عن سابق عمد وتصميم بعض المحتالين الخبثاء والجسورين والجشعين ، ونرى ثانيا أن **مصلحة** الناس ، التي كان يجب أن تفسر لنا على الاقل النجاح المذهل الذي حققه هؤلاء المحتالون ، هي في الاغلب مجرد المصلحة « الوهمية لاناس عميان يريدون أن يظلوا عميانا ومن الواضح أن هذه ليست مصلحة فعلية ، ليست « حاجة تولد جميع الفنون والعلوم

وكان هيلفيسيوس كلما عرض آراءه عن التاريخ يتأرجح دون شعور منه بين هذين التفسيرين المتعارضين كليا **للمصلحة** . وهذا هو السبب في عجزه عن مجاراة النظرية القائلة ان العالم يحكمه **الرأي العام** . انه يخبرنا تارة بأن الناس يدينون بذكائهم للاوضاع التي يجدون انفسهم فيها ومن ثم يجد انه من الواضح وضوح البلور ان الناس يدينون بأوضاعهم لذكائهم على وجه الحصر وانه ليخبرنا تارة بأن **الجوع** مصدر فنون عديدة وبان **الحاجات المألوفة** خلاقة دائما يعني أن أي اختراع أكثر أو أقل اهمية انما هو تكملة لاختراعات صغيرة بصورة لامتناهية، ومن ثم يؤكد لنا ، في مساجلته مع روسو ، ان فن الزراعة يفترض اختراع شفرة المحراث والمحراث والحدادة وبنتيجة ذلك عدد لامتناه من البراعات في التعدين وفن بناء الافران ، والميكانيك ، وعلم السوائل » وهكذا فان**الفكر** ، العلم هو مصدر الاختراعات هذه المرة ، بينما تقدم الجنس البشري رهن « **بالرأي العام** » في آخر تحليل ان هيلفيتيوس يبين لنا تارة كيف أن قوانين أي شعب وعاداته وأذواقه تشتق من « أوضاعه ، يعني من الفنون ، من القوى المنتجة المتوفرة تحت تصرفه ومن الشروط الاقتصادية التي تنشأ على أساسها ومن ثم يعلن ان الفضائل المدنية وقف على إحكام القوانين وان إحكام هذه القوانين وقف على العقل البشري وانه ليصف تارة السلطة الاعتباطية من حيث هي العاقبة المحتومة للتفاوت المتعاظم ابدا في توزيع الثروة ومن ثم يخلص الى النتيجة التالية

ان الطغيان هذه اللعنة الرهيبة التي تحل بالجنس البشري هو في الاغلب نتيجة لحماقة الامة فكل شعب يبدأ بأن يكون حرا فما السبب الذي يمكن ان يعزي اليه فقدان حريته ؟ جهالته وثقته الحمقاء بصاحب الطموح ان صاحب الطموح

والشعب اشبه بالبنت والاسد في الخرافة الشهيرة ، حيث لم تكد البنت تقنع الحيوان بأن تقلم أظافره وتبرد اسنانه حتى حولته الى كلب للحراسة

وبالرغم من ان هيلفيتيوس اخذ على عاتقه مهمة عزو المصلحة الى التاريخ معتبرا اياها « الحافز الاوحد للبشر » فقد التفت الى **« الرأي العام »** الذي يصبح آخر الامر الحاكم المطلق للعالم اذ يسبغ على الاشياء قدرا اعظم او اقل من الاهمية لقد كانت المصلحة الوهمية » الصخرة الفاطسة التي تحطمت عليها محاولته العظيمة حقا لتقديم تعليل مادي للتطور البشري لقد اتضح ان هذه القضية في التاريخ والاخلاق على حد سواء ، مستعصية على الحل **من وجهة النظر الميتافيزيائية** .

وكما ان **المصلحة الوهمية** تحل في الاغلب مكان **المصلحة الفعلية** التي كان هيلفيتيوس راغبا حقا في معالجتها ، فان المصير نفسه ، كما نستطيع أن نرى ، يصيب **المصلحة العامة** التي افسحت المكان لمصلحة « الاقوياء في هذا العالم فليس ثمة ريبة في ان مصلحة الاقوياء في هذا العالم تغلبت باستمرار في أي مجتمع منقسم الى طبقات لكن كيف يفسر هيلفيتيوس هذه الحقيقة التي لا جدال فيها ؟ انه يتحدث احيانا عن القوة ، لكنه يلتجىء في الاغلب الى « الرأي العام مدركا ان القوة لا تفسر شيئا على الاطلاق ، طالما انها تكمن في حالات عديدة ، ان لم يكن في جميع الحالات في المضطهدين على وجه الدقة ان حماقة الامم هي التي تحملها على طاعة الطغاة الاغنياء العاطلين ، هؤلاء الذين لا يفكرون الا في انفسهم وبالرغم من كونه احد ألمع ممثلي البورجوازية الفرنسية في زمن ازدهارها فانه لم يشك في انه يحين وقت ، في الحياة التاريخية لكل طبقة من الاقوياء في هذا العالم ، حيث تتطابق مصلحتها **« الخاصة »** مع مصلحة حركة تقدمية ، وبالتالي مع مصلحة **المجتمع بأسره** . لقد كان هيلفيتيوس مغرما بالميتافيزياء بحيث لم يميز جدلية المصالح هذه وبالرغم من انه يكرر ان أي قانون، دونما اعتبار لمبلغ الغرابة التي يمكن ان يبدو فيها ، مبني أو كان مبنيا على مصلحة اجتماعية فعلية ، فانه لم ير في **العصور الوسيطة** سوى زمن **تحول الناس فيه الى عجماوات ، بالضبط مثل نبوخذنصر ؛** لقد كان يرى في القوانين الاقطاعية قمة العبث*

ان الحاجات الفعلية وراء اختراع الفنون النافعة وان أي فن اذا ما ابتكر واستعمل مرة ، يولد بنجاح أكثر أو اقل فنونا » جديدة ، وذلك تبعا للعلاقات الانتاجية في المجتمع الذي ظهر ذلك الفن فيه ولم ينجذب انتباه هيلفيتيوس الا بصورة عابرة الى هذه الظاهرة الخاصة « بالفنون » الناشئة عن **حاجات** « فعلية »

* راجع كتابه **افكار وتأملات في** المجلد الثالث **من المؤلفات الكاملة** ، باريس ١٨١٨ ، ص ٣١٤ .

والمولدة لحاجات جديدة **فعلية** بصورة لا تقل عن ذلك كما انها تولد فنونا **نافعة** بصورة لا تقل عن ذلك ايضا ولقد تعجل كثيرا الوصول الى « **الفنون السارة** » المراد منها تسلية الاثرياء وتبديد ضجرهم ويقول في عجب كم من الفنون كنا نجهلها لولا الحب لعل الامر كذلك ! لكن كم من الفنون كان يمكن ان تظل مجهولة لولا الانتاج الرأسمالي للسلع الاساسية !

ما المقصود من **الحاجة الفعلية** ؟ عند فيلسوفنا ان المقصود من ذلك بصورة اولية حاجة **فيزيولوجية** لكنه لا بد للناس في سبيل تلبية حاجاتهم الفيزيولوجية من انتاج بعض السلع وان **عملية هـذا الانتاج** يمكن ان تؤدي الى قيـام **حاجات** جديده وهي فعلية بقدر الحاجات السابقة لكنها ليست بعد الآن من طبيعـة **فيزيولوجية** بل من طبيعة **اقتصادية** نظرا لان مثل هذه الحاجات تنشأ عن تطور الانتاج **والعلاقات المتبادلة التي تقـوم بين الناس في عمليـة الانتاج** ولقد اتى هيلفيتيوس على ذكر بعض هذه الحاجات الاقتصادية لكن بصورة محدودة **فقط** ، اذ **افلت** معظمها من انتباهه وهذا هو السبب في انه كان يرى ان **تكاثر المواطنين**، يعني زيادة عدد المعـدد التي لا بد من ملئهـا وعدد الاجساد التي لا بـد من توفير الملابس لها الخ هي عامل بالغ القوة في التطور التاريخي للمجتمع لقد كان تكاثر المواطنين يعني نمو الحصيلة الاجمالية **للحاجات الفيزيولوجية** وما كـان هيلفيسيوس راغبا في ان يأخذ بعين الاعتبار ان « تكاثر المواطنين يتوقف بدوره على شروط المجتمع الاقتصادية وذلك بالرغم من ابدائه بيانات عديدة جيدة الوضوح عن هذا الموضوع ومهما يكن من شيء ، فقد كان بعيدا عن مشاركة معاصره **السير جيمس ستوارت** آراءه الواضحة والدقيقة في هذا الشأن حيث يعزو في كتابه **بحث في مبادىء الاقتصاد السياسي** لندن ١٧٦٧ ) « **تكاثر المواطنين** » الى اسباب « **اخلاقية** » يعني « **اجتماعية** » وقـد فهم منـذ ذلك الحين ان قانون السكان المميز لاي **مجتمع** خاص يتبدل مع تبدل **نمط الانتاج** السائد في هذا المجتمع في **مرحلة** معينة وعلى أي حال فان آراء هيلفيسيوس لم تكن تتضمن شيئا من نمط تفاهات مالتوس

**ان الاشياء جميعا في الطبيعة تحدث وتفعل من تلقاء ذاتها ؛ هذه هي وجهة النظر الجدلية** . ولقد اقتصر الامر عند هيلفيتيوس على مجرد **الشعور** بأن وجهـة النظر هذه هي الاكثر انتاجية وصحة في العلم اما السبب في التقدم المنتظم للفكر البشري فقد ظل « **غامضا** » بالنسبة اليه وما أكثر ما توقف عن التفكير فيه ، مستنجدا به عند الحاجة فحسب وهو يقول

الشيء العظيم وحده يذهلنا في الاخلاق وفي المجال الفيزيائي على حد سواء ويفترض المرء على الدوام النتائج العظيمة تنشأ عن أسباب عظيمة ويتوقع دلالات من السماء تنبىء عن سقوط الامبراطوريات أو عن ثورات فيها . ومع ذلك فكم

من حروب صليبية شنت او وضعت أوزارها ، وكم من ثورات تحققت أو منعت ، وكم من
روب بدأت او انهب بمكائد كاهن او امرأة أو وزير أن انعدام المذكرات او الاقاصيص
السرية هو وحده ما يحول دون العثور على قفاز دوقة أوف مارلبورو في كل مكان

ان وجهة النظر هذه هي النقيض المباشر لوجهة النظر القائلة ان « **الاشياء جميعا تحدث وتفعل من تلقاء ذاتها** » .

ان مبدأ الحياة الذي يتطور في شجرة البلوط المهيبة ، فيرفع فرعها ، وينشر اغصانها ويزيد حجمها هو في الوقت نفسه مبدأ ذبولها

ههنا يتحدث هيلفيسيوس مرة أخرى كجدلي يفهم عبث **أي تعارض** مجرد ومطلق **بين النافع والضار** . وانه ليعيد الى الاذهان مرة أخرى هنا ان أية عملية تطور تملك قوانينها الملازمة والثابتة وحين ينطلق من هذا الموقف يخلص الى النتيجة بأنه لا وجود لاية « وسيلة نوعية ضد التفاوت في الملكية وهو تفاوت لا بد له ، بعد وجود طويل أن يدمر اي مجتمع بصورة حتمية لكن ليست تلك **نتيجته الاخيرة** فلا وجود **لوسيلة نوعية** ضد مثل هذا السر الا في ظل « **شكل الحكم القائم حاليا** » لكنه يمكن القيام بالشيء الكثير ضد هذا الشر في ظل شكل للحكم اكثر عقلانية فما هو اذن شكل الحكم المفيد ؟ انه شكل لا بد أن يكتسفه **العقل القائم على أساس التجربة** وان في مكنة الفلسفة أن تحل جيدا « **قضية التشريع الكامل والدائم** » الذي يمكن اذا ما اتخذته اية أمة أن تصبح مصدرا **لسعادتها** ان تشريعا كاملا لن يقضي على التفاوت في الملكية بل سوف يمنع ظهور عواقبه الضارة وان هيلفيتيوس بوصفه فيلسوفا يقدم لنا في صورة « تعليم أخلاقي قواعد ومبادىء عدالة منفعتها وحقيقتها مثبتتان لنا **بالتجربة اليومية** ، وهي يجب أن تخدمنا على اعتبارها أساسا للتشريع الكامل والاكثر من ذلك انه يزود تعليمه الاخلاقي هذا بسمات متعددة أخرى لمثل هذا التشريع

لقد أخاف كتاب **في الفكر** انصار **القانون الطبيعي** الذين رأوا في المؤلف خصما لهذا القانون ولم تبرر مخاوفهم الا جزئيا لان هيلفيتيوس لم يكن سوى خروف ضال لا بد ان يعود الى القطيع عاجلا أو آجلا ان ذلك الذي قد يبدو انه لم يترك اية فسحة للقانون الطبيعي ذلك الذي كانت قوانين وعادات على اقصى درجة من العبث تبدو معقولة في نظره ينتهي لان يقرر انه بقدر ما تقترب الناس في مؤسساتهم من **القانون الطبيعي** يكون تقدم العقل أعظم فيهم وهكذا قوم انحرافه وعاد الى حظيرة **الكنيسة الفلسفية** . ان الايمان ، الايمان المقدس والمخلص «**بالعقل**» قد خرج ظافرا على اية وجهة نظر اخرى وهذا هو يهتف :

« لقد حان الاوان بالنسبة الى اولئك الذين صمت آذانهم عن جميع التناقضات اللاهوتية كي يعيروا تعاليم الحكمة وحدها اذنا صاغية لقد استيقظنا من سباتنا ، لقد انقضى ليل الجهل ، وأشرق نهار العلم »

لنعر صوت « العقل اذنا صاغية ونقلب صفحات « التعليم الاخلاقي » الذي وضعه صاحبه

« **سؤال** ما الذي يجعل هذا الحق في الملكية على هذا القدر من القداسة ، ولاي سبب حول ، تحت اسم حد الى اله في كل مكان على وجه التقريب ؟

**جواب** ذلك لان الحفاظ على الملكية هو اله الامبراطوريات الاخلاقي ؛ انه ما يحفظ السلام الداخلي ويجعل العدل سائدا ؛ ذلك ان الناس انما اتحدوا كي يضمنوا ملكيتهم ؛ ذلك لان العدالة التي تنطوي في ذاتها على قرابة الفضائل جميعا تستقيم في اعطاء كل انسان مايخصه ، وبذلك ترجع الى الابقاء على حق الملكية ؛ واخيرا لان القوانين المختلفة لم تكن في يوم من الايام شيئا آخر سوى وسائل متنوعة لضمان ذلك الحق للمواطنين »

* * *

« **سؤال** أليس بين القوانين المختلفة ما يمكن ان تعطى اسم القوانين الطبيعية ؟

« **جواب** : كما قلت من قبل ، فهذه القوانين هي تلك التي تخص الملكية والتي تقررت عند قرابة جميع الامم والمجتمعات المتحضرة لان المجتمعات لا يمكن ان تتشكل الا على أساس مثل هذه القوانين »

* * *

« **سؤال** : ما الذي يجب ان يصنعه الامير اذا افترضنا انه يريد احكام علم القوانين ؟

« **جواب** : يجب عليه ان يشجع الناس الموهوبين في دراسة هذا العلم وان يكلفهم بحل مختلف القضايا المتعلقة به

« **سؤال** : ما عساه يحدث اذن ؟

« **جواب** ان القوانين القابلة للتغير والناقصة بعد سوف تكف عن كونها كذلك وتصبح ثابتة ومقدسة »

* * *

لكن كفى ان طوباوية التشريع الكامل لدى هيلفيتيوس ولدى دولباخ وسائر فلاسفة »القرن الثامن عشر على حد سواء لا تعدو كونها طوباوية بورجوازية ولا تتبدل ماهيتها من جراء كثير من السمات التي تحض مؤلفنا ولن نذكر سوى بعض هذه السمات ، بحيث نستكمل لوحتنا عن الرجل الذي ما أكثر ما شوهت سيماؤه الاخلاقية من قبل ايديولوجيي بورجوازية عاقة .

لا يجعل هيلفيتيوس ، في مجتمعه الكامل ، يوم العمل عند العمال مديدا كما الحال لدينا ، قائلا ان القوانين الحكيمة تستطيع من دون ريب أن تخلق معجزة من السعادة العمومية فاذا كان جميع المواطنين يملكون بعض الملكية واذا كانوا جميعا يستمتعون ببعض الكفاءة ، واذا ما **اشتغلوا سبع أو ثماني ساعات** ، فانهم يلبون بغزارة حاجاتهم وحاجات اسرهم ويكون في مقدورهم ان يسعدوا حتى أقصى درجة ممكنة » اذا كان العمل يعتبر على العموم شر فذلك لان المرء لا يستطيع في معظم الدول أن يحصل على الحاجات الضرورية الا بالعمل المفرط ، ولان فكرة العمل مرتبطة دائما بفكرة الكدح* ولم تكن فكرة فوريه عن العمل الجذاب سوى تطوير لفكرة هيلفيتيوس هذه ، بالضبط كما كان يوم العمل من ثماني ساعات هو مجرد الحل الذي وضعته البروليتاريا لقضية أثارها هذا الفيلسوف **البورجوازي** ، والفارق الوحيد هو أن البروليتاريا لن تتوقف عند هذا الحد في اتجاه (( **السعادة** )) .

لقد دافع هيلفيتيوس عن **التربية من قبل المجتمع** ، وعنده ان ثمة اسبابا عديدة لتفضيلها دائما على التعليم الخاص ، وهو لا يستشهد الا بواحد من هذه الاسباب الذي سوف يكون كافيا تماما ان التربية من قبل المجتمع هي وحدها التي تنشىء الوطنيين لانها وحدها القادرة على ربط فكرة السعادة الشخصية بسعادة الامة في اذهان المواطنين وتلك فكرة اخرى من أفكار هذا الفيلسوف البورجوازي سوف تتناولها **البروليتاريا** وتطورها بصورة تتفق مع حاجات العصر
لكن هيلفيتيوس نفسه ، وهذا ما نعرفه ، لم يكن يتوقع من البروليتاريا شيئا. فالى من عهد اذن بتحقيق مشروعه ؟ الى **أمير حكيم** بالطبع لكنه لما كان الانسان مجرد نتاج لبيئته وفضلا عن ذلك لما كانت بيئة الامراء فاسدة جدا فما هي الاسباب المعقولة التي تحملنا على توقع ظهور **حكيم على العرش** ؟ لقد كان فيلسوفنا واعيا جيدا لصعوبة الرد على هذا السؤال ، وحين وجد من الصعب العثور على جواب لجأ الى الاستعانة بنظرية **الاحتمالات** .

« اعطيت جميع الامكانات فعالية ، كما يقول الحكماء ضمن فترة من الزمن أكثر أو أقل طولا ، فلماذا يجب أن نيأس من السعادة المقبلة للجنس البشري ؟ من يستطيع ان يبرهن على ان الحقائق المثبتة اعلاه سوف تكون على الدوام عديمة الجدوى لذلك ؟ انه من النادر والضروري في وقت واحد ان ينتج زمن معين رجلا مثل بن أو مثل مانكو كاباك (!) « كي يمنح القوانين للمجتمعات المنبثقة الى الوجود لكنه اذا افترضنا ان مثل هذا الرجل الطموح الى مجد جديد ، اراد ان يخلد اسمه في الاجيال التالية تحت لقب صديق الانسانية ، وانه كان بنتيجة ذلك أكثر اهتماما برسم قوانينه وبهناءة الشعوب منه بتوسيع سلطانه ، بحيث يريد أن يسعد البشر لا ان يستعبدهم ... عندئذ

---

* **في الانسان** ، القسم الثامن الفصل الاول ، ص

يكون مما لا ريب فيه انه سوف يجد في المبادىء التي عرضتها لوي مضغة تشريع جديد ، تشريع هو أكثر تطابقا مع سعادة الانسانية*

كان الفلاسفة » بقدر ما ينصرفون الى مسألة تأثير البيئة في الفرد يرجعون فعلها الى أعمال الحكومة لكن هيلفيتيوس لم يتصرف على عجلة كالاخرين فقد كان زمن راي فيه بكل وضوح وقرر ان الحكومة هي بدورها مجرد نتاج للبيئة الاجتماعية ؛ ولقد كان قادرا في شيء أكثر أو اقل من النجاح ان يستخلص القوانين المدني والجنائي والعام لجزيرته الوهمية من اوضاعها الاقتصادية. لكنه لم يكد ينتقل الى دراسة تطور التربية يعني العلم والادب ، حتى لم يعد يلاحظ كما سوف يتذكر القارىء من العرض السابق ، سوى تأثير الحكومة وحدها ومهما يكن من شيء ، فان فكرة اثر الحكومة الذي لا يقاوم هو نوع من **الطريق المسدودة** التي لا يمكن الافلات منها الا بمعجزة ، يعني حكومة تقرر على حين غرة ان تشفي جميع الادواء التي كانت هي او الحكومات السابقة السبب فيها ولقد استنجد هيلفيتيوس ايضا بتلك المعجزة وطلب الخلاص في سبيل احياء ايمانه الخاص وايما قرائه ، في حقل يبدو غير محدود ـ حقل « **الامكانات**

بيد ان النظرية لا تخلق الايمان واقلها قدرة على ذلك نظرية توفر الاسس من اجل ثقة هي في ضآلة الثقة التي توفرها نظرية الاحتمالات التي تحقق فعلها خلال مرحلة تطول أو تقصر من الزمن وهكذا بقي هيلفيتيوس ، على الاقل فيما يخص **فرنسا** ، **رجلا عديم الايمان تماما** . ولقد كتب في مقدمة كتابه **في الانسان** « لقد وقعت بلادي تحت نير الاستبداد كليا ، وهي لن تنتج من الآن فصاعدا كتابا مشاهير فاسم الفرنسي لن يشتهر بعد الآن بفضل هذا الشعب ان هذه الامة المنحطة هي في اليوم الحاضر موضع ازدراء أوروبا وليس ثمة أزمة مخلّصة ترد حريتها اليها ويقال ان الهناءة ، مثلها كمثل العلوم ، تهيم في أرجاء العالم ، وهي الآن تتوجه شمالا فثمة امراء كبار ستدعون العبقرية الى هناك ، والعبقرية تدعو الهناءة واني أهدي هذا الكتاب الى مثل هؤلاء الملوك (٢٣) وانه ليخيل الينا ان مثل هذا الارتياب الذي يجد معدلا له حتى درجة ما في الآمال المعقودة على الملوك الشماليين قد اتاح له أن يمضي بتحليل الظواهر الاخلاقية والاجتماعية الى أبعد مما فعل غيره من « الفلاسفة لقد كان دولباخ مثله كمثل فولتير داعية لا نكل ؛ ولقد نشر عددا من الكتب عزف فيها دائما في الجوهر ، على اللحن نفسه ولم يكتب هيلفيتيوس سوى كتاب واحد هو **في الفكر** ، أما الكتاب الاخر ، **في الانسان** ، فلا يعدو كونه تعليقا مطولا عليه ولم يشأ المؤلف ان ينشر هذا الكتاب قط في حياته فقد كتب يقول ان من يرغب في تعلم المبادىء الحقيقية للاخلاق يجب أن يرتفع الى مبدأ الحساسية البدنية وان يبحث في حاجات الجوع

* المصدر نفسه ، الفصل السادس والعشرون

والعطش وما شابه عن الاسباب التي تحمل البشر الذين تكاثروا من قبل وزرعوا الارض على التجمع في مجتمع وعلى الدخول في اتفاقات التقيد بها أو حذفها بجعلهم عادلين أو ظالمين » وهكذا انصرف الى تحليله وغرضه ان يكتشف **المبادىء الحقيقية للاخلاق وللسياسة** في الوقت نفسه وحين قدم مبدأ الانطباعات الحسية برهن على انه أكثر ماديي القرن الثامن عشر حزما ومنطقا وحين بحث في حاجات الجوع والعطش وما شابه عن اسباب التقدم التاريخي للجنس البشري وضع نصب عينيه مهمة ايجاد تفسير مادي لهذا التقدم ولقد شاهد عن بعد حقائق عديدة اعظم قيمة حتى درجة كبيرة من مشروعه الخاص بتشريع كامل أو «حقائقه الكبيرة» الثابتة والمطلقة وهو المشروع الذي اهداه الى ملوك «الشمال».
لقد ادرك انه لا بد من وجود سبب مشترك ما للتطور البشري لكنه لم يعرف ولم يستطع ان يعرف هذا السبب نظرا لافتقاره الى ما يكفي من الحقائق أو الى المنهج الضروري ولقد ظل ذلك السبب خفيا عليه غامضا في نظره ، لكنه لم يجعله يائسا ذلك ان الطوباوي فيه عزى الفيلسوف لقد تحقق السبب الرئيسي فقد رسم مبادىء التشريع « **الممتاز** »

ويكفينا مثالان لنتبين كيف استخدم هيلفيتيوس أحيانا في رسم مشاريعه الطوباوية مبدأ الانطباعات الحسية

انه يقول

> أنا لست معارضا للعروض المسرحية ، وفي هذا الخصوص لا أقبل بنصيحة روسو . فمما لا ريب فيه ن مثل هذه العروض توفر السرور بيد انه ليس ثمة لذة لا يمكن أن تصبح يدي حكومة حكيمة مبدأ يقود الى الفضيلة كانت هذه الفضيلة ترى في تلك اللذة مكافأة*

واليكم ما قاله دفاعا عن **الطلاق**

> كان صحيحا الرغبة في التبديل لاصقة كما يقولون بالطبيعة البشرية ، فان امكانية مثل هذا التبديل يمكن تقريرها كمكافأة على الجدارة وعندئذ يستطيع المرء يحاول بمثل هذه الوسيلة ، ان يجعل المحاربين اشجع والقضاة أعدل والعمال أجد ، والموهوبين

**الطلاق كمكافأة على « الفضيلة »** أثمة ما هو ابعث على السخرية ؟

واننا نعرف انه اذا ما طبقت في يوم من الايام مبادىء التشريع الكامل فان القوانين التي لا تبرح غير ثابتة وناقصة سوف تكف عن كونها كذلك وتصبح ثابتة وبذلك سوف تكون المجتمع في حالة من **الراحة** . وما عسى تكون عواقب مثل هذا الشرط

---

* **في الانسان** ، القسم الاول الفصل العاشر الهامش .

« لنتخيل انه سيكون في مقدور الانسان في كل فرع من فروع العلم أو الفن ، ان يقارن ما بين جميع الاشياء والحقائق المعروفة ، وانه لا بد مكتشف آخر الامر مختلف العلاقات بين هذه الاشياء والحقائق ونظر لانه لن يكون أمام البشر أية تراكيب جديدة يصنعونها ، فان ما يعرف بالذهن لن يكون له اذن وجود بعدئذ ؛ وعندئذ فان جميع الاشياء سوف تتحول الى العلم ، وسوف يلزم الذهن البشري بالاستراحة حتى يتيح له اكتشاف حقائق مجهولة ان يقارن من جديد ما بينها ويجمعها بالضبط بمثل الطريقة التي يتاح بها لمنجم مستهلك ان يرتاح حتى تتشكل فيه عروق جديدة*

وهكذا فان هذه **الاستراحة** وهذا **الاعياء** عند الفكر البشري يجب ـ على الاقل في مجال **العلاقات الاجتماعية** ـ ان يجرا بصورة محتومة في اذيالهما تحقيق مبادىء هيلفيتيوس الاخلاقية والسياسية وهكذا كانت **الركودة** المثل الاعلى لهذا الفيلسوف الذي كان بالغ التعصب للتقدم لم تكن **المادية الميتافيزيائية الا نصف ثورية** . لقد كانت الثورة بالنسبة اليه مجرد وسيلة **( وذلك فقط من جراء انعدام الوسيلة السلمية )** لبلوغ سماء **آمنة** و **هادئة** بصورة نهائية كان يحيا في صدره ـ وآسفاه ـ روحان كما في فاوست وفي البورجوازية ، وكان ماديو القرن الثامن عشر الممثلين الاكثر تقدمية للروح الاخير

* * *

---

* **في الانسان** ، القسم الثاني الفصل الخامس عشر ويقصد هيلفيتيوس هنا من **الفكر مجموعة من الافكار الجديدة** ، ومن **العلم** اكتساب افكار معروفة من قبل الجنس البشري

# ٣

# مــاركس

حسب ماديو القرن الثامن عشر انهم انتهوا من المثالية لقد قضت الميتافيزيائية القديمة ودفنت وليس العقل براغب في سماع المزيد عنها ومهما يكن من شيء ، فما اسرع ان اتخذت الامور اتجاها جديدا فمنذ أيام الفلاسفة بدأ انبعاث للفلسفة التأملية في المانيا ، وخلال العقود الاربعــة الاولى من القرن التاسع عشر الجاري اعيرت اذن صماء للمادية التي اعتبرت هي نفسها الان مائتة ومدفونة لقد بدت العقيدة المادية في نظر عالم الفلسفة والادب بأسره « رتيبة و كئيبة » و مؤسية كما كان غوته يرى انها تبعث الرجفان في الناس وكأنها شبح* ». وحسبت الفلسفة التأملية ، من جانبها ، ان عدوتها هزمت الى الابد

ولا بد من الاعتراف بأن الفلسفة التأملية كانت تملك تفوقا كبيرا على المادية ، اذ كانت تقوم بدراسة الاشياء في تطورها في استهلالها ودمارها وعلى أي حال فان دراسة الاشياء من وجهة النظر الاخيرة هذه كانت تعني تجنب طريقة للدراسة مميزة جدا لرجال الانوار ، طريقة كانت تحول الظواهر اذ تحذف منها كل حركة باطنة للحياة الى مستحاثات طبيعتها وترابطها غير قابلين للفهم ولم يكف هيغل عملاق المثالية في القرن التاسع عشر ، عن شن النضال باستمرار ضد هذه الطريقة في الدراسة ؛ فعنده انها ليست « تفكيرا حرا وموضوعيا ، لانها **لا تتيح للموضوع أن يحدد ذاته بحرية ضمن ذاته ، بل هي تفترضه جاهزا** ** » . ولقد مجدت الفلسفة المثالية المستعادة طريقة هي على طرفي نقيض مع تلك الطريقة ــ الطريقة **الجدلية** ــ واستعملتها بنجاح يبعث على الذهول ونظرا لانه سنحت لنا

---

* انظر الكتاب التاسع من Dichtung und Wahrheit حيث يصف غوته انطباعاته عن **نظام الطبيعة** .

** **الموسوعة** ، الفقرة ٣١

فرص متكررة للاتيان على ذكر هذه الطريقة ونظرا لانه لا بد لنا من مزيد من التعامل معها فلعله يكون من المفيد ان نصفها بكلمات هيغل بالذات وهو سيد الجدلية انه يقول

« تعتبر الجدلية عادة من حيث هي براعة خارجية تدخل الاضطراب اعتباطا الى بعض المفاهيم وتخلق فيها مجرد مظهر للتناقضات بحيث لا تكون هذه الحدود بالذات وهمية بل ذلك المظهر بالاحرى في حين أن حدود الذهن هي على العكس من ذلك حقيقية وفي الحقيقة ان الجدلية ليست في الاغلب شيئا آخر سوى لعب ذاتي يقدم بصورة اعتباطية البرهان على موضوعة معينة تارة والدحض لها تارة أخرى ـ وهو تفكير المضمون معدوم فيه وفراغه مستتر خلف هذه البراعة التي تخلق ذلك النوع من التفكير ومهما يكن من شيء فان الجدلية هي الطبيعة الخاصة لحدود الذهن للاشياء وللمتناهي عامة ان التفكير بحد ذاته حركة للفكر تسمو على المتناهي المنعزل وتقيم الارتباط بينه وبين الاشياء الاخرى وهو ما يجعل هذا المتناهي على ارتباط ما ، لكنه فضلا عن ذلك يحافظ على معزاه المنعزل السابق أما الجدلية فهي ، على النقيض من ذلك ، انتقال ملازم من حد الى آخر وفيه يتضح أن هذه الحدود الخاصة بالذهن ضيقة ومحدودة يعني انها تنطوي على أنكار ذاتها **ان جميع الاشياء المتناهية مصيرها الدمار الذاتي** وبنتيجة ذلك فالجدلية هي الروح المحرك لاي تقدم علمي للفكر وهي مبدأ يحمل وحده الى مضمو العلم ارتباط وضرورة ملازمين

ان جميع الاشياء المحيطة بنا يمكن ان تخدم كمثال على الجدلية ... كوكبا يقف في هذا الموضع تارة لكنه في ذاته يميل لان يكون في موضع آخر ، مظهرا فعالية غيريته بكونه في حالة حركة وأما فيما يتعلق بوجود الجدلية في العالم الروحي وبالخاصة في المجالين الفقهي والاخلاقي ، فيجب فقط ان نتذكر هنا ان تجربة جميع البشر تدل على أي وضع أو فعل يبلغ حدوده القصوى يتحول الى نقيضه ؛ ولنلاحظ بصورة عابرة هذه الجدلية تحصل على الاعتراف بها في أقوال مأثورة عديدة ومثال ذلك أن قولا مأثورا ينص على ما يلي **Summum jus , Summum injuria** وهذا يعني أن الحق المجرد اذا دفع الى حده الاقصى يتحول الى ظلم الخ*

ان الطريقة الميتافيزيائية للماديين الفرنسيين هي بالنسبة الى الطريقة الجدلية للمثالية الالمانية مثل الرياضيات الاساسية بالنسبة الى الرياضيات العليا فالافكار في الطريقة الاولى محدودة بدقة ومنفصلة عن بعضها كما بواسطة « هوة ان متعدد الاضلاع هو متعدد الاضلاع ولا شيء أكثر من ذلك والدائرة هي دائرة ولا شيء أكثر من ذلك ومهما يكن من أمر فاننا مضطرون حتى في قياس

* المصدر نفسه ، الفقرة ٣١ والملحق

المساحات المستوية لاستخدام ما يعرف بطريقة الحدود التي تهز مفاهيمنا الفاضلة والثابتة وترصها الى بعضها بعضا بصورة غريبة كيف يبرهن على أن مساحة الدائرة تساوي حاصل ضرب محيطها بنصف قطرها ؟ يقال أن الفارق بين مساحة متعدد اضلاع نظامي محتوى في دائرة ومساحة هذه الدائرة يمكن ان يحول بصورة اعتباطية الى مقدار ضئيل بشرط ان نتناول عددا كبيرا جدا من اضلاعه واذا اشرنا الى مساحة ومحيط وقطر متعدد اضلاع نظامي محتوى في دائرة بالاحرف م و ح و ق فسوف يكون لدينا م = ح × $\frac{1}{2}$ ق ؛ وان م و ح × $\frac{1}{2}$ ق هنا هما مقداران يتبدلان معا حسب عدد الاضلاع لكنهما يظلان على الدوام متساويين فيما بينهما ، وبالتالي فان **حدودهما** سوف تكون متساوية هي الاخرى واذا اشرنا الى مساحة دائرة ومحيطها وقطرها بالاحرف س و د و ر فسوف يكون لدينا اذن أن س هي حد م و د هي حد ح ، و ر هي حد ق وبالتالي فان س = د × $\frac{1}{2}$ ر وهكذا **يتحول متعدد الاضلاع** الى دائرة ، والمقصود من ذلك أن الدائرة تؤخذ بعين الاعتبار **في عملية صيرورتها** . وان هـذا ليشكل منـذ الآن انتفاضـة مرموقة في المفاهيم الرياضية وهذه الانتفاضة بالذات هي التي يتخذها التحليل الاعلى منطلقا له ان الحساب التفاضلي يعالج المقادير **اللامتناهية في الصغر** ، أو على حد تعبير هيغل ،

يعالج مقادير هي **في عملية التلاشي** – **لا قبل** تلاشيها لانهـا تكون اذن مقادير متناهية ولا **بعده** لانها **لا** تكون اذن شيئا*

ومهما بدت هذه الحيلة عجيبة وداعية الى المفارقة ، فهي تقدم الى الرياضيات خدمات لا تحصى وبذلك تثبت انها على طرفي نقيض من العبث الذي قد توسم به بادىء الامر ولقد كان « فلاسفة »القرن الثامن عشر يقدرون ميزاتها تقديرا عاليا، فانصرفوا بهمـة كبيرة الى التحليل الاعلى لكـن هؤلاء الناس انفسهم ، الذين استخدموا هذا السلاح بصورة رائعة في حساباتهم **كوندورسيه** على سبيل المثال، كانوا سعجبون أيما عجب لو علموا اذن أن هذه الحيلة الجدلية بالذات يجب ان تطبق في دراسة **جميع الظواهر التي يعالجها العلم دونما اعتبار للمجال الذي تنتسب اليه** ولقد كانوا يجيبون اذن بان **الطبيعة البشرية** هي على الاقل في مثـل ثبات وابدية حقوق وواجبات الشعب والمواطنين التي تشتق من تلك الطبيعـة وكان للمثالي الالماني راي آخر فقد كان هيغل يوكد انه « **ليس ثمة شيء الا وهو شرط ... بين الوجود والعدم** » .

وبقدر ما سادت في حقل **علم طبقات الارض نظريـة الكوارث والجيشانات** المفاجئة التي غيرت بضربة مطرفة واحدة وجه الكرة الارضية ودمرت الانواع القديمة للحيوانات والنباتات لتفسح المجال لانواع جديدة. فقد كان نمط التفكير ميتافيزيائيا. لكنه حين رفضت النظرية ، وافسحت المكان لفكرة التطور البطيء الذي مرت به

* **مبادىء المنطق** ، لورنبورغ ١٨١٢ المجلد الاول الكتاب الاول ، ص ٤٢ .

قشرة الارض تحت التأثير الطويل لنفس تلك القوى التي لا تبرح فاعلة في ايامنا الحاضرة ، فقد سادت وجهة النظر **الجدلية** اذن

وبقدر ما حُسب في **علم الحيــاة** ان الانواع **ثابتــة ،** فقد كان نمط التفكير **ميتافيزيائيا** وذلك هو الرأي الذي نادى به الماديون الفرنسيون وكانوا يعودون اليه بثبات حتى حين كانوا يحاولون التخلي عنه وقد رفض علم الحياة في الوقت الحاضر ذلك الرأي بصورة نهائيــة ان النظرية التي تحمــل اسم داروين نظرية جدلية في جوهرها

ولا بد عند هذه النقطة من ابداء الملحوظة التالية فمهما كان رد الفعل ضد النظريات الميتافيزيائية القديمة في العلوم سليما ، فقد خلق بدوره قدرا كبيرا من التشوش الفكري حيث ظهر اتجاه الى تفسير النظريات الجديدة بمعنى التعبير القديم natura non focit saltum ، الامر الذي قاد الى تطرف آخر لم يعد الاهتمام يمنح بعد الآن الا لعملية **التبدل الكمي المتدرج** في ظاهرة معينة ، أما تحولها الى ظاهرة أخرى ، فهذا ما ظل عصيا على الفهم كليا **تلك كانت الميتافيزياء القديمة، لكنها تقف على رأسها** ولقد ظلت الظواهر ، بالطريقة القديمة عينها منفصلة عن بعضها بعضا **بهوة لا تعبر** • وان هــذه الميتافيزياء لراسخة بحزم عظيم في أذهان التطوريين الحاليين بحيث ثمة في الوقت الراهن عدد من « **علماء الاجتماع** » الذين يكشفون عن افتقارهم الكلي الى الفهم كلما صادفت ابحاثهم **الثورة** • انهم يعتقدون أن **الثورة** متنافرة مع **التطور** historia non facit saltum ، وهم لا يضطربون على الاطلاق ، بالرغم من حكمتهم التاريخيــة ، اذا حدثت ثورات ، بمــا في ذلك الثورات الكبيرة ، بل يتشبثون بنظريتهم بئس الثورات التي تعكر صفوها ؛ انها تعتبر « **ادواء** » • ولقد دانت **المثالية** الجدلية من قبل هذا الاضطراب المؤسي في الافكار وحاربته واليكم ما يقول هيغل بشأن التعبير المذكور أعلاه

يقال ان natura non facit saltum ؛ وان المخيلة العادية ، حين لا يكون لها بد من تصور **صيرورة** أو **فنــاء** ، تحسب انها تصورتهما من حيث هما **انبثاق أو تلاش متدرجان** »

ومهما يكن من شيء ، فالجدلية تبين بصورة بالغة الاقناع ان التبدلات في الوجود ليست على العموم مجرد انتقال من كمية الى أخرى بل هي كذلك انتقال من النوعي الى الكمي والعكس بالعكس عملية صيرورة الى شيء آخر **يحطم التدرج** وهو نوعيا شيء مختلف كل الاختلاف عن الوجود السابق فالماء حين يبرد لا يقسو شيئا فشيئا بالفا تماسك الجليد بصورة تدريجية ، بعدما يكون قد مر بتماسك العجينة ، بل هو يقسو بصورة مباغتة ، فهو حين يبلغ نقطة التجمد يمكن اذا ظل ساكنا أن يكون مائعا كليا ، لكن هزة صغيرة تحوله الى حالة القساوة .

ان مفهوم تدرج الوجود مبني على فكرة ان ما هو في حالة الصيرورة موجود فعليا بصورة مسبقة ، بصورة محسوسة أو غير ذلك ، وهو غير ملحوظ بسبب ضآلته وحدها ؛ وان تدرج التلاشي مبني على فكرة ان العدم أو الغير الذي يتخذ مكانه موجود هناك على السواء سوى أنه غير ملحوظ بعد ؛ موجود هناك ليس بمعنى ان الغير محتوي في ذاته في الغير الموجود هناك بل انه موجود هناك من حيث هو كائن محدد سوى أنه غير ملحوظ*

وهكذا

١ ـ **كل ما هو متناه هو بحيث يبطل ذاته ، يتحول الى نقيضه** • ويتحقق هذا الانتقال بمعونة الطبيعة الملازمة لكل ظاهرة ، هذه التي تتضمن قوى تولد نقيضها

٢ ـ ان التبدلات **الكمية** المتدرجة في محتوى معين تتحول آخر الامر الى تمايزات **نوعية** • وان صفات هذا التحول صفات **وثبة ثلمة في التدرج** وانه لمن الخطل الفادح الاعتقاد بأن الطبيعة أو التاريخ لا يقومان بوثبات

هذه هي الصفات المميزة للنظرة الجدلية الى العالم وهي الصفات التي من المفيد تسجيلها هنا

لقد خلقت الطريقة الجدلية في تطبيقها على الظواهر الاجتماعية ( ونحن نعالج هذه الظواهر وحدها ) ثورة حقيقية ، ولن يكون من المبالغ به أن نقول اننا ندين لها بفهم للتاريخ الانساني من حيث هو **عملية خاضعة لقانون** لقد كان « الفلاسفة» الماديون يرون في التاريخ الانساني مجرد افعال **واعية** لاناس حكماء وفاضلين اكثر أو أقل ، لكن في الاغلب اناس ليسوا على درجة كبيرة من الحكمة وهم يفتقرون الى الفضيلة كليا أما المثالية الجدلية فحدست وجود **الضرورة** حيث لا تكشف النظرة الاولى سوى **لعب المصادفة المضطرب** ، سوى صراع لا نهاية له بين الاهواء والاغراض الفردية وان هيلفيتيوس نفسه الذي « يفترض » ان الاشياء جميعا ، في التاريخ والطبيعة على حد سواء ، « **تحدث وتنفعل من تلقاء ذاتها** » ( هذه هي كلماته بالذات ) وبذلك اقترب اكثر من وجهة النظر الجدلية قد فسر الاحداث التاريخية من خلال صفات **الافراد** وحدهم ، هؤلاء الافراد الذين يملكون السلطة السياسية وفي رأيه أن مونتسكيو كان على خطل حين تجاهل ، في كتابه **عظمة الرومان وانحطاطهم مصادفات الاحداث المواتية التي حذفت روما** ويقول ان مونتسكيو

« وقع في العيب المشترك جدا بين المفكرين اذ يرغبون في نسب العقل الى جميع الامور ، في حين وقع في الوقت نفسه في خطيئة جميع العلماء النظريين الذين ، اذ ينسون الجنس البشري ينسبون بقدر كثير من اليسر ثابتة ومبادىء منتظمة الى جميع الهيئات » يتحدث هيلفيتيوس هنا عن « الهيئات » السياسية من طراز مجلس الشيوخ

* **المنطق** ، المجلد الاول ، الكتاب الاول ، ص ٣١٣

الروماني ) « في حين ان فردا واحدا هو في الاغلب الذي يقـود على هواه الجمعيات الخطيرة المسماة مجالس الشيوخ* »

لشد ما تختلف عن ذلك نظرية شيلنغ الذكرى يؤكد أن **الحرية** ( يعني **افعال الناس الشعورية ) تتحـول الى ضرورة** في التاريخ ، **في حين تتحـول الضرورة الى حريـة** • ويعتبر شيلنغ المسألة التالية **القضية الاهم في الفلسفة**

ما الذي يقود ، بصورة موازية لفعلنا الحر كليا ، يعني الواعي كليا الى شيء ما ينشأ فينا في صورة شيء شعوري ، لم يكن له وجود من قبل قط في اذهاننا ، وما كان يمكن أن ينشأ لو اعطيت حريتنا ان تتصرف على هواها** »

وعنـد **هيغل** ان

« التاريخ العالمي تقدم في وعي الحرية ، تقـدم لا بـد لنا من الاعتراف بـه في ضرورتـه »

وهو يعتقد ، مثله مثل شيلنغ ، انه

يحصل ايضا في التاريخ العالمي ، بفضل افعال البشر عامة ، نتائج تختلف حتى درجة ما عن تلك النتائج التي سعوا اليها وحققوها عن النتائج التي يملكون معرفة مباشرة عنها ، ويرغبون فيها ؛ انهم ينصرفون الى تحقيق مصالحهم ، لكن شيئا آخر خلاف ذلك يتحقق بفضل هذا السعي ، شيئا كامنا فيهم ، لكنه لا يدرك بصورة شعورية ولا يشكل جزءا من نواياهم***

انه من الواضح أن ما « يسود العالم » من وجهة النظر هذه ليس هو « آراء » البشر ، وانه ليس للمرء ان يفتش فيهم عن مفتاح الاحداث التاريخية ان « الراي العام يخضع في تطوره لقوانين تصوغه بنفس الضرورة التي تحدد حركة الاجرام السماوية وبهذه الطريقة وجد الحل للتناقض الذي كان « الفلاسفة يرتطمون بـه أبـدا

**١ ــ الراي العام يسود العالم ؛ انه يحدد العلاقات بين أفراد المجتمع ؛ انـه يخلق البيئـة الاجتماعية •**

٢ ــ الانسان نتـاج للبيئـة الاجتماعيـة ؛ وآراؤه تحددها صفات هـذه البيئـة****

---

* انظر **افكار وتأملات هيلفيتيوس** ، في المجلـد الثالث مـن **المؤلفات الكاملـة** باريس ١٨١٨ ، ص ٣٠٧

** **نظام المثاليـة المتسامية** ، توبنجن ١٨٠٠

*** Vertesungen uber die Philosophie der Geschichte , 9 , Bd , dèr Hegelschen werke , heransgegen von E , Gans , S , 22 , 32 , cg , Schelling ch , eil , S . 424

**** راجع دراستنا عن دولباخ

الاشياء جميعا وقف على التشريع ، هذا ما كان « الفلاسفة يكررونه ، وهم على قناعة راسخة بأن اعراف أي شعب وقف على تشريعه ولقد كانوا يرددون من جهة ثانية بصورة لا تقل عن ذلك ان الاخلاق الفاسدة هي التي ادت الى سقوط حضارة العصور القديمة ونحن نواجه هنـا تناقضا آخر ١ ـ التشريع يخلق الاخلاق ؛ ٢ ـ الاخلاق تخلق التشريع ولقد كانت مثل هذه التناقضات تنطوي اذا جاز التعبير ، في وقت واحد ، على جوهر وبؤس التفكير الفلسفي للقرن الثامن عشر الذي كان عاجزا عن حلها ، وعن التخلص منها ، أو عن فهم أسباب الاضطراب الرهيب الذي كان يتخبط فيه مرارا وتكرارا

ان الميتافيزيائي ينظر الى الاشياء ويدرسها الواحد تلو الآخر وفي عزلة عـن بعضها بعضا وحين يستشعر الحاجة الى تقديم لوحة جامعة يدرس الاشياء في تفاعلها وهو يتوقف عند هذه النقطة ولا يمضي الى أبعـد من ذلك كما انه لا يستطيع ان يمضي الى ابعد من ذلك ، نظرا لان الامور تظل بالنسبة اليه منفصلة بهوة عن بعضها بعضا ، ونظرا لانه لا يملك تصورا عن تطورها كي يفسر اصولها او العلاقات القائمة بينهـا

وتعبر المثالية الجدلية هذه الحدود التي يجد الميتافيزيائيون عبورها محالا انها تنظر الى مظهري علاقة التفاعل على حد سواء ليس على اعتبارهما معطيين مباشرة » بل من حيث هما « لحظتان لشيء ثابت وأعلى هو معنى كذلك يدرس هيغل الاخلاق وبنية الدولة في سبارطة ، فيقول

« اذا اعتبرنا ، مثلا ، اعراف الشعب السبارطي من حيث هي نتيجة لبنية دولتهم ، وعلى العكس من ذلك بنية دولتهم من حيث هي نتيجة لاعرافهم ، فقد تكون هذه الطريقة في الدراسة صحيحة ، ومع ذلك فهي لا ترضينا بصورة نهائية ، وذلك لاننا في حقيقة الامر لم نفهم أيا من بنية الدولة أو الاخلاق عند هذا الشعب ولن يكون ذلك ممكنا الا ادركنا ان هذه المظهرين ومثلهما المظاهر الاخرى التي يكشف عنها حياة السبارطيين وتاريخهم ، تملك معنى كأساس لها*

لم يكن الفلاسفة الفرنسيون يضمرون للعصور الوسيطة سوى الازدراء ، او الحقد بالاحرى وكان هيلفيتيوس يعتقد أن الاقطاعية « قمـة العبث ،وعلى الرغم من بعد هيغل عن اية امثلة رومانسية لاعراف ومؤسسات العصور الوسيطة ، فقد كان يعتبر هذه العصور من حيث هي عنصر أساسي لتطور الجنس البشري والاكثر من ذلك انه ادرك مسبقا أن التناقضات الباطنة للحياة الاجتماعية الوسيطية هي التي ادت الى قيام المجتمع الراهن

ولم ير الفلاسفة الفرنسيون في الدين سوى كتلة من الاوهام ناشئة عن حماقة الجنس البشري بالذات وعن الخداع الذي يمارسه الكهنة والنبيون بحيث لم

* الموسوعة ، الجزء الاول ، الفقرة ١٥٦

يكن في مقدورهم الا ان **يشنوا النضال** ضد الدين ومهما تكن فائدة هذا النوع من العمل بالنسبة الى ازمانهم فهو لم يقدم ادنى اسهام في دراسة الدين العلمية ان هذه الدراسة قد **هياتها المادية الجدلية** وانه ليكفي أن نقارن بين **حيــاة يسوع لشتراوس** وبين كتاب **التاريخ النقدي ليسوع المسيح لدولباخ** لنرى الخطوة الواسعة الى الامام التي قامت بها فلسفة الدين تحت التأثير المفيد لطريقة هيغل الجدلية*

وحين قام « الفلاسفة » بدراسة عن تاريخ الفلسفة فعلوا ذلك لينتقوا فيــه حججا تؤيد آراءهم او ايضا ليدمروا انظمة سابقيهم المثاليين ولم ينازع هيغل انظمة سابقيه التي كان يعتبر انها مراحل مختلفة في تطور فلسفة وحيدة ان اية فلسفة معينة هي ابنة زمانها

« ان الفلسفة الاحدث حصيلة لجميع الفلسفات السابقة ولا بد بالتالي تنطوي على مبادئها جميعا ؛ وبنتيجة ذلك ، فاذا هي كانت فلسفة حقا فهي الفلسفة الاكثر تطورا والاغنى والاكثر حسية** »

ولقد كان التشريع الكامل احد المواضيع المفضلة التي درسها الفلاسفة الذين كان لكل منهم طوباويته الخاصة في هذا المضمار اما المثالية الجدلية فجافت مثل هذه الدراسات ويقول هيغل

« ان الدولة كلية فردية لا يمكنك أن تتناول منها أي جانب خصوصي ، حتى اذا كان جانبا بالغ الاهمية جدا ، مثل دستورها السياسي وتناقشه على حدة وتتخذ قرارا بشأنه ان من واجب المرء ان يفهم روح الشعب الذي يصدر عنه كل شيء في الدولة ؛ ان هذا الروح يتطور من ذاته ، ويستطيع المرء يميز في تطوره بعض المراحل التي لا بد من دستور خاص لكل منها ، وهو ليس بالدستور الذي يختاره المرء على هواه ، بل يجب ان يتفق مع روح العصر ثانيا وفيما عدا ذلك ليس الدستور وحده ما يقرره روح الشعب ، بل ان روح الشعب هذا هو حلقة في سياق تطور الروح العالمي الذي تحدث الدساتير الفردية فيه*** »

وبكلمة مختصرة ، فان المثالية الجدلية اعتبرت الكون كلا واحدا (( **يتطور من معناه الخاص** )) وكانت المهمة التي اخذتها الفلسفة على عاتقها – وهي مهمة نبيلة وجليلة ورائعة – هي معرفة هذه الوحدة الشاملة واماطة اللثام عن عملية تطورها ولا يمكن لفلسفة وضعت مثل هذه المهمــة نصب عينيها أن تبــدو « رتيبة أو

---

* وعلى أي حال ، فان في مكتبة القارىء الالماني ، بدلا من مطالعة كتاب دولباخ يقلب صفحات **حياة يسوع** ( هـ باولوس ، هايدلبرغ ١٨٢٨ الذي يقدم وجهة النظر نفسها ان رجل الانوار الالماني وحده يحاول ان يمجد ما حاربه الفيلسوف الفرنسي بهوى عظيم باولوس يرى معجزة من الطيبة والحكمة في رجل لم يترك في دولباخ سوى الانطباع عن رجل متبطل جاهل وفاسق

** **الموسوعة** ، الفقرة ١٣

*** **فلسفة التاريخ** ، ص ٥٠ – ٥٤

كئيبة في نظر اي انسان ، بل الامر على النقيض من ذلك تماما ، اذ هي تثير الاعجاب العمومي بحياتها المليئة وقوة حركتها التي لا تقاوم ، وجمال الوانها الالاقة ومع ذلك ظلت المحاولة النبيلة التى قامت بها الفلسفة الجدلية المثالية ناقصة ، ولم تكملها كما لم يكن في مقدورها أن تفعل ذلك ان المثالية الالمانية ، بعدما قدمت للفكر البشري خدمات جلى ، انحطت كي تقدم ، اذا جاز التعبير برهانا جديدا على نظريتها الخاصة وتبين بمثالها الخاص أن « كل ما هو متناه هو بحيث يبطل ذاته ، يتحول الى نقيضه » فبعد عشر سنوات من وفاة هيغل ظهرت المادية من جديد في حلبة التطور الفلسفي ولم تكف حتى يومنا هذا عن تحقيق الانتصارات على خصمتها القديمة

ما هو ذلك المعنى ، تلك الفكرة المطلقة ، ذلك الروح العالمي الذي لم تنقطع الفلسفة التأملية الالمانية عن الحديث عنه ؟ أثمة وسيلة الى معرفة هذا الكائن الغامض الذي كان يحسب انه يمنح الحركة والحياة للاشياء جميعا ؟

في الحقيقة أن مثل هذه الوسيلة موجودة ، وهي فضلا عن ذلك وسيلة بسيطة جدا سوى أنها تتطلب دراسة دقيقة واذا ما تم ذلك ، فان تحولا مدهشا سوف يحدث ان تلك الفكرة المطلقة التي هي على هذا القدر من العنفوان الذي لا يقاوم في حركتها المغرية جدا والمثمرة جدا ، أم جميع الاشياء الموجودة ، القائمة والباقية في القرون الآتية ، تفقد كل بهاء ، وتتحول الى الجمود ، ويتبين انها تجريد خالص، ومفتقرة جدا الى القدرة على تفسير أي شيء كان ، وهي تسأل بكل تواضع ادنى تأويل لذاتها Sic transit gloria idae

ان الفكرة المطلقة ، بكل قوانينها الملازمة ، هي مجرد تجسيد لعملية تفكيرنا الخاص . وان كل من يتوجه الى هذه الفكرة طلبا لتفسير ظاهرة الطبيعة أو التطور الاجتماعي يتخلى عن الارض الصلبة للوقائع ويدخل مملكة الاشباح هذا هو بالضبط ما حدث للمثاليين الالمان

اننا نصادف عرضا رائعا لسر البناءات التأملية في كتاب صدر في فرانكفورت على الماين عام ١٨٤٥ وهو من تأليف رجلين كسب اسماهما الشهرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

شكلت من التفاح والكمثرى والفريز واللوز الفكرة العامة وهي فاكهة واذا مضيت ابعد من ذلك وتخيلت ان فكرتي المجردة « فاكهة المشتقة من الفاكهة الحقيقية ، وهي كيان قائم خارج عني هي فعلا الجوهر الحقيقي للكمثرى والتفاحة الخ ، اذن في لغة الفلسفة التأملية أنا اصرح ان « الفاكهة » هي مادة الكمثرى ، والتفاحة واللوزة الخ ولذلك أقول انه ليس جوهريا للكمثرى أن تكون كمثرى ، وانه ليس جوهريا للتفاحة ان تكون تفاحة ، وان ما هو جوهري لتلك الاشياء ليس كيانها الحقيقي الذي تدركه الحواس ، بل الجوهري هو انني استخلصت منها ، ثم اضفت عليها جوهر

فكرتي ـ « الفاكهــة » ولذلك اعلن ان التفاح والكمثرى واللــوز الخ اشكــال ( modi ) فقط للوجود ، الفاكهة ان فهمي المحدود ، تؤيده حواسي ، يميز بالطبع التفاحة عن الكمثرى ، والكمثرى عن اللوزة ، ولكن عقلي التأملي يعلن ان تلك الاختلافات الحسية غير جوهرية ولا اهمية لهــا ؛ انه يرى في التفاحــة الشيء ذاته الذي يراه في الكمثري ، ويرى في الكمثرى ما يراه في اللوزة ، أي الفاكهة والفواكه الحقيقية الخاصة ليست اكثر من اشكال جوهرها الحقيقي هو المادة الفاكهة*

ومهما يكن من شيء ، فان الفلسفة التأمليــة الالمانية لم تؤمن بوجهة نظــر الجوهر ويقول هيغل

« أن الجوهر المطلق هو الحقيقة ومع ذلك فهو ليس بعد الحقيقة كلها ؛ يجب كذلك فهمه من حيث هو فعال وعائش بذاته ، ولهذا السبب تحديده من حيث هو روح».

لنر كيف تتحقق وجهة النظر هذه الاسمى والاعظم حقيقة

« اذا لم تكن التفاح والكمثرى واللوز والفريز في الحقيقة شيئا سوى مادة « فاكهة ، فان السؤال يطرح لماذا تتظاهر الفاكهة لي أحيانا كتفاحة واحيانا اخرى ككمثري واحيانا اخرى كفريزة ؟ لماذا مظهر التباين هذا الذي يناقض بشكل يلفت النظر مفهومي التأملي لـ « الوحدة » ، و « الجوهر » ، و « الفاكهة ؟

ويجيب الفيلسوف التأملي أن هذا يحصل بسبب ان الفاكهة ليست ميتة غير متميزة ، عديمة الحركة ، بل حية ، متميزة ذاتيا ، متحركة وتباين الفواكه الدنيوية ليس بذي مغزي فقط لادراكه الحسي بل أيضا لـ الفاكهة نفسها وللعقل التأملي ان الفواكه الدنيوية المختلفة هي مظاهر مختلفة لحياة « الفاكهة » الواحدة . انها تبلورات للفاكهة » نفسها في التفاحة تتقمص الفاكهة الوجود الشبيه بالتفاحة ، وفي الكمثرى تتقمص الوجود الشبيه بالكمثرى ولذلك علينا الا نمعن في القول وكأننا ننطلق مــن وجهــة نظــر « الجوهر » ( substance ) : الكمثرى « فاكهة » والتفاحة فاكهة واللوزة « فاكهة » بل علينا القول ان « الفاكهة تمثل نفسها كتفاحة و الفاكهة تمثل نفسها كتفاحة ، و « الفاكهة » تمثل نفسها كلوزة ، والاختلافات الذاتية لـ « الفاكهة » تجعل الفواكه الخاصة اعضاء تابعة لعملية حياة « الفاكهة

وهكذا فـ « الفاكهة » ليست بعد الان وحدة مجردة وغير متمايزة ، انها احادية مثل كلية الفواكه و « مجموعيتها » ، التي تؤلف « سلاسل عضوية متشعبة » وفي كل عضو من اعضاء تلك السلاسل ، تتقمص « الفاكهة وجودا أكثر وضوحا واكثر تطورا ، حتى تكون اخيرا « خلاصة » كل الفواكه ، وفي الوقت نفسه وحــدة حية تتضمن كل تلك الفواكه المنحلة في نفسها تماما كما أن كل اطراف البدن ، على سبيل المثال ، تنحل باستمرار في الدم ، وتنتج من الدم ايضا باستمرار

---

* العائلة المقدسة أو نقد النقد النقدي ، ضد برونو بوير واشباهه ، بقلم ف . انجلزوك . مارکس ، فرنكفورت على الماين ، ١٨٤٥ ، ص ٧٩

نرى انه اذا كان الدين المسيحي يعرف فقط تجسيدا « **واحدا** » **للرب** ، فان لدى الفلسفة التأملية من التجسدات بقدر ما هنالك من اشياء ، تماما كما ان لديها هنا في كل فاكهة تجسيدا لـ الجوهر لـ الفاكهة المطلقة ولذا فان الاهتمام الرئيسي للفيلسوف التأملي هو ان ينتج وجود الفواكه الدنيوية الحقيقية ، وان يقول بطريقة سرية الى حد ما ان ثمة تفاحا وكمثرى ولوزا وزبيبا

ولا حاجة الى القول ان الفيلسوف التأملي لا يكمل عملية الخلق هذه الا بتمثيل الصفات المعروفة عموميا للتفاحة والكمثرى الخ ، التي توجد في الواقع ، كتعريفات اكتشفت من قبله باضفاء**اسماء** الاشياء الواقعية على ما يستطيع خلقه الفكر المجرد فقط، على الصيغة العقلية المجردة ، واخيرا بالمناداة بفعاليته **الخاصة** التي عن طريقها ينتقل من فكرة التفاحة الى فكرة الكمثرى على انها **الفعالية الذاتية** للذات المطلقة الفاكهة*

ان هذا النقد المادي للمثالية هو سواء في قسوته وعدالته لم تكن الفكرة المطلقة ، الروح الذي تحدث عنه الفلسفة التأملية الالمانية الا تجريدا ليس غير وعلى أي حال ، فان تجريدا يعتبر الحل النهائي لاعمق قضايا العلم لا يمكن الا ان يلحق الضرر بتقدم هذا العلم واذا كان اولئك المفكرون الذين توجهوا الى هذا التجريد قد قدموا خدمات كبرى الى الفكر البشري ، فقد فعلوا ذلك **رغما** عن هذا التجريد وليس **بفضله** ، وذلك بقدر ما لم يعق دراستهم لحركة الاشياء الفعلية ان لدينا أفكارا رائعة في فلسفة الطبيعة لشيلنغ ، فقد كان يملك معرفة واسعة في ميدان العلوم الطبيعية ، لكن « **الكون المادي** » لم يكن بالنسبة اليه شيئا آخر سوى « **عالم الافكار المنكشف** » ولعله لم يكن يناقض نفسه حين أكد أن « **المغناطيسية** هي الفعل العمومي للالهام ، ترسيخ الوحدة في التعدد ، المعنى في الخلاف » وان « ذلك التغلغل للذاتي في الموضوعي الذي هو في المثالي الشعور بالذات يعبر هنا عنه في الوجود لكن أيقودنا هذا خطوة واحدة نحو معرفة الظاهرة المغناطيسية أو فهم الظاهرة المغناطيسية ؟ أننا لم نخفق في تحقيق أي تقدم فحسب ، بل نحن نجازف مجازفة هائلة بنكران الوقائع الفعلية ارضاء لنظرية قد تلوح لنا أكثر أو أقل عبقرية ، لكنها اعتباطية بصورة مطلقة في كثير من الحالات

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن تاريخ الجنس البشري وكما قال السير الكسندر غرانت مرة فان استعارة الفلسفة من **تاريخ الفلسفة** لهيغل يضاهي استعارة الشعر من شكسبير ، يعني انه لا مندوحة عنه تقريبا ومن بعض وجهات النظر فان دراسة فلسفة التاريخ عند هيغل ، أو علم الجمال أو فلسفة الحق أو المنطق عنده أمر ضروري في الوقت الراهن أيضا لكن ليست وجهة النظر المثالية

* **العائلة المقدسة** ، ص ٨٠ – ٨٤

**هي ما يعطي هذه الاعمال جميعا جدارتها ، بل على النقيض من ذلك ، اذ ان وجهة** النظر هـذه **عقيمة** كليا انها غير **مثمرة** الا فيما يتعلق **باثارة الالتباس** وهكذا ، على سبيل المثال يصف هيغل ببراعة جديرة بالخبير تأثير البيئة الجغرافية في التطور التاريخي للمجتمعات البشرية لكن اتراه قادرا على تفسير أي شيء كان حين يقول ان الروح المحدد لاي شعب نظرا لانه فعال ولان حريته تشتق من الطبيعة يحمل طابعا جغرافيا ومناخيا نوعيا بفضل هذه الطبيعة أو – كي نتناول مثالا يستخدمه هو نفسه – هل يمضي بنا خطوة واحدة نحو فهم تاريخ سبارطة حين يقول ان اعراف هذا البلد مثلها كمثل بنية دولته لم تكن سوى لحظات في تطور المعنى ؟ وصحيح بالطبع أن وجهة نظر الفلاسفة الفرنسيين الذين يورد ضدهم هذا المثال ( وجهة نظر التفاعل التي تظل حدا لا يمكن تجاوزه لابحاثهم الاخصب ناقصة تماما ومهما يكن من شيء فلا يكفي أن نكرر وجهة النظر هذه ان الشيء الاساسي هو أن نبين حتى اية درجة يمكن للمعنى ان يكون ينبوعا سريا يعمل على التقدم الاجتماعي ولم يكن هيغل **عاجزا كل العجز** فحسب عن الجواب عن هذا السؤال المشروع تماما ، بل يبدو انه كان ينطوي على رضا هزيل عن الضوء الخافت الذي يزعم انه سلط على تاريخ الجنس البشري لقد استشعر الحاجة الى الوقوف على ارض صلبة والقيام بدراسة دقيقة **للعلاقات الاجتماعية** ، ولذا انتهى الى التاكيد بصورة جازمـة بان « **تفاوت الملكية كان السبب الرئيسي لانحطاط لاسيدايمونا** » وان هـذا كله لحقيقي لكـن هـذه الحقيقة لا تنطوي على ذرة واحدة من **المثالية المطلقة** ❋ .

لنحاول أن نتصور أن امرءا فسر لنا بوضوح مدهش آلية حركات الحيوانات ومن بعد مضى الى القول بأقصى الجد ، ان السبب الحيوي والمستتر لجميـع هذه الحركات يصادف في **الاخيلة** التي تلقي بها الاجسام المتحركة ان هذا المـرء مثالي « **مطلق** » ولعلنا نشاطر هذا المثالي آراءه لفترة من الزمن لكني آمل ان نفهم في آخر تحليل **علم الميكانيك** و **نودع بصورة نهائية** **فلسفة الميكانيك** التي يبشر بهـا

ان اقل ما يقال هو ان بعض تلامذة هيغل تصرفوا على هذا الغرار فعلى الرغم من انهم كانوا قادرين على تقدير الميزات التي توفرها طريقة المفكر الكبير تقديرا عاليا ، فقد انتقلوا الى **وجهة نظر المادية** وان المقتطفات من **العائلة المقدسة** الموردة اعلاه تكفي لتبين مبلغ ما كان عليه نقدهم للفلسفة التأملية المثالية من حزم وقسوة

ان الطريقة الجدلية هي الصفة الاكثر تمييزا للمادية الراهنة ففيها يكمن الفارق الاساسي الذي يميزها من المادية الميتافيزيائية السابقة للقرن الثامن عشر

---

❋ من أجل امثلة من النوع نفسه نحيل القارىء الى مقالتنا بمناسبة الذكرى الستين لوفاة هيغل ، **نيوزيت** ، ١٨٩١ – ١٨٩٢ الاعداد السابع والثامن والتاسع (٣٦) .

وان المرء ليستطيع بالتالي ان يشكل رأيا عن عمق آراء وجدية اولئك المؤرخين للادب والفلسفة الذين لم يتنازلوا فيلاحظوا هذا الفارق فقد قسم لانج الراحل **تاريخ المادية** الى قسمين ــ المادية **قبل** كانط **وبعده** .

ان نوعا آخر من التقسيم لا بد بالضرورة ان يخطر لاي امرىء لم تعمه روح ،حدى المدارس أو المفاهيم المجترة لم **تعد المادية بعد هيغل** مثلما كانت**قبله** لكن اكان في الامكان توقع أي شيء آخر ؟ لا بد للمرء ، كي يحكم على التأثير الذي كان لمثالية القرن التاسع عشر في تطور المادية ، من ان يتحقق اولا وقبل كل شيء مما آلت اليه هذه المثالية في اليوم الحاضر وهذا امر لم يفعله لانج قط فبالرغم من انه تحدث في كتابه عن جميع الامور قاطبة وحتى عن بعض التافهين من امثال **هنريخ زولنبي** ، فانه لم يأت مطلقا على ذكر المادية الجدلية ان مؤرح المادية العلامة لم يشك البتة بان ثمة ماديين معاصرين جديرون بالملاحظة بصورة تختلف كل الاختلاف عن السادة فوغت ومولیشوت وشركاهما*

ان السهولة التي تمكنت بها المادية الجدلية من التغلب على المثالية لا بد ان تبدو غير قابلة للتفسير في نظر اي امرىء يفتقر الى فهم واضح للمسألة الاساسية التي نفصل الماديين عن المثاليين ومثال ذلك ان الناس الذين يسترشدون بالمستقبات **الازدواجية** يعتقدون عادة ان ثمة **جوهرين مختلفين تماما في الانسان : الجسد أو المادة** من جهة واحدة ، **والنفس** او **الروح** من جهة ثانية وبالرغم من ان الناس لا يعرفون ، بل في الاغلب لا يسألون كيف يستطيع أحد هذين الجوهرين ان يؤثر في الجوهر الآخر فانهم يرون مع ذلك انهم يدركون كل الادراك انه من قبيل (( **الضيق في التفكير** )) تفسير الظواهر بمعونة أحد هذين الجوهرين فقط ان هؤلاء الناس يعون بغرور تفوقهم على الطرفين المتضادين وهم ليسوا بماديين **ولا** بمثاليين ومهما نكن طويلا عمر هذه الطريقة القديمة جدا في النظر الى القضايا الفلسفية ، فهي في جوهرها جديرة بالبورجوازيين الصفار وحدهم ان الفلسفة لم تكن في يوم من الايام قادرة على الرضا بمثل هذا التعدد للجوانب ، بل لقد حاولت على النقيض من ذلك التخلص من الازدواجية التي تتعشقها الاذهان الانتقائية ولقد

---

* وعلى أي حال فقد اتبع لانج في هذا المضمار آراء وعادات جميع الكتاب واسعي الاطلاع المنتسبين الى المجتمع الصالح وما أكثر ما قارن **هتنر** بدوره مذهب**ديدرو** مع مذهب **الماديين المعاصرين** . لكن من هو الشخص الذي كان يعتبره ممثلا للمادية المعاصرة ؟ موليشوت لقد كانت معرفة هتنر بأحوال المادية المعاصرة ضئيلة جدا بحيث كان على يقين من انه يعبر عن أشياء بالغة العمق حين كتب يقول لم ترتفع المادية بعد في عقيدة الاخلاق فوق مثل هذه المحاولات البائسة ( يعني المحاولات التي بذلها ماديو القرن الثامن عشر ــ **ج . ب .** ) واذا كان **لا** بد للمادية أن تقدم البرهان على قابليتها للحياة فان واجبها الفوري والاهم يستقيم اذن في احراج عقيدة للاخلاق » ( **تاريخ الادب** ، بروشفيغ ١٨٨٣ ، ص ٤٠٢ ) لقد تأخرت حتى تذكرت ذلك ، أيها السيد العزيز .

كانت الانظمة الفلسفية الابرز احادية على الدوام ، يعني اعتبرت **الروح والمادة** من حيث هما مجرد صنفين من الظواهر سببهما واحد لا يتغير ولا ينفصل ولقد رأينا من قبل ان الماديين الفرنسيين اعتبروا (( **القدرة على الاحساس** )) من حيث هي **احدى خاصيات المادة** وعند هيغل ان الطبيعة ليست سوى غيرية الفكرة المطلقة وان هذه « الغيرية هي حتى درجة ما سقوط الفكرة من النعمة ؛ ان الطبيعة من خلق الروح ، وهي لا توجد الا بفضله ولا ينفي هذا السقوط الوهمي في حال من الاحوال هوية الجوهر بين الطبيعة والروح ، بل على النقيض من ذلك ، فهو **يفترض** هذه الهوية ان الروح المطلق عند هيغل ليس بذلك الروح **المحدود** لفلسفة الاذهان **المحدودة** . ولقد سخر هيغل من اولئك الذين يرون في المادة والروح جوهرين مختلفين غير قابلين للنفوذ بصورة متبادلة بالضبط كما يفترض في اية مادة ان تكون حيال مادة اخرى ، وغير موجودين الا في عدمهما المتبادل في مسام بعضهما بعضا ، تماما كما هي الحال عند أبيقوروس الذي منح الالهة الاقامة المؤقتة في مسام الكون ، لكنه اثقلها بكل حزم بعدم الاتصال بالعالم » لقد كان هيغل بالرغم من عدائه للمادية ، يقدر **اتجاهها الاحادي*** ، لكنه اذا اتخذنا وجهة النظر **الاحادية** ، فان التجربة نفسها **هي** التي يجب أن تقرر ايا من النظريتين ــ **المثالية** أم **المادية** ــ تقدم التفسير الافضل للظواهر التي نصادفها في دراسة الطبيعة والمجتمعات البشرية ولسوف يتضح بكل سهولة بان عملنا يستطيع ان يتقدم باعظم النجاح حتى في حقل **علم النفس** ــ وهو علم يدرس الحقائق التي يمكن ان توصف في الاغلب بانها ظواهر للروح ــ عندما نقبل بالطبيعة من حيث هي **اولية** ، ونعتبر أفعال الروح من حيث هي عواقب ضرورية لحركة المادة ويقول هكسلي **اللاادري**

« من المؤكد انه ليس امرؤ عارف بحقائق الحالة يرتاب اليوم في ان جذور السيكولوجيا تكمن في فيزيولوجيا الجهاز العصبي ان ما نسميه عمليات الذهن وظائف للدماغ ، ومواد الشعور منتجات للنشاط الدماغي ولعل كاپانيس استخدم لغة فجة ومضللة حين قال ان الدماغ يفرز الفكر كمثل افراز الكبد للصفراء ، بيد ان التصور الذي تجسده هذه العبارة التي اسيء استعمالها كثيرا هو على أي حال اكثر تماسكا مع الواقع من ذلك المفهوم الشعبي القائل ان الذهن كائن ميتافيزيائي مقره الرأس ، لكنه مستقل عن الدماغ

---

* ومع ذلك لا بد للمرء أن يرى في المادية مسعى ملهوفا الى الخروج من حدود ثنائية تفترض عالمين مختلفين من حيث هما على السواء في الجوهر والحقيقة والى التخلص من انشطار الوحدة البدئية ( **الموسوعة** ، الجزء الثالث ، الفقرة ٣٨٩ وما يليها ) وسوف نلاحظ بصورة عابرة ان هيغل في **تاريخ الفلسفة** اعطى في كلمات قليلة تقديرا للمادية الفرنسية ولرجال من أمثال هيلفيتيوس افضل مما فعل المؤرخون **المحترفون** للمادية

كمثل استغلال عامل البرق عن جهازه*

ان المثالية غالبا ما انتهت ، في حلبة العلوم الاجتماعية المأخوذة بالمعنى العريض للكلمة الى الشعور بعجزها بحيث كانت تلتجىء الى تعليل مادي خالص للحقائق التاريخية

ولسوف نشدد مرة اخرى على ان الثورة الكبرى في الفلسفة الالمانية في العقد الخامس من القرن التاسع عشر تعززت حتى درجة كبيرة بالطبيعة الاحادية اساسا للمثالية الالمانية ويقول روبرت فلنت

في الحقيقة أن الهيغلية ، بالرغم من كونها أفضل الانظمة المثالية اعدادا ، تتقدم الينا دون ان يفصلها عن المادية سوى اوهى الحواجز

وان هذا لصحيح تماما ، بالرغم من انه كان من واجب فلنت ان يقول « بنتيجة كونها » بدلا من « بالرغم من كونها »

وان فلنت نفسه لعلى صواب تام حين يستطرد قائلا

صحيح انه [ نظام هيغل ــ ج . ب . ] يضع الفكر قبل المادة ، بينما تمثل المادة على اعتبارهااحدىمراحل تطور الفكر لكنه بما ان الفكر الموضوع قبل المادة فكر لا شعوري ــ فكر ليس هو بالموضوع ولا بالذات ، وبالتالي ليس هو بالفكر الفعلي بل ليس هو حتى بشبح أو خيال للفكر ــ فلا تبرح المادة الواقع الاول ، الوجود الفعلي الاول ولا تزال القوة في المادة ، اتجاهها الى الصعود فوق ذاتها ، جذر واساس الروح الذاتي والموضوعي والمطلق على حد سواء** »

ولسوف يكون من السهل ان نفهم كيف عبد هذا التهافت ، المحتم في المثالية، الطريق امام الثورة التي ننوه بها في الفلسفة ولقد اتضح هذا التهافت بصورة خصوصية في فلسفة التاريخ .

لقد ارتكب هيغل تهافتا مزدوجا اولا لانه اذ يعلن ان الفلسفة تشكل وجود الروح المطلقة ، يرفض الاعتراف بـ « الفرد الفلسفي الحقيقي » على انه الروح المطلقة ، ثانيا لان الروح المطلقة ، طبقا له ، تصنع التاريخ في المظهر فقط اذ بما ان الروح المطلقة تصبح واعية لذاتها ، كروح العالم الخلاقة في الفيلسوف وبعد فوات الاوان فقط ، فان صنعها للتاريخ يوجد فقط في الوعي في الرأي في مفهوم الفيلسوف أي في الخيال التأملي فقط***

---

* هيوم ، حياته وفلسفته ، الترجمة الفرنسية بقلم غ كومبايري ، باريس ١٨٨٠ ، ص : ٨٠. وانه ليكون من الصحيح القول ان اللاادرية هي بالرغم من كل شيء مادية جبانة تحاول الاحتفاظ بمظهر اللياقة

** فلسفة التاريخ في فرنسا والمانيا ، ادنبره ولندن ، ١٨٧٤ ، ص ٥٦٣ .

*** العائلة المقدسة ، ص ١٢٧

هذه السطور كتبها **كارل ماركس** ، ابو المادية الجدلية الحالية
ان اهميــة الثورة الفلسفية التي حققها هذا الرجل العبقري قد عبر عنها هو نفسه في الكلمات المقتضبة القليلة التالية

« لا تختلف طريقتي الديالكتيكية عن الطريقة الهيغلية في الاساس فحسب بل هي بالاحرى نقيضها بالضبط فعند هيغل ان حركة الفكر التي يشخصها تحت اسم الفكرة هي مبدعة الواقع هذا الواقع الذي لا يعدو كونه الشكل الظاهري للفكرة وعندي على العكس ، ان حركة الفكر ليست سوى انعكاس الحركة الحقيقية المنقولة الى دماغ الانسان والمترجمة فيه*

وقبل ان نستعرض النتائج التي حصل عليها ماركس بمساعدة هذه الطريقة لا بد لنا من استعراض سريع للاتجاهات التي قامت في العلم التاريخي الفرنسي خلال مرحلة **عودة الملكية** .

* * *

كان « الفلاسفة الفرنسيون مقتنعين بان الرأي العام يسود العالم وحين تذكروا ان الانسان مع آرائه ، وفقا لنظريتهم الحسية الخاصة ، نتاج للبيئة الاجتماعية جزموا بان « **جميع الاشياء وقف على التشريع** » مفترضين ان هذا الجواب المقتضب والمليء بالمعاني في الوقت نفسه يسوي المسألة وفيما عدا ذلك فقد كان التشريع » بالنسبة اليهم يعني اولا وقبل كل شيء **القانون العام** ، « حكومة » كل بلد على حدة ولقد رفضت وجهة النظر هذه رفضا باتا خلال العقود الاولى من قرننا ، وجعل السؤال يتردد عما اذا لم يكن من الاصوب البحث عن جذور **المؤسسات السياسية في القانون المدني**** وكانت الاجوبة عن هذا السؤال بالايجاب حاليا

---

* **رأس المال** ، الكتاب الاول ، المجلد الثالث ، ص ١٩

** في اعقاب احداث القرن الثامن عشر الماضي واوائل القرن التاسع عشر لم يعد من السهل التفكير بان الرأي العام هو الذي يسود العالم نظر لان هذه الاحداث اماطت اللثام في الاغلب عن عجز الرأي العام ولقد كتبت مدام دي ستال في السنة الثامنة من الجمهورية تقول ما أكثر الاحداث التي قررتها القوة ، وما اكثر الجرائم التي غفر لها النجاح ، وما اكثر الفضائل التي وسمها الاستهجان ، وما اكثر المصائب التي جرحت القوة كرامتها وما أكثر العواطف الخيرة التي اصبحت موضع السخرية وما اكثر الحسابات الدنيئة التي كانت موضع الاهتمام المرائي هذه الاشياء جميعا صودفت حتى لدى اولئك الذين كرسوا انفسهم لعبادة العقل ( **في الادب المأخوذ في علائقه مع المؤسسات الاجتماعية** ، المجلد الاول ، ص ٥ المقدمة ) وفي الحقيقة أن جميع الطوباويين في عصر عودة الملكية (٢٩) ومرحلة لويس فيليب كانوا على قناعة بان الرأي العام يسود العالم وكان ذلك هو المبدأ الكامن خلف فلسفتهم عن التاريخ وعلى أي حال ، فلن نعالج هنا سيكولوجية الطوباويين .

ويقــول غيزو

سعى معظم الكتاب والعلماء والمؤرخين والناشرين الى فهم شرط المجتمع ودرجة او صنف حضارته من خلال دراسة المؤسسات السياسية ، فيما كان من الاحكم البدء بدراسة المجتمع نفسه بغرض التاكد من مؤسساته الاجتماعية وفهمها ان المؤسسات نتيجة قبل تكون سببا فالمجتمع يخلقها قبل ان يتعرض هو نفسه للتبدل بفعل تأثيرها ومن واجب المرء اذن ، بدلا من السعي الى اكتشاف ما كان عليه شرط أي شعب في نظام حكومته أو اشكالها ، ان يدرس اولا وقبل كل شيء شرط هذا الشعب كي يعلم ما يجبه أو ما يمكن ان تكون حكومته المجتمع ، وتركيبه ، واسلوب حياة الافراد وفقا لوضعهم الاجتماعي والعلاقات بين الطبقات المختلفة من الافراد واخيرا وضع الافراد القانوني — هذه هي بالتاكيد المسألة الاولى التي تجتذب انتباه المؤرخ الذي يبغي معرفة كيف عاشت الشعوب والكاتب الداعية الذي يبغي ان يعلم كيف كانت هذه الشعوب مساسة* »

ان ما لدينا هنا ثورة كاملة في الاراء التاريخية « للفلاسفة بيد أن غيزو يمضي الى أبعد من ذلك في تحليله « لتركيب المجتمع » ففي رأيه ان الحياة المدنية لجميع **الشعوب الحديثة** مرتبطة بصورة وثيقة **بعلاقات الملكية العقارية** ، وهو السبب في ان هذه العلاقات الاخيرة يجب ان تدرس قبل الحياة المدنية

ان من واجب المرء ، كي يفهم المؤسسات السياسية ، ان يعرف الشروط الاجتماعية المختلفة وعلاقاتها وان من واجب المرء كي يفهم العلاقات الاجتماعية المختلفة ، ان يعرف طبيعة الملكية العقارية وعلاقاتها**

ولقد درس غيزو من وجهة النظر هذه تاريخ فرنسا تحت حكم **الميروفانجيين والكارلانجيين** ، ومضى خطوة اخرى قدما في تأريخه للثورة الانكليزية حين نظر الى هذا الحدث من حيث هو مرحلة في الصراع الطبقي للمجتمع الحديث ، جاعلا من **علاقات الملكية** بالاحرى من **علاقات الملكية العقارية** العمود الفقري للحركات السياسية.

ولقد توصل **اوغستنان تييري** الى الآراء نفسها ، حين اعتبر في كتاباته عن تاريخ فرنسا وانكلترا تطور المجتمع من حيث هو محرض للاحداث السياسية ولقد كان بعيدا عن التفكير بان العالم يسوده الرأي العام الذي لم يكن يعني في نظره سوى تعبير اكثر او اقل ملاءمة عن المصالح الاجتماعية وهذا مثال عن فهمه للصراع الذي خاضه البرلمان ضد شارل الاول

« ان كل من قدم اسلافه مع الفاتح قد غادر قصره الى معسكر الملكيين ليشغل منصبا يتفق مع مرتبته ، فيما تدافع سكان المدن الى المعسكر المناهض وان المتبطلين واولئك الذين ما كانوا يطلبون الا المتعة دون العمل ، دونما اعتبار للفئة التي ينتسبون اليها ،

---

* **دراسات في تاريخ فرنسا** ، الطبعة العاشرة ، باريس ١٨٦٠ ، ص ٧٣ — ٧٤ ان الطبعة الاولى من هذه **الدراسات** صدرت عام ١٨٢٢

** المصدر نفسه ، ص ٧٥ — ٧٦

قد انضموا الى القوى الملكية ليدافعوا عن مصالحهم الخاصة ، وفي الوقت نفسه انضمت الاسر من طائفة الفاتحين السابقين التي نجحت في الصناعة الى حزب البرلمان وكانت الحرب دائرة الرحى من كلا الطرفين في سبيل هذه المصالح الايجابية وكل ما تبقى لم يكن سوى مظهر زائف أو ذريعة وكان اولئك الذين دافعوا عن قضية **الرعايا مشيخيين** [ presbiteriens ] في الاغلب ، يعني معارضين لاي خضوع كان حتى في مجال الدين*

هذا واضح بما فيه الكفاية ، لكن يبدو اوضح مما هو عليه فعليا ان الثورات السياسية هي حقا نتيجة الصراع الذي تخوضه الطبقات من اجل مصالحها الاقتصادية لكن ما السبب الذي يمنح المصالح الاقتصادية لطبقة خصوصية هذا الشكل او ذاك ؟ ما السبب الذي يؤدي الى قيام الطبقات في المجتمع ؟ صحيح ان اوغستان تيري يتحدث عن المانيفاكتورات ، لكن هذا المفهوم بالغ الغموض عنده وهو يعود القهقرى ، في سبيل التغلب على هذه الصعوبة الى الفتح النورمندي وهكذا فان الطبقات التي ادى صراعها الى قيام الثورة الانكليزية تدين بنشوئها الى الفتح النورمندي وهو يقول لقد **بدأ هذا كله مع الفتح ، والفتح هو الذي يكمن خلف القضية برمتها »** لكن ماذا يجب أن نفهم من الفتح ؟ أفلا يعود بنا الى نشاطات « **الحكومة** » التي حاولنا ان نجد لها تفسيرا ؟ وحتى اذا اغضينا عن هذا كله ، فان حقيقة الفتح لا تستطيع مطلقا ان تفسر **العواقب الاجتماعية** للفتح فقبل ان يغزو البرابرة بلاد المغول غزاها الرومان ، لكن العواقب الاجتماعية لهذين الفتحين كانت مختلفة كل الاختلاف اين يكمن السبب ؟ مما لا ريب فيه ان المغوليين في زمن قيصر كانوا يحيون في شروط مغايرة لشروط المغوليين في القرن الخامس . كذلك لا يمكن ان يكون ثمة ريب في ان الفاتحين الرومان ما كانوا يشبهون في حال من الاحوال البرابرة » ـ الفرنكيين والبورغونديين . لكن أيمكن تعليل جميع هذه الفوارق بالفتوحات الاخرى ؟ ان في مقدورنا ان نعدد جميع اصناف الفتوحات **المعروفة** و **الممكنة** . ومع ذلك فسوف نظل في دائرة سيئة ؛ اننا نرتد في كل مرة الى النتيجة التي لا مفر منها بان ثمة ، في حياة الشعوب ، شيئا ما ، **س** ، مقدارا مجهولا تدين له « **قوة** » الشعوب نفسها وقوة الطبقات المختلفة المتوفرة فيها **بأصلها** و **اتجاهها** و **تبدلاتها** . وباختصار فانه من الواضح ان مثل هذه « القوة تقوم على شيء ما ، بحيث يمكن ارجاع المسألة الى تحديد لطبيعة هذا

* **المؤلفات الكاملة للسيد اوغستان تيري** ، المجلد الرابع ، الطبعة العاشرة ، باريس ١٨٦٦ ص : ٦٦ . ان المقالة التي نستشهد ـ « نظرات في ثورات انكلترا » ـ قد نشرت **المراقب الاوروبي** عام ١٨١٧ يعني قبل عدة سنوات من صدور **دراسات** غيزو

المقدار المجهـول*

**وغيزو** مطوق ايضا بالتناقضات نفسها إلام تدين باصلها « **علاقات الملكية** » عنـد الشعوب التي يتحـدث عنهـا في كتـابه **دراسـات** • لقـد صدرت عـن افعال **الفاتحين**

بعد الفتح اصبح الفرنكيون ملاكين كان الاستقلال المطلق لملكيتهم العقارية حقا لهم ، مثله كمثل استقلال اشخاصهم ؛ ولم يكن لهذا الاستقلال ضمانة اخرى سوى قوة المالك ، لكنه كان يحسب وهو يستخدم قوته دفاعا عنه انه يمارس حقه » ، الخ**

ولا يقل عن ذلك تمييزا ان الحياة المدنية بالنسبة الى غيزو لـم تكن وثيقـة الارتباط « بعلاقات الملكية العقارية » **الا في** حالة « الشعوب الحديثة »

ولم يتمكن مينيه او اي من المؤرخين الفرنسيين الاخرين في ذلك العصر ( ولقد كان المؤرخون الفرنسيون في ذلك العصر مبرزين من اكثر من وجهة نظر واحدة ) ان يتملص من الصعوبة التي قامت عقبة في سبيل غيزو واوغستان تييري لقد كانوا مدركين جيدا منذ ذلك الحين ان وراء **الحركات السياسية** تكمن **المصالح الاقتصادية** التي كانت تعبد طريقا هناك ولقد كان من الصعب الاخفاق في فهم هذه الحقيقة **بعـد** الثورة الفرنسية التي تشكل نضالا ملحميا خاضته البورجوازية ضد النبالة والاكليروس*** ومهما يكن من شيء ، فقد كانوا عاجزين عن تفسير **أصل** بيئة المجتمع الاقتصادية وكانوا كلما عالجوا هذا الموضوع توجهوا الى الفتح ، مرتدين

* يدين اوغستان تييري بأوضح آرائه التاريخية **لسان سيمون** الذي فعل الشيء الكثير من أجل تفسير التطور التاريخي لجنس البشري ومهما يكن من أمر ، فانه لم يتمكن من تحديد **س** الذي اتينا على ذكره أعلاه لقد كانت **الطبيعة البشرية** بالنسبة اليه ، اساسا ، سببا كافيا لتطور الانسانية. ولقد ارتطم بالصخرة نفسها التي وقفت عقبة في طريق الفلاسفة الماديين في القرن الثامن عشر وعلى أي حال ، فاننا نرجو أن نتمكن من عرض آراء سان سيمون في دراسة خاصة

** غيزو ، المصدر نفسه ، ص ٨١ – ٨٣

*** ان المؤرخين الفرنسيين الليبراليين لعصر عودة الملكية كثيرا ما تحدثوا عن **الصراع الطبقي**، والاكثر من ذلك انهم **كانوا يشيرون اليه بتعاطف** بل لم تتخلع افئدتهم لاراقة الدماء وهكذا اكرر ان الحرب ، يعني الثورة ، كانت ضرورية » ، هذا ما يهتف تييرس به في هامش لكتابه **تاريخ الثورة**
اكرر ان الحرب يعني الثورة ، كانت ضرورية » ، هذا ما يهتف تييرس به في هامش لكتابه **تاريخ الثورة**
الصراع » وبقدر ما لم تكن **البورجوازية قد** استكملت بعد نضالها ضد **الارستقراطية** ، فانه لم يكن لدى منظري البورجوازية اي اعتراض على الصراع الطبقي وان ظهور **البروليتاريا** على المسرح التاريخي، مع نضالها ضد البورجوازية ، **قد جلب تبدلا عظيما الى آراء** اولئك المنظرين الذين يرون اليوم أن موقف « الصراع الطبقي » بالغ « **الضيق الفكري** »

الى وجهة النظر التي سادت في القرن الثامن عشر ، نظرا لان الفتح كان « شارعا » في الوقت نفسه لكن من الخارج فحسب

وهكذا انتهى هيغل ، رغما عنه اذا جاز التعبير الى النتيجة بان حل لغز المصائر التاريخية للشعوب يجب البحث عنه في **شروطها الاجتماعية ( في ((الملكية)) )**. اما المؤرخون الفرنسيون لعصر عودة الملكية فكانوا من جانبهم يشيرون **عن عمد** الى (( **المصالح** الايجابية » ، الى الشروط الاقتصادية ، من حيث هي تفسير لاصل وتطور الاشكال المختلفة « للحكومة ومهما يكن من شيء فان أيا منهم – لا الفيلسوف المثالي ولا المؤرخين الايجابيين – قد تمكن من حل القضية الكبرى التي كانت تواجههم بصورة لا مفر منها ما الذي تتوقف بدورها عليه **بنية المجتمع** ، **علاقات الملكية** . وبقدر ما ظلت هذه القضية الكبيرة دون حل فان البحث فيما كان يسمى في فرنسا العلوم الاخلاقية والسياسية لم يكن مبنيا على اي اساس علمي صحيح ، بحيث كان من العدل تماما أن تجابه هذه العلوم الكاذبة بالرياضيات والعلوم الطبيعية من حيث هي العلوم (( **المضبوطة** » الوحيدة ، العلوم بكل معنى الكلمة

وهكذا حددت مهمة **المادية الجدلية** سلفا ان من واجب الفلسفة ، التي قدمت في القرون الماضية خدمات عريضة **للعلوم الطبيعية** ، ان تقود الآن**العلوم الاجتماعية** خارج تيه تناقضاتها وحين تحقق الفلسفة هذه المهمة يكون في مقدورها ان تقول (( **حققت واجبي واستطيع ان ارحل الآن** )) ، نظرا لان **العلم المضبوط** يفترض فيه في المستقبل ان يجعل **فرضيات الفلسفة** عديمة المنفعة كليا

ان صفات فهم جديد للتاريخ مصاغ بصورة ممتازة ومعروض باقصى الوضوح متضمنة في مقالات كتبها ماركس وانجلز في **الحوليات الالمانية الفرنسية** ، باريس ، ١٨٤٤ وفي **العائلة المقدسة** لنفس الكاتبين ، وفي **شرط الطبقة العاملة في انكلترا** لانجلز ، وفي **بؤس الفلسفة** لماركس ، وفي **بيان الحزب الشيوعي** لماركس وانجلز ، وفي **العمل المأجور وراس المال** لماركس وعلى أي حال ، فاننا نجد له خلاصة منهجية ومقتضبة في كتاب ماركس **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، برلين ١٨٥٩

« ان البشر يدخلون ، في سياق انتاج حياتهم الاجتماعية في علاقات محددة لا غنى عنها ومستقلة عن ارادتهم ، علاقات توافق مرحلة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية وان الحصيلة العامة لتلك العلاقات الانتاجية تشكل بنية المجتمع الاقتصادية ، وهي الاساس الواقعي الذي تنهض عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية والذي تقابله اشكال محددة من الوعي الاجتماعي ان اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط التطور الحياتي

الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة فليس وعي البشر هو الذي يقرر وجودهم بل الامر على النقيض من ذلك اذ أن وجودهم الاجتماعي هو الذي يقرر وعيهم*

لكن ما المقصود **بعلاقات الانتاج ؟** انه ما يسمى في اللغة القانونية **علاقات الملكية** ، وهي ما تحدث عنه غيزو وهيفل وحين تفسر نظرية ماركس أصل هذه العلاقات تجيب بذلك عن مسألة عجز عن الجواب عنها ممثلو العلم والفلسفة السابقون له

ان الانسان ، جنبا الى جنب مع (( **آرائه** )) و (( **تربيته** )) ، نتاج لبيئته الاجتماعية كماكان معروفا جيدا لدى **الماديين الفرنسيين للقرن الثامن عشر** ، بالرغم من انهم كثيرا ما غابت هذه الحقيقة عن انظارهم وان التطور التاريخي للرأي العام ، مثله كمثل تاريخ الجنس البشري بأكمله ، **عملية خاضعة لقانون** كما قرر ذلك المثاليون الالمان في القرن التاسع عشر ومهما يكن من شيء ، فان هذه العملية ليست مرهونة بخصائص (( **روح العالم** )) كما كان المثاليون يحسبون ، بل **بالشروط الفعلية للوجود الانساني** وان اشكال (( **الحكومة** )) التي تحدث الفلاسفة كثيرا عنها متأصلة الجذور فيما سماه غيزو بصورة جامعة **المجتمع** وسماه هيغل المجتمع المدني بيد ان تطور المجتمع المدني **يرتهن بتطور القوى الانتاجية التي تحت تصرف البشر** ان فهم التاريخ عند ماركس ، ألذي يصفه الجهلة **بضيق الفكر** و **التعصب** ، هو في واقع الامر الحصيلة المشروعة لقرون من تطور الافكار التاريخية انه ينطوي عليها جميعا وذلك بقدر ما تنطوي هي نفسها على قيمة حقيقية ؛ وانه ليضعها على ارض أصلب حتى درجة بعيدة مما وقفت عليه خلال اية مرحلة من ازدهارها وهذا هو السبب في انه ، كي نستعمل تعبيرا لهيغل ورد من قبل **اكثرها تطورا وغنى وحسية .**

كان فلاسفة القرن الثامن عشر لا يكفون عن الاشارة دون انقطاع الى الطبيعة الانسانية المدعوة الى تفسير تاريخ الجنس البشري وتحديد الصفات التي يجب ان يحوز عليها (( **التشريع الكامل** )) تلك كانت الفكرة الكامنة خلف جميع الطوباويات فالطوباويون انطلقوا دائما في تصوراتهم المثالية عن **المجتمع الكامل** من حجج تتعلق بالطبيعة الانسانية وان (( **الفتح** )) الذي تحدث عنه اوغستان تييري وغيزو يعود بنا كذلك الى الطبيعة الانسانية يعني الى (( **طبيعة** )) الفاتح المتخيلة بصورة اكثر او اقل جودة وهي اكثر أو اقل استبدادا على أي حال** لكنه اذا

---

* **في نقد الاقتصاد السياسي** فورفارتس ، ص هـ

** غالبا ما يشير غيزو بصورة مباشرة ، في كتابه **دراسات** آنف الذكر ، الى (( **حاجات الطبيعة الانسانية** )) . **ويحاول تييرس** ، في الفصل الثاني من كتابه **في الملكية** ، ان يبرهن على أ مشاهدة الطبيعة الانسانية هي الطريقة الصحيحة الواجب اتباعها لبيان حقوق الانسان في المجتمع وما كان أي من فلاسفة » القرن الثامن عشر ليرفع ادنى اعتراض على هذا النوع من الطريقة والاكثر

كانت **الطبيعة الانسانية** شيئا **ثابتا** ، فانه من العبث الواضح اذن ان نبغي بمساعدتها تفسير **المصائر التاريخية** للجنس البشري التي هي **قابلة للتغير** جوهرا فاذا كانت الطبيعة الانسانية عرضة للتغير ، فلا بـد للمرء اذن ان يطرح على نفسه السؤال التالي **لماذا** يحدث هذا التغير ؟ وان المثاليين الالمان ، سادة المنطق السابقين هؤلاء ، قد قبلوا من قبل بان الطبيعة الانسانية شيء من قبيل الوهم الفاضح كما سعوا الى اقرار حافز التطور التاريخي **خارج الانسان** الذي لا يخضع في رأيهم الا لدوافع ذلك السبب التي لا تقاوم ومهما يكن من شيء ، فقد كان **روح العالم** هو تلك القوة المحركة في نظرهم يعني **احد مظاهر الطبيعـة الانسانية التي مرت من خلال مرشحة التجريد** . وهذه نظرية ماركس تضع حدا لجميع مثل هذه الاوهام والاخطاء والتناقضات **ان الانسان يغير طبيعته الخاصة من خلال تأثير عملـه في الطبيعـة الموجودة خارجا منه** . وبنتيجة ذلك فان للطبيعة الانسانية بدورها تاريخها الخاص ، ولا بد للمرء في سبيل فهم هـذا التاريخ من ان يفهـم كيف يجري تأثير الانسان **في الطبيعة الموجودة خارجا منه** .

ولقـد بذل هيلفيتيوس محاولة في سبيـل تفسير تطور المجتمعات البشرية بالاستناد الى **حاجات البشر الجسدية** ، وهي محاولـة كان مقـدرا لهـا ان تخفق لانـه لم تكن حاجات الانسان هي ما يجب ان يدرس بكـل معنى الكلمـة بـل **الطرق** التي يمكن تلبيتها بهـا

ان للحيوان حاجات جسدية مثـل الانسان تماما ولكن الحيوانات لا **تنتـج** شيئا ، انها **تستولي** على الاشياء فحسب ، هذه الاشياء التي ترك انتاجها للطبيعـة اذا جاز التعبير تستخدم **اعضاءها** في سبيل الاستيلاء على مثل هذه الاشياء اسنانها ولسانها واطرافها وغير ذلك وهذا هو السبب في ان تكيف الحيوان مع بيئتـه الطبيعية يتم من خلال تحول اعضائه بتبدلات في **بنيته التشريحية** . وليست الامور على هذا القدر من البساطة بخصوص الحيوان الذي يسمي نفسه بكل كبرياء الانسان العاقل

انه يجابه الطبيعة بصفته احدى قواها الخاصة فهو يضع ذراعيه وفخذيه ، ورأسه ويديه ، يعني القوى الطبيعية لجسده يضعها موضع الحركة **كي يتملك منتجات** الطبيعة المختلفة في شكل مكيف مع حاجاته

انه منتج وهو يستخدم **ادوات** في عمليـة الانتاج

---

من ذلك أن الطوباويين الشيوعيين والاشتراكيين الذين كان تييرس يعارضهم ما كاوا ليعترضون عليها أيضا لقد كانت حججهم عن التنظيم الاجتماعي تعتمد دائما على فهم ما للطبيعة الانسانية وبهذا الخصوص ، فان وجهة نظر الطوباويين لم تختلف في حال من الاحوال عن وجهة نظر خصومهم ومن المفروغ منه ان هذا لم يمنعهـم مطلقا من استخلاص حقوق انسانيـة تختلف كليا عن تلك التي « استخلصها تييرس على سبيل المثال

« تركنا جانبا بعض وسائط المعيشة الجاهزة - الثمار مثلا حيث اعضاء الانسان تقوم في قطافها بدور ادوات العمل - نجد أن الشيء الاول الذي يستولي العامل عليه ليس هو مادة عمله ، بل واسطة هذا العمل وهكذا، تصبح الطبيعة احد الاعضاء الخاصة بفعاليته الذاتية عضوا يضيفه الى اعضائه بحيث يطيل رغما عن الكتاب المقدس ، طبيعته الطبيعية* »

وبهذه الطريقة يختلف نضاله في سبيل الوجود بصورة جوهرية عن ذلك النضال الذي تخوضه الحيوانات الاخرى ان الحيوان صانع الادوات يتكيف مع بيئته الطبيعية **بتغيير في اعضائه الاصطناعية** اذا ما قورنت به تلك التبدلات الحادثة في **بنيته التشريحية فقدت كل أهمية** . وهكذا يقول داروين ان الاوربيين الذين استقروا في اميركا سرعان ما تعرضوا لتبدلات بدنية ومهما يكن من شيء فان هذه التبدلات في نظر داروين نفسه ، « **تافهة جدا** » ، مقدار مهمل كليا بالمقارنة مع التبدلات التي لا تحصى في **الاعضاء الاصطناعية** الاميركية وهكذا لا يكاد الانسان يصبح حيوانا صانعا للادوات حتى يدخل مرحلة جديدة في تطوره فينتهي تطوره في المملكة الحيوانية ويبدأ طريق حياته التاريخية

ويشك داروين في انعدام الحيوانات التي تستخدم الادوات ويورد امثلة عديدة لينبت العكس من ذلك ان الشمبانزي يستخدم ، في حالته الطبيعية، حجرا ليشطر الثمار البرية قاسية القشرة ؛ وفي الهند تحطم الفيلة المدربة اغصانا من الاشجار وتستخدمها لطرد الذباب قد يكون هذا كله صحيحا على خير وجه ، لكنه لا يجوز ان ننسى اولا ان التبدلات **الكمية** تتحول الى فوارق **نوعية** ان استخدام الادوات لا يصادف عند الحيوانات الا في **حالة مضغية** ، وتأثير هذه الادوات في اسلوب حياة الحيوانات **زهيد** ؛ وعلى النقيض من ذلك فان استخدام الادوات يمارس تأثيرا **حاسما** في اسلوب حياة الانسان وبهذا المعنى يقول ماركس

ان استخدام وسائط العمل وخلقها رغم وجودهما بصورة كامنة جنينية عند بعض الانواع الحيوانية يميزان بصورة نوعية العمل الانساني**

انه لمن البدهي ان الانسان لا يستخدم وسائل العمل الآلية فحسب لكن ماركس يعتبر ان هذه الوسائل اعظم تمييزا له انها تشتمل على ما يسميه **بنية الانتاج العظمية والعضلية** . وان لبقاياها ، فيما يتعلق بتقدير **الانظمة الاقتصادية الاجتماعية البائدة** ، مثل الاهمية التي تملكها العظام بخصوص دراسة الانواع الحيوانية المندثرة

---

* رأس المال ، ٣ ص ١٥٧

** المصدر نفسه ، ص ١٥٨ (٤٢)

ما يميز عصرا اقتصاديا من عصر آخر ليس هو السلع المصنوعة بقدر ما هو طريقة صنعها ، يعني ادوات العمل* »

وقبل ماركس لم يخطر قط في بال المؤرخين و علماء الاجتماع الذين كانوا تحت تأثير المستبقات المثالية ان هذه **التكنولوجيا المستحاثة** يمكن ان تكون ذات قيمة كوسيلة من اجل اعظم الاكتشافات اهمية

لقد لفت داروين انتباهنا الى تاريخ التكنولوجيا الطبيعية يعني الى تشكل اعضاء النباتات والحيوانات وهي الاعضاء التي تخدم من حيث هي ادوات انتاج من أجل الحفاظ على الحياة أفلا يستأهل تاريخ اعضاء الانسان الانتاجية تاريخ الاعضاء التي هي القاعدة المادية لاي تنظيم اجتماعي ، انتباها مماثلا ؟ وهل لن يكون مثل هذا التاريخ اسهل على الكتابة ما دام التاريخ البشري ، كما يقول فيكو يختلف عن التاريخ الطبيعي في اننا صنعنا الاول منهما من دون الثاني**

ان مؤرخي الحضارة الحاليين يتحدثون بكل يسر عن **العصر البرونزي والعصر الحجري** وهو تقسيم للازمان قبل التاريخية يقوم على اساس المواد الرئيسية المستخدمة من اجل انتاج الاسلحة والاوعية ويقسم هذا العصران الى مراحل متعددة مثلا مرحلة الحجر المسطح ومرحلة الحجر المصقول وبنتيجة ذلك فان المؤرخين لا يغمضون عيونهم كليا عن التكنولوجيا المستحاثة ، لكنه من دواعي الاسف انهم يقيدون انفسهم في هذا الميدان بالملاحظات العامة التي لا يمكن ان تؤدي سوى الى الامور المبتذلة وان السبب الوحيد في انسحابهم الى هذا الميدان هو افتقارهم الى ما هو افضل ، وسرعان ما يغادرونه حالما يتم في التاريخ بالمعنى الحقيقي للكلمة اكتشاف حقائق اخرى يبدو انها اجدر بالانسان وذهنه وانهم ليقدمون على الاغلب في هذا الميدان بالقرن الثامن عشر متصرفين على غرار كوندورسيه قبل مائة عام

ان كتاب كوندورسيه الشهير **ملامح لوحة تاريخية لتقدم الفكر البشري** يبدا بوصف لتطور قوى الانسان البدائي منذ « الفنون الاخرق حتى اوائل الزراعة ويمضي كوندورسيه بعيدا بحيث يقرر ان

فن صنع الاسلحة وطهو الطعام والحصول على الاوعية اللازمة لذلك وحفظ الطعام المطهو لبعض الوقت كمؤونة ضد تقلبات الطقس حيث يستحيل الحصول على طعام طازج تلك كانت الصفة الاولى المميزة للمجتمع الانساني من مجتمعات الانواع الاخرى من الحيوانات

---

* المصدر نفسه ص ١٥٨ (٤٤)

** المصدر نفسه ، ص ٣٧٤

وكان كوندورسيه يدرك جيدا في الوقت نفسه ان « فنا هاما بقدر الزراعة لا بد ان يكون له تأثير كبير في **بنية المجتمع** ومهما يكن من امر فان « **العصر الثالث** » من تاريخ الجنس البشري عنده يتضمن « **تقدم الشعوب الزراعية، حتى اكتشاف الكتابة الابجدية** » ؛ وان العصر الرابع هو عصر تقدم الفكر البشري في اليونان حتى **انقسام العلوم** في عهد الاسكندر ؛ وان العصر الخامس ليتميز **بتقدم العلوم** ، وهكذا دواليك ولقد غير كوندورسيه كليا ، بصورة غير مقصودة ابدا ، مبدأ تقسيمه مبينا في الحال انه لم يتحدث بادىء الامر سوى عن تطور القوى المنتجة لانه لم يكن امامه خيار آخر وانه ليتضح بالطريقة نفسها بالضبط ان التقدم المحقق في حقل الانتاج وحياة البشر المادية عامة ليس في نظره سوى **مقياس** لتقدم الفكر الذي يدينون له بكل شيء دون تعويض أي شيء من الصنف نفسه

عند كوندورسيه ان وسائل الانتاج نتيجة ، في حين ان قدرات الانسان الروحية ، فكره هي **السبب** . وبما انه ظل اعمى ، بوصفه ميتافيزيائيا عن الجدلية الملازمة لاية عملية تجري في الطبيعة أوالمجتمع ، وهي الجدلية التي تنص على أن أي سبب انما هو سبب بعدما كان نتيجة ، وان اية **نتيجة**، تصبح بدورها **سببا** ؛ وبما انه لم يلاحظ وجود مثل هذه الجدلية الا عند تظاهرها في الشكل الخصوصي لعلاقة التفاعل ، فقد كان من الطبيعي بالنسبة اليه ان يفضل الامساك بالثور من قرنيه وان يتوجه الى السبب ، وذلك بقدر ما كان قادرا على فعل ذلك دون ان يكون ملزما به لقد كان الفكر البشري بالنسبة اليه المحرك الاولي للتطور التاريخي ، وهو ينسب الى هذا الفكر ، مثله في ذلك كمثل جميع « **الفلاسفة** » ، النزعة « **الطبيعية** » الى التقدم وكانت تلك وجهة نظر بالغة السطحية بالطبع ، لكن يجب ان نكون عادلين وان نسأل هل ابتعد مؤرخو الحضارة الحاليون كثيرا عن وجهة نظر كوندورسيه* ؟

* وعلى أي حال ، فان الاقتصاديين لا يتخلفون عن **مؤرخي الحضارة** في هذا الشأن ولدينا مثال على ذلك فيما يقوله ميشيل شيفاليه عن التقدم **المحقق في انتاجية العمل** ان قوة الانسان المنتجة تتطور باستمرار في تعاقب عصور المدنية وهذا التطور هو احد الاشكال المتعددة والاكثر جاذبية لتطور المجتمع نفسه ( **Weltausstellung von 1947 . Berichte des**
( Internationales Jerry Eintleitung von Michel Chevalier S 21 22

وهكذا **فالتقدم** هو الذي يمضي بالانسانية قدما وهو **كائن ميتافيزيائي** يتخذ ايضا ضمن اشكاله المتعددة شكل **تطور القوى الانتاجية** **تلك هي** نفس **القصة القديمة** عن التجسد المثالي لمواضيع الفكر ، لمنتجات التجريد ، نفس القصة القديمة عن الاخيلة **التي تلقيها الاجرام** المتحركة والتي يطلب منها ان تفسر لنا لغز حركة هذه الاجرام

انه لمن الواضح وضوح النهار ان استخدام الادوات ، **مهما** تكن ناقصة ، يفترض تطورا هائلا نسبيا للقدرات الذهنية ولقد جرت مياه كثيرة تحت الجسر قبل ان يتمكن اسلافنا البشر القرود من تحقيق تلك الدرجة من تطور « **الروح** » وكيف حققوها ؟ ان من واجبنا ان نطرح هذا السؤال ليس على التاريخ بل على **علم الحيوان** . ولقد قدم الجواب عن هذا العلم داروين الذي بيّن على الاقل كيف **يستطيع** التطور الحيواني للانسان بلوغ النقطة التي تهمنا .وصحيح ان روح الانسان القرد يلعب دورا منفعلا حتى درجة كبيرة في فرضية داروين طالما ان هذه الفرضية لا تعالج ما يزعم **انه الاتجاه الطبيعي** عنده نحو التقدم وبقدر ما يتحقق هذا التقدم بفضل اجتماع بعض الظروف ذات الطبيعة غير الرفيعة جدا وهكذا يرى داروين ان

الانسان ما كان يمكن يبلغ مركزه السائد الحالي في العالم استخدام يديه اللتين تكيفتا بصورة رائعة جدا بحيث تعملان في خضوع لارادته*

وهذا ما اكده من قبل هيلفيتيوس الذي كان يعتبر ان تطور الاطراف – يا للقول الفظيع – هو السبب في تطور الدماغ والاسوأ جدا من ذلك ان تطور الاطراف تحقق ليس بفضل روح الانسان القرد بل بتأثير البيئة الطبيعية

ومهما يكن من شيء ، فان علم الحيوان سلم انسانه الى التاريخ على اعتباره حائزا منذئذ على القدرات الضرورية لابتكار اكثر الادوات بدائية واستعمالها وهذا هو السبب في ان كل ما يتوجب على التاريخ فعله هو ان **يترسم** تطور الاعضاء الاصطناعية ويقرر اثرها في تطور الفكر ، مثلما فعل علم الحيوان بخصوص **الاعضاء الطبيعية** . ولما كان تطور هذه الاعضاء الاخيرة قد تم تحت تأثير البيئة الطبيعية ، فان في الامكان ان يفهم بكل يسر ان الشيء نفسه حدث فيما يتعلق **بالاعضاء الاصطناعية.**

ليس في مقدور سكان بلاد لا معادن فيها ان يبتكروا ادوات تكون افضل من الادوات الحجرية وكيما يستطيع الانسان ان يدجن الحصان والبقرة والخروف وغيرها من الحيوانات التي لعبت دورا بالغ الاهمية في تطور قواه المنتجة كان لا بد له ان يحيا في اراض حيث تتوفر هذه الحيوانات – او بالاحرى اسلافها الحيوانية – في حالة التوحش ومما لا ريب فيه أن فن الملاحة لم ينشأ في **السهوب** ، وقس على ذلك وبنتيجة ذلك فان البيئة الطبيعية ، **البيئة الجغرافية ، فقرها** او **غناها ،** قد مارست تأثيرا لا جدال فيه في تطور الصناعة وفضلا عن ذلك فان خصائص البيئة الجغرافية لعبت دورا مرموقا آخر بل اعظم اهمية في تاريخ الحضارة . يقول ماركس

---

* **اصل الانسان ، الخ** القسم الاول الفصل الثاني .

« **ليست خصوبة الارض وحدها ، بل تمايز وتنوع منتجاتهاالطبيعية والتبدلات في الفصول هي التي تشكل الاساس الطبيعي** لتقسيمات العمل الاجتماعية والتي تحفز الانسان ، بفعل التغيرات في الوسط الطبيعي الى مضاعفة حاجاته وامكاناته ووسائطه وانماط عمله ان الضرورة الداعية الى وضع قوة طبيعية تحت توجيه المجتمع،والى توفيرها وتملكها او استخدامها على نطاق واسع بفضل عمل اليد الانسانية هي التي لعبت أولا الدور الحاسم في تاريخ الصناعة والامثلة على ذلك هي اعمال الري في مصر ولومبارديا وهولندا أو في الهند وفارس حيث الري. بواسطة الاقنية الاصطناعية لا يزود فحسب التربة بالمياه اللازمة لها بل يجلب اليها ايضا الاسمدة الطبيعية في شكل الاطيان من الهضاب*

وهكذا يحصل الانسان من بيئته الطبيعية على المواد اللازمة لاعضائهالاصطناعية التي يخوض بواسطتها النضال ضد الطبيعة ان نوع البيئة التي تحيط به تقرر طابع فعالياته الانتاجية ، **وسائل انتاجه . بيد أن وسائل الانتاج تقرر بصورة لا تقل حتمية عن ذلك العلاقات المتبادلة بين البشر في عملية الانتاج** ، مثلما تقرر اسلحة الجيش تنظيمه باكمله وجميع العلاقات المتبادلة بين الافراد الذين يتشكل منهم لكن العلاقات بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية تقرر اذن بنية المجتمع بأكملها وينتجه ذلك، فان التأثير الذي تمارسه البيئة الطبيعية علىتلك البنية لا جدال فيه: **ان طابع البيئة الطبيعية يقرر طابع البيئة الاجتماعية .**

**ومثال على ذلك**

ان ضرورة حساب فترات فيضانات النيل هي التي خلقت علم الفلك المصري كما أدت في الوقت نفسه الى سيطرة الطغمة الاكليريكية بصفتها موجهة للزراعة**

ان علاقات الانتاج نتيجة ، والقوى المنتجة **سبب** . وعلى اي حال فان النتجة تتحول بدورها الى سبب ، اي ان علاقات الانتاج تصبح مصدرا جديدا لتطور القوى المنتجة ، وهو ما يؤدي الى نتيجة مزدوجة

١ ــ ان التفاعل بين علاقات الانتاج والقوى المنتجة سبب **للحركة الاجتماعية** التي تملك منطقها الخاص وقوانينها الخاصة المستقلة جميعا عن البيئة الطبيعية

---

* **رأس المال** ، ص ٥٢٥ ٥٢٦ وبنتيجة ذلك ، فبينما تملك الاراضي في المناطق الاستوائية ثروة طبيعية ، فان الاراضي في المناطق المعتدلة اكثر ملاءمة لتطور الانسان ( **الجغرافيا الحكمية المقارنة المأخوذة في علائقها مع تاريخ الانسانية** ، بقلم ارنولد غويو الطبعة الجديدة باريس ١٨٨٨ ص ٢٥٦

** **رأس المال** ، الكتاب الاول ، ص ٥٢٥ في آسيا كما في مصر تتطور المدنية في السهول سهلة الزراعة ذات التربة الطمية وتميل بصورة مساوية الى التطور على طول الانهار الكبرى غويو المؤلف المذكور ص ٢٧٧ راجع ميتشنيكوف ، **حضارة الانهار الكبرى التاريخية** ، باريس ١٨٦٩ ) .

**ومثال ذلك** ان الملكية الخاصة في المرحلة الاولى من تطورها هي على الدوام نتيجة عمل المالك نفسه ، وهو ما يمكن ان نراه جيدا في الريف الروسي بيد انه يحين بالضرورة وقت حيث تكتسب الملكية الخاصة طابعا مناهضا للطابع الذي كانت تملكه قبلا انها تفترض عمل رجل آخر ، وتصبح ملكية خاصة **رأسمالية ،** وهو ما يمكن أن نشاهده ايضا بصورة يومية في الريف الروسي وان هذه الظاهرة عاقبة للقوانين الملازمة لتطور الملكية الخاصة كل ما تستطيع البيئة الطبيعية ان تفعله في هذه الحال يستقيم في **الاسراع** في هـذا التطور **بفضل تنشيط تطـور القـوى المنتجـة .**

٢ ــ لما كان للتطور الاجتماعي منطقه الخاص المستقل عن أي صنف من التأثير المباشر من جانب البيئة الطبيعية ، فقد يحدث ان نفس الشعب الواحد ، رغم حياته في نفس البلد الواحد واحتفاظه بخصائصه البدنيـة دون ادنى تغيير على وجـه التقريب قد يملك في مراحل مختلفة من تطوره مؤسسات اجتماعية وسياسية ليس بينها الا شبه ضئيل بل ربما تكون متعارضة كليا وقد بذلت محاولات لاستخلاص هذه النتيجة من ذلك ، الا وهي ان البيئة الجغرافية لا تمارس أي تأثير في تاريخ الجنس البشري ومهما يكن من شيء ، فان هذه النتيجة خاطئة كليا* ان الشعوب التي قطنت انكلترا في عصر **جوليوس قيصر** تعرضت لتأثير نفس البيئة الجغرافية التي تعرض لها الناس في عصر **كرومويل** ومع ذلك كـان معاصرو كرومويل يملكون قوى انتاجية اعظم بأسا بما لا يقاس من الشعوب في زمن قيصر لقد مارست البيئة الجغرافية تأثيرا مختلفا نظرا لانه كان لمعاصري كرومويل فعل مختلف كل الاختلاف في البيئة الطبيعية لقد كانت القوى المنتجة في انكلترا في القرن السابع عشر حصيلة تاريخها ، ومع ذلك فان البيئة الجغرافية لم تكف قط طوال هذا التاريخ عن **ممارسة التأثير ، وان يكن بطرق مختلفة دائما ، في تطور البلاد الاقتصادي .**

ان العلاقة المتبادلة بين الانسان الاجتماعي والبيئة الجغرافية **خاضعة للتغير حتى درجة كبيرة .** انها تتأثر بكل خطوة جديدة تتم في تطور قوى الانسان الانتاجية. وبنتيجة ذلك فان تأثير البيئة الجغرافية في الانسان الاجتماعي يؤدي الى **نتائج مختلفة في مراحل مختلفة من تطور هذه القوى.** ومع ذلك فليس ثمة شيء **اتفاقي** في العلاقات المتبادلة المتغيرة بين الانسان ومسكنه ، ان هذه العلاقات تشكل في تعاقبها **سياقا خاضعا لقانون .** ولا بد للمرء في سبيل فهم هذه العملية الا يغيب عن باله ان البيئة

* رفض **فولتير** ايضا بصورة سطحية تأثير البيـئة الجغرافية في المجتمعات الانسانية كما قبل بها **مونتسكيو** ولقد رأينا كيف أن دولباخ ، المتخبط في التناقضات النابعة عن طريقته الميتافيزائية قبل بهذا التأثير تارة وأنكره تارة أخرى وعلى العموم فان الالتباس الذي حمله الى هذه المسألـة الميتافيزيائيون من كل لون وصنف هو من دون ريب أحد الامثلة الابرز على تهافت هذه الطريقة .

الطبيعية **تصبح عاملا هاما في التطور التاريخي للجنس البشري ليس بنتيجة تأثيرها في الطبيعة الانسانية بل من جراء تأثيرها في تطور القوى المنتجة .**

ان حرارة هذه الارض [ الاشارة الى المنطقة المعتدلة من اسيا ـج ب ] في مختلف فصول السنة ، وهي لا تظهر اية تبدلات عنيفة ، تقارب على الاغلب حرارة الربيع ، بيد انه من المحال على البشر في مثل هذه البلاد ان يكونوا شجعانا واقوياء ، وان يقاوموا العمل والاعياء فاذا كان الاسيويون جبناء ، دون شجاعة واقل استعدادا للحرب ، واصحاب مزاج اضعف من الاوروبيين ، فانه ينبغي مرة أخرى البحث عن السبب الرئيسي لذلك في طبيعة الفصول فعند الاسيويين لا تتعرض هذه الفصول لاية تغيرات كبيرة ، وهي متماثلة جميعا وتنتقل من الحرارة الى البرد بصورة غير ملموسة وفي مثل هذه الحرارة لا يتعرض الفكر للصدمات القوية ، كما لا يختبر البدن التغيرات العنيفة التي تدمغ الانسان عادة بطابع اشد بأسا واعظم صلابة واكثر نشاطا مما يتعرض له حين يحيا في مناخ متساو على الدوام ، ذلك لان التبدل السريع من حد اقصى الى آخر هو الذي يحفز فكر الانسان وينتزعه من حالة الرخاوة والبلادة

لقد كتبت هذه السطور قبل زمن طويل جدا، فهي بقلم **ابقراط*** ، لكنه يوجد حتى اليوم الراهن عدد كبير من الكتاب لم يحققوا مزيدا من التقدم على الاطلاق في تقديرهم لتأثير البيئة الجغرافية في الجنس البشري ، ان المسكن هو الذي يقرر العرق ، والاخلاق ، والعلم ، والفلسفة ، والدين ، وكعاقبة محتومة لذلك يقرر المؤسسات الاجتماعية والسياسية**

لعل ذلك يتردد صداه كما لو انه الحقيقة لكنه في واقع الامر يضاهي في سطحيته جميع المحاولات الاخرى المبذولة من اجل تفسير ظاهرة التطور الاجتماعي بمساعدة تصور ما عن **الطبيعة البشرية .**

وكما عبر باكل عن ذلك بصورة جيدة ، فان تأثير المناخ والتربة في الانسان تأثير **غير مباشر**

---

* **في الاهوية والمياه والاماكن** ، الترجمة الفرنسية مع النص المقابل ، دي كوري ، باريس ١٨٠٠ ، ص ٧٦ – ٨٥

** « كما ان لآسيا الشرقية طبيعتها الطبيعية المميزة الخاصة ، فهي تملك عرقها المميز الخاص ـ المغول ويبدو ان هذا العرق ذو مزاج كئيب في الاغلب ؛ ان امكاناته الذهنية الضئيلة تقتصر على التفاصيل ولا ترتفع قط الى الافكار العامة او الى التأمل العميق في ميدان العلوم الطبيعية أو الفلسفة ان المغولي ، الحاذق والمبتكر والمبدع في الفنون العملية التي تحقق رفاهية الحياة اليومية ، عاجز كل العجز مع ذلك عن تعميم تطبيقها ان عالم الافكار العظيمة والرؤى النبيلة مغلق عليه ، هو الفارق كليا في الشؤون الارضية وان فلسفته وديانته برمتهما ترتدان الى قانون للاخلاق الاجتماعية ليس هو سوى تعبير عن مبادىء التجربة المباشرة التي لا يستطيع المجتمع وجودا من دون التقيد بها ( ارنولد غويو المؤلف المذكور ، ص ٢٦٩ )

« لقد كانا في أصل أهم العواقب فيما يخص منظمات المجتمع العامة ، وقد ترتب عليهما الكثير من تلك الفوارق العريضة والبارزة بين الامم ، وهي الفوارق التي غالبا ما تعزى الى فارق اساسي ما في العروق المختلفة التي انقسمت الانسانية اليها* ».

وان باكل ليثني بلهفة على ملحوظة قدمها جون ستوارت بان

الطريقة الاكثر ابتذالا من بين جميع الطرق المبتذلة للافلات من النظر في نتيجة المؤثرات الاجتماعية والاخلاقية في الذهن البشري هي عزو التنوع في السلوك والخلق الى فوارق طبيعية ملازمة

ومهما يكن من شيء ، فان باكل نفسه حين يتحدث عن تأثير الطبيعة في تطور الانسان التاريخي ، يرتكب نفس الاخطاء التي يلوم الآخرين عليها بصواب تام لوما شديدا

ان الهزات الارضية والهيجانات البركانية اكثر تواترا واشد تدميرا في ايطاليا وفي شبه الجزيرة الاسبانية والبرتغالية منها في أي بلد آخر من البلدان الكبيرة [ في اوروبا — ج . ب . ] ، والتغير على اشده هناك بالضبط ، كما ان الطبقات الواقعة تحت تأثير التغير هي الاقوى تلك هي البلدان حيث ثبت الاكليروس سلطانه اولا ، وحيث وقعت اسوأ اعمال الفساد في المسيحية ، وحيث ظل التطير مسيطرا بشدة خلال اطول

---

* **تاريخ الحضارة في انكلترا** ، لايبزغ ( بروكهاوس ) ١٨٦٥ ، المجلد الاول ، ص ٢٦ — ٣٧

وعلى أي حال ، فان باكل لم ينطق بجديد هنا ، كما لم يفعل ذلك في أي مكان آخر لقد كان المثالي المطلق هيغل ، قبله بزمن طويل وبصورة افضل منه حتى درجة كبيرة ، قادرا على تقدير تأثير الطبيعة في الانسان من خلال القوى المنتجة ، وبصورة خاصة من خلال التنظيم الاجتماعي انظر مثلا كتابه **مبادىء فلسفة التاريخ** ، فون غانس ، ص ٩٩ — ١٠٠ ) ان تأكيد التأثير المباشر للبيئة الجغرافية في الطبيعة الانسانية او طبيعة العرق ، وهو ما يعود الى الشيء نفسه ، يفتقر كليا الى أي اساس بحيث ان اولئك الكتاب الذين نادوا بذلك التأثير مضطرون لدى كل خطوة الى رفض وجهة النظر تلك ومثالنا على ذلك ما اضافه غوبو الى السطور الموردة في الهامش السابق ان الوطن الرئيسي للعرق المغولي هو الهضبة الآسيوية الوسطى وان اسلوب الحياة البدوي لهذه المجتمعات وشكلها الرعوي [ المجتمعات التي شكلها المغول — ج . ب ] هما عاقبة ضرورية للطبيعة الجرداء والقاسية للمناطق التي يسكنون ولقد اعتبر ابقراط بالطريقة نفسها بالضبط ان افتقار المغول الى الشجاعة هو جزئيا على الاقل ، « عاقبة للقوانين التي يخضعون لها ( المؤلف المذكور ، ص ٨٦ ) ويقول ان شكل الحكم عند الشعوب الاسيويةملكي ، لكن الناس جبناء بالضرورة حيث يحكمهم الملوك المؤلف المذكور ص ١١٧ )

ونصادف برهانا مقنعا على اقوالي في حقيقة ان جميع الاغريق والبرابرة في آسيا هذه بالذات ، الذين يسوسون بقوانينهم الخاصة دون خضوع للطغاة ، وبالتالي يعملون لانفسهم ، هم اناس حربيون (المؤلف المذكور ، ص ٨٨ ) وليست هذه الحقيقة الكاملة بعد ، لكنها تقاربها مع ذلك .

فترة من الزمن* »

وهكذا يرى باكل ان المقام لا يؤثر في شدة العواطف الدينية عند المقيمين فيه فحسب بل في **الوضع الاجتماعي** لرجال الدين ايضا يعني في بنية المجتمع باكملها بيد أن هذا ليس بكل شيء

« من الملحوظ في الوقت الراهن ان جميع الرسامين العظام وقرابة جميع المثالين الكبار الذين تملكهم اوروبا ، قد أنتجتهم شبه الجزيرة الايطالية وشبه الجزيرة الاسبانية. وفيما يتعلق بالعلم ، فمما لا ريب فيه ان في ايطاليا رجالا عديدين من اصحاب القدرات الفائقة ، بيد أن اعدادهم لا تتناسب مطلقا مع اعداد فنانيها وشعرائها**

وهكذا فالخصائص الطبيعية لاي بلد ذات اهمية حاسمة بالنسبة الى تطور العلوم والفنون فيه هل نطق أي من المؤيدين الاكثر حماسة لنظرية العروق المبتذلة بما هو اكثر تهورا واقل صحة ؟

لا بد بعد من تحرير التاريخ **العلمي** لتطور الانسانية الفكري اما في الوقت الحاضر فليس امامنا الا الاكتفاء بفرضيات اكثر او اقل سذاجة ومهما يكن من امر فان ثمة اصنافا مختلفة من الفرضيات وفرضية باكل عن تأثير الطبيعة لا تصمد للنقد

وبالفعل فان اليونان القديمة اشتهرت بمفكريها بقدر ما اشتهرت بفنانيها ، ومع ذلك فان الطبيعة في اليونان لا تكاد تكون أقل مهابة مما هي عليه في ايطاليا واسبانيا وحتى اذا افترضنا ان تأثيرها في المخيلة الانسانية اشد في ايطاليا منه في مواطن بيركليس فانه يكفي ان نتذكر ان « اليونان الكبرى كانت تضم جنوبي ايطاليا والجزر المجاورة وهو ما لم يمنعها من انتاج كثرة من المفكرين

وكما هو الامر في كل مكان آخر فان للفنون الجميلة في ايطاليا واسبانيا الحاليتين تاريخهما ان فن الرسم الايطالي قد ازدهر خلال فترة لا تزيد عن خمسين او ستين سنة*** كذلك ازدهر فن الرسم في اسبانيا خلال فترة قصيرة واننا لعاجزون كليا عن بيان الاسباب التي جعلت الرسم الايطالي يزدهر خلال تلك المرحلة على وجه الدقة من الربع الاخير من القرن الخامس عشر حتى الثلث الاول من القرن السادس عشر وليس في اي عصر آخر مثلا قبل او بعد خمسين سنة ؛

---

* المصدر نفسه ، ص ١١٣

** المصدر نفسه ، ص ١١٤

*** ضمن هذه الحدود الضيقة ازدهر فنانون بارعون مثل ليوناردو دي فنشي ورفائيل وميكل انجلو واندريا دل سارتو وفرا بارتيلميو وجيورجيوني وتيتيان وسباستيانو دل بيومبو وكوريغلو وكانت تلك الحدود ضيقة جدا واذا انت ابتعدت عنها في اي اتجاه صادفت فنا ناقصا من جهة واحدة وفنا منحطا من جهة ثانية » ( هيبوليت تين ، **فلسفة الفن** ، الطبعة الخامسة ، المجلد الاول ، باريس ١٨٩٣ ، ص ١٢٦ ) .

ان ما نعرفه على افضل وجه هو ان الطبيعة في شبه الجزيرة الايطالية لا علاقة لها بالامر مطلقا ذلك انها لم تتغير في القرن الخامس عشر عما كانت عليه في القرن الثالث عشر او القرن السابع عشر اذا كان مقدار متحول يتغير ، فهذا ما لا يحدث لان المقدار الثابت يبقى على حاله دون تغير

ونستطيع ان نعترض على ما لدى باكل من اقوال عن تأثير وقوة الاكليروس في ايطاليا بانه سوف يكون من العسير ان نجد مثالا اشد تناقضا في جوهره على الموضوعة التي يراد من تلك الاقوال تعزيزها فاولا لا يشبه دور الاكليروس فيايطاليا **الكاثولية** في حال من الاحوال دور الكهنة في روما **القديمة** ، وذلك بالرغم من ان الخصائص الطبيعية للبلاد لم تتعرض لاي تغير ملحوظ في هذه الاثناء وثانيا ، بما ان الكنيسة الكاثولية هيئة عالمية ، فمن الواضح ان البابا ، هذا الراس « للطبقة المتطيرة يدين بالقسم الاعظم من سلطانه في ايطاليا لاسباب لا علاقة لها مطلقا بالخصائص الطبيعية للبلاد او بنيتها الاجتماعية الخاصة* ان « الاب المقدس الذي كثيرا ما طرده سكان روما انما تمكن من العودة الى المدينة المقدسة بفضل المساعدة التي قدمتها له الدول الواقعة ما وراء الالب وبالرغم من ان مركز روما الاستثنائي جدا من حيث هي مقر رئيس الكنيسة قد كان له تأثير جبار في ايطاليا بأسرها فانه لا يجوز الاعتقاد بأن رجال الدين فيايطاليا كانوا علىالدوام أقوى من معاصريهم في البلدان الاوروبية الاخرى ، في المانيا على سبيل المثال تلك تكـون خطيئـة فادحـة**

لقد كان دارسو تاريخ الاديان ميالين حتى ايامنـا الراهنـة الى التشبث بالخصائص العرقية كلما اصطدموا باية خاصية في العقيدة الدينية لشعب ما يصعب تقرير اصلها ومهما يكن من شيء ، فانه لم يكـن بد من القبول ، نظرا لوضوح الامر بالتشابه البدئي بين اديان المتوحشين والبرابرة الذين يقطنون مناطق بالغة الاختلاف فيالطابع***.ولقد اضطروا بالطريقة نفسها الى الاعتراف بالتأثيرالهائل

---

* بخصوص الاسباب الاجتماعية التي انتجت هذا التنظيم العالمي للاكليروس انظر القسم الاول من الكتاب الممتاز الذي كتبه كارل كاوتسكي ، **توماس مور وطوباويته** .

** ان القديس برنار هو الذي نصح البابا اوجين الثالث بان يتخلى عن الرومان ويستعيض عن روما بالعالم كلـه ( urbem pro orbe mutatam )

***نستطيع ان نورد عددا لا متناهيا من الامثلـة على الفوارق التي يخلقهـا الموطن والصفات العرقية ومهما يكن من شيء ، فانه لا يمكنان يستخلص من ذلك أي فارق مبدئي ان ديانة الانسان غير المتحضر هي نفسها في كل مكان ، سواء اتطورت في اشكال فجة بصورة سخيفة أم جميلة بصورة شاعرية. اننا نصادف في كل مكان عبادة الطبيعـة ، والارواحية ، والسحر ، والصنميـة او الوثنية ، وقرابين الطعام ، وتوقع الحياة بعد الموت [ان المؤلف الذي نستشهد به مسيحي ــ ج . ب . ] ، وتخليداشكال الحياة الفعلية وشروطها ، وعبادة الموتى ودفنهـم بصورة تتفق مع هـذا الاعتقاد » ( **ديانات الشعوب غير المتحضرة** ، بقلم أ . ريفيل ، باريس ١٨٨٣ ، المجلد الثاني ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ ) .

الذي يملكه أي اسلوب لحياة الناس واية وسائل للانتاج فيطبيعة عقائدهم الدينية* .
وهذا هو السبب في ان العلم لن يكون الا رابحا من التخلي عن جميع اصناف التفكير الغامض و الافتراضي فيما يخص التأثير المباشر للبيئة الجغرافية في اية خاصة للفكر البشري ، ومن السعي قبل كل شيء الى تحديد الدور الذي تلعبه تلك البيئة في تطور القوى الانتاجية ومن خلال هذه القوى في مجمل تطور الشعوب **الاجتماعي والروحي** ــ وباختصار في تطورها **التاريخي** .

لكن لنمض الى أبعد من ذلك

ان قوى المجتمع الانتاجية المادية تدخل في مرحلة معينة من نموها ، في نزاع مع علاقات الانتاج القائمة ، او ــ وهذا ما لا يعدو كونه التعبير الحقوقي عن الامر نفسه ــ مع علاقات الملكية التي كانت فعالة ضمنها حتى ذلك الحين وعندئذ تتحول هذه العلاقات من اشكال لتطور القوى الانتاجية الى قيود لها فيبدأ عصر من الثورة الاجتماعية ومع تبدل الاساس الاقتصادي تتعرض كل البنية الفوقية الهائلة للتحول بسرعة تزيد أو تنقص ، وحين يأخذ المرء مثل هذه التحولات بعين الاعتبار ، فلا بد له ان يقيم مفارقة بين التحول المادي لشروط الانتاج الاقتصادية وهو ما يمكن تحديده بمثل دقة العلوم الطبيعية وبين الاشكال الحقوقية والسياسية والدينية والجمالية والفلسفية باختصار جميع الاشكال الايديولوجية التي يعي البشر فيها ذلك النزاع ويكافحونه وكما ان رأينا في فلان من الناس لا يمكن ان يعتمد على رأيه الشخصي بنفسه ، كذلك لا يمكننا ان نحكم على مثل تلك المرحلة من التحول من وعيها الذاتي بل الامر على النقيض من ذلك ، اذ يجب تفسير هذا الوعي على اساس تناقضات الحياة المادية ، على اساس النزاع القائم بين القوى الانتاجية الاجتماعية وعلاقات الانتاج**

---

* في الدرجة الدنيا تقف ديانة اكلة الجذور الاوستراليين الذين ينصرفون الى القنص الذي يبدون فيه حذقا ضئيلا وديانة سكان الغابات الذين يحيون على النهب بصورة رئيسية ان الديانة ، المعتدلة عند الخو ــ خوين او الهوتنتو ، وعند الكافير الذين هم رعويون في الدرجة الاولى ، قد برهنت على دمويتها وقسوتها عند بعض القبائل الزنجية المولعة بالحرب ، في حين ان عبادة الالوهية عند اولئك الزنوج المنصرفين بصورة رئيسية الى الصناعة والتجارة من دون الاعراض مع ذلك عن تربية الماشية وزراعة الارض هي أكثر السانية وتحضرا اذ أن روح التجارة يجد له تعبيرا عادة في بعض الاحابيل بخصوص الارواح وان الاساطير البولينزيانية تكشف في الحال عن شعب مؤلف منزراعالارض وصيادي الاسماك ( تييل ، **موجز تاريخ الاديان** ، ترجمه عن الهولندية موريس فير ، باريس ١٨٨٠، ص ١٧ ــ ١٨ وبكلمة مختصرة ، فانه مما لا جدال فيه ان دورة الاعياد التي قررها ناموس يهوه وكتاب الخروج قد حددتها الزراعة ــ هذا الاساس الجامع للحياة والدين » ( **مجلة تاريخ الاديان** ، المجلد الثاني ، ص ٤٣ ) وانه لفي مقدورنا ان نورد اي عدد من الاستشهادات المماثلة ، وكل منها اكثر تمييزا من الآخر

** **في نقد الاقتصاد السياسي** ، فورفارتس ، ص هـ ــ و (٤٦) .

كل متناه هو ما يبطل ذاته ، ما يتحول الى نقيضه ولسوف يرى القارىء ان الشيء نفسه ينطبق وفقا لماركس على المؤسسات الاجتماعية والسياسية على حد سواء ان اية مؤسسة اجتماعية هي قبل كل شيء « شكل لتطور القوى المنتجة .واذا جاز التعبير فهي المرحلة الاروع في حياتها انها تتقوى وتنمو وتزدهر ويتعلق الناس بها غريزيا وينادون بانها « **الهية** » او « **طبيعية** » بيد ان الشيخوخة تقترب بصورة تدريجية ويبدا الوهن فاذا الناس يلاحظون ان جميع الاشياء في مؤسسة معينة ليست رائعة بالقدر الذي كانوا يحسبون من قبل ، فينخرطون في النضال ضدها ، وينادون بانها من سلالة الشيطان او منافية للطبيعة **ويلغونها** آخر الامر وان هذا ليجري لان قوى المجتمع الانتاجية لم تعد مثلما كانت عليه ، بل هي خطت خطوة جديدة الى الامام وهو ما يترتب عليه حدوث تبدلات في العلاقات الانسانية وفي عملية الانتاج الاجتماعية ان التبدلات الكمية المتدرجة تتحول الى فوارق نوعية وازمان مثل هذه التبدلات تتميز بالوثبات ، بانقطاع في الاستمرارية وهذه هي نفس الجدلية التي نعرفها من هيغل ، ومع ذلك فهي ليست نفسها بالذات بل هي تحولت في فلسفة ماركس الى النقيض التام مما كانت عليه عند هيغل فقد كان هيغل يرى ان جدلية الحياة الاجتماعية ، مثلها كمثل اية جدلية للمتناهي عامة ، تملك آخر الامر سببا صوفيا هو طبيعة اللامتناهي ، الفكر المطلق اما عند ماركس فهي وقف على اسباب واقعية بصورة مطلقة تطور وسائل الانتاج التي تحت تصرف المجتمع

ولقد اتخذ داروين الموقف نفسه كي يفسر « **اصل الانواع** » وكما ان الحاجة زالت منذ ايام داروين للاستنجاد بالاتجاهات نحو « **التقدم** » من حيث هو « **فطري** » في العضويات ( وهي اتجاهات كان لامارك وايراسموس داروين يعتبران وجودها ممكنا ) من اجل تفسير تطور الانواع ، فنحن لسنا بعد اليوم في حاجة الى الاستنجاد في حقل العلم الاجتماعي ، بالاتجاهات الصوفية في الفكر الانساني » كيما نفهم تقدمه **ان اسلوب حياة البشر يكفينا كي نجد تفسيرا لمشاعرهم وافكارهم .**

ولقد اشتكى فخته بمرارة من انه من الايسر حمل معظم الناس على اعتبار انفسهم قطعا من حمم البراكين على القمر بالاحرى منهم ذواتهم الخاصة وان اي بورجوازي صغير طيب في اليوم الحاضر سوف يقر ايضا بانه قطعة من حمم البراكين على القمر بصورة اسرع من قبوله نظرية تنص على ان جميع افكاره وآرائه وعاداته تدين باصلها للعلاقات الاقتصادية في عصره ولسوف يستنجد **بالحرية** الانسانية **وبالعقل** ، وبعدد لا يحصى من الاشياء الاخرى التي لا تقل عن ذلك ميزة وجدارة . ان البورجوازيين الصغار الطيبين لم يرتابوا مطلقا ، حين استاؤوا

من ماركس في ان هذا الرجل صاحب « الذهن الضيق هو بالذات الذي حل التناقضات التي عذبت العلم طوال قرن كامل على الاقل

لنأخذ مثالا على ذلك ما الادب ؟ يرد البورجوازيون الصفار الطيبون في جوقة واحدة **الادب تعبير عن المجتمع** . هذا تعريف ممتاز ، لكنه يشكو من عيب واحد انه **غامض** جدا بحيث لا يقول شيئا على الاطلاق حتى اية درجة يعبر الادب عن المجتمع ؟ ونظرا لان المجتمع نفسه يتطور ، فكيف ينعكس التطور الاجتماعي في الادب ؟ ما هي الاشكال الادبية التي تقابل كل طور من تطور الانسانية التاريخي ؟ وعلى اي حال فان هذه الاسئلة المحتومة والمشروعة على اكمل وجه تظل دون جواب في التعريف الذي ورد لتوه ,وفضلا عن ذلك فلما كان الادب تعبيرا عن المجتمع ، فمن الواضح انه ينبغي للمرء ، قبل ان يتحدث عن تطور الادب ، ان يحصل على فهم **لقوانين التطور الاجتماعي والقوى الخفية التي يشكل هذا التطور عاقبة لهـا** . ولسوف يتبين القارىء ان هذا التعريف لا يملك بعض القيمة الا لانه يطرح علينا قضية تصدى لها من قبل الفلاسفة في عصر فولتير وكذلك المؤرخون والفلاسفة في القرن التاسع عشر ، الا وهي :**بم يرتهن التطور الاجتماعي آخر الامر ؟**

كان القدماء يعرفون على خير وجه ان البلاغة مثلا وقف حتى درجة كبيرة على اعراف المجتمع وبنيته السياسية ( انظر **احاديث الخطباء** المنسوب الى تاستيوس )، وهو ما كان كتاب القرن الماضي يعرفونه جيدا ايضا وكما بينا في دراستنا السابقة، فان **هيلفيتيوس** كثيرا ما توجه الى الاوضاع الاجتماعية كي يفسر **اصل الاتجاهات في الذوق الجمالي** . ولقد صدر عام ١٨٠٠ كتاب بقلم مدام دي ستال ــ هولشتاين **في الادب المأخوذ في علائقه مع المؤسسات الاجتماعية** . وفي عصر عودة الملكية وتحت حكم لويس فيليب ، اعلن فيلمان سانت ــ بوف وآخرون على اسماع جميع الناس ان **الثورات الادبية** لا تقوم الا كنتيجة **للتطور الاجتماعي** . وعلى الجانب الآخر من الراين كان لفلاسفة كبار آراؤهم الوطيدة منذ ذلك الحين ، حين كانوا ينظرون الى **الادب و الفنون الجميلة** ، مثلها كمثل اي شيء آخر في **عملية الصيرورة** ــ هذا بالرغم من كل مثاليتهم ــ عن الصلة الوثيقة بين اي فن والبيئة الاجتماعية التي تنجب الفنان* واخيرا وتفاديا للمبالغة في الامثلة ، نكتفي بالاشارة الى ان هيبوليت

---

* مثال ذلك ان ما يقوله هيغل عن الرسم الهولندي وثيق الصلة بهذا الموضوع ان الرضا عن الحياة القائمة ، وهو الذي يجد له تعبيرا ايضا حتى في اكثر الاشياء عادية وتفاهة ، يصدر عند الهولنديين عن اضطرارهم الى بذل جهود كبيرة لتحقيق ما تلقته الشعوب الاخرى من الطبيعة بصورة مباشرة ومجانية ومن جهة اخرى فهم شعب من صيادي الاسماك والبحارة ورجال المدن والفلاحين ، وبنتيجة ذلك عرفوا منذ البداية قيمة ما هو ضروري ونافع في اكبر الاشياء واصغرها ، وعملوا على تحقيقه من خلال جهودهم المندفعة والذكية » ، الخ ( **مبادىء علم الجمال** ، فون هـ غ هوثو ، المجلد الثاني، ص ٢٢٢ ، انظر المجلد ،الاول ، ص ٢١٧ )

تين ، وهو الناقد والمؤرخ الادبي البارز ، قد قدم القاعدة التالية من حيث هي المبدأ الاساسي لعلم الجمال العلمي عنده

**« ان التبدلات الرئيسية الحادثة في العلاقات بين الناس تؤدي بصورة تدريجية الى تبدلات مقابلة لها في افكار الناس »**

وقد يعتقد ان هذا البيان يقدم حلا تاما للمسألة ويبين بكل وضوح الطريق من اجل تاريخ علمي للادب والفنون الجميلة ومع ذلك فانه من العجيب ان نرى ان مؤرخي الادب الحاليين لا يملكون صورة عن تطور الانسانية الفكري اوضح مما كانت عليه الحال قبل مائة سنة كيف يفسر المرء هذا العقم الفلسفي المذهل عند اناس لا يفتقرون الى **الذكاء** ، ولا الى **المعرفة** بصورة خاصة

ولا حاجة بالمرء لان يبحث بعيدا ليجد سبب ذلك ومهما يكن من شيء ، فان من واجب المرء كي يفهم هذا الامر ان يقرر اولا اين تقوم جدارات علم الجمال العلمي المعاصر وعيوبه

في رأي تين انه يختلف عن علم الجمال القديم في كونه من طبيعة تاريخية لا مذهبية ، يعني في تقريره القوانين وليس في اصداره التعليمات هذا ممتاز ، لكن كيف يستطيع مثل هذا العلم الجمالي ان يقدم الارشاد من اجل دراسة للادب والفنون المختلفة ؟ كيف يعمل في دراسة القوانين ؟ كيف يرى الى الاثر الفني؟

هنا لا بد لنا ان نستشهد بالمؤلف نفسه ودفعا لاي سوء فهم نترك له الحديث بالتفصيل.

بعد ان يقرر تين ان **الاثر الفني تحدده الحالة العامة للاذهان والاخلاق السائدة**، وبعد أن يورد امثلة تاريخية على ذلك يمضي فيقول

لقد لاحظتم قبل كل شيء في مختلف الحالات التي درسناها **وضعا عاما** ، يعني الوجود العمومي لبعض الحسنات وبعض الشرور شرطا للعبودية أو للحرية ، حالة فقر او غنى ، شكلا محددا للمجتمع صنفا معينا من الدين في اليونان مدن حرة ، محاربة ومزودة بالعبيد جيدا في العصور الوسيطة الاضطهاد والغزوات والنهب الاقطاعي ، والمسيحية المتوقدة ؛ في القرن السابع عشر حياة البلاط ؛ وفي القرن التاسع عشر الديموقراطية الجادة والمثقفة ؛ وباختصار حصيلة من الظروف لا بد للبشر من الانحناء لها وطاعتها وان هذا الوضع لينمي فيهم متطلبات مقابلة ، وقابليات متميزة ، ومشاعر خصوصية ومن بعد فان هذه المجموعة من المشاعر والمتطلبات والقابليات ، حين تتظاهر بمجموعها وبتألق في ذات النفس الواحدة ، تنجب **نمطا سائدا** ، يعني نموذجا يعجب المعاصرون به ويحبونه كان ذلك فياليونان الشاب الفاتن والعاري نبيل العرق الكامل في جميع التمارين البدنية وفي العصور الوسيطة الراهب المتنسك والفارس المتيم ؛ وفي القرن السادس عشر ، رجل الحاشية الكامل وفي أيامنا الراهنة فاوست اوفرتر الظمآن والمكتئب لكن بما ان هذا النمط هو الابعث على الاهتمام

والاهم والابرز بالمقارنة مع جميع الانماط الاخرى ، فهو الذي يقدمه الفنانون الى الجمهور، فيركزونه تارة في صورة واحدة حين يكون فنهم مقلدا كما في الرسم والنحت والرواية والملحمة والمسرح ، ويشطرونه تارة أخرى الى اجزاء مركبة حين يستثير فنهم الانفعالات دون يبدع الصور كما في العمارة والموسيقى وبالتالي فان عملهم برمته يمكن التعبير عنه بالقول انهم اما ان يصفوا هذا النمط السائد واما ان يتوجهوا اليه ، كما في سمفونيات بتهوفن وفي النوافذ الملونة للكاتدراليات ؛ انهم يمثلونه في ملحمتي ميليجروس ونيبويه القديمة ، أو في مسرحتي اغاممنون واخيل لراسين وانه ليترتب على ذلك ان كل الفن وقف عليه ، لان الفن ينصرف كليا الى تلبيته او التعبير عنه وضع عام يؤدي الى قيام نزعات وقدرات متميزة ونمط سائد تبدعه قوة هذه النزعات والقدرات واصوات واشكال والوان وكلمات تحيي هذا النمط او تكون متفقة مع النزعات والقدرات التي تعمل على صنعه ــ هذه هي حدود السلسلة الاربعة أن الحد الاول يستتبع في اعقابه الحد الثاني الذي يجلب الحد الثالث والحد الاخير الرابع ، بحيث ان اقل تبدل في أي من حدود السلسلة يؤدي الى تغير مقابل في الحدود التي تعقبه ويكشف عن تبدل مقابل في الحدود التي تسبقه ، ويتيح النزول او الصعود ، من خلال المحاكمة العقلية الخالصة ، من حد الى آخر وبقدر ما استطيع ان احكم فان هذه الصيغة لا تترك شيئا خارج حدود سيطرتها*

في حقيقة الامر ان هذه « الصيغة لا تغطي اشياء هامة كثيرة جدا ، كما يمكن تقديم بعض الملحوظات بشأن الحجج المرافقة لها وهكذا يستطيع المرء ان ينادي بحق تام بان العصور الوسيطة لم تملك الرهبان المتنسكين **والفرسان المتيمين** فحسب** من حيث هم **« النماذج السائدة »** . وانه ليمكن كذلك التأكيد ، بقدر كبير من الاحتمال ، ان فنانينا « في ايامنا الراهنة لا يستلهمون فاوست وفرتر وحدهما لكنه من الواضح على أي حال ان « صيغة » تين تتقدم بنا مسافة كبيرة على طول الطريق نحو فهم تاريخ الفن ، وتقول لنا اشياء اكثر حتى درجة كبيرة من التعريف الغامض القائل ان « الادب تعبير عن المجتمع وحين استخدم تين هذه الصيغة اسهم اسهاما هاما في دراسة تاريخ الفنون الجميلة والادب لكن المرء يتسائل حين يطالع افضل مؤلفاته، مثل**فلسفة الفن** الذياستشهدنا به لتونا ودراسته عن راسين وكتابه **تاريخ الادب الانكليزي** ايكفي هذا كله ؟ انه لا يكفي بالطبع

---

* **فلسفة الفن** ، الطبعة الخامسة ، باريس ١٨٩٠ ، المجلد الاول ، ص ١١٦ ــ ١١٩

** بالرغم من عدم الاتيان هنا على ذكر الفن الشعبي وشعر الفلاحين وصغار سكان المدن ، فانه يمكن القول ان المحاربين الوسيطيين لم يكونوا « **فرسانا متيمين** » على الدوام وهكذا فان البطل الاسطوري في اغنية رولان الشهيرة لم يكن « متيما » الا بسيفه دوراندال

فبالرغم من كل موهبته وجميع ما تتصف به طريقته من ميزات لا جدال فيها فان المؤلف لا يقدم لنا شيئا سوى **موجز** يظل قاصرا جدا حتى اذا اخذ بصفته هذه وان كتابه **تاريخ الادب الانكليزي** يشكل مجموعة من التصويرات الالاقة بالاحرى منه تاريخا  ان مايخبرنا تين به عن اليونان القديمة وايطاليا عصر النهضة او البلاد الواطئة يعرفنا بالميزات الرئيسية في فن كل من هذه البلدان ، لكنه لا يفسر شيئا من اصولها التاريخية ، او يفعل ذلك في حدود ضئيلة جدا  ولا بد ان نلاحظ ان الملوم في هذه الحال ليس هو المؤلف بل وجهة نظره ، فهمه لتاريخ الادب

وبقدر ما ينادي بان تاريخ الفن وثيق الصلة بتاريخ الوسط الاجتماعي وبقدر ما يعبر عن الرأي بان أي تغير رئيسي في علاقات البشر يولد تغيرا مقابلا في افكارهم  فانه يعترف بالحاجة الى تقرير قوانين تطور الوسط الاجتماعي اولا والحصول على فهم واضح لاسباب التغيرات الرئيسية في **علاقات البشر** كيما تقرر بعدئذ قوانين تطور الفن بصورة مضبوطة  وباختصار  فان « **علم الجمال التاريخي** » يجب ان يقوم على اساس **فهم علمي لتاريخ المجتمعات** . هل فعل تين ذلك بطريقة مرضية حتى درجة ما ؟ كلا  لم يفعل  انه  هو **المادي** في حقل فلسفة الفن ، **مثالي** في فهمه للتاريخ  انه يؤكد ما يلي  بالضبط كما ان علم الفلك هو في آخر الامر قضية ميكانيك ، والفيزيولوجيا قضية كيمياء ، فان التاريخ في آخر الامر قضية سيكولوجيا*  انه ينظر الى الوسط الاجتماعي الذي يستنجد به باستمرار من حيث هو نتاج للفكر البشري  وبنتيجة ذلك نصادف عنده نفس التناقضات التي صادفناها عند الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر  ان افكار الانسان تدين باصلها لشرط الانسان ؛ ان شرط الانسان يدين باصله آخر الامر لافكار الانسان  ولسوف نسأل القارىء عند هذه النقطة  أيستطيع المرء ان يستخدم الطريقة **التاريخية** في علم الجمال اذا كان يملك مثل هذا الفهم الملتبس والمتناقض عن التاريخ عامة ؟ بالطبع لا  قد يملك قدرة فائقة ويكون مع ذلك بعيدا جدا عن انجاز مهمة اخذها على عاتقه اذا هو اكتفى بعلم للجمال هو علم **نصف تاريخي** فحسب

لقد اراد الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر ان يقدموا تفسيرا لتاريخ الفنون والادب بالتوجه الى خصائص الطبيعة الانسانية  ان **الجنس البشري** يجتاز نفس اطوار الحياة التي يجتازها الفرد  الطفولة فالشباب فالبلوغ وهكذا دواليك. وتقابل الملحمة الطفولة  وتقابل البلاغة والمأساة الشباب  وتقابل الفلسفة البلوغ

---

* **تاريخ الادب الانكليزي** ، الطبعة الثامنة ، المقدمة ، ص ١٤ .

وهكذا دواليك* ولقد اشرنا في احدى دراساتنا السابقة الى ان مثل هذه المقارنة عديمة الاسس وانه ليمكن كذلك ان يضاف هنا ان علم الجمال التاريخي عند تين لم يمنعه مطلقا من استخدام « الطبيعة الانسانية » كمفتاح لسائر الابواب التي لم تنفتح امام التحليل عند المحاولة الاولى وعلى أي حال ، فان الاحالة الى الطبيعة الانسانية اتخذت شكلا آخر عند تين انه لم يتحدث عن اطوار تطور الفرد الانساني ؛ وبدلا من ذلك فهو غالبا ـ غالبا جدا للاسف ـ ما يتحدث عن **العرق** وهو نقول ان ما يسمى العرق هو الاستعدادات الفطرية والوراثية التي يجلبها الانسان معه الى العالم** ليس ما هو اسهل ، في استبعاد جميع الصعوبات، من عزو الظواهر التي تتصف ببعض التعقيد الى عمل هذه الاستعدادات الفطرية والوراثية وعلى أي حال فان ذلك لا يمكن ان يعود على علم الجمال التاريخي الا بضرر بالغ

وكان **هنري سامر مين** على قناعة وطيدة بالفارق العميق بين العرق الآري والعروق ذات « الاصول الاخرى » في كل ما يتعلق بالتطور الاجتماعي ومع ذلك عبر عن رغبة جديرة بالاحترام

انه ليؤمل ان يبذل الفكر المعاصر قبل انقضاء زمن طويل جهدا للتحرر من تلك العادات الطائشة في اتخاذ النظريات العرقية ، وهي العادات التي يبدو انه ابتلي بها ان كثرة هذه النظريات لا تملك فيما يبدو الا جدارة ضئيلة باستثناء السهولة التي توفرها في بناء استدلالات عليها لا تتناسب مطلقا مع الجهد الذهني الذي يتكلفه صاحبها***...»

ولا يستطيع المرء الا ان يأمل في ان تتحقق هذه الرغبة في اسرع وقت ممكن. ومن سوء الحظ ان هذا الامر ليس على قدر ما يبدو عليه للوهلة الاولى من البساطة ويقول مين ان الكثير من الفوارق النوعية التي يزعم وجودها بين التفرعات العرقية الآرية ان لم يكن معظم هذه الفوارق هي في الواقع فوارق في درجة التطور فقط هذا ما لا جدال فيه ومهما يكن من شيء فان

---

* كثيرا ما استخدمت مدام دي ستال هذا التشبيه « حين يدرس المرء العصور الثلاثة المختلفة للادب الاغريقي يتبين بصورة بالغة الوضوح التقدم **الطبيعي للفكر الانساني** لقد كان الاغريق لامعين في الدرجة الاولى بالنسبة الى شعرائهم في المرحلة البعيدة من تاريخهم ويميز هوميروس العصر الاول من الادب الاغريقي وان المرء ليشاهد التقدم السريع خلال عصر بيركليس للفن المسرحي والبلاغة والاخلاق واوائل الفلسفة وفي عصر الاسكندر اصبحت الدراسة العميقة للعلوم الفلسفية الشغل الرئيسي للادباء البارزين ، الخ المؤلف المذكور ، المجلد الاول ، ص : ٧ ـ ٨ ) هذا كله صحيح ، لكن التقدم **الطبيعي** للفكر الانساني لا يفسر في حال من الاحوال **اسباب** هذا التقدم »

** المصدر نفسه ص ٢٣

*** هنري سامر مين **محاضرات عن تاريخ المؤسسات الباكر** ، الطبعة السادسة ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

من واجب المرء ، حتى يستغني بعد الآن عن المفتاح الرئيسي في نظرية العروق ان يملك بالتأكيد فهما صحيحا لصفات مراحل التطور المختلفة وان هذا لمحال دون فهم للتاريخ خالص من التناقضات ، وهو الفهم الذي لم يكن لدى تين ولكن أيكون اذن لدى كثرة من المؤرخين والنقاد ؟

ان امامنا **تاريخ الادب الوطني الالماني** بقلم الدكتور هرمان كلوج وهو كتاب يبدو انـه واسـع الانتشار في المانيا لكنه لا يتصف بشيء يخـرج عن القيمـة الاستعمالية العادية وما يستحق انتباهنا فيه المراحل التي يقسم الكاتب اليهـا تاريخ الادب الالماني ، حيث نصادف سبع مراحل ( ص ٧ ــ ٨ ، الطبعة الرابعة )

١ ــ من الازمان الاقدم حتى شارلمان ( ٨٠٠ بعد الميلاد )

كان ذلك بصورة رئيسية عصر الاغاني الشعبية الوثنية القديمة ، وهي مرحلة شاهدت ظهور الاساطير البطولية القديمة ؛

٢ ــ من شارلمان حتى اوائل القرن الثاني عشر ٨٠٠ ــ ١١٠٠ بعد الميلاد ) ، وهي المرحلة حيث افسحت الوثنية القومية القديمة المكان امام المسيحية وذلك بعد صراع قاس وفيها وقع الادب تحت تأثير الاكليروس ؛

٣ ــ الاندفاعة الاولى للادب الالماني ( ١١٠٠ ــ ١٣٠٠ بعد الميلاد ) ، حيث كان الشعر موضع رعاية الفرسان بصورة رئيسية ؛

٤ ــ تطور الشعر بفضـل طبقـة رجال المدن والحرفيين ١٣٠٠ ــ ١٥٠٠ بعـد الميلاد ) ؛

٥ ــ الادب الالماني ابان الاصلاح ( ١٥٠٠ ــ ١٦٢٤ بعد الميلاد )

٦ ــ الشعر تحت سيطرة العلماء ، وهي مرحلة المحاكاة ١٦٢٤ ــ ١٧٤٨ ) ؛

٧ ــ الاندفاعة الثانية للادب الالماني ، ابتداء من ١٧٤٨

ان القارىء الالماني ، الاكثر اطلاعا منا يستطيع ان يحكم بنفسه بخصوص تفاصيل هذا التقسيم أما بالنسبة الينا ، فانه يبدو **انتقائيا بصورة مطلقة** ، يعني انه ليس مبنيا على مبدأ واحد ، وهو شرط اساسي لاي تصنيف او تقسيم علميين، بل على عدة مبادىء ليس ما يجمع بينها انه يؤكد لنا ان الادب تطور في المرحلتين الاوليين تحت تأثير **الافكار الدينية** على وجه الحصر ثم جاءت المرحلتان الثالثـة والرابعة حيث ارتهن التطور **بالبنية الاجتماعية** ، باوضاع الطبقات التي « رعته وابتداء من عام ١٥٠٠ عادت الافكار الدينية من حيث هي العامل الرئيسي في التطور الادبي لقد قام الاصلاح ومهما يكن من شيء ، فان هذه الهيمنة للافكار الدينية لم تستمر سوى ١٥٠ سنة : ففي عام ١٦٢٤ ، قام العلماء بدور خالقي الادب الالماني، الخ ان اقل ما يقال هو ان هذا التقسيم الى مراحل يضاهي في قصوره ذلك التقسيم الذي استخدمه كوندورسيه في كتابه **مشروع لوحة عن تقدم الفكر البشري**، وللسبب نفسه . فكلوج ، مثله مثل كوندورسيه ، لا يعرف على اي شيء يتوقف

التطور الاجتماعي ونتيجته ـ تطور الانسانية الفكري وهكذا كنا على صواب حين قلنا ان قرننا شاهد تقدما متواضعا جدا في هذا الحقل

لكن لنعد الى هيبوليت تين انه يرى ان « الوضع العام » الذي ينشأ الاثر الفني تحت تأثيره يعني الوجود العام لبعض الحسنات وبعض المساوىء ، شرطا من الحرية او العبودية ، حالة من الفقر أو الثروة ، شكلا محددا للمجتمع وصنفا معينا من الدين بيد ان شرط الحرية او العبودية ، والثروة او الفقر واخيرا شكل المجتمع هي جميعا صفات تدل على مركز البشر الفعلي في الانتاج الاجتماعي لوجودهم » وليس الدين سوى الشكل الوهمي الذي تنعكس به في اذهان البشر اوضاعهم الفعلية ان هذه الاوضاع الفعلية هي السبب وذلك الشكل الوهمي هو النتيجة واذا اعتنق المرء المثالية فان في مقدوره بالطبع ان يؤكد العكس من ذلك يعني ان البشر يدينون باوضاعهم الفعلية للافكار الدينية ، وفي هذه الحال يجب ان نعتبر سببا ما لا نقبل به الا على اعتباره نتيجة فحسب. وفي جميع الاحوال ، فاني آمل ان يكون من المتفق عليه ان السبب والنتيجة لايمكن أن يتساويا في وصف « الوضع العام في اي عصر معين نظرا لان هذا سوف يؤول بنا الى الالتباس حيث ان اوضاع البشر **الفعلية** تختلط اذن باستمرار مع الحالة العامة لاخلاقهم وفكرهم او بكلام آخر يضيع اي فهم لعبارة الوضع العام وهذا هو بالضبط ما حدث لتين ولعدد كبير من مؤرخي الفن*

---

* اليكم على سبيل المثال ما يقوله شارل بلان عن الرسم الهولندي « والخلاصة ثلاثة اسباب رئيسية هي الاستقلال الوطني والديموقراطية والبروتستانتية تركت اثرها في المدرسة الهولندية . لقد اصبح للاقاليم السبعة ، وقد تحررت من النير الاسباني ، وسمها الخاص الان ، هذا الرسم الذي طرح بدوره الاسلوب الغريب انالشكل الجمهوري وقد نال الاعتراف قد حررهم من الفن التزييني الخالص الذي كان البلاط والامراء يطلبونه مما يستطيع المرء ان يسميه رسم المظاهر [ « peinture d'apparat » ]واخيرا فان الحياة العائلية التي كانت البروتستانتية تشجعها ادت الى نشوء لوحات فاتنة ولا حصر لها عن الحياة اليومية ، وهو ما جعل الفن الباتافي شهيرا الى الابد ، لانه كان من الضرورة بمكان تزيين جدران مساكنهم الخاصة التي أصبحت هياكل للاشياء النادرة » ( **تاريخ الرسامين من جميع المدارس** ، باريس ١٨٦١ ، المجلد الاول ، ص : ١٩ ـ ٢٠ ) ولقد قال هيغل شيئا مماثلا حتى درجة كبيرة « كان الهولنديون في الدين بروتستانتيين ـ وهو امر بالغ الاهمية ، والبروتستانتية وحدها كانت تملك القدرة على اجتياح نثر الحياة اجتياحا تاما وعلى منحه معنى كاملا ـ اذا اخذ بحد ذاته ودون اعتبار للعلاقات الدينية ـ وعلى تمكينه من التطور بحرية غير مقيدة ( **علم الجمال** ، المجلد الثاني ، ص ٢٢٢ ) وانه من اليسير **الاستشهاد بهيغل** نفسه لبيان ان الاكثر منطقا ان نعتبر انه ليست البروتستانتية هي التي سمت بنثر الحياة ، بل الامر على النقيض من ذلك ، نثر الحياة البورجوازية ، بعدما بلغ درجة معينة من التطور والقوة ، هو الذي انجب البروتستانتية في عملية نضاله ضد « نثر النظام الاقطاعي او شعره شئتم واذا كان الامر كذلك ، فانه

ان الفهم المادي للتاريخ يخلصنا اخيرا من سائر هذه التناقضات وصحيح انه لا يزودنا باية صيغة سحرية لكنه من قبيل السخف ان نطلب صيغة تمكننا في لمحة عين من جميع قضايا تاريخ الانسانية الفكري ، ومع ذلك فان هذا الفهم يقودنا خارج الدائرة المفرغة اذ يدلنا على الطريق الصحيحة الواجب علينا اتباعها للدراسة العلمية

ونحن على يقين من ان الكثيرين من قرائنا سوف يدهشون بصدق اذ يعلمون منا ان قضية التاريخ كانت بالنسبة الى ماركس بمعنى ما قضية سيكولوجية ايضا ومع ذلك فهذا لا جدال فيه لقد كتب ماركس يقول منذ عام ١٨٤٥

ان العيب الرئيسي للمادية السابقة كلها – بما فيها مادية فيورباخ – هو ان تصور الشيء الواقع الحسية ، لا يتم فيها على صورة **الموضوع** أو **المشاهدة** ، وليس على اعتبارها فاعلية انسانية **حسية** ، على اعتبارها **ممارسة** ، ليس بصورة **ذاتية** . ولذا حصل ان المثالية طورت الجانب الفاعل ، بصورة متعارضة مع المادية ، لكن بصورة مجردة فحسب، لان المثالية بطبيعة الحال لا تعرف الفاعلية الواقعية الحسية بصفتها هذه*

ما معنى هذه الكلمات التي تنطوي حتى درجة ما على برنامج المادية الحالية ؟ معناها انه اذا لم تكن المادية راغبة في ان تظل ضيقة كما كانت حتى وقتذاك واذا لم تكن راغبة في اجتناب مبدئها الخاص بالعودة باستمرار الى الآراء **المثالية** ، واذا لم تكن راغبة بالتالي في الاعتراف بان المثالية اقوى في حقل محدد فان من واجبها ان تقدم تفسيرا ماديا لجميع مظاهر الحياة الانسانية ان **المظهر الذاتي** لهذه الحياة يعني ذلك **المظهر السيكولوجي** بالذات « **الفكر الانساني** » ، **مشاعر البشر وافكارهم** ، كما ان دراسة هذا المظهر من وجهة النظر المادية معناه بقدر ما يكون المقصود **نوعا** معينا تفسير **تاريخ الافكار** بواسطة الشروط المادية لوجود الناس من خلال **التاريخ الاقتصادي** . ولقد كان على ماركس ان يتحدث عن حل « للقضية السيكولوجية لانه كان يرى بالخاصة الحلقة المفرغة التي لم تكن المثالية، التي كانت تدرس تلك القضية ، تستطيع الافلات منها

وهكذا قال ماركس ما قاله تين على وجه التقريب لكن **بكلمات مختلفة نوعا ما** . فلنر كيف يجب تعديل « صيغة تين بصورة تتفق مع هذه الكلمات المختلفة

**عند درجة معينة من تطور القوى الانتاجية ؛ علاقات البشر في عملية الانتاج الاجتماعي تقررها تلك الدرجة من التطور ؛ شكل المجتمع الذي يعبر عن تلك**

---

لا يجوز للمرء يرى في البروتستانتية سببا ثانيا لتطور الرسم الهولندي بل ينبغي له ان يمضي قدما الى شيء « ثالث و اعلى » ادى الى قيام بروتستانتية الهولنديين وحكومتهم «الديموقراطية» (التي يتحدث شارل بلان عنها ) والى قيام فنهم ايضا الخ

* انظر ملحق **لودفيغ فيورباخ** لانجلز ، ماركس عن فيورباخ (٤٩) » .

**العلاقات ، حالة محددة للفكر والاخلاق تقابل ذلك الشكل للمجتمع ، الدين والفلسفة والادب والفن وفقا للامكانات والاتجاهات الذوقية والنزعات الناشئة عن تلك الحالة**
ـ اننا لا نريد ان نقول ان هذه الصيغة تشمل الاشياء جميعا ـ ابدا على الاطلاق ـ لكننا نود ان نقول انها تملك ميزة لا جدال فيها من حيث هي تعبير افضل عن الحلقة السببية بين (( **حدود السلسلة** )) المختلفة اما فيما يتعلق بالضيق و التحيز اللذين يؤخذان عادة على الفهم المادي للتاريخ فلن يجد القارىء لهما اثرا هنا

ان المثاليين الالمان الكبار هؤلاء الاعداء الالداء لاية انتقائية قد اعتبروا في زمانهم ان جميع مظاهر حياة أي شعب تتقرر بمبدأ واحد ولقد كان هذا المبدأ بالنسبة الى هيغل هو **وضوح روح الشعب** ، الطابع الشامل لديانته ونظامه السياسي واخلاقيته ونظامه الحقوقي ومناقبه وعلمه وفنه وكذلك قدراته التقنية ويرى الماديون في اليوم الحاضر ان روح الشعب تجريد نتاج للفكر لا يفسر أي شيء على الاطلاق ولقد رفض ماركس الفهم المثالي للتاريخ لكن هذا لا يعني انه رجع الى وجهة نظر **التفاعل** المجرد التي هي دون وجهة نظر روح الشعب في قدرتها على الايضاح ان فلسفته الخاصة بالتاريخ احادية ايضا لكن بمعنى هو على طرفي نقيض مع معنى هيغل وهذه الطبيعة الاحادية هي السبب في ان العقول الانتقائية لا ترى فيها سوى الضيق والتحيز

ولعل القارىء لاحظ اننا عندما عدلنا صيغة تين وفقا لفهم التاريخ الماركسي استبعدنا ما سميه المؤلف الفرنسي (( **النمط السائد** )) ، وهو ما فعلناه عن قصد ان بنية المجتمعات المتحضرة بالغة التعقيد بحيث لا يستطيع المرء حتى ان يتحدث، بكل معنى الكلمة عن حالة للفكر والاخلاق تتفق مع شكل اجتماعي معين ان حالة الفكر والاخلاق عند سكان المدن غالبا ما تكون متميزة منها عند الفلاحين في حين ان حالة الفكر والاخلاق عند النبالة لا تحمل ادنى شبه مع حالة البروليتاريا. وهذا هو السبب في ان النمط الذي يكون سائدا في ادراك طبقة معينة لا يكون في حال من الاحوال سائدا كما تراه طبقة اخرى اكان يمكن لاحد رجال الحاشية في عصر الملك ـ الشمس آن يخدم كمثل اعلى للفلاح الفرنسي في العصر نفسه ؟ مما لا ريب فيه ان تين كان سيعترض على ذلك بانه ليس الفلاحون هم الذين تركوا طابعهم في الفن والادب الفرنسيين في القرن الثامن عشر بل المجتمع الارستقراطي بالاحرى ومما لا ريب فيه انه على حق تام في اعتراضه ان مؤرخ الادب الفرنسي في ذلك القرن يستطيع ان يعتبر حالة الفكر والاخلاق عند الفلاحين كمية مهملة لكن لنأخذ عصرا آخر عصر عودة الملكية على سبيل المثال اكان نفس النمط الواحد سائدا في اذهان الارستقراطية والبورجوازية في ذلك الحين ؟ بالطبع لا . ان البورجوازية ، بدافع مناقضة انصار النظام القديم لم تقتصر

على رفض اخلاق الارستقراطية فحسب بل امثلت كذلك روح الامبراطورية واخلاقها عصر نابليون الذي رفضته كلياً قبل سنوات قليلة فقط* وحتى قبل عام ١٧٨٩ تظاهرت معارضة البورجوازية لروح الارستقراطية واخلاقها في الفنون الجميلة بفضل كتابة **المآسي الداخلية** ويقول بومارشيه في كتابه **دراسات في الاسلوب المسرحي الجاد** « ما الذي تعنيه بالنسبة الي الثورات في اثينا وروما ، انا الرعية المسالم في دولة ملكية في القرن الثامن عشر ؟ أيمكن ان اهتم مطلقا بموت احد الطغاة البيلوبونيزيانيين او بتقديم اميرة شابة قربانا في اوليس ؟ هذا كله لايعنيني،وليس ثمة اخلاق يمكنأن تؤثر بي». ان ما يقوله صحيح جدا بحيث يتساءل المرء في دهشة كيف أمكن لانصار المأساة شبه الكلاسيكية ان يخفقوا في رؤية ذلك؟ ما الذي رأوه في هذا كله ؟ اية اخلاق وجدوها هنا ؟ ومع ذلك فالتفسير بالغ البساطة ان المأساة شبه الكلاسيكية انما وصفت الطغاة البيلوبونيزيانيين و « اميرات اوليس » **اكراما للمظاهر** وحدها وفي الحقيقة ان ذلك كان ، في رأي تين مجرد وصف مهذب **للعالم الارستقراطي** الذي كان يثير اعجابه اما العالم العتيد ،عالم البورجوازية ، فقد نظر الى هذه المأساة من وجهة نظر العرف وحده ، او نهض علانيـة ضدها نظرا لانه كان، سلفا ، في نزاع مع **« العالم الارستقراطي »** نفسه ولقد رأى ابطال البورجوازية في قواعد علم الجمال شيئا مهينا بحق كرامة المواطن فبومارشيه يهتف ساخرا في « رسالة عن نقد **حلاق اشبيليه** » .

أينبغي للمرء ان يصف اناس الطبقة الوسطى على اعتبارهم معذبين او بائسين ؟
كلا والف كلا ، بل يجب ان يكونوا موضع السخرية فحسب الرعايا المضحكون والملوك
البائسون ـ هذا هو المسرح الموجود والممكن الوحيد ومن جانبي ، فقد سجلت ذلك »

ان **المواطنين** الذين عاصروا بومارشيه كانوا ، في معظم الحالات على الاقل ذرية **البورجوازيين** الفرنسيين الذين قلدوا **النبلاء** باندفاع جدير بقضية افضل ، وبالتالي جُعلوا موضع السخرية من قبل موليير ولاكور ورينيار وآخرين كثيرين وهكذا نشاهد على الاقل عصرين مختلفين جوهريا في تاريخ الفكر والاخلاق عنـد

* « ان موظفي الحكومة والحرفيين والبقالين اعتبروا من دون ريب ان من واجبهم ان يعبسوا وان يكون لكل منهم شاربان اثباتالليبراليتهم لقد كانوا يقصدون بسلوكهم وبعض التفاصيل في ملابسهم ان يظهروا انفسهم على اعتبارهم مخلفات جيشنا البطولي ولم يقتصر مساعدو محلات الازياء على الشاربين بل علقوا بأحذيتهم المهاميز التي كانت ترن بصدى حربي على طول الدروب وارصفة الشوارع ، وذلك كله استكمالا لتحولهم بيرليه ، **في تأثير العادات في الملهاة** ، الطبعة الثانية ، باريس ١٨٤٨ ص ٥١ ـ ٥٢ ) ان لدينا هنا مثالا على تأثير الصراع الطبقي في منطقة يمكن ان يبدو للوهلة الاولى انها وقف على النزوة وحدها وانه ليكون من بواعث الاهتمام ان يدرس في مؤلف خاص تاريخ الزي الشائع من وجهة نظر سيكولوجية الطبقات

البورجوازية الفرنسية العصر الواحد تقليد للنبلاء والعصر الآخر معارضة لهم ويقابل كل من هذين العصرين **مرحلة محددة من تطور البورجوازية . وبنتيجة ذلك فان النزعات والاتجاهات في اذواق اية طبقة رهن بدرجة تطورها ، بل الاكثر من ذلك . موقفها من الطبقة الاعلى ــ وهو موقف يقرره ذلك التطور .**

وهذا يعني أن الصراع الطبقي يلعب دورا هاما في تاريخ الايديولوجيات وفي الحقيقة ان هذا الدور هام جدا بحيث يستحيل ، مع استثناء المجتمعات البدائية حيث لم يكن للطبقات وجود ، فهم تاريخ الاتجاهات في أي مجتمع واذواقه وافكاره دون معرفة بالصراع الطبقي الجاري فيه

ويقول يوبرفيـــغ

« ليست الجدلية الملازمة للمبدأ التأملي وحدها ما يشكل بالضبط جوهر عمليــة تطور الفلسفة الحديثة كلها بل بالاحرى صراع وحافز المصالحة بين الايمان الديني التقليدي من جهــة واحدة ، وهو الايمان المتأصل عميقا في الفكر والمشاعر ، ومن جهــة ثانية ما حققته الدراسات الحديثة من معرفة في مجال العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية* ».

لو كان يوبرفيغ اكثر انتباها حتى درجة ما لأدرك ان المبادىء التأملية كانت في اية لحظة معينة حصيلة الصراع والحافز الى المصالحة التي يتحدث عنها ولقد كان يمضي اذن قدما ويطرح على نفسه الاسئلة التالية ١ ــ الم تكن المعتقدات الدينية التقليدية الحصيلة الطبيعية لأطوار معينة من التطور الاجتماعي ؟ ٢ ــ ألم تنشأ الاكتشافات في حقل العلوم الطبيعية والانسانية من اطوار هذا التطور السابقة؟ ٣ ــ اخيرا ، اليس نفس التطور الواحد ، الاسرع في مكان ما او في مرحلة ما من الزمن بينما هو في مكان آخر وفي مرحلة اخرى أبطأ نسقا ومعدلا بفعل عــدد من الشروط المحلية ، هو الذي قاد في نفس الوقت الى صراع بين المعتقدات الدينية والآراء الجديدة التي اكتسبها التفكير الجديد والى الهدنة بين قوتين تخوضان هــذا الصراع ، قوتين مبادئهما التأمليــة تترجم بنــود تلك الهدنة الى لغــة الهيــة للفلسفــة ؟

ان النظر الى تاريخ الفلسفة من هذه الزاوية يعني النظر اليه من وجهة نظر مادية وبالرغم من ان يوبرفيغ كان ماديا فلا يبدو انه كان يملك اية فكرة عن المادية **الجدلية** ، وذلك بالرغم من كل سعة اطلاعه ان ما اعطانا اياه لا يعدو كونه ما سبق لمؤرخي الفلسفة فاقترحوه من قبل ــ مجرد تعاقب للانظمة الفلسفية ان نظاما معينا انجب نظاما آخر ، وهذا النظام الاخير جلب بدوره نظاما ثالثا ، وهكذا دواليك ومهما يكن من شيء ، فان اي تعاقب للانظمة الفلسفية انما هو

* يوبرفيغ **موجــز تاريخ الفلسفة** ، فون دكتور ماكس هاينزه برلين ١٨٨٠ ، المجلــد الثــالث ، ص ١٧٤ .

مجرد **حقيقة ،** شيء **معطى** اذا استعرنا لغة اليوم الراهن شيء يتطلب الايضاح لكن لا يمكن ايضاحه بالجدلية الملازمة للمبادىء التأملية ان جميع الاشياء قد فسرت بالنسبة الى اناس القرن الثامن عشر بفعاليات « الشارعين* وعلى اي حال فاننا نعرف من قبل ان منشأها التطور الاجتماعي ؛ أيمكن اننا لن نستطيع قط ان نحدد الحلقة بين تاريخ الافكار وتاريخ المجتمع ، تاريخ عالم الافكار وعالم الواقع ؟

يقول فخته « **ان نوع الفلسفة التي يختارها المرء لنفسه يتوقف على اي نوع من البشر هو** » الا يمكن ان ينطبق الشيء نفسه على اي مجتمع او بصورة ادق على اية طبقة اجتماعية معينة ؟ الا نملك الحق في القول بالقناعة الراسخة نفسها ان فلسفة اي مجتمع او اية طبقة اجتماعية تتوقف على اي نوع هو هذا المجتمع او هذه الطبقة ؟

من المؤكد انه لا يجوز لنا ان ننسى ابدا انه اذا كانت الافكار السائدة في اية طبقة في زمن معين ترتهن **مضمونا** بمركز هذه الطبقة الاجتماعي فانشكل تلكالافكار وثيق الارتباط بتلك الافكار التي كانت سائدة في العصر السابق في نفس الطبقة او طبقة اعلى « **ان العرف يشكل في جميع الميادين الايديولوجية قوة محافظة كبيرة** » ( فريدريك انجلز )

ولنأخذ الاشتراكية مثالا

ان الاشتراكية الحديثة هي ، في جوهرها النتاج المباشر للاعتراف من جهة واحدة بالتناحرات الطبقية القائمة في المجتمع الحالي بين الملاكين وغير الملاكين بين الرأسماليين والعمال المأجورين ومن جهة ثانية بالفوضى القائمة في الانتاج بيد الاشتراكية الحديثة في شكلها النظري تبدو في الاصل ظاهريا كامتداد اكثر منطقا للمبادىء التي وضعها الفلاسفة الفرنسيون الكبار للقرن الثامن عشر وكان من المحتم على الاشتراكية الحديثة بادىء الامر ، مثلها مثل اية نظرية جديدة ان ترتبط بالبضاعة الفكرية المتوفرة لديها مهما كانت جذورها عميقة في الحقائق المادية**

ان التأثير الصوري ، لكن الحاسم ، **لمجموعة قائمة من الافكار لا يفرض نفسه بمعنى ايجابي فحسب اقصد ليس فحسب بمعنى ان الاشتراكيين الفرنسيين** للنصف الاول من قرننا اشاروا مثلا الى نفس المبادىء التي **تحدث عنها رجال الانوار** للقرن السابق، بل ان ذلك التأثير يتخذ كذلك طبيعة سلبية واذا كان

---

* لكن ما السبب في ان الآداب تمر في اوقات من السكون ، حيث لا تعود العقول منتجة ، وحيث يبدو ان الامم منهكة بخصب مفرط ؟ ذلك لان القنوط غالبا ما يتسبب عن اخطاء وهمية ، عن ضعف الرجال الذين يسيرون الامور ( **لوحة ثورات الادب القديم والحديث** ، بقلم الاب دي كورنان، باريس ١٧٨٦ ص ٢٥ )

** ف . انجلز **ثورة الهر اوجين دوهرنغ في العلوم** ، لايبزغ ١٨٧٧ ، ص ١

فوريه قد انخرط في صراع دائب ضد ما كان يسميه ساخرا الاكتمالية قابلة البلوغ فقد فعل ذلك لان عقيدة اكتمالية الانسان لعبت دورا هاما في نظريات رجال الانوار واذا كان معظم الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين ارتبطوا بعلاقات ودية مع الـه رحيم فقد نشأ ذلك من معارضة للبورجوازية التي اتسم شبابها بارتياب عظيم في هـذا الشأن وعلى أي حال فاذا كـان الاشتراكيون الطوباويون مجـدوا **اللامبالاتية السياسية** فقد كان مصدر ذلك معارضة لمذهب **« كل الاشياء رهـن بالتشريع »** وباختصار فان المظهر الصوري لمذهب الاشتراكيـة الفرنسية ، بالمعنى السلبي والايجابي على حد سواء قـد كان رهنـا كذلك بنظريات رجال الانوار وهي النظريات التي لا يجوز في حال من الاحوال ان تغيب عن انظارنا اذا كنا راغبين في فهم الطوباويين بصورة صحيحة

ما الرابطة التي قامت بين الاوضاع الاقتصادية للبورجوازية الفرنسية في عصر عودة الملكية والمظهر الحربي الذي كان يجب ان يتخذه البورجوازيون الصغار في ذلك الزمن هؤلاء الفرسان بما على صدورهم من شرطان ؟ **لم يكن ثمة اية رابطة مباشرة** ؛ فلحاهم ومهاميزهم لم تغير تلك الاوضاع بأية طريقـة كانت ايجابا او سلبا وعلى اي حال فقد نشأ ذلك الزي المسلي **بصورة غير مباشرة** عن وضع البورجوازية حيال الارستقراطية **ان ظواهر عديدة في حقل الايديولوجيات لا يمكن تفسيرها الا بصورة غير مباشرة بتأثير التقدم الاقتصادي** وهذا ما ينسى غالبا ليس من قبل خصوم نظرية ماركس التاريخية فحسب ، بل من قبل مؤيديها ايضا

وما دام تطور الايديولوجيات يرتهن جوهرا بالتطور الاقتصادي فان هاتين العمليتين تتقابلان بصورة دائمـة ان **« الرأي العام »** يتكيف مع**الاقتصاد** وعلى أي حال فليس معنى ذلك ان لدينـا حقا متساويا اذن في دراستنـا لتاريخ الجنس البشري في ان نتخذ منطلقا لنا ايا من هذين المظهرين – الراي العام او الاقتصاد ففيما يمكن تفسير التطور الاقتصادي بصورة كافية في صفاته العامة ، بفضل منطقه الخاص فان سبيل التطور الفكري لا يجد تفسيره الا في الاقتصاد وان مثالا وحيدا سوف يوضح فكرتنا

في عصر **بيكون** و **ديكارت** اظهرت الفلسفة اهتماما كبيرا بتطور القوى المنتجة، ويقول ديكارت

> يستطيع المرء ان يجد ، بدلا من الفلسفة التأملية الملقنة في المدارس فلسفة عملية نستطيع بواسطتها اذا ما حصلنا على معرفة بقوة وطرق عمل النار والمياه والهواء والكواكب والسماوات وجميع الاجرام الاخرى المحيطة بنا ، وهي معرفة متميزة مثل معرفتنا بالحرف المختلفة لصناعنا ان نستخدمها بالطريقة نفسها من اجل سائر الاستعمالات الخاصة بها وبذلك نجعل انفسنا سادة ومالكين للطبيعة* .

---

* ديكارت ، **المقال في المنهج** ، الفصل السادس

وتحمل فلسفة ديكارت بأسرها آثارا لهـذا الاهتمام العظيم وهكذا فان الهدف الذي تسعى اليه دراسات الفلاسفة المعاصرين قد حدد فيما يبدو بكل وضوح لكن قرنا انقضى واصبحت المادية التي يمكن ان نضيف انها العاقبة المنطقية لفلسفة ديكارت ، واسعة الانتشار في فرنسا ، وقد سار القسم الاكثر تقدمية من البورجوازية تحت رايتها ، واندلعت مساجلة لاهبة لكن القوى المنتجة غابت عن الابصار ان الفلاسفة الماديين لم يتحدثوا عنها تقريبا اذ كـان لديهم حاليا منازع مختلفة كل الاختلاف ، وقد بدا ان الفلسفة وضعت نصب عينيها مهمات مختلفة ما السبب في ذلك ؟ اكان ذلك لان القوى المنتجة في فرنسا حققت في هـذه الاثناء **تطورا كافيا** ؟ هـل انتهى الماديون الفرنسيون الى **اغضاء النظـر** عن تلك السيادة للانسان على الطبيعة التي حلم بها بيكون وديكارت ؟ لا هذا ولا ذاك وعلى أي حال فان العلاقات الانتاجية في فرنسا في زمن ديكارت ــ اذا اقتصرنا هنا على فرنسا وحدها ــ كانت لا تبرح تشجع تطور القوى المنتجة ، بينما هي اصبحت بعد قرن من ذلك التاريخ **عقبـة** في سبيلها فلم يكن بد من تدميرها اذن ، كما لم يكن بد لهذا الغرض من تدمير الافكار التي كانت تكرسها ولقد تركزت على هذه النقطة جميع طاقات الماديين ، هذه الطليعة لمنظري البورجوازية ، واتخذت نظريتهم بأكملها طابعا نضاليا ان النضال ضد « **التطير** » وفي سبيل « **العلم** » ، وضد « **الاستبداد** » وفي سبيل « **القانون الطبيعي** » ، قد بات واجب الفلسفـة الاهم والاكثر عملية ( بالمعنى الديكارتي ) ، وتراجعت الى المؤخرة الدراسة الفورية للطبيعة بهدف زيادة القوى المنتجة بأسرع وقت ممكن وحين تحقق الهدف ودمرت علاقات الانتاج البالية اتخذ الفكر الفلسفي منحى جديدا وفقدت المادية اهميتها لفترة قادمة طويلة من الزمن لقد كان تطور الفلسفة في فرنسا يتبع خطى التبدلات الجارية في اقتصادها

« لا يشيد العلم ، بصورة مغايرة للمعماريين ، قصورا في الهواء فحسب ، بل يستطيع ان يبني شققا سكنية منفصلة من البناء قبل ان يضع حجر الاساس* . . . » قد تبدو هذه الطريقة لا منطقية لكنها تجد تبريرها في **منطق الحياة الاجتماعية.**

حين اعاد فلاسفة القرن الثامن عشر الى الاذهان ان الانسان نتاج لبيئة اجتماعية انكروا اي تأثير في هذه البيئة من جانب ذلك « الرأي العام بالذات الذي **يسود العالم** كما اعلنوا في حالات اخرى لقد كان منطقهم يتعثر لدى كل خطوة بهذا الجانب او ذاك من التناقض الذي حل مع ذلك بكل سهولة على يد المادية الجدلية ومن المؤكد ان الرأي البشري بالنسبة الى الماديين الجدليين يسود العالم بقدر ما حسب انجلز . . . ينبغي لجميع القوى المحركة لافعال اي شخص فرد ان تمر عبر دماغه وان تتحول الى حوافز لارادته** لكن هذا لا يتناقض مع كون

* كارل ماركس ، **في نقـد الاقتصاد السياسي** ، ص ٣٥ (٥١) .

** **لودفيغ فيورباخ** ، ص ٥٧

الراي العام » متأصلا في البيئة الاجتماعية ، وفي العلاقات الاقتصادية آخر الامر ، كما لا يتناقض مع تقدم اي رأي عام معين في السن حالما يشيخ نمط الانتاج الذي ادى الى نشوئه إن الاقتصاد هو الذي يقولب الرأي العام الذي يسود العالم

ان هيلفيتيوس الذي حاول ان يحلل « الفكر من زاوية مادية قد اخفق من جراء العيوب الاساسية لطريقته فقد اضطر ، كي يبقى مخلصا لمبدأ ان « الانسان ليس شيئا آخر سوى احساس » ، لان يفترض بأن اشهر عمالقة الفكر وامجد ابطال التضحية للخير العام مثلهم كمثل اذل المتملقين واخس الانانيين انما يسترشدون بالرغبة في الملذات الحسية ولقد احتج ديدرو على هذه المفارقة ، لكنه لم يستطع الافلات من النتيجة التي توصل هيلفيتيوس اليها ولم يجد له ملجأ الا في مملكة المثالية ومهما تك محاولة هيلفيتيوس مثيرة للاهتمام ، فقد اساء معذلك الىالفهم المادي « للفكر » في نظر الرأي العام وحتى في نظر عدد كبير من العلماء » ويزعم عادة ان الماديين لايستطيعون في هـذه المسألة سوى أن يكرروا ما سبق فقاله هيلفيتيوس ومهما يكن من شيء ، فانه من الضرورة بمكان ان نفهم فقط « فكر » المادية الجدلية لنرى ان هذه المادية الجدلية حصينة ضد الاخطاء التي ارتكبهـا سابقوها **الميتافيزيائيون** .

تنظر المادية الجدلية الى الظواهر في تطورها وعلى اي حال فانه من قبيل العبث من وجهة النظر التطورية سواء القول ان الناس يكيفون **بصورة شعورية** افكارهم ومشاعرهم الاخلاقية مع شروطهم الاقتصادية او التأكيد بان الحيوانات والنباتات تكيف شعوريا اعضاءها مع شروط وجودها ان لدينا في كلتا الحالتين عملية **لا شعورية** لا بد من تزويدها بتفسير مادي

وهذا ما قاله عن الشعور الاخلاقي رجل استطاع ان يقدم ذلك التفسير **لاصل الانواع**

لعله من المستحسن ان ابدأ قبلا بالقول اني لا اريد أن اؤكد بأن أي حيوان اجتماعي بكل معنى الكلمة ما اصبحت قدرته الذهنية فعالة وعالية النمو بقدر ما هي في الانسان سوف يكتسب بالضبط نفس الشعور الاخلاقي الخاص بنا وكما ان لبعض الحيوانات احساسا بالجمال ، بالرغم من اعجابها باشياء مختلفة حتى درجة كبيرة ، فقد يكون لديها احساس بالصواب والخطأ وان قادها هذا الاحساس على طول خطوط سلوكية مختلفة حتى درجة كبيرة ولو ان البشر انشئوا مثلا ، كي نتخذ حالة قصوى ، ا بالضبط تحت نفس الشروط التي تخضع لها خلايا النحل فسوف يكون من الصعب اذن يقوم ادنى شك في ان اناثنا العازبات سوف يفكرن ، مثلهن مثل العاملات في النحل ، بأن من واجبهن المقدس ان يقتلن اخوتهن ، وفي ان الامهات سوف يسعين الى قتل بناتهن المخصبات ، دون ان يفكر احد في التدخل ومهما يكن من شيء فان النحلة ، او اي

حيوان اجتماعي ، سوف تكتسب فيما يبدو لي من هذه الحالة التي نفترضها بعض الاحساس بالصواب والخطأ او شعورا ذلك انه سيكون لدى كل فرد احساس باطن بأنه يمتلك بعض الغرائز الاقوى او الاثبت ، وغرائز اخرى اقل قوة وثباتا ، بحيث سوف ينشأ في الغالب صراع بخصوص الحافز الواجب اتباعه وعندئذ سوف يشعر الفرد بالرضا أو الاستياء أو حتى بالشقاء فيما تقوم المقارنة بين الانطباعات الماضية اثناء عبورها المتصل في الذهن وفي هذه الحال ، فان شعورا باطنا سوف يخبر الحيوان بأنه كان من الافضل ان يتبع هذا الحافز من دون ذاك لقد كان من الواجب اتباع هذا السياق ، اما السياق الآخر فما كان يجوز اتباعه كان السياق الواحد صائبا أما السياق الآخر فعلى ضلال*

لقد اثارت هذه الاسطر قدرا كبيرا من الاستهجان ضد مؤلفها من جانب الرأي العام المحترم وهكذا كتب رجل يدعى السيد سيدغويك في **اكاديمي** اللندنية ان « نحلة متفوقة سوف **تطمح** وهذا ما نستطيع ان نكون على يقين منه الى حل الطف للمسألة السكانية ونحن على استعداد للقبول بذلك فيما يخص النحلة ، لكن بعض الكتب عن الاقتصاد التي هي موضع « **تقدير** » عال من جانب اناس « **محترمين** » تشهد على ان البورجوازية البريطانية وليس البريطانية وحدها اخفقت في العثور على حل الطف لهذه المسألة ففي حزيران ١٨٤٨ وايار ١٨٧١ (٥٢) لم تكن البورجوازية الفرنسية في حال من الاحوال على قدر النحلة المتفوقة » من **اللطف** . فقد اغتال البورجوازيون وامروا باغتيال « اخوتهم العمال بوحشية لم يسبق لها مثيل و ـ هذا ما هو اعظم اهمية بالنسبة الينا ـ **دون ادنى تأنيب من الضمير** . مما لا ريب فيه انهم قالوا في انفسهم انهم **ملزمون** باتباع هذه « **الطريق** » الخاصة « من دون اي طريق غيرها » لماذا كان الامر كذلك؟ لان اخلاقية البورجوازية أمليت عليها من قبل مركزها الاجتماعي صراعها ضد البروليتاريين بالضبط مثلما يملى خط سلوك الحيوانات عليها من قبل شروطها الحياتية

ان هؤلاء البورجوازيين الفرنسيين انفسهم يعتبرون ان العبودية في العصور القديمة **لا اخلاقية** ، وهم على الارجح يدينون مذابح العبيد المتمردين في روما القديمة على اعتبارها غير جديرة بشعب متمدن ، بل حتى بالنحل الذي يتمتع بالذهن ان البورجوازي comme il faut اخلاقي تماما ومخلص للصالح العام وهو في فهمه للاخلاق والصالح العام لن يجتاز قط الحدود المرسومة له **دونما اعتبار لارادته ووعيه ، من قبل شروط وجوده المادية . وبهذا الخصوص ،** فهو لا يختلف في حال من الاحوال عن افراد الطبقات الاخرى واما يعكس في

* **اصل الانسان** ، لندن ١٨٨٣ ، ص ٩٩ ـ

افكاره ومشاعره شروط وجوده المادية فهو يتقاسم اذن المصير المشترك مع جميع البشر الفانين

فوق الاشكال المختلفة للملكية ، فوق شروط الوجود الاجتماعية ، تنهض بنية فوقية كاملة من المشاعر والاوهام وانماط التفكير والآراء في الحياة ، وهي جميعا متميزة وخاصة التكوين ان الطبقة بأكملها تخلقها وتكونها انطلاقا من اسسها المادية وانطلاقا من العلاقات الاجتماعية المقابلة لهذه الاسس وقد يحسب الانسان الفرد الذي يحصل عليها من خلال العرف والتربية انها تشكل الحوافز الفعلية ونقطة الانطلاق لفعاليته*

ولقد حاول جان جوريس مؤخرا ان « يوفق بصورة جذرية بين المادية الاقتصادية والمثالية في تطبيقها على التطور التاريخي** لقد جاء هذا الخطيب البارز بعد فوات الاوان حتى درجة ما نظرا لان الفهم المادي للتاريخ لا تترك فسحة للتوفيق في هذا الحقل ولم يغمض ماركس عينيه قط عن المشاعر الاخلاقية التي لها دور تلعبه في التاريخ ، غير انه اوضح **اصل هذه المشاعر** وكيما يحصل جوريس على فهم افضل لمعنى ما يفضل ان يسميه « صيغة ماركس ( ولقد سخر ماركس على الدوام من الناس المتحررين من الصيغ ) سوف نورد من اجله فقرة اخرى من الكتاب الذي اتينا لتونا على ذكره

ان المقصود هو الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي قام في فرنسا في ١٨٤٩

« ان طابع الاشتراكية الديموقراطية الخصوصي يلخص في حقيقة ان المؤسسات الجمهورية الديموقراطية مطلوبة ليس من حيث هي وسيلة للخلاص من نقيضين هما الرأسمال والعمل المأجور بل لاضعاف تناحرهما وتحويله الى انسجام ومهما تكن الوسائل المقترحة لبلوغ هذا الغرض مختلفة ، ومهما زركشت بافكار ثورية اكثر او أقل ، فان المضمون يظل على حاله وهذا المضمون هو تحويل المجتمع بطريقة ديموقراطية لكنه تحويل لا يتخطى حدود البورجوازية الصغيرة سوى انه لا يجوز للمرء ان يشكل الفكرة الضيقة بأن البورجوازية الصغيرة تريد ، مبدئيا ، أن تفرض مصلحة طبقية انانية انها تعتقد بالاحرى ان الشروط **النوعية** للتحرر هي الشروط العامة التي لا يمكن للمجتمع الحديث ان يخلص وللصراع الطبقي ان يُجتنب الا ضمن اطارها وكذلك لا يجوز للمرء ان يتوهم أن الممثلين الديموقراطيين هم في الحقيقة بقالون جميعا او دعاة متحمسون للبقالين فقد يكونون ، وفقا لتربيتهم ومركزهم الفردي بعيدين عنهم بعد السماء عن الارض ان ما يجعلهم ممثلين للبورجوازية الصغيرة هو حقيقة انهم لا يتجاوزون ، في اذهانهم الحدود التي لا تتجاوزها هذه البورجوازية الصغيرة في الحياة وانهم

---

* كارل ماركس ، **انقلاب لويس بونابرت في ١٨ برومير** ، ص : ٢٨ (٥٤)

** انظر موضوعته عن الفهم المثالي للتاريخ ( **نيوزيت** ، المجلد ١٣ ، ٢ ، ص ٥٤٥ ) .

بنتيجة ذلك يندفعون نظريا الى نفس القضايا والحلول التي تدفع المصلحة المادية والمركز الاجتماعي البورجوازية الصغيرة اليها عمليا تلك هي بصورة عامة العلاقة بين الممثلين **السياسيين والادبيين** لطبقة ما والطبقة التي يمثلونها ( المصدر نفسه ص ٢٠ (٥٥) )

ويتبين تفوق الطريقة الجدلية لمادية ماركس على اوضح صورة حيث يكون المقصود تقديم الحلول لقضايا من طبيعة « اخلاقية » وهي التي حيرت مادية القرن الثامن عشر ومهما يكن من شيء ، فأن فهما صحيحا لهذه الحلول يتطلب اولا وقبل كل شيء طرح **المستبقات الميتافيزيائية** .

لم يكن لدى جوريس اي اساس في تاكيده ما يلي لا اريد ان اضع الفهم المادي في الجانب الواحد من الحاجز والفهم المثالي في الجانب الآخر انه يعود الى نفس النظام الخاص « بالحواجز فيضع الروح في الجانب الواحد ، والمادة في الجانب الآخر ؛ ان لدينا ههنا الضرورة الاقتصادية ، وهناك المشاعر الاخلاقية ، ومن بعد يمضي لتكريسهما معا ساعيا لان يثبت ان الجانبين لا بد ان يتغلغلا في بعضهما بعضا ، بالضبط « مثلما لا بد في حياة الانسان العضوية ان تتغلغل آلية الدماغ والارادة الواعية في بعضهما بعضا*

لكن جوريس ليس بالانسان العادي انه يملك معرفة كبيرة ، وارادة طيبة ، وقدرات بارزة انك تقرؤه في متعة ( لم يسعدنا الحظ بسماعه يخطب ) حتى حين يكون على خطل ومن سوء الحظ انه لا يمكن ان يقال الشيء نفسه عن الكثيرين من خصوم ماركس الذين يتبارون في التهجم عليه

ان الهر دكتور بول بارث مؤلف كتاب Die Geschichte philosophie Hegel's und der Hegelianer bis auf Marx , und Hartman لايبزغ ١٨٩٠ ، قد فهم ماركس فهما ضيئلا جدا بحيث كان في مقدوره ان يدحضه حيث برهن على ان مؤلف **رأس المال** يتناقض لدى كل خطوة لنلق نظرة اقرب على طريقته في التفكير

---

* ان القارىء المتطلع لمعرفة كيف **تتغلغل** الضرورة الاقتصادية في فكرة العدالة والقانون » سوف يجد لذة كبيرة في مطالعة مقالة بول لافارغ ابحاث في اصول فكرة الخير والعدالة المنشورة في العدد السادس من **المجلة الفلسفية** لعام ١٨٨٥ ولسنا نفهم بوضوح تام ما هو المقصود من تشرب الضرورة الاقتصادية بالفكرة المذكورة اعلاه وبالتالي فاذا كان جوريس يفهم ان من واجبنا ان نعيد تنظيم العلاقات الاقتصادية في المجتمع البورجوازي بحيث تتفق مع مشاعرنا الاخلاقية فسوف نرد عليه كما يلي : ١ ـ هذا بدهي ، لكنه من الصعب ان نجد في التاريخ حزبا جعل مهمته انتصار ما يتناقض، في رأيه الخاص ، مع « فكرته عن الحق والخير » ، ٢ ـ انه لا يفهم بوضوح معنى الكلمات التي يستخدمها؛ انه يتحدث عن الاخلاق التي **تصدر التوجيهات** على حد تعبير تين ، في حين يحاول الماركسيون ان **يقرروا القوانين** فيما يمكن تسميته عقيدتهم الاخلاقية وفي هذه الشروط ، فان المغالطة امر لا مندوحة عنه .

فيما يخص اواخر العصور الوسيطة ، فقد قدم ماركس بنفسه المواد من أجل دحضه حين اعلن ( **رأس المال** ، الكتاب الاول ، ص ٧٣٧ – ٧٥٠ (٥٦) ) ان احد الاسباب الرئيسية « لتراكم الرأسمال البدئي قد كان اغتصاب ملكية الفلاحين الانكليز من قبل اللوردات الاقطاعيين الذين حولوا نظرا لارتفاع اسعار الصوف اراضيهم الزراعية الى مراع لخرافهم ، مع عدد قليل جدا من الرعاة ، ومن الحظائر المسيجة وحولوا اولئك الفلاحين الى بروليتاريين احرار وضعوا انفسهم تحت تصرف المانيفاكتورات النامية. وبالرغم من أن هـذه الثورة الزراعية تسببت في رأي ماركس عن صعود صناعة الصوف ، فقد كانت القوى الاقطاعية ، كما وصفها هو نفسه ، اولئك السادة العقاريون المتعطشون الى الربح ، قوتها القسرية ( **رأس المال** ، الكتاب الاول ، ص ٧٤٧ ) يعني ان القوة السياسية اصبحت حلقة في سلسلة الانتفاضات الاقتصادية*

لقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر كما سنحت لنا الفرصة مرات عديدة للاشارة الى ذلك مقتنعين بان (( **الاشياء جميعا رهن بالتشريع** )) . لكنه حين اعيد الى الاذهان في السنوات الاولى من القرن الحالي ان الشارع ، الذي كان يعتقد انه قادر على الاشياء جميعا هو بدوره نتاج للبيئة الاجتماعية حين فُهم ان تشريع أي بلد متأصل في بنيته الاجتماعية ، فقد جعل يتظاهر على نطاق واسع الاتجاه الى الوقوع في التطرف الآخر ان دور الشارع ، الذي بولغ في تقديره قبلا ، **يستهان** به الآن على الاغلب هكذا ، على سبيل المثال ، كتب جان باتيست سيي في مقدمة كتابه **مبحث الاقتصاد السياسي** ما يلي

ان **السياسة** بكل معنى الكلمة ، علم **تنظيم** المجتمعات ، التبست طوال فترة مديدة من الزمن مـع الاقتصاد السياسي الذي يعلّم كيف تنشأ الثروة التي تلبي حاجات المجتمـع ، وكيف توزع وتستخدم ومـع ذلك فان الثروة **مستقلة** اساسا عن **التنظيم** السياسي فالدولة يمكن ان تزدهر في ظل أي وع من الحكومة اذا هي اديرت جيدا ولقد شوهدت امم تثري في ظل ملوك **مطلقين** ، كما شوهدت تفلس في ظل جمعيات وطنية واذا كانت الحرية السياسية قد برهنت على انها اكثر ملاءمة لنمو الثروة **فهي كذلك** بطريقة غير مباشرة مثلما هي اكثر ملاءمة للتعليم

ولقد مضى الاشتراكيون الطوباويون الى ابعد من ذلك ايضا ، منادين من على رؤوس الاشهاد بأن مصلح التنظيم الاجتماعي لا علاقة له البتة بالسياسة** ان

---

* المؤلف المذكور ، ص : ٤٩ – ٥٠ .

** « لدينا في عالمنا المتمدن جميع الاشكال الممكنة من الحكم لكن هل البلدان الغربية التي تميل اكثر او اقل الى شكل الدولة **الديموقراطي** ، اقل عرضة للبؤس الفكري والاخلاقي والمادي من البلدان الشرقية التي تدين بشكل من الحكم **اوتوقراطي** اكثر او اقل ؟ او هل تأثر العاهل البروسي بمأزق الطبقات الافقر من الشعب اكثر مما تأثر بـه مجلس النواب او ملك الفرنسيين ؟ ان الحقائـق

الشيء المشترك بين هذين الطرفين هو صدور كليهما عن الاخفاق في فهم الرابطة بين تنظيم البلاد الاجتماعي والسياسي فهما مناسبا ولقد اكتشف ماركس هذه العلاقة بحيث كان من اليسير عليه ان يبين كيف ولماذا كل صراع طبقي هو في الوقت نفسه صراع سياسي

ولا يرى الدكتور بارث البارع في ذلك كله الا شيئا واحدا الا وهو ان ماركس يعتقد ان فعلا سياسيا فعلا تشريعيا قد لا يكون له اي فعل في العلاقات الاقتصادية وان اي فعل من هذا القبيل في راي ماركس نفسه هو مجرد تمويه ، بحيث أن اي فلاح انكليزي انتزعت منه ارضه قسرا من قبل الملاكين العقاريين في « اواخر العصور الوسيطة » يعني جرد من مركزه **الاقتصادي** السابق قد طوح بكل النظرية التاريخيـة للاشتراكي الشهير كما لو كانت بيتا مصنوعا من اوراق اللعب ليس في مقدور فنان فولتير الحدث القادم من سالامانكا ان يبدي قدرا اكبر من البراعـة(٥٧)

وهكذا يناقض ماركس نفسه في وصفه « تصفية الملكيات » في انكلترا ولما كان الهر بارث منطقيا ممتازا فانه يستخدم هذه التصفية ليبرهن على ان للقانون وجودا مستقلا لكن بما ان **غرض** الفعل **الحقوقي** من جانب الملاكين العقاريين الانكليز لا يملك الا علاقة مشتركة هزيلة مع مصالحهم **الاقتصادية** فان الهـر الدكتور الفاضل يقدم تأكيدا هو في الحقيقة خالص من أي تحيز وهكذا فان للقانون وجودا خاصا به ، وان لم يكن وجودا مستقلا وجود خاص به وان لم يكن وجودا مستقلا حقا ! ان لهذا التقدير جوانب متعددة والاهم من ذلك يضا انه يقي صاحبنا الهر الدكتور من جميع صنوف « التناقضات » واذا انصرف المرء ليثبت له ان **القانون** يتمفصل حول **الاقتصاد** ، فسوف يجيب ذلك انه غير سائد واذا قال له احدهم ان الاقتصاد يرتهن بالقانون ، فسوف يهتف بان ذلك هو بالضبط ما يعني قوله في نظريته عن الوجود المستقل للقانون

ويقول صاحبنا الهر الدكتور البارع الشيء نفسه عن الاخلاق والدين وجميع الايديولوجيات انها جميعا دون استثناء تقف على ارجلها الخاصة بالرغم من عدم استقلالها وكما ترون ، فتلك هي القصة القديمة والحديثة ابدا عن الصراع بين الانتقائية والاحادية ، والقصة نفسها عن الحواجز ان لدينا **المادة** هنـا ، **والروح** هناك ــ جوهرين لهما وجودهما الخاص بالرغم من انه وجود غير مستقل

لكن لندع الانتقائيين ولنرجع الى نظرية ماركس التي لدينا بعض الملحوظات الاخرى نقدمهـا عنها

---

**تبرهن** لنا على العكس من ذلك بقوة بالغة والتفكير يقنعنا بالعكس من ذلك بصورة شديدة بحيث نحـن اكثر من لامبالين بجميع الطموحات الليبرالية سياسيا التي اصبحت بالنسبة الينا باعثة على النفور بكل بساطة » ( موريس هيس في Gesellschaftsspiegel ، ١٨٤٠ ) .

ان للقبائل المتوحشة علاقات مسبقة ـ سلمية او غير سلمية ـ فيما بينها ، ومع الشعوب الهمجية والدول المتمدنة اذا ما سنحت الفرصة لذلك ومن الطبيعي ان تمارس هذه العلاقات تأثيرا في البنية الاقتصادية لاي مجتمع

تجد الجماعات المختلفة في محيطها الطبيعي وسائل انتاج ووسائل معيشة مختلفة ، ومن هنا كان الفارق في اساليب انتاجها وطريقة حياتها ومنتجاتها قامت العلاقات بين الجماعات المختلفة فالمبادلة بين منتجاتها المتقابلة تتطور سريعا ولا تلبث هذه المنتجات ان تتحول شيئا فشيئا الى بضائع*

ان تطور الانتاج السلعي يؤدي الى انحلال الجماعة البدائية وتنشأ ضمن العشيرة مصالح جديدة تنجب آخر الامر تنظيما سياسيا ويبدأ الصراع الطبقي، مع جميع عواقبه المحتومة في مجال تطور الانسانية السياسي والاخلاقي والفكري. وتزداد علاقات الانسانية الاممية تعقيدا اكثر فاكثر وتؤدي الى قيام ظواهر تبدو للوهلة الاولى انها تناقض نظرية ماركس التاريخية

في روسيا جاء بطرس الاكبر بثورة كان لها تأثير جبار في تطور البلاد الاقتصادي ومهما يكن من امر فليست الحاجات الاقتصادية ما حفز هذا الرجل العبقري الى اتخاذ التدابير الثورية بل حاجات ذات طبيعة سياسية هي متطلبات الدولة وبالطريقة عينها فان هزيمة روسيا في حرب القرم (٥٩) هي التي اجبرت حكومة الكسندر الثاني على صنع كل ما في وسعها من اجل انماء الراسمالية الروسية ويعج التاريخ بمثل هذه الامثلة التي يبدو انها تشهد في مصلحة الوجود المستقل للقانون الدولي والمدني او اي نوع آخر من القانون

اين تكمن قوة تلك الدول الاوروبية الغربية التي ايقظت عبقرية الموسكوفي ؟ **انها تكمن في تطور قواها المنتجة** . ولقد فهم بطرس ذلك على خير وجه طالما انه كرس جميع جهوده من اجل تطوير هذه القوى في بلاده من اين جاءت الوسائل التي استعملها ؟ من اين قامت سلطة هذا الطاغية الاسيوي هذه السلطة التي استخدمها بمثل تلك الطاقة الرهيبة ؟ ان هذا السلطان يدين بوجوده **لاقتصاد** روسيا حيث كانت تلك الوسائل مغلولة بالعلاقات الانتاجية في ذلك الزمن وبالرغم من سلطانه المروع وارادته الفولاذية لم ينجح بطرس وما كان يمكن ان ينجح في تحويل سان بطرسبورغ الى امستردام او في صنع قوة بحرية في روسيا وهو ما كان يشكل طموحه الراسخ ان اصلاحات بطرس الاكبر ادت الى قيام ظاهرة اصيلة في روسيا فقد حاول ان يزرع مانيفاكتورات هناك فقامت **القنانة الصناعية** ، وهو شكل مجهول في اوروبا الغربية في روسيا حتى عام ١٨٦١ يعني حتى الغاء الرق

---

* **رأس المال** ، الكتاب الاول ، ص ٣٥٣

ومثال لا يقل عن **ذلك تميزا** هو مثال اوضاع الرق التي كان الفلاحون في بروسيا الشرقية وبراندنبورغ وبوميرانيا وسيليزيا يعانون منها وهي الاوضاع التي يعود تاريخ نشأتها الى منتصف القرن السادس عشر **وكان** تطور الرأسمالية في البلدان الغربية **ينسف** باستمرار الاشكال الاقطاعية لاستغلال زراع الارض ولم يحفظ التطور الرأسمالي بهذه الاشكال لفترة طويلة من الزمن الا في هذا الجزء من اوروبا

كذلك تشكل العبودية في المستعمرات الاوروبية للوهلة الاولى مثالا على التطور الرأسمالي يدعو الى المفارقة وان هذه الظاهرة مثلها كمثل الظواهر المذكورة اعلاه لا يمكن تفسيرها بمنطق الحياة الاقتصادية في البلدان التي تصادف فيها فلا بد من البحث عن تفسيرها في **العلاقات الاقتصادية الدولية**

وهكذا رجعنا بدورنا الى **موقف التفاعل ،** وانه لمن قبيل السخف ان ننسى ان هذه ليست وجهة نظر مشروعة فحسب ، بل وجهة نظر جوهرية بصورة مطلقة. ومهما يكن من شيء فانه لن يقل عن ذلك سخفا ان ننسى أن هذا الموقف لا يفسر اي شيء **من تلقاء نفسه** ، وان من واجبنا حين نستخدمه ان نبحث دائما عن «ثالث» عن الاعلى تماما ذلك الذي **كان الحد بالنسبة الى هيغل ، وبالنسبة الينا الاوضاع الاقتصادية للشعوب والبلدان التي يجب تقرير تأثيرها المتبادل وفهمه**

**ان الادب والفنون الجميلة في أي بلد متمدن تمارس تأثيرا اكثر او اقل عظما** في ادب البلدان المتمدنة الاخرى وفنونها الجميلة **وهذا التأثير المتبادل نتيجة للتشابه في البنى الاجتماعية لمثل هذه البلدان .**

وان طبقة تناضل ضد اي عدو ترتقي الى مركز محدد في آداب بلادها فاذا ما تحركت نفس الطبقة في بلد آخر امتصت الافكار والاشكال التي خلقتها ندتها الاكثر تقدما **ومهما يكن من شيء ، فهي تعدلها او تمضي بها قدما ، او تتخلف عنها ، وهو ما يتوقف على الفارق في اوضاعها الخاصة وفي اوضاع الطبقة التي زودتها بالقدوة**

**ولقد رأينا من قبل ان للبيئة الجغرافية تأثيرا هاما في تطور الشعوب التاريخي.** ونحن نعرف الان انه ربما كان **للعلاقات الدولية** تاثير اعظم من ذلك في هذا التطور ويفسر التأثير المشترك للبيئة الجغرافية والعلاقات الدولية الفارق الشاسع الذي نصادفه في مصائر الشعوب التاريخية **بالرغم من ان القوانين الاساسية للتطور الاجتماعي هي نفسها في كل مكان .** وهكذا نرى ان الفهم الماركسي للتاريخ البعيد عن كونه ضيقا او متحيزا يفتح امامنا حقلا شاسعا للبحث ولا بد من قدر كبير من العمل الشاق ومن الصبر وحب الحقيقة ، كي نزرع كما ينبغي جزءا ضئيلا جدا من هذا الحقل الذي هو خاصتنا على اي حال لقد تم الحصول عليه، وبوشر العمل من قبل صناع لا نظير لهم ولم يبق امامنا الا ان نواصل العمل

الجيد **وان من واجبنا ان نفعل ذلك اذا كنا لا نريد ان تحول في اذهاننا فكـرة ماركس الرائعة الى شيء (( مضجر )) و (( كئيب )) و (( منفر )) .**

ولقد احسن هيغل حين قال

حين يتوقف التفكير عند **عمومية الافكار** ، كما هي الحال بالضرورة في الفلسفات الاولى ( مثلا في الوجود لدى المدرسة الاليائية ، **وفي الصيرورة** عند هيراقليطس الخ )، فان **الصورية** تؤخذ عليه بحق ولقد يحدث ان تكون موضوعات وتعريفات مجردة فحسب موضع التصور ايضا في فلسفة **اكثر تطورا** **وهي** تتكرر ليس غير ؛ مثلا ان جميع الاشياء واحدة في المطلق وان الذاتي الموضوعي متماثلان ، **وذلك في** أي اعتبار للخصوصي*

ولقد تؤخذ علينا بحق مثل هذه الصورية لو اننا اقتصرنا ، بخصوص أي مجتمع معين على ترديد ان **تشريح هذا المجتمع متأصل في اقتصاده** . هـذا امر لا جدال فيه لكنه لا يكفي ؛ ان الفكرة العلمية يجب أن **توضع** موضع الاستعمال العلمي وان من واجب المرء ان يعي جميع هذه الوظائف الحيوية لتلك العضوية التي ترتهن بنيتها التشريحية بالاقتصاد ؛ ان من واجب المرء ان **يفهم** كيف تتحرك وكيف تتغذى، وكيف **تصبح ما هي عليه تلك الاحاسيس والمفاهيم** التي تنشأ فيها **بفضل تلك البنية التشريحية** وكيف تتغير يدا بيـد مع التغيرات **الجارية في** هذه البنيـة وهكذا دواليك اننا لا نستطيع ان نتقدم الا بهـذا **الشرط** ، كما لا يمكننا ان نثق بهـذا الشرط الا اذا تقيدنا به

وغالبا ما يرى الناس في الفهم المادي للتاريخ **عقيدة** تنادي باخضاع الانسان لنير ضرورة عمياء لا تعرف الرحمة **ليس ما هو اشد خطلا** من هذه الفكرة ان الفهم المادي للتاريخ هو الذي يبين للناس الطريق التي ستقودهم **من مملكة الضرورة الى مملكـة الحريـة .**

وفي حقل الاخلاق يتبين ان البورجوازي الصغير ــ **هذا الانتقائي** par excellenee هو (( **المثالي** )) دائما وبقدر ما يتشبث بمزيد **من العناد** « **بمثله** الاعلى يزداد شعور عقله بالعجز أمام **النثر الكئيب للحياة الاجتماعية** ان هذا العقل لن ينتصر قط على الضرورة الاقتصادية وذلك المثل الاعلى سوف **يبقى** ابـدا مثلا اعلى ولن يتحقق قط طالما ان له (( **وجودا خاصا به لكنه وجود غير مستقل** )) ، وذلك لعجزه عن الخروج من خلف حاجزه ان لدينا من **الجانب** الواحد الروح والمثـل الاعلى والكرامـة الانسانية والاخاء وما شابه ، **ومن** الجانب الآخـر المـادة والضرورة الاقتصادية . والاستثمار ، والخصومة ، **والازمات** ، والافلاسات وخيبة الامل العمومية والمتبادلة وان المصالحة بين هاتين **الملكتين** مستحيلة ان الماديين الحاليين **يستطيعون ان ينظروا الى مثل هذه (( المثالية الاخلاقية )) بكل ازدراء** ، فهم

* **الموسوعـة** ، القسم الاول ، الفقرة ١٢

يملكون فكرة اسمى بما **لا يقاس** عن سلطان العقل البشري وصحيح ان هذا العقل يتقدم في تطوره بفضل الضرورة الاقتصادية لكن **هذا هو** بالضبط السبب في ان **المعقول يصبح فعليا** ، وتحقيق هـذا الغرض يتـم بقوة الضرورة الاقتصادية التي لا تقـاوم

لقد ردد فلاسفة القرن الثامن عشر حتى التقزز ان العالم يسوده الراي العام وهو السبب في عجز اي شيء عن الوقوف ضد العقـل الذي هو على صواب دائما في آخر الامر وعلى اي حال فان هؤلاء الفلاسفة بالذات غالبا ما عبروا عن **شك كبير بشأن قوة العقل** ، ومثل هذا الشك ينبثق بصورة منطقيـة من مظهر آخر لنظرية تميز اولئك « الفلاسفة فما دامت الاشياء جميعا وقف على « **الشارع** » فان هذا الاخير اما ان يمكن العقل من الانتصار واما ان يطفىء شعلته. وبالتالي فان جميع الاشياء متوقعة من الشارع وفي اغلب الاحوال لا يبدي السارعون والعاهلون الذين يتحكمون في مصائر شعوبهم الا اهتماما هزيلا جـدا بانتصار العقل وهو السبب في ان منظورات هـذا العقـل باتت ضئيلة بصورة لا متناهية ولا يبقى امام الفيلسوف الا ان يعتمد على **الحظ** الذي سوف [illegible] السلطة عاجلا او آجلا بين يدي « **عاهل** » يتخذ من العقل موقفا ودا ونحن نعرف من قبل ان هيلفيسيوس اعتمد بالفعل على مثل هذا الحظ السعيد وحـده لنر ما لدى فيلسوف آخر من العصر نفسه من اقوال في هذا الموضوع

> المبادىء **الاوضح** هي في الاغلب المبادىء الاكثر عرضة للنزاع فيها تكافح عند الناس **الجهل** ، والسذاجة ، والعناد والعادة ، والغرور ، وباختصار مصلحة الكبار وبلاهة الناس **الذين** تبقيهممتشبثين بأنظمتهم القديمة ان الخطأ يدافع عن ارضه شبرا شبرا **ولا** يتمكن المرء الا بالنضال والمثابرة ينتزع منـه اضأل انتصاراته ولا تحسبن لذلك السبب ان الحقيقة عديمة الجدوى اذا ما زرعت بذرتها مرة استمرت في الحياة ، وسوف تثمر في اوانها وهي تنتظر الظروف التي سوف تتيح لها النمو مثلها في ذلك كمثل البذور التي تظل مدفونة في الارض زمنا طويلا قبل بروزها وان الحقيقة لتعطي الثمار التي يحق للمرء توقعها منها عندما يحكم الامم عاهلون مستنيرون تتعب الامم في آخر الامر من البؤس والكوارث التي لا حصر لها المسببة عن اخطائها تحمها الضرورة اذن على الاستنجاد بالحقيقة التي تستطيع وحدها تحميها ضد الكوارث التي عانت طويلا منها بسبب خيبات الامل والاوهام*

ان لدينا هنا نفس الايمان « **بالعاهلين المستنيرين** » ونفس الشك في سلطـة العقل قارنوا مع هـذه الامال العقيمة والخجولة الايمان الراسخ الذي يبديه

---

* **دراسات في المستبقات وتأثير الآراء في العادات وفي سعادة البشر ، الخ** ليبج ١٧٩٧ ص ٣٧ وينسب هـذا الكتاب الى دولباخ او الى المادي دومارسيه الذي يرد اسمه في الصفحـة الاولى من الكتـاب

ماركس القائل انه لم يكن قط ولن يكون قط عاهل قادر على ان يمنع بصورة فعالة تطور قوى شعبه المنتجة وبالتالي **تحرره من نير المؤسسات البالية** ، ومن بعد اخبروني من يملك الايمان الاعظم بقوى العقل ونصره الاخير ان لدينا من الجانب الواحد « **ربما** » حذره ومن الجانب الآخر ثقة راسخة كتلك الثقة التي نحصل عليها من البراهين الرياضية

ما كان في مكنة الماديين ان يضمروا الا ايمانا جزئيا بالههم العقل نظرا لان هذا الاله يصطدم ابدا في نظريتهم . بالقوانين الفولاذية للعالم المادي . **بالضرورة** العمياء ويقول دولباح يبلغ الانسان نهايته دون ان يكون حرا لبرهة واحدة ابتداء من ولادته وانتهاء بموته* وكان لا بد للمادي ان يقدم هذا التأكيد نظرا لان بريستلي كان يرى ان « مذهب الضرورة هو النتيجة المباشرة لمذهب مادية الانسان ذلك ان الالية هي العاقبة غير المشكوك فيها للمادية** لكنه لم يكن في مستطاع المرء الا ان يكون قدريا حتى اتضح ان هذه **الضرورة** يمكن ان تؤول الى **حريـة** الانسان ان جميـع الاحداث مترابطة فيما بينهـا هذا ما يقولـه **هيلفيتيوس** . ان غابة تقطـع اشجارها في الشمال تغير اتجـاه الريح ، وحالـة المحاصيل والفنون في البلاد ، واعرافها وحكومتها ويتحدث دولباح عن العواقب التي لا يمكن حسبانها والتي يمكن ان تسببها لمصير أي بلد حركة ذرة واحدة في عقل طاغية ولم تمض حتمية « الفلاسفة الى ابعد من ذلك في فهم دور الضرورة في التاريخ وهو السبب في ان التطور التاريخي كان بالنسبة اليهم خاضعا للحظ ، هذا النقد الذي خدم من حيث هو فكة **الضرورة** . وظلت الحرية شيئا معارضا للضرورة فيما كانت المادية كما اشار **ماركس** الى ذلك ، عاجزة عن فهم **النشاط الانساني** ولقد رأى المثاليون الالمان بكل وضوح هذا الجانب الضعيف من المادية الميتافيزيائية لكنهم لم يتمكنوا من جمع الحرية والضرورة الا بفضل الروح المطلق، يعني بفضل وهم خالص ولقد وقع الماديون المعاصرون لهم من طراز موليشوت في تناقضات ماديي القرن الثامن عشر وكان ماركس الوحيـد الذي تمكن في اعتباره « **للممارسة الانسانية** » ، من تحقيق المصالحة بين العقل و الضرورة » دون ان يرفض لحظة واحدة نظرية « **مادية الانسان** » ان الجنس الانساني

> لا يضع ابدا نصب عينيه سوى تلك المهمات التي يسعه حلها ما دمنا سنتبين دائما حين نمعن النظر في الامر ان المهمة نفسها لا تنشأ الا حين تكون الشروط المادية لحلها قد توفرت مسبقا او هي على الاقل في سبيل التكون***

---

* **الحس السليم المستقى في الطبيعة** ، الجزء الاول ، ص ١٢٠

** بريستلي **مناقشة حرة لمذاهب المادية** ، الخ ، ص ٢٤١

*** **في نقـد الاقتصاد السياسي** ، ص

لقد راى **الماديون الميتافيزيائيون** الضرورة **تخضع الناس لها** ( (( **ان غابة تقطع اشجارها ...** الخ ) ، اما **المادية الجدلية** فتبين كيف سوف **تحررهم** الضرورة

ان علاقات الانتاج البورجوازية هي الشكل الاخير المتضاد لعملية الانتاج الاجتماعية — وليس هو متضادا بمعنى التضاد الفردي ، بل بمعنى التضاد المنبثق عن الشروط الاجتماعية لحياة الافراد — والقوى الانتاجية النامية في احشاء المجتمع البورجوازي تخلق في الوقت نفسه الشروط المادية من اجل حل ذلك التضاد ، وبالتالي فان هذا التشكيل الاجتماعي يقود ما قبل تاريخ المجتمع البشري الى خاتمته*

وبالرغم مما يزعم عن قدرية نظرية ماركس فهي نظرية وضعت حدا للمرة لاولى في تاريخ العلم الاقتصادي **لصنمية** رجال الاقتصاد التي كانوا يفسرون وفقا لها المقولات الاقتصادية — القيمة التبادلية ، والمال والرأسمال — بطبيعة الاشياء المادية وليس بطبيعة العلاقاتبين الناس في عملية الانتاج**

ولا نستطيع ان نعرض هنا ما فعله ماركس من اجل الاقتصاد السياسي ، لكننا نقصر على الاشارة الى انه استخدم في هذا العلم الطريقة عينها واتخذ في معالجة الاقتصاد السياسي نفس الموقف الذي اتخذه في تفسيره للتاريخ — موقف علاقات الناس في عملية الانتاج وبالتالي فان في مقدور المرء ان يكوّن حكما على المستوى الذهني لاولئك الناس — وهم كثرة في روسيا الحالية — الذين يقرون نظرية ماركس الاقتصادية لكن (( **يرفضون** )) آراءه التاريخية

---

* **المصدر نفسه** ، ص

** ان ما يبين ، بين العديد من الاشياء الاخرى ، الوهم الذي يصيب معظم الاقتصاديين بسبب من الصنمية اللاصقة بالبضائع ، او بسبب من الظاهر الموضوعي لصفات العمل الاجتماعية ، هو خصامهم الطويل السفه حول دور الطبيعة في خلق القيمة التبادلية ولما لم تكن هذه القيمة التبادلية سوى طريقة اجتماعية معينة للتعبير عن مقدار العمل المهرق في انتاج حاجة ما فليس للطبيعة علاقة بها اكثر مما لها من تأثير في تعيين مجرى المبادلة

ان نمط الانتاج الذي يتخذ فيه المنتج شكل البضاعة او يصير انتاجه في سبيل المبادلة مباشرة هو الشكل الاشمل والابسط للانتاج البورجوازي وهو بالتالي يظهر في مرحلة مبكرة من التاريخ وان يكن بصفة اقل تميزا وسيادة منه في الايام الراهنة ولذا كان من السهل رفع اللثام عن صفته الصنمية لكن حين ننتقل الى اشكال حسية ، فان هذا المظهر للبساطة يتلاشى هو نفسه من اين تأتي اوهام النظام النقدي ان الذهب والفضة بالنسبة اليه حين يخدمان من حيث هما نقد ، لا يمثلان علاقة اجتماعية بين المنتجين بل هما شيئان طبيعيان يتحليان بصفات اجتماعية غريبة ؛ والاقتصاد الحديث الذي ينظر بكل احتكار الى النظام النقدي ألا تظهر أوهامه واضحة مثل نور النهار كلما عالج الرأسمال ؟ وكم مضى من الزمن منذ اشاح الاقتصاد عن وهم الفيزيوقراطيين القائل ان الريع ينشأ من التربة وليس من المجتمع ( **رأس المال** ، الكتاب الاول ، ص ٥٢ — ٥٣ (٦٢) ) .

ان كل من فهم ما تعنيه **الطريقة الجدلية** لمادية ماركس يستطيع كذلك ان يكّون حكما على الاهمية العلمية لما يظهر من وقت لآخر من حجج فيما يتعلق بالطريقة التي استعملها ماركس في **رأس المال** ـ الاستقرائية أو الاستنباطية

ان طريقة ماركس استقرائية واستنباطية **في وقت واحد** والاكثر من ذلك انها الطريقة الاكثر ثورية من بين جميع الطرق التي استخدمت في يوم من الايام يقول ماركس

« لقد اصبحت الجدلية في شكلها الصوفي زيا المانيا لانها كانت فيما يبدو تمجد الاوضاع القائمة اما في شكلها العقلاني فهي فضيحة وشيء بغيض بالنسبة الى مملكة البورجوازية ومفكريها المذهبيين ، لانها تتضمن في تفهمها للاوضاع القائمة واعترافها بها الاقرار بانكار هذه الاوضاع في الوقت نفسه ، الاقرار بدمارها المحتوم ولانها تنظر الى كل شكل اجتماعي متطور تاريخيا في حركته المائعة وبالتالي تأخذ بعين الاعتبار طبيعته الانتقالية ووجوده المؤقت على حد سواء ولانها لا تلتزم بأي شيء او تخضع لاي شيء ، فهي بحكم جوهرها نقدية وثورية معا*

ان دولباخ ، وهو احد الممثلين الاكثر ثورية للفلسفة الفرنسية في القرن الماضي ، قد ذعر امام التسابق على الاسواق التي لا تستطيع البورجوازية حياة بدونها ولقد كان يوقف بكل طيبة خاطر التطور التاريخي في هذا الاتجاه اما ماركس فرحب بهذا التسابق على الاسواق ، هذا التلهف الى الارباح ، على اعتباره قوة مدمرة للنظام القائم وعلى اعتباره شرطا مسبقا لتحرر الانسانية

ولا تستطيع البورجوازية سبيلا الى الوجود دون ان تدخل تغييرات ثورية مستمرة على أدوات الانتاج ، وبالتالي على علاقات الانتاج ومعها العلاقات الاجتماعية بأسرها وعلى العكس من ذلك ، كانت المحافظة على أساليب الانتاج القديمة دون أي تبديل الشرط الاول لحياة سائر الطبقات الصناعية السالفة فهذه الانقلابات الثورية المستمرة في أساليب الانتاج وهذا التزعزع غير المنقطع في النظام الاجتماعي بأسره وهذان القلق والاضطراب الدائبان تميز جميعا عصر البورجوازية من العصور السالفة كلها فان سائر العلاقات الاجتماعية المتوازنة الجامدة المتجمدة وما تجره وراءها من مواكب الاوهام والافكار القديمة المبجلة تكنس وتندثر أما التي تحل محلها فتشيخ ويتقادم عهدها قبل أن يصلب عودها ويتعظم وكل ما هو متين ثابت يذهب هباء منثورا وكل ما هو مقدس يدنس ، والبشر قد اجبروا اخيرا على مواجهة شروط وجودهم وعلاقاتهم المتبادلة بعيون تيقظت وسقط غشاء الوهم عنها

وتجتاح البورجوازية الكرة الارضية بأسرها ، تحثها الحاجة الى الاسواق الجديدة دائما ينبغي لها ان تنفذ الى كل مكان ، وان تقيم في كل مكان وأن تخلق في كل مكان مواصلاتها

---

* **رأس المال** ، الكتاب الاول ، المجلد الثالث ، ص ق (٦٣) .

« وتضفي البورجوازية ، باستثمار السوق العالمية صبغة كوسموبوليتية على انتاج سائر البلدان واستهلاكها لقد نزعت عن الصناعة أساسها القومي **الامر الذي** يثير يأس الرجعيين ان الصناعات القومية قد دمرت ، **أو هي على وشك الدمار ويحل محلها صناعات جديدة** يصبح ادخالها مسألة حيوية بالنسبة الى سائر الامم المتمدنة صناعات **ما** عادت تستعمل مواد اولية وطنية ، بل مواد اولية آتية من البلدان الابعد بينما منتجاتها **لا** تستهلك في البلد نفسه فحسب بل في سائر ارجاء الكرة الارضية

حاجات جديدة تولد مكان الحاجات القديمة التي كانت المنتجات الوطنية تكفيها حاجات تتطلب لارضائها منتجات المناطق والاقاليم الاكثر بعدا وتنمو تجارة بيع وشراء عمومية مع قيام صلات شاملة للامم مكان الانفصال القديم للمقاطعات والامم المكتفية بذاتها وان ما ينطبق على الانتاج المادي يطبق على **الانتاج الفكري** فآثار هذه الامة تصبح ملكا مشتركا بين سائر الامم بينما الضيق الفكري والانطواء يزدادان استحالة يوما بعد يوم بالنسبة الى كل أمة ويتشكل من مختلف الآداب الوطنية والمحلية أدب عالمي*

حين ثار الماديون الفرنسيون ضد **الملكية الاقطاعية** مجدوا الملكية البورجوازية التي اعتبروا انها الروح الباطن لاي مجتمع بشري انهم لم يروا سوى مظهر واحد من المسألة معتبرين الملكية البورجوازية ثمرة لمجهود الملاك نفسه ولقد بين ماركس الام تؤول الجدلية الملازمة للملكية البورجوازية

« ان الثمن المتوسط للعمل المأجور هو الحد الادنى للاجر **يعني مجموع وسائل** المعيشة الضرورية كل الضرورة للعامل كي يعيش كعامل فما يمتلكه العامل المأجور بجهده يساوي فحسب ما يلزمه بالضرورة للاحتفاظ بوجوده الهزيل وتكثير نوعه ولكن الملكية الخاصة قد سبق فزالت في مجتمعكم القائم بالنسبة الى تسعة اعشار السكان واذا كانت الاقلية تتمتع بالملكية الخاصة فما سبب ذلك الا حرمان الاعشار التسعة الباقية منها**

مهما بلغت ثورية الماديين الفرنسيين فهم لم يتوجهوا سوى الى **البورجوازية المستنيرة** والى النبلاء (( **المتفلسفين** )) الذين تحولوا الى معسكر البورجوازية لقد كانوا يخافون خوفا قاتلا من « الرعاع » ، من « الشعب » ، من (( **الحثالة الجاهلة** )). لكن **البورجوازية** لم تكن وما كان يمكن ان تكون الا **نصف ثورية** ولقد توجه ماركس الى **البروليتاريا** ، **وهي طبقة ثورية بكل معنى الكلمة**

---

* **بيان الحزب الشيوعي** ، الفصل الاول

** **البيان الشيوعي** ، الفصل الثاني(٦٥) ان قانون الاجور الذي يتحدث ماركس هنا عنه مصاغ بمزيد من الدقة في **رأس المال** حيث يبين انه في واقع الامر اشد ظلما بالنسبة الى البروليتاري ومهما يكن من شيء فان ما ينطق **البيان** به كاف لتدمير الوهم الذي ورثه القرن التاسع عشر عن القرن السابق له ، او بالاحرى **القرون السابقة** له

ان سائر الطبقات التي استولت على السلطة فيما مضى قد حاولت تثبيت أوضاعها المكتسبة باخضاع المجتمع بأسره لاسلوب التملك الخاص بها ولا تستطيع البروليتاريا لاستيلاء على القوى المنتجة الاجتماعية الا بالقضاء على الاسلوب السابق الذي كان خاصا بها وبالقضاء نتيجة ذلك على كل اسلوب سابق للتملك ايضا ان البروليتاريا لا تملك شيئا خاصا بها حتى تصونه وتحميه فرسالتها اذن ان تهدم سائر الضمانات والتأمينات السابقة الخاصة بالملكية الفردية *

كان الماديون في نضالهم ضد النظام الاجتماعي القائم وقتذاك يتوجهون باستمرار الى الاقوياء في هذا العالم الى « **العاهلين المستنيرين** » ولقد حاولوا ان يبينوا لهؤلاء ان نظرياتهم لا تنطوي في جوهرها على ادنى ضرر اما ماركس والماركسيون فيتخذون موقفا مغايرا من « **الاقوياء في هذا العالم** » .

ولا يتدنى الشيوعيون الى اخفاء آرائهم ومقاصدهم ومشاريعهم بل يعلنون بصراحة أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها الا بالقضاء على كل النظام الاجتماعي التقليدي بالعنف والقوة

ألا فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام فكرة الثورة الشيوعية البروليتاريين لن يفقدوا فيها سوى اغلالهم لهم عالما يربحونه**

ومن الواضح تماما ان مثل هذه النظرية لا يمكن ان تلقى الترحيب من الاقوياء في هذا العالم لقد اضحت البورجوازية اليوم طبقة رجعية وهي تعمل على « **اعادة عجلة التاريخ الى الخلف** » ، وايديولوجيوها عاجزون حتى عن فهم الاهمية العلمية الهائلة التي تتحلى بها اكتشافات ماركس بيد ان البروليتاريا هي التي تستخدم اذن نظريته التاريخية كأفضل مرشد في نضالها في سبيل التحرر

ان هذه النظرية التي تخيف البورجوازية بقدريتها المزعومة تبث في البروليتاريا قوة حدود لها ولقد قال بريستلي فيما قاله ، في دفاعه عن عقيدة الضرورة » ضد الهجوم الذي شنه برايس عليها ما يلي

لم اقل شيئا عن نفسي ومن المؤكد على أي حال اني لست اشد الحيوانات جميعا خمولا وبلادة فاين عساه يجد حمية دهنية اعظم واندفاعا اشد قوة ومثابرة ، او ملاحقة اشد اتقادا وثباتا لاعظم الاغراض منه بين اولئك الذين يعرف انهم انصار الضرورة***

كان بريستلي يقصد معاصريه الانكليز انصار الضرورة المسيحيين(٦٨) الذين نسب اليهم ذلك النوع من الحمية مصيبا او مخطئا لكن تحدثوا قليلا الى السادة بسمارك وكابريفي وكريسبي أو كازيمير بيريه وسوف يخبرونكم بالمعجزات عن نشاطات وجهود اولئك الضروريين القدريين في عصرنا الراهن ـ **العمال الاشتراكيين الديمقراطيين**

---

* **البيان الشيوعي** ، الفصل الاول

** **البيان الشيوعي** ، الفصل الرابع

*** **الدكتور بريستلي** ، المؤلف المذكور ص ٢٩١

# بضع كلمات دفاعا عن
# المـاديـة الاقتصاديـة
# ( رسالة مفتوحة الى ف٠أ٠ غولتسيف )

سيدي

لقد نشرت مقالتك عن المادية الاقتصادية* في عدد نيسان من **الحيـاة الروسية**(٦٩) ومما لا ريب فيه انها سوف تثير مناقشة طويلة وحامية لدى القسم الارهف من قرائنا ونظرا لان هيئـة تحرير **الحياة الروسية** لا تضع شيئا فوق مصالح الحقيقـة فاني على ثقـة من انها لن ترفض نشر بعض الاعتراضات على مقالتك من جانب رجل يعلق هو الآخر اهمية عظيمة على الحقيقة

يمكن تقسيم مقالتك الى قسمين تقدم في احدهما تقديرا نظريا عاما عن عقيدة الماديين الاقتصاديين وتأخذ بين الاعتبار في ثانيهما هذه العقيدة في تطبيقها على [illegible]ع الروسية ولا بد لي من الاعتراف ، يا سيدي باني وجدت نقدك النظري للماد[illegible] الاقتصادية غير موفـق نوعا مـا فالاعتراضات التي رفعتها ضدها غالبا ما رد نصارها عليها ومثال ذلك انك لو قرأت بشيء اكثر من الاهتمام كتاب بلتوف **تطور النظرة الاحادية عن التاريخ**(٧٠) لما رفعت الكثير من اعتراضاتك لانك كنت ستجد في ذلك الكتاب ردا كاملا على خير وجه عليها

وفي رأيي ان مقالتك باعثة على الاهتمام بل بارزة لكنها ليست كذلك في نقدها المادية الاقتصادية بل في الطريقة التي تطرح بها العديد من قضايانا العملية مما يترتب عليه ان المساجلة المريرة التي هزت لسنوات عديدة القراء عندنا يمكن الاقتراب بها كثيرا من نهايتها ولقد كنت اقتصر بكل طيبة خاطر في هذه الرسالة على المظهر الاخير من المسألة اعني المظهـر العملي لكني اخش ان تفسر آرائي بصورة مغلوطة ما لم تضف اليها بعض الملحوظات من طبيعة عامة وهو السبب في اني سوف ابدأ بهذه الملحوظة العامة

---

* الاصح ان يقال المادية الجدلية ، لكني لا احب الدخول في مناقشة بشأن المصطلحات هنا .

انت ترى من المحال اشتقاق اجمال الحياة الثقافية والتاريخية من علاقات الانتاج وحدها وانت « **تعترف بالعامل الذهني في التطور التاريخي من حيث هو عامل مستقل** » ههنا يقوم « اعتراضك الرئيسي على المادية الاقتصادية

لنتوقف قليلا عند هذا الاعتراض الرئيسي

انت تعود الى فوستيل دي كولانج الذي يرى ان الدين المبكر عند الاغريق والرومان هو الذي انشأ الحياة العائلية والزواج والسلطة الابوية عندهم وقرر درجات القرابة ومجد الملكية والحقوق الوراثية(٧١) واني اعرف هذا الرأي لفوستيل دي كولانج لكني اعتقد انه مغلوط تماما ومناقض للنتائج الاثبت التي لا جدال فيها والتي نوصل اليها العلم الاجتماعي الراهن وانا لست وحدي في هـذا الاعتقـاد

فحين صدرت الطبعة السابعة للكتاب الذي تستشهد به بقلم فوستيل دي كولانج في باريس عام ١٨٧٩ نشر الاستاذ اوورت من جامعـة ليدن اعتراضا هاما عليه في مجلـة Teolog,sche Tijdschrift.ولقد رفض اوورت الفكرة القائلة ان الحياة العائلية في العصور القديمة كانت مرهونة بالمعتقدات الدينية المبكرة وذلك على اعتبارها فكرة مغلوطة كليا ان العكس هو الصحيح فحين ظهرت الحياة العائلية كرسها الدين وينطبق الامر نفسه على ميدان حياة الدولة لقـد كرس الدين الوضع القائم وحافظ عليه واخيرا ، فان الامر نفسه يشاهد في القانون الخاص فهنا ايضا منح التفكير الديني تكريسه للمؤسسات التي لم تنشأ في حال من الاحوال بتأثيره ويشير اوورت بطريقة عابرة الى ان فوستيل دي كولانج اضطر في البحث نفسه الى تعديل موضوعته الاساسية انه يقر بأن الثورات التي دمرت الجماعة المدنية في العصور القديمة لم تنشأ عن تطور التفكير الديني الوثني بل عن اسباب خارجة عن هذا التفكير وبالخاصة **صراع المصالح المادية** ( اسميه الصراع الطبقي ) ضمن المجتمع القديم وهذا صحيح تماما ، وهو يتضح من اعادة مطالعة الكتاب الرابع من المؤلف نفسه الذي وضعه فوستيل دي كولانج وبالذات الصفحات الاولى منه التي تستشهد بهـا يا سيدي في مقالتك وصحيح ان فوستيل دي كولانج الذي نسب الى الصراع الطبقي دورا بالغ الاهمية في التاريخ الداخلي لليونان وروما حاول ان يبرهن على ان الطبقات المتنازعـة نفسها تدين بأصولها الى الديانات الباكرة لذينك البلدين بيد ان هذه المحاولة بالذات هي التي تبين بأجلى الوضوح مبلغ النقص والخطل في الآراء التي ينادي بهـا هذا الدارس للتاريخ الذي كان بالغ الجدية من وجهات نظر اخرى ) بخصوص تطور المؤسسات البدائية في عالم العصور القديمة واذا شئت يا سيدي ان تتحقق من كلامي فاني اسألك ان تقارن بين الكتاب الرابع من **المدينة القديمة** والفصول المناسبة من كتاب مورغان **المجتمع القديم** ، او على الاقل من كتاب لوتورنو **تطور الملكية** .

ولقد ترجمت مقالة اوورت الى الفرنسية ونشرت في المجلة الباريسية **مجلة تاريخ الاديان** ( السنة الثانية ، المجلد الثالث مع تعليق محبذ من هيئة التحر
**واذا لم اكن مخطئا** يا سيدي فان **هذه الواقعة** تبين ان الراي الذي ينادي به فوستيل دي كولانج والذي استشهدت به لا يشاطره فيه الكثيرون من الخبراء في تاريخ الاديان

وبالفعل كيف يمكن للخبراء ان يشاطروا في هذا الراي ؟ من ذا يخطر في باله اليوم ان يسمي **اولية** الاديان الاغريقية والرومانية التي يتحدث عنها فوستيل دي كولانج ؟ ان هذه الاديان الاولية المزعومة لها تاريخها الطويل الخاص الذي لا يمكن فهمه حتى بصورة تقريبية الا اذا تحلينا عن الراي الاساسي لفوستيل دي كولانج ونظرنا الى الدين القديم على اعتباره حصيلة التطور الداخلي للمجتمعات القديمة

وعلى العموم فلن يكون من قبيل المبالغة ان نقول انه ليس هناك على وجه التقريب مؤرخ جاد واحد يقبل اليوم براي فوستيل دي كولانج دون التحفظات الاشد جزما وجوهرية

ومثال ذلك ان امامي مؤلفا بقلم فكتور دوروي **تاريخ الرومان** حيث اجد في الصفحة ٧٦ من المجلد الاول المنشور عام ١٨٧٧ الكلمات التالية

> قبل غزو الافكار الاغريقية والشرقية كان الدين في ايطاليا القدي بسيطا وقائما على اساس الحاجات اليومية على فلاحة الارض وعلى انطباعات الدهشة والعجب التي تستثيرها تلك الطبيعة الجميلة والمتغيرة كان دينا ريفيا بصورة جوهرية* وكانت آلهة ايطاليا حراسا للملكية والاخلاص الزوجي والعدالة وحماة للزراعة ومانحين لجميع البركات الارضية ، وسادة لافعال البشر الخ**

---

* اشار دوروي في ملحوظة الى التقويم الروماني ما كان يعرف اية احتفالات اخرى غير تلك الاحتفالات المرتبطة بفلاحة الارض

** نصادف ايضا الرأي نفسه بخصوص الديانة « الاولية للرومان عند تييل الذي كان يملك معرفة بارزة عن تاريخ الاديان كانت ديانة سكان روما الاقدم ديانة الرعاة والفلاحين بعد ( **كتاب تاريخ الاديان** ترجمه عن الهولندية موريس فير باريس ١٨٨٠ ص ٢٥٦ [ الفقرة بالفرنسية في الاصل الروسي ]

ان الديانة الرومانية تبين بأعظم الوضوح كيف وبأية درجة كانت الديانة الباكرة انعكاسا لحاجات البشر الاولين ونشاطاتهم ويقول تييل كان في عالم الروح ممثلون خصوصيون ليس لكل ظرف من ظروف الحياة الاجتماعية فحسب بل لكل عملية زراعية ايضا من حراثة وبذار ، وحصاد، وحتى فتح مخازن الحبوب المصدر نفسه ٢٥٢ [ الفقرة بالفرنسية في النص الروسي ]

بل لقد كان حتى للعملة النحاسية في روما الهها الخاص روحها الحارسة الذي سمي **اسكولاموس** وحين طبقت العملة الفضية حوالي منتصف القرن الثالث قبل العصر المسيحي فما

اسمح لي أن أسألك ، يا سيدي ، ما اذا كانت آراء دوروي تشبه آراء فوستيل دي كولانج ؟ واي راي هو الذي تعتبره الراي الاصح ؟ هل ظهرت الزراعة والحاجات اليومية المواكبة لها واشكال الحياة كما هي موجودة عند سكان ايطاليا القدامى نتيجة لديانتهم الباكرة التي كانت « **ريفية بصورة جوهرية** » ام ان هـذه الديانة الباكرة الريفية بصورة جوهرية هي على النقيض من ذلك حصيلة اسلوب زراعي في الحياة ؟ انه ليبدو ان مجرد طرح هذا السؤال يقدم الجواب في الحال دون ان يترك ادنى مجال للشك فاذا كان الدين هو الذي حدد الحيـاة الاجتماعية لسكان ايطاليا القدماء فلا يمكن ان نفهم البتة السبب في ان هذا الدين كان زراعيا ولم يكن من اي نوع آخر ام لعلك تعتقد ان ذلك حدث من جراء قوانين نوعية خاصة بالتطور « **المستقل** » للتفكير الديني الوثني ؟

وصحيح ان الآلهة الوثنية لايطاليا القديمة لم تكن ، في راي دوروي ، حراسا للزراعة فحسب ، بل للملكية والاسرة والاخلاص الزوجي والعدالة ايضا وبالتالي ففي مقدور المرء ان يقول ـ في مقدور المرء ان يقول أي شيء يا سيدي ـ انه اذا لم تكن الزراعة وحاجاتها قد خلقت من قبل الديانة الباكرة في ايطاليا ، فان مفاهيم الايطاليين القدماء عن الملكيـة والاسرة والاخلاص الزوجي والعدالة تدين بأصلهـا للديانة الباكرة وبهـذا المعنى خضعت في تبدلاتهـا لقوانين التطور الذهني المستقل

ان مثل هذه الآراء تجد صداها سريعا في بلادنا اليوم حيث وضع الكثيرون من الناس الاكثر او الاقل تقدمية نصب اعينهم ان يدحضوا الماديين الاقتصاديين الذين يزعم انهم يستهدفون احياء « الميتافيزياء » المثالية لهيغل الا انه من المؤسف الا تكون مثل هذه الآراء سوى مجرد تعديل للراي الذي نادى به هيغل هذا بالذات عن التطور الذاتي للمفاهيم عامة والمفاهيم القانونية خاصة وهكذا فان الهيغلي الشهير هانس يرى ان الانظمة المفردة للقانون الايجابي هي لحظات مفردة

---

أن اعطيت الروح الحارسة للعملة النحاسية ابناهو ارجانتينوس ( تييل ، المصدر نفسه ص ٢٥٣ لكني أؤكد ان الديانة **الابكر** ، **بهذا المعنى الاخير** كانت **الاحيائية عند القبائل البدائية من القنـاصة** ولم تمارس أي تأثير في سلوك البشر **الاجتماعي** ، وذلك لهذا السبب البسيط اذ **لم تكن لها ايـة علاقـة بالاخلاق الاجتماعيـة** انظر بهـذا الخصوص ادوارد ب تايـلور Anthropology لندن ١٨٨١ وكذلك كتابه **الحضارة البدائية** ، المجلد الاول ، ص ٤٩٥ ) [ يستشهد بليخانوف بالترجمة الفرنسية لكتاب تايلور **الحضارة البدائية** وكذلك بكتاب أ ريفيل **اديان الشعوب غير المتحضرة** ، باريس ١٨٨٣ المجلد الثاني ص ٢٥٣ ] ونظرا لهذا كله ، فلا اساس لدينا كـي نضم ديانة الشعوب البدائية في عداد « **العوامل** » في تطور المجتمع البدائي وهذا ما يغيب في الاغلب عن انظار السوسيولوجيين(٧٢) .

في تطور الفكرة القانونية الشاملة التي تتطور باستمرار متقدمة ابدا بصورة تتفق مع القوانين الازلية وان واجب العلم يستقيم في دراسة كل من هذه اللحظات وبديلها الضروري ولا يشاطر الماديون الاقتصاديون في هذا الرأي وهو الرأي الذي كان هيغل يقدره عاليا جـدا فيما مضى ومثله هانس وغيره من المثاليين المشابهين . كما نقدره جدا في ايامنا الحاضرة الخصوم الروس عندنا « للميتافيزياء الهيغلية فالماديون الاقتصاديون يعتقدون ان المفاهيم الشرعية تتطور **ليس من تلقاء ذاتها** بل بتأثير العلاقات المتبادلة التي تقوم بين المنتجين تحت ضغط الضرورة الاقتصادية ويقول رودبرتوس ان الفكرة القانونية سارت طويلا يدا بيد مع الضرورة الاقتصادية أكان على حق يكفي ان نتذكر تاريخ العائلة البدائية لنرى انه لم يكن مخطئا

ان واحدا من امرين ممكن اما ان تكون المؤسسات القانونية في بلد ما متفقة مـع حاجاته الاقتصادية واما الا تكون متفقـة معهـا لندرس كـلا من هاتين الامكانيتين بصورة منفصلة

اذا كانت المؤسسات القانونية في بلد ما متفقة مع حاجاته الاقتصادية يعني بصورة ادق مع نمط الانتاج السائد فيه ، فلا بد ان ينشأ السؤال التالي بالضرورة ما الذي جاء بهذا الاتفاق ؟ وان اجوبة مختلفة عليه ممكنة بالطبع

فقد يقول المرء ما يلي

ان المؤسسات القانونية لبلد ما تتفق مـع نمط الانتاج السائد فيه لانها هي **نتيجة وتعبير** عن الحاجات والعلاقات الاجتماعية التي لا بدّ من نشوئها في ظل نمط الانتاج المعين ان نظاما مناسبا من القانون الايجابي يعني نظاما يتفق مع نمـط الانتاج هو مجرد نتيجة للمؤسسات القانونية التي اصبحت **غير مناسبة** ، بحيث فقدت حيويتها وجعلت تضمحل بصورة تدريجية او قد الفيت بعد صراع اكثر او اقل امتدادا وعنادا بين المدافعين عن النظام القديم وخصومه ان المؤسسات القانونية التي هي مناسبة بالمعنى المحدد اعلاه تشكل اساسيا لوجود المجمعات البشرية وهذا هو السبب في ان هذه المجتمعات تسعى باستمرار لانشاء مثل هذه المؤسسات المناسبة بالرغم من ان التوازن الذي تحققه يضطرب باستمرار من جراء تطور القوى المنتجة ان كل خطوة في هذا التطور تخلق تنافرا جديدا بين انماط الانتاج من جهة واحدة والمؤسسات القانونية من جهة ثانية وعندئذ تقوم صراع جديد بين المحافظين والتقدميين ويحدث جيشان جديد في ميدان القانون ، وهكذا دواليك ، حتى ايامنا الحاضرة ان الفكرة القانونية سارت في كل زمان ومكان يدا بيد مع الضرورة الاقتصادية

هذا ما يقوله الماديون الاقتصاديون*

واعتقد انهم عى صواب مطلق لكن لنفترض انهم مخطئون وان تطورالمؤسسات القانونية هو كما يقول هيغل والهيغليون ، نتيجة ليس غير لتطور **المفاهيم** القانونية. كيف يمكننا في هذه الحال ان نفسر التوافق بين المؤسسات القانونية لبلد ما ونمط الانتاج السائد فيه ؟

ليس علينا في سبيل تفسير هذا التوافق الا ان نفترض وجود تناسق مسبق بين تطور المفاهيم القانونية من جهة واحدة وتطور العلاقات الاقتصادية من جهة ثانية

وقد يبدو هذا في نظرك يا سيدي بيانا جزئيا ولعلك في ساعة غضب تعتبره مفارقة سخيفة الا اني جاد حين اقول ذلك

وبالفعل فان المفاهيم فيما نرى تتطور بطريقة مستقلة وفقا لقوانينها الخاصة، كما ان انماط الانتاج تتطور بصورة مستقلة كذلك ووفقا لقوانينها الخاصة ايضا** فاذا تبين ان نتائج **تطور المفاهيم** في مرحلة معينة تتفق مع نتائج التطور الاقتصادي فلا يسعني ان افسر ذلك الا على اعتباره تناسقا مسبقا او مصادفة محضة وعلى اي حال . فلا يمكن للمصادفة ان تقدم تفسيرا لذلك بحيث لا يبقى لدينا الا التناسق المسبق

ولسوف تقاطعني عند هذه النقطة بصبر فارغ وتعنفني لامر ما اكثر ما يلام عليه في الوقت الحاضر بدون حق الماديون « الاقتصاديون الا وهو النزوع الى الميتافيزياء

---

* يقول الاستاذ ريتشارد هايلدبراندت لا بد من أجل تحديد الاستمرارية التاريخية التطورية او الوراثية تبعية العلاقات القانونية والاعراف التي تنشأ في ازمنة مختلفة بين شعوب مختلفة ومن أجل القدرة على القول ان قانونا معينا او عرفا معينا هو الاكثر بدائية او قدما من قانون او عرف آخر لا بد من مقياس ينشأ من حدود التقويم الزمني او يكون مستقلا عنه كل الاستقلال ويمكن للتطور الاقتصادي يخدم من حيث هو هذا المقياس لان فيه وحده يقوم سياق للتطور محدد بصورة مطلقة سياق هو نفسه دائما في صفاته العامة وهو موجه دائما في نفس الاتجاه الواحد »
Recht und Sitte auf den verschiedenen wrirtseheftlichen Kulturstufln )
ارسرتين ١٨٩٦ المقدمة ص ٣

وعلى اي حال ، فان سياق التطور الاقتصادي في واقع الامر ليس منتظما على الدوام على غرار ما يحسب الاستاذ هايلدبراندت ، لكن تلك مسألة أخرى لا تعنينا هنا واما عن رأيه بخصوص التبعية السببية لتطور القانون والاعراف حيال تطور الاقتصاد فانا عى اتفاق تام معه بالطبع

** ما كان هيغل ليوافق على الافتراض الاخير كان يقول ان انماط الانتاج رهن ايضا بمجرى تطور الفكرة المطلقة . ولكن يا سيدي انت وانا لسنا هيغليين

ولسوف تهتف بأن كل من كانت تلك رغبتـه حر بأن يغوص في مستنقـع الميتافيزياء ؛ ولعل السبيل الوحيد للافلات من ذلك المستنقع هو طريق التناسق المقرر مسبقا بيد ان ذلك المستنقع يمكن تجاوزه وبأعظم اليسر ، والشيء الضروري الوحيد من اجل ذلك هو اتباع الدرب المطروقة للواقعية فما على المرء الا ان يذكر ان التطور الاقتصادي يتمحور على المفاهيم البشرية التي تقع بدورها تحت تأثير التطور الاقتصادي ان بين هذين العاملين **تفاعلا** لا مراء فيه يحل جميـع المصاعب التي اتينا على ذكرها فما حاجتنا الى فرضية التناسق المقرر مسبقا ؟

سوف نرى الآن ما اذا كانت مثل هذه المصاعب تحل بمثل ذلك التفاعل لكن لندرس اولا الافتراض الثاني من افتراضاتنا يعني الافتراض بأن المؤسسات القانونية في بلد ما **لا تتفق** مع اقتصاده

رأينا من قبل مثل هذه الحالة يمكن تفسيرها بصورة ممتازة من وجهـة نظر المادية الاقتصادية ان المؤسسات القانونية لبلد ما لا تتفق مع اقتصاده كلما وضع تقدم جديد في القوى المنتجة الناس في علاقات جديدة حيال بعضهم بعضا ، وعندئذ تبرز الحاجة الى اعادة النظر في النظام القائم للقانون الايجابي ( الخاص او العام ) ويبدأ زمن الثورة الاجتماعية

كيف يمكن تفسير هذه الحالة من وجهة نظر اولئك الذين يعتقدون بامكانية تطور المفاهيم القانونية تطورا مستقلا ؟ ان المسألة هنا ايضا تبدو بسيطة وبالغة الوضوح للوهلة الاولى ان المفاهيم القانونية لا تتفق بعد الان مع اقتصاد البلاد لانها تتقدم على تطور هذا الاقتصاد او على العكس لان هذا الاقتصاد يتقدم على تطور المفاهيم القانونية فاذا كانت هذه المفاهيم متقدمة على الاقتصاد فسوف تعاد صياغة هذا الاقتصاد عاجلا او آجلا بصورة تتفق مع تقدم المفاهيم واذا كان الاقتصاد يتقدم على المفاهيم القانونية فان خطوة جديدة في تطورها سوف تعيد اذن التوافق المطلوب وهكذا فلا يبدو ان شيئا هنا يتناقض مع الافتراض المتعلق بالتطور المستقل لعامل الذهنية

ومهما يكن من شيء فانه يتضح لدى الدراسة الدقيقة ان هذا التفسير البسيط بالغ الالتباس ولنأخذ مثالا على ذلك فرنسا في القرن الثامن عشر حين كانت المفاهيم القانونية تتخلف عن مفاهيم جزء كبير من سكان البلاد وقد يحسب المرء ان السبب في جميع الاضطرابات الداخلية في فرنسا في ذلك الحين قد كان هذا التخلف **للمؤسسات** بالمقارنة مع **المفاهيم** ، وان هذه الاضطرابات نشأت بالتالي عن تقدم المفاهيم المعتنقة وان تاريخ فرنسا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر يؤكد بالتالي على اكمل وجه فكرة التطور المستقل للذهنية الانسانية وعلى أي حال ، فذلك حكم متعجل جدا ، اذ من الواجب الا يغيب عن البال ان المؤسسات

القانونية في فرنسا تصادمت مع المفاهيم التي يعتنقها قسم محدد جدا من السكان الفرنسيين يعني **الطبقة الثالثة** ، وهي طبقة من الناس من اصحاب وضع اقتصادي محدد جدا وان هذا الظرف هو الذي يوفر الاساس للنظر الى المفاهيم القانونية التي كان يعتنقها وقتذاك ذلك القسم من السكان ليس من حيث هي نتاج تطور مستقل بل من حيث هي عاقبة للتبدلات التي طرات على وضعهم الاقتصادي. وليس هذا كل شيء ان الممثلين الفكريين للطبقة الثالثة استنجدوا بالعدالة في صراعهم ضد المؤسسات القانونية البالية ولا يمكن للمرء الا ان يوافق على انه كان من قبيل العدالة ان تلغى تلك المؤسسات التي اصبحت عائقا في سبيل معظم الفرنسيين وعلى اي حال فالعدالة مفهوم بالغ الغموض ، اضف الى ذلك انه مفهوم بالغ التجريد والشيء الهام هو المضمون المشخص الذي يعطى له من قبل فرد ما او من قبل طبقة من الناس فما هي المؤسسات القانونية التي كان القسم المفكر من الطبقة الثالثة يعتبرها عادلة اذن ؟ تلك المؤسسات التي كانت تقابل النمط الرأسمالي في الانتاج ، يعني النمط الناشىء عن تطور فرنسا الاقتصادي السابق* ولسوف توافق يا سيدي على ان تلك حقيقة باعثة على اعظم الاهتمام ! واذا نحن اغضينا النظر عن فكرة التناسق المسبق فمن المؤكد اننا سوف نرى مثل هذه الحقيقة على اعتبارها حجة جديدة ضد فكرة تطور المفاهيم المستقل وبرهانا جديدا على نظرية المادية الاقتصادية »

ورب قائل بالطبع ــ واكرر ان اي شيء يمكن ان يقال ــ انه اذا كان الفلاسفة التقدميون الفرنسيون ، الذين نهضوا ضد الملكية الاقطاعية ، لم يرفعوا اية اعتراضات على الملكية الرأسمالية ، فالسبب الوحيد في ذلك انهم ما كانوا قد توصلوا بعد الى اية مفاهيم أخرى وليس في حال من الاحوال لانهم اعتبروا التأثير الذي لا يقاوم لنمط الانتاج الجديد الظافر ولسوف اسأل **ولماذا أخفقوا في التوصل الى مثل هذه المفاهيم ؟** أيكون ذلك لانه لم يكن في مكنة الناس ، وفقا لقانون تطور الذهنية المستقل الا ان يتوصلوا في مرحلة معينة من التطور التاريخي الى الاعتراف

* رب من يذكرني بكتاب مثل موريللي ومابلي اللذين كانا ميالين الى الشيوعية وعلى اي حال ، فسوف اشير الى ان شيوعية هؤلاء الكتاب لم تكن في جوهرها سوى مناداة جوفاء جدا في مصلحة المساواة ــ مناداة لم يعلقوا هم انفسهم عليها اية اهمية عملية واما ان مثل هذه الهجمات ضد الملكية لم تكن سوى مناداة خالصة ، فهذا ما يتضح في مثال بريسو الذي لم يمنعه تعريفه للملكية كسرقة ــ وهو تعريف اخذه عنه برودون في وقت لاحق ــ من ان يكون احد الناطقين بلسان الاتجاهات البورجوازية ان الهجمات الخطابية الفرنسية ضد الملكية ودفاعا عن المساواة القديمة لم تتضمن اي تحليل على الاطلاق للانواع التاريخية المختلفة من الملكية ونظرا لان هذا النوع من التحليل ورد في اعمال الكتاب التقدميين الفرنسيين للقرن الاخير فقد كان هؤلاء جميعا ربما باستثناء روسو مدافعين عن الملكية البورجوازية .

بالملكية البورجوازية ؟ **لسوف أضيف** من جانبي ان الاشارة الى التطور المستقل المزعوم للمفاهيم الانسانية **لا يمكن** ان يفسر شيئا على الاطلاق لقد اعتنق الناس بعض المفاهيم لانهم كانوا ملزمين بالضرورة باعتناقها وفقا لقوانين تطور الذهنية المستقل لكن أيمكن ان نعتبر هذا جوابا ؟ أيمكن ان يكون **هذا** حلا للمشكلة ؟ ذلك بكل بساطة شكل آخر **للقول** ابنتك مريضة لانها سقطت فريسة المرض(٧٣) وليس في مقدور مثل هذه الايضاحات ان تمضي بعيدا بنا

لكن ليس هذا بكل شيء لقد شن رجال عصر الانوار الفرنسيون النضال ضد مخلفات المؤسسات **الاقطاعية** لكن ماذا كان أصل المؤسسات الاقطاعية من اين نشأ النظام الاقطاعي ؟ كان رجال الانوار يعتبرونه نتيجة للخطأ البشري وبكلام آخر التطور الخاطىء للمفاهيم البشرية وعلى اي حال فان المؤرخين في عصر عودة الملكية حاولوا في حينهم ان يفسروه على اعتباره نتيجة للعلاقات الاقتصادية الوسيطية وبقدر ما تتقدم دراسة الاسلوب الاقطاعي في الحياة لدى مختلف الشعوب في اوروبا وآسيا تثبت وجهة نظرهم اكثر فاكثر ويتضح اكثر فاكثر المؤسسات الاقطاعية لم تكن ، ولا كان يمكن ان تكون ، مجرد نتيجة لتطور المفاهيم الانسانية

ويؤسفني ان ضيق المكان لا يتيح لي مزيدا من الاستغراق في مناقشة هذا الامر وفيما عدا ذلك ، فاني ادرك انه حان الاوان لي من اجل الانتقال الى مسألة **التفاعل** بين عوامل **التطور الاجتماعي** المختلفة ــ وهو تفاعل لا بد لفكرة عنه في رأي الكثيرين من الروس وغير **الروس** ايضا ان تكون وراء اية فلسفة تاريخية سليمة وغير « **ميتافيزيائية** » .

لنتصور ان لدينا جملة من القوى **ب ، ج ، د** ، الخ سوف اسأل من ظهرت هذه القوى وسوف اجيب ان كلا منها تفعل في الاخرى ولنفترض اني مصيب حين أقرر ان تفاعلا قائم بالفعل بين هذه القوى بيد انك سوف توافق يا سيدي على ان السؤال الذي طرح علي لم يتلق جوابا واني حين اشير الى وجود تفاعل بين هذه القوى لا اكون قد اوضحت بعد ما مصدرها بحيث يملك كل من سألني هذا السؤال الحق في القول **اني اتهرب من الجواب فقط**

ولا بد ان يقال الشيء نفسه عن التفاعل بين الاقتصاد الاجتماعي والفكر البشري وهو التفاعل الذي غالبا ما يستشهد به من حيث هو الاعتراض الاشد حزما وانتصارا على « نظرية المادية الاقتصادية الضيقة ولا يحل هذا الاستشهاد المسألة التي تقدم هذه النظرية جوابا عنها قد يكون جيدا وقد يكون رديئا انها مجرد درب سلكها الناس بصورة شعورية او غير شعورية في **ارتدادهم عن هذه المسألة** .

ان التفاعل بين « **العوامل** المختلفة في التطور التاريخي لا ينكره الماديون

الاقتصاديون في حال من الاحوال ، بل كل ما يقولون هو ان التفاعل بحد ذاته لا يفسر شيئا على الاطلاق وانهم لعلى حق تام في ذلك ، ولا جدال في ان المنطق في صفهم لان اي تفاعل بين قوى معينة يفترض مسبقا وجود هذه القوى ، فيما لا يشكل القول ان هذه القوى لا تفعل في بعضها بعضا تفسيرا لاصلها

وقد تعترض علي قائلا ان اصل العامل الذهني يفسر بتعضي الانسان البدني وهو ما سوف ارد عليه قائلا نحن نتحدث ليس عن اصل قدرة الانسان على التفكير بل عن اصل المفاهيم الانسانية اصل اراء محددة بصورة تامة بشأن الملكية والعلاقة بين الرجل والمراة ، والعلاقات المتبادلة بين افراد الاسرة والمجتمع، وبشأن موقف الناس من الآلهة الوثنية الاولية ولا يمكن في حال من الاحوال ان تعتبر هـذه الآراء نتيجة التطور الحياتي ، كما لا يمكن ان يعزى ظهورها الى التفاعل بينها وبين الاقتصاد الاجتماعي لانه لا بد من وجودها بصورة مسبقة — واني اكرر ذلك — حتى تتمكن من اختبار فعل الاقتصاد ومن التأثير في هذا الاقتصاد بدورها واذا انت اخبرتني مرة اخرى بانها نشأت بصورة مستقلة باعتبار القوانين النوعية لتطور الانسان الذهني فاني سأكرر القول اذن ، بعد الاشارة الى انك اضطررت الى التخلي عن وجهة نظر التفاعل التي كان يبدو انها مليئة بالوعود

**ان أي استشهاد بقانون نوعي للتطور الذهني المستقل لا يشكل حلا للمشكلة بل مجرد صياغة جديدة لها او التعبير عنها بكلمات اخرى .**

لنأخذ مثالا على ذلك في راي سيسموندي انه في عهد الملك فيليب السادس الفرنسي ادت روايات الفروسية التي كانت تزود البلاط والقصور بمادة المطالعة الوحيدة الى تغيير عادات الامة اذ علمت جميع اعضاء النبالة الكمال الذي ينبغي لهم تحقيقه او على الاقل الاعجاب به*

لقد مارس الادب تأثيرا في العادات لكن من اين نشأ هذا الادب ؟ ما السبب في وجود روايات الفروسية ؟ من الواضح تماما ان مردها الى وجود العادات الفروسية . ان لدينا هنا مثالا هاما عن التفاعل ان ادب المجتمع الاقطاعي اثر في العادات التي اثرت بدورها في آدابه اما من اين ظهر هذا المجتمع الاقطاعي نفسه فهذا ما لا تفسره في حال من الاحوال الحقيقة التي لا جدال فيها حقيقة قيام ذلك التفاعل الهام

ولنأخذ مثالا آخر حين صدر كتاب هيلفيتيوس الشهير في الفكر قال بعض حراس الصارمين للنظام القديم بوجوب احراق هـذا الفيلسوف مع كتابه على المحرقة ومضوا حتى المناداة بأن في التشريع الفرنسي اسبابا تفي باصدار هذا الحكم وعلى اي حال فلم توضع هذه الفكرة المتوحشة موضع التنفيذ . ذلك ان

* تاريخ الفرنسيين المجلد العاشر ٥٦

عادات المجتمع الفرنسي كانت في هذه الاثناء قد اصبحت اشد اعدالا بحيث لايمكن اللجوء الى بقايا الهمجية الوسيطية بسهولة او بصورة متكررة* وهكذا اثرت العادات الاكثر اعتدالا في الممارسة القضائية ومن جهة اخرى فمما لا ريب ان الاعتدال النسبي المطبق في الممارسة القضائية مارس تأثيرا نافعا في العادات لقد اثرت العادات في الممارسة القضائية والعكس بالعكس فالتفاعل واضح هنا لكن ما السبب في ان العادات اصبحت اكثر اعتدالا ؟ وما منشأ الممارسة القضائية التي باتت اكثر اعتدالا لان العادات اكتسبت هي الاخرى المزيد من الاعدال هذا شيء لا نعرفه ولا يفسره التفاعل الذي تحدثنا عنه

ولنأخذ مثالا ثالثا مما لا ريب فيه ان وجود المؤسسات الاقطاعية ابطأ من تطور فرنسا الاقتصادي في القرن الماضي ولقد انهارت تلك المؤسسات تحت ضغط الحاجات الاقتصادية الجديدة واعطى سقوطها زخما جديدا لتطور فرنسا الاقتصادي ان التفاعل واضح مرة اخرى لكن ما الذي آل الى ظهور العلاقات الاقتصادية الجديدة في فرنسا ؟ مرة اخرى نجد ان اصول المؤسسات التي اعاقت تطورها لفترة طويلة جدا من الزمن لا يفسرها ذلك التفاعل في حال من الاحوال

لكنه اذا لم يكن في مقدور التفاعل ان يفسر شيئا واذا كان افتراض وجود التناسق المسبق بين تطور المؤسسات والمفاهيم ايضا من جهة واحدة وتطور الاقتصاد الاجتماعي من جهة ثانية غير مرجح على الاطلاق ، فان المرء لا يستطيع اذن الا الاستنجاد بالعامل الذي يشير اليه الماديون الاقتصاديون ان هـذا العامل وحده ستطيع ان يفسر بأعظم اليسر جميـع المصاعب المتعددة التي تواجهنا لدى كل خطوة في دراستنا التطور الاجتماعي

لنتذكر داروين يا سيدي ان هذا الباحث المبرز يفسر اصل الانسان وقدراته من زاوية **علم الحياة** . وعلى اي حال ، فقد كتب صفحات عديدة تتحلى بأهمية عظيمة بالنسبة الى **علماء الاجتماع** ايضا ففي رأيه ان مفاهيم الانسان ومشاعره الاخلاقية تفسر بتأثير **العلاقات الاجتماعية** . فلو ان البشر كانوا يحيون في شروط تشبه بصورة مطلقة شروط حياة النحل ، فلا بد ان تسود الاخلاق النحلية بينهم ، بحيث ينظرون في لا مبالاة تامة الى ابادة نوعهم الخاص الجارية بصورة دورية في الخلية** . وفضلا عن ذلك فقد كانوا يرون ان واجبهم نفرض عليهم ان يرتكبوا مثل هذه الفظائع بحيث ان كل من يرفض ارتكابها انما ينتهك الاخلاق اذن

لو كان لهذا النوع من الاخلاق وجود فلا ريب انه يمارس تأثيرا في العلاقات الاجتماعية ويساعد على توطيدها قدما وهكذا كان يقوم تفاعل لا مراء فيه وعلى أي حال فمن الواضح ان العلاقات الاجتماعية ما كانت تنشأ عن الاخلاقية اذن ، بل هذه الاخلاقية هي التي ستكون قد نشأت عن العلاقات الاجتماعية .

---

* اما انه كان يلجأ اليها احيانا ، فهذا ما تبينه امثلة اخرى .

** **اصل الانسان** ، لندن ١٨٨٣ ص ٩٦ –

لكن من اين تظهر العلاقات الاجتماعية ؟

انـــا نتحدث عـــن العلاقات الاجتماعيـــة القائمـــة في المجتمعات **البشرية** . ومثل هذه العلاقات هي العلاقات القائمـــة بين **الناس** ، والناس يخلقونها وبالتالي يبدو انهـــا نتـــاج لنشاط الانسان الحـــر لكن ما هي ارادة الانسان الحـــر ؟
« L'illusion d'un étre qui a conscience de lui - méme comme cause et n'a pas cousciene de lui méme comme effet « ( وهم الكائن الذي يعي نفســـه **على اعتباره سببا** ولا يعي نفسه **على اعتباره نتيجـــة** ) ان هـــذا التعريف الممتاز لديدرو قابـــل للتطبيـــق ســـواء على **الانسان الفـــرد** او على **الانسان الاجتماعي** ( Gesellschaftsmensch على حد تعبير ماركس وحين يعتقد الناس احيانا ان العلاقات الاجتماعية المعطاة خلقت بفعل ارادتهم الحرة فذلك تكرار للوهم العريق جدا بأن الناس لا يعون انفسهم على اعتبارهم نتيجة ان اي نظام معين من العلاقات قد نشأ عن الارادة البشرية حتى درجة كبيرة ، لكن الارادة البشرية تتوجه نحو خلق هذا النظام لاسباب لا تتوقف على البشر فالارادة **نتيجة** قبل ان تصبح سببا ومن واجب علم الاجتماع **من حيث هو علم** ان يفهم **من حيث هو نتيجة** تلك الارادة الخاصة بالانسان الاجتماعي المتوجهة نحـــو الحفاظ على نظام معين العلاقات الاجتماعية او نحو خلقه

ان الانسان الاجتماعي نتاج تطور حيواني مديد وتاريخه **الحضاري** لا يبدأ الا حين باشر بانتاج ما يحتاج من السلع الاستهلاكية بنفسه بعد ما كفت منح الطبيعة الحرة عن ارضائه ، وسعة هذا الانتاج وطبيعته رهن في كل زمن محدد بحالة القوى المنتجة وتقدم **الطبيعة نفسها** يعني **البيئـــة الجغرافية** للانسان الحافز الاول لتطور القوى المنتجة وتترافق اهمية الانتاج المتعاظمة في حياة الانسان الاجتماعي بأهمية البيئة الاجتماعية المتعاظمة من اجل تطور القوى المنتجة ولا بدّ للبشر في سبيل الانتاج من الدخول في علاقات محددة مع الطبيعة لكن هذا لا يكفي فعملية الانتاج الاجتماعية تفترض كذلك بعض العلاقات المتبادلة **بين المنتجين انفسهم**، وهذه العلاقات المتبادلة بين المنتجين مرهونة في كل مرحلة معينـــة بحالة القوى المنتجة وان كـــل خطوة تاريخية جديدة في تطور القوى المنتجة تجلب ثورة في العلاقات المتبادلة بين المنتجين وفي الوقت نفسه في النظام الاجتماعي برمته*

---

* لا يؤثر البشر أثناء الانتاج في الطبيعة وحدها بل في بعضهم بعضا ايضا انهم لا ينتجون الا بالتعاون بطريقة معينة وبمبادلة نشاطاتهم بين بعضهم البعض وكيما ينتجون يقيمون روابط وعلاقات محددة فيما بينهم ولا يجري فعلهم في الطبيعة الانتاج **الا** ضمن هذه الروابط والعلاقات الاجتماعيـــة

ان هذه العلاقات الاجتماعية التي ينشئها المنتجون فيما بينهم والشروط التي يتبادلون فيهـــا نشاطاتهم ويسهمون في مجمل فعل الانتاج سوف تتبدل طبعا وفقا لطابع وسائل الانتاج فمع اختراع

بهذه الطريقة تنشأ علاقات اجتماعية تتوقف عليها كما اشرنا اعلاه مفاهيم البشر الاخلاقية وسائر مفاهيمهم الاخرى

ولنأخذ بهدف ايضاح هذه الفكرة العشيرة البدائية حيث لم يكن وجود لاية ملكية خاصة على وجه التقريب ومهما يكن من شيء فان تطور القوى المنتجة ينسف بصورة تدريجية الشيوعية البدائية وتمد الملكية الخاصة جذورها وتتطور متناولة مناطق جديدة باستمرار ويظهر الاغنياء والفقراء في مجتمع كان في الاصل قائما على المساواة هذه ثورة كاملة تؤدي بصورة لا مفر منها الى تبدل في قانون الاسرة وفي بنية المجتمع السياسية وتقوم الدولة التي يشكل نشوؤها تعبيرا عن علاقات المجتمع الاقتصادية واذا شئنا مثالا على ذلك فان اجمال التاريخ السياسي للجماعة المدنية في العالم القديم الذي تتحدث عنه يا سيدي في مقالك لايعدو كونه تعبيرا عن الصراع بين الاثرياء والفقراء ، بين الارستقراطية والديموقراطية ( وهو شيء كان يعرفه ارسطو جيدا ) وتقوم على اساس هذه المؤسسات الجديدة مفاهيم محددة عن القانون الخاص والعام وقانون الاسرة ، وعن العلاقات مع الغير ، وحتى مع الآلهة الوثنية الاولية

بالفعل ياسيدي حتى مع الالهة الوثنية الاولية ان الديانة الوثنية تستقيم في تأليه قوى الطبيعة التي لا يفهمها الانسان فالدين الاولي بالمعنى الحقيقي للكلمة ، هو من ذلك النوع الذي يسميه ماكس مولر الدين الطبيعي وان هذا الدين الطبيعي القائم على اساس تأليه قوى الطبيعة موجود في فجر التاريخ الحضاري للانسان الاجتماعي ومهما يكن من شيء فان البيئة الاجتماعية تتعرض مع تطور قوى ذلك الانسان المنتجة لتبدلات اكثر او اقل عمقا وتتخذ الديانة الاولية طابعا جديدا انها تتحول من دين **طبيعي** الى دين **اجتماعي** ان الآلهة التي كانت من قبل مجرد تجسيدات لقوى الطبيعة تصبح حراسا بل خالقة وهمية للانواع المختلفة من الملكية والاسرة وبنية الدولة والعلاقات بين الامم وحين يقوم صراع بين الناس ـ مثلا على شكل خصوصي للحياة العائلية ـ تنخرط الالهة الوثنية في الخصومة ايضا فيتبنى بعضها قضية حراس الاساليب القديمة وينحاز بعضها الآخر الى جانب المجددين وهكذا عند ايزخلبوس تقف العطوفات في صف **القانون الاومي ،** فيما تدافع مينرفا عن سلطة الاب وكما هو معروف لدى الجميع ، فانه لم يكن لهذه الالاهة الباعثة على الاهتمام ام ، وهي لم تكن بهذا المعنى سوى انعكاس وهمي في الذهن البشري للصراع الدائر ابان الانتقال من القانوني الاومي الى القانون الابوي

---

اداة حرب جديدة الاسلحة النارية يتبدل بالضرورة التنظيم الداخلي للجيش بأكمله فالعلاقات التي يستطيع الافراد ضمنها يشكلوا جيشا وان يتصرفوا على اعتبارهم جيشا تغيرت كما تبدلت العلاقات الجيوش المختلفة ... » ( ماركس

اما ان « ذهنية » معينة تظهر على اساس علاقات بشرية محددة ، فهذا ما هو واضح كل الوضوح وانه ليمكننا كذلك أن نبين بسهولة تامة ان اتجاهات محددة في الفكر الفلسفي والابداع الفني تقوم على اساس الذهنية ويكفي ان نتذكر الفلسفة الفرنسية في القرن الثامن عشر كي نتبين حتى اية درجة كانت باكملها وفي جميع خصائصها من صنع ذهنية الطبقة الثالثة في نضالها ضد الاكليروس والنبالة ولا اريد ان اسهب هنا في موضوع الفن ، بل سوف اقتصر على ذكر كتاب تين **فلسفة الفن*** .

تنشأ المفاهيم الانسانية على اساس العلاقات الاجتماعية واذا نشأت مثل هذه المفاهيم المحددة فلا بدّ بالضرورة ان تؤثر هي نفسها في العلاقات الاجتماعية وتقوم كذلك علاقة متبادلة بين مختلف المجالات من المفاهيم والصور الذهنية الدين يؤثر في القانون ، والثورات في ميدان القانون تنعكس ، كما رأينا في الافكار الدينية وقس على ذلك

ذلك هو تفسير التفاعل بين عوامل التطور التاريخي المختلفة من وجهة نظر المادية التاريخية

ولقد لاحظت يا سيدي ان التاريخ اعقد مما يحسب الماديون الاقتصاديون ، وسوف ارد على هذه الملحوظة بأن نظرية المادية الاقتصادية اوسع واعقد بما لا يقاس مما يحسب خصومها

ولقد اشرت الى الصدامات الدولية والى حصيلة هذه الصدامات على اعتبارها ظواهر لا يمكن تفسيرها من وجهة نظر المادية الاقتصادية وعلى اي حال **فان صداما بين قوتين في زمن معين ، مثله كمثل امكانية هذا الصدام بالذات ، رهن بطبيعة ( خصائص ) هاتين القوتين** . وحين تطبق هذه الموضوعة العامة على الصدامات بين الامم تصبح كما يلي في أي زمن معين ، يكون الصدام بين مجتمعين ، مثله كمثل امكانية هذا الصدام بالذات رهن بطبيعة ( خصائص ) هذين المجتمعين وبكلام آخر ببنيتهما **الباطنة** واذا كانت نظرية المادية الاقتصادية تقدم تفسيرا مرضيا لاصل البنية الداخلية للمجتمعات البشرية ، فهي تفسر اذن نتائج الصدامات بينها وامكانيتها بالذات على حد سواء

ويقول مولتكه

---

* على أي حال ، اسمح لنفسي بملحوظة مقتضبة لقد ابدى السيد كودرين دهشة عظيمة في صحيفة **الثروة الروسية** حين عرف من بلتوف ان الصراع الطبقي ينعكس ايضا في تطور فن العمارة واعتقد السبب الوحيد الذي ينبغي لنا ان نلوم بلتوف عليه هو انه لم يعط فكرته تعبيرا اشمل ولقد تحدث رودبرتوس قبل زمن طويل عن التبعية التي يبديها فن العمارة في اية مرحلة تاريخية حيال الحياة الاقتصادية لهذه المرحلة . « الاسلوب المعماري لكل مرحلة يعكس في واقع الامر الصفات

تملك البورصة حاليا تأثيرا عظيما جدا بحيث تستطيع ان تستدعي الى الميدان جيوشا باكملها للدفاع عن مصالحها  ولقد بليت المكسيك ومصر بجيوش الاحتلال الاوروبية بغرض ارضاء مطالب الدوائر المالية العليا فقط*

ما رايك يا سيدي بخصوص ما تستطيعه **البورصة** حاليا من تقرير مسائل الحرب والسلم ؟ أفلا يتوقف ذلك على الاوضاع **الاقتصادية** للامم المتحضرة ؟

ان نتائج الصدامات بين قبائل القناصة لا تشبه ولا يمكن ان تسبه نتائج الصدامات بين الشعوب الزراعية  كما ان نتائج الصدامات بين الشعوب الزراعية التي تحيا في شروط الاقتصاد الطبيعي لا تشبه ولا يمكن ان تشبه نتائج الصدامات بين البلدان الرأسمالية المعاصرة  لماذا الامر كذلك ؟ أليس لان حصيلة هذه الصدامات جميعا وقف على الشروط الاقتصادية للمتحاربين ؟

امامي كتاب بقلم لوتورنو عنوانه **الحرب في العروق البشرية المختلفة** ( باريس ١٨٩٥  وهو يتسم بالعيوب المألوفة في كتابات لوتورنو  الحقائق تورد دون النقد الضروري  فيما تتسم طريقة تقديرها العلمي بالاعراض التام عن جميع متطلبات البحث العلمي  ومع ذلك فان هذا الكتاب الذي لم يحظ الا باعتبار ضئيل يحتوي على حجج عديدة مباشرة وغير مباشرة تؤيد الرأي الذي ادافع عنه  وبالفعل اقرأ الصفحة التالية على الاقل

لم يكن لدى العشائر الاولى ما تدافع عنه بعد فيما عدا المناطق حيث تجني الثمار وتقنص وتصطاد  وبقدر ما قامت هذه الاوضاع البدائية ما كان يمكن للحروب ان تغني الظافر  فلم يكن هناك بعد ما ينهب  وهذا هو السبب في ان الهنود الحمر لم يرفعوا الفأس قط رغبة في الربح ، بل ما كانوا يسلبون الموتى  وتبدلت هذه العادات مع ظهور الحياة الرعوية والزراعية  فعندئذ اخذت الغارات ( razzias ) تجري بهدف سرقة الماشية والمحاصيل والادوات  الخ  لقد طرحت الحرب حتى مظهر العدالة  واصبح السلب الهدف الرئيسي ، واخذ القتل يحدث بهدف النهب ، ويواصل أحيانا حتى ابادة العدو الا اذا ردت حسابات المصلحة الذاتية ذراع المنتصر  يعني الا اذا وفر حياة خصمه المغلوب كي يستعبده  وفي وقت لاحق اصبحت الحرب  فوق كل شيء  **غارة ،** غزوا قاهرا غرضه السلب  واصبحت ، الارض بالذات موضوعا للسلب ، وجعل الاستيلاء

---

الاساسية للحياة الاقتصادية  ان المنزل الروماني  والمنزل ذا الاروقة لسكان المدن في العصر الوسيط، والمنزل ذا الصالون للاسرة الحالية  هي معالم مميزة في التطور الاقتصادي للسنوات الالفين والخمسمائة الاخيرة  نظرا لان ايا من الفنون لا يرتهن بالعلاقات الاجتماعية اكثر من فن العمارة ولذا قيل بصواب  ان الاسلوب المعماري الجديد والمميز لا يظهر الا مع قيام قاعدة اجتماعية جديدة ...»

( رودبرتوس « 2ur Frage des Sacwerths des goldes im Alterthum » , Hild Jahrbucher S 365 B x,v

* **حرب عام ١٨٧٠** باريس ١٨٩١ ص ٢

عليها يزداد تواترا بقدر ما كانت المجتمعات البشرية تنمو حجما في اعقاب الاخضاع القهري للجيران المستعبدين وقامت الدول الكبرى وصارت جيوش كاملة تمضي الى الحرب وكانت اشدها وحشية جيوش الشعوب البدوية التي كانت حملاتها لصوصية في الاصل ولم تكن فتوحات جنكيز خان وتيمورلنك الا غارات واسعة وكان التطور السياسي يمشي يدا بيد مع اقامة العبودية ولقد ادى واقع الحرب بالذات الى نشوء الارستقراطيات اصبح القادة الحربيون ملوكا وتأسست الطوائف او الطبقات الكهنية وعاشت في افضل وئام مع اصحاب القوة ، وتشبه الملوك بالالهة اكثر فاكثر

ان عصر الفتوحات الكبير بدأ قبل كل شيء مع قيام المجتمعات التي تتصف بمثل هذه البنى المعقدة والتي تقوم بثبات على الزراعة والعبودية* »

سوف توافق يا سيدي على ان مكانا هاما أعطي في هذه المحاكمة الى « عامل » الغزو وفي رأيي انها اهمية مبالغ فيها ومن المؤكد ان لوتورنو عاجز عن البرهان على ان الحرب هي السبب **الاولي والجذري** لقيام الارستقراطية وواقع الامر ان الفتوحات لا تؤدي سوى **للاستعاضة** عن الاستقراطية المحلية بأرستقراطيات الفاتحين وتلك كانت الحال في انكلترا على سبيل المثال. حيث طردت الارستقراطية السكسونية من قبل الارستقراطية النورماندية وعلى اي حال فليس هذا موضع الاسهاب في هذا الموضوع واني على استعداد للموافقة على ان لوتورنو لم يبالغ في اي شيء وان الفتوحات لعبت فعليا ، في تاريخ التطور الاجتماعي ، الدور الذي ينسبه اليها وبودي ان اسألك ما اذا كنت قد لاحظت ان لوتورنو نفسه اضطر لان يربط بصورة سببية تطور عامل الفتح بتطور الاقتصاد الاجتماعي ان الحرب تلعب دورا مختلفا كل الاختلاف عند المتوحشين الذين يسدون اودهم من قطف الثمار والقنص والصيد ، والمتحاربين الذين يسعون وراء اهداف تختلف كل الاختلاف عنها في حالة المجتمعات الاكثر تقدما على درب التطور الاقتصادي ولقد كان ظهور طريقة الحياة الرعوية ، وبالخاصة الزراعية ، حدثا بارزا في تاريخ الحروب. فعصر الفتوحات الفعلي لم يقم الا حين اصبح المجتمع وطيد الاسس في الزراعة وانقسم الى طبقات ما معنى ذلك ؟ معناه ان اولئك الذين يميلون بشدة الى المبالغة في اهمية الفتوحات في تاريخ التطور الاجتماعي لا يستطيعون هم انفسهم الا ان يروا الآن ان طبيعة الحروب والعواقب الاجتماعية للصدامات العسكرية ترتهن في آخر تحليل بمجرى التطورالاقتصادي. وهذا هو بالضبط ما يقوله الماديون الاقتصاديون، واذا هم كانوا على صواب في هذه الحال فلا اساس اذن لاخبارهم بأن الحرب ظاهرة اجتماعية لا تخضع لتفسير مادي

اما ان المستوى التقني لفن الحرب رهن بالانظمة الاجتماعية للفرقاء المتحاربين،

---

* **الحرب** ... ص ٥٣٠ – ٥٣١

فهـذا ما هو واضح حاليـا في نظـر اي جـدي مثقف ويقـول الكولونيـل الفرنسي روسيـه

« في الحقيقة ان البنية الاجتماعية المميزة لاية مرحلة تاريخية معينة تمارس تأثيرا حاسما ليس في التنظيم العسكري لاي شعب فحسب بل حتى في خلق العسكريين وقدراتهم وطموحاتهم*

وبالطبع فان الشيء الكثير في الحرب يتوقف على القائد العسكري لكن ما المقصود من الجندي العظيم ؟ ان الكولونيل روسيه يجيب على هذا السؤال كما يلي

ان الجنرالات العاديين يطبقون تلك الوسائل الجاهزة تحت تصرفهم ويستخدمون طرقا شائعة الاستعمال من قبل واما العسكريون العظام فيكيفون وسائل الحرب وحيلها لتتلاءم مع عبقريتهم الخاصة**

اين تكمن عبقرية الجندي العظيم ؟ انها تكمن في تحويله تلك الوسائل والحيل. مسترشدا بحدوس غريزية بصورة تتفق مـع قوانين التطور الاجتماعي الذي يمارس تأثيره في العتاد الحربي ان الجندي العظيم لا يختلف عن الجنرال العادي **الا** في تفهمه ببصيرته العبقرية للعتاد الجديد الذي تتطلبه العلاقات الاجتماعية الجديدة والسيكولوجية الاجتماعية الجديدة التي نشأت من هذه العلاقات هذا واضح جدا وصحيح على اكمل وجه بيد انه ليس الشيء الوحيد الواضح بل من الواضح ان **مثـل** هذا الراي بخصوص دور الجنود العظام واهميتهم تشكـل حجة جديدة في الدفاع عن النظرية التي تطرحها على المناقشة***

وينتشر بعد في روسيا على نطاق عريض المستبق العجيب القائل ان نظرية المادية التاريخية تحكم على الفرد بالعطالة وانه اذا كان الماديون الاقتصاديون على صواب فان جميع الامور اذن سوف تحدث من تلقاء ذاتها ولا يبقى امام « الفرد الا ان ينتظر بأيد مكتوفة ولن استقصي هنا مصدر هذا المستبق

---

* . **اساتذة الحرب ، فريدريك الثاني ونابليون ومولتكه** ، دراسة نقدية تعتمد على اعمال غير منشورة للسيد الجنرال بونال ، ص ٤

** المصدر نفسه الصفحة نفسها

*** فضلا عن المؤلفات التي عددتها استطيع ان اذكر بحثا مهما بقلم الاستاذ سيكوتي بعنوان بعنـوان **La pace e la guerra nel l'antica Atene** [ **السلم والحرب في اثينا القديمة** ] سكانسانو ١٨٩٧ وهذه هي النتيجة الرئيسية المستخلصة فيه كان اتجاهان متنافران ومتعارضان حيال الحرب والسلام يتحليان بأهمية خاصة في اثينا وذلك بالرغم من انكشافهما باصرار في فواصل زمنية معينة خلال القرون الثلاثة من التاريخ الاثيني ملخصين في اختلافهما درجة التطور الاقتصادي والحاجات المتصاعدة للقدرات الانتاجية والصراع الطبقي والثورات السياسية في الدولة » ( ص ٢ ) [ الفقرة بالايطالية في الاصل الروسي ]

بل اكتفي بالقول انه سوف يتلاشى في الحال اذا ما تكلف مثقفونا عناء التفكير قليلا في نظرية المادية « الاقتصادية
أصحيح انه لا بد للانسان المفكر ان يتحول بالضرورة في حياته الخاصة الى اوبلوموف ٧٥ اذا هو كان موافقا على تعريف ديدرو الوارد اعلاه حرية الارادة وهم في مخلوق يعي نفسه من حيث هو سبب لكن ليس من حيث هو نتيجة ؟ أصحيح ان الموسيقي الكبير سوف يتخلى عن الموسيقى حين يعلم ان العبقرية نتيجة لحالة معينة للدماغ وهي حالة مجهولة بالاحرى بعد ؟ بالطبع لا ان مجرد الحديث عن ذلك سخف خالص اذن لماذا ينبغي لاي وجه عام ان يتخلى عن نشاطاته حين يدرك ان مثله العليا ليست بحد ذاتها الا منتجات للتطور الاقتصادي اذا كانت مثل هذا النتاج حقا فان ضمانات تجسدها تكون اثبت
ويقول ماركس

ان الجنس البشري لا يضع ابدا نصب عينيه سوى تلك المهمات التي يسعه حلها ما دمنا منتبهين دائما حين نمعن النظر في الامر المهمة نفسها لا تنشأ الا حين تكون الشروط المادية لحلها قد توفرت مسبقا او هي على الاقل في سبيل التكون

فاذا كان الامر كذلك فان من واجبنا وفي مقدورنا اذن بقدر ما تكون الثقة في النجاح اعظم ان نعمل بمزيد من الحماسة التي لا تلين من اجل انجاز المهمات العظيمة التي تضطرب لها الانسانية المتحضرة المعاصرة او لعل قدرتنا تنسف من جراء الاعتبار غير اللائق بأن القضية التي تبنيناها قد هيأها التاريخ بصورة كافية ؟ لعلنا نحب أن نجد انفسنا في مركز يؤهلنا لان نقول للملأ اما بالنسبة الينا فان الجنس البشري سوف يركد في الجهالة وسوف يفنى بسبب من الكوارث المتنوعة لقد ظهرنا على المسرح والامور تتقدم جيدا بصورة رائعة بيد ان هذه طريقة غريبة جدا في التفكير طريقة لا تليق الا بذلك البورجوازي الصغير الثري الهائج
حين يؤكد ان الاشياء جميعا وفقا للنظرية المادية الاقتصادية سوف تحدث من تلقاء ذاتها وسوف تواصل مثل هذا السلوك يشوه جوهر هذه النظرية كليا ان هذه النظرية تؤكد ان العلاقات الاجتماعية في المجتمع الانساني ) علاقات بين الناس وليس في الامكان ان تتم خطوة رئيسية في التقدم التاريخي للجنس البشري دون اشتراك لا الناس فحسب بل عدد هائل من الناس يعني الجماهير ان الضرورة التي تقضي باشتراك الجماهير في الاحداث التاريخية الكبرى تلزم بأن يمارس الافراد الاكثر تطورا والابرز اخلاقيا تاثيرهم فيها الامر الذي يفسح المجال واسعا للعمل المثمر من جانب الافراد واذا ما ظهر بين هؤلاء الافراد اناس يتحولون الى امثال اوبلوموف تحت تأثير المادية الاقتصادية فلن تكون تلك خطيئة هذه المادية الاقتصادية بل خطيئة اولئك الافراد الخصوصيين ذلك أنهم عاجزون بكل وضوح عن التفكير المنطقي وهم (( أثر )) مهين للعطالة حتى درجة كبيرة .

وان ما يستحق الملاحظة يا سيدي هو ان الشخصيات عندنا اخذوا بكل لهفة في معارضة مجرى الاحداث الطبيعي خلال السنوات العشر او الخمس عشرة الاخيرة حيث هبط مستوى الانتليجنتزيا المعنوي والفكري بصورة مؤسية كما يعترف « الشخصيات » انفسهم بذلك لقد كان الافراد الاكثر تقدمية ونشاطا، في السبعينات ينظرون الى انفسهم عن طيبة خاطر على اعتبارهم مجرد ادوات بين يدي التاريخ ولقد كتب نارودني بارز ونشيط ( ويؤسفني ان أقول انه قضى نحبه ) في اواخر السبعينات يقول

لسنا نؤمن بأمكانية ان نخلق في الشعب بواسطة عمل تحضيري مثلا عليا تختلف عن تلك المثل العليا التي نشأت عنده بفعل التاريخ السابق باكمله ان الاحداث الكبرى هي من شأن الجماهير والتاريخ هو الذي يهيؤها وليس في مكنة الافراد اعطاؤها اي اتجاه بل كل ما يستطيعون هو يكونوا ادوات للتاريخ وان يعبروا عن مطامح الشعب

ولا بد ان تثير مثل هذه الكلمات ، في الوقت الحاضر ، الاستياء حتى عند الناس الذين لا يمكن اقامة ادنى مقارنة ، بخصوص نشاطاتهم ، بينهم وبين كاتب السطور التي استشهدت بها ما مصدر هذا التبدل ؟ ان في مستطاعي الجواب عن هذا السؤال فقبل حوالي عشرين سنة كان التقدميون عندنا يؤمنون بالشعب، وكانوا على يقين حقيقي بأن لدى الشعب اتجاها معنـاه مماثل للمثل العليا التي تعتنقها الانتليجنتزيا وهذا هو السبب في ان مثل هؤلاء الافراد كانوا يعتبرون انفسهم عن طيبة خاطر مجرد ادوات للتاريخ ، اشخاصا لا يفعلون الا التعبير عن مطامح الشعب وعلى اي حال ، فان قسما كبيرا من هؤلاء « الشخصيات فقدوا اليوم بالفعل كل ايمان بالشعب وان كانوا يتحدثون عنه بفعل العادة بقدر كبير من المحبة ان هؤلاء الشخصيات يرون اليوم ان الاتجاهات الفردية تسود في الشعب وان اقتصاد الشعب يجري بصورة مضادة لمثلهم العليا ولذا فهم يعارضونه ولو انه كان في مقدورهم ان يجعلوا مثلهم العليا متفقة مع الاوضاع الراهنة للاقتصاد الروسي لما ترددوا في الاشارة الى هذا الاقتصاد على اعتباره الحجة الافضل المؤيدة لمثلهم العليا ومهما يكن من شيء ، فهم عاجزون عن التوفيق بين مثلهم العليا والاقتصاد الروسي الراهن ، والسبب في ذلك انهم لا يفهمون نظرية المادية الاقتصادية

انك تعارض في مقالتك يا سيدي الماديين الاقتصاديين باولئك الناس الذين يرون ان التدخل المقصود والهادف في الشؤون الاقتصادية من قبل الفرد والمجتمع والدولة امر ممكن لكن هل انكر الماديون الاقتصاديون امكانية مثل هذا التدخل ؟ هل قالوا في يوم من الايام على غرار مدرسة مانشستر على سبيل المثال(٧٨) انه لا يجوز للدولة ان تتدخل في حياة الناس الاقتصادية ؟ كلا يا سيدي لم

يقولوا قط شيئا من هذا القبيل وعلى اي حال فصحيح انهم لم يفهموا قط امكانية تدخل الدولة بتلك الصورة المجردة التي يفهمها بها الشعبيون الروس في الوقت الحاضر ففي راي الماديين الاقتصاديين ان الاشياء جميعا تتمحور على ظروف الزمان والمكان ، كما عبر عن ذلك مؤلف الملحوظات عن ميل(٧٩)

فحين هبت البورجوازية الفرنسية الكبيرة في زمن لويس فيليب للدفاع عن تعرفات الحماية التي يراد منهـا انقاذها من المزاحمـة الانكليزية أعترفت بصورة مبدئية ، وفي المحل الاول بامكانية تدخل الدولة في حياة الناس الاقتصادية وفي المحل الثاني شاهدت بكل وضوح الامكانية **العملية** لمثل هذا التدخل **في مصلحتها** ـ مصلحة البورجوازية الكبيرة كانت السلطة في يدها، ولم يكن عليها الا استخدامها.

لكنها لم تميز دائما إبان مرحلة عودة الملكية الامكانية العملية لمثل هـذا التدخل الذي ما اكثر ما حال دونه النفوذ السائد للارستقراطية لقد كان على البورجوازية الكبيرة في سبيل جعـل تدخل الدولة ممكنا ان تلغي بصورة جازمـة نفوذ تلك الارستقراطية ، يعني ان تحقق بعض التبدلات في البنية الفوقية التي قامت على تلك القاعدة الاقتصادية

كذلك حين فكرت البورجوازية الصغيرة والطبقة العاملة.، **في ظل حكم لويس** فيليب أنف الذكر ، في تحسين احوالهما ـ بالرغم من قبولهما مبدئيا بامكانية تدخل الدولة في حياة الناس الاقتصادية ـ فانهما لم تتبينا اية امكانية عملية لمثل هـذا التدخل في مصالحهما لم يكـن الاشراف على السلطة في حوزتهما بل في حوزة البورجوازية الكبيرة وهو السبب في مطالبـة البورجوازية الصغيرة والعمـال بالاصلاح الانتخابي

وثمة احيان حيث تدخل الدولة في حيـاة الناس الاقتصادية بطريقة تعود بالمنفعة على طبقة معينة يفترض مسبقا توفر بعض الشروط السياسية التي لا يمكن في حال انعدامها الحديث عن اي تدخل من جانب الدولة .وفي الحقيقة ان الحديث يجري بالطبع عن مثل هذه الامور حتى في تلك الاحيان ، لكنه يصدر عن اناس فارغين وقصيري النظر لا يفهمون هم انفسهم اهمية المصالح التي هبوا للدفاع عنها

فعلى المنحنى الطويل لتطور الانسانية التاريخي نقاط لمنعطفات بالغة الاهمية فلنشر الى مثل هذه النقاط بالحروف ب ، ج ، د هـ وهكذا دواليك حين يبلغ التطور الاقتصادي النقطة ب فهذا يشير الى انتصار طبقة معينة وحين يبلغ النقطة ج تتراجع الطبقة التي كانت سائدة من قبل الى المؤخرة مفسحة المكان لطبقة سائدة جديدة واخيرا حين يبلغ التقدم النقطة د مثلا فانه لا يعود ثمـة صراع بين الطبقات بعد الآن لان انقسام المجتمع الى طبقات تلاشى هو نفسه ان تقدم الانسانية من النقطة ب الى النقطة ج ، ومن النقطة ج الى النقطة د ، وهكذا دواليك حتى النقطة س ، **لا يحدث قط على صعيد الاقتصاد وحده** • فالانتقال من

النقطة ب الى النقطة ج ، ومن النقطة ج الى النقطة د ، وهكذا دواليك يتطلب كل مرة انتفاضة في البنية الفوقية وحدوث بعض التبدلات فيها ولا يمكن بلوغ نقطة مرغوب بها الا بعد حدوث مثل هذه التبدلات **ان الطريق من نقطة انعطافية الى نقطة انعطافية اخرى تمر « بالبنية الفوقية » دائمـا .** فالاقتصاد لا يستطيع على وجه التقريب ان ينتصر بنفسه قط ولا يمكن ان يقال عنه قط: fara da se لا ابدا من تلقاء نفسه ، بل دائما **بواسطة البنية الفوقية وحدها** ، دائما من خلال بعض المؤسسات السياسية ومن خلال **وحدها** ذلك هو المعنى الذي لا جدال فيه لنظرية الاقتصاد المادية حين ننظر اليها من وجهة نظر العقل العملي

علام تتمحور المؤسسات السياسية لاي بلد معين ؟ اننا نعرف من قبل انها تعبير عن العلاقات الاقتصادية ومهمـا يكن من شيء فلا بـد لهذه المؤسسات السياسية المستدعاة اقتصاديا من المرور اولا بهدف ذلك التعبير العملي بأذهان الناس في صورة **مفاهيم** معينة وهذا هو السبب في ان الانسانية لا تستطيع في تقدمها الاقتصادي أن تنتقل قط من نقطة انعطافية الى اخرى دون ان تجتاز اولا ثورة كاملة في **مفاهيمها**

وعلى أي حال فاذا نحن تحدثنا عن المفاهيم فهذا يعني انتقالنا الى مسألة **الثقافـة** التي تعالجها على أي حال في مقالتك

فأنت تقول إن السعي الى الثقافة يبرز من كل حدب وصوب وسط شعبنـا وان جهود جميع الناس المفكرين يجب ان تتوجه نحو هذا الهدف هذه بالفعل حقيقة عظيمة لا جدال فيها اجل ، ههنا يجب اولا وقبل كل شيء أن تتركز جميع جهود اولئك الذين لا يريدون ، كي نستشهد بالشاعر . أن يلطخوا بالعار لقب المواطن(٨٠).
لكن هل يحتاج المادیون الاقتصادیون الى اقناع بهذا الشأن ألم يقولوا قط ان الشيء الاكثر ضرورة في الوقت الحاضر هو تشديد **وعي الذات لدى المنتجين** ؟ هذا يضاهي ما قلت على وجه التقريب **يضاهيه على وجه التقريب** لان تعزيز ذلك الوعي لدى المنتجين مهمة اكثر تحديدا ـ وصحيح انها اصعب جدا ـ من **مجرد نشر المعرفـة** بين الناس ان منتجا يستطيـع القراءة والكتابة ويملك بعض المعلومات العلمية الاساسية اكثر او اقل يتفوق من جميع وجهات النظر عن منتج ضائع في ضباب الجهـل الكثيف الذي غرق فيـه بصـورة بالغـة البؤس الفلاح ايفـان يرمولايفيش(٨١) الذي وصفه غ.ا اوسبنسكي بصورة فنية رائعة على اعتباره ممثلا لنظام من المثل العليا الزراعية فعلى الرغم من نظام مثله العليا لم يكن ايفان يرمولايفيتش شخصا بعد بالمعنى الصحيح للكلمة بل كان **امكانية** شخص فقط واذا استشعر ميشوتكا ، هذا الابن لشبه الانسان ايفان يرمولايفيتش ظمأ الى المعرفة (وهو ما لم نستشعره في كتابات اوسبنسكي) ، فلعله يصبح **انسانا** اذن . ولو انه اكتسب بعض المعرفة ، حتى اذا كانت بدائية ، **فمعنى ذلك انه قام ببعض الخطوات** ، حتى

اذا كانت خطوات قصيرة ، على طريق **التطور الانساني ،** وبالتالي يكون متفوقا حتى درجة بالغة على ابيه  لكنه حتى اذا حصل على بعض المعرفة بالحساب والعلوم الطبيعية فقد يظل جاهلا تماما فيما يخص مركزه الاجتماعي الخاص والمهمات النابعة عنه  وما لم يع مثل هذه المهمات بقي مجرد صفر فيما يتعلق بقدر من التأثير الشعوري في قوة الاقتصاد العمياء  وذلك حتى اذا خطا خطوات عديدة على طريق التطور الانساني  ومهما تحدثنا نحن المثقفين عن امكانية ممارسة الناس لتأثير عقلاني في تطور العلاقات الاقتصادية ، فان هذا التأثير لن يتحقق في مصالح ميسوتكا حتى يضع هو نفسه نصب عينيه هدف التأثير في هذه العلاقات

وفي آخر تحليل  فان تحرر ميشوتكا من القوة العمياء للضرورة الاقتصادية لا يمكن الا ان يكون من شأنه وحده  وهذا هو السبب في ان اي عمل لا يمكن أن يكون اخصب من ذلك العمل الذي يقوم به اناس ينصرفون الى ايضاح هذه الامور جميعا لميشوتكا

وتقول ان تعطشا حميدا جدا الى المعرفة نشأ في الارياف  هذا صحيح جدا وباعث على سرور بالغ  والشيء الذي يصعب على الفهم هو السبب في اقتصارك على ذكر الريف **وحده**  ان ذلك الظمأ الحميد جدا الى المعرفة لاقوى من ذلك في المدن  في المراكز الصناعية الكبرى  وان السكان هنا لاكثر تقبلا للمعرفة بسبب من أوضاعهم  وهم الذين ينبغي التوجه اليهم في المحل الاول  ان الاقتصاديين الماديين يسنون **في المدن** القضية التي هب الشعبيون في السبعينات لاثارتها في الارياف

وكما ترى يا سيدي  فالمادية الاقتصادية لا تحكم في حال من الاحوال بالخمول على انصارها  وليست اليقينية(٨٢) والمادية الاقتصادية نفس الشيء الواحد مطلقا

وانت تقول  مهما بلغ ألم الماركسي لشقاء الشعب ، ومهما بلغ عذابه للشعور بعبء هذا الشقاء ، فلا بدّ له على أي حال ، بوصفه انسانا مؤمنا بانتصار الرأسمالية المحتوم في روسيا ايضا  أن يعجل في هذه العملية بحيث يحقق البداية الاسرع للمرحلة الرأسمالية التي ستؤدي بعدها علاقات الانتاج الى قيام نظام اقتصادي جديد  وهو نظام يتفق مع ما نسميه متطلبات العدل

واذا تركنا جانبا غموض عبارة  نظام اقتصادي جديد  وهو نظام يتفق مع متطلبات العدل  فسوف اشير الى انك لم تفلح في استخلاص نتيجة صائبة تماما مما يقول الماديون الاقتصاديون عن حتمية انتصار الرأسمالية التام في روسيا

لنفترض ان مفكرا حرا نمسويا عبر في الاربعينات عن اليقين بأن مترنيخ ، بسياسته الرجعية ، تسبب في سقوط نظامه

هل ستقول انه اذا كان اي مفكر حر نمسوي صاحب منطق حازم وقناعات وطيدة لاصبح عميلا لمترنيخ وايد جميع تدابيره الرجعية بكل قواه ؟ لن تقول ذلك

فأنت تدرك جيدا ان مثل هذا المفكر الحر النمسوي يستطيع ان يجد قضية اخرى اجدر حتى درجة كبيرة على الاسس التي **هيأها مترنيخ دون ارادة منه**

ومهما يكن من شيء ، فان تفكيرك مختلف فيما يتعلق بالماديين الاقتصاديين. فحين عرفت ان الرأسمالية في اعتقادهم تهيء التربة لانتصار نظام اقتصادي يتفق مع متطلبات العدل رحت تؤكد انه لا يمكن ان يكون لديهم اي اهتمام آخر في الوقت الحاضر سوى اقامة الرأسمالية من اين هذا الخلاف ؟ لماذا لا يتفق موقفك من الماديين الاقتصاديين مع متطلبات العدل ؟ ذلك انك تفهم على اكمل وجه ما نوع العمل الذي يمكن توفره لرجل يناوىء نظام مترنيخ فيما تخفق في فهم ما يمكن ان يصنعه اولئك الذين لا يخشون وهم في المبدأ خصوم الرأسمالية ، ان يشاهدوا انتصارها الذي لا شك فيه في روسيا

اني ارجو ان يتم القضاء حتى درجة ما على هذه المغالطة بما قلته عن الحاجة الى تنمية الوعي في المنتجين وعن اشياء اخرى

أينبغي التعجيل في تلك العملية ؟ » اجل ينبغي ذلك فعلا الا ان ذلك يمكن ان يتم بطرق مختلفة سوى ان السيد اوبولنسكي مثلا يخطىء حين يعتقد ان املاق الشعب يمكن ان يعجل في تطور الرأسمالية فهذا التطور **لا يعجّل به بل يتباطأ من جراء املاق الشعب** • وعلى العكس من ذلك ، فمما لا ريب فيه انه يتسارع بفعل الوعي المتنامي لدى المنتجين وهو ما اثبتته على خير وجه ممارسة الحياة الاجتماعية في اوروبا الغربية وعلى اي حال فان هذا النمو يحسن من جهة اخرى اوضاع المنتج يعني يقضي على الاقل على بعض المظاهر المؤذية للرأسمالية ويمكن القول مع بعض التحفظات انه بقدر ما تتحسن احوال المنتج ترتفع درجة وعيه ، الامر الذي يترتب عليه اذن التعجيل في التطور الرأسمالي يمكن دعمه بالانحياز الى جانب المنتج في الوقت نفسه وهذا هو ما يبدو ان السيد اوبولنسكي لا يفهمه

ولا يرى الماديون الاقتصاديون انه في امكان الدولة في الوقت الحاضر ان تتدخل بصورة مقصودة في حياة الشعب الروسي الاقتصادية بهدف تحقيق « متطلبات العدل » ، وهو ما يؤلمك فيما يبدو لكن اسمح لي ان اسألك أيمكن ان يكون ذلك ممكنا في اعتقادك ؟ أيمكن ان تكون نسيت ان الاشياء تتمحور على ظروف المكان والزمان ؟ لكن اولئك الذين يؤيدون العدالة ،حسب تعبيرك يجب ان يناضلوا قدر مستطاعهم كي ينقذوا كل انسان حي كي يمنعوا انفصال الفلاح عن الارض وهلم جرا هذا كله رائع جدا ، لكن النضال **فرديا** في سبيل انقاذ البشر الاحياء يعني الانخراط في البر ليس غير وان البر بالطبع شيء رائع جدا على طريقته الخاصة ؛ لكننا ، انت وانا ، لا نتحدث عن البر

ان « النضال » في سبيل منع انفصال الفلاح عن الارض امر رائع جدا ، لكننا

كرر القول ان ذلك جيد جدا في ظروف مكانية وزمانية محددة كما اوضح ذلك لك نقولاي تشيرنيشفسكي فقد انخرط بحماسة وبراعة في مساجلة مع الاستاذ فيرنادسكي دفاعا عن الملكية المشاعة وانصار الاسس القديمة لروسيا يدافعون عن المشاعة اليوم ايضا وهم مستعدون كذلك ضمن حدود حذقهم وامكاناتهم لمناقشة خصوم المشاعة وبالتالي تستخلص النتيجة التالية ، الا وهي ان انصار تلك الاسس الحاليين يشاطرون المؤلف المذكور اعلاه رايه ، وذلك بخصوص المشاعة على الاقل بيد ان هذه النتيجة متعجلة جدا ، اذ ان فارقا شاسعا يقوم بين نقولاي تسيرنيشفسكي واولئك الذين يزعمون اليوم انهم اتباع له بمعنى انهم يتخذون موقفا **مذهبيا** من تلك القضية بالذات التي كان موقفه **نقديا** منها وبكلام آخر ففيما دافع هو عن المشاعة **مفترضا توفر بعض الشروط** التي يؤدي انعدامها في رايه الى حرمانها من أي معنى على الاطلاق فان اتباعه المزعومين في الوقت الحاضر يدافعون عنها مهما تكن الاحوال وهم مستعدون للدفاع عنها مهما تغيرت بصورة جذرية شروط وجودها الخارجية والداخلية ولذا اقول اذا كان مثل هؤلاء الناس لا يبرحون مخلصين **لحرفية** عقيدة هذا المؤلف فمما لا ريب فيه مع ذلك انهم نسوا كليا **روح** هذه العقيدة

وواقع الامر انهم شوهوا حتى **حرفيتها** ، اذ ما ابعد ما يقولون عما قال نقولاي تشيرنيسفسكي

وانت تتذكر بالطبع يا سيدي تلك المقالة الشهيرة نقد المستبقات الفلسفية ضد الملكية المشاعة ان هذه المقالة تعتبر عادة دفاعا عن مشاعتنا الروسية وهذه خطيئة فادحة فليست مشاعتنا الروسية ما يدافع عنه كاتب هذه المقالة بل الملكية الجماعية عامة وبذلك يرفض رأي الاقتصاديين الليبراليين الذي يبغضه جدا بأن الحضارة لا تتلاءم مع الملكية الجماعية وهذا ما يقوله ان خطوة الحضارة الاولى انكار لذلك النوع من الملكية ، ولسوف تكون خطوتها الثانية انكارا لهذا الانكار ، عودة الى الجماعية . وانه ليبرهن اذن على ان ديمومة المرحلة الثانية ، مرحلة سيطرة الملكية الفردية ، يمكن ــ **مع توفر ظروف معينة واوضاع معينة لدى الشعوب الاكثر تقدما ــ ان تلغى ،** يعني ان الملكية الجماعية البدائية يمكن في بعض المواضع ان تنتقل بصورة مباشر الى الشكل الاعلى من الجماعية ولن اعالج هنا مسألة ما اذا كان لا بدّ من بعض الملحقات او التحفظات لفكرة امكانية تجاوز مرحلة تاريخية كاملة بل سوف اقتصر على طرح هذا السؤال هل تعالج المقالة آنفة الذكر المشاعة الروسية ؟ ولسوف اجيب كلا انها لا تفعل ذلك انها تتحدث عن الحجة الخاصة بالمشاعة ، **لكنها لا تتحدث عنها بالذات** ، لا تتحدث عن موضوع هذه المشاعة ، وهو السبب في ن الحجة عن امكانية تجاوز مرحلة الملكية الفردية لا تشير الى هذه المشاعة .

أتريد برهانا يا سيدي ؟ سوف اقدم لك هذا البرهان .

يقول كاتب المقالة في مقدمته

« احس الخجل من نفسي فأخجل اذ اتذكر الجرأة التي في غير محلها والتي اثرت بها مسألة الملكية المشاعة فحين فعلت ذلك تهورت ، وبصراحة اصبحت أحمق في نظري بالذات وانه لمن الصعب ايضاح سبب خجلي لكني سأحاول ذلك بقدر استطاعتي فمهما تكن الاهمية التي قد اعلقها على مسألة الحفاظ على الملكية المشاعة فهي مع ذلك لا تشمل الا مظهراً واحدا من القضية التي تنتسب اليها ان هذا المبدأ من حيث هو الضمانة الاعلى لرخاء اولئك الذين يتعلق بهم ، لا يصبح عديم المعنى الا حين تعطي ضمانات اخرى وادعى للرضا ، مثل تلك الضمانات الضرورية من اجل توفير الصلاحية لعمله وينبغي اعتبار شرطين من حيث هما مثل هذه الضمانات اولا ان الريع يجب ان يخص اولئك الذين يسهمون بصورة فعلية في الملكية المشاعة بيد أن هذا لا يكفي فلا بد من الاشارة كذلك الى ان الريع لا يستحق اسمه الا حين لا يكون الشخص الذي يحصل عليه مثقلا بالالتزامات الائتمانية النابعة عن حقيقة الحصول عليه فحين لا يسعف الحظ شخصا ما بحيث يحصل على الريع خالصا من اية التزامات فانه يفرض اذن على الاقل أن المدفوعات المترتبة على تلك الالتزامات لن تكون عالية جدا بالمقارنة مع الريع وليس هذا سوى التقيد بذلك الشرط الثاني بأن اولئك المعنيين برخائه يمكن ان يرغبوا في حصوله على الريع

ومهما يكن من شيء ، فان هذا الشرط لا يمكن توفره في موضوع تحرر طبقة الفلاحين وهو السبب في ان كاتب المقالة المذكورة يرى انه من العبث الدفاع لا عن الملكية المشاعة فحسب ، بل حتى عن تخصيص الارض للفلاحين وان كل من تراوده ادنى ريبة في هذا الشأن لا بدّ ان يقتنع بالمثال التالي الذي يقدمه الكاتب فهو يقول مستخدما طريقته المفضلة بالايضاح بواسطة « الامثلة

لنفترض اني عنيت بأتخاذ الخطوات للحفاظ على بعض الاطعمة التي تشكل غذاءك من المفروغ منه اني فعلت ذلك بدافع موقفي الطيب منك فان حميتي ترتكز على الافتراض بأن الطعام يخصك وان الغذاء المطهو منه سليم وهو في مصلحتك وتصور مشاعري حين اعلم ان الطعام لا يخصك مطلقا وانه لا بدّ لك لقاء كل غذاء منه ان تدفع مالا مقدارا من المال اعظم مما يساويه الطعام مبلغا انت على العموم عاجز عن دفعه الا بأقصى المشقة اية افكار سوف تراود ذهني لدى مثل هذه الاكتشافات ؟... لشد ما كانت حماقتي حين اظهرت الاهتمام بالحفاظ على الملكية في ايد معينة دون ان اتأكد مسبقا من ان مثل هذه الملكية سوف تصل الى تلك الايدي ، والاكثر من ذلك بشروط مناسبة الافضل ان يهدر ذلك الطعام الذي لا يجلب الا الخسارة الى انسان احترمه ! اللعنة على كل هذه القضية التي لا تجلب لك سوى الخراب ! »

وفي مؤلف آخر يقول الكاتب نفسه ما يلي « فليوضع تحرر الفلاحين بين يدي حزب الملاكين ، فلا فارق في الامر مطلقا ! وردا على الملاحظة بان الفارق

كبير جدا نظرا لان حزب الملاكين عبر عن معارضته لتخصيص الارض للفلاحين بقول بكل صراحة

« لا ، ليس ثمة فارق كبير ، بل هو فارق زهيد جدا انه يصبح فارقا كبيرا لو حصل الفلاحون على الارض دون تعويض فثمة فارق بين اخذ شيء من امرىء ما وبين السماح له بالاحتفاظ به ، لكن لا بد من الدفع في كلتا الحالتين وتختلف خطة حزب الملاكين عن خطة التقدميين بكونها ابسط واكثر اقتضابا وهي بالتالي افضل **ان فيها قدرا اقل عن التسويف ، والارجح ان فيها كذلك اعباء اقل على كاهل الفلاحين*** ان اي فلاح يملك مالا سوف يبتاع ارضا ، ولا حاجة الى اجبار فلاح لا يملك ما يكفي من المال لابتياعها **فذلك لن يفعل سوى الحاق الدمار بمثل هذا الفلاح*** فالتعويض والشراء شيء واحد واذا شئتم الحقيقة ، فليحرروا دون ارض لقد طرحت المسألة بطريقة لا ارى معها سببا للتعلق حتى بشأن ما اذا كان الفلاحون سوف يتحررون ام لا واقل من ذلك بشأن من سوف يحررهم ـ الليبراليون ام الملاكون ففي رأيي ان الامر سواء ولعل الملاكين هم الافضل من اجل ذلك

ويلاحظ في موضع آخر من المؤلف نفسه

يجري الحديث عن تحرير الفلاحين اين هي القوى من اجل مثل هذا الاجراء ؟ هذه القوى لا وجود لها بعد وانه لمن العبث الانصراف الى تحقيق امر لا توجد قوة له بحيث ترون الى اين تتجه الامور سوف يحررون واحكموا بأنفسكم ما عساه يترتب على ذلك ، ما عساه ينجم عن معالجة امر لا تستطيعون تنفيذه ؟... سوف تفسدون الامور ، وهذا سيؤول الى نهاية مقيتة ما عسى ان يقول المرء عن اصحابنا المحررين ، عن جميع اشباه ريازانتسيف ورهطه ؟ يا لهم من متباهين وثرثارين وحمقى

اظن يا سيدي ان هذه المقتطفات تشهد بما يكفي من الاقناع على عدالة ما قلته عن آراء نقولاي تشيرنيشفسكي بخصوص المشاعة الروسية لقد دافع عنها اولا ، ومن بعد رأى ان الشروط لم تتوفر بعد كي تكون الملكية المشاعة ـ او حتى تخصيص الارض للفلاحين عموما ـ في مصلحة الشعب ومن ثم جعل يحس **الخجل** من تلك الثقة التي في غير موضعها والتي هب يدافع بها عن المشاعة ( « اللعنة على كل هذه القضية ، الخ )

وان اولئك الذين ينادون اليوم بأنهم اتباع له يفكرون بصورة مغايرة انهم يبدون اهتماما عظيما بالمشاعة ويغضون النظر عن الشروط التي يمكن للملكية المشاعة في حال انعدامها ان تصبح ـ وهي تصبح بالفعل ـ ضارة بالشعب لقد حولوا الى **عقيدة** ميتة ما كان ينظر اليه من وجهة **نظر نقدية** .

واعلم اني سوف اتهم بالتجني ولسوف اسأل « متى غاب عن بال المدافعين عن المشاعة الشروط التي لا بد منها كي تكون نافعة للشعب ؟ أليس الشعبيون هم

* التشديد من قبلي .

الذين كرروا باستمرار انه ينبغي صنع هذا الامر او ذاك في سبيل توطيد الاسس وتوفير الازدهار لها ؟ وبالفعل ، فان السادة الشعبيين قدموا مشاريع عديدة دعما للاسس واحكاما لها بيد ان عددا كبيرا من المشروعات المفيدة للشعب طرحت حتى لدى نسر مقالة نقد المستبقات الفلسفية وعلى اي حال وهذا ما تبين لنا فالمشاريع الجيدة وحدها لم تكن كافية بالنسبة الى كاتب تلك المقالة فلما كان ناقدا صارما وجازما تساءل **اين هي القوى اللازمة من اجل تحقيق تلك المشاريع؟** وحين اتضح له ان مثل هذه القوى لا وجود لها وان المشاريع الجيدة مقدر لها ان تظل مجرد **مشاريع** وجد من المخزي أن يضيع الحديث في مناقشتها وسمي بصورة لاذعة اولئك الذين يمسكون بها حمقى ومدعين وثرثارين وقس على ذلك أتلك هي الطريقة التي ينظر بها الى الموضوع المدافعون الحاليون عن الاسس كلا فموقفهم منها مختلف ان الحديث عندهم هو كل شيء وهم لا يتساءلون عن مصدر القوى اللازمة من اجل تنفيذ المشاريع الجيدة انهم مصابون بنفس ذلك الوهم العقيم الذي دانه نقولاي تشيرنيشفسكي بشدة بالغة والذي سخر منه بقسوة شديدة سفيستوك الشهير(٨٣)

وقبل فترة قصيرة من الزمن هاجم السيد غلينسكي على صفحات **النذير التاريخي(٨٤)** الماديين الاقتصاديين بسبب استخفافهم المزعوم برجال الستينات(٨٥) **واتجاسر فأستلفت انتباه السيد غلينسكي الى انه لا يفعل سوى** التلاعب بالكلمات **فالماديون الاقتصاديون يستطيعون اخباره جيدا بأن ثمة انواعا** مختلفة من رجال الستينات ، بالضبط مثلما هناك انواع مختلفة من الفلاحين. **فاذا كان « رجال الستينات » في مطامحهم واتجاه افكارهم وآرائهم** يشبهون **مؤلف الملحوظات عن ميل ، فان الماديين الاقتصاديين يضمرون لهم اذن اعمق الاحترام ومهما يكن من امر ، فلا يمكن ان يضمروا الاحترام لاولئك من** رجال الستينات **الذين يمكن لغرورهم أن يثير استياء عميقا في مؤلف الملحوظات عن ميل وجميع زملائه**

ان الماديين الاقتصاديين ،شأنهم شأن ذلك الكاتب ، **اعداء للفردية ، وهم على قناعة بان المرحلة العليا من الحضارة** يجب ان تبلغ بالضرورة ذلك الشكل من الملكية الذي تتسم به المرحلة البدئية وعلى اي حال **ففي اعتقادهم ان هذا وحده سبب** غير كاف من اجل الدفاع عن **الملكية المشاعة الحالية عندنا** ان هذه الملكية عديمة الجدوى حاليا بالنسبة الى الشعب لان الشروط اللازمة كي تكون هذه الملكية نافعة **للشعب معدومة واعتقد انه لم يكن لها وجود قط*** ) **كما انه لا وجود للقوى** التي تستطيع **تحقيق وجود مثل هذه الشروط ان الماديين الاقتصاديين**

* انظر بهذا الخصوص فولفين برهان على المذهب الشعبي في مؤلفات السيد فورونسوف ( ف . ف ) .

يفتقرون كليا الى التعاطف مع الآمال الكاذبة التي ينطوي عليها اولئك الذين يعتقدون ان هذه الشروط يمكن خلقها بالمحاكمة السكولاستيكية عر دور الفرد في التاريخ ، وان اي عالم اجتماعي شريف يجب بالضرورة ان يكون ذاتيا وقس على ذلك وهم يلامون لقسوتهم حيال مثل هؤلاء الناس لكن ما عساهم يفعلون لقد تعلموا من دوبروليوبوف وتشيرنيشفسكي وغيرهما من القادة المماثلين للفكر الروسي ان يسخروا من الامال الكاذبة وهذه العادة متأصلة بشدة فيهم بهذا الشأن بحيث لا يمكن تقويمهم ويخيــل الي على أي حال ان هذه عادة لا تستوجب الشجب في حال من الاحوال

ان اولئك الذين يقولون ان الماديين الاقتصاديين غير مبالين بمصالح الشعب الاقتصادية اما يرتكبون خطأ فادحا واما يشوهون الحقيقة بصورة فظة لا ، ليسوا غير مبالين بها ، لكنهم على يقين راسخ من ان شيئا نافعا للشعب لن يترتب قط ، في حال من الاحوال ، على طرق « الصراع في سبيل رخاء الشعب التي يوصي بها مؤيدو الاسس القديمة عندنا **وبهذا الخصوص ،** فثمة هوة بين الماديين الاقتصاديين والشعبيين ولا مجال لاي اتفاق فيما بينهم لكنني اعتقد يا سيدي انك لست في عداد المدافعين عن الاسس » على أي حال ، واحسب ان الماديين الاقتصاديين يمكن ان يتفقوا مع الناس الذين في **اتجاهك** في مجالات عديدة ، لكن ليس في جميع المجالات قطعا

* * *

# بعض الملحوظات عن التاريخ
# ( اسس السوسيولوجية ، بقلم ب. لاكومب
# ترجمت عن الفرنسية باشراف ر ۰ ١ ۰ سيمنكوفسكي ،
# ونشرها ف ـ بافلنكوف )

نحن متأكدون من ان عددا كبيرا من القراء الروس يضعون لاكومب في عداد ما يسمى ( وبصورة مغلوطة تماما ) الماديين الاقتصاديين واذا شئتم فهو بالفعل مادي اقتصادي لكن من صنف خاص جدا فآراؤه لا تشبه في حال من الاحوال تلك الاراء الصادرة عن الناس الذين ندين لهم بالنظرية المعروفة بالمادية الاقتصادية او بصورة اصح الجدلية وهذا هو السبب في رغبتنا في الحديث عن كتابه

ان مكانا واسعا مكرس في هذا الكتاب للبحوث عن طبيعة الانسان الانسان عامة وفي رأي المؤلف ان الطبيعة الانسانية يجب ان تقدم المفتاح من اجل فهم الظواهر الاجتماعية واما يتمسك لاكومب بوجهة نظر الطبيعة الانسانية ينتهي بصورة منطقية تماما الى النتيجة القائلة ان **علم النفس** يستطيع ان يقدم لعالم الاجتماع خدمات اجل حتى درجة كبيرة مما يقدمه **علم الحياة** ففي رأي لاكومب ان علم النفس لا علم الحياة هو الذي ينطوي على تفسير التاريخ وهو يتحدث في تحليله للطبيعة الانسانية عن متطلبات عديدة ملازمة للانسان ومثال ذلك حاجته الى المأكل والملبس والمأوى وحاجاته الجنسية وحاجته الى حب اشباهه البشر والى كراهيتهم ايضا والحاجة الى كسب تأييدهم واخيرا حاجاته الفنية والعلمية

وينشىء لاكومب نوعا من التراتب لمثل هذه الحاجات فيقول ان ذلك الذي يريد ان يتكهن بالدور التاريخي لحاجة ما يجب ان يبحث اولا عن درجتها من

الالحاح ( ص ٤٧ ) ويتبين ان الحاجة الى المأكل والملبس والمأوى هي الاشد حيوية لكن لاكومب يمضي فيشير الى ان الحاجة الى التنفس اكثر حيوية ايضا ، ومع ذلك فالهواء المتوفر غزير ويكفينا ان نفتح افواهنا كي نستخدمه وبنتيجة ذلك ، فمهما تكن هذه الحاجة الاخيرة بالغة الاهمية فليس في مقدورها ان تمارس اي تأثير في تطور المجتمعات البشرية لقد استخلص لاكومب ، من بين **الحاجات الجسمانية** ومختلف اصناف **النشاط الصناعي** المقصود منها تلبيتها ، فئة خاصة يسميها الحاجات **الاقتصادية** ، وهو يعتبرها « الاشد تأثيرا في التاريخ

ان الفعاليات الاقتصادية تتقدم على جميع الحاجات الاخرى عند الفرد وذلك من جراء بنية الانسان الجسدية ، وهي لا تتفوق خلال مرحلة معينة من حياة الانسان فحسب ، بل في جميع الاوقات يوما فيوما ولا تظهر الرغبات الاخرى الا بعدما يكون الحافز الاقتصادي قد لعب دوره ، وهي الرغبات التي يتبقى من اجل تلبيتها مزيد من الوقت والقوى بقدر ما تكون النشاطات الاقتصادية قد استفرقت قدرا اقل منها ( ص ٤٨ ) ونظرا لان الحافز الاقتصادي هو الاقوى ، فانه يسود في كل مكان وزمان على جميع الحوافز الاخرى حالما يصطدم بها ولذا يرى لاكومب ان له الحق في بناء « الفرضيات التالية ١ — لا بد للمجتمعات ان تحقق اولا درجة معينة من الثروة قبل ان يصبح التطور الذهني ممكنا ، ٢ — ان التقدم الاقتصادي يعدل بصورة لازبة المظاهر الاخرى للبنية الاجتماعية ، ٣ — ان التقدم غير الاقتصادي لم يحصل الا بمقدار متلائم مع المصالح الاقتصادية ( ص ٥٧ )

هذه هي كل مادية لاكومب الاقتصادية ،ولا يمكن للمرء الا ان يوافق على الفرضيات المقدمة من قبله وذلك بالرغم من ان صياغتها يعني بكل معنى الكلمة صياغة الفرضيتين الثانية والثالثة غير مرضية تماما ولا بد من الاقرار ايضا بأن هذا المؤلف غالبا ما ينطق بأشياء كثيرة صحيحة وذكية تأييدا لرأيه بأمثلة متنوعة ولذا كان في الامكان الاستفادة من مطالعة كتابه بالنسبة الى جميع اولئك الذين يلقون نظرة رزينة على الحياة الاجتماعية وقد تعبوا من شطحات الوهم السوسيولوجية في روسيا لكنه لا يجوز ان ننسى ان كتابات لاكومب جيدة في بعض الفقرات فحسب وان « ماديته ، على العموم ، لا تستطيع الصمود حتى للنقد الاوهى

ليس لوجهة نظر الطبيعة الانسانية ادنى جدة في العلم الاجتماعي. فقد نادى بها ارسطو على سبيل المثال هو الذي حاول كما يعرف الجميع ان يثبت ان العبودية **تتفق** كل الاتفاق مع طبيعة اولئك الذين يحملون نيرها

كذلك نادى بها جميع رجال الانوار الفرنسيين في القرن الثامن عشر هؤلاء الذين لم يكفوا عن تكرار القول ان العبودية **تتناقض** مع الطبيعة الانسانية التي تتطلب **الحرية** .

ولقد نادى بوجهة النظر نفسها معارضون عديدون لرجال الانوار الفرنسيين ، اولئك الذين حاولوا تبرير النظام القديم بالاستنجاد بالطبيعة الانسانية اياها ومن بعد ، فقد كان اوغست كونت على يقين راسخ من ان الوضع الاجتماعي الادنى للمرأة نتيجة ضرورية ولا مفر منها لطبيعتها* ولقد ربط اوغست كونت هذا نفسه ما يسمى قانونه الخاص بالاطوار الثلاثة(٨٦) ( الذي اتخذه في واقع الامر عن سان سيمون ) بالطبيعة الانسانية من دون اي شيء آخر** وعلى العموم لم يكن ثمة كاتب واحد عن المسائل الاجتماعيــة حتى الاربعينات من القرن الحالي ، الا واستنجد بطريقة او اخرى بالطبيعة الانسانية ويخطىء لاكومب خطأ جسيما حين يعتقد ان مؤيدي نظرية ما يعرف بالروح القومي كانوا بعيدين جدا عن وجهة نظر الطبيعة الانسانية

وينادى هؤلاء الناس بوجهة النظر هذه ايضا ، وان اعطوها مظهرا مغايرا لقد استنبطوا من طبيعة الانسان عامة طبيعة الروماني وطبيعة الاغريقي ، وطبيعة الجرماني وطبيعة السلاقي ، وهكذا دواليك

وكانت كل « طبيعة من هذا النمط سحرا حل جميع الصعوبات التاريخية ، ولاكومب يصيب كبد الحقيقة حين يعتبر نظرية الروح القومي عديمة الاساس

ولا تقل وهنا عن ذلك النظرية العزيزة على قلبه جدا عن طبيعة الانسان عامة ان واحدا من هذين الامرين ممكن اما ان الطبيعة ثابتة لا تتغير وفي هذه الحال من الغريب الاستنجاد بها في دراسة مسائل التطور الاجتماعي كغرابة تفسير التبدلات الطارئة عموما على كمية **متحولة** بخصائص كمية ثابتة ؛ او لعل طبيعة الانسان بالذات عرضة للتبدل ، وفي هذه الحال يقع على كاهل علماء الاجتماع ان يكتشفوا الاسباب التي يؤدي فعلها الى ذلك التبدل وعلى اي حال فهــذا يعني الدوران في حلقة مفرغة **والثرثرة** حول الامور حين يكون الحل العلمي ممكنا ولقد وجد علماء اجتماعيون كثيرون انفسهم في تلك الحلقة المفرغة ومثالنا على ذلك اوغست كونت اياه ، هــذا العدو للميتافيزياء وهــو الذي خلق من الطبيعة الانسانية كائنا ميتافيزيائيا حقيقيا ومهمـا يكـن من شيء فمن المستغرب حاليا ان يقع العلماء في هذه الحلقة المفرغة التي عثر على سبيل للافلات منها منذ زمن طويل مؤسسا المادية الجدلية الحالية من دون سواهما

---

* انظر **رسائل اوغست كونت الى جون ستوارت ميل** ، باريس ١٨٧٧ الرسالة المؤرخة في تموز ١٨٤٣ والرسالة الاخرى المؤرخة في ١٥ تشرين اول من العام نفسه

* انظر **مبحث الفلسفة الوضعية** ، طبعة عام ١٨٦٩ المجلد الاول ، ص ٨ ـ ٩ والمجلد الثالث ص ١٩٣ وعن الطبيعة الانسانية انظر ايضا المجلد الرابع ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ ٣٨٧ ، واقساما عديدة اخرى من **المبحث** .

يقول الماديون الجدليون ان (( **خصائص** )) الانسان التاريخي ، عاداته ومطامحه وافكاره ومثله العليا وما يحبه وما يمقته تتغير جميعا مع سياق التطور الاجتماعي الذي هو رهن باسباب لا تقع داخل الانسان نفسه بل **خارجه** ان العلاقات الاجتماعية للقبائل القناصة لا تشبه علاقات الزراع الاجتماعية كما ان العلاقات الاجتماعية للشعوب المنخرطة في الزراعة تحت سيطرة ما يعرف **بالاقتصاد الطبيعي** لا تشبه العلاقات الاجتماعية للشعوب التي (( **تجتاز مدرسة الرأسمالية** )) ، وقس على ذلك

ينتقل الناس من نمط انتاجي الى آخر ليس من جراء نوع مختلف (( للطبيعة )) ظهر فيهم بل من جراء نمو سلطة الانسان الاجتماعي على الطبيعة ومن جراء تغير حالة **قواهم المنتجة** ولذا يمكن ويجب ان يقال ان مفتاح التقدم التاريخي للجنس البشري يجب أن يبحث عنه اولا في تطور القوى المنتجة

وان **الطبيعة** بالذات هي التي قدمت الحافز البدئي لتطور القوى المنتجة الاجتماعية التي يرتهن نموها حتى درجة كبيرة بخصائص **البيئة الجغرافية**. ومهما يكن من شيء فان موقف الانسان حيال البيئة الجغرافية ليس بالموقف الثابت فبقدر ما يكون نمو القوى المنتجة للانسان الاجتماعي اعظم يكون التبدل اسرع في موقفه من الطبيعة كما انه يخضعها اذن لسلطانه بصورة اسرع ومن جهة اخرى ، فبقدر ما يكون تطور القوى المنتجة اسرع يكون تقدمها اللاحق اعجل وغير معوق ان القوى المنتجة في بريطانيا الحالية تنمو اسرع بصورة لا تقارن مما كانت تنمو في اليونان القديمة على سبيل المثال وهذا المنطق الباطن لتطور القوى المنتجة هو الذي يخضع له بصورة حاسمة التطور الاجتماعي بمجمله وذلك لسبب بسيط هو أن العلاقات الاجتماعية لا تتلاءم مع حالة معينة للقوى المنتجة لا بدّ ان تتعرض للفناء بصورة حتمية ومثال على ذلك هو العبودية التي كفت عن الوجود حين باتت في تناقض مع قوى المجتمع المنتجة ، او بكلمات ابسط باتت غير مربحة ومن المفروغ منه ان هذا القضاء على المؤسسات والعلاقات البالية لا يحدث تلقائيا — وهي فكرة سخيفة غالبا ما تنسب الى الماديين الجدليين من قبل خصومهم ليس في مقدورك الحصول على اي شيء لقاء لا شيء هذه حقيقة قديمة يدركها الماديون الجدليون جيدا وهم سترشدون بها في الممارسة ضمن حدود اعرض بما لا يقاس من الكثيرين والكثيرين جدا من المثاليين والذاتيين المغرورين الخ الخ لكن ليس هذا ما يعنينا في الوقت الحاضر فلب الموضوع هو ان العالم الذي تخلى عن وجهة نظر الطبيعة الانسانية لا يستطيع ان يبحث عن تأويل للتاريخ في **علم النفس** كما لا يمكن ان يتحقق ذلك في **علم الحياة** فليست وجهة النظر السيكولوجية سوى حالة خاصة من وجهة نظر **الطبيعة الانسانية** اما ان افكار الانسان تؤثر في افعاله فهذا ما لا يمكن الارتياب فيه واولئك الذين ليس تفكيرهم كما يجب ان يكون

يستطيعون وحدهم ان يشكوا في هذه الحقيقة لكن السؤال هو من اين تأتي الافكار ؟ ويقدم الماديون الجدليون عن هذا السؤال جوابا اوضح جدا من الجواب الذي يقدمه المثاليون والانتقائيون الذين لا خيار لهم الا العودة الى الطبيعةالانسانية، يعني اجترار النظرية القديمة عن الافكار الفطرية التي عدلت منذ النصف الثاني من القرن الماضي بحيث اصبح تطور **القدرات النظرية** ذهنيا بهذه الطريقة الخصوصية من دون سواها واجتيازها اطوارا معينة خصوصية في تطورها من دون غيرها امرين ينسبان الى البشر

وليس لدى المادي الاقتصادي لاكومب حتى اية فكرة غامضة عن هذه الاشياء جميعا ، بل هو يعتنق وجهة نظر طردتها المادية الحديثة من العلم وتذكرنا ماديته الاقتصادية حتى درجة بعيدة بالمحاولات الاولى من اجل تفسير مادي للتطور الاجتماعي ومثال ذلك المحاولة التي قام بها **هيلفيتيوس** والفارق الوحيد هو ان هيلفيتيوس كان أعظم موهبة بما لا يقاس ، بحيث أن كتاباته هي حتى الوقت الحاضر اعظم قائدة من كتيب لاكومب

ولقد كان من الطبيعي بالنسبة الى جميع الفلاسفة الذين يعتنقون وجهة نظر الطبيعة الانسانية ان يبحثوا عن نظام مثالي للعلاقات الاجتماعية يكون اكثر اتفاقا مع الطبيعة من اي نظام آخر وبكلام آخر فقد كان كل منهم طوباويا بالضرورة. ولا يعني هذا انهم كانوا مجددين جميعا فما ابعد ذلك كان الكثيرون منهم محافظين متشددين وكان بعضهم رجعيين خالصين ومهما يكن من شيء ، فقد كان كل منهم جوهريا ينظر الى النظام الاجتماعي الذي كان يعتقد انه مرغوب فيه بالضبط مثلما كان الناس المدعوون طوباويين ممتازين ينظرون الى مثلهم العليا كانوا جميعا يقيسون اي نظام اجتماعي بمقياس(٨٧) مفاهيمهم عن الطبيعة الان. ولا بد ان يتذكر القارىء الحجج آنفة الذكر التي قدمها كونت بشأنخضوع النساء ان محاولة ايجاد نظام اجتماعي مثالي يكون الافضل في اتفاقه مع الطبيعة الانسانية يعني السعي الى ايجاد نظام لا يستطيع الجنس البشري ان يمضي الى ابعد منه نظام يستطيع الناس فيه حقا ان يدخلوا تعديلات صغيرة على علاقاتهم لكن لايستطيعون ــ والا انحرفوا عن طبيعتهم ــ ان يغيروا هذه العلاقات فيجوهرها. ان في كل **طوباوي** بصورة كامنة على الاقل an sich مقدارا ثقيلا من **نزعة المحافظة** وهو ما يثبته على خير وجه تاريخ المستعمرات الاشتراكية في اميركا(٨٨) وان مثل هذه النزعة المحافظة امر لا يمكن التفكير فيه لدى الماديين الجدليين الذين لا بد للعلاقات الاجتماعية وفقا لنظريتهم ان تتبدل مع تطور القوى المنتجة الاجتماعية ما هي حدود تطور هذه القوى ليس لهذه الحدود وجود وبالتالي فليس ثمة نظام مثالي لا سبيل الى الجنس البشري الى تجاوزه . ان الماديين الجدليين انصار للتقدم الذي لا توقف فيه

انهم التقدميون الوحيدون بكل معنى الكلمة

وباعتباره نصيرا لوجهة نظر الطبيعة الانسانية فان لاكومب **طوباوي** محافظ ايضا

انه عاجز كل العجز عن تصور امكانية وجود علاقات لا تسببه العلاقات الرأسمالية القائمة في الوقت الحاضر وعنده ان سقوط النظام الرأسمالي يضاهي انهيار الحضارة وهو في ذلك يشاطر الاقتصاديين المبتذلين جميع مستبقاتهم وليس في هذا وحده في واقع الامر فلاكومب لا يتقدم في آرائه الاقتصادية خطوة واحدة الى ابعد من هؤلاء العلماء الفاضلين ويكفي المرء كي يرى ذلك ان يطالع ما يقوله عن تأثير التكاثر في ثروة الامم ( ص ٣٢٥ وما يليها من الترجمة الروسية ). ولا يكفي ان نقول هنا ان لاكومب على خطل فثمة انواع مختلفة من الخطل ، ولا بد ان يقال هنا انه لايملك ادنى فهم للموضوع الذي تجاسر فناقشه وانه لبريء في هذا مثل وليد في قماطه وان تكن بذور الافكار السليمة تتراءى هنا ايضا انه يقول ثمة نوعان من الفقر ( ص ٣٢٧ ) وهذا صحيح تماما ، ففقر المتوحش يختلف كل الاختلاف عن فقر البروليتاري الحالي اذ هو ينشأ عن اسباب مختلفة كليا لكن لاكومب اذ يعطي هذه الفكرة الصحيحة جدا يعرفها في الحال في اكثر الحجج سذاجة عن **فرط السكان** ، فهو يقول ان المتوحشين فقراء وان لم يكونوا كثرة لانهم يفتقرون الى الاغذية التي تخلق القيم ان الذين يتقاسمون التوزيع قلة لكنه ليس هناك ما يوزع ولقد كان لدى الشعوب المتحضرة القديمة ادوات رائعة ومنتجات عديدة لكنه لم يكن بد من تقاسمها بين عدد كبير من الناس ص ٣٣٠ ويؤكد اذن ان ذلك هو السبب في وجود الفقر عند الامم المتحضرة وقد يحسب المرء ان الشعوب المتحضرة القديمة تملك مؤسسات تبين حاجات السكان جميعا وتنظم الانتاج الاجتماعي وفقا لتلك الحاجات ، ومن بعد توزع المنتجات الحاصلة وفقا لهذه الحاجات ايضا واذا كان الامر كذلك في واقع الامر واذا كانت الشعوب المتحضرة القديمة متصفة بعد بالفقر رغما عن مثل هذا التنظيم للانتاج فان هذه الظاهرة يمكن ان تعزى تماما الى وجود عدد كبير من الناس يشاركون في تقاسم تلك المنتجات وعندئذ فسوف يكون من المحال القول ان « ثمة نوعين من الفقر ان الفقر سوف يكون اذن ، عند الشعوب المتحضرة وعند المتوحشين على حد سواء نتيجة لاستحالة انتاج المقدار الضروري من المنتجات والواقع ان حاجات الفقراء في المجتمع الرأسمالي الراهن لا تؤثر في الانتاج الا بقدرما هم قادرون على دفع **ثمن المنتجات** التي يحتاجون ان «التقاسم» مع امرىء لا يملك شيئا لا يمكن ان يقوم به الا امرؤ آخر يمنحه صدقة ، لكنه من المؤكد ان صاحبنا المؤلف لا يفكر في مثل هذا النوع من التقاسم .

ومن بعد فحتى اية درجة تمثل الطبقة الدنيا في المجتمع الراسمالي مطلبا فعليا يعني **مربحا** ؟ بقدر ما تكون قادرة على بيع الراسماليين قوة عملها اذا كان ثمة استخدام ظهرت بعض وسائط المعيشة ، وهي ضئيلة جدا بالطبع واذا انعدم العمل فلا بدّ من شد الاحزمة اذن لكن ما الغرض من ابتياع الراسماليين قوة العمل البروليتارية ؟ استخراج الربح من استخدامها المنتج ولو ان الراسمالي لم يتوقع الحصول على الارباح ما « اشتغل » ، وذلك مهما تكن قوى المجتمع عظيمة **بحد ذاتها** ويترتب على ذلك ان حدود الانتاج الاجتماعي في المجتمع الراسمالي الراهن ترسمها امكانية **الانفاق المربح للرأسمال** ولا يرسمها في حال من الاحوال الحجم المطلق للقوى المنتجة وهذا هو السبب في ان الفقر في مثل هذه المجتمعات لا تخلقه في واقع الامر الاسباب التي تحدده في المراحل الاولى من التطور الحضاري ففقر المتوحش ينشأ عن علاقاته مع الطبيعة عن سلطانه الزهيد عليها اما فقر البروليتاري فناجم عن العلاقات الاجتماعية ومن لا يفهم ذلك يجب أن يمتنع عن الدخول في مناقشة اقتصاد المجتمعات المتحضرة هذا الموضوع الذي لن يقول عنه اذن سوى الهراء القديم السخيف

ويمكننا ان نورد عدة امثلة اخرى من **الاسس السوسيولوجية للتاريخ** كي نميط اللثام عن العجز التام الذي يتصف المؤلف به في الميدان الاقتصادي ولا نرى حاجة الى ذلك نظرا لان المثال الذي استشهدنا به دامغ بما فيه الكفاية وسوف نكتفي بأن نسأل القارىء ايمكن ان يقال شيء كثير ذو مغزى في مسألة التطور التاريخي للجنس البشري من قبل مادي اقتصادي لا يفهم شيئا في حقل الاقتصاد ؟ الارجح انه لن يقول الا شيئا ضئيلا جدا

اذا كانت قوانين التطور الاجتماعي التاريخي متأصلة في الطبيعة الانسانية فلن يتمكن الجنس البشري اذن ان يتخلص من خضوعه لها ، بالضبط مثلما لا يستطيع ان يركب ظهره الخاص

وسواء أكان الجنس البشري مدركا لمثل هذه القوانين ام لا فان من واجبه على الاقل ان يتبعها في تطوره

ولقد نظر فلاسفة التاريخ بالفعل على هذا الغرار الى القوانين التي صاغوها عن التطور الاجتماعي فقد شبه سان سيمون قانونه عن الاطوار الثلاثة بالعناية الالهية التي لا تستطيع ارادة الانسان شيئا حيالها

وينظر الماديون الجدليون بطريقة مغايرة تماما الى القوانين التي دلوا عليها ففي رأيهم ان هذه القوانين متأصلة لا في الطبيعة الانسانية بل في طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين الناس في المراحل المختلفة من تطور القوى المنتجة.

ولقد دخل الناس حتى الوقت الراهن في مثل هذه العلاقات بصورة غير شعورية البتة ، اذ كانت مثل هذه العلاقات نتاجا **للضرورة** وليس للفعل الانساني **الحر** ، يعني

**العاقل والهادف** لكنه يكفي الناس ان يفهموا السبب في تبعيتهم لقواهم المنتجة الخاصة كيما يخضعوا هذه القوى الاخيرة لارادتهم وعقلهم ان ما يتكرر هنا هو نفس الشيء الذي نراه في علاقات الانسان مع الطبيعة فما جهل قوى الطبيعة خضع لها بصورة عمياء ، لكنه اذا فهمها مرة خضعت قوى الطبيعة له

ومن المؤكد ان هذا ليس بالشرط التافه ـ ان يفهم الانسان سبب خضوعه لقواه المنتجة الخاصة تلك مهمة بالغة الصعوبة

بيد ان الامر الهام منذ الان هو ان تحقيقه ممكن في الوقت الحاضر ـ وليس هو **ممكنا** فحسب ، بل **محتوم** تماما ولنأخذ كمثال على ذلك امورا من نمط الازمات لعل تبعية الانسان للقوى العمياء للعلاقات الاقتصادية تجد لها تعبيرا في هذه الازمات احد منه في اي موضوع آخر لكن بقدر ما يتم التعبير عن هذه التبعية بصورة اضخم ينكشف بوضوح اعظم سببها الحالي ، الا وهو **انعدام التنظيم في الانتاج** ويرى الناس هذا السبب ويتصارعون معه ويحاول بعضهم التغلب عليه ، مع البقاء ضمن اطار العلاقات القديمة ، بخلق « التريديونيونات ويمضي البعض الآخر الى ابعد من ذلك ويبلغون فهما اعمق للموضوع انهم يحاولون القضاء على العلاقات القديمة بحيث يتمكنون بذلك من اخضاع الاقتصاد اخضاعا تاما لارادة الانسان المستنيرة بالعقل وهكذا فان هذا الصراع ـ وهو صراع بين النور والظلام، بين العقل والضرورة ـ يجري حاليا والاهم من ذلك انه لا يمكن الا ان يجري ولو شاء الناس التخلي عن هذا الصراع الان لمنعتهم من ذلك الضرورة الاقتصادية بالذات ذلك ان ضرباتها القاصمة سرعان ما توقظ السكان العاطلين للبلدان المتحضرة الراهنة وكما نرى فان نوع الخضوع الذي يقيد البشر بالقوانين الاجتماعية والذي يتحدث عنه الماديون الجدليون يختلف بصورة جوهرية عن الخضوع الذي يتحدث عنه المفكرون الذين يعتنقون وجهة نظر الطبيعة الانسانية ويمكن ان يقال ان البعض بدأوا بنغمة متفائلة وانتهوا بنغمة مكتئبة ، فيما بدا البعض الآخر بنغمة حزينة وانتهوا بالتهليل لقد بدأ البعض بالحرية وانتهوا بالضرورة فيما بدأ البعض الآخر بالضرورة ووصلوا الى الحرية وفي نظرية هؤلاء ، وفي هذه النظرية وحدها يعني في المادية الجدلية وحدها ، ينعدم اي اثر للتعصب

ولا يخطر في بال لاكومب مطلقا نظرا لانعدام الفهم المطلق عنده للمادية الجدلية الحالية ان انتصار العقل البشري على القوة العمياء للضرورة الاقتصادية امر ممكن وتستقيم ماديته « الاقتصادية كما راينا في ان حاجات الانسان الاقتصادية تتحدث بالحاح والزام اعظم من اية حاجات اخرى لكن مهما تكن صحة هذه الفكرة فلا يترتب عليها ان الناس محكوم عليهم بالبقاء عبيدا الى الابد لاقتصادهم الاجتماعي الخاص ان تنظيما عاقلا ومنهجا للانتاج الاجتماعي سوف يضمن تلبية « الحاجات الجسدية » للانسان ، بالضبط مثلما تضمن الطبيعة نفسها « الحاجة

الى التنفس » في **جميع** العلاقات الاجتماعية **كائنة ما كانت** وبالتالي فان الحاجات الجسمية سوف تكف عن ان تلعب • في علاقات البشر المتبادلة الدور الكبير الذي تلعبه بصورة لا مراء فيها حاليا ، حيث ترتهن تلبيتها بلعب المصادفات الفوضوية ومهما نكن من شيء ، فان هذا الاعتبار لا يخطر في بال لاكومب مطلقا هو الذي يرى ان الانتاج الرأسمالي يشكل النظام المقبول الوحيد ويعتقد ان الحاجات الجسدية للانسانية لا يمكن تلبيتها الا ضمن نظام العلاقات الرأسمالية وبالتالي فان ذلك النوع من الطبيعة الانسانية الذي يقصده لا يعدو في واقع الامر كونه **طبيعة النظام الرأسمالي**؛ ونظرا لان هذه الطبيعة باعثة على النفور ، فان « الانسان عامة» عند لاكومب مخلوق باعث على النفور ايضا ان المادية « الاقتصادية عند لاكومب هي بمعنى ما قدح في الجنس البشري ومن حسن الحظ ان **هذا النوع** من المادية ليس سوى حصيلة مغالطة وعاقبة لتخلف مفاهيم المؤلف العلمية

ان في كتاب لاكومب صفحات كان يجب ان تستلفت انتباها خصوصيا من القراء الروس واقصد بها تلك الصفحات التي تتحدث عن **دور « الفرد » في التاريخ** الذي يرى لاكومب انه بالغ الاهمية بحيث لا يتفق مطلقا مع المفكرين الذين يردون الامور جميعا الى فعل الاسباب العامة انه يقول ضعوا فريدريك على رأس البروسيين المهزومين في ايينا(٨٩) وخذوا نابليون من الفرنسيين ومن يؤمن بعد ذلك بأن مجرى الاحداث لن يتغير ؟ من المؤكد ان اي جندي لن يؤمن بذلك ( ص ٢٢ ) ان اولئك الذين يقولون إن الرجال العظام لا يفعلون سوى التعبير عن طموحات ازمانهم يخطئون فالعديد من التجديدات التاريخية ادخلها رجال عظام بالرغم من انعدام اي تعاطف من جانب بيئتهم ويستطرد لاكومب قائلا

لقد اصطدم محمد بادىء الامر بعداء عام وصريح وزج آخر الامر في حرب مقدسة شعبا لم يكن متحمسا لها مطلقا في البداية ص ٢٤ ــ ٢٥ اننا ندرك جيدا ان **المؤسسات** ، او **الجمهور** ، او **البيئة** ، وهي تعني نفس الشيء الواحد ، تعمل على نطاق عريض ومهما يكن من شيء ، فاننا نرى ان الشخصيات التاريخية بطبيعتهم الخصوصية ، الصالحة او الطالحة وبمواهبهم البارزة او التافهة هم الذين يترأسون هذه المؤسسات ويرشدونها وهم يملكون دورا يلعبونه في الفعل ، هذا الفعل الذي لا يلغى دائما كما لا يعدم النتائج بالضرورة ص ٢٢

يجلب الفرد عنصرا من المصادفة الى التاريخ هذا كله على هوى « شخصيات الكبار والمتوسطين والصغار الذين يتحرقون غيظا لفكرة انهم يمكن ان يكونوا مجرد ادوات للتقدم التاريخي وليس لدى مثل هؤلاء الشخصيات اي اعتراض على خدمة التاريخ بيد انهم يريدون هذا التاريخ ان يشعر ــ وذلك في شخص فلاسفته ــ بأن الخدمة التي يؤدونها طوعية وان التاريخ بدونهم سوف تسوء احواله على الاغلب . ان مثل هؤلاء « الشخصيات الذين اذا لم يطالبوا التاريخ بالاخلاص

فهم يطالبونه بالاحترام على الاقل سوف يسرعون فيؤيدون لاكومب ويستخدمونه لمعاتبة المخالفين ان لديكم ههنا رجلا هو مادي اقتصادي ايضا ومع ذلك فهو اقل اثما منكم بما لا يقاس وعلى اي حال فليس لاكومب في هذه الحال ، مثله في حالات اخرى بالدعامة التي يركن اليها فحججه تفتقر الىالاقناع وتسهد على انه ـ وهو ليس بالاحمق على اي حال ـ يفتقر الى القدرة على التفكير **الفلسفي** .

لقد كان في الامكان تماما ان تنتهي معركة ايينا بصورة مغايرة لو لم يكن نابليون على رأس الفرنسيين بل من الارجح انها ما كان يمكن ان تنتهي كما انتهت لو ان الجندي الفرنسي في السنوات الاولى من هذا القرن لم يكن افضل من نظيره في عصر لويس الخامس عشر ويبدو ان هذا من جهة واحدة يبين ان الامور جميعا وقف على الشخصيات ( الذين يتألف منهم الجيش على سبيل المثال ) لكنه يقودنا من جهة اخرى الى السؤال القديم مباشرة : لماذا لا يشبه « شخصيات مرحلة معينة شخصيات مرحلة اخرى » ؟ هـذه مسألة لا يمكن تسويتهـا الا من خلال تحليل للعلاقات الاجتماعية الخاصة بالمراحل التاريخية المختلفة*

وصحيح ايضا ان الكثير من المبتكرات قام بها رجال عظام بالرغم من انعدام اي تعاطف من جانب بيئتهم ومهما يكن من امر فان مثل هذا الاعتراض لا يمكن الا ان يضع المصاعب في سبيل المثاليين الذين ينتسب اليهم لاكومب ايضا رغما عن ماديته الاقتصادية اذا كان في الامكان تفسير التاريخ بعلم النفس فانه من الجلي اذن ان الوجوه التاريخية الكبيرة التي شمخت على وسطها جلبت الى التاريخ شيئا خاصا بها شيئا يكن له وجود من قبل في تلك البيئة وعلى اي حال فليست تلك هي الحال من وجهة نظر الماديين الجدليين انهم يقصدون بخصائص البيئة الاجتماعية اولا وقبل كل شيء خصائص **العلاقات الاجتماعية** التي تقوم بين الناس في كل طور معين من تطور قواهم المنتجة ولا تأتي سيكولوجية البيئة الا بعد ذلك ومن حيث هي نتيجة لتلك العلاقات وفي هذه الحال فان نشاطات الوجوه التاريخية الكبرى لا تتضمن اية « ثمالة لا يمكن تفسيرها بخصائص البيئة الاجتماعية التي تنعكس بصورة اوضح وافضل في ذهن الرجل العظيم وهذا هو السبب في أن مثل هذا الانسان يمكن ان يدخل في تناقض مؤقت مع الجمهور الذي ينحاز على أي حال بصورة متدرجة تحت تأثير العلاقات الاجتماعية نفسها، الى جانب « البطل ان مؤلف **نظام للحقوق المكتسبة**(٩٠) بملك فهما افضل لاوضاع العمال الالمان من هؤلاء العمال انفسهم وهو السبب في انهم سخروا احيانا من

---

* من المفروغ منه ان دور نابليون في معركة ايينا مثلا لا يشبه دور اي مواطن فرنسي لا على التعيين لكن ما الذي يترتب على ذلك في العضوية الانسان لا تشبه وظيفة الدماغ وظيفة ابهام القدم ، ومن المؤكد انها اهم بما لا يقاس وعلى اي حال فهذا لا يثبت ان وظيفة الدماغ لا يمكن تفسيرها بالقوانين العامة للفيزيولوجيا

مؤلف **نظام للحقوق المكتسبة** ومهما يكن من امر فان خصائص البيئة ـ العلاقات الاقتصادية في المانيا ـ سرعان ما اقنعت القسم التقدمي من العمال الالمان بأن هذا الرجل الذي اخافتهم بادىء الامر جراة آرائه ، قد كان على حق ليس في الامر اكثر من ذلك ان **هـــذه « الحصيلة الاخيرة »** لا تتضمن شيئا يمكـن ارجاعه الى التحليل من وجهة نظر العلاقات الاجتماعية

ان كل من يعارض النشاطات التاريخية للرجال العظام بفعل القوانين الاجتماعية يشبه ( حتى اذا اتخذت **هذه المعارضة** عنده كما هي الحال عند لاكومب مظهر **الحذف )** تلك الشخصية عند سالتيكوف ـ ششيدرين التي تقدمت بهذه المعضلة **« اما القانون واما انا »** ، وطالبت بأن تحـل المعضلـة مباشرة دون انحراف الى اليمين او اليسار

ومع ذلك أنصح بمطالعـة دقيقـة لكتاب **اسس التاريخ السوسيولوجيــة** فعلى الرغم من ان مؤلفه رجعي جدا فالاعور ملك بين العميان ان لاكومب ينظر على اي حال الى الامور بصورة اعقل من كثير من السوسيولوجيين الروس ونظرا لان السيد بافلنكوف قرر ان ينشر كتابه ، **فقد** كان من الواجب منح المزيد من الاهتمام للترجمة التي **هي رديئة جدا** .

* * *

# فى الفهم المادي للتاريخ

( **دراسات في التصور المادي عن التاريخ** بقلم انطونيو لابريولا الاستاذ في جامعة روما ، مع مقدمة بقلم ج سوريل باريس ١٨٩٧ )

١

لا بد لنا من الاعتراف بما انتابنا من تخوف هائل حين تناولنا هذا الكتاب الذي وضعه بروفسور روماني فقد افزعتنا بعض الكتابات لكثيرين من مواطنيه ، ومثال ذلك أ لوريا ( انظر بصورة خاصة كتابه La teoria della constituzione politica ) .ومهما يكن من امر فان الصفحات الاولى من الكتاب اقنعتنا بأننا على خطأ وان آخيل لوريا شيء ، وانطونيو لابريولا شيء آخر وحين انهينا قراءته اخذتنا رغبة في الحديث عنه للقارىء الروسي الذي نأمل الا يلومنا على ذلك وعلى أي حال فان

## الكتب الجديرة ليست وافرة !

ظهرت **دراسات** لابريولا بالايطالية اولا ، والترجمة الفرنسية مبتذلة بل فقيرة في بعض الاماكن نقول ذلك بثقة بالرغم من أن الاصل الايطالي غير متوفر لدينا ومهما يكن من أمر فلا يمكن اعتبار المؤلف الايطالي مسؤولا عن المترجم الفرنسي وعلى أي حال فان افكار لابريولا يمكن أن تفهم حتى في الترجمة الفرنسية الخرقاء فلندرسها اذن

ان السيد كاربيف المعروف باجتهاده الكبير في المطالعة ونجاحه الفائق في تشويه أي عمل له ادنى علاقة **بالفهم المادي** للتاريخ لا بد ان يعد مؤلفنا بين الماديين الاقتصاديين ولسوف يكون في ذلك على خطل فلابريولا يتمسك بحزم وبثبات تام بالفهم المادي للتاريخ لكنه لا يعتبر نفسه « ماديا اقتصاديا ففي اعتقاده ان هذه التسمية تليق بالكتاب من امثال ت روجرز الشهير اكثر مما تليق به وبأمثاله من المفكرين وان هذا لصحيح جدا ، بالرغم من انه قد لا يكون واضحا كل الوضوح للوهلة الاولى .

اسألوا أي شعبي أو ذاتي(٩١) عـن معنى المادي الاقتصادي ولسوف يجيب قائلا انه يعني امرءا يعزو الى العامل الاقتصادي اهمية غالبة في الحياة الاجتماعية كذلك يفهم شعبيونا وذاتيونا المادية الاقتصادية ولا بد من الاعتراف بأن ثمة من دون ريب اناسا ينسبون الى العامل الاقتصادي دورا غالبا في حياة المجتمعات البشرية فما اكثر ما أتى السيد ميخائيلوفسكي على ذكر لويس بلان الذي تحدث عن تفوق هذا العامل قبل وقت طويل من ذلك المعلم لبعض التلامذة الروس(٩٢) وثمة شيء لا نفهمه ما السبب في أن اختيار صاحبنا عالم الاجتماع الذاتي المحترم وقـع على لويس بلان ؟ فلا بد انـه يعرف ان للويس بلان سابقين كثيرين في الميدان الذي يعنينا ان غيزو ومينيه واوغستان تييري وتوكفيل قد اعترفوا جميعا بالدور الغالب « للعامل الاقتصادي » على الاقل في تاريخ العصور الوسيطة والازمان الاحدث وبالتالي فقـد كان جميـع هؤلاء المؤرخين ماديين اقتصاديين وفي عصرنا فان ت. روجرز سابق الذكر ،في كتابه **التفسير الاقتصادي للتاريخ** ، اثبت هو الآخر انه مادي اقتصادي راسخ فقد اعترف بدوره بالاهمية الغالبة للعامل الاقتصادي ومن المؤكد انـه لا يترتب اذن على ذلك ان آراء ت. روجرز الاجتماعية السياسية قد كانت مماثلة مع آراء لويس بلان على سبيل المثال فروجرز تمسك بوجهة نظر الاقتصاد البورجوازي بينما كان لويس بلان احد ممثلي الاشتراكية الطوباوية ولو ان ت روجرز سئل عن رأيه في النظام الاقتصادي البورجوازي لأجاب بأن الخصائص الاساسية للطبيعة الانسانية تدعم هذا نظام وبالتالي ان تاريخ استهلاله هو تاريخ القضـاء المتدرج على العوائق التي منعت من قبل تظاهر تلك الخصائص بل حالت دون قيام هذا النظام أما لويس بلان فكان يعلن من جانبه ان الرأسمالية نفسهـا هي احدى العوائق التي نصبها الجهل والعنف على طول الطريق المؤدية الى اقامة نظام اقتصادي نكون على الاقل متفقا بصورة فعلية مع الطبيعة الانسانية وكما ترون فان ذلك فارق جوهري تماما من منهما هو الاقرب الى الحقيقة ؟ نحن نعتقد بكـل صراحة ان هذين الكاتبين جميعا هما بعيدان عنها بصورة مساوية على وجه التقريب بالرغم من اننا لا نحب ولا نستطيع مناقشة هـذه القضية ان شيئا مختلفا كـل الاختلاف يعنينا هنا ولسوف نطلب من القارىء ان يلاحظ أن العامل الاقتصادي الذي يسود الحياة الاجتماعية كان هو نفسـه بالنسبة الى لويس بلان وروجرز على حد سواء **تابعـا** للطبيعة الانسانية على حـد تعبير الرياضيات وبصورة رئيسيـة للذكاء والمعرفة الانسانيين ولا بـد ان يقال الشيء نفسه عن المؤرخين الفرنسيين لعصر عودة الملكيـة المذكورين اعلاه ولكـن كيف نسمي اذن الآراء التاريخية لاولئك الناس الذين هم على قناعة تامة بالرغم من تأكيدهم في الوقت نفسه على ان العامل الاقتصادي يسود الحياة الاجتماعية بأن هـذا العامل ــ

يعني اقتصاد المجتمع ـ هو بدوره ثمرة المعرفة البشرية والمفاهيم البشرية ان مثل هذه الآراء لا يمكن ان توصف الا **بالمثالية** وانه ليترتب على ذلك**ان المادية الاقتصادية لا تحول بعد دون المثالية التاريخية** . ومع ذلك فان هذا التعبير ليس على قدر كاف من الوضوح فقد قلنا لا تحول بعد دون المثالية لكن ما كان يجب ان يقال هو **ربما كانت ، وفي الاغلب ما تزال ، مجرد نوع من المثالية** . وانه لمن الواضح بعد ذلك لماذا لا يعترف اناس من امثال انطونيو لابريولا بأنهم ماديون اقتصاديون **ان حافزهم الى ذلك هو بالضبط كونهم ماديين** حازمين وكون **آرائهم التاريخية على طرفي نقيض مع المثالية التاريخية**

## ٢

من المرجح ان السيد كودرين سوف يخاطبنا قائلا على أي حال فانت تستنجد بالمفارقات على غرار الكثيرين من التلامذة وتتلاعب بالالفاظ ، وتستخدم وسائل التضليل وفي الحقيقة تشعوذ فقد اصبح المثاليون عندك ماديين اقتصاديين ومهما يكن من أمر فكيف تريدنا في مثل هذه الحال ان نفهم الماديين الحقيقيين والحازمين ؟ أيمكن حقا انهم يرفضون تفوق العامل الاقتصادي ؟ أيعترفون حقا بأن عوامل اخرى تعمل في التاريخ ايضا جنبا الى جنب مع هذا العامل بحيث لا يجوز لنا ان نضيع وقتنا في محاولة اكتشاف أي من هذه العوامل يسود العوامل الاخرى ؟ لا يستطيع المرء الا ان يغتبط للماديين الحقيقيين والحازمين هم لم ينصرفوا الى فرض العامل الاقتصادي عنوة على الناس الاخرين

ولسوف نرد على السيد كودرين بان الاشتراكيين الحقيقيين والحازمين لا ينصرفون في الحقيقة باستمرار الى فرض العامل الاقتصادي عنوة على الناس الاخرين والاكثر من ذلك ان مسألة العامل الذي يسود في الحياة الاجتماعية لا تملك بالذات وزنا ثقيلا عندهم وعلى أي حال فلا يجوز للسيد كودرين ان يغتبط في الحال فالاشتراكيون الحقيقيون والحازمون لم ينتهوا الى هذا اليقين تحت تأثير الشعبيين والذاتيين فهؤلاء الاشتراكيون الحقيقيون والحازمون لا يستطيعون الا ان يسخروا من الاعتراضات التي يرفعها مثل هؤلاء السادة ضد فكرة غلبة العامل الاقتصادي وفضلا عن ذلك فان الشعبيين والذاتيين اتوا بهذه الاعتراضات متأخرين حتى درجة ما فمنذ أيام هيغل اصبح من الواضح جدا ان مسألة العامل الغالب في الحياة الاجتماعية لم تعد بذات بال فالمثالية **الهيغلية** حالت دون امكانية مثل هذه المسائل بالذات التي حالت ماديتنا الجدلية المعاصرة دونها بقدر اعظم من ذلك ايضا فمنذ صدور **نقد النقد الذاتي** وعلى الاخص منذ صدور **في نقد الاقتصاد السياسي**(٩٣) ، فان اولئك الذين يملكون

معرفة نظرية ضئيلة هم وحدهم الذين يتخبطون بخصوص الاهمية النسبية للعوامل الاجتماعية التاريخية المختلفة ونحن نعلم ان كلماتنا سوف تدهش ناسا آخرين غير السيد كودرين وهو السبب الذي يحملنا الى الاسراع في تقديم الايضاحات المناسبة

لكن ما المقصود من العوامل الاجتماعية التاريخية ؟ كيف نشأ هذا المفهوم

لنأخذ مثالا لقد اراد الاخوان غراكوس ان يضعا حدا لاغتصاب الاراضي العامة من قبل المتسلطين الرومان وهو الاستيلاء الذي كان يشكل عملية تهدد روما بالدمار وكان الاثرياء معارضين للاخوين وقد لاحق كل من الفريقين في ملء الصراع الذي اندلع ، غاياته الخاصة بصورة محمومة واذا شئت ان اصف هذا الصراع استطعت ان اقدمه من حيث هو تصادم بين الاهواء البشرية التي يمكن اذن ان تنبثق من حيث هي عوامل في تاريخ روما الداخلي ومهما يكن من شيء فان الاخوين غراكوس وخصومهما استنجدوا على حد سواء بتلك الوسائل النضالية التي كان يوفرها القانون العام الروماني ومن المؤكد انه لن تغيب هذه الحقيقة عن ناظري في قصتي بحيث سوف يتبين كذلك ان القانون العام الروماني هو عامل في التطورالباطن للجمهورية الرومانية وفيما عدا ذلك فان اولئك الذين انخرطوا في الصراع مع الاخوين غراكوس كانوا معنيين ماديا بالحفاظ على مفسدة متأصلة الجذور بينما كان اولئك المؤيدون للاخوين غراكوس معنيين بالقضاء على هذه المفسدة ولسوف اشير كذلك الى هذا الظرف الذي يترتب عليه ان الصراع الذي اصف هو صراع بين مصالح مادية ، صراع بين طبقات ، بين الفقراء والاغنياء وبنتيجة ذلك فان لدينا هنا عاملا ثالثا وهو هذه المرة اهم العوامل جميعا — العامل الاقتصادي الشهير واذا كان لديك يا قارئي العزيز الوقت والرغبة فان في مكنتك ان تسهب في موضوع العامل الذي تفوق على جميع العوامل الاخرى في تطور روما الباطن ، ولسوف تجد في دراستي التاريخية معطيات كافية لتأييد أي راي في هذا الشأن

واما أنا فلن اتخلى عن دوري كراوية عادي ولن اشغل بالي بأي من العوامل فانالست معنيا في حال من الاحوال بالاهمية النسبية لهذه العوامل ان لدي هدفا واحدا بصفتي راوية ، الا وهو ان اصف بعض الاحداث بقدر ما يتاح لي من دقة واثارة للاهتمام ، مما يدفعني الى اقامة رابطة خارجية على الاقل فيما بينها والى ترتيبها في منظور معين واذا انا اتيت على ذكر الاهواء التي اثارت الطرفين المتعارضين او بنية الدولة في روما في ذلك الحين او اخيرا وجود التفاوت في الملكية هناك فاني افعل ذلك حصرا بهدف تقديم وصف متماسك للاحداث ومن المؤكد اني سأكون راضيا كل الرضا اذا حققت هذا الغرض وسوف اترك بلامبالاة تامة للفلاسفة ان يعالجوا مسألة ما اذا كانت الاهواء سادت

الاقتصاد أم العكس بالعكس ، او اخيرا ما اذا كان اي شيء لم يتفوق على أي شيء آخر طالما ان كل عامل قد اتبع القاعدة الذهبية عش ودع الاخرين يعيشوا.

كذلك سوف تكون الامور اذا انا لم اتخل عن دوري كمجرد راوية وراوية يتحاشى التنميق كليا ولكن ما عساه يجري اذا انا لم اقتصر على هذا الدور بل رحت اتفلسف عن الاحداث التي اصفها ؟ في هذه الحال لن اكتفي بالعقدة الخارجية بين الاحداث ، بل سوف ارغب في اماطة اللثام عن اسبابها الباطنة ، بحيث ان تلك العوامل ــ الاهواء البشرية والقانون العام والاقتصاد ــ التي أبرزتها وقدمتها من قبل مسترشدا بفريزتي الفنية على وجه الحصر تقريبا ، سوف تكتسب الآن اهميــة جديدة كبيرة بالنسبة الي فلسوف اراها بالضبط من حيث هي تلك الاسباب الباطنة ، تلك « القوى الخفية التي يمكن ان تعزى الاحداث الى فعلها ولسوف ابدع اذن نظرية عن العوامل

وفي الحقيقة ان نوعا من مثل هذه النظرية لا بد ان يظهر كلما مضى الناس المعنيون بالظواهر الاجتماعية من التأمل والوصف البسيطين الى استقصاء الرابطة التي تجمــع ما بينهــا

وفيما عدا ذلك فان نظرية العوامل تنمو جنبا الى جنب مع تقسيم العمل المتعاظم في العلوم الاجتماعية فالفروع المختلفة لهذه العلوم ــ الاخلاق ، والسياسة، والقانون والاقتصاد السياسي وقس على ذلك ــ تدرس في آخر الامر نفس الشيء الواحد نشاطات الانسان الاجتماعي لكن كلا منها يقوم بهذه الدراسة من وجهة نظره الخاصة ولسوف يقول السيد ميخائيلوفسكي ان كلا منها «مكلف» بوتر معين(٩٤) وانه لفي الامكان اعتبار كل وتر من حيث هو عامل للتطور الاجتماعي وفي الحقيقة اننا نستطيع الآن ان نحصي عددا من العوامل يضاهي عدد الفروع المنفصلة في العلوم الاجتماعية

اننا نأمل ان يكون قد اتضح تماما الآن بعدما قلناه ، ما المقصود من العوامل الاجتماعية التاريخية وكيف ظهر مفهومها

ان العامل الاجتماعي التاريخي **تجريد** ينبثق مفهومه من **عمليــة التجريد** فبفضل هذه العملية تكتسب **المظاهر** المختلفة **للكل** الاجتماعي مظهر **مقولات** خصوصية، في حين ان التظاهرات والتعابير المختلفة لنشاطات الانسان الاجتماعي ــ الاخلاق والقانون والاشكال الاقتصادية الخ ــ تتحول في اذهاننا الى قوى خاصة يبدو انها هي التي اثارت وحددت تلك النشاطات وانها هي اسبابها الاخيرة

وبما ان نظرية العوامل نشأت فلا بد من ظهور النزاعات بشأن أي من هذه العوامل يجب الاعتراف له بالغلبة

## ٣

ان بعض التفاعل يقوم بين هذه العوامل فكل منها يؤثر في جميع العوامل الاخرى ويتعرض بدوره لتأثيرها جميعا وان الحصيلة شبكة بالغة التعقيد من التأثيرات المتبادلة والعمليات المباشرة والصدمات الانعكاسية بحيث ان من يحاول ادراك مجرى التطور الاجتماعي سوف يحس الدوار وسوف يشعر بحاجة لا تقاوم للعثور على خيط ما يمكنه من الافلات من هـذا التيه وبما ان التجربة المريرة اقنعته بأن وجهة نظر التفاعل لن تنتج سوى الدوار فهو يبحث عن وجهة نظر اخرى في محاولة لتبسيط مهمته وهكذا يتساءل ما اذا كان أي عامل تاريخي خاص السبب الاول والرئيسي لظهور العوامل الاخرى كلها فاذا هو تمكن من ايجاد حل ايجابي ما لهذه المسألة اصبحت مهمته في الحقيقة ابسط بما لا يقاس ولنفترض انه توصل الى الاستنتاج بأن جميع العلاقات الاجتماعية في أي بلد كان في استهلالها وتطورها محددة بمجرى التقدم الفكري الذي يتقرر بدوره بخصائص الطبيعة الانسانية ( وجهة النظر المثالية ) انه واجد اذن مهربا سهلا من حلقة التفاعل المفرغة ، ومبدع نظرية عن التطور الاجتماعي اكثر او اقل تماسكا وتناغما وفي وقت لاحق بنتيجة المزيد من دراسة الموضوع ، سوف يرى انه ربما كان مخطئا وان التطور الفكري للانسان لا يمكن ان يعتبر السبب الاول لكل التقدم الاجتماعي واما يتبين خطيئته فمن الارجح انه سوف يلاحظ انه كان ثمة مكسب في اعتقاده المؤقت بأن العامل الفكري يتغلب على جميع العوامل الاخرى بحيث انه ما كان يتمكن لولا هذا الاعتقاد من الافلات من مأزق التفاعل ومن اتخاذ خطوة واحدة في اتجاه فهم الظواهر الاجتماعية

ويكون من الظلم ادانة مثل هـذه المساعي لاقامة نوع من التراتب في عوامل التطور الاجتماعي التاريخي، فقد كانت هذه المساعي في حينها ضرورية بقدر حتمية ظهور نظرية العوامل بالذات وان انطونيو لابريولا ، الذي قام بتحليل لهذه النظرية اكمل واعمق من أي كاتب عادي آخر لعلى حق تام حين يقول ان العوامل التاريخية هي شيء اقل جدا من الحقيقة لكن اكثر جدا من مجرد هفوة بالمعنى الفظ للخطأ الفادح او الوهم ان نظرية العوامل قدمت الى العلم اسهاما نافعا

ان الدراسة الخصوصية للعوامل الاجتماعية التاريخية ، مثلها كمثل اية دراسة تجريبية اخرى لا تتجاوز الحركة الظاهرية للاشياء قد افادت في إحكام ادوات المشاهدة واتاحت اكتشاف الحجارة الاسنادية ، في الظواهر بالذات بعد تجريدها بصورة مصطنعة ، التي تربط هذه الظواهر بالمركب الاجتماعي وان بعض الاطلاع على العلوم الاجتماعية الخاصة امر لا مندوحة عنه في الوقت الراهن بالنسبة الى كل من يرغب في اعادة خلق قسم ما من تاريخ الجنس البشري . فما كان في مقدور

العلم التاريخي ان يحقق اي تقدم دون فقه اللغة وما اكثر الخدمات التي اداها الى العلم اصحاب النزعة الرومانية المتحيزة هؤلاء اللذين كانوا يعتبرون ان القانون الروماني هو العقل الانساني مخطوطا !

ومهما تك صلاحية وفائدة نظرية العوامل في زمنها فهي لا تصمد للنقد اليوم ، اذ تشطر نشاطات الانسان الاجتماعي محولة مظاهرها وتظاهراتها المختلفة الى قوى خاصة يزعم انها تقرر التقدم التاريخي للمجتمع ولقد لعبت هذه النظرية في تاريخ تطور العلوم الاجتماعية مثل الدور الذي لعبته نظرية القوى البدنية الفردية في العلوم الطبيعية ان نجاحات العلوم الطبيعية قادت الى مذهب **وحدة** تلك القوى والى مذهب الطاقة الحالي كما ان النجاحات التي حققتها العلوم الاجتماعية لا بد ان تؤدي بالطريقة نفسها بالضبط الى الاستعاضة عن نظرية العوامل التي هي حصيلة التحليل الاجتماعي **بالنظرة التركيبية عن الحياة الاجتماعية**

وليست النظرة التركيبية عن الحياة الاجتماعية خاصة بالمادية الجدلية الراهنة ، بل نصادفها من قبل عند هيغل الذي كان يجد ان مهمته تستقيم في تفسير علمي لكل العملية الاجتماعية التاريخية وقد اخذت بمجموعها يعني بجميع تلك المظاهر والتظاهرات لنشاطات الانسان الاجتمماعي التي تعتبر عوامل فردية من قبل اولئك الناس المنصرفين الى التفكير التجريدي وعلى أي حال فان هيغل ، من حيث هو مثالي مطلق ، قد نسب نشاطات الانسان الاجتماعي الى خصائص الروح العمومي فاذا ما اعطيت هذه الخصائص اعطى التاريخ البشري بمجموعه an sich كما اعطيت نتائجه الاخيرة لقد كانت نظرة هيغل التركيبية **نظرة غائية** في الوقت نفسه وهي الغائية(٩٥) التي طرحتها المادية الجدلية الحديثة اخيرا من العلوم الاجتماعيــة

فقد بينت ان البشر يصنعون تاريخهم لكن ليس بحيث يسلكون طريقا للتقدم معينة من قبل او لانه لا بد لهـم من الخضوع لقوانين نوع ما من التطور المجرد أو الميتافيزيائي حسب لابريولا ) انهم يصنعون هذا التاريخ في سعيهم الى تلبية حاجاتهم ومن شأن العلم ان يوضح لنا كيف تؤثر الاساليب المختلفة لتلبية هذه الحاجات في علاقات البشر الاجتماعية ونشاطاتهم الفكرية

ان أساليب تلبية حاجات الانسان الاجتماعية وهذه الحاجات نفسها حتى درجة كبيرة تتحدد بخصائص الادوات التي يخضع بواسطتها الطبيعة له بصورة اكثر او اقل ؛ وبكلام آخر فهي تتحدد بحالة قواه الانتاجية وان اي تغير هام في حالة هذه القوى ينعكس ايضا في علاقات البشر الاجتماعية ، يعني بالتالي في علاقاتهم الاقتصادية لقد كانت العلاقات الاقتصادية بالنسبة الى المثاليين من كل شكل ولون تابعا **للطبيعة البشرية** ، لكن الماديين الجدليين يعتبرون تلك العلاقات تابعا **للقوى الانتاجية الاجتماعيــة** .

وانه ليترتب على ذلك اذن انه اذا أجاز الماديون الجدليون الحدث عن عوامل التطور الاجتماعي بغير غرض نقد هذه الاوهام الباطلة ، فقد كان عليهم في المحل الاول ان يستلفتوا انتباه ما يسمى الماديين **الاقتصاديين لقابلية تحول** عاملهم الغالب ان الماديين الاحدث لا يعرفون اي نظام اقتصادي يتفق وحده مع الطبيعة البشرية ، بينما جميع الانماط الاخرى للانظمة الاقتصادية الاجتماعية هي نتيجة لعنف متفاوت فرض عليها فوفقا لمذهب الماديين الاحدث يتفق مع الطبيعة البشرية **أي** نظام اقتصادي يقابل حالة القوى المنتجة في عصر معين وعلى العكس من ذلك فان كل نظام اقتصادي يأخذ في مناقضة مطالب الطبيعة البشرية حالما يتعارض مع حالة القوى المنتجة وهكذا نتبين ان العامل « الغالب » بالذات **خاضع** « لعامل آخر حسنا كيف يمكن بعد ذلك ان يكون **« غالبا » ؟**

اذا كان ذلك كذلك فانه من الواضح اذن ان هوة تفصل الماديين الجدليين عن اولئك الذين يمكن تسميتهم لاسباب وجيهة الماديين **الاقتصاديين** ولكن الى اية مدرسة فكرية يجب ان ننسب اولئك التلامذة المزعجين لذلك المعلم المزعجالذين شن ضدهم مؤخرا السادة كارييف و ن. ميخائيلوفسكي و س. كريفنكو وغيرهم من الرجال الاذكياء والمثقفين هجمات محمومة لكن غير موفقة ؟ اذا لم نكن مخطئين فان التلامذة يقفون بصراحة على قاعدة المادية الجدلية ولكن ما الذي حمل السادة كارييف وميخائيلوفسكي وكريفنكو وغيرهم من الرجال الاذكياء والمثقفين لان ينسبوا اليهم آراء ينادي بها الماديون **الاقتصاديون** وقد ثاروا ضدهم لانهم نسبوا فيما يزعم اهمية مبالغا بهـا للعامل الاقتصادي وقد يفترض ان هؤلاء الرجال الاذكيـاء والمثقفين تصرفوا على هـذا الفرار لان الحجج التي استخدمها الماديون الاقتصاديون طيبو الذكر يمكن دحضها بسهولة اعظم من تلك الحجج التي قدمهـا الماديون الجدليون وانـه ليمكن ان يفترض فضلا عن ذلك ان الخصوم المثقفين للتلامذة قد اخفقوا في تمثل آرائهم ، وهذا الافتراض الاخير اكثر احتمالا

وقد يرفع الاعتراض بأن التلامذة انفسهم احيانا ماديين اقتصاديين وان عبارة « المادية الاقتصادية » استخدمها للمرة الاولى احد « التلامذة الفرنسيين(٩٦). هذا صحيح لكـن ايا من التلامذة الفرنسيين او الروس لـم يربط قط بعبارة المادية الاقتصادية الفكرة التي يشركها بهـا اصحابنا الشعبيون والذاتيون ويكفي ان نتذكـر ان السيد ن. ميخائيلوفسكي يعتقـد ان لويس بلان والسيد جوكوفسكي قد كانا النوع نفسه من الماديين الاقتصاديين كمثل المنتسبين عندنا في الوقت الراهن الى وجهة النظر المادية عن التاريخ لا يمكن لالتباس الافكار ان يمضي الى ابعد من ذلك .

## ٤

حين قضت المادية الجدلية* على كل غائية في العلوم الاجتماعية وفسرت نساطات الانسان الاجتماعي بحاجاته وبوسائل وانماط تلبيتها في مرحلة معينة فقد منحت هذه العلوم الدقة التي كانت تنشدها دائما اخواتها علوم الطبيعة.
ورب قائل ان العلوم الاجتماعية تصبح هي نفسها علما **طبيعيا** notre doctrine materialiste d'histoire ، كما تقول لابريولا بصورة صائبة جدا لكن هذا لا يعني في حال من الاحوال ان ميدان البيولوجيا يندمج بالنسبة اليه مع ميدان العلوم الاجتماعية ان لابريولا خصم عنيف « **للدارونية السياسية والاجتماعية** » التي ظلت طوال سنوات تلوث مثل الوباء اذهان عدد كبير من المفكرين وبالخاصة الكثيرين من دعاة السوسيولوجيا والمنادين بها وقد طفت مثل الموج حتى على اللغة اليومية لرجال السياسة العمليين

ان الامر الذي لا ريب فيه هو ان الانسان حيوان يرتبط بأواصر القربى مع الحيوانات الاخرى وهو ليس في الاصل كائنا متميزا في حال من الاحوال وفيزيولوجياه ليست اكثر من مثال خصوصي على الفيزيولوجيا العامة ولقد كان في البداية مثله كمثل الحيوانات الاخرى خاضعا كليا لتأثير مسكنه الطبيعي الذي لم يكن قد تعرض بعد لفعله المعدل وكان ملزما بالتكيف معه في نضاله من اجل الوجود وعند لابريولا ان ظهور العروق كان حصيلة هذا التكيف ـ **المباشر** ـ مع البيئة الطبيعية وذلك بقدر ما تختلف العروق عن بعضها بعضا في الخصائص البدنية ومثال ذلك العروق الابيض والاسود والاصفر وهي لا تمثل اية انظمة تاريخية اجتماعية ثانوية يعني امما او شعوبا ان الغرائز الاجتماعية البدائية واوائل الانتقاء الجنسي ظهرت من حيث هي نفس حصيلة التكيف مع البيئة الاجتماعية في الصراع من اجل الوجود

ومهما يكن من امر فاننا لا نستطيع اكثر من التخمين بخصوص شكل الانسان البدائي ان اولئك الذين يقطنون الارض في الوقت الراهن مثلهم كمثل اولئك الذين كانوا من قبل موضع الدراسة من جانب علماء افاضل اهل للثقة هم ابعد ما يكون عن الازمان حيث انتهت الحياة الحيوانية بمعنى الكلمة الحقيقي بالنسبة الى الجنس البشري وهكذا فان الايروكيين على سبيل المثال ، بجانسهم الامومي ـ ذلك الذي درسه مورغان ووصفه على خير وجه ـ قد قاموا نسبيا بخطوات واسعة على طريق التطور الاجتماعي بل ان الاوستراليين في الايام الراهنة لا يملكون لغة فحسب ـ وهي ما يمكن ان تسمى شرط الاجتماعية واداتها

---

* يدعو لابريولا هذه المادية **بالتاريخية** وهو تعبير اقتبسه عن انجلز .

وسببها ونتيجتها ـ وليسوا معتادين على استخدام النار فحسب بل يعيشون في جماعات ذات بنية وعادات ومؤسسات محددة ان للقبيلة الاوسترالية ارضها الخاصة وهي تملك ادواتها الخاصة بالصيد ، كما ان لها اسلحة معينة من اجل الدفاع والهجوم وبعض الآنية من اجل تخزين مؤنها وطرقا معينة من اجل تزيين اجساد أفرادها ؛ وباختصار فان الاوسترالي يعيش اليوم في بيئة **اصطناعية** حتى اذا كانت هذه البيئة بدائية جدا وهو يتكيف معها منذ الطفولة الباكرة وان هذه البيئة الاصطناعية او الاجتماعية هي شرط اساسي من اجل اي تقدم لاحق ودرجة توحش أو همجية اية قبيلة خصوصية تتوقف على درجة تطور هذه البيئة

ان هذا النظام الاجتماعي البدائي يقابل ما يعرف **بالحياة قبل التاريخية** للجنس البشري وان بداية الحياة التاريخية تفترض تطورا اعلى للبيئة الاصطناعية وتحكما اعظم للانسان في الطبيعة ان العلاقات الباطنة المعقدة في الجماعات التي انخرطت في طريق التطور الاجتماعي لا يحددها في حال من الاحوال التأثير المباشر للبيئة الطبيعية بل هي تفترض اختراع بعض الادوات وتدجين بعض الحيوانات، والقدرة على استخراج بعض المعادن ، وقس على ذلك ان هذه الوسائل والانماط الانتاجية تغيرت بأساليب مختلفة في ظروف مختلفة ، ويستطيع المرء ان يرى فيها التقدم والركودة وحتى التقهقر ، بيد ان مثل هذه التبدلات لم ترجع بالانسان قط الى الحياة الحيوانية الخالصة يعني الى الحياة تحت التأثير المباشر للبيئة الطبيعية

ان الهدف الاولي والرئيسي للعلم التاريخي هو تحديد هذه البيئة الاصطناعية ودراستها ـ اصولها ، تبدلاتها وتحولاتها اما القول ان هذا كله لا يعدو كونه جزءا من الطبيعة وامتداد لها فمعناه النطق بشيء يفتقر الى كل معنى في طابعه المبالغ في شموله وتجريده*

وان موقف لابريولا من جهود بعض الهواة اللطفاء الهادفة الى صهر الفهم المادي للتاريخ مع النظرية العامة للتطور التي حولها الكثيرون كما يقول بصورة لاذعة وصادقة جدا ، الى مجرد استعارة ميتافيزيائية ، هذا الموقف لا يقل سلبية عن موقفه من الدارونية السياسية والاجتماعية وانه ليسخر كذلك من ذلك التنازل الساذج للهواة اللطفاء الذين يحاولون ان يضعوا الفهم المادي للتاريخ تحت حماية فلسفة اوغست كونت اوسبنسر ، ويقول هذا معناه انهم يجعلون من الد اعدائنا خلفاء لنا

من الواضح ان المقصود من الملحوظة عن الهواة البروفسور انريكو فيري مؤلف كتاب سطحي جدا ، **سبنسر وداروين وماركس** ، نشر في ترجمة فرنسية تحت عنوان **الاشتراكية والعلم الوضعي** .

* **دراسات** ، ص ١٤٤ .

## ٥

وهكذا فان البشر ، في سعيهم الى تلبية حاجاتهم ، **يصنعون تاريخهم الخاص** ومن الطبيعي ان هذه الحاجات فرضتها **الطبيعة في الاصل** ، بيد **انها تبدلت من بعد** حتى درجة كبيرة كميا ونوعيا **بفعل خصائص بيئة البشر الاصطناعية** **ان القوى** الانتاجية التي تحت تصرف البشر **تحدد جميع علائقهم الاجتماعية** **وحالة القوى** الانتاجية هي التي تحدد في **الاصل** العلاقات التي ينخرط البشر فيهـا في عمليـة **الانتاج** الاجتماعية يعني **علاقاتهم الاقتصادية** ومن الطبيعي ان هـذه العلاقات الاخيرة تخلق بعض المصالح التي تجد في **القانون** تعبيرا عنها ويقول لابريولا

كل قاعدة قانونية هي على الدوام دفاع عن مصلحة معينة

وان تطور القوى الانتاجيــة يؤدي الى انقسام المجتمــع الى طبقات ليست مصالحها متغايرة فحسب ، بل هي من وجهات نظر عديدة ــ وفي اكثرها جوهرية ــ معارضة على طول الخط وان هذا التعارض في المصالح يثير صدامات عدائية بين الطبقات الاجتماعية يثير صراعا بينها **ويؤول هذا الصراع الى الاستعاضة** عن التنظيم **العشائري بتنظيم الدولة** ، ومهمــة هــذه الدولة الحفاظ على المصالح السائدة واخيرا تنبثق على أساس العلاقات الاجتماعية المحددة بحالة معينــة للقوى الانتاجية **الاخلاق** الاصطلاحيــة يعني الاخلاق التي ترشد الناس عادة في نشاطهم العملي العادي واليومي

وهكذا فان القانون وبنية الدولة والاخلاق لاي شعب هي محددة **بصـورة فورية ومباشرة** بعلاقاته الاقتصادية وان العلاقات نفسها تحدد ــ لكن **بصورة غير مباشرة وبالواسطة** الآن ــ كل ما تخلقـه الفكر والمخيلة الفن والعلـم وقس على ذلك

وكي نفهم تاريخ الفكـر العلمي او تاريخ الفـن في اي بلد لا تكفينا معرفـة اقتصاده ان المطلوب هو القــدرة على المضي مــن الاقتصاد الى **السيكولوجيــة الاجتماعية** التي يستحيل بدون دراسة وفهم دقيقين لها تفسير تاريخ الايديولوجيات تفسيرا ماديا ولا يعني هذا بالطبع ان ثمــة نوعا ما من النفس الاجتماعية او الروح الجماعي لشعب ما وهو روح تتطور وفقا لقوانينه الخاصة ويتم التعبير عنه في الحياة الاجتماعية هذه صوفية خالصة كما يقول لابريولا ففي هذه الحال لا يستطيع المادي أن يضع نصب عينيه سوى المزاج الغالب **للعواطف والاذهان** الخاصة بطبقةمعينة في بلد معين وفي زمن معين ان **هذه الحالة الذهنية والعاطفية** حصيلة العلاقات الاجتماعية وان لابريولا لعلى يقين راسخ من **ان ما يحدد أشكال** وجود البشر الاجتماعي ليس هو أشكال شعورهم بل **الامر على النقيض من ذلك** ،

فأشكال وجودهم الاجتماعي هي التي تحدد أشكال شعورهم   ومهما يكن من شيء، فاذا ما قامت اشكال الشعور الانساني على أساس الوجود الاجتماعي أصبحت جزءا من التاريخ   ولا ستطيع العلم الاجتماعي أن يقتصر على التشريح الاقتصادي للمجتمع ، بل هو يعالج **اجمال الظواهر** المحددة **بصورة مباشرة او غير مباشرة** بالاقتصاد الاجتماعي   بما في ذلك عمل المخيلة   فليس هناك حقيقة تاريخية لا تدين بأصلها للاقتصاد الاجتماعي ؛ ولا يقل عن ذلك حقيقة انه لا وجود لأية حقيقة تاريخية لا تكون مسبوقة أو مترافقة او متبوعة بحالة معينة من الشعور   ومن هنا كانت الاهمية الكبيرة للسيكولوجية الاجتماعية   واذا كان لا بدّ من أخذ هذه السيكولوجية الاجتماعية بعين الاعتبار مسبقا في تاريخ القانون والمؤسسات الاجتماعية، فليس في الامكان اذن القيام بخطوة واحدة بدونها في تاريخ الادب والفن والفلسفة وغير ذلك

وحين نقول إن أثرا ما يتفق كل الاتفاق مع روح مصر النهضة على سبيل المثال فمعنى ذلك أنه يتفق كل الاتفاق مع المزاج الغالب لتلك الطبقات التي تسود في الحياة الاجتماعية   ولا تتغير سيكولوجية المجتمع حتى يحدث تغير في العلاقات الاجتماعية   ان الناس يعتادون بعض المعتقدات ، وبعض المفاهيم ، وبعض الاساليب الفكرية   وبعض الطرق في تلبية حاجات جمالية معينة   لكنه اذا كان تطور القوى الانتاجية يقود الى تبدلات جوهرية في بنية المجتمع الاقتصادية ،وبالتالي في العلاقات بين الطبقات الاجتماعية   فان سيكولوجية تلك الطبقات تتعرض للتغير ايضا وكذلك تتغير مع هذه السيكولوجية   روح العصر   و   طبيعة الناس   ويتم التعبير عن هذا التغير في ظهور معتقدات دينية جديدة او مفاهيم فلسفية جديدة واتجاهات جديدة في الفن او حاجات جمالية جديدة

وفي رأي لابريولا انه لا بد ان يؤخذ بعين الاعتبار ان دورا هاما تلعبه في الايديولوجيات   أثر المفاهيم والاتجاهات الموروثة عن الاسلاف والمحتفظ بها في الاعراف فقط   وفيما عدا ذلك   فان تأثير الطبيعة يتناول الايديولوجيات ايضا

وكما رأينا من قبل   فان تأثير الطبيعة في الانسان الاجتماعي يتغير تحت زخم البيئة الاصطناعية   وانه ليتحول من تأثير **مباشر** الى تأثير **بالواسطة** ، بيد انه لا يكف عن الوجود   ان مزاج الشعب يحافظ على بعض الخصائص التي خلقها تأثير البيئة الطبيعية   وهي خصائص تتعرض لبعض التبدلات لكنها لا تتعرض للامحاء التام بفعل التكيف مع الوسط الاجتماعي   ان هذه الخصائص الخاصة بمزاج الشعب تنطوي على ما يعرف **بالعرق**   ومن المؤكد ان العرق لا يمارس أي تأثير في تاريخ بعض الايديولوجيات   الفن على سبيل المثال   وهو يزيد من صعوبة أي تعليل علمي ليس هو بالامر اليسير على اي حال

# ٦

لقـد قدمنا تقريرا مفصلا تماما ونأمل ان يكون تقريرا واضحا عن آراء لابريولا بشأن تبعية الظواهر الاجتماعية لبنيـة المجتمع الاقتصادية التي تحددها بدورها حالة قوى المجتمع الانتاجية وانا على اتفاق تام معه بصورة تامة لكن آراءه أثارت جزئيا بعض الشكوك فينا وبهذا الشأن نود ان نقدم ملحوظاتعديدة.

وهذه اولاها في رأي لابريولا ان الدولة جهاز سيطرة طبقة واحدة على طبقة اخرى او طبقات أخرى وهذا صحيح لكنه لا يكاد يعبر عن الحقيقة بكاملها ففي بعض الدول مثل الصين او مصر القديمة ، حيث كانت الحياة المتحضرة مستحيلة دون عمل بالغ التعقيد والاتساع يتناول التحكم في مجاري المياه وفيضان الانهر الكبيرة وينظم الري يمكن ان ينسب قيام الدولة الى التأثير المباشر لمتطلبات العملية الاجتماعية الانتاجية ومما لا ريب فيه ان التفاوت كان قائما هناك في الازمان قبل التاريخية ، وبدرجة او باخرى على السواء **ضمن** القبائل التي تشكل دولة والمتميزة كليا في الاغلب في اصلها الاثني **وبين** القبائل ومهما يكن من امر فان الطبقات السائدة التي تصادف في تاريخ هـذه البلدان انما اكتسبت وضعهـا الاجتماعي **العشائري بتنظيم الدولة** ، ومهمة هذه الدولة الحفاظ على المصالح السائدة واخيرا تنبثق على اساس العلاقات الاجتماعية المحددة بحالة معينة للقوى الانتاجية **الاخلاق** الاصطلاحية،يعني الاخلاق التيترشد الناس عادةفي نشاطهم العملي العاديواليومي.

وهكذا فان القانون وبنية الدولة والاخلاق لاي شعب محددة **بصورة فورية ومباشرة** بعلاقاته الاقتصادية والعلاقات نفسهـا تحدد ـ لكن **بصـورة غير مباشرة وبالواسطة** الآن ـ كل ما يخلقه الفكر والمخيلة الفن والعلم وقس على ذلك

وكي نفهم تاريخ الفكر العلمي أو تاريخ الفن في أي بلد لا تكفينا معرفةاقتصاده. ان المطلوب هو القدرة على المضي من الاقتصاد الى **السيكولوجية الاجتماعية** التي يستحيل بدون دراسة وفهم دقيقين لها تفسير تاريخ الايديولوجيات تفسيرا ماديا ولا يعني هذا بالطبع ان ثمة نوعا ما من النفس الاجتماعية ، أو الروح الجماعي لشعب ما وهو روح يتطور وفقا لقوانينه الخاصة ويتم التعبير عنه في الحيـاة الاجتماعية هذه صوفية خالصة كما يقول لابريولا ففي هذه الحال لا يستطيع المادي ان يضع نصب عينيه سوى المزاج الغالب للعواطف والاذهان الخاصة بطبقة معينة في بلد معين وفي زمن معين ان هـذه الحالة الذهنية والعاطفية حصيلـة العلاقات الاجتماعية وان لابريولا لعلى يقين راسخ من ان ما يحدد اشكال وجود البشر الاجتماعي ليس هو اشكال شعورهم ، بل الامر على النقيض من ذلك فأشكال وجودهم الاجتماعي هي التي تحدد اشكال شعورهم ومهما يكن من شيء ، فاذا ما قامت اشكال الشعور الانساني على اساس الوجود الاجتماعي اصبحت جزءا

من التاريخ ولا يستطيع العلم الاجتماعي ان يقتصر على التشريح الاقتصادي للمجتمع بل هو يعالج **مجمل الظواهر** المحددة **بصورة مباشرة او غير مباشرة** بالاقتصاد الاجتماعي ـ بما في ذلك عمل المخيلة فليس هناك حقيقة تاريخية لا تدين بأصلها للاقتصاد الاجتماعي ؛ ولا يقل عن ذلك حقيقة انه لا وجود لاية حقيقة تاريخية لا تكون مسبوقة او مترافقة أو متبوعة بحالة معينة من الشعور ومن هنا كانت الاهمية الكبيرة للسيكولوجية الاجتماعية واذا كان لا بد من اخذ هذه السيكولوجية الاجتماعية بعين الاعتبار مسبقا في تاريخ القانون والمؤسسات السياسية فليس في الامكان اذن القيام بخطوة واحدة بدونها في تاريخ الادب والفن والفلسفة وغير ذلك.

وحين نقول أن أثرا ما يتفق مع روح عصر النهضة على سبيل المثال فمعنى ذلك انه يتفق كل الاتفاق مع المزاج الغالب لتلك الطبقات التي تسود في الحياة الاجتماعية ولا تتغير سيكولوجية المجتمع حتى يحدث تغير في العلاقات الاجتماعية. ان الناس يعتادون بعض المعتقدات وبعض المفاهيم وبعض الاساليب الفكرية الاكثر أو الاقل تفوقا بنتيجة تنظيم للدولة نشأ عن متطلبات العملية الاجتماعية الانتاجية وليس ثمة شك على وجه التقريب في أن سيادة الاكليروس المصري كان مرده الى الاهمية الهائلة العائدة الى معلوماتهم العلمية المضفية بالنسبة الى نظام الزراعة المصرية برمته* وفي الغرب الذي تنتسب اليه اليونان ايضا بكل تأكيد لا نشاهد اثر الحاجات الفورية لعملية الانتاج الاجتماعية ( من ذلك النمط الذي يفترض بعض التنظيم الاجتماعي الواسع ) في قيام الدولة لكن بدايات هذه الدولة يجب أن تعزى هناك ايضا حتى درجة كبيرة الى ضرورة التقسيم الاجتماعي للعمل الذي خلقه تطور قوى المجتمع الانتاجية ومن المؤكد ان هذا الظرف لم يمنع الدولة من ان تكون في الوقت نفسه تنظيما من اجل سيادة الاقلية صاحبة الامتياز على اغلبية اكثر او اقل عبودية** وهذا ما يجب الا يغيب ابدا عن انظارنا حتى تحول دون اية مفاهيم خاطئة أو متحيزة عن دور الدولة التاريخي

ولنعالج الآن آراء لابريولا عن تطور الايديولوجيات التاريخي في رأيه كما رأينا ان هذا التطور يتعقد بعمل الخصائص العرقية وعلى العموم بتأثير المحيط

---

* كما قال أحد الملوك الكدانيين عن نفسه درست اسرار الانهار لخير البشر لقد جلبت مياه النهر الى البرية وملأت بها الاقنية الجافة ولقد رويت السهول القاحلة فوهبتها الخصب والوفرة لقد جعلت منها موئلا للهناءة ان هذا وصف صحيح وان يكن متبجحا للدور الذي لعبته الدولة الشرقية في تنظيم عملية الانتاج الاجتماعية

** بالضبط كما لم يحل دون ان تكون حصيلة غزو شعب من قبل شعب آخر ان دور القوة كبير جدا في الاستعاضة عن بعض المؤسسات بمؤسسات اخرى ومهما يكن من امر فليست القوة تعليلا لامكانية هذه الاستعاضة بالذات ، او لنتائجها الاجتماعية

الطبيعي في البشر  وانه لمما يؤسف له حتى درجة كبيرة ان مؤلفنا لم يجد من الضرورة بمكان ان يدعم رأيه ويستشهد عليه ببعض الامثلة ؛ كنا نفهمه اذن بقدر اعظم من اليسر  وفي جميع الاحوال  فلا يمكن ان يكون ثمة شك في ان هذا الرأي غير مقبول بالطريقة التي قدم بها

ومما لا ريب فيه ان القبائل ذات اللون الاحمر في اميركا لا تنتسب الى نفس العرق الذي تنتسب اليه القبائل التي قطنت الارخبيل الاغريقي او سواحل بحر البلطيق في الازمان قبل التاريخية  ومما لا ريب فيه ان الانسان البدائي وقع تحت التأثير النوعي جدا لبيئته الطبيعية في كل من هذه المناطق  ولعله كان من المتوقع ان ينعكس الفارق في هذه المؤثرات في اعمال الفن المضفي التي انتجها السكان البدائيون لهذه الاقسام من العالم  وهو ما لا نراه على اي حال  ففي جميع أجزاء العالم  مهما يمكن ان تكون مختلفة ، سارت اطوار متماثلة لتطور الانسان البدائي جنبا الى جنب مع مستويات متماثلة في تطور الفن  اننا نعرف فن العصر الحجري وفن العصر الحديدي  لكننا لا نتبين فن العروق المختلفة ــ الابيض ، والاصفر ، الخ  ان حالة القوى الانتاجية تنعكس حتى في الاشياء الصغيرة  فنحن لا نساهد باديء الامر  على سبيل المثال ، الا خطوطا مستقيمة ومتكسرة على الانية الفخارية  مربعات  وصلبان  وخطوط متعرجة ، الخ  وان هذا النوع من الزينة قد استعاره الفن البدائي من صناعات هي اكثر بدائية ايضا ، مثل الحياكة وصناعة الاماليد  وفي العصر البرونزي ظهرت الزخارف ذات الخطوط المنحنية جنبا الى جنبمع الاشغال المعدنية القادرة على اتخاذ جميع انواع الاشكال الهندسية  واخيرا  مع تدجين الحيوانات  بدات صورها بالظهور ، وصورة الحصان في المحل الاول*

وصحيح ان اي وصف للانسان لا يمكن الا ان يعكس اثر الخصائص العرقية في المثل العليا للجمال  التي اعتنقها الفنانون البدائيون  ويعرف الجميع ان أي عرق  وبالخاصة في المراحل الاولى من تطوره الاجتماعي ، يعتبر نفسه العرق الاجمل ويقدر تقديرا عاليا تلك السمات التي تميزه من العروق الاخرى**  ومهما يكن من شيء  فان هذه السمات للجمالية العرقية ــ بقدر ما تظل ثابتة ــ لا يمكن في المحل الاول ان تؤثر في تطور الفن  وهي في المحل الثاني لا تكون مقررة بصورة حازمة الا حتى زمن معين  يعني في شروط معينة  فكلما اضطر عرق معين الى الاعتراف بتفوق عرق آخر اكثر تطورا منه تلاشى رضاه الذاتي العرقي  مفسحا

---

* بخصوص هذا الامر  انظر **المقدمة الى تاريخ الفن** لولهلم لوبكه  ثمة ترجمة روسية

** بخصوص هذا الامر  انظر تشارلز داروين  **اصل الانسان**  لندن ١٨٨٣ ص ٥٨٢ ــ ٥٨٥ .

المجال الى الاقتداء بالاذواق الغريبة التي كانت تعتبر من قبل مضحكة بل مخزية وباعثة على النفور في بعض الاحيان ان ما يحدث عند المتوحش هو مثل ما يختبره ، في المجتمع المتحضر ، الفلاح الذي يسخر بادىء الامر من سلوك رجل المدينة وعاداته، لكنه يحاول في وقت لاحق وقد تقرر تفوق المدينة على الريف واشتد ان تتخذ ذلك السلوك وتلك العادات بكل وسيلة ممكنة

وحين نتحدث عن الشعوب التاريخية نود ان نشير اولا وقبل كل شيء الى ان كلمة **عرق** لا يمكن ولا يجوز ان تستخدم بخصوصها بصورة عامة فنحن لا نعرف شعبا تاريخيا واحدا يمكن تسميته شعبا خالص العنصر بل كل شعب من هـذه الشعوب حصيلة التهجين والتصالب الطويلين والشديدين جدا لعناصر إثنية متنوعة.

وفي هـذه الحال كيف يستطيع المرء ان يحدد اثـر العرق في تاريـخ ايديولوجيات اي شعب كان ؟

ليس ما يبدو للوهلة الاولى ابسط واصح من فكرة التأثير الذي يمارسه المحيط الطبيعي على مزاج شعب ما ومن خلاله على تطوره الذهني والجمالي ومهما يكن من أمر ، فانه يكفي لابريولا ان يتذكر تاريخ بلـده الخاص كي يتحقق من خطل هذه الفكرة ان الايطاليين في الوقت الراهن يعيشون في نفس البيئة الطبيعية التي عاش فيها الرومان القدامى ومـع ذلك فلشد ما يختلف مزاج الخاسرين الحاليين في مينيليك عن مزاج اولئك الظافرين الاشداء على قرطاجة(٩٧) واذا نحن انصرفنا الى ارجاع تاريخ الفن الايطالي على سبيل المثال الى المزاج الايطالي فسرعان ما نذهل حيال اسباب التغيرات العميقة التي تعرض لها مزاج الايطالي بدوره في الازمان المختلفة وفي الاقسام المختلفة من شبه الجزيرة الابينية

## ٧

تقول مؤلف **دراسات في العصر الغوغولي في الادب الروسي**(٩٨) في ملحوظـة على الكتاب الاول من مؤلف جون ستيوارت ميل **مبادىء الاقتصاد السياسي** ما يلي

> لن نقول انه لم يكن للعرق ادنى اهمية على الاطلاق ان تطور العلوم الطبيعية والتاريخية لم يحقق بعد تلك الدقة في التحليل التي تتيح لنا القول ، في معظم الحالات وبيقين تام ان هذا العنصر معدوم كليا من يدري لعل هذه السن الفولاذية تحتوي على جزيء من البلاتينيوم ؟ هذا ما لا يمكن انكاره بصورة محددة وثمة شيء واضح
>
> التحليل الكيميائي سوف يبين ان السن تحتوي على عدد من الجزيئات من المؤكد انها ليست من البلاتينيوم ، وان ذلك القسم من تركيبها الذي يخص البلاتينيوم زهيد بصورة مطلقة ، واذا كان لهذا القسم وجود ، فان في الامكان عمليا غض النظر عنه واذا كانت المسألة تتعلق بعمـل ينتسب الى النشاط العملي كان عليك ان تستخدم هـذه السن

الخصوصية بالطريقة التي يجب ان تستخدم بها الاسنان الفولاذية عموما عليك بالطريقة ذاتها بالضبط ألا تعير أي اهتمام لعرق الشخص في المسائل العملية ، بل عامله من حيث هو مجرد كائن انساني ولعل عرق شعب ما مارس بعض التأثير في وجوده في شرط معين من دون غيره ، هذا ما لا يمكن رفضه بيقين ؛ فالعلم التاريخي لم يحقق بعد دقة مطلقة رياضية ؛ انه ليتخلف بعده ، كما بعد أي تحليل كيميائي في الوقت الراهن بقية ضئيلة جداً بل زهيدة تتطلب طرقا ادق في الاستقصاء لا تبرح اليوم بعيدة عن متناول العلم ومهما يكن من شيء ، فان هذه البقية زهيدة ولقد لعب مثل هذا الدور الكبير في تكوين شرط اي شعب في الوقت الراهن ظروف مستقلة عن الخصائص العرقية الطبيعية بحيث انه اذا كان لمثل هذه الصفات الخصوصية أثر ما في الانحراف عن الطبيعة الانسانية الجامعة فقد كان لفعلها فسحة صغيرة جداً ، فسحة ضئيلة مجهرية وغير قابلة للقياس

خطرت لنا هذه الكلمات ونحن نقرأ افكار لابريولا عن تأثير العرق في تاريخ التطور الفكري للجنس البشري وان مؤلف دراسات سابقة الذكر قد أبان عن اهتمامه بمسألة اهمية العرق من زاوية عملية ، لكن ما قاله يجب ان يرسخ باستمرار في ذهن جميع اولئك الذين ينصرفون الى الدراسات النظرية الخالصة ان العلم الاجتماعي سيكسب الكثير والكثير جدا اذا نحن تخلينا اخيرا عن العادة السيئة التي تستقيم في ردنا الى العرق كل الاشياء التي يلوح لنا انها غير مفهومة في التاريخ الفكري لاي شعب على التحديد ولعله كان للخصائص العرقية بعض التأثير في هذا التاريخ بيد ان مثل هذا التأثير الافتراضي قد كان على الارجح زهيدا جدا بحيث تتطلب مصلحة البحث ان يعتبر مساويا للصفر وان تعتبر جميع السمات الملحوظة في تطور اي شعب من حيث هي حصيلة الشروط التاريخية النوعية التي جرى ذلك التطور فيها وليس من حيث هي نتيجة لتأثير العرق ومما لا ريب فيه اننا سوف نصادف حالات عديدة لن يكون في مقدورنا فيها ان نشير الى اية شروط خصوصية آلت الى قيام السمات التي تعنينا ومع ذلك فان ما يمتنع على التحليل العلمي اليوم قد يسهل عليه غدا ان الاحالة الى السمات العرقية غير مناسبة لانها تؤدي بالبحث الى خاتمة كان ينبغي ان يبدأ منها ما السبب في ان تاريخ الشعر الفرنسي لا يشبه تاريخ الشعر في المانيا ؟ انه سبب بسيط جدا لقد كان المزاج الفرنسي بحيث لم يكن في مقدور الشعب الفرنسي ان ينتج امثال ليسنغ وشيلر او غوته اننا شاكرون لهذا الايضاح ، فنحن الآن في مركز يتيح لنا ان نفهم الاشياء جميعا

ولسوف ينادي لابريولا بالطبع بأنه ابعد ما يكون عن مثل هذه التأويلات التي لا تفسر شيئا على الاطلاق ولسوف يكون ذلك صحيحا واذا تحدثنا بصورة شاملة ، فانه يدرك جيدا عقمها ويعرف على خير وجه من اية زاوية ينبغي للمرء

ان ننصرف الى حل القضايا التي من نمط القضية التي استشهدنا بها كمثال وعلى أي حال فحين قبل بأن تطور الشعوب الفكري يتعقد بسماتها العرقية جازف بتضليل قرائه وكشف عن استعداده للتنازل ولو في بعض النقاط التافهة فقط للاسلوب القديم في التفكير الذي اساء انما اساءة الى العلم الاجتماعي وان ملحوظاتنا موجهة ضد مثل هذا التنازل

ونحن لا نصف دون سبب بالبطلان الرأي الذي طرحناه على بساط البحث بخصوص دور العرق في تاريخ الايديولوجيات فهذا الراي مجرد شكل لنظرية كانت شائعة في القرن الماضي وكانت تعزو مجرى التاريخ بأسره الى خصائص الطبيعة البشرية ان الفهم المادي للتاريخ يتنافر كل التنافر مع هذه النظرية فطبيعة الانسان الاجتماعي ، وفقا للنظرة الجديدة تتبدل مع تبدل العلاقات الاجتماعية وبنتيجة ذلك فان السمات العامة للطبيعة البشرية عاجزة عن تأويل التاريخ ومع ذلك فان لابريولا وهو نصير متحمس وحازم للفهم المادي للتاريخ قد اعترف ايضا – صحيح ضمن بعض الحدود الضيقة – بصواب النظرة القديمة وان الالمان لعلى صواب تام حين يقولون: Wer A sagt , muss auch B sagen فحين يعترف لابريولا بصواب النظرة القديمة في حالة معينة لا بد له من يفعل الشيء نفسه في بعض الحالات الاخرى ومن المفروغ منه ان هذا الجمع بين نظرتين متعارضتين لا بد ان يسيء الى تماسك نظرته الى العالم

## ٨

ان تنظيم اي مجتمع يتقرر بحالة قواه الانتاجية ولا بد لتبدل طرأ على هذه الحالة من ان يؤول عاجلا أو آجلا الى تبدل في التنظيم الاجتماعي ايضا وبنتيجة ذلك فان هذا التنظيم هو في حالة توازن غير مستقر كلما كانت قوى المجتمع الانتاجية في حالة تطور ويصيب لابريولا تماما حين يشير الى ان عدم الاستقرار هذا جنبا الى جنب مع الحركات الاجتماعية وصراع الطبقات الاجتماعية الذي يولده يحفظ البشر من الركودة الفكرية ان التضاد ينبوع التقدم كما يقول مكررا فكرة عبر عنها اقتصادي الماني شهير وعلى أي حال ، فما اسرع أن نقدم تحفظا اذ يعتقد انه من الخطأ الفادح ان نتخيل ان الناس يدركون تماما شرطهم دائما وفي جميع الحالات ويرون بكل وضوح المهمات التي يطرحها هذا الشرط وانه ليقول

ان مثل هذا التفكير معناه افتراض ما هو غير محتمل ، والاكثر من ذلك ما لم يكن له وجود قط »

ونود ان نطلب من القارىء ان يسجل هذا التحفظ . ويستطرد لابريولا شارحا فكرته كما يلي :

ان الاشكال القانونية والعمل القانوني السياسي ومحاولات اقامة تنظيم اجتماعي خصوصي كانت ولا تزال ناجحة احيانا وضالة احيانا اخرى ، يعني غير متكافئة وغير متناسبة مع وضع معين ان التاريخ يغص بالاخطاء ، الامر الذي يعني انه كان كل شيء فيه ضروريا في شروط الفهم النسبي لدى اولئك المكلفين بحل صعوبة او ايجاد حل لقضية معينة اذا كان لكل شيء هناك سبب كاف ، فان جميع الاشياء فيه لم تكن اذن معقولة بالمعنى الذي يعطيه المتفائلون لهذه الكلمة فمع مرور الايام قادت الاسباب المقررة لجميع التبدلات ، يعني الشروط الاقتصادية المتغيرة ، الى اكتشاف اشكال قانونية ملائمة ونظام سياسي وانماط اكثر او اقل تكيفا مع الترتيب الاجتماعي الجديد وذلك بسلوك دروب شديدة الالتواء احيانا وعلى اي حال فلا يجوز الاعتقاد بان الحصانة الغريزية للحيوانات المفكرة تظاهرت هكذا وبكل بساطة في فهم تام وواضح لجميع الاوضاع وانه لم يتبق لنا الا الاستدلال على كل البقية الباقية من الوضع الاقتصادي بواسطة الاستقراء ان الجهالة ، التي يمكن تفسيرها بدورها هي سبب هام للطريقة التي يصنع التاريخ بها ، ويجب ان نضيف الى الجهالة البهيمية التي لا تقهر قط بصورة عامة وجميع الاهواء وجميع المظالم ومختلف اشكال الفساد التي كانت على الدوام النتاج الضروري لمجتمع نظم بحيث لا مندوحة من سيطرة الانسان على الانسان وبحيث كان الخداع والمراءاة والوقاحة والدناءة متواجدة دائما في ظل مثل هذه السيطرة واننا لنستطيع دون ان نكون طوباويين ان نتكهن ، واننا لنتكهن في الحقيقة بظهور مجتمع سوف يقود ، وهو يتطور من المجتمع الراهن ، وانطلاقا من تضاداته بالذات وفقا لقوانين التطور التاريخي ، الى مشترك لا تناحرات طبقية فيه ولسوف تكون نتيجة ذلك انتاجا منتظما يحذف من الحياة عنصر الصدفة الذي كان حتى يومنا الراهن سببا متعدد الاشكال لجميع انواع الطوارئ والمصادفات ومهما يكن من شيء ، فان تلك قضية تخص المستقبل وليس الحاضر او الماضي*

ان الشيء الكثير من هذا كله صحيح ، بيد ان الحقيقة اتخذت هنا وقد انضفرت بصورة وهمية مع الخطأ ، مظهر مفارقة غير موفقة في حال من الاحوال

ان لابريولا على حق تام حين يقول ان الناس لا يملكون على الدوام فهما واضحا لشرطهم الاجتماعي ولا يدركون دائما بصورة تامة المهمات الاجتماعية النابعة من ذلك لكنه حين يشير على هذا الاساس الى الجهالة أو التطير من حيث هما السبب التاريخي لظهور اشكال عديدة للحياة الجماعية ولعدد كبير من العادات يعود دون شعور منه الى وجهة نظر فلاسفة الانوار في القرن الثامن عشر ان من واجب المرء، قبل ان يسمي الجهالة بوصفها سببا رئيسيا يفسر « الطريقة التي يصنع التاريخ بها ان يحدد المعنى الخصوصي الذي تستعمل به الكلمة هنا وانه لمن قبيل الخطل الفادح ان يحسب أن هذه الكلمة مفهومة من تلقاء ذاتها بل الحقيقة انها

* دراســات ، ص ١٨٣ ــ ١٨٥

ليست مفهومة وبسيطة بالقدر الذي قد يبدو للعيان لنأخذ بعين الاعتبار فرنسا في القرن الثامن عشر ، حيث كان جميع الممثلين الفكريين للطبقة الثالثة يطمحون بصورة جامحة الى الحرية والمساواة ولقد طالبوا في سبيل تحقيق هذا الهدف بالغاء الكثير من المؤسسات الاجتماعية البالية وعلى أي حال فقد كان معنى الغاء هذه المؤسسات انتصار الراسمالية التي لا يمكن كما نعرف جيدا حاليا ان تسمى في حال من الاحوال مملكة الحرية والمساواة وبالتالي فانه يمكن القول ان الهدف النبيل الذي كان فلاسفة القرن الماضي يسعون اليه قد تبين انه فوق قدرتهم وانه ليمكن القول ايضا ان الفلاسفة كانوا عاجزين عن تسمية الوسائل الضرورية من اجل تحقيقه ، بحيث يمكن حتى اتهامهم بالجهالة كما فعل من قبل عدد كبير من الاشتراكيين الطوباويين وان لابريولا نفسه ليدهش حيال التناقض بين الاتجاه الاقتصادي الفعلي في فرنسا في ذلك الحين والمثل العليا التي نادى مفكروها بها فيهتف قائلا هذا مشهد غريب وتضاد غريب لكن ما وجه الغرابة فيه ولكن فيم كانت تستقيم جهالة فلاسفة الانوار في القرن الثامن عشر أكانت تستقيم في اعتقادهم بأن الوسائل من اجل تحقيق الرخاء العمومي هي خلاف الوسائل التي نراها الآن ؟ بيد ان الحديث عن مثل هذه الوسائل كان مستحيلا وقتذاك فهي لم يكن خلقها بعد التقدم التاريخي للجنس البشري ، يعني بصورة اصح تطور قواه الانتاجية قلبوا صفحات كتاب مابلي Doutes proposés aux philosophes économistes او كتاب موريللي Code de la nature ولسوف تجدون انه بقدر ماتختلف آراء هذين الكاتبين عن الآراء التي نادت بها العالبية العريضة من فلاسفة الانوار بخصوص الرخاء البشري. وبقدر ما حلما بالغاء الملكية الفردية، فقد وقعا اولا في تناقض صارح مع حاجات الامة الاكثر جوهرية وحيوية في زمانهما ، واعتبرا ثانيا وقد ادركا ذلك بكل غموض ان طموحاتهما غير عملية على الاطلاق وبالتالي فاني اسألكم من جديد اين تستقيم جهالة فلاسفة الانوار ؟ اكانت تستقيم في حقيقة انهم وهم يدركون الحاجات الاجتماعية لعصرهم ويدلون بصورة صائبة على كيفية تلبيتها من خلال الغاء الامتيازات القديمة وما أشبه ) ، نسبوا اهمية مبالغا بها حتى الدرجة القصوى الى الطرق اللازمة يعني اهمية السبيل نحو السعادة العمومية ؟ تلك ليست مع ذلك بالجهالة الفاضحة ، بل لا بد من الاعتراف من وجهة النظر العملية بأنها عميمة الفائدة ، طالما انه كان لا بد لفلاسفة الانوار ، بقدر ما يتوطد ايمانهم بالاهمية العمومية للاصلاحات التي يطالبون بها ، من العمل بمزيد من العنفوان من اجل تحقيقها

ولقد برهن فلاسفة الانوار ايضا على جهل لا شك فيه بمعنى انهم عجزوا عن ايجاد الرابطة بين آرائهم ومطامحهم وبين حالة فرنسا الاقتصادية في ذلك الحين ، بل هم لم يرتابوا في وجود مثل هذه الرابطة لقد كانوا يعتبرون انفسهم رواد

الحقيقة **المطلقة** ونحن نعرف اليوم انه لا وجود للحقيقة المطلقة وان الاشياء جميعا نسبية ، وهي جميعا وقف على ظروف الزمان والمكان لكنه من واجبنا لهذا السبب بالضبط ان نكون متحفظين جدا في اصدار حكمنا على الجهالة الموجودة في المراحل التاريخية المختلفة ان الحركات الاجتماعية بينت ان جهالتها المطامح والمثل العليا التي تسمها قد كانت **نسبية هي الاخرى** .

**٩**

كيف قامت القواعد الحقوقية ؟ انه ليمكن القول ان ايا من هذه القواعد تعني الغاء او تعديل قاعدة قديمة او عادة قديمة ولماذا تلغى القواعد القديمة والعادات القديمة ؟ لانها لم تعد تتفق بعد الآن مع الشروط الجديدة تعني العلاقات الفعلية الجديدة التي يقيمها الناس فيما بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية فقد اضمحلت الشيوعية البدائية بنتيجة نمو القوى المنتجة ومهما يكن من شيء ، فان هذه القوى المنتجة لا تتطور الا بصورة تدريجية وهو السبب في ان العلاقات الفعلية الجديدة بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية لا تتطور الا في مراحل متدرجة وهذا هو السبب في ان الفعل المعوق للقواعد والعادات القديمة لا ينمو الا بصورة متدرجة ، مثلما تفعل الحاجة الى اعطاء التعبير **القانوني** المناسب للعلاقات الفعلية ( الاقتصادية ) الجديدة بين الناس ان الحصانة الغريزية للحيوان المفكر تتأثر عادة خطا مثل هذه التبدلات الفعلية فاذا كانت القواعد القانونية القديمة تمنع قسما من المجتمع من تحقيق اهدافه اليومية او تلبية حاجاته العادية ، فان هذا القسم من المجتمع سوف يتوصل اذن بالتأكيد وبأعظم اليسر الى ادراك العوائق التي تفرضها تلك القواعد ، وان هذا ليتطلب شيئا من الحصافة اكثر قليلا مما يتطلبه ادراك ما يسببه من ازعاج لبس حذاء ضيق جدا او حمل اسلحة ثقيلة جدا ومما لا ريب فيه ان مسافة شاسعة تفصل بعد بين ادراك الاكراه الذي تفرضه قاعدة قانونية معينة وبين **السعي الشعوري الى الغائها** فالناس يحاولون اولا بكل بساطة ان يلفوا حولها في كل حالة على حدة ويستطيع المرء ان يتذكر ما جرى في اسرنا الفلاحية الكبيرة حين ادى قيام الراسمالية في بلادنا الى ظهور مصادر جديدة لكسب العيش لا تتطابق بالنسبة الى مختلف افراد الاسرة الواحدة. ان القانون العرفي الذي كان يسود العلاقات العائلية اذن بات عقبة في طريق اولئك الذين حالفهم الحظ بما يكفي كي يكسبوا اكثر من الباقين وعلى اي حال فان هؤلاء الناس المحظوظين لم يستطيعوا ان يحملوا انفسهم على النهوض بكل سهولة وسرعة ضد العرف القديم ، بل ظلوا يتخبطون طوال فترة زمنية مديدة كي يخفوا

جزءا من مكاسبهم عن الشيوح في اسرتهم ومهما يكن من شيء فان النظام الاقتصادي الجديد مد جذوره عميقا بصورة تدريجية وازداد ضعف الروابط العائلية القديمة اكثر فاكثر وتعاظم شموس **افراد الاسرة المعنيين** بالغائها يوما بعد يوم وجعل تقسيم الملكية يتواتر واخيرا اختفى العرف القديم مفسحا المكان لعرف جديدة جلبته الشروط الجديدة والعلاقات **الفعلية** الجديدة **والاقتصاد** الجديد في المجتمع

ان وعي الناس المتعاظم لاحوالهم تتخلف عادة بقدر اكبر او اقل وراء نمو العلاقات الفعلية الجديدة التي تغير هذه الاحوال وعلى اي حال فان الوعي يتأثر خطا العلاقات الفعلية وحيثما يكون الوعي الساعي الى الغاء المؤسسات الباطلة واقامة نظام قانوني جديد ناقص التطور فان هـذا النظام الجديد لا يكون بعد **مهيئا من قبـل الاقتصاد الاجتماعي** كليا وبكلام آخر فان اي انعدام للوعي السير ـ الخطأ في الحساب الذي يرتكبه التفكير غير الناضج او الجهالة ـ يشير في الاغلب على الصعيد التاريخي الى شيء واحد فقط ان شيئا ما يجب ادراكه لا يبرح بعد ناقص التطور الا وهو **العلاقات** الجديدة **والبادئة** بيد ان الجهالة التي من هذا النمط ـ الافتقار الى المعرفة او الفهم لما هو غير موجود بعد لكنه في عملية النهوض ـ هي بالتأكيد جهالة **نسبية** ليس غير

وثمة نوع آخر من الجهالة ـ تلك التي تتعلق بالطبيعة وانه ليمكن تسميتها بالجهالة **المطلقة** ومقياسها **سلطان الطبيعة على الانسان** ولما كان تطور القوى المنتجة يعني سلطان **الانسان** المتعاظم **على الطبيعة** فمن الواضح ان القوى المنتجة الاعظم تعني النقص في الجهالة المطلقة ان الظواهر الطبيعية التي لا يفهمها الناس والتي لا تخضع بالتالي لسلطانهم تولد المعتقدات الخرافية المختلفة وفي مرحلة معينة من التطور الاجتماعي تصبح المعتقدات الخرافية متشابكة مع مفاهيم البشر الاخلاقية والقانونية فتمحها عندئذ مسحة معينة* وتلعب الآراء الدينية في

---

* هذا ما يقوله السيد كوفالفسكي في كتابه **القانون والعرف في القفقاس** دراسة المعتقدات الدينية والخرافية عند البشافيين تقودنا الى الاستنتاج بأن البشافيين بالرغم من كونهم تحت الاشراف الرسمي للكنيسة الاورثوذكسية لا يزالون عند مستوى من التطور سماه تايلور بصورة موفقة جدا الاحيائية ومن المعروف لدى الجميع ان هذه المرحلة تسير عادة يدا بيد مع الخضوع الحسم للدين من حيث هو اخلاق اجتماعية وقانون على حد سواء المجلد الثاني ص ٨٢ ) والمشكلة ان الاحيائية البدائية عند تايلور ، **لا تمارس ادنى تأثير على الاطلاق في الاخلاق او القانون . ففي هذه** المرحلة من التطور تكون علاقة الاخلاق بالدين علاقة **لا** تنتسب الى الحضارة البدائية الا في بداياتها او **لا** تنتسب على الاطلاق ان الاحيائية المتوحشة تخلو تقريبا من ذلك العنصر الخلقي الذي هو بالذات مصدر الدين العملي عند الفكر العصري المثقف ان للقوانين الاخلاقية اسسها الخاصة الخ ( **الحضارة البدائية** باريس ١٨٧٦ الجزء الثاني ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ ) وهذا هو السبب

الاغلب دورا هاما في عملية الصراع كما ينشأ عن نمو العلاقات الفعلية الجديدة بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية ان كل المجددين والمحافظين على حد سواء يستنجدون بالآلهة واضعين مؤسسات مختلفة تحت حمايتها بل هم يفسرونها من حيث هي تظاهرات للارادة الالهية ومن الواضح ان الساهرات* اللائي اعتبرهن الاغريق مرة نصيرات للحق الامومي ، لم يفعلن للدفاع عن هذا الحق اكثر مما فعلت منيرفا من اجل انتصار السلطة الابوية التي نودي بأنها عزيزة على قلبها جدا حين كان الناس يستنجدون بالالهة او الاصنام فقد كانوا بكل بساطة يضبعون وقتهم وجهودهم لكن الجهل الذي قادهم الى الايمان بالساهرات لم يمنع في حال من الاحوال المحافظين الاغريق لذلك العصر من ادراك ان النظام الشرعي القديم ( او بصورة ادق القانون العام القديم يشكل ضمانة افضل لمصالحهم وان المعتقد الخرافي الذي اتاح تعليق الامال على منيرفا لم يمنع في حال من الاحوال بتلك الطريقة عينها المجددين من ادراك عدم مناسبة الاسلوب القدم في الحياة

لم يكن لدى الدياكيين في جزيرة بورينو معرفة باستعمال الاسفين في شطر الحطب وحين جلب الاوروبيون الاسفين معهم حظرت السلطات المحلية استعماله بكل صراحة** ومن الواضح تماما ان ذلك برهان على جهالتهم ما هو اسخف من رفض أداة تسهل العمل ؟ وعلى اي حال فلعل برهة من التفكير تقودنا الى اكتشاف بعض الظروف المخففة فمن الارجح ان الحظر الذي شمل استخدام الادوات الاوروبية تظاهرة للنضال ضد النفوذ الاوروبي الذي جعل ينسف الاسلوب القديم للحياة المحلية فقد كانت السلطات المحلية تدرك بغموض ان ادخال العادات الاوروبية سوف يقضي على النظام القديم ولقد كان الاسفين لسبب ما اشد تذكيرا من الادوات الاوروبية الاخرى بالطبيعة الهدامة للنفوذ الاوروبي وهو السبب في حظر استخدامه وما السبب في أن الاسفين رمز فيما يبدو الى الابتكارات الخطيرة اكثر من اية اداة اخرى ؟ ليس في مقدورنا ان نقدم جوابا مرضيا عن هذا السؤال لاننا لا نعرف السبب الذي جمع في ذهن السكان الاصليين بين الاسفين وفكرة الخطر الذي يهدد الاسلوب القديم في الحياة وعلى اي حال فاننا نستطيع ان نقول بثقة تامة ان السكان الاصليين لم يخطئوا مطلقا في تخوفاتهم بشأن استمرار النظام القديم وفي الحقيقة ان النفوذ الاوروبي سرعان ما شوه بصورة تامة ، بل دمر عادات المتوحشين والهمجيين الذين كان له تأثير فيهم

---

في انه من الاصح القول المعتقدات الخرافية الدينية لا تصبح متشابكة مع المفاهيم الاخلاقية والقانونية الافي مرحلة معينة وعالية نسبيا من التطور الاجتماعي ومن المؤسف ان نقص المكان لا يتيح لنا ان نبين هنا كيف تفسر المادية الحالية ذلك

* [ آلهة اغريقية ]

** المصدر نفسه ، الجزء الاول ص ٨٢

وفي راي تايلور ان الداياكيين وهم يهاجمون بكل عنف استعمال الاسفين ، قد استعملوه كلما استطاعوا سبيلا الى ذلك ، وفي الخفاء ان لدينا ههنا « المراءاة فضلا عن الجهالة لكن ما مصدرها ؟ لا ريب انها نشأت عن ادراك الميزات التي توفرها الطريقة الجديدة في تكسير الحطب وهو ادراك ترافق بالتخوف من الرأي العام او من اضطهاد السلطات وهكذا فان الحصافة الغريزية للحيوان المفكر قد انتقدت التدبير بالذات الذي تدين له بأصلها ولقد كانت على صواب في نقدها ان الحظر على استعمال الادوات الاوروبية لم يكن يعني القضاء على خطر النفوذ الاوروبي

واذا شئنا ان نستعمل تعبير لابريولا امكننا القول ان الداياكيين في هذا المثال اتخذوا تدبيرا لا يناسب شرطهم ولا يتكافأ معه ولسوف نكون على صواب تام في هذا القول كما نستطيع ان نضيف الى هذه الملاحظة للابريولا ان البشر في الغالب يفكرون في تدابير لا تناسب ولا تكافىء شرطهم في حال من الاحوال لكن ما الذي يترتب على ذلك ؟ لا يترتب على ذلك الا ان من واجبنا الا نسعى لان نؤكد ما اذا كان ثمة تبعية بين مثل هذه الاخطاء البشرية من جهة واحدة وبين طبيعة او درجة تطور علاقات البشر الاجتماعية من جهة اخرى ومما لا ريب فيه ان هذه التبعية موجودة ويقول لابريولا ايضا ان الجهالة قابلة للتفسير وهو ما سوف نضيف اليه ليست هي قابلة للتفسير فحسب **بل يجب أن تفسر اذا كان لا بد للعلوم الاجتماعية ان تصبح علوما دقيقة** فاذا عزيت « الجهالة الى اسباب اجتماعية فليس ثمة داع اذن الى الاشارة اليها لاي سبب على انها تفسر السبب في ان التاريخ سلك دربا محددة من دون اية درب اخرى فالسبب لا يكمن في الجهالة بل في الاسباب الاجتماعية التي ولدتها ومنحتها طبيعة محددة فلماذا نقصر دراستنا اذن على مجرد الاحالات الى الجهالة التي لا تستطيع ان تفسر شيئا ؟ **حين يتعلق الامر بالفهم العلمي للتاريخ ، فان الاحالة الى الجهالة لا تشهد الا على الجهالة عند الباحث .**

## ١٠

ان أي مبدأ للقانون الايجابي يدافع عن مصلحة معينة لكن من اين تنشأ المصالح ؟ أتكون نتاجا للارادة الانسانية وللشعور الانساني ؟ كلا ، بل تخلقها العلاقات الاقتصادية بين الناس بيد انها اذا نشأت انعكست في الشعور الانساني بطريقة او بأخرى ولا بد في سبيل الدفاع عن مصلحة معينة من وجود وعي لها . وهذا

هو السبب في ان نظام القانون الطبيعي يمكن ويجب ان يعتبر نتاجا للشعور*
فليس الشعور الانساني هو الذي يحمل الى الوجود المصالح التي يدافع عنها ، وبالتالي فليس هو الذي يحدد مضمون القانون ومهما يكن من شيء فان حالة السعور الاجتماعي السيكولوجية الاجتماعية في مرحلة معينة هي التي تحدد **الشكل الذي يتخذه في اذهان البشر انعكاس مصلحة محددة** . فاذا نحن لم نأخذ بعين الاعتبار حالة الشعور الاجتماعي كنا عاجزين كل العجز عن الوصول الى فهم لتاريخ القانون

ولا بد على الدوام من تمييز **الشكل** بكل حرص من **المضمون** في هذا التاريخ ومن وجهة النظر **الصورية** يتعرض القانون مثله كمثل اية ايديولوجية اخرى ، لتاثير جميع الايديولوجيات الاخرى او على الاقل لتأثير البعض منها المعتقدات الدينية والاراء الفلسفية وما شابه هذا الظرف وحده يعوق حتى درجة ما ، واحيانا حتى درجة بالغة تقرير التبعية بين مفاهيم الناس القانونية وعلاقاتهم المتبادلة في عملية الانتاج الاجتماعية. لكن هذا لايعدو كونه نصف المشكلة**. ان المشكلة الفعليــة هي أن **اية ايديولوجية معينــة تتعرض ، في مراحل من التطور الاجتماعي ، لتأثير الايديولوجيات الاخرى بدرجة متفاوتة جدا** هكذا كان القانون في مصر وفي روما القديمة خاضعا للدين وفي التاريخ الحديث تطور القانون ( في

* ليس الحق خلافا لما يعرف بالقوى البدنية او الطبيعية شيئا موجودا خارج افعال الانسان انه على النقيض من ذلك نظام ينشئه البشر لانفسهم أما ما اذا كان الانسان خاضعا في انشطته لقانون السببية أم ما يتصرف بحرية وعشوائية فتلك مسألة لا اهمية لها في هذا الشأن وعلى اي حال فان الحق وفقا لقانون السببية وقانون الحرية لا يخلق خارج اقليم انشطة الانسان ، بل على العكس من ذلك من خلالها بواسطة الانسان كوركونوف **محاضرات في نظرية القانون العامة** ، سان بطرسبورغ ١٨٩٤ ص ٢٧٩ ان هذا لصحيح على اكمل وجه وان صيغ بصورة بائسة جدا لكن السيد كوركونوف نسي يضيف المصالح التي يدافع القانون عنها لم « يخلقها البشر لانفسهم » بل تقررها علاقاتهم المتبادلة في عملية الانتاج الاجتماعية.

** بالرغم من ذلك في غير صالح بعض الكتابات من نمط كتاب السيد كوفالفسكي **القانون والعرف في القفقاس** على سبيل المثال فهذا المؤلف غالبا ما يعتبر القانون نتاجا للاراء الدينية. ولقد كان من واجبه يسلك طريقا اخرى وصحيحة للبحث ويعتبر الاراء الدينية والمؤسسات الشرعية لسعوب القوقاز هي على حد سواء نتاج لعلاقاتهم الاجتماعية في عملية الانتاج كما كان من واجبه يسعى بعد التأكيد على أثر ايديولوجية خصوصية في ايديولوجية اخرى لايجاد السبب الوحيد لهذا الاثر ومما لا ريب فيه انه كان يجب على السيد كوفالفسكي ان يكون اكثر ميلا الى هذا الاسلوب في البحث نظرا لانه اعترف هو نفسه بصورة جازمة في مؤلفاته الاخرى بالتبعية السببية لمبادىء القانون حيال انماط الانتاج

المظهر **الصوري** ـ هذا ما سوف نؤكد عليه ونطلب ان يؤخذ بعين الاعتبار جيدا تحت تأثير الفلسفة الشديد ولم يكن بد لهذه الفلسفة من ان تخوض نضالا شديدا كي تضع حدا لنفوذ الدين على القانون وتستعيض عنه بنفوذها الخاص ولم يكن هذا النضال سوى انعكاس مثالي للصراع الاجتماعي الذي خاضته الطبقة الثالثة ضد الاكليروس ، ومع ذلك اعاق حتى درجة كبيرة انساء الاراء الصحيحة فيما يتعلق بأصل المؤسسات القانونية نظرا لان مثل هذه المؤسسات بدت بفضله كما لو كانت نتاجا واضحا ومؤكدا للنضال بين مفاهيم مجردة ومن المؤكد ان لابريولا يدرك جيدا على العموم نوعية العلاقات الفعلية المستترة خلف ذلك النضال بين المفاهيم ومهما يكن من امر فحين يتعلق الامر بالحالات الخصوصية يلقي سلاح المادية امام الصعوبة التي تطرحها المشكلة ويعتبر كما راينا ان في الامكان ان نقصر على الاحالة الى الجهالة او الى قوة العرف وفضلا عن ذلك فانه يشير الى « **الرمزية** » من حيث هي السبب الاخير للعديد من العادات

وفي الحقيقة ان الرمزية « عامل بالغ الاهمية في تاريخ بعض الايديولوجيات بيد انها لا تخص الاسباب الاخيرة للعادات وهذا مثال على ذلك كانت النسوة في قبيلة البشافيين القوقازية يقصصن ضفائرهن عند وفاة الاخ ، لكن لا يفعلن ذلك عند وفاة الزوج ان ذلك عمل رمزي حل مكان العرف الاقدم للموت الارادي على ضريح الرجل الميت لكن لماذا تقوم المرأة بهذا العمل الرمزي على ضريح الاخ من دون ضريح الزوج ؟ في رأي السيد كوفالفسكي انه يجب اعتبار ذلك احد مخلفات تلك العصور البعيدة حين كانت العشيرة المنحدرة من سلف انثوي حقيقي او وهمي يرأسها الرجل الاكبر سنا أو الاقرب صلة دموية الى السلالة الامومية* . ومايترتب على ذلك هو ان الافعال الرمزية لا يمكن ان تفهم الا حين ندرك معنى وأصل **العلاقات** التي تدل عليها ومن اين تنشأ مثل هذه العلاقات ؟ من المؤكد انه لا يجوز البحث عن الجواب عن هذا السؤال في الافعال الرمزية ، بالرغم من انها يمكن احيانا ان توفر تنويهات نافعة ان اصل العادة الرمزية لقص الضفيرة عند ضريح الاخ تفسر بفضل تاريخ العائلة ، وهو التاريخ الذي يجب البحث عنه بدوره في تاريخ التطور الاقتصادي.

في المثال الذي اخذناه لتونا تمكنت الشعيرة الخاصة بقص الضفيرة عند ضريح الاخ من الاستمرار في البقاء بعد زوال شكل القرابة الذي تدين له بوجودها وهو مثال على تأثير العرف الذي يشير لابريولا اليه في كتابه ومهما يكن من شيء فليس في مكنة العرف ان يحافظ الا على ما هو موجود بالفعل وليس في مكنته ان يفسر السبب في الحفاظ على العموم على شعيرة معينة او شكل معين ، فكم بالحرى اصلهما ان قوة التقليد هي قوة عطالة وحين يتعلق الامر بتاريخ الايديولوجيات فلا بد للمرء ان يتساءل في الاغلب عن السبب في استمرار شعيرة او عادة معينة في

* **القانون والعرف في القفقاس** الجزء الثاني ، ص ٧٥ .

البقاء بينما زالت العلاقات التي ولدتها فضلا عن عادات وشعائر مشابهة لها نسأت عن العلاقات نفسها وان هذا السؤال لاشبه بذلك السؤال الذي يستفسر عن السبب في ان الصدمة الهدامة لعلاقات جديدة تجاوزت شعيرة او عادة خاصة في الوقت الذي قضت فيه على غير ذلك من الشعائر والعادات ان الجواب عن هـذا السؤال بالاحالة الى قوة العرف معناه الاقتصار على تكراره ايجابا لكن اين ينبغي للمرء أن يبحث عن الجواب ؟ هذا ما يجب العثور عليه في **السيكولوجية الاجتماعيـــة**

ان العادات القديمـة تزول والشعائر القديمـة تهمل حين يدخل الناس في علاقات جديدة مع بعضهم بعضا كما يجد الصراع بين المصالح الاجتماعية تعبيرا عنه في الصدام بين العادات والشعائر الجديدة والقديمة فليس ثمة شعيرة رمزيـة او عادة اذا هي اخذت **بصفتها هذه وفي ذاتهـا** تستطيـع ان تمارس اي تأثير ايجابي او سلبي في تطور العلاقات الجديدة واذا كان المحافظون يدافعون بحزم عن العادات القديمة فذلك لان فكرة نظام الاشياء الاجتماعي المألوف والمفيد والمحبوب وثيقة الارتباط في اذهانهم بفكرة مثل هذه العادات واذا كان المجددون ينفرون من مثل هذه العادات ويسخرون منها فذلك لان اذهانهم تربط بين فكرة هذه العادات وفكرة العلاقات الاجتماعية المتهاوية والضارة والبغيضة وبنتيجة ذلك فالقضيةكلها مسألة ترابط للافكار فحين نرى ان شعيرة ما لم تستمر فحسب في البقاء بعـد العلاقات التي انتجتها بل بعد شعائر مماثلة خلقتها نفس العلاقات فان علينا ان نستخلص من ذلك ان فكرتها لـم تكن في اذهان المجددين وثيقـة الارتباط بفكرة الازمان المنقضية البغيضة بقدر ما كانت عليه فكرة تلك العادات الاخرى وما السبب في ان ارتباطها هذا اقل وثوقا ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يمكن احيانا العثور عليه بكل سهولة ، لكنه مستحيل في احيان اخرى من جراء انعدام المعطيات السيكولوجية الضرورية لكن من واجبنا حتى في الحالات التي نضطر فيها الى الاعتراف بعدم امكانية العثور على اي جواب على الاقل في الحالة الراهنة لمعارفنا ان نتذكر انها ليست مسألة **قوة العرف** بل مسألة بعض ترابطات الافكار التي خلقتها علاقات فعلية معينة بين البشر في المجتمع

**ان ظهور وتبدل ودمار ترابطات الافكار بفعل ظهـور تركيبات معينة للقوى الاجتماعية تفسر حتى درجة كبيرة تاريخ الايديولوجيات** ويخفق لابريولا في منح هذا المظهر من القضية كل الاهمية التي يستحقها ، وهو ما يبينه جيدا رايه في الفلسفة.

* * *

## ١١

يرى لابريولا ان الفلسفة في تطورها التاريخي كثيرا ما تندمج باللاهوت وهي في الغالب جزء من تطور الفكر الانساني في علاقته بالاشياء التي تدخل في نطاق تجربتنا وبقدر ما تتميز من اللاهوت تأخذ على عاتقها مهمات تتوجه نحو حلها البحث العلمي بالذات وحين تفعل ذلك اما تسعى الى استباق العلم باعطاء حدوسها الخاصة واما تقتصر على تلخيص الكليات واخضاع الحلول التي وجدها العلم من قبل لمزيد من التلخيص المنطقي ومما لا ريب فيه ان هذا صحيح لكنه ليس مع ذلك كل الحقيقة لنأخذ الفلسفة الجديدة لقد كان ديكارت وبيكون يعتبران ان اهم واجب يقع على عاتق الفلسفة هو زيادة معرفة العلوم الطبيعية بهدف اعطاء الانسان سلطانا اعظم على الطبيعة وبالتالي فقد درست الفلسفة في زمانهما تلك القضايا بالذات التي تدخل في نطاق العلوم الطبيعية بحيث يستطيع المرء ان يحسب ان الحلول التي قدمتها تحددت بحالة العلم الطبيعي لكن الامر لم يكن كذلك ان شرط العلوم الطبيعية في ذلك الحين لا يستطيع ان يفسر موقف ديكارت من بعض مسائل الفلسفة مسألة الروح على سبيل المثال الخ لكن هذا الموقف يفسره على خير وجه الشرط الاجتماعي في فرنسا وقتذاك لقد فصل ديكارت بصورة حازمة مملكة الايمان عن مملكة العقل ولقد حاولت فلسفته وهي ابعد ما تكون عن مناقضة الكاثولية ، ان تثبت بعض عقائدها ، معبرة بذلك عن مشاعر الفرنسيين في ايامه لقد ابانت فرنسا عن رغبة عظيمة في السلم والنظام بعد العنف الدامي المديد للقرن السادس عشر(..) وهو السعي الذي وجد له تعبيرا في مجال السياسة في تأييد الملكية المطلقة ، اما في ميدان **الفكر** ، فقد وجد له تعبيرا في بعض التسامح الديني وفي الرغبة في اجتناب المسائل المتنازع عليها هذه المسائل التي تذكر بالحرب الاهلية الاخيرة يعني المسائل الدينية التي كان اجتنابها يتطلب الفصل بين ميداني الايمان والعقل وهذا ما فعله ديكارت كما اسلفنا لكنه لم يكن كافيا لقد كانت الفلسفة مدعوة في مصلحة السلام الاجتماعي الى الاعتراف بكل قوة بصواب العقيدة الدينية وهذا ما صنعته ايضا بواسطة ديكارت، وهذا هو السبب في ان نظامه ــ المادي في ثلاثة ارباعه على الاقل ــ لقي التعاطف من جانب عدد كبير من رجال الاكليروس

لقد كانت فلسفة ديكارت بصورة منطقية مصدر مادية لامتري ، لكنها كانت توفر بصورة متكافئة الاسس من اجل نتائج **مثالية** واذا لم يستخلص الفرنسيون هذه النتائج فثمة سبب اجتماعي محدد تماما لذلك ، الا وهو الموقف السلبي للطبقة الثالثة حيال الاكليروس في فرنسا القرن الثامن عشر ففيما انبثقت فلسفة ديكارت من الرغبة في السلام الاجتماعي كانت مادية القرن الثامن عشر تنذر باختلاجات اجتماعية جديدة .

ويكفي هـذا ليبين ان تطور الفكر الفرنسي الفلسفي في فرنسا لا يجوز ان يفسر بتطور العلوم الطبيعية وحده ، بل كذلك بالتأثير المباشر للعلاقات الاجتماعية النامية وان نظرة ثاقبة الى تاريخ الفلسفة الفرنسية من زاوية اخرى تميط اللثام عن هذه الحقيقة بمزيد من الوضوح

اننا نعرف من قبل ان ديكارت كان يعتبر تقوية سلطان الانسان على الطبيعة المهمة الرئيسية للفلسفة وكانت المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر ترى ان واجبها الاهم هو الاستعاضة عن بعض الافكار القديمة بأفكار جديدة يمكن ان تبنى على اساسها علاقات اجتماعية طبيعية ولم يكن لدى الماديين الفرنسيين عمليا ما يقولون عن زيادة القوى الانتاجية الاجتماعية ولقد كان هذا فارقا جوهريا جدا فما كان منشؤه ؟

ان نمو القوى المنتجة في فرنسا في القرن الثامن عشر أعاقته حتى درجة كبيرة علاقات الانتاج الاجتماعية البالية والمؤسسات الاجتماعية التي عفا الزمن عليها وكان الغاء مثل هذه المؤسسات امرا جوهريا اذا كان لا بد لقوى الانتاج ان تتطور قدما ولقد توجهت الحركة الاجتماعية بأسرها في فرنسا نحو الغائها وقد تم التعبير في الفلسفة عن الحاجة الى القضاء على تلك المؤسسات في النضال ضد المفاهيم المجردة البالية التي نشأت من العلاقات الانتاجية البالية

وكانت هذه العلاقات بالذات بعيدة بعد عن كونها بالية في ايام ديكارت ، فهي لم تعق تطور القوى المنتجة مثلها في ذلك مثل المؤسسات الاجتماعية الاخرى ، بل شجعتها ، وهو السبب في ان احدا لم يفكر وقتذاك في التخلص منها وهذا هو السبب في ان الفلسفة اتخذت لها مهمة فورية هي بناء القوى الانتاجية — المهمة العملية الاهم للمجتمع البورجوازي الذي كان في سبيله الى الوجود

نقول هذا كله في الاعتراض على لابريولا لكن لعل اعتراضاتنا نافلة ، ولعله لم يفعل سوى التعبير عن نفسه بصورة غير ملائمة ، بينما هو يتفق معنا في الامور الجوهرية ؟ ولسوف نكون في هذه الحال سعداء جدا لاننا نجد من الامور السارة ان يتفق الاذكياء معنا

لكنه اذا لم يوافقنا كان لا بد لنا ان نقول آسفين ان هذا الرجل الذكي يخطىء ولعل ذلك كان يوفر لسادتنا الذاتيين القدامى (١٠١) ذريعة للسخرية بشأن صعوبة التمييز بين الانصار الحقيقيين و غير الحقيقيين » للفهم المادي للتاريخ . وفي هذه الحال سوف نرد على هؤلاء السادة الذاتيين القدامى بأنهم « **انما يسخرون من انفسهم(١٠٢)** » ان كل من يملك فهما جيدا لمعنى اي نظام فلسفي لن يجد صعوبة في التمييز بين اتباعه الحقيقيين والكاذبين واذا ما تكلف الذاتيون عناء التفكير في التفسير المادي للتاريخ فسوف يعرفون هم انفسهم من هم « **التلامذة** » الحقيقيون ومن هم المدعون الذين ينتحلون اسمه العظيم عبثا ونظرا لانهم لم يتكلفوا هـذا العناء . ولن يتكلفوه ، فان الشيء الوحيد المتبقي لهم هو الحيرة . ذلك هو المصير

المشترك لجميع الشاردين عن جيش التقدم الناشط وبمناسبة التقدم نود ان نسأل القارىء ما اذا كان يتذكر ذلك الزمن حيث كان الميتافيزيائيون ممقوتين. وكانت الفلسفة تدرس وفقا للويس ، وحتى درجة ما وفقا لموجز قانون العقوبات لسباسوفيتش وكان القراء التقدميون يزودون بصيغ مبتكرة خصيصا باللغة البساطة وفي متناول فهم الاطفال انفسهم(٣. ؟ لشد ما كان ذلك الزمن رائعا ومهما يكن من شيء فقد ولى تلاشى كالدخان ولقد جعلت الميتافيزياء تسيطر من جديد على العقول الروسية بطل لويس وطوى النسيان صيغ التقدم المبتذلة ان هذه الصيغ لا تذكر في النادر جدا حتى من قبل السوسيولوجيين الذاتيين انفسهم هؤلاء الذين باتوا في هذه الاثناء مشاهير و محترمين وانه لمما يستحق الملاحظة على سبيل المثال ان احدا لم يذكرها حتى في الوقت الذي كانت الحاجة اشد ما تكون اليها فيما يبدو نعني حين قامت المساجلات في بلادنا بشأن ما اذا كان في مقدورنا ان ننعطف من طريق الرأسمالية الى طريق الطوباوية ولقد احتمى الطوباويون عندنا خلف ظهر رجل كان يزعم ، وهو يدافع عن انتاج شعبي وهمي انه نصير في الوقت نفسه للمادية الجدلية الحديثة(٤. وهكذا تبين ان مادية جدلية مزركشة بالسفسطة هي السلاح الوحيد الجدير بالاهتمام الذي يستخدمه الطوباويون ولذا كان من المفيد جدا ان نناقش كيف ينظر الى التقدم انصار الفهم المادي للتاريخ وصحيح أنه قيل الشيء الكثير في صحافتنا في هذا الموضوع وعلى أي حال فان النظرة المادية الحالية عن التقدم لا تبرح اولا غامضة جدا عند الكثيرين كما ان لابريولا اعطى عنها ثانيا بعض الامثلة الفعالة جدا واوضحها ببعض الاعتبارات الصائبة جدا وان يكن من المؤسف انها لم تعرض بصورة منهجية وكاملة فلا بد من اكمال اعتبارات لابريولا وهو ما نأمل ان نفعله حين يتوفر لنا الوقت الكافي له اما الآن فقد حان لنا ان نختم مقالنا

لكننا نود قبل ان نضع القلم جانبا ان نسأل القارىء مرة اخرى ان يتذكر ان ما يعرف بالمادية الاقتصادية التي اثيرت ضدها الاعتراضات — وهي على اي حال اعتراضات تفتقر كليا الى الاقناع — من قبل الشعبيين والذاتيين عندنا لا تملك الا علاقة ضئيلة جدا بالفهم المادي الحالي للتاريخ فمن وجهة نظر نظرية العوامل يشكل المجتمع البشري عبئا ثقيلا تشده قوى متنوعة — الاخلاق والقانون والاقتصاد وقس على ذلك على طريق التاريخ كل بمفردها ومن وجهة نظر الفهم المادي الحالي للتاريخ تبدو الاشياء مختلفة كل الاختلاف انه يتبين ان العوامل التاريخية مجرد تجريدات فاذا ما تبدد ضبابها اتضح ان البشر لا يخلقون تواريخ متعددة ومنفصلة — تاريخ القانون والاخلاق ، والفلسفة ، وهكذا دواليك — بل يخلقون تاريخا وحيدا لعلاقاتهم الاجتماعية الخاصة التي تحددها حالة القوى الانتاجية في كل مرحلة معينة **ان ما نسميه الايديولوجيات هو مجرد الانعكاسات متعددة الاشكال في ذهن البشر لهذا التاريخ الواحد وغير المنقسم .**

## [ في « العامل الاقتصادي »
### النص الاخير ]

# ١

الكثيرون في بلادنا لا يحبون المساجلة وبالخاصة تلك المساجلة من النوع القارص ومن المؤكد انه لا مجال لمناقشة الاذواق التي تكون متقلبة ولقد كان زمن سادت المساجلة فيه فالمرء يستطيع ان يتذكر بيلنسكي او مؤلف **دراسات عن العصر الغوغولي في الادب الروسي** ويلاحظ هذا الاخير في تبريره لحمية نادجدين السجالية

> لا يستطيع المرء الا ان يدهش لافكارنا الادبية وجميع الانواع الاخرى من الافكار وانه ليسأل دائما عن السبب في ان زارع الارض يفلح حقله بمحراث حديدي او خشبي بدائي بأية طريقة اخرى يستطيع المرء يحرث تربة خصبة لكنها قاسية ؟ كيف يمكن ان يخفق المرء في ادراك انه لا تحسم قضية رئيسية دون حرب وان الحروب تجري بالنار والسيف وليس باللغة الدبلوماسية التي لا تكون في موضعها الا بعدما يتحقق العرض من صراع جرى بالسيف انه من غير المشروع الهجوم فقط على العزل والذين لا يملكون دفاعا والشيوخ والمعوقين لكن الشعراء والادباء الذين يهاجمهم نادجدين كانوا[1] من صنف آخر

هذا رأي اشاطر فيه كليا واني لاعتقد كذلك ان اللغو الدبلوماسي المعزول لا يساعد في حل مسألة هامة واحدة وان فراعا جيدا هو في الاغلب بالرغم من المثل الروسي افضل حتى درجة كبيرة من سلم مرقع كذلك رتب الله الطيب الامور ولا حجة لانصار فولتير للهجوم على هذه الاوضاع

ذلك هو السبب في سروري للمساجلة التي قامت بين **الكلمة الجديدة** و **الرسول الروسي** التي اسرعت الى مساعدتها الثرثارة الموسكوفية المترهلة المسماة هزلا **الفكر الروسي**(١٠٥) وانه لفي الامكان تماما ان تكون هذه المساجلة مؤذية لكرامة بعضهم الادبية او ان تهز بعض الشهرة الادبية لا ضرر في ذلك ان الشهرة غير المستحقة وحدها تكون مهزوزة ، ومثل هذه الشهرة لا يجوز توفيرها والاكثر من ذلك ، فاني اعتقد انه من الواجب زعزعتها

هل تعرفون ما الذي ألحق اعظم الضرر واعتقد انه سيلحق اعظم الضرر حتى فترة طويلة من الزمن بانتشار الافكار الاساسية عن الادب وعن الاذواق الجيدة في بلادنا ؟ **عبادة الاصنام في الادب** فنحن لا نبرح مثل الاطفال نصلي ونحني الالهة العديدة في اولمبنا المزدحم ولا نعنى الا قليلا بفحص شهادات الولادة في فترات اكثر تواترا لنبين ما اذا كانت مواضيع عبادتنا من اصل سماوي حقا

هذا ما كتبه بييلنسكي في كتابه الشهير **احلام ادبية** ولقد سالت مياه كثيرة تحت الجسور منذ ذلك الحين وارتقى الى اولمبنا الادبي عدد كبير من الالهة الجديدة الكبيرة او الصغيرة أيجب ان نستمر في اظهار لامبالاتنا القديمة بشهادات الميلاد ؟ أيجب ان نواصل عبادتنا الادبية العمياء للاصنام ؟

ان لدى السيد ميخائيلوفسكي فهما ممتازا لاستخدام النبش حول جذور الحقيقة ولقد نصح مجلتنا باعادة النظر في عفشها فيما يتعلق بالموضوعات النظرية الخالصة ذلت الطبيعة المجردة وفيما يتعلق بالاستنتاجات العملية على حد سواء اننا ممتنون اعظم الامتنان للسيد ميخائيلوفسكي من اجل نصيحته الاخوية ومهما يكن من شيء فلما كانت المقارنة افضل السبل لتعلم الاشياء فلسوف ننظر احيانا ونحن نراجع عفشنا الخاص في العفش الذي تمشى به الهوينى المحرر المحترم **للرسول الروسي** في حدائق الادب الروسي(٦٠ طوال ثلاثين عاما حتى الآن

لنبدأ بالموضوعات النظرية الخالصة ذات الطبيعية المجردة

ما هو الدور الذي لعبه العامل الاقتصادي في تاريخ الانسانية لقد اوردت اعتبارات عديدة في هذا الشأن في مقالتي عن الفهم المادي للتاريخ التي حظيت باهتمام السيد ميخائيلوفسكي وعلى اي حال ، فلا اعتقد انه فهم هذه الاعتبارات بصورة صائبة اذ يبدو نه يعتقد اني انضممت الى موقف الذاتيين وغيرهم من الانتقائيين اما من جهتي فلا احسب ان مثل هذه الكارثة سوف تصيبني في يوم من الايام

وقبل الانخراط في النقاش لا بد من الاتفاق على المصطلحات وصحيح انه كان من واجبنا جميعا ان نفكر في ذلك في وقت ابكر لكن الوصول متأخرا افضل من عدم الوصول اطلاقا

ان خصوم الفهم المادي للتاريخ لم يعطوا قط تحديدا دقيقا للفكرة التي يربطون بها كلمتي العامل الاقتصادي بحيث يتبقى لي ان ابحث في كتاباتهم عن جواب عن مسألة طبيعة هذا العامل

بيد ان خصوم الفهم المادي للتاريخ كثرة بعدد النجوم في قبة السماء . وليس في مقدورنا ان نتعامل مع مثل هذه الكوكبة الهائلة ، ولذا سوف نتوجه الى اثنين من قادتها : السيد كارييف والسيد ميخائيلوفسكي

من المعروف ان السيد كاربيف انطلق في نقده للفهم المادي للتاريخ من الفكرة الصائبة جدا القائلة ان الانسان مصنوع من نفس وجسد ويقول

ان لكلي النفس والجسد حاجاتهما التي تتطلب تلبيتها والتي تضع الفرد في علاقة متغيرة مع العالم الخارجي يعني مع الطبيعة والناس الاخرين وبالتالي فان الانسان مع الطبيعة وفقا لحاجات الفرد الجسدية والروحية تخلق من جهة واحدة انواعا مختلفة من الفنون الغاية منها تأمين وجوده المادي ، ومن جهة ثانية جماع الحضارة الفكرية والاخلاقية

ان الموقف المادي للانسان حيال الطبيعة متأصل في حاجات الجسد الانساني الذي يجب ان يفتش المرء فيه عن اسباب القنص وتربية الماشية والزراعة والصناعات والتجارة والعمليات النقدية

لكن الاستاذ المحترم لا يستطيع ان ينسى ان ثمة ، الى جانب حاجات الجسد حاجات « الروح » الانساني وهذا هو السبب في انه ينازع المادية الاقتصادية التي — هكذا يحسب — تتجاهل كليا الحاجات الروحية ولا تعنى مطلقا بالنشاطات الهادفة الى تلبيتها وان هذا لفي مصلحة الاستاذ لكن ما معنى تجاهل حاجات الروح ؟ ما المقصود من رفض العناية بالنشاطات الهادفة الى تلبيتها ؟ المقصود المناداة بأن الانسان لا يسترشد ، دائما وفي كل مكان الا بحاجاته الانانية ، والاكثر من ذلك البدنية المحضة ، مثل الطعام والنوم والجنس وما شابه ، وانه حتى اذا أبان احيانا عن تعطش منزه الى المعرفة وعن حب مجرد لاشباهه فانه يكذب بكل بساطة ، يرتدي قناعا وغرضه خداع بعض الحمقى السذج

واني اسأل هل قيل قط شيء من هذا القبيل من قبل اي نصير للفهم المادي للتاريخ ؟ ان كل من يملك ادنى معرفة بالادبيات عن هذا الموضوع سوف يرد دون لحظة تردد على الاطلاق كلا ، لم يقل احد منهم قط مثل هذه الاشياء

واذا كان الامر كذلك ،فان لي ملء الحق في استلفات نظر السيد كاربيف الى ان انصار النظرة المادية عن التاريخ لم يعزوا في حال من الاحوال دورا حصريا الى العامل الاقتصادي كما يفهمه هو ، يعني الى الانشطة الهادفة الى تلبية حاجات الانسان البدنية وحدها ومن الطبيعي اني استطيع ان اضيف بحق تام انه اذا كان الماديون الاقتصاديون ينادون بالآراء التي ينسبها اليهم فان انصار الفهم المادي للتاريخ لا يملكون اذن اية علاقة مشتركة مع مثل هؤلاء الماديين الغريبين

فلنمض الآن الى السيد ميخائيلوفسكي لقد كتب عام ١٨٩٤ في محاولة لدحض المادية الاقتصادية ، عن احدى دراسات بلوس التاريخية ما يلي

لا يترتب عما يقوله بلوس(٧) عن الصراع الطبقي والشروط الاقتصادية وهو قليل جدا نسبيا ) انه يبني التاريخ على اساس التطور الذاتي لاشكال الانتاج والمبادلة ، بل انه ليكون من الشاق تجاوز الشروط الاقتصادية عند معالجة احداث ١٨٤٨ . اشطبوا

من بنوس مديحه لماركس من حيث هو صانع ثورة في العلم التاريخي وكذلك بعض العبارات الاتفاقية ذات المصطلح الماركسي ولن يخطر في بالكم قط انكم تتعاملون مع نصير للمادية الاقتصادية ان صفحات جيدة افرادية بمحتوى تاريخي في كتابات انجلز وكاوتسكي وكتاب عديدين آخرين تصلح جيدا لصاقة المادية الاقتصادية نظرا لان مثل هذه الصفحات تأخذ بعين الاعتبار مجمل الحياة الاجتماعية حتى مع غلبة الوتر الاقتصادي في هذا العالم »

ان مايترتب على هذه الكلمات للسيد ميخائيلوفسكي هو انه في رأيه(٨٠ مع الادب وثيق الصلة بالموضوع سوف يجيب بصورة جازمة كلا لم نكشف قط أي منهم عن مثل هذه النية

وبسيحة ذلك فان لي ملء الحق في ان أقول للسيد ميخائيلوفسكي ما قلته من قبل للسيد كارييف ليس لانصار الفهم المادي للتاريخ اية علاقة مشتركة مع الماديين الاقتصاديين هذا اذا كان هؤلاء ينادون حقا بالآراء التي تنسبها اليهم أثمة ماديون ينادون بمثل هذه الآراء هذه مسألة لن ندرسها الآن لان من واجبنا دون ان نسمح لانفسنا بأي انحراف ان نمضي مباشرة الى قضية تقرير الآراء الحقيقية التي ينادي بها انصار الفهم المادي للتاريخ

ولهذا الفرض سوف استعير مثالا بارزا جدا من كتابات غليب اوسبينسكي

في القسم الثاني من دمار ( او بقدر ما يمكن ان يكون التواضع ) يصف راوية قصة لقاء مع أحد اتباع شيعة منشقة نظمت جماعة دينية يعمل الجميع فيها من اجل الرخاء المشترك ولا تمييز فيها بين لي و لك بحيث ينعم جميع اعضائها بشروط مادية ممتازة ولقد تأسست الجماعة بناء على وصية فلاح يدعى ميرون عاش حياة الناسك واكتسب بتعذيبه الجسد شهرة الشهيد ولقد عمد قادة الشيعة الجديدة بفرض تقوية الايمان الى نبش نعشه الذي حملوه الى هيكلهم منادين بأن رائحة القداسة تفوح منه ومهما يكن من شيء فقد تبين انه ليس في واقع الامر مثل هذه الرائحة الامر الذي حمل عضوا شابا من الشيعة على التردد ، وهو شاب لم ينسق قط مع التعصب الديني وكانت ميوله اشد جنوحا الى المعاطف المصنوعة من جلود الخرفان ، والى معدة مليئة ، والى غير ذلك من انواع الرفاهية » ولقد جلس هذا الشاب الى جانب الراوية وهمس في اذنه في السر

— الا تعتقد ، ياصاحب السعادة ان هذا كله هراء ؟

— ماذا تعني ؟

— كل هذه الاشياء عن ميرون لقد احتفظنا به هنا طوال ثلاثة اسابيع وفي الحقيقة ان اية رائحة لم تصدر عنه

نظرت مذهولا في محياه الذي بان عليه شيء من الحيرة .

ــ ماذا تحسب ؟ اننا لا نجرؤ على فتح النعش ما لم نحصل على اذن خطي من المجمع المقدس ولقد رفعت احدى نسائنا الغطاء قليلا جدا واختطف نظرة في السر ولقد قالت لم أر فيه شيئا باستثناء حفنة من تراب هذا كله هراء صدقوني وهذا ما يقوله الناس لعل ايماننا نوع من الخيانة

وهز الفتى رأسه في قلق كبير

سألت ما الذي تعنيه بالخيانة ؟ الا تعيش حياة جديدة ؟ لقد اخبرتني بنفسك ان احوالك لم تكن على هذا القدر من الجودة في دارك

ــ هذا كله صحيح جدا

ــ اذن فالامر يستحق الاستمرار فيه ، لكن بشرط ان تتكاتفوا جميعا

فقاطعني الفتى قائلا اتعتقد ذلك ؟ لا ، لن يكون ذلك سوف نمضي جميعا كل في سبيله الخاص . هذا ما سوف نفعله يا صاحب السعادة اوه ، لا ، ياصاحب السعادة لقد كنا نتبع قديسا سوف يمنحنا سلام القلب والنفس ولقد حسبنا انه سوف يتشفع لنا هناك في العالي فهل يمكن ان يكون ذلك كله دجل وخداع؟ وهكذا كما ترى ــ حسنا ما عساني استخلص من ذلك ؟ انا خاطىء حتى هذا القدر ؟ وهكذا فلا بد ان الحقيقة ليست معنا ــ هذا هو رايي يا للاسى ــ احرى بي ان اعيش حياة الكلب سوف امضي على عجل واسلم نفسي للسلطات سوف اهرب اجل سوف امضي واستسلم لاسيادي افعلوا بي ما شئتم ــ لاترحموني. سوف امضي هــذا مؤكد

ان كان في أي جزء من العالم ماديون اقتصاديون ينسبون دورا حصريا للعامل الاقتصادي كما يفهمه السيد كاريف فاننا سوف ننصحهم باطالة التفكير في المقطع الوارد اعلاه من الواضح ان المتشيــع الشاب نصير للماديــة الاقتصادية بالمعنى الكارييفي انه معني جدا بارضاء حاجات الجسد » ، لكنه يملك مع ذلك حاجات روحية تبين انها الاقوى في آخر الامر انــه على استعداد للاستغناء عن معطفه الفرائي وعن معدته المليئة وغير ذلك من اسباب الرفاهية اذا ما اتضح ان العقيدة الدينية التي يبشر بها مؤسسو الشيعة خاطئة وان « هذا كله هراء على العموم. وليس المتشيع الشاب من صنع خيال غليب او سبنسكي ، بل يشعر المرء انه مأخوذ من الحياة وبعد ذلك كيف يمكن للمرء ان يتجاهل حاجات الروح ؟ كيف يمكن للمرء ان يقول ان الانسان سيسترشد دائما وفي كل مكان بحاجاته الجسدية وحدها ؟ اوه لا ان مطالعة هــذه الفقرة تكفي لاقناع المرء بصورة جازمة بأن الماديين الذين اكتشفهم السيد كاريف على خطأ فادح

لكن ماذا عن انصار الفهم المادي للتاريخ ؟ ان الامور هنا مختلفة كل الاختلاف. ان هذه الفقرة لن تربكهم لهذا السبب بالضبط ، الا وهو انهم لا يتفقون في حال من الاحوال مع الماديين الاقتصاديين الذين اكتشفهم السيد كاريف في موضوع

اهمية العامل الاقتصادي ان انصار الفهم المادي للتاريخ سوف يقولون انه اذا لم يكن لدي المتشيع الشاب الذي وصفه غليب اوسبنسكي اي نزوع على الاطلاق الى المادية الاقتصادية كما يفهمها السيد كاريف حتى اذا لم يأبه البتة بالمعاطف الفرائية وبالعدة المليئة وبغير ذلك من اسباب الرفاهية وحتى اذا كانت افكاره جميعا مركزة على الشهيد ميرون وحده فانه لن يكف مع ذلك عن كونه نتاجا لمحيطه الاجتماعي الذي يخلقه في آخر تحليل تطور القوى الانتاجية الذي تقرره العلاقات بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية وكما ترون ، فلا يحمل هذا ادنى شبه مع الآراء التي ينسبها السيد كاريف الى ماديه الاقتصاديين كما لا يشبه التطور الذاتي لاشكال الانتاج والمبادلة التي تخيلها السيد ميخائيلوفسكي وعلى اي حال فسوف نقول المزيد عن هذا التطور الذاتي في وقت لاحق

## ٢

لقد اشار محرر الرسول الروسي الى انني لم اتنازل مدفوعا بحافز الى ازعاج السادة كاريف وكودرين وكريفنكو واخيرا السيد ميخائيلوفسكي بالذات في مقالتي عن الفهم المادي للتاريخ فآتي على الاقل على ذكر الدور الذي تلعبه انماط الانتاج واشكال المبادلة ، هذا البند الذي يبدو انه يتحلى بأهمية كافية في الفهم المادي للتاريخ ولسوف اطلب من القارىء ان يعير هذه الملحوظة من جانب السيد ميخائيلوفسكي اهتماما خاصا ، وهي الملحوظة التي اعلق عليها اهمية عظمى

لقد عرضت في المقالة المشار اليها الرأي الذي يقول به لابريولا الذي اتفق معه كل الاتفاق في هذه الحالة الخاصة

وهكذا فان البشر ، في سعيهم الى تلبية حاجاتهم يصنعون تاريخهم الخاص ومن الطبيعي ان هذه الحاجات فرضتها الطبيعة في الاصل بيد أنها تبدلت من بعد حتى درجة كبيرة كميا ونوعيا بفعل خصائص بيئة البشر الاصطناعية القوى الانتاجية التي تحت تصرف البشر تحدد جميع علائقهم الاجتماعية وحالة القوى الانتاجية هي التي تحدد في الاصل العلاقات التي ينخرط البشر فيها في عملية الانتاج الاجتماعي يعني علاقاتهم الاقتصادية ومن الطبيعي أن هذه العلاقات الاخيرة تحقق بعض المصالح التي تجد في القانون تعبيرا عنها ويقول لابريولا ان أية قاعدة قانونية كانت على الدوام دفاعا عن مصلحة معينة » وان تطور القوى الانتاجية يؤدي الى انقسام المجتمع الى طبقات ليست مصالحها متغايرة فحسب بل هي من وجهات نظر عديدة – وفي اكثرها جوهرية – متعارضة على طول الخط وان هذا التعارض في المصالح يثير صدامات عدائية بين الطبقات الاجتماعية يثير صراعا بينها وان الصراع يؤول الى الاستعاضة عن التنظيم العشائري بتنظيم الدولة ،ومهمة هذه الدولة الحفاظ على المصالح السائدة ،

واخيرا تنبثق على أساس العلاقات الاجتماعية المحددة بحالة معينة للقوى الانتاجية الاخلاق **الاصطلاحية** يعني الاخلاق التي ترشد الناس عادة في نشاطهم العادي واليومي (٩٠

تخون الكلمات السيد ميخائيلوفسكي حين يقرأ عن امور مثل انماط الانتاج واشكال المبادلة فيغتاظ انه عاجز عن فهم ما صنعت بهذا البند الذي يبدو انه يتحلى بأهمية كافية لكن ما المقصود من هذا البند ؟ ما الذي تعنيه انماط الانتاج واشكال المبادلة ؟ انها تعني تلك العلاقات بالذات التي يدخلها البشر في عملية الانتاج الاجتماعية والتي كنت اعالجها وبنتيجة ذلك تنازلت واتيت على ذكر هذا البند الذي يبدو انه يتحلى بأهمية كافية أليس كذلك ؟ ومن الواضح اني لم اتنازل فأفعل ذلك فحسب ، **بل أعطيته كذلك كل حقه حين تحدثت عن** اهميته الحاسمة فما السبب اذن في حيرة السيد ميخائيلوفسكي **السبب هو اني لم استخدم تلك الكلمات بالذات التي استظهرها عن غير فهم** ولو انه عرف الفكرة المرتبطة بهذه الكلمات لادرك من فوره بكل تأكيد اني اتحدث على وجه الدقة عن انماط الانتاج تلك وعن اشكال المبادلة ( المترتبة عليها ) ومهما يكن من امر فانه لم يستظهر **الا الكلمات وحدها** وهو يجهل معناها تماما وهذا هو السبب في حيرته حالما استخدم كلمات مغايرة هذا اختلاط ظريف من أين للمرء الا يهتف مع بوبشينسكي يا للحدث العجيب او يضيف مع دوبشينسكي يا لها من اخبارغير متوقعة(٠ وبخصوص سخريتي القليلة تذكر السيد ميخائيلوفسكي قصة الراقص الذي ما كان يستطيع القيام بدوره الا اذا بدأ خطواته الاولى من النافذة ويخيل الي انه اكثر شبها بهذا الراقص مني حتى درجة كبيرة وفي الحقيقة ان استظهار بعض الكلمات **دون فهم معناها** ، ومن بعد توقع استخدام الخصوم دائما مثل هذه الكلمات المستظهرة عديمة المعنى ومن بعد التشوش حين تعبر عن نفس الافكار بطريقة مختلفة ــ هذا هو المقصود من عدم القدرة على الابتداء في الرقص الا انطلاقا من النافذة والعجز عن رفع قدم واحدة اذا كان لا بد ان تبدأ البداية انطلاقا من الباب على سبيل المثال ذلك أسوأ من ان تعبر الكلمات عنه ! ويا للسيد ميخائيلوفسكي من أخرق

ويقول السيد ميخائيلوفسكي كثيرا ما سئلنا ، كتابة وشفهيا ، عن السبب في امتناعنا عن الرد على الهجمات المتعددة التي شنتها **الكلمة الجديدة** ضد مجلتنا او ضد اعضاء فرادى من هيئة تحريرنا انه ليبدو انه لن يكون في الامكان بعد الاحداث التي اتينا على ذكرها العثور على شخص يمكن ان يدفعه الى الدخول في مساجلة معنا نه لمن الواضح جيدا الآن انه لا يستطيع في مثل هذه المساجلة الا mit Worten kramen . وصحيح ان ليسكو الشهير في كتابه Uber die Nothwendigkeit und Vortrefflichkeit der elenden Scribenten ، يقول انه « من الايسر جدا والطبيعي اكثر ان يكتب المرء بأصابعه بالاحرى من رأسه » . ولكن

ليسكو كان مغرما بالمفارقات ، ومثال ذلك ان هذا الرجل العجيب يؤكد لنا ان المرء الذي لا يفكر مطلقا يكتب بصورة افضل جدا من الآخرين جميعا وهذا شيء من المرجح انه لن يوافق عليه اولئك السذج (ربما الشبان الذاتيون[111] ؟ الذين توسلوا الى السيد ميخائيلوفسكي ان انقذ نفسك ان كنت الها

اليكم ما كتبه ماركس في مقدمه الشهيرة لكتاب **نقد الاقتصاد السياسي**

البشر يدخلون ، في سياق انتاج حياتهم الاجتماعية في علاقات محددة لا غنى عنها ومستقلة عن ارادتهم وعلاقات توافق مرحلة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية وان الحصيلة العامة لتلك العلاقات الانتاجية تشكل بنية المجتمع الاقتصادية وهي الاساس الواقعي الذي تنهض عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية(

وكما ترى يا سيد ميخائيلوفسكي فان ماركس لم يتنازل هو الآخر فيأتي على الاقل على ذكر انماط الانتاج واشكال المبادلة التي يبدو انها بند على قدر كاف من الاهمية ، الخ ما معنى ذلك ؟ أكان يسترشد بأية حوافز خفية ؟ أكان في نيته ان يمضي هو الاخر الى الموقف الذي اتخذه في وقت لاحق الذاتيون الروس ؟ اني انصحك يا سيد ميخائيلوفسكي ان تدرس هذه المسألة

اما الآن فأود ان استلفت انتباه القارىء الى الظرف التالي ان ماركس يسمي مجمل علاقات الانتاج بنية المجتمع الاقتصادية بيد ان مثل هذه العلاقات لا تعدو كونها العلاقات المتبادلة بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية وبنتيجة ذلك فان أي تغير يطرأ على علاقات الانتاج هو **تغير في العلاقات القائمة بين الناس** وهذا هو السبب في انه من قبيل السخف التام الحديث عن « **التطور الذاتي** لمثل هذه العلاقات التي يزعم انها تفعل « **من تلقاء ذاتها** » دون ان يسهم البشر فيها لكن هذا التطور الذاتي* بالذات هو الذي يتحدث السيد ميخائيلوفسكي عنه وان هذا ليبين قدر فهمه الجيد لماركس الذي حاول ذات مرة ان يدحض نظريته التاريخية

ان التطور الذاتي لانماط الانتاج واشكال المبادلة خليط عديم المعنى من الكلمات ومع ذلك فان مفهوم العامل الاقتصادي يتجاوز تماما عند السيد ميخائيلوفسكي مفهوم التطور الذاتي لانماط الانتاج واشكال المبادلة وبنتيجة ذلك فان العامل الاقتصادي كما يفهمه السيد ميخائيلوفسكي هذر خالص ومن الطبيعي انه لا يمكنني ان اعتبر الهذر قوة سائدة في التاريخ

ان السيد ميخائيلوفسكي معروف بأنه من عداد اولئك الذين يؤكدون انهم

---

* يشير بصورة خاصة الى التطور الذاتي لانماط الانتاج واشكال المبادلة ونحن نعرف من قبل هذه الانماط والاشكال تشتمل على ما يسمى العلاقات المتبادلة بين البشر في عملية الانتاج الاجتماعية .

يعترفون كليا بعقيدة ماركس **الاقتصادية** بينما هم يعارضون نظريته **التاريخية**
ومهما يكن من شيء ، فان مثل هذا التمييز غير ممكن الا بالنسبة الى اولئك الذين
لا يفهمون لا النظرية التاريخية الخاصة بالمفكر الالماني ولا عقيدته الاقتصادية
لم ذلك ؟ اليكم السبب فيه

ما المقصود بالقيمة ؟ عند ماركس انها علاقة انتاج اجتماعية وقد يبدو هذا
غامضا نوعا ما للوهلة الاولى لكنه بالغ البساطة بالنسبة الى كل من فهم **النظرية
التاريخية** لمؤلف **رأس المال** .

ونحن نعرف من قبل ان الناس يدخلون في عملية الانتاج في علاقات متبادلة
متنوعة تقررها حالة القوى الانتاجية وفي مرحلة معينة من تطور هذه القوى
يدخل المنتجون في علاقات مع بعضهم بعضا بحيث تظهر منتجات عملهم في شكل
**السلع** ان السلعة آ تبادل لقاء كمية معينة من السلعة ب ، ولقاء كمية معينة من
السلعة ج ، وقس على ذلك انها تملك قيمة تبادلية معينة بيد ان السلعمنتجات
**للعمل** ، وعلاقاتها المتبادلة في **عملية المبادلة** انما تعبر عن العلاقات المتبادلة بين
**الشغيلة** ( يعني منتجي السلع ) في **عملية الانتاج** الاجتماعية وبالتالي فان قيمة
سلعة معينة انما تعبر عن علاقة عمل منتجيها بعملية الانتاج العامة وهذا يعني ان
القيمة علاقة انتاج اجتماعية ومع ذلك فما اكثر ما تعتبر القيمة من حيث هي
خاصية السلعة بالذات وهذا وهم ، لكن مثل هذا الوهم لا مندوحة عنه في مرحلة
معينة من تطور القوى الانتاجية

وماذا عن الرأسمال ؟ ان الرأسمال قيمة تبادلية تملك القدرة على النمو
ومن الشائع ان الرأسمال الذي لا ينتج ربحا يعتبر **ميتا** وبالتالي فان القدرة على
استدرار الربح خاصة مميزة للرأسمال **الحي** لكن فيما تكون العلاقات التبادلية
للسلع تعبيرا عن العلاقات المتبادلة بين المنتجين في عملية الانتاج الاجتماعية ، فليس
في مكنة الرأسمال ــ هذه القيمة التبادلية التي تولد قيمة جديدة ــ ان يمثل شيئا
آخر سوى علاقات المنتجين الاجتماعية ولذا يقول ماركس ان الرأسمال هو ايضا
علاقة انتاجية اجتماعية يعني علاقة لاصقة بالمجتمع البورجوازي . علاقة **بورجوازية**
للانتاج وتتصف هذه العلاقة بأن العامل يبيع قوة عمله لمخدومه وان الغاية التي
يبتاع الرأسمالي من اجلها قوة العمل تلك معروفة لدى الجميع فالشغيل يخلق
في عملية الانتاج قيمة تزيد على ما انفق من اجل بيع قوة عمله والفارق بين القيمة
الجديدة التي خلقها العامل وقيمة اجوره يسمى فضل القيمة التي تخص صاحب
العمل والتي هي مصدر **الدخل** وهكذا فان قدرة الرأسمال على انتاج الدخل
تفسر بالعلاقات اللاصقة بالمجتمع البورجوازي القائمة بين **الناس** في عملية
الانتاج ومهما يكن من شيء فان خصائص هذه **العلاقات** الانتاجية تبدو وكأنها

خصائص تلك **الاشياء** ، يعني خصائص وسائل الانتاج التي يملكها الرأسمالي ، وهو
ضا وهم لا مندوحة عنه في مرحلة معينة من تطور القوى الانتاجية
وكان ماركس سباقا الى اماطة اللثام عن سر هذه الاوهام وهو ما يبين حتى
اية درجة يتقرر مجرى الافكار بمجرى العلاقات الاجتماعية
وبالفعل فاذا كانت علاقات الانتاج الاجتماعية تنعكس بالضرورة في مرحلة
معينة من تطورها في اذهان الناس على اعتبارها خصائص الاشياء واذا كانت
العلاقات الاقتصادية لا تسقط جاهزة من السماء كما يقول ماركس بل تخلقها
تطور قوى الانتاج الاجتماعية فانه يترتب على ذلك ان آراء معينة يجب ان تقابل
مرحلة معينــة لتلك القوى وان كــل من شاطر ماركس في نظريته الاقتصادية
لا يستطيع ان يرفض هذه النتيجة كما ان كل من قبل بهذه النتيجة تكون قــد
تقدم مسافة جيدة في ميدان التفسير المادي للتاريخ
ويقول السيد ميخائيلوفسكي انه لا وجود لحلقة ضرورية بين آراء ماركس
الاقتصادية ونظريته التاريخية ولا بد ان القارىء شاهد بوضوح السبب في ان
السيد ميخائيلوفسكي يفكر على هذا الغرار ان لذلك سببا بسيطا هو اخفاقه
التام في فهم آراء ماركس الاقتصادية ان كل من لا يراوده حتى الشك في ان انماط
الانتاج واشكال المبادلة ليست شيئا آخر سوى علاقات الناس المتبادلة في عمليــة
الانتاج الاجتماعية قد يفهم جميع الاشياء التي تحت الشمس الا انه لن يفهــم
ماركس او عقيدته الاقتصادية

## ٣

لا تخلو ملاحظة السيد ميخائيلوفسكي من الخبث حين يقول ان مقال السيد
كامنسكي لا ينطق بكلمة واحدة بشأن ما اذا كان كتاب لابريولا يتضمن صفحات تعالج
امر تقدير المفهوم التاريخي لماركس وانجلز وقد يبدو انه لم يكن بد من الاتيان
على ذكر هذا الامر بصورة عابرة على الاقل لكن السيد كامنسكي فضل ان يكرس
بعض الوقت « للقرص
ما هي علاقة آراء لابريولا التاريخية بالمفهوم التاريخي لماركس وانجلز ؟
انها علاقة بالغة البساطة فهي تتطابق كليا مع هذا المفهوم وكل من يفهم هذا
المفهوم حتى بصورة جزئية لن يراوده الشك في ذلك ولو لحظة واحدة بعدما
يقرأ الفقرة الواردة اعلاه من عرضي لآراء الاستاذ الروماني التاريخية واذا كان
السيد ميخائيلوفسكي يحار في هذا الشأن ، فذلك يبين مرة أخرى كم كان فهمه
جيدا لعقيدة يعتبر أن دحضها واجبه الاخلاقي

لقد اخفق السيد ميخائيلوفسكي في التعرف الى المفهوم التاريخي لماركس وانجلز لسبب وحيد الا وهو انه لم يصادف في عرضه بعض الكلمات التي استظهرها دون ان يفهم معناها وهو حادث مزعج قد يكون السبب في انه سوف يحاول القاء اللوم كله علي وان في مقدوره تماما ان يقول لنا لماذا البسم فكرة لابريولا ثيابا غير مألوفة عندي ؟ لماذا لم تخبرني في كلمات قليلة بأن هذا الكاتب من بين **التلامذة الايطاليين**(١١٢) ؟ ولسوف ارد على ذلك بأن أي امرىء كان له الحق في التعبير عن نفسه كما يحلو له بشرط أن تبلغ كلماته بصورة صائبة الفكرة التي يجب نقلها وفيما عدا ذلك فلعله كان لدي حافز خاص فلعلي كنت أتوقع ملحوظة السيد ميخائيلوفسكي وكنت اريد أن ابين لجميع القراء انه فيما استظهر البعض من عباراتنا فهو لم يكن يملك ادنى فهم لمعناها واذا كان لدي مثل هذا الحافز حقا فقد كنت فيه على ملء الحق كما سوف يوافقني الجميع

ولنمض الى ابعد من ذلك ان مجمل العلاقات الاقتصادية تشكل بنية المجتمع الاقتصادية التي تقررها حالة القوى الانتاجية وكما يقول السيد بلتوف بحق في الصفحة ١٧٣ من كتابه يبين هذا ان المرء لا يستطيع ان يتحدث عن الاقتصاد من حيث هو السبب الاولي لجميع الظواهر الاجتماعية الا في الحديث الشعبي انه ابعد ما يكون سببا اوليا فهو بحد ذاته نتيجة ووظيفة للقوى الانتاجية

وهذا ما اقوله انا الآخر في مقالتي عن كتاب لابريولا

> وفقا لمذهب الماديين الاحدث يتفق مع الطبيعة البشرية **اي** نظام اقتصادي يقابل حالة القوى المنتجة في عصر معين وعلى العكس من ذلك ، فان كل نظام اقتصادي يأخذ في مناقضة مطالب الطبيعة البشرية حالما يتعارض مع حالة القوى المنتجة وهكذا يتبين ان العامل الغالب بالذات **خاضع** لعامل آخر حسنا كيف يمكن بعد ذلك ان يكون « غالبا » ؟ (١١٤)

هذا بند بالغ الاهمية في المفهوم التاريخي للماديين الحاليين ويستحق التوقف عنده فاذا كانت العلاقات الاقتصادية السبب الاولي والاساسي للظواهر الاجتماعية فسوف يكون من المحال فهم السبب في التبدل الذي يطرأ على هذه العلاقات وصحيح ان السيد ميخائيلوفسكي ابتدع تطورها الذاتي بيد أن هاتين الكلمتين لا معنى لهما ولا يفسران شيئا طالما انه لا يمكن لاي تطور ذاتي ان يحدث دون سبب كاف وفي الواقع تتقرر العلاقات الاقتصادية بحالة القوى الانتاجية وهي **تتعرض للتبدل من جراء** التغيرات الحادثة في هذه الحالة ان اية علاقات انتاجية اجمالية لا تصمد الا بقدر ما تتفق مع حالة القوى الانتاجية الاجتماعية فاذا ما زال هذا الاتفاق وقع كذلك دمار العلاقات الانتاجية المعطاة ، فأفسحت البنية الاقتصادية المعطاة المكان لحصيلة جديدة من العلاقات . وان بنية

اقتصادية معينة لا تكف بالطبع في الحال عن مقابلة حالة القوى الانتاجية الاجتماعية: تلك عملية تتم بسرعة اعظم او اقل وفقا للظروف العامل السياسي هو الاداة التي تقضي على البنية الاقتصادية الباطلة ومع مرور الزمن يجعل تطور القوى الانتاجية الاجتماعية البنية الاقتصادية القائمة غير ملائمة ومزعجة بالنسبة الى الغالبية يعني النظام القائم للعلاقات المتبادلة بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية ومع زيادة ازعاج هـذا النظام يتعاظم عدد الناس الساخطين عليه ويكسب حزب المجددين المزيد من القوة ؛ وبكلام آخر فان العلاقات المتبادلة بين الناس تتغير في مجال الحياة السياسية ايضا وحين يبلغ هذا التغير درجة معينة تبدأ عملية اعادة صياغة البنية الاقتصادية القديمة وهي عملية سرعتها وشدتهـا بعيدتان ايضا عن الانتظام دائما وعلى اي حال فان في مكنة المرء مرة اخرى ان يتبين من ذلك السبب في عدم حدوث اي شيء من تلقاء ذاته في الحيـاة الاجتماعية ؛ ان الاشياء جميعا تفترض بصورة مسبقة فعاليات الانسان الاجتماعي

## ٤

كذلك هي الامور من وجهة نظر المادية الجدلية الراهنة ، وعلى اي حال فان تعبير المادية الجدلية يحير كذلك السيد ميخائيلوفسكي وهو يقول

« يتحدث السيد كامنسكي في كل مكان عن المادية الجدلية التي يعتبر لابريولا احد ممثليها الحازمين حتى اذا اخطأ في التفاصيل ولا نعرف الا من هامش مقتضب لابريولا يطلق عليها المادية الجدلية اسم المادية التاريخية المقتبس عن انجلز ويبدو انه يترتب على ذلك ان عبارة المادية الجدلية غائبة كليا في كتاب لابريولا ومن الطبيعي الشيء لا يتغير اطلق عليه آخر لكننا سوف نرى الان كيف السيد كامنسكي نفسه يورد مثالا على الالتباس بنتيجة استخدام صفة اخرى بشأن اسم المادية ويحار القارىء في فهم السبب والغاية اللذين استعيض من اجلهما عن الصفة الواحدة بالصفة الاخرى ان الهامش المقتضب يقرر ان اسم المادية التاريخية مقتبس عن انجلز لكن أيكون معنى ذلك ان لابريولا اقتبس بصورة مباشرة مع اشارته الى المصدر ، اما ان ذلك مجرد اتفاق وان الاقتباس بصفتـه هـذه مجرد افتراض من جانب السيد كامنسكي ؟

ان عبارة المادية الجدلية غائبة كليا في كتاب لابريولا الامر الذي لا يمنع على اي حال الاستاذ الروماني من ان يكون نصيرا للمادية الجدلية

ما الذي يدعوني الى مثل هذا التفكير ؟ جملة من الاسباب ولسوف اسمي أحدها بعدما قرأت كتاب لابريولا عرفت آراءه وفضـلا عن ذلك فانـا اعرف ما المقصود بالمادية الجدلية ولم يقرأ السيد ميخائيلوفسكي الكتاب آنف الذكر ،

لكن السطور التي اوردتها اعلاه من مقالتي عن هذا الكتاب تكفي لتبين بكل وضوح ان لابريولا تلميذ ايطالي ومن لا يعرف ان معلمي مثل هؤلاء التلامذة قد كانا الممثلين الابرز للمادية الجدلية ؟ وعلى اي حال فهذا امر يبدو ان السيد ميخائيلوفسكي يجهله ولذا سوف استلفت انتباهه الى السطور التالية من انجلز:

ان ادراك التناقض الاساسي في المثالية الالمانية قد ارتد بالناس الى المادية لكن ليس الى المادية الميتافيزيائية البسيطة ، الميكانيكية حصرا للقرن الثامن عشر لقد كانت المادية القديمة تنظر الى التاريخ السابق بأسره من حيث هو ركام قاس من اللاعقلانية والعنف ، اما المادية الحديثة فترى فيه عملية لتطور الانسانية وتستهدف اكتشاف قوانين هذا التطور فبالنسبة الى الفرنسيين في القرن الثامن عشر وحتى بالنسبة الى هيغل كان يسود تصور الطبيعة من حيث هي كل تتحرك في حلقات ضيقة وهي ثابتة الى الازل بأجرامها السماوية الابدية حسب تعليم نيوتن وانواعها العضوية غير المتبدلة حسب تعليم لاينوس أما المادية الحديثة فتحتضن الاكتشافات الاحدث للعلوم الطبيعية التي تقول ان للطبيعة ايضا تاريخها في الزمان ، وأن الاجرام السماوية ، مثلها كمثل الانواع العضوية التي تسكنها في شروط ملائمة تولد وتفنى وحتى اذا كان لا بد من القول ان الطبيعة من حيث هي كل تتحرك في دارات متكررة فان هذه الدارات تتخذ ابعادا اعرض بما لا يقاس وفي كلا المظهرين فان المادية الحديثة جدلية جوهرا ، وهي لا تتطلب بعد الآن مساعدة ذلك النوع من الفلسفة التي تزعم كما لو كانت ملكة ، انها تتحكم في رعاع العلوم الباقية(١١٥)

ويستطيع السيد ميخائيلوفسكي ان يرى الآن ان المادية الحالية هي في رأي انجلز مادية **جدلية** وانه ليكون من العسير الارتياب في ان انجلز كان نصيرا لهذه المادية لكني اود ان احول دون امكانية مثل هذا الارتياب وهذا ما يقوله هو نفسه في هذا الشأن

كنا ، ماركس وأنا ، الوحيدين تقريبا اللذين خلصنا الجدلية الداعية من الفلسفة المثالية الالمانية وطبقناها على المفهوم المادي عن الطبيعة والتاريخ(١١٦)*

ولسوف يسأل السيد ميخائيلوفسكي ما معنى تعبير المادية التاريخية الذي ستخدمه انجلز احيانا والذي اقتبسه لابريولا عنه ؟ ولسوف افسر ذلك له ايضا

ان نظرة ماركس وانجلز المادية الى العالم احتضنت ، كما رأينا لتونا الطبيعة والتاريخ على حد سواء وفي كلتا الحالتين كانت «**جدلية جوهرا**» لكن بقدر ما تعالج المادية الجدلية التاريخ يسميها انجلز تاريخية في بعض الاحيان ولا يميز هذا النعت المادية بل سير فحسب الى احد الميادين التي تطبق على تفسيره . ما عسى ان نكون ابسط من ذلك ؟

* [ هذه الفقرة بالالمانية في النص الروسي ]

اننا نصادف في قصة **دمار** لغليب اوسبنسكي موظفا مدنيا متقدما في السن يدعى بافل ايفانيتش بيشكين اختلطت كليا مفاهيمه وافكاره بفعل الصدمة غير الموقعة لظواهر الحيـاة الجديدة ولقد آل بـه ذلك الى تفادي اية مناقشة او محاكمة بل الاقتصار على الغمغمة بنوع من الهراء الغاضب سواء أكان في موضعه أم لا لنفترض ان المناقشة دارت حول الخطوط الحديدية فاذا بيشكين يتمتم مستاء الخطوط الحديدية ايـه ما هو الخـط الحديدي ؟ الخطوط الحديدية ما الذي تعنيه ؟ ما القصد من ذلك كله ؟ ليس من يدري ولقد جعل السيد ميخائيلوفسكي مؤخرا يبدي شبها شديدا بهـذا الموظف المدني انه يغمغم، مثله مثل بافل ايفانيتش بالضبط « المادية الجدلية ايه ، ما هي المادية الجدلية ؟ المادية الجدلية المادية الجدلية ما الذي تعنيه ؟ ما القصد من ذلك كله ؟ ليس من يدري ولقد كان بيشكين يتفوه بهرائه الغاضب لان ذهنه ، ونحن نستشهد بغليب اوسبنسكي ، **دمره العصر كليا** ايمكن ان يكون ذهن السيد ميخائيلوفسكي في نفس الحالة المحزنة ؟

انه يجد ان كلمتي الماديين الجدليين خرقاوان قد يكون الامر كذلك ، لكن استخدامها ممكن تجنبه بالاقتصار على الحديث عن الماديين الحاليين واذا كنت حتى الآن لم استخدم هذه العبارة الا نادرا فذلك فقط لاني وجدت مـن الضرورة بمكان ان احدد طبيعة المادية الحالية واؤكد عليها ولقد تحقق هـذا الهدف الان ولذا آمل ان أتمكـن الآن من الحديث بدلا عن المادية الجدليـة والماديين الجدليين عن المادية الحالية وعن الماديين الحاليين

ولسوف اشير كذلك الى ان السيد ميخائيلوفسكي حكـم ضعيف جدا في المصطلحات فقبل وقت قصير دان استعمال عبارة proizvoditel » شاكيـا انها تفوح برائحة الاصطبل كيف يستطيع المرء ان يعارض مثل هـذه الحجة ومنذ صدور مجلـة سان سيمون **المنتج**(١١٧) في عام ١٨٢٧ كانت هـذه العبارة مستعملة باستمرار في اوروبا الغربية ولم تثر ايـة مشاركة مع الاصطبل(١١٨) وهذه هي الان توحي بفكرة الاصطبل الى ذهن نبيلنا التائب وفي هذه الحال **لا تقع الملامة على العبارة ، بل على الارجح على تربية هذا النبيل التائب**

**٥**

قلت في مقالتـي ان لويس بلان و ي جوكوفسكي كانـا في رأي السيـد ميخائيلوفسكي من ذلك النوع من الماديين الاقتصاديين مثل نصارنا الحاليين للفهم المادي للتاريخ وهو رأي لا يمكن ان يجد نه اساسا الا في **اضطراب الافكار الاشد** . وينادي السيد ميخائيلوفسكي في لينـه المعهـود بالاعتراض التالي

« **ليس هذا صحيحا** » ( التشديد منه ) فأنا لم اعبر عن مثل هذا الراي لكن لا يا سيد ميخائيلوفسكي ، فقد عبرت عنه واليك كيف صفحة

يتحدث السيد بلتوف عن المؤرخين الفرنسين و الطوباويين الفرنسيين ، مقدرا اياهم على حد سواء وفقا لمقياس فهمهم او عدم فهمهم للاقتصاد من حيث هو اساس البنيان الاجتماعي وعلى أي حال فان ما يدعو الى الغرابة انه لا يأتي على ذكر لويس بلان في هذا الشأن ، بالرغم من ان مقدمة كتابه **تاريخ عشر سنوات** تكفي لوحدها لاعطائه مكانا مشرفا بين المعلمين الاوائل لما يعرف بالمادية الاقتصادية وبالطبع فان هذه المقدمة تتضمن الشيء الكثير مما لا يستطيع السيد بلتوف الموافقة عليه ، بيد انها تعالج صراع الطبقات وتقديرا لخصائص هذه الطبقات الاقتصادية والاقتصاد من حيث هو النابض الخفي للسياسة ، وعلى العموم **فهي** تعالج الشيء الكثير مما اصبح **لاحقا** جزءا من العقيدة التي يدافع السيد بلتوف عنها بكل حمية واني لاذكر هذا الاسقاط اولا لانه يبعث على الدهشة بحد ذاته من جهة ولانه ينوه من جهة ثانية ببعض الاهداف الثانوية التي لا علاقة لها بعدم الانحياز

يحتل لويس بلان مكانــا مشرفا بين « **المعلمين الاوائل** » لما يسمى بالماديــة الاقتصادية هذا عظيم لكن ما الذي يفهمه السيد ميخائيلوفسكي من كلمتي المادية الاقتصادية ؟ انه يقصد المفهوم التاريخي لماركس وانجلز وبالتالي يترتب على ذلك ان لويس بلان كان احد آباء هذا المفهوم لكن ذلك هو بالضبط المفهوم الذي ينادي به اصحابنا انصار الفهم المادي للتاريخ اليوم وبنتيجــة ذلك فهم نفس النوع من الماديين الاقتصاديين كما لويس بلان ، هذا الرجل الذي يُنادى بأنه يحتل مكانا مشرفا بين معلميهم الاوائل من منا ، اذن ، نطق « **خطلا** » ( التشديد من قبلي هــذه المرة ) ؟

ومن معرفتي بالسيد ميخائيلوفسكي أعرف سلفا كيف سيحاول التملص من هذا الوضع المزعج سوف يقول على أي حال فقد اضف ان عند لويس بلان السيء الكثير مما لا يستطيع السيد بلتوف الموافقة عليه الامر الذي يعني انه لم يكن مع ذلك من حيث هو احد المعلمين الاوائل للمادية الاقتصادية ذلك النوع نفسه من الماديين التاريخيين كما في الوقت الراهن ان الامور تجري دائما مع السيد ميخائيلوفسكي مثل مجراها في الاغنية الفرنسية

Ils étaient quatre
Qui ne le voulaient pas .
Mais il y en avait trois
Qui voulaient se battre .
Le quatrième dit Ça ne me regarde pas,
Mais cela n'empêche pas,
Qu'Iis restaient quatre

Qui voulaient se battre*

ومهما يكن من شيء فان هذا النوع من المنطق لا يمكن ان يقنع الا ذلك الذي يريد ان تقتنع وبأي ثمن كان ، يعني ذلك الذي لا يتطلب الاقناع ان الاشارة الى كلمتي الكثير جدا لا تمكن ان تثبت شيئا البتة نظرا للكلمات المرافقة التي ينطق بها السيد ميخائيلوفسكي نفسه انهـا تعالج صراع الطبقات وتقديرا لخصائص هـذه الطبقات الاقتصادية والاقتصاد من حيث هـو النابض الخفي للسياسة وعلى العموم فهي تعالج الشيء الكثير مما اصبح لاحقا جزءا من العقيدة التي يدافع السيد بلتوف عنها بكل حمية هذه الكلمات لا يمكن ان تفهم بصورة مغايرة لفهمي لها اقصد بمعنى انه نظرا لان لويس بلان يقدم من جهة واحدة تقديرا لصراع الطبقات وفقا لخصائصها الاقتصادية ويعتبر من جهة ثانية الاقتصاد من حيث هو النابض الخفي الخ ، فقد كان ذلك النوع نفسه من الماديين الاقتصاديين كما هم في الوقت الراهن انصار النظرة المادية الى التاريخ لكنني فهمت كذلك ان السيد ميخائيلوفسكي يخطيء خطأ فادحا حين تتحدث على هذا الفرار لان ثمة فارقا هائلا وجوهريا بين آراء لويس بلان التاريخية و المفهوم التاريخي للماديين الحاليين فهذا المفهوم هو من طبيعة **مادية** حية وحازمة التعبير ، في حين ان المادية الاقتصادية للويس بلان لم تمنعه من النظر الى التاريخ بعيني **المثالي** واذا كان السيد ميخائيلوفسكي بالرغم من ذلك كله ، بعدّ لويس بلان في جملة المعلمين الاوائل للمادية الاقتصادية – التي يقصد بهـا التفسير المادي الحالي للتاريخ – فهو يبرهن بذلك بصورة رائعة على جهله التام بالموضوع

ان الاقتصاد من حيـث هو النابض الخفي و تقديرا للطبقات وفقـا لخصائصها الاقتصادية وغير ذلك من الخصائص وهو ما يعطي السيـد ميخائيلوفسكي الحق في تسميـة لويس بلان في عداد المعلمين الاوائل للمادـة الاقتصادية تصادف بصورة اجمالية وافرادية في كتابات المؤرخين الفرنسيين لعصر عودة الملكية اوغستان تيري ، ومينيه ، وبالخاصة غيزو ونظرا لان السيد ميخائيلوفسكي غير مدرك لذلك فيما يبدو ، فاني على استعداد لان انقل اليه بعض المعلومات النافعة في هذا الحقل

* [ كانـوا اربعـة
يريـدون القتـال
لكـن ثلاثـة منهـم
ما كانوا يريدون ذلك
وقال الرابع هذا ليس من شأني
لكـن هـذا لا يمنـع
انهـم كانوا اربعـة
يريدون القتـال ] .

لقد لعب غيزو كما هو معروف لدى الجميع دورا فعالا جدا في الحركة الاجتماعية التي كانت تشكل الصفة المميزة للتاريخ الفرنسي الداخلي خلال عصر عودة الملكية والتي كانت تستقيم في نضال البورجوازية ضد الارستقراطية الروحية والزمنية التي كانت تحاول استعادة المركز المميز الذي دمرته الثورة وكان غيزو يدرك جيدا اهمية تلك الحركة فيراها من حيث هي مجرد الفصل الاخير والختامي لصراع طبقي استمر قرونا عديدة كان يرى في المناقشات السياسية الحامية في المجلس في ذلك الحين نفس الخلاف العريق بين الطبقة الوسطى والنبالة وكانت عواطفه الخاصة كلها الى جانب البورجوازية التي خدمها بكل قواه وجماع نفسه وسائر افكاره مشجعا اياها على مواصلة الصراع حتى نهايته المريرة ولقد قال ان احداث نهـاية القرن الماضي كانت حربا وهذه الحرب قادت الى الفتح ، فكسبت الطبقة الوسطى مركزا يليق بها ولا بد لها من الاحتفاظ بمكاسبها مهما كلف الامر فلا مصالحة ممكنة بين الطبقة الوسطى والارستقراطية حتى تقبل هذه الاخيرة بحقيقة تلك المكاسب* وهـذا هو السبب في ان بعض انصار النظـام القديم اتهموه بالتحدث عن الصراع الطبقي بهدف الهاب الاهواء ورد غيزو على ذلك بصورة مقنعة وبليغة في **مقدمة** طويلة للطبعة الثالثة من كتابه الذي ذكرتـه لتوي حيث انصرف الى البرهان على ان النضال الطبقي ليس نظرية بل حقيقة واقعـة ويستطرد قائلا

> حين عبرت عن تلك الحقيقة كنت ابعد ما اكون عن ادعاء شرف اكتشاف أي شيء جديد كانت بغيتي الوحيدة تلخيص تاريخ فرنسا السياسي لقد كان الصراع بـين الطبقات الاجتماعية يملأ هذا التاريخ او بالاحرى يحتويه ( كذا ) الامر الذي كان معروفا ومنادى به قبل الثورة بعدة قرون وكان معروفا ومنادى به في عام ١٧٨٩ وكان معروفا ومنادى به قبل ثلاثة اشهر ( كتبت هذه العبارة في ١٨٢٠ وبالرغم من اتهامي حاليا باني قلت ذلك ، فلا احسب ان امرءا نسيه ان الحقائق لا تتلاشى وفقا لنزوات الاحزاب او مصالحها العابرة**

وانه ليضيف من بعـد في تهكم ان حقيقـة الصراع بين الفئـات الاجتماعية الفرنسية لا بد ان تبعث اعظم الدهشة في المؤرخ الفرنسي دي بولانفييه وجميـع اولئك الممثلين الشجعان للطبقة الثالثة الذي تصدوا للدفاع عن حقوقها في جلسات المجالس العامة وفي رأيه ان الذرية المحلة للارستقراطية تستطيع وحدها ان تنكر ان طبقتها كانت في يوم من الايام سيدة فرنسا وانها خاضت نضالا عنيفا دفاعا عن اوضاعها الاجتماعيـة المميزة

---

* انظر بصورة خاصـة **في الحكومة الفرنسية منـذ عودة الملكية وفي الوزارة الحاليـة ،** ١٨٢٠.

** المصدر نفسه ، ص ٩١

ان راي غيزو في الاقتصاد من حيث هو النابض الخفي للسياسة يجد هنا تعبيرا واضحا ولعل السيد ميخائيلوفسكي يرغب في معرفة ما اذا كانت كتابات غيزو تتضمن اي تقدير للطبقات وفقا لخصائصها الاقتصادية وفي هذه الحال احيله الى **دراسات في تاريخ فرنسا** و **تاريخ الثورة الانكليزية** وعلى أي حال فلا يمكن ان نقوم ادنى شك في هذا الشأن بيد ان راي غيزو بشأن النابض الخفي الذي نقرر انتشار بعض الافكار في مجتمع معين معروف قليلا ويستحق الاشارة اليه ولقد التعبير هذا الرأي في كلمات المؤرخ الفرنسي التالية

الافكار والعقائد والدساتير تخضع للعب الظروف ولا تكون على الرحب والسعة الا حين تخدم كأداة او ضمانة لمصالح ملحة وملموسة بصورة عامة*

ويترتب على ذلك ان غيزو هو الآخر احد «المعلمين الاوائل» للمادية الاقتصادية.
ما قولك في ذلك يا سيد ميخائيلوفسكي وهلا كلفت نفسك عناء ان تسرح اين يختلف المفهوم التاريخي للوزير السابق للويس فيليب عن المفهوم المماثل لمؤلف **رأس المال** ؟ لسوف تقول من جديد بكل تأكيد ان غيزو يتضمن على اي حال بالرغم من جميع النوابض التي سميتها الشيء الكثير مما لا يمكن ان يوافق عليه الانصار الحاليون للنظرة المادية الى التاريخ ولسوف تكون على صواب تام ومهما يكن من شيء فسوف ارد عليك اولا نه اذا كان كل ذلك الشيء الكثير لم يمنع لويس بلان من ان يكون بين المعلمين الاوائل فهو لا يمكن ان يمنع غيزو من ان يكون هو الاخر مثل ذلك واسوف انصحك ثانيا بأن تعمل الفكر في ذلك الشيء الكثير الذي يميز آراء لويس بلان وغيزو التاريخية من « المفهوم التاريخي لماركس وانجلز واذا ما اتبعت نصيحتي فلسوف تجد بنفسك انه يكمن خلف ذلك الشيء الكثير كله اليقين بأن تطور العلاقات والمؤسسات الاجتماعية يجب أن يفسر آخر الامر **بخصائص الطبيعة الانسانية** ولعلك استظهرت من قبل ايها السيد ميخائيلوفسكي ان لب القضية وفقا للمفهوم التاريخي عند الماديين الحاليين ، متضمن ليس في الطبيعة الانسانية بل في العلاقات المتبادلة التي يدخلها الناس من جراء حالة قواهم الانتاجية وهو ما ينفع تذكره وانه ليمكن القول ان هذا هو بالضبط ذلك البند الذي يبدو انه يحلى بأهمية كافية والذي يميز المفهوم التاريخي للماديين الحاليين من جميع اولئك السابقين لهم وان هذا البند بالذات هو الذي يجعل من المحال تسمية لويس بلان وغيزو في عداد المعلمين الاوائل للمادية التي هي كما نعرف من قبل جدلية جوهرا بطبيعتها

اذا ما التقى السيد ميخائيلوفسكي رجلا يتحدث عن الاقتصاد من حيث هو النابض الخفي للسياسة ويميز الطبقات وفقا لخصائصها الاقتصادية ( وعلى اي

* المصدر نفسه ، ص ٩١

حال فليس من يميزها بصورة مغايرة ) ويعتقد مثل غيزو ان التاريخ مصنوع من نضال الطبقات لكنه في الوقت نفسه **لا يعرف من اين ينشأ ذلك « الاقتصاد بالذات»** يحاول ان يعزو اصله وتطوره الى خصائص **الطبيعة الانسانية** فليسمه اذن صاحبنا الذاتي ما حلا له من الاسماء ، لكن فليتذكر **في الوقت** ذاته ان وجهة النظر الاساسية لمثل هذا الرجل هي نقيض وجهة النظر التي ينادي بها الماديون الحاليون.

لنأخذالسيد جوكوفسكي علىالاقل . ان **السيد ميخائيلوفسكي** لايعرف ما اذا كان يحب أن يسجله من حيث هو اقتصادي أو **مادي جدلي »** ، وهو جهل يصدر ايضا من كون صاحبنا الذاتي لا يملك اي فهم للمادية **الجدلية** ولو كان يملك هذا الفهم لكفاه ان يسأل نفسه هل يعزو السيد **جوكوفسكي اصل** العلاقات الاجتماعية الاقتصادية وتطورها الى تطور القوى الانتاجية **؟ اذا كانت كتابات** هذا السيد تظهر ذلك فأن السيدميخائيلوفسكي سوف يسميه **دون ادنى تردد** ماديا جدليا ؛ **واذا** هي لم تفعل فانه لا يمكن ان يسمى كذلك **الا بنتيجة مغالطة** ان الصفة التي سميتها لا يمكن ان تصادف البتة ، **في** رأيي ، **في كتابات السيد جوكوفسكي** ، ولسوف اظل على يقين من ذلك حتى يثبت لي **خصمي العكس من ذلك** واحسب انه لن يتمكن من ذلك قط وحتى اذا برهن عليه ، **فلن يؤثر ذلك** مطلقا في سياق مناقسنا وحصياتها

لم تكن غريتشن الساذجة تدري ان **كلمات مختلفة** نوعا ما تغير بصورة جذرية احيانا فحوى الاشياء كله(١١٩) **وهذا شيء يبدو ان** شخصا معينا آخر لا يدريه كذلك

ولست اتذكر المقالة القديمة للسيد **جوكوفسكي** ، لكن المقطفات منها الواردة في مقالة السيد ميخائيلوفسكي **تعطيني الحق في الاعتقاد** بأنه يتحدث عن العوامل **« بكلمات مختلفة نوعا ما »** بالمقارنة **معي**

واليكم ما كتبه السيد ميخائيلوفسكي **« حين يشير الى** العناصر الثلاثة التي تقرر في جميع الاوقات الوعي **المدني للمجتمع** – القانوني والسياسي والاقتصادي – يستطرد السيد جوكوفسكي قائلا **« ان** رجال القانون والسياسة والاقتصاد ينسون ان كل واحد منهم يدرس **مظهرا اعتباطيا ومجردا واحدا من المجتمع فقط ،** وهو مظهر لا يمكن تناوله على حدة **الا** بصورة اتفاقية بهدف تسهيل دراسته ولا يملك اي استقلال **فعلي** وبالتالي **لا يمكن** التفكير فيه بحد ذاته وهو لا يملك ذلك المعنى الا في ارتباطه العام **بالمظاهر الاخرى** وبعد قليل لا يستطيع المرء حين يناقش المجتمع بطريقة **نظرية محضة** ان **يجرد** المظهر الواحد من المظهر الآخر ، ويضع تحت التمحيص **نتائج ومطالب** اي مظهر خصوصي. بيد انه يكون من الخطل الفادح وقس على **ذلك**

## ٦

لكن لنعد الى مسألة « العوامل

اننا نعرف ان العلاقات الاقتصادية ضمن اي مجتمع لا تتقرر وفقا لعقيدة الماديين الحاليين بخصائص الطبيعة الانسانية بل بحالة القوى الانتاجية الاجتماعية، كما ان العلاقات الاجتماعية الاقتصادية تتغير مع نمو هذه القوى واي تغير في تلك العلاقات يؤثر ايضا في طبيعة الانسان الاجتماعي **وان تغيرا في العلاقة المتبادلة لمختلف عوامل الحياة الاجتماعية يحدث جنبا الى جنب مع أي تبدل في تلك الطبيعة.** وهذا بند بالغ الاهمية ، ويمكن القول ان كل من يفهمه يفهم الموضوع باكمله

ولنفترض كبداية ان ثمة عاملين فقط ، المادي والاقتصادي الذي يلبي حاجات الجسد والروحي الذي يلبي حاجات الروح* كيف تتأثر العلاقة بين هذين العاملين بتطور القوى الانتاجية ؟

وطلبا للبساطة لنفترض ايضا ان هذا التطور لا يؤدي الى انقسام المجتمع الى طبقات

لما كانت القوى الانتاجية التي في متناول الانسان البدائي فقيرة جدا كان القسم الاعظم من وقته مكرسا لمجرد الحفاظ على حياته الجسدية ، وكان بالتالي واقعا تحت سيطرة « العامل الاقتصادي » وعلى أي حال ، فان تلبية حاجاته «الجسدية» جعلت تترك له مع نمو قواه الانتاجية ، مزيدا من الفراغ استطاع ان يستخدمه في مصلحة « روحه » لقد كرس هذا الفراغ للعلم والفن وما شابه وهكذا يمكن القول ان العامل الروحي اشتد مع نمو القوى الانتاجية ، وبالتالي ان التاريخ بالذات اخذ على عاتقه مهمة دحض « المادية الاقتصادية

كذلك كانت تجري الامور لو لم يؤد تطور القوى الانتاجية الى انقسام المجتمع الى طبقات بيد ان ذلك افتراض اعتباطي كيف هي الامور في حقيقة الامر ؟ في الواقع ان نمو القوى المنتجة قضى على المساواة البدائية وخلق الاغنياء والفقراء ولم يكن هؤلاء الفقراء ، على غرار المتوحشين البدائيين ، يملكون الا القليل جدا من الفراغ من اجل تلبية حاجات « الروح » ان العامل الاقتصادي يستنفد بالضرورة كل حقل رؤية الفقراء ، بحيث اذا فقدت ارملة عجوز ولدها الوحيد ، فهي تعبر عن حزنها بالطريقة التالية نوعا ما

> من يعامل عجوزا وحيدة بلطف ؟
> لقد حل بي الدمار التام
> من يحتطب الحطب حين يذكرنا الخريف
> بأن الشتاء آت رويدا رويدا ؟

---

* سوف يكون من النافل تذكير القارىء انني استخدم هنا مصطلحات السيد كارييف .

من يصطاد الارانب البرية ليصنع لي معطفا
حين يهترى هذا المعطف ويبلى ؟
مات ولدي ، مات وانتهى ، يا عزيزتي كازيانوفنا
ولا نفع لبندقيته بعد الآن

لكن ماذا عن الاثرياء ، او اولئك الذين في يسر فحسب ؟ ان العامل الاقتصادي لا ستنفذ عندهم حقل الرؤية باكمله ، وحزنهم العائلي يتظاهر بصورة مختلفة ، في شيء على غرار الكلمات التالية

« Oh quc de soirs d'hiver radieux et charmants

Passés à raisonner langue, histoire et grammaire

Mes quatre enfants groupés sur mes genoux, leur mère

Tout près, quelques amis causant au coin du feu !

J'appelais cette vie être content de peu

Et dire qu elle est morte ! Hélas que Dieu m'assiste !

Je n'étais jamais gai quand je la sentais triste,

J'étais morne au milieu du bal le plus joyeux ,

Si j'avais , en partant , vu quelques ombres en ses yeux . »

وهذا لا يعني بالطبع ان الاغنياء او الميسورين فقط يحبون احباءهم اكثر مما يفعل الفقراء لا ، بل تلك قضية تداع مختلف للانطباعات فعند عجوز نكراسوف يرتبط حب الابن بمعطفها و الارانب البرية » ، الخ ، لان حبه البنوي كان يتظاهر في رعايته لحاجاتها « الجسدية كان كلاهما فقيرا ولا بد ان يغنى الفقير اذا هو كان عاجزا عن العمل من اجل معيشته او اذا لم يكن

---

* [ اواه يا لامسيات الشتاء السعيدة الفاتنة
التي قضيناها في مناقشة اللغة والتاريخ والصرف
واولادي الاربعة متجمعون على ركبتي وامهم
علىمقربة ، وبعض الاصدقاء يتحدثون عند النار
كنت اسمي هذه الحياة الرضا بالقليل
وهذه هي ماتت وآسفاه ليساعدني الله
ما كنت احس المرح قط حين كنت اجدها حزينة :
وكنت أبتئس في حفلة الرقص الامرح
اذا شاهدت وانا اغادر الدار اقل ظل في عينيها ! ]

لــه اقارب مستعدون لمساعدته بعملهم الخاص ولو ان عجــوز نكراسوف كانت غنيــة لما تظاهر حــب ولدها لها في اهتمامه بحاجات جسدها اليوميــة كانت مثل هــذه الحاجات تلبى بواسطــة المال وكانت عنايــة ولدها تتوجــه اذن الى ارضاء الحاجات المختلفة « لروحها واذا هو مات قبلها لما سنحت لها الفرصة كي تتذكره بخصوص « الحطب و المعطف لقد كانت تسنح لهــا فرص اكثر لتتذكر احترامه البنوي ، او كيف احتاج الى عطفها في طفولته بينما هي الراضية بالقليل » ، يعني في جهلها بالحاجة سوف يتوفر لها كل الفراغ كي تكرس نفسها للتعبير عن حبها الامومي الحنون واني لاكرر ليست تلك مسألة عمق العاطفة او رقتها بل مسألة ترابط الانطباعات التي تدور حول درجــة اعظم او اقل من البحبوحة ، يعني حول السبب الاقتصادي ومهما يكــن من شيء ، فمما لا ريب فيه ان العامل الاقتصادي ، عند انقسام المجتمع الى طبقات لا يلعب نفس الدور الواحد في حياة الناس المنتسبين الى طبقات مختلفة وان تفاوت هذا الدور يتقرر ببنية المجتمع الاقتصادية

تلك نتيجــة هامة ان دور العامل الاقتصادي يتقرر بالبنيــة الاجتماعيــة الاقتصادية أيكون معنى ذلك ان البنية الاقتصادية والعامل الاقتصادي ليسا نفس الشيء الواحد ؟ في الحقيقة انهما ليسا كذلك ومما يبعث على اعظم الدهشة ان السيد كارييف واشباهه من المفكرين لم يفهموا ذلك

ان ما نسميه بنية المجتمع الاقتصادية هو مجمل العلاقات المتبادلة التي يدخلها الناس في عملية نشاطاتهم الانتاجية ولا تتضمن هذه النشاطات الانتاجية حاجاتهم الجسدية وحدها كما يظن السيد كارييف لكن اذا هم كانوا يلاحقون هذا الهدف فسوف يكون من السخف حتى في مثل هذه الحال توحيد نشاطات الناس الانتاجية مع العلاقات المتبادلة التي يدخلونها لدى انخراطهم في مثل هذه النشاطات. ويبدو ان خصومنا عاجزون عن فهم اننا نشير الى هذه العلاقات بالذات حين نتحدث عن البنيــة الاقتصادية .

ويدرك القارىء منذ الآن ما الذي يقرر بنية المجتمع الاقتصادية ليست هذه البنية سببا بحد ذاتها ، بل هي تقرر ، بقدر وجودها ، كل البنية الفوقيةالتي تنهض عليها ومهما نكن من امر ، فلا يجوز للمرء ان يستخدم عبارة (( الاقتصاد )) في غير موضعها وبدون مناسبة حين ينصرف الى تفسير الظواهر الاجتماعية

حين حاولت ، في اولى مقالاتي عن مستقبل النقد الروسي ان افسر للسيد فولنسكي كيف يرى الماديون الحاليون تطور الادب والفن ذكرت فيما ذكرت التصوير الفرنسي لنعد الى هذا المثال

ان امامي صورة فوتوغرافية للوحة دافيد الشهيرة السعاة يحملون الى بروتوس اجساد ابنائه . واني لاتساءل كيف خرجت مدرسة دافيــد من علاقات الانتــاج الاجتماعيــة ؟

ان جوابا صحيحا عن هذا السؤال يجعل من الهام ان نتذكر ان جميع اقسام البنية الفوقية لا تستق بالضرورة **بصورة مباشرة** من **القاعدة الاقتصادية** ان ارتباط الفن بهذه القاعدة يكون **بالواسطة** وهذا هو السبب في انه يجب ، في كل مناقسة عن الفن ان تؤخذ البنود الموسطة بعين الاعتبار لنر كيف يمكن لهذه البنود المتوسطة ان تساعد في حل المسألة التي اثرتها لتوي

## ٧

حمل تطور العلاقات الاقتصادية في فرنسا الى مقدمة الاحداث الطبقة الثالثة التي كانت « **كل شيء** » في اهميتها الفعلية ، لكنها لم تكن « **شيئا** » بالمعنى الفقهي للكلمة ومن الطبيعي ان يثير هـذا التناقض استياءها الذي خلق وهو يشتد باستمرار في افضل ممثليها طموحا الى الخلاص من النظام القديم كليا وبأي ثمن. واما نسأ هذا الطموح مرة كان لا بد كذلك من ظهور الوعي بأن تبدل نظام عريق ليس بالامر اليسير وان القضاء على النظام الباطـل سوف يتطلب الفداء مـن المجددين ويدا بيد مع هذا الشعور وعلى اعتباره نتيجة ضرورية له يظهر شعور بالرفقة مع اولئك الذين اظهروا حبا متفانيا للبلاد في الازمان السابقة وعند الشعوب الاخرى وان الامثلة الابرز عن هذا الحب قدمها تاريخ العالم القديم وهو السبب في ان التقدميين في فرنسا توجهوا الى هذا التاريخ لنتذكر ذكريات مدام رولان عن كيفية انغماسها في مطالعة بلوتارك في شبابها فليس ما يبعث على العجب بعد مثل هذه الامور في ان يرسم دافيد بروتوس او في النجاح الذي لقيته هذه اللوحة او اخيرا في انه اوصي عليها رسميا وان هذا الظرف الاخير يفسره على خير وجه ارنست شيسنو حيث يقول

> في السنوات الاخيرة لحكم لويس السادس عشر استتبع الاهتمام العام بجمهوريات العصور القديمة رغبة حادة لدى الدوائر الرسمية في رؤية مآثر ابطال الازمان الاغريقية ، وعلى الاخص الازمان الرومانية ، وقد مثلت في النحت والرسم والادب ونزولا عند هذا الاتجاه في الميول الفرنسية عهد السيد دي لانجيفيليه القيم على المباني الملكية الى دافيد برسم لوحتين ثبتتا شهرته اخيرا وكانت هاتان اللوحتان **قسم الابناء هوراس و السعاة يحملون الى بروتوس اجساد ابنائه*** لقـد انساق دي لانجيفيليه مع ضغط الرأي العام الذي تحدد اتجاهه بفعل العلاقات الاجتماعية في فرنسا وتنذاك وهـي العلاقات التي صنعها بدورها تطور قواها الانتاجية التي هي اسباب التغيرات العميقة في اقتصادها كلـه »

هذا كله واضح كل الوضوح وكان شيسنو على صواب تام حين لاحظ

---

* **الرسم الفرنسي في القرن التاسع عشر** الطبعة الثالثة ، ص ١٠ .

لقد عكس دافيد بالخلاص الشعور القومي الذي كان يصفق لوصفه الخاص لقد رسم اولئك الابطال بالذات الذين رضي الناس بهم نماذج لهم وان هؤلاء الناس في اعجابهم برسومه ، قد وطدوا حماستهم الخاصة لاولئك الابطال ومن هنا كانت تلك السهولة التي وقعت بها في الفن ثورة مماثلة لتلك الثورة التي كانت جارية في الاخلاق وفي النظام الاجتماعي*

هذه الاسباب هي التي تفسر انتقاء دافيد لمواضيع لوحاته ومهما يكن من امر فمن الطبيعي ان الثورة التي احدثها الفن لم تقتصر على هذا الانتقاء ان موقف الفنانين من فنهم تغير بجملته المدرسة التي تمرد دافيد ضدها تميزت بحذلقة وعذوبة جامحتين بلغتا آخر الامر حدهما الاقصى مع شارل فانلو وتلامذته ، وكانت نساطات دافيد في الفن رد فعـل ضد ذلك الاتجاه المدعي والعذب وهو السبب في ان الادعاء والعذوبة افسحا المكان امام الصرامة في اعماله** لكن اين نجد الامثلة الاروع على هذه الصرامة ؟ مرة اخرى في العصور القديمة ومرة اخرى في العصور الرومانية بصورة رئيسية وقد كانت معروفة اذن بصورة افضل حتى درجة كبيرة من العصور القديمة الاغريقية وهذا هو السبب في محاكاة دافيد للقدماء وعلى اي حال فقد كانت المعرفة بالرسم القديم ضئيلة جدا فالنحت هو الذي كان يعبر بمزيد من الحيوية ، للامم الحديثة ، عن المفاهيم الجمالية للعصور القديمة وانه ليمكن بكل يسر البرهان على أن ذلك هو السبب في جميع العيوب الرئيسية في مدرسة دافيد ومهما يكـن من شيء ، فانه لا يمكننـا الدخول في التفاصيل هنا بل سوف نكتفي بالقول ان هذا الظرف هو السبب في ان كلا من لوحات دافيد التاريخية تمثل عددا اكبر او اقل من التماثيل المرسومة بصورة ممتـازة***

ولقد اتضح هذا العيب على الفور حين بدأت البورجوازية بعدما اكتسبت مركزا جديدا في فرنسا ، ترعى مشاعر جديدة بيد ان العيب لم يلاحظ في القرن الثامن عشر نظرا لانه كان مرتبطا بجدارات رسوم دافيد التي اتينا على ذكرها اعلاه والتي كانت لها اعظم الاهمية في ذلك الحين

---

* المصـدر نفسه ص ١٨

** « Autant on a été loin dans le contourné , le fadement gracieux, autant on va vouloir réagir dans le simple et dans l'austère

( أرسين الكسندر :التاريخ الشعبي للرسم ، المدرسة الفرنسية ، ص ٢٥٤

*** هذا يبرهن على ان الفن في اي عصر معين مثله كمثل اية ايديولوجية اخرى وكمل السيكولوجية الاجتماعية بجملتها فيما هو يعكس العلاقات الاجتماعية هو في الوقت نفسه مرتبط بوثوق صوريا ــ ايجابا او سلبا ــ بفن العصر السابق او العصور السابقة ويجب ان يكون هذا الامر حاضرا في الاذهان ابدا في اية دراسة لتاريخ الايديولوجيات

وانه ليمكن تماما القول ، كما ورد ذلك مرارا فيما مضى ، ان دافيد واتباعه كانوا على العموم يفتقرون الى الحساسية الاساسية في الرسام الحقيقي وليس في الامكان طبعا تعليل ذلك العيب لا بشرط الرسم الفرنسي السابق لدافيد ولا بتأثير الفن القديم لكن في الامكان ايضا ، على أي حال ، تعليله على افضل وجه بالشرط الاجتماعي في فرنسا في ذلك الحين هذا الشرط الذي كان ملائما جدا لتطور المواهب العقلانية ، لكنه لم يشجع تطور المواهب الفنية فعند دافيد كان العنصر العقلاني مسيطرا على المخيلة ، وهو ما لم يكن بالطبع في مصلحته من حيث هو فنان ومما لا ريب فيه ان الرسامين من المدرسة الرومانسية كانوا اصحاب حساسية فنية اعظم حتى درجة كبيرة من الرسامين من مدرسة دافيد ومهما يكن من شيء ، فان الرومانسية كانت تقابل مرحلة اخرى من تطور فرنسا الاجتماعي

وهكذا كانت الثورة التي حققها دافيد في الرسم مجرد التعبير في الفن عن نضال الطبقة الثالثة في سبيل تحررها واذا كنت مدركا لكيفية انتساب هذه الحركة الى تطور البنية الاقتصادية للمجتمع الفرنسي كان في مقدوري ايضا ان اربط بين نشاطات دافيد الفنية وذلك التطور بيد ان استنجادي المباشر بالاقتصاد لا يفسر شيئا في هذا التطور ولا يمكن ان يكون اكثر من حصيلة فهم غامض للمفهوم التاريخي الذي ينادي به الماديون الحاليون ( الجدليون ، يا سيد ميخائيلوفسكي )

وكيما انتهي من مسألة « العوامل سوف اورد مثالين آخرين

لقد دفع عصر الثورة في الحال الى المقدمة عددا من الخطباء البارزين كان ميرابو وبارنافا والجيرونديون والكثيرون من الجبليين ، سادة في البلاغة من اين تعلموا فنهم ؟ تعلموه من كتاب المأساة الفرنسيين العظام الذي بلغوا بفن الكلام الجيد مرتبة الكمال وهكذا يتبين ان المأساة عامل اثر في تطور البلاغة السياسية ، هذا السلاح المروع الذي شهرته الشخصيات العامة في ذلك الحين

وهذا مثال آخر ان الادب الفرنسي وقع في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر تحت التأثير البالغ « للعامل السياسي في حين لم يكن أثر الاقتصاد » ملموسا جدا ان لديكم ههنا ذريعة رائعة للتعبير عن الاستياء النبيل ضد « التلامذة » غير العقلاء الذين لا يعترفون فيما يبدو بأي عامل آخر سوى العامل « الاقتصادي » لكن اذا احببتم على أي حال ، وانتم تطلقون العنان لغضبكم الجامح ضدهم ان تعلموا السبب في هذه العلاقة المتبادلة و ــ سجلوا هذا ــ المتغيرة باستمرار بين جميع هذه العوامل فسوف تتلمسون طريقكم في الظلمة حتى تتوجهوا الى هؤلاء « التلامذة المزعجين بالذات ، الذين سوف يخبرونكم بما يلي

ان بنية اقتصادية معينة للمجتمع تتقرر بحالة القوى الانتاجية وعليها تنهض العلاقات القانونية والسياسية وان حصيلة هذه العلاقات جميعا تنعكس

في عقول الناس وتقرر سلوكهم ويؤثر الاقتصاد احيانا في السلوك الانساني بواسطة السياسة واحيانا بواسطة الفلسفة ، واحيانا بواسطة الفن او اية ايديولوجية اخرى ؛ ولا يتبدى الاقتصاد في الشعور الانساني في قناعه « الاقتصادي الخاص الا في الاحايين ــ **في المراحل المتأخرة من التطور الاجتماعي** وفي الاغلب يؤثر في الناس من خلال العمل المشترك لهذه العوامل جميعا ؛ ان العلاقات المتبادلة لهذه العوامل ، مثلها كمثل فعل كل منها على حدة ، تدور حول العلاقات الاجتماعية الخصوصية التي تطورت على قاعدة خصوصية تتقرر بدورها بطبيعة هذه القاعدة

ان اية ايديولوجية معينة تتعرض في المراحل المختلفة لطور المجتمع الاقتصادي ، لتأثير الايديولوجيات الاخرى بدرجة متفاوتة فالقوانين تخضع للدين بادىء الامر ومن بعد ــ كما في القرن الثامن عشر على سبيل المثال ــ تصبح تحت تأثير الفلسفة ولم يكن بد للفلسفة ، كيما تقضي على تأثير الدين في القانون من خوض نضال بالغ الشراسة ولقد جرى هذا النضال بين المفاهيم المجردة ؛ ففيما يمكن ان يخيل الينا ان أي « عامل معين يكتسب اهميته او يفقدها بفضل قوته الخاصة والقوانين الملازمة لتطور هذه القوة الخاصة فان مصيره في واقع الامر يتقرر كليا بتطور العلاقات الاجتماعية

ان درجة تبعية مصير أي عامل افرادي حتى للصفات الثانوية في مثل هذه العلاقات يمكن ان يرى من المقارنة بين الثورتين الفرنسية والانكليزية ولقد اشار غيزو بكل صواب ، في مقدمة كتابه **تاريخ الثورة الانكليزية** ، الى ان هاتين الثورتين جميعا قد اندلعتا لنفس الاسباب وسعيا خلف نفس الاهداف

**la tendance était la même comme l'origine les desirs, les efforts les progrès sont dirigés vers le même but*** » ) . بيد ان الاتجاهات المماثلة وجدت لها تعابير مختلفة في انكلترا عنها في فرنسا فقد اتخذت في انكلترا لونا **دينيا** وفي فرنسا لونا **فلسفيا** وان هذا الفارق في دور العوامل ينشأ عن مميزات ثانوية عديدة في العلاقات المتبادلة بين الطبقات الاجتماعية

لقد افترضنا اعلاه ان ثمة عاملين فقط ولا بد من الاعتراف الان بأن ثمة عوامل كثيرة فاولا ان كل فرع علمي متميز يعالج « عاملا » منفصلا ؛ ثانيا يمكن تعداد عوامل متعددة في كل فرع على حدة هل الادب عامل ؟ اجل وماذا عن الشعر المأسوي ؟ انه عامل ايضا والمأساة ؟ لا اجد سببا لانكار كونها عاملا هي الاخرى والمأساة المحلية ؟ انها عامل ايضا وباختصار ، فان العوامل لاتحصى.

حين يقول اولئك المعارضون للفهم المادي للتاريخ ان تطور الجنس البشري يتم تحت تأثير عوامل عديدة وبالغة التنوع ، فانهم يعبرون عن حقيقة بناءة جدا

---

* [ كان الاتجاه هو نفسه وكذلك الاصل وكانت الرغبات والجهود والتطورات موجهة نحو الهدف نفسه ] .

وترتد هذه الحقيقة الى العلاقات الاجتماعية الفعلية والتطور التاريخي لهذه العلاقات التي **تنعكس في الذهن البشري في زوايا منعددة جدا ومتنوعة جدا ، وهو تطور يقوم على اصعدة مختلفة** ان هذه الحقيقة التي لا جدال فيها لا يمكن ان تكون حدا لمعرفتنا العلمية بالظواهر الاجتماعية وهكذا حين نعترف بأن الثورة الانكليزية جرت تحت التأثير الجبار للعامل **الديني** فان من واجبنا ان نقرر الاسباب **الاجتماعية** الكامنة خلف ذلك التأثير وبالطريقة نفسها بالضبط حين نعترف بأن الحركة الاجتماعية الفرنسية في القرن الماضي جرت تحت لواء **الفلسفة** فان من واجبنا ان نقرر السبب الاجتماعي لتفوق الفلسفة وما دمنا نعرف من قبل ما الذي تتمفصل حوله علاقات الناس الاجتماعية فان العدد الكبير للعوامل المتنوعة جدا لن يمنعنا اذن في حال من الاحوال من مشاهدة التاريخ من وجهة نظر الاحادية مادية النزعة

بعدما قرأ السيد ميخائيلوفسكي مقالتي عن الفهم المادي للتاريخ وضع في ذهنه اني جعلت اشاهد الحياة الاجتماعية بعيني الانتقائيين من امثاله وبذلك كشف عالمنا الاجماعي المحترم عن سذاجة قمينة بفريتشن

**Ungefahr sagt das Pfarrer auch ,**
**Nur mit ein bischen andern Worten***

وحيال هذه السذاجة الفتية لا استطيع الجواب الا بكلمات فاوست بالذات

**Mischor mich nicht ,**
**Du holdes Angesicht****

واذا ما سألني القارىء ما اذا كان هناك حقا ماديون اقتصاديون يتباهون بعرض العامل الاقتصادي ذات اليمين وذات اليسار فسوف اجيب بالايجاب ان هذا النوع من المادية مثله فيما يبدو في الثمانينات الاقتصادي الشهير غوستاف دي موليناري في مقالته « التطور السياسي التي نشرت في **مجلة الاقتصاديين** . لقد رأى موليناري في الحرب صفقة عادية تدر ربحا او تسبب خسارة وفي الجمهورية شركة مساهمة وفي الملكية مشروعا يديره ملاك وحيد وقس على ذلك ورای موليناري ايضا في النظام الاقتصادي البورجوازي نظاما طبيعيا للعلاقات الاقتصادية. ولقد كان ذلك سخيفا كل السخف بالطبع بيد ان عنصرا كبيرا جدا من هذه المادية المزعومة سم المؤرخين الفرنسيين للنصف الاول من قرننا الراهن ولا مجال لدي هنا لمعالجة الموضوع لكن في نيتي ان اناقس مع القاريء كتاب الكسيس توكفيل **الديموقراطية في اميركا** الذي صدر مؤخرا في ترجمة روسية بقلم السيد ليند ومن بعد سيكون لدي ما اقوله في هذا الشأن

---

* [ يفسر القسيس ذلك لنا ايضا بكلمات مختلفة نوعا ]

** [ يا ظريفتي ان قصدي لا يمكن يخطىء المرء ادراكه ] .

لكن الى أي نوع من الماديين ينتسب السيد توغان ـ بارانوفسكي ؟ هذا سؤال لن يطرحه قط كل من قرأ وفهم كتابه عن الازمات(١٢٢) ان السيد توغان ـ بارانوفسكي يستخدم تعابير خاطئة الامر الذي يسعد جدا بعض « **البهاليل الادبيين** » الذين لا يملكون ادنى فكرة عن جوهر الموضوع ، وهم بالتالي عاجزون عن المضي ما وراء المشاحنة الخالصة

ولا يعرف السيد ميخائيلوفسكي من المقصود في تعبير استخدمته مدع يتخذ اسما كبيرا عبثا ولسوف اعبر عن نفسي بمزيد من الوضوح في رأيي ان ذلك الرجل الذي يوحي في بلادنا بأن المجتمع يجب ان يعالج قضايا لا يسمح له شرطه التاريخي حتى بفهمها هو رجل مدع واني لاود ان يخبرني السيد ميخائيلوفسكي ما اذا كان لدينا كتاب قدموا الى المجتمع مثل هذه الاقتراحات الساذجة بصورة صبيانية أهم موجودون حقا ؟ في هذه الحال ، ليس لدينا ما نناقشه ؟

## ٨

سوف اعالج الآن بعض البنود الاخرى في مقالة السيد ميخائيلوفسكي

في رأيه اني احيي الهيغلية وهذا بالطبع « **غير صحيح** » ( التشديد من قبلي مرة اخرى ) لقد كان هيغل مثاليا ، وانا لا يمكن بكل وجدان ، ان اسمى مثاليا حتى من قبل الذين لا يعرفون الفلسفة الا وفقا للويس واذا شاء المرء ان يعارض وجدانه ، فانه يمكن اذن ، بالطبع ، تسميتي مثاليا وانه ليمكن برهانا على ذلك الاشارة الى حديثي عن هيغل بأعظم الاحترام بيد ان احترام هيغل بُثّ في من قبل مؤلف الملاحظات عن ميل واليكم ما كتب في تحليله لاطروحته الخاصة عن العلاقة الجمالية بين الفن والواقع

ان السيد تشيرنيشفسكي يعترف كليا بصحة الاتجاه الحالي في العلم واما يرى من جهة واحدة خطل الانظمة الميتافيزيائية السابقة ومن جهة ثانية صلتها الوثيقة بالنظرية السائدة في علم الجمال فانه يستخلص من ذلك النتيجة بان النظرية السائدة في الفن يجب تفسح المكان لنظرية اخرى تكون أكثر اتفاقا مع الآراء الجديدة التي ينادي بها العلم عن الطبيعة والحياة الانسانية لكن من واجبنا قبل ان نعرض افكاره التي تقتصر على تطبيق الاراء العامة للازمان الحديثة عن مسائل علم الجمال ان نفسر العلاقات التي تربط بين الآراء الجديدة والقديمة في العلم عامة فكثيرا ما نرى اناسا يواصلون عملا علميا يتمردون ضد اسلافهم الذين كانت اعمالهم منطلقا لاعمالهم الخاصة هكذا كان ارسطو مناوئا لافلاطون كما أذل سقراط السفسطائيين دونما هوادة هو الذي كان خليفة لهم واننا لنصادف كثير من مثل هذه الامثلة في العصور الحديثة

ايضا لكن ثمة احيانا حالات سارة حيث يدرك مؤسسو نظام جديد بكل وضوح الرابطة بين آرائهم الخاصة وآراء السابقين لهم فيدعون انفسهم بكل تواضع تلامذة لهم واذا ما اكتشف هؤلاء التلامذة نقائص في مفاهيم اسلافهم اماطوا اللثام بكل اخلاص عن مدى ما كان لمثل هذه المفاهيم من اثر في دفع تطور افكارهم الخاصة كذلك على سبيل المثال كان موقف سبينوزا من ديكارت وانه لمما يشرف مؤسسي العلم الراهن انهم نظروا الى اسلافهم بكل احترام ، بل بحب بوي على وجه التقريب ؛ لقد اعترفوا كليا بعظمة عبقرية هؤلاء الاسلاف وبالطبيعة السامية لعقيدتهم التي كانت تميط اللثام عن آرائهم الخاصة وهي في حالة مضغية بعد ان السيد تشيرنيشفسكي يدرك ذلك وهو يتبع مثال اولئك الذين طبق افكارهم في مسائل علم الجمال

كان فيورباخ استاذ تشيرنيشفسكي في ميدان الفلسفة ؛ وان الرجل الذي خرج نظام فيورباخ من فلسفته والذي كان تشيرنيشفسكي ، على غرار فيورباخ ، ينظر اليه بتبجيل عظيم ، انما هو بالضبط هيغل الذي لا يرى السيد ميخائيلوفسكي في كتاباته سوى الميتافيزياء وعلى أي حال فاني اعتقد اني لم اعبر عن نفسي بصورة مضبوطة تماما أيمكن حقا ان يقال ان السيد ميخائيلوفسكي يرى هذا الشيء او ذاك في كتابات هيغل اذا هو لم يرى تلك الكتابات مطلقا ؟ وان تعبيرا آخر يكون في موضعه هنا ، لكني ارجو ان تكون فكرتي على أي حال ، واضحة عند القارىء

ويتحدث تشيرنيشفسكي كذلك عن هيغل بالاحترام العظيم نفسه في كتابه **دراسات عن العصر الغوغولي في الادب الروسي** ، والسيد ميخائيلوفسكي يحصل على فائدة كبيرة اذا هو قرأ الاسطر التالية

لسنا بأتباع هيغل أكثر مما نحن أتباع ديكارت او ارسطو فهيغل ينتسب حاليا الى التاريخ ، اما الحاضر فيملك فلسفة اخرى ، ويرى بوضوح النقائص في نظام هيغل ؛ لكنه لا بد من الموافقة على ان المبادىء التي قدمها هيغل كانت في الواقع قريبة جدا من الحقيقة ، اذ ان مظاهر عديدة من هذه الحقيقة عرضها هذا المفكر بقوة مذهلة حقا وان اكتشاف بعض هذه الحقائق يشرف هيغل شخصيا ، لكن حقائق اخرى ، وأن كانت لاتخص نظام هيغل حصرا بل تخص الفلسفة الالمانية بأكملها منذ كانط وفخته ، لم يصفها احد قبل هيغل بمثل الوضوح او يعبر عنها بمثل القوة كما في نظامه

كذلك بالضبط انظر ، إنا الخاطىء الكبير الى هيغل اني لراغب كليا عن إحياء الهيغلية او الديكارتية ، لكني اعرف ان « المبادىء التي قدمها هيغل كانت في الواقع قريبة جدا من الحقيقة اذ ان مظاهر عديدة من هذه الحقيقة عرضها هذا المفكر بقوة مذهلة حقا وهذا ما اقول في مقالاتي التي يستاء منها السيد ميخائيلوفسكي كل الاستياء ولسوف ارد عليه بكلمات فون — فيزين انه لمما يبعث على الراحة ،في الجهل الانساني ان تعتبر هراء كل ما لا تملك فكرة عنه » .

واتساءل ما اذا كان القارىء يعرف اية سمات مميزة في فلسفة هيغل كانت، احب الى كاتب الملاحظات عن ميل تلك كانت بغضه **للتفكير « الذاتي »** **والطريقة الجدلية** واذا دهش القارىء فاني اسأله ان يواصل القراءة

قبل كل شيء سوف نشير الى البداية الاخصب لاي تقدم وهو ما يشكل سفة **على درجة بالغة من الوضوح والجلاء للفلسفة الالمانية عامة** ، ونظام هيغل خاصة مميزة من جميع الآراء المرائية والحقيرة التي كانت سائدة في ذلك الحين اوائل القرن التاسع عشر ) بين الفرنسيين والانكليز الحقيقة هدف الفكر الاسمى ابحث عن الحقيقة لان الخير في الحقيقة كائنة ما كانت الحقيقة فهي افضل من أي شيء غير صحيح واجب المفكر الاول الا يتقهقر امام اية نتائج ؛ يجب ان يكون مستعدا للتضحية بأعز آرائه على مذبح الحقيقة الخطأ مصدر كل الخراب ؛ والحقيقة هي العطية الاسمى ومصدر جميع العطايا الاخرى ولا بد للمرء كي يحدد الاهمية الفائقة لهذا المطلب المشترك لدى الفلسفة الالمانية بكاملها منذ كانط ، الذي عبر هيغل عنه مع ذلك بشدة خصوصية يتذكر الشروط الغريبة والضيقة التي تلعثم بالحقيقة بها المفكرون المنتسبون الى المدارس الاخرى في ذلك العصر لقد انصرفوا الى التفلسف وغرضهم الوحيد تبرير المعتقدات العزيزة علىقلوبهم »، يعني بحثوا لا عن الحقيقة بل عنالتأييد لمستبقاتهم؛ لقد أخذ كلمنهم من الحقيقة ما اعجبه فقط ورفض كل حقيقة وجدها مزعجة معترفا دون مزيد من الضوضاء بأنه وجد الخطأ السار افضل حتى درجة كبيرة من الحقيقة المنصفة وهذه الطريقة في ابداء الاهتمام بالمستبقات السارة من دون الحقيقة هي ما سماه الفلاسفة الالمان وبالخاصة هيغل ) التفكير الذاتي التفلسف للذة الشخصية من دون الحاجة الحيوية الى الحقيقة ولقد فضح هيغل دون هوادة هذه اتسلية الفارغة والضارة

هذه فقرة ممتازة في الحقيقة ! وانها لتفسر على خير وجه السبب في ان « التقدميين عندنا جعلوا يكرهون هيغل بكل مرارة منذ انخراطهم في التسلية الفارغة والضارة المسماة التفكير الذاتي ولنر الآن ما يقول تشيرنيشفسكي عن الجدلية

قدم هيغل ما اشتهر بطريقته الجدلية في التفكير كوسيلة وقائية ضرورية ضد محاولات الابتعاد عن الحقيقة للانسياق مع الرغبات والمستبقات الشخصية ان جوهر هذه الطريقة يستقيم في انه لا يجوز للمفكر ان يرضى بأي نوع من الاستنتاج الايجابي، بل يبحث في الموضوع الذي يعمل الفكر فيه عن الصفات والقوى التي هي عكس ما يقدمه ذلك الموضوع للوهلة الاولى ؛ وهكذا فان المفكر يلزم بأن ينظر الى الموضوع من مختلف الجوانب بحيث تتقدم الحقيقة اليه فقط من حيث هي نتيجة الصراع بين جميع الآراء المتعارضة الممكنة ان هذه الطريقة انتجت بصورة تدريجية ، بدلا من المفاهيم الضيقة السابقة عن الموضوع دراسة كاملة وجامعة فكرة حية عن جميع خصائص الموضوع الحقيقية واصبح تفسير الواقع الواجب الاساسي للمفكر الفلسفي ومن هنا كان ذلك

الاهتمام الفائق الموقوف على الواقع الذي لم ينصرف اليه اي فكر من قبل والذي شوه بكل فظاظة ارضاء لمستبقات المرء الضيقة الخاصة وهكذا حل البحث الواعي الذي لا يكل محل التفسيرات الاعتباطية السابقة وعلى اي حال ، فان جميع الامور في الواقع تتوقف على الظروف على شروط الزمان والمكان وبالتالي فقد اعترف هيغل الاسلوب اللغوي العام المستعمل من قبل من اجل اصدار الاحكام على الخير والشر دونما دراسة للظروف والاسباب التي ادت الى قيام ظاهرة معينة ـ جميع هذه الاقوال المأثورة امة والمجردة لم تكن كافية فلكل موضوع وكل ظاهرة معناهما الخاص ولا يجوز الحكم عليهما الا مع الاعتبار الواجب للوضع الذي يوجدان فيه ؛ ولقد تم التعبير عن هذا الوضع بالصيغة ليس ثمة حقيقة مجردة ، فالحقيقة مشخصة يعني انه لا يمكن النطق بحكم محدد الا على حقيقة محددة ، بعد ان تؤخذ بعين الاعتبار جميع الظروف التي تتوقفعليها».

وانه ليتبين من ذلك ان الطريقة الجدلية ليست ذلك الشيء السيء كما يحسب السيد ميخائيلوفسكي فيما يبدو كما يتبين ان الجدلية ، اساسا لن تدان الا من قبل اولئك الذين ينزعون الى التفكير الذاتي ولسوف يتبين اخيرا انني اذا كنت احيي الهيغلية وادافع عن الجدلية فليس ذلك بالشر الفادح جدا وما كان تشيرنيشفسكي يدينني لذلك وفضلا عن ذلك ، فان الطريقــة الجدلية اكتسبت اهمية هامة وجديدة كليا في ايدي الماديين الحاليين

يقول مؤلف **رأس المال**

لا تختلف طريقتي الجدلية عن الطريقة الهيغلية في الاساس فحسب ، بل هي بالاحرى نقيضها بالضبط فعند هيغل ان حركة الفكر التي يشخصها تحت اسم الفكرة هي خالقة الواقع هذا الواقع الذي لا يعدو كونه شكل الفكرة الظاهري وعندي على العكس ، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس الحركة الحقيقية ، المنقولة الى الدماغ والمترجمة فيه وقد اصبحت الجدلية في مظهرها الصوفي زيا المانيا كان يلوح انها تمجد الاشياء القائمة أما في مظهرها العقلاني فهي فضيحة وفظاعة بالنسبة الى مملكة البورجوازية ومفكريها العقائديين لانها تتضمن في تفهمها للاشياء الراهنــة والاعتراف بها فكرة اكارها المحتوم في الوقت نفسه ، فكرة دمارها الضروري ولانها تنظر الى كل شكل اجتماعي متطور تاريخيا في حركته المائعة وبالتالي تأخذ بعين الاعتبار طبيعة هذا الشكل الانتقالية ووجوده المؤقت على حد سواء انها لا تلتزم بأي شيء او تخضع له ، فهي بحكم جوهرها نقدية وثورية معا

واني اعتبر شرفا احياء هذه الطريقة التي لا يمكن ان تضاهيها الابتكارات الذاتيــة ولا صيــغ التقدم لاصحابنــا الطوباويين ويستشعر السيد ميخائيلوفسكي نفسه ان الامور تتعثر بالنســبة الى الابتكارات الذاتيــة والصيغ الطوباوية وهو السبب في اختفائه خلف ظهور رجال الانوار عندنا وفي عرضنا على اعتبارنا الد اعداء الميراث الذي اخذناه عن الستينات . لكن هذا (( **غير صحيح** ))

ايضا التشديد من قبلي مرة اخرى ) ان الميراث الذي اخذناه عن الستينات ارث مختلط ومثال ذلك اننا ورثنا افكار دوبروليوبوف واصدقائه واني لاتحدى االسيد ميخائيلوفسكي ان يبين اين ومتى هاجمنا هذه الافكار لن يكون في مقدوره ان يبين ذلك قط لسبب بسيط ، الا وهو اننا على العكس دافعنا عنها بيد اننا ورثنا ايضا من الستينات نفسها ميخائيلوفسكي والبعض من امثاله من المفكرين. ذلك ارث لا نريده حتى مجانا كما يقول الناس ؛ هذا ارث نرفضه كليا واننا لنفعل ذلك اولا لاننا لا نملك ادنى اهتمام بالتسلية الفارغة والضارة المدعوة التفكير الذاتي ، وثانيا لان التسلية الفارغة والضارة المدعوة التفكير الذاتي ظهرت على اعتبارها رد فعل ضد افكار حلقة دوبروليوبوف التي هي عزيزة علينا جدا وانما نهضت الذاتية في بلادنا لبرهة من الزمن لان تلك الحلقة غادرت المسرح التاريخي ويستطيع السيد ميخائيلفسكي تماما ان يتحدث عن نفسه بكلمات سكالوزوب

اني سعيد بأصدقائي ـ ما الذي اتمناه اكثر من ذلك ،
ان شواغر كثيرة تتطلب املاءها
فالناس الاكبر سنا قد انسحبوا
بينما سقط آخرون ، بارادة الله

اذا كان هذا الرجل الصغير الذي بدا انه طويل القامة لبرهة لان الرجال العظماء غادروا المسرح قد قرر ان يتهمنا باتخاذ موقف سلبي حيال الميراث الايديولوجي للستينات فمن الواضح انه اعتمد على ذاكرة القارىء الضعيفة وعلى اي حال فقد عرض نفسه لخطر محقق حين فعل ذلك ان ذاكرة القارىء لن تخونه الا لبرهة وجيزة ما عساه يحدث اذا ما انصرف القارىء الى مراجعة الوثائق ما عساه يحدث اذا وجد اخيرا موقف السيد ميخائيلوفسكي الحقيقي من الميراث الذي خلفته لنا الستينات ؟ سوف يحدث ان السيد ميخائيلوفسكي واشباهه من المفكرين لن يؤخذوا بعد الآن بعين الجد حتى من قبل الشباب الذاتيين الاكثر سذاجة ولن يفعل تطورنا الفكري بالطبع الا الكسب من ذلك لكن القوم الذاتيين سوف يخسرون الشيء الكثير

## ٩

يزعم السيد ميخائيلوفسكي ان الآراء الفلسفية التي ينادي بها المساهمون في تحرير **الكلمة الجديدة** لم تؤكد بعد وانه ليمضي فيؤكد على هذا الاساس أن البعض من هؤلاء المساهمين « يحيون الهيغلية » ( رأى القارىء من قبل ما المقصود من ذلك فيما انصرف آخرون الى ما يسمى الفلسفة النقدية ومهما يكن من شيء فان في مكنة انسانين ان يناديا بآراء فلسفية بالغة الوضوح وان يختلفا في الوقت نفسه عن بعضهما بعضا(١٢٦)

# في مسألة دور الفرد في التاريخ

## ١

في النصف الثاني من السبعينات كتب الراحل كابليتز دراسة بعنوان الذهن والاحساس من حيث هما عاملان للتقدم زعم فيها بالاستناد الى سبنسر ان الاحساس يلعب الدور الرئيسي في التقدم الانساني بينما لا يلعب الذهن الا دورا ثانويا وهو فضلا عن ذلك دور تابع. ورد على كابليتز سوسيولوجي فاضل»(١٢٧)، معبرا عن الدهشة الساخرة حيال نظرية ترجع الذهن الى المكانة الثانية ولقد كان السوسيولوجي الفاضل على صواب بالطبع في دفاعه عن الذهن لكنه كان يبرهن على قدر اعظم من الصواب لو انه بين دون الاستغراق في جوهر المسألة التي اثارها كابليتز كيف ان مجرد طرحها امر مستحيل وغير جائز البتة وبالفعل، فان نظرية العوامل سطحية في جوهرها لانها تنتقي بصورة اعتباطية مظاهر مختلفة من الحياة وتؤقنمها ، محولة اياها الى قوى من نوع خصوصي تدفع الانسان الاجتماعي من جوانب مختلفة وبدرجة متفاوتة من النجاح على طول طريق التقدم غير ان هذه النظرية لاكثر سطحية ايضا في الشكل الذي قدمه كابليتز الذي حول الى اقانيم سوسيولوجية خاصة لا المظاهر المختلفة لفعاليات **الانسان الاجتماعي** فحسب بل ميادين **الوعي الفردي** المختلفة ايضا ذلك هو في الحقيقة الحد الاقصى للتجريد فالمرء لا يستطيع ان يمضي الى ابعد من ذلك لان وراءه تقوم المملكة المضحكة للعبث التام والصارح وهذا ما كان ينبغي للسوسيولوجي الفاضل ان يستلفت اليه انتباه كابليتز وقرائه ولعل « السوسيولوجي الفاضل» كان يسهم اذن بسهم ما في نقد نظرية العوامل بالذات حين يكتشف متاهة التجريد التي انتهى كابليتز اليها في جهوده الساعية الى العثور على العامل السائد في التاريخ الامر الذي كان يعود بفائدة عميمة علينا جميعا في ذلك الحين لكنه اخفق في الارتقاء الى مستوى رسالته ، فأيد هو نفسه تلك النظرية ولم يختلف عن كابليتز الا في نزوعه الى **الانتقائية** فكان من نتيجة ذلك ان بدت جميع العوامل مساوية الاهمية بالنسبة اليه ولقد وجدت طبيعة ذهنه الانتقائية في وقت لاحق تعبيرا باهرا عنها في الهجمات التي شنها ضد المادية الجدلية التي رأى فيها مذهبا يضحي « للعامل الاقتصادي بجميع العوامل الاخرى ويلغي دور الفرد في التاريخ. ولم يخطر قط « للسوسيولوجي الفاضل ان المادية الجدلية غريبة عن وجهة نظر

العوامل وان العجز التام عن التفكير المنطقي يستطيع وحده ان يؤول بالمرء لان يرى في تلك المادية الجدلية ادنى مبرر لما يعرف **باليقينية**، وعلى اي حال فلا بد من الاشارة الى انعدام اية اصالة في الخطأ الذي يرتكبه صاحبنا السوسيولوجي الفاضل اذ ان الكثيرين والكثيرين جدا ارتكبوه ولا يبرحون يرتكبونه ، ومن الارجح انهم سوف يستمرون في ارتكابه

ان الماديين يلامون الآونة لتحيزهم الى اليقينية حتى قبل تكوّن مفهومهم الجدلي عن الطبيعة والتاريخ ودون ان نغوص في اعماق الزمان ، فاننا سوف نستذكر المساجلة التي قامت بين العالم الانكليزي الشهير بريستلي وبرايس فقد زعم براس عند تحليله نظرية بريستلي ، inter alia ، ان المادية متنافرة مع مفهوم الحرية وانها تحول دون اي نشاط مستقل من جانب الفرد ولقد اشار بريستلي في جوابه الى التجربة اليومية ، فكتب يقول

لم أقل شيئا عن نفسي ومن المؤكد على أي حال أني لست أشد الحيوانات جميعا خمولا وبلادة فأين عساه يجد حمية ذهنية أعظم واندفاعا أشد قوة ومثابرة أو ملاحقة أشد اتقادا وثباتا لاعظم الاغراض منه بين اولئك الذين يعرف أنهم أنصار الضرورة ؟

وكان بريستلي يقصد الشيعة الديموقراطية المسيحية التي كانت معروفة يومذاك بالضروريين المسيحيين* ولا ندري ما اذا كانت الشيعة على ذلك القدر الكبير من الفعالية كما كان يحسب بريستلي الذي ينتسب اليها هذا شأن لا اهمية له فمما لا يطاله ادنى شك ان المفهوم المادي عن الارادة الانسانية يستطيع ان يسير يدا بيد مع الفعاليات العملية الاشد عنفوانا ولقد اشار غوستاف لانسون الى ان

جميع المذاهب التي فرضت اعظم المطالب على الارادة البشرية نادت مبدئيا بأن الارادة عاجزة لقد كانت تنكر الحرية وتخضع العالم للجبرية**

وكان لانسون مخطئا في الاعتقاد بأن **اي** انكار لما يعرف بحرية الارادة يؤول الى الجبرية لكن هذا لم يمنعه من تسجيل حقيقة تاريخية بالغة الاهمية ان التاريخ يبين بالفعل ان الجبرية بالذات لم تكن بصورة دائمة معوقا للعمل النشيط في الممارسة، بل الامر على النقيض من ذلك ، اذ كانت في بعض المراحل قاعدة سيكولوجية اساسية لمثل ذلك العمل وكدليل على ذلك نستشهد بالمتطهرين الذين تفوقوا

---

* ان فرنسيا من القرن الثامن عشر سوف يعجب لهذا المزيج من المادية والعقائدية الدينية وعلى أي حال ، فان احدا في انكلترا لم يحسب ان هذا الامر مستغرب وكان بريستلي نفسه متدينا جدا وكما يقول المثل لكل بلد عاداته

** اظر الترجمة الروسية لكتابه **تاريخ الادب الفرنسي** ، المجلد الاول ، ص ٥١١ [ ص : ٤٤٦ من الاصل الفرنسي ] .

طاقة على جميع الاحزاب الاخرى في انكلترا في القرن السابع عشر ومن بعد باتباع محمد الذين اخضعوا خلال فترة قصيرة من الزمن مساحة شاسعة تمتد من الهند حتى اسبانيا ان اولئك الذين يحسبون ان ادراك حتمية سلسلة محددة من الاحداث يجعلنا عاجزين سيكولوجيا عن مساعدتها او معارضتها يرتكبون خطيئة فادحة*

ان الامور جميعا في هذا المجال تتوقف على ما اذا كانت نشاطاتي الخاصة تشكل حلقة اساسية في سلسلة الاحداث الضرورية فاذا كانت تفعل ذلك ، فاني اتصرف اذن بمزيد من الحزم بقدر ما يكون ترددي اقل وليس في ذلك ما يدعو الى العجب فحين نقول ان فردا معينا يعتبر نشاطاته حلقة اساسية في سلسلة الاحداث الضرورية فهذا يعني فيما يعنيه ان انعدام حرية الارادة يضاهي بالنسبة الى ذلك الفرد **العجز المطلق عن العطالة** ، وان مثل هذا الانعدام لحرية الارادة ينعكس في ذهنه من حيث هو **استحالة التصرف بصورة مغايرة لسلوكه** وتلك حالة فكرية تنطبق عليها بكل دقة كلمات لوثر الشهيرة « Hier stehe ich, ich **kann nicht** anolers** » ، وبفضلها يبدي البشر طاقة هائلة جدا وينجزون المآثر الابعث على الدهشة وكانت هذه الحالة الفكرية مجهولة من هملت ، وهو السبب في عجزه الا عن الشكوى والتفكير وهذا هو السبب ايضا في ان هملت ما كان يمكن ان يقبل قط بفلسفة تنص على ان الحرية هي مجرد الضرورة التي تحولت الى الوعي ولقد كان فخته على حق حين قال (( **كما يكون الانسان تكون فلسفته** )) .

## ٢

حمل بعض الناس عندنا على محمل الجد ملحوظة ستاملر عما يسميه التناقض المستعصي الملازم لنظرية اجتماعية سياسية معينة من اوروبا الغربية اننا نقصد مثاله عن كسوف القمر وبالفعل ، فان هذا المثال سخيف تماما فالفعل البشري

---

* من المعروف لدى الجميع ان كل فعل بشري ، وفقا لعقيدة كالفن ، مقدر الهيا تسمي القضاء والقدر ما قد رسمه الله منذ الازل ، وقرره بنفسه من اجل نفسه ، وهو ساري المفعول بالنسبة الى الفرد » ( Institutio ، الكتاب الثالث ، الفصل الخامس ) [ النص باللاتينية في الاصل الروسي ] ووفقا لهذه العقيدة نفسها فان الله يصطفي البعض من خدامه لتحرير الشعوب المضطهدة ظلما وكان أحد هؤلاء الخدام موسى الذي حرر اسرائيل وتشير الاشياء جميعا الى أن كرومويل كان يعتبر نفسه مثل هذه الاداة الالهية ؛ فقد كان يسمي دائما اعماله ثمرة لمشيئة الله والارجح انه كان متيقنا بكل صدق بأنها كانت كذلك حقا وكانت جميع هذه الاعمال ، بالنسبة اليه ، مصبوغة سلفا بصبغة الضرورة ، الامر الذي لم يمنعه من السعي الى النصر ، بل كان يمنحه قوة جارفة من أجل هذا السعي

** [ اني أقف هنا ، ولا استطيع سوى ذلك ]

لا يقع ولا يمكن ان يقع ، في عداد الشروط التي لا بد من توفرها مجتمعة من اجل كسوف القمر ؛ ولهذا السبب بالضبط كان من المحال ان يقوم حزب هدفه تسهيل الكسوف القمري الا في مصحة عقلية لكنه حتى اذا كانت الفعاليات البشرية في عداد مثل تلك الشروط ، فان ايا من أولئك الذين يتوقون الى مشاهدة الظاهرة ، لكنهم موقنون بأنها سوف تقع بالتاكيد دون اي عون من جانبهم ، لن ينضم الى حزب الكسوف القمري وفي هـذه الحال لن تكون سوى الامتناع عن العمل النافل ، يعني عديم الجدوى ، ولن تكون لها اية علاقة البتة باليقينية الحقيقية وحتى يكف مثال الكسوف القمري عن كونه عديم المعنى في الحالة التي ننظر فيها ينبغي للحزب المذكور اعلاه ان يغيره كليا وعندئذ لا بد ان نتصور ان للقمر ذهنا وأن يخيل الى هذا القمر أن المركز الذي يشغله في الفضاء السماوي والذي يؤدي الى كسوفه هو نتيجة لقرار ذاتي من صنع ارادته الخاصة ، وهو لا يمنحه سرورا بالغا فحسب، بل هو اساسي من أجل طمأنينتـه المعنوية ، الامر الذي يترتب عليـه ان يسعى باستمرار الى اشغال ذلك المركز* ولا بد للمرء ان يتساءل بعد اعمال الفكر في هذه الامور جميعا ما عسى ان يكون شعور القمر حين يكتشف اخيرا ان ما يقرر حركته في الفضـاء السماوي لا هو ارادته ولا هو مثلـه العليا بل الامر على النقيض من ذلك ، حيث أن حركته تقرر ارادته و « مثله العليا على السواء ؟ في راي ستاملر ان هذا الاكتشاف سوف يجعل القمر عاجزا عن الحركة بكل تأكيد هذا الا اذا تخلص من مأزقه بفعل تناقض منطقي ما بيد ان مثل هذا الافتراض لا اساس له على الاطلاق وصحيح ان الاكتشاف يمكن ان يخدم من حيث هـو سبب صوري لاستياء القمر ، ولبلبلته المعنوية الباطنة ، وللتناقض بين مثلـه العليا والواقع الميكانيكي لكنه نظرا لاننا نفترض ان حالة القمر الذهنية بمجملها مقررة على العموم في آخر الامر بحركتـه ، فمن الواجب اذن البحث عن السبب في بلبلته الذهنية في تلك الحركة ولعل دراسة دقيقة للموضوع تكشف ان القمر حين كان في نقطة الاوج ، حزن على عدم كون ارادته حرة ؛ اما حين كان في نقطة الحضيض فان هذا الظرف بالذات قدم مصدرا صوريا جديدا للهناءة المعنوية والغبطة المعنوية ولعل ما حدث هو العكس من ذلك فقد تبين انه وجد السبيل الى التوفيق بين ارادته الحرة والضرورة ليس في نقطة الحضيض بل في نقطة الاوج ومهما يكـن من شيء ، فان التوفيق ممكن من دون ريب ؛ فادراك الضرورة يتفق تماما مع العمل الاشد عنفوانا في الممارسة وهذا على الاقل ما جرى في التاريخ حتى الوقت الراهن ، حيث اولئك الذين انكروا وجود حريـة الارادة

---

* لكأن الابرة المغناطيسية تلتذ بالتوجه نحو الشمال ، ذلك انها تعتقد انها تدور بصورة مستقلة عن اي سبب آخر ، غير شاعرة بالحركات غير المحسوسة للمادة المغناطيسيـة ليبـنز Théodicée ، لوزان ١٧٤٠ ، ص ٥٩٨ ) [ النص بالفرنسية في الاصل الروسي ] .

تفوقوا في الاغلب على جميــع معاصريهم في قوة ارادتهم الخاصة وفرضوا عليهــا المطالب القصوى ولقد جرت امثلــة عديدة على ذلك ، وهي شائعة المعرفة ، ولا يمكن نسيانها كما حدث لستاملر بكل وضوح ، الا اذا كان لدى المرء نفور مقصود من رؤية الواقع التاريخي كما هو على حقيقته ، وهو نفور متأصل مثلا في اصحابنا الذاتيين(١٢٩) ، وفي بعض البورجوازيين الصغار الالمان الا ان الذاتيين والبورجوازيين الصغار ليسوا كائنات بشريــة ، بل مجرد اشبــاح كما سوف يقول بييلنسكي

وعلى اي حال فلندقق في تلك الحالة حيث تكون اعمال الانسان الخاصة ــ الماضية منها والحاضرة والمقبلة ــ مصبوغة كليا بالضرورة في نظره انا نعرف من قبل ان مثل هذا الانسان اذ يعتبر نفسه مرسلا من الله مثل محمد أو مختارا من قدر لا يعرف الرحمة مثل نابليون أو تعبيرا عن قوة لا تقاوم للتقدم التاريخي مثل بعض الوجوه العامة في القرن التاسع عشر سوف يبرهن على قوة ارادة اشبه بقوة العناصر الطبيعية فيكنس مثل بيوت من الورق جميع العقبات التي يرفعها امثال هملت والمتشبهين به من سكان الاقاليم* بيد ان الحالة موضع البحث تهمنا الآن من زاوية اخرى ، الا وهي الزاوية التالية حين لا يمثل لي الشعور بعدم حرية ارادتي الا في صورة الاستحالة التامة ، الذاتية والموضوعية ، للسلوك بصورة مغايرة لسلوكي الفعلي وحين تكون افعالي المعطاة ، في الوقت نفسه هي تلك الافعال التي اجد انها المفضلة من بين جميع الافعال الممكنة ، فان الضرورة تتوحد اذن مع الحرية في ذهني وتتوحد الحرية مع الضرورة ، وعندئذ لا اكون فاقدا للحرية الا بمعنى اني لا **استطيع أن أفصم عرى هذه الهوية بين الحرية والضرورة ، لا استطيع ان اقيم التعارض بينهما ، لا استطيع ان اشعر باكراه الضرورة . بيد ان مثل هذا الانعدام للحرية هو التظاهرة الاكمل لها** في الوقت نفسه

ويقول سيمل ان الحرية هي دائما حرية من شيء ما ، وان الحرية لامعنى لها حين لا يعتقد بانها النقيض من الاكراه وذلك هو واقع الامر بالفعل بيد ان هــذه الحرية الصغرى والاساسية لا يمكن ان تكون اساسا لرفض الموضوعة التي هي احد الاكتشافات الفذة التي حققها الفكر الفلسفي حتى الآن ، الا وهي أن الحرية تعني

---

* سوف نورد مثالا آخر لنبين عن مدى قــوة الشعور عند هــذا النمط من الناس فهذا ما كتبته في رسالة الى استاذها كالفن رونيه دي فرانس ، دوقة فيراري ( ابنة لويس الثاني عشر لا ، لم انس ما كتبته لي من ان داوود كان يحمل حقدا قاتلا على اعداء الله ، وانا نفسي لــن اتصرف قط بصورة مغايرة لذلك لاني عرفت ان الملك والدي والملكة والدتي والسيد الراحل زوجي وجميع ابنائي قد رفضهم الله فسوف احقد عليهم حقدا قاتلا واتمنى لهم الذهاب الى الجحيم الــخ اية طاقة مدمرة رهيبة يمكن ان تصدر عن اناس ذلك هو شعورهم ومع ذلك كان مثل هؤلاء الناس ينكرون وجود ما يسمى حرية الارادة

ادراك الضرورة ان تعريف سيمل ضيق جدا وهو لا يشمل الا الحرية من الاكراه الخارجي وحين لا نأخذ بعين الاعتبار الا هذا النوع من الاكراه فانه يكون من قبيل السخف التام التوحيد بين الحرية والضرورة فالنشال ليس حرا في سرقة مندبل جيبك اذا منعته من ذلك وما لم يتغلب على مقاومتك بطريقة او اخرى وفضلا عن هذا المفهوم البدائي والسطحي عن الحرية ، فان ثمة مفهوما آخر اعمق منه حتى درجة كبيرة ولا وجود لهذا المفهوم بالنسبة الى اولئك العاجزين عن التفكير الفلسفي كما ان اولئك القادرين على مثل هذا التفكير لا يستطيعون الحصول عليه الا اذا تمكنوا من طرح ازدواجيتهم جانبا ومن فهم ان الهوة التي يفترض الازدواجيون قيامها بين الذات والموضوع لا وجود لها

يجابه الذاتي الروسي واقعنا الرأسمالي بمثله العليا الطوباوية ولا يمضي الى ابعد من هذه المجابهة فالذاتيون غارقون في مستنقع الازدواجية وان المثل العليا لاولئك الذين يسمون « التلامذة » الروس تشبه الواقع الراسمالي بصورة اقل جدا مما تشبهه مثل الذاتيين العليا ، ومع ذلك كان في وسع التلامذة ان يجدوا جسرا يصل بين مثلهم العليا والواقع فقد ارتفع « التلامذة الى مستوى الاحادية وفي رأيهم ان الرأسمالية تقود في سياق تطورها الى انكارها الخاص وتحقيق مثلهم العليا ، يعني المثل الخاصة « بالتلامذة الروس – وليس الروس وحدهم هذه ضرورة تاريخية انه – « التلميذ » – يخدم من حيث هو اداة لتلك الضرورة ، ولا يستطيع الا ان يفعل ذلك سواء من جراء وضعه الاجتماعي او من جراء تكوينه الفكري والاخلاقي كما صنعه هذا الوضع وهذا ايضا احد مظاهر الضرورة ولكنه نظرا لان وضعه الاجتماعي انتج تكوينا خاصا من دون أي تكوين آخر فانه لا يخدم فحسب من حيث هو اداة للضرورة ولا يستطيع الا ان يفعل ذلك ، بل هو يرغب في ذلك باندفاع ولا يستطيع ان يكون شعاره مغايرا لذلك وهذا احد مظاهر الحرية ، والاكثر من ذلك انها حرية نشأت عن الضرورة يعني بصورة ادق حرية اصبحت واحدة مع الضرورة انها الضرورة التي تحولت الى حرية* مثل هذه الحرية هي ايضا حرية من درجة معينة من الاكراه كما انها النقيض من درجة معينة من التقييد ان التعريفات العميقة لا تدحض التعريفات السطحية بل هي تحافظ عليها ضمنها حين تكملها لكن اي نوع من الاكراه واي نوع من التقييد نقصد في هذه الحال ؟ الامر واضح المقصود هو ذلك الاكراه المعنوي الذي يشل طاقة اولئك الذين لم ينفصلوا عن الازدواجية ، الاكراه الذي يسبب
الذي يشل طاقة اولئك الذين لم ينفصلو عن الازدواجية الاكراه الذي يسبب
الالم لاولئك الذين يعجزون عن ردم الهوة الفاصلة بين المثل العليا والواقع وما لم

---

* لا تصبح الضرورة حرية لانها تلاشت ، بل هي لا تصبح كذلك الا لان هويتها الكامنة بعد قد تظاهرت ( تاريخ المنطق ، نورنبرغ ١٨١٦ ، ص ٢٨١ ) [ الفقرة بالالمانية فيالنص الروسي ] .

تحقق الفرد **مثل** هذه الحرية من خلال ممارسة جزئية للفكر الفلسفي لن يكون قط ملكا تاما لذاته وسوف يكون عذابه المعنوي الخاص الجزية المخزية التي يؤديها للضرورة الخارجية التي تجابهه ومن بعد حالما يطرح هذا الفرد نير ذلك القيد الاليم والمخزي ، فانه يولد لحياة جديدة ومليئة ، وغير مألوفة منه حتى ذلك الحين، وتكون نشاطاته **الحرة** التعبير **الواعي** و **الحر** عن **الضرورة*** وعندئذ يصبح قوة اجتماعية عظيمة ولن يمنعه شيء اذن ولن يستطيع ان يمنعه من ان

**يصب جميع صواعق الغضب الالهي**

**على الكذب الشرير والمراءاة الفاضحة ...**

## ٣

مرة اخرى ان وعي الضرورة المطلقة لظاهرة معينة لا يمكن الا ان يسدد من طاقة الانسان الذي يتعاطف مع هذه الظاهرة ويعتبر نفسه احدى القوى التي كانت سببا في قيامها ويبرهن مثل هذا الانسان ، الواعي لضرورتها ، على جهل بالحساب اذا هو جلس مكتوف الذراعين ولم يفعل شيئا وبالفعل لنفترض ان الظاهرة **ب** يجب بالضرورة ان تقع في حضور مجموعة من الظروف **س** لقد برهنت لي على ان قسما من هذه المجموعة من الظروف متوفر من قبل ، وان القسم الآخر سوف يتوفر خلال زمن معين **ز** واما اقتنع بذلك فاني ، انا الانسان المتعاطف مع الظاهرة **ب** ، سوف اهتف حسنا — ومن بعد امضي الى فراشي حتى يأتي اليوم البهيج حيث تجري الحادثة التي توقعتها وما عسى ان تكون النتيجة ؟ سوف تكون النتيجة كما يلي في حساباتك تجد ان حصيلة الظروف **س** الضرورية لحدوث الظاهرة **ب تتضمن ايضا نشاطاتي** المساوية مثلا للمقدار ن ونظرا لاني مستغرق في النوم فان حصيلة الظروف العاملة على ظهور الظاهرة المعنية في الزمن **ز** سوف تكون اذن لا **س** بل **س** — ن الامر الذي يغير الوضع ولعل رجلا آخر يأخذ مكاني، وقد كان هو الآخر قريبا من العطالة لكن مشهد فتوري انقذه لانه بدا له مشينا حتى درجة كبيرة وفي هذه الحال فان القوة ن سوف يستعاض عنها بالقوة ج ، واذا كانت ن تساوي ج ن = ج ) فان **حصيلة الظروف العاملة على حدوث ب** سوف تظل مساوية الى **س** والظاهرة **ب** سوف تحدث في الزمن **ز** بالرغم من كل شيء

---

* كما عبر هيغل العجوز نفسه عن ذلك بصورة رائعة في موضع آخر ليست الحرية شيئا آخر سوى تأكيد الذات » ( **المؤلفات** المجلد ١٢ ٩٨ ) [ الاستشهاد بالالمانية في الاصل الروسي ] .

لكن اذا كان لا يمكن اعتبار قوتي مساوية للصفر اذا كنت عاملا نشيطا وكفوا ولم يحل مكاني أي انسان فلن نحصل على الحصيلة الكاملة س والظاهرة **ب** سوف تقع متخلفة عن الوقت الذي توقعناه او لن تقع بمثل الكمال الذي توقعناه ، او ربما لن تقع مطلقا وهذا واضح مثل نور الشمس واذا انا لم افهمه اذا حسبت ان **س** سوف تظل **س** حتى بعد نكوصي فالسبب الوحيد في ذلك اني اجهل العد لكن هل انا الانسان الوحيد الذي يجهل العد فانت الذي تكهنت بان الحصيلة **س** سوف تتوفر بالتاكيد في الزمن **ز** لم تتنبأ باني سوف آوي الى فراشي حالا بعد حديثي معك بل كنت على يقين من اني سوف اظل عاملا جيدا حتى النهاية لقد اخذت قوة لا يركن اليها على انها قوة يمكن الركون اليها وبالتالي فقد كنت انت الآخر مخطئا في حساباتك لكن لنفترض انك لم ترتكب خطأ بل اخذت جميع الامور بعين الاعتبار ان حساباتك سوف تتخذ في هذه الحالة الشكل التالي انت تقول ان الحصيلة **س** سوف تتوفر في الزمن **ز** وهذه الحصيلة من الظروف سوف تشتمل على نكوصي من حيث هو **مقدار سالب** كما سوف تستمل من حيث هو **مقدار موجب** على التشجيع المقدم من رجال شد من عزيمتهم اليقين بان مساعيهم ومثلهم العليا هي تعبير ذاتي عن الضرورة الموضوعية وفي هذا الحال فان الحصيلة **س** سوف تتوفر حقا في الزمن المشار اليه من قبلك والظاهرة **ب** سوفتحدث هذا واضح فيما اعتقد لكن اذا كان الامر كذلك فما السبب في حيرتي من جراء فكرة ان الظاهرة **ب** محتومة ؟ لماذا خيل الى انها تحكم على بالعطالة؟ ولماذا غابت عن انظاري عند مناقشتها مبادىء الحساب البسيطة ؟ الارجح ان السبب في ذلك نزعتي الشديدة الى العطالة من جراء ظروف تربيتي وحديثي معك رجح كفة تلك النزعة المشكورة وهذا كل شيء **ان وعي الضرورة لم يمثل هنا الا بهذا المعنى — من حيث هو سبب يكشف من التراخي والقصور المعنويين عندي** ولا يمكن بالطبع ان يعتبر **السبب** في تراخي ، فالسبب لا يكمن هنا بل يكمن في ظروف تربيتي وبنتيجة ذلك فان الحساب علم جليل القدر ونافع لا يجوز ان تنسى قواعده حتى — واود ان اقول بالخاصة — من قبل الفلاسفة

لكن أي اثر يكون لوعي ضرورة ظاهرة معينة في انسان قوي **لا يتعاطف معها بل يعارض قيامها** ؟ ان الوضع هنا مختلف حتى درجة ما ففي الامكان حتى درجة كبيرة ان **ينقص** ذلك الوعي من قوة مقاومته لكن متى يصبح خصوم ظاهرة معينة على يقين من حتميتها ؟ ذلك حين تكون الظروف المواتية لها عديدة جدا وبالغة القوة ان وعي الخصوم لضرورتها وتناقص طاقتهم مجرد تظاهرة لقوة الظروف المواتية ومثل هذه التظاهرة تشكل بدورها جزءا من الظروف المواتية

بيد ان عنفوان المقاومة البادية لن يتناقص لدى جميع خصومها بل سوف ينمو عند بعضهم لادراكهم حتميتها ؛ انه يتحول اذن الى **قوة اليأس** ويقدم التاريخ

عمة وتاريخ روسيا خاصة امثلة مفيدة عديدة على مثل هذه القوة ، ونأمل ان يتذكرها القارىء دون أي الحاح من جانبنا

ويقاطعنا السيد كاريف عند هذه النقطة هو الذي يغتبط اذ يصادف في صفحات مجلتنا الفكرة القائلة ان الفرد يمكن ان يكون قوة اجتماعية كبيرة وذلك بالرغم من اختلافه بالطبع مع آرائنا عن الحرية والضرورة والاكثر من ذلك من استنكاره لتحيزنا للمبالغات التي يمكن ان يرتكبها الرجال الاشداء والمندفعون. أن الاستاذ الفاضل يهتف في بهجة هذا ما قلته على الدوام وانه لصحيح تماما ان السيد كاريف وجميع الذاتيين نسبوا دائما الى الفرد دورا بالغ الاهمية في التاريخ ولقد كان زمن صادف هذا الامر فيه التأييد العظيم من جانب الشباب التقدميين الذين كانوا طافحين برغبة مشكورة في العمل من اجل الصالح العام وكانوا بالتالي ميالين بصورة طبيعية الى تقدير المبادرة الفردية تقديرا عاليا ومهما يكن من شيء فقد كان الذاتيون في جوهرهم عاجزين دائما ليس عن حل قضية دور الفرد في التاريخ فحسب بل حتى عن صياغتها بصورة صائبة لقد عارضوا اثر **قوانين** التطور الاجتماعي التاريخي بفعاليات الافراد اصحاب التفكير النقدي »، وبذلك ابتدعوا نوعا جديدا من نظرية العوامل ، وكان الافراد اصحاب التفكير النقدي **احد عوامل** هذا التطور ، فيما قوانينه الخاصة هي **العامل الآخر** ، الامر الذي ادى الى تضارب ظاهر لا يمكن التهاون به الا حين يركز الافراد » الفاعلون انتباههم على قضايا الساعة العملية واللاهبة ولا يستطيعون بالتالي ان يوفروا وقتا للقضايا الفلسفية وان الهدوء الذي قام خلال الثمانينات قد وفر لاولئك القادرين على التفكير فراغا الزاميا من اجل التأمل الفلسفي فراحت العقيدة الذاتية منذ ذلك الحين تنفلق من دروزها بل تذهب هباء ، بالضبط مثل معطف اكاكي اكاكييفيتش الشهير(١٢١) ولم يفد الترفيع في ذلك مطلقا فراح الناس الذين يفكرون ، الواحد تلو الآخر يرفضون الذاتية على اعتبارها مذهبا فاسدا كليا وبصورة جلية للعيان. لكن رد الفعل ضد المذهب قاد ، كما يحدث دائما في مثل هذه الحالات ، بالبعض من خصومه الى تطرف معاكس فاذا كان بعض الذاتيين ، في سعيهم الى منح الفرد اعظم دور ممكن في التاريخ قد رفضوا الاعتراف بالتطور التاريخي للجنس البشري من حيث هو عملية خاضعة لقوانين ، فقد كان البعض من خصومهم الاحدث، الذين حاولوا ابراز طبيعة ذلك التطور الخاضعة للقوانين ، على استعداد واضح لنسيان ان **التاريخ يصنعه البشر** وان **نشاطات الافراد لا يمكن اذن الا ان تكون ذات اهمية في التاريخ** لقد نادوا بأن الفرد كمية مهملة وهو تطرف غير جائز في النظرية مثله كمثل التطرف الذي انتهى اليه اكثر الذاتيين حماسة ان التضحية **بالموضوعة** في مصلحة **النقيضة** تفتقر الى اي اساس كمثل نسيان **النقيضة** في مصلحة **الموضوعة**. ولن يكون في مقدورنا ان نجد وجهة النظر الصحيحة الا اذا تمكنا من دمج عناصر

الحقيقة المتضمنة في كلتيهما في **تركيب واحد***

كانت هذه القضية موضع اهتمامنا منذ زمن طويل ، وقد رغبنا طويلا في دعوة قرائنا للانضمام الينا في معالجتهـا وعلى أي حال ، فقـد ردنا عن ذلك بعض المخاوف اذ خيل الينا ان قراءنا ربما توصلوا بأنفسهم مسبقا الى حل لها وان دعوتنا سوف تأتي متأخرة وزاولتنا هذه المخاوف الآن ، فالمؤرخون الالمان خلصونا منها ونقول هذا بكل جد لان مساجلة حامية ثارت بين المؤرخين الالمان مؤخرا بخصوص الرجال العظام في التاريخ كان بعضهم ميالين لان يروا في النشاطات السياسية لمثل هؤلاء الرجال القوة المحركة الرئيسية ، والوحيدة تقريبا للتطور التاريخي فيما راح غيرهم يؤكد ان مثل هذا الرأي متحيز وان العلم التاريخي لا يجوز ان يعالج التاريخ السياسي وحده ، بل يجب ان يعالج كلية الحياة التاريخية ( das ganze des gesehichtlichen Lebens ) وكارل لامبريشت مؤلف **تاريـخ الشعب الالماني** الذي ترجمه الى الروسية ب نقولاييف احد ممثلي هـذا الاتجاه الاخير وقد اتهمه خصومه « **بالنزعة الجماعية** » والمادية ، بل وضع على صعيـد **واحد** ـ ويا للهول ـ مع « **الملحدين الاشتراكيين الديموقراطيين** كما عبر هو نفسه عن ذلك في ختام المساجلة وحين درسنا آراء لامبريشت وجدنا ان التهم التي القيت في وجه هذا العالم المسكين لا اساس لها من الصحة على الاطلاق ، وادركنا في الوقت نفسه ان المؤرخين الالمان الحاليين عاجزون عن حل مسألة دور الفرد في التاريخ وعندئذ قررنا ان لنا الحق في افتراض ان هذه المسألة باقية دون حـل بالنسبة الى عدد من القراء الروس ايضا ، وان ما يمكن ان يقال بعد عنها لن يفتقر كل الافتقار الى الاهمية النظرية والعملية على السواء

لقـد جمع لامبريشت مجموعة كامـلة ( eine artige Sammlung على حـد تعبيره من الآراء التي ادلى بها رجال دولة بارزون عن اثر نشاطاتهم السياسية الخاصة في البيئة التاريخية التي جرت فيها هذه النشاطات وعلى أي حال فقد اقتصر في مساجلته حاليا ، على الرجوع الى بعض خطابات بسمارك وآرائه ، وهو يستشهد بالكلمات التالية التي نطق بها المستشار الفولاذي في رايخستاغ المانيـا الشمالية بتاريخ ١٦ نيسان ١٨٦٩

> ليس في وسعنا ان نتجاهل تاريخ الماضي كما ليس في وسعنا ايها السادة ، نخلق المستقبل واني لاود ان احذركم من الخطيئة التي تحمل الناس على تقديم ساعاتهم معتقدين انهم يعجلون بذلك في مرور الزمن ان تأثيري في الاحداث التي انتفعت منها يبالغ فيه عادة ومع ذلك لا يمكن ان يخطر في بال كائن من كان ان يطلب

---

* ان السيد كاربيف اياه قـد سبقنا في السعي الى تركيب ، لكنه من المؤسف انه لم يمض الى ابعد من الحقيقة البدهية القائلة ان الانسان يتألف من نفس وجسد .

مني ان **اصنع** التاريخ هذا ما لا يمكنني فعله حتى بالاشتراك معكم ، ايها السادة ، بالرغم من انه في مقدورنا ان نجابه سوية العالم اجمع انا لا نستطيع أن نصنع التاريخ ، بل يجب علينا ان ننتظر فيما هو يصنع اننا لن نجعل الثمرة انضج اذا وضعنا مصباحا تحتها ؛ واذا نحن قطفنا الثمرة قبل نضوجها ، فلن نفعل الا اعاقة نموها وافسادها

ويورد لامبريشت ايضا ، بناء على شهادة جولي ، آراء ما اكثر ما عبر بسمارك عنها ابان الحرب الفرنسية البروسية(١٣٢) ، والفكرة الكامنة وراءها هي مرة اخرى اننا « لا نستطيع ان نخلق الاحداث التاريخية الكبرى ، بل يجب ان نتكيف مع المجرى الطبيعي للامور ، ونواصل الاستثبات مما تم نضوجه ويرى لامبريشت في ذلك الحقيقة العميقة والجامعة ففي رأيه ان المؤرخ الحالي لا يستطيع ان يفكر بطريقة مغايرة ، هذا اذا كان في مقدوره ان ينظر الى اعماق الاحداث ولا يقصر حقل رؤياه على فاصل زمني قصير جدا هل كان في مقدور بسمارك أن يرجع المانيا القهقرى الى اقتصاد طبيعي ؟ كان ذلك محالا عليه حتى حين كان في اوج سلطانه ان الظروف التاريخية الجامعة اقوى من اشد الافراد بأسا وبالنسبة الى الرجل العظيم فطبيعة عصره الجامعة هي **« ضرورة معطاة تجريبيا »** .

وهذا هو السبب في ان لامبريشت يجادل ، مسميا نظريته بالنظرية **الشمولية**. وان الجانب الضعيف من هذا المفهوم الشمولي » يمكن تبينه بكل سهولة فآراء بسمارك التي يوردها بالغة الاهمية من حيث هي وثيقة سيكولوجية ، وقد لايتعاطف المرء مع نشاطات المستشار الالماني الراحل ، لكنه لا يستطيع ان يقول انها تافهة ، او ان بسمارك كان يتسم « باليقينية » فبسمارك هو من قال لاسأل عنه « ليس خدام الرجعية مفوهين ، لكن الله يريد ان يكون للتقدم مثل هؤلاء الخدام ومع ذلك فان هذا الرجل الذي اظهر في الاحايين طاقة جبارة في الحقيقة يعتبر نفسه عاجزا كل العجز فيما يتعلق بمسار الامور الطبيعي ، ناظرا بكل وضوح الى نفسه من حيث هو اداة عادية للتطور التاريخي ، ويبين هذا مرة اخرى أن في مقدور المرء ان يرى الظواهر في ضوء الضرورة ويكون في الوقت نفسه رجل دولة يتحلى بطاقة كبيرة بيد ان آراء بسمارك لا تتصف بالاهمية الا من وجهة النظر هذه ، وليس في الامكان اعتبارها جوابا على مسألة دور الفرد في التاريخ ففي رأي بسمارك ان الاحداث تحدث من تلقاء ذاتها ، وكل ما في وسعنا هو الاستثبات مما تهيؤه هذه الاحداث لكن كل فعل من الاستثبات يكون حدثا تاريخيا اذن فما الفارق بين مثل هذه الاحداث وتلك الاحداث التي تجري من تلقاء ذاتها ؟ في الحقيقة ان كل حدث تاريخي على وجه التقريب هو في وقت واحد فعل « يستثبت به أمرؤ ما من الثمرة الناضجة مسبقا للتطور السابق وحلقة في سلسلة الاحداث التي تهيء ثمرة المستقبل فكيف يمكن لافعال « الاستثبات » أن تجابه بمسار الامور الطبيعي؟ من الواضح ان ما كان بسمارك يبتغي قوله هو ان الافراد او جماعات الافراد

النشيطين في التاريخ لم يكونوا ولن يكونوا قط اصحاب جبروت مطلق ومما لا ريب فيه ان هذه حقيقة لا يطالها الشك مطلقا لكننا نود ان نعرف ما الذي تتوقف عليه سلطتهم ، هذهالسلطة التي من المؤكد انها ليست غير محدودة ، وما هي الظروف التي تنمو في ظلها وما هي الظروف التي تتقلص في ظلها ؟ هذه اسئلة لا نقدم اجوبة عنهـا لا بسمارك ولا اولئك الذين يستشهدون بـه من الدعاة العلماء للمفهـوم « الشمولي عن التاريخ

وصحيح ان لامبريشت يورد فقرات اسهل على الفهم* ومثال ذلك انـه يستشهد بالكلمات التالية **لمونود** وهو احد ابرز الممثلين للعلم التاريخي المعاصر في فرنسـا

يعتاد المرء جدا في التاريخ ، الا يهتم الا بالتظاهرات اللامعة والمدوية وسريعة الزوال للنشاط الانساني والاحداث العظيمة والرجال العظام بدلا من الاصرار على الحركات الكبيرة والبطيئة للمؤسسات والشروط الاقتصادية والاجتماعية التي تشكل القسم الدائم والهام حقا للتطور الانساني ـ القسم الذي يمكن تحليله بقدر من اليقين ويمكن ارجاعه ضمن بعض الحدود الى قوانين الاحداث الهامة والافراد الهامين حقا هم قبل كل شيء علامات ورموز للبرهات المختلفة من ذلك التطور بيد ان معظم الوقائع التي توصف بانها تاريخية مثلها بالنسبة الى التاريخ الفعلي كمثل الامواج التي تعلو على سطح البحر وتصطبغ مؤقتا بجميع الوان ضوء النهار وتتحطم على الساحل الرملي دون ان تترك خلفها اي اثر ، بالنسبة الى حركة المد والجزر العميقة والمستمرة

ويعلن لامبريشت انه مستعد لتأييد كل كلمة من كلمات مونود وانه لمعروف لدى الجميع ان العلماء الالمان لا يحبون ان يتفقوا مع زملائهم الفرنسيين وان العلماء الفرنسيين يعاملونهم المعاملة نفسها وهذا هو السبب في ان المؤرخ البلجيكي بيرين كان مغتبطا بصورة خصوصية حين اصر ، في **المجلة التاريخية** ، على تطابق مفهوم مونود التاريخي مع مفهوم لامبريشت ، فكتب يقول

« هذه الحجة بالغة الاهمية ، فهي تبرهن فيما يبدو على ان المستقبل يخص الاتجاه التاريخي الجديد »

## ٥

لسنا نشاطر بيرين آماله السارة فالمستقبل لا يمكن ان يخص آراء غامضة ومتهافتة مثل مفهوم مونود ، وعلى الاخص مفهوم لامبريشت ومن المؤكد ان المرء

---

* لن نعالج المقالات الفلسفية والتاريخية الاخرى التي كتبها لامبريشت بل نستشهد ما سوف نستمر به ، بمقالته

« Der Ausgang Geschichtewrissens chaftlichen Die Zukunft , Kampfes» ،

١٨٩٧ ، العدد ٤٤ .

لا يستطيع الا ان يرحب باتجاه ينادي بأن دراسة المؤسسات الاجتماعية والشروط الاقتصادية هي مهمة علم التاريخ الاهم فلا بد ان يحقق هذا العلم تقدما عظيما حين يقوم مثل هذا الاتجاه بصورة حازمة ومهما يكن من شيء ، فان بيرين مخطىء اولا حين يعتبره اتجاها جديدا اذ هو نشأ في العلم التاريخي منذ العشرينات من القرن التاسع عشر وكان غيزو واوغستان تييري ومينيه وفي وقت لاحق توكفيل والكثيرون غيرهم الممثلين البارزين والحازمين له وليست آراء مونود ولامبريشت الا نسخا شاحبة عن اصل قديم لكنه شديد البروز ثانيا مهما تكن آراء غيزو ومينيه والمؤرخين الآخرين عميقة في عصرهم فقد ظلت اشياء كثيرة فيها دون تفسير حيث لا يقدمون حلا كاملا ودقيقا لمسألة دور الفرد في التاريخ وان من واجب العلم التاريخي أن يقدم مثل هذا الحل اذا ما رام ممثلوه ان يطرحوا ذلك المفهوم الضيق عن موضوعهم والمستقبل يخص تلك المدرسة التي سوف تقدم الحل الافضل لهذه المسائل فضلا عن مسائل اخرى غيرها

لقد كانت آراء غيزو والمؤرخين الآخرين من هذا الاتجاه رد فعل ضد المفاهيم التاريخية للقرن الثامن عشر وهي **نقائض** لها ففي القرن الثامن عشر ارجع طلاب فلسفة التاريخ الاشياء جميعا الى **نشاطات الافراد الواعية** وصحيح انه كان حتى في ذلك الحين استثناءات للقاعدة ومثال ذلك أن حقل الرؤية الفلسفي التاريخي عند فيكو ومونتسكيو وهيردر كان اوسع بما لا يقاس غير اننا لا نتحدث عن الاستثناءات لقد كان مفهوم التاريخ الذي اعتنقه غالبية المفكرين في القرن الثامن عشر كما وصفناه بالضبط وانه لامر بالغ الاهمية في هذا الشأن ان نعيد مطالعة اعمال مابلي التاريخية ففي رأي مابلي أن مينوس خلق الحياة الاجتماعية والسياسية بكاملها والاخلاق عند اهالي كريت فيما قدم ليكورغوس نفس الخدمات الى سبارطه فاذا كان السبارطيون « يزدرون الثروة المادية فمرد ذلك كليا الى ليكورغوس الذي « نزل اذا جاز التعبير الى اعماق قلوب مواطنيه حيث سحق بذرة حب الثروة* descendit pour ainsi dire jusque dans le fond du coeur des citoyens, etc واذا كان السبارطيون قد انحرفوا في وقت لاحق عن الدرب التي دلهم عليها ليكورغوس الحكيم فاللوم في ذلك يقع على ليساندروس الذي اقنعهم بأن « الازمان المتغيرة والشروط المتغيرة تتطلب عبقرية جديدة وسياسة جديدة** ان الابحاث المكتوبة من زاوية النظر هذه لا تملك مع العلم الا شيئا مشتركا ضئيلا وهي قد حررت على اعتبارها عظات غرضها الوحيد ما يفترض انها تشتمل عليه من مبادىء اخلاقية وقد ثار المؤرخون الفرنسيون لعصر

* **انظر المؤلفات الكاملة للاب مابلي** ، لندن ١٧٨٥ المجلد الرابع ، ص ٣ ١٤ – ٢٢ ، ١٩٢

** المصدر نفسه ، ص ٥١.

عودة الملكية ضد مثل هذه الآراء فقد كان من المحال تماما ، بعد الاحداث الجسام لاواخر القرن الثامن عشر ان يستمر المرء في التفكير بأن التاريخ يصنعه افراد اكثر او اقل بروزا واكثر او اقل نبلا واستنارة ، هؤلاء الذين يبثون على هواهم في الجماهير غير المستنيرة لكن الطيعة عواطف وافكارا معينة وفيما عدا ذلك فقد جرحت فلسفة التاريخ هذه الكبرياء العامية لدى منظري البورجوازية انهم يهتزون لنفس العواطف التي تبدت في القرن الثامن عشر ابان نهوض المسرح البورجوازي وعلى اي حال فان تييري حين تحدى الآراء التاريخية القديمة استخدم نفس الحجج التي قدمها بومارشيه وآخرون ضد علم الجمال القديم* واخيرا فان العواطف التي اختبرتها فرنسا لتوها بينت بوضوح عظيم ان مجرى الاحداث التاريخية لا يتقرر في حال من الاحوال بأفعال البشر الشعورية وحدها ، وكان هذا الظرف وحده كافيا لاستثارة الفكرة القائلة ان تلك الاحداث مسببة عن تأثير بعض الضرورة المبهمة التي تفعل ، مثلها كمثل قوى الطبيعة العنصرية ، بصورة عمياء لكن وفقا لبعض القوانين الثابتة وانها لحقيقة مرموقة جدا ، وان تكن حقيقة مرت فيما نعلم حتى الآن غير ملحوظة ، ان الآراء الجديدة عن التاريخ من حيث هو عملية تطورية خاضعة لقوانين طبقها المؤرخون الفرنسيون لعصر عودة الملكية بأعظم الحزم في كتاباتهم عن الثورة الفرنسية تلك كانت الحال ، مثلا ، في مؤلفات مينيه وتييرس ولقد سمى شاتوبريان المدرسة التاريخية الجديدة بالمدرسة **الجبرية** ، فقال وهو يصوغ المهام التي حددتها للباحث

> ان من واجب المؤرخ في هذا النظام ان يروي اشنع الاعمال دون استياء وان يتحدث عن اسمى الفضائل دون محبة ؛ ان من واجبه ان ينظر بعين متجلدة الى المجتمع من حيث هو خاضع فقط لبعض القوانين التي لا تقاوم ، والتي هي السبب في ان كل ظاهرة تقع كما كان من الواجب ان تقع بصورة حتمية**

هذا خطل بالطبع فالمدرسة الجديدة لم تطالب المؤرخ بفقدان العاطفة في حال من الاحوال ولقد مضى اوغستان تييري بعيدا جدا بحيث قال بصراحة تامة ان الاهواء السياسية اذ تشحذ ذهن الباحث ، يمكن ان تخدم كواسطة جبارة من اجل أكتشاف الحقيقة*** وانه ليكفينا أن نلقي نظرة سريعة على اعمال غيزو وتييرس او مينيه حتى يتضح لنا انهم كانوا يتعاطفون بشدة مع البورجوازية سواء

---

* قارن الرسالة الاولى من كتابه **رسائل عن تاريخ فرنسا** مع **دراسة في النوع المسرحي الجاد** في المجلد الاول من **المؤلفات الكاملة** لبورمارشيه

** شاتوبريان **المؤلفات الكاملة** ، باريس ١٨٦٠ المجلد السابع ص ٥٨ ونوصي القارىء ايضا بالصفحة التالية ؛ قد يفكر المرء ان السيد ميخائيلوفسكي هو الذي كتبها

*** انظر اعتبارات عن تاريخ فرنسا » ، ملحق **قصص الازمان الميروفانجية** ، باريس ١٨٤٠ ، ص ٧٢

في نضالها ضد الارستقراطية الزمنية والروحية او في جهودها الرامية الى القضاء على مطالب البروليتاريا الناشئة . والامر الذي لا جدال فيه هو ان المدرسة التاريخية الجديدة نشأت في العشرينات من القرن التاسع عشر ، يعني حين كانت البورجوازية قد تغلبت **مسبقا** على الاستقراطية ، وذلك بالرغم من ان هذه الارستقراطية كانت تحاول بعد استرجاع البعض من امتيازاتها الماضية وكان شعور فخور بانتصار طبقتهم ينعكس في جميع ابحاث مؤرخي المدرسة الجديدة وبما ان البورجوازية لم تتصف قط باللباقة الفروسية ، فان في مقدور المرء ان يميز احيانا في مقالات ممثليها العلماء شيئا من القسوة حيال المغلوبين ويقول غيزو في احدى كراساته السجالية Le plus fort absorbe le plus faible, et celà est du droit ( الاقوى يبتلع الاضعف ، وهذا حق ) ولم يكن موقفه حيال الطبقة العاملة أقل قسوة وهي قسوة ضللت شاتوبريان لانها كانت تتخذ احيانا صورة التجرد وفيما عدا ذلك فانه لم يكن واضحا تماما في ذلك الحين كيف يجب ان تفهم **الطبيعة الخاضعة للقوانين** الخاصة بالتقدم التاريخي واخيرا فلعل المدرسة الجديدة بدت جبرية لانها لم تمنح ، في سعيها لان تتخذ بصورة حازمة موقف النظرة القائلة بخضوع التقدم التاريخي للقوانين الا اهميــة ضئيلة لرجال التاريخ العظام* ولم يستطع الناس الذين نشأوا على الافكار التاريخية للقرن الثامن عشر ان يتفهموا هذه المدرسة بسهولة فجاءت الاعتراضات تترى من كل حدب وصوب على آراء المؤرخين الجدد ، ومن بعد قامت مساجلة لم تنته كما رأينا حتى يومنا الحاضر

وكتب سانت بوف في كانون الثاني ١٨٢٦ ما يلي في عرض للمجلدين الخامس والسادس من كتاب تييرس **تاريخ الثورة الفرنسية** الذي نشر في **لاغلوب**(١٢٣)

> يستطيع اي رجل ، في اية لحظة معينة ، بقرار مباغت من ارادته ان يدخل الى مجرى الاحداث قوة جديدة غير متوقعة وقابلة للتغير تستطيع ان تغير ذلك المجرى وان لم يكن في الامكان قياسها هي بالذات من جراء قابليتها للتغير

ولا يجوز ان نحسب ان سانت بوف كان ينـادي بأن « القرارات المباغتة » للارادة الانسانية تظهر دونما سبب لا ، فان في ذلك لسذاجة كبيرة اذن ان كل ما يؤكده هو ان الصفات الذهنية والخلقية لرجل يلعب في الحياة العامة دورا اعظم أو أقل — مواهبه ، ومعرفته ، وحزمه او تردده ، وشجاعته او جبنه ، وقس على ذلك — لا يمكن الا ان يكون لها اثر بالغ في مجرى الاحداث ونتائجها ؛ ومع ذلك فان

---

* في عرض للطبعة الثالثة لكتاب مينيه **تاريخ الثورة الفرنسية** يصف سانت بوف موقف هذا المؤرخ حيال الرجال العظام كما يلي لدى مرأى الانفعالات الواسعة والعميقة التي ينبغي له وصفها ، ولدى مشهد العجز والعدم اللذين تقع فيهما اسمى العبقريات واقدس الفضائل فيما الجماهير تنتفض ، اخذته الرأفة بالافراد ، ولم ير فيهم هم اخذوا على حدة الا الضعف ولم يعترف لهم بأي نشاط فعال الا باتحادهم مع الجماهير [ الفقرة بالفرنسية في الاصل الروسي ] .

هذه الصفات لا تجد تفسيرها في القوانين العامة لتطور الامة فحسب ، بل هي تتطور دائما وحتى درجة كبيرة جدا تحت زخم ما يمكن تسميته مصادفات الحياة الخاصة. وسوف نورد بعض الامثلة ايضاحا لهذه الفكرة التي لا بد على اي حال ان تبدو واضحة بما فيــه الكفاية من تلقاء ذاتها

ابان حرب الخلافة النمسوية(١٢٤) حقق الجيش الفرنسي انتصارات باهرة عديدة وبدا ان فرنسا باتت في مركز تستطيع منه أن تجبر النمسا على التنازل عن مساحات كبيرة جدا من الارض فيما يسمى بلجيكا في الوقت الحاضر ومع ذلك لم يطالب لويس الخامس عشر بذلك التنازل لانه كما قال كان يحارب بوصفه ملكا وليس بوصفه تاجرا ، بحيث لم يعط صلح ايكس لاشابيل فرنسا شيئا على الاطلاق(١٣٥) ولو ان لويس الخامس عشر كان رجلا من نمط آخر او لو كان ملك آخر في مكانه ، لامكن ان تزداد مساحة الاراضي الفرنسية ، وكان تطورها الاقتصادي والسياسي تتخذ بنتيجة ذلك سياقا مختلفا نوعا ما

وكما هو معروف خاضت فرنسا حرب السبع سنوات(١٣٦)متحالفة مــع النمسا ، ويقال ان هذا التحالف عقد بفضل مساعدة كبيرة قدمتها مدام دي بومبادور التي ملأها الغرور لان ماريا تيريز المتكبرة خاطبتها في رسالة لها بابنة العم او الصديقة الطيبة جدا ( bien bonne amie ) ولذا فان في مقدور المرء ان يقول انه لو كان لويس الخامس عشر رجلا اشد تزمتا اخلاقيا او لو ان خضوعه لتأثير عشيقته كان دون ذلك ، فانه ما كان يمكن لمدام دي بومبادور ان تكسب مثل هذا النفوذ على مجرى الاحداث التي كانت تتخذ سياقا مختلفا اذن

ومن بعد ، فان فرنسا اخفقت في حرب السبع سنوات ومني جنرالاتها بهزائم منكرة عديدة ، وعلى العموم كان سلوكهم اكثر من مستغرب فقد انخرط ريشليو في اعمال النهب بينما كان سوبيز وبرولي لا ينيان يقيمان العراقيل في وجه بعضهما البعض ومثال ذلك انه حين هاجم برولي العدو عند فيلينغهاوس سمع سوبيز القصف المدفعي لكنه لم يسرع الى نجدة رفيقه كما كان متفقا وكما كان يجب ان يفعل من دون ريب مما ترتب عليه اضطرار برولي الى التقهقر* وكان سوبيز العاجز بصورة فظة تحت حماية مدام دي بومبادور آنفة الذكر ، بحيث يمكن القول مرة اخرى انه لو كان لويس الخامس عشر رجلا اقل شهوانية أو لو ان عشيقته امتنعت عن التدخل في السياسة فان الاحداث ما كانت لتتخذ هذا الاتجاه الذي لم تكن في مصلحة فرنسا

---

* وعلى أي حال ، يقول البعض ان برولي وليس سوبيز هو الملوم لانه لم ينتظر رفيقه اذ لم يكن راغبا في تقاسم أكاليــل النصر معــه وليس لذلك اهمية بالنسبة الينا ، نظرا لانه لا يغير في الامر شيئا على الاطلاق .

ويقول المؤرخون ان فرنسا لم تكن في ادنى حاجة البتة لشن الحرب في القاعدة الاوروبية ، بل كان من واجبها ان تمركز قواها في البحر بحيث تدافع عن مستعمراتها ضد التدخل البريطاني. وكان تصرفها المغاير مسببا مرة اخرى عن مدام دي بومبادور التي لا خلاص منها والتي شاءت ان تسعد صديقتها الطيبة جدا ماريا تيريز وهكذا فقدت فرنسا بنتيجة حرب السبع سنوات افضل مستعمراتها وهو ما اثر حتى درجة كبيرة من دون ريب في نمو علاقاتها الاقتصادية وفي هذه الحال يتراءى الغرور الانثوي في دور عامل مؤثر للتطور الاقتصادي

أثمة حاجة الى أمثلة اخرى ؟ سوف نورد مثالا آخر ولعله الابعث على الدهشة في عام ١٧٦١ ، ابان حرب السبع سنوات آنفة الذكر ، حاصرت القوات النمسوية بعدما حققت الاتصال مع القوات الروسية في سيليزيا فريديريك في ستريغو وكان مركز فريديريك ميئوسا منه ، لكن الحلفاء تأخروا في الهجوم وبعد عسرين يوما من العطالة امام العدو سحب الجنرال بوتورلين قواته من سيليزيا تاركا قسما منها فقط لتعزيز الجنرال النمسوي لاودون الذي استولى على شوايدنيتز حيث كان فريديريك معسكرا الا ان هـذا النصر لم يكن بذي بال لكن ماذا لو ان بوتورلين كان رجلا احزم ؟ ماذا لو هاجم الحلفاء فريدريك قبل ان تسنح له فرصة التحصن ؟ كانوا هزموه اذن وكان اضطر الى الاذعان لجميع مطالب المنتصرين ولقد حدث ذلك قبل اشهر قليلة فقط من ظرف اتفاقي آخر – وفاة الامبراطورة اليزابيث – غير الموقف حتى درجة كبيرة في صالح فريدريك(١٣٧) وانه ليمكن أن نسأل ما عساه كان يحدث لو ان بوتورلين كان أحزم او لو كان رجل مثل سوفوروف في مكانه ؟

ويعبر سانتبوف في تحليله لآراء المؤرخين الجبريين عن نظرة اخرى تستحق الملاحظة فقد قال في العرض آنف الذكر عن كتاب مينيه **تاريخ الثورة الفرنسية** ان مجرى الثورة الفرنسية وحصيلتها لم يقررهما فحسب السياق العام الذي ادى اليهما والاهواء التي جاءت في اذياله بل ظواهر صغرى عديدة ايضا افلتت من انتباه الباحثين وهي كذلك لا تنتسب الى مقولة الظواهر الاجتماعية بالخاصة وهو يقول

> فيما كانت هذه الاسباب العامة والاهواء التي استثارتها فعالة لم تكن قوة الطبيعة الحكمية والفيزيولوجية عاطلة كانت الحجارة تخضع بعد لقانون الثقالة
>
> الدم لم يتوقف عن الدوران في العروق اما كان مجرى الاحداث يتغير لو ان ميرابو مثلا لم يقض من الحمى او لو ان روبسبير مات من جراء سقوط آجرة عليه مصادفة او بنوبة من النزف الدماغي او لو ان بونابرت سقط برصاصة ؟ وهل تجرؤون على التأكيد بأن الحصيلة ما كانت تتغير ؟ اذا ما اعطي عدد كاف من المصادفات المماثلة لتلك التي افترضتها لامكن تكون الحصيلة مناقضة على طول الخط لتلك الحصيلة التي

يعرضون انها كانت حتمية لي الحق في افتراض مثل هذه المصادفات لانها غير منفية من قبل الاسباب العامة للثورة او من قبل الاهواء التي استثارتها تلك الاهواء العامة

وانه ليستشهد بالملحوظة الشهيرة القائلة ان التاريخ كان يتخذ مجرى مختلفا كل الاختلاف لو ان انف كليوباترا كان أقصر نوعا ما ؛ وختاما ، مع اقراره بأنه يمكن للمرء ان يقول اشياء كثيرة اخرى دفاعا عن رأي مينيه ، فانه يبين مرة اخرى اين تقوم خطيئة هذا المؤلف ان مينيه يعزو الى فعل الاسباب العامة وحدها نتائج ساعدت على تحقيقها اسباب أخرى صغرى وغامضة تصعب الاحاطة بها وان ذهنه الدقيق ينفر فيما يبدو من الاعتراف بوجود اي شيء لا يرى فيه التقيد بالنظام والانصياع للقوانين السائدة

## ٦

اتكون اعتراضات سانت بوف سليمة ؟ اعتقد ان فيها قدرا من الحقيقة لكن اي قدر ؟ كيما نقرر ذلك لا بد لنا أولا من دراسة الفكرة القائلة ان في مكنة اي رجل بقرار مباغت من ارادته ان يدخل الى مجرى الاحداث قوة جديدة قمينة بالتأثير في هذا المجرى حتى درجة كبيرة ولقد أوردنا امثلة عديدة نعتقد انها تفسر ذلك جيدا فلنمنح هذه الامثلة شيئا من التفكير

من المعروف ان تنظيم فرنسا العسكري كان يتدهور باستمرار ابان حكم لويس الخامس عشر فخلال حرب السبع سنوات كان الجيش الفرنسي يشبه كما يشير هنري مارتان لما يجره من العاهرات والتجار والخدم في اذياله ولان ما يضمه من جياد الجر يفوق ثلاث مرات عدد جياد الركوب ارهاط داريوس وكسيركس بالاحرى من جيوش تورين وغوستافوس ـ ادولفوس* ويقول ارسنهولتنر في تأريخه هذه الحرب ان الضباط الفرنسيين المكلفين بواجب الحراسة كانوا يغادرون مواقعهم ليذهبوا الى الرقص في موضع ما في الجوار وما كانوا يطيعون اوامر رؤسائهم الا كما يجدون هم مناسبا وكان السبب في هذا الوضع المؤسف في الشؤون العسكرية انحطاط الارستقراطية التي كانت لا تبرح مع ذلك تحتل جميع المناصب العالية في الجيش ، وكذلك التفكك العام « للنظام القديم » الذي كان يتجه سريعا الى هلاكه وكانت هذه الاسباب **العامة** كافية وحدها لتعطي حرب السبع سنوات منحى مناوئا لفرنسا ومهما يكن من شيء ، فمما لا ريب فيه أن عجز بعض الجنرالات من امثال سوبيز ضاعف حظ الجيش الفرنسي

* **تاريخ فرنسا** ، الطبعة الثالثة الرابعة المجلد الخامس عشر ص ٥٢٠ ـ ٥٢١ .

من الهزيمة التي كانت الاسباب العامة خلفها وبما ان سوبيز احتفظ بمنصبه بفضل مدام دي بومبادور فلا بد من الاقرار بأن هذه المركيزة المغرورة تشكل احد العوامل التي شددت من الاثر المناوىء ( بالنسبة الى فرنسا ) الذي مارسته الاسباب الشاملة على الاوضاع خلال حرب السبع سنوات

ولم تكن قوة المركيزة دي بومبادور كامنة في سلطتها الخاصة ، بل في سلطان الملك الذي اخضعته لارادتها ايمكن ان يقال ان طبيعة لويس الخامس عشر كانت على وجه الدقة مثلما كان يجب بالضرورة ان تكون نظرا للسياق العام للعلاقات الاجتماعية في فرنسا ؟ كلا فنظرا لمجرى التطور العام كان يمكن ان نخص مكانه رجلا ننظر الى النساء بصورة مغايرة وعندئذ كان سانت بوف يقول ويكون اذن على حق في ذلك ان فعل الاسباب الفيزيولوجية الكامنة عميقا والغامضة يكفي من اجل ذلك ويترتب على هذه الحال أن تلك القوى الفيزيزلزجية المتأصلة بعمق، حين أثرت في مجرى حرب السبع سنوات ونتيجتها ، اثرت ايضا في تطور فرنسا اللاحق الذي كان لا بد أن يختلف عما هو عليه لو أن حرب السبع سنوات لم تنزع من فرنسا القسم الاكبر من مستعمراتها أترى يناقض هذا الاستنتاج المفهوم القائل ان التطور الاجتماعي يتبع مسلكا خاضعا لقوانين ؟

ابدا على الاطلاق فعلى الرغم من ان فعل الصفات الشخصية لا مراء فيه في هذه الحالات فلا مراء ايضا في أنه لا يمكن ان يؤثر الا في الشروط الاجتماعية المعطاة. فبعد معركة روسباش ثار الفرنسيون على راعية سوبيز التي صارت تتلقى يوميا عددا كبيرا من الرسائل المغفلة المليئة بالتهديد والاهانات وهو ما اقلق مدام دي بومبادور جدا ، فجعلت تشكو من الارق* ومع ذلك استمرت في دعم سوبيز . ففي عام ١٧٦٢ اشارت في رسالة اليه انه لم يحقق الآمال المعقودة عليه لكنها استطردت تقول وعلى اي حال فلا تخش شيئا فسوف اعني بمصالحك واحاول ان اصلح ذات البين بينك وبين الملك** وهكذا ترون انها لم تخضع للراي العام لماذا لم تفعل ذلك ؟ الارجح ان السبب في ذلك هو ان المجتمع الفرنسي كان عاجزا عن اجبارها عليه وقتذاك لكن لماذا كان المجتمع الفرنسي في ذلك الحين عاجزا عن تحقيق ذلك ؟ لقد منع من تحقيق ذلك بفعل شكله التنظيمي الذي كان متوقفا بدوره على اوضاع القوى الاجتماعية في فرنسا في ذلك العصر وهكذا فأن اوضاع هذه القوى هي التي تفسر في آخر تحليل طبيعة لويس الخامس عشر والتأثير المؤسف الذي كان لنزوات عشيقته في مصير فرنسا وعلى أي حال

---

* راجع **مذكرات مدام دي هوسيه** ، بباريس ١٨٢٤ ، ص ١٨١

** **رسائل المركيزة دي بومبادور** ، لندن ١٧٧٢ المجلد الاول .

فان الرجل الذي كانت لديه نقطة ضعف حيال الجنس اللطيف لم يكن الملك بالذات بل وصيفه أو طباخه ، فما كان ذلك يملك ادنى اهمية تاريخية فمن الواضح ان اصل المشكلة ليس في نقطة ضعف خصوصية بل في المركز الاجتماعي الذي يعاني من نقطة الضعف تلك ولسوف يدرك القارىء ان هذه الحجج تنطبق على جميع الامثلة الواردة اعلاه ، والتغيرات المطلوبة هي التغيرات الضرورية ومثالها وضع روسيا في مكان فرنسا ، وبوتورلين في مكان سوبيز وقس على ذلك ولذا فلن نكررها

انه ليترتب على ذلك اذن ان الافراد قادرون على التأثير في مصير المجتمع بفضل بعض السمات المحددة في طبيعتهم ، وان تأثيرهم بالغ في بعض الاحيان لكن امكانية ممارسته ومداه يتحددان بفعل التنظيم الاجتماعي وحالة القوى فليس خلق الفرد عاملا في التطور الاجتماعي الا حين تسمح به العلاقات الاجتماعية وحيث تسمح به وبقدر ما تسمح به

ورب قائل لنا أن مدى التأثير الشخصي يتوقف على مواهب الفرد ايضا اننا نوافق على ذلك ، غير ان الفرد لا يستطيع ان يبرهن على مواهبه الا حين يشغل مركزا مناسبا في المجتمع لماذا كان مصير فرنسا بين يدي رجل يفتقر كليا الى القدرة على خدمة المجتمع والى الرغبة في هذه الخدمة ؟ لان ذلك كان هو تنظيم البلاد الاجتماعي فهذا التنظيم هو الذي يقرر ، في اية مرحلة معينة ، دور الافراد الموهوبين أو العاجزين ، وبالتالي ما يتصفون به من أهمية تاريخية

لكن اذا كان دور الافراد مرهونا بالتنظيم الاجتماعي، فبأية طريقة يمكن لنفوذهم الاجتماعي المقرر بذلك الدور ان يتناقض مع مفهوم طبيعة التنظيم الاجتماعي الخاضعة للقوانين ؟ انه ابعد ما يكون عن التناقض مع هذا المفهوم بل هو يخدم من حيث هو احد الامثلة الابرز على مثل ذلك النفوذ

لكن لا بد هنا من تقديم هذه الملحوظة ان امكانية ممارسة الافراد لاي تأثير اجتماعي هذه الامكانية المرهونة بالتنظيم الاجتماعي تفتح الباب أمام تأثير ما يسمى أثر الصدفة في المصائر التاريخية للامم لقد كانت شهوانية لويس الخامس عشر نتيجة ضرورية لبنيته الجسدية ، بيد ان بنيته كانت مصادفة خالصة بالنسبة الى السياق العام لتطور فرنسا ومع ذلك لم تكن ، كما قلنا ، مجردة عن التأثير في مصير فرنسا اللاحق وكانت من بين الاسباب التي قررت هذا المصير ومن المؤكد ان موت ميرابو كان نتيجة لعمليات إمراضية خاضعة كليا لبعض القوانين ، ولكن ضرورة تلك العمليات لم تنجم على أي حال عن السياق العام لتطور فرنسا بل عن خصائص معينة لبنية الخطيب الشهير وعن الشروط الفيزيائية التي اصيب بمرضه فيها . ولقد كانت تلك الخصائص وهذه الشروط مصادفة خالصة بالنسبة

الى السياق العام لتطور فرنسا ، ومع ذلك كان لموت ميرابو أثره في السياق اللاحق للثورة وكان احد الاسباب المقررة له

وفعل الاسباب الطارئة لابعث على الدهشة في المثال المذكور اعلاه والخاص بفريديريك الثاني الذي لم ينجح في التملص من وضع بالغ الصعوبة الا بفضل تردد بورتولين وحتى بالنسبة الى السياق العام لتطور روسيا ربما كان تعيين بورتولين محض صدفة بالمعنى الذي حددناه لهذه العبارة ، وهو بالطبع لا يملك ادنى علاقة بالسياق العام لتطور بروسيا ومع ذلك فليس بعيدا عن الاحتمال ان يكون تردد بورتولين هو الذي انقذ فريديريك من وضع ميئوس منه ولو كان سوفوروف مكان بورتولين فلعل تاريخ بروسيا كان يتخذ مجرى آخر ويترتب على ذلك بالتالي ان مصائر الامم ترتهن احيانا بالمصادفات التي يمكن ان تسمي المصادفات من الدرجة الثانية .

يقول هيغل « In allen ist ein Element des Zufälligen ( ان في كل شيء محدود عنصرا من المصادفة ) ونحن لا نعالج في العلم الا الاشياء « المحدودة »، وبالتالي فان في مقدورنا القول أن جميع العمليات التي يدرسها العلم تنطوي على عنصر من المصادفة الا يحول هذا دون معرفة الظواهر العلمية ؟ كلا ، انه لا يحول دونها فالمصادفة شيء نسبي ، وهي لا تظهر الا في نقطة تقاطع العمليات الضرورية. فبالنسبة الى سكان مكسيكو وبيرو كان ظهور الاوروبيين في أميركا محض صدفة بمعنى انه لم ينشأ عن التطور الاجتماعي لتلك البلدان ومهما يكن من امر فان هوى الرحلات البحرية الذي استولى على الاوروبيين الغربيين في أواخر العصور الوسيطة لم يكن مصادفة ، كما ان تغلب القوات الاوروبية بسهولة على مقاومة ابناء البلاد لم يكن مصادفة هو الآخر كذلك لم تكن عواقب الفتح الاوروبي لمكسيكو وبيرو مصادفة ، فقد كانت هذه العواقب مرهونة ، في آخر تحليل ، بحصيلة قوتين: الاوضاع الاقتصادية في البلدان المفتوحة من جهة واحدة ، والاوضاع الاقتصادية للفاتحين من جهة ثانية وان هذه القوى ، مثلها كمثل حصيلتها ، يمكن تماما ان تخدم كمواضيع للبحث العلمي الدقيق

ولقد كان لمصادفات حرب السبع سنوات تأثير هائل في تاريخ بروسيا اللاحق، ومع ذلك كان تأثيرها يختلف كليا لو انها ظهرت في مرحلة اخرى من تطور بروسيا هنا ايضا كانت عواقب المصادفات مرهونة بحصيلة قوتين الشروط الاجتماعية السياسية في بروسيا من جهة واحدة والشروط الاجتماعية السياسية في البلدان الاوروبية المؤثرة فيها من جهة ثانية وبالتالي فان الصدفة ، هنا ايضا لا تعوق مطلقا الاستقصاء العلمي للظواهر

ونحن نعرف ان الافراد يمارسون تأثيرا هائلا في مصير المجتمع ؛ وعلى اي حال ، فان هذا التأثير رهن ببنية هذا المجتمع الداخلية وبعلاقته بالمجتمعات

الاخرى بيد ان هذا لا يشكل كل ما يجب ان يقال عن دور الفرد في التاريخ بد لنا ان نتطرق بعد الى المسألة من زاوية أخرى

لقد حسب سانت بوف ان حصيلة الثورة الفرنسية مع توفر عدد كاف من الاسباب الصغرى والمبهمة من ذلك النوع الذي اتى على ذكره كان يمكن ان تكون النقيض تماما مما نعرفه. هذا خطأ فادح. فبالغا ما بلغ تشابك الاسباب السيكولوجية الفيزيولوجية الصغرى ما كان في مقدورها في حال من الاحوال ان تقضي على الحاجات الاجتماعية العظمى التي ادت الى الثورة الفرنسية فما بقيت تلك الحاجات دون تلبيتها ما كان يمكن للحركة الثورية في فرنسا ان تتوقف وكيما تكون حصيلة تلك الحركة النقيض مما كانت عليه فعليا كان لا بد من الاستعاضة عن الحاجات التي ادت اليها بحاجات اخرى تكون مناقضة لها ومما لا ريب فيه ان هذا ما كان يمكن لاي تركيب للاسباب الصغرى ان يحققه في حال من الاحوال

ان اسباب الثورة الفرنسية تكمن في طبيعة **العلاقات الاجتماعية** ، فيما الاسباب الصغرى التي يفترض سانت بوف وجودها ما كان يمكن ان تنطوي الا في **الصفات الشخصية** للافراد ان السبب الحاسم للعلاقات الاجتماعية يقوم في حالة القوى المنتجة ولعل هذه الحالة لا تتمفصل حول صفات الافراد الشخصية الا بمعنى امتلاك هؤلاء الافراد قدرا اكبر او اقل من الموهبة من اجل القيام بالتحسينات التقنية والاكتشافات والاختراعات ولم يكن سانت بوف يقصد هذه الصفات ومهما يكن من شيء فليس ثمة صفات أخرى تمكن الافراد من التأثير المباشر في حالة القوى المنتجة وبالتالي العلاقات الاجتماعية المرهونة بها ، يعني **العلاقات الاقتصادية** وكائنة ما كانت صفات أي فرد خاص ، فهو لا يستطيع القضاء على العلاقات الاقتصادية المعطاة اذا كانت هذه العلاقات تقابل حالة محددة للقوى المنتجة بيد ان صفات الافراد الشخصية تجعلهم اكثر او اقل قدرة على تلبية الحاجات الاجتماعية المنبثقة من علاقات اقتصادية محددة او على منع تلبيتها لقد كانت الاستعاضة عن المؤسسات السياسية البالية في فرنسا بمؤسسات جديدة اكثر اتفاقا مع بنيتها الاقتصادية الجديدة الحاجة الاجتماعية الاشد الحاحا في هذا البلد في اواخر القرن الثامن عشر وكانت الوجوه العامة الاقدر من غيرها على تقديم العون في تلبية هذه الحاجة الملحة هي الوجوه العامة الاعظم فائدة في ذلك الحين ولنفترض ان ميرابو وروبسبير وبونابرت كانوا رجالا من ذلك النمط ما عساه كان يحدث لولا ان الموت المبكر ازاح ميرابو عن المسرح السياسي ؟ كان الملكيون الدستوريون يحتفظون بسلطتهم الكبيرة لفترة اطول من الزمن وبالتالي كانت مقاومتهم للجمهورية تشتد قوة وهذا هو كل شيء فلم يكن في مقدور اي ميرابو ان يمنع انتصار الجمهوريين في ذلك الحين لقد كانت سلطة ميرابو تقوم كليا على تعاطف الشعب معه وثقته به ، لكن الشعب كان يريد جمهورية نظرا لان البلاط كان يثير

حنقه بدفاعه العنيد عن النظام القديم ولقد كان الشعب يكف عن التعاطف مع حالما يتحقق من عدم تعاطفه مع طموحاته الجمهورية وعندئذ كان الخطيب يفقد كل نفوذ له على وجه التقريب ولعله يسقط اذن فريسة لتلك الحركة بالذات التي حاول عبثا ان يكبحها ويمكن ان نقال السيء نفسه تقريبا عن روبسبيير لنفترض انه كان قوة لا غنى عنها مطلقا في فريقه ؛ لكنه لم يكن على أي حال القوة الوحيدة فيه ولو ان السقوط الطارىء لآجرة قتله ، ولنقل في كانون الثاني ١٧٩٣(١٣٨) فمن المؤكد ان شخصا آخر كان يتخذ مكانه وبالرغم من أن هذا الشخص يمكن ان يكون دونه من مختلف وجهات النظر فقد كانت الاحداث تتخذ مع ذلك **نفس المجرى** الذي اتخذته حين كان بروسبيير حيا وهكذا على سبيل المثال ما كان الجيروندبون(١٣٩) حتى في مثل هذه الظروف يتحاشون الهزيمة على الارجح ومهما يكن من شيء فكان يمكن اذن ان يفقد فريق روبسبيير سلطانه بصورة أبكر حتى درجة ما بحيث نتحدث الاونة لا عن حركة الردة ترميدور بل عن حركة الردة في فلوريال مثلا او بريريال أو ميسيدور(١٤٠) ورب قائل ان روبسبيير بارهابه الوحشي لم يؤخر سقوط فريقه بل استعجله. ولن نعطي هذا الافتراض أي اعتبار هنا بل سوف نقبله كما لو كان معقولا تماما لا بد لنا في مثل هذه الحال ان نفترض ان فريق روبسبيير كان يسقط ليس في ترميدور بل في فروكتيدور او فاندميير او بروميير وباختصار فقد كان يمكن ان يسقط في وقت ابكر او ربما في وقت ابعد لكنه كان لا بدّ أن يسقط بكل تأكيد لان ذلك القسم من الشعب الذي كان يدعم روبسبيير لم يكن مهيئا لحكم مديد ومهما يكن من أمر فان نتائج مناقضة لتلك النتائج التي نشأت عن العمل الشديد الذي قام روبسبيير به ليست موضع بحث مطلقا

كذلك ما كان يمكن لهذه النتائج ان تقوم حتى لو قضى بونابرت برصاصة في معركة أركول(١٤١) مثلا ان ما فعله في الحملة الايطالية وغيرها من الحملات كان يمكن ان يفعله جنرالات آخرون ومن الارجح انهم ما كانوا يبدون مثل هذه الموهبة التي ابداها وما كانوا يكسبون مثل انتصاراته الباهرة ؛ وعلى أي حال فقد كانت الجمهورية الفرنسية تخرج ظافرة من الحروب التي كانت تخوضها لان جنودها كانوا افضل الجنود في أوروبا واما الثامن عشر من بروميير(١٤٢) وتأثيره في حياة فرنسا الداخلية فان سياق الحوادث العام ونتيجتها كان لا بد هنا ايضا على الارجح ان يكونا بصورة جوهرية ما كانا عليه في ظل نابليون فقد كانت الجمهورية التي اصيبت اصابة قاتلة في احداث التاسع من ترميدور تموت موتا بطيئا وكانت الادارة (١٤٣) عاجزة عن استعادة النظام ، وهو امر كانت البورجوازية، التي طرحت عنها حكم الطبقات العليا راغبة فيه بصورة فائقة وكان لا بد في سبيل استعادة النظام من « **سيف قوي** » حسب تعبير سييس وكان الاعتقاد

أولا بأن الجنرال جوبير يستطيع القيام بدور ذلك السيف التصحيحي لكن حين سقط في نوفي برزت اسماء مورو ومكدونالد وبرنادوت* ولم يرد ذكر بونابرت الا في وقت لاحق ؛ ولو انه قتل مثلما قتل جوبير لما ورد ذكره مطلقا ولتقدم سيف آخر مكانه ومن المفروغ منه ان الرجل الذي رفع الى مركز الدكتاتور بمجرى الاحداث كان يجب ان يملك هو نفسه طموحا لا يكل الى السلطة وان ينحي جانبا بعنف ويسحق دون هوادة جميع الذين يقفون في طريقه وكان بونابرت رجلا لا تقهر قوته ، رجلا لا يعرف الرحمة في ملاحقة هدفه لكنه كان في ذلك الحين عدد كبير سواه من الرجال الاقوياء والموهوبين والطموحين ، والارجح ان المكان الذي نجح بونابرت في كسبه ما كان ليظل شاغرا لنفترض ان جنرالا آخر فاز بذلك المكان هو اكثر مسالمة من نابليون ، وانه ما كان يثير اوروبا بأسرها ضده ، وبالتالي كان يموت في التويلري وليس في جزيرة القديسة هيلانة وفي هذه الحال ما كان آل بوربون يرجعون الى فرنسا مطلقا ، وكانت تلك النتيجة بالنسبة اليهم تشكل «النقيض» مما حدث فعليا وعلى أي حال ، فان هذه النتيجة ، في علاقتها بحياة فرنسا الباطنة ككل ، ما كانت تختلف الا اختلافا زهيدا عن النتيجة الفعلية فقد كان لا بد للسيف الماضي ، بعد استعادة النظام وتوطيد سلطة البورجوازية من ان يثقل على هذه البورجوازية باستبداده وبعاداته الخاصة بحياة الثكنات وكانت حركة ليبرالية ستنشأ اذن مماثلة لتلك الحركة التي ظهرت في مرحلة عودة الملكية فيلتهب الصراع اذن بصورة تدريجية ؛ ونظرا لان «السيوف الماضية لا تتسم بلين العريكة ، فلعل لويس فيليب الفاضل كان يرتقي عرش قريبه العزيز المحبوب ليس عام ١٨٣٠ بل عام ١٨٢٠ أو عام ١٨٢٥ ولعله يكون اذن لجميع هذه التبدلات في مجرى الاحداث بعض الاثر في الحياة السياسية ــ وبالتالي الاقتصادية ــ اللاحقة في أوروبا ، ومع ذلك فانه ما كان يمكن للحصيلة الاخيرة للحركة الثورية ان تكون «النقيض» مما كانت عليه ان الشخصيات صاحبة النفوذ تستطيع من جراء الصفات الخاصة التي تتحلى بها اذهانها وطبائعها ان تؤثر في الصفات الفردية للاحداث وفي بعض عواقبها الخصوصية ، لكنها لاتستطيع ان تغير اتجاهها الشامل الذي تقرره قوى أخرى

## ٧

وفيما عدا ذلك ، فلا بد من ملاحظة الامر التالي حين نناقش الدور الذي يلعبه الرجال العظام في التاريخ نسقط بصورة دائمة على وجه التقريب فريسة نوع من الوهم البصري من المفيد ان نستلفت انتباه القارىء اليه

* الحياة في فرنسا في ظل الامبراطورية الاولى ، بقلم الفيكونت دي بروك ، باريس ١٨٩٥ ، ص ٣٥ ــ ٣٦ ومابيهما .

حين ظهر نابليون في دور « السيف الماضي لانقاذ النظام العام استبعد بذلك من هذا الدور جميع الجنرالات الاخرين الذين كان في مكنة بعضهم ان يلعبوا ذلك الدور بمثل الطريقة التي لعبه بها او بمثل هذه الطريقة على وجه التقريب فاما تمت تلبية الحاجة الاجتماعية الى حاكم عسكري قوي سد التنظيم الاجتماعي الطريق الى هذا المنصب في وجه جميع الجنود الموهوبين فسلطة هذا المنصب اصبحت الآن عقبة في سبيل ظهور مواهب أخرى من هذا النمط وهذا هو السبب في الوهم البصري الذي اتينا على ذكره فنحن نرى سلطة نابليون الشخصية في شكل مبالغ فيه حتى درجة كبيرة ، ذلك اننا ننسب اليه كل **القوة الاجتماعية** التي حملته الى المقدمة ودعمته فسلطة نابليون تبدو لنا شيئا استثنائيا جدا لان قوى اخرى مماثلة لها لا تنتقل من **حيز الامكان** الى **حيز الفعل** وحين نسأل عما كان يمكن ان يحدث لو لم يكن نابليون تضطرب مخيلتنا ويتراءى لنا ان الحركة الاجتماعية التي يقوم عليها سلطانه ونفوذه ما كان يمكن لولاه ان تحدث مطلقا

ومن الاندر من ذلك حتى درجة بعيدة في تطور الانسانية الذهني ان يمسح نجاح فرد بالذات نجاح فرد آخر ، لكننا لسنا مأمونين حتى في هذا المجال من الوهم البصري المذكور اعلاه فحين تطرح اوضاع معينة للمجتمع بعض القضايا على اولئك الذين يعبرون عن فكره تجتذب مثل هذه القضايا انتباه العقول البارزة حتى تحلها ، فاذا ما فعلت ذلك انتقل انتباهها الى موضوع آخر ان الموهوب آ ، بعد ان يحل القضية **س** ، يحول انتباه الموهوب **ب** عن هذه القضية التي تم حلها الى قضية اخرى **ع** وحين نسأل ما عساه كان يحدث لو ان آ قضى نحبه قبل حل القضية س يخيل الينا ان سمط التطور الذهني للمجتمع انفرط عقده ، وننسى انه كان في مقدور **ب** و **ج** و **د** ، في حالة وفاة آ ، ان يعالجوا تلك القضية بحيث يظل سمط التطور الذهني للمجتمع سليما بالرغم من وفاة آ الباكرة

ولا بد من تحقق شرطين كيما يكسب رجل ذو موهبة خصوصية نفوذا كبيرا على مجرى الاحداث اولا ، يجب ان تجعله هذه الموهبة افضل ملاءمة من اي امرىء آخر للحاجات الاجتماعية لعصر معين فلو كان نابليون يملك موهبة بتهوفن الموسيقية بدلا من عبقريته العسكرية الخاصة لما اصبح بالطبع امبراطورا ثانيا ، يجب الا يسد النظام الاجتماعي القائم الطريق امام شخص يملك الموهبة الضرورية والنافعة في ذلك الزمن المعين ان **نابليون** هذا بالذات كان سيموت بوصفه الجنرال او الكولونيل **بونابرت** المغمور لو استمر النظام القديم في فرنسا لفترة خمس وسبعين سنة اخرى* وفي عام ١٧٨٩ كان دافو وديزيكس ومارمون ومكدونالد **ملازمين**

---

* من الارجح ان نابليون كان سيقصد روسيا حيث كان في نيته الذهاب قبل الثورة بسنوات عديدة ومما لا ريب فيه انه كان يبرز هنا في الحرب ضد الاتراك او السكان الجبليين في القفقاس لكن احدا ما كان يخطر في باله هنا ان هذا الضابط المفلس ، وان يكن كفؤا يمكن ان يصبح في ظل ظروف مواتية حاكم العالم

**ثانين** وبرنادوت **رقيبا** وهوش ومارسو ولوفيفر وبيشاغرو ونيي وماسينا ومورا وسولت **ضباط صف** واوجيرو **مدربا على المبارزة** ولانس **دباغا** وغوفيون — سان سير **ممثلا** ، وجوردان **بائعا متجولا** ، وبيسيير **حلاقا** ، وبرون مؤلفا **موسيقيا** ، وجوبير وجونو **تلميذين في الحقوق** وكليبر **مهندسا معماريا** ، فيما لم يؤد مورتيه اية خدمة عسكرية حتى الثورة*

ولو ان النظام القديم استمر حتى ايامنا الراهنة لما خطر في بال اي امرىء منا ان بعض الفرنسيين من الممثلين والمؤلفين الموسيقيين والحلاقين والدباغين والمحامين والباعة الجوالين والمدربين على المبارزة كانوا في اواخر القرن مواهب عسكرية كامنة**

لقد اشار ستندال الى أن رجلا ولد في نفس الوقت الذي ولد تيسيان فيه يعني عام ١٤٧٧ كان يعاصر لاربعين سنة رفائيل الذي مات عام ١٥٢٠ وليوناردو دي فنشي الذي مات عام ١٥١٩ وانه كان نقضي سنين طوالا مع كوريجيو الذي مات عام ١٥٣٤ ومع ميكل انجلو الذي عاش حتى عام ١٥٦٣ وانه ما كان يتجاوز الرابعة والثلاثين من العمر سنة وفاة جيورجيوني وانه كان يتعرف الى تنتوريتو وباسانو وفيرونيز وجوليان رومانو واندريا ديل سارتو وباختصار انه كان يعاصر جميع الرسامين العظام باستثناء اولئك الذين ينتسبون الى مدرسة بولونيا التي قامت بعد ذلك بقرن كامل*** وكذلك يمكن القول ان رجلا ولد سنة ولادة فوفرمان كان يتعرف شخصيا الى قرابة جميع الرسامين الهولنديين الكبار**** ،

---

* راجع **تاريخ فرنسا** ، تأليف فكتور دوروي باريس ١٨٩٣ المجلد الثاني ٥٢٤ — ٥٢٥

** ابان حكم لويس الخامس عشر لم يستطع الا ممثل واحد للطبقة الثالثة هو سيفيرت ان يرتفع الى مرتبة لواء وفي حكم لويس السادس عشر كان النجاح في السلك العسكري اصعب من ذلك بالنسبة الى افراد الطبقة الثالثة انظر رامبو **تاريخ الحضارة الفرنسية** ، الطبعة السادسة المجلد الثاني ص ٢٢٦

*** **تاريخ الرسم في ايطاليا** ، باريس ١٨٩٢ ، ص ٢٤ — ٢٥

**** ولد تيربورخ وبراوفر ورامبرانت عام ١٦٠٨ وادريان وفان اوستادوبوث وفيردينان بول عام وفان دير هيلست وجيرار دوف عام ١٦١٣ وميتسو عام ١٦١٥ وفوفرمان عام ١٦٢٠ ، وفينيكس وافردنجين وبيجناكر عام ١٦٢١ وبيرجيم عام ١٦٢٤ وبول بوتر عام ١٦٢٩ وجان ستين عام ١٦٢٦ وروويسدال عام ١٦٣٠ وفان دير هيدين عام ١٦٢٧ وهوبيما عام ١٦٣٨ وادريان فان دير فيلد عام ١٦٣٩.

وان رجلا يناهز شكسبير في العمر كان يعاصر عددا من كتاب المسرحية المرموقين*

لقد لوحظ منذ زمن بعيد ان المواهب الكبيرة تظهر دائما في كل مكان كلما وحيثما توفرت الشروط الاجتماعية الملائمة لتطورها وهذا يعني ان كل موهبة **تتظاهر فعليا** يعني كل موهبة تصبح **قوة اجتماعية انما هي نتاج العلاقات الاجتماعية .** لكن اذا كان الامر كذلك فان في وسع المرء ان نفهم السبب في ان الناس الموهوبين لا يستطيعون كما ذكرنا ان يغيروا سوى السمات الفردية للاحداث من دون اتجاهها الشامل ؛ **وهم انفسهم لا يوجدون الا بفضل هذا الاتجاه ، ولولاه لم يتجاوزوا قط** ..ة الفاصلة بين حيز الامكان وحيز الفعل

ومن المفروغ منه ان المواهب تختلف درجة ويقول تين بصواب تام

« حين تجلب حضارة جديدة فنا جديدا يكون ثمة عشرة رجال موهوبين يعبرون عن فكرة اجتماعية بصورة ناقصة حول رجل عبقري واحد او رجلين عبقريين يعبران عنها بصورة ..منة**

ولو ان اسبابا آلية او فيزيولوجية لا علاقة لها البتة بالاتجاه الشامل للتطور الاجتماعي السياسي والفكري في ايطاليا ادت الى وفاة رفائيل وميكل انجلو وليوناردو دوي فنسي في طفولتهم لانتقص ذلك من كمال الفن الايطالي لكن الاتجاه الشامل لتطوره ابان النهضة ما كان يتغير فرفائيل وميكل انجلو وليوناردو دي فنشي لم يخلقوا ذلك الاتجاه بل كانوا اروع ممثليه فقط وصحيح ان مدرسة كاملة تنشأ عادة حول رجل عبقري فيسعى تلامذته لان يتعلموا طرقه حتى أدق تفاصيلها وهو السبب في ان الهوة التي سيخلفها في فن النهضة الايطالية موت رفائيل وميكل انجلو وليوناردو دي فنشي بصورة مبكرة كانت ستترك تأثيرا قويا في صفات ثانوية عديدة لتاريخه اللاحق لكن هذا التاريخ ما كان يتغير في جوهره بشرط الا يطرأ تغير هام على المجرى العام لتطور ايطاليا الفكري من جراء بعض الاسباب الجامعة

ومهما يكن من شيء فانه من المعروف ان الفوارق الكمية تتغير آخر الامر الى فوارق نوعية وهذا صحيح في كل مكان وبالتالي فهو صحيح في التاريخ ايضا ان اتجاها خصوصيا في الفن قد يبقى دون أي تعبير بارز عنه اذا ما اودى

* « كان شكسبير وبومون وفليتشر وجونسون وويبستر وميسنجر وفورد وميدلتون وهيوود، هؤلاء الذين ظهروا في الوقت نفسه او تعاقبوا جيلا جديدا ومحظوظا ازدهر كثيرا على تربة سمدت جهود الجيل السابق **تاريخ الادب الانكليزي** باريس ١٨٦٣ المجلد الاول ، ص ٤٦٨ ».

** هـ . تين **تاريخ الادب الانكليزي** باريس ١٨٦٣ المجلد الثاني ص ٥ .

تضافر بعض الظروف المناوئة ، على التعاقب بحياة عدد من الموهوبين الذين كان يمكن أن يصبحوا ممثلين له بيد ان الموت المبكر لمثل هؤلاء الناس لا يمكن ان يمنع التعبير الفني عن ذلك الاتجاه الا اذا كان بالغ العمق بحيث لا ينتج مواهب جديدة ونظرا لان عمق أي اتجاه في الادب والفن رهن بأهميته بالنسبة الى الطبقة او الشريحة الاجتماعية التي يعبر عن اذواقها وبالدور الاجتماعي الذي تلعبه هذه الطبقة او الشريحة فان جميع الاشياء تتوقف آخر الامر ، في هذا المجال ايضا على سياق التطور الاجتماعي وعلى ترتيب القوى الاجتماعية

## ٨

وهكذا فان صفات القادة الشخصية تقرر الصفات الفردية للاحداث التاريخية ، كما ان عنصر المصادفة بالمعنى الذي اشرنا اليه يملك على الدوام دورا ما يلعبه في سياق تلك الاحداث التي يرتهن اتجاهها بالدرجة الاولى بما يسمى الاسباب الجامعة يعني في حقيقة الامر بتطور القوى المنتجة وبالعلاقات المتبادلة اللاحقة بين البشر في العملية الاجتماعية الاقتصادية للانتاج وان الظواهر الطارئة والسمات الشخصية في المشاهير من الناس هي ألفت للانتباه من الاسباب العامة الكامنة عميقا ولم يمنح القرن الثامن عشر مثل هذه الاسباب الا القليل من التفكير ناسبا مجرى التاريخ الى الاعمال الشعورية للشخصيات التاريخية و اهوائها ولقد اكد الفلاسفة في القرن نفسه ان التاريخ كان يمكن ان يتخذ سياقا مغايرا تماما بنتيجة اتفه الاسباب ، ومثال ذلك فيما لو جعلت « ذرة » ماتمرح في حاكم ما ( وهي فكرة ما اكثر ما وردت في **نظام الطبيعة** ) .

ولقد حاول المدافعون عن التيار الجديد في العلم التاريخي ان يثبتوا ان التاريخ ما كان يمكن أن يسلك أي مجرى آخر سوى المجرى الذي سلكه ، وذلك بالرغم من جميع الذرات كما لم يعيروا ، وهم يشددون اكثر فاكثر على فعل الاسباب العامة أي انتباه للصفات الشخصية التي تتحلى بها الشخصيات التاريخية وحسب تصورهم للموضوع ، فان الاحداث التاريخية ما كان يمكن ان تتأثر مثقال ذرة من جراء الاستعاضة عن بعض الاشخاص باشخاص آخرين من اصحاب الاهليات الاعظم او الاقل* لكننا اذا قمنا بهذا الافتراض فلا بد لنا بالضرورة من

* ومثال ذلك انهم جادلوا بالطريقة التالية في مناقشتهم الطبيعة الخاضعة للقوانين للاحداث التاريخية وعلى أي حال فحين يصف بعضهم بكل بساطة مثل هذه الظواهر ينسبون احيانا أهمية مبالغا فيها الى العنصر الشخصي ومهما يكن من شيء ، فان ما يهمنا هنا ليس هو الوصف ، بل الحجج التي يقدمونها .

الاقرار بأن **العنصر البشري لا أهمية له على الاطلاق في التاريخ** وان الاشياء جميعا في هذا التاريخ يمكن ارجاعها الى فعل الاسباب العامة ، الى القوانين العامة لحركة التاريخ ولقد كان ذلك تطرفا لم يترك مجالا البتة لتلك الذرة من الحقيقة المحتواة في الرأي المناقض وكان ذلك هو السبب بالضبط في استمرار الرأي المناقض في الاحتفاظ ببعض الحق في الوجود ولقد اتخذ التصادم بين هذين الرأيين شكل تناقض كانت القوانين العامة المبدأ الاول فيه ونشاطات الافراد المبدأ الثاني ومن وجهة نظر المبدأ الثاني في التناقض لم يكن التاريخ سوى سلسلة من المصادفات ، أما من وجهة نظر المبدأ الاول فكان يبدو ان الصفات الفردية للاحداث التاريخية رهن هي نفسها بفعل الاسباب العامة لكنه اذا كانت الصفات الفردية للاحداث رهن بأثر الاسباب العامة ولا تتوقف على الصفات الفردية للشخصيات التاريخية فانه يترتب على ذلك ان مثل هذه الصفات **مرهونة بالاسباب العامة** ولا يمكن تبدلها مهما تعرضت مثل هذه الشخصيات للتغيير وهكذا تتخذ النظرية طبيعة**جبرية** .

ولم يغب هذا عن انتباه خصومها فقد قارن سانت بوف آراء مينيه التاريخية بآراء بوسويه الذي كان يعتقد ان القوة التي يؤدي فعلها الى قيام الاحداث التاريخية مصدرها من فوق وان هذه الاحداث تعبير عن الارادة الالهية أما مينيه فقد بحث عن تلك القوة في الاهواء البشرية التي تتجلى في الاحداث التاريخية بمثل حتمية قوى الطبيعة وصرامتها ومهما يكن من شيء ، فقد كان كلاهما ينظران الى التاريخ من حيث هو سلسلة من الظواهر التي ما كان يمكن في حال من الاحوال ان تكون خلافا لذلك لقد كان كلاهما جبريين وفي هذا المجال لم يكن الفيلسوف بمنأى عن الكاهن ( le philosophe se rapproche du prêtre )

وكان هذا اللوم محقا ما دامت عقيدة طبيعة الظواهر الاجتماعية الخاضعة للقانون تلغي التأثير الذي تمارسه الصفات الشخصية للوجوه التاريخية البارزة وكان الانطباع الذي يتركه هذا اللوم يشتد لان مؤرخي المدرسة الجديدة ، مثلهم في ذلك كمثل المؤرخين والفلاسفة في القرن الثامن عشر كانوا يرون في **الطبيعة البشرية** المرجع الاعلى الذي تصدر عنه جميع **الاسباب العامة** للحركة التاريخية وتخضع له وبما ان الثورة الفرنسية بينت أن الاحداث التاريخية غير مرهونة باعمال البشر **الشعورية** وحدها ، فان مينيه وغيزو والمؤرخين الآخرين من الاتجاه نفسه دفعوا بفعل **الاهواء** الى المقدمة ، هذه الاهواء التي غالبا ما تطرح جميع **قيود الذهن** لكنه اذا كانت الاهواء السبب الاولي والاشمل للاحداث التاريخية ، فلماذا يخطىء سانت بوف اذن حين يؤكد ان نتيجة الثورة الفرنسية كان يمكن ان تكون العكس مما نعرفه حاليا لو توفر لها الافراد القادرون على ان يبثوا في الشعب الفرنسي اهواء معاكسة لتلك الاهواء التي كانت تحركه ؟ ولعل مينيه كان يقول

اذن ان السبب في ذلك هو ان اهواء اخرى ما كان يمكن ان تثير الشعب الفرنسي في ذلك الحين من جراء خصائص الطبيعة البشرية بالذات وكان يمكن ان نكون ذلك صحيحا بمعنى ما الا ان هذه الحقيقة كانت تصطبغ اذن بصبغة جبرية قوية لانها ستكون مكافئة للموضوعة القائلة ان تاريخ الانسانية مقرر بصورة مسبقة في جميع تفاصيله بالخصائص **العامة** للطبيعة البشرية وعندئذ كانت الجبرية تظهر هنا على اعتبارها نتيجة لتلاشي **الخاص في العام** وعلى اي حال فهي في الحقيقة نتيجة لهذا التلاشي ولقد قيل اذا كانت جميع الظواهر الاجتماعية ضرورية فلن يكون اذن لنشاطاتنا اية اهمية وهـذه صياغة خاطئة لفكرة صحيحة وهذا ما كان يجب ان يقال اذا كانت جميع الاشياء تحدث من حيث هي نتيجة **العام** ، فان **الخاص** اذن ، بما فيه جهودي الخاصة ، لا اهمية له ومثل هذا الاستنتاج صحيح لكنه يستخدم بصورة غير صحيحة وهو لا معنى له حين يطبق على النظرة المادية الراهنة عن التاريخ حيث ثمة فسحة **للخاص** ايضا لكن له ما يبرره عند تطبيقه على آراء المؤرخين الفرنسيين في عصر عودة الملكية

ولا يمكن بعد الآن ان تعتبر الطبيعة البشرية السبب الاولي والاعم للتطور التاريخي فاذا هي كانت ثابتة عجزت عن تفسير المجرى المتغير جدا للتاريخ واذا هي كانت متغيرة فمن الواضح ان تغيراتها بالذات رهن بالتطور التاريخي ولا بد لنا في الوقت الحاضر ان ننظر الى تطور القوى المنتجة من حيث هي السبب الاولي والاعم لحركة الجنس البشري التاريخيـة وتطور القوى المنتجة هو الذي يقرر التبدلات المتتالية في علاقات البشر الاجتماعية وان اسبابا **خاصـة** تعمل بصورة موازية لهذا السبب **العام** ونقصد بها **الاوضاع التاريخية** التي يجري فيها تطور القوى المنتجة لشعب ما والتي يخلقها بدورها في آخر الامر تطور القوى نفسها عند الشعوب الاخرى يعني السبب الشامل نفسه

واخيرا فان تأثير الاسباب **الخاصـة** يضاعفه فعل الاسباب **الفردية** يعني السمات الشخصية للوجوه العامة وغير ذلك من المصادفات التي تتخذ الاحداث بفضلها آخر الامر **صفاتها الفردية** ان الاسباب **الفردية** لا تستطيع ان تحقق تبدلات جذرية في عمل الاسباب **العامة** و **الخاصة** التي تحدد ، فضلا عن ذلك ، اتجاه التأثير الذي تمارسه الاسباب الفردية والحدود التي يعمل هذا التأثير ضمنها ومع ذلك فليس ثمة ريب في ان التاريخ كان يتميز بملامح مختلفة لو ان الاسباب الفردية التي اثرت فيه افسحت مكانها لاسباب اخرى من المرتبة نفسها

ولا يبرح مونود ولامبريشت يعتنقان وجهـة نظر الطبيعة البشرية وما اكثر ما قرر لامبريشت بصورة جازمة ان العقلية الاجتماعية هي في رأيه السبب الاساسي للظواهر التاريخية هذا خطأ فادح ومن مغبة هذا الخطأ لا تستطيع الرغبة ــ المشكورة جدا بحد ذاتها ــ في تناول الحياة الاجتماعية بكاملها » ان تؤدي سوى

الى انتقائية لا تقل تفاهتها عن انتفاخها او عند الاحزم من الناس الى حجج على طريقة كابليتز بخصوص الاهمية النسبية للذهن والعاطفة

لكن لنعد الى موضوعنا ان الرجل العظيم لا يكون عظيما في صفاته الخاصة التي تضفي صبغة فردية على الاحداث التاريخية بل في امتلاكه سمات تجعله الاقدر على خدمة الحاجات الاجتماعية الكبيرة لعصره هذه الحاجات التي نشأت تحت ضغط الاسباب العامة والخاصة ان كارلايل في كتابه الشهير عن الابطال وعبادة البطل يسمي الرجال العظام **البادئين** وهو وصف ملائم جدا ان الرجل العظيم بادىء على وجه الدقة لانه يرى **ابعد** من سواه ولان رغباته **اقوى** من رغبات الآخرين انه يحل القضايا العلمية الناشئة عن المجرى السابق لتطور المجتمع الذهني ويدل على الحاجات الاجتماعية الجديدة الناجمة عن التطور السابق للعلاقات الاجتماعية ويتخذ المبادرة في تلبية هذه الحاجات انه بطل لا بمعنى قدرته على ايقاف مجرى الامور الطبيعي او تغييره بل بمعنى ان نشاطاته هي التعبير الشعوري والحر عن ذلك المجرى الضروري وغير الشعوري وههنا تقوم اهميته كلها وقوته كلها الا انها اهمية عظيمة وقوة مروعة

وما المقصود بمجرى الامور الطبيعي ؟

لقد اشار بسمارك الى اننا لا نستطيع ان نصنع التاريخ بل يجب ان ننتظر فيما هو يصنع لكن من الذي يصنع التاريخ ؟ ان من يصنعه هو **الانسان الاجتماعي** الذي هو **« عامله » الوحيد** ان الانسان الاجتماعي يخلق علاقاته الخاصة يعني الاجتماعية بيد انه اذا خلق علاقات معينة من دون سواها في مرحلة معينة ، فمن المؤكد اذن ان هذا لا يتم دون سبب ؛ ان حالة القوى المنتجة هي التي تقرره وليس في مقدور أي رجل عظيم ان يفرض على المجتمع علاقات لا تتطابق **بعد الآن** مع حالة تلك القوى او هي لا تتطابق **بعد معها** وفي الحقيقة انه لا يستطيع ان يصنع التاريخ بهذا المعنى ولسوف يسعى عبثا بهذا المعنى كي يغير مواقع عقربي ساعته انه لن يعجل في مرور الزمان او يعود به القهقرى ولامبريشت على حق تام هنا فحتى حين كان بسمارك في اوج قوته ، ما كان في مستطاعه ان يرجع المانيا الى اقتصاد طبيعي

ن للعلاقات الاجتماعية منطقها الخاص حين يحيا الناس في علاقات متبادلة محددة فسوف يشعرون ويفكرون ويسلكون بطريقة محددة من دون اية طريقة اخرى. وان المحاولات التي يبذلها اي وجه عام لمحاربة هذا المنطق سوف تكون ايضا لان مجرى الامور الطبيعي يعني نفس منطق العلاقات الاجتماعية سوف يلغي جميع جهوده لكن اذا كنت اعرف بأية طريقة تتغير العلاقات الاجتماعية من جراء التغيرات الطارئة على عملية الانتاج الاجتماعية الاقتصادية فاني اعرف تجاه الذي تتحرك نحوه العقلية الاجتماعية وبنتيجة ذلك يكون في مقدوري

التأثير فيها ان التأثير في العقلية الاجتماعية يعني التأثير في الاحداث التاريخية وبالتالي **فاني استطيع بعد ان اصنع التاريخ** بمعنى ما وليست بي حاجة ان انتظر حتى **« يُصنـع »** .

ويعتقد مونود ان الاحداث التاريخية الهامة حقا والافراد الهامين حقا هم هامون فقط من حيث هم علامات ورموز لتطور المؤسسات والشروط الاقتصادية وهذه فكرة صحيحة وان كان التعبير عنها غير ملائم البتة ؛ لكنه نظرا لانها فكرة صحيحة فليس ثمة اساس لمعارضته فعاليات الرجال العظام **« بالحركة الوئيدة »** للشروط والمؤسسات المذكورة ان تبدلا اكثر او اقل بطئا في « الشروط الاقتصادية» يجابه المجتمع بصورة دورية بضرورة تعديل مؤسساته بقدر اكبر او اقل من السرعة ولا يحدث هذا التعديل قط **« من ذاته »** ، **بل يتطلب باستمرار تدخل البشر** الذين يواجهون بذلك قضايا اجتماعية كبرى ويسمى عظاما اولئك الرجال الذين يفعلون اكثر من الباقين في سبيل تسهيل حل تلك القضايا بيد ان **حل قضية ما** لا يعني ان الانسان الذي حلها مجرد « رمز » او « علامة » لكونها حلّت .

وعلى أي حال ، فاننا نعتقد ان السبب الرئيسي لاقدام مونود على اجراء هذه المعارضة هو افتتانه بكلمة **« وئيدة »** حلوة الرنين وهي كلمة افتتن بها الكثيرون من انصار نظرية التطور الحاليين ويمكن **سيكولوجيا** فهم هذا النزوع انه ينشأ **بالضرورة** في الوسط المخلص لاولئك الذين يحبون الاعتدال ويحرصون على الشكليات لكنه **منطقيا** لا يصمد للنقد ، وهو ما اثبته هيغل

ولا ينفتح حقل النشاط العريض امام البادئين وحدهم او الرجال العظام دون غيرهم بل هو ينتظر جميع اولئك الذين لهم عيون للرؤية ، وآذان للسمع ، وقلوب لمحبة اخوتهم البشر ان مفهوم **العظمة** مفهوم نسبي وبالمعنى الاخلاقي ، فان كل انسان هو عظيم اذا هو ، حسب تعبير العهد الجديد ، « وهب حياته في سبيل اخوته » .

# فى الأزمة المزعومة فى الماركسية

أيها المواطنون يتحلى الاشتراكيون الحاليون بموهبة نادرة اذ يستثيرون من حين لآخر مشاعر الفرحة والامل بالضبط في تلك البورجوازية التي تعتبرهم ، بحق اعداءها الالداء ما اصل هذه الظاهرة الغريبة ؟ انها تنشأ عن الانقسامات الوهمية في المعسكر الاشتراكي ولقد انشرحت البورجوازية الالمانية بالطريقة عينها قبل حوالي سبع أو ثماني سنوات للخلافات بين ما يسمى الاشتراكيين الديموقراطيين الشباب والشيوخ(١٤٤) ، اذ شاهدت في اولئك نقيضا لهؤلاء ؛ لقد ترجت في أن تتمكن الديموقراطيون الاشتراكيون « الشباب » ، بمعونة من فوق ومن الشرطة من تجميد « الشيوح » منهم وبذلك يمكنون البورجوازية من تحقيق السيطرة على ميدان المعركة واسكات « الشباب » و « الشيوخ » على حد سواء .

وان البورجوازية لسعيدة اليوم بالمساجلة الناجمة عن عدة مقالات نشرهـا ادوارد برنشتاين في نيوزيت (١٤٥) والرفيق كونراد شميدت في فورفارتس (١٤٦) . ولقـد امدح المنظرون البورجوازيين هذين المؤلفين على اعتبارهما رجلين عاقلـين وشجاعين ادركا خطل النظرية الاشتراكية ولم يخافا من رفضها وهكـذا فان الاستاذ جوليوس وولف وهو محرض اشتراكي شهير قـد حاول ان يرفض نظرية كارل ماركس وذلك في سلسلـة من المقالات نشرت هـذا العام في مجـلة Zeitschrift Für Sozialwissenscaft تحت عنـوان اوهام وحقائق الاقتصاد السياسي مستخدما فيها حججا مستعارة من برنشتاين وكونراد شميدت ولقد تحدث الاستاذ مازاريك هو الآخر في خطاب في جامعة براغ عن أزمـة المدرسة الماركسية وقابل بعض الآراء الاخلاقية التي عبر عنها كونراد شميدت بما يعتبره لا اخلاقيا في كتابات فريدريك انجلز

هؤلاء السادة يرون حلفـاء جددا في برنشتاين وكونراد شميدت وهـم ممنون لهما من أجل هذا التحالف غير المنتظر وهذا أمر طبيعي تماما ومهما يكن من شيء فلا اعتقد ان فرحتهم بمقالات برنشتاين وشميدت سوف تعيش طويلا او يمكن ان تعيش طويلا ان الامر على النقيض من ذلك اذ اعتقد انها سوف قصيرة الامد كمثل الفرحة التي اثارها الخلاف بين الاشتراكيين الديموقراطيين

الشباب و الشيوح وكما كان طرد بعض السبان الذين كانوا غير انضباطيين وعاجزين عن التقيد بالانضباط العاقبة الهامة الوحيدة لذلك الخلاف ، كذلك سوف تنتهي المساجلة الناجمة عن مقالات برنشساين وكونراد شميدت على الاكثر بالتحاق هذين السيدين آخر الامر بصفوف الديموقراطيين البورجوازيين وسوف تكون تلك خسارة بالنسبة الى حزب العمال الالماني لكن النظرية الاشتراكية سوف تظل ما كانت عليه حصنا منيعا تنقض عليه جميع القوى المناوئة دون جدوى وبنتيجة ذلك فان الفرحة التي انتابت المنظرين البورجوازيين سابقة لاوانها جدا

وفي الحقيقة ما الذي قاله برنشتاين وشميدت فعليا ؟ هل قدما اية حجج جديدة حقا ضد نظرية كارل ماركس ؟ هذا ما سوف نراه

وكما قال فكتور ادلر بصورة ممتازة وهو الاشتراكي النمسوي الشهير فان اشتراكية ماركس ليست مجرد نظرية اقتصادية بل نظرية عالمية ؛ ان الحركة الثورية البروليتارية مجرد قطاع من الثورة في الفكر التي تدمغ قرننا انها تملك فلسفتها الخاصة ، كما تملك فهمها الخاص للتاريخ واقتصادها السياسي الخاص. ولقد هاجم برنشتاين وشميدت فيما يسميانه نقدهما الاشتراكية الحالية بأكملها وسوف نتبعهما في جميع الحجج التي قدماها وبالطبع سوف نبدأ **من البداية** ، يعني **بالفلسفة** .

ولا ريب انكم جميعا تعرفون ان مؤسس الاشتراكية الحديث كان نصيرا حازما **للمادية** كانت المادية اساس عقيدته بكاملها وان برنشتاين وشميدت يسككان في المادية ذلك انهما يريان فيها نظرية خاطئة ولقد دعا برنشتاين الاشتراكيين في مقالة نشرت مؤخرا في **نيو زيت**(١٤٧) الى العودة الى كانط bis zu einem gewissen Grad*. وعلى اي حال فهو يعتقد ان الاشتراكيين الحاليين تخلوا منذ الآن عن المادية **الخالصة أو المطلقة** ( وهذا تعبيره ) ومن سوء الحظ انه لا يفسر لنا ما المقصود من المادية الخالصة او المطلقة لكنه يورد كلمات مادي حالي يدعى ستريكر قال حسب برنشتاين بروح كانط تماما ما يلي Wir glauben an das atom ومعنى هذا نحن **نؤمن** بالذرة فحسب». وبالتالي يمكن ان يفترض ان الماديين **الخالصين والمطلقين** تحدثوا عن **الذرة** بقدر أقل من الاحتراس لقد زعموا انهم رأوها واحسوها وشموها وعلى أي حال ، فهذا افتراض لا يقوم على اي اساس، وبعض الاستشهادات المقتضبة سوف تقنعكم بذلك.

كان الماديون في القرن الثامن عشر من النوع « **الخالص** لنبدأ بلامتري هذا الابن الضال للفلسفة المادية ، هذا الرجل الذي اخافت جسارته حتى الاكثر جسارة بين الناس

---

* [ حتى نقطة ما ]

انــه يقول ( **الانسان ـ الآلة** )

« طبيعة الحركة مجهولة منا بالضبط كمثل طبيعة المادة

ويقول في كتابه **مبحث النفس**

« ان ماهية النفس في الانسان والحيوانات هي وسوف تظل دائما مجهولة بقــدر ماهية المادة والاجسام ويستطرد بالرغم من اننا لا نملك أية فكرة عن ماهية المادة ، فنحن لا نستطيع تنكر الاعتراف بالخصائص التي تكشفها حواسنا فيها

وهكذا يعترف لامتري بصراحة انه لا يعرف ماهية المادة وان كل ما يعرفــه بعض خصائصها المكتشفة من الحواس وان هذا ليضاهي ايمان لامتري بالذرة ليس غير ومع ذلك كان (( **خالصا** )) و (( **مطلقا** )) .

وننتقل الآن الى ممثل آخر للمادية الخالصة والمطلقة في القرن الثامن عشر يقول دولباخ في كتابه **نظام الطبيعة**

نحن نقر بأن ماهية المادة لا يمكن فهمها ، أو على الاقل اننا نفهمها بصورة ضئيلة فحسب بقدر ما تؤثر فينــا انــا لا نعرف المادة الا من الادراكات والاحساسات والافكار التي تمنحنا اياها ونحن لا نستطيع الحكم عليها الا انطلاقا من هذه الادراكات والاحساسات والافكار ، وذلك بصورة جيدة او سيئة ، وفقا لترتيب اعضائنا الخاص ويستطرد اننا لا نعرف شيئا عن ماهية المادة او طبيعتها الحقيقية ، بالرغم من قدرتنا على معرفة بعض خصائصها او صفاتهــا من خلال الاثار التي تتركها فينا

ويبدو هذا انه بروح كانط ايضا ، أليس كذلك ؟ الا انه كتب **قبــل** صدور **نقــد العقــل الخالص** .

لكن ماذا عن هيلفيتيوس الذي ما اكثر ما اعترف به على اعتباره الممثل الاكثر اطلاقا للمادية في القرن الثامن عشر ؟

اوه ، كان هذا الرجل على اعظم الحرص! فهو يقول فيكتابه **في الفكر** ، بخصوص المساجلات عن العلاقة بين النفس والجسد ، انه **لا يجوز اساءة استخدام الكلمات** ، وان جميع الاشياء الممكنة يجب ان تستخلص من المشاهدة وان المرء يجب الا يتقدم الا معها فيتوقف حالما تتخلى عنا وتكون لديه الشجاعة على عدم معرفة ما لا يمكن معرفته بعد

ولا بد ان اضيف ان ما يسمى في الفلسفة واقعيــة العالم الحسي لم يكــن سوى احتمال بالنسبة الى هيلفيتيوس

وبعد هذا كله ، فان عبارة ستريكر نحن نؤمن بالذرة فحسب التي اوردها برنشتاين على اعتبارها دلالة على التغيرات الكبيرة التي حدثت مؤخرا في النظريــة المادية تحدث انطباعا مضحكا في الواقع ويرى برنشتاين في هذه الكلمات اعترافا انتزع مؤخرا من الماديــة تحت تأثير فلسفــة كانط ، ويعتقد ان الماديين **الخالصين او المطلقين** لم ينطقوا قط بشيء من هــذا القبيــل ، بل لــم يرتابوا فيــه البتــة .

وانتم ترون أن هـذا خاطيء بصورة مطلقـة وحين يقول لنا برنشتاين لنعـد الى كانط bis zu einem gewissen grad ، نقول ردا عليه ايها الرفيق برنشتاين ، عد bis zu einem gewissen grad الى قاعـة صفك ، وقم بدراسة النظرية التي تريد ان تنقدها ، ومن بعد سوف نناقش الامر

لكن لعلكم تسألونني ما المقصود من مادية القرن الثامن عشر ؟ ما المقصود من ماديـة كارل ماركس ؟

ولسوف يجيب اعداء المادية عني

اذهبوا الى المكتبة الوطنية في جنيف ، وراجعوا المجلد ٨ من السيرة العمومية القديمة والحديثة ، وطالعوا المقالة عن لامتري لقد كتب لامتري الانسان الآلـة ، وهو كتاب خسيس تعرض فيه النظرية المادية الخبيثة دون ادنى قيد لكن أي نوع من النظرية الخبيثة هي ؟ اصغوا بانتباه

حين لاحظ ابان مرضه ان قواه الفكرية تأثرت في اعقاب ضعف اعضائه البدنيـة استخلص من ذلك النتيجة بأن الفكر ليس شيئا آخر سوى نتاج للتعضي الجسمي وقد وجد الجرأة على الاعلان عن حدوسه في هذا الشأن »

وهكذا فليس الفكر الا نتاجا للتعضي ذلك هو المعنى الحقيقي للنظرية التي نادى بها لامتري والماديون الآخرون قد يبدو هذا جريئا ، لكن هل هو خطأ ؟

لنر ما يقول في هذا الامر الاستاذ هكسلي ، وهو احد الممثلين الابرز والاشهر لعلم الحياة الراهن

من المؤكـد انـه ليس امرؤ عارف بحقائق الحالـة يرتاب اليـوم في أن جـذور السيكولوجيا تكمن في فيزيولوجيا الجهاز العصبي ان ما نسميه عمليات الذهن وظائف للدماغ ومواد الشعور منتجات للنشاط الدماغي ولعل كابانيس استخدم لغة فجـة ومضللة حين قال ان الدماغ يفرز الفكر كمثل افراز الكبد للصفراء ، بيد أن التصور الذي تجسده هذه العبارة التي اسيء استعمالها كثيرا هو على أي حال أكثر تماسكا مع الواقع من ذلك المفهوم الشعبي القائل ان الذهن كائن ميتافيزيائي مقره الرأس لكنه مستقل عن الدماغ كمثل استقلال البرق عن جهازه

ان لامتري سليل ديكارت ، وليس سليل ميتافيزيائه التي هي مثالية تماما بل سليل علم الفريزة عنده . وهذا ما يقوله هكسلي نفسه عن علم الفريزة الديكارتي:

في الحقيقة أن علم الفريزة عند ديكارت ، مثله كمثل علم الفريزة الحديث الذي يستبق ديكارت روحه ، يقود باستقامة الى المادية ، وذلك بقدر ما تنطبق هذه التسمية بصورة صائبـة على العقيدة القائلة اننا لا نملك اية معرفة عن أيـة مادة مفكرة ، باستثناء المادة المبسوطة ، وان الفكر وظيفة للمادة كالحركة سواء بسواء العلوم الطبيعيـة والغربيـة ، باريس ١٨٦١ ، المقالة عن حديث المنهج لديكارت ، ص ٢٥ – ٢٦ (*

---

* [ يستشهد بليخانوف بالترجمة الفرنسية لكتاب توماس هكسلي Method and Results ، دراسات ديكارت ، حديث المنهج » ]

وانه لصحيح [illegible]يهـا المواطنون ان الماديـة ، **كما صيغت في** القرن الثامن عشر وقبلت من قبل مؤسسي الاشتراكية العلمية ، **هي نظرية تعلمنا** اننا لا نملك اية معرفة عن اية مادة مفكرة باستثناء **المادة المبسوطة** ، وان الفكر وظيفـة للمادة كالحركة سواء بسواء » **لكن هذا انكار للثنائية الفلسفية** ، وهو يعود بنا بصورة مباشرة الى سبينوزا **العجوز** بمادته الوحيدة **التي ليس الامتداد** والفكر الا صفتين لها في الحقيقة ان المادية الحالية هي سبينوزية **اصبحت اكثر** او أقل وعيا لذاتها.

واقول « اكثر او اقل وعيا لذاتها » **لان بعض الماديين** كانوا على قدر ضئيل من الادراك لقرابتهم مع سبينوزا وكان **لامتري واحدا من هؤلاء** ؛ لكنه كان ثمـة ماديون ، حتى في حياتـه ، ادركوا على **خير وجه انهـم ينحدرون** من سبينوزا ، وديدرو مثال ذلك ، وهو القائل ما يلي في **مقالـة قصيرة** بعنوان **السبينوزية** في المجلد الخامس عشر من **الموسوعة (١٤٨)** .

هذا ما يقوله سبينوزا في النظرية الثالثـة **عشرة من الجزء** الثاني من كتابـه **علـم الاخـلاق** « Ommia individua quamvis gradibus diversis animata sunt » ** وهذا ما يقوله ديدرو

وكان فيورباخ ( **الروحانية والمادية** ) وانجلز سبينوزيين ايضا .

لكن ما الفارق بين المادية المفسرة على **هـذا الغرار** والكانطيـة ؟ ان الفارق شاسع ، وهو يقوم بأكمله في الامور المتعلقة **بما هو غير قابل** للمعرفة

في رأي كانط ان الاشياء **في ذاتها ليست على ماندركها** ، كما ان العلاقات بينها ليست في واقع **الامر كما تبدو لنا** ؛ فنحن اذا **تجردنا عن التعضي** الذاتي لحواسنا ، فان جميع الخصائص وسائر العلاقات بين الاشياء **في المكان** والزمان ، وكذلك الزمان والمكان بالذات ، **تتلاشى** لان هذه الامور جميعا **لا وجود لها** الا من حيث هي **ظاهرة،** يعني فينا ان طبيعة الاشياء ، اذا هي اخذت **في ذاتها** وبصورة مستقلة عن قدرتنا الخاصة على الادراك مجهولة منا كليا **ونحن لا نعرف** عن مثل هذه الاشياء الا الطريقة التي ندركها بهـا وبنتيجـة ذلك ، **فان الاشياء** تخص مجال **غير القابل للمعرفة** . وفي هذا الشأن لا يتفق الماديون مع **كانط مطلقا**

**فعند** كانط ان ما **نعرفه عن الاشياء** هو **الطريقة التي** ندركها بها فحسب لكنه اذا كان ادراكنا للاشياء يحدث ، **فهذا في راي كانط ايضا لان الاشياء تؤثر فينا.** ان الظواهر نتيجة لتأثير الاشياء في ذاتها ، noumena ، فينا ومهما يكن من شيء ، فان ممارسة اثر ما يعني بصورة **مسبقة الوجود** في علاقة ما وان المرء الذي يقول ان الموضوعات ( **او الاشياء** ) **في ذاتها تؤثر فينا** يقول انه يعرف بعضا من علاقات مثل هذه الموضوعات ، ان لم يكن **فيما بينهـا** ، فعلى الاقل اذن بينها من

* [جميع الافراد أحياء بدرجة مختلفة ]

جهة واحدة وبيننا من جهة اخرى لكننا اذا كنا نعرف العلاقات القائمة بيننا وبين الاشياء في ذاتها فاننا نعرف ايضا – من خلال وساطة قدرتنا على الادراك – **العلاقات القائمة بين الموضوعات نفسها** وليست هذه بالمعرفة المباشرة لكنها معرفة وحين نملكها مرة لا نملك الحق اذن في الحديث عن استحالة معرفة الاشياء في ذاتها

والمعرفة تعني التكهن فاذا كان في مقدورنا التكهن بظاهرة ما فاننا سوف نكهن بالكيفية التي سوف تؤثر بعض الاشياء في ذاتها فينا وان صناعاتنا جميعا وحياتنا العلمية كلها قائمة على اساس هذا التكهن

وبنتيجة ذلك فليس في الامكان تأييد موضوعة كانط ان جميع الاشياء الصحيحة فيها قد عبر عنها مسبقا الماديون الفرنسيون **قبل** كانط ان ماهية المادة غير مفهومة من جانبنا ، ونحن لا نحصل على فهمها الا بقدر ما تؤثر فينا

هذا ما قاله انجلز في كتابه **لودفيغ فيورباخ** وما اخفق برنشتاين وكونراد شميدت في فهمه

وقد يبدو **هذا** التمييز بين المادية والكانطية غير ذي بال في نظركم ومع ذلك فهو بالغ الاهمية ، ليس من وجهة النظر النظرية فحسب ، بل كذلك – وربما بصورة خاصة – من وجهة النظر العملية

ان غير قابل للمعرفة عند كانط يترك الباب مفتوحا على مصراعيه أمام **الصوفية** ولقد بينت في كتابي الالماني **دراسات في تاريخ المادية** أن غير قابل للمعرفة هذا ليس شيئا آخر سوى الله ، وهو اله سكولاستيكي وعلى العكس من ذلك فان **المادة ،** التي نحصل على معرفة عنها بقدر ما تؤثر فينا تنفي بصورة كلية اي تأويل **لاهوتي .** وهذا تصور ثوري وهو السبب في نفور البورجوازية منه هذه البورجوازية التي تفضل – وذلك حتى درجة كبيرة – لا ادرية كانط والكانطيين الحاليين

وحين يدعونا برنشتاين الى العودة الى كانط ، وحين ينقد المادية الحالية [ wir glauben an das atom ] فانه لا يبرهن بذلك الا على جهله الخاص وبنتيجة ذلك فان هذه الازمة المزعومة لا تشكل أي خطر من وجهة النظرالفلسفية

لننتقل الآن الى الفهم المادي للتاريخ

ما المقصود بهذا الفهم ؟

ما اكثر ما فهم **هذا** الفهم بصورة بائسة جدا كما تم تأويله ، اذا امكن بصورة اشد بؤسا من ذلك وان تأويله المغلوط يشكل قدحا ذميما بالجنسالبشري، لكن اين هي تلك النظرية التي لا تبدو ذميمة وسخيفة حين تفهم بصورة بائسة وتؤل بصورة ردئية وفي الحقيقة أن الفهم المادي للتاريح هو النظرية الوحيدة التي تمكننا من فهم التاريخ البشري من حيث هو عملية خاضعة لقانون وبكلام آخر ، فهي التفسير **العلمي** الوحيد للتاريخ

وكيما اعطيكم فكرة دقيقة عن الفهم المادي للتاريخ اسأل اولا ما المقصود بالفهم المالي ولسوف ابدأ بالاستشهاد بمؤلف فرنسي من القرن الثامن عشر طواه النسيان تماما في الوقت الحاضر لكنه مؤلف كتب كتابا غريبا انه سيليه دوفايل واما الكتاب فعنوانه **الاصل المشترك للادب والتشريع عند جميع الشعوب** باريس ١٧٨٦

انه يقول

بالضبط كما ان الادب تعبير عن فكر الاديب فالقانون بدوره تعبير عن فكر الشارع اخذنا هذه الكلمة بمعناها الواسع

وبالتالي فثمة مصدر مشترك للادب والتشريع على حد سواء وهذا المصدر هو الفكر الذي اصله في طبيعة الانسان ، وهو يجب يدرس اولا وقبل كل شيء هذا رغب المرء في العمل بصورة منهجة والتقدم ببعض اليقين نحو الهدف الذي حدده لنفسه ص ٧ )

هذا فهم للتاريخ **مثالي** كليا الفكر البشري مصدر القانون، نعني التنظيم الاجتماعي والسياسي بأكمله وان تطور هذا التنظيم رهن بالفكر البشري الذي ينشأ بدوره من طبيعة الانسان

ان هذا التأويل المثالي للتاريخ خاص ، مع بعض الاستثناءات ، بجميع فلاسفة القرن الثامن عشر بما فيهم الماديون

ونقطة الضعف في هذا الفهم للتاريخ عقب آخيل فيه سوف تتضح بكل يسر وسوف اصفها في كلمات قليلة

لو سئل كاتب من القرن الثامن عشر ولنقل سيليه كيف تتشكل افكار الانسان لاجاب بأنها نتاج للبيئة الاجتماعية لكن ما البيئة الاجتماعية ؟ انها مجموع تلك العلاقات الاجتماعية بالذات التي يؤكد سيليه دوفايل نفسه انها تنشأ في الفكر البشري

وهكذا فان أمامنا التناقض التالي

١ ـ البيئة الاجتماعية نتاج للفكر ؛

٢ ـ الفكر نتاج للبيئة الاجتماعية

وما دمنا عاجزين عن الافلات من هذا التناقض فلن نفهم شيئا سواء في تاريخ الافكار أو في تاريخ الاشكال الاجتماعية

لو اخذتم على سبيل المثال تطور النقد الادبي في القرن التاسع عشر رأيتم انه كان ، ولا يبرح بصورة جزئية ، عاجزا كل العجز عن حل هذا التناقض وهكذا يؤكد سانت ـ بوف ان كل ثورة اجتماعية تترافق بثورة في الادب لكن من أين تأتي الثورات الاجتماعية ؟ انها مسببة عن تطور الفكر البشري ونظرا لان تطور الفكر يجد تعبيرا عنه ، في المجتمعات المتحضرة ، في تطور الادب ، فاننا نصطدم

بالتناقض نفسه ان تطور الادب يتمحور على التطور الاجتماعي ، فيما التطور الاجتماعي مرتهن بتطور الادب وفلسفة الفن عند هيبوليت تين تعاني من العيب نفسه

وسوف نرى الآن كيف ان فهم التاريخ عند ماركس يحل هذا التناقض بنجاح.

ان الفهم المادي للتاريخ عند ماركس هو النقيض المباشر لفهم التاريخ في القرن الثامن عشر

ويقول ماركس في مقارنة طريقته الخاصة مع طريقة هيغل وذلك في الكلمة الختامية للطبعة الالمانية الثانية من **رأس المال**

« عند هيغل أن حركة الفكر التي يشخصها تحت اسم الفكرة هي مبدعة الواقع ، هذا الواقع الذي لا يعدو كونه الشكل الظاهري للفكرة وعندي ، على العكس ، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس الحركة الحقيقية ، المنقولة الى دماغ الانسان والمترجمة فيه (١٤٩)

هذا فهم **مادي** لتاريخ الفكر البشري وقد عبر انجلز عن الشيء نفسه بشكل اكثر شعبية حين قال انه ليس الوعي الذي يقرر الوجود بل الوجود هو الذي يقرر الوعي

ورب من يسأل مع ذلك من أين يشتق أي اسلوب في الحياة اذا هو لم يكن رهنا بنمط الفكر ؟

ان اسلوب الحياة عند الانسان الاجتماعي رهن بوسائط معيشته التي تتوقف بدورها على حالة القوى المنتجة التي تحت تصرف الانسان الاجتماعي ، يعني المجتمع

ان القوى المنتجة المتوفرة لقبيلة من المتوحشين تقرر اسلوب حياة هذه القبيلة ، وان القوى المنتجة التي كانت تحت تصرف الاوروبيين في العصور الوسيطة قررت بنية النظام الاجتماعي كما ان القوى المنتجة في ايامنا تقرر بنية المجتمع الراهن المجتمع الرأسمالي ، المجتمع البورجوازي

ومما لا ريب فيه انكم تدركون جميعا ان انماط التسلح تقرر تنظيم اي جيش. وخطط الحملات ، وترتيب الوحدات والاوامر الصادرة ، وهكذا دواليك هذا كله يخلق التمييز العميق بين نظام القدماء العسكري والنظام العسكري في ايامنا الراهنة وبالطريقة نفسها بالضبط تقرر حالة القوى المنتجة ووسائط الانتاج وانماطه العلاقات القائمة بين المنتجين ، يعني البنية الاجتماعية بأكملها أيضا لكنه حين نحصل على بنية اجتماعية من حيث هي حقيقة قائمة تفهم بكل سهولة الطريقة التي تقرر بها حالة عادات البشر وافكارهم

ولنأخذ مثالا على ذلك كي نوضح الامر بصورة افضل

ما اكثر ما اتهم الرجعيون الفلاسفة الفرنسيين للقرن الثامن عشر ـ الموسوعيين

ـ بأن دعايتهم مهدت الارض للثورة الفرنسية. ومما لاريب فيه ان هذه الدعايةكانت شرطا ضروريا للثورة ومع ذلك يمكن ان يسأل ما السبب في ان مثل هذه الدعاية لم تباشر الا في القرن الثامن عشر ؟ لماذا لم تجر في عصر لويس الرابع عشر ؟ اين يجب البحث عن الجواب ؟ في الخصائص العامة للطبيعة البشرية ؟ كلا لان هذه الخصائص كانت هي نفسها في زمن بوسويه وفي زمن فولتير لكنه اذا لم يعتنق الفرنسيون في زمن بوسويه نفس الآراء التي اعتنقها الفرنسيون في زمن فولتير فالسبب في ذلك التغيرات التي طرأت على بنية فرنسا الاجتماعية لكن ما الذي ادى الى هذه التغيرات ؟ تطور فرنسا الاقتصادي هو الذي ادى اليها

وسوف اتناول مثالا آخر ، واستعيره هذه المرة من تاريخ الادب الفرنسي

تفضلوا فانظروا الى هذين النقشين المنقولين عن بوشيه والى هاتين الصورتين الفوتوغرافيتين لرسمين شهيرين بريشة لويس دافيد انها تمثل مرحلتين مختلفتين كل الاختلاف من تاريخ الرسم الفرنسي لاحظوا الصفات المميزة في فن بوشيه ، وقارنوها مع الصفات المميزة في فن دافيد ، واخبروني ما اذا كان الفارق القائم بين هذين الرسامين يمكن تفسيره بالخصائص العامة للطبيعة البشرية من جهتي لا ارى ادنى امكانية لمثل هذا التفسير كذلك لا استطيع ان افهم كيف يمكن لتلك الخصائص العامة للطبيعة البشرية ان تفسر لي الانتقال من رسوم بوشيه الى رسوم دافيد واخيرا فاني اخفق في فهم أي من خصائص الطبيعة البشرية هي التي أدت الى الانتقال من رسوم فرنسوا بوشيه الى رسوم لويس دافيد ، هذا الانتقال الذي جرى في اواخر القرن الثامن عشر ، ولم يجر في أي وقت آخر ليس في مقدور الطبيعة البشرية ان تفسر شيئا هنا ولنر ما الذي سوف يبينه لنا الفهم المادي للتاريخ

مرة اخرى ، ليس **علم النفس** بل **الاقتصاد السياسي** هو الذي يفسر تطور الاشكال الاجتماعية والفكر البشري ؛ ليس الوعي الذي يقرر الوجود بل الوجود هو الذي يقرر الوعي

ان هذا الفهم للتاريخ الذي ما اكثر ما تعرض للهجوم من جانب المنظرين البورجوازيين قد تعرض كذلك لنار كونراد شميدت ، ومما لا ريب فيه انه سيكون عرضة للمعاملة نفسها من جانب برنشتاين في سلسلة المقالات التي ينشرها في الوقت الحاضر في **نيو زيت** .

وعلى أي حال ، فان هذين السيدين لا يهاجمان صراحة ، بل على النقيض من ذلك ، فهما يسميان نفسيهما نصيرين لهذا الفهم للتاريخ الا انهما يؤولانه بطريقة تظهرنا وكأننا نتراجع ، جنبا الى جنب معهما ، عن هذا الفهم للتاريخ ونعود الى المثالية ، أو بالاحرى الى الانتقائية

هذا بالضبط ما قاله كونراد شميدت في المجلة الالمانية Der Sozialistische Akademiker ان اقتصاد المجتمع مجرد نتاج للطبيعة البشرية التي هي الوحدة التركيبية الاعلى ( hohere zusammenfassende Einheit )الاساس الذي يقوم عليه عمل جميع عوامل التطور التاريخي ويستطرد قائلا ان كل ما في الامر هو ان هذه الوحدة الاعلى تنكشف في اشكال متباينة وليس على المرء كي يفهم زور هـذا الراي الا ان يتساءل ما هي القوى التي تنتقل طبيعة الانسان بفضلها من بعض الاشكال الى غيرها ؟ ما هي القوى التي تجعل طبيعة اليانكي الاميركي على هـذا العمق من الاختلاف عن طبيعة الهندي الاحمر كائنة ما كانت هذه القوى فمن الواضح انها لا تكمن في الطبيعة البشرية وبنتيجـة ذلك فليست هذه الطبيعـة البشرية الوحدة التركيبية الاعلى التي يتحدث كونراد شميدت عنها

ان البنية الاقتصادية للمجتمع اليانكي مغايرة كليا للتنظيم الاقتصادي عند الهنود الحمر وأما القول ان هذا التنظيم الاقتصادي نتاج للطبيعة البشرية فمعناه عدم قول أي شيء على الاطلاق نظرا لان السؤال الواجب الجـواب عنه هو ما السبب في ان النتاج الواحد للطبيعة يختلف حتى هذا القدر عن النتاج الآخر ؟ واذا امعنا النظر فان ملاحظة كونراد شميدت الحكيمة لا تعني سوى ما يلي ما كان يمكن ان يكون ثمـة تاريخ لولا وجود الجنس البشري وهـدا ما يعرف بحقيقـة **لا باليس**(١٥٠) .

وهكـذا فما ابعد ان يكون نقد كونراد شميدت خطيرا على الفهم المادي للتاريخ، أو بصورة ادق انه لا يمكن ان يكون خطيرا الا في حال اعتبار كونراد شميدت ماركسيا.

لنستخلص النتيجـة ليس من العسير جـدا من هـذه الزاوية ايضا ، التغلب على الازمة في المدرسة الماركسية ولسوف نرى في جلستنا التالية ما اذا كان ثمة امور خطيرة في الاعتراضات التي رفعها برنشتاين وكونراد شميدت ضـد الآراء **الاقتصادية** التي نادى بها **كارل ماركس** .

# برنشتاين والمادية

تابع الهر برنشتاين المجموعة الثانية من ابحاثه **قضايا الماركسية** في العدد ٢٤ من **نيو زيت** حيث ناقش « **بأي قدر الاشتراكية الحالية هي واقعية وبأي قدر هي ايديولوجية** » ان الطريقة التي يستخدمها مؤلف هذه الدراسة تبدو لنا قاصرة جدا عن توفير حل للمسألة المثارة فيها ، وهو السبب في انني سوف اخضع هذه الطريقة للنقد في مقالة اخرى وما يهمني هنا هو دعوة الهر برنشتاين من اجل العودة الى كانط « حتى نقطة ما ويقول الهر برنشتاين نظرا لاني انسان عادي في نظرية المعرفة ، فاني لا ازعم اني اطرح في هذه المسألة شيئا اكثر من افكار انسان عادي وفي الحقيقة ان مقالة عن كانط بقلم كونراد شميدت نشرت في الملحق العلمي لمجلة **فورفارتس** هي التي حملتني على طرق هذا الموضوع

ان الهر برنشتاين وقد حفزته مطالعة عدة اعمدة من النثر الفلسفي للهر كونراد شميدت يخبر الناس العاديين الآخرين بما يلي

ان المادية الخالصة أو المطلقة روحانية مثل المثالية الخالصة أو المطلقة سواء بسواء فكلتاهما تفترضان ، وان يكن من وجهات نظر مختلفة ان الفكر والوجود متماثلان ، ولا يختلفان بصورة أولية الا في اسلوبهما في التعبير وان الماديين الاحدث ، على العكس من ذلك قد اتخذوا موقفا كانطيا مبدئيا بصورة حازمة بالضبط مثل العلماء الطبيعيين الاعظم في يومنا الراهن

هذه استنتاجات رفيعة الاهمية لكن ما المادية الخالصة او المطلقة ؟ لا يجيب الهر برنشتاين عن هذا السؤال وبدلا من ذلك يستشهد في هامش بتعريف اعطاه واحد من الماديين الاحدث الذي يقول « بمعنى كانطي تماما اننا لا نؤمن الا بالذرة (١٥٢)

وفي رأي الهر برنشتاين ان الماديين الخالصين او المطلقين لا يستطيعون بالتأكيد ان يقبلوا في حال من الاحوال اسلوب التفكير والتعبير الموصوف في التعريف المعطى اعلاه بأي قدر يثبت تاريخ الفلسفة هذا الفهم عند برنشتاين ؟ تلك هي المسألة » .

واين نضع دولباخ في عداد الماديين الخالصين » أم « الاحدث ؟ في عداد اولئك بكل تأكيـد لكن ما هو راي دولباخ في المادة ؟

ان الفقرات التالية سوف توضح لنا ذلك

« لسنا نعرف ماهية أي شيء ، اذا كان المقصود بكلمة ماهية ذلك الشيء الذي ينطوي على طبيعته الخاصة ؛ اننا لا نعرف المادة الا من الاحساسات والافكار التي تعطينا اياها ، ومن بعد نحكم عليها ، خيرا أو شرا بصورة تتفق مع ترتيب اعضائنا*

وفي مكان آخر

وهكذا بالنسبة الينا فالمادة عموما هي كل ما يؤثر في حواسنا بطريقة ما ، والخصائص التي ننسبها الى انواع المادة المختلفة تقوم على اساس الانطباعات المختلفة أو التبدلات التي تحدثها هذه الانطباعات فينا** »

وهذه فقرة اخرى مقتضبة ومميزة

لا نعرف ماهية المادة او طبيعتها الحقيقية بالرغم من قدرتنا على تحليل بعض خصائصها وصفاتها وفقا للطريقة التي تؤثر بها فينا***

ولنلتفت الآن الى مادي «خالص» آخر ، الا وهو هيلفيتيوس هل تملك المادة القدرة على الاحساس ؟ يجيب هيلفيتيوس عن هذا السؤال الذي استغرق انتباه الكثيرين من الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، والذي سوف نعود اليـه في وقت لاحق ، كما يلي

ناقشنا الموضوع طوال فترة مديدة ولم يسأل الا موخرا عما تدور المناقشة حولـه ، وقـد ربطت فكرة دقيقـة بكلمـة المادة ولو ان المعنى قرر اولا لتم الاعتراف بأن البشر جاز التعبير هم خالقو المادة****

واني لاجد هـذا اوضح حتى درجـة ما من البيان القائل اننـا لا نؤمن الا بالـذرة

ولقد قدمت آراء دولباخ وهيلفيتيوس الفلسفية في **دراسات في تاريخ المادية** ، ولذا فلن ادخل في أي دراسة مفصلة عنها ومهما يكن من شيء ، فاني سوف اشير الى ان وجود الأجرام خارجا منا كان يبـدو مجرد احتمال عند هيلفيتيوس انـه يسخر من شطحات الخيال الفلسفية » ، وفي رايه ان من واجبنا أن « نمضي جنبا الى جنب مع المشاهدة ، ونتوقف حالما تتخلى عنا ، ونملك الجرأة على عدم معرفة

* **نظام الطبيعـة** ، الجزء الثاني ، ص

** المصدر نفسه ص ٢٨

*** المصدر نفسه الجزء الثاني ، ص ١١٦

**** **في الفكـر** ، المقالـة الاولى الفصل الرابـع

**ما يستحيل بعد معرفته علينا*** » .

وان روبينه مؤلف كتاب **في الطبيعة** ، يلاحظ ما يلي

لم نصنع كي نكتشف ما الذي يشكل ماهية الاشياء فليست لنا أية **وسائل** لمعرفة ذلك **ان معرفة الماهية** ( des essences ) **تتجاوز قدرتنا**** »

ويقول في موضع آخر من الكتاب نفسه

لا تعرف النفس عن ماهيتها اكثر مما تعرف عن الماهيات الاخرى **انها لاتتغلغل** في ذاتها اكثر مما تتغلغل في كتلة جسدها الخاص الذي **لا** تستشعر **او ترى** موارده الباطنة***

الا يتردد صدى هذا بروح كانط تماما ؟

لنصغ الآن الى لامتري ، الابن الضال للفلسفة المادية هذا الرجل **الذي** اخافت جرأته حتى الاكثر جرأة اليكم ما يقول

ان ماهية النفس في الانسان والحيوانات مجهولة منا وسوف تبقى كذلك **دائما** ، بالضبط مثل ماهية المادة والجسم لكن بالرغم من اننا لا نملك اية فكرة **عن** ماهية المادة فاننا مضطرون مع ذلك الا الى الاقرار بخصائصها المنكشفة لنا **في المادة** بفضل حواسنا الخارجية****

ولقد كتب لامتري في كتابه **مختصر الانظمة** ما يلي ناقدا فلسفة سبينوزا

**لا** تعرف النفس الاشياء الخارجية بل تعرف بعض الصفات الفردية لهذه **الاشياء** فقط وجميعها نسبية واعتباطية تماما واخيرا فان معظم احساساتنا وافكارنا **مرهونة** حتى درجة كبيرة بأعضائنا بحيث تتغير مع تغير هذه الاعضاء

وكما نرى فان **واحدا** من اكثر الماديين اطلاقا يتحدث كذلك هنا « **بروح** كانط تماما وبالمقارنة مع مثل هذه البيانات لا يستطيع المرء الا ان يعتبر **امرا** مضحكا تلك الموضوعة القائلة **اننا لا نؤمن الا بالذرة** ، **وهي التي يوردها** الهر برنشتاين على اعتبارها شيئا « جديدا **بصورة مطلقة**

لعل الهر برنشتاين يتوهم ان فريديريك انجلز لم يكن عارفا بأننا **لا نؤمن** الا بالذرة ؟ انه يمكن الافتراض بأن انجلز كان يعرف **ذلك جيدا** (١٥٤) ، **لكن هذا لم** يمنعه من شن النضال ضد الفلسفة الكانطية وكتابة **الاسطر التالية في** **لودفيغ فيورباخ**

---

* راجع **دراسات في تاريخ المادية** ، ص ٧٧ وما يليها

** **في الطبيعة** ، امستردام ١٧٦٣ المجلد الاول ص : ٢٦٥

*** المصدر نفسه ٢٥٩

**** **المؤلفات الفلسفية للسيد لامتري** ، امستردام ١٧٦٤ المجلد الاول ؛ **مبحث النفس** ؛ ٨٣ و ٨٩

كنا نرى مع ذلك الكانطيين الجدد يحاولون احيـاء التصور الكانطي في المانيـا واللاادريين احياء تصور هيوم في انكلترا حيث يفرض مطلقا في حقيقـة الامر ) فان ذلك يشكل ، من وجهة النظر العلمية تقهقرا بالنسبة الى نظريتها النظري والعملي الذي تحقق منذ زمن طويل كما يعد من وجهـة النظر العلمية وسيـلة مخجلة لقبول المادية في الخفاء بينما هي تنكر علانيـة(١٥٥)

ولعل الهر برنشتاين يعترض بان انجلز نفسه لـم يكـن يملك فهما واضحا عن الموضوع ؟

لقد ظل الهر برنشتاين لسنين عديدة على صلة وثيقة بفريديريك انجلز لكنه اخفق في فهم فلسفته فقد كان لا بد لـه هو الذي كان في مقدوره ان يستفيد بحرية عظيمة من ثروة معرفة هذا المفكر الكبير، ان يطالع المقالة شبه الفلسفية التي كتبها كونراد شميدت كي يحصل على اهتمام بالمسائل الفلسفية ويتساءل اين تكمن ماهية فلسفة استاذي ؟ والاسوا من ذلك ايضا انه كان كافيا له ان يتعلم زوجين من مغالطات الهر كونراد شميدت كي يضرب بتلك الفلسفة عرض الحائط هذا لا يصدق لكنه حقيقة واقعـة وانه لامر محزن جدا بالنسبة الى مدرسة ماركس وانجلز لكنه امر محزن جدا بالنسبة الى الهر برنشتاين في المحل الاول

ومهما يكن من امر ، فليست بنا ادنى رغبـة لاتباع نصيحة هذا الناقد حين يدعونا الى « **العودة الى كانط** » ان الامر على النقيض من ذلك ، فنحن ندعوه الى **العودة ... الى دراسة الفلسفة**

وحين ينصحنا الهر برنشتاين بالعودة الى كانط يحاول ان يعتمد على مقالة بقلم الهر شترن في المادية الاقتصادية والفلسفية الطبيعية نشرت في **نيو زيت** • ان الهر شترن أكفأ في حقل الفلسفة حتى درجة كبيرة من الهر برنستاين، ومقالته تستحق انتباه قرائنا التام

ففيما يعود الهر برنشتاين الى كانط « حتى نقطة ما يحدثنا الهر شترن عن سبينوزا العجوز ويطلب منا ان نعود الى فلسفة هذا المفكر اليهودي الكبير والنبيل ان هذا لامر مختلف كل الاختلاف عن دعوة الهر برنشتاين واعقل منها حتى درجة كبيرة وفي الحقيقة انه من الامور الهامة والباعثة على الاهتمام ان ندرس مسألة ما اذا كان ثمة **شيء مشترك بين افكار ماركس وانجلز الفلسفية** من جهـة وأحـدة وافكار سبينوزا الفلسفية من جهة ثانيـة

وان من واجبنا كي نتمكن من الاجابة بصورة صحيحة من هذا السؤال ان نؤكد اولا كيف يفهم الهر شترن الماهية الحقيقية للمادية واليكم ما يقول

« ان المادية الفلسفية الطبيعية كما يمثلها في اليونان ديموقريطس ومدرسته وفي القرن الاخير الموسوعيون وفي الازمان الحديثة كارل فوغت ولودفيغ بوخنر وغيرهما والمادية الاقتصادية لماركس وانجلز نظريتان مختلفتان بالرغم من اسمهما المشترك ،

وتنتسبان الى مجالين مختلفين للدراسة  فالمادية الاولى تتضمن تفسيرا للطبيعة وبالخاصة العلاقات بين المادة والروح ، فيما المادية الثانية تقترح تفسيرا للتاريخ ومجراه واحداثه  وبذلك فهي نظرية سوسيولوجية »

ليست تلك هي الحال بالضبط

فاولا لم تكن فلسفة الموسوعيين مقتصرة على دراسة العلاقات بين المادة والروح فحسب ؛ ان الامر على النقيض من ذلك  اذ **حاولت في الوقت نفسه ان تفسر التاريخ بمساعدة المفهوم المادي*** وثانيا لم يكن ماركس وانجلز ماديين في مجال الدراسات التاريخية فحسب  **بل في مجال فهم العلاقة بين المادة والروح ايضا** وثالثا فان من الخطل التام الجمع بين مادية الموسوعيين ومادية فوغت وبوخنر فهنا يمكن القول ايضا ان لدينا  نظريتين مختلفتين كليا

ويستطرد الهر شترن قائلا

ان الفكرة الاساسية للمادية الفلسفية الطبيعية هي ان المادة هي المطلق  هي شيء موجود منذ الازل ؛ وان جميع اشياء الروح  الذهني  الادراك والاحساس والارادة والتفكير ) هي نتاج للمادة  ان المادة تملك قوى غير محدودة  Stoff und Kraft » يمكن عامة ارجاعها الى الحركة التي هي ازلية ايضا  وبفعل تفاعل قوى متباينة في العضويات الحيوانية المعقدة ينشأ الروحي فيها  وهو يتلاشى من جديد مع انحلالها وان جميع الاشياء الجارية  بما فيها الرغبات والافعال البشرية  تخضع لقانون السببية وتتوقف على اسباب مادية

هكذا يرى الهر شترن العقيدة المادية  اهو على صواب ، وهل يمكن تطبيق الوصف الذي يقدمه على مادية الموسوعيين مثلا ؟

قبل الاجابة عن هذا السؤال اود ان اشير الى ان تسمية الموسوعيين في هذه الحالة ليست دقيقة مطلقا من جهة واحدة وهي تؤول الى الخطأ  فلم يكن الموسوعيون جميعا ماديين  ومن جهة ثانية فقد كان في القرن الثامن عشر ماديون لم يخطوا سطرا واحدا في الموسوعة . ويكفي لاثبات ذلك ان نورد اسم لامتري بالذات.

هذا كله لا اهمية له  ان الشيء الاساسي هو ان **احدا من الماديين من بين الموسوعيين او لامتري نفسه لم** يعترف بان جميع قوى المادة يمكن ارجاعها الى الحركة  ويبدو ان الهر شترن ضل انسبيل بفعل ما ينطق به اولئك الذين لا يستطيعون  بالرغم من جهلهم تاريخ المادية  ان ينكروا على انفسهم متعة الحديث عنها  وهذا ما يمكن اثباته في الحال وبصورة لا تدحض

وهذه المرة سأترك لامتري اولا يتحدث بنفسه

ويعرف القارىء من قبل ان راي لامتري في المادة ابعد ما يكون عن (( **المذهبية** )) من اي نوع كان  ومع ذلك فلا بد لنا من التوقف مطولا عند فلسفته .

---

* بينت ذلك في دراستي عن هيلفيتيوس

كان لامتري **ديكارتيا** فحسب ، رجلا حازم الفكر اغنى ذهنه بكل المعرفة البيولوجية في عصره ويؤكد ديكارت ان الحيوانات مجرد آلات ، يعني انها لاتملك شيئا مما يمكن ان يسمى حياة الذهن ولقد تمسك لامتري بحرفية اقوال ديكارت، فقال انه اذا كان ديكارت مصيبا فالانسان اذن ليس اكثر من آلة لانه لا يوجد **فارق جوهري** بين الانسان والحيوان ومن هنا كان عنوان كتابه الشهير **الانسان ـ الآلة** • ومهما يكن من شيء فلما كان الانسان لا يفتقر في حال من الاحوال الى الحياة الذهنية ، فان لامتري يستنتج اذن ان الحيوانات تتحلى بالحياة الذهنية هي الاخرى ومن هنا كان عنوان كتاب آخر **الحيوانات الاكثر من آلة** • وعلى أي حال فقد كان لامتري يعتقد ان ديكارت نفسه ، في أعماق قلبه ، يعتنق الرأي نفسه ذلك انه على العموم بالرغم من انه يعزف على الفارق بين المادتين فانه يمكن ان يتبين ان تلك مجرد حيلة بارعة ، حيلة في الاسلوب الح* وعلى الرغم من ان لامتري يعرف الانسان على اعتباره آلة ، فانه لا يقول البتة بذلك ان « **جميع قوى المادة يمكن ارجاعها الى الحركة** » ان الامر على النقيض من ذلك ، فهو يريد ان يعبر عن شيء مختلف كل الاختلاف **لقد كان يعتبر الفكر من حيث هو احدى خصائص المادة** •

انى اعتبر التفكير قليل التنافر جدا مع المادة المتعضية بحيث يبدو انه خاصة لها على غرار الكهرباء ، والقدرة على الحركة ، وعدم قابلية النفوذ ، والامتداد ؛ الخ**».

ومما لا ريب فيه ان الهر شترن سوف يعترض على هذا الاساس بأن التفكير بالنسبة الى لامتري خاصة للمادة المتعضية وحدها ، وهذا ما يشكل وتر آخيل في اية مادية وهو يقول في المقالة التي استشهدنا بها

ليس ثمة تفسير البتة لكيفية ظهور الاحساس ، في الخلية الحيوانية العنصر الفيزيائي الاساسي ) بصورة مباغتة مثل طلقة غدارة ؛ فلا بد من الاستنتاج بالضرورة بأن الاجسام غير العضوية تملك ايضا صفة نفسية هي بالطبع زهيدة وبسيطة فحسب ، لكنها تزداد تعقيدا وصقلا بقدر ما نرتقي سلم الكائنات الحية »

كذلك هو الامر لكن لامتري لم يؤكد قط شيئا مناقضا لذلك انه يطرح السؤال هنا فقط ، لكنه لا يحاول ان يعطي عنه جوابا محددا وهو يقول

لا بد من الاقرار بأننا لا نعرف ما كانت المادة تملك القدرة الفورية على الاحساس أم مجرد القدرة على اكتسابه من خلال تبدلات واشكال هي قمينة بها ؛ ذلك انه صحيح ان هذه القدرة لا تكشف عن نفسها الا في الاجسام غير المتعضية* »

---

* **المؤلفات الفلسفية للسيد لامتري** ، المجلد العاشر ص ٧٢

** المصدر نفسه ، ص ٧٣

*** **مبحث النفس** ، الخ الفصل السادس كان لامتري متمسكا بعد في هذا المؤلف ؛ بالمصطلحات القديمة التي تخلى عنها في وقت لاحق

وانه ليعبر عن هذه الفكرة ، في كتابه **الانسان النبات** ، في شكل مختلف نوعا ما بحيث يجعلها اكثر تحديدا

بالفعل ان الانسان هو ذلك الكائن الذي يملك ، من بين جميع الكائنات المعروفة ، النفس بالدرجة الاعلى كما لا بد ان يكون الامر بالضرورة فيما النباتات هي تلك الكائنات التي يجب ان تملك ، وهي تملك ، النفس بالدرجة الادنى

ان هذه الفكرة تلخص نظرية « جماد المادة ومهما يكن من امر فان لامتري يشيح عن هذه النظرية لان النفسي شيء مضغي تماما في النباتات والمعادن وانه ليقول

انها في الحقيقة نفس ممتازة لا تعنى بأية اشياء او رغبات وهي مجردة عن الاهواء وعن الرذائل ، وعن الفضائل ، وبالدرجة الاولى عن الحاجات اذ هي طليقة حتى من حاجة معاكسة انحلال البدن

ويستشهد الهر برنشتاين بشرح النظرية الثالثة عشرة في الجزء الثاني من كتب سبينوزا **علم الاخلاق** التي تقول ان جميع الافراد ( individua ) احياء بدرجات متفاوتة ( quamvis diversis gradibus )

ويتضح للقارىء الآن ان **درجة** الحيوية كانت ذات اهمية حاسمة بالنسبة الى لامتري الذي كان يرى ان الكائن الجامد هو ذلك الكائن الذي لا ترقى فيه درجة الاحساس فوق حد ادنى معين ؛ واذا هو نادى بأن « **الفكر** » حصيلة **التعضي** ، فقد اراد بذلك ان يقول ان الاشكال الاعلى نسبيا من **الحيوية لا** يمكن ان تصادف الا في « الافراد » غير المتعضين

ولذا فاني لا ارى اي فارق جوهري على الاطلاق بين **السبينوزية ومادية لامتري**.

وكيف هي الامور عند الموسوعيين ؟

تقول دولباخ

ان القدرة الاولى التي نصادفها في الانسان الحي والتي ينبغي فصلها عن جميع القدرات الاخرى هي « **الحساسية** » يعني الاحساس ـ ج ب . ) .

مهما هذه القدرة غير قابلة للتفسير للوهلة الاولى ، فاننا واجدون مع ذلك ، امعنا النظر فيها انها نتيجة لماهية وخصائص الجسم المتعضي بالضبط مثلما تنتج الثقالة والمغناطيسية والمرونة والكهرباء الخ من ماهية أو من طبيعة بعض الاجسام الاخرى ويعتقد بعض الفلاسفة الحساسية صفة عمومية للمادة وانه لعديم الجدوى في هذه الحال البحث عن المصدر الذي جاءتها هذه الصفة منه وهي التي نعرفها من نتائجها المرء بهذه الفرضية نشأنه يكون شأن من يميز نوعين من الحركة في الطبيعة تعرف احداها باسم **القوة الحية** ، وتعرف الاخرى باسم **القوة الميتة*** ؛ وعندئذ سوف يميز المرء نوعين من الحساسية ، احداهما فاعلة أو حية

* ان عبارتي دولباخ **القوة الحية** و **القوة الميتة** بطلتا من الاستعمال حاليا

الأخرى جامدة أو ميتة وفي الحالة الأخيرة فان التحويل الحيواني للمادة ما لن يعني سوى دمار العقبات التي تمنعها من ان تكون حساسة وباختصار فالحساسية اما صفة يمكن نقلها ، مثلها كمثل المادة ، كما يمكن اكتسابها بفضل التركيب ، واما ان الادراك صفة ملازمة للمادة كذ وايا من هاتين الفرضيتين قبلنا فان الكائن غير الممتد الذي يفترض انه النفس البشرية لا يمكن ان يكون ذاتا * »

وليسوف يتبين الهر شترن بنفسه الآن ان فلسفة دولباخ المادية لا تملك اية علاقة مشتركة مع العقيدة التي ينسبها الى الموسوعيين .

لقد كان دولباخ مدركا على خير وجه ان قوى الطبيعة لا يمكن ارجاعها جميعا الى الحركة لم يكن لديه اية اعتراضات على فرضية « **جهاد المادة** » ، لكنه لم يتوقف عند هذه الفرضية لان انتباهه كان منصبا على مهمة اخرى . لقد حاول قبل كل شيء ان يهدم البرهان على اننا لسنا في حاجة ، بهدف تفسير ظواهر الحياة الذهنية ، لان نفترض مسبقا وجود اي جوهر غير جسماني ...

ولنمض قدما لم يكن دولباخ المؤلف الوحيد لكتاب **نظام الطبيعة** ، بل كان ديدرو مساهما بارزا فيه ايضا ، وقد كان ماديا . من اي نوع كانت مادية هذا الرجل الذي يستحق اكثر من اي انسان آخر لقب الموسوعي ؟ لقد عرض ديدرو موقفه من سبينوزا في مقالة « سبينوزية » قصيرة نشرت في المجلد الخامس عشر من **الموسوعة** . انه يكتب فيها

« لا يجوز للمرء ان يخلط بين انصار سبينوزا القدامى وبين انصاره في الازمان الحديثة ان المبدأ العام الذي ينادي هؤلاء به هو ان المادة حساسة ، وهو ما يثبتونه بتطور البيضة ، هذا الجسد الجامد الذي ينتقل ، بفعل الحرارة المتدرجة وحدها ، الى حالة كائن حساس وحي ، وبنمو اي حيوان ليس هو في البدء سوى نقطة ، لكنه يتحول من جراء تمثل الاغذية النباتية — وباختصار جميع المواد التي تفيد كغذاء — الى جسم كبير وحساس وحي وبالتالي فهم يستنتجون انه لا يوجد شيء سوى المادة وانها كافية من أجل تفسير جميع الاشياء ، وفي جميع الامور الاخرى يتبعون السبينوزية القديمة في سائر استدلالاتها »

ولا يبين هذا بوضوح اين يكمن ، في راي ديدرو ، تفوق السبينوزية الجديدة على السبينوزية القديمة ؛ والشيء الذي لا مراء فيه على الاطلاق هو ان ديدور كان يعرف بالسبينوزية من حيث هي عقيدة صحيحة ، ولم يكن يخشى الاستنتاجات المترتبة عليها وعلى العموم يمكن القول ان كارل روزنكرانز كان على صواب حين كتب في كتابه الشهير **حياة ديدرو واعماله** ( المجلد الاول ، ص ١٤٩ ) « كانت السبينوزية ، وبالخاصة بدءا ببولانفيليه ، معترفا بها سرا من قبل جميع الفرنسيين

---

* **نظام الطبيعة** ، المجلد الاول ، ص ٨٨ = ٨٩ و ٩٠ = ٩١ .

الذين انحازوا بواسطة الحسية ، الى المادية* »

كيف نظر الماديون في القرن التاسع عشر الى المسألة التي نناقشها ؟

كان لودفيغ فيورباخ ينتقص جدا من الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ويقول « ليس ما هو اشد خطلا من اشتقاق المادية الالمانية من نظام الطبيعة ، او الاسوأ من ذلك من فطيرة لامتري التفهة** » ، ومع ذلك فقد وقف بثبات على ارض المادية الفرنسية

وهكذا فهو يقول في كتابه **الروحانية والمادية**

« ان الفكر بالنسبة الى المفكر المجرد عملا خارج دماغي اما بالنسبة الى الطبيب فهو نشاط يقوم به الدماغ »

وهذا ما تصدى لامتري للبرهان عليه في كتابه **الانسان = الآلة** ، ويستطرد فيورباخ قائلا*** « ان الطب وعلم الامراض العام هما مهد المادية وينبوعها » ويقول لامتري مرة اخرى الشيء نفسه**** ومن المعروف لدى الجميع ان مرضه الخاص خدم كمنطلق لافكاره عن العلاقة بين النفس والجسد

ويقول فيورباخ

« لكن الطب ليس ينبوعا لمادية منهورة ومتسامية بل المادية محايثة وهي تقدم في الانسان ومعه لكنه هنا تكمن وجهة النظر الارخميدية في النزاع بين المادية والروحانية ، نظرا لانها ليست في آخر الامر مسألة قابلية المادة او عدم قابليتها للانقسام ، بل قابلية الانسان او عدم قابليته للانقسام ليست مسألة المادة خارج الانسان بل المادة من حيث هي مضبوطة داخل القحف الانساني وباختصار فان النزاع = حتى لا يجري دون اسهام من الرأس = لا يدور حول شيء آخر سوى الرأس الانساني***** »

---

* وفي الوقت نفسه فمن المرجح حتى درجة كبيرة ، بل لعله صحيح تماما ، ان ديدرو انكر ما يسمى **وحدة الوجود** عند سبينوزا

** **المؤلفات** ، المجلد العاشر ، ص : ٨ ، ١٢٢

*** المصدر نفسه ، ص : ١٢٨

**** يدرك الروحانيون هذا الامر جيدا ان كاتب سيرة لامتري في **السيرة العمومية القديمة والحديثة** يصف **الانسان = الآلة** على اعتباره « انتاجا ذميما تعرض فيه العقيدة الكئيبة للمادية بصورة صريحة » لكن فيم تستقيم هذه العقيدة ؟ اليكم التفسير : « حين لاحظ ابان مرضه ان قواه الفكرية تأثرت في اعقاب ضعف اعضائه البدنية استخلص من ذلك النتيجة بأن الفكر ليس شيئا آخر سوى نتاج للتعضي الجسمي ، وقد وجد الجرأة على الاعلان عن حدوسه في هذا الشأن » يا للهول ! يا له من مذهب كاذب ! !

***** فيورباخ ، **المؤلفات** ، المجلد العاشر ، ص : ١٢٨ = ١٢٩ :

كذلك ينظر الى المسألة لامتري ودولباخ وماديون آخرون عديدون من **الموسوعة**. ونظرا لانهم كانوا يعتنقون هذا الراي فقد ابدوا قدرا كبيرا من البرود – مع بعض الاستثناءات – حيال نظرية « جماد المادة التي ليست « مضغوطة داخل القحف الانساني » وبهذا الشأن ايضا كانت وجهة نظر فيورباخ هي وجهة نظر الماديين الفرنسيين

وفي الوقت نفسه ، فمما لا جدال فيه ان فيورباخ كان راغبا في ان يكون مع الماديين حتى نقطة ما لكن ليس ابعد من ذلك لقد اعلن مرارا وتكرارا ان الحقيقة بالنسبة اليه « لا تقوم في المادية والمثالية والفلسفة ولا في علم النفس !

ما السبب في هذا الانحراف عن نظرية تتضمن اساسا ، رايه الخاص ؟

يفسر انجلز ذلك كما يلي

> يجمع فيورباخ هنا المادية وشكلا خصوصيا تم فيه التعبير عن هذه النظرة الى العالم في مرحلة تاريخية معينة هي القرن الثامن عشر
>
> واما المادية الفرنسية بالخاصة ، فقد جمعها فيورباخ مع الشكل الاجوف والمبتذل الذي لا تبرح مادية القرن الثامن عشر مستمرة اليوم فيه في رؤوس العلماء الطبيعيين والفيزيائيين ، الشكل الذي بشر به في جولاتهم بوخنر وفوغت وموليشوت (١٥٧) »

وامضي الى ابعد مما مضى انجلز واقول لم يكن فيورباخ مدركا لانه كان في القرن التاسع عشر ، مجددا فعليا لمادية القرن الثامن عشر وانه كان ممثلا لهذه المادية الاخيرة بكل ميزاتها ونقائصها

كان فيورباخ يعتنق الراي – الذي يشاطره اياه الهر شترن حاليا – القائل ان الماديين الفرنسيين ارجعوا الى الحركة جميع القوى في المادة ولقد بينت من قبل ان هذا الراي مغلوط تماما ، وان الماديين الفرنسيين لم يكونوا بهذا الخصوص اكثر مادية من فيورباخ نفسه ومهما يكن من شيء ، فان افتراق فيورباخ عن المادية الفرنسية يستأهل اهتماما كبيرا جدا لانه يميز نظرته الخاصة عن العالم بمثل الوضوح الذي يميز بها نظرة ماركس وانجلز

وعند فيورباخ ان مصدر المعرفة في علم النفس يختلف كل الاختلاف عما هو في علم الفريزة لكن ما هو الفارق بين هذين المصدرين المعرفة ؟ ان جواب فيورباخ عن هذا السؤال مميز حتى درجة رفيعة

> ان ما هو بالنسبة الي أو ذاتيا فعل ذهني خالص هو بحد ذاته أو موضوعيا ، فعل مادي وحسي* »

وكما نرى فان هذا هو بالضبط ما يقوله الهر شترن ان الجوع مثلا اذا اخذ بعين الاعتبار ماديا ، هو نقص في بعض عصارات البدن واذا اخذ بعين

---

* ملحوظة للماركسيين الذين « يرجعون الى كانط » ليس لعبارة بحد ذاته التي يستخدمها فيورباخ اية علاقة مشتركة مع « an sich » لمؤلف نقد العقل الخالص .

الاعتبار نفسيا ، فهو حس بالانزعاج ؛ وان الشبع ، ماديا ، سد لنقص ما في العضوية ، فيما هو نفسيا شعور بالرضا لكن الهر شميدت سبينوزي اذن اذن ان فيورباخ يعتنق هو الآخر وجهة نظر سبينوزا

وبالفعل ، فليس ثمة شك في ان فيورباخ كان سبينوزيا بقدر ما كان ديدرو سبينوزيا في عصره

ويكفي ان نطالع كتاباته في شيء من الانتباه وان نملك على الاقل فكرة ما واضحة عن تطور الفلسفة الحديثة ـ بدءا بسبينوزا وانتهاء بهيغل ـ كي نطرح ادنى ارتياب في هذا الشأن انه يقول في احد مؤلفاته الابرز ان سبينوزا هو المنشيء الحقيقي للفلسفة التأملية الحديثة فيما شيلنغ مجددها وهيغل قاتلها

وعند فيورباخ ان **الطبيعة** هي (( **سر** )) السبينوزية ومعناها الحقيقي « اذا ما امعنا النظر جيدا ، فما هو الذي **يسميه سبينوزا منطقيا او ميتافيزيائيا الجوهر ولاهوتيا** الله ؟ لا شيء سوى الطبيعة* هذه هي النقطة القوية عند سبينوزا ، وههنا تكمن اهميته التاريخية وجدارته » ( ان الطبيعة هي « سر فيورباخ ايضا ـ ج . ب . ) لكن سبينوزا كان عاجزا عن الانفصال عن اللاهوت عنده ليست الطبيعة بالطبيعة ؛ ان الماهية الحسية وضد اللاهوتية للطبيعة هي عنده مجردة ، ميتافيزيائية ولاهوتية ليس غير ان سبينوزا يوحد الطبيعة مع الله **

وههنا يكمن عيبه الرئيسي ويصحح فيورباخ هذا العيب في السبينوزية بالاستعاضة بكلمة aut - aut عن sine « ليس Deus sive natura بل aus Deus aut natura ، هذه هي كلمة سر الحقيقة ، حيث يوحد الله مع الطبيعة لا وجود لاي من الله أو الطبيعة ، بل لخنثى برمائية صوفية ليس غير***

لقد رأينا من قبل ان ذلك هو بالضبط اللوم الذي يوجهه ديدرو الى السبينوزية في المقالة آنفة الذكر التي نشرت في **الموسوعة** ولعل الهر شترن يعترض بأن سبينوزا لا يستحق هذا اللوم ، لكن هذا الامر لا يعنينا ان ما يهمنا هنا هو الجواب على السؤال عن العلاقة بين فلسفة فيورباخ وفلسفة سبينوزا الجواب فهو كما يلي

**لقد كانت فلسفة فيورباخ المادية ، مثلها كمثل فلسفة السبينوزية ليس غير .**

ولننتقل الآن الى ماركس وانجلز

كان هذان الكاتبان لبعض الوقت نصيرين متحمسين لـ

كتب انجلز يقول

---

* **المؤلفات** ، المجلد الثاني ، ص ٢٤٤ ، المجلد الرابع ؛ ص

** **المؤلفات** ، المجلد الرابع ، ص ٣٩١

*** **المؤلفات** ، المجلد الرابع ، ص ٣٩٢

كانت الحماسة عامة بعد نشر كتاب فيورباخ جوهر المسيحية رنا جميعا فيورباخيين في الحال ونستطيع بقراءة كتاب العائلة المقدسة ندرك مبلغ الحماسة التي حيا بها ماركس وجهة النظر الجديدة والى اي حد تأثر بها كافة تحفظاته الانتقادية (١٥٨) »

وحوالي شباط ١٨٤٥ كان ماركس قد تبين على أي حال ، ببصيرة الفكري ، العيب الرئيسي لمادية فيورباخ ، الا وهو ان

تصور الشيء الواقع الحسية لا يتم فيها الا على صورة الموضوع ، أو المشاهدة وليس على اعتبارها فاعلية حسية على اعتبارها ممارسة ، ليس بصورة ذاتية (١٥٩) »

واصبح هذا النقد نقطة الانطلاق في المرحلة الجديدة من تطور المادية وهي المرحلة التي آلت الى التفسير المادي للتاريخ ، وان مقدمة ماركس في اسهام في نقد الاقتصاد السياسي تتضمن ما يمكن تسميته « توطئة لاية سوسيولوجية مقبلة تستطيع ان تحصل على اعتبارها علما » ،

ولنلاحظ على أي حال ان نقد ماركس وانجلز لا ينصب على وجهة النظر الاساسية لمادية فيورباخ ، بل الامر على النقيض من ذلك تماما

وحين كتب انجلز يقول ان « الذين اعتبروا الطبيعة بمثابة العنصر الاول ينتمون الى مختلف مدارس المادية(١٦٠) » ( انظر كتابه لودفيغ فيورباخ ) ، فانه ما كان يفعل سوى تكرار كلمات فيورباخ ان العلاقة الحقيقية بين الفكر والوجود هي هذه العلاقة فحسب : ان الوجود هو الذات ، والفكر هو المحمول ويشتق الفكر من الوجود ، وليس الوجود من الفكر* » ولما كانت وجهة نظر فيورباخ هي وجهة نظر نصير لسبينوزا ، فمن الواضح ان وجهة نظر انجلز ، التي كانت مماثلة لها : ما كان يمكن ان تكون مغايرة

واذا شئنا الدقة فان موضوعة « الفكر يشتق من الوجود وليس الوجود من الفكر » لا تتفق مع عقيدة سبينوزا بيد ان « الفكر » موضوع البحث هو الوعي الانساني ، يعني الشكل الاعلى « للفكر » ، وان الوجود من حيث هو سابق للفكر لا يحول في حال من الاحوال دون « جماد المادة » : وليس على المرء كي يدرك ذلك سوى ان يقرأ الصفحة ٢٣٦ من المجلد الثاني من مؤلفات فيورباخ ، والصفحتين ٢١ و ٢٢ من كتاب انجلز لودفيغ فيورباخ ، وان الازدراء الذي يبديه انجلز لمادية كارل فوغت وموليشوت ومن شابههما معروف لدى الجميع ، وعلى أي حال ، فهذه المادية بالذات هي التي يمكن ان يؤخذ عليها بشيء من الحق السعي الى ارجاع جميع قوى المادة الى الحركة ، وانا على يقين من ان نشر المحفوظات في الارث الادبي

---

* المؤلفات ، المجلد الثاني ، ص : ٢٦٣

لماركس وانجلز سوف يلقي ضوءا جديدا على هذه المسألة* وفي هذه الأثناء أؤكد بقناعة تامة ان ماركس وأنجلز لم يتخليا قط ، في المرحلة المادية من تطورهما ، عن وجهة نظر سبينوزا(١٦٢) وعلى أي حال ، فان هذه القناعة تعتمد على شهادة انجلز الشخصية

فبعد زيارتي المعرض العالمي في باريس في ١٨٨٩ قصدت لندن للتعرف على انجلز وسعدت بمجاذب اطراف احاديث طويلة معه لأسبوع كامل على وجه بت عن مختلف المواضيع النظرية والعملية وحين كنا في أحدى المناسبات نناقش الفلسفة دان انجلز بحدة ما سماه شترن بصورة غير مناسبة على الاطلاق « المادية الطبيعية الفلسفية » وسألت وهكذا تعتقد أن سبينوزا العجوز كان على صواب حين قال أن الفكر والامتداد صفتان ليس غير لنفس المادة الواحدة ؟ فاجاب انجلز « بالتأكيد ، لقد كان سبينوزا العجوز على صواب تام »

واذا لم تخنني ذاكرتي ، فقد كان الكيميائي الشهير شورلمر حاضرا اثناء حديثنا ، وكذلك ب ب اكسلرود ولقد قضى شورلمر لكن المحدث الآخر حي ، وانا على يقين من انه سوف يشهد على صحة اقوالي

كلمات قليلة اخرى يتحدث انجلز في مقدمته لكتابه لودفيغ فيورباخ عن « الحساء الانتقائي الهزيل » الذي يغرفون منه في الجامعات الالمانية تحت اسم الفلسفة (١٦٣) ، ولم يكن هذا الحساء الرائع يوزع بعد ، اثناء حياته ، على انعمال الالمان ، لكن الرفيق شميدت يوزعه عليهم في الوقت الحاضر وان هذا الحساء بالضبط هو ما « اثار مشاعر » الهر برنشتاين بصورة موفقة جدا ، وينشيء الرفيق شميدت مدرسة حاليا ، ولذا لن يكون من قبيل العبث تحليل هذا الحساء الانتقائي بمساعدة ذلك الكاشف الحساس فلسفة ماركس وانجلز ، وهذا ما سوف اصنعه في المقالة التالية (١٦٤)



---

* حين كتبت هذه السطور ( في ١٨٩٨ ) كنت افكر بصورة رئيسية في دراسة ماركس عن ابيقور(١٦١) ، هذه الدراسة التي لم تنشر بعد والتي اخبرني انجلز بوجودها منذ عام ١٨٨٩ ولقد نشرت الدراسة في وقت لاحق في مجموعة المؤلفات الاولى لماركس وانجلز اصدرها فرانز مهرنغ وعلى أي حال ، فهي لم تحقق توقعاتي ، اذ كان ماركس لا يبرح يعتنق فيها النظرة المثالية ،

# علام يجب أن نشكره

## رسالـة مفتوحـة الى كارل كاوتسكي

**ايهـا الرفيق العزيز والمحترم**

اسمح لي ان ابدأ بأن اشكرك على السرور الذي حصلت عليه من خطاباتك في المؤتمر الحزبي للاشتراكيين الديموقراطيين الالمان المنعقد في شتوتغارت كانت هذه الخطابات حدثا سياسيا بالغ الاهمية نظرا للتأييد الحار الذي حصلت عليه من قبل الغالبية الساحقة للمندوبين الى المؤتمر لقـد كان وقت حيث كان يمكـن لخطابات ومقالات البعض من اعضاء الحزب الالماني ، مثل السادة برنشتاين وكونراد شميدت وهايني ، ان تداعب في قلوب اعدائنا الامل العزيز بان يتخلى الاشتراكيون الديموقراطيون الالمان عن الارض الثورية للصراع الطبقي ويغوصوا في مستنقـع الانتهازية ؛ ولقد تلاشى هذا الامل حاليا كما يتلاشى ضباب الصباح لا يمكن ان يكون ثمة شك بعد اليـوم فالناس يدركون الآن ان السادة برنشتاين وكونراد شميدت وهايني ما كانوا يعبرون عن رأي الحزب ، وان الرفيق سنجر كان على حق تام حين قال في خطابـه الختامي اننا وسوف نبقى مثلما كنا دائما وفي الحقيقة ان الاشتراكية الديموقراطية الالمانية ظلت كما كانت دائما وفي كل الاوقات:
الشـ في أزماننا

تضعف حتى

هذا صحيح ، لكنه صحيح بصورة جزئية فحسب   وبالفعل ، فان برنشتاين لم يثبط من عزيمة الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان ، وهو ما تبينه قرارات مؤتمر الحزب في شتوتغارت   لكن هل قدم لنا اية مادة للتفكير ؟ هل كان في مركز يتيح لــه ذلك ؟ اعتقد ان الامر لا يمكن ان يكون كذلك

فلا بد في سبيل تقديم مادة للتفكير من ايراد حقائق جديدة او تقديم حقائق مألوفة في ضوء جديد   ولم يفعل برنشتاين ايا من الامرين ، وهو السبب في عجزه عن حمل كائن من كان على الانصراف الى التفكير الملائم

ولعلي مخطىء في تقديري لنشاطات برنشتاين الادبية   فلنر اذا كان الامر كذلك.

من المفروغ منه اننا لسنا معنيين الا بذلك الجزء من نشاطاته الادبية الذي ادى الى تعنيفه من قبــل البعض من رفاقــه   والمقصود هنــا السنوات الاخيرة من نشاطاته   وقد تكون هناك آراء متباينة عن عمله الادبي السابق   لكنه لا داعي للتوسع فيــه في هذا الموضع

لقد شن برنشتاين في السنوات الاخيرة نضالا ضد ما سماه اللغو الثوري عامــة وضد « نظرية الكوارث   خاصة   ويقوم لب حجته ضد تلك النظرية في تقريره ما يعتبره حقيقة لا جدال فيهــا   الا وهي ان آراء عديدة قدمها ماركس وانجلز في البيان الشيوعي لم يؤكدها مجرى الحيــاة الاجتماعيــة اللاحق   وهو يقول   لم يجر تفاقم العلاقات الاجتماعية بالطريقة الموصوفة في البيان ، وليس بغض النظر عن ذلك من قبيل العبث فحسب ، بل من قبيل الحماقة البالغة ايضا فقد ازداد عدد اصحاب الملكية بالاحرى من ان ينقص ، كما ترافق النمو الهائــل في الثروة الاجتماعية لا بالهبوط السريع في عدد الطغاة الراسماليين بل بعدد اعظم من الراسماليين من مختلف الدرجات   ويتبدل طابع الطبقة المتوسطة   لكنهــا لا تختفي من السلم الاجتماعي »   واذا اضفنا الى افكار برنشتاين هذه ملاحظاته عن أن التمركز يجري ببطء عظيم في بعض الفروع الصناعية وبأنه يجب الا نتوقع أن تكون الازمات التجارية حادة وعريضة كما كانت من قبل، فسوف يكون لنا كل الحق في القول ان هــذا يستنفد جميع حججه ضد   نظرية الكوارث   والان   ايهــا الرفيق المحترم والعزيز ، اذا ما اخذت خط التفكير هذا بعين الاعتبار الجاد ، فسوف تجد انه لا يتضمن شيئا ، لا يتضمن اي شيء على الاطلاق لم يقله من قبل في مناسبات عديدة اعداؤنا في المعسكر البورجوازي   وفي هذه الحال   فلا بد [illegible]   اساس على الاطلاق للشعور باننا مدينون لبرنشتاين.

تفضل

المتمايزة وتراكم الثروة في ايدي القلة ، واختفاء الطبقات المتوسطة وظهور حزب ...وره الاجتماعيـة ويرى سكولتزه ـ غافرنيتز ان الحقائق لا تتفق مع هـذه النظرية ان الاحصاءات المفصلة التي قدمها مجلس التجارة تبين العكس من الـ ...الة بريطانيا الامر الذي يترك التوجه الاجتماعي الثوري دون اساس يعتمد عليه فمن جهة واحدة تحسنت اوضاع العمال الاقتصادية باستمرار خلال السنوات الخمسين الاخيرة ومن جهة اخرى اتضح خطل الفكرة السائعة ...كز الملكية في ايد متناقصة العدد باستمرار واخيرا فان انتشار الشركات المساهمة استجلب عددا متعاظما ابدا من اصحاب المدخرات الصغيرة الى الاسهام ارباح المـ...ـيع الصناعية الكبيرة وفي راي سكولتزه ـ غافرنيتز ان هذه الظروف جميعا ، مأخوذة معا تعبد الطريق نحو حل سلمي للمسألة الاجتماعية

يعبر عن آراء مشابهة في كتاب آخر **Der Grossbetriebein Wirtschaftlicher und sozialer Fortschritt**

ما أبعد عن الحقيقة أن الأثرياء يزدادون ثراء ، والفقراء فقرا ؛ في واقع العكس ...ضبط هو ما يجري وهو ما اثبت احصائيا بخصوص بريطانيا ، يبلغ اصحاب العمل الصناعيون المقدمة اجتماعيا وسياسيا تنهض طبقات ...سطة في مؤخرتهم تكتسب القوة اقتصاديا بادىء الامر ومن بعد سياسيا » ص ٢٢٥ ) أن حجج سكولتزه ـ غافرنيتز تتعلق ببريطانيا ، وهو يقر بأن العلاقات تتطور بصورة مغايرة في البلدان الاخرى ، وان « الطبقات المتوسطة لا تبرح تتناقص عددا بسرعة » في المانيا على سبيل المثال ومهما يكن من شيء ، فهو يعزو ...ذه الحقيقة تخلف المانيا ليس غير ، مشيرا بذلك الى ان ما يعتبر نفسه محققا ...يلة بخصوص بريطانيا سوف ينطبق على المانيا ايضا مع مرور الزمن .

وليس هنا مكان بيان مبلغ ما تتسم به حجج سكولتزه ـ غافرنيتز واستنتاجاته ضيق وتحيز ، فهذا شيء من المؤكد انك ، ايهـا الرفيق العزيز والمحترم ، تعرفه افضل جدا من معرفتي لـه . ان جورج جواخيم غوشن ، وهو احـد الباحثين الذين عملوا على اثبات ان طبقة متوسطة جديدة هي حاليا في سبيلها الى التكون في بريطانيا ، قد اشار في خطاب القاه في الجمعية الاحصائية الملكية في كانون الاول ١٨٨٧ الى ما يلي « ان التعبير الذي ينتقص من الاحصائيين والذي يقول ان « الارقام تثبت كل شيء » ... يعني بكل بساطة ان الارقام التي لـن تتحدث قط عن الاشياء الكاذبة يمكن ان تعالج بحيث تقدم الاشياء الكاذبة ان الارقام بالذات لا تكذب ابدا ، لكنه لا بد للمرء من الاعتراف بأنه ليس ثمـة مواد صالحـة ومناسبة يمكن ان تعالج بسهولة بحيث تخدم اغراض الشخص الذي يجمعها بقدر ما تستطيع الاحصائيات ذلك » وتعود كلمات غوشن هذه الـى ذاكرتي كلما سنحت لي فرصة تقليب اوراق الكتاب آنف الذكر لسكولتزه ـ غافرنيتز ،

غير أن هذا أمر لن أتوقف عنده هنا    لقد اردت                    الك ان برنـ
لا يفعل سوى تكرار ما قاله سكولتزة – غافرنيتز                    ات عديدة
لكن سكولتزة – غافرنيتز    هو الآخر    لم ينطق                    جديد على الاطلاق
أن اخصائيين بريطانيين عديدين عالجوا الموضوع نفسـ                    ومثال ذلك غوسشن
المذكور أعلاه ؛ وكذلك اقتصاديون فرنسيون عديدو                    بول لوروا
في دراسته عن توزيع الثروة والاتجاه نحو التفاوت                    في الوضـع    حسما
( باريس ١٨٨١ )    ولن يكون من المبالغ به القول أن اعمال سكولتزة – غافرنيـ
استشهدت بها ليست سوى نغمة جديدة على لحن قديم عالجه
وباعظم التفصيل بول لوروا – بوليو    وهكذا
زجيها من الاقتصاديين البورجوازيين    الا
الاقتصاديين ؟ لماذا يجب أن نؤكد أن برنشتـا                    تمصـ
مادة للتفكير ؟ كلا ، أيها الرفيق العزيز جدا والمحـ
واذا كان لا بد لنا حقا ان نتحدث هنا عن ديننا
شكرنا الى الجهات المناسبة    لتوجهه على العموم
الاقتصادية » والمعجبين بها    وبالطبع الى                    الـ
وكثيرا ما عبر برنشتاين عن الاسف لان
الاشتراكية العلمية بصورة علمية لا تبرح نادرة                    بعلن
اذ يطلق كتابه قضايا الاشتراكية    هـذا    الـ                    نظري
الاشتراكية الديموقراطية المختبرة على المدى الطويل                    اي حول
في نقـد « مدقق » للموضوعات المعترف بها حتى الآن » وانه                    كانت نيويورك
تريد ان تكون الجريدة النظرية للاشتراكية الديموقراطية                    فهي                    ان
تتحاشى مثل هذا « النقد المدقق »    ويستطرد قائلا                    فضلا عن ذلك
خطيئة لم تكن ذات مرة « حقيقة » مختبرة على المدى الطويل    ؟ وماذا كانت حصيلة
« مؤلفه النظري » ؟ اعتبارات بورجوازية صغيرة عديدة                    اهمية « مبدأ المسؤولية
الذاتية الاقتصادية » ، ومن بعد انعطاف حاسم نحو وجهة النظر النظرية لخصوم
الاشتراكية العلميـة : ان برنشتاين يقدم لنـا    حقائق    الاقتصاد البورجوازي
الاخير ، متخيلا انه « يمضي بنظرية ماركس الى ما وراء النقطة حيث خلفها هـذا
المفكر الكبير »    يا لها من خيبة ذاتية عجيبة ! لا يستطيع المرء الا ان يكرر بشأن
برنشتاين ما يقوله فاوست عن فاغنر :

Mit gier'ger Hand nach Schätzen gräbt,
Und froh ist    wenn er Regenwürmer findet ! *

---

* [ ذلك الذي يسعى الى الكنوز بيـد جشعـة
ولا يجـد الا ديدان الارض يملؤه الفـرح    ]

وحين كان المؤتمر الحزبي في شتوتغارت يختتم مداولاته خرج الرفيق غروليس للدفاع عن برنشتاين ، مقررا ما يلي « انا على يقين راسخ من ان قضيتنا لا يمكن الا ان تربح من النقد ان الاشتراكية الديموقراطية الالمانية قد تلقت ميراثا من ذينك المفكرين الكبيرين ماركس وانجلز بيد اننا لا نعالج هنا الحقائق الاولية ، بل العلم الذي يجب ان يحصل باستمرارعلى فائدة جديدة من الحقائق لا شيء اصح من ذلك ، لكن هل يعتقد الرفيق غروليش حقا ان الميراث العظيم الذي ورثناه عن ماركس وانجلز يمكن ان يربح شيئا من الانصهار الانتقائي مع عقائد الاقتصاديين البورجوازيين ؟ وهل يستطيع حقا ان يتجاسر فيسمي **نقدا** شيئا هو على وجه الدقة **تكرار غير نقدي لتلك** العقائد ؛ ومع ذلك ، فنحن لا نجد عند برنشتاين شيئا سوى ذلك التكرار غير النقدي ، وهو لم يتمكن من اهدائنا **ديدانه الارضية** الا بفضل هـذا الكرار غير النقـدي

وعلى اي حال فسوف اشير الى ان برنشتاين ليس المذنب الوحيـد في الكشف عن مثل هذا الموقف غير النقدي حيال مذاهب خصومنا وذلك بالرغم من اظهاره هذا الموقف بصراحة خصوصية ثمـة آخرون ايضا من رفاقنا المتحذلقين الذين يجدون سرورا بالغا في محاولة البرهان على قدرتهم على اتخاذ موقف «نقدي» حتى من ماركس بالذات ولهذا الهدف يتناولون نظريته في الشكل المشوه الذي جعلها فيه البورجوازيون ومن بعد يطلقون العنان بصورة ظافرة « لنقدهم » بمعونة الحجج المستعارة من اولئك الخصوم

نت تدرك بالطبـع ، ايهـا الرفيق العزيز والمحترم جـدا ، ان الرابح من **هذا النوع** من النقد لا يمكن ان تكون النظرية الاشتراكية ؛ **فهذا النقد لايستطيع** في افضل الاحوال اكثر من زيادة **الحظوة التي يجدها مثـل هؤلاء « النقـاد » لدى الجهات البورجوازية المثقفـة .**

في الحقيقة ان نظرية ماركس ليست بالحقيقـة الاخيرة او الابدية ، لكنهـا **الحقيقة الاجتماعية في عصرنا**وليس لنا الحق في الانحطاط بهذه النظرية الى مستوى « التناسقات الاقتصادية لأشباه باستيا وسيي الجدد بالضبط كما لا نملك الحق في الترحيب بالمحاولات الجارية على نفس الخطوط على اعتبارها **نقدا جادا** بحيث **نمنحهـا** تأييدنـا

ارجوا ان تغفرلي هذا التجاوزايها الرفيق العزيز والمحترم جدا. سوف اعود الآن الى برنشتاين ، وبالخاصة الى القصة الطنانة الجديدة عن **« الهدف الاولي »**(١٦٥)

## ٢

بعدما اوضح برنشتاين موقفه اللامبالي من الهدف الاولي وجد نفسه مضطرا

الى ايضاح الامور تبريرا لنفسه ، الامر الذي لم يؤد الى اي مكان على أي حال وحين قرات ايضاحاته وتبريره الذاتي ادركت اكثر فأكثر عبث القاعدة القديمة والمختبرة التي ينبغي لكل كاتب التقيد بها بصورة لا انحراف عنها الا وهي ان من واجب المرء ان يدقق اولا بكل عناية في التجارب الطباعية لمقالاته ومن بعد يرسلها الى المطبعة ، نظرا لان التصحيحات الجارية بعد طباعة المقالة نادرا ما تفيد ولقد سألت نفسي في الوقت ذاته ما عسى أن يكون حفز برنشتاين على كتابة تلك المقالة التي تفتقر بكل وضوح الى اي معنى منطقي ، او لم يكن لها كما يقولون اي مبرر على الاطلاق وفكرت باديء الامر انه استرجع على طريقته الخاصة طريقة برنشتاين، الحكمة الشهيرة التي قالها ليسنغ اذا لم اكن مخطئا :« اذا امسك الخالق الحقيقة في يده الواحدة ، وامسك في اليد الاخرى السعي الى الحقيقة ، وسألني ان اختار بينهما فاني سأفضل السعي الى الحقيقة على حيازة الحقيقة جاهزة ومن بعد سنحت لي فرصة تقليب صفحات **قضايا الاشتراكية** فتبينت ان لتلك العبارة الشهيرة اصلا مختلفا

في راي سكولتزه – غافرنيتز ان الاقتصاد البريطاني القديم كان مناوئا لاي تشريع للعمل ، وما كان يمكن الا ان يكون مناوئا له ، لان هذا التشريع كان يفرض قيودا على حرية البالغين الفردية ومع ذلك فان القيود على الحرية الفردية كانت حصيلة لا مفر منها لتشريع المعامل الذي ما كان يمكن من جانبه الا ان يتطور جنبا الى جنب مع صعود النفوذ السياسي للطبقة العاملة ولقد مهدت هذه الشروط الارض في بريطانيا لتقبل وانتشار نظرية الاشتراكية القارية التي تعرضت على اي حال لتغير ملموس بقدر ما تعرض «التأكيد بأن ظرف العامل ميئوس منه» لفقدان صلاحيته اذا جاز التعبير ويستطرد سكولتزه – غافرنيتز قائلا وهكذا تفقد الاشتراكية حدها الثوري ، وهي تستخدم لتثبيت المطالب التشريعية **وبذلك فليس لقبول تحويل جميع وسائل الانتاج او رفضه من حيث هو هدف اولي أي اهمية أساسا ، وذلك لانه اذا كان هذا المطلب اساسيا من اجل الاشتراكية الثورية ، فليست تلك هي الحال بشأن الاشتراكية العملية السياسية التي تفضل الاهداف الفورية على الاهداف البعيدة )) ( قضايا الاشتراكية ،** الجزء الثاني ص ٩٨ )

وأن في عداد ممثلي الاشتراكية العملية السياسية البريطانية ، في راي سكولتزه – غافرنيتز جون ستوارت ميل الذي يعتبر ، بالرغم من انه ليس اشتراكيا بروح انجلز وماركس ان تدخل الدولة ذا الاثر البعيد في نشاطات الفرد الاقتصادية امر جائز ، وهو الاقتصادي السياسي السباق الى الدفاع عن الحاجة الى توسيع الحماية في بعض الشروط بحيث تشمل الرجال البالغين ايضا » ( **قضايا الاشتراكية** الجزء الثاني ص ٩٩ اني اجزم بأن ادوارد برنشتاين هو في الوقت الحاضر اشتراكي « عملي سياسي من الصنف نفسه . ويروي

جون ستوارت ميل الاشتراكية » ؛

ومن جانبنا فاننا نستطيع ان نتصور

ري تطور ادوارد برنشتاين آخذين بعين

مع ربطها بافكار سكولتزه = غافرنيتز الواردة

حير للاشتراكيين « العمليين السياسيين » :

الذي نادي به سكولتزه = غافرنيتز وغيره

اي تماثل تطور الحياة الاجتماعيه في بريطانيا

بالانجذاب الى الاشتراكية العملية

فرنيتز نفسه وهي التي ترى ان الهدف

امر اهمية له البتة في الحقيقة ان لم

وقد تسرب بروح هذه الاشتراكية يسرع

الاخير وبملاحظة سكولتزه = غافرنيتز آنفة

بحاذ افكاره فحسب بل نمط تعبيره ايضا

سبب عبارته الشهيرة ؛ التي بدت للوهلة الاولى

معنى واضحا جدا ومحددا جدا وصحيح ان برنشتاين

هذا المي ما تشه ايضاحاته ومحاولاته لتبرير نفسه كما

الى مؤ في شتوتغارت التي كتب فيها « كانت النبوءة

في البيان الشيوعي تطور المجتمع الحديث صحيحة بقدر ما تميز

الاتجاه السائلة ا ومهما يكن من شيء فان ما يتلو ذلك في

بيانها بصورة جيدة هذه الكلمات واذا كان برنشتاين نفسه لا يدرك

لا يرغب في ادراكه التناقض واضح في نظر اصدقاء قضيتنا وخصومها

على حد سواء ولقد اكتشف ذلك بصورة رائعة في خطابك في شتوتغارت حين

قال انه برنشتاين وضح لنا ان عدد الراسماليين العاملين يزداد بحيث

الاسس التي بنينا آراءنا عليها خاطئة وبالفعل ، فاذا كان ذلك صحيحا فلن

يقتصر الامر على ابتعاد لحظة انتصارنا مسافة كبيرة جدا ؛ بل لن نبلغ هدفنا قط» :

ولقد عبر الرفيق ليبكنخت عن نفسه بطريقة مماثلة حتى درجة كبيرة « لو

كانت نتائج برنشتاين صحيحة فان في مقدورنا اذن ان ندفن برنامجنا وماضينا

بأسره وسوف نكف عن كوننا حزبا بروليتاريا

جهة اخرى كتب الاستاذ جوليوس وولف ما يلي بعد وقت قصير من

ظهور مقالة برنشتاين نضال الاشتراكية الديموقراطية والثورات في المجتمع »

« لا يمكن المبالغه في اهمية كلماته فهي صفعة في وجه النظرية الاشتراكية

الراهنة واعلان صريح للحرب عليها ا « الاوهام والحقائق في الاقتصاد الوطني»؛

Zeitschrift für Sozialwiss. 1898 ؛ المجلد الرابع ؛ ص ٢٥١ ) :

ليست لدي ادنى رغبة في مناقشة حق برنشتاين في الانصراف الى الكلمات ضد ذلك الحزب بالذات الذي كان من قبل يبشر بآرائه . ان لكل الحق في تغيير آرائه . ومهما يكن من شيء ، فانه لم يكن جائزا له ان يحاول اقناعنا بان التبدل في آرائه ذو اهمية جوهرية . لقد كان من واجبه ان يعرف وان ان آراءه الخاصة تقود بصورة حتمية الى « السلام الاجتماعي » الذي يبشر سكولتزه ــ غافرنيتز ورهطه . وباختصار ، فان لبرنشتاين كل الحق في شن الحرب ضد الاشتراكية الديموقراطية ؛ لكنه كان من واجبه ان يفعل ذلك بنوايا معلنة . ونظرا لانه لم يفعل ذلك ، فانه يستحق لا امتناننا بل لومنا المرير . لقد كان خلال عصر النهضة وحتى قبل ذلك علماء بذلوا اقصى جهدهم ليبرهنوا على ان بعض فلاسفة العصور القديمة كانوا مسيحيين . وانه لمن المفروغ منه انهم اثبتوا بصورة فعلية ليس ما تصدوا لاثباته بل ما لم تكن لديهم ادنى نية في البرهان عليه ، الا وهو انهم تخلوا هم انفسهم عن موقف المسيحية واصبحوا وثنيين . ولقد حدث شيء من هذا القبيل « لعلمائنا » الذين اخذوا برنشتاين تحت جناحهم . انهم لم برهنوا على ان برنشتاين ظل امينا للاشتراكية (« بروح ماركس وانجلز ») على تلوثهم هم بالذات بآراء السياسيين الاجتماعيين البورجوازيين . وينبغي ان تكون الاشتراكية الديموقراطية العالمية متيقظة حيال مثل هؤلاء « العلماء » ، والا الحقوا بها قدرا كبيرا من الاذى .

## ٣

ان مثال برنشتاين عميم الفائدة بالنسبة الى كل من يرغب في إعمال الفكر في الموضوع . وبهذا المعنى وحده اقول ، مثنيا على كلامك ايها الرفيق العزيز والمحترم جدا ، ان برنشتاين اهل لشكرنا . فقصة تحوله من اشتراكي ديموقراطي الى « سياسي اجتماعي » لا بد ان تستلفت الانتباه باستمرار من جانب اعضاء حزبنا ويعزو الرفيق ليبكنخت هذه الخيانة الى تأثير الشروط البريطانية ، فهو يقول « كان لا بد لمفكر مثل ماركس ان يكون في بريطانيا ، كي يكتب . . . كتابه رأس المال » واما برنشتاين فقد تأثر بالتطور الهائل للبورجوازية البريطانية . لكن احقا لا بد لمرء ان يكون ماركس حتى يتحاشى السقوط تحت تأثير البورجوازية البريطانية وهو يحيا في هذا البلد ؟ فيما ارى ، فان ثمة عددا كبيرا من الرفاق في صفوف الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان ظلوا ، بالرغم من اقامتهم في بريطانيا مخلصين للاشتراكية (« بروح ماركس وانجلز ») . لا ، ليس السبب ان برنشتاين يعيش في بريطانيا ، بل انه لم يحصل سوى على معرفة ضئيلة بتلك الاشتراكية

العلمية بالذات التي اخذ على عاتقه « تحقيقها علميا » .واعرف ان الكثيرين سوف يجدون ان هذا امر لا يصدق ، لكنه صحيح

لقد بينت في مقالتي « برنشتاين والمادية » التي نشرت في **نيوزيت** مبلغ ضآلة المعرفة الفلسفية عند هذا الرجل ، ومبلغ خطل افكاره عن المادية عموما وسوف ابين في المقالة التي اكتبها حاليا لمجلة **نيوزيت** مبلغ ضعفه في التمكن من الفهم المادي للتاريخ(١٦٦) ولسوف اطلب منك الآن ان تلاحظ التفاهة الباعثة على الذهول التي تتسم بها فهمه لنظرية الكوارث التي نهض ضدها « نقديا »

اليك كيف يعرض « الفهم السائد حاليا بين الاشتراكيين الديموقراطيين لمجرى تطور المجتمع الراهن

> وفقا لهذا الفهم فان أزمة اقتصاد بالغة القوة سوف تلهب القلوب بشدة عاجلا او آجلا نظرا لما تجلبه من املاق ضد النظام الاقتصادي الرأسمالي وبذلك تقنع الجماهير بصورة لا تدحض باستحالة توجيه القوى المنتجة المعطاة تحت سيطرة هذا النظام نحو الصالح العام وبأن الحركة ضد هذا النظام سوف تكتسب قوة لا تقاوم وبأن النظام سوف ينهار تحت ضغطها ؛ وبكلام آخر فان الازمة الاقتصادية الكبيرة غير القابلة للحل سوف تنمو فتصبح ازمة اجتماعية شاملة تكون حصيلتها السيطرة السياسية للبروليتاريا من حيث هي الطبقة الوحيدة الثورية بصورة واعية والتحول التام للمجتمع بالمعنى الاشتراكي تحت حكم هذه الطبقة »

ارجو ان تخبرنا ، ايها الرفيق العزيز والمحترم جدا ، ما اذا كنت ترى في هذا الضوء « الكارثة الاجتماعية التي سوف تحل عاجلا أو آجلا على اعتبارها الحصيلة الحتمية لنضال هذه الطبقة ؟ أتكون انت ايضا من انصار الراي القائل ان مثل هذه الكارثة لا يمكن ان تكون الا نتيجة لازمة اقتصادية واسعة وعمومية ؟ اعتقد ان الامر لا يمكن ان يكون كذلك والاكثر من ذلك اني اعتقد ان انتصار البروليتاريا المقبل بالنسبة اليك ، لا يرتبط بالضرورة بأزمة اقتصادية حادة وعمومية فأنت لم تر الامر قط بمثل هذه العبارات التخطيطية .وبقدر ما استطيع ان اتذكر فان احدا لم يفهم الموضوع على هذا الغرار وصحيح ان الحركة الثورية لعام ١٨٤٨ سبقتها أزمة عام ١٨٤٧ لكنه لا يترتب على ذلك ان « الكارثة غير معقولة دون ازمة

وانه لصحيح ايضا ان اشتداد الصراع الطبقي لا يمكن على وجه التقريب الاعتماد عليه خلال نهضة اقتصادية شديدة وعلى اي حال فمن ذا يستطيع ان يضمن نهضة صناعية متواصلة في المستقبل ؟ ويعتقد برنشتاين ان الازمات الحادة والعامة اصبحت مستحيلة من جراء وسائط الاتصال الدولية الحالية لنفترض ان تلك هي الحال وان تدهور الاعمال ، كما قرر ذلك الاقتصادي الفرنسي باتني منذ عام

١٨٦٥ ، لن يكون سوى كساد جزئي « l'engagement des produits ne sera que partiel لكن احدا لا ينكر اذن امكانية ذلك * « trade depression » الرهيب الذي اجتزناه لتونا الا يبين كساد من هذا النوع على افضل صورة ان القوة المنتجة للمجتمع الراهن تجاوزت علاقاته الانتاجية ؟ وهل يصعب حقا حتى هذه الدرجة على الطبقة العاملة ان تدرك معنى هذه الظاهرة ؟ ان مثال اميركا يبين بوضوح تام حقيقة ان مراحل الكساد الصناعي ، بما يرافقها من بطالة وعوز ومشقة ، تزيد حتى درجة كبيرة من تفاقم الصراع الطبقي

ويتجاوز برنشتاين جميع هذه الاعتبارات ويجعل جميع توقعاتنا للمستقبل متمحورة على أزمة اقتصادية حادة وعمومية وبعدما يقول ان مثل هذه الازمات لا يمكن حدوثها في المستقبل يتصور انه تخلص من نظرية الكوارث برمتها وانه ليعطينا نماذجه ومن ثم يبرهن لنا على ان هذه **النماذج مصحفة** بصورة مطلقة وهذا هو يعبر بعدئذ عن غبطته القصوى بمثل هذه الانتصارات الرخيصة، وهو ما يتضح في اللهجة التي يوبخ بها المذهبيين

ومما لاريب فيه انك تتذكر أيها الرفيق المحترم والعزيز جدا ، كيف ان عددا كبيرا جدا من الرفاق في مؤتمر الحزب في شتوتغارت عنفوا بارفوس للهجة التي شن بها مساجلته ضد برنشتاين واني لاعتقد انا الآخر انه لو استخدم بارفوس لهجة مغايرة في مساجلته لما كان لدى برنشتاين حجة للتمسك بالصمت وعندئذ كان العالم يشاهد كيف ان تفكير برنشتاين فقير بصورة تبعث على الذهول. ولهذا السبب آسف بدوري لان بارفوس لم يكبح جماح نفسه ، لكني استطيع في الوقت نفسه ان افهم استياءه على خير وجه وفيما اعتقد ، فان الظروف تبرره على خير وجه ايضا وفيما عدا ذلك فان احدا من اولئك الذين لاموا بارفوس لم يول الاهتمام الواجب للهجة المزعجة التي استخدمها برنشتاين نفسه ، وهي لهجة المتحذلق المغرور وحين قرات مواعظ برنشتاين الموجهة الى مذهبيي الاشتراكية الديموقراطية الالمانية ، والبريطانية حتى درجة ما » ، قلت في نفسي لو ان سانشو بانزا لم يعين حاكما على جزيرة بل عين استاذا للعلوم الاجتماعية ، ولو ان حسه السليم الطبيعي تشوش على حين غرة ، لما استخدم لهجة مغايرة للهجة برنشتاين واني أعرف ان de gustibus non est disputandum — لا مجال لمناقشة الاذواق — لكني اعتقد ان الكثيرين يجدون ان تلك اللهجة أقل استحقاقا من لهجة متقدة ومشبوبة

ولقد اقررت بنفسك ، ايها الرفيق المحترم والعزيز جدا ، بانك دهشت لتفاهة سلسلة المقالات التي عنونها برنشتاين بصورة حافلة بالمعاني **قضايا الاشتراكية.** ومع ذلك تقول ان هذه المقالات التافهة اعطتك غذاء للتفكير انت متحيز الى برنشتاين ، ولهذا السبب فانت تخطىء خطأ فادحا

لقد قلت في شتوتغارت « اخذ على برنشتاين ان مقالاته تضعف ثقتنا بالنصر وتغل ايدي البروليتاريا المقاتلة ولا اشاطر في هذا الرأي فاذا كانت مقالات برنشتاين جعلت حقا هذا الشخص او ذاك يترنح في قناعاته فلن يثبت ذلك سوى انه ليس ثمة مبرر للشعور بالاسف على مثل هؤلاء الناس ، وان قناعاتهم ليست عميقة الجذور جدا ، وانهم انتهزوا اول فرصة ليديروا لنا ظهورهم ، وفي هذه الحال نكون في حاجة الى كل رجل بلا استثناء

من الذي يمكن لمقالات برنشتاين ان تثبط عزيمته ؟ من الواضح انه ذلك الذي تبنى ، ولو بصورة مؤقتة ، وجهة نظر برنشتاين الجديدة فالانتقال الى وجهة النظر هذه لا بد ان يؤول بأي انسان يفكر بصورة منطقية الى قطيعة تامة مع برنامج الاشتراكية الديموقراطية القديمة بيد ان مثل هذا التغيير للهجته لا يمكن ان يمر دون عقاب ، ولا بد بصورة محتومة ، ولو مؤقتا فقط ، ان ينسف طاقة المرء الذي اجرى هذا التغيير ؛ وفيما عدا ذلك ، فان طاقة اولئك الذين اتخذوا وجهة نظر برنشتاين لا تملك الا علاقة مشتركة ضئيلة جدا مع تلك الطاقة المميزة لحزب اشتراكي ديموقراطي واثق بالنصر فلا بد لمثل هؤلاء الناس ، بالضرورة ان يفهموا النضال بصورة مختلفة عن فهمنا له ، وبالتالي فلا بد ان تختلف ثقتهم بالنصر بصورة جوهرية عن ثقتنا ولذا لا بد من القول ان الطاقة التي يحتاج حزبنا اليها ضعفت بصورة مطردة مع عدد اولئك الذين انضموا الى برنشتاين ولو بصورة مؤقتة واني لاعتقد ، على غرارك ، بانه ليس لدى الاشتراكية الديموقراطية الاممية سبب لتعليق اهمية خاصة على اخلاص مثل هؤلاء الناس ؛ ان الامر على النقيض من ذلك ، فهي لديها جميع الاسباب للتمني بأن يغادر مثل هؤلاء الناس صفوفها قبل ان تدق ساعة المحنة الخطيرة وفي اعتقادي ان حكمك القاسي على مثل هؤلاء الناس مصيب تماما ؛ لكنه يخيل الي انك تفتقر الى الحزم ، وانك لو عقدت العزم على ان تكون صارما فلا بد لك من اصدار حكم اقسى من ذلك على رجل وقع مثل اولئك الناس تحت تأثيره ، اعني على ادوارد برنشتاين بالذات

وليست لدي رغبة في التدخل في شؤون الاشتراكية الديموقراطية الالمانية الداخلية او تقرير ما اذا كان من واجبك قبول مقالات برنشتاين لمجلة **نيوزيت** أم لا لم يخطر في بالي شيء من هذا القبيل الا انك تدرك جيدا ، ايها الرفيق المحترم والعزيز جدا ، ان امورا عرضت على المناقشة في شتوتغارت هي ذات اهمية بالغة بالنسبة الى الاشتراكيين الديموقراطيين في العالم اجمع وهذا هو السبب الوحيد الذي حملني على التوجه اليك بهذه الرسالة وانت تقول ان المساجلة مع برنشتاين، بمعنى الكلمة الحقيقي لا تبرح في بدايتها فحسب ولا اوافق تماما على ذلك ، نظرا لان المسائل التي طرحها برنشتاين اقتربت بها من الحل حتى درجة كبيرة مقالات بارڤوس وهذه خدمة جليلة قدمها بارڤوس الى البروليتاريا في جميع البلدان .

لكن ليس هذا ما اشير اليه فالامر الاهم هو اننا ، لدى عودتنا الى المساجلة مع برنشتاين ، يجب ان نتذكر كلمات ليبكنخت التي اتيت من قبل على ذكرها لو كان برنشتاين على حق لوجب علينا ان ندفن برنامجنا وماضينا كله يجب أن نشدد على ذلك ، وان نوضح بصراحة لقرائنا بأن الامر يمكن صياغته كما يلي من يجب ان يدفن من ، ما اذا كان برنشتاين سوف يدفن الاشتراكية الديموقراطية أم ان الاشتراكية الديموقراطية سوف تدفن برنشتاين . واما بالنسبة الي ، فأنا لا اشك قط بحصيلة هذه المساجلة ؛ لكن اسمح لي ، ايها الرفيق المحترم والعزيز جدا ، بأن اطرح عليك وانا اختتم رسالتي السؤال التالي مرة اخرى احقا ندين بأي امتنان لرجل وجه مثل هـذه الضربة الوحشية الى النظرية الاشتراكية وقد هب ( بوعي أو بدون وعي ـ هـذا ما لا اهميـة له ) ليدفن هـذه النظرية ، حائزا على سرور « الجمهور الرجعي » المنسجم معه ؟ كلا ، والف مرة كلا ليس الامتنان ما يستحقه هـذا الرجل منـا

المخلص

ج بليخانوف

***

# النفاق ضد كانط

**( برنشتاين « المادية التاريخيــة »**

**ترجمة ل . كانتسل ، الطبعة الثانية**

**سان بطرسبورغ ، ١٩٠١ )**

مات ولدي ، مات وراح
ايتها العزيزة كازبانوفا

نكراسوف [١٦٧]

Die Todetenreitenschnell

ج أ بيورجر [١٦٨]

كف الهر برنشتاين عن الوجود بالنسبة الى مدرسة ماركس التي انتسب اليها مرة ، ولم يعد يقدم اي مبررات للغيظ ، فالمرء على اي حال لا يمكن ان يغتاظ من الموتى ومن العبث الشعور بأي اسف عليه حاليا ، فالاسف لا يغير شيئا ومع ذلك لا بد لنا ان نقدم للراحل واجباتنا الاخيرة ، ولـذا سوف نكرس عدة صفحات لكتابه الذي اثار ضوضاء كبيرة في الحلقات الاشتراكية في العالم المتمدن كله وترجم الى الروسية ، وقد صدر مؤخرا فيها بطبعة ثانية في سان بطرسبورغ.

ومن المعروف لدى الجميع ان الهر برنشتاين اخضع في هـذا الكتاب نظرية ماركس وانجلز لمراجعـة نقدية واما نحن فسوف نقدم بعض الملحوظات النقدية المتعلقة بتلك « المراجعة »

لاحظ الهر برنشتاين ان « العنصر الاهم في اساس الماركسية ، يعني قانونها الاساسي ، القانون الذي يشمل نظامها بأسره ، هو نظريتها التاريخية الخصوصية التي تحمل اسم المادية التاريخية والواقع ان هـذا خطل فالتعليل المادي للتاريخ احدى الصفات المميزة الرئيسية للماركسية لكن هذا التعليل لا يشتمل سوى على **جزء من نظرة ماركس وانجلز المادية الى العالم** . ولذا فالبحث النقدي في نظامهما يجب ان يبدأ بنقد الاسس **الفلسفية** العامة لهذه النظرة الى العالم ولما كانت طريقة اي نظام فلسفي هي بصورة مؤكدة روح هذا النظام ، فان اي نقـد **للطريقـة الجدليـة** لماركس وانجلز يجب بالطبع ان يسبق « مراجعـة نظريتهما التاريخيـة

والهر برنشتاين ، المخلص لنظرته المغلوطة عن « القانون الاساسي » للماركسية، يبدأ بنقد الفهم المادي للتاريخ ولا ينتقل الا في الفصل الثاني من كتابه الى تقدير الطريقة الجدلية واما نحن فسوف نبقى مخلصين لنظرتنا المتعلقة بالاهمية الحاسمة للطريقة في اي نظام جاد ، فنبدأ **بالجدلية** .

ماذا لدى الهر برنشتاين من اقوال عن الجدلية ؟

انه لا يرفض الاقرار بأن لها بعض الجدارات ، والاكثر من ذلك يعترف بأنه كان لها تأثير نافع في العلم التاريخي وحسب قوله ، فقد كان ف ! لانج على حق تام حين قال في كتابه **مسالة العمل** ان الفلسفة التاريخية الهيغلية وموضوعتها الاساسية ــ التطور من خلال النقائض والمصالحة بينها ــ يمكن ان تسميا اكتشافا انتروبولوجيا على وجه التقريب ( ص ٣٩ ) ومهما يكن من شيء ، فانه يعتقد مع لانج هذا نفسه ان التطور من خلال النقائض ، في حياة الافراد وفي التاريخ على حد سواء ، لا يحدث بمثل هذه السهولة وبهذا القدر من الجذرية ، وبمثل هذه الدقة وهذا التناظر ، كما في التراكيب التأملية » ( الصفحة نفسها ) لقد اخفق ماركس وانجلز في ادراك ذلك وهو السبب في ان « الجدلية مارست تأثيرا مؤذيا في آرائهما الاجتماعية السياسية وصحيح ان مؤسسي الاشتراكية العلمية كانا يستشعران النفور حيـال التراكيب التأمليـة ، وقـد حاولا ــ وهمـا الماديان الراسخان ــ « ان يقلبا الجدلية راسا على عقب من جديد » ، وهي التي كانت عند هيغل تقف على رأسها » ، يعني **عاليها سافلها** . لكن الهر برنشتاين يعتقد ان حل مثل هذه القضية ليس على هذا القدر من السهولة كما يحدث على الدوام في الواقـع فلا نكاد نتخلى عن ارض الحقائق تجريبيا ونأخذ في التفكير متجاوزين اياها حتى نجد انفسنا في عالم الافكار المشتقة ، واذا نحن اتبعنا في هذه الحال قوانين الجدلية كما قررها هيغل وجدنا انفسنا ، حتى قبل ان ندرك ذلك ،

من جديد بين براثن « **تطور المفاهيم** الذاتي وههنا يكمن الخطر العلمي الاكبر بالنسبة الى منطق التناقضات الهيغلي» ( يجب ان نقرأ هذا **خطر منطق التناقضات**.
ونقول ان السيدة كانتسيل ترجمت الهر برنشتاين بصورة رديئة ) ص ٣٧ )
واما اخفق ماركس وانجلز في رؤية هذا الخطر عجزا عن تفاديه ، وبالتالي غالبا ما ورطتهما طريقتهما الخاصة في الخطأ هكذا على سبيل المثال في **بيان الحزب الشيوعي** ، عبرا عن الفكرة القائلة ان الثورة البورجوازية يمكن في المانيا ان تكون المقدمة المباشرة لثورة العمال (١٦٩) وقد تبين ان هذه الفرضية ( **يمكن** ان تكون ) عديمة الاساس فالثورة البورجوازية لعام ١٨٤٨ لم تخدم كمقدمة مباشرة لثورة العمال لماذا اخطأ ماركس وانجلز ؟ لانهما اعتنقا الجدلية هذا على الاقل ما يقوله الهر برنشتاين ومثال آخر نظرا لان انجلز في عام ١٨٥٥ ، وهو يكتب بمناسبة طبعة جديدة لكتيب ماركس **Enthüllungen über den Kommunistenprozess** ،
وفي عام ١٨٨٧ في مقدمة كتيبه **Zur Wohnungsfrage** عبر عن آراء يصعب في راي الهر برنشتاين ، توفيقها مع موقفه السنبي العنيف ضد التمرد الشهير للشباب في الاشتراكية الديموقراطية الالمانية الذي وقع بعد عدة سنوات(١٧٠) ،
فان **الاثم هنا ايضا على عاتق الجدلية** . واذا كان لدى القارىء ادنى شك في هذا الموضوع فما عليه الا ان يطالع هذه الفقرة هذا الالتباس الذي لا يتفق البتة مع خلق انجلز نشأ آخر الامر من الجدلية المستعارة من هيغل » ( ص ٤٤ ) ، وانه لما يؤسف له بما فيه الكفاية ان هذه العبارة لا تتضمن ادنى اثر « للالتباس »
واذا انت اقتنعت بذلك وسألت الهر برنشتاين عن السبب في ان الجدلية تؤول الى الالتباس حصلت على التفسير التالي ان ما تنطوي عليه من نعم هي لا ولا هي نعم ، بدلا من « نعم هي نعم ولا هي لا » ، ومن انتقال متبادل للتعارض ، ومن تحول للدمية الى الكيفية ، وغير ذلك من اللآلىء الجدليـة ، كانت على الدوام عقبة في طريق فكرة واضحة عن اهمية التغيرات المعترف بها ( الصفحة نفسها )
اذا كانت اللآلىء الجدلية » قد عرقلت **على الدوام** ايـة فكرة واضحة عن التغيرات الجارية في الواقع ، فالطريقة الجدلية خاطئة بكل وضوح اذن في جوهرها بالذات ومن الواجب ان يرفضها كليـا اولئك الذين يطمحون ، وهـم يعزّون الحقيقة ، الى فهم سديد للطبيعة والحياة الاجتماعية والمسألة الوحيدة التي تبقى دون حل في هذا الصدد هي كيف امكن للآلىء الجدلية الابعد ما تكون عـن الجمال ان تقود هيغل وفلسفته التاريخية الى « اكتشاف انتروبولوجي على وجـه التقريب ؟ ان الكلمات القليلـة « **على وجه التقريب** » التي يشدد الهر برنشتاين عليها بكل ثقل لا تفسر شيئا في هذه الحالة ولا يمكن ان تخدم الا من حيث هي اثبات جديد للحقيقة القديمة بأن الكلمات لا تكون في موضعها الا حين تنعدم **الافكار**(١٧١)
وعلى أي حال ، فقد كان في الامكان اهداء هذا « الالتباس للهر برنشتاين لو انه

قام بادنى محاولة **للبرهان** على صواب رايه بخصوص ضرر اللآلىء الجدلية ؟.
ومهما يكن من أمر ، فان البراهين عنده معدومة بكل وضوح فليس عنده مكان يأتي بها منه **طالما انه كان هو نفسه على قدر كبير من الجسارة ليؤكد انه لم يدرس** هيغل قط ولو خطر له ان يدعي دراسته ، فسوف يكون من السهل جدا بيان **انه .. على ضلال .** وهذا هو السبب في ان الهر برنشتاين لم يحاول البرهان على رايه الذي **نادى** به بكل بساطة ، معتقدا بحق ان القراء السذج متوفرون في كل مكان دائما وهم لن يصدقوه فحسب ، بل سوف يعجبون بعمق تفكيره

## ٢

يقول الرومان : **Hadent sua Fata Libclli** . وان للكتاب مصائرهم ايضا وهي مصائر عجيبة في الاحايين ولنأخذ هيغل مثالا ما **أقل** اولئك الذين تكبدوا عناء دراسة فلسفته وفي الوقت نفسه ما **اكثر** اولئك النقاد الذين يسمحون لانفسهم باصدار حكم عليها كيفما اتفق وان هؤلاء الطائشين بالذات سوف يصدمون بعمق اذا اخذ امرؤ على عاتقه ادانة كتاب الهر برنشتاين حتى دون قراءته. لماذا هذا الفارق في المقاييس ؟ ما السبب في ان مثل هذا الطيش جائز بصدد هيغل العظيم فيما هو يعتبر على العموم غير جائز بصدد هر برنشتاين الحقير ؟
That is the question *

لو كان الهر برنشتاين عارفا بالموضوع الذي يحكم عليه بمثل هذه السذاجة وهذه الخراقة لانتابه بكل تأكيد الخجل لرايه في الجدلية انه يعتقد ان العبارة الجدلية نعم هي لا ولا هي نعم اذ تعوق اتخاذ موقف رزين حيال الواقع تضعنا في قبضة تطور المفاهيم الذاتي لكن ذلك هو بالضبط عيب التفكير الميتافيزيائي الذي يصف الهر برنشتاين الاعيبه بالصيغة نعم هي نعم ولا هي لا
يقول هيغل

ينزع الشباب الى الانخراط في التجريدات فيما المرء الذي اختبر الحياة لا ينساق مع العبارة التجريدية اما او بل يتشبث بالارض المشخصة

ان في مكنة هذه الكلمات القليلة ان توفر لنا وصفا مرضيا للفارق بين الجدلية من جهة والتفكير وفقا للصيغة التالية العزيزة جدا على الهر برنشتاين نعم هي نعم ولا هي لا من جهة ثانية

وهذه الصيغة لا تختلف في شيء عن « **العبارة المجردة اما ... او** » ، هذا النزوع المميز للشباب في رأي هيغل واما ان « **الصيغة المجردة اما ... او** » اعاقت لمدة طويلة من الزمن طرح المسائل بصورة مناسبة في الحياة الاجتماعية وحتى في العلوم الطبيعية فهذا امر معروف حاليا لدى الناس جميعا وفي بلادنا كشف الراحل

* [ تلك هي المسألة ] .

ن غ تشيرنيشفسكي بصورة شعبية جدا وبالغة الوضوح عن الطبيعة المميزة للموقف الجدلي من موضوع الدراسة فمن وجهة نظر الجدلية

« لا يمكن اصدار حكم محدد بشأن حقيقة محددة الا بعد دراسة جميع الظروف التي تتوقف عليها ومثال ذلك هل المطر نعمة أم شر ؟ هذا سؤال مجرد لا تمكن الاجابة عنه بصورة محددة فالمطر نافع أحيانا لكنه يسبب الضرر في أحيان أخرى وان يكن بصورة اندر ينبغي للمرء أن يسأل بصورة محددة هل كان المطر نافعا هو هطل بعد استكمال زراعة القمح واستمر طوال خمس ساعات ؟ في هذه الحالة يمكن اعطاء جواب محدد أجل لقد كان نافعا

ووفقا لتفسير تشيرنيشفسكي السديد بصورة مطلقة ، فان فلسفة هيغل الجدليــة تنظر الى الظواهر الاجتماعية من الراوية نفسها هــل الحرب مدمرة أم نافعـــة

على العموم لايستطيع المرء أن يجيب هنا بعبارات جازمة: ينبغي للمرء ان يعلم ماهي الحرب المقصودة... لقد كانت معركة ماراتون حدثا عظيم الفائدة فيتاريخ الجنس البشري».

لكن دراسة الظواهر من هذه الزاوية يعني وضع دراستها على **أرض مشخصة.** وهذا هوالسبب فيان الفلسفة الجدلية أقرت، ونحن نستشهد بتشيرنيشفسكي، بأن

العبارات العامة السابقة المستخدمة للحكم على الخير والشر دون أية دراسة للاسباب التي ادت الى قيام ظاهرة محددة ـ هذه المعطيات العامة والمجردة غير كافيــة ليس هناك حقيقة مجردة ؛ فالحقيقة مشخصة دائما

قد يبدو هذا بدهيا للوهلة الاولى ، لكنه ليس كذلك الا بالنسبة الى امرىء **اتخذ ـ بصورة واعية او غير واعية ـ موقف الجدليــة** وهو لا يعتبر ان **« العبارة اما ... أو »** ( وبكلمات اخرى الصيغة « نعم هي نعم ولا هي لا » ) هي الاداة الاهم في التفكير ومثال ذلك اسألوا الكونت ليــون تولستوي ما اذا كانت كلمــات تشيرنيشفسكي عن الحرب التي استشهدنا بها لتونا صحيحة أم لا ، ولسوف يجيب بانها خاطئة تماما طالما ان الحرب **شر** ، والشر لا يمكن قط ان يكون **خيرا** . ان الكونت تولستوي يصدر الاحكام على سائر المسائل من وجهة نظر **« العبارة المجردة اما ... أو »** ، الامر الذي يجرد استنتاجاته من أي معنى جدي ، والجدلية غريبة كليا عنه من من حيث هو **مفكر** ، الامر الذي يفسر على أي حال نفوره الفريزي من الماركسية وانه لامر يؤسف له ان تشيرنيشفسكي نفسه غالبا ما نسي ان الحقيقة مشخصة دائما فقد كان هو نفسه ، في اقتصاده السياسي ، ميالا في الاغلب الى **« العبارة المجردة اما ... او »** ، لكن هذه الحقيقة التي لا مراء فيها لا تهمنا مطلقا في الوقت الحاضر فما يهمنا هو ان نذكر قراءنا كيف أن تشيرنيشفسكي فهم بصورة جيدة جدا واوضح بصورة بسيطة جدا ومعبرة جدا ( في كتابه **دراسات عن العصر الغوغولي في الادب الروسي** ) التنافر بين النظر الجدلية والاحكام المجردة .

كثيرا ما يسأل الفوضويون الاشتراكيين الديموقراطيين ما اذا كانوا **يعترفون** بحرية الفرد ، وهو ما يرد عليه هؤلاء بانهم يفعلون ، لكن بصورة اتفاقية **فقط** ، **لان الحرية المطلقة** بالنسبة الى الشخص الواحد تعني **العبودية المطلقة** بالنسبة الى جميع الناس من حوله ، يعني **تحول الحرية الى ضدها** ولا يحب الفوضويون **هذا** النوع من الاجوبة وهم فيما يبدو يعتبرون بصدق الاشتراكيين الديموقراطيين **اعداء للحرية** ، وقد طالبوا من جانبهم للفرد **بالحرية غير المحدودة** ، يعني المطلقة ان انقلاب الحرية الى نقيضها امر لا يرون فيه الا سفسطة مجردة او — كما يمكن ان يعبر احدهم عن ذلك بعد تعرفه الى مصطلحات الهر برنشتاين — **احدى لآلىء الجدلية الهيغلية** . ان العقيدة الفوضوية عن الحرية مشربة تماما بروح « **العبارة المجردة اما ... او** ( **اما** الحرية **او** الطغيان ) ،وهي مبنية كليا على الصيغة المؤيدة جدا من الهر برنشتاين « **نعم هي نعم ولا هي لا** » ، بينما ينظر الاشتراكيون الديموقراطيون الى مسألة الحرية من **وجهة النظر المشخصة** . انهم يتذكرون انه **لا وجود للحقيقة المجردة** ، وان **الحقيقة مشخصة** . وبهذا الخصوص فهم مشربون **بروح الجدلية** .

ومما لا ريب فيه ان الهر برنشتاين سوف يدين عن طيبة خاطر العقيدة الفوضوية عن الحرية ويوافق على استحالة الحقيقة المجردة وبقدر ما يعبر عن نفسه بهذا المعنى ينتقل الى وجهة نظر **الجدلية** ومهما يكن من شيء ، **فهو سيفعل** ذلك **بصورة غير واعية** ، وبنتيجة ذلك سوف يعجز عن التخلص من اختلاط المفاهيم الذي تردى فيه ان في مكنة السيد جوردان بطل موليير ان يتحدث بنثر **مقبول** دون ان يشك في وجود الحديث المنثور (١٧٢) لكن حين تطرح الجدلية على بساط المناقشة من قبل اناس ليس في مقدورهم سوى استخدام الطريقة الجدلية بصورة غير واعية فلن يقولوا عنها شيئا سوى اللغو الخالص

ان البحث عن الحقيقة المشخصة صفة مميزة للتفكير الجدلي وقد عبر تشيرنيشفسكي عن هذه الفكرة بالذات حين قال ان « تفسير الواقع اصبح الواجب الالزامي للفكر الفلسفي منذ ايام هيغل وان ذلك هو مصدر الاهتمام الفائق بالواقع الذي لم يمنح من قبل اي تفكير والذي شوه بصورة قاسية ارضاء لمستبقات ضيقة

اذا كان الامر كذلك ، وانه لكذلك حقا ، فان في مقدورنا ان نفهم بسهولة الدور الذي لعبته **الجدلية في تطور الاشتراكية من طوباوية الى علم** .

نظر رجال الانوار الفرنسيون في القرن الثامن عشر الى الحياة الاجتماعية من زاوية التعارض المجرد بين الخير والشر وبين العقل والبلاهة وكانوا يترددون في التجريدات باستمرار ويكفينا ان نتذكر موقفهم من **الاقطاعية** التي شاهدوا فيها **عبثا** خالصا ورفضوا بصراحة الاعتراف بأنه كان زمان حيث كانت ، على طريقتها

الخالصة ، نظاما **عقلانيا** للعلاقات الاجتماعية ويستطيع المرء احيانا ان يميز عند الاشتراكيين الطوباويين استياء عميقا من التفكير **المجرد** للقرن الثامن عشر وبالفعل فان بعضهم تخلى، في معالجته **التاريخ** ، عن الصيغة المجردة **« نعم هي نعم ولا هي لا »** في مصلحة وجهة النظر **الجدلية** وعلى اي حال ، فلم يحدث ذلك **الا احيانا** ، فيم ظل غالبيتهم العظمى راضين ، في الغالبية الساحقة من الحالات ، **« بالعبارة المجردة اما ... أو »** ، في دراساتهم عن **الحياة** الاجتماعية ان انظمتهم جميعا مشربة بتلك « اما او ، و اما او » هذه هي ألتي منحت انظمتهم **طبيعتها الطوباوية.**
وكان لا بد للاشتراكية ، كي تتحول من **طوباوية** الى **علم** ، ان تتجاوز هذه الطريقة في التفكير وان ترتفع الى الطريقة الجدلية وماركس وانجلز هما اللذان حققا هذا الاصلاح الضروري في الاشتراكية ، ولم يكن في مكنتهما على أي حال ان يفعلا ذلك **الا لانهما** مرا من قبل بمدرسة الفلسفة الهيغلية ولقد اقرا بنفسهما بكل صراحة بانهما يدينان بالكثير جدا للطريقة الجدلية ، لكن مما يسر الهر برنشتاين ان يكون الامر مغايرا لذلك فقد اخبرنا ان تطور الاشتراكية من طوباوية الى علم تم **رغما** عن الجدلية وليس **بفضلها** . ( ومما لا ريب فيه ان هذه صيغة قوية جدا ، لكنها تفتقر الى البرهان بالضبط مثل الفكرة البارزة التي عبر عنها ذات مرة السيد ل تيخوميروف في كتيبة **لماذا لم اعد ثوريا** ، الا وهي ان الادب الروسي تطور **بفضل** الاوتوقراطية وليس **رغما** عنها )

ان الهر برنشتاين مقتنع بصورة راسخة بان هيغل وتلامذته كانوا يحتقرون المفاهيم ويعتبرونها **ميتافيزيائية** ولقد سبق للقارىء فعلم من كلمات تشيرنيشفسكي مدى الانتباه الوثيق الى الواقع الذي تطلبته فلسفة هيغل الجدلية وعلى أي حال، فالانتباه الوثيق الى الواقع متعذر دون مفاهيم واضحة ، ولذا لا بد للمرء أن يفترض ان الهر برنشتاين في هذه الحالة ايضا اخفق في فهم المفكر الكبير وذلك هو الوضع في الحقيقة ، ويكفينا برهانا عليه ان نقرأ ( وان نفهم بالطبع ) الفقرة ٨٠ من **موسوعة** هيغل الكبيرة ، وهذا نصها

**فقـــرة**

التفكير مثله كمثل الذكاء يتخلف عن المحدودية الواضحة وتميزها من أي محدودية أخرى ؛ انه ينظر الى مثل هذا التجريد المحدود من حيث هو موجود لذاته وحائز على الوجود »

**ملحـق الفقـرة**

يجب ان يمنح التفكير العقلاني حقه في المحل الاول ، كما ينبغي بالطريقة نفسها الاعتراف بالخدمة التي اداها بقدر ما يتعذر دون التفكير العقلاني بلوغ اي شيء راسخ

ومحدد سواء في حقل النظرية او في النشاط العملي وتبدأ المعرفة بان تؤخذ **الاشياء** الموجودة في مميزاتها المحددة هكذا على سبيل المثال في دراسة للطبيعة ، **تقام** الفوارق بين الجواهر المفردة والقوى والانواع ، الخ ويرمز اليها **في** هذا العزل . ويستقيم نجاح العلم اللاحق في الانتقال من وجهة نظر **الاستدلال** ( Ratio ) الى وجهة نظر **العقل** الذي يدرس كلا من هذه الظواهر ـ كما سجلها الاستدلال على **اعتبارها** منفصلة بهوة عن سائر المظاهر الاخرى ـ **في** عملية انتقالها الى ظاهرة اخرى ، **في عملية** استهلالها ودمارها »

كل من يستطيع ان يرى ، وراء **الكلمات** ، **الفكر** المرتبطة بها سوف يوافق ـ دون ان تضايقه مصطلحات هيغل التي يتردد صداها غريبا هذه الايام ـ على **ان** طريق البحث التي يدل عليها هي بالذات الطريق التي توصل العلم حاليا باتباعها ـ العلوم الطبيعية على سبيل المثال ـ الى ابرز منجزاته النظرية

ان هيغل الابعد ما يكون عن تجاهل حقوق **الاستدلال** وبالتالي المفاهيم الواضحة ) يدافع بحزم عن حقوقه حتى في الميادين التي ربما تبدو نائية جدا **عن** العقلاني مثلا في الفلسفة والدين والفن ولقد ابدى الملحوظة الدقيقة القائلة ان أي عمل مسرحي ناجح يفترض عددا من الشخصيات واضحة المعالم **واما** الفلسفة فهي حسب كلماته بالذات ، **تتطلب في المحل الاول** الدقة ( **Präzision** ) في التفكير* !

لكن ما اهمية الطابع الحقيقي للفلسفة الهيغلية بالنسبة الى الهر برنشتاين **؟** وما اهمية **موسوعة** هيغل عموما ، او أي من فقراتها خاصة ، بالنسبة اليه ؟ **انه** يدرك جيدا انه واجد دائما قراء يصفقون له حتى اذا لاحظوا اخطاءه **انه « ينقد » ماركس فعليا ! انه يحاول ان يدمر « العقيدة » الماركسية** وهذا وحده يكفي اليوم ليكسب المرء شهرة طنانة ومن المؤكد انها ليست فكرة سيئة اذا انت درست ما تتصدى لنقده الا ان هذا امر يمكن الاستغناء عنه تماما

ان الهر برنشتاين يعتمد اعتمادا كبيرا على الحس السليم الخاص به ، **لكن** انجلز كان على حق تام حين قال ان الحس السليم ليس بالشيء الحسن **الا حين** لا ينبثق من تخوم كفاءته الخاصة اما حتى اي مدى اندفع الهر **برنشتاين بفعل** كلماته بالذات فهذا ما يبينه الراي التالي الذي عبر عنه **ليس في الكتاب الذي** نستعرض ، بل في مقالة نشرها في **نيوزيت بعد صدور الكتاب**(١٧٣)

يقول انجلز في كتابه الشهير عن لودفيغ فيورباخ ان العالم **كما تراه الجدلية** حصيلة **عمليات** لا تظل فيها **الاشياء** وصورها في الذهن ، **يعني الافكار** ، جامدة **بل** هي في حركة دائمة ويجد الهر برنشتاين « بالطبع » **هذه الموضوعة صحيحة مبدئيا** ( « **Prinzipiel** » ) لكنه لا يدرك ضمن اية حدود تظل صحيحة والطريقة التي

---

* **اعمال هيغل** ، المجلد الرابع ، ص ١٥٠ ـ ١٥١

ينبغي بهـا فهم كلمتي الحركة الدائمة وعلى حد تعبيره ، فان **التبدلات التي تخضع لها عضوية اي انسان معين عاجزة مـع ذلك عن تحويله الى كائن من نوع مختلف تماما** ان مثل هذا العمق في التفكير يمكن ان يحسده عليـه سانشـو بانزا بالذات ومع ذلك هل يعتقد الهر برنشتاين حقا ان هيغل والهيغليين كان يمكن ان تغيب عن انظارهم ولو لبرهة واحدة مثل هذه الحقيقة بالغة العمق وقديمـة العهد وعظيمة الجدارة ؟ لقد استلفت هيغل انتباه المستمعين اليه وكأنه تكهـن بظهور نقاد على طريقة برنشتاين ، الى ان التطور الذي تجتازه اية ظاهرة معينة **لا** يستطيـع ان يحقق **فعليـا** الا الاشياء المحتـواة فيـه من حيث هـي **امكانيـة** ( an sich ) ولقد استشهد **بالنباتات ، قائلا انه** بالرغم من تحول النبتة فهذا التحول يتم بصورة متفقة مع مضغتها بحيث ان النبتة « لا تضيع بكل بساطة في تبدلها غير المتناهي* ومن بعد ، فاحكموا بانفسكم ما اذا كانت ملحوظة الهر برنستاين العميقـة لازمـة !

## ٣

يؤكد الهر برنشتاين ان ماركس بالغ في سرعة التقدم وهذا صحيح بصدد راي ماركس عن تطور المجتمع **الراسمالي** لكن **لماذا** كان ماركس على استعداد لمثل هذه المبالغة ؟ هنا ايضا يلقي الهر برنشتاين اللوم على كاهل **الجدلية** فمرة اخرى يرى **هـذا** المظهر من التأثير الذي تمارسه الجدلية بالغ الضرر والخطر ، وهذا المظهر هو الذي يحمله على الابتعاد عن « آلاء الجدلية ومن سوء الحظ على اي حال ان هذا المظهر لا وجود له الا في مخيلته

فعند هيغل ان عملية الانكار **المنطقية** تقع **خارج الزمان** . ومهما يكن من شيء ، فالعمليات **الفعلية** لانكار ظاهرة طبيعية بظاهرة طبيعية اخرى او نظام اجتماعي بنظام اجتماعي آخر تقررها **في سرعة مجراها ، طبيعتها الخاصة والشروط المشخصة** التي تجري فيها ويشير انجلز في مساجلته مع دوهرنغ وفي كتابه **لودفيغ فيورباخ** الى تطور الكون من حيث هو عملية جدلية هل **بالغ في سرعة هذه العملية** التي تتطلب حسب تعبيره بالذات فترات زمنية طويلة جدا ؟ لا نعتقد ذلك وحتى لو ارتكب هذه الخطيئة فلن يكون الذنب فيها ذنب الجدلية بل بعض الظروف الاخرى: معرفة ناقصة بالعلوم الطبيعية ،او نقص الانتباه للموضوع ، او اي شيء من هـذا القبيل وفي هذه الحال يكون تأثير الجدلية في حكمه على سرعة مثل هذه العمليات مهملا مثله كمثل تأثير سيماء امبراطورة الصين فيها

---

* Vorlesungen über die geschichte der philosophie ، ارستيرتيل ، **اعمال هيغل** ، المجلد الثالث ، ص ٣٤ ـ ٣٥

ولنأخذ مثالا آخر ، وليكن من مجال التاريخ هذه المرة لقد كتب ماركس في كتابه **بؤس الفلسفة** ، في معرض معارضة طريقته الجدلية بتفكير برودون المجرد « تطلب قيام أول انقسام كبير في العمل ، انفصال المدن عن الارياف ثلاثة قرون كاملة في المانيا(١٧٤) » هل بالغ هنا في سرعة التطور التاريخي ؟ لا يبدو ان ثمة اية مبالغة هنا ايضا ، لكنه حتى اذا كان ثمة مثل هذه المبالغة فلا شأن للجدلية بها على الاطلاق

وهذا مثال ثالث مأخوذ من الحياة الاجتماعية **المعاصرة** كما يعرف الجميع ، كان لاسال نصيرا حازما للطريقة الجدلية ، لكن هذا النصير الحازم للطريقة الجدلية كان يعتقد انه لا بد من مائة الى مائتي سنة في سبيل القضاء بصورة تدريجية على الملكية العقارية والراسمالية ( des Grund und Kapitaleigenthums ) واذا اصدرنا حكمنا اعتمادا على طريقة الهر برنشتاين في التفكير اليوم ، فمن المتوقع ان يجد مثل هذه الفترة قصيرة جدا ولعله يحسب ، مثله كمثل رودبرتوس ان العملية آنفة الذكر سوف تتطلب وقتا اطول من الوقت الضروري لاعادة بناء المجتمع بناء جذريا . وبالتالي يترتب على ذلك ان الهيغليين ، الذين اتفقوا جميعا على الاعتراف بأهمية الطريقة الجدلية ، يمكن ان يقدروا بأساليب بالغة الاختلاف نسق التطور الاجتماعي المعاصر وبنتيجة ذلك ، فاذا كان اي نصير خصوصي للجدلية يبالغ حقا في تلك السرعة ، فلا بد ان يعزى ذلك لسبب آخر ، لكن ليس الى الجدلية على اي حال .

ويقول الهر برنشتاين نعرف اننا نفكر ونعرف بصورة كافية تماما بأية طريقة نفكر لكننا لن نعلم قط كيف يحدث ذلك ، بأية طريقة ينشأ الوعي من الانطباعات الخارجية ، او من اثارة الاعصاب ، او من تغير في وضع ذرات الدماغ وتفاعلها

صحيح اننا لن نعلم قط كيف ينشأ الوعي فينا ، لكن ليس ذلك هو المقصود هنا ؛ فالمسألة هي ما اذا كان يمكن لجهلنا ان يخدم كاعتراض على **المادية** ان المفكرين النقديين من نمط ف أ لانج ، وحتى الفيزيولوجيين مثل دوبوا ــ ريمون ، يحسبون ان ذلك **ممكن** ؛ اما المؤلف الحالي فرايه ان ذلك **غير ممكن** ولقد برهنا على ذلك بمقتطفات من اعمال لامتري وردت في مقالة ضد الهر برنشتاين(١٧٥) ولقد استاء منا الهر برنشتاين لهذه المقالة ، لكنه لم يفهم ايا من اعتراضاتنا كما سوف يرى القارىء الآن

ويستطرد الهر برنشتاين بذلت محاولات لتفسير ذلك بأن يعزى الى الذرة درجة معينة من القدرة على الوعي ، درجة من الاحياء بمعنى عقيدة الوحدة

وفي الحقيقة **بذلت محاولات** وكان في عداد مؤلفي هذه المحاولات كما اشرنا في مقالتنا المادي لامتري ، بالرغم من ان المقارنة بين عقيدته وعقيدة ليبنز عن الوحدات متكلفة نوعا ما . ولا يقول الهر برنشتاين شيئا عن لامتري نفسه ،

بالرغم من انه يفكر عموما ، ان « هذه ( المقصود المحاولة آنفة الذكر ) صورة في الذهن ، افتراض فرضه علينا اسلوبنا في التفكير وحاجتنا الى نظرة متكاملة عن العالم

اذا فهم القارىء هذا فلا يسعنا الا أن نهنئه بكل صدق لإنه كان اسعد حظا من كاتب هذه السطور ، او من الهر برنشتاين نفسه الذي لا يبدو انه يفهم ما يقول. **ليس هذا اكثر من ظن !** من المؤكد انه ليس كذلك ! هذا أمر لم يتمكن الهر برنشتاين من فهمه الا حين قرر انكار المادية ، في حين ان اي امرىء يملك أدنى فهم عن الموضوع قد حسب « هذا » هذه شيئا آخر

لكن ما الذي يترتب على كون « هذا » هذه مجرد ظن ؟ أيترتب عليه ان المادية عقيدة جوفاء ؟ ذلك هو السؤال الذي لا نصادف اية **« ذرة »** من جواب عنه لا في تمارين الهر برنشتاين « النقدية السابقة ولا في الكتاب الذي نستعرضه

ولنستطرد « ان مقالة اشرت فيها الى هذا الظرف ولاحظت ان المادية الخالصة هي مثالية آخر الامر زودت السيد بليخانوف بذريعة لمهاجمتي في **نيوزيت** العدد ٤٤ السنة السادسة عشرة القسم الثاني (١٧٤) ) ، موجها الي تهمة الجهل عامة ، والانعدام التام لاي فهم لاراء انجلز الفلسفية خاصة ولا اقول شيئا عن تصرف السيد بليخانوف الاعتباطي حين حمل كلماتي أشارة الى امور لم اتطرق لها ؛ لقد قررت فقط ان مقالته تنتهي ببيان يفيد أن انجلز ، مجيبا عن سؤال للسيد بليخانوف اذن هل تعتقد ان سبينوزا العجوز كان مصيبا حين قال ان الفكر والامتداد ليسا سوى صفتين لنفس الجوهر الواحد ؟ ، قال « طبعا ، لقد كان سبينوزا العجوز على حق

في الحقيقة ان كاتب هذه السطور دهش بشدة حين شاهد مبلغ ضآلة فهم الهر برنشتاين لفلسفة انجلز ( وبالتالي فلسفة ماركس ايضا ) بالرغم من انه قضى سنوات عديدة وهو على صلة وثيقة بانجلز لقد دعونا الهر برنشتاين ، ردا على ندائه **« العودة الى كانط »** ، لان **يعود الى دراسة الفلسفة** ( zurük ins Studierzimmer ) ، ولم نبحث عن أية ذريعة للهجوم على الهر برنشتاين واذا كانت دهشتنا تظاهرت بشيء من الحدة فينبغي تعليل هذا الاحتداد بعلاقاتنا السابقة مع الهر برنشتاين وعلى الرغم من انه بدا لنا على الدوام **« ضيق الفكر »** ( وهذا ما يمكن ان يشهد عليه الكثيرون من اوثق رفاقنا ) فقد كنا نعتبره كذلك احد أفراد مدرسة ماركس ، وذهلنا **للتفاهات** الصبيانية **حقا التي كتبها عن المادية .**
ولعل بعض القراء وجدوا وقتذاك ان رأينا فيه ، المصاغ بكلمات قاسية ، ظالم حتى درجة ما ، لكنه يندر اليوم أن يصادف امرؤ يدعي بعض المعرفة ويتجاسر على اتهامنا بالمبالغة **ان الجهل الفلسفي لدى الهر برنشتاين انكشف حاليا بكل بهائه** ، بحيث لن ندعوه حتى للعودة الى كتبه المدرسية **اننا نستطيع ان نرى ان الكتب المدرسية لم تكتب لامثاله .**

المدية الخالصة هي مثالية آخر الامر لكن أتكون في هذه الحال فلسفة فخته وهيغل آخر الامر فلسفة لامتري ودولباخ ؟ هذا ما لا يمكن ان يؤكده الا امرؤ لا يملك أي فهم للمادية والمثالية ودولباخ ولامتري وهيغل وفخته مما لا ريب فيه ان للمثالية صفة مشتركة مع المادية السعي الى تعليل **احادي** للظواهر ومهما يكن من شيء ، فان **الاسلوب** الذي يتجسد هذا السعي فيه هو **في المادية على طرفي نقيض** مع الاسلوب الذي يتجسد فيه في **المثالية** ، وهو السبب في ان المادية ، « آخر الامر » ، **تبتعد بصورة جذرية** عن المثالية

كن من واجب الهر برنشتاين في دعوته الى **« العودة الى كانط »** ان يبين ان الطريق التي تسلكها المادية خاطئة من وجهة نظر ما لكنه اقتصر بدلا من ذلك على « ارجاع » ( وياله من ارجاع اخرق وساذج ) المادية الى المثالية يا له من نقد شديد وعميق بصورة تبعث على الذهول !

وفيما يخص سبينوزا ، فان السيدة كانستل ترجمت بصورة رديئة جدا الفقرة المتعلقة به في كتاب الهر برنشتاين ويقول الهر برنشتاين ان مقالتنا المكتوبة عن « عودته الى كانط » ( الذي لم يعرفه قط ، كما يشهد على ذلك حتى زميله في التفكير السيد ستروفه ) ، ترتد الى حواري مع انجلز الذي اورده هذا غير صحيح

ان رفيقا المانيا اكفأ في قضايا الفلسفة من الهر برنشتاين حتى درجة بعيدة عبر في **نيوزيت** عن الفكرة بأن المادية ، كما هي مؤسسة على العلوم الطبيعية ، **لا تصمد** للنقد ، ولا يجوز ربطها بنظرية ماركس وانجلز التي يمكن ربطها بكل سهونة بنظام **سبينوزا** الفلسفي الاكثر صلاحية بصورة فائقة ونظرا لان الهر برنشتاين اشار بصورة عابرة الى مقالة هذا الرفيق وجدنا من الضرورة بمكان ان نرد **عليها ايضا** .

لقد بينا ان ماركس وانجلز لم يعتنقا قط المادية التي سماها الرفيق السبينوزي مادية العلوم الطبيعية ، يعني مادية فوغت وموليشوت وفيما عدا ذلك بينا ، بالاستناد الى كتب لامتري وديدرو ، ان المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر لم تكن في جوهرها **شيئا آخر سوى تعديل للسبينوزية** ولقد بينا الامر نفسه بصدد **فيورباخ** ايضا **وبعد ذلك** فقط ، حين انتقلنا الى ماركس وانجلز مؤسسي الاشتراكية العلمية ، عبرنا عن قناعتنا ، اذ لاحظنا القرابة الوثيقة بين آرائهم الفلسفية واراء فيورباخ ، بأن ماديتهما كانت هي الاخرى نوعا من السبينوزية واخيرا اشرنا الى محادثاتنا مع انجلز على اعتبارها **احد اسس** هذه القناعة ويبدو ان مقالتنا فيما يتعلق بالهر برنشتاين ، يمكن ان ترد **بمجموعها** الى ذلك الحوار إلام يجب ان تنسب هذه الكلمات الى انعدام الصدق او انعدام الفهم ؟

ويستطرد الهر برنشتاين قائلا عند سبينوزا الله هو هذا الجوهر الذي ينسب اليه هاتين الصفتين وعلى اي حال ، فسبينوزا يوحد الله مع الطبيعة ، وهو السبب في انه هوجم طويلا على اعتباره ناكرا الله ، فيما رفضت فلسفته على

لقد توصل سبينوزا الى فكرة « الله » من حيث هو جوهر لامتناه يتحلى بالصفتين آنفتي الذكر، وبصفات اخرى ايضا ، وذلك بطريقة تأملية خالصة ، وعنده ان الفكر الخاضع لقوانين والوجود متماثلان ومن وجهة النظر هذه يشبه بعض الماديين ، لكن تسميته ممثلا للفلسفة المادية معناه فهم هذه العبارة بصورة اعتباطية فاذا كان المرء يقصد عموما بكلمة « مادية » شيئا محددا ، فلا يمكن اذن ان يكون هذا الشيء سوى عقيدة المادة من حيث هي الاساس الاولي والوحيد للاشياء لكن سبينوزا وصف بوضوح تام جوهره « الله على اعتباره غير جسدي ان اي امرىء حر بالطبع في ان يكون سبينوزيا ، سوى انه لن يكون ماديا في هذه الحال »

هذا كل ما استطاع الهر برنشتاين قوله ردا على ملحوظتنا التاريخية ، وليس هو بالشيء الكثير ومهما يكن من شيء ، فان في مقدور المرء ان يطبق على هـذا القليل ، بمعنى ما ، التعبير اللاتيني non multa , sed multum

يشبه سبينوزا بعض الماديين اذ يرى ان التفكير الخاضع لقوانين والوجود متماثلان حسن جدا وبنتيجة ذلك فثمة ماديون يقرون بوحدة الوجود والفكر وانه ليبدو انهم يفعلون ذلك غير ان هذا هراء ، ولو ان الهر برنشتاين **فهم المعنى** الفعلي للكلمات **وحدة الوجود والفكر** ، لما اكتشف بكل تأكيد هذه الوحدة لدى اي مادي على الاطلاق وبالتالي — وهي ميزة جديدة وعظيمة جدا ايضا لتفهم الموضوع — لما قال ان المادية الخالصة هي مثالية آخر الامر وعلى اي حال ، فهو لا يفهم ما يتحدث عنه ، وبالتالي فهو اخرق وعاجز في استخدامه المصطلحات الفلسفية مثل « الساحر ( في قصة غليب اوسبنسكي **اغاني العوز** ) في استخدامه اللغة الادبية حين وعد بأن يعرض امام السيدات والسادة المشاهدين قطع راس الراس والانف واجزاء البدن الاخرى »

لو ان سبينوزا اقر بوحدة الوجود والفكر لكان مثاليا « **خالصا** » ، يعني ما لم يحدث له قط ان جوهره الاوحد **مادي وروحي على السواء في وقت واحد*** وعلى اي حال ، فان سبينوزا ، كما يقول برنشتاين ، « **وصف هذا الجوهر بوضوح» من حيث هو غير جسدي** لشد ما فهم سبينوزا بصورة جيدة جيدة بقدر فهمه لهيغل على وجه التقريب

هذه الاخطاء جميعا التي يرتكبها الهر برنشتاين واضحة جيدا ولا تغتفر مطلقا ، وهي تشهد على عجز تام ومطلق في حقل الفلسفة بحيث يمكن للقارىء ان يسأل ما اذا كانت اهلا للتوقف عندها ومهما يكن من أمر ، فان كل من ينزع ولو للحظة واحدة الى اعطاء جواب **سالب** عن هذا السؤال يرتكب خطأ جسيما

---

* انظر **الاخلاق عند سبينوزا** ، المجلد الثاني ، ص ٧٧ — ٨٠ .

## ٤

ان البورجوازية التي غمرتها الفرحة للانقلاب الذي طرأ على الهر برنشتاين تمجد الان هذا « الناقد » ايما تمجيد ، فمآثره من حيث هو « ناقد » ينادى بها من على اسطح المنازل بحيث يمكن لتحليل دقيق لحججه ان يوفر عددا كبيرا من الوثائق ذات الاهمية البالغة في وصف عصرنا . وفيما عدا ذلك ، فان انكار الهر برنشتاين للمادية وسعيه الى **« العودة الى كانط * »** ليسا مجرد خطيئة يرتكبها ذهن فلسفي ( هذا اذا كان في مقدور المرء ان يتحدث عن ذهن فلسفي للهر برنشتاين ) ؛ لا ، بل كانا تعبيرا طبيعيا وحتميا وحيا عن منازعه الاجتماعية السياسية الحالية التي يمكن التعبير عنها بهذه الكلمات : **تقارب مع الفئات المتقدمة من البورجوازية** . ويقول :

ما يدعى الطبقة المتوسطة مركب طبقي يتألف من فئات متنوعة ذات مصالح متنافرة ومتفاوتة جدا . وتتماسك هذه الفئات ما دامت سواء في التعرض للاضطهاد او ما دامت سواء في التعرض للخطر . ومن الطبيعي اننا لا نستطيع في هذه الحالة الخصوصية سوى الحديث عن الوضع الاخير . يعني ان البورجوازية تشكل كتلة رجعية متجانسة لان جميع عناصرها مهددة على حد سواء من قبل الاشتراكيين الديموقراطيين ــ البعض في مصالحهم المادية ، والبعض الآخر في مصالحهم الايديولوجية ، يعني ديانتهم ، ووطنيتهم ، ورغبتهم في انقاذ البلاد من اهوال ثورة عنيفة . ( ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩ )

هذه الفقرة القصيرة تزودنا بمفتاح لفهم السيكولوجية في مراجعة المادية التي انخرط فيها الهر برنشتاين . فتفاديا لتهديد المصالح الايديولوجية للبورجوازية ــ وقبل كل شيء ديانتها ــ « عاد الهر برنشتاين الى وجهة نظر **الفلسفة « النقدية »** التي تتفق مع الدين كل الاتفاق ، فيما **المادية مناوئة** له بصورة تامة ولا عودة عنها** ** . وتفاديا « للتهديد » الذي تتعرض له **« الوطنية »** البورجوازية ، انصرف الى دحض موضوعة ماركس القائلة ان البروليتاريا لا وطن لها . والى الحديث عن السياسة الخارجية الالمانية بلهجة « رجل دولة » من المدرسة « الواقعية

---

* وعلى أي حال ، فهو يقول في كتابه انه استعاض حاليا عن عبارة « العودة الى كانط » بعبارة « لنعد الى لانج » . لكن هذا لا يغير في الامر شيئا .

** ادرك القدماء انفسهم ان احدى الخدمات الجلى التي قدمتها المادية الى الحضارة تكمن في هذا المجال . ولقد عبر لوكريس عن هذا الوعي بصورة ممتازة في أطرائه لابيقوروس « حين ترهق حياة الانسان ، فينبطح على الارض وقد سحقه عبء الديانة التي تطل بوجهها من ممالك السماء منقضة على الفانين بسحنة رهيبة ، فان رجلا من اليونان تجاسر اولا فرفع عينيه الفانيتين لمجابهتها ، وكان سباقا الى النهوض لملاقاتها . هذا الرجل لم ترده قصص الآلهة ولا الصواعق ولا السماء بزمجرتها المنتقمة ... »

السياسية واخيرا تفاديا « للتهديد الذي تتعرض له البورجوازية من جانب « **اهوال الثورة العنيفة** » نهض ضد « Zusammenbruchstheorie (التي اصطنعها هو نفسه على اي حال من بعض كلمات ماركس وانجلز التي اساء فهمها جزئيا وشوهها جزئيا ) وحاول ان يبرهن على ان دكتاتورية الطبقة علامة على ثقافة ادنى عن خطوة الى الوراء عن رجعة سياسية ان كل راغب في فهم الهر برنشتاين يجب الا يحاول ان يفهم حججه النظرية التي لا تتضمن سوى الجهل والفكر المختلط بقدر ما يحاول ان يفهم طموحاته السياسية التي تفسر جميع عثراته في ميدان النظرية كما تفسر ارتداده ولقد قال فخته بحق تام **كما يكون الانسان تكون فلسفته** .

< كتب ماركس يقول في **الحوليات الالمانية الفرنسية** (١٧٧) الدين افيون الشعب والفاء الدين من حيث هو هناءة الناس **الوهمية** معناه المطالبة **بهناءتهم الحقيقية** وبالتالي فنقد الدين هو نقد لوادي الدموع (١٧٨)

مما لا ريب فيه أن هذا النمط من اللغة لا يمكن أن يروق للمرائين البورجوازين الذين يحتاجون الى افيون الدين كي يضمنوا لانفسهم شيئا من **الهناءة الوهمية** ، كما لا يمكن ان يروق لاولئك الايديولوجيين البورجوازيين الاكثر موهبة والاعظم جراة الذين يتخمون وقد طرحوا مستبقاتهم الدينية الخاصة ، جماهير الشعب **بالهناءة الوهمية** وقصدهم على وجه الحصر وقاية هذه الجماهير من الهناءة الحقيقية للطبقات الميسورة ومن المفروغ منه أن هؤلاء السادة نهضوا بكل عنف ضد المادية وهم يدينون بصوت مرتفع عقائدية اولئك الثوريين الذين يفضحون الطبيعة الفعلية لدعايتهم المناوئة للمادية >

في كتيب هام عنوانه **اصلاح ام ثورة** يعبر ك. فون ماسوف، وهو ــ Geheimer Regierungsarth , Mitglied der internationalen Kommission für Schutzpflege u.s.w: وباختصار سيد « **محترم** » جدا ، عن يقينه الراسخ بأنه « اذا استمر تطورنا كما هو جار حتى الوقت الراهن فلا بد ان يتعرض وطننا الام اذن في المستقبل لخطر الثورة الاجتماعية Vorwort ص ١ ) وفي رأيه ان المطلوب في سبيل تحاشي هذه الثورة هو اصلاح شامل ( eine Gosammtreform auf staatlichem und sozialem Gebiet )، وهو مطلب يعالجه كتابه. بيد ان برنامجه للاصلاح الشامل لا يحول دون النضال ضد « القوى الثورية ( die Mächte des Umsturzes ) فقبل وقوع الانفجار الثوري ينبغي مكافحة تلك القوى بالسلاح **الروحي** ( mit geistigen Waffen ) وفي هذا النضال ينبغي توجيه الجهد اولا وقبل كل شيء **ضد المادية** . ومهما يكن من شيء ، فان الهر فون ماسوف يعتقد ان النضال ضد المادية سوف يقوم به على افضل وجه اولئك الخصوم للقوى الثورية » الذين سوف يفتسلون من صبغة المادية ويبشر قائلا : « ان العدو

الذي ينبغي لنا مكافحته في المحل الاول هو المادية في وسطنا بالذات » ان الاشتراكية الديموقراطية مادية النزعة كليا ، فهي تنكر الله والخلود » ( كذا ) لكن من اين استعيرت تلك العقيدة ؟ الم تنحدر من فوق ؟ ان الغالبيـة العظمى من المثقفين في ازماننا اعرضوا عن ايمان آبائهم ان قسما من العالم المثقف ملحد تماما* ».
وان عواقب الالحاد الاجتماعية تبعث على الهلع اذا لم يكن هناك اله ولا حياة بعد القبر ولا خلود ، اذا كانت النفس تكف عن الوجود مع وقوع الموت بالضبط فان البؤس والكوارث التي يعاني منها قسم من الجنس البشري ، هـذا القسم الذي يتعذب فيمـا القسم الاخر يستمتع بالتخمـة ، تصبح أشد ظلمـا مائتين او ثلاثمائة مرة لماذا يجب ان يتحمل تسعة اعشار الشعب عبء الحياة الباهظ ، بينما الاقلية حرة من اي عبء** » ؟

هذا سؤال لا يستطيـع الملحدون اعطاء جواب مرض عنه الا ان الخطـر الاجتماعي للالحاد يكمن ههنا على وجه الدقة ، فهو ينهض ويشجع المشاعر الثورية لدى الجماهير الكادحة. وهذا هو السبب في ان صاحبنا Geheimer Regierungsrath الخ، الخ، يبشر البورجوازية المثقفة بالتوبة وبالنضال ضد المادية. ان الهر فون ماسوف رجل ذكي ، وهو اذكى جدا من جميع اولئك « الماركسيين » الذين يتعاطفون بصدق مع الطبقة العاملة وفي الوقت نفسه ينصرفون بما لا يقل من الصدق الى الفلسفة النقدية مثل هؤلاء الناس يعتنقون فهما ماديا للتاريخ ، لكنهم يدهشون ايمـا دهشة حين يخبرون عن الاسباب الاجتماعية ، يعني الاقتصادية في آخر الامر لذلك الموقف السلبي حيال المادية وذلك الانتشار للكانطية الجديدة المشاهدين بين البورجوازية المثقفة في ايامنا الحاضرة

## ٥

لكن لنرجع الى الهر برنشتاين ان الفصـل الختامي لكتابه مزين بهـذه التوطئة كانط ضد النفاق وحين يفسر الهر برنشتاين معنى هذه التوطئة يقول انه استدعى روح فيلسوف كونغسبورغ في سبيل النضال ضد اصطلاحيـة الاراء البالية التي تسعى الى تأكيد ذاتها في الاشتراكية الديموقراطية والتي تشكل خطرا كبيرا عليهـا ان نوبات الغضب التي اثرتهـا بذلك لدى السيد ب بليخانوف ثبتتني في اليقين بحاجة الاشتراكية الديموقراطية الى كانط جديد يخضع العقيدة القديمة لغربلة اخلاقية صارمة وبذلك يبين ان ماديتها المزعومة هي الايديولوجية الاعلى تضليلا، وبالتالي الايسر تضليلا اذن، ويظهر ان ازدراء ما هو مثالي

---

* المصدر نفسه ، ص ٢٢٢

** المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣

والارتفاع بالعوامل المادية الى مستوى قوى التطور الجبارة خداع للذات وهو بما كان على الدوام بالفعل ، رأى اولئك الذين يبشرون بها » ( ص ٣٣٠ ) وان القارىء ليعاني الامرين في فهم ما يقصده « بالمادية المزعومة و خداع الذات » — والاكثر من ذلك انه خداع مقصود تماما « بالفعل والتفسير بسيط جدا ففي راي الهر برنشتاين ان خداع الذات امر لا مفر منه حيثما وجد اناس يعتبرون العوامل الاقتصادية جبارة ، فيما هم قمينون بالفعل ، في الوقت ذاته ، بالانضواء على مثل عليا . ويكفي هذا وحده ليبين اقتراب الهر برنشتاين حاليا من السيد كاربيف وبالتالي مبلغ ابتعاده عن اي نقد جدي للماركسية وفي سبيل الحصول على برهان دامغ على ذلك يكفي المرء ان يقرأ الصفحات التي يكرسها الهر برنشتاين لتقييم آراء ماركس وانجلز التاريخية فمطالعة هذه الصفحات يقف لها شعر الراس بمعنى الكلمة الحرفي ونظرا لضيق المكان لن نحللها هنا ، بل نحيل القارىء الطلعة الى ما قاله بشأنها كارل كاوتسكي في كتابه **برنشتان وبرنامج الاشتراكية الديموقراطية** وما قلناه نحن في مقدمة الطبعة الجديدة من **بيان الحزب الشيوعي*** (١٧٩) وسوف نقتصر هنا على تسجيل هذه الغرابة التي تتعلق على اي حال بنقد ليس هو فلسفيا تاريخيا للمادية ، بل هو نقد فلسفي ليس غير يقول الهر برنشتاين تحتوي عبارة « الفهم المادي للتاريخ ، بصورة مسبقة ، على جميع المغالطات المرتبطة عامة بمفهوم المادية فالمادية الفلسفية او المادية الطبيعية التاريخية حتمية النزعة تماما ، وهو ما لا يمكن ان يقال عن الفهم الماركسي للتاريخ الذي لا يمنح الاساس الاقتصادي لحياة الشعوب أي تأثير في اشكالها يكون حاسما بصورة مطلقة ص ٢٣ — ٢٤ ) وهذا يضاهي التأكيد بان نصير الحتمية هو ذلك الذي يمنح اساس الحياة الاقتصادي تأثيرا في **اشكال** الحياة حاسما بصورة مطلقة ( ؟ لا بد ان يكون هذا اوج الجهالة والخراقة الا انه ليس بكل شيء ففي وقت لاحق ، حين اشار كاوتسكي في **نيوزيت** الى انه يتعذر دون الحتمية تقديم اي تعليل علمي للظواهر ، اسرع « ناقدنا للمناداة بأنه تمرد ضد الحتمية **المادية** وحدها التي تستقيم في تعليل الظواهر السيكولوجية بعمل المادة ، فيما

* ملحوظة بصورة عابرة لا يوافق الهر برنشتاين على تعبيرنا التحليل الاحادي للتاريخ فعنده ان كلمة احادي مرادفة لكلمة تبسيطي وتفاديا للدخول في تفسيرات مطولة للسبب في التعليل « الاحادي » للتاريخ اساسي نقول بكلمات نيوتن لا يجوز للمرء ان يقبل باسباب للظواهر الطبيعية اكثر من تلك الاسباب الحقيقية والكافية لتفسيرها ولا يفهم الهر برنشتاين انه اذا كان تطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية — في آخر تحليل — لا يشكل السبب الجذري لتطور ما يسمى العامل الروحي فان هذا العامل الاخير يتطور من تلقاء نفسه ، وليس هذا التطور الذاتي للعامل الروحي سوى نوع من « تطور الافكار الذاتي » الذي حذر « ناقدنا قراءه منه على اعتباره احد العلوم الاشد خطرا في الجدلية الهيغلية .

هو ، الهر برنشتاين يعترف ايضا بعمل **مبدأ آخر** وهكذا انتهى الهر برنشتاين بأمان الى ملاذ **الازدواجية** المسالم الذي يحمل مدخله هذه العبارة البناءة : **« صنع الانسان من جسد ونفس »** ومرة اخرى ، فهذه هي **عقيدة كارييف** التي يعرفها القارىء الروسي جيدا ، لكنها لا تتفق الا قليلا جدا مع الكانطية التي يرغب الهر برنشتاين في « العودة » اليها فكانط يؤكد بصورة جازمة ان جميع افعال الكائنات العقلانية بقدر ما هي ظواهر وبقدر ما نصادفها بطريقة او اخرى في تجربتنا ، خاضعة للضرورة الطبيعية ( **المقدمة** الفقرة ٥٣ ) أيجب ان يفهم من ذلك ان الظواهر تخضع للضرورة الطبيعية ؟ انه يعني على وجه الدقة انه ينبغي تفسيرها ماديا ( راجع **نقد العقل العملي** ، الفقرة ٧٨ ) وبنتيجة ذلك يتضح ان الهر برنشتاين لم يتمرد ضد الماديين فحسب ، **بل ضد كانط ايضا** ، وغرضه الوحيد من ذلك تحاشي اي **تهديد لمصالح** البورجوازية الايديولوجية ، يعني تحاشي الهجوم على النفاق البورجوازي النفاق ضد كانط ـ **هذا هو الشعار الذي كان ينبغي للهر برنشتاين انتقاؤه**

فاذا كان الهر برنشتاين رفض **المادية** تحاشيا « لتهديد احدى المصالح الايديولوجية للبورجوازية المعروفة باسم **الدين** ، فان رفضه **للجدلية** نجم عن احجامه عن اخافة البورجوازية نفسها **« باهوال ثورة عنيفة »** ولقد قلنا اعلاه انه ربما كان هو نفسه راغبا عن ادانة **« العبارة المجردة اما ... او »** التي لا تأخذ بعين الاعتبار شروط المكان والزمان ، وهو السبب في استخدامه الطريقة الجدلية بصورة غير شعورية هذا صحيح كفاية ، لكن ينبغي أن نضيف الآن انه لا يتخذ موقفا جدليا بصورة مشخصة الا في تلك الحالات وحدها وبقدر ما تشكل الجدلية **سلاحا مناسبا في النضال ضد الراديكالية الوهمية « للثوريين » الذين يتبع تفكيرهم صيغة « نعم هي نعم ولا هي لا »** . وتلك هي الحالات حيث يتحول اي **منافق** الى **جدلي** . بيد ان الهربرنشتاين بالذات هو على استعداد ـ جنبا الى جنب مع سائر المنافقين في العالم ـ للتفوه بأي هراء ضد الجدلية ورفع اسخف الاتهامات بحقها كلما حسب ان ذلك يمكن ان يعوق تقوية وتنمية الطموحات الثورية في ميدان الاشتراكية ويقول ماركس ان الجدلية اصبحت في الازمان القديمة الطيبة الزي الشائع لدى البورجوازيين الصغار الالمان حين لم يعرفوها الا في شكلها الصوفي وتوهموا انها يمكن ان تفيد في تسويغ طموحاتهم المحافظة ، لكنهم تحولوا ضدها حين علموا طبيعتها الحقيقية وادركوا انها تنظر الى جميع الاشياء التي في الوجود من وجهة نظر زوالها، وانها لا تتوقف عند شيء ولا تخاف شيئا ، وباختصار انها **ثورية في جوهرها**(١٨٠) . وهذا الموقف نفسه حيال الجدلية يشاهد عند الهر برنشتاين الذي تكشف سيكولوجيته بأسرها عن كونه ذرية للنزعة البورجوازية الصغيرة الالمانية وهذا هو السبب في ان « نقده » لقي الترحيب لدى البورجوازيين الصغار الالمان بهتافات

الفرح العالية والطويلة ، وفي انهم عدوه في عداد العظماء   ان الطيور على اشكالها تقـــع

وهكذا فان الهر برنشتاين ، حتى لا يهدد البورجوازية « بأهوال ثـورة عنيفـة Zusammenbruchstheorie تمرد ضد الجدليـة ونهض مسلحا ضد التي اخترعها هو نفسه وفي الوقت نفسه ، وسعيا وراء الهدف نفسه يتصرف كما لو كان بنذار **الديموقراطية ،** فيقول الديموقراطية مبدئيا هي دمار السيطرة الطبقية ان لم تكن الدمار الفعلي للطبقات نفسها ص ٢٢٥ ) اننا ندرك جيدا جميع ميزات الديموقراطية وسائر الفوائد التي تعود بها على الطبقة العاملة فينضالها في سبيل التحرر ومهما يكن من شيء ، فنحن لا نريد ان نشوه الحقيقة حتى في مصلحة الديموقراطية ، بالضبط كما لا نرغب في الانسياق مع المبالغة غير اللائقة اما ان الديموقراطية تدمر السيطرة الطبقيـة فليس هـذا سوى اختراع للهر برنشتاين ان الديموقراطية تتيح لتلك السيطرة الوجود في منطقة يخصها مفهوم الطبقة بكل معنى الكلمـة ، اعني **ميدان الاقتصاد** وهي لا تلغي سوى **الامتيازات السياسية** للطبقات العليا وهذا هو السبب في انهـا لا تدمر السيادة **الاقتصادية** لطبقة على طبقة اخرى ــ البورجوازية على البروليتاريا ــ ولا تقضي على الصراع بين البروليتاريا والبورجوازية او على الضرورة التي تدفع البروليتاريا الى خوض هذا النضال مستخدمة سائر الوسائل التي تبرهن على **صلاحيتها** في وقت معين ان اي انسان يتمتع بقواه العقلية سوف يوافق ، بعبارات عاقلة ، على ان « اهوال ثورة عنيفة » ، اذا هي **اخذت بحد ذاتها ،** لا تنطوي على اي شيء **مرغوب ،** لكن اي انسان لم تعمه الاتجاهات ضد الثورية لا بد ان يقر ايضا بان الدستور الديموقراطي لا يحول دون امتداد النضال الطبقي الذي قد يجعل الانفجار الثوري والدكتاتورية الثورية امرين لا مفر منهما وليس لدى الهر برنشتاين مبرر لتخويف الثوريين باعتبار ان دكتاتورية الطبقة سوف تكون علامة على مستوى ادنى من الحضارة ان المسألة الاجتماعية الكبرى في عصرنا ــ مسألة الغاء استثمار الانسان للانسان < لا يمكن حلها ــ مثلها كمثل جميع المسائل الاجتماعية الكبرى في العصور السابقة ــ **الا بالقوة .** صحيح ان **القوة لا تعني العنف بعد فالعنف هو أحد أشكال تظاهـر القوة ليس غير ومهما يكـن من شيء ،** فان **اختيار الشكـل** الذي سوف تضطر البروليتاريا الى اظهار قوتها الثورية به **لا يتوقف على ارادتها الطيبة بل على الظروف،** وذلك الشكل الذي يؤول الى الانتصار على العدو بمزيد من السرعة واليقين هو الافضل فاذا تبين ان الثورة العنيفة هي اسلوب العمل الاكثر ملاءمة في بلد معين وفي ظروف معينـة ، فان ذلك الرجل الذي يأتي ضدها باعتبارات مبدئيـة كتلك التي نصادفها في كتابات الهر برنشتاين مستوى متدن من الحضارة « الرجعـة السياسيـة » ، وقس على ذلك انما يبرهن على انـه مذهبي حقير ــ

هــذا اذا لــم يكــن خائنا   ان القتال وجهــا لوجــه > هــو   اذا شئتــم « **رجعة** » حيوانية حيثما حدث   فرجلان متشابكان في القتال يثيران في الذهن صورة حيوانين تتقاتلان   لكن من ذا يعارض مبدئيا ، باستثناء « التولستويين   مقاومة الشر بواسطة القتال وجها لوجه ؟ وهل يمكن ان يصادف انسان جاد يأخذ بلهفة حجج التولستويين التي يدينون بها العنف مبدئيا ؟ انه لمن الواضح بالنسبة الى اي رجل مفكر ان مثل هذه الحجج هي صورة كاريكاتورية غير مقصودة للتفكير وفقا لصيفة « **نعم هي نعم ولا هي لا** » التي يتعشقها الهر برنشتاين كثيرا   والتي هي مماثلة تماما كما نعرف « **للعبارة المجردة اما ... او** » الهيغلية ( العنف **اما** شر **او** خير ) ان   اهوال الثورة العنيفة   هي دائما اكثر او اقل   هولا   كذلك هو الامر ولا يمكن لاي امرىء ان يشك فيــه   ومهما يكن من شيء   فقــد اختار الهــر برنشتاين وسيلة رديئة جدا من اجل تحاشي هذه الاهوال   ان من واجبه ان يتوجه الى البورجوازية وان يبين لاولئك من عناصرها الذين لم يغوصوا بعد في مستنقــع الانانية الطبقية ان محاولة ابطاء الحركة الاشتراكية الحالية يعني اقتراف خطيئــة بغيضة بحق النزعة الانسانية والحضارة   وبقدر ما يحقق تبشيره نجاحا يضعف مقاومة البورجوازية للحركة البروليتارية ، وبذلك يقلل من امكانية   اهوال الثورة العنيفة   ولقد فضل الهر برنشتاين ان يتصرف بصورة مغايرة   فقد اخذ على عاتقه تشويش الوعي الطبقي عند العمال بخروجه مبشرا بماركسية   راجعها وغرضه الوحيد تهدئة البورجوازية   ولقد تبين ان هذه الحيلة فعالة بمعنى ان قسما كبيرا من البورجوازية المثقفة ادرك على خير وجه كل **الفائدة التي يجنيهــا** من نشر ماركسية « راجعها   الهر برنشتاين على حساب نظرية ماركس القديمــة والثورية   ولقد استقبل هذا القسم من البورجوازية الهر برنشتاين وكأنه المسيح ومهما يكن من شيء ، فهو ميت بقدر ما يتعلق الامر بالاشتراكية   ومن المؤكد انه لن ينهض قط من بين الموتى مهما كانت عالية هتافاته بان الاشتراكيين اخفقوا في فهمه وانه في الجوهر لم يتغير الا بصورة زهيدة بالمقارنة مع حقيقتــه السابقة هذا بالتأكيد افراط في الحماسة لا يؤول بالمرء الى اي مكان !

## ٦

يضل الهر برنشتاين لدى كل خطوة سبيله في غموض افكاره ويحار في تناقضاته الخاصة   ومهما يكن من شيء ، فان حججه تتضمن نواة منطقية تتجمع افكاره حولها   وهذه النواة هي **مذهب الدخل** .

انــه يقــول

« من الخطل التام الاعتقاد بأن التطور الحالي يكشف عن نقص نسبي او حتى مطلق

في عدد اصحاب الملكية ، بل عددهم يزداد ، ليس اكثر او اقل ، بل أكثر فحسب ، يعني يزداد بصورة مطلقة وبصورة نسبية فاذا كانت نشاطات ومنظورات الاشتراكية الديموقراطية وقفا على نقص في عدد اصحاب الملكية ، فان في مقدورها في الحقيقة ان تنام نوما عميقا لكن ليست تلك هي الحال فمنظورات الاشتراكية الديموقراطية لا ترتبط بنقص الثروة الاجتماعية بل بزيادتها » ( ص ٩٠ )

ان ايا من ماركس وانجلز واتباعهما لم يعلق قط آماله على **نقص** في الثروة الاجتماعية ولا يفعل الهر برنشتاين في محاولاته لتحطيم **مثل** هذه الحلقة ، سوى القتال ضد طواحين هوائية ومهما يكن من شيء ، فان جميع الماركسيين تيقنوا من ان نمو الثروة الاجتماعية في العالم الرأسمالي يسير يدا بيد مع **زيادة التفاوت الاجتماعي وانخفاض عدد اصحاب الملكية** ولو تمكن الهر برنشتاين من اثبات العكس ، فلا بد من الاقرار بأنه وجه الى الماركسية ضربة قاضية < وعندئذ فان أي حديث عن الثورة الاجتماعية سوف يكون عديم الجدوى > . والمشكلة هي ان الهر برنشتاين لم يثبت أي شيء على الاطلاق باستثناء افتقاره الى الفهم فالحجج التي يقدمها دفاعا عن بياناته الجريئة ترتد في الممارسة الى الاطروحة القائلة ان المداخيل المتوسطة تنمو بصورة اسرع من نمو السكان وهذه حقيقة لا جدال فيها، لكنها لا تثبت شيئا على الاطلاق ؛ **فاذا كان الدخل الاجتماعي ينمو بصورة اسرع من زيادة عدد المداخيل المتوسطة ، فان زيادة هـذا العدد تتلاءم كليا مع نمو التفاوت الاجتماعي** وهذا ما برهنا عليه في مقالة ضد السيد ستروفه بالخاصة تعالج مسألة التخفيف من التفاوت الاجتماعي الاقتصادي(١٨١) ، وسوف نحيل القارىء الى تلك المقالة مقتصرين هنا على بعض الملحوظات الخصوصية

أولا ، ان زيادة عدد المداخيل المتوسطة المتلائمة تماما مع نمو التفاوت الاجتماعي الاقتصادي لا تشهد في حال من الاحوال سواء على الزيادة المطلقة ، واقل من ذلك على الزيادة النسبية في عدد اصحاب الملكية **فالملكية والدخل** مفهومان متميزان كليا

ثانيا ، ان احالات الهر برنشتاين الى توزيع الملكية العقارية هي **في غير محلها** بالضبط كما أن ذكره لعدد المداخيل المتوسطة يفتقر الى القدرة على الاقناع واليكم احد الامثلة العديدة المتوفرة

انه يقول ان مجموعة المزارع الفلاحية متوسطة الحجم في المانيا ازدادت بحوالي ٨ بالمائة في الفترة بين ١٨٨٢ و ١٨٩٥ فيما ازدادت مساحتها بنسبة ٩ بالمائة ( ص ١١٠ لكن ما معنى الارقام عن زيادة العدد المطلق لمزارع منطقة ذات مقولة **واحدة** من المزارع اذا لم نعلم شيئا عن عدد المزارع **الاجمالي** في البلاد وعن المساحة **الاجمالية** المزروعة ؟ واذا اخذ هذا الظرف بعين الاعتبار ، يعني اذا اعتبرنا **حصة** المزارع الفلاحية متوسطة الحجم في عدد المزارع والمساحة الاجمالية،

وجدنا ان المساحة التي تشغلها في المانيا المزارع من هـذه المقولة لم تظهر الا زيادة مهملة تماما ففي ١٨٨٢ كانت تشكل ٩ر١١ بالمائة من مجموع الارض ، وارتفعت الى ٣٧ر١٢ بالمائة عام ١٨٩٥ وهي **زيادة اقل من نصف بالمائة** بيـد اننا نقول هذا عن مجمل مساحة الارض في المانيا واما المساحة الزراعية بالخاصة فان المزارع من المقولة المذكورة كانت تشمل ٢٦ ر١٢ بالمائة عام ١٨٨٢ و ٠٢ر١٣ بالمائة عام ١٨٩٥ ، وهي زيادة لا تنوف على ٧٥ر٠ بالمائة* ولقد كانت هذه الزيادة تافهة جدا بحيث ان استعمال كلمة **زيادة** هنا يبدو غريبا حتى درجة ما

ان اوضاع الزراعة الالمانية بالغة التعقيد بحيث لا تمكن مناقشتها بالاحصاءات المجردة وحدها ، بل هي تتطلب اعتبار الخصائص الجغرافية لكل محلة ، وكذلك الخصائص التقنية والاقتصادية لكل مقولة خاصة من المزارع فضلا عن **التغيرات** في هذه الخصائص في الفترات المستعرضة

واما بخصوص بريطانيا ، فقـد نسي الهر برنشتاين ان يضيف ، او هـو لا يعرف ، ان المزارعين الصغار الذين ازداد عددهم بالفعل في بعض المناطق ، وذلك بتأثير المنافسـة لمـا وراء البحـار ، يطلـق عليهـم اسـم « British slaves » [ العبيد البريطانيين** ] وذلك لشدة **بؤس** وضعهم الاقتصادي

ان الزيادة في عدد مثل هؤلاء « العبيد » لا تدحض نظريـة ماركس اكثر مما تدحضها الزيادة في sweating system [ نظام التعرق ] في أي فرع من الصناعة .

ويقول الهر برنشتاين ان عدد المزارع الصغيرة والمتوسطة يزداد في شرقي **الولايات المتحدة** هذا غير صحيح ايضا ففي الولايات الشرقية **ينخفض** عـدد المزارع الصغيرة ، وعلى العمـوم ، فان لوفاسور يعتقـد ان **اتجاها نحو التمركز** يشاهد في شمالي اميركا***

وتكشف الاحصاءات الاحدث ايضا عن تمركز للملكية العقارية في **بلجيكا****
حيث **النقص النسبي في عدد اصحاب الارض حقيقة ثابتـة**

---

* انظـر « Die Landwirthschaft im Deutschen Reich. Nach der Landwirthschaftlichen Betriebszählung vom 14, Juni 1865, **Statistik des Deutschen Reiches,** Neue Folge , Band 112, S. 11 .

** انظر التقرير الختامي لمفوضي صاحبة الجلالة **المعينين للتحقيق في موضوع الكساد الزراعي**، لندن ١٨٧٩ ، ص ٣٦

*** **الزراعة في الولايات المتحدة** ، باريس ونانسي ، ١٨٩٤ ، ص ٦١ — ٦٢ ويشير الاحصاء الاميركي الاخير الى ان التمركز يتظاهر في الزراعة ايضا في هذه البلاد

**** انظر الكتاب الذي كتبه فاندرفيلد **الملكية العقارية في بلجيكا** ، وكذلك ملحوظتنا بشانه في **زاريـا** ، العـدد الاول .

# ٧

يقول الهر برنشتاين

ان العرض الضيق الذي يقدمه الهر سكولتزه ـ غافرنيتز عن تاريخ التطور البريطاني الحديث وهو العرض الذي ناهضته بشدة في الماضي لم يمنعـه سواء في كتابـه Der Grossbetrieb - ein wirthschaftlicher Fortschritt او في كراسته Zum sozialen Frieden من تقرير حقائق بالغة الاهمية من أجل فهم الاهمية الاقتصادية لعصرنا ولا أرى في ذلك شيئا سيئا واقر عن طيبة خاطر بأني سجلت عدة حقائق اوردها سكولتزه ـ غافرنيتز وكذلك غيره مـن الاقتصاديين من مدرسة برنتانو هركنر وسينزهايمر ) ، وهي حقائق لم الاحظها قبلا او استخففت بها وأنا لا اشعر حتى بالخجل حين أقر بأني تعلمت من كتـاب وولف Sozialismus und kapitalistische Gesellschaftsordnung ويسمي الهر بليخانوف هذا دمجا انتقائيا ( للاشتراكية العلمية ) مع مذهب الاقتصاديين البورجوازيين وكأنما تسعة اعشار عناصر الاشتراكية العلمية لم تؤخذ من اعمال « الاقتصاديين البورجوازيين ، وكأنما يوجد على العموم شي من نمط « العلم المنحاز ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ )

ان « **العلم المنحاز** » بكل معنى الكلمة امر محال ، لكن مما يؤسف له بما فيـه الكفاية انه من الممكن جدا ان يوجد « **علماء** » **مشربون بالروح الحزبي والانانية الطبقية**. وحين يتحـدث الماركسيون عن العلـم البورجوازي بكـل ازدراء فهـم يقصدون « العلماء من هذا الصنف وان السادة الذين « تعلم الهر برنشتاين الشيء الكثير منهم ينتسبون الى مثل هؤلاء « العلماء اقصد ج وولف وسكولتزه ـ غافرنيتز وكثيرين غيرهم وحتى اذا كانت تسعة اعشار الاشتراكية العلمية قـد اخذت من اعمال الاقتصاديين البورجوازيين ، فهي لم تؤخذ على غرار ما استعار الهر برنشتاين من انصار برنتانو وغيرهـم من دعاة النظـام الرأسمالي من مواد يستخدمها في « مراجعة الماركسية لقد كان ماركس وانجلز قادرين على اتخاذ موقف نقدي حيال العلماء البورجوازيين وهو شيء كان الهر برنشتاين عاجزا او راغبا عن صنعه وحين « يتعلم » منهم يضع نفسه بكل بساطة تحت نفوذهم ويتبنى دفاعاتهم دون ان يلاحظ ذلك وانه ليتخيل ان مذهب نمو المداخيل المتوسطة من حيث هو برهان على الزيادة المطلقة والنسبية في عدد اصحاب الملكية يشكل تقدما جديا في العلم الموضوعي ، بينما هو في واقـع الامر اصطناع دفاعي ولو ان الهر برنشتاين كان قادرا على التفكير لما اخطأ القصد كما فعل لكنه كان يمتنع عن تأليف كتابـه اذن

ولقد عبرنا منذ خريف عام ١٨٩٨ عن الفكرة بأن الهر برنشتاين انما انصرف

الى « نقد ماركس لعجزه عن معالجة الدعاة البورجوازيين بصورة نقدية* ولقد اشرنا ايضا في ذلك الحين الى هذه الحقيقة الغريبة ، الا وهي ان عبارة الهر برنشتاين بالذات التي ما اكثر ما جرى الحديث عنها **« الحركة هي كل شيء ، أما الهدف الاخير فليس شيئا »** ، انما استعارها من سكولتزه ــ غافرنيتز ولما كان الهر برنشتاين عاجزا عن تقديم اية اعتراضات ضدنا في الاشياء الاساسية فقد لجأ الى لغة الافتراء التي لا نجد سببا يدعونا للرد عليها** اننا تقدر تقديرا عاليا عداوة الهر برنشتاين لنا ، ونعتز باننا كنا في عداد السباقين الى **استلفات الانتباه** الى تحوله ، والى **دمغ هذا التحول** . ولقد كتبنا في المقالة المذكورة نقول **« المسألة هي من سوف يدفن من ، ما اذا كان برنشتاين سوف يدفن الاشتراكية الديموقراطية أم أن الاشتراكية الديموقراطية سوف تدفن برنشتاين »** . ولقد بدا هذا الطرح للمسألةبالغ القسوة في نظر الكثيرين من رفاقنا عام ١٨٩٨ لكن الجميع في صفوف الاشتراكية الديموقراطية الثورية ينظرون حاليا الى المسألة بهذه الطريقة بالضبط ، كما أثبت مجرى الاحداث اللاحق صحة كلماتنا لم تكن لدينا في الماضي ادنى رغبة في الانخراط في أي مشادةمع الهر برنشتاين وليست لدينا اية رغبة في ذلك اليوم ايضا الا اننا لا نستطيع مقاومة الاغراء في تسجيل الناحية الهامة التالية

لقد فسر الهر برنشتاين الملحوظات التي وجهناها ضده بمعنى اننا نعتبر وضع العامل في المجتمع الرأسمالي « ميئوسا » منه واعلن انه لايرغبفيالدخولفيمساجلة مع شخص يتطلب العلم وفقا لمفاهيمه ان يعتبر وضع العامل ميئوسا منه في جميع الظروف ، وذلك حتى حدوث الجيشان العظيم » ( ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ ) يا لقسوة

---

* في المقالة Sächsiche Wofür sollen wir ihm dankbar sein Arbeiter - Zeitung ، الاعداد ٢٥٣ ــ ٢٥٥ وعلى أي حال ، فاننا لم نتمكن بعد من فهم السبب الذي حمل المسؤول الحزبي في شتوتغارت كاوتسكي على التعبير عن شكره لبرنشتاين فكتاب كاوتسكي **برنشتاين وبرنامج الاشتراكية الديموقراطية** يثبت علىخير وجه رأينا بأنهليس ثمة ما يشكرعليه.

** سارت لغة خصمنا المفترية يدا بيد مع طرق غير شريفة في المساجلة ومثال ذلك ان الهر برنشتاين يتصدى للبرهان على انه من المحال الغاء الطبقات بعد ولهذا الغرض يستشهد بانجلز الذي يقول فيما يزعم ان الغاء الطبقات لن يكون ممكنا « الا في مرحلة معينة وعالية جدا بالمقارنة مع ازماننا من تطور القوى المنتجة وانه ليترتب على ذلك أن المستوى الذي بلغناه في تطور القوى المنتجة ما يزال وفقا لانجلز غير كاف من اجل الغاء الرأسمالية وحقيقة الامر ان انجلز يقول العكس من ذلك تماما انه الغاء الطبقات ) يفترض اذن بصورة مسبقة مستوى من تطور القوى المنتجة لم يصبح تملك وسائل الانتاج والمنتجات من قبل طبقة اجتماعية خاصة نافلا عنده فحسب بل عقبة في طريق التطور اقتصاديا وسياسيا وفكريا ولقد تم بلوغ هذه المرحلة » ( انتي ــ دوهرنغ ، ص ٣٠٤ ) مما لا ريب فيه ان الهر برنشتاين يبذل قصارى جهده حتى لا يخيف البورجوازية .

**النقد** ومهما يكن من شيء، فقد وقعنا على الفقرة التالية في كتاب برنشتاين الصارم:
في مذهب ماركس وانجلز « لم يبق شيء لم يدحض الا ما يلي ان القدرة الانتاجية في المجتمع الحالي اعظم حتى درجة كبيرة من الطلب الفعلي على المنتجات كما تقرره القوة الشرائية ؛ وان الملايين يحيون في مساكن حقيرة ، ويرتدون الاسمال، ويشكون الحرمان الغذائي بالرغم من وفرة الوسائل لتزويدهم بالمسكن والمأكل والملبس بصورة كافية ؛ وان فرط الانتاج نتيجة لهذا التنافر في فروع الصناعة المختلفة ؛ وانه يوجد بنتيجة ذلك ظلم هائل في تزويد العمال بالاشغال ، الامر الذي يترتب عليه ان شروطهم تزداد اضطرابا ، وانها تخضعهم بصورة متعاظمة لتبعية اشد اذلالا باستمرار من جراء فرط العمل في مكان والبطالة في مكان آخر » ( ص ١٤٥ ـ ١٤٦
ان السيدة كانتسل ، كما هي عادتها ، ترجمت بصورة سيئة الهر برنشتاين الذي يقول ان العمال **يُبقون** في تبعية مذلة ، ولا يقول يجدون انفسهم في **تبعية متعاظمة الاذلال باستمرار** كما تنطقه المترجمة بذلك لكن فكرة الهر برنشتاين ، حتى في هذه الترجمة السليمة ، ترتد الى نحره حقا ، اليس **ميئوسا** ، في **المجتمع الراسمالي** ، وضع طبقة **تبقى** ، بالرغم من النمو المذهل في انتاجية العمل ، في الشرط الاقتصادي والتبعية المذلة اللذين نقرأ عنهما في كتابات الهر برنشتاين ؟ انه **ميئوس** منه بصورة جلية ، ومن الواضح أن **الغاء الاسلوب الرأسمالي في الانتاج ، الثورة الاجتماعية** ، يستطيع وحده اخراج البروليتاريا من ذلك الوضع الميئوس منه* ، وهذا ما لم يضعه الهر برنشتاين نصب عينيه في نظرته الجديدة الى العالم
ويسأل الهر برنشتاين بكل تعقل « الا يؤدي الاتساع الشديد لمنطقة السوق العالمية » ( يعني حجمها ؛ اننا ملزمون بتكرار ان السيدة كانتسل ترجمت الكتاب الذي نستعرضه بصورة رديئة جدا ج • ب • ) « بالمشاركة مع التخفيض الشديد للزمن اللازم من أجل نقل الاخبار وعملية النقل ــ الا يؤدي الى زيادة امكانية التخفيف من حالات الكساد ؛ ومن بعد ، أفلم تؤد الثروة الصاعدة بشدة لدى الدول الصناعية الاوروبية بالارتباط مع مرونة الائتمان الحالي وصعود الكارتلات الصناعية ــ ألم يؤد هذا الى الحد حتى درجة كبيرة ، على الاقل لفترة طويلة من

---

* لا بد ان ماركس كان يعتبر وضع العامل في المجتمع الرأسمالي « **ميئوسا منه** » حتى اذا كان في الامكان تحسين هذا الوضع حتى درجة بعيدة ، وهو يقول « لكن كما أن تحسين ملبس العبد ومأكله ومعاملته ، مع دفع أجر أكبر له لا تضع حدا لاستثماره كذلك هي لا تضع حدا لاستثمار العامل المأجور » ( **رأس المال** ، الجزء الاول ، سان بطرسبورغ ، ص ٥٣٤ )(١٨٣) وسوف يفهم الهر برنشتاين بنفسه ان وضع العبد ظل ميئوسا منه بالمعنى الماركسي **حتى الغاء العبودية** ونشير على أي حال الى اننا لم نستعمل قط كلمتي « ميئوس منه » اللتين نسبهما الينا الهر برنشتاين وحده فرأينا بصدد العامل المأجور في المجتمع الرأسمالي اوردناه وبرهنا عليه في مقالتنا الثانية ضد السيد ستروفه (١٨٤) .

الزمن ، من تأثير حالات الكساد المحلية او الجزئية في الاوضاع الشاملة بحيث **يجب** ان تعتبر ازمات الاعمال العمومية » ( يعني الصناعية ـ **ج ٠ ب ٠ )** « **كتلك الازمة** السابقة بعيدة عن الاحتمال ؟ ( ص ١٢٦

ولقد قدمت الاحداث الجواب عن السؤال فمنذ منتصف العام الفائت* يختبر العالم المتحضر أزمة صناعية عامة تكهن بقدومها بعض رجال الاعمال البورجوازيين **حتى حين كان الهر برنشتاين يكتب كتابه .**

## ٨

في احدى مسرحيات شكسبير يقول احد رجال البلاط عن اوفيليا التي جنت

تقول الاشياء بصورة مشكوك فيها
لا تنطوي الا على جزء من معانيها
ليس حديثها شيئا ومع ذلك فانعدام الشكل فيه
يحرك في السامعين الذكرى

ولا بد ان يقال الشيء نفسه عن كتاب الهر برنشتاين انه ينطوي على جزء من المعنى ، وليس حديثه شيئا ، ومع ذلك فانعدام الشكل فيه يثير الذكرى في القارىء اليقظ لقد برهن الهر برنشتاين على انه ضعيف **في جميع مسائل النظرية بقدر ما** يمكن المرء ان يكون ضعيفا فكيف حدث انه لعب لسنوات عديدة دور احد ابرز المنظرين في حزبه ؟ هذا سؤال يوفر مادة للتفكير وليس ايجاد الجواب المرضي عنه بالامر اليسير

والمسألة الاخرى التي لا تقل عن ذلك اهمية هي انه لم يتبق في آراء الهر برنشتاين الا آثار واهية للاشتراكية . وبالفعل، **فهو اقرب جدا الى انصار « الاصلاح الاجتماعي » البورجوازيين الصغار منه الى الاشتراكية الديموقراطية الثورية .** ومع ذلك لا يبرح « رفيقا ولم يطلب منه مغادرة الحزب وهو ما يفسره من جهة واحدة **الرأي الخاطيء بشأن حرية الرأي** المنتشر حاليا على نطاق واسع بين الاشتراكيين الديموقراطيين في جميع البلدان انه يقال « **كيف يمكن ان يطرد** رجل من الحزب بسبب آرائه ؟ سوف يكون معنى ذلك **اضطهاده بحجة الهرطقة** ». ان الناس الذين يفكرون على هذا الفرار ينسون **ان حرية الرأي يجب بالضرورة ان** تستكمل بحرية التضامن او الافتراق وان هذه الحرية الاخيرة لا وجود لها حيثما حمل مستبق ما اناسا على السير معا ، وقد كان من الافضل ان يفترقوا بسبب الخلاف في آرائهم بيد ان هذه المحاكمة الخاطئة لا تعدو كونها جزءا من تعليل < عدم طرد الهر برنشتاين من الحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني ان

* كتب عام ١٩٠١ .

السبب الرئيسي في ذلك هو ان افكاره الجديدة يشاركه فيها عدد كبير جدا من الاشتراكيين الديموقراطيين الاخرين فقد ظفرت الانتهازية بعدة مؤيدين في صفوف الاشتراكية الديموقراطية في بلدان مختلفة وذلك لاسباب لا نستطيع معالجتها هنا وهذا الانتشار للانتهازية يشكل الخطر الرئيسي الذي يهدد الاشتراكية الديموقراطية اليوم والاشتراكيون الديموقراطيون الذين ظلوا مخلصين للروح الثوري لبرنامجهم — ومن حسن الحظ انهم لا يبرحون الاكثرية في كل مكان — سوف يرتكبون خطيئة لا تعوض اذا هم لم يتخذوا عملا مناسبا وحاسما لمجابهة هذا الخطر > . واذا ما اخذ الهر برنشتاين وحده ، فهو ليس بهائل البتة ، بل مضحك بكل بساطة ، كما انه يتصف بشبه بارز مع الفيلسوف سانشو بانزا ومهما يكن من شيء ، فان نظريته تشكل انذارا من حيث هي عرض لانحطاط ممكن

وعلى اي حال كتب الهر برنشتاين ما يلي كي اكشف عن احابيل السيد بليخانوف السجالية في ضوئها الحقيقي لا بد لي من الاشارة الى ان قسما كبيرا ، ان لم يكن القسم الاعظم من الاشتراكيين الديموقراطيين الروس الناشطين حاليا في روسيا تبنوا بصورة جازمة وجهة نظر قريبة من وجهة نظري ، وان بعض مقالاتي الجوفاء » ترجمت لذلك الى الروسية وصدرت في طبعات مستقلة*» . ويعقب ذلك ملحوظة خبيثة بمعنى ان مثل هذا الامر لا يمكن على وجه التقريب الا ان يملأنا بالفرحة واذا تركنا جانبا مسألة مشاعرنا الشخصية ومسألة كيف يمكن تمييز احابيلنا السجالية بحقيقة ان الاشتراكيين الديموقراطيين الناشطين في روسيا يقتربون من الهر برنشتاين — ان كان هذا صحيحا — فسوف نسجل انه يقصد بالتأكيد ما يسمى الاتجاه الاقتصادي في الاشتراكية الديموقراطية الروسية(١٨٥) ومن المعروف لدى الجميع ان هذا الاتجاه الذي صادف نجاحا مؤقتا في روسيا تغلب عليه في الوقت الحاضر المفكرون من زملائنا الذين لا يرون في الهر برنشتاين اكثر من مرتد لكنه ليس من المعروف عموما بعد ان ثمة منشورا اشتراكيا ديموقراطيا روسيا ( صدر في الخارج ) اخفق في تسجيل وجود الاتجاه الاقتصادي ، وبالتالي انكره ومما لا ريب فيه ان الذين اصدروه اناس من اصحاب الرؤية الحادة (١٨٦)

صدرت هذه الترجمة الحقيرة لكتاب الهر برنشتاين الصغير الحقير في طبعتين قانونيتين ، مع طبعة ثالثة وشيكة وليس في هذا ما يبعث على الدهشة ان اي « نقد » للماركسية واي تزوير لها — اذا كانا مشربين بالروح البورجوازي — سوف يلقيان بكل تأكيد الترحاب من تلك الفئة من ماركسيينا الشرعيين التي ليست هي نفسها سوى تزوير بورجوازي للماركسية.

آب ١٩٠١

---

* هذه الفقرة محذوفة في ترجمة السيدة كانتسل ويجدها المرء في هامش الصفحة ١١٢ من الترجمة الروسية لكتاب الهر برنشتاين التي صدرت في لندن .

# كونراد شميدت ضد كارل ماركس وفريدريك انجلز

يعرف القارىء ان ادوارد برنشتاين يعود الى كانط « bis zu einem gewissen Grad » ، وان مرد هذه العودة ، « حتى نقطة ما » ، هو نفوذ كونراد شميدت فما هي آراء هذا الاخير الفلسفية ؟

لقد عرضها ١ – في مقالة بعنوان « ein neues Buch über die Materialistiche Geschichtsaufassung » ونشرت في المجلة البرلينية **Akademiker** ١٨٩٦ ( تموز و آب* ) ، و ٢ – في مقالة تعالج كتابا بقلم كرونبرغ ، **Kant , sein Leben und sein Lehre**. وقد نشرت هذه المقالة في الملحق الثالث للصحيفة البرلينية **فورفارتس** بتاريخ ١٧ تشرين الاول ١٨٩٧

واقصد هنا ان اعالج هاتين المقالتين

**اذا شئنا ان نصدق كونراد شميدت ، فان ماركس وانجلز ناديا بالمثالية** النظرية المعرفية باطلة في وقت كانت تتطلب فيه الدحض بعد ويجب أن تؤخذ عبارة المثالية النظرية المعرفية على انها تعني مثالية كانط ؛ هذا أمر بدهي ، وقد اعلن كونراد شميدت **ذلك** بصورة جازمة ، **فهو يقول** « ليست ميتافيزياء هيغل الجدلية التطورية هي التي تمثل المثالية بل كتاب **كانط** ، **نقد العقل الخالص** » .

وحقيقة الامر أن ماركس وانجلز كانا خصمين للمذهب الكانطي ، **وذلك** للسبب التالي

يقول انجلز في مؤلفه البارز **لودفيغ فيورباخ** ان مذهب كانط عن عدم قابلية الاشياء في ذاتها للمعرفة رفضه هيغل من قبل وفي اعقابه فيورباخ ، وان يكن بقدر اقل من العمق ويستطرد قائلا

---

* ينتقد كونراد شميدت في هذه المقالة كتابي **دراسات في تاريخ المادية** واجد هذا النقد واهنا جدا لكني لا أجد من الضرورة الرد عليه هنا فما يهمني في الوقت الحاضر هو اعتراضاته على مادية ماركس وانجلز وتفسير كانط

ان اقوى تفنيد لهذا الوهم الفلسفي ، ولكل وهم فلسفي آخر هو الممارسة ، أي التجربة والصناعة بوجه خاص فاذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لظاهرة طبيعية ما بخلقنا هذه الظاهرة بأنفسنا وبأحداثنا لها بواسطة توفر شروطها بالذات ، وفوق ذلك اذا استطعنا استخدامها في تحقيق اغراضنا ، كان في ذلك القضاء المبرم على مفهوم « الشيء في ذاته » العصي على الادراك الذي أتى به كانط (١٨٧) »

ويجادل انجلز بالطريقة نفسها وهو ينقد **اللاادرية** في مقدمة الطبعة الانكليزية لكتابه **الاشتراكية الطوباوية والعلمية** ، حيث يقول

ويقهر صاحبنا اللا أدري مرة أخرى بأن كل معرفتنا تقوم على أساس المعلومات التي تمنحنا اياها حواسنا ويضيف لكن كيف لنا أن نعرف أن حواسنا تمنحنا تصورات صحيحة عن المواضيع التي ندركها بواسطتها ؟ وانه ليمضي فيعلمنا انه حين يتحدث عن المواضيع أو عن صفاتها فانه لا يقصد في الواقع هذه المواضيع أو هذه الصفات التي لا يستطيع أن يعرف عنها شيئا مؤكدا البتة ، بل كل ما يقصده الانطباعات التي أحدثتها في حواسه وان هذا النمط في المحاكمة يبدو بالتأكيد انه يصعب التغلب عليه بالمساجلة وحدها لكن الفعل سبق المساجلة « Im Anfang war die Tat». ولقد حل الفعل البشري الصعوبة قبل وقت طويل من اختراع الحصافة البشرية لها ان البرهان على الحلوى هو في تناولها فنحن حالما نحول لاستخدامنا تلك المواضيع ، وذلك وفقا للصفات التي ندركها فيها، فاننا نختبر بصورة حازمة صحة ادراكاتنا الحسية أو خطلها . فاذا كانت هذه الادراكات مغلوطة فلا بد اذن ان يكون تقديرنا مغلوطا للاستعمال الذي يمكن ان يخدم الموضوع له ؛ ولا بدّ ان تخفق محاولتنا لكن اذا نجحنا في تحقيق غرضنا اذا وجدنا ان الموضوع يتفق مع فكرتنا عنه ، وأنه يستجيب للغرض الذي نستهدفه منه ، فان ذلك برهان ايجابي علىأن ادراكاتنا عنه وعن صفاته تتفق حتىالآن مع الواقع فيخارجنا (١٨٨)».

وهكذا فان « البرهان على الحلوى هو في تناولها هذه هي الحجة الرئيسية التي يوجهها انجلز ضد مذهب كانط ، ومن جديد ضد اللاأدرية ( على العموم )

ولقد تمسك ماركس ، جوهريا بخط المحاكمة نفسه حين كتب عام ١٨٤٥ يقول ، في الفرض الثاني بصدد فيورباخ

ان مسألة ما اذا كانت الحقيقة الموضوعية ( gegenstandliche ) يمكن ن تنسب الى التفكير البشري ليست مسألة نظرية بل **عملية** فالانسان يجب ان ينبت في الممارسة حقيقة فكره ، يعني واقعية هذا الفكر وقوته وشموله (١٨٩)

ومهما يكن من شيء ، فان الهر كونراد شميدت يعتبر خط المحاكمة هذا واهنا جدا فيقول « ذلك اشبه بقولنا ان حقيقة عثورنا على الرابطة والتطابق مع القانون في الطبيعة الخارجية وقدرتنا بفضل ذلك على ممارسة تأثير هادف في الطبيعة ــ هذه الحقيقة تبين بأعظم الوضوح ان معرفتنا بالطبيعة معرفة لما هو

موجود بالفعل ليست بنا ثمة حاجة على الاطلاق الى القيام بتحليل علمي للشكوك المثارة بهذا الصدد من جانب المثالية ورفضها انا نستطيع بكل بساطة صرفها على اعتبارها سفسطات جوفاء »

ويعبر عن نفسه في موضع آخر كما يلي ان ايا من فيورباخ او ماركس وانجلز اللذين وقعا تحت نفوذه لم يتصد لدراسة المسألة الاساسية ولم يمسك الثور من قرنيه

وكان في مقدور الدكتور كونراد شميدت ان يقول ذلك لهذا السبب وحيد الا وهو انه اخفق هو نفسه في فهم اين تكمن المسألة الاساسية للمثالية الكانطية يعني لهذا السبب الوحيد ، الا وهو عجزه هو نفسه عن امساك الثور من قرنيه

وسوف احاول ان اشرح الامر له بأبسط العبارات

ما الظاهرة ؟ **انها حالة لشعورنا يثيرها فينا فعل الاشياء في ذاتها** . هذا مايقول كانط ويترتب على هذا التعريف ان توقع ظاهرة معينة معناه توقع الفعل الذي سوف يكون لشيء في ذاته فينا ويمكن ان يسأل الان ما اذا كان في مقدورنا توقع ظاهرة معينة ، والجواب هو بكل تأكيد ، هذا في مقدورنا وهذا ما يضمنه **العلم والتكنولوجيا عندنا** ومهما يكن من شيء ، فلا يمكن ان يكون معنى ذلك سوى ان في مقدورنا ان نتوقع الفعل الذي سوف يكون للاشياء المقصودة فينا فاذا كان في وسعنا توقع الفعل الذي تمارسه علينا الاشياء في ذاتها فهذا يعني اذن اننا واعون ( على الاقل ) **لبعض خصائصها** . وهكذا فاذا كنا واعين **لبعض خصائص** الاشياء في ذاتها فليس لدينا اي حق في تسمية هذه الاشياء **غير قابلة للمعرفة** . ان هذه « **السفسطة** » عند كانط تنهار وتذهب بفعل منطق مذهبه بالذات وهذا ما كان يقصده انجلز من « حلواه

ان برهانه واضح وجازم كمثل برهان نظرية رياضية ان موقف ماركس وانجلز النظري موقف منيع* لكن الدكتور شميدت لا يبذل حتى اية محاولة لانكاره بل يقتصر على الاشارة الى ان اتخاذ مثل هذا الموقف لا يعني دحض المثالية بل التهرب من أي اعتبار للمسألة واترك للقارىء ان يحكم من الذي « **يتهرب** » من اي اعتبار للمسألة ماركس وانجلز ام الهر كونراد شميدت

وقد اسأل اين قال كانط بالضبط ان الظاهرة نتاج فعل الاشياء في ذاتها فينا والجواب يقدمه لنا المقطع التالي من **المقدمة**

---

* **لا** اقصد من ذلك القول ان ماركس وانجلز كانا السباقين الى تقديم هذا البرهان ضد كانط والحقيقة انه يصادف من قبل عند جاكوبي وعلى اي حال ، فليس لذلك اية اهمية بالنسبة الي هنا . فكل ما اريد هو بيان ان ماركس وانجلز **انتقدا** الكانطية ولم « **يتهربا من اعتبارها** » كما يزعم الدكتور شميدت الذي لم يفهم ايا من حججهما )

« تستقيم المثالية في التأكيد بانه لا وجود لاي كائن الا ذلك الذي يفكر ، ووفقا لذلك فالاشياء الاخرى التي نحسب اننا ندركها لن تكون سوى صور في الكائنات المفكرة ، صور لا يمكن لاية مواضيع خارج تلك الكائنات ان تقابلها وعلى النقيض من ذلك ، اؤكد ان الاشياء معطاة لنا من حيث هي مواضيع خارجية لحواسنا ؛ ومهما يكن من شيء ، فنحن لا نعرف شيئا عما يمكن ان تكون هذه الاشياء في ذاتها ؛ اننا لا نعي سوى الظواهر ، يعني الصور التي تثيرها فينا بتأثيرها في حواسنا وبنتيجة ذلك اعترف ، في اي حال ، بوجود الاجرام خارجنا يعني الاشياء المجهولة كليا منا بذاتها ، لكننا نعرفها من الصور التي تثيرها فينا بفعلها في حواسنا ، والتي نعبر عنها بكلمة « جرم » ، وهي بالتالي كلمة لا تشير سوى الى مظهر ذلك الموضوع الذي هو مجهول منا لكنه موجود مع ذلك. أيمكن ان يسمي هذا مثالية ؟ انه النقيض منها تماما* »

لا يمكن ان يقوم شك بشأن ما قاله كانط هنا ، وبقدر ما يظل هـذا الشـك متعذرا فان الاعتراضات التي رفعها ماركس وانجلز على ما يزعم من عدم قابلية الاشياء في ذاتها للمعرفة سوف تظل كذلك غير قابلة للدحض فمعرفة هذه الاشياء من خلال الصور التي تثيرها فينا تعني معرفتها ولم يناد الماديون « العقائديون » قط بأن ثمة وسائل اخرى لمعرفة الاشياء في ذاتها غير فعلها في حواسنا ، وهو ما برهنا عليه بصورة كافية في مقالتنا برنشتاين والمادية » ، ولا فائدة من تكرار الفقرات الموردة في تلك المقالة ، لكن بيانين لماديين شهيرين يمكن الاستشهاد بهما هنا

يقول دولباخ

« مهما يكن فعل جرم معين فينا ، فاننا لا نتوصل الى معرفتـه الا بفضل التبدلات التي يحدثهـا فينـا »

ونصادف في كتاب لامتري **مختصر الانظمة** بعض الملحوظات الهامة بصدد اننا لا نستطيـع ان نعرف الا بعض الخصائص « النسبيـة بصورة مطلقـة » للاشياء « الخارجية » ؛ ان معظم احاسيسنا وتصوراتنا رهن بأعضائنا بحيث تتغير في الحال اثر ما يطرأ على هذه الاعضاء من تغيرات

ويجب ان نتذكر ان فعل « عرف ليس لـه معنى آخر عموما فالاعتراف بشيء ما معناه الاعتراف بخصائصه وما المقصود من خاصـة الشيء ؟ المقصود الطريقة التي يؤثر هذا الشيء بها فينا بصورة مباشرة أو غير مباشرة** .

---

* **المقدمة** ، منشورات فون ج.هـ. فون كيرشمان ، هايلدبرغ ١٨٨٢ ، ص ٣٩ ــ ٤٠

** « من المحال ان نعرف عن المادة اكثر مما يمكن استدلاله من الظواهر التي لها شأن بها » ( دكتور بريستلي **مناقشـة حرة لمذهب المادية** ، لندن ١٧٧٨ ص ٢٠ ) « ان تعريف اي شيء أو جوهر او كائن ( سمه ما تشاء ) على وجه الخصوص لا يمكن ان يكون شيئا آخر سوى تعداد لخصائصه المعروفة فاذا طرحنا جميع الخصائص المعروفة لن يتبقى أي شيء يمكن ان نملك عنه اية فكرة على الاطلاق ... » ( المصدر نفسه ، ص : ٤٥ ــ ٤٦ )

والقول ان الاشياء في ذاتها غير قابلة للمعرفة بالنسبة الينا واننا لا نعرف سوى الانطباعات التي تحدثها فينا يعني القول اننا اذا اعرضنا عن الفعل الذي تملكه الاشياء فينا سوف نكون عاجزين عن رؤية كيفية قدرتها على التأثير فينا واذا كان ماديو القرن الثامن عشر قد صرحوا بأننا لا نعرف سوى خارج الاشياء قشرتها » ، فقد كانوا يقولون جوهرا بالضبط ما عبرت عنه في الجملة السابقة بيد ان تلك فكرة مغلوطة ، والماديون الذين نادوا بها كانوا في واقع الامر ، وان يكن بصورة طائشة ، يخونون نظريتهم الخاصة عن المعرفة ولقد عبر عن ذلك غوته بصورة افضل حتى درجة كبيرة حين قال

Nichts ist innen , Nichts ist Draussen ,
Denn was innen , das ist Aussen ! * (١٩٠)

هذه نظرة مادية حقا الى الموضوع الذي نعالجه

ومن بعد ، فان كانط يقر بأن الاشياء في ذاتها تؤثر فينا وان التأثير في موضوع ما معناه وجود علاقة ما معه وبنتيجة ذلك ، فاذا كنا نعرف ـ جزئيا على الاقل ـ كيف تفعل الاشياء فينا فاننا نعرف اذن ايضا ـ جزئيا على الاقل ـ العلاقات القائمة بيننا وبينها لكن اذا عرفنا ما هي هذه العلاقات فاننا نعرف اذن ايضا ـ وهنا من خلال ادراكاتنا ـ العلاقات القائمة بين الاشياء في ذاتها بصفتها هذه ومن الطبيعي ان هذه المعرفة ليست بالمعرفة (( الفورية )) ، لكنها معرفة مع ذلك ، واذا نحن حصلنا عليها لم نعد نملك ادنى حق في التأكيد بأن العلاقات القائمة بين الاشياء في ذاتها تتجاوز حدود معرفتنا

ان الاشياء ( في ذاتها ) تؤثر في حواسنا الخارجية وتثير فينا بعض الاحاسيس: هذا ما يقوله كانط لكنه يعني ان الاشياء تسبب الاحاسيس فينا لكن كانط هذا نفسه يقول ان مقولة السببية ، مثلها كمثل جميع المقولات الاخرى ، لا يمكن تطبيقها على الاشياء في ذاتها وانه ليتناقض في هذا بكل جلاء .

وانه ليتناقض بما لا يقل عن ذلك من الوضوح في مسألة الزمان .

فمن الواضح ان الاشياء في ذاتها لا يمكن ان تؤثر فينا الا في حدود الزمان ، ومع ذلك يعتبر كانط ان الزمان مجرد شكل ذاتي لتأملنا

ويتضمن مذهب كانط تناقضات اخرى ايضا لن نعالجها هنا فما قلناه اعلاه برهان كاف على ان هذا المذهب سوف يظل متناقضا ما استمرينا متمسكين ، بصورة تتفق كليا مع ما يقول كانط نفسه في المقدمة ، بأن الاشياء في ذاتها سبب الاحساسات فينا

وقد لاحظ بعض انصار الكانطية هذا التناقض وحاولوا التخلص منه . وهكذا

---

* [ لا شيء في الداخل ولا شيء في الخارج ، لان ما هو في الداخل هو في الخارج ]

يقول الدكتور لاسفيز على سبيل المثال ما يلي في كتابه Die Lehre Kant von der Idealitat des Raumes und der zeit

« صحيح تماما ان ايا من الزمان او السببية لا وجود لهما بالنسبة الى الاشياء في ذاتها وهو ما بينه كانط لكن من الذي اكد ان الاشياء في ذاتها سبب احساساتنا؟ » أينا كانط نفسه هو الذي أكد ذلك ــ ج ب كثيرا ما يصادف هذا التفسير المغلوط لمذهب كانط حتى عند الفلاسفة وانه ليكرر باستمرار الاشياء في ذاتها حين تؤثر في شعورنا تسبب الاحساسات فينا ومع ذلك فمن الواضح الكائن على اعتباره النقيض مما هو موجود فعليا لا يستطيع بكل بساطة يحدث اي اثر على الاطلاق ان في مكنة الاشياء في ذاتها ان تكون أي شيء في العالم ــ هذا لا أهمية له البتة بالنسبة الى تجربتنا فالتجربة تنشأ بفضل التفاعل بين العقل والاحساس فيما الشيء في ذاته ليس على الدوام اكثر من انعكاس غامض في فهمنا بخصوص حدوده الخاصة ، فذلك الشيء لا يملك الا تأثيرا في طبيعة تجربتنا ضئيلا جدا بقدر ما تؤثر صورتي المنعكسة في مرآة في حركات جسدي »

ان الهر لاسفيتز ، في سبيل انقاذ كانط يقع في تناقض صارخ مع كانط نفسه باعلانه ان بيانا لا لبس فيه صادرا كانط هو بيان محال ولا وجود له . يالها من حيلة غريبة ! كيف امكن للهر لاسفيتز ان يلجأ اليها ؟

انما كان في مقدوره ان يفعل ذلك لانه كان قادرا وهو يناقض كانط ، على الاعتماد عليه في الوقت نفسه

لقد قلنا من قبل ان كانط يتناقض كثيرا واليكم على سبيل المثال ما نقرؤه في كتابه **نقد العقل الخالص**.

« وفقا لذلك يحد الفهم من الاحساس دون ان يوسع في الوقت نفسه حقله الخاص وفيما عدا ذلك ، فبينما هو يحظر على الاحساس ان يطبق اشكاله واساليبه على الاشياء في ذاتها ويقصره على مجال الظواهر ، فانه لا يتأمل على أي حال الموضوع في ذاته الا من حيث هو موضوع متسام هو سبب الظاهرة ( وبالتالي ليس هو نفسه ظاهرة )، كما لا يمكن التفكير فيه من حيث هو كمية او واقع او من حيث هو جوهر لان هذه المفاهيم تتطلب على الدوام اشكالا حسية يتم بها تحديد الموضوع ) ــ وبالتالي موضوع نحن في عجز تام عن القول بصدده ما اذا كان في الامكان مصادفته في ذاتنا او خارجنا واذا شئنا ان نسمي هذا الموضوع كائنا لان تصوره غير حسي فان لنا ملء الحرية في ذلك لكن بما اننا لا نستطيع ان نطبق عليه ايا من تصورات فهمنا فان التصور عقيم كليا بالنسبة الينا ، وهو لا يصلح الا من اجل الدلالة على حدود حدسنا الحسي* ».

موضوع متسام هو سبب الظواهر ، ومع ذلك لانستطيع ان نطبق عليه ايا من مفاهيم الفهم هذا يعني ان مقولة **السببية** غير قابلة للتطبيق عليه ايضا ان لدينا

* Kritik der reinen Vernunft ، منشورات فون دكتور كيرباخ ريكيلام ص ٢٥٨ .

هنا تناقضا واضحا ، لكننا لن نتعرض له في الوقت الحاضر . ان الامر الذي لا جدال فيه هو < ان كانط يقول هنا شيئا يناقض تماما على وجه التقريب > ما يقوله في المقتطف الطويل من **المقدمة** المورد اعلاه . ما معنى ذلك ؟ **ايمكن ان كانط ينادي،** في كتابه **المقدمة** ، **براي مغاير لما نادى به** في كتابه **نقد العقل الخالص** ؟

الجواب نعم ولا على حد سواء ، فوجهة نظر كتاب كانط **نقد العقل الخالص** لم تكن واحدة دائما . ففي الطبعة الاولى كان **كانط** ميالا الى الراي بأن الشيء في نفسه هو **المفهوم الاولي** الذي لا يقابله شيء على الاطلاق خارج شعورنا ، او ـ بصورة ادق ـ كان كانط شديد التشكك بصدد وجود الاشياء خارج شعورنا . لقد كانت وجهة نظره هي وجهة نظر **المثالية الشكية** .

وحين اخذ خصومه ذلك عليه اجاب بكتابة الفقرة اعلاه من **المقدمة** ، وحاول ان يصحح الطبعة **الثانية** من كتابه **نقد العقل الخالص** بالمعنى « **الواقعي** » . وهذا ما تشبته بصورة كافية اشارة في المقدمة التي كتبها لهذه الطبعة و « **دحض المثالية** » الذي يقدمه . ومهما يكن من شيء ، فلم يكن هذا التصحيح ناجحا كل النجاح ، فوجهة النظر الواردة في الطبعة الاولى ظاهرة في فقرات متعددة من الطبعة الثانية ، وحتى دحض المثالية يمكن تفسيره بمعنى هو مناقض . لما قاله في **المقدمة** ، وهذا الظرف هو الذي اتاح للدكتور لاسفيتز ان يناقض كانط بالاستنجاد بكانط نفسه .

هـذا امر لا جدال فيه . والامر المفروغ منه ايضا هو ان كانط بالرغم من تناقضاته المتعددة ثار في اعقاب صدور **المقدمة** ، يعني ابتداء من عام ١٧٨٣ ، ضد التفسير المثالي لمذهبه ، ونحن نسأل القارىء ان يضع هذا الامر نصب عينيه نظرا لاهميته البالغة .

لنر الان ما هي النتائج الاخيرة التي توصل اليها الدكتور لاسفيتز في عرضه لفلسفة كانط .

يقـول :

« الوجود كله مجموع في نوعين من الكائنات ـ الذاتية والموضوعية . ويصادف النوعان في شعورنا ، وكلاهما يملكان درجة متكافئة من الواقعية والحقيقة . ليس ثمة كائن موجود خارج شعورنا ، لكن ثمة كائنا ليس هو انانا ، الا وهو الاشياء خارجنا . ومثل هذه الاشياء مرتبة دائما في شعورنا في نظام معين ، وهذا بالضبط هو ما يمنحنا الشعور بالانا حيال عالم الاشياء الخارجية* »

وكيما يفهم القارىء بصورة افضل وجهة نظر الدكتور لاسفيتز نطلب منه ان يأخذ بعين الاعتبار الاسطر التالية ايضا :

« وبنتيجة ذلك فان الوجود ، الوجود الفعلي والحقيقي ، يملك طابعا روحيا . وليس ثمة وجود آخر »

---

* Die Lehre Kants ص ١٣٨

« اي وجود ـ وجود الانا وغير الانا ـ تعديل محدد للشعور ؛ فبدون الشعور لا وجود للوجـود »

مما لا ريب فيه ان القارىء يحسب اننا لا نبرح نستشهد بلاسفيتز ، وهـو يخطىء اذن فالمقتطفان الاخيران هما من فخته* فقد اضطر الدكتور لاسفيتز ، كي ينقـد كانط يعني كي يتخلص من تناقضاته ان يتخلى عن وجهـة نظـر > كانط > المتذبذبة < وان ينتقل الى وجهة نظر > المثالية الذاتية ان كانطيتـه الجديدة هي فختية جديدة اكثر او اقل وعيا

وبنتيجة ذلك فانه لم يكن في مقدور الدكتور لاسفيتز ، جنبا الى جنب مـع الدكتور كونراد شميدت ، ان يقول ان كتاب كانط نقد العقل الخالص يمثل المثالية فقد كان يترتب عليه اذن الاقرار بأن افضل عرض للمثالية هو في Wissenschafts lehre فخته [ نظرية العلم ] اني اتحدث بصورة اتفاقية كان يترتب عليه ، نظرا لاني اشك في انه سيكون على قدر من الشجاعة للقيام بذلك ؛ وكما هو معروف لدى الجميع ، فقد احتج كانط على تفسير مذهبه بمعنى نظرية العلم** وبالتالي كان لا بدّ ان يعترض على العمل الوارد اعلاه بقلم الدكتور لاسفيتز

في رسـالـة الى راينهولـد دعا فختـه كانـط « ein Dreiviertelskopf ( ثلاثة ارباع العقل ) ، قائلا ان الروح القدس في كانط كان اقرب الى الحقيقة ممـا كانت شخصية كانط بالذات ويستطيع الكانطيون الجدد من امثال لاسفيتز ، بدورهم ، ان ينعتوا كانط بنفس الصفة ، ولا بد لهم ان يفعلوا ذلك اذا كانوا حازمين. فمهما قالوا لن يتمكنوا قط ان يخفوا عن اولئك الذين يتحلون ببعض الفهم انهـم تخلوا عن مذهب كانط وانحرفوا في اتجاه المثالية الذاتيـة

ومما لا ريب فيه ان هناك كانطيين جددا ايضا ، مثل الاستاذ ريهل ، لا يوافقون مطلقا على هذا الانتقال*** . وان الكانطيين الجدد من الطراز الاخير اخلص لعلمهم من الدكتور لاسفيتز ، لكنهم في هذه الحال اخلص في الاحتفاظ بجميع تهافتات معلمهم.

Ineidit in Scyllam qui vult vitare Charbdim !

اي طبعة من نقد العقل الخالص يجب اعتبارها التعبير الصحيح عن المثالية ؟ لم يقل الهر كونراد شميدت لنا كلمة واحدة في هذا الشأن ، بل لا يبدو انه يشك في ان وجهة نظر « النقد » في الطبعة الاولى تختلف عنها في الطبعة الثانية وفيما عدا ذلك ، فلا يبدو انه يفهم ايا من الطبعتين الاولى والثانية ، وهو ما يستطيع ان يتبينه كل من يكلف نفسه عناء التعرف الى النثر الفلسفي للاستاذ المحترم ومثال ذلك انه يكتب ما يلي

---

* اعمال فخته ، المجلد الحادي عشر ، ص ٣٢ ، والمجلد الثالث ؛ ص ٢

** في Erklärung السابع من آب ١٧٩٩

*** انظر Der philosophische Kritizismus، المجلد الاول ، لايبزغ ١٨٧٦ ، ص ٤٢٣ ـ ٤٣٥ ، والمجلد الثاني ، ص ١٢٨ ـ ١٧٦

« ان نظرية المعرفــة التي يعرض كانط بالاستناد اليها اخطاء ايــة فلسفة تسعى ميتافيزيائيا ، بمعونة المفاهيم الخالصة ، الى التسامي على حدود التجربة تحمل هـي نفسها طابع الظواهرية التامـة يعني تعتبر العالم الذي نراه والذي يخدم كموضوع لتجربتنا من حيث هو ظاهرة ليس غير

ولقد كان كانط يدهش ايما دهشة لو قرأ هذه السطور التي كتبها رجل هب للدفاع عنه ضد ماركس وانجلز

ما **التجربــة ؟ هذا** سؤال كان لا بد لكانط ان يجيب عنه ، كما هي حال كـل من يود محاولة حل القضية الاساسية للفلسفة ، قضية تحديد العلاقة بين الذات والموضوع بين الفكر والوجود وليست نظرية المعرفة عند كانط شيئا سوى الرد على هذا السؤال وعلى أي حال فقد اوضح وهو يجيب عنه الفارق القائم ، في رايــه بـين noumenon و phenomenon ، بين الشيء في ذاته والظاهرة وقد لا يتفق المرء مع كانط ــ ونحن لا نتفق معه ــ لكنه من المحال تماما اعتباره مفكرا تافها وسطحيا كما يفعل كونراد شميدت فيما يبدو ولو ان كانط قرر بكل بساطة اننا **نرى الظواهر** وان **تجربتنا** تخص **الظواهر** لكان معنى ذلك اذن ان فلسفته مبنية على مغالطة منطقية سخيفة ، على الافتراض بأن المسألة بالذات التي تنتظر الحل حلت مسبقا

ويستطرد صاحبنا الدكتور قائلا

« وهنا يقوم السؤال بصورة طبيعية ، ما اذا كان في مقدورنا عموما ان نحصل على معرفة فورية بالعالم الخارجي الذي نؤهله بطريقة ما بانطباعات حواسنا والذي يصبح قابلا لفهمنا بمساعدة مقولة السبب والنتيجة أليست التصورات الاعم بالذات لعالم جرمي يتحرك في الزمان والمكان من طبيعة ذاتية ؟

في فلسفة كانط تعني كلمتا « العالم الخارجي جميع الظواهر التي تنتسب الى « **تجربتنا الخارجية** » او الى nicht - Ich الخاصة بنا كما كان يمكن لفخته ان يعبر عن ذلك فحتى المعرفة الاكثر سطحية بهذه الفلسفة سوف تكفي لافهامنا ان معرفتنا بهذه المجموعة من **الظواهر هي فورية** بقدر معرفتنا بالظواهر التي تنتسب الى **انانا** وما كان يمكن ان « يقوم » أي « سؤال » **في هــذا** المنحى وبالطريقـة نفسها فانه ما كان يمكن لكانط ان **يتساءل** ما اذا كان **تصورنا** للعالم الخارجي من طبيعة **ذاتيــة** فمن البدهي ان مثل هــذا التصور لا يمكن ان يكون من اي طبيعة اخرى **فالسؤال** عن هــذا الامر معناه الافتقار الى اي « **تصور** » عن الموضـوع المطروح على المناقشة بيد ان كلمتي « العالم الخارجي » يمكن ايضا ان يقصد بهما **الاشياء في ذاتها** التي هي **اساس عالم الظواهر** ولـم يسأل كانط قط ما اذا كانت ايــة معرفة فورية بهذه الاشياء ممكنة فعنده ان المعرفة الفورية هي تلك المعرفة التي **لا تتوقف على فعل** الاشياء فينا ، وكان مدركا تماما لتعذر مثل هذه المعرفــة .

وهو يقول في الطبعة الثانية من **نقد العقل الخالص** « ذلك ان الاحساس غير ممكن الا داخل المرء وليس خارجه* بيد انه كان لكانط الحق في التساؤل – ولقد تساءل – عما اذا كان في وسعنا ان نكون على **يقين** من وجود الاشياء خارج شعورنا ويعرف القارىء من قبل كيف اجاب عن هذا السؤال في مختلف مراحل حياته فلنر الان ما لدى الدكتور شميدت من اقوال في هذا الشأن

« نظراً لانه بدا لكانط ، ههنا ايضا ، ان ثمة اسبابا موجبة للشك فانه لم يتراجع عن هذه الخطوة الاخيرة فعنده ان الزمان والمكان والمادة والمفاهيم التي نفك بمعونتها ألغاز العالم هي اشياء غير موجودة الا في التصور والفكر الانسانيين وحدهما ولقد كان يعتبر ان غير قابل للمعرفة ، الشيء في ذاته ، هو المصدر الاول الذي يتدفق منه ذلك الاحساس ان الاساس الاشد كمونا لجميع الموجودات امر يتجاوز الفهم البشري ، وكل شيء يحدث هو معجزة مستمرة لانه يصدر عما يتجاوز الفهم ، وان تهافت ( Die Bodenlosigkeit )، هذه الفكرة هو الذي وفر لفخته وشيلنغ وهيغل المقدمات الاولية من اجل نوع جديد من الميتافيزياء هي أعمق واغنى فكرا بما لا يقاس ، لكنها مع ذلك اكثر تعلقا في الجو واشد افتقارا الى المضمون الجوهري »

**هذه الخطبة الطويلة ترتد الى ان كانط انكر وجود الاشياء ( في ذاتها )** خارج شعورنا ولا حاجة بنا الى فضح « تهافت » **مثل هذا التأكيد الجازم** انه يناقض حقيقة اكتملت في الزمان والمكان

ان الدكتور شميدت على يقين راسخ من ان الاشياء **لا توجد** في شعورنا**وحده** . وهو يعنف كانط من هـذه الزاوية ( كانط الموجود في « شعوره » ) بكل قسوة «ان ذهننا يأخذ في الارتياب حتى في الوجود الموضوعي للعالم المادي نفسه ، وهو وجود مستقل كل الاستقلال عن الشعور البشري ، يفقد اي ارض صلبة يقف عليها »

وعند هذه النقطة نجد انفسنا ملزمين بالقيام بالدفاع عن حكيم كونغسبرغ(١٩١) .

فنحن نعرف من قبل ان كانط ، منذ صدور كتابه **المقدمة** ( في ١٧٨٣ ) ، اعترف **دون تحفظ** بوجود الاشياء في ذاتها دونما اعتبار لشعورنا ومهما يكن من شيء ، فان هذا لم يمنعه وما كان يمكن ان يمنعه من النظر الى **العالم المادي** على اعتباره عالما من **الظواهر** . وهو يقول :

« في الذهن التجريبي وحده ، يعني في ارتباط مع التجربة فقط تعطى المادة بصورة فعلية لحواسنا الخارجية من حيث هي جوهر في ظاهرة »

اما ان نعزو الى هذه المادة ، وبالتالي الى العالم المادي الذي خلقته ، وجوداً مستقلا عن شعورنا ، فهذا **معناه ، من وجهة نظر كانط ، اقتراف خطيئة لا تغتفر لاي مفكر**

* طبعة كهرباخ ص ٣٢٠

ومهما يكن من شيء ، فان صاحبنا الدكتور يرفض الانتقال الى وجهة نظر فختــه ، وهو السبب في دعوتنا له ان يخبرنا كيف يحــل التناقضات في الفلسفة الكانطية تلك التناقضات المشار اليها اعلاه والواضحة حتى لقسم من الكانطيين الجدد وهي بالذات التناقضات التي اعتمد عليهـا ماركس وانجلز في نقدهمـا للفلسفة الكانطيـــة

هل يعترف الدكتور شميدت بوجود هذه التناقضات ؟ ان ما نطلبه هو جواب صريح نعم أم لا • ويبدو ان كونراد شميدت يعترف بوجودها ، لكنه بدلا من اخذها بعين الاعتبار ومحاولة حلهـا يفضل ان يمتعنا بقطعـة من « الكتابة » المصاغـة بالعبارات التاليـة

« لكن الهوة التي لا قرار لها المنكشفة ــ صوابا او خطأ ــ للفكر من قبل الفلسفـة الكانطية هي حصيلة سالبة ليس غير ؛ فمظهرها المثمر بصورة حقيقية يستقيم في البحث الفذ في العمليـة الاجماليـة لتنظيمنا النفسي ــ الروحي » ( Seelischgeistigen Organisation ) « التي يأتي عالم الظواهر الى الوجود بواسطتها لكن المهمة الحقيقية التي يسعى اليها نقـد العقل الخالص ، هذه المهمة التي لم يتصد لها انسان بمثل هذه البصيرة المذهلة سواء قبل كانط أو بعده ، تكمن في هذا بالضبط ، في الكشف عن قدرتنا على التصور ومهما كانت ضئيلة قدرة تحليل كانط على الادعاء بتوفير حل للقضية هو نهائي ومرض وخال من التناقضات ــ ومن الارجح انها اصعب قضية يمكن لاي بحث علمي ان يتصدى لها ــ فانه من الجلي مع ذلك انه لا يمكن لاي محاولة للتغلغل بصورة أعمق في الاعماق السرية للعالم الباطن ان تجتنب ما صنعـه كانط وبالتالي فان العودة الى كانط لا تعني ، في حال من الاحوال ، حركة عكسية بالمعنى الرجعي* »

مما لا ريب فيه انه في مقدور المرء ، « بكتابات » من هذا النمط ، ان يتهرب من اعتبار الاعتراضات المرفوعة ضد فلسفة كانط ، بيد ان مثل هــذه الاعتراضات لا يمكن دحضهـا

لقد تصدى كانط في كتابه نقد العقل الخالص لمهمة دراسة قدرتنا على المعرفة وليس قدرتنـا على التصور كما يؤكد الدكتور شميدت فمـا الداعي الى تشويه ما يمكن عرضه بأقصى دقة ممكنة ؟ غير اننا نقول هذا بصورة عابرة

يتخذ كانط منطلقا له الشعور من حيث هو شيء مهيء مسبقا ، فهو لم يأخذ هذا الشعور في صيرورته وهمنا يكمن اكبر قصور في « تحليله للشعور » ، ومما يبعث على الدهشة ان الهر كونراد شميدت اخفق في ملاحظـة ذلك اليوم ونظريـة

* فورفارتس ، المقالـة السابقـة الذكر

**التطور** ظافرة في جميع فروع العلم*

ان الهر كونراد شميدت على قناعة راسخة بوجود العالم « المادي » ليس ضمن شعورنا فحسب ، بل خارجه ايضا وما نود ان نسمعه منه هو ما اذا كان يعتقد ان هذا العالم المادي ، الموجود خارج شعوره ، يؤثر في قدرته على المعرفة فاذا كان الجواب **لا** فهو يتخذ اذن موقف **المثالية الذاتية** ، وسوف نكون عاجزين اذن عن ادراك ما الذي يقنعه بوجود عالم مادي **بصورة مستقلة عن شعوره** واذا كان الجواب **نعم** فهو سيضطر الى الاعتراف ، جنبا الى جنب مع ماركس وانجلز ، بان « غير قابل للمعرفة الذي ينادي كانط بـه مليء بالتناقضات ان المنطق يفرض بعض الالزامات ايضا ، وهي اكثر حتى درجة ما مما يتطلب الشرف ذلك

ويستطرد الدكتور المحترم قائلا

« ان المادي الذي ينادي بعالم جرمي موضوعي ، عالم موجود بذاته ، دونما علاقة بصلاته بالذهن البشري من حيث هو اساس ومصدر العملية الحياتية لا يعفى من جراء ذلك من دراسة تنظيمنا الروحي ، مثله في ذلك كمثل المثالي »

ان المادي يؤكد بصورة جازمة ان للعالم المادي وجودا موضوعيا وهذا ما يفعله الهر كونراد شميدت انه على يقين من ان العقل الذي يأخذ في الارتياب حتى بالوجود الموضوعي للعالم المادي بالذات ، وهو وجود مستقل كل الاستقلال عن الشعور الانساني ، يفقد الارض الصلبة التي يقف عليها » ( انظر اعلاه ) فما الفرق اذن بين رأي « المادي » من جهة واحدة ورأي الدكتور كونراد شميدت من جهة ثانيـة ؟ لا ارى اي فارق

لكن ليغفر القارىء لي : ان ثمـة فارقا ! ان نتائج « المادي » تتفق مع مقدماته، فيما الدكتور كونراد شميدت يفضل « حساء الانتقائية الهزيل (١٩٢) » وكما نرى،

---

* يقول ب بيك « لا ادري كيف يعالج نظريـة التطور اولئك الفلاسفـة الذين يعتنقون النظرية الكانطية عن المعرفة لقد كانت النفس البشرية ، بالنسبة الى كانط مقدارا معينا يظـل متساويا باستمرار. وكان المقصود بالنسبةاليه تحديد خاصنتها القبلية، مع استخلاص جميع الاشياءالباقية من ذلك ، ولم يكن المقصود بيـان اصل هذه الخاصة لكن اذا انطلقنا من البدهية القائلة أن الانسان تطور بصورة متدرجة من نتفة من الهيولى فانه سيكون من الضرورة بمكان اذن ان نستخلص مـن التظاهرات الاساسية لتلك الخلية البدنية ما قد كان بالنسبة الى كانط عالم ظواهر بأكملـه »

Die Nachahmung und ihre Bedeutung für psychologie und Völkerkunde)

لايبزغ ١٩٠٤ ص ٣٣ ) ومهما يكن من شيء ، فان الكانطيين لا يهتمون مطلقا بما اذا كانت نظريتهم تتفق مـع مذهب التطور ولم يأخـذ بعضهـم وايندلباند مثلا في ابداء بعض الشك بهـذا الصدد الا مؤخرا .

فذلك فارق كبير وخطير جدا من تفضل ، ايهـا القارىء العزيز ؛ « المادي » أم الدكتور كونراد شميدت ؟ في الحقيقة De gustibus non est disputandum .

ليس « المادي معفيا من دراسة تنظيمنا الروحي بالطبع لا لكن المادي يتوجه في سبيل دراسة هذا التنظيم ، الى علم النفس التجريبي الذي لا يعالج الا الظواهر والذي يستخدم طرقا مستعارة من علم الحياة تلك هي الدرب الاوثق.

لكن صاحبنا الدكتور العالم يهتف لكن ليست هذه بالمادية

« ان كل من يرى الفارق الرئيسي بين المادية والمثالية في الاقرار بالنماذج الخاضعة للقوانين المشاهدة في كل مكان في عالم الظواهر انما يشوش الطبيعة النوعية للتضاد بين المادية والمثالية ، وبذلك ينتزع من مفهوم المادية تحدده الخاص ويمكن لانجلز نفسه ان يخدم كمثال مميز على ذلك »

لكن كيف ؟ ما الذي قاله انجلز بالفعل عن الفارق بين المادية والمثالية ؟

يورد الهر كونراد شميدت الفقرة التالية من كتاب **لودفيغ فيورباخ**

« فالانفصال عن فلسفة هيغل حصل هنا » ( مع ماركس — ج . ب — ) ايضا بالرجوع الى وجهة النظر المادية وذلك يعني تصميم الفلاسفة على فهم العالم الواقعي — الطبيعة والتاريخ — كما يتمثل ، هو نفسه ، لكل امرىء يذهب اليه دون وهم مثالي لقد تم العزم على التضحية — دون شفقة — بكل نزعة مثالية لا يمكن التوفيق بينها وبين الوقائع من حيث علاقاتها الخالصة لا من حيث علاقاتها الوهمية والحقيقة ان المادية لا تعني شيئا أكثر من هـذا (١٩٣) »

من الواضح ان هذه الفقرة لا تتضمن تعريفا كاملا للمادية لكن ما الذي حمل الهر كونراد شميدت على الاستشهاد بها من دون اي شيء آخر ؟ لماذا نسي الحجة التالية التي يستخدمها انجلز

هذه المشكلة المتعلقة بوضع الفكر من حيث علاقته بالوجود — وقد لعبت الى ذلك دورا عظيما في الفلسفة المدرسية خلال العصور الوسيطة — مشكلة معرفة أيهما العنصر الاولى الروح أم الطبيعة ، هذه المشكلة اخذت هذا الشكل الحاد بالنسبة الى الكنيسة : هل خلق الله العالم أم ان هذا العالم موجود منذ الازل

« ولقد انقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين حسب اجابتهم ، بهذه الصورة أو تلك ، على هذا السؤال فأولئك الذين أكدوا أولية الروح على الطبيعة يؤلفون معسكر المثالية أما الفلاسفة الاخرون الذين اعتبروا الطبيعة بمثابة العنصر الاول فينتمون الى مختلف مدارس المادية (١٩٤)

وبنتيجة ذلك فان المادية ، في رأي انجلز ، مذهب يعتبر ان الطبيعة اوليـة بالنسبة الى الروح أيكون هذا التعريف صحيحا ؟

لنتذكر الماديين الفرنسيين للقرن الثامـن عشر فيم استقامت الموضوعـة الاساسية لنظرياتهم ؟

يقول مؤلف **نظام الطبيعة**

« حين نعزو النتائج التي نشاهدها الى الطبيعة ، الى المادة في تراكيبها المختلفة ، الى الحركات الملازمة لها ، فهذا معناه اعطاء هذه النتائج سبب عاما ومألوفا الرغبة في الصعود الى اعلى من ذلك فمعناه الضياع في الفراغات الوهمية حيث لن نجد قط شيئا سوى خليط من الشكوك والابهامات وبالتالي لا نبحثن عن مبدأ محرك خارج الطبيعة التي كانت ماهيتها على الدوام ان توجد وان تتحرك ما الحاجة الى البحث خارج المادة عن قوة محركة تدفعها الى العمل* ؟ »

**اتريدني ايها الدكتور العالم ان اقدم اليك مقتطفا آخر ؟ يسعدني ذلك ، وسوف اعرض عليك فقرتين اخريين ليس اشد منهما اقناعا**

« لا يمكن أن يكون في الطبيعة الا اسباب ونتائج طبيعية فجميع الحركات الجارية فيها تتبع قوانين ثابتة وضرورية ، والعمليات الطبيعية التي نحن في وضع يتيح لنا الحكم عليها تكفي لتمكننا من اماطة اللثام عن تلك العمليات المستترة عن رؤيتنا في مقدورنا على الاقل ان نحكم عليها بالقياس ، واذا نحن درسنا الطبيعة بانتباه فان طرق العمل التي تبديها تعلمنا الا نحار امام تلك التي ترفض الكشف عنها لنا فمما لا ريب فيه ان الاسباب الابعد عن نتائجها تعمل من خلال اسباب متوسطة واذا ظهرت في سلسلة هذه الاسباب بعض العقبات التي تعرقل بحثنا فان من واجبنا أن نسعى الى التغلب عليها ، واذا نحن عجزنا عن النجاح في ذلك فلن يكون لنا الحق قط في الاستخلاص من ذلك ان السلسلة تحطمت او ان السبب فوق طبيعي لنكتف في هذه الحال بالاقرار بأن الطبيعة تملك مصادر لا نعرفها ، لكن ايانا وان نستعيض بالاشباح ، باوهام » كان انجلز يقول بالاوهام المثالية . ج . ب . ) « عن الاسباب التي تفلت منا ، اننا لن نفعل اذن سوى تثبيت انفسنا في الجهل ، وايقاف ابحاثنا ، والاستمرار في اخطائنا** » .

**وفي موضع آخر**

« لنقل ان الطبيعة تتضمن جميع الاشياء التي يمكننا معرفتها لنقل ان الطبيعة تفعل جميع الاشياء وان ما لا تفعله محال ، وانه لا يوجد او يمكن ان يوجد اي شيء خارج الطبيعة واذا لم نستطع ان نكتشف الاسباب الاولية فلنكتف » سجل هذا يا دكتور ، سجل هذا ! ) « بالاسباب الثانوية وبالنتائج التي تظهرها لنا التجربة ؛ ان من واجبنا أن نشاهد الحقائق المتوفرة والمعروفة منا ، وهي كافية لتمكننا من الحكم على ما لا نعرف ؛ ان من واجبنا ان نرضى بالومضات الخافتة من الحقيقة التي تصلنا بواسطة حواسنا الخارجية » ( وهذا يعني ، يا دكتور شميدت ، انه لا يجوز لنا قط ان نتخلى عن قاعدة التجربة — ج . ب . *** ) .

---

* **نظام الطبيعة** ، طبعة ١٧٨١ المجلد الثاني ص ١٤٦

** المصدر نفسه ، المجلد الاول ، ص ٣٨

*** المصدر نفسه ، المجلد الاول ، ص ٣٨

وليس كتاب **نظام الطبيعة** بأسره سوى شرح لهذه الفكرة التي تكمن خلف كل المذهب المادي ـخاص بمؤـف الكتاب الشهـ أو بالاحرى مؤلفيه

وان صاحبنا الدكتور العالم ليحصل على فائدة عظيمة من الاصفاء الى مايقوله مادي فرنسي آخر

الانسان خليقة للطبيعة هو يعيش في الطبيعة وهو خاضع لقوانينها انـه لا يستطيع رفضها بل لا يستطيع حتى في الفكر يخرج من حدودها ليس ثمة شيء بالنسبة الى مخلوق صنعته الطبيعة موجودا ما وراء حدود هذا الكل الكبير الذي يشكل هو جزءا منـه وليست تلك المخلوقات التي يقال انها موجودة فوق الطبيعة سوى اوهام وليس في مقدورنا ان نملك ية فكرة عنها* »

« بما ان الانسان شاء من سوء حظه يخرج من ضمن حدود مجاا فقـد بذل محاولة للارتفاع فوق العالم المرئي عالم الظواهر ايها الهر الدكتور ـ ج . ب ٠! « لقد اهمل التجربة كي ينخرط في التخمينات** »

ما رأيك في هذه الاشياء جميعا يا هر كونراد شميدت ؟ اننا نرى ان معلمنا العجوز انجلز كان على حق اننا نرى ان المادية هي بالفعل مذهب يبتغي تفسير الطبيعة من خلال قواها الخاصة ، وينظر الى الطبيعة من حيث هي اوليـة بالنسبة الى « الروح واخيرا فانه يخيل الينا ان تعريف انجلز للمادية يمكن الاعتراف به من حيث هو التعريف الاعم والابعث على الرضا

اقول الاعم لكني اعرف ان ثمة استثناءات للقاعدة العامة هكذا على سبيل المثال نادى الماديون الانكليز بأن ثمة مخلوقات تقف **فوق** الطبيعة ويكفينا ان نأتي على ذكر جوزيف بريستلي الذي زين مذهبـه بخليط من الذيول غير الماديـة على الاطلاق بيد ان هذه جميعا مجرد ذيول ، ونظرا لان الماديين الانكليز يعلقون اهمية خطيرة على مثل هذه الذيول ، فقد **كفوا عن كونهم ماديين** .ان ماديتهم ، **بصفتهاهذه**، تقتصر على دراسة لمسألة علاقة النفس بالجسد ومهما يكن من شيء ، فان آراءهم في **هـذه** المسألة واضحة ومحددة تماما

يقول بريستلي نفسه ان ما اسميه **نفسي** لا يعدو كونـه مادة مستعضية ويستطرد فيقول انه لا يستطيع في حال من الاحوال القبول بوجود المبدأ غير المادي في الانسان للسبب نفسه الذي افترض من اجله ان للانسان نفسا يمكن لاية مادة خصوصية تعزى اليها قوى او خصائص ان تملك نفسا منفصلة ايضا*** ».

---

* **المعنى الحقيقي « لنظام الطبيعـة »** الفصل الاول ، ومقدمـة **المجموعـة الضرورية** ، لايبزغ ١٧٦٥

** المصدر نفسه ، ص ٧٦

*** **مناقشة حرة** ، ص ١٢٣

ان الكتاب الذي استشهدت به اعلاه ـ **المعنى الحقيقي ((النظام الطبيعة))** ـ ينسب **الى هيلفيتيوس** . هل لدى الدكتور شميدت اي فكرة واضحة عن مادية هذا الكاتب الباعث على الاهتمام ، الذي ما اكثر ما افترى عليه البورجوازيون الصغار ؟ سوف احاول ان اعطيه على الاقل معرفة ضئيلة بهيلفيتيوس

فيما لا ينطوي الهر الدكتور شميدت على اي شك في وجود عالم خارجي مستقل عن شعورنا ، فان هذا الوجود لم يكن سوى احتمال بالنسبة الى هيلفيتيوس ومما لا ريب فيه ان احتمال ( وجوده كان احتمالا عاليا جدا وفي ان النتائج الصادرة عنه كانت تضاهي الحقيقة ، ومع ذلك فليس ذلك اكثر من احتمال*

ان هذا لباعث على قدر كبير من الدهشة بحيث ما كان توقعه ممكنا قط الدكتور كونراد شميدت في دور (( **العقائدي** )) بالمقارنة مع احد ماديي القرن الثامن عشر وتحدثوا عن التقدم بعد ذلك !

لعل الهر شميدت يقبل الاونة بالموافقة على انه ـ هو الدكتور العالم ـ قد اخطأ وليس فريديريك انجلز الذي يريد تصحيحه

لقد قال عالم الحياة الانكليزي الشهير هكسلي مرة في مقالة له ان علم الغريزة الحالي يقود باستقامة الى المادية ، وذلك بقدر ما ينطبق هذا الاسم على مذهب يؤكد بأنه لا توجد ، باستثناء المادة التي تملك الامتداد ، اية مادة مفكرة اخرى ، وبأن الشعور وظيفة للمادة ، مثله كمثل الحركة ولقد أخطأ هكسلي في شيء واحد فقط ، الا وهو تصوره ان المادية عنيت شيئا آخر في يوم من الايام ان جميع الماديين نظروا الى المادة بالضبط بالطريقة نفسها التي علمنا اياها علم الغريزة الحالي حسب هكسلي ولقد كان في مقدور الماديين الفرنسيين ، بما ينميزون به من حزم وجر ان يستخلصوا من الفكرة الاساسية جميع النتائج الممكنة بالنسبة الى عصرهم فيما خشي الماديون الانكليز ان يمضوا قدما حتى النهاية ومهما يكن من شيء فقد شاطروا جميعا في هذا الاساس الكامن للنظرية المادية ودافعوا عنه

وختاما لنلخص ما قلناه

١ ـ ان الهر الدكتور كونراد شميدت فهم كانط بصورة بائسة جدا ، بالرغم من نهوضه للدفاع عنه ضد ماركس وانجلز

**٢ ـ كذلك فهم ماركس وانجلز بصورة بائسة ، وقد حاول ان ينقدهما باسم كانط**

٣ ـ كشف عن فكرة خاطئة بصورة مطلقة عن المادية

ان هذه الاخطاء الثلاث الخطيرة لدى صاحبنا الدكتور العالم تكفي لاثارة السؤال التالي في ذهن القارىء : اي روح شرير دفعه الى الانخراط في مناقشة امور

* **مؤلفات هيلفيتيوس الكاملة** ، باريس ١٨٢٨ ، المجلد الاول ، ص ٥ ـ ٦ ؛ الهامش .

من المؤكد انه لا يمكن ان تكون « **غير قابلة للمعرفة** » بالنسبة اليه ، لكنه من الواضح انها ظلت مجهولة منه ؟ هذا سؤال بالغ الاهمية وفي سبيل الجواب عنه ، لا بد للمرء ان يتذكر ما سماه تارديس **قوانين المحاكاة** .

ان منظري البورجوازية اليوم يتمسكون بفلسفة كانط بحزم ويدينون المادية حتى دون ان يتكلفوا عناء الحصول على **أية معرفة بشأنها**

ولقد اتبع الهر شميدت مثالهم ودان مادية ماركس وانجلز

ولقد نسي في هذا الشأن ان منظري الطبقة العاملة يخونون انفسهم حين يعمدون الى محاكاة منظري البورجوازية

ان نفور البورجوازية من المادية وتفضيلها لفلسفة **كانط** يمكن تفسيرهما جيدا بحالة المجتمع الراهن فالبورجوازية ترى في مذهب كانط « سلاحا روحيا » جبارا في النضال ضد المطامح الاولية للطبقة العاملة وهذا هو السبب في ان الكانطية اصبحت الزي الشائع بين البورجوازيين المثقفين

من المعروف ان الطبقات الدنيا غالبا ما تقلد رؤساءها ، لكن متى تفعل ذلك ؟ ذلك حين **لا** تكون قد حققت **الوعي الذاتي** ان محاكاة طبقة عليا من جانب طبقة دنيا دلالة على أن هذه الاخيرة لم تنضج بعد من اجل النضال في سبيل تحررها ؛ وان المرء الذي يود تنشيط هذا النضوج ملزم بشن النضال ضد ذلك التقليد ايضا. ان نمو الوعي لدى المضطهدين « عامل تقدم » هائل

وكنا نود ان نناقش الجدلية ايضا مع الدكتور شميدت ، لكن نقص المكان يحول دون ذلك وبالتالي فلا بد من تأجيل هذه المناقشة لفرصة اخرى ، ولذا فسوف نقول له الآن وداعا . (١٩٥) ich salutiere den gelehrten Hernn !

# المادية أم الكانطية

was für eine Philosophie man wählt ,
was für eine Mensch man ist .
hangt davon ab ,

**جوهان غوتيب فخته***

## ١

لعل القارىء يتذكر ان ادوارد برنشتاين كلف الدكتور شميدت بالمهمة السهلة وان لم تكن سارة تماما » ، الخاصة بالكشف عن تناقضاتي وتفنيد استنتاجاتي الفلسفية المغلوطة ولقد جرب كونراد شميدت القيام بهذه المهمة فيالعدد الحادي عشر من **نيوزيت** ( ١٨٩٨) لنر اذا كانت جهوده قد تكللتبالنجاح.

تنقسم مقالة الهر كونراد شميدت الى ثلاثة اقسام مقدمة ساخرة حتى درجة كبيرة ونتيجة غاضبة جدا ، والقسم الرئيسي وسوف ابدأ من البداية، يعني من المقدمة الساخرة

لقد اتخذ خصمي موقف الدهشة ، معلنا انه يخفق في فهم السبب الذي حملني على معالجة مقالاته التي نشرت الاخيرة منها قبل عام ومع ذلك فهذا أمر يسهل فهمه تماما

لقد قرات مقالاته حال صدورها ووجدتها ضعيفة حتى الدرجة القصوى، وقررت انه لا يمكنها ان تمارس ادنى تأثير وهذا هو السبب في اني افتقدت اية رغبة في ذلك الحين في الدخول في مساجلة مع مؤلفها وعلى اي حال ، فان مقالات ضعيفة كثيرة تظهر وهي لا تستحق عناء دحضها لكن الهر ادوارد برنشتاين اعلن في الربيع الماضي ، urbi et orbi ان مقالات كونراد شميدت الضعيفة منحته «زخما فوريا» ، الامر الذي حملني علىادراك خطيئة رايي السابق عن الاثر الذييمكن ان يكون للمقالات موضوع البحث بحيث تبين لي أن دحضها لن يكون عناء ضائعا. فاخضاع كونراد شميدت للنقد يعني في الوقت نفسه امتحان القوة الاخلاقية للهر ادوارد برنشتاين الذي هب ، كما يعرف الجميع لتصحيح النظرية الماركسية وقد كتبت مسترشدا بهذه الاعتبارات ، مقالة عنوانها « كونراد شميدت ضد كارل ماركس وفريديريك انجلز وبالتالي فهذه المقالة لا تفتقر للاهمية بقدر ما يؤكد خصمي ذلك

---

* [ الفلسفة التي يختارها المرء رهن بأي نوع من البشر هو ] .

والآن سوف اعالج القسم الرئيسي من مقالة الدكتور المحترم

يقول انجلز انافضل دحض للكانطية توفره نشاطاتنا العملية اليومية، وبالخاصة الصناعة ، ويستطرد فيقول « the proof of the pudding is in the eating* ويجد كونراد شميدت ان محاكمة انجلز لا تقتصر على الضعف وحده ، بل ــ وهذا اسوأ بما لا يقاس ــ **تتجنب** أي اعتبار للموضوع ولقد نهضت في مقالتي ضد هذا الراي وبينت ان كونراد شميدت لم يستطع أن يهضم حلوى انجلز ولم تكن لدي ادنى رغبة في اسعاد خصمي ، فلا عجب اذن اذا لم تلق مقالتي تأييدا من جانبه لا شكلا ولا مضمونا واما الشكل فسوف اعالجه في نهاية المقالة الحالية واما المضمون فسوف اعالجه في الحال

حين قال ماركس وانجلز ان نشاطات الناس العملية توفر يوميا افضل دحض للكانطية كانا يشددان على التناقض الغريب الكامن خلف مذهب كانط ويستقيم التناقض من جهة واحدة في ان كانط يعتبر الشيء في ذاته السبب في تصوراتنا فيما هو يجد من جهة ثانية ، ان **مقولة السبب** لا يمكن أن تطبق عليه وحين امطت اللثام عن هذا التناقض كتبت على أي حال ما يلي

ما الظاهرة ؟ انها حالة لشعورنا يثيرها فينا فعل الاشياء في ذاتها هذا ما يقول كانط ويترتب على هذا التعريف توقع ظاهرة معينة معناه **توقع الفعل الذي سوف يكون لشيء في ذاته فينا** . ويمكن ان يُسأل الان ما اذا كان في مقدورنا توقع ظاهرة معينة ، والجواب هو بكل تأكيد ، هذا في مقدورنا وهذا ما يضمنه العلم والتكنولوجيا عندنا ومهما يكن من شيء ، فلا يمكن ان يكون معنى ذلك سوى ان في مقدورنا ان نتوقع الفعل الذي سوف يكون للاشياء المقصودة فينا فاذا كان في وسعنا توقع الفعل الذي تمارسه علينا الاشياء في ذاتها فهذا يعني اذن اننا واعون على الاقل ) **لبعض خصائصها** وهكذا فاذا كنا واعين **لبعض خصائص** الاشياء **في** ذاتها فليس لدينا اي حق في تسمية هذه الاشياء **غير قابلة للمعرفة** . ان هذه « **السفسطة** » عند كانط تنهار وتذهب بفعل منطق مذهبه بالذات وهذا ما كان يقصده انجلز من حلواه ان برهانه واضح وجازم كمثل برهان نظرية رياضية

ولقد حاول الدكتور كونراد شميدت ، اولا وقبل كل شيء ان يدحض هذه الفقرة من مقالتي

انه يقول ،بتلك السخرية الرقيقة التي تسود مقالته اذا كان هذا صحيحا، فلا بد ان تتعثر الامور بخصوص عدم قابلية البرهان الرياضي للدحض وينتقل الى تعنيفي بصدد التباس في المفاهيم غير جائز ، فيسأل « ما هي تلك الاشياء التي تؤثر فينا ، وبالتالي تتيح لنا ان نعرف بعضا من خصائصها ؟ انها اشياء محددة

* [ البرهان على الحلوى هو في تناولها ]

ماديا في الزمان وفي المكان ، وهذا يعني ان التعريفات والخصائص الاساسية لمثل هذهالاشياء هي نفسها ذات طابع ظواهري خالص وما دام الامر كذلك فانه من الطبيعي على خير وجه بالنسبة الى صاحبنا الدكتور العالم ان ينظر بازدراء سواء الى حلوى انجلز او الى النتائج التي اعتمدت فيها على هذه الحلوى

وبنتيجة ذلك فاذا كان « ابتكار كانط يذهب هباء منثورا بفعل منطق مذهبه الخالص » — وسوف نعتقد ذلك على الاقل حتى نزود ببراهين اخرى — فمن الواضح ان السبب في ذلك هو ان لامنطقا غريبا يؤتى به الى هذا المنطق بفعل تلاعب بالكلمات ( الشيء و الشيء في ذاته » ) »

يا للازدراء ويا للاستنتاج الماحق ان الماديين ( ماركس وانجلز والفاني المتواضع الذي يكتب هذه السطور ) يتلاعبون بالكلمات < ويأتون بلا منطقهم الخاص الى منطق الكانطية > مما لا ريب فيه انه يمكن تفسير ذلك بان الماديين — من حيث هم عقائديون و ميتافيزيائيون » — يفتقرون الى القدرات الضرورية من أجل فهم مذهب كانط ان « مفكرا نقديا لن يقول ابدا ، ابدا على الاطلاق ، ما تجاسرنا نحن الماديين العقائديين المساكين فقررناه

لكن لكن هل انت واثق تماما مما تقول ، ابها الخصم المحترم جدا ؟ لنأخذ بعين الاعتبار المسألة التي تهمنا ، وذلك في ضوء تاريخ الفلسفة

منذ عام ١٧٨٧ أخذ فريدريخ هنريخ جاكوبي على كانط في ملحق حواره المثالية والواقعية التناقض الذي اشير اليه واليك ما الذي كتبه بهذا الشأن

« اسأل كيف يمكن للمرء ان يجمع بين افتراض اشياء تنتج الانطباعات في حواسنا وبذلك تؤدي الى نشوء التصورات من جهة ، وبين مصادرة تسعى الى تدمير كل اساس لذلك الافتراض من جهة ثانية ؟ واذا اخذ المرء بعين الاعتبار ان المكان وجميع الاشياء في المكان ، وفقا للنظام الكانطي لا وجود لها في أي مكان الا في ذواتنا ؛ وان جميع التبدلات في شرطنا الباطن بالذات ليست شيئا سوى اشكال لتصورنا وهي لا تدل على أي تبدل فعلي موضوعي او أية عمليات تطورية ؛ وان مثل هذه التبدلات لا تدل على أي تعاقب خارجي او داخلي للظواهر ؛ واذا اخذ المرء بعين الاعتبار ان جميع قوانين الذهن الاساسية هي مجرد الشروط الذاتية التي هي قوانين فكرنا وليست قوانين الطبيعة بصفتها هذه وزن المرء على اكمل وجه جميع هذه الموضوعات فلا بد له ان يسأل اذن هل من الممكن ، جنبا الى جنب مع هذه الموضوعات ، ان يفترض وجود الاشياء التي تنتج الانطباعات في حواسنا وبذلك تؤدي الى نشوء التصورات* ؟

ان ما تراه هنا ، يا هر دكتور شميدت ، هو بالذات ذلك « اللامنطق الذي

---

* مؤلفات جاكوبي ، المجلد الثاني ص ٣٠٨

ساءك جدا في كتابات الماديين هل يدهشك هذا ؟ اصبر قليلا معي فسوف تسمع اشياء هي ابعث من ذلك على الاستياء

كما اشرنا سابقا، فان الحوار المثاليـة والواقعية » صدر منذ عام ١٧٨٧ وفي عام ١٧٩٢ ، برهن غوتلوب ارنست سكولزه ، الذي كان استاذا في هلمستدت وقتذاك وذلك في كتابـه Anesidemus ان كانط وتلميذه راينهولد لا يدركان النتائج التي تصدر منطقيا عن مذهبهما

لقد كتب يقـول

يزعم ان الشيء في ذاته شرط ضروري للتجربة ، لكنه يزعم في الوقت نفسه انـه مجهول تماما لكن اذا كان الامر كذلك فليس في مقدورنا أن نعرف ما اذا كانت الاشياء في ذاتها موجودة فعلا وما اذا كان في مقدورها ان تكون سببا في أي شيء وبالتالي فلا نملك اساسا من أجل اعتبارها شروطا للتجربة وفيما عدا ذلك ، فاذا افترضنا مع كانط ان مقولتي السبب والنتيجة قابلتان للتطبيق على اغراض التجربة ليس غير فلا يمكن التأكيد بان فعـل الاشياء الموجودة خارج تصوراتنـا تعطي مضمون هـذه التصورات الاخيرة الخ*

انه « اللامنطق » نفسه مرة اخرى ان مؤلف Anesidemus يعتقد ـ مثلما اعتقد أنا اليوم بالضبط ـ ان الشيء في ذاته ، وفقا لكانط ، هو السبب في تصوراتنا. ان لكلينا نفس المنطلق الواحد والفارق هو أن سكولزه يستخدم تهافت كانط كي يتوصل الى نتائج متشككة ، فيما تملك نتائجي طابعا ماديا ؛ ومما لا ريب فيـه ان هذا الفارق كبير ، لكنه لا يعنينا هنا ، حيث لا نتحدث الا عن فهم مذهب كانط عن الشيء في ذاتـه.

ولم يكن سكولزه وجاكوبي الوحيدين اللذين فهما كانط على هذا الغرار وقتذاك.

بعـد خمس سنوات من صـدور كتاب Anesidemus ، كتب فخته يقول ان فيلسوف كونغسبرغ يفهمه بهذا المعنى جميع الكانطيين باستثناء بيك ومضى فخته يعنف اولئك الذي يعممون كانط آخذا عليهم ذلك التناقض بالذات الذي اقام انجلز على اساسه دحضه للفلسفة النقدية ان كرتكم الارضية تقف على فيل ، والفيل يقف على الكرة الارضيـة ان شيئكم في ذاته ، الذي هو مجرد فكرة ، يفترض فيه أنه يؤثر في الذات** ولقد كان فختـه على يقين راسخ من ان « كانطية الكانطيين » التي لم يكن يعتبرها سوى مجرد دمج مغامر للعقائدية الاشـد

---

* بما اني لـم اتمكن من الحصول على مؤلفات سكولزه فاني استشهد من كتاب زيللـر تاريخ الفلسفة الالمانيـة ، مونشن ١٨٧٣ ، ص ٥٨٣ ـ ٥٨٤

** Zweite Einleitung in die Wissenschaftslehre

الذي صدر أولا في Philosophischen Journal لعام ١٧٩٧ ومن بعد شكل جزءا من المجلد الاول لمؤلفات فختــه .

فظاظة والمثالية الصريحة لا يمكن ان تكون كانطية كانط نفسه ولقد اكد على ان معنى الكانطية الحقيقي وارد في **Wissenschaftslehre** وهل تعرف ما الذي جرى بعد ذلك ايها الهر الدكتور ؟

لم يحقق كانط مطلقا توقعات المثالي الكبير في كتابه الشهير « **Erklãrung in Beziehung auf Fichte Wissenschaftslehre'** ولقد كتب يقول ( في ۱۷۹۹ انه يعتبر كتاب فخته **Wissenschaftslehre** نظاما لا اساس له على الاطلاق ، ورفض اي تضامن مع هذه الفلسفة واعلن كانط في **Erklãrug** نفسه ان نقد العقل الخالص يجب ان يفهم بصورة حرفية ( **nach dem Buchstaben Zuverstehen** ). واستشهد بالمثل الايطالي لينقذنا الله من اصدقائنا اما اعداؤنا فسوف نتدبر بأنفسنا امرنا معهم وفي رسالة كتبها كانط في ذلك الحين الى تييفترونك عبر عن فكرته بمزيد الوضوح. ان نقص الوقت منعه من مطالعة كتاب فخته **Wissenschaftslehre** بكامله لكنه اضاف يقول انه استطاع ان يقرأ عرضا للكتاب مكتوبا بقدر كبير من الحب للهر فخته » ، وقد وجد ان فلسفة فخته تشبه شبحا فأنت لا تكاد تتصور انك وضعت يديك عليه حتى تدرك انك لم تمسك الا بذاتك ليس غير ، وهذه الذات لا تملك شيئا سوى اليدين الممدودتين للامساك*

وهكذا حل المسألة بصورة حاسمة ، ودونما اي التباس لقد بين كانط ان كانطية الكانطيين » تتطابق مع « كانطيته الخاصة وكان هذا واضحا ، لكنه لم يخلص الكانطية من التناقض الذي اشار اليه جاكوبي وسكولزه وفخته والذي انتقدوه وعلى النقيض من ذلك فقد برهن التفسير الذي قدمه كانط في ۱۷۹۹ على د هذا التناقض

ويعتقد كونراد شميدت ان فهمي لمذهب كانط لا يشبه الطريقة التي يفهمه بها جميع مؤرخي الفلسفة حتى اذا كان الامر كذلك فهو لن يزعجني على الاطلاق ان الحقائق التاريخية التي لا مراء فيها والتي اوردتها اعلاه تبرهن على اكمل وجه على صحة فهمي لكانط واذا استنكر مؤرخو الفلسفة هذا الفهم فان لي ملء الحق في مخاطبتهم قائلا بخ لمؤرخي الفلسفة بيد ان الدكتور شميدت يخطيء بهذا الصدد خطأ فاحشا كما هي حاله مع جميع الامور في مقالته بكاملها

وبالفعل ، سمعوا ما قيل بهذا الشأن من قبل فريدريخ يوبرفيغ مثلا ففي راي هذا المؤرخ الفلسفة ان احد تناقضات كانط هو ان الاشياء في ذاتها ، من جهة واحدة ، يفترض فيها انها تؤثر فينا ، الامر الذي يتضمن الزمان والسببية ؛ ومن جهة ثانية ، فان كانط يعترف بالزمان والسببية من حيث هما شكلان قبليان داخل عالم الظواهر فحسب ، لكن ليس خارجه**

---

* اعمال كانط ، اوسغاب فون هارتنشتاين المجلد العاشر ص ٥٧٧ ، ٥٧٨

** خلاصة تاريخ الفلسفة ، المجلد الثالث ، تيل ، برلين ١٨٨٠ ، ص ٢١٥ .

الم أقل الشيء نفسه ؟
لنر الان ما لدى أدوارد زيللر من اقوال انه يقول « مما لا ريب فيه ان من واجبنا ان نفترض ان واقعا متميزا من ذاتنا يقابل احساساتنا ويحاول كانط ان يبين ذلك في الطبعة الثانية من كتابه نقد العقل الخالص ، وذلك في نضاله ضد مثالية بيركلي ولا يرضى زيللر بحجج كانط ضد بيركلي ، لكن هذا لا يمنعه من فهم المعنى الحقيقي للمذهب الكانطي ومن القول « لقد اكد كانط على الدوام ان احاسيسنا ليست مجرد نتاج للذات المفكرة بل تعود الى اشياء موجودة بصورة مستقلة عن تصورنا* » وعلى اي حال ، فان زيللر يقول ما يلي في نقده لفلسفة كانط اذا هو ( كانط ) قبل مفهوم السببية من حيث هو احدى مقولات ذهننا ، وهي مقولة قابلة بصفتها هذه للتطبيق على الظواهر ، فما كان يجب عليه ان يطبقها على الشيء في ذاته وبكلام آخر ، ما كان يجب ان يعتبر ان الشيء في ذاتـه هو سبب تصوراتنـا** »
نرى هنا نفس الفهم لكانط الذي نادى انجلز به وأنادى انا به ولو اطلع عليه الدكتور كونراد شميدت لما اعلن ابدا ، بالطبع ، أن جميع مؤرخي الفلسفة يعارضونه.
لقد اضطر اردمان ، الذي كان الشيء في ذاته بالنسبة اليـه مجرد مفهوم اولي الى الاقرار بأن الشيء في ذاته عند كانط « شرط » للظواهر « مستقل عنا ».
لكنه اذا كان هذا الشيء في ذاته شرطا لظاهرة ما ، فان هذه الظاهرة محددة به اذن ، وبذلك نحصل من جديد على التناقض الذي كان موضع نقاش كثير لدى اناس من اصحاب الفهم عبر القرن التاسع عشر باكمله ، وهو تناقض ما كان يمكن الا لذهن عميق النفوذ مثل ذهن صاحبنا الدكتور المنيـع ان يخفق في ملاحظته
ومن المؤكد اني ادرك جيدا ان بعض مؤرخي الفلسفة يحولون الكانطية الـى مثالية نقية خالصة لكن اولا البعض لا يعني الكل ، وثانيا اذا كان الدكتور شميدت متفقا مع هؤلاء المؤرخين ، فيجب ان يحاول ان يبرهن لنا انهم مصيبون الا انه اختار دربا ايسر بالاقتصار على تسمية تفسير الكانطية الذي نادى به ماركس وانجلز ابتكارا سخيفا لانسانين جاهلين
ولقد رأينا انه ليس الاشياء في ذاتها ، في راي كونراد شميدت ، هي التي تؤثر فينا ، بل الاشياء المحددة في الزمان والمكان وما كنت لادخل في مساجلة لو ان خصمي صرح ان ذلك هو المعنى الفعلي لفلسفته الخاصة ، الا انه يعلن ان ذلك هو معنى فلسفة كانط ، وهو امر لا بد لي من الاعتراض عليه بأقصى الشدة
اني اسأل الدكتور كونراد شميدت ان يفتح **Metaphysiche Anfangsgründe der Naturwissensehaft** وان يقرأ ، في القسم الرئيسي الثانـي ، الهـامش الثاني

* تاريخ الفلسفة الالمانية ، ص ٤٣٦
** المصدر نفسه ، ص ٥١٤

للنظرية الرابعة فكانط يعرض في هذه الفقرة راي احد الهندسيين الذي يشاطره اياه تماما ، وهو يستقيم فيما يلي « ليس المكان في حال من الاحوال خاصة ملازمة، بهذه الصفة ، لاي شيء خارجنا ؛ انه مجرد الشكل الذاتي لادراكنا الحسي شكل تظهر لنا فيه مواضيع حواسنا الخارجية ؛ ونحن لا نعرف هذه المواضيع كما هي في ذاتها لكننا نسمي ظهورها مادة*

ما المقصود هنا ــ الاشياء في ذاتها ، أم الاشياء المحددة فيالمكانوالزمان ؟ الواضح ان الاشياء في ذاتها هي المقصودة وما الذي يقوله صاحبنا كانط عن هذه الاشياء ؟ يقول اننا لا نعرف ما هي هذه الاشياء في ذاتها ، وهي لا تظهر لنا الا في الشكلالذاتي للمكان وما الذي تحتاج اليه كي تظهر ؟ لا بد لها ان تؤثر في حواسنا ان اثر موضوع ما في قدرتنا على التصور ، بقدر ما نتاثر بالموضوع المذكور هو احساس** وقد يحاول كونراد شميدت مرة اخرى ان ينقذ الموقف الذي يتمسك به وان يقنعنا بأن كانط يتحدث هنا عن الاشياء التي هي محددة في المكان والزمان ، يعني **الظواهر** التي **« توجد ليس في ذاتها بل من اجلنا فقط »** كما هو مقرر في **نقد العقل الخالص** . وفي سبيل الحيلولة دون مثل هذه المحاولات سوف اورد فقرة اخرى من **نقد العقل الخالص** هذا نصها نظرا لانه ليس لنا الا التعامل مع تصوراتنا وحدها ، فماهية الاشياء في ذاتها ( دونما اعتبار للتصورات التي تؤثر بواسطتها فينا ) شيء يتجاوز تماما مجال معرفتنا***

اعتقد ان هذا واضح بما فيه الكفاية **الاشياء في ذاتها تؤثر فينا من خلال التصورات** التي تثيرها فينا

ويتحدث كونراد شميدت في مقالته عن اسواء الفهم المضحكة ، وهو على صواب تام ، سوى انه نسي ان يضيف ان **جميع اسواء الفهم هذه هي من صنعه الخاص** .

ويؤكد لنا كونراد شميدت ان الفقرة التي اوردتها من **المقدمة** « تبرهن على موضوعتي لدى الوهلة الاولى ليس غير ، ولا تفعل ذلك الا لانها انتزعت من النص العام » وليس هذا بصحيح ، وهو ما اترك للقارىء ان يحكم عليه بنفسه تعطى الاشياء على اعتبارها موجودة خارجنا ، لكننا لا نعرف ما هي في ذاتها اية اشياء مقصودة بذلك ؟ الاشياء في ذاتها هذا واضح ، لكن لنر ما يأتي بعدئذ « سوى اننا لا نعرف غير مظاهرها » مظاهر ماذا ؟ الاشياء المحددة مسبقا في المكان

---

* اعمال كانط ، المجلد الثامن ، ص ٤٣٢

** Kritik der reinen Vernunft Der tranennden talen Elementarlehre I Theil Der Transzendentalen Aestétik الفقرة الاولى

*** Elementarlel. [illegible] I , Theil I Abtheilung II Buch Haupstück , Zweite Analogie , Beweis .

وفي الزمان وقس على ذلك   ام الاشياء في ذاتها ؟ يا له من سؤال غريب   من ذا يخفق في تبين ان كانط يتحدث هنا عن الاشياء في ذاتها ؟ لكن لنستطرد   هــذه تصورات مسببة عن تأثير الاشياء فينا   ما هي الاشياء التي تسبب التصورات فينا ؟ الاشياء في ذاتها التي لا نستطيع ان نعرف عنها شيئا   لكن بأية طريقة تثير هذه الاشياء التصورات فينا ؟ « من خلال تأثيرها في ادراكنا الحسي   والنتيجة هي   ان الاشياء في ذاتها تؤثر في قدرتنا على الادراك الحسي   كم من قلنسوة جامعية عليمة تلف بكل تأكيد بحيث باتت عاجزة عن فهم   الاشياء   التي هي على هــذا القدر الكبير من الوضوح « في ذاتها » ؟

واما عن الرابطة بين الفقرة التي استشهدت بها والنص العام   فاني أسأل القارىء ان يحكم بنفسه بعد قراءة الفقرة الاولى من **المقدمة**   وبالخاصة هامشها الثاني   وفيما عدا ذلك ، فاني استلفت انتباه القارىء الى الفقرة ٣٦ من الكتاب نفسه حيث نقرأ ما يلي   قبل كل شيء   كيف هي الطبيعة بالمعنى المادي ، يعني في التأمل   من حيث ماهية الظواهر ـ كيف هو المكان ، والزمان ، وما يملأ كليهما على حد سواء ؛ كيف يمكن لموضوع الادراك ان يكون ممكنا في حال من الاحوال ؟ الجواب هو   بفضل حواسنا التي ، وفقا لطبيعتها النوعية ، تتلقى الانطباعات من المواضيع التي هي مجهولة بحد ذاتها والتي تتميز تماما من تلك الظواهر   والان اخبرنا ، يا دكتور شميدت ، ما هي المواضيع التي تؤثر في حواسنا ؟

ويؤكد خصمي اني اعامله في مقالاتي وكأنــه تلميذ تقريبا ؛ فيما يتعلق بي ، ليست لدي ادنى رغبــة للتصرف على اعتباري معلــم مدرسة حياله ، ومع ذلك لا استطيع الامتناع عن تقديم نصيحة جيدة لــه   **Mein theurer freund , ich rath' euch drum zuerst collegium logicum*** ،

لكن لنعد الى كانط   « ان افتراضه بوجود الشيء في ذاته ـ بالرغم من تطويقه له بتحفظات متنوعة ـ يقوم على اساس استدلال من قانون السببية   يعني على التأمل التجريبي ، او بصورة ادق على الاحساس في اعضاء حواسنا التي يشتق منها ، نظرا لانه لا بد ان يكون له سبب خارجي   لكن قانون السببية ، وفقا لاكتشافه الخاص الصحيح جدا ، معروف منا بصورة قبلية ، يعني هو وظيفة لذهننا الخاص، وبنتيجة ذلك فهو ذاتي في اصله »   ان « اللامنطق   في هذه السطور يخص ارثر شوبنهاور** ؛ وان هذا « اللامنطق » لشديد جدا بحيث يتحطــم عليه « المنطق » الواهن لصاحبنا الدكتور مثل زجاجــة ارتطمت بصخرة   ومهمــا قال الدكتور

---

* [ يا صديقي العزيز   انصحك اذن ، قبل كل شيء ، ان تجتاز مدرسة المنطق ]

** Die Welt als Wille und Vorstellung ، المجلد الاول ، لايبزغ ١٨٧٣ ، ص ٥١٦

ومن النافل ان اضيف اني اشاهد « كشوفات   كانط في ضوء مختلف تماما عن شوبنهاور .

كونراد شميدت واشباهه ، فلا يمكن ان يقوم شك في ان تناقضا غريبا يكمن خلف النظام الكانطي بيد ان التناقض لا يمكن ان يخدم كأساس ، بل ما يدل عليه هو الافتقار الى الاساس . وبنتيجة ذلك فلا بد من القضاء على التناقض كيف يتم ذلك؟

ثمة طريقان لذلك اولاهما تستقيم في **التطور نحو المثالية الذاتية** ، والثانية في **التطور نحو المادية** . ايهما هي الصحيحة ؟ ذلك هو لب الموضوع

وفقا للمثالية الذاتية ــ مثالية فخته الذاتية على سبيل المثال ــ فالشيء في ذاته موضع ضمن **الانا** ( das im ich gesetzte )

وبالتالي فليس لنا ان نتعامل الا مع الشعور ، وهو ما يصرح فخته به بصورة متكررة ودونما ادنى التباس كل وجود ، وجود **الانا** او وجود **اللاانا** ، لا يعدو كونه تعديلا ما في الشعور لكن اذا كان الامر كذلك ، اذا « كان الوجود الحقيقي والفعلي هو وجود الروح » كما يؤكد ذلك فخته نفسه ، فاننا ننتهي اذن الى نتائج غريبة وغير متوقعة وفي الحقيقة انه لا بد لي من الاعتراف ، في هذه الحال ، بان جميع الناس الذين يلوحون لي موجودين خارج **اناي** هم **مجرد تعديلات للشعور** لقد كتب هايني مرة عن عدة سيدات برلينيات استفسرن بغضب عما اذا كان مؤلف **Wissenschattslehre** يعترف على الاقل بوجود زوجته الخاصة ان هذه النكتة ، التي تتضمن بعض الحقيقة ، تميط اللثام عن وتر أخيل المثالية الذاتية ومهما يكن من شيء ، فهذا ما استشعره فخته نفسه فسعى ، قدر طاقته ، الى حذف هذه النقطة الضعيفة من نظامه انه يشرح ان **اناه لم تكن فردا** ، بل عالم **انا** ، انا **مطلقة** . لقد كتب الى جاكوبي يقول « من الواضح ان اناي المطلقة ليست فردا بالمعنى الذي فسرني به عدد كبير من رجال البلاط المستائين او الفلاسفة المزعجين، بحيث عزوا الي المذهب المخزي للانانية العملية بيد ان الفرد يجب ان يستدل من **الانا** المطلقة **وان كتابي Wissenschattslehre** سوف يعالج هذا الامر في مذهب القانون الطبيعي ومهما يكن من شيء ، فاننا لا نصادف في قانونه الطبيعي الا حججا من هذا النمط لا يستطيع الكائن العاقل أن يفرض نفسه من حيث هو مالك للوعي بصفته هذه دون ان يعتبر نفسه **فردا** بين الكائنات العاقلة الاخرى الموجودة خارجه » ان هذا استدلال بائس جدا فقوة البرهان كلها تقوم على التأكيد الواقع على كلمة **فرد** ان الكائن العاقل لا يستطيع ان يرى نفسه بهذه الصفة دون ان يعي في الوقت نفسه **اللاانا عموما** ، يعني **البشر** و **الاشياء** اهذا برهان على وجود الاشياء خارج شعور هذا الكائن العاقل ؟ كلا وبالتالي فهو ليس ايضا برهانا على وجود الافراد الاخرين

ان فخته ، بدلا من استدلال ( deduzieren ) وجود البشر ، يجعل وجودهم **مصادرة اخلاقية** . غير ان هذا يعني الانحراف عن العقبة ولا يعني التغلب

عليها وما لم نتغلب عليها لن نكون قد تخلصنا من السخافات التي لا بد لاي نظام فلسفي ان يقود اليها اذا هو انكر وجود الاشياء خارجا منا وانكر تأثيرها في حواسنا الخارجية واذا لم يكن وجود الافراد الاخرين قائما الا في الروح ، فليست والدتي اذن الا مجرد ظاهرة ، ومن حيث هي ظاهرة لا وجود لها الا فيّ* وبنتيجة ذلك فالقول اني ولدت من امراة عبث خالص ولا استطيع الا بمثل هذا القدر الضئيل من اليقين ايضا ان اقول اني سأموت عاجلا أو آجلا كل ما اعرفه هو ان الناس الآخرين يموتون ؛ لكن بما انهم ليسوا سوى تصورات ، فليس لي الحق في التأكيد بأني فان مثلهم بالضبط ؛ وفي هذه الحال ، فان الاستنتاج المنطقي على اساس القياس غير صالح

ويستطيع المرء ان يدرك بكل سهولة الاختلاط المذهل من السخافات الذي سوف نعبر فيه اذا نحن شرعنا في دراسة تاريخ الانسانية والكون من وجهة نظر المثالية

وهكذا فان التطور من الكانطية في اتجاه المثالية ، بالرغم من حذفه التناقض الكامن خلف النظام الكانطي ، يؤول بنا الى اكثر السخافات وضوحا وابعثها على السخرية

## ٢

لنر الآن إلام يقودنا التطور من الكانطية نحو المادية لكنه لا بد لنا في المحل الاول من الاتفاق على المصطلحات أي نوع من المادية نقصد ؟ أهي المادية التي كانت موجودة في اذهان البورجوازيين الصغار الذين اشتهروا بالخوف من الله بدرجة اعظم جدا مما اشتهروا بالموهبة الفلسفية ؟ أم لعل المقصود المادية **الحقيقية** ، يعني تلك المادية التي توجد اسسها في كتابات الماديين الرئيسيين ؟ لم تكن **المادية** أقل من **الاشتراكية** عرضة للافتراء ، وهو السبب في انه ينبغي لنا ، حين نسمع حججا عن المادية ، ان نتساءل احيانا ما اذا لم يكن هذا المذهب موضعا للتشويه

ان خصمي المحترم من عداد أولئك الذين تصدوا لدحض المادية دون ان يتكلفوا عناء دراستها دراسة كاملة ومحاولة فهمها ومثال ذلك انه يقول « لا بد ان الماديين يؤكدون أن هذا الجوهر » ( يعني الجوهر الذي يقابل الظواهر — ج.ب.) « متماثل مع الظواهر » ليس هذا مغلوطا فحسب ، بل هو خطأ لذيذ في شكلهحقا.

نحن الماديين لا بد لنا ان نؤكد ان جوهر الاشياء **متماثل** مع الظواهر وما الذي يحملنا على تقديم بيان لا يقل منافاة للعقل في شكله عنه في « جوهره » ؟

* « ... لكن من حيث هي ظواهر لا يمكنها ان توجد وفي ذاتها ، بل فينا فقط » (كانط) .

لعله ينبغي لنا ان نفعل ذلك حتى نسهل على الهر كونراد شميدت مواجهة المهمة السهلة الخاصة بدحضنا ؟ مما لا ريب فيه ان الماديين اناس لطفاء ، لكن مطالبتهم بمثل هذه المجاملات المبالغ فيها يعني الذهاب بعيدا جدا

ويستطرد الهر الدكتور فيقول ان الماديين يقبلون واقعا موجودا من حيث هو **مستقل** كليا عن الشعور الانساني in sich و an sich ( ؟ ) ، يعني تلك التعريفات الاعم التي تدركها حواسنا بالضرورة ، او بصورة اصح ذهننا الذي يعالج الانطباعات التي تتلقاها حواسنا على اعتبارها أساس الظواهر من حولنا وقبل كل شيء فان المكان والزمان ، والمادة المتحركة فيهما ، يراها الماديون من حيث هي واقع مستقل كل الاستقلال عن خصائص الشعور الانساني وموجود في ذاته ويستطرد كونراد شميدت فيقول

« وبنتيجة ذلك فالمادية فلسفة للهوية لانها حتى حيث تميز الفارق بين تصوراتنا وما يوجد في ذاته ، وبذلك تخرج من حدود الواقعية الساذجة ، تعتبر مع ذلك انه في الامكان معرفة الشيء في ذاته من خلال تحليل للظواهر »

أيكون الامر كذلك ؟ في الحقيقة انه ليس كذلك وكي نتحقق من ذلك لنستمع الى ما لدى دولباخ من اقوال

« اذا كنا لا نعرف شيئا عن جميع المواد التي تؤثر في حواسنا سوى الاثار التي تتركها فينا ، ومن بعد ننسب اليها بعض الصفات ، فهذه الصفات هي اذن ، على الاقل ، شيء محدد وهي تثير افكارا واضحة فينا ومهما تكن المعرفة التي تزودنا بها حواسنا سطحية فهي المعرفة الوحيدة التي في وسعنا الحصول عليها ؛ وبما اننا مركبون كما نحن ، فاننا نجد انفسنا ملزمين بالاكتفاء بمثل هذه المعرفة* »

وسوف اطلب من القارىء ان يتمعن في هذه الاسطر بانتباه خصوصي وان يدرك مضمونها ، الامر الذي يستأهل العناء لان هذه الفقرة تقدم لنا فكرة واضحة بصورة فائقة عن المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر من حيث هي اوج تطور الفلسفة المادية **قبل الماركسية**** .

---

* **نظام الطبيعة** ، لندن ١٨٧١ الجزء الثاني ، ص ١٢٧

** وعلى أي حال ، فان مقالاتي السابقة تتضمن استشهادات من ماديين عديدين تبين ان لدى كونراد شميدت فكرة مغلوطة كليا عن « جوهر » الفلسفة المادية ففي رده سمى كونراد شميدت الماديين الذين استشهدت بهم رجال الانوار هذا بارع جدا ان لم يكن من قبيل التحذلق من جانبه لان القراء الذين لم يألفوا تاريخ الفلسفة قد يتساءلون عن السبب في ان السيد بليخانوف استشهد برجال الانوار فيما المناقشة تدور حول الماديين ولا بد لي ان اضيف ، كي اطمئن مثل هؤلاء القراء، اني استشهدت بدولباخ او بصورة ادق بمؤلفي كتاب **نظام الطبيعة** الذين كان في عدادهم ديدرو وهيلفيتيوس على حد سواء . واما بخصوص دولباخ فان **نظام الطبيعة** غالبا ما يسمى مدونة المادية

ففي رأي دولباخ ، يعني مؤلفي **نظام الطبيعــة** الذي لــم يكن دولباخ مؤلفــه الوحيد ، ان هناك اشياء خارجا منا ومستقلة عنا ، اشياء تملك وجودا فعليا وليس وجودا روحيا » ليس غير وهذه اشياء **طبيعتها معروفة منا** وهي تؤثر فينــا ، محدثة انطباعات في حواسنا **ووفقا لهذه الانطباعات المحدثــة فينا بفعل الاشياء** ننسب اليها بعض الصفات **وهذه الانطباعات هي المعرفة الوحيدة** ( المعرفة السطحية والمحدودة جدا ) التي **في وسعنا الحصول عليها عن الاشياء في ذاتها**

« نحن **لا** نعرف ماهية اي كائن اذا كان المقصود من كلمة ماهية ما يشكل طبيعته ؛ اننا لا نعرف المادة الا من الاحساسات والافكار التي تمنحنا اياها وعندئذ فقط نشكل احكاما سديدة او خاطئــة*

أيكون معنى هذا تقرير ان ماهية الاشياء والظواهر **(( متماثلة ))** ؟ من الواضح ان لا فلماذا يعزو اذن صاحبنا الدكتور المنيع هذا التأكيد الى الماديين ؟ لماذا يعتقد انهم لا بد لهم من الدفاع عن هذا الرأي بصورة مؤكدة ؟
ويستطرد قائلا

بقدر ما يقصد من المادية مجرد السعي الى العثور في كل مكان على الرابطــة السببية في الظواهر الطبيعية وتقرير تبعية العمليات الروحية للعمليات المادية ، فان مثل هذه « المادية » لا تتعارض اذن **في** حال من الاحوال مع **الفلسفة النظرية** لكانط فعلى النقيض من ذلك هي تلاحق هدفا مفهوما تماما بل هو ضروري من وجهة نظر هذه الفلسفة ولا ينكشف التعارض بينهما الا حين تصبح تلك « المادية » المزعومة ماديــة حازمة ، يعني ميتافيزيائية ، او بصورة ادق مادية فوق ظواهرية ، حين تعلن ان عناصر عالم الظواهر هي « اشياء في ذاتها »

وبالتالي فالمادية **اما** ظواهرية ــ وعندئذ فهي لا تنحرف في حال من الاحوال عن فلسفة كانط النظريــة ــ **او فوق ظواهرية** ــ وفي هــذه الحال تؤول بنــا الى الميتافيزياء طالما انها تعلن ان عناصر الظواهر هي اشياء في ذاتها واذا تركنا جانبا مسألة ما اذا كان كونراد شميدت قد عبر عن نفسه جيدا فان في مقدورنا القول

---

انظر لانس ، **تاريخ المادية** ، الطبعة الثانية ، المجلد الاول، ص ٣٦١) واما بخصوص هيلفيتيوس، فان رجل الانوار هذا كان احد الماديين الاكثر موهبة واصالة الذين عرفهم التاريخ وكل من لا يعرف رجلي الانوار هذين لا يعرف المرحلة الاعلى والابرز في تطور مادية القرن الثامن عشر.

* **نظام الطبيعة** ، الجزء الثاني ، ص ٩١ ــ ٩٢ ومن الباعث على الاهتمام مقارنة هذه الفقرة مع ما قاله هربرت سبنسر وهكــذا نخلص الى النتيجة بأن ما نعيه على اعتباره خصائص المادة بما في ذلك وزنها ومقاومتها لا يعدو كونه احاسيس ذاتية تحدثها قوى موضوعية مجهولــة وغير قابلة للمعرفة » ( **مبادىء علم النفس** ، المجلد الاول القسم الثاني ، الفصل الثالث ، [ نسبية المشاعر ] الفقرة ٨٦ [ ص ٢٠٦ ] )

ان هذه **اما ـ أو هي** خليط من جميع المحسنات الممكنة ، مع هذا الاستثناء الوحيد، **الا وهو انها لا تتفق مع الواقع**

ان الكانطية **فوق ظواهرية** ايضا بمعنى انها تعترف بان **الاشياء في ذاتها تؤثر فينا** ان **الفختيانية هي** الفلسفة الظواهرية الحقيقية والخالصة لكن كانط خاض نضالا ضد فلسفة فخته ومن المفروغ منه ان المادية مذهب **فوق ظواهري** لانها لا تشك في وجود الاشياء خارج شعورنا كما لا تشك في ان هذه الاشياء تؤثر فينا لكن لما كانت تعترف في الوقت نفسه بأننا لا نعرف الاشياء في ذاتها الا بفضل الانطباعات **المحدثة بأثرها فينا** ، فليست بها حاجة كما ليس لديها امكانية منطقية لاعتبارها الظواهر من حيث هي اشياء في ذاتها ومن وجهة النظر هذه **فهي لا تنحرف** في حال من الاحوال عن الكانطية بالرغم من طبيعتها فوق الظواهرية ولا يتضح الفارق بين المادية والكانطية الا في وقت لاحق فحين يعتبر كانط الاشياء في ذاتها **اسبابا** للظواهر يؤكد لنا ان مقولة **السببية** غير قابلة للتطبيق البتة على الاشياء في ذاتها ومن جهة اخرى فان المادية ، التي تعتبر هي الاخرى الاشياء في ذاتها اسبابا للظواهر ، لا تقع في تناقض مع ذاتها هذا كل ما في الامر واذا نحن اكدنا على اساس هذا الفارق ان المادية مذهب **ميتافيزيائي** فلا بد لنا اولا من الاعتراف بان جوهر الفلسفة « **النقدية** » يكمن في تناقضها الباطن

لكن ما الميتافيزياء اذن ؟ ما موضوع دراستها ؟ موضوع دراسة الميتافيزياء هو **المطلق** فهي ترغب في ان تكون علم المطلق ، علم غير المشروط لكن هل تعنى المادية بالمطلق ؟ كلا ، هي لا تعنى به ، فموضوع دراستها هو **الطبيعة ( والتاريخ البشري ) .**

ويقول دولباخ يخطىء الناس دائما حين يضحون بالتجربة في مصلحة الانظمة الفلسفية المولودة من الخيال فالانسان صنيعة الطبيعة ، وهو يوجد في الطبيعة، ويخضع لقوانينها ، ولا يستطيع خروجا منها حتى في الفكر وعبثا يرغب فكره في الافلات من حدود العالم المنظور ، فهو ملزم على الدوام بالعودة الى هذا العالم

هذه السطور التي تشكل مدخلا الى **نظام الطبيعة** الذي ما اكثر ما استشهدت به تنطوي على « **قانون** » المادية ، وانه لعصي تماما على الادراك كيف يمكن للمرء ان يسمي ميافيتزيائيا مذهبا لم ينفصل قط عن هذا القانون

لكن ما الذي يفهمه المادي من كلمة « طبيعة ؟ أهو مفهوم ميتافيزيائي بالنسبة اليه سوف نرى الان ما اذا كانت الحال كذلك

يفهم المادي من الطبيعة حصيلة الاشياء التي تنطوي على موضوع ادراكنا الحسي فالطبيعة هي العالم الحسي بكليته وهذا العالم الحسي هو الذي تحدث عنه الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر ولقد عارضوا هذا المفهوم عن الطبيعة باستمرار « بالاشباح » ، يعني بالكائنات الوهمية وفوق الطبيعية ونقرأ في **نظام الطبيعة** يرددون لنا دون انقطاع ان حواسنا لا تظهر لنا سوى **خارج**

الاشياء هذا معترف به لكن حواسنا لا تظهر لنا حتى **خارج** الالوهية التي عرفها لاهوتيونا لنا ، والتي اسبغوا الصفات عليها ، والتي لم يكفوا قط عن التخاصم بشأنها ، بينما هم لم يتوصلوا حتى اليوم الى اي برهان على وجودها* ان الذهن البشري يتلمس طريقه في الظلام حالما يخرج من حدود العالم الحسي ، او من حدود التجربة ، الامر الذي يعني الشيء نفسه ، وفي هذا فان الماديين < يتفقون كل الاتفاق مع كانط ، سوى انهم > يفهمون **التجربة** بصورة مغايرة نوعا ما عن فهم مؤلف **نقد العقل الخالص** لها

فعند كانط ان الطبيعة وجود ( Dasein ) الاشياء بقدر ما تحدد **القوانين العامة** هذا الوجود وهذه القوانين العامة ( او القوانين الخالصة للطبيعة ) هي قوانين ذهننا ويوضح لنا كانط قائلا لا يستخرج الذهن قوانينه ( قبليا ) من الطبيعة؛ ان الامر على النقيض من ذلك ، فهو يملي قوانينه الخاصة على الطبيعة وبالتالي فليس لهذه القوانين مغزى **موضوعي** ؛ وبكلام آخر فهي غير قابلة للتطبيق الا على الظواهر من دون الاشياء في ذاتها لكن بما ان الظواهر موجودة **فينا فقط** ، فمن الجلي ان نظرية الوجود الكانطية ذات طابع ذاتي تماما في آخر الامر ، ولا تختلف البتة عن نظرية فخته المثالية** ولقد رأينا من قبل في اي تيه من السخافات يجد نفسه المرء بصورة لا مندوحة عنها اذا هو تناول هذه النظرية بصورة جادة ولم يخش من استخراج جميع النتائج الاخيرة الصادرة عنها والآن لنلق نظرة اقرب الى نظرية **المادية** عن التجربة

الطبيعة هي ، حسب هذه النظرية ، حصيلة الظواهر في المحل الاول لكن بما أن الاشياء في ذاتها تشكل شرط الظواهر الضروري — وبكلام آخر بما أن الظواهر مسببة عن فعل موضوع في ذات — فاننا ملزمون بالاقرار بأن قوانين الطبيعة لا تملك مغزى **ذاتيا** فحسب ، بل تملك مغزى **موضوعيا** ايضا ، يعني ان العلاقات المتبادلة للافكار في **الذات** تقابل الاشياء **خارج المرء** . ومما لا ريب فيه ان كونراد شميدت سوف يقول ان هذه « فلسفة للهوية » وانها تعتبر عناصر الظواهر أشياء في ذاتها » انه مخطىء وللحيلولة دونه ودون السقوط في خطأ أفدح سوف أسأل خصمي ان يتذكر الرسم الهندسي لذي حاول سبنسر بمساعدته ان يسهل على قرائه فهم الواقعية المحولة لنتخيل اسطوانة ومكعبا ان الاسطوانة هي الذات والمكعب هو الموضوع ، وظل المكعب الساقط على الاسطوانة تصور

---

* الجزء الثاني ص ٩.

** ليس نظام التجربة شيئا آخر سوى الفكر المترافق بحس الضرورة » ( **اعمال فخته** ، المجلد الاول ، ص ٢٢٨ ) ومن المفروغ منه أن النظرية الكانطية عن التجربة ليست **ذاتية** الا ضمن الحدود التي ترتاب فيها في قابلية تطبيق المقولات على الاشياء في ذاتها لكن بما ان الاشياء في ذاتها ترى من جانب كانط من حيث هي سبب ادراكاتنا فان هذه النظرية — كما كررت مرارا — تمثل تناقضا صارخا .

ولا يشبه الظل المكعب كل الشبه ، لان خطوطه **المستقيمة** انحنت على الاسطوانة ، ولان سطوحه **المسطحة** تحدبت عليها وعلى اى حال ، فان اي تغير في المكعب سوف يؤدي الى تغير مقابل في ظله ويمكننا الافتراض ان شيئا مماثلا يجري في تكون التصورات فالاحساسات المسببة في الذات من جراء فعل موضوع ما فيه مغايرة تماما لهـذا الموضوع بالضبط مثلما هي مغايرة للذات ومع ذلك **فكل تغير في الموضوع يقابله تغير في اثره في الذات** وليست هذه في حال من الاحوال تلك الفلسفة الخشنة والمبتذلة للهوية التي يعزوها كونراد شميدت الينا ان نظرية التجربة هذه ، التي تتخذ الطبيعة منطلقا لها تمكننا من تجنب تهافت الكانطية وسخافات المثالية الذاتية

ورب معترض بان الواقعية المحولة لهربرت سبنسر شيء والمادية شيء آخر ويمنعني ضيق المكان من ان آخذ هنا بعين الاعتبار الفارق الرئيسي بين هذين المذهبين كل ما استطيع قوله في هذه المقالة ـ وهو يكفي لغرضي على اي حال ـ هو ما يلي ان نظرية المعرفة عند سبنسر ـ **ضمن حدود استخدامي لها** هنا ـ هي مجرد تطوير لاحق لافكار الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر(١٩٧)

لقـد قال ف هـ جاكوبي العجـوز دون **أنـت** لا وجـود **لانـا** » ( ohne Du kein Ich ) . واما انا فأقول دون **أنت** لا وجود **لانـا** حرة من بعض وخزات الضمير الشديدة جدا واليكم مثالا مقنعا على ذلك لو انه لم يكن وجود لاي هر كونراد شميدت **من حيث هو شيء في ذاته** ، ولو انه كان مجرد ظاهرة يعني تصورا لا وجود له الا في شعوري ، فاني لن اغفر قط لشعوري اتيانه بدكتور على هذا القدر من الخراقة في التفكير الفلسفي لكنه اذا كان هر كونراد شميدت فعلي يقابل تصوري فاني لست بمسؤول اذن عن اخطائه المنطقية ؛ ان ضميري مرتاح وهذا شيء كثير في وادي الدموع » هذا الذي نحيا فيه

ويؤكد صاحبنا الدكتور المنيع انه ليس كانطيا بل بالاحرى متشكك بشأن كانط الا اني لم اؤكد قط انه يمكن ان يصبح يوما نصيرا حقيقيا لاي نوع من الانظمة الفلسفية ؛ لقد قلت دائما انه يفضل **حساء الانتقائية** . ومع ذلك فان انتقائيته لم تمنعه من شن النضال ضد المادية وهو يستخدم حججا مستعارة من الكانطيين وعلى اي حال ، فتلك هي الطريقـة التي يتصرف الانتقائيون دائما بها انهـم يتلمسون اي مذهب بمساعدة حجج استعاروها من مذهب آخر يعارضونه بدوره بحجج استعاروها من المذهب الاول ومع ذلك فالهر برنشتاين الذي منحته مقالة الدكتور شميدت الحقيرة حافزا فوريا » ( يا للهر برنشتاين المسكين مضى في تقهقره حتى كانط وصحيح انه لـم يبلغ كانط الا حتى نقطة ما لكـن **رعايا الخورانية يقتدون بالخوري دائما** كما يقول المثل الروسي ان التلميذ الانتقائي « يقتدي بالمعلم الانتقائي ومهما يكن من شيء فانه مما يجدر ملاحظته ان

مقالات كونراد شميدت تجعل بعض القراء ميالين الى العودة الى كانط من دون اي فيلسوف آخر

وانتقل اخيرا الى النتيجة الفاضبة جدا لمقالة الهر كونراد شميدت

لقد اكدت ان البورجوازية معنية باحياء فلسفة كانط لانها تأمل في ان تساعدها على هدهدة البروليتاريا باليقينية ويرد الهر كونراد شميدت على باسلوبه الانيق المألوف « مهما يكن رأينا في ذهنية البورجوازيين ، فليسوا هم على هذه الدرجة الشديدة من الحماقة حتى ينطووا على مثل هذه الامال يا لها من تخطيطية غير محدودة ، فضلا عما يكمن خلف مثل هذه الابتكارات في التركيب من انعدام للنقد والاصالة والموقف الحي حيال الواقع » ، الخ ، الخ

ليسمح لي بمقاطعة الدكتور الغاضب وطرح بعض الاسئلة عليه

١ ـ هل البورجوازية معنية بتهذيب البروليتاريا ومعارضة الالحاد الذي ينتشر اكثر فاكثر في هذه الطبقة ؟

٢ ـ أهي تحتاج الى سلاح فكري قوي من اجل هذا « التهذيب » وهذا النضال ضد الالحاد ؟

٣ ـ ألم تعتبر الكانطية سلاحا ملائما جدا لهذا الغرض ، وهل هي لا تعتبر كذلك حتى يومنا هذا* ؟

من المؤكد ان كونراد شميدت ضئيل الاطلاع جدا على تاريخ الفلسفة ، لانه لو كان عارفا بهذا التاريخ لادرك **ان الكانطية كانت موضع الترحيب لدى ظهورها للمرة الاولى على اعتبارها السلاح الافضل في النضال ضد المادية** وغيرها من المذاهب المنفرة وان كارل ليونهارد راينهولد ـ وهو اول معمم للكانطية ـ قد رأى منذ ذلك الحين ان احدى الفضائل الرئيسية لهذا النظام هي في « **اجباره العلماء الطبيعيين على التخلي عن مزاعمهم التي لا اساس لها في المعرفة**** » . ولقد كتب يقول ان الالحاد المنتشر جدا اليوم « تحت قناع **القدرية والمادية والسبينوزية** يمثله كانط على اعتباره شبحا يضلل اذهاننا ، وذلك بفعالية تتجاوز ادراك لاهوتيينا المعاصرين المنصرفين الى فضح الشيطان ؛ فاذا كان ثمة قدريون بعد ، او اذا هم ظهروا في حينهم فسوف يكونون اناسا اما جهلوا **نقد العقل الخالص** او اخفقوا في فهمه *** »

يا للحماقة الشديدة لا صدقوني ليست البورجوازية هي التي تتسم بالبلاهة في هذا الشأن

يقول الهر شميدت

* من المفروغ منه أن البورجوازية **لا** تحتاج لتوجيه الكانطية الى العمال مباشرة ويكفي هذه الفلسفة ان تصبح الزي الشائع وبذلك تزود بعض الناس بذريعة نشر النتائج الاولية الصادرة عنها في صفوف الطبقة العاملة

** **مختصر الفلسفة الكانطية** ، لايبزغ ١٧٩٠ المجلد الاول ، ص ١١٤ .

*** المصدر نفسه ، ص ١١٦

« لو اني كنت ميالا ، مثلي كمثل جميع أولئك الذين يهاجمهم السيد بليخانوف بصورة غير مباشرة الى فلسفة كانط محاكاة للبورجوازية فانه مما يبعث على الدهشة اذن ان تكون معنيين على وجه الدقة بنظريتها عن المعرفة ، يعني ذلك القسم من فلسفة كانط الذي لا علاقة له ، في حال من الاحوال ، بمصالح البورجوازية العمنية »

وسوف ارد بكلمات راينهولد ، كما وردت اعلاه اما انك تجاهلت كتاب **نقد العقل الخالص** او اخفقت في فهمه

يقول كانط الذي يملك فيما يمكن ان يخيل الينا فهما لنظريته الخاصة عن المعرفة افضل من فهم كونراد شميدت لها ما يلي في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه **نقد العقل الخالص**

وهكذا لا يمكنني ان **اعمد الى فرضية الله والحرية والخلود** ، كما تتطلب ذلك مصالح ذهني العملية ، اذا لم **انتزع** من العقل التأملي مزاعمه في البصيرة المتسامية وبالتالي فلا بد لي من الغاء المعرفة كي افسح المكان للايمان »

لا ، ومرة أخرى لا* ! ما ابعد البورجوازية عن كونها حمقاء !

بضع كلمات اخرى قبل الاختتام

يتهمني كونراد شميدت باللجوء الى اكثر تراكيب الافكار اعتباطية كيما انسف المصداقية السياسية عند اولئك الذين يسمحون لانفسهم بالتفكير بصورة مغايرة لبليخانوف في مجال الفلسفة

وهذا خطأ بصورة مثلثة

١ ــ ان جميع الاشياء التي قيلت اعلاه بينت بصورة كافية ان تراكيب الافكار التي لجأت اليها ليست « اعتباطية » في اي حال من الاحوال

٢ ــ تابعت **الحقيقة** دائما في مساجلتي ولم اعن مطلقا **بالمصداقية** السياسية لكائن من كان ولقد فسر كونراد شميدت « بصورة اعتباطية جدا ما قرأه في قلبي

٣ ــ في مقالاتي التي اغضبت الهر الدكتور حتى هذه الدرجة لم ادافع عن الرأي الذي ينادي به ج بليخانوف بل عن رأي ماركس وانجلز والشيء الوحيد الذي يستطيع ج بليخانوف ان ينادي به ، وهذا ما يفعله ، هو الفهم الصحيح لهذا الراي واني ادافع وسوف استمر في الدفاع عن هذا الرأي بحماسة وقناعة واذا بعض القراء هزوا اكتافهم لشدة حماستي في مساجلة تتعلق بالمسائل الاهم في المعرفة البشرية ، وهي في الوقت نفسه تعالج المصالح الاشد حيوية للطبقة العاملة ــ بقدر ما يسيء جدا الى هذه الطبقة ان تتغذى بما يسميه انجلز حساء الانتقائية الهزيل ــ فسوف اهز كتفي اذن بدوري واقول **بئس مثل هؤلاء القراء .**

---

* يجب ان نتذكر ان الاهتمام بالقسم العملي من فلسفة كانط يتغلب اليوم اكثر فاكثر على الاهتمام بقسمها النظري في الحلقات المعنية بهذه الفلسفة

# المادية مرة أخرى

كتب برودون في مكان ما يقول « لا بد للاستاذ ان يتكلم ويتكلم ويتكلم ليس كي نقول شيئا بل كي لا يلوذ بالصمت» ويتقيد الهر دكتور شميدت بحزم بهذه القاعدة بالرغم من أنه كان ، في حدود معرفتي مجرد معيد لبضع سنوات ، ولم يكن استاذا قط وانه ليطرح علي في مذكرة منشورة في العدد ٢٢ من **نيوزيت** بعنوان اكانت تلك مادية سؤالا اجبت عنه من قبل في مقالتي المادية أم الكانطية ولما كنت عازفا كل العزوف عن تبديد الكلام في هذا الموضوع احسست بادىء الامر نفورا من تكرار ما سبق لي أن قررته في عبارات لا تغتفر مطلقا الى الحزم ومهما يكن من شيء ، فقد استلفت بعض أصدقائي انتباهي الى هامش ذيلته هئية تحرير **نيوزيت** لمذكرة كونراد شميدت وأعلنت فيه أن ملحوظاته الختامية أثارت بعض المسائل الجديدة والهامة ، وانه ربما شاركها اراءها بعض القراء » وبعد تردد طويل قررت اذن ان ارد من جديد على المسائل الجديدة والهامة » التي أثارها الهر دكتور كونراد شميدت

يقول خصمي أنه ينبغي لي أن أتساءل ما اذا كان كتاب مثل لامتري ودولباخ وديدرو وهيلفيتيوس يمكن اعتبارهم ماديين حقيقيين فالهر الدكتور لا يعتبرهم كذلك ، وهو يحشرهم في عداد **الانتقائيين** ولا بدّ لنا من الاعتراف بأن هذا شيء جديد حقا نظرا لانه لم يخطر قط في بال انسان حتى الوقت الحاضر ان يصف بالانتقائية أعمالا مثل **الانسان الآلة** و **حلم دالامبير** واخيرا **نظام الطبيعة** ، هذا الكتاب الذي ما أكثر ما سمي مدونة أو توراة المادية* وفقا لملحوظة ف أ لانج الصائبة جدا

وحتى اذا كان هذا الرأي الذي أتى به الهر الدكتور (« جديدا ») ، فهو لا يملك ادنى « اهمية على الاطلاق لافتقاره الى اي أساس جدي والسبب الوحيد الذي حمله على تقديمه شعوره بأنه في وضع مزعج جدا

---

* **تاريخ المادية** ، أيزرلوهن ١٨٧٣ القسم الاول ، ص ٣٦١

فاذا كان الهر شميدت يؤكد لنا حاليا أن لامتري ودولباخ لم يكونا ماديين ، فالسبب الوحيد في ذلك أن مذهب هذين الفيلسوفين لا يتفق مع مفهوم المادية التي توصل اليه **عن طريق السماع** .

واقول **عن طريق السماع** لانه لا يبدو انه تكلف عناء دراسة أعمال هؤلاء الكتاب الذين أصدر بحقهم هذا الحكم الباعث على الدهشة

وبالفعل ، ما الذي يحمل الهر شميدت على اعتبار الماديين الفرنسيين للقرن الثامن عشر انتقائيين ؟ ذلك انهم كانوا تحت تأثير الفلسفة الانكليزية عموما ، وفلسفة لوك خصوصا وعلى أي حال ، فان تأثير هذا الاخير اولا ، غير واضح تماما في مذهب لامتري الصادركليا ومباشرة عن النصف المادي من مذهب **ديكارت** ومن ثم فان طبيعة مذهب لوك الحسي بالذات ، وهو أبعد ما يكون عن الحيلولة دون النتائج المادية التي استخلصها منه دولباخ و الدولباخيون ، يوحي بهذه النتائج بكل بساطة ويسمي الهر شميدت لوك **ظواهريا** لماذا ؟ أيكون ذلك استنادا الى دراسته الشهيرة عن الصفات الاولية والقانونية للاشياء المحيطة بنا ؟ بيد أن هذا تمييز يمكننا العثور عليه حتى عند ديموقريطس **المادي** ، وهو ما يستطيع الهر شميدت اكتشافه بكل يسر ، مثلا ، لدى زيللر ، مؤرخ الفلسفة الاغريقية الشهير*. ولقد لعب هذا التمييز ، حتى عند المادي توماس هوبس ، دورا بالغ الاهمية كما سوف يتبين شميدت بكل وضوح من الفقرة الرابعة من الفصل الثاني من كتابه **في الطبيعة البشرية** ، أو على الاقل من **تاريخ المادية** للانج الذي يصيب تماما حين يقول انه وفقا لهوبس لا تخص جميع الصفات الحسية بصفتها هذه ، الاشياء بالذات بل هي تنشأ فينا نحن انفسنا وصحيح ان لانج يعزو هنا الى هوبس الفكرة المادية الخالصة فيما يبدو القائلة ان « الاحساسات البشرية ليست شيئا أكثر من حركات أجزاء من البدن المسببة عن الحركة الخارجية للاشياء » وليست تلك هي الحال بالضبط فالسؤال الجذري الذي طرحه هوبس منذ عام ١٦٣١ أي نوع من الحركات يمكن ان يثير الاحساسات وعمل المخيلة في المخلوقات الحية ؟ » يبين بكل وضوح ان **الحس ليس حركة لدى هوبس بل هو شرط باطن لبدن هو في حالة الحركة** . وهذا هو بالضبط ما نصادفه عند لامتري ودولباخ ؛ فقد ترجم دولباخ الى الفرنسية مؤلف هوبس سابق الذكر عن الطبيعة البشرية لكن لعل هوبس كان هو الآخر « **انتقائيا** » ؟ اذا كان الامر كذلك ، فاني أود أن أعرف الشخص الذي يعتبره الهر شميدت ماديا حقيقيا ومخلصا اني لاخشى جدا ألا يتحلى بهذه الصفة الا كارل فوغت وحده واشباهه من المفكرين ،

---

* انظر كتابه **Philosophie der Griechen** ، ارسترتيل ، الجزء الثالث ، ص ٧٠٥ ، الهامش رقم ١ .

وربما ايضا ( وحتى في هذه الحال تجاوزا ) عدد من ممثلي مادية **العصور القديمة** .

ومهما يكن من امر ، **فلا يمكن ان يكون ثمة شك في ان مادية ماركس وانجلز** ، التي تعرضت « للنقد » من جانب الهر شميدت ، **لا تتناسب مطلقا مع تعريف المادية** المقدم من قبل هذا السيد

يقول ماركس ان « المثالي ليس سوى العالم المادي الذي يعكسه الذهن البشري والمترجم فيه الى اشكال فكرية (١٩٨) **ولقد** استند الهر شميدت على هذا الاساس حين عدّ ماركس بين اولئك الذين **يعتقدون انه** يمكن تفسير طبيعة الانسان الروحية بالصفات المادية وحدها بالمادة والقوة » وحدهما وهذا وحده يبين ضآلة فهم الدكتور الفاضل لماركس فلو **اني ترجمت( übersetze** )شيئا ما من الروسية الى الفرنسية مثلا فهل يعني عملي أن لغة فولتير لا يمكن أن تفسر الا بواسطة صفات لغة بوشكين ، وان هذه اللغة **الاخيرة** ، **عموما** ، **هي** اكثر واقعية من اللغة الاولى ؟ ابدا انه يعني أن ثمة **لغتين** ، **لكل منهما** بنيتها الخاصة ، وانه اذا كنت جاهلا بقواعد اللغة الفرنسية فلن انتج **ترجمة بل مجرد** قطعة من الخليط الملبس غير المفهوم وغير المقروء واذا لم يكن المثالي ، **حسب** تعبير ماركس ، شيئا آخر سوى المادي ، المترجم والمنقول الى **الذهن البشري** ، **فانه** من الواضح اذن

المادي وفقا للرأي نفسه ، غير **متماثل مع « المثالي » لانعدام** الحاجة الى تحويله وترجمته وهذا هو السبب في **انعدام أي اساس على** الاطلاق **للتماثلية** السخيفة التي يحاول شميدت ان يفرضها **على ماركس**

لكنه اذا كانت عبارة فرنسية **معينة لا تشبه العبارة الروسية التي ترجمت** عنها فانه لا يترتب على ذلك أن **معنى** العبارة **الاولى يجب أن** يختلف عن معنى العبارة الثانية ان الامر على النقيض من **ذلك** ، **فاذا ما** كانت الترجمة جيدة ، **فسوف يكون المعنى واحدا** في العبارتين بالرغم **من جميع الفوارق**

وبالطريقة نفسها بالضبط ، **ففيما « المثالي » الموجود في** ذهني لا يشبه المادي » الذي **« ترجم »** عنه ، **فهو يملك المعنى نفسه اذا** كانت الترجمة جيدة **والتجربة** مقياس صحة الترجمة فاذا كان **معنى « المثالي »** في ذهني لا يقابل صفات المادي الفعلية ، يعني الاشياء الخارجة **والمستقلة** عن ذهني فان هذه الاشياء سوف **تلقنني درسا اكثر او أقل مرارة عند أول لقاء** لي بها ، **وهو درس** سوف يزيل بسرعة اكبر أو أقل التعارض بين **المثالي والمادي** ، وذلك بالطبع **اذا** لم أفن بنتيجة هذا التعارض وبهذا المعنى ( **وبهذا المعنى** وحده يستطيع المرء ويجب عليه أن يتحدث عن الهوية ( Identität ) **بين المثالي** والمادي وهي الهوية التي يقف سلاح نقد شميدت عاجز كليا **ضدها**

ويأخذ صاحبنا الدكتور المنيع عليّ **انتقائيتي ؛ وبعد ما** سبق ذكره أعلاه سوف يتضح أني في رفقة ممتازة حين أعد بين **الانتقائيين بحيث لا** يؤثر تعنيف الهر

شميدت لي مطلقا في" ومهما يكن من شيء ، فاننا نحسن صنعا اذا درسنا عن كثب الحجج المستخدمة لتأييد ذلك التعنيف

يقول الهر الدكتور « لانـه اذا كان لا بـد" من تناول عمل قانون السببية **بصورة جادة** بخصوص الاشياء في ذاتها فمن الواضح في هذه الحال أن **الشروط** التي تدرك السببية فيهـا وحدها الا وهي المكان والزمان والمادة ( أو مراكـز القوى يجب ان تعتبر شروطا **تتعلق** بالاشياء في ذاتهـا أيضا وبالتالي تتحول مادية بليخانوف من **جديد الى المادية القديمة والمألوفة للهوية الفلسفية** »

وقبل كل شيء أود أن أسجل ما يلي لقد قلت وبرهنت في مقالتي المادية أم الكانطية « اننا اذا لم نعترف بتأثير الاشياء في ذاتها فينا ( وفقا لقانون السببية ) انتهينا بالضرورة اذن الى **المثالية الذاتية** ؛ واذا نحن اعترفنا بهذا التأثير انتهينـا بالضرورة عينها الى **المادية** ولا يعتبر الهر كونراد شميدت نفسه مثاليا ذاتيا ولا ماديا كيف يعالج اللغز الذي ذكرته ؟ بالرغم من انه لم يقل شيئا بهذا الصدد ، فانه يبدو انه يتصرف على هذا الغرار انه يعترف بأن الاشياء في ذاتها تؤثر فينا ، لكنه لا يفعل ذلك بصورة جادة » هذه حيلة ماكرة جدا تبين حتى أية درجـة ينبغي أخذ التمارين الفلسفية للدكتور العالم بصورة جادة

وأما أنا فمن المؤكد أنني أتناول « بصورة جادة كل الجد ما للاشياء في ذاتها من تأثير فينا ، وهو التأثير الذي نعرف بنتيجته بعض خصائصها لكن ما هي المادية «' القديمة والمألوفة التي يؤول هذا الاعتراف اليها ؟ هذا شيء لا يعرفـه كائن من كان ، لان المادية عموما ـ القديمة والجديدة على حد سواء ـ ظلت مجهولة من الهر شميدت

وانه ليبدو بالنسبة الى الدكتور المنيع انه ينبغي لي ، لدى اعترافي بأن الاشياء في ذاتها تؤثر فينا ، أن أفكر في المادة من حيث هي شرط يظل صالحا في تطبيقه على عالم الاشياء في ذاتها ليفهم ذلك من يستطيع فهمه ، فهذا شيء لا يمكنني فهمه ، وانا اعتقد ان الهر الدكتور لا يفهمه هو الآخر ومهما يكن من شيء ، فسوف أحاول من جهتي أن أشرح بكلمات قليلة الفكرة التي أشركها مع كلمة **مادة** .

بصورة متعارضة مـع « **الروح** » نسمي « **مادة** » ما **يثير فينا احساسا ما بفعل تأثيره في أعضاء حواسنا** لكن ما الذي يؤثر في أعضاء حواسنا ؟ أجيب عـن ذلك جنبا الى جنب مع كانط **الاشياء في ذاتها** وبنتيجة ذلك **فليست المادة سوى مجمل الاشياء في ذاتها بقدر ما تكون مصادر احساساتنا** .

ونظرا لاني جاد تماما في الاعتراف بوجود الهر الدكتور شميدت علـى اعتباره شيئا مستقلا عن شعوري فلا بد" لي أن أجمعه في عداد تلك الاشياء في ذاتها التي تشكل **العالم الخارجي** من حولي ان الشيء في ذاته المعروف بأنـه الدكتور شميدت قادر على التأثير في حواسي الخارجية انه **مادة** ، لكنه قادر كذلك على

كتابة مقالة هزيلة عن الفلسفة ، وبالتالي **فهو مادة تحس وتفكر** . وهكذا فان الشعور ( بدرجة اكبر أو اقل ) صفة للشيء الذي يؤثر في حواسي الخارجية والذي اسميه **مادة** أما أن هذا الشيء ، « بذاته » ، لا يشبه **تصوري** عن المادة ، فهذه حقيقة كانت معروفة من توماس هوبس في أيامه ، الا انها لا توفر اي اساس لرفض المادية وعلى العكس من ذلك ، فانه يكون من الغرابة بمكان عظيم ان **يشبه** الاحساس والتصور الناشيء عنه الشيء الذي كان سببا فيه والذي من المؤكد انه **ليس احساسا ولا تصورا**(١٩٩) . من ذا لا يدرك ان وجود المرء في ذاته ليس هو بعد وجوده لذاته او وجوده للآخرين

ويقول الهر شميدت ايضا انني اذا قبلت « بصورة جادة » ما للاشياء في ذاتها من **تأثير فيّ** ، فان من واجبي أن اقبل ايضا بأن المكان والزمان شرطان ( لعله يريد ان نقول تعريفان ؟ ) ليسا بأقل او اكثر صلاحية بصدد الاشياء في ذاتها

ان في مقدوره أن يقول انني اذا قبلت « بصورة جادة » بوجود الاشياء في ذاتها فان من واجبي أن افترض انها **موجودة في المكان وفي الزمان** . وقبل ان انخرط في تفسيري للمادة اود ان اسأل القارىء أن يسجل ما يلي

نظرا لان هذا الافتراض يبدو محالا للهر شميدت فلا يبقى أمامه الا انكار الاعتراف بوجود الاشياء بصورة مستقلة عن شعورنا ، يعني أن يتخذ موقف فخته او بيركلي وأما السخافات التي يؤول ذلك اليها ، فهذا أمر نعرفه من قبل

اما أن المكان والزمان شكلان للشعور ، وبالتالي أن **الذاتية** هي صفتهما المميزة الاولى فهذا ما كان يعرفه قديما توماس هوبس ، كما لن ينكره أي مادي في الوقت الراهن(٢٠٠) والمسألة كلها هي ما اذا كانت بعض أشكال **الاشياء** أو علاقاتها تقابل هذين الشكلين للشعور ومن المفروغ منه أن الماديين لا يمكن ان يعطوا عن هذا السؤال سوى جواب بالتأكيد الامر الذي لا يعني بالطبع انهم يعترفون بالهوية الكاذبة ( أو السخيفة بالاحرى التي يفرضها عليهم الكانطيون بما فيهم الهر شميدت بسذاجة كريمة لا ان اشكال الاشياء في ذاتها وعلاقاتها لا يمكن ان تكون كما **تبدو** لنا ، يعني كما تظهر لنا وقد « ترجمت الى اذهاننا ليست تصوراتنا عن أشكال الاشياء وعلاقاتها بأكثر من **هيروغليفات** ؛ فهذه الهيروغليفات تدل بالضبط على هذه الاشكال والعلاقات ، وهذا يكفينا للتمكن من دراسة كيفية تأثير الاشياء في ذاتها فينا ، وللتأثير فيها بدورنا (٢٠١) وأعود فأقول اذا لم يكن لاي تقابل صحيح وجود بين العلاقات الموضوعية وتصوراتها الذاتية ( « ترجماتها » ) في اذهاننا فان **وجودنا بالذات يصبح متعذرا**

ان أي امرىء لا يستطيع القبول بسخافات المثالية الذاتية لا بدّ ان يعترف بالضرورة بصحة هذه الاعتبارات ومن البدهي ان اقصد « **باي امرىء** » جميع

اولئك الذين يتناولون **الفلسفة** « بصورة جادة ولا يتحدثون بدافع العادة الاكاديمية وحدها ، **يعني كي لا يلوذوا بالصمت**

**ولن يخطر في بال أي امرىء يفكر بعناية بما قيل اعلاه أن يقارن** « بصورة جادة بين آرائي و**آراء هربارت أو** لوتز ومهما يكن من شيء فقد يكون ثمة اساس للاعتراض **بأن « ماديتي »** تشبه **اللاادرية بصورة وثيقة** ، **ادرية هربرت** سبنسر على سبيل **المثال** وسوف **ارد** على ذلك بكلمات انجلز ليست اللاادرية **الانكليزية الا مادية خجولا .**

لكن كفى **ليست آرائي واضحة للهر** شميدت لعلي **عرضتها** بصورة رديئة؟ لكن ما السبب في ان خصمي **يدحضها** بمثل هذه الصورة المؤسية ؟ اليس السبب **في** ذلك **فهمه** لهـا بصورة **رديئة جدا ؟ أليس السبب في ذلك افتقاره الى اية فكرة عن** المادية غير الفكرة التي **يعتنقهـا** البورجوازيون الصفار الالمان ؟ اعتقد ان **ذلك هو** السبب واذا كان **الامر كذلك ، فان اللوم في أسواء الفهم التي نشأت فيما بيننا** يجب الا يقع علي ، **بل على ذلك الشيء في ذاته الذي يعرف باسم العالم الدكتور** كونراد شميدت



# رد على استبيان لصحيفة

## « الجمهورية الاشتراكية الصغيرة »

## جنيف ، ايلول ١٨٩٩

ايها المواطنون الاعزاء

شرفتموني بالرغبة في معرفة رايي في السؤالين التاليين

**١ ـ أيمكن لحزب اشتراكي ، دون أن يخون مبدأ الصراع الطبقي ، أن يتدخل في الصدامات بين التجمعات البورجوازية المختلفة ، سواء بغرض انقاذ الحرية السياسية أو ، كما هي الحال في قضية دريفوس(٢٠٢) ، دفاعا عن الانسانية ؟**

**٢ ـ حتى أية درجة يمكن للبروليتاريا الاشتراكية أن تسهم في حكومة بورجوازية ، وهل يتعارض مبدأ الصراع الطبقي بصورة مطلقة وفي جميع الحالات مع الظفر الجزئي بالسلطة الحكومية من قبل حزب اشتراكي ؟**

وسوف أجيب بكل طيبة خاطر نظرا لان هذين السؤالين ، كما أشرتم الى ذلك بصورة سديدة جدا ، يتسمان بأهمية أممية ، وهي اهمية عظيمة بحيث يتمفصل مستقبل حزبنا بأكمله على الطريقة التي يعالجهما الاشتراكيون بها بهذا الاتجاه أو ذاك .

واليكم رأيي في الموضوع

فيما أرى ، فان البروليتاريا الاشتراكية لا يحق لها فحسب ، بل هي ملزمة بالتدخل في الصدامات بين التجمعات البورجوازية المختلفة كلما وجدت أن ذلك يعود بالمنفعة على مصالح الحركة الثورية . ومهما يكن من شيء ، فلا يمكن أن يكون هذا التدخل نافعا للحركة الثورية ولاينبغي أن يحدث الا في الحالات حيث يكون في مقدورها أن تعطي نشاطا وعزما أعظم للنضال بين البورجوازية يعني مالكي وسائل الانتاج من جهة واحدة ، والبروليتاريا يعني الطبقة المستثمرة من قبل هؤلاء المالكين من جهة ثانية .

وكيما يصبح النضال بين البورجوازية والبروليتاريا أنشط واحزم باستمرار لا بد للبروليتاريا أن تتشرب أكثر فأكثر بوعي التعارض بين مصالحها ومصالح اولئك الذين يستثمرونها ان وعي البروليتاريا الثوري هو ذلك المتفجر المروع الذي يملكه الاشتراكيون والذي سوف ينسف المجتمع الراهن ويجب ان تعتبر جميع الاشياء التي تنشط هذا الوعي وسيلة ثورية وبالتالي مقبولة من الاشتراكية ، كما ان جميع الاشياء التي تطمس هذا الوعي هي ضد ثورية ، وبالتالي يجب أن تدان وان ترفض من قبلنا ذلك هو المبدأ الرئيسي الذي يجب ان يقوم عليه تكتيكنا بأكمله

ولما كنت أعتنق وجهة النظر هذه فاني أميل الى الاعتقاد بأن اشتراك الاشتراكيين في حكومة بورجوازية سوف يعود علينا بالضرر أكثر من المنفعة نظرا لانه سوف يؤول الى اضعاف وعي البروليتاريا الثوري ومهما يكن من شيء ، فاني ادرك ان ثمة استثناءات لاية قاعدة ، وان اي مبدأ يصبح مبدأ ميتافيزيائيا اذا هو فهم بعبارات مطلقة وبالتالي فاني أبيح امكانية حالات فردية واستثنائية يضطر فيها حزب اشتراكي للموافقة على انضمام أحد ممثليه الى وزارة بورجوازية الا ان حق اتخاذ القرار في مثل هذه الحالات يجب أن يخص الحزب دائما من دون أي من اعضائه الفرادى

ويجب ان يضاف الى ذلك ايضا مع التأكيد أن أي قرار بالانضمام الى حكومة بورجوازية لا يمكن ان يتخذه الاشتراكيون الا بهدف فوري وواضح الا وهو الاسراع في تفكك المجتمع الراهن

وتقبلوا أيها الرفاق احترامي الودي

**ج . بليخانوف**

* * *

# آراء كارل ماركس الفلسفية والاجتماعية

## ( خطـاب )

ايها السيدات والسادة ، ايها المواطنون

نظرا للوقت المحدود المتاح للخطباء اليوم ، فلعله من قبيل الجراة المبالغ فيها من جانبي أن احاول اعطاء تقدير لاسهام ماركس في الفلسفة والعلوم الاجتماعية وهذا ما سوف أحاوله مع ذلك ، واذا لم أكن على مستوى هذه المهمة ، فبئسا لي

تنبثق فلسفة ماركس منطقيا وبصورة حتمية من فلسفة هيغل ــ هذا مايقوله لنا في الاغلب اولئك الذين قاموا بدراسة اصول الاشتراكية الحالية وهذا صحيح ، لكنه ليس بكل شيء ، بل ما أبعده عن ذلك . فماركس خلف هيغل على غرار خلافة جوبتر لساتورن ، باسقاطه عن عرشه فقد كان ظهور فلسفة ماركس المادية ثورة حقيقية ، الثورة الاعظم في تاريخ الفكر البشري ولا بدّ للمرء من أجل تقدير أهمية هذه الثورة من القاء نظرة على أوضاع الفلسفة المادية في القرن الثامن عشر

كانت فكرة التطور في الطبيعة والمجتمع الانساني غريبة تماما على وجه التقريب عن مادية تلك الازمان التي كانت فلسفة جسورا ونضالية وصحيح أن دنيس ديدرو احد أبرز مفكريها في تلك المرحلة كثيرا ما عبر عن آراء لا بد أن تشرف أنصار نظرية التطور في أيامنا ، لكن هذه الآراء العميقة والمتألقة لم تنطو على جوهر مذهب الماديين بل كانت مجرد استثناءات ولم يكن في وسعها بصفتها هـذه الا البرهان على القاعدة العامة ولا أستطيع أن أدخل في تفاصيل الامر هنا ، ولذا اقتصر على ايراد مثالين

طالعوا كتاب دولباخ الشهير **نظام الطبيعة** ولاحظوا الفصل الذي يتحدث المؤلف فيه عن أصل الانسان ، وسوف تجدون أن أكبر الصعوبات التي اصطدم بها هي تلك المتعلقة بالتطور **الحيواني** للانسان وبالتطور **الجيولوجي** للكرة الارضية

وسوف أتناول المثال الثاني من ميدان الاخلاق فقد اتهم ماديو القرن الثامن عشر من قبل قرابة جميع مؤرخي الفلسفة بتبشيرهم بالانانية . وهذه خطيئـــة

رديئة فعند هيلفيتيوس ودولباخ واصدقائهما كان الصالح **الاجتماعي** لا **الشخصي** أساس الاخلاق كلها وكان هيلفيتيوس يقول Salus populi suprema lex الصالح العام هو القانون الاسمى ) وفي هذه الحال كيف نفسر خطيئة شديدة الانتشار على هذا الغرار في عالم الفلسفة والادب ؟ انها تصدر عن ينبوع ورد ذكره سابقا فالفلاسفة الماديون للقرن الثامن عشر ما كانوا يستطيعون اعتبار الاخلاق من وجهة نظر تطورية والتطور التاريخي وحده يستطيع أن يفسر لنا لماذا وكيف يصبح الصالح الاجتماعي متفوقا في الاخلاق السائدة في مجتمع معين ومهما يكن من شيء ، فان هذا التطور يحدث في الغالب دون معرفــة الافراد الذين يطيعون المطالب الاخلاقية لمجتمعهم أو **طبقتهم** من حيث هي وصية الاخلاق المطلقة كما هي مكرسة من جانب الدين أو الميتافيزياء فليس ذهن الفرد الذاتي بل منطق العلاقات الاجتماعية الموضوعي هو الذي يملي هذا السلوك أو ذاك على الفرد ولما كان فلاسفة القرن الماضي يفتقرون لاي معرفة عن التطور لم يكن في وسعهم الاستنجاد الا بما سموه العقل

ولقد حاولوا ان **يبرهنوا** على انــه من الافضل ، حتى من موقف المصلحة الشخصية اعطاء الافضلية للصالح الاجتماعي وليس من المدهش ان العقــل الذي توجهوا اليه في غالب الاحيان كان يشبه انسانا ذا قلب طيب جدا يحفز فيه أنبل العواطف ، لكنه في الوقت نفسه ذو عقل لا يستطيع الافلات من التيه المنطقي للنفعيــة الفرديــة

ولقد شاهد النصف الاول من قرننــا رد الاعتبار التام للفلسفة المثالية فليس انسان يرغب حتى في السماع عن المادية التي كانت موضع الازدراء الاقصى واذا انتم قارنتم الفلسفة المثالية للقرن التاسع عشر بالفلسفة التي سبقت ازدهار المادية في القرن الماضي وجدتم ان الصفة الاقوى للمثالية في قرننا هي بالذات تلك الفكرة عن التطور التي كان الماديون يجهلونها ذلك هو الثمن الذي دفعتــه المادية لقــاء خطيئتهــا

واثبتت الفلسفة المثالية في قرننا ، من جهتها انها عاجزة عن حل قضيــة التطور القوانين المنطقية لتطور الفكرة ــ هذا هو السلاح الذي استخدمته هذه الفلسفة كلما توجب عليها أن تثبت قوانين تطور الكون والجنس البشري ومهما يكن من شيء ، فان القوانين المنطقية لتطور الفكرة لا تفسر شيئا في الطبيعة والمجتمع ، بحيث كان لا بد للمثاليين من التوجه الى الحقائق والقوانين العادية ، حقائق الطبيعة وقوانينها وحقائق التاريخ الاجتماعي وقوانينه وهكذا اضطر هيغل ، وهو اعظم المثاليين في سائر الأزمان وجميع الشعوب الى البحث في التطور **الاقتصادي** عن تعليل الحقائق التاريخية التي كانت عصية على الفهم من وجهة النظر المثالية لقد كانت فلسفة هيغل التاريخية جزية غير ارادية وغير شعورية للمادية .

ومن جهة ثانية، فان ما سماه المثاليون فلسفة الروح Philosophie des Geistes — قد دمرتها صعوبات لم يكن في الامكان التغلب عليها الا بواسطة السيكولوجيا الفيزيولوجية وهو علم مادي كليا رغما عن كل ما يقوله في الاغلب اولئك المنصرفون اليه

وهكذا اصبحت الفلسفة مادية من جديد في النصف الثاني من قرننا الا ان مادية عصرنا اغتنت بسائر انجازات النظرية التطورية

ومما لا ريب فيه انكم تدركون الدور الذي لعبته فكرة التطور في حقول متنوعة من علوم الطبيعة العظيمة ويكفينا لذلك ان نتذكر اسماء كانط ولابلاس ولايل وداروين لكن ما هو المكان الذي تشغله فكرة التطور في مجال العلوم الاجتماعية ؟

ويقال الشيء الكثير حاليا في الادبيات السوسيولوجية — وفي الاغلب بصورة خاطئة كليا — عن التطور ومهما يكن من شيء ، فانه لا يكفي تقرير ان العلاقات الاجتماعية تتميز بصورة مستمرة ، بل من الضرورة بمكان تأكيد القوة المحركة لهذا التبدل ولم يقتصر داروين على تقرير أن الانواع تتعرض للتغير بل لقد بين ان الصراع في سبيل الوجود قد كان السبب في هذا التغير فما الذي يسبب اذن التغيرات في العلاقات الاجتماعية ؟ ما أصل الانواع المتباينة للبنى الاجتماعية ؟

لقد أثبت ماركس ان البنية الاقتصادية للمجتمع البشري هي الاساس الذي يفسر تطوره جميع المظاهر الاخرى للتطور الاجتماعي وهذا ما يشكل جدارته الخالدة وهي جدارة أهم من النقد العاصف للمجتمع الحالي الذي قدمه في راس المال ولقد أعطي لنا مفتاح فهم التطور الانساني من قبل النظرية التاريخية اولا ، ونحن تلقينا أول ما تلقينا من ماركس الفلسفة المادية لتاريخ الجنس البشري

يقول ماركس

> لا تختلف طريقتي الجدلية عن الطريقة الهيغلية في الاساس فحسب بل هي بالاحرى نقيضها بالضبط فعند هيغل ان حركة الفكر التي يشخصها تحت اسم الفكرة هي مبدعة الواقع ، هذا الواقع الذي لا يعدو كونه الشكل الظاهري للفكرة وعندي ، على العكس ، ان المثالي ليس سوى العالم المادي الذي عكسه الذهن الانساني ، والمترجم الى أشكال الفكر
>
> وقد أصبحت الجدلية في مظهرها الصوفي زيا المانيا كان يلوح انها تمجد الاشياء القائمة أما في مظهرها العقلاني فهي فضيحة وفظاعة بالنسبة الى مملكة البورجوازية ومفكريها العقائديين لانها تتضمن في تفهمها للاشياء الراهنة والاعتراف بها فكرة انكارها المحتوم في الوقت نفسه فكرة دمارها الضروري ولانها تنظر الى كل شكل اجتماعي متطور تاريخيا في حركته المائعة ، وبالتالي تأخذ بعين الاعتبار طبيعة هذا الشكل الانتقالية ووجوده المؤقت على حد سواء انها لا تلتزم بأي شيء او تخضع له ، فهي بحكم جوهرها نقدية وثورية معا

ان السوسيولوجيين من المدرسة الداروينية ينطقون بأشياء كثيرة عن الصراع في سبيل الوجود ، هذا الصراع الذين يرغبون في بقائه المتصل أما المدرسة الماركسية فلا تتجاهل هذا الصراع ، لكنها تفسر كيفية قيامه وجميع أطوار تطوره التاريخي ولقد بينت ان الجنس البشري ، منذ خروجه من حالته البدائية ، تألف من طبقات متباينة كان التناحر بينها القوة المحركة الرئيسية للتطور الاجتماعي ونحن اليوم شهود على صراع شرس — صراع حياة أو موت — بين البروليتاريا والبورجوازية ، بين اولئك الذين يكدحون واولئك الذين يستملكون ثمار عملهم ولقد وصف ماركس لنا اطوار هذا الصراع واشار الى حصيلته المحتومة ولقد انحاز الى جانب المضطهدين ودعاهم الى تنظيم صفوفهم والى تحقيق الوحدة الاممية واستجابت جماهير البرولتياريا لهذا النداء ان اقل من خمسين سنة انقضت منذ تردد النداء العظيم يا عمال العالم اتحدوا ! ، والراية الحمواء للاشتراكية الاممية ترفرف باعتزاز في جميع البلدان المنخرطة في النظام الراسمالي وتكتسب الحركة مع كل يوم جديد قوة متنامية ابدا ، وتتسارع حركتها يوميا ، ويزداد النضال شراسة مع طلوع كل يوم جديد

لنقف جميعا على استعداد ، ذلك أن يوم المعركة الحاسمة وشيك

* * *

# الاطوار البدئية لنظرية الصراع الطبقي

## ( مدخل الى الطبعة الروسية الثانية لـ « بيان الحزب الشيوعي » )

كتب ماركس الى روج في ايلول من عام ١٨٤٣ حين كان على وشك مباشرة اصدار **الحوليات الالمانية الفرنسية**

« حتى الآن كان في دروج مكاتب الفلاسفة الاجوبة عن سائر الاحجيات وما كان على الناس البسطاء البليدين الا أن يفتحوا أفواههم كي تندس فيها الاوزة المحمرة للمعرفة المطلقة بيد أن الفلسفة أصبحت اليوم زمنية فاذا لم يكن بناء المستقبل والحصيلة الختامية لسائر الازمان من شأننا فان ما يجب أن نصنعه في الوقت الحاضر يصبح أعظم يقينا اني أقصد **النقد الصارم لجميع الاشياء الموجودة** ــ الصارم بمعنى أن النقد لا يخشى نتائجه الخاصة ، وان خوفه ضئيل من الدخول في نزاع مع السلطات القائمة.»*

وان مزاج المؤلف المقبل الثاني **للبيان** ــ فريديريك انجلز ــ يتفق كليا مع المزاج النقدي للمؤلف الاول كما يتبين من مقالته الهامة **Die Lage Engrands** المنشورة في **الحوليات الالمانية الفرنسية** وهي المقالة التي يعرض قسم كبير منها آراء كارلايل(٢٠٥)

فكارلايل أقر انه لا يملك اية أقراص موريسون ، واي ترياق ، ليداوي ادواء المجتمع فكتب انجلز يقول ، مشيرا الى هذا الاقرار

« انه مصيب في هذا ايضا ان اية فلسفة اجتماعية ، بقدر ما لا تبشر ببعض المبادىء على اعتبارها النتيجة الاخيرة التي خلصت اليها ، وبقدر ما تواصل اعطاء اقراص موريسون ، تظل ناقصة جدا فليس ما تمسنا الحاجة اليه بشدة هو النتائج العارية ، بل **الدراسة** بالاحرى فالنتائج ليست شيئا بدون المحاكمة التي قادت اليها ؛ ولقد عرفنا هذا الامر منذ هيغل ؛ وان النتائج لأسوأ من أن تكون عديمة الجدوى فحسب اذا كانت هي نهائية في ذاتها ، هي لم تحول الى مقدمات من أجل استدلالات لاحقة بيد أن النتائج يجب أن تتخذ كذلك شكلا متميزا لبعض الوقت يجب في سياق التطور ان تتحول من الغموض الملتبس الى الافكار النيرة ...** »

---

* راجع مراسلات ماركس مع روج في الكتاب الرابع من **الاشتراكي الديمقراطي** ، ص ٢٦ ــ ٢٧

** **الحوليات الالمانية الفرنسية** ، ص ١٠٧ ــ ٠٨.

ومنذ كتبت هذه السطور انتهت الفلسفة الاجتماعية لماركس وانجلز الى نتائج محددة ايضا في تطورها وهي النتائج التي وجدت أول تعبير منهجي لها في **البيـان الشيوعي** ، ومن بعد استكملت في كتابات أخرى لهما ولم تكن هذه النتائج مشوهة قط « بالغموض الملتبس » ، بل الامر على النقيض من ذلك ، اذ حتى اولئك الذين لا يتعاطفون معها بل يخشونها وجدوا لزاما عليهم أن يعترفوا بأن دراسات ماركس وانجلز قادتهما الى مجموعة من الافكار النيرة والاصيلة لكنه اذا كان انجلز على صواب في مقالته بأن ما ينبغي تقديره ليس هو **النتائج** بقدر ما هو **التطور** الذي يقود اليها وان النتائج على العموم هي ذات **أهمية مؤقتة** فقط فان المرء يستطيع أن يسأل ما اذا كانت النتائج المعروضة في **البيـان** قد فات اوانها في هذه الاثناء ، وما اذا لم يكن المجرى اللاحق للتطور الذي قاد اليها ذات مرة قد دانها ولقد قال فرنسي فكه ذات مرة انه لن يحب أن يفكر مثلما فكر فولتير في وقت يكون هذا الاخير فيه يفكر بصورة مختلفة ولسوف نحتذي حذو هذا الفرنسي فلو اننا اردنا أن نفكر مثلما فكر ماركس وانجلز في زمن يفكر فيه هذان الاخيران بصورة مختلفة ، فاننا سوف نكشف اذن عن عجز تام عن تعلم الروح النقدي الحي لعقيدتهما ، وذلك بالدفاع عن **حرفهـا** الميت ، فتبتعد عنهـا اذن أكثر مما ابتعد المذهبيون الذين تحدث ماركس عنهم في الرسالة آنفة الذكر الى ارنولد روج

كان ماركس وانجلز يسلطان نقـدا صارما على جميع الاشياء الموجودة وما كانا يخشيان نتائج هذا النقد ، ومن واجب اتباع ماركس وانجلز الا يخشوا مطلقا النتائج التي حققها معلماهم

وقد يحسب المرء أن هذه الامور جميعا مفروغ منها وانه من النافل تمامـا الحديث في هذا الشأن ، وبالخاصة في هذه الايام حيث كثر الماركسيون في سائر ارجاء أوروبا من سان بطرسبورغ الى نابولي ومن سامراء الى دبلن ـ وهم يقفون « **تحت راية النقد** » ان المشكلةهي أن ثمة « **رايات النقد** » **عديدة** ولقد قيل قبل زمن طويل انه ليس كل من يكرر باستمرار « يارب ، يارب يدخل ملكوت السموات ولابد أن يقال اليوم أنه ليس كل من يردد باستمرار النقد النقد قادر على الارتفاع فوق **المذهبيـة** ان الناس الذين ينقدون ماركس وانجلز اليوم اكثر عددا من نجوم السماء، حيث ان نقد الماركسية اصبح حاليا الزي الشائع في بعض حلقات المثقفين في مختلف البلدان ومهما يكن من شيء ، فان الزي الشائع والنقد لا يتناسبان جيدا ، فبقدر ما يشيع زي نقد الماركسية يفقد اكثر فأكثر كل **محتوى نقدي** وحين يصف النقاد النتائج التي توصل ماركس وانجلز اليها بالبطلان فانهم لا يستطيعون أن يقدموا اي شيء **جديد** من وجهة نظرهم ، بل يقتصر بعضهم على تكرار فارغ ومتعب لكلمة « النقد » ، في حين يرتد البعض الآخر الى موقف **المعاصرين البورجوازيين** لماركس وانجلز ، بله **السابقين** لهما ولا حاجة الى القول ان **مثـل** هذا النقد لا يشكل

خلاصا من المذهبية ؛ ان **هـذا** النوع من الحركة لا يمكن في حال من الاحوال ان يسمى **تقدمـا**

ان ندرة الفكر النقدي عند اولئك السادة الذين يحبون ان ينقدوا ماركس وانجلز تنكشف بصورة معبرة في ميدان الفلسفة **انهم يعارضون ههنا ما يسمونه** مذهبية الماديين بالعقيدة المبتذلة للكانطيين بخصوص عدم قابلية العالم الخارجي للمعرفة ولن يكون في محله هنا ان نناقش تلك العقيدة ، ولذا نقتصر على الاشارة **الى أن السادة النقاد ، اذ يرفضون المادية ، لا يكلفون انفسهم عناء الحصول على** معرفة افضل بهذه النظرية ، بل يقتصرون على تلك الفكرة عنها التي يرعاها بكـل اجتهاد تمجيدا للدين ، البورجوازيون الصفار والكهنة المتعلمون وانصاف المتعلمين والجهلة كليا في مختلف البلدان ، والتي **تقوم على أساس التعارض المسيحي بـين** المادة والروح*

ان مالدينا في **بيان الحزب الشيوعي** هو على وجه الحصر « الفلسفة الاجتماعية » لماركس وانجلز وهذا الموضوع هو الذي سوف نعالجه في مقدمتنا ومهما يكن من شيء فهو موضوع واسع جدا ، ودراسته من مختلف جوانبه امر مستحيل في اطار مقدمة ولذا لن نأخذ بعين الاعتبار سوى **الفكرة الاساسية في البيان** ، وسوف ندرس الموضوعات المفردة المحتواة فيـه في كتيب بعنوان **نقد نقادنا** نهيؤه للنشر في الوقت الحاضر

> ان الفكرة الرئيسية السائدة في **البيـان** وهي أن الانتاج الاقتصادي في كل مرحلة تاريخية وبنية المجتمع الناشئة عنه بالضرورة يؤلفان اساس التاريخ السياسي والفكري لتلك المرحلـة ، ولذا كان التاريخ بأسره ( منذ انحلال الملكيـة الابتدائية المشاعة للارض ) تاريخ نضال بين الطبقات وان هـذا الصراع قد وصل في الوقت الحاضر الى مرحلة أصبحت فيها الطبقة المستثمَرة والمضطهَدة عاجزة عن التحرر من نير الطبقة التي تستثمرها وتضطهدها دون أن تحرر في الوقت نفسه والى الابد المجتمع بأسره من الاستثمار والاضطهاد ونضال الطبقات ـ هذه الفكرة الرئيسية تعود بصورة مطلقة الى ماركس ، والى ماركس وحده

هذا ما يقوله انجلز **أهو على صواب ؟** ليس تماما **فأولا هو يخطىء حين** يلغي تماما اسهامه **في تطوير الفكرة الاساسية في البيـان** وثانيا ، ان بعض **العناصر** البالغة الاهمية من هذه الفكرة نصادف في الادبيات الابكر جدا

---

* ان المصدر العلمي الرئيسي الذي يحصل هؤلاء السادة منه على المعلومات بخصوص المادية هو تاريخ المادية الشهير للانج وعلى أي حال ، فان لانج لم يكن قط قادرا على النظر الى الماركسية بعين الباحث الرزين والحيادي ولقد صنع كتابه الشيء الكثير ليس في مجال نقد المادية بل في نشر وتقوية فكرة خاطئـة بين الناس عن تطورها التاريخي وأهميتهـا بالنسبة الى العلم الاجتماعي في يومنـا الراهن ،(٢٠٧)

لقد لاحظ الاستاذ انطونيو لابريولا بصواب تام ، في دراسته الممتازة في **ذكرى « بيان الحزب الشيوعي »** ، ان مؤرخي العصور القديمة وفي الازمان الحديثة المؤرخين الايطاليين في عصر النهضة ، كانوا على وعي جيد بأهمية الصراع الطبقي الدائر تحت ابصارهم ضمن الحدود الضيقة للجمهوريات الحضرية ولا تقل صوابا عن ذلك أيضا ملحوظة لابريولا بأن الصراع الطبقي ، الذي اتخذ في العصور الحديثة امتدادا أعظم حتى درجة كبيرة ، قد كان على أشد الوضوح خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر وعلى أي حال فانه يخطىء حين يحسب أن الاهمية التاريخية لهذا الصراع انما ادركت على أوضح شكل في نهاية تلك المرحلة ، يعني بين السنوات ١٨٣٠ و ١٨٥٠. فالحقيقة أن فهما للصراع الطبقي من حيث هو محرك بالغ الاهمية للتطور التاريخي حقق ، في العشرينات ، درجة من الوضوع لم يتم تجاوزها الا في كتابات مؤلفي **البيـــان** أما بين السنوات ١٨٣٠ و ١٨٥٠ فقد خفت هـذا الفهم جزئيا بتأثير أسباب سوف نأتي على ذكرها ادناه

لقد تحدث سان سيمون من قبل ، في كتابه **رسائل من احد سكان جنيف** الذي صدر عام ١٨٠٢ ، عن العلاقات بين الطبقات المالكة و غير المالكة ، ناسبا مجرى الثورة الفرنسية وحصيلتها **الى الصراع بين تلك** الطبقات وعلى اي حال، فان **الرسائل** لا تتضمن الا بذرة آراء سان سيمون التي تم التعبير عنها بكمال اعظم حتى درجة كبيرة في كتاباته اللاحقة ، مثلا في **المنظم ( المثل** الشهير ) ، وفي **رسائل الى السادة المحلفين** ، وفي **النظام الصناعي** ، **والتعليـم المسيحي للصناعيين** ، **والآراء الادبيـة والفلسفية والصناعية** ان الانتاج غرض الاتحاد الاجتماعي ، وهو السبب في أن قادة الانتاج تزعموا دائما الاتحادات الاجتماعية ، وسوف يتزعمونها على الدوام فحتى القرن الخامس عشر كانت السلطة الزمنية متمركزة في أيدي النبلاء وما كان يمكن أن يكون الامر خلاف ذلك لان النبلاء في ذلك العصر كانوا يقودون الزراعة ، وكانت الزراعة اذن الشاغل الصناعي الوحيد الذي يتحلى بأهمية كبيرة*. ومهما يكن من أمر ، فقد نشأت بصورة تدريجية بين الحرب الصليبية الاولى وحكم لويس الحادي عشر طبقة اجتماعيـة جديدة تنظمت على اعتبارها قـوة مستقلة عـن النبالة ، ألا وهي المانيفاكتوريون بالمعنى الضيق للكلمة ـ وهي طبقة زادت قوة وتطورا خلال المرحلة بين حكم لويس الحادي عشر وحكم لويس الرابع عشر ولم تكف الطبقة الصناعية ، خلال تلك المرحلة بأسرها ، عن النضال ضد النبلاء الذين انتزعت منهم موقعا اقتصاديا اثر آخر وان حاجتها الى الاسناد القوي قادتها الى الدخول في ائتلاف مع السلطة الملكية ، وهو الائتلاف الذي قرر التطور السياسي اللاحق لفرنسا حتى الوقت الذي خانت الملكية فيه ، في شخص لويس الرابع عشر ، حليفتها المخلصة

* **آراء ادبية وفلسفية وصناعية** ، باريس ١٨٢٥ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ راجع **التعليم المسيحي للصناعيين في مؤلفات سان سيمون** المنشورة من قبل اولند رودريغز باريس ١٨٣٢ ، ص ١٨ .

واصبحت حامية للارستقراطية وكانت تلك خطيئة كلفت آل بوربون غاليا لكنها لم توقف تطور الطبقة الصناعية ولقد كانت الثورة الفرنسية والاحداث التالية لها حصيلة الصراع بين النظام الصناعي الجديد والنظام الاقطاعي القديم الذين قام انصاره بمحاولة جديدة خلال عودة الملكية من أجل استعادة نفوذهم واهميتهم السابقتين ومهما يكن من أمر ، فقد كان مقدراً لجهودهم أن تبوء بالفشل ؛ فقد ذهب ذلك النفوذ الى الابد ويقول سان سيمون

تفكك النظام الاقطاعي بصورة تدريجية خلال خمسة عشر قرنا وانتظم النظام الصناعي بصورة تدريجية وكان السلوك الحاذق من جانب الممثلين القياديين للصناعة كافيا آخر الامر ، من أجل اقامة النظام الصناعي ومن أجل تنظيف المجتمع من نفاية البناء الاقطاعي الذي عاش اسلافنا فيه ذات يوم*

ان آراء سان سيمون التاريخية قد امتصها بأكملها على وجه التقريب ابنه بالتبني اوغستان تييري الذي سوف يقدم اسهاما كبيرا بالغ الاهمية الى العلم التاريخي الفرنسي فقد اتخذ اوغستان تييري موقف الطبقة الثالثة ، وكان يدرك ذلك جيدا واليكم ما كتبه في **المراقب الاوروبي** عام ١٨١٨

« من منا لم يسمع بطبقة من الناس الذين حافظوا أيام كان البرابرة يجتاحون اوروبا على الفنون والمهارات الصناعية في مصلحة الانسانية ! لقد كانوا عرضة للاهانة والنهب يوميا من جانب قاهريهم واسيادهم يحيون حياة شاقة ، ولا يتلقون لقاء اتعابهم سوى الوعي بأنهم يعملون خيرا ويحافظون على الحضارة من أجل اولادهم والعالم ان هؤلاء المنقذين لفنوننا هم آباؤنا فنحن اولاد اولئك الرقيق اولئك الدافعين للجزية ، اولئك البورجوازيين الذين كان الغزاة يفترسونهم دون رحمة ؛ واننا لندين لهم بكل مانحن عليه لكننا ، نحن عبيد الامس المحررين ، قد احتفظنا طويلا في ذكرياتنا بأسر واعمال أسيادنا فقط ولم نذكر أنفسنا بأن آباءنا كانوا الامة الا قبل ثلاثين سنة فقط لقد أعجبنا بجميع الاشياء ودرسناها ، الا ما كانوا وما صنعوا اننا مواطنون ، وقد نسينا جميع أولئك الذين فلحوا تربة وطننا الام طوال اربعة عشر قرنا ، هذه الارض التي ما أكثر ما دمرتها اياد اخرى**.

واما عاد تييري الى الموضوع نفسه بعد سنتين راح يبرهن على أن الفرنسيين لا يملكون بعد تاريخا حقيقيا **لشعبهم** فلم يكتب بعد تاريخ للمواطنين ، تاريخ للرعايا، ومع ذلك فهذا التاريخ اهم كثيرا وابعث جدا على التعاطف من تاريخ الكبار والاسياد — « التاريخ الوحيد المروي لنا ان تقدم الجماهير الشعبية نحو الحرية والازدهار يبدو لنا اشد تأثيرا من حملات الغزاة ، كما أن مصائب الشعب أبعث على

---

* **المؤلفات** ص ٥٩

** أورد هذه الفقرة تييرى نفسه في **عشر سنوات من الدراسات التاريخية** ، باريس ١٨٣٧ المقدمة ، ص ٨

الاسى من مصائب الملوك المخلوعين  واذا أمكن العثور على ريشة جديرة بوصف ذلك، فسوف يعلم الفرنسيون ان مدنهم تستطيع أن تتباهى

بأشياء أخرى غير نزول عاهل ما فيها او مروره بها  وانه غير صحيح ان حياتهم السياسية بأسرها استقامت  طول قرون  في تقديم رماة السهام الى الجيش ودفع الضريبة للاقطاعي مرتين في العام * »

ان مثل هذه الخطب البليغة تبين بكل وضوح كيف أن الوعي المتنامي للطبقة الثالثة في فرنسا أدى الى تغير جذري في آراء المؤرخين الفرنسيين  فقد كان تاريخ الطبقة الثالثة بالنسبة الى العاميين العلماء لتلك الازمان أهم من تاريخ البلاط أو الارستقراطية  وهو السبب في شعورهم بالحاجة الى كتابة تاريخ لهذه الطبقة الثالثة  ونظرا لان هذا التاريخ كان  طوال عدة قرون ، تاريخ الشعب بأسره ، باستثناء الاكليروس والنبالة  فلا عجب أن تأخذ حياة الناس في القرون الماضية في اجتذاب الانتباه الرئيسي للعلم التاريخي الذي لم يتعامل فيما مضى سوى مع الملوك والارستقراطيين  ان العلم التاريخي لعصر عودة الملكية قد تأثر بالمزاج نفسه لدى الطبقة الثالثة التي أخذت في التأثير في الادب والنقد الادبي  وذلك ابتداء من القرن الثامن عشر  ،ونحن نعرف الحوافزالسيكولوجية التيأدت الى ظهور ما يسمى **المأساة المنزلية**  ويقول بومارشيه

« ما الذي يعنيني من رعية مسالم في دولة ملكية في القرن الثامن عشر  أو من الطريقة التي لقي بها حتفه طاغية بيلوبونيزياني  أو كيف قدمت أميرة شابة قربانا في أوليس ! ليس في هذا كله ما يعنيني ، فلا عبرة لي فيه**

ان ما كان بومارشيه ورعيله من المفكرين يريدون ان يروه موصوفا في تعاطف على المسرح قد كان حياة وآلام مجتمع الطبقة الثالثة المعاصرة  وكان يسيئهم ويثير سخطهم الشديد ذلك التفضيل للابطال اصحاب المحتد في المأساة الكلاسيكية  ويهتف بومارشيه في مرارة

تقديم الناس من المرتبة المتوسطة على اعتبارهم مسحوقين ومعذبين  بخ  لا يجوز قط ان يظهروا الا من حيث هم موضع السخرية ! مواطنون مضحكون وملوك بائسون ــ هذا هو كل المسرح الموجود والممكن ، وانا اكتفي بالقول  انتهى الامر***

كانت البورجوازية راغبة منذ القرن الثامن عشر في ان « تكون لها صورتها

---

* انظر الرسالة الاولى عن تاريخ فرنسا ، وقد اعيد طبعها في عشر سنوات من الدراسات التاريخية .

** دراسة في الاسلوب الادبي الجاد في المؤلفات الكاملة ، الاول ، ص ٢٥٨

*** رسالة عن نقد « حلاق اشبيلية » في المؤلفات الكاملة ، المجلد الاول ، ص ٢٥٨ .

الخاصة وقد حاول ممثلوها الادبيون أن يصفوا صفاتها في ذلك العصر من خلال شخصيات **الماساة المنزلية*** وكانت بورجوازية مرحلة عودة الملكية متلهفة بالطريقة نفسها وهي تدافع عن مكاسبها الاجتماعية والسياسية ضد التعديات المتصلة من جانب انصار النظام القديم ، الى سماع قصة سنوات طفولتها وشبابها فانصرف علماؤها الى تقديم هذه القصة برواية مفيدة ومثيرة للاهتمام عن الاضطهاد الذي تعرضت له ، وعن جهودها في سبيل تحقيق مستقبل افضل لنفسها ، وعن نجاحها في النضال ضد مضطهديها وهكذا نشأ تيار جديد في العلم التاريخي مسجلا خطوة كبيرة الى الامام في تطوره

ان المؤرخين السابقين الذين تمركز اهتمامهم بصورة رئيسية على الملوك والارستقراطيين راوا في مآثر ابطالهم اصحاب المحتد القوة الدافعة الرئيسية في التطور التاريخي ولقد اتخذ هذه النظرة ايضا رجال الانوار في القرن الثامن عشر ، هؤلاء الذين عدلوا تلك النظرة ، بصورة تتفق مع مشاعرهم الثورية ، فجعلوا منها العقيدة القائلة ان الآراء تسود العالم وبالرغم من ان هذه النظرية لا تتماسك من وجهةالنظر النظرية ، فقد كانت لها ميزةوقف اهمية عظيمة على تأثير **أبطال** الانتليجنتزيا الثورية في **جمهرة** الطبقة المتوسطة التي كانت مضطهدة من جانب الدولة والطبقات العليا ومهما يكن من شيء ، فان بورجوازية مرحلة عودة الملكية ، هذه التي وجهت قبل فترة قصيرة ضربة قاضية الى النظام القديم ، ما عادت بعد الآن تشبه جمهرة من الناس المداسين بالاقدام فلقد رأى فيها ايديولوجيوها المشربون بوعي قوتها واهميتها المصدر الرئيسي للتقدم التاريخي ولقد سبق فرأينا الحماسة التي يتحدث بها تييري عن الخدمات التي قدمتها الى الانسانية والحضارة

ان المثلين المثقفين للبورجوازية وقد اصبحوا معنيين بتاريخ آبائهم ما كان ممكن الا ان يطوروا نظرة جديدة كل الجدة عن الاصول التاريخية للمؤسسات الاجتماعية وتطورها ويقول اوغستان تييري

> انه لامر غريب جدا ان المؤرخين رفضوا بكل عناد ان ينسبوا اية عفوية او ابداعية للجماهير الشعبية فاذا ماهاجر شعب بأكمله واتخذ لنفسه مقاما جديدا فهذا يعني كما يؤكد مؤرخونا وشعراؤنا ان بطلا ما خطر له ان يؤسس امبراطورية جديدة كيما يسبغ الامجاد على اسمه ؛ واذا ما انشئت مدينة ما ، فذلك لان أمير ما بعث الحياة فيها ان الشعب المواطنين هم على الدوام مادة خام من أجل تفكير فرد واحد أتريدون حقا أن تعرفوا من الذي اسس مؤسسة ما ومن الذي فكر في مشروع اجتماعي ما ؟ ابحثوا بين اولئك الذين كانوا يحتاجون الى ذلك فعليا ؛ ان الفكرة الاولى عنه والارادة في العمل ، وجزءا كبيرا من التنفيذ ، تخصهم جميعا **is facit,cui prodest** ؛ هذا

* راجع برونوتيير **عصور المسرح الفرنسي** ، باريس ١٨٩٦ ، ص ٢٨٧ .

القول المأثور يصح في التاريخ كما يصح في العدالة تماما* »

ونظرا للتعاطف مع « الآباء » ، الذين لم يكن لهم بدّ من خوض صراع مديد ضد الطبقات العليا كان لا بدّ لوجهة النظر الجديدة هذه - وجهة نظر **المصلحة الاجتماعية او الطبقية** - ان تقود الى تقدير الاهمية التاريخية الرئيسية لنضال مختلف الطبقات الاجتماعية ، يعني باختصار - **الصراع الطبقي** وبالفعل فان اوغستان تيري تحدث ، منذ بداية حياته الادبية ، عن صراع الطبقات والمصالح» في انكلترا ( la lutte des classes d'hommes etd'intérêt ) من حيث هو احدى العواقب الرئيسية للفتح النورماندي** ، كما وصف الحركة الثورية في انكلترا القرن السابع عسر على اعتبارها نضالا تخوضه الطبقة الثالثة ضد الارستقراطية انه يقول عن الثورة الانكليزية الاولى

« كل من جاء أسلافه مع الفاتح غادر قصره للانضمام الى المعسكر الملكي كي يشغل مركزا قياديا يتفق مع مرتبته وتدفق سكان المدن على المعسكر الناهض ويستطيع المرء أن يقول أن شعار تجمع الجيشين كان كما يلي : من جهة واحدة البطالة والسلطة ، ومن جهة ثانية العمل والحرية ان جميع المتبطلين ، مهما كان أصلهم ، اولئك الذين كان غرضهم الوحيد من الحياة ملاحقة المتعة دونما أي جهد تجندوا في القوات الملكية دفاعا عن المصالح التي تتفق مع مصالحهم فيما أسر طائفة الغزاة القدامى التي انصرفت الى الصناعة حاليا اتحدث مع حزب العموم »***

وما يجدر بالملاحظة هو ان تيري رأى في الحركة الدينية لذلك العصر مجرد انعكاس للمصالح « الايجابية » اليومية وهو يقول

« لقد شنت الحرب من الطرفين من أجل مصالح ايجابية ، ولم يكن كل ما عدا ذلك الا أمرا عارضا أو ذريعة وكان معظم اولئك الذين انحازوا الى جانب الرعايا مشيخيين ، يعني كانوا يرضون بأي نير ، حتى في الدين أما اولئك الذين ايدوا القضية الناهضة فقد كانوا اسقفيين او بابويين فحتى في حقل الدين كانوا يعملون على ممارسة السلطة وفرض الضرائب**** »

واذا توجهنا الى معاصر تيري مينيه وجدنا نفس الرأي بشأن اهمية المصالح الملكية ودور الصراع الطبقي في تاريخ البلدان المتحضرة وحسب تعبير مينيه بالذات ، فان

المصالح الاكثر عددا والاشد بأسا تملي القوانين وتبلغ هدفها

---

* عشر سنوات من الدراسات التاريخية ، ص ٣٤٨

** في المقالة « مشهد ثورات انكلترا » ، عشر سنوات من الدراسات التاريخية ، ص ١٠ .

*** المصدر نفسه [ ص ٥٢ ]

**** المصدر نفسه ، ص : ٥٢ - ٥٣

( dictent la loi et **arrivent à** leur but* )

ولذا يستطيع المرء بسهولة ان يفهم التأثير **الذي** مارسته في رأيه المصالح في تطور المجتمع وهو يقول

تقرر المصالح السائدة الحركة الاجتماعية وتحقق هذه الحركة اهدافها رغما عن عوائق متنوعة ، وانها لتتوقف عند تحقيق هذه الاهداف وتفسح المكان لحركة اخرى تكون غير ملموسة في البداية ولا تكشف الا حين تصير سائدة كذلك كان تطور الاقطاعيـة ، التي كانت موجودة في الحاجات الانسانية قبل أن تصبح حقيقة – وهي المرحلة الاولى ؛ وفي المرحلة الثانية كانت موجودة في حقيقة الامر ، فيما كفت عن مقابلة الحاجات ، وهذا الظرف الاخير هو الذي وضع حداً لوجودها الفعلي وحتى الآن لـم تنفذ أيـة ثـورة بطريقة مغايرة ** »

وظهور الكومونات الحضرية غير جميع العلاقات الباطنة لمجتمعات ذلك العصر ولقد حققت الكومونات السيادة التامـة في ايطاليـا ، الامر الذي ادى الى قيـام الديموقراطية ، كما اضطرت في فرنسا الى ضم قواها الى السلطة الملكية ، وبذلك وضعت اسس الحكم المطلق واخيرا ، في انكلترا ، حيث ضمت قواها الى الاقطاعيين ضد الملك ، برزت الى الوجود ملكية دستورية***

وهكذا فالعلاقات المتبادلة بين العناصر الاجتماعية القائدة في المجتمع الاوروبي ، يعني الارستقراطية والطبقة الثالثة هي التي حددت تطور اوروبا التاريخي وبقدر ما كان نمو الطبقة الثالثة اعظم كان السقوط النهائي للنظام القديم يقترب أكثر فأكثر وفي فرنسا كانت مرحلة هذا الانحطاط عصرا للثورة في الوقت نفسه ، هذه الثورة التي كان مينيه ينظر اليها دائما بعين العطف الكبير وان تاريخه للثـورة الفرنسية يبين بصورة افضل من جميع كتاباته الاخرى تفهمه للمغزى التاريخي للصراع الطبقي لقد ادرك على خير وجه ان صراع الاحزاب السياسية ابان الثورة لم تكن اكثر من تعبير عن التناقضات بين المصالح الطبقية وهو يقول

« كان للطبقات الارستقراطية مصالح متعارضة مع مصالح الحزب الوطني وهذا هو السبب في أن النبالة والطبقة العالية من الاكليروس ، اللتين كانتا تجلسان عن يمين ، كانتا في معارضة مستمرة لذلك الحزب ، باستثناء أيام عديدة من الحماسة الجامعة****

---

* في الاقطاعية ، وفي المؤسسات القديس لويس ، وفي تأثير تشريع هذا الامير باريس ١٨٢٢ ص ٤٧

** المصدر نفسه ، ص : ٧٧ – ٧٨

*** المصدر نفسه ، ص ٨٣

**** تاريخ الثورة الفرنسية ، باريس ١٨٢٧ ، المجلد الاول ، ص : ١٠٥ .

وكان حزب دوبور وبارنافا ولاميث نوعا من المعارضة ضمن الطبقة المتوسطة* وكان دستور ١٧٩١ من صنع الطبقة المتوسطة التي كانت في ذلك الحين أقوى من الباقين ويضيف مينيه قائلا

« من المعروف لدى الجميع أن قوة حققت السيطرة تفوز دائما بالاشراف على المؤسسات ** »

ولقد نسب الانتفاضات ضد الثورية في كالفادوس وجيفودان وفانديه لموقف هذه المناطق العدائي حيال الثورة ، نظرا لانه لم يكن هناك طبقة متوسطة كثيرة ومثقفة*** كما رأى في الجيرونديين حزبا انتقاليا من الطبقة المتوسطة الى عامة الشعب ( la multitude ) في حين رأى في دانتون وروبسبير وكميل ديمولان وديفلانتين ومارا وغيرهم قادة حقيقيين للحركة الجديدة التي شنت بمعونة الطبقة الاجتماعية الدنيا وكانت موجهة ضد الطبقة المتوسطة التي كان الجيرونديون ينتسبون اليها بحكم مركزهم الاجتماعي وعاداتهم**** ولقد كان العاشر من آب

انتفاضة لعامة الشعب ضد الطبقة المتوسطة والعرش الدستوري ، بالضبط مثلما كان الرابع عشر من تموز(٢٠٩) انتفاضة الطبقة المتوسطة ضد الطبقات صاحبة الامتياز وضد سلطة التاج المطلقة*****

وباختصار ، فان تاريخ الثورة الفرنسية باكمله يخدم مينيه كاثبات لموضوعة يمكن ان تسمى بحق صيغة التقدم المحقق في المجتمعات المتحضرة

التبدلات تنتهك المصالح والمصالح تخلق الاحزاب والاحزاب تدخل في صراع ****** »

وكان لدى اوغستان تييري اسباب صالحة للقول ان مينيه يملك الموهبة الكبيرة الخاصة بتعميم الحقائق والاستنتاج التاريخي

لقد كان مينيه طوال حياته ممثلا واعيا وصريحا وحازما للطبقة المتوسطة التي كانت سيادتها الاجتماعية والسياسية مثلا اعلى له وكان معارضا كليا لعامة الشعب بقدر ما كانوا يمثلون تهديدا لتلك السيادة ويقول كاتب سيرته

---

* المصدر نفسه ، ص : ١١

** المصدر نفسه ، ص : ٢١٠

*** المصدر نفسه ، ص : ٢٢٧

**** المصدر نفسه ، ص : ٢٧٦

***** المصدر نفسه ، ص : ٢٩٠

****** المصدر نفسه ، ص : ٢١٣

ادوار بيتي كانت اضطرابات الكومونة بغيضة في نظره* لكن هذا الصديق لتييرس المهدىء الوحشي لكومونة باريس(٢١٠) ، كان ينظر الى نمط عمل الثوري دون ذلك الخليط من الخوف البائس والخبث الذي يدمغ البورجوازي الكبير والصغير في عصرنا وانه ليشير في مطلع تاريخه للثورة بالذات

« لا يستطيع المرء أن يفوز بالاعتراف بحقوقه الا بالقوة »

ويضيف بعد صفحات قليلة

لا يوجد سيد اعلى الا القوة**

ولا يحب المؤرخون الحاليون مثل هذه الحكم ، وهذا المظهر الخصوصي لذوقهم يفسره غيزو العجوز

فآراؤه عن السبب الاساسي للتطور الاجتماعي لا تختلف بأية طريقة عن آراء اوغستان تييري ومينيه ، حيث يرى هو الاخر ان العلاقات الاجتماعية تقوم في اساس العلاقات السياسية ولقد كتب في كتابه **دراسات عن تاريخ فرنسا** يقول

حاول معظم الكتاب والعلماء والمؤرخون والدعاة ان يعرفوا حالة المجتمع ودرجة حضارته او نوعها من خلال دراسة المؤسسات السياسية ، فيما كان من الاحكم ان يباشروا بدراسة المجتمع نفسه حتى يعرفوا مؤسساته السياسية ويفهموها فالمؤسسات نتيجة قبل ان تصبح سببا والمجتمع ينتجها قبل ان يتغير بسببها ان من واجب المرء بدلا من استقصاء انظمة الحكم واشكاله من اجل ما كانت عليه اوضاع الشعب ان يدرس اولا وقبل كل شيء اوضاع الشعب كي يعرف ما يجب ان تكون عليه حكومته او ما يمكن تكون عليه ان المجتمع وتركيبه واسلوب حياة الافراد وفقا لوضعهم الاجتماعي والعلاقات بين الطبقات المختلفة من الافراد وباختصار حالة الاشخاص ( l'état des personnes ) تلك هي بالتأكيد المسألة الاولى التي تجذب انتباه المؤرخ الذي يريد ان يشهد حياة الشعوب والعالم الذي يريد يعرف كيف كانت تحكم***

وفي رأي غيزو ان « حالة جميع الشعوب التي ظهرت على المسرح التاريخي الاوروبي بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية كانت وثيقة الارتباط ، سببيا بعلاقات الملكية التي يجب بالتالي ان تسبق دراستها دراسة حالة هذه الشعوب

---

* **فرنسوا مينيه** بقلم ادوار بيتي ، باريس ١٨٨٩ ، ص ٢٨٦

** **تاريخ الثورة الفرنسية** ، المجلد الاول ، ص ٣ ١٣ أن هذه التعابير تذكرنا بأحد أقوال ماركس الشهيرة القوة هي مولدة كل مجتمع قديم حامل بمجتمع جديد

*** **دراسات عن تاريخ فرنسا** الطبعة العاشرة صدرت الطبعة الاولى عام ١٨٢١ ) ، ص ٧٣ – ٧٤ .

ان من واجب المرء ، كي يفهم المؤسسات السياسية ، ان يعرف الشروط الاجتماعية المتنوعة والعلاقات القائمة ما بينها وان من واجب المرء ، كي يفهم الشروط الاجتماعية المتنوعة ، ان يعرف طبيعة علاقات الملكية*

ولقد نظر غيزو من وجهة النظر هذه الى تاريخ فرنسا خلال حكم السلالتين الاوليين وهو تاريخ رأى فيه تاريخا للصراع بين (( **الشرائح** )) **المختلفة** للسكان في تلك الازمان

ولقد وصف تاريخ الثورة الانكليزية من حيث هو صراع بين البورجوازية والارستقراطية أما الراي القائل ان الثورة الانكليزية كانت سياسية اكثر منها اجتماعية فيما سعت الثورة الفرنسية الى تغيير الحصيلة الكاملة للمجتمع والحكومة ، فقد سماه رأيا ساذجا وسطحيا في الوقت نفسه** وحقيقة الامر انه كان لكلتا الثورتين اصل مشترك وغرض مشترك فقد بدأت الحركة الثورية في انكلترا تحت تأثير التغيرات في العلاقات الاجتماعية وعادات الشعب ففيما فقدت القشرة العليا من الاستقراطية كل نفوذ على الشعب واصبحت فاسدة اغتنى اكثر فأكثر الناس العاديون ، اصحاب الاعمال الحرة والبورجوازيون ، الذين كانوا منصرفين حصرا الى زيادة اراضيهم ورساميهم وكسبوا المزيد من النفوذ على الشعب وبصورة تدريجية ، دون أدنى ضوضاء ، وبصورة غير شعورية على وجه التقريب ، ركزوا بين ايديهم قرابة جميع القوى الاجتماعية ـ « المصادر الحقيقية للسلطة*** وبقدر ما تحقق هذا التبدل الاساسي في العلاقات الاجتماعية جعلت الطبقة المتوسطة ( les communes ) تفتاظ من الطغيان

« مع نمو الثروة بات المزيد من الامان حاجة ان الحقوق التي مارسها الامير طويلا ، دون ان يصادف احتجاجا او عوائق اصبحت الان فيما يبدو اشكالا من سوء الاستعمال**** »

تلك كانت اسباب الصراع الثوري الذي تعرض للكثير من الصعود والهبوط ، لكنه انتهى الى انتصار تام للطبقة المتوسطة

ولقد تمكن غيزو من ترسم تأثير التركيب الاجتماعي » لا في البنية الاجتماعية فحسب بل في **الاتجاهات الفكرية** في هذه البنية ايضا ، وافكاره عن تاريخ الادب الفرنسي الذي تتبعه حتى ايام الامبراطورية الاولى تستحق دراسة مفصلة ؛ بيد ان ضيق المكان يقصرنا هنا على الاشارة فقط الى افكاره عن المسرح الذي يرى انه

---

* المصدر نفسه ، ص ٧٥ ـ ٧٦

** **تاريخ الثورة الانكليزية** ، باريس ١٨٤١ المقدمة ص ٢١ تاريخ المقدمة نيسان ١٨٢٦

*** تاريخ **الثورة الانكليزية** ، باريس ١٨٤١ ص ٩ ـ

**** المصدر نفسه ، ص ١١ ـ ١٢ انظر ايضا **مقال في تاريخ الثورة الانكليزية** .

انعكاس لتطور العلاقات الاجتماعية ففي اليونان القديمة ، حيث كانت الشـؤون الاجتماعية تدار من قبل الشعب بأسره كان المسرح تسلية عامة تعكس عادات واذواق جميع المواطنين الاحرار وعلى العكس من ذلك أصبح المسرح في المجتمعات الحديثة التي هي خليط معقد من طبقات مختلفة منخرطة في العمل واسيرة ابدا لصراع متواصل فيما بينها على السيادة شكلا من التسلية للطبقات العليا ، الامر الذي اثر في العديد من فضائلـه ان الطبقات العليا تسعى عادة ، بعـد توطيد مواقعها الى الانفصال عن بقية المجتمع ، وبذلك تفقد العادات الطبيعية والبسيطة اللاصقة بالشعب وتصبح مشربة بالمظاهر المصطنعة وهذا هو السبب في ان مجال الابداع الفني يضيق ويفتقر اكثر فاكثر ويتحدث غيزو كمثال على ذلك عن مصير المسرح الانكليزي في اعقاب عودة الملكيـة عام ١٦٦٠ حيث جعل الارستقراطيون الانكليز في ازدرائهم للشعب ، يتجاهلون حتى شكسبير الذي سموه ريفيا فظا ولقد كانت المأساة الفرنسية كذلك نتاجا للطبقات العليا وهو السبب في انتهاء ايامهـا مـع سقوط النظام القديم ان الثـورة مهـدت الطريق امام نظـام جديد للمسرح*

ومن الطبيعي انه لا حاجة بنا هنـا الى الموافقـة بالضرورة على الموضوعات الفردية ، لكنه لا بد من الاقرار بأن دراسته للروابط السببية بين الظواهر اتبعت الخطوط الصحيحة وان اقدر النقاد والمؤرخين للادب الفرنسي سوف يسيرون في هذا المنحى بالذات ، معبدين بذلك الطريق على افضل وجه من اجل تفسير مادي للتاريخ الفكري للانسانية المتحضرة

وأماطت نشاطات غيزو السياسية اللثام بصورة اشد تعبيرا من ذلك عن وجهة نظره الطبقيـة وانه ليقول هو نفسه ، في مذكراته ، ان توطيد سيادة الطبقات المتوسطة ( des classes moyennes ) كان هدفه السياسي الثابت** ولـم يكتف بالدفاع بحماسة وبشجاعة عن مصالحها ، بل اراد حسب تعبيره بالذات ان يعظم قضيتها اكثر من ذلك بالرجوع بها الى الماضي والكشف عن مصالحها وتقلباتها في مجمل سياق التاريخ الفرنسي*** ولقد تحققت هذه النية بصورة رائعـة في كراساته السياسية التي اهمهـا كراسـة بعنوان في حكومـة فرنسا ( منذ عودة الملكية ) وفي الوزارة الحالية ، صدرت في ايلول ١٨٢٠ ويظهر غيزو فيها من حيث هو مدافع حازم عن الثورة الفرنسية التي يسميها حربا بالضبط مثل الحروب بـين الامـم

---

* انظر ايضا كتابه بالغ الاهمية دراسة عن شكسبير ، في المجلد الاول من الترجمة الفرنسية لاعمال شكسبير باريس ١٨٢١

** مذكرات ، باريس ١٨٥٨ ، المجلد الاول ، ص ٨

*** المصدر نفسـه ، ص ٢٩٦ — ٢٩٧

ضمت فرنسا لاكثر من ثلاثة عشر قرنا شعبين الغزاة والمغلوبين ولقد ناضل الشعب المغلوب لاكثر من ثلاثة عشر قرنا من اجل الاطاحة بنير غزاته وتاريخنا هو تاريخ هذا الصراع وفي زماننا جرت معركة حاسمة وهذه المعركة تسمى ثورة*

ولم تكن نتيجة الثورة موضع الشك ابدا ان شعبا قديما مغلوبا اصبح شعبا من الغزاة ، واخضع فرنسا بدوره وفي رأي غيزو ان الميثاق الشهير انما أقر هذه **الحقيقة** ونادى بها حقا وكانت الحكومة التمثيلية ضمانة لهذا الحق**
ولعل المناقشات في مجلس النواب بدت غريبة وصعبة على الفهم في نظر ذلك الذي يرى اليها من وجهة نظر النظرية وحدها ، دون ان يكون قادرا على ربطها بالظروف التي ولدتها وحقيقة الامر ان تلك المناقشات كانت تجري بين المساواة والامتيازات بين الطبقة المتوسطة والارستقراطية القديمة*** ان النظام القديم وفرنسا الجديدة منخرطان في صراع موت او حياة ، ومصالحتهما فكرة خيالية خالصة****

واننا لنعرف من قبل ان غيزو فهم الرابطة السببية بين العلاقات الاجتماعية من جهة واحدة والاتجاهات الفكرية من جهة ثانية ، كما وفرت المساجلات السياسية له فرصة اضافية كي يعبر عن رأيه في هذا الشأن ، فهو يعلن

ان الافكار والعقائد والدساتير نفسها خاضعة للظروف ولا تتخذها الشعوب الا حين تخدم كأداة وضمانة لمصالحها الملحة كما هو مفهوم عموما*****

وفي رأيه ان تاريخ الدستور الانكليزي يبين بصورة جيدة حتى اية درجة تسيطر الظروف على النظريات المزعومة للنظام التمثيلي****** » فنحن نرى اليوم بناء الدستور البريطاني وننسى كيف بني « اننا ميالون لان ننسب الى الحكمة البشرية هذه الخطوة التقدمية التيلم تكن ثمرة الا للضرورة*******» .
وكان منظرو الثورة مخطئين (( **او كانوا يكذبون** )) [ التشديد من قبلي ] حين اعلنوا سيادة الشعب وحقيقة الامر ان القضية لم تكن قضية سيادة الشعب بل انتصار قسم من الشعب على القسم الاخر ونظرا لان التفوق العددي كان في مصلحة الطبقة الثالثة قامت سيادة الشعب من حيث هي عقيدة لقد كانت هذه

---

* **في حكومة فرنسا** ، ص ١ ـ ٢

** المصدر نفسه ، ص : ٥

*** المصدر نفسه ، ص ٢٢

**** المصدر نفسه ، ص ١٠٨

***** المصدر نفسه ، ص : ٩١

****** المصدر نفسه ، ص ١٥٧

******* المصدر نفسه ، ص ٢٠٠

العقيده ...بة في ذلك العصر لان القوة تحتاج الى عقيدة من اجل الايمان ، ومن حمل الاخرين على التفكير بان اصحاب هذه القوة هم على حق*

ويفهم انصار الثورة المضادة على خير وجه دائما ان عليهم اولا ، في سبيل تحقيق غرضهم ان يستولوا على السلطة وان يستخدموها بصورة تتفق مع مصالحهم وان على الطبقة المتوسطة ان تدرك من جانبها ان عليها ان تفوز بالسلطة لا ان تدمرها**

وتقام الحكومة التمثيلية في سبيل مركزة هذه الحاجات والطموحات الاجتماعية والتعبير عنها ، ومن بعد وضع السلطة بين أيدي اولئك الذين سوف يكون في مقدورهم ان يفهموا هذه الحاجات والطموحات ويلبوها*** وانه لمن المفروغ منه ان ممثلي طبقة المتوسطة وحدهم يملكون في رأي غيزو ، هذه القدرة بحيث يجب ان تكون السلطة ، وفقا لنظريته من نصيب هذه الطبقة وليس من نصيب السكان الخارجيين كما يسمي غيزو الجماهير العاملة الذين ينبغي الاعتراف بحقوقهم والدفع عنها لكن الذين يمكن ان يتسببوا في سقوطهم الخاص وسقوط الدولة اذا اتيح لهم استلام السلطة****

وحين كتب ماركس وانجلز في البيان ان السلطة التنفيذية في الدولة الحديثة ليست سوى لجنة مهمتها تدبير الشؤون العامة للبورجوازية باكملها(٢١٢) كانا يعبران عن النظرة ذاتها فيما يعلق بالحكومة التمثيلية التي تقيمها البورجوازية سوى انهما كانا يقدر ن لان ذلك النظام للحكم ليس من وجهة نظر « الطبقة المتوسطة » بل من وجهة نظر السكان الخارجيين الذين ما كان في مقدور غيزو ان يفكر في سيادتهم دون شعور بالخوف

ومهما يكن من شيء ، فمما لا ريب فيه ان غيزو كان يدرك على خير وجه الطابع الطبقي للاتجاهات الاجتماعية ــ السياسية التي كان يمثلها ويدافع عنها وحين جعل مؤيدو النظام القديم يتهمونه باهاجة الاهواء الشريرة بدعايته للصراع الطبقي اجاب بأن كل ما يريده هو تلخيص تاريخ فرنسا فقد كان هـذا التاريخ غاصا بالصراع بين الطبقات او كان من صنعه بالاحرى وعرف هذا وقيل قبل الثورة بقرون عديدة وعرف وقيل في ١٧٨٩ ، وعرف وقيل قبل ثلاثة اشهر*****

وبالرغم من اتهامي حاليا بأني صرحت بذلك ، فلا احسب ان احدا نسيه . فالحقائق

---

* المصدر نفسه ص ١٣٨

** المصدر نفسه ص ٢٣٧

المصدر نفسه ، ص ٢٨٣

*** المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ ، الهامش

***** كتب عام ١٨٢٠ .

لا تتلاشى وفق هوى الوزراء والاحزاب او حاجاتهم العابرة ما عسى ان يقول اولئك البورجوازيون الشجعان الذين ارسلوا الى المجالس العامة كي يفوزوا بحقوق مرتبتهم او يدافعوا عنها اذا هم بعثوا الى الحياة ليعلموا فقط ان النبالة لم تشن الحرب قط ضد الطبقة الثالثة ، ولم تخش قط نهوض هذه الطبقة الاخيرة او تغتظ لنموها ولم تكن قط مناهضة لتقدمها في المجتمع والسلطة ؟... أيها الاحفاد العقيمون لقوم سيطروا على بلد كبير وارتجف الملوك العظام امامهم لقد انكرتم اسلافكم وتاريخكم انتم تستشعرون سقوطكم ، فتحتجون ضد عظمتكم الماضية !»
وحين كان غيزو يشير الى الصراع الطبقي ما كان يبغي ان يقول شيئا جديدا فلم يكن الصراع الطبقي نظرية او فرضية بل حقيقة بكل بساطتها وانه ليهتف اكرر انه لا ينعكس اي شرف على اولئك الين راوا ذلك لكنه من قبيل العبث على وجه التقريب انكاره وكان غيزو يستشعر بعض العار لانه ملزم هو البورجوازي ان يلقن النبلاء تاريخ فرنسا وان يثبت لهم انهم باتوا متواضعين جدا في ذكرياتهم وردا على التهمة بأنه يهيج الاهواء ويزرع الشقاق بين المواطنين يهتف « ماذا ؟ أتأمروننا بأن ننسى تاريخنا لان نتائجه لم تكن في مصلحتكم
هذه المقتطفات* كافية لوصف مزاج غيزو النضالي في ذلك الزمن وكيما نستكمل اللوحة نأتي على ذكر تصديره لكتابه **في حكومة فرنسا** الذي استشهدنا به سابقا وهو تصدير مأخوذ من **افكار** باسكال وهذا نصه **« انه لامر بهيج أن تكون على متن مركب تتقاذفه العاصفة حين تكون واثقا من ان المنية لن تطالك »** .
ان وعي البورجوازية الطبقي يجد له في هذه الاشياء جميعا تعبيرا قويا جدا بحيث لا حاجة بنا الى الاستشهاد بمقتطفات اخرى وهذا هو السبب في اننا لن نتحدث هنا عن كتاب ارمان كاريل **تاريخ الثورة المضادة في انكلترا** ( باريس ١٨٢٧ ) ولا عن كتابات الكسيس توكفيل التي يعود تاريخها الى وقت لاحق اننا نعتبر انها حقيقة مقررة بحزم ان سان سيمون والكثيرين من الممثلين المثقفين للبورجوازية الفرنسية راوا ، منذ ايام عودة الملكية ، في الصراع الطبقي مصدر التطور التاريخي للشعوب الحديثة
ولقد وجدنا انه من المفيد تقرير هذه الحقيقة نظرا لانها ظلت فيما يبدو عصية على فهم عدد كبير من نقاد **بيان الحزب الشيوعي** . ومثال ذلك ان اميل فاندرفيلد يؤكد بصورة قاطعة ان مفهوم الصراع الطبقي حجر الاساس في الاشتراكية الديموقراطية وهو يميزها من جميع الاقسام الاخرى السابقة والحاضرة من الاشتراكية البورجوازية والطوباوية ، وان هذا المفهوم شرح للمرة الاولى مع

* مأخوذة عن **مقدمة** الطبعة الثالثة لكتيب **في حكومة فرنسا** .

كل نتائجه في **بيان الحـزب الشيوعي*** » ولا بد لنا ان نقول انه كان من واجب رجل حرر كتيبا في ذكرى **البيان** ان يعير موضوعه مزيدا من الاهتمام

وبالطريقة نفسها فان الهر فرنر سومبارت الذي انتقد راي **البيـــان** بشأن الاهمية التاريخية العظيمة للصراع الطبقي لم يقل كلمة واحدة عن جدة هذا الراي في الادبيات السياسية للاربعينات** انه يعلق اهميـة عظيمة على تاريـخ المعتقدات ( Dogmengeschichte ) في الاشتراكية الحالية ولقد كان يتوقع منه ايضا ان يكون اوثق إلماما بذلك التاريخ وان بنديتو كروتشه ، في مقالة بعنـوان دراسة لتفسير ونقد بعض مفاهيم الماركسية نشرت في عدد شباط ١٨٩٨ من مجلة **التطور الاجتماعي** ، يقوم « بنقد بالغ الحماسة لنظرية ماركس وانجلز عـن الصراع الطبقي بيد ان هذا الناقد المتحمس بعيد جدا هو الاخر ، من دون ريب ، عن فكرة ان الصراع الطبقي تحدث عنها من قبل منظرو البورجوازية

واننا لنذكر كذلك توماس كيركوب الذي لم يتساءل وهو ينتقد نظرية ماركس من مختلف الزوايا ، مع احالات مفصلة جدا الى **البيان** ، ما اذا كانت فكرة الصراع الطبقي تخص ماركس وحده على وجه الحصر***

لقد اخطأ نقاد الماركسية المسار ، بصورة دائمة على وجه التقريب ، من جراء اخفاقهم في ملاحظة الاخطاء الفعلية التي ارتكبهـا ماركس وانجلز فيما كانـوا ينسبون اليهما اخطاء لم يرتكباها قط

بيد ان ثمة انواعا مختلفـة من الاخطاء فمن المستحسن بالطبع ان يعرف مؤسسو نظرية معينة جميع السابقين لهم والا يخطئوا في الحكم عليهم وعلى اي

---

* **العرس الذهبي للاشتراكية الامية** ( مترجم عن الفرنسية ) ، لندن ١٨٩٩ ، ص ٥ وقد اصدرت الترجمة الروسية للكتيب مؤسسة الصحافة الروسية مع مقدمة قصيرة بقلم الناشرين جوبه فيها تطور الفكر الاشتراكي السليم في اوروبا بمعتقدات الاشتراكية الالمانيـة » ان الانصار المحترمين للفكر الاشتراكي السليم » اخفقوا في تمييز أي من اخطاء فاندرفيلد المذكورة اعلاه أو سواها بل اضافوا اليها من مخزونهم الخاص من الاخطاء وهكذا فهم يسمون فاندرفيلد « ماركسيا وفي الوقت نفسه احد الممثلين الاكثر علما وموهبة للاشتراكية البرلمانية » ان الصفة الاخيرة صحيحة ! فالحقيقة فاندرفيلد احد اكثر ممثلي الاشتراكية البرلمانية او اي صنف آخر ) علما وموهبة في بلجيكا لكنه لم يكن ماركسيا قط وهو ما يستطيع ناشروه ان يتبينوه بكل سهولة بالاطلاع على كتاباتـه الاخـرى

** انظـر **Sozialismus und soziale Bewegung im lg, Jahrhundert** – ٢

*** انظر **تاريخ للاشتراكيـة** ، بقلم توماس كيركوب لنـدن ١٩٠٠ ، الفصـول السابع والثامـن والتاسـع .

حال فن احدا لن يعترض على الاخطاء التي ربما ارتكبها داروين في حديثه عن المكان الذي تسفله نظريته الخاصة في تاريخ المذاهب التطورية ومهما يكن من شيء ، فاذا تصدى امرؤ ما **للنقد** الداروني وعلى الاخص اذا كان راغبا في كتابة **تاريخ للتحولية ، فلا بد له بالضرورة** ان يعرف رواد داروين ويكون من المستغرب ان يقتصر ، في معالجته لهؤلاء الرواد ، على تكرار ما قاله داروين عنهم فقط

ويمكن ان يقال الشيء نفسه عن نقاد ماركس وعن مؤرخي الاشتراكية فالمرء لا يستطيع ان يغفر لهم اخطاءهم في « تاريخ المعتقدات ، هذه الاخطاء التي كانت مفهومة ومغفورة تماما عند ماركس وانجلز

لكن لندع **النقاد** لبرهة من الزمن ، ولنعد الى **الرواد** .

لقد تعرضت البورجوازية الفرنسية لعواصف عديدة خلال عصر عودة الملكية ومهما يكن من شيء فقد اعتقدت ، سعيدة بانتصاراتها الرنانة الحديثة على الارستقراطية انه لا توجد قوة يمكن ان تضع حدا لسيطرتها وكانت تتطلع الى المستقبل بثقة ، واجدة انه امر بهيج ان يكون المرء على متن مركب تتقاذفه العاصفة حين يكون واثقا من ان المنية لن تطاله ولم تكن خائفة في ذلك الحين من الحديث عن الصراع الطبقي ، وقد رفضت ساخرة ان تنسى تاريخ صراعها الطبقي الخاص ارضاء للارستقراطية العاجزة لكن وآسفاه ان الامور جميعا تتحرك ، وليس شيء جامدا في موضعه فلم ينقض عقدان او ثلاثة عقود حتى كانت البورجوازية ملزمة بأن تنظر الى الصراع الطبقي من زاوية اخرى فقد شنت الطبقة العاملة ـ سكان غيزو الخارجون ـ النضال ضد سيطرتها الطبقية الامر الذي غير بصورة جذرية مزاج البورجوازية فتحولت من طبقة **ثورية** الى طبقة **محافظة** . ولقد قدمت لها سنة ١٨٤٨ درسا مخوفا ، وهو درس يمكن ان نرى مبلغ فهمها لمعناه من اندفاع منظريها ابتداء من ذلك الحين الى التبشير « **بالسلام الاجتماعي** » وان غيزو الواعي ابدا بحدة لاوضاع الطبقة المتوسطة » وحاجاتها ، قد اصدر منذ عام ١٨٤٩ كتيبا عنوانه **في الديموقراطية** مجد السلام الاجتماعي على اعتباره يقود الى الحرية والامن والازدهار والكرامة وجميع الحسنات المعنوية والمادية الاخرى وكان غيزو يتذكر بعد ، عام ١٨٤٩ ان الحرب الاجتماعية « **صنعت** » تاريخ فرنسا ، لكنه لا يرى بعد الان هذه الحرب من حيث هي محرك أول للتقدم ، بل من حيث هي نوع من صندوق باندورا تهب منه على بلاده جميع انواع الكوارث وانه ليكرر

« ملا الصراع بين مختلف الطبقات في مجتمعنا تاريخنا ، وكانت ثورة ١٧٨٩ انفجاره الاعم والاقوى النبلاء والطبقة الثالثة ، والارستقراطية والديموقراطية والبورجوازيون والعمال ، والملاكون العقاريون والبروليتاريون ـ هؤلاء جميعا كانوا اشكالا متعددة واطوارا مختلفة من الصراع الطبقي الذي عذبنا طويلا هذه لعنة ، عار لا يستطيع عصرنا قبوله.

السلام الداخلي السلام بين الطبقات المختلفة من المواطنين السلام الاجتماعي هذه هي حاجة فرنسا الاسمى ، نداؤها من اجل الخلاص* » !

كان تفوق الطبقات المتوسطة صفة مميزة للتاريخ الفرنسي منذ عام ١٧٨٩ وحين سجل غيزو ذلك امتدح البورجوازية لكنه شاهد بكل وضوح الخطر الرهيب الذي يهدد حكمها

« والآن دخل الحلبة مقاتل ثالث لقد انشق العنصر الديموقراطي فقامت الطبقات العاملة ضد الطبقات المتوسطة ، ضد البورجوازية ـ الشعب وهذه الحرب الجديدة هي كذلك حرب حتى الموت ، لان المتحدي الجديد هو متحيز كما لم يكن الاخرون قط*

ان البروليتاريا تهدد بالقضاء على سيطرة « الطبقات المتوسطة » ، و « الطبقات المتوسطة تخاف البروليتاريا ولذا يبشر منظروها **بالسلام** ومهما يكن من شيء فالسلام الوطيد لا يمكن عقده الا حين تكف البروليتاريا عن منازعة حق البورجوازية في الوجود وهذا ما كان غيزو يدركه جيدا ، ولذا انصرف الى البرهان على ان جميع الطبقات الموجودة في فرنسا كانت « عناصر طبيعية ومتأصلة في المجتمع الفرنسي** ومضى حتى التاكيد بأن الاعتراف بعدالة هذه الفكرة من جانب جميع الفرقاء المتنازعين سوف يكون خطوة واسعة الى الامام في اتجاه السلام الاجتماعي وبالفعل فحين تعترف البروليتاريا بعدالة هذه الفكرة تعترف « **بطبيعة** » عبوديتها وهو بالضبط ما كان يسعى اليه ايديولوجي البورجوازية المذعور

ولم يكن غيزو لوحده في التبشير بالسلام الاجتماعي او في تغيير موقفه حيال الصراع الطبقي بعد دخول « المقاتل الجديد الى الحلبة لقد رأينا كيف كانت نظرة مينيه الى اضطرابات كومونة باريس فيما انكشف نمط تفكير اوغستان تييري بعد عام ١٨٤٨ في مقدمته لكتابه **دراسة عن تاريخ الطبقة الثالثة** الذي صدر عام ١٨٥٣ لقد كان تاريخ الطبقة الثالثة تاريخ حرب شنتها الطبقة المتوسطة ضد الارستقراطية وكما نعلم ، فقد كان اوغستان تييري احد الاوائل الذين استلفتوا انتباه القراء الى طابع هذه الحرب الطبقي ، هذا الطابع الذي يعني انكاره نزع أي مغزى عن تاريخ الطبقة الثالثة وعلى اي حال فانه لم يكن في وسع تييري ، من جهة اخرى ، انيتحدث عام ١٨٥٣ عن الصراع الطبقي دون تحفظات جدية ، وهي التحفظات التي ابداها فقد اشار الى ان الصراع الطبقي المعالج في كتابه لا يملك ادنى علاقة مشتركة مع صراع البروليتاريا الطبقي ضد البورجوازية فالصراع

* **في الديموقراطية في فرنسا** ، باريس ١٨٤٩ ص ٣٥

** المصدر نفسه ، ص ٠٧

*** المصدر نفسه ، ص ١٠٥

الذي يصفه مفيد في عواقبه ، وقد جرى طوال قرون ، فيما صراع البروليتاريا ضد البورجوازية ولد بالامس فقط ، وهو هدام للامن العام عامة » وكان يرى ان المصلحة الطبقية للبروليتاريا **ضيقة** ، والمصلحة الطبقية للطبقة الثالثة **عريضة** جدا، نظرا لان هذه الطبقة الثالثة تشمل الامة بأسرها باستثناء النبالة والاكليروس

ان هـذا النوع من المحاكمـة مميز حتى درجة عالية بالمعنى السيكولوجي ، بالرغم من أن انصار النضال الثوري ضد البورجوازية ما كانوا ليجدون كما سنرى ، الا صعوبة قليلة في دحض اوغستان تييري بواسطة حججه الخاصة

ولقد كان المؤرخون الفرنسيون لعصر عودة الملكية مقتنعين بعمق بالغ بالاهمية التاريخية للصراع الطبقي بحيث استأنفوا لفتهـم السابقة وهو ما سوف نورد غيزو مرة اخرى كمثال عليـه

فقد أصدر غيزو **مذكراته** عام ١٨٥٨ وكان المجلد الاول منها يعالج الزمن الذي ايد فيه بكل حماسة الشباب الصراع الطبقي للطبقـة المتوسطة ضـد الارستقراطية واعترف غيزو بخصوص كتيبه **في حكومة فرنسا** الذي كان ، كما نعرف من قبل ، دعوة لاهبة الى ذلك الصراع بأنه حصل على الانطباع التالي ، وهو يعيد مطالعته بعد ست وثلاثين سنة من صدوره

« حين انظر الى الامور بصورة شاملة وفي ذاتها من حيث انا مؤرخ وفيلسوف على السواء ، لا اجد فيه شيئا اسحبه فلا أبرح أعتقد بأن الافكار العامة فيه صحيحة ، والحقائق الاجتماعية الكبرى مقدرة جيدا ، والسياسيين مفهومون جيدا وموصوفون بصورة صحيحة لكنني طلبت الشيء الكثير من البشر »

ان منظر البورجوازية المتقدم في السن ، وقد تغلبت نزاهته العلمية على خوفه من المقاتل » الجديد ، لا ينظر بعد الان الى الصراع الطبقي على اعتباره عار فرنسا ومصيبتها ، بل يؤكد ان الحقائق الاجتماعية قدرت بصورة صحيحة في **حكومة فرنسا**، وهذا يعني ان الحرب الاجتماعية ــ صراع الطبقات ــ **صنعت التاريخ الفرنسي** . وحين يقدم غيزو مثل هذا البيان بالغ الصراحة ، فانه يكشف عن احترام للحقيقة اعظم مما لدي جميع العلماء الحاليين الذين يتفادون اي ذكر للصراع الطبقي بمثل الحماسة التي ينبغي للمسيحيين وفقـا لنصيحـة الرسول بولس ، ان يتجنبوا بهـا اي حديث عن الشرور التي تحظرها الوصية السابعة

وهكذا كان زمن كانت البورجوازية تملك فيه فهما ممتازا عن الدور التاريخي للصراع الطبقي واذا هي لا تفهمه اليوم ، او تدعي عدم فهمه واذا هي تبشر بالسلام الاجتماعي حاليا فهـذا ما يفسره جيدا التاريخ اللاحق للمجتمـع البورجوازي وخوفـه من المقاتل الجديد ونظـرا لان منظري البورجوازية الحاليين يتحدثون بكل طيبـة خاطر عن موضوع السلام الاجتماعي ويوبخون الاشتراكيين الديموقراطيين لتبشيرهم بالنضال الطبقي فان في مكنـة هؤلاء ان

يردوا جيدا على غرار رد غيزو مرة على منظري الارستقراطية : «ايها الاحفاد العقيمون لقوم سيطروا على بلد كبير وارتجف الملوك العظام امامهم لقد انكرتم اسلافكم وتاريخكم ! » وان لنا ملء الحق ، مثلنا كمثل غيزو ، في التعبير عن دهشتنا الساخرة لان اعداءنا اصبحوا متواضعين جدا في ذكرياتهم وفي أن نسألهم ماذا ؟ أتأمروننا بأن ننسى تاريخنا لان نتائجه لم تكن في مصلحتكم

وكيف ينبغي للمرء ان يفهم اولئك الاشتراكيين الذين يحطون من اهمية الصراع الطبقي متسترين بنقد الماركسية ، ويعلنون على غرار سعادته الوزير ميليران انه لا يجوز نهوض العمال ضد البورجوازية ؟ لنترك ذلك لحكم القارىء نفسه !

لا تستطيع الاشتراكية ان تنهض اليوم على اساس آخر غير الصراع الطبقي بيد ان الامر لم يكن على هذا الفرار دائما فحين كانت في طفولتها بعد كان انصارها مستعدين ايضا للشكوى من الصراع الطبقي على اعتباره عار الانسانية ومصيبتها ، وهو موقف يبدو انه يتناقض مع آراء سان سيمون آنفة الذكر وعلى اي حال فمن الواجب الا ينسى ان سان سيمون تحدث باستمرار عن نضال **الصناعيين ضد السادة الاقطاعيين** وليس عن نضال **البروليتاريا** ضد **البورجوازية** فلم تكن البروليتاريا موجودة بالنسبة الى سان سيمون من حيث هي طبقة قادرة على لعب دور مستقل في التاريخ ولقد اخبر غير المالكين » في كتابه **رسائل من جنيف** انهم لم يتمكنوا ، حين استولوا على السلطة ابان الثورة ، من ان يخلقوا اي شيء باستثناء **المجاعة** ، كما حاول في كتابه **في النظام الصناعي** ان يحث البورجوازية على قبول آرائه باخافتها بالطبقة العاملة التي يمكن لافكار المساواة ( « المساواة التركية » على حد تعبيره ) ان تتخذ في وسطها ، كما يقول ، اهمية واسعة سوف تكون ضارة بالحضارة* وكان يرى في **المتعهدين** البورجوازيين القادة الطبيعيين للعمال

ويقول مؤلفا **البيان** بحق تام ان مؤسسي الانظمة الطوباوية شاهدوا التناحرات الطبقية وكذلك فعل العناصر المحللة في الشكل السائد للمجتمع لكن البروليتاريا، التي كانت في طفولتها بعد تمثل لهم مشهد طبقة لا تملك اية مبادرة تاريخية او اية حركة سياسية مستقلة (٢١٢) » ولم يتوجه الاشتراكيون الطوباويون ، المخلصون لهذه النظرة الى البروليتاريا بل الى المجتمع المعاصر بأسره وهكذا اعلن جاكوب- اميل بيرير بصورة قاطعة ، باسم السان سيمونيين في محاضراته عن الصناعة الملقاة في مجمع باريس عام ١٨٣١ ، انهم يريدون من حيث هم رجال تقدم ، ان ينقذوا الجنس البشري بأسره من دون امة او طبقة خصوصية**

وكذلك كان انصار فوريه يرون ان احدى الفضائل الرئيسية لعقيدة معلمهم هي

---

* **في النظام الصناعي** ، باريس ١٨٢١ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٧

** **دروس عن الصناعة** ، باريس ١٨٣٢ ، ص ٣٩

عدم كونهـا تعبيرا عن صراع مصالـح متعارضـة في المجتمع* واخيرا فاننا سوف نستشهد بلويس بلان الذي كتب في كانون الثاني ١٨٤٥ في مقدمته لكتابه الشهير **تنظيم العمل** هذا الكتاب موجه اليكم ، انتم اليها الاثرياء ، لانه يتعلق بالفقراء ذلك أن قضيتهم قضيتكم**

لقد كانت هذه الآراء للاشتراكيين الطوباويين ، على الصعيدين النظري والعملي معا ، خطوة كبيرة الى الخلف بالمقارنة مع الآراء آنفة الذكر لايديولوجيي البورجوازية الثورية ، وكان سببها الاوضاع غير المتطورة للراسمالية في ذلك العصر ولم تقصر تلك الآراء طبعا في ممارسة تأثير ضار في الوعي الطبقي للعمال الذين لم توقف تطورهم على أي حال ، وما كان يمكن ان توقفه ان نمو الراسمالية ادى الى نمو عددي في البروليتاريا وفي الوقت نفسه الى يقظتها الفكرية فمنذ تشرين الاول ١٨٣٦ تحدثت رابطة الشغيلة التي كانت موجودة في لندن ، في عبارات غامضة في ميثاقها، عن حاجة الطبقة العاملة الى الانفصال عن احزاب الطبقات السائدة*** ومن جهة أخرى ، في فرنسا ، كان معظم أعضاء الجمعيات الثورية السرية يجندون من بين الطبقة العاملة ويمكن الاطلاع على نوعية الافكار التي كانت منتشرة بين اعضاء مثل هذه الجمعيات من المقتطف التالي من حوار جرى اثناء تعبئة اعضاء جدد في جمعية الفصول (٢١٤) وهي جمعية شيوعية

« **سؤال** مم تتألف الارستقراطية حاليا ؟

---

* فكتور كونسيدران ، **المصير الاجتماعي** ، الطبعة الثالثة ، المجلد الثاني، ص : ٨ ومابليها

** بعد هذا احكموا على سعة العلم وعمقه عند الاستاذ كاريف الذي يشير في مقالته عن **تطور النظرة الاحادية عن التاريخ** ان المؤلف يرتكب خطيئـة لا تغتفر حين يغض النظـر عن المؤرخ الاشتراكي لويس بلان الذي ظهر قبل ماركس بوقت طويل والذي نرى في آرائه من جهة واحدة مزيدا من تطور آراء اوغستان تييري وغيزو عن الصراع الطبقي في التاريخ ، ومن جهـة ثانية مزيدا من تطوير افكار سان سيمون ( **دراسات قديمة وحديثة في المادية الاقتصادية** ، سان بطرسبورغ ١٨٩٦ ص

لقد بشر اوغستان تييري وغيزو في عصرهما بصراع البورجوازية الطبقي ضد النبلاء وانهمـا ليعتقدان كل التاريخ الفرنسي يبين الطبقة الثالثة لا تستطيع ان تفوز بأية تنازلات طوعيـة من الارستقراطية ولقد اصر لويس بلان على ان قضية الاثرياء هي قضية الفقراء ايضا موجهـا مشروعه عن تنظيـم العمـل الى البورجوازية وليس الـى البروليتاريا ويسمي السيـد كاريف ذلك مزيدا من تطوير آراء تييري وغيزو بخصوص الصراع **الطبقي في التاريخ** ان هذا انما يشهد على نجاجة آرائه الخاصة عن الصراع الطبقي وعن تاريخ الاشتراكية

*** Die Entstehung und die oekonomischen Grundsätze des Chartismus

بقلم الدكتور جون ل تيلدسلي ايينا ١٨٩٨ ص ٢ ـ ٤

« **جواب** لقد دمرت الارستقراطية الوراثية في تموز ١٨٣٠ وتتشكل الارستقراطية حاليا من الاثرياء الذين يشكلون ارستقراطية لا تقل جشعا عن الارستقراطية السابقة

« **سؤال** اتكون الاطاحة بالملكية كافية ؟

« **جواب** لا بد من دمار الارستقراطية من اي نوع كانت ، وكذلك اي نوع من الامتيازات والا لم يخرج شيء من ذلك كله

« **سؤال** اولئك الذين يتمتعون بالحقوق دون القيام بأية الزامات ، مثل الارستقراطيين في هذه الايام ، ايشكلون قسما من الشعب ؟

« **جواب** لا يجوز ان يشكلوا اي قسم منه فهم بالنسبة الى الجسم الاجتماعي مثل السرطان بالنسبة الى الجسم البشري ان الشرط الاول من اجل استعادة صحة البدن هو استئصال السرطان وان الشرط الاول لعودة الجسم الاجتماعي الى اوضاع قائمة على اساس العدالة هو القضاء على الارستقراطية الـخ*

ومن وجهة نظرنا الحالية ، كان البرنامج العملي للمتآمرين الشيوعيين في ذلك الحين اقل كفاية من آرائهم النظرية وعلى اي حال ، فان قناعتهم الوطيدة بأن تحرر الطبقة العاملة ( «الشعب» لا يمكن تصوره دون النضال ضد الطبقات العليا ( « الارستقراطية » ) قد ميزتهم بالمعنى الايجابي من الاشتراكيين الطوباويين ولا يمكن بالطبع في حال من الاحوال ان نسمي نضالا تخوضه حفنة من المتآمرين سعيا وراء مصالح الشعب نضالا طبقيا ، لكنه حين يؤخذ الاحتياطي الرئيسي لمثل هؤلاء المتآمرين من بين العمال الصناعيين ، فان التآمر يصبح جنينا لنضال الطبقة العاملة الثوري ان الرأي الذي كانت تراه جمعية الفصول بخصوص «الارستقراطية» يدل على الرابطة الارثية الوثيقة بين افكار الثوريين الشيوعيين الفرنسيين في ذلك العصر وافكار الثوريين البورجوازيين في القرن الثامن عشر والمعارضة الليبرالية في مرحلة عودة الملكية

ولقد رأينا من قبل ان مصلحة البروليتاريا الطبقية كانت تبدو ضيقة في نظر اوغستان تييري ، فيما مصلحة الطبقة الثالثة عريضة ، نظرا لان هذه الطبقة تشمل الامة بأسرها باستثناء الارستقراطية ولقد انطلق الثوريون الفرنسيون مثلهم كمثل اوغستان تييري من وعي الحاجة الى محاربة الارستقراطية في مصلحة بقية المجتمع . بيد انهم اشاروا ايضا ، وبصواب تام ، الى ان الارستقراطية الوراثية فسحت المكان للارستقراطية صاحبة المال ، وهو السبب في ان النضال في سبيل المصالح الاجتماعية العريضة يجب ان يشن الان لا ضد النبالة بل ضد

* دي لاهود ، تاريخ الجمعيات السرية والحزب الجمهوري ، باريس ١٨٥٦ ، ص ٢٢٤ .

البورجوازية  وكان من الواضح ان المنطق في صفهم كما كان لهم الحق في اتهام خصومهم البورجوازيين بالتهافت

ومع اتضاح التناقض بين مصالح المستثمرين والمستثمرين ونموه اشتد اكثر فأكثر وعي الحاجة الى النضال بين البروليتاريا والبورجوازية  ومهما يكن من شيء  فقد كان في هذا الوعي بعد عناصر طوباوية متعددة  كان مفهوم الصراع الطبقي في الادبيات الشيوعية والاشتراكية في الاربعينات بعيدا عن تحقيق تلك الدرجة من الوضوح المشاهدة عند غيزو على سبيل المثال  وفي هذا المجال ، فان البيان وحده تجاوز الايديولوجية البورجوازية

ان راي ماركس وانجلز في الصراع الطبقي واهمية السياسة في هذا الصراع وتبعية الدولة للطبقات الحاكمة يماثل آراء غيزو ورهطه من المفكرين عن هذا الموضوع  والفارق الوحيد هو ان ماركس وانجلز دافعا عن مصالح البروليتاريا ، بينما دافع الاخرون عن مصالح البورجوازية(١٢٥)  وثمة فقرات في البيان تنطق بلغة كراسات غيزو ، او اذا شئتم فان بعض كراسات غيزو مصاغة  جزئيا ، بلغة البيان*  ومهما يكن من شيء ، فان مفهوم الصراع الطبقي عند مؤلفي البيان جزء من نظرية تاريخية متماسكة ، بينما النظرية التاريخية لغيزو وتييري ومينيه وايديولوجيي البورجوازية المعاصرين الاخرين تفتقر بعد الى الكمال  ويدل هذا كله بالطبع على التفوق العظيم الذي تتحلى به « الفلسفة الاجتماعية  لماركس وانجلز

ولسوف نعالج هذا التفوق الان  لكنه لا بد لنا  قبل ذلك  ان نخضع للنقد بعض الملاحظات « النقدية » لبعض نقاد الماركسية

وهذا ما يقوله الهر فرنر سومبارت

« حين يبدأ كارل ماركس البيان الشيوعي بهذه الكلمات  ان تاريخ كل المجتمع حتىالوقت الراهن هو تاريخ صراع طبقي »، فانه يعبر عن احدى الحقائق العظمىالتيملأت قرننا  بيد انه لا يعبر عن الحقيقة الكاملة ، لانه من غير صحيح ان تاريخ المجتمع يمكن ارجاعه برمته الى صراع الطبقات وحده  واذا شئنا على العموم ان نختصر التاريخ العالمي في صيغة واحدة فلا بد لنا ان نقول ، فيما احسب ، ان تاريخ المجتمع برمته يدور حول نقيضين اسميهما الاجتماعي والقومي ، مستخدما كلمة القومية بالمعنى الاعرض

---

* سوف اذكر القارىء كمثال على ذلك بالفقرة الواردة اعلاه من كتاب غيزو في الديموقراطية المحرر عام ١٨٤٩  ملأ الصراع بين مختلف الطبقات في مجتمعنا تاريخنا  النبلاء والطبقة الثالثة  والارستقراطية والديموقراطية ، والبورجوازيون والعمال  هؤلاء جميعا كانوا اشكالا متعددة واطوارا مختلفة من الصراع الطبقي  » هذا يكاد يكون بالحرف الواحد ما ورد في بداية الفصل الاول من البيان .

الجنس البشري ، في تطوره ، يتجمع بادىء الامر في مجتمعات تخوض في البداية صراعا متبادلا يعقبه صراع باطن بين اعضائها في سبيل المراكز المتفوقة ... وهكذا نشاهد من جهة واحدة السعي الى الثروة والقوة والاهمية من جانب قسم من المجتمعات الكاملة ومن جهة ثانية السعي الى الاغراض نفسها من جانب الاعضاء الفرادى . ذانك هما ، كما أراهما، النقيضان اللذان ملا التاريخ بأسره* »

لقد اكتشف ماركس قسما من الحقيقة ، لكن ذلك المفكر الناقد الهر سومبارت اكمل من جانبه ما قاله ماركس ، وهؤلاء نحن محظوظون ومغتبطون بامتلاكنا الحقيقة بأكملها خالصة من جميع التطرفات والمبالغات ان هذا بهيج جدا لكن الصراع المتبادل بين أعضاء المجتمع الفرادى في سبيل المراكز المتفوقة لا تشكل بعد صراعا طبقيا وهو ما برهن عليه جيدا مثال متعهدينا المعاصرين المنخرطين في صراع شرس فيما بينهم من اجل كسب الزبائن ، لكن دون الانطواء مطلقا على ادنى فكرة بشأن صراع طبقي مع طبقتهم هذا اولا ؛ ثانيا ما هو المقصود من النضال القومي عند الهر سومبارت ؟ لا شيء سوى الصراع بين الدول المفردة ويعترضنا السؤال أيمكن ان تكون غابت عن نظر مؤلفي البيان الاهمية التاريخية لهذا الصراع ؟ يكون ذلك امرا مستغربا ، وعلى الاخص لان المؤلفين يقولان ، في البيان بالذات ، ان بورجوازية اي بلد خاص تخوض نضالا متصلا ضد البورجوازية في الدول الاخرى ( البيان ، ص ١٣ )(٢١٦) ما القضية اذن ؟ بكل بساطة ان الهر فرنر سومبارت لم يفهم معنى البيان الا بصورة هزيلة

بأي معنى يستخدم ماركس كلمة مجتمع ؟ بذات المعنى الذي يستخدمها به غيزو حين يتحدث عن تبعية البنية السياسية للبنية الاجتماعية** فعند كليهما تخصر كلمة مجتمع ما قد سمياه المجتمع المدني ، على اعتباره متميزا من الدولة . وحين نقول مؤلفا البيان ان بورجوازية اي بلد بالذات تخوض صراعا متصلا ضد بورجوازية البلدان الاخرى فانهما يشيران الى الصراع بين الدول الى صراع أممي – او قومي حسب مصطلح الهر فرنر سومبارت وحين يقولان ان تاريخ كل مجتمع حتى الوقت الراهن هو تاريخ صراع طبقي ، فانهما يقصدان تاريخ المجتمع المدني ، اوبكلام آخر تاريخ الدول الداخلي*** لقد كان ذلك التاريخ،في رأيهما ، تاريخ صراع بين الطبقات ، وبهذا الخصوص يتفق « ناقدهما » معهما في الجوهر وان ما يترتب اذن على ذلك هو ان التعديل الذي يجريه الهر سومبارت نتيجة مغالطة ليس غير

---

* الاشتراكية والصراع الطبقي في القرن التاسع عشر ، ص ١ – ٢

** انظر اعلاه

*** انظر مقدمة في نقد التي تبين جيدا الاهمية التي يعلقها ماركس على كلمة مجتمع ، راجع ايضا العائلة المقدسة ، ص ١٨٦

وفي الاغلب « ينتقد » ماركس وانجلز كما يلي   فاولا يساء فهمهما ويشوهان بطريقة ما   ومن بعد ينقحان حتى درجة ما   هكذا يفعل النقاد الرحماء ، اما النقاد الذين لا يعرفون الرحمة فيتصرفون بمزيد من القسوة   فأولا ينسبون السخافات اليهما   ومن بعد ينتقلان الى الاشارة بكل عمق الى انه حان الاوان لوضع حد للمعتقد   الماركسي

ويجد بنيديتو كروتشه كذلك أن مفهوم الصراع الطبقي بالذات غامض

« أكاد اغرى بالقول ان التاريخ صراع للطبقات   ١ ـ حين تكون الطبقات موجودة ؛ ٢ ـ حين تكون مصالحها متضادة ؛ ٣ ـ حين تكون مدركة لهذا التضاد   بيد ان هذا سوف يقودنا الى القول المضحك بأن التاريخ لا يكون صراعا طبقيا الا حين يكون   صراعا بين الطبقات ! وفي الواقع انه حدث الا يكون للطبقات مصالح متضاربة ، والا تكون في الاغلب مدركة لهذه المصالح ، وهو أمر معروف جيداً لدى الاشتراكيين الذين يجهدون انفسهم من خلال مساع غالبا ما تكون عقيمة ( ومثال ذلك انهم لم يبلغوا حتى هذه المرحلة مع الفلاحين ) لاستثارة هذا الادراك بين البروليتاريين الحاليين*

قد تبدو هذه الملاحظات صالحة جدا للوهلة الاولى ، وبالتالي فهي تستحق الانتباه

لا يجري الصراع الطبقي الا حيث توجد الطبقات والا حين توجد   هذا بالطبع صحيح جدا   وانه ليكون من المستغرب ان نتحدث عن الصراع الطبقي في مجتمع حيث لا وجود لاية طبقات   لكن اي نوع من المجتمع تغيب الطبقات فيه ؟ في النوع البدائي جدا فقط ، حيث يوجد نوع من التوازن في المصالح   ومهما يكن من أمر ، فان هذا التوازن متذبذب حتى في المرحلة المبكرة جدا من التطور   قبل زمن طويل من الانحلال التام للتنظيم العشائري ، حيث ظهر التفاوت في الملكية بين «المتوحشين» ، ولم يعقبه التضاد في المصالح فحسب ، بل وعي هذا التضاد ايضا   ان احد الاثار المرموقة جدا من شعر الاسكيمو هو الرواية التي يثأر بطلها   وهو ابن أرملة فقيرة ، من اقربائه الاثرياء لما سببوه له من اذلال ، وذلك بالرغم من الشعور الحاد بالتضامن المتطور جدا بين الاسكيمو بنتيجة اعرافهم الخاصة بالشيوعية البدائية

ويجب ان نتذكر ايضا ان المجتمع البدائي شاهد البداية الباكرة لتقسيم العمل بين الرجال والنساء ، وهو ما ادى بدوره الى قيام التضاد الجنسي الذي وجد التعبير عنه في الطعام والعادات وطرق التسلية والفن وحتى في اللغة   ويؤول غياب العواقب المادية والروحية لهذا التضاد بين الجنسين عن النظر الى الاخفاق في فهم مظاهر عديدة للحياة البدائية   وسوف تظهر دراسة المجتمعات الاكثر تقدما بكل وضوح وجود الطبقات المختلفة فيها ، وفي الوقت نفسه صراعا متصلا ينعكس في بنية الدولة ، والقانون ، والدين ، والشعر ، ومجمل الابداع الفني عموما

---

* «نقد بعض مفاهيم الماركسية» في التطور الاجتماعي، عدد شباط ١٨٩٨ ، ص ١٢١-١٢٢.

وصحيح ايضا ان مصالح الطبقات الاجتماعية المختلفة ليست متعارضة دائما ؛ وعلى اي حال يكفي مجرد **فارق في المصالح** لقيام التناحر الطبقي وحيث لم تنشأ بعد علاقات المستأجرين والمأجورين بين الاغنياء والفقراء فان ذلك الفارق وحده هو الذي يشاهد في الاغلب ، وعلى اي حال فهو يولد صراعا متوحشا بين الطبقات وثمة اوقات حيث لا يكون التفاوت في الملكية ضروريا من اجل استهلال الصراع الطبقي اذ يكون الفارق بين المصالح المحلية كافيا لذلك كما يبين ذلك تاريخ اثينا الباكر بنضاله بين الدياكريين والباراليين والبيديين* (٢١٨)

وحين يقرر السنيور كروتشه ان الطبقات الاجتماعية لا تكون واعية على الدوام لتناحر المصالح فهو يعبر عن فكرة ليست صحيحة الا بصورة جزئية ولنأخذ بعض الامثلة من التاريخ الروسي أكان في هذا التاريخ عدد كبير من الانتفاضات الفلاحية الصريحة والواسعة ؟ في الحقيقة انها كانت قليلة جدا فانتفاضتا رازين وبوغاتشيف في روسيا الكبرى وحروب القوزاق في روسيا الصغرى(٢١٩) تملأ مراحل قصيرة نسبيا تفصل ما بينها فترات من الزمن اكثر او اقل طولا لكن ما الذي يميز هذه الفواصل ؟ « السلام الاجتماعي » ؟ مطلقا ، فحتى في ذلك الحين لم يسمع شيء عن سلام اجتماعي او حتى عن هدنة على الاقل فالحرب الاجتماعية » لم تنقطع حتى خلال تلك الفواصل ، بل كل ما هنالك ان طابعها تغير **متحولا من العلنية الى السرية** . لقد استمر المجتمع منقسما الى معسكرين متناوئين ، السادة من جهة واحدة ، و الموجيك » من جهة ثانية ، وكان كل من هذين المعسكرين يشاهد بوضوح تام جدار المشاعر المعادية والاراء والافعال الذي يفصله عن المعسكر الاخر وكان « السادة » يذمون « الموجيك ، ويحاولون كبح جماحهم ، وكان الموجيك من جانبهم يسخرون من السادة ويقاومون حكمهم بمختلف الوسائل التي تحت تصرفهم وفي كل سنة ، بل في كل شهر ، كانت الحرب السرية في مختلف ارجاء البلاد تلتهب في حرب علنية وصحيح ان هذه الحرب كانت تقتصر على منطقة صغيرة ما ؛ كان الموجيك يتمردون ، وكان السادة «يهدئونهم» بالقوة العسكرية التي في حوزتهم ولقد كان النارودنيون عندنا على حق حين قالوا ان نضال الفلاحين في سبيل الارض والحرية ساد التاريخ الروسي بأسره لكن هل كان هذا النضال في سبيل الارض والحرية سوى نضال طبقي ضد الملاكين العقاريين وضد الدولة التي يشرف عليها هؤلاء الملاكون العقاريون ؟ وكان الموجيك واعين جيدا للتعارض بين مصالحهم ومصالح الملاكين العقاريين واذا

---

** انظر Grlechische Geschichte بقلم كورتيوس ، برلين ١٨٥٧ ص ٢٥٤

٢٥٥ راجع كذلك هيغل **فلسفة التاريخ** ، منشورات فون ( غانز ) ص ٢٦١
« der Unterschied der Stande beruht auf der Verschiedenheit dér Localitat .

كان النضال الذي خاضوه لا يمكن مع ذلك ان يسمى **نضالا طبقيا واعيا** ، فالسبب الوحيد في ذلك هو ان وعي المصالح المتضادة لا يكفي من اجل نضال طبقي واع ، بل المطلوب فضلا عنه فهم لوسائل إلحاق الهزيمة باولئك الذين يدافعون عن تلك المصالح المتعارضة وانه لمن المعروف لدى الجميع ان طبقة الفلاحين الروسية لم تتميز بهذه المعرفة ، وهو السبب في ان النضال الذي خاضته كان حتى درجة كبيرة نضالا عفويا ومع ذلك لم يكفّ عن كونه نضالا طبقيا

لقد خلط السنيور كروتشه بين النضال الواعي وبين وعي التناحر القائم وهو السبب في اعتقاده بانعدام اي صراع طبقي البتة حيث لا وجود لصراع طبقي **واع** لقد اخفق في فهم ان صراعا طبقيا اكثر او اقل مرارة ، علنيا او سريا واعيا او غير واع هو نتيجة حتمية لا مفر منها لانقسام المجتمع الى طبقات

واخيرا فانه من الصحيح ان الاشتراكيين الحاليين يفعلون كل ما في طاقتهم كي ينموا الوعي الطبقي عند العمال وعلى اي حال فاننا لا نستطيع ان نفهم كيف يمكن للسنيور كروتشه ان يقدم هذه الحقيقة التي لا جدال فيها على اعتبارها حجة ضد عقيدة الصراع الطبقي ويستطيع المرء ان يقول عن الاشتراكيين الحاليين، حسب تعبير **البيان** ، انهم «لا يتميزون عن بقية احزاب العمال الا فيما يلي في مختلف مراحل التطور التي لا بدّ للنضال بين البروليتاريين والبورجوازيين من اجتيازها يمثلون دائما وفي كل مكان المصالح العامة للحركة بكاملها (٢٢٠) ولايترتب على ذلك سوى ان جميع العمال يتميزون بنفس الدرجة من الوعي الطبقي لكنهم لا يفهمون جميعا بصورة سواء في الجودة المصالح الشاملة للحركة العمالية

ان انقسام المجتمع الى طبقات مسبب عن تطوره الاقتصادي ومهما نكن من امر فان مجرى **الافكار** يتخلف عن مجرى **الاشياء** ، ولذا يتخلف **وعي** الناس للعلاقات القائمة ما بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية عن **تطور** هذه العلاقات . وفضلا عن ذلك ، فالوعي لا يتطور بالمعدل نفسه حتى ضمن نفس الطبقة الواحدة فبعض افرادها يدركون ماهية اوضاع معينة بصورة اسرع من ادراك الاخرين لها وهو ما يمكن العناصر المتقدمة ايديولوجيا من التأثير في العناصر المتخلفة ويمكن الاشتراكيين من التأثير في اولئك البروليتاريين الذين لم يحصلوا بعد على مفهوم اشتراكي عن العالم* ومما لا ريب فيه ان السنيور كروتشه يريد ان يقول ان الوعي الطبقي معدوم حيث من الواجب تنميته وعلى اي حال ، فنمو هذا الوعي لا يشكل اولا برهانا على انعدامه وثانيا ، حتى اذا كان في الامكان ان نلتقي اليوم بعمال يؤمنون بعد بتناسق مصالحهم مع مصالح مخدوميهم فلا بدّ ان

* اما ان هذا التأثير يتحقق على العموم بدرجة عظيمة من النجاح فهذا ما يبينه النمو العمومي للاحزاب الاشتراكية .

نقول عن مثل هؤلاء العمال انهم لم يتخلصوا بعد من مفهوم عن العالم يميز صراعا طبقيا من نمط آخر ـ الصراع بين الطبقة الثالثة والارستقراطية ان الطبقة الثالثة لم تدرك بعد التضاد الاقتصادي الكامن في وسطها بالذات ولا عجب في ان آراء تطورت في عصر صراع طبقي من نمط واحد استمرت في الوجود بصورة جزئية حتى ايامنا الراهنة وهي عصر يتسم بصراع طبقي من نمط آخر ؛ فعلى اي حال ، يتخلف تطور الوعي عن تطور الاقتصاد

وهكذا فانه حيثما نظر المرء في المجتمع الراهن شاهد أثر الصراع الطبقي وانه ليترتب على ذلك ايضا ان السنيور كروتشه وحده هو الذي قدم القول المضحك

وبالرغم من كون السنيور كروتشه رجلا ذكيا وقادرا ، فان تفكيره يفتقر الى العنصر الجدلي ، وهو نقص يفسر قرابة جميع النكسات التي تعرضت لها جهوده النقدية*

لكن لنمض قدما لقد اشرنا من قبل الى انه كان في حوزة مؤلفي **البيان** نظرية بالفة التناسق عن التاريخ، فيماافتقرت الآراء التاريخية للايديولوجيين البورجوازيين الى التماسك الضروري ولسوف نفسر الآونة هذه المقالة ونبرهن عليها

ان اوغستان تيري ومينيه وغيزو وغيرهم من المؤرخين الذين اتخذوا وجهة نظر مصالح الطبقة المتوسطة رأوا في علاقات الملكية الاساس الرئيسي والاعمق للبنية السياسية في اي بلد ، وحتى للاراء السائدة فيه**

---

* وعلى أي حال نشير الى أن توحيد « الفلاحين مع البروليتاريين في العصر الحديث » أمر مستغرب جدا من رجل يملك اطلاعا جيدا على الادبيات في هذا الموضوع

** اذا وقعت هذه المقدمة بين يدي الاستاذ العالم كارييف ، فمن المؤكد انه سيهتف بخصوصنا كما فعل بخصوص مؤلف آخر وان هذا ليقال عن غيزو الذي أقر بدور بالغ الاهمية يلعبه التطور الفردي وانه ليقال عن اوغستان تيري بنظريته عن العروق التي لعبت دورا هاما جدا في تفسير الاحداث ( **دراسات قديمة وحديثة** ص ٢٠٩ ومهما يكن من شيء فان هتافات الاستاذ العالم تصدر عن جهله بالموضوع فصحيح ان غيزو نسب اهمية عظيمة الى التطور الفردي ، لكن هذا التطور يمثل من حيث هو نتيجة مشتهاة للتطور الاجتماعي وليس من حيث هو احد الاسباب الرئيسية لهذا التطور الاخير واما تيري فان نظريته التاريخية تعلق اهمية عظيمة ليس على العروق بل على غزو العرق الواحد للعرق الاخر ما الغرض الذي تستهدفه الفتوحات ؟ لقد تيري يرد على هذا السؤال دونما تردد انها تستهدف المصالح الايجابية ( مصالح الملكية ) هذا على الاقل هو الجواب الذي يعطيه في كتابه الشهير **تاريخ فتح انكلترا من قبل النورمانديين** ولنذكر الفقرة التالية لقد قال احد الانكليز بالضبط قبل معركة هاستنغ « يجب أن نقاتل لان هذه ليست مسألة حاكم جديد نقبله ونأخذه انها مسألة من نوع مغاير تماما ... لقد أعطى

ولا تختلف آراؤهم في هذا الشأن الا قليلا عن آراء ماركس وانجلز وحين كتب ماركس في وقت لاحق يقول انه لا العلاقات القانونية ولا الاشكال السياسية يمكن أن تفهم سواء بحد ذاتها او على اساس ما يسمى التطور العام للذهن البشري ، بل هي على العكس من ذلك تنشأ من شروط الحياة المادية التي يشكل مجموعها ما يسميه هيغل المجتمع المدني* فانما كان يكرر النتائج التي توصل اليها العلم التاريخي قبله ، تحت تأثير التطور الاجتماعي والصراع الطبقي المرتبط به ويختصر الفارق كله في ان السابقين لماركس اخفقوا في تأكيد اصل علاقات الملكية والمصالح ، في حين حقق ماركس فهما كاملا لها

عند غيزو ومينيه وتييري وكذلك عند جميع المؤرخين والدارسين الذين يشاطرونهم وجهة نظرهم ، غالبا ما تعزى علاقات الملكية في المجتمع الى **الفتوحات**. ومهما يكن من شيء ، فقد اشاروا هم انفسهم الىان الفتوحات تتم بفرض « **مصالح ايجابية** » محددة لكن من أين تنشأ مثل هذه المصالح؟ ان وجودها مشروط بكل وضوح بعلاقات الملكية القائمة سواء في بلد الفاتحين أم في البلد الذي وقع تحت نيرهم ان لدينا ههنا حلقة مفرغة ان علاقات الملكية والمصالح حصيلة الفتوحات ، بينما الفتوحات تفسر بعلاقات الملكية والمصالح وفيما كانت النظرية التاريخية اسيرة هذه الحلقة المفرغة لم يكن في الامكان الا ان تتسم بالانتقائية والتناقضات وعلى العموم ، فهذه التناقضات عديدة عند جميع المؤرخين المنتسبين الى الاتجاه الذي ندرسه

كان المؤرخون يستنجدون احيانا بالطبيعة الانسانية وعلى أي حال فان احد أمرين ممكن ان الطبيعة الانسانية يجب ان تظل ثابتة على حالها عبر التطور التاريخي ، او ان تتعرض للتغير فاذا هي بقيت على حالها فمن الواضح انها لا يمكن ان تكون مسؤولة عن التبدلات الحادثة في التاريخ واذا هي من جهة اخرى تعرضت للتغير ، فان الاشارة اليها لا يمكن اذن ان تفسر اي شيء على الاطلاق نظرا لانه ينبغي لنا قبل كل شيء ان نقرر اسباب التبدلات في داخلها

---

النورماندي أراضينا لضباطه وفرسانه وجميع جنوده واذا اصبح الدوق ملكا علينا فهو نفسه سوف يكون مضطرا لان يبيح لهم الاستيلاء على ملكيتنا وزوجاتنا وبناتنا ومن جانبه قال وليم الفاتح لجنوده فكروا في أن تقاتلوا جيدا وان تقتلوهم جميعا لاننا اذا انتصرنا سوف نصبح أثرياء ما سوف اكسبه سوف تكسبونه ايضا ؛ واذا غلبت فسوف تغلبون ايضا ؛ اذا استوليت على الارض فسوف تحصلون عليها » انظر ص ٣٠٠ من المجلد الاول من طبعة باريس لعام ١٨٢٥

ان اعتراضات السيد كاريف على « المادية الاقتصادية » ملأى بالمغالطات وفارغة جدا من المحتوى بحيث تذكر المرء بكلمات برودون لا بد للاستاذ ان يتكلم ويتكلم ويتكلم، لا ليقول شيئا ، بل كي لا يظل صامتا».

* **في نقد الاقتصاد السياسي** ، فورفورت

وان هـذا ليؤول بنـا الى حلقـة مفرغـة اخرى والى مصـدر آخر للتناقضات والانتقائية في العلم التاريخي

ويقدم لنا مثالا ممتازا على مثل هذه الانتقائية وهذه التناقضات كتاب توكفيل الشهير **في الديموقراطية في اميركا** الذي سميه روايه ــ كولار استمرارا لكتـاب مونتسكيو **في روح القوانين** • ويقول توكفيل انه اذا كانت لدينا بنية اجتماعية معينة فانه يمكن اعتبارها السبب الاولي لمعظم القوانين والعادات والافكار المقررة لسلوك الامم ان من واجب المرء ، كي يفهم تشريعات شعب معين وعاداته ان يبدأ بدراسة النظام الاجتماعي* ؛ لكن من أين ينشأ النظام الاجتماعي ؟ يحيلنا توكفيل ردا على ذلك الى الطبيعة الانسانية وانا لنعرف من قبل ان مثل هذه الاحالات لا تفسر شيئا ، وهو ما كان يعرفه توكفيل نفسه ، او يرتاب فيه على الاقل ، حيث كتب في رسالته من اميركا

« ارى مؤسسات تزدهر هنا من المؤكد انها ستقلب فرنسا رأسا على عقب وليس الناس مختلفين او افضل مما هم في بلادنا**

ان النتيجة الحتمية التي لا مفر منها والتي لا بد من استخلاصها من هـذه الكلمات هي ان الطبيعة الانسانية لا تقدم اي مفتاح من اجل فهم المؤسسات الاميركية.

ولقد حاول توكفيل في موضع آخر ان يعزو اصول النظام الاجتماعي الى **فعل القوانين** وعلى اي حال ، فلما كان تشريع اي بلد ، حسب تعبيره بالذات ، يصدر عن نظامه الاجتماعي ، فاننا نصطدم من جديد بالتناقض الذي كان توكفيل نفسه اكثر او اقل ادراكا له وقد حاول التخلص منه ، لكن جهوده ذهبت جميعا ادراج الرياح؛ لقد اتضح ان تحليله في هذا الشأن لا حول له ولا قوة

ولقد حلت نظرية ماركس التاريخية هذا التناقض ، وبذلك جلبت الوضوح والتماسك الى منطقة كانت تحتوي على العديد من الافكار العميقة والمميزة ومن الملحوظات الحقيقية ، لكن تفتقر الى مبدأ اساسي قمين بالجمع بين سائر هـذه الافكار العميقة والمميزة والملحوظات الحقيقية في كل متماسك

ففي نظرية ماركس يفسر النظام الاجتماعي ــ علاقات البشر الاجتماعيـة ــ **بعلاقاتهم الاقتصادية** • « وعلى اي حال ، فمن الواجب البحث عن تشريح المجتمع المدني في الاقتصاد السياسي (٢٢٣) » لكن كيف تخلق مثل هذه العلاقات ؟ لو حاول ماركس ان يعزو اصلها الى الآراء او العواطف او « الطبيعة » البشرية عامة لسقط في نفس التناقض الذي تعثر فيه السابقون له ومهما يكن من شيء ، فقد قـدم ماركس تفسيرا مختلفا كل الاختلاف

---

* انظر **في الديموقراطية في اميركا** ، باريس ١٨٣٦ المجلد الاول ، ص ٧٤

** **مراسلات جديـدة لالكسيس توكفيـل** ، باريس ١٨٦٦ ، رسالـة الى ابيـه بتاريخ ٣ حزيـران ١٨٣٠ .

**لا بد للناس كي يعيشوا من ان ينتجوا** . ولا بد لهم كي ينتجوا من ان تتضافر جهودهم **بطريقة ما ومن ان تقوم فيما** بينهم **بعض العلاقات** التي يسميها ماركس **علاقات الانتاج** . وان مجموع هذه العلاقات يشكل **البنية الاقتصادية** للمجتمع التي تتطور على اساسها جميع العلاقات ( الاجتماعية ) الاخرى ، كما تتطور على اي حال جميع (( **اوضاع الناس** [ L'état des personnes ] التي لعبت دورا بالغ الاهمية في نظريات المؤرخين الفرنسيين لعصر عودة الملكية

وتتحدد طبيعة علاقات الانتاج في اية مرحلة معينة لا بفعل المصادفة او « الطبيعة » الانسانية بل بفعل الشروط الطبيعية التي لا بد للبشر من النضال فيها في سبيل وجودهم وتتوقف حالة **القوى المنتجة** التي تحت تصرف البشر على هذه الشروط ، واولا وقبل كل شيء على البيئة الجغرافية ان علاقات انتاج محددة تقابل حالة محددة للقوى المنتجة ، كما ان اي نظام اجتماعي خصوصي يقابل علاقات انتاج محددة ، وان طبيعة هذا النظام الاجتماعي التي تؤثر في ذهنية الناس تقرر تطور الرجال والنساء الفكري والاخلاقي ، وما يسمى تطورهم **الروحي** .

ومهما يكن من امر فان عملية الانتاج بالذات وتضافر الجهود البشرية في هذه العملية ، اذ يزيدان حصيلة التجربة ، يؤديان الى مزيد من تطور القوى المنتجة ، الامر الذي يترتب عليه ان ينشأ ويزداد تدريجيا **تعارض** بين هذه القوى من جهة واحدة وعلاقات الانتاج من جهة ثانية لقد كانت تلك العلاقات تنشط من قبل نمو القوى المنتجة اكثر فاكثر اما الآن فقد جعلت تلجمها وعندئذ تحل **مرحلة ثورية** في التطور الاجتماعي تنتهي عاجلا او آجلا الى تدمير علاقات الانتاج ، وبالتالي علاقات الملكية البالية و حالة الاشخاص برمتها

ان النضال ضد علاقات الانتاج الباطلة تكسب الناس موقفا نقديا ليس حيال النظام الاجتماعي القديم فحسب بل كذلك حيال تلك الافكار والمشاعر ، وعلى العموم (( **الذهنية** )) التي تطورت على اساس النظام القديم وعندئذ فان الحركة الثورية في مجال العلاقات الاجتماعية تقابلها حركة ثورية في مجال الحياة الروحية ويسأل ماركس وانجلز في الفصل الثاني من **البيان**

هل يحتاج المرء الى تعمق كبير ليدرك ان آراء الناس ونظراتهم ومفاهيمهم ، او وعيهم بكلمة واحدة يتغير مع كل تغير يطرأ على ظروف حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وشروط معيشتهم الاجتماعية ؟

« وماذا يثبت تاريخ الافكار سوى ان الانتاج الفكري يتبدل بصورة مطردة مع تبدل الانتاج المادي ؟

**تلك** هي نظرية ماركس وانجلز التاريخية ، وهي نظرية تسود **البيان** برمته **وتشمل** ما يمكن تسميته جيدا فكرته الاساسية

وقد قدر مؤلفا **البيان** عصرهما الخاص من وجهة نظر هذه الفكرة الاساسية

ايضا واذا هما وجداه **ثوريا** ، فالسبب الوحيد في ذلك انهما شاهدا التعارض بين القوى المنتجة التي خلقتها الرأسمالية وعلاقات الانتاج اللازمة للرأسمالية ولقد كتبا يقولان

المجتمع البورجوازي الحديث بعلاقاته الخاصة بالانتاج والمبادلة والملكية ، هذا المجتمع الذي حمل الى الوجود مثل هذه الوسائل الجبارة للانتاج والمبادلة ، يشبه الساحر الذي ما عاد يعرف ان يخضع القوى الجهنمية التي اطلقها من عقالها فمنذ عدة عقود وتاريخ الصناعة والتجارة ليس سوى تاريخ تمرد القوى المنتجة الحديثة على نظام الملكية الذي هو شرط وجود البورجوازية وسيطرتها ويكفي ان نذكر الازمات التجارية التي تطرح بتواترها الدوري مسألة وجود المجتمع البورجوازي بأسره على بساط البحث »

( البيان ، ص ٨

وبما ان علاقات الانتاج البورجوازية تجعل العمال في تبعية لا تطاق حيال الرأسمال فلا عجب ان ينشأ بين العمال شعور بالاستياء ينمو جنبا الى جنب مع التناقض الذي تحدثنا عنه ويتطور الى حركة ثورية موجهة ضد النظام الاجتماعي القائم برمته ان البورجوازية

« لم تصنع الاسلحة التي سوف تقتلها فحسب ، بل استدعت ايضا الى الوجود البشر الذين سوف يستعملون هذه الاسلحة ـ الطبقة العاملة الحديثة ـ **البروليتاريين** » .

المصدر نفسه ، ص ٩ )

هذا كله يبين مبلغ الخطل المرتكب عند وصف نظرية ماركس وانجلز التاريخية بعبارة **المادية الاقتصادية** التي تحوز القبول العام واذا كانت هذه العبارة تشير الى نظرية تعترف بمصلحة التملك من حيث هي القوة الدافعة الرئيسية في التقدم التاريخي فان المؤرخين الفرنسيين في عصر عودة الملكية يمكن ان يسموا اذن ماديين اقتصاديين بيد ان هؤلاء « الماديين الاقتصاديين » كانوا ، في واقع الامر ، خالصين كليا من المادية ، لانهم ظلوا **مثاليين** بقدر ما لم يتحولوا الى انتقائيين فاصل علاقات الملكية ومصالحها لم يحصل عندهم على أي نوع من التفسير المادي واذا كانت نظرية ماركس على النقيض من ذلك مشربة بالمادية ، فلم يكن ذلك في حال من الاحوال لانها تعزو دورا تاريخيا فائق الاهمية لمصالح الملكية ، بل لانها قدمت للمرة الاولى اذ ربطت تطور هذه المصالح بتطور علاقات الانتاج الناجمة عن نمو القوى المنتجة تفسيرا تاريخيا لتطور الفكر الاجتماعي وقضت قضاء تاما على التفسير المثالي لهذا التطور على اعتباره ناشئا عن خصائص « الروح » الانساني او «الطبيعة» الانسانية عامة فليس ما يبعث على العجب اذن في اولئك **نصف الماركسيين** الذين تمردوا على **المادية** مع تشبثهم بعبارة المادية **الاقتصادية** » .

وانهم ليدركون ان آراء مثالية مطلقة يمكن ان تستتر خلف تلك العبارة*

ان الهر ادوارد برنشتاين هذا الماركسي والاشتراكي الديموقراطي سابقا ، يجد ان نظرية ماركس وانجلز التاريخية تحدد بأوضح صورة بعنوان اقترحه بارث **الفهم الاقتصادي للتاريخ** وانه لمن النافل ، بعد كل ما قيل اعلاه ، القول ان هـذا الرأي « للناقد المحترم يقوم حصرا على اخفاق تام في فهم الطبيعـة الحقيقيـة للنظرية التي يتجرأ على نقدها**

وما دمنا بدأنا التعامل مع هذا الناقد فسوف نذكر القارىء بأن نظرية ماركس وانجلز التاريخية مرت هي نفسها ، في رأيه في عملية تطورية كان مـن نتيجتها ظهور تحديد معين لدور « العامل » الاقتصادي في التاريخ ، وذلك في مصلحة « عوامل اخرى ، **غير اقتصادية** ويورد السيد برنشتاين الحجج التالية دعما لرأيه هذا ان ماركس ، في مقدمة كتابه **في نقد الاقتصاد السياسي** عام ١٨٥٩ « اعترف بالقوى المنتجة المادية المعطاة وعلاقات الانسان الانتاجية من حيث هـي العامل الحاسم*** في حين قدم انجلز في وقت لاحق تفسيرا آخر للمادية التاريخية ، في مساجلته مع دوهرنغ ، وذلك « حتى في حياة ماركس وبالاتفاق معه »، الا وهو انه مبين هناك ان **الاسباب الجوهرية***** لجميع التبدلات والثورات الاجتماعية يجب البحث عنهـا لا في عقول البشر بـل في التغيرات الحادثة في نمط الانتاج والمبادلة ومهما يكن من امر فان الاسباب النهائية لا تحول دون اسباب من نوع آخر فاعلة بصورة متواقتة ــ اسباب من الدرجة الثانية والثالثة وغيرها ــ من الواضح انه بقدر ما تكون سلسلة مثل هذه التغيرات اكبر يزداد تحدد القوة المقيدة للاسباب النهائية نوعيا وكميا ان حقيقة تأثيرها تظل قائمة لكن الشكل الاخير للاشياء لا يتوقف على هذا التأثير وحده*****

---

واليكم مثالا ممتازا لقد كان للنظرة التاريخية عند سان سيمون اساس مثالي ومـع ذلك كان كما سبق فرأينا ماديا اقتصاديا بصورة لا تقل عن مينيـه وغيزو واوغستان تييري

** يؤكد الهر برنشتاين عقيدة الصراع الطبقي تقوم على اساس الفهم المادي للتاريخ » **قضايا الاشتراكيـة** ، لندن ١٩٠٠ ص ١٧ ويعرف القارىء الان ان عقيـدة الصراع الطبقـي ممكنة علىغير اساس الفهم المادي للتاريخ وحده لكن ما اهمية ذلك بالنسبة الى الهر برنشتاين ؟ انه لا يقوم بأيـة دراسة بل هو ينتقـد فحسب

*** استخدم المترجم الروسي للهر برنشتاين عبـارة قوى الانتـاج بدلا مـن « القـوى المنتجـة » المصدر نفسه ص ٦ وهذا امر لا معنى له على الاطلاق

**** استخدام المترجـم الروسي عبارة الاسباب الجوهرية بدلا من الاسباب « الاولية »، وهو امر لا مكان لـه على الاطلاق في نظرية ماركس

***** المصـــدر نفســـه ، ص ٩

ويعتقد الهر برنشتاين ان انجلز حدد القوة المقررة لعلاقات الانتاج اكثر من ذلك ايضا في مؤلفاته اللاحقة » ، ويورد كبرهان على ذلك رسالتين لانجلز نشرتا في Sozialistischer Akademiker تشرين الاول ١٨٩٥ احداهما محررة في عام ١٨٩٠ والاخرى في عام ١٨٩٤ وتتميز محتويات هاتين الرسالتين على افضل صورة بالمقتطفين اللذين يقدمهما الهر برنشتاين منهما

وهـذا نص المقتطف الاول

« وهكذا فان هناك قوى متقاطعة عديدة سلسلة لا متناهية من متوازيات اضلاع القوى تؤول الى حصيلة واحدة ـ الحدث التاريخي وانه ليمكن كذلك النظر الى ذلك من حيث هو نتيجة لقوة تعمل ككل واحد بصورة لا شعورية ودونما ذلك ان ما يريده كل فرد يسد عليه الطريق كل انسان آخر وما ينبثق هو شيء لم يكن احد يريده ( رسالة عام ١٨٩٠

ونقرأ ما يلي في المقتطف الثاني

« يقوم التطور السياسي والقضائي والفلسفي والديني والادبي والفني الخ على أساس التطور الاقتصادي لكن هذه الامور جميعا تتفاعل فيما بينها وتؤثر ايضا في القاعدة الاقتصادية » ( رسالة ١٨٩٥

ويقدم الهر برنشتاين الملاحظة التالية بخصوص هذين المقتطفين «(١) سوف يقر القارىء بأن هذا يتردد صداه مغايرا نوعا ما للفقرة الموردة من ماركس في البداية*» .

لقد اورد في البداية فقرة من المقدمة الشهيرة لكتاب **في نقـد** تقول ان نمط انتاج الحيـاة المادية يقرر تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ولنفترض لبرهة ان هذه الفقرة يتردد « صداها » بالفعل مغايرا عن المقتطف المورد اعلاه من رسالة انجلز ولنؤكد كيف يتردد بالفعل صدى » **البيان** ، الذي حرر قبل احدى عشر سنة من صدور **في نقـد الاقتصاد السياسي** .

لقد استلفتنا من قبل انتباه القارىء الى حقيقة ان تطور القوى المنتجة يعترف به هناك من حيث هو السبب الاعمق للتطور الاجتماعي وبهذا الخصوص ، فان وجهة نظر **البيان** هي **متماثلة** مع وجهة النظرالواردة في مقدمة **في نقـد** لكن كيف هي الامور فيما يتعلق « بمتوازيات اضلاع القوى وبتفاعل العوامل المختلفة للتطور الاجتماعي ؟

ان **البيـان** يبـين كيف ان النجاحات التي حققتهـا البورجوازية في المجـال الاقتصادي دفعت بها الى الصراع السياسي وادت الى مكاسب سياسية وضعت بدورها اسس منجزاتها اللاحقة في الحقل الاقتصادي انه يعلن ان **كل صراع طبقي هو صراع سياسي**(٢٢٩) ويقول للبروليتاريا ان استيلاءها على السلطـة **السياسية**

---

* المصـــدر نفســه .

شرط اساسي من اجل تحررها **الاقتصادي** وباختصار ، فان ما نقرؤه هنا عن العامل السياسي هو بالضبط نفس ما اشار انجلز اليه في رسالته لعام ١٨٩٥ ان التطور السياسي يقوم على التطور الاقتصادي لكنه يرتكس في الوقت نفسه على القاعدة الاقتصادية

وان ما يترتب على ذلك هو ان الرأي الذي يبدو للهر برنشتاين انه نتيجة متأخرة جدا لتطور نظرية ماركس وانجلز التاريخية قد تم التعبير عنه في حقيقة الامر منذ عام ١٨٤٨ ، يعني في زمن حيث لا بدّ ان ماركس وانجلز كانا فيه ، وفقا لفرضية الهر برنشتاين « اقتصاديين خالصين اذا جاز لنا مثل هذا التعبير

ومهما يكن من شيء ، فقد ترتبت هذه النتيجة حتى الآن بخصوص «العامل» السياسي ولعلها مغلوطة فيما يتعلق بالعوامل الاخرى ؟

لنر يقول **البيان** ان النشاطات الفكرية تتبدل جنبا الى جنب مع النشاطات المادية

« حينما كان العالم القديم على اعتاب السقوط والزوال انتصر الدين المسيحي على الاديان الاخرى القديمة وحينما تركت الافكار المسيحية محلها في القرن الثامن عشر لافكار الرقي العقلانية الجديدة خاض النظام الاقطاعي معركته الاخيرة ضد البورجوازية التي كانت ثورية في ذلك الحين (٢٢٠) »

ان هذه الكلمات بحد ذاتها تنطوي على اعتراف بالتفاعل بين تطور المجتمع الاقتصادي من جهة واحدة وتطوره الفكري من جهة ثانية ومهما يكن من شيء ، فانه لا يبرح اعترافا ضمنيا ، وهو السبب في امكانية وضعه موضع التساؤل

بيد ان الفصل الختامي **للبيان لا يدع اي مجال على الاطلاق للشك في هذا المضمار.** ففي هذا الفصل الذي يبين موقف الشيوعيين من الاحزاب الاخرى للطبقة العاملة يقول المؤلفان ان الشيوعيين لم يكفا قط لبرهة واحدة عن تشريب العمال بأوضح وعي ممكن للتعارض العدائي بين مصالح البورجوازية ومصالح البروليتاريا لماذا يفعل الشيوعيون ذلك ؟ من الواضح انهم يفعلون ذلك لانهم يعترفون بأهمية الافكار وعلى اي حال ، فان المؤلفين بالذات يسرعان فيوضحان غرضهما ، فيكتبان ان ما يريده الحزب الشيوعي هو أن

« يستخدم العمال الالمان اذا حانت الساعة ، كأسلحة متعددة ضد البورجوازية ، الشروط الاجتماعية والسياسية التي لا بد ان يخلقها النظام البورجوازي مع تحقيق هيمنته وان يكون في الامكان خوض غمار النضال ضد البورجوازية نفسها حالما يتم القضاء على الطبقات الرجعية في المانيا

وتكشف هذه الفقرة ، بخصوص اهمية « **العامل** » الفكري ، بصورة مطلقة عن نفس الرأي الذي سجلناه بخصوص العامل **السياسي** ان التطور الفكري قائم على اساس التطور الاقتصادي ، لكنه يؤثر بدوره من بعد في هذا الاخير

( بواسطة نشاطات البشر الاجتماعية ـ السياسية ) وانه ليترتب على ذلك اذن ان ماركس وانجلز اقرا « بالعامل الايديولوجي ليس ابان المساجلة مع دوهرنغ فحسب ، بل منذ عام ١٨٤٨ وحتى قبل ذلك ، خلال مرحلة صدور **الحوليات الالمانيــة الفرنسية** . ان هذا يحول ، بخصوص ماركس على الاقل ، دون ادنى شك بشأن السطور البارزة التالية من مقالته عن فلسفة الحق عند هيغل

« يمكن لاية طبقة ان تلعب هذا الدور دون ان تثير لحظة من الحماسة في ذاتها وفي الجماهير لحظة تتآخى فيها مع المجتمع عامة حيث يصير ادراكها والاعتراف بها من حيث هي ممثله العام ، لحظة تكون فيها مطالبها وحقوقها حقوق ومطالب المجتمع نفسه حق لحظة تكون فيها حقا الرأس الاجتماعية والقلب الاجتماعي(٢٢٢)

وكما ترون فان الدور الذي يلعبه الوعي عامة ، وحتى الحماسة خاصة ، في تحويل المجتمع معترف به بالعبارات الاحزم ان عامل الذهنية يرتكس على العلاقات الاجتماعية ( وبنتيجة ذلك على العلاقات الاقتصادية ) ومن بعد يستطرد ماركس موضحا كيف ان موقف المجتمــع بأسره من « الطبقــة المحررة يتطور على اساس الصراع الطبقي

« كيما تكون الطبقة الواحدة طبقة التحرر الممتازة لا بد بالمقابل ان تكون طبقة اخرى الطبقة المضطهدة بكل وضوح ان الاهمية العامة السالبة للنبالة الفرنسية والاكليروس الفرنسي حددت الاهمية العامة الموجبة للطبقــة المجاورة والمعارضة مباشرة التي هــي البورجوازيــة* »

ان النتيجة الواجب استخلاصها هي ان مؤسسي الاشتراكية العلمية عبرا منذ بداية نشاطاتهما عن الراي نفسه بالضبط بخصوص العلاقة المتبادلة بين «العوامل» المختلفة للتطور التاريخي ، وهو الراي الذي نصادفه في المقتطفين اللذين اوردهما الهر برنشتاين من رسالتي انجلز المحررتين في التسعينات وما كان يمكن ان يكون الامر خلاف ذلك فلو ان ماركس وانجلز لم يعلقا اهمية على العاملين السياسي و الفكري منذ بداية مسلكهما السياسي وانكرا تأثيرهما في التطور الاقتصادي للمجتمع لكان برنامجهما السياسي مختلفا كل الاختلاف ؛ فهما ما كانا يقولان اذن ان الطبقة العاملة لا تستطيع ان تطرح نير البورجوازية الاقتصادي دون الاستيلاء على السلطة السياسية ؛ وهما ما كانا اذن يتحدثان ، بالطريقة نفسها بالضبط ، عن الحاجة الى تقوية الوعي الطبقي عند العمال فلماذا ينبغي تنمية هذا الوعي اذا لم يكن له اي دور يلعبه في الحركة الاجتماعية واذا كانت الامور جميعا تجري في التاريخ دونما اعتبار لهذا الوعي ومن خلال قوة الضرورة الاقتصادية وحدها ؟ ومن ذا لا يعرف ان تنمية الوعي الطبقي عند العمال كانت المهمة العملية المباشرة لماركس وانجلز منذ بداية فعالياتهما الاجتماعية ؟ ولقد كان من واجب الهر برنشتاين

* **الحوليات الالمانيــة الفرنسية** ، ص ٨٢ (٢٢٣)

ان نعلم يضا بصفته ماركسيا سابقا ان العمل الفكري النشيط الذي قام ماركس به في اوائل الاربعينات بين العمال الفرنسيين والبريطانيين خدمه من حيث هو احدى الحجج الرئيسية ضد اولئك الذين تجاهلوا «الجماهير» ، على غرار برونو بوير وعلقوا جميع آمالهم على الشخصيات ذات الذهن النقدي*

لنحاول ان نبني فرضية اخرى كان ماركس وانجلز في بداية نشاطاتهما ينظران الى العوامل في نفس الضوء الذي شاهدها فيه انجلز في التسعينات وفي اواسط هذه النشاطات حوالي فترة صدور **في النقد** ، غير ماركس – وحده او مع انجلز – وجهة النظر هذه لسبب ما وسقط في التطرف الذي اكتشفه الهر برنشتاين في مقدمة كتابه

لكن حتى هذه النظرية لا يمكن ان تصمد لاي نقد لان المقدمة التي ورد ذكرها توا تتضمن تلك النظرة عن « العوامل » بالذات التي لم تنشأ ، في رأي الهر برنشتاين، الا بنتيجة **تطور** نظرية ماركس التاريخية ولن يجد القارىء صعوبة في موافقتنا اذا تكبد عناء التدقيق في المقتطف الذي نشير اليه صاحبنا الناقد عميق التفكير ان نمط انتاج الحياة المادية يقرر التطور العام للحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية وهذا يعني ان العوامل الاجتماعي والسياسي والفكري تنمو على التربة الاقتصادية

ولنستطرد

> ان قوى المجتمع الانتاجية المادية تدخل في مرحلة معينة من نموها ، في نزاع مع علاقات الانتاج القائمة أو مع علاقات الملكية التي كانت فعالة ضمنها حتى ذلك الحين وعندئذ تتحول هذه العلاقات من اشكال لتطور القوى الانتاجية الى قيود لها فيبدأ عصر من الثورة الاجتماعية

ان علاقات الملكية تنتسب الى ميدان **القانون** وفي زمن محدد تدعم علاقات الملكية تطور القوى المنتجة ، وهو ما يعني ان الاشكال القانونية التي نشأت على قاعدة اقتصادية محددة ترتكس بدورها على تطور الاقتصاد ومن بعد – وكنتيجة لهذا الارتكاس على اي حال – يأتي زمن حيث تأخذ الاشكال القانونية المعطاة في اعاقة تطور القوى المنتجة ، وهو ما يعني مرة اخرى ان هذه الاشكال ترتكس ، وان يكن في الاتجاه المضاد هذه المرة – على تطور العلاقات الاجتماعية – الاقتصادية وبنتيجة التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يبدأ عصر من الثورة الاجتماعية. **ما الذي** تحققه هذه الثورة ؟ **أي نوع** من الاغراض تسعى اليه ؟ القضاء على علاقات الانتاج القديمة واقامة علاقات جديدة ، وكذلك مؤسسات قانونية جديدة ما الهدف من ذلك كله ؟ الهدف هو المزيد من نمو القوى المنتجة وهذا يعني مرة ثانية وثالثة

---

* **العائلة المقدسة** ، ص ١٢٥

ان الاشكال القانونية التي قامت على قاعدة اقتصادية معينة تؤثر بدورها في هذه القاعدة الاقتصادية اليس هذا بالضبط ما قيل في البيان وكرر في كتابات ماركس الاخرى ، واشير اليه في رسالتي انجلز اللتين يستشهد بهما الهر برنشتاين؟ و « عامل » الذهنية ؟ لعل المقدمة لا تقول عنه ما قرر في كتابات ماركس وانجلز الاخرى ان الشيء القليل يقال عنه في المقدمة ، لكن ما قيل فيها لا يتناقض في حال من الاحوال مع ما تقوله رسالتا انجلز في هذا الشأن ان تطور القوى المنتجة يضع الناس في بعض العلاقات الانتاجية ويؤدي الى ظهور بعض الاشكال القانونية وتقابل بعض المفاهيم القانونية عند الناس تلك الاشكال القانونية ومع تطور القوى المنتجة اللاحق وبقدر ما تكف شروطها عن الاتفاق مع الاشكال القانونية القديمة يأخذ اولئك الذين تتأثر مصالحهم بذلك التناقض يراودهم الشك بخصوص صلاحية المؤسسات القانونية القديمة وعدالتها وتظهر مفاهيم جديدة عن القانون والعدالة تتفق مع المرحلة الاجتماعية المحققة حديثا من تطور القوى المنتجة ونحو هذه المفاهيم الجديدة عن القانون والعدالة تتوجه النشاطات العملية للمقاتلين ضد النظام القديم مما يؤدي الى خلق مؤسسات قانونية جديدة تمنح زخما جديدا لتطور القوى المنتجة ، وهكذا دواليك هذا ما قيل في المقدمة ، وبودنا ان نسأل القارىء غير المنحاز ما اذا كان هذا يتناقض ادنى تناقض مع ما يقول انجلز في رسالتيه

ليس ثمة تناقض بالطبع غير ان المقدمة مصاغة بلغة اكثر تجريدا وتعالج موضوعا مختلفا كل الاختلاف فقد اراد ماركس ان يؤكد ان العلاقات الاجتماعية لا يمكن فهمها لا بحد ذاتها ولا على اساس ما يسمى التطور العام للذهن البشري ولهذا الغرض دفع الى المقدمة بالاساس الاقتصادي لتطور تلك العلاقات اما انجلز من جانبه فقد توجه في رسالتيه الى شخص يحسب ، مثله كمثل الكثيرين من مواطنينا ان نظرية المادية الاقتصادية لا متسع فيها لعمل العوامل السياسي والقانوني والفكري ، ولذا اكتفى باشارة الى الاسس الاقتصادية لجميع هذه « العوامل مشددا بصورة خاصة على حقيقة ان هذه العوامل وقد تطورت على الاساس الاقتصادي ، تؤثر في هذا الاساس هذا كل شيء. ولو انه كان في مقدور الهر برنشتاين ان يرى قليلا ما وراء التعبير اللفظي للنظرية التي يحللها وان يتغلغل الى مضامينها لوجد انه من الاسهل جدا ان يفهم

الاراء التاريخية المقدمة في مقدمة في نقد تترك بالضبط نفس القدر من المكان لعمل الاسباب من الدرجة الثانية والثالثة الخ » ، مثل العقيدة المتضمنة في انتي دوهرنغ ، في حين ان محاكمة انجلز في رسالته لعام ١٨٩٠ ، بخصوص امكانية

* قضايا الاشتراكية [ الطبعة الروسية ] ص ٦ لقد اوردنا هذه الفقرة مع التصحيحات الضرورية في الترجمة الروسية الفظيعة

اعتبار الاحداث التاريخية نتيجة لقوة تعمل بصورة لا شعورية ، هي بالضبط مثل المحاكمة التي يقدمها ماركس في المقدمة بشأن عمل السبب الاساسي للتطور الاجتماعي دونما اعتبار للوعي والارادة الانسانيين ان لدينا ههنا هوية تامة ، ومع ذلك فان الهر برنشتاين تكلف فهم كلمات انجلز من حيث هي شيء يغير معنى المقدمة ويكمله. يا لبعض « النقـد !

وفي موضع آخر من كتيبه يتحدث ناقدنا عن ان ماركس ، فيما يزعم قدر بصورة مبالغ فيها « القدرة الخلاقـة للقوة الثوريـة على تحقيق التحويـل الاشتراكي في المجتمع الراهن » بيد ان القوة الثورية هي قوة سياسية ايضا ، بحيث يترتب على ذلك ان ماركس اخطأ فقدر بصورة مبالغ فيها القدرة الخلاقـة للقوة السياسية لكن ماركس ، في الوقت نفسه ووفقا لذلك « الناقد نفسه اخطأ فلم يوقف اية اهمية على الاطلاق على اية « عوامل اخرى باستثناء العامل الاقتصادي ما عسى ان يفهم المرء من ذلك ؟

ولا يقتصر الهر برنشتاين على نقد نظرية ماركس وانجلز التاريخية ، بل ينتقد كذلك عقيدتهما عن الصراع الطبقي وفي رأيه ان الصراع الطبقي لا يلقي بعد الآن على عاتق البروليتاريا نفس المهام العملية التي اشار اليها مؤلفا البيـان ان نضال البروليتاريا ضد البورجوازية في اكثر البلدان تطورا في العالم المتحضر لا يمكن في الوقت الحاضر ان يؤول الى دكتاتورية البروليتاريا ، وهو السبب في ان الحديث عن هذه الدكتاتورية يصبح لغوا خالصا لكن لندع الهر برنشتاين يتحدث بنفسه

« هل هناك مثلا اي معنى في تكرار عبارة دكتاتورية البروليتاريا في وقت يتخذ فيه ممثلو الاشتراكية الديموقراطية عمليا في مختلف انواع المؤسسات ، موقف النضـال البرلماني والتمثيل النسبي والتشريع الشعبي ، وهي متناقضة مع دكتاتورية البروليتاريا ؟ لقد عفا عليها الزمان حتى درجة كبيرة في الوقت الراهن بحيث لا يمكن جعلها متفقة مـع الواقع الا اذا شطبنا من كلمـة « دكتاتورية معناها الحقيقـي واعطيناها معنى آخر اخف وطـأة* »

لقد ظهر في بلادنا في النصف الثاني من الثمانينات صنف من الاشتراكيين الذين كان همهم الرئيسي ، ويمكن ان يقال همهم الاشد تعذيبا ، الامتناع عن اخافة الليبراليين كان شبح الليبراليين المذعورين يخيف جدا هذا الصنف من الاشتراكيين بحيث القى الاضطراب في جميع حججهم النظرية والعملية . وان الهر برنشتاين ليذكر المرء حتى درجة كبيرة بمثل اولئك « الاشتراكيين ان همه الرئيسي هو عدم اخافة البورجوازية الديموقراطية واذا هو رفض المادية واوصى بالعودة الى كانط، فالسبب الوحيد في ذلك هو ان الكانطية تفسح مكانا للتطير الديني ، والهر برنشتاين لا يريد ان يصدم الاوهام الدينية عند البورجوازية الحالية واذا كان الهر برنشتاين

---

* المصـدر نفسـه ، ص ١٥٨

قد تمرد على العقيدة المادية عن الضرورة ، فالسبب الوحيد في ذلك هو ان هـذه العقيدة ، اذا طبقت على الظواهر الاجتماعية ، لا تفسح مكانا لآمال البروليتاريا في الارادة الطيبة من جانب البورجوازية ، وبالتالي في تلاقي هاتين الطبقتين واخيرا اذا كان الهر برنشتاين لا يحب « العبارة » عن دكتاتورية البروليتاريا ، فالسبب الوحيد في ذلك مرة اخرى هو ان هذه العبارة تتردد بصدى عدائي في آذان حتى البورجوازية الاكثر ديموقراطية ومهما يكـن من شيء ، فان اولئك الذين لا يشعرون بأدنى خوف من شبـح البورجوازية المذعورة يرون مسألة دكتاتوريـة البروليتاريا في ضوء مختلف كل الاختلاف عن الضوء الذي يراها فيه ناقدنا

تعني دكتاتورية الطبقة وهذا ما كان مينيه نفسه يدركه في زمانه سيادة هذه الطبقة التي تتيح لها ان تتصرف بالقوة المنظمة للمجتمع في سبيل الدفاع عن مصالحها الخاصة وفي سبيل قمع جميع الحركات الاجتماعية التي تعترض هـذه المصالح وذلك بصورة مباشرة او غير مباشرة* وبهذا المعنى يمكن ان يقال على سبيل المثال ان البورجوازية الفرنسيـة حققت دكتاتوريتهـا منذ عصر الجمعيـة التأسيسية الاولى واستمرت تستمتع بهذه الدكتاتورية ، مع بعض الفترات الزمنية الفاصلـة حتى ايامنا الراهنـة حيث عجز السيد ميليران نفسه الذي وصفه السيد جوريس بأنه وزير اشتراكي ، عن الحيلولة دون اعدام بعض العمال الذين تجاسروا على عصيان الراسماليين وفي هذه الاوضاع يكون الواجب الاولي الواقع على كاهل البروليتاريا الفرنسية هو القضاء على « شروط امكانية تلك الدكتاتورية البورجوازية وان في عداد اهم هذه الشروط الوعي الطبقي الناقص عند المنتجين الذين لا يبرح معظمهـم خاضعين لنفوذ المستثمرين وبالتالي فان احدى مهـام الحزب العملية الاهم هي تثقيف غير المثقفين ، واستنهاض المتخلفين ومساعدة القاصرين على التطور ، والنشاطات البرلمانية للاشتراكيين الديموقراطيين او اية نشاطات سياسية شرعيـة اخرى يقومون بها تدعم انجاز هـذه المهمة الهامـة ، وبالتالي تستحق كل احترام وتأييد • ان خاصيتهـا الممتازة هي قضاؤهـا علـى الشروط الفكرية لامكانية » الدكتاتورية البورجوازية ، وخلقها « الشروط الفكرية لامكانية دكتاتوريـة البروليتاريـا المقبلة انهـا لا تتناقض مـع الدكتاتوريـة البروليتارية بل تهيؤهـا اما ان يوصف اي نداء موجه الى العمال في سبيـل تحضير دكتاتورية طبقتهم بأنه مجرد عبارة ، فهذا ما لا يمكن توقعه الا من جانب امرىء يفتقر الى ادنى فكـرة عن « الهدف النهائي » ( Endziel ) ولا يفكر الا في الحركة » ( Bewegung ) في اتجاه الاشتراكية البورجوازية

---

* بودنا ان نذكر القارىء بموضوعة مينيه آنفـة الذكر « من المعروف لدى الجميع ان القوة التي تحقق السيطرة تفوز دائما بالاشراف على المؤسسات » وحـين « تفـوز طبقـة بالاشراف علـى المؤسسات » تقوم دكتاتوريتها .

لكن الدكتاتورية **الطبقيــة** تنتسب حسب تعبــير الهــر برنشتاين الــى حضــارة ادنى ،

« و **لا بد للمرء** من الاعتراف بأنه مما يشكل خطوة الى الخلف او رجعــة سياسية ، ان **ينادي** بان **الانتقال** من المجتمع الرأسمالي الى المجتمع الاشتراكي يجب ان يحدث حتما **في شكل** قيام عصر غريب عن طرق الدعاية واقرار القوانين الحالية متآلف مع هذه **الطرق** بصورة معيبة وهو فضلا عن ذلك يفتقر الى الهيئات المناسبة لذلــك * »

وكما أشرنا ، **فان دكتاتورية اية طبقة تعني** سيادتها التي تتيح لهــا أن تتصرف بقوة المجتمع المنظمة **لتدافع عن** مصالحها وتقمع جميع الحركات الاجتماعية التي تهدد تلك المصالح **بصــورة مباشرة او غــير مباشرة** وانــه ليمكن ان يسأل ما اذا كان السعي الى **مثل هذه السيادة** من قبل اية طبقة في المجتمع الحالي يمكن ان يسمى رجعة سياسية ؟ **كلا ، لا** يمكن ان يسمى كذلك ان **الطبقات** موجودة في هذه المجتمع وحيث **توجد الطبقات** يكون **الصراع الطبقي** امرا محتما وحيثما يجري صراع طبقي فانه **من الضروري والطبيعي بالنسبة الى كل من الطبقات المتصارعة ان تسعى** الى النصر **التام على** عدوتها واخضاعها بصورة كاملــة وانه لفي مقدور البورجوازية وايديولوجييها ــ باسم الاخلاق و العدالة ــ ان يدينوا ذلك المسعى حيثما تبديه **البروليتاريا** بقوة ملموسة واننا نعرف ان غيزو ، منذ ١٨٤٩، وصف الصراع **الطبقي على** اعتباره عار فرنسا ومصيبتها بيد اننا نعرف ايضا ان مثل هذه الادانة للصراع **الطبقي** ولسعي الطبقة العاملة نحو الظفر لم تفرض علــى البورجوازية الا **بفعل غريزة** حفظ البقاء لديها وانها كانت ترى دكتاتورية الطبقة في نور مغاير كليا حين كانت تخوض نضالها العريق ضد الارستقراطية وكانت على يقين وطيد بأنه ليس **في مقدور اية** عاصفة ان تفرق سفينتها ولا يمكن للطبقة العاملة ولا يجوز لها ان **تتأثر بالاخلاق** والعدالة المزعومة التي ينادي البورجوازيون بها في اوقات الانحطاط**. **ولقد قال** مينيه ان الاقرار بحقوق المرء لا يمكن كسبه الا بالقوة

* **المصــــدر نفســــه ، ص ١٥٦**

** وذلك على **الاخص لان** الدكتاتورية البروليتارية سوف تضع حدا لوجود الطبقات وبالتالي لصراعها ، مع **جميع الالام الحتمية المسببة عنه** بيد ان هذا شيء لا تريد البورجوازية ولا تستطيع تفهمه من جراء **مركزها الاجتماعي** فقد عملت من أجل الدكتاتورية ووجدتها وسيلة ضرورية وجائزة تماما من أجل **تحقيق اهدافها ابان صراعها** ضد الارستقراطية وعلى أي حال فقد جعلت تدين هذه الوسيلة وتجدها نافلة حالما **قامت مسألة** دكتاتورية الطبقة العاملة وان هذا ليذكرنا بالمتوحش الذي يميز بين الخير والشر **كما يلــي** « **حين** انتزع شيئا من الغير فهــذا خير لكن حين ينتزع شيء مني فهذا شر ولا بد **من قدر** كبير من الارادة الطيبة كي يجد المرء كما يفعل الهر برنشتاين ان حجج البورجوازية مقنعــة ، مع خوفها من دكتاتورية البروليتاريا

وانه لا سيد اعلى حتى الآن الا القوة ، وهو ما ينطبق جيـدا على عصرنا المتصف بنضال البروليتاريا ضد البورجوازية ولو اننا اكدنا للعمال ان القوة في المجتمع البورجوازي لم تعد تملك الاهمية التي كانت تتحلى بها في ظل النظام القديم » لنطقنا بكذب واضح وصارخ لن نفعـل مثلـه كمثل اي كذب آخر الا زيادة آلام المخاض واطالتهـا

وصحيح ان **القوة** و **العنف** ليسا نفس الشيء الواحد ففي العلاقات السياسية الدولية تتحدد اهمية اي دولة بقوتها، بيد انه لايترتب على ذلك ان الاقرار بحق الاقوى في كل حالة خصوصية يفترض العنف بصورة مسبقة وينطبق الامر نفسه على العلاقات **بين الطبقات** فاهمية اية طبقة معينة تتحدد **بقوتها** ، لكن ما ابعد ان يكون **العنف** ضروريا من اجل الاعتراف باهميتها ان دور العنف اكبر احيانا واقل احيانا، وذلك وفقا للبنية السياسية لكل بلد على حدة ويعتقد الهر برنشتاين ان الطبقـة العاملة في البلدان الديموقراطية الحالية لا تحتاج الى العنف في سبيل انجاز اهدافها، وهي فكـرة بالغـة التفاؤل زرعهـا في ناقدنا اهتمامه الدائم بتفادي اخافـة الديموقراطيين البورجوازيين ان لدى فرنسا الحالية دستورا ديموقراطيا ومع ذلك فليس امرؤ عارف بالحياة الداخلية لهذا البلد يستطيع ان يضمن الا تضطر البروليتاريا فيها لاستعمال القوة العارية كي تقاوم العنف من جانب البورجوازية وفضلا عن ذلك ، فان كل مطلع على الدستور الفرنسي سوف يقول ان منطق القانون الانتخابي في هذا البلد يمكن ان يقود بحد ذاته الى ثورة تقوم بها البروليتاريا*

او لنأخذ الولايات المتحدة الاميركية التي هي بلد ديموقراطي ايضا الا ان تحرير العبيد ، في هذا البلد الديموقراطي لا يمكن تحقيقه الا لقاء صراع ضروس وليس في مقدور احـد ان يضمن الا تضطر البروليتاريا لتمهيـد السبل امام تحررهـا الاقتصادي بواسطة **العنف** وفي راي الهر برنشتاين ان « اية نشاطات اشتراكيـة ديموقراطية عملية تستقيم في اقامة الظروف والشروط التي سوف تجعل من الممكن والضروري الانتقال من النظام الاجتماعي القائم حاليا الى نظام اعلى دونما ايـة اختلاجات** وهـذه الكلمات لا تخلو مـن بعض الحقيقـة فالاشتراكيـة الديموقراطية معنية حقا بالانتقال الى نظام اجتماعي اعلى يتم دون اية اختلاجات لكن أنكون معنى ذلك ان عليها ان تتخلى عن فكرة دكتاتورية البروليتاريا ابدا حين احتلت القوات الاوروبيـة الاميركية اليابانية المتحالفة مدينة بكين كانت معنية جدا بأن يتم احتلال العاصمة الصينية دون اراقة دماء البتة بيد انها لم تتخل مع ذلك لحظة واحدة عن فكرة الاستيلاء عليهـا فليس هدف يتغير لان الناس

---

* انظر جان جوريس الاشتراكية الفرنسية في **كوسموبوليس** عدد كانون الثاني ١٨٩٠ ص ١١٩

** المصـدر نفسـه ، ص ١٥٨

يحاولون تحقيقه بأقل الجهود ، لكنه حين يكون الناس عازمين بحزم على تحقيق هدف معين ، فان اختيار الوسيلة لا يتوقف عليهم بل على الظروف ولما كان الديموقراطيون الاشتراكيون عاجزين عن التكهن بجميع الظروف التي سوف تضطر البروليتاريا لان تفوز بسيادتها فيها* ، فهم لا يستطيعون لهذا السبب بالضبط ان يرفضوا الاسلوب العنيف في العمل ان من واجبهم أن يتذكروا الحكمة القديمة والمجربة اذا اردت السلام ، فتهيأ للحرب

ورب من يقول لنا أن انجلز نفسه نصح الاحزاب الاشتراكية في جميع البلدان، حوالي اواخر حياته ، بأن تتجنب العمل العنيف وان تظل على قاعدة الصراع السلمي بواسطة الوثائق القانونية** ولسوف نرد على ذلك كما يلي

لقد أعطى انجلز هذه النصيحة على اساس ثلاثة اعتبارات ١ — ان الثورة الاشتراكية تفترض مستوى عاليا لتطور الوعي الطبقي عند العمال ، وهو ما يتطلب وقتا*** ٢ — ان المحافظين الالمان يبذلون كل جهودهم ليجبروا الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان على تنظيم عصيان املا في الحاق الهزيمة بهم وبذلك وضع حد لنجاحاتهم المتعاقبة**** ٣ — ان تجهيزات الجيش الحالية تجعل أية محاولات لانتفاضات الشوارع لا رجاء منها*****

ولا يتطلب الاعتباران الاولان من هذه الاعتبارات الثلاثة اية « تعديلات أو أي تعليق فهما مطروحان بوضوح وصواب تامين بحيث لا يمكن ان يثيرا الاعتراض لا من جانب اولئك الذين في وسعهم بالفعل ان ينتقدوا عقيدة ماركس وانجلز ، ولا حتى من جانب اولئك الذين لايسعهم الا ادعاء النقد زورا بيد ان هذين الاعتبارين لا يدينان العمل العنيف عادة ، بل يدينان مثل هذا العمل العنيف السابق لاوانه ، ولذا فليس ثمة رابطة تجمع بينهما وبين الحجج التي يقدمها انصار التطور السلمي » بأي ثمن كان

---

* قلنا من قبل ما هو السبب في حاجة البروليتاريا الى هذه السيادة

** انظر مقدمته ( المؤرخة في آذار ١٨٩٥ لكتاب ماركس **الصراعات الطبقية في فرنسا** ١٨٤٨ حتى ١٨٥٠.

*** «لقد ولى زمان الهجمات المفاجئة زمان الثورات التي تقوم بها أقليات صغيرة واعية على رأس الجماهير غير الواعية فحيث يكون المقصود التحويل التام للتنظيم الاجتماعي لا بد من اشتراك الجماهير نفسها لا بدّ لهذه الجماهير ان تدرك من تلقاء ذاتها ، بصورة مسبقة ما هي الامور المعرضة للخطر ما هي الامور التي تجازف من أجلها جسدا وروحا لكنه لا بد ، كي تفهم الجماهير ما يتوجب عليها فعله ، من عمل طويل دائب قبل ذلك ، الخ ، ( **الصراعات الطبقية في فرنسا** فورنفورت ص

**** المصدر نفسه ، ص ١٧

***** المصدر نفسه ، ص ١٤ — ١٥

واما الاعتبار الثالث ، فان تحليلا دقيقا لمعناه يبين انه يختلف عما يمكن ان يبدو للوهلة الاولى

يقول انجلز في شرح هذا الاعتبار ان قتال الشوارع غالبا ما قاد ، حتى عام ١٨٤٨ ، الى انتصار المتمردين ، بيد ان هذا النصر صدر عن اسباب مختلفة كل الاختلاف . ففي باريس في تموز ١٨٣٠ وشباط ١٨٤٨ ، وفي معظم حالات قتال الشوارع في اسبانيا كانت النتيجة يحسمها الحرس الوطني الذي كان يحطم بتردده معنويات القوات النظامية بل ينحاز الى جانب العصاة أما حين كان هذا الحرس يقاوم العصاة بحزم وبصورة فورية ، فقد كانت الانتفاضات تجهض دائما كذلك كانت الحال على سبيل الثال ، في باريس في حزيران ١٨٤٨ ومهما يكن من شيء ، فان العصاة ما كانوا ينتصرون الا حيث وحين يكون في مقدورهم زعزعة معنويات القوات المسلحة وحتى ابان المرحلة الكلاسيكية لقتال الشوارع كانت اهمية المتاريس معنوية اكثر منها مادية ، لانها حين كانت تعوق تقدم القوات كانت تمنح العصاة وقتا من اجل التأثير في معنويات هذه القوات ومهما يكن من شيء ، فقد كان العسكريون ينتصرون في كل مرة لا تخضع فيها معنوياتهم لتأثير العصاة

فاذا كان الامر كذلك ، وحتى اذا كانت حصيلة الانتفاضة تتقرر دائما ، في المرحلة الكلاسيكية لقتال الشوارع ، بمعنويات الجيش ، فان المسألة موضع البحث ترتد اذن الى ما يلي هل في مقدور العصاة في الوقت الراهن ان يمارسوا في القوات العسكرية تأثيرا في مصلحتهم ؟ ويرد انجلز على هذا السؤال بالنفي القاطع ، فيقول ان العصاة لا يستطيعون حاليا ان يعتمدوا ، كما فعلوا عام ١٨٤٨ على تعاطف جميع شرائح السكان ؛ وبالرغم من ان مزيدا من الناس الذين حصلوا على التدريب العسكري يمكن ان ينحازوا الى صفهم حاليا ، فانهم سيجدون صعوبة اعظم حتى درجة كبيرة في الحصول على الاسلحة المناسبة ويضاف الى ذلك كله الاعتبار التالي ، الا وهو ان عمارات جديدة شيدت منذ عام ١٨٤٨ في المدن الكبرى ، وهي غير ملائمة لانشاء المتاريس ويستطرد انجلز مستفسرا

« ايفهم القارىء الآن لماذا كانت السلطات القائمة آنذاك تريدنا بصورة ايجابية ان نسعى الى حيث تقصف المدافع والى حيث تذبح السيوف ؟ لماذا يتهموننا اليوم بالجبن ، لاننا لم نهبط دون صخب زائد الى الشارع حيث كنا على ثقة من الهزيمة بصورة مسبقة؟ لماذا يتوسلون الينا بكل لهفة ان نلعب مرة اخرى دور طعام المدافع ؟ ان اولئك السادة يكيلون توسلاتهم وتحدياتهم لقاء لاشيء ، لقاء لا شيء على الاطلاق فنحن لسنا على تلك الدرجة من البلاهة*

هذا كله مصاغ بلغة حازمة ولا يبدو انه يخلف اي شك حول رأي انجلز لكن لاحظوا ان هذه الحجج جميعا تقصد الوضع القائم في الاشتراكية الديموقراطية

* **الصراعات الطبقية في فرنسا** ، ص ١٥ (٢٣٩)

الالمانية التي سوف تتهور بالفعل في عملها اذا هي انساقت مع الاستفزازات الغادرة للطبقات الحاكمة ان حجـة قد تلوح ذات طبيعة عامة تحصل هنـا على معنى خصوصي فالقارىء يأخذ في التفكير في ان انجلز لا يقصد الا الوضـع القائم في الاشتراكية الديموقراطية الالمانية وهو انطباع تدعمه حتى درجة كبيرة كلمات انجلز التاليـة

« لكن مهما يمكن يحدث في البلدان الاخرى فان الاشتراكية الديموقراطيـة الالمانية تحتل مركزا خاصا وبالتالي فان أمامها مهمة خاصة ، في المستقبل القريب على أقـل تعديـل*

ومن بعد يأتي شرح السبب في ان الحزب الاشتراكي الديموقراطي لا بد ان يجد في الوقت الراهن ان اللجوء الى العمل العنيف في غير مصلحتـه ، الامر الذي يؤدي بصورة طبيعية الى افتراض ان فكرة الخصائص النوعية للوضع القائم في الحزب الالماني تضفي صبغة نوعية على حجة انجلز بكاملها بخصوص نضال الطبقة العاملة العلني ضد مستثمريها ويفسح هذا الافتراض المجال لليقين حين نقرأ الفقرة الواردة في آخر المقدمة حيث يقول انجلز انه نظرا للنجاحات المتصلة التي حققهـا الاشتراكيون الديموقراطيون فقد تلغي الحكومة الالمانية الدستور وتعود الى الحكم المطلق انه يلمح هنا الى ان مثل هذه المحاولة سوف تقود الى انتفاضة شعبيـة تتحطم عليها القوى الرجعية وبالتالي فانه يترتب على ذلك ، في رأي انجلز ان الفشل لن يكون من نصيب اي عصيان شعبي في الوقت الراهن وهي نتيجـة لا مفر منها تدعمها اكثر فاكثر السطور الختامية للمقدمة التي تعود بأفكار القارىء ١٦٠٠ سنة الى الوراء حين كانت المسيحية منخرطة في النضال ضد الوثنية لقد اضطهد العالم الوثني المسيحيين بصورة وحشية على اعتبارهم عناصر هدامة ، بحيث ما كان في مقدورهم لفترة طويلة من الزمن ، ان يقوموا بنشاطاتهم الا بصورة سرية ، بيد ان عقيدتهـم انتشرت شيئا فشيئا لدرجـة ان اصبح لهـا مؤيدون بـين الجنـود

« **اعتنقت جحافل كاملـة المسيحيـة** التشديد من قبلنا ) وحين كان مثـل هؤلاء الجنود المشربون بروح الدين الجديد يؤمرون بحضور الاحتفالات الوثنية كانوا يجدون الجراة على رفع شعارات مخصوصة ـ صلبانا فوق خوذهم تعبيرا عن احتجاجهم ولم تجد معهم فتيلا التدابير الانضباطيـة المألوفة وشن الامبراطور ديوكليسيان نضالا حازما ضدهم فأصدر قانونا مناهضا للاشتراكية ـ عفوا اريد ان أقول مناهضا للمسيحية ». ومنعت اجتماعات العناصر التخريبيـة ، وأغلقت أماكـن لقائهـم وحظـرت الشعارات المسيحية واتصف عام ٣٠٣ باضطهاد وحشي للمسيحيين لكن مثل هذه التدابير كانت الاخيرة من نوعها «ولقد كان فعالا حتى درجة قصوى بحيث لم تمض سبع عشرة سنة

---

* المصـدر نفسـه ، ص ١٧

حتى أعلن الجيش الذي كانت غالبيته الساحقة تتألف من المسيحيين وقسطنطين المسيحية ديانة للدولة*

اذا كان لهذه السطور معنى في حال من الاحوال – ومن المؤكد انها لا تفتقر الى المعنى – فذلك بمعنى ان الاشتراكيين سوف ينتصرون حين تتغلغل الافكار الثورية في الجيش وحين تكون الجحافل الحالية مشربة بالروح الاشتراكي ؛ وحتى يحين ذلك الزمان فان من واجب الحزب الاشتراكي ان يتجنب الصدامات المكشوفة مع الجنود ولسوف يرى القارىء أن هذه النتيجة ليست في حال من الاحوال النتيجة المستخلصة عادة من محاكمة انجلز هذه

لكن أيكون في مقدور الافكار الاشتراكية ان تتغلغل في الجيش ؟ ليس هذا ممكنا فحسب بل هو محتم ايضا ان التنظيم الحالي للمؤسسة العسكرية يتطلب التجنيد العام مما يحمل الى القوات المسلحة افكارا شديدة الانتشار بين الناس . وبقدر ما يكون انتشار الافكار الاشتراكية اعظم بين الجماهير يكون حظ العصاة في النجاح اكبر وانا لنعرف من قبل من انجلز ان حصيلة قتال الشوارع تحدده دائما معنويات الجنود**

ومما لا ريب فيه ان الجحافل لن تقع تحت نفوذنا في وقت قريب جدا لكن ما اجل لا يعتبر مفقودا ، على حد تعبير الفرنسيين فالافكار الاشتراكية سوف تتغلغل عاجلا او آجلا في القوات المسلحة ، وعندئذ سوف نرى ما سوف يتبقى من عدوانية الرجعيين وما اذا كانوا سيكفون عن تحدينا للنزول الى الشوارع ...

واذا قارنا محاكمة انجلز هذه التي ناقشناها لتونا مع السطور الختامية الشهيرة لبيان الحزب الشيوعي*** سوف نجد ان انجلز، فياخريات ايامه ، غير حتى درجة كبيرة رايه بخصوص دور الانتفاضات المكشوفة في نضال البروليتاريا في سبيل التحرر ففيما كانا ماركس وهو يعتبران في زمن صدور البيان الانتفاضة شرطا اساسيا لانتصار الطبقة العاملة اقر انجلز في اخريات ايامه بأن الطريق المشروعة يمكن كذلك ان تقود الى النصر في ظروف محددة ، واخذ ينظر الى العصيان من حيث هو نمط للعمل لا يقدم في وضع القوات المسلحة الراهن النصر للاشتراكيين، بل يلحق بهم هزيمة طنانة ولن يكف عن ذلك حتى تتشرب الجيش نفسه بالروح الاشتراكي

* المصدر نفسه ص ١٩

** نرى نه من الضرورة بمكان الاشارة الى ان المتاريس حالة خصوصية للصراع المكشوف

*** لا يتدنى الشيوعيون الى اخفاء آرائهم ومقاصدهم ومشاريعهم بل يعلنون صراحة أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها الا بالقضاء على كل النظام الاجتماعي التقليدي بالعنف والقوة ألا فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام فكرة الثورة الشيوعية البروليتاريين لن يفقدوا فيها سوى أغلالهم وان لهم عالما يربحونه » . ( البيان الشيوعي ، ص ١٩ (٢٤٢) ) .

من المؤكد ان هذه النظرة الجديدة لانجلز تستحق كل انتباه واحترام ، وهي لا تتناقض في حال من الاحوال مع ما قلناه اعلاه عن الاهمية الممكنة للعمل العنيف في نضال الطبقة العاملة الثوري ان كل ما تفعله هو ايضاح الشروط اللازمة من أجل نجاح مثل هـذا العمـل*

ويجب ان نضيف الى ذلك ان دكتاتورية اية طبقة خاصة شيء واحد بينما العمل العنيف الذي تعمد اليه هذه الطبقة في سعيها الى الدكتاتورية شيء آخر فقد كان غيزو وزملاؤه من المفكرين ، خلال عصر عودة الملكيـة ، نشيطين وعازمين جدا في سعيهم الى اقامة دكتاتورية « الطبقة المتوسطة لكن ايا منهم لم يفكـر في العمل العنيف عامة وفي قتال الشوارع خاصة ومن الارجح ان غيزو كان يدين بحدة اي مشروع لمثل هـذا العصيان ، الامر الذي لم يمنعه على أي حال من ان يكون ثوريا لانه لم يكف لحظـة واحدة عن ان يبث في اذهان الطبقة المتوسطة » الاحساس بالتعارض العدائي بين مصالحها ومصالح الارستقراطية وعن أن يؤكد على فكرة ان اي تفكير في مصالحة هـذه الطبقـة وهم ضار ولقد كان ماركس وانجلز في بيان الحزب الشيوعي بالضبط من ذلك النوع من الثوريين سوى انهما كانا نصيرين لوجهـة نظر طبقة اخرى ) ولقد ظلا من نفس ذلك النوع من الثوريين حتى آخر لحظة من حياتهما وفي هذا الصدد لم تتغير آراؤهما مطلقا وهـذا بالرغم من تأكيدات أولئك النقاد الذين يتشكلون كليا على حد تعبير ماركس ، من « من جهة واحدة و من جهة اخرى والذين يودون تماما ان

---

* في مقالته عن « الاشتراكية في المانيا » ( نيوزيت ، العدد العاشر ، ص ٥٨٣ ) المحررة عام ١٨٩٢ يهتف انجلز وهو يتحدث عن الانتشار السريع للافكار الاشتراكية في الجيش « كم مرة دعانا البورجوازيون فيها الى التخلي للابد عن استخدام الوسائل الثورية والبقاء ضمن حدود الشرعية... من سـوء الحظ أننـا لسنا في وضـع في هـذه الحال يتيـح لنـا ارضـاء البورجوازيـين » ( التشديد من قبلنا ولا يحول هذا دون فهمنا ان الشرعية لا تقتلنا نحن في الوقت الراهن، بل تقتل غيرنا انها تعمل جيدا في مصلحتنا بحيث يكون من الحماقة ان ننتهكها(٢٤٣) » وهذه هي الفكرة نفسها التي نصادفها في مقدمته ، سوى انها اعطيت في هـذه المقدمة صياغة غامضة عن قصد نزولا عند الحاح بعض الاصدقاء الذين رأوا لاعتبارات عملية ان الوضوح فيها غير مناسب انظر في هذا الشأن مقالة كاوتسكي « برنشتاين والجدلية في نيوزيت ، العدد السابع عشر ص ٤٧ ) وحين اتبع انجلز نصيحة اصدقائه العملية في هذه القضية تسبب في امكانية التفسير النظري الخاطىء لرأيه وهو تفسير قاد الى كتلة من الارتباك اعظم حتى درجة كبيرة من جميع المضايقات التي يمكن أن تترتب على عرض واضح وغير ملتبس لفكرته وهذه عبرة لاولئك النظريين المستعدين جدا لتقديم التنازلات اذ ان من واجبهم ان يتذكروا انه حين يكون المقصود صياغة الآراء النظرية فان اصحاب النشاط العملي هم على الدوام غير عمليين حتى درجة بالغـة .

يحرروا البروليتاريا دون ادنى اساءة الى البورجوأزية والذين يستطيع المرء أن يقـول عنهـم على حـد تعبـير نيتشـه « Selig sind Diese Schläfrigen

Denn sie sollen bald einnicken*

هذا كل ما كنا نريد ان نقوله عن الفكرة الاساسية في **البيان** والنتائج الواجب استخلاصها منها وأما موضوعاته المفردة فسوف تكون موضع دراستنا ، كما ذكرنا ، في كتيبنا **نقـد نقادنا** ، حيث سوف نرى ما اذا كان ماركس وانجلز **مصيبين،** واذا كان الامر كذلك فحتى اية درجة ، حين يقولان ان القوى المنتجة في المجتمـع البورجوازي تجاوزت علاقات الانتاج الملازمة له ، وان مثل هذا التناقض بين القوى المنتجة من جانب واحد وعلاقات الانتاج من جانب آخر هو الاساس الاجتماعي الكامن خلف الحركة الثورية للطبقة العاملة في أيامنا الراهنة

* * *

# نقــد لنقادنــا

## القســـم الاول

## السيد ب . ستروفه في دور ناقــد

## النظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي

### المقالــة الاولى

### ١

حالما تصبح مسألة ما واضحــة ينهض المعارضون الذين يحاولون ، بحجة التجديد ان يلقوا الفوضى والالتباس في المسألــة موضوع البحث أكثر ما صادف مثل هؤلاء المعارضين ومثل هذه الآراء المعارضـــة

**كونو فيشر**

ن هؤلاء السادة جميعا مولعون بالماركسية لكن من ذلك النــوع الذي عرفته في فرنسا قبــل عشر سنوات والذي كان ماركس يقول عنه كل ما اعرفه هو انني لست ماركسيا وانه لمن الارجح يقول عن هؤلاء السادة ما كان هايني يقوله عن مقلديه لقد زرعت التنانين وحصدت قملا !

**من رسالة فريديريك انجلز الى بول لافارغ بتاريــخ ٢٧ تشــرين الاول ١٨٩٠** (٢٤)

يتمرن السيد ب ستروفه منذ زمن طويل على نقــد لماركس لكــن تمارينه « النقدية لم تتسم حتى وقت قريب بأي منهج فقــد اقتصر بصــورة رئيسية اما على بيانات مقتضبة ومتكبرة بمعنى انه هو السيد ب ستروفه لم يتلوث بالاورثوذكسية بل يقف تحت لافتــة النقد او على ملحوظات موجزة في موضوع ان اتباع ماركس الاورثوذكسيين اخطأوا في هذه المسألة أو تلك ، فيما صدرت الحقيقة عن الماركسيين « النقديين ومهما يكن من شيء ، فان البيانات المقتضبة والملحوظات الموجزة لم تفسر عمليا اي شيء بخصوص جذور اخطاء

الماركسيين « الاورثوذكسيين او البراهين على ان انتقاد كانوا على صواب ولا يستطيع المرء ان ينخرط الا في التكهنات في هذا الشأن واكثر هذه التكهنات رجحانا هو ان ماركس واتباعه الاورثوذكسيين »اخطأوا لانهم- لم يتباركوا بنعمة ما يعرف بالفلسفة النقدية ، وهي الفلسفة التي اضاءت بصورة فائقة اللمعان النظرة الى العالم التي يدين بها السيد ب ستروفه وزملاؤه من المفكرين النقديين وبالرغم من ان هذا الافتراض يمكن ان يكون على درجة عالية من الاحتمال ، فان القارىء لا يملك الا معطيات غير كافية للتحقق منه ولدينا في الوقت الراهن هذه المعطيات الاساسية تحت تصرفنا ، بحيث نحن الآن في مركز نستطيع منه بدورنا ان نخضع ناقدنا للنقد

اننا نود في المقالات التي ننوي تقديمها الى القارىء ان نحلل الدراسة النقدية التي نشرها السيد ب ستروفه في **براونس ارشيف**(٢٤٥) تحت عنوان « Die Marxsche Theorie Der Sozialen Entwickelung* »وعرضه المنشور في نفس الكتاب من **ارشيف** لكتاب ادوارد برنشتاين الشهير **Voraussetzungen Des Sozialismus und Die Aufgaben Der Sozialdemokratie** ورد كاوتسكي على برنشتاين وهو الرد الذي لا يقل عن ذلك شهرة برنشتاين وبرنامج الاشتراكية الديموقراطية ان هذه « الدراسة النقدية وهذا العرض الذي لا يقل نقدا عن ذلك يسمان بصورة شديدة احابيل صاحبنا المؤلف ونمط تفكيره على حد سواء

ويشير السيد ب ستروفه في دراسته الى انه يعالج الفهم المادي للتاريخ بكل كماله بقدر ما يعالج تطبيقه الخاص على التطور من الراسمالية الى الاشتراكية لكنه فيما لا ينصب نقده الا على **قسم** من نظرية ماركس عن التطور الاجتماعي فانه يتناول في الوقت نفسه **كل** هذه النظرية على العموم وحتى بعض مقدماتها الفلسفية وهكذا فهو يوفر لنا مواد غزيرة من اجل **نقدنا للناقد** • لكن لنسمع اولا ما لدى السيد ستروفه من اقوال

انه يؤكد ان لذلك القسم من نظرية ماركس الذي يخضعه للتحليل اساسا مثلث الا وهو ١ - نظرية تطور القوى المنتجة في المجتمع الراسمالي او بكلمات اخرى نظرية تشريك الانتاج ومركزته ونظرية الفوضى الصناعية في المجتمع الراسمالي ٢ - نظرية تدهور شروط الطبقات الادنى من المجتمع او نظرية الاملاق ونظرية اغتصاب الراسماليين الصغار من قبل الراسماليين الكبار ؛ واخيرا ٣ - نظرية دور البروليتاريا الثوري ، بعني نظرية الرسالة الاشتراكية للبروليتاريا التي تتكون بفعل تطور الراسمالية وتنمو في سياق هذا التطور

وفي شرحه للنظرية الاخيرة يستطرد السيد ب ستروفه قائلا تخضع البروليتاريا للاملاق بيد انها تنجز في الوقت نفسه نضوجا اجتماعيا وسياسيا

* **براونس ارشيف** ، العدد ١٤ الجزءان الخامس والسادس

يجعلها قادرة على الاطاحة بالنظام الراسمالي من خلال نضال طبقي نشيط والاستعاضة عنه بالنظام الاشتراكي

لكن ما هو رأي ناقدنا في هذا الاساس المثلث لنظرية ماركس ؟

اذا كان السيد ستروفه لا يتناول مسألة ما اذا كان ماركس يعطي تعريفا صائبا لما يتحلى به كل من هذه الاتجاهات الثلاثة من اهمية **نسبية** ، فانه يقر بوجودها الفعلي في المجتمع الراسمالي للنصف الاول من القرن التاسع عشر ان نظرية الاملاق مجرد تقرير لواقع قائم ؛ وتطور القوى المنتجة امر يقع تحت جميع الابصار ؛ والاعمال الثورية للبروليتاريا ، المتفاوتة بين الانفجارات العفوية والحركة الشيوعية ، هي قضايا الساعة الراهنة ومهما يكن من شيء ، فان ناقدنا يعتقد ان ماركس ارتكب خطأ فادحا حين اكد ان الاتجاهات التي سماها **تقود الى الاشتراكية** . فليس لهذا التأكيد أي اساس واقعي، بل لقد كان **طوباوية*** بكل بساطة.

لقد كان انتصار الاشتراكية مستحيلا تماما طالما ان املاق الجماهير حقيقة لا جدال فيها وكان املاق العمال متنافرا مع درجة من النضوج في هذه الطبقة يجعلها قادرة على تنفيذ الثورة الاشتراكية وهذا هو السبب في ان الاحوال الفعلية في الاربعينات لم تترك فسحة لتفاؤل اجتماعي تفترب عنه كل طوباوية على الاطلاق اذا ما قدر للراسمالية حقا ان تنهار ، فلن يكون هناك انسان يشيد بناء الاشتراكية على انقاضها واذا كان التشاؤم من اي نوع غريبا عن ماركس مع ذلك، فمرد ذلك بالضبط الى افتقار مفهومه الاجتماعي السياسي عن العالم لاي اساس البتة ويقول السيد ب ستروفه « **ان حافزا سيكولوجيا ملحا للبرهان على الضرورة التاريخية لنظام اقتصادي قائم على الجماعية قد الزم الاشتراكي ماركس ، في الاربعينات ، بان يستخلص ( Deduzieren ) الاشتراكية من مقدمات اقل ما توصف به انها ناقصة**** » .

ويرى السيد ب ستروفه ان ماركس عدل بصورة جوهرية ، في وقت لاحق، نظرته المتشائمة الى شروط الطبقة العاملة في المجتمع الراسمالي لكنه لم يرفضها بصورة تامة وبوعي كامل ان التناقض الصارخ بين املاق الطبقة العاملة من جهة واحدة وتطور المجتمع نحو الاشتراكية من جهة اخرى قد ظل ما وراء مدى ادراكه بل ان هذا التناقض الفعلي اكتسب في نظره مظهرا شرعيا ، متقدما اليه على اعتباره تناقضا جدليا يسعى نحو حله*** ونظرا لهذا الانحراف السيكولوجي العجيب فليس ما يدهش في ان السيد ب ستروفه يرى نفسه مضطرا الى تحويل انتباهه الى « عقيدة التطور من خلال نمو التناقضات ( Durch Steigerung Der Widerprüche ) والى اخضاع هذه العقيدة لتحليل وثيق

---

* التشديد من قبلنا

** **ارشيف** ، العدد ١٤ الجزءان الخامس والسادس ، ص ٦٢ . التشديد من قبلنا .

*** المصدر نفسه ، ص ٦٦٣ — ٦٦٤

## ٢

لقد « تناول » ناقدنا ظاهرتين **ب** و **ج** تتعارضان ، وهو يناقش الامور كما يلي:
اذا حدث نمو التناقضات فعليا هنا فان تطور العنصرين المتضادين سوف يعبر عنه في الصيغة التالية

**الصيغة رقم ١ التي يدعوها السيد ب . ستروفه صيغة التناقض**

| ب | ج |
|---|---|
| ب٢ | ج٢ |
| ب٣ | ج٣ |
| ب٤ | ج٤ |
| ب٥ | ج٥ |
| ب٦ | ج٦ |
| **ن**ب | **ن**ج |

ان كلا من هاتين الظاهرتين ب و ج تنمو من خلال تراكم عناصر متجانسة ( Häufung des Gleichartigen ) ، كما ينمو التناقض القائم بينهما بصورة متوافقة مع ذلك وبفضل ذلك ، وهو تناقض يلغى آخر الامر بانتصار الظاهرة الاقوى على الظاهرة الاضعف **ن**ب تدمر **ن** ج

لكن السيد ب ستروفه يشير الى ان في مقدورنا ان نتخيل ان في الواقع الاجتماعي تناقضات من نوع مختلف كليا يصير التعبير عنها في صيغة مختلفة كل الاختلاف

**الصيغة رقم ٢ التي نقترح تسميتها صيغة التناقض المثلوم**

| ب | ج |
|---|---|
| ب٢ | ج٢ |
| ب٣ | ج٣ |
| ب٤ | ج٢ |
| ب٥ | ج |
| ب٦ | ج٠* |

---

* ان صيغة السيد ب ستروفه الاصلية تنص بدلا من « **ج** على Keiw **B**
لكن القارىء يدرك ان ذلك هو نفس الشيء الواحد

ان في كل من هــذه الامثلة كما تعبر الصيغتان عنهــا بعض **التفاعــل** بــين **ب** و **ج** لكنه فيما يقود نمــو **ب** في المثال الاول بصورة دائمــة الى نمو **ج** ايضا ، يعني الى **احتداد التناقض** بين هاتين الظاهرتين فان عمل **ب** النامية باستمرار يؤدي في المثال الثاني الى زيادة في معامل **ج** في البداية فقط ، ومن بعد ، **اثر تجاوز حد معين** ، يؤدي الى فقدانه ، وبالتالي ايضا الى **تراخي** ذلك **التناقض** وهكــذا ينحل التناقض هنا بفضل الثلم ( Durch « Abstumpfung )

ويرى السيد ب ستروفه انه من الامور غير القابلة للتصديق* الفكرة القائلة أن التطور الاجتماعي يحدث في منعطفه الحاسم وفقا للصيغة الاولى على وجه الحصر لكن من الذي نطق بهــذا المعتقد ومتى ؟ وفقا للسيد ب ستروفه يترتب ان جميع الماركسيين الاورثوذكسيين يدينون به وهو أمر مغلوط تماما اننا نعتقد انه لا يكاد يوجد واحد من اتباع ماركس الجادين يوافق على الاقرار بأن « الصيغة الاولى للسيد ب ستروفه صحيحة وبدون الاقرار بصحة كلتي الصيغتين لا يمكن طبعا التأكيد بأن التقدم التاريخي يجري على وجه الحصر وفقا لتلك الصيغة ولقــد نسب السيد ب. ستروفه هــذا المعتقد غير القابل للتصديق الى خصومه الاورثوذكسيين بشيء مبالغ فيه من السرعــة

في وقت لاحق ، في الفصل الاخير الذي هو احد فصول هذه المقالة سوف نقدم تحليلا مفصلا عن الصيغة الاولى للسيد ب ستروفه ونبين خطلها أما الآن فسوف ندعو القارىء الى توجيه انتباهه الى الصيغة الثانية

ان المقصود منها التعبير عن التفاعل بين **ب** و **ج** وعلى أي حال ، فان هــذا التفاعل يفترض بصورة مسبقة فعل **ب** في **ج** ، وعلى العكس من ذلك فعل **ج** في **ب** ولقد علمنا من الصيغة نفسها والايضاحات المرافقة لها ان نمو **ب** يشترط حتى حد معين **نمو ج** ايضا ، ومن بعد ، **ما وراء هــذا الحد** ، يقود على النقيض من ذلك الى **نقصان في ج** لكن ما معنى ذلك ؟ انــه يعني ان الحد المشار اليــه نقطــة **يتحول ما وراءها فعل ب في ج الى نقيضه المباشر** • وبالتالي فان الصيغة الثانية للسيد ب ستروفه يمكن ان تخدم من حيث هي مثــال جبري جيد تماما ، اذا جاز التعبير لذلك **الانتقال من التغيرات الكمية الى التغيرات النوعية** الذي يصادف لدى كــل خطوة في الطبيعة والحياة الاجتماعية على حد سواء ، لكنه يعد مع ذلك من قبــل « نقادنا ( من معسكر منظري المعرفــة ) في عداد المعتقــدات غير القابلــة للتصديق التي ابتكرهــا هيغــل والتي قبــل بهــا عن ثقــة ماركس واتباعــه الاورثوذكسيون »

---

* ان الاقواس الصغيرة هي من السيد ستروفــه

ونتابع طريقنا بعد دعوتنا القارىء الى تذكر هذا المثال الذي سيتضح انه عميم الفائدة لنا في وقت لاحق

يشير ناقدنا الى ان اعتبار صيغة التناقض » يكتسب اهمية خاصة لدى مقارنته بالفكرة الاساسية للتفسير المادي للتاريخ وهذا صحيح لاسباب عديدة وعلى اي حال لان هذه المقارنة ، الصادرة عن السيد ب ستروفه تبين لنا ما اذا كان قد فهم بصورة صحيحة الكاتب الذي ينقده

ويبدأ السيد ب ستروفه المقارنة بمقتطف من المقدمة التي كثيرا مايستشهد بها والمعروفة بصورة عمومية بالتأكيد ، وهي مقدمة كتاب ماركس في نقد الاقتصاد السياسي •

« أن نمط انتاج الحياة المادية يشترط التطور الحياتي الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة وان قوى المجتمع الانتاجية المادية تدخل في مرحلة معينة من نموها في نزاع مع علاقات الانتاج القائمة ، أو ـ وهذا ما لا يعدو كونه التعبير الحقوقي عن الامر نفسه ـ مع علاقات الملكية التي كانت فعالة ضمنها حتى ذلك الحين وعندئذ تتحول هذه العلاقات من أشكال لتطور القوى الانتاجية الى قيود لها فيبدأ عصر من الثورة الاجتماعية ومع تبدل الاساس الاقتصادي تتعرض كل البنية الفوقية الهائلة للتغير بسرعة تزيد أو تنقص* فلا ينقرض نظام اجتماعي قط قبل أن تكون سائر القوى المنتجة التي يتوفر لها محال فيه قد تطورت • كما أن علاقات الانتاج الجديدة والاعلى لا تظهر قط قبل أن تكون شروط وجودها المادية قد نضجت في أحشاء المجتمع القديم(٢٤٦)» •

وينصرف السيد ب ستروفه ، بعد ايراد هذا المقتطف ، الى تحليله فيقول :«ما يعبر عنه بكل وضوح هنا هو فكرة قابلية التكيف الدائم » Angepasstsein للمؤسسات الحقوقية والسياسية مع الاقتصاد من حيث هو شكل طبيعي لوجودها** ان عدم توافق العلاقات الحقوقية والعلاقات الاقتصادية تناقض يؤول الى تكيف القانون مع الاقتصاد ويقدم ماركس التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ( علاقات الملكية ) على اعتباره تناقضا اساسيا ، بحيث يشكل تكيف علاقات الانتاج مع القوى المنتجة مضمون الثورة الاجتماعية وفي عرض ماركس هذا غموض بمعنى ان القوى المنتجة المادية من جهة واحدة وعلاقات الانتاج من جهة ثانية وهي ليست شيئا آخر سوى حصيلة مجردة لحدود اقتصادية مشخصة ، او بعبارات حقوقية علاقات قانونية • هي في ذاتها ماهيات او «اشياء مستقلة وهذا الغموض وحده هو السبب في أن المرء يستطيع ان يتحدث عن التناقض ، او التكيف ، بين القوى المنتجة المأخوذة في كتلة واحدة » ( en bloc )

---

* يوضح السيد ب ستروفه هنا بين قوسين ان البنية الفوقية تتشكل من المؤسسات الحقوقية والسياسية التي يقابلها شكل محدد للوعي الاجتماعي

** التشديد من السيد ستروفه

وبين جميع العلاقات القانونية المأخوذة في كتلة واحدة هي الاخرى وان يرى في الثورة الاجتماعية تصادما ( ولا اهمية لما اذا استمر برهة واحدة او خلال فترة من الزمن تطول او تقصر ) بين هاتين الماهيتين انه لمن الواضح انه يمكن اعتبار التطور الاجتماعي من حيث هو عملية طويلة لتصادمات وتكيفات متنوعة ويبدو أن ماركس اعتبر كلا النمطين لفهم الثورة الاجتماعية صحيحين وانه اخفق في ملاحظة تنافرهما واما بشأن الثورة الاشتراكية بالخاصة ، فقد نظر ماركس اليها من حيث هي تصادم جبار بين الاقتصاد والقانون يتوج بصورة لا مندوحة عنها بحدث حاسم ما او جيشان اجتماعي بكل معنى الكلمة وهكذا فان الامور جميعا في نظرية ماركس عن التطور الاجتماعي تدور حول العلاقات او اذا شئتم التناقض بين الاقتصاد والقانون لقد اعتبر ماركس الاقتصاد سببا والقانون نتيجة*

ان هذا التعليق يتميز ، كما سوف نرى بثروة خارقة من المضمون النظري** وقبل كل شيء ، فسوف نسجل النقطتين التاليتين ففي راي السيد ب ستروفه ان ماركس

١ ـ اعتبر التناقض الذي يقوم بصورة حتمية في مجتمع متقدم بين القوى المنتجة من جهة واحدة وعلاقات الملكية من جهة ثانية تناقضا اساسيا ؛

٢ ـ نظر الى الثورة الاجتماعية من حيث هي تصادم عنيف بين الاقتصاد والقانون ، وهو ما يترتب عليه ان الاشياء جميعا تدور ، في نظريته ، حول العلاقات بين القانون والاقتصاد

ايكون هذا الرأي للسيد ب ستروفه صائبا ؟ وبكلام آخر هل فهم نظرية ماركس كما ينبغي وعرضها بصورة صحيحة ؟

فيما يتعلق بالنقطة الاولى ، فمما لا ريب فيه انه على صواب ان التناقض بين قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الملكية فيه احتل على الدوام المركز في نظرية ماركس عن التطور الاجتماعي وتأييدا لذلك او بالاحرى كي يحصل القارىء على فهم افضل لفكرة ماركس ، نورد هنا ، بالاضافة الى الفقرة التي اوردها السيد ب ستروفه من مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي ، المقتطف التالي من بيان الحزب الشيوعي

هذا هو اذن ما قد رأيناه ان وسائل الانتاج والمبادلة ، التي قامت البورجوازية على أساسها ، قد خلقت في باطن المجتمع الاقطاعي وعند درجة معينة من نمو وسائل الانتاج والمبادلة هذه صارت الشروط التي المجتمع الاقطاعي ينتج فيها ويبادل والتنظيم الاقطاعي للزراعة والمانيفاكتورة وبكلمة واحدة نظام الملكية الاقطاعي متنافرة

---

* المصدر نفسه ، ص ٦٦٦ ـ ٦٦٧

** ان ثمة انواعا مختلفة من الثروة بالطبع وان ثروة السيد ب ستروفه تستقيم في اخطائه ، ولا يجوز للمرء ان يحسد مثل هذا النوع من الثروة [ ملحوظة للطبعة الثانية ] .

مع القوى المنتجة المتطورة بشدة وباتت تعوق الانتاج بدلا من معاضدته بحيث استحالت الى قيود وسلاسل ولم يكن بد من تحطيمها ، فحطمت

وقامت مكانها المزاحمة الحرة ، المترافقة ببناء اجتماعي وسياسي متكيف معها ومتكيف مع السيطرة الاقتصادية والسياسية للطبقة البورجوازية

وكما سوف ترون ، فالقضية واضحة على اكمل وجه فالثورة الاجتماعية التي تعني انهيار النظام الاقتصادي **الاقطاعي** وانتصار النظام **البورجوازي** نظر ماركس اليها ووصفها من حيث هي **تصادم** ( أو تناقض ) **بين القوى المنتجة التي نمت في أحشاء المجتمع الاقطاعي وعلاقات الملكية لهذا المجتمع ، أو ـ وهو ما يعود الى الشيء نفسه ـ التنظيم الاقطاعي للزراعة والصناعة** . واذا شئتم ان تحصلوا على فكرة اوضح عن الطريقة التي فهم ووصف ماركس بها الثورة الاجتماعية هذه الثورة التي خدمها بتفان تام والتي سوف تؤدي الى استبدال النظام الاقتصادي **البورجوازي** بالنظام **الاشتراكي** ، فان في مقدوركم جيدا ان تطالعوا الصفحة التالية.

ان المجتمع البورجوازي الحديث بعلاقاته الخاصة بالانتاج والمبادلة والملكية ، هذا المجتمع الذي حمل الى الوجود مثل هذه الوسائل الجبارة للانتاج والمبادلة يشبه الساحر الذي ما عاد يعرف ان يخضع القوى الجهنمية التي أطلقها من عقالها منذ عدة عقود وتاريخ الصناعة والتجارة ليس سوى تاريخ تمرد القوى المنتجة الحديثة على نظام الملكية الذي هو شرط وجود البورجوازية وسيطرتها

القوى المنتجة الموجودة تحت تصرفه » ( المجتمع البورجوازي ـب ج

لم تعد تساعد على نمو الملكية البورجوازية ، بل على العكس أصبحت عظيمة جدا بالنسبة الى هذه الملكية التي أصبحت بذلك تعترض سبيلها لقد أصبح النظام البورجوازي اضيق من استيعاب الثروات التي خلقها » . ( المصدر نفسه، ص ٨ ـ ٩

القضاء على علاقات الملكية البورجوازية ما يشكل المهمة الثورية التاريخية للبروليتاريا

ان البروليتاريا تخوض ضد البورجوازية حربا اهلية لا نهاية لها تمتد حجما ونموا اكثر فأكثر متحولة آخر الامر الى ثورة علنية فيضع انهيار البورجوازية العنيف الاسس لسيطرة البروليتاريا (٢٤٩)

ونحن نحيل كل من يود ان يتابع هذه الفكرة الاساسية في نظرية ماركس عن التطور الاجتماعي في كتاباته الاخرى الى **بؤس الفلسفة** والى الصفحات ٤٢٠ ـ من القسم الثاني من الكتاب الثالث من **رأس المال*** .

وهكذا فلا مجال للشك ان الاشياء جميعا في نظرية ماركس عن التطور

---

* نحيل الى الاصل الالماني لان الترجمة الروسية لا ترضي كثيرا والفقرة التي نشير اليها هي في الصفحة ٧٣٣ من الطبعة الروسية للكتاب الثالث

الاجتماعي تدور حول **التناقض بين قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الملكية فيه** . لكنه اذا كان هذا الامر صحيحا **كل الصحة** ولا يطاله الشك ، ففي الامكان اذن الاستفسار عن الاساس الذي **يؤكد السيد ب** ستروفه بناء عليه ( **انظر النقطة الثانية أعلاه** ) ان ماركس يرى في الثورة الاجتماعية **تصادما عنيفا** بين **الاقتصاد والقانون** . أيكون هذا التصادم الثاني متماثلا **في مغزاه** مع التصادم الاول ؟ ايكون للتناقض بين **القوى المنتجة** للمجتمع **وعلاقات الملكية** فيه ، بصورة مطلقة ، مثل الاهمية التي يملكها التناقض بين **الاقتصاد والقانون** ؟

لا بد في سبيل الجواب عن هذا السؤال ، الذي يتحلى **باهمية « اساسية »** بالنسبة الينا من ان نقرر اولا نوع **المفهوم** الذي يربط ناقدنا بينه وبين **كلمة « الاقتصاد »** ؛ ومن الطبيعي **انه لا** يمكن القيام بذلك الا على اساس « دراسته النقدية التي نحللها هنا

في تحليله لراي ستاملر (٢٥١) بشأن علاقة القانون بالاقتصاد يقول السيد ب ستروفه فيما يقوله ، **ما يلي** « من سوء الحظ ان مفهوم الاقتصاد النظام الاقتصادي علاقات الانتاج ) **لا** يحدد كليا بما نعتبره العنصر الاقتصادي في الظواهر الاجتماعية الفردية **ان الاقتصاد ، على سبيل المثال ، نظام اقتصادي رأسمالي* ... »**

وبعد اسطر قليلة نصادف قولا مأثورا ينص على ان **« القانون متضمن بصورة مسبقة في الاقتصاد** ، والعكس بالعكس » in der Wirthschaft ist das Recht ( und vice versa Enthalten** ) واخيرا نصطدم بالحجة التالية بعد بضعة سطور ان ظرف افتقاري الى الخبز لا يشكل اية علاقة قانونية بيني وبين مواطني **ولا يعترضن** احد على بأن بعض التنظيمات القانونية المعقولة سوف تضع ، **في ظل نظام** اجتماعي آخر حدا لظاهرة البطالة هذا انما يبين فقط ان هذه الظاهرة **الاقتصادية** تتوقف على **نظام اقتصادي** معين ، **او بكلام آخر نظام قانوني** مأخوذ بصورة اجمالية ، الخ***

تبين هذه الايضاحات **ان لكلمة** « الاقتصاد عند ناقدنا نفس المعنى الذي لعبارة **النظام الاقتصادي** ( يعني الراسمالى ) او لعبارة **علاقات الانتاج** بيد اننا نعلم من قبل ان علاقات **الانتاج** – او النظام الاقتصادي او البنية الاقتصادية – تسمى في اللغة الحقوقية **علاقات الملكية** ولقد اشار الى ذلك كلا ماركس بالذات ،

---

* المصدر نفسه ، ص ٦٦٨ التشديد من قبلنا

** المصدر نفسه ، ص ٦٦٩ التشديد من قبلنا

*** المصدر نفسه ، ص ٦٦٩ – ٦٧٠ التشديد من قبلنا

الذي تناقش نظريتـه هنا والسيد ب ستروفه الذي يحلل هـذه النظرية*
هذا حسن جدا ، فلنسجله ولنتساءل كيف تبـدو نظريـة ماركس عن التطور الاجتماعي بالطريقة التي يقدمها ناقده بها ؟ ان جوابا واحدا ممكن عن هذا السؤال **بالطريقـة التي يطرحها بها السيد ستروفه يترتب ان الاشياء جميعا تدور حول التناقض بين علاقات الملكيـة في مجتمـع خصوصي وقانونه** . واذا عبرنا عن هـذا بكلمات أخرى فمعناه ان ماركس يرى ان لب ما يسمى المسألـة الاجتماعيـة المعاصرة ستقيم في التناقض بين علاقات الملكية ، ولنقل في فرنسا البورجوازية في الوقت الراهن وبين قانونها المدني(٢٥٢) او اذا شئتـم ان تعبروا عن ذلك بطريقة مغايرة فان في مقدوركم ان تقولوا ما يلي ان التناقض بين علاقات الملكية في فرنسا البورجوازية الحالية وقانونها المدني ينطوي على « das Fortleitende» يعني على ذلك التناقض الذي يقـود هـذه البلاد قدما ويقترب بها من الثـورة الاجتماعية وهذا منطقي على اكمل وجه ويترتب بصورة لا مفر منها على كلمات السيد ب ستروفه كما يشكل في الوقت نفسه **معتقدا** يبعث على درجة كبيرة من الذهول ، **معتقدا** على قدر كبير من صعوبة الفهم ، او بمزيد من الاختصار **معتقدا** غير قابل للتصديق حتى درجة كبيرة ، بحيث انه لو كتب السيد ب ستروفه دراسته النقدية في حياة ماركس ولو ان مؤلف **رأس المال** تكلف عناء الاطلاع على محتويات هذه الدراسة العصية على التصديق ، فما كان امامه اذن الا ان يفتح ذراعيه في حيرة وان يوضح وهو يغير حتى درجة ما الكلمات التي تنطق بهـا الشخصية الرئيسية في قصيدة نكراسوف **الحكم**

لا استطيع بالطبع ان اكون القاضي
في قضيتي الخاصة لكنكم توافقونني
على انه من الامور المزعجة ان يعمد نقادي
الى الاستشهاد ضدي بأشياء لم اكتبها قط
ان فلاحا لن يقل عني دهشـة
اذا هو زرع بالجاودار حقـلا
فلم تنبت فيه سنبلـة واحـدة
من الجاودار او القمح او الحنطة السوداء ،
بل نبت من بذوره شعير سمج
تختلط بـه أعشاب ضارة كثيرة

* * *

---

* لنطرح ذلك كما يلي طلبا لمزيد من الدقة في رأي ماركس ان **قسما معينا** من علاقات الانتاج يشكل ما سوف يسميه الحقوقي علاقات الملكية وسوف نرى ادناه السبب في ان هذه العبارة لا يمكن تطبيقها على حصيلة العلاقات الانتاجيـة

# ٣

لا يحسبن القارىء الطيب اننا نعمل على الامساك بناقدنا مستغلين بعض هفواته العابرة ابدا ! ان الخطيئة الرهيبة التي سجلناها تتكرر في كل صفحة على وجه التقريب من الدراسة وتشكل المحور المنطقي الذي « **يدور** » حوله **تقريبا جماع مضمون** « **نقد** » الماركسية الثورية*

وهكذا فان السيد ب ستروفه يقرر بصورة جازمة ما يلي وذلك بعد صفحات قليلة من التعليق الذي اوردناه اعلاه ان ثورة تقضي على التناقض هي على أي حال ضرورية منطقيا للنظرية الماركسية عن التناقض المتصاعد باستمرار بين الاقتصاد والقانون** وتبين هذه الكلمات ان السيد ب ستروفه لا يقتصر على العناد في غلطته غير المفهومة بل يجعلها فضلا عن ذلك خلفية لنقده بأكمله انه ينطلق ليضع موضع الشك ضرورة الثورة فيما يتعلق بالخلاص من التناقض وذلك بالاشارة الى انه لا يمكن ان يكون هناك اي تناقض جوهري بين القانون والاقتصاد يعني علاقات الملكية ، البنية الاقتصادية وان عنادا لا يقل عن ذلك في المثابرة على الخطأ ينكشف في المحاكمة التالية التي يعتبر صاحبنا الناقد انها ظافرة لا تقاوم

ان ما يسمى وفقا لماركس علاقات الانتاج متضمن بصورة مسبقة ، منطقيا وتاريخيا ، في التنظيم الحقوقي لعلاقات الملكية ولهذا السبب وحده فانه من المحال منطقيا ، مع الاحتفاظ بوجهة النظر الماركسية ، الحديث عن التطور المتناقض لعلاقات الانتاج والنظام القانوني ( ولكن من ذا يتحدث عن هذا الامر سواك انت ايها الناقد الصارم ان ماركس يتحدث عن التناقض بين **القوى المنتجة** وعلاقات الملكية وانت بالذات « **سجلت** » هذا « **الظرف** » الجدير بالملاحظة حقا وذلك في بداية تعليقك — في الحقيقة من دون « **قوة خاصة** » . كيف امكنك ان تنسى ذلك بمثل هذه الصورة المفاجئة حين اصبحت في حاجة الى نقد » نظرية ماركس ؟ — **ج . ب** » لكن الاهم من ذلك حتى درجة بعيدة هو ان الاقرار بمثل هذا التطور يحول دون اي تأثير مفهوم واقعيا للظواهر الاقتصادية في النظام الحقوقي من اين تناولت الظواهر الاقتصادية يا سيد ب

---

* سوف نوضح لاحقا بأي معنى نستخدم وصف **الثورية** هنا .

** المصدر نفسه ، ص ٦٧٣

ستروفه ؟ انت تعالج علاقات **الانتاج** ، او بكلام آخر **الاقتصاد** ، وانت تقول بصواب تام ان مفهوم **الاقتصاد** لا يحدد كليا في حال من الاحوال بما نسميه العنصر **الاقتصادي** في **الظواهر الاجتماعية ـ ج . ب . )** تصوروا فقط ان علاقات الانتاج »
يعود الناقد » من جديد ، دون اي انذار ، الى علاقات الانتاج التي لا تحدد فكرتها في حال من الاحوال ، كما يلاحظ هو نفسه بمفهوم الظواهر الاقتصادية ـ **ج . ب . )** « التي تصبح اشتراكية اكثر فاكثر تنجب الصراع الطبقي ، والصراع الطبقي يؤدي الى قيام الاصلاحات الاجتماعية التي يزعم انها تعزز طبيعة المجتمع الراسمالية وهكذا فان علاقات الانتاج التي تصبح اشتراكية اكثر فأكثر تنجب نظاما حقوقيا يصبح راسماليا اكثر فأكثر ان تأثير الاقتصاد في القانون وهو ابعد ما يكون عن احداث أي تكيف متبادل بينهما ، يزيد اكثر فأكثر من التناقض القائم بينهما*

ان ذلك القسم من هذه الخطبة المسهبة الذي يتلو كلمتي **(( تصوروا فقط ))** قد كتب فيما يبدو بغرض ان تسجل بقوة خاصة لا منطقية اتباع ماركس الاورثوذكسيين الذين يعترفون بالقانون الجدلي للتطور لكن ناقدنا يفرض هنا من جديد معتقدا غير قابل للتصديق مطلقا» على الماركسيين «الاورثوذكسيين»، فاذا عرضه يحول مرة اخرى الى شعير تختلط به اعشاب ضارة البذرة القيمة جدا لنظرية ماركس عن التطور الاجتماعي **(( تصوروا فقط ! ))** حين يتحدث ماركس واتباعه الاورثوذكسيون عن التناقض المتنامي باستمرار بين **القوى المنتجة** في المجتمع الراسمالي **وعلاقاته الانتاجية** ، فانهم يعنون بهذه العلاقات الاخيرة **علاقات الملكية** البورجوازية كما يتضح على خير وجه من المقتطفات الموردة اعلاه **من بيان الحزب الشيوعي** وكما يقر بذلك السيد ستروفه نفسه وهذا هو السبب في انه لا يمكن قط ان يكون قد خطر لماركس او لاتباعه الاورثوذكسيين ان يبلغوا الفكرة القائلة ـ كما يعزو اليهم ذلك السيد ستروفه ان علاقات الانتاج في المجتمع البورجوازي تصبح اشتراكية اكثر فاكثر ان كل من يقول ذلك يعبر اذن عن الفكرة القائلة ـ الجديرة بباستيا حديث فقط ـ ان علاقات **الملكية الملازمة** للمجتمع الراسمالي والمدافع عنها بكل حمية من قبل البورجوازية تقترب اكثر فأكثر من المثل الاعلى الاشتراكي**

---

* المصدر نفسه ، ص ٦٧٦ ـ ٦٧٧

** قد يكون من المجدي أن نعارض هذا الهراء غير القابل للهضم بما قاله ماركس نفسه لا ينقرض نظام اجتماعي قط قبل أن تكون سائر القوى الانتاجية التي يتوفر لها مجال فيه قد تطورت كما أن علاقات الانتاج الجديدة والاعلى لا تظهر قط قبل أن تكون شروط وجودها المادية قد نضجت في احشاء المجتمع القديم نفسه(٢٥٢) **( في نقد ، الخ )** [ التشديد من قبلنا ].

لقد سمى السيد ب ستروفه كتاب **تطور التصور الاحادي عن التاريخ** العرض الاروع للاسس التاريخية الفلسفية للماركسية الاورثوذكسية وانه ليعتبر كتابنا **دراسات في تاريخ المادية** منسجما كل الانسجام مع روح ذلك الكتاب ولسوف اطلب من القارىء ان يتكلف عناء الاطلاع على هذين الكتابين وان يقرر بنفسه ما اذا كانا يحتويان على اي شيء يشبه ما عزاه ناقدنا العجيب الى اتباع ماركس « الاورثوذكسيين

وانه ليترتب على ذلك كله النتيجة المحتومة بأن اخفاقا عملاقا وغير قابل للتصديق حقا **في فهم ماركس** خدم السيد ب ستروفه كقاعدة عمليات في حملته « النقدية ويا لها من حملة مجيدة ويا له من نقد عميق ويا له من « ناقد » مثير للاهتمام !

بدأت الحياة الادبية للسيد ب ستروفه في خريف عام ١٨٩٤ مع صدور كتابه **ملاحظات نقدية على مسالة تطور روسيا الاقتصادي** الذي احدث ضجة في الحقيقة ففي هذا الكتاب المحرر بصورة مضجرة والساذج في بعض اقسامه ، ومع ذلك المفيد باجماله ، تظهر بصورة متواقتة نظريتان

متعانقتين مثل شقيقتين (٢٥٤)

ومتشابكتين بصورة عجيبة اولا نظرية ماركس والماركسيين الاورثوذكسيين وثانيا نظرية برنتانو ومدرسته وان الخليطة الانتقائية في محتويات الكتاب قد سوغت حتى درجة كبيرة سواء المآخذ التي انهالت على المؤلف من جانب بعض اتباع ماركس « الاورثوذكسيين والآمال الموضوعة فيه من قبل بعض الاتباع الاخرين الذين لا يقلون اورثوذكسية » عن ذلك ولقد استاء اللائمون من **البرنتانية** ، فيما توقع اولئك الذين وضعوا الآمال في السيد ب ستروفه ان تنهزم بصورة تدريجية هذه النظرية البورجوازية في آرائه على يد ذلك العنصر من **الماركسية** الموجود فيها ولقد كان كاتب هذه السطور ينتسب الى اولئك الذين ملأتهم الآمال وصحيح ان توقعاته لم تكن كبيرة جدا انه لم يعتبر قط السيد ب ستروفه رجلا قادرا على اغناء نظرية ماركس بأي اسهام نظري جوهري ، بيد انه ترجى ، اولا ، ان تتغلب ماركسية السيد ب ستروفه عاجلا على برنتانيته ، وثانيا ان يكون مؤلف **ملاحظات نقدية** قادرا على فهم صحيح لمؤلف **راس المال** . وانه ليتضح الآن اننا كنا مخطئين في الناحيتين على السواء فالماركسية افسحت المكان منذ الآن ، في آراء السيد ب ستروفه ، لجارتها القديمة ــ البرنتانية وفيما عدا ذلك ، فقد ابان « ناقدنا » عن قصور تام في فهم الموضوعات الاكثر اساسية والاعظم اهمية للمادية التاريخية وفي الحقيقة انه عاد القهقرى ، في هذا المجال الاخير ، مسافة بعيدة جدا ، وهو ما يجب عزوه بالطبع الى تأثير تلك البرنتانية نفسها .

ونظرا لذلك كله فانه لا يبقى امامنا الا الاعتراف صراحة بخطيئتنا والتصريح تبريرا لذلك بما اعاد اوريبيدس قوله تصنع **الآلهة** الشيء الكثير المضاد للمنتظر منها ؛ انها لا تفعل ما كنا نتوقعه ؛ لكنها من جهة اخرى تجد الوسائل من اجل صنع ما هو غير متوقع »

## ٤

انه من المحال بالنسبة الينا ، كما راينا من قبل ، ان نكون على خطأ فيما يتعلق بالمعنى الذي يستخدم به السيد ب ستروفه كلمة **الاقتصاد** ، نظرا لانه حاول هو نفسه ان يعطي تعريفا دقيقا لهذا المعنى ومع ذلك فلنتخيل اننا اخفقنا في فهمه بصورة صحيحة وان ناقدنا لا يستخدم الكلمة للدلالة على هذا النظام او ذلك ( (( **الراسمالي مثلا** )) ) ولا علاقات الانتاج ( الملكية ) الخاصة بمجتمع معين ، بل ذلك **العنصر الاقتصادي في الظواهر الاجتماعية** الذي لا تتحدد فكرته بصورة تامة كما سجل ذلك هو نفسه بكل صواب بمفهوم **الاقتصاد** لكن الى اين سوف يقودنا هذا الافتراض* ؟

اذا ما قبلنا بذلك مرة كان من الطبيعي انه ينبغي لنا ايضا ان نقبل تفسيرا آخر لكلمات السيد ب ستروفه ، الا وهو ان جميع الاشياء في النظرية الماركسية تدور حول التناقض بين الاقتصاد والقانون وانا لملزمون الآن بأن نفترض انه يرى خلف هذه النظرية عقيدة التناقض ( العلاقة ) بين **الظواهر الاقتصادية** التي تجري في مجتمع معين **والقوانين** الملازمة لهذا المجتمع ولا بد الآن من الاقرار بأن هذا التناقض هو المحور الذي (( **تدور جميع الاشياء** )) حوله في النظرية الماركسية.

لنأخذ **المجتمع الراسمالي** بعين الاعتبار ولنر حتى اية درجة وفي اية شروط يمكن للتناقض بين الظواهر الاقتصادية الجارية فيه ونظامه القانوني ان يكون السبب الذي يدفع تطوره قدما

لنفترض ان ما يعرف بنظام **الاجازات** من اجل انشاء الشركات المساهمة(٢٥٥) موجود في مجتمعنا الراسمالي انه من المعروف لدى الجميع ان مثل هذا النظام يتسم بمساوىء عديدة تعوق نمو الشركات المساهمة وبالتالي الانتاج الكبير الذي

* قمنا بهذا الافتراض بناء على الكلمات التالية للسيد ب ستروفه « وعلى اي حال فان النظرية الماركسية تتسم بافتراض التناقض المتصاعد بين الظواهر الاقتصادية والقواعد القانونية » المصدر نفسه ص ٦٧١ القسم الثالث [ هذه العبارة بالالمانية في النص الروسي ] ) وبنتيجة ذلك فان مركز النظرية الماركسية هنا هو التناقض بين (( **القواعد القانونية** )) و (( **الظواهر الاقتصادية** )) التي لا تتحدد فكرتها بصورة كاملة بمفهوم **الاقتصاد** .

**هو** في الوقت الحاضر في حاجة ماسة الى مشاركة الرأسمال الخاص بالافراد **وهذا هو** السبب في ان **تناقضا** سوف ينشأ في **مجتمعنا** عاجلا او آجلا بين **الظواهر الاقتصادية** ـ نمو الانتاج الكبير الذي هو في حاجة الى تطور الشركات المساهمة ـ **والقانون** ـ التشريع غير الملائم الذي ينظم انشاء مثل هذه الشركات **ولا** يمكن القضاء على هذا التناقض الا بطريقة واحدة تدمير نظام الاجازات والاستعاضة عنه بما يسمى نظام **الامر الواقع** الذي هو اكثر ملاءمة حتى درجة كبيرة ان هذا النظام الاخير من حيث هو اكثر ملاءمة بصورة لا تقارن سوف يصبح بالطبع قانونا ساري المفعول عاجلا او آجلا وفي هذه الحال فانه يمكن القول **ان** مطابقة القاعدة الحقوقية للظاهرة الاقتصادية سوف تحدث من تلقاء ذاتها ، ولا بد **اذن** ان يكون المرء مجنونا ينبغي تقييده كما يقول الفرنسيون كي يروح يتحدث عن **الثورة الاجتماعية** في ظروف لم يقدم فيها تطور الحياة الاجتماعية **الا** تناقضات من هذا النوع

لكن ما الذي تتسم به التناقضات التي من هذا النوع ؟ انها تتسم بحقيقة **ان** الظواهر الاقتصادية التي تناقض **القانون البورجوازي** لا تناقض في حال من الاحوال **الاساس الاقتصادي لهذا القانون** ، يعني **علاقات الملكية في المجتمع الرأسمالي.**

وان السؤال الذي يطرح الآن هو هل قال ماركس أو أي من اتباعه **«** الاورثوذكسيين في يوم من الايام ان الثورة الاجتماعية تنجم عن تناقضات من **هذا** النوع ؟ كلا لم يقل ماركس او اي من تلامذته مثل هذا القول قط ففي **رأي** ماركس ( لقد اشرنا الى ذلك عدة مرات ، ولا بد لنا ان نكرره الآن ) ان الثورات **الاجتماعية** تهيأ وتصبح محتومة كنتيجة للتناقض بين **قوى المجتمع المنتجة** وقوى **علاقات الملكية** فيه التي **تقوم** عليها القوانين الخاصة بهذا المجتمع ان **هذا التناقض** هو من نوع مختلف كليا واخطر بصورة لامتناهية ومع ظهور **هذا التناقض** يقوم عصر ثوري اما ان نلف ذلك بلغو غامض وفارغ بالتالي عن **التناقض** بين الظواهر الاقتصادية والمؤسسات القانونية ، وعن تكيف القانون مع **الاقتصاد** فان هذا لا يعني تسليط النور على المسألة بل تشويشها وتعميتها حتى **الدرجة** القصوى وفي الحقيقة ان ما تمس الحاجة اليه هنا هو « Kritiker Geist » **الخاص** بالسيد ب ستروفه ، المأخوذ بكليته ، في سبيل خلق الانطباع المؤقت **بأن** مثل هذا التشويش وهذه التعمية للمسألة يضاهيان المزيد من تقدم التفكير **«** الواقعي الذي يشكل اساسا للماركسية من حيث هي نظرية تاريخية ان هذا **لابعد** ما يكون عن كونه **حركة متقدمة للفكر** ، بل ليس هو **حركة للفكر** في حال من الاحوال كما اعتاد الراحل أ س كومياكوف ان يقول ) ؛ انه مجرد **هرج نظري حول لاشيء** ، مضطرب وفارغ ـ وبالتالي عديم الجدوى وعقيم كليا وان **هذا النوع** من الهرج ربما بعث سرورا عظيما في اولئك الذين تحدث عنهم كونو فيشر

بالكلمات التي استعملناها في التصدير ، أما **بالنسبة الى العلم** فان مثل هذا الهرج اسوأ من لا شيء ، ذلك انه يشكل **خطوة واسعة الى الخلف ، ظاهرة سلبية** .

يشدد ماركس نفسه على أن القانون من حيث هو ملازم لاي مجتمع معين ، يتطور على أساس البنية الاقتصادية لهذا المجتمع ( علاقات الملكية فيه* ) وهذا ما يمكن اثباته بعدد من **الامثلة التي لا جدال فيها** . من ذا لا يعرف اليوم ان علاقات الملكية لقبائل القناصة المتوحشة مشربة بالشيوعية ، وان **قانونا مشتركا ملائما ينهض على اساس هذه العلاقات الشيوعية** ؟ من ذا لا يدري انه ، على أساس علاقات الملكية الاقطاعية ( اساس « التنظيم الاقطاعي للزراعة والصناعة » ) ، **ينهض نظام كامل من المؤسسات القانونية يرعاها هذا النظام وهي تزول مع زواله** ؟ من ذا لم يبلغ اسماعه ان **القانون البورجوازي** الحالي — مثلا القانون المدني الذي اتينا على ذكره اعلاه — قد على أساس **علاقات الملكيــة البورجوازية** ؟ ان السيد ب ستروفه نفسه ، **في** تعليقه على ماركس ( انظر اعلاه ، هامش الصفحــة ) يسمي **بنية فوقية** العلاقات **القانونية** والسياسية التي قامت على اساس بنية اقتصادية معينة او علاقات ملكية خصوصية وفيما عدا ذلك فقد اقر السيد ب ستروفه نفسه ان **التناقض الاساسي** الذي تشير اليه النظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي هو تناقض قائم بين قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الملكية فيه لماذا يغيب اذن عن انظاره في الحال هذا **التناقض الاساسي** الذي يستبدل به تناقضا ثانويا بين الظواهر الاقتصادية ضمن بنية اقتصادية معينة والقوانين التي تخدم هذه البنية كأساس واقعي لها ، كما طرح ماركس ذلك ؟ كيف يستطيع ان يبرر هذا النوع من الاستبدال ؟

خذ **الازمات** التي يقول **بيان الحزب الشيوعي** عنها انها ظاهرة تؤكد بقوة كبيرة الفكرة القائلة ان القوى المنتجة للمجتمع البورجوازي تجاوزت **علاقات الملكية** ، او **البنية الاقتصادية** ، الخاصة به ، واخبرنا ايهــا القارىء العزيز ما اذا كانت هــذه الظاهرة الاقتصادية تناقض **القانــون** الذي تطــور علــى اساس علاقات الملكيــة البورجوازيــة وعلى سبيــل المثــال **المدونة القانــونيــة الفرنسية لعــام ١٨٠٤ ؟** يا له من سؤال ساذج ومضحك! ان الازمات تناقض **القانون المدني** للمجتمع البورجوازي قليلا جدا بقدر ما تناقض **معدلات سندات المبادلة**، قانون **العقوبات** فيه فليست الازمات هي التي تناقض القانون المدني ، بل القوى المنتجة هي التي تناقض البنية الاقتصادية علاقات الملكية التي **هي اساس ذلك القانون** ماذا تعني هــذه الكلمات ان القوى المنتجة للمجتمع البورجوازي تتناقض مع بنيته الاقتصادية ، مع علاقات الملكية فيه ؟ انها تعني ان مثل هذه العلاقات تعوق استخدام تلك القوى

---

* الحصيلة العامة لتلك العلاقات الانتاجية تشكل بنية المجتمع الاقتصادية **وهي الاساس الاقتصادي الذي تنهض عليــه بنيــة فوقيــة حقوقيــة وسياسيــة » ( في نقــد ،** الخ فورفورت(٢٥٢) ) [ التشديد من قبلنا ]

بكامل حجمها وانه حين تعطى هذه القوى كامل المدى في نشاطها فهي تسيء الى مجرى الاقتصاد بالخاصة وانه ليترتب على ذلك اذن انه بقدر ما تتطور قوى المجتمع المنتجة يزداد خطر نشاطها الكامل عليه وهذا التناقض لا يمكن ازاحته ما استمرت علاقات الملكية البورجوازية في الوجود* ان ما يلزم بالضرورة من

* ان هذا التحفظ في مكانه هنا لقد اشار الكثيرون من النقاد مؤخرا بما فيهم السيد توغان ـ بارانوفسكي الى الازمات تخلصت من الشكل الحاد الذي كانت تتصف به من **قبل** ، وانها بالتالي لم تعد تلعب بعد الان في تطور الحياة الاجتماعية ذلك الدور الذي ينسبه ماركس **اليها** ولسوف نرد على ذلك بما يلي مهما يكن **الشكل** الجاري للظاهرة التي اشار ماركس اليها فان **ماهيتها** لم تتغير فالظاهرة مسببة عن التناقض بين قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الملكية فيه وان ما يسميه البريطانيون Trade Depressions [ الكسادات التجارية ] لا تملك **في الشكل** الا شبها ضئيلا جدا مع **الازمات** بكل معنى الكلمة ، بيد انها تملك **في الجوهر** الاهمية نفسها **تماما** وليس على المرء كي يفهم ذلك **الا** ان يقرأ ، مثلا النتائج التي خلصت اليها اللجنة الملكية البريطانية المنشأة لدراسة اسباب كساد التجارة والصناعة اننا نقرأ في ملحوظة وضعها عدد كبير من اعضاء اللجنة الذين كانوا على نزاع فيما بينهم لقد حدث خلال السنوات الاربعين الماضية تبدل كبير في ظروف سائر الجماعات المتحضرة من جراء تطبيق الادوات الميكانيكية والعلمية على انتاج السلع ونقلها في جميع ارجاء العالم لم تعد الصعوبة الكبرى تقوم بعد الآن كما في الماضي في ندرة وغلاء ضرورات الحياة ووسائل الراحة فيها بل في الصراع من أجل نصيب مناسب في ذلك الاستخدام الذي يوفر للقسم الاعظم من السكان وسيلتهم الوحيدة من أجل الحصول على الحق في كفاية من تلك الضرورات والوسائل مهما تكن غزيرة ورخيصة الثمن وتجد الصعوبة المتنامية ( النضال في سبيل نصيب مناسب من الاستخدام في حضور غزارة السلع ورخصها ) تعبيرا لها في نظام التعرفات واجازات التصدير وغير ذلك من القيود التجارية التي تتخذها وتحافظ عليها معظم الامم المتحضرة باستثناء امتنا ( **التقرير النهائي للجنة الملكية** ، الخ ، ص ١٥٠ انظر كذلك ص ١١٤ ) [ يورد بليخانوف هذه الفقرة بالانكليزية ] ان القوى المنتجة في المجتمعات المتحضرة بلغت درجة عالية من التطور بحيث ان اولئك الذين **لا** يملكون اية سلعة اخرى يبيعونها سوى قوة عملهم **يجدون** من الصعوبة البالغة ان يجدوا لانفسهم **مشاغل** ، يعني **ان يبيعوا قوة العمل هذه** ، وبالتالي **يكتسبون** الوسيلة **لابتياع المنتجات** الرخيصة الحضرة حاليا بكل غزارة **الشدة** تولد من **الغزارة** ، **والبؤس** يولد من **الثروة** وهذا هو نفس التناقض بالضبط الذي يشير اليه ماركس وانجلز بخصوص **الازمات** ، والفارق الوحيد هو ان التناقض نشأ ، **في** رأي واضعي التقرير الذي استشهدنا به اعلاه ، **خلال** السنوات الاربعين الاخيرة ، **في** حين يعتقد **مؤلفا البيان** انه نشأ في وقت ابكر ولا تحسبوا ان **غالبية** اللجنة **الملكية** تنكر وجود ذلك التناقض لا ، فالغالبية عبرت عن نفس الرأي الذي قالت **الاقلية** به ، سوى ان الصياغة تختلف انهم يقولون « ان قدرة العالم على الانتاج سوف تكون بالطبع

اجل القضاء عليه **هو ثورة اجتماعية** تدمر علاقات الملكية **البورجوازية** وتستعيض عنها بعلاقات ملكية **اشتراكية هي** من طبيعة مغايرة كليا **هذا هو معنى ملاحظة** ماركس وانجلز ان الظاهرة الاقتصادية التي اورداها كمثال تدل على حدود ضيقة ( علاقات الملكية ) تقيد حياة المجتمع البورجوازي الاقتصادية وتشكل اساسا للقانون البورجوازي ويتغاضى ناقدهما » في صمت ( او بصورة ادق نسي تماما بعد اشارة واحدة الى الموضوع ) عن ذلك التناقض بالذات الذي اعتبراه السبب الاساسي للثورات الاجتماعية ، ومن بعد يلاحظ بكل سذاجة ان نظرية ماركس الخاصة ، اذا ما فهمت بصورة صحيحة ، لا تترك مكانا للثورة الاجتماعية بل تفترض بصورة مسبقة « قابلية التكيف الدائمة للقانون مع الاقتصاد من حيث هي شكل طبيعي لتواجدهما » ان هذا النوع من النقد يقود المرء رغما عن ارادته الى تذكر كلمات كاتب الاساطير الروسي كريلوف **لقد اخفقت في ملاحظة الفيل** (٢٥٧) .

٥

يترتب على ذلك انه لا بد لنا ، بأي من المعنيين الممكنين فهمنا كلمات السيد ب ستروفه عن التناقض بين القانون والاقتصاد ، هذا التناقض الذي يؤكد انه لب النظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي ، ان نقر بأنه **فهم** هذه النظرية بصورة خاطئة كليا او انه **عرضها** بصورة مغلوطة تماما وعلى اي حال فان خطيئته فاضحة جدا وغير متوقعة البتة بحيث لا بد لنا ان نتساءل مرة اخرى ما اذا كان هذا كله نتيجة لبعض سوء الفهم او لعل السيد ب ستروفه انخدع بتعبير ما استخدمه ماركس وانجلز ، وقد **اخطأ فهمه** ، او ان مؤسسي الاشتراكية العلمية نفسيهما استخدماه بصورة مغلوطة

لنبحث عن الجواب معا ، ايها القارىء العزيز مما لا ريب فيه انك تتذكر الفقرة من كراس انجلز الشهير **الاشتراكية الطوباوية والعلمية** التي تتحدث عن

---

زائدة على متطلباته العادية » ( المصدر نفسه ، ص ١٧ [ هذه العبارة هي بالانكليزية في النص الروسي ] وهذا يضاهي تماما الفكرة القائلة أن كسادات التجارة [ هاتان الكلمتان بالانكليزية في الاصل ] مسببة ، مثلها كمثل الازمات ، عن انعدام التوافق بين قدرة السوق على الاستهلاك والقوى المنتجة في الوقت الراهن بيد ان تلك القدرة لدى السوق تقيد بعلاقات الملكية في المجتمع الراهن. وهكذا نصطدم مجددا بالتناقض الاساسي في هذا المجتمع ـ التناقض بين علاقات الملكية فيه من جانب واحد وقواه المنتجة من الجانب الآخر

التناقض الاساسي في نمط الانتاج في اليــوم الحاضر فيما مضى ، في العصــور الوسيطة ، كان **المنتج** هو في الوقت نفسه **صاحب** الادوات التي ستخدمها مع استثناءات نادرة ، وكان **يستملك** لنفسه **منتــج عملــه الخاص فقط** ؛ وفي الوقت الراهن يواصل **الراسمالي** ، صاحب ادوات العمل استملاك المنتجات المصنعة في المعمــل **بالعمــل الاجتماعي** المشترك الذي ينجزه عمالــه ، وذلك علــى اعتبارهــا **ملكيتــــه الخاصـــــة** .

ان وسائل الانتاج والانتاج بالذات قد أصبحت مشتركة بصورة اساسية ، **الا انها اخضعت لشكــل من التملك يفترض مسبقا انتــاج الافراد الخاص الذي يملك** بموجبه كل امرىء منتجه الخاص ويأتي به الى السوق

ومن هنا كان التناقض بين نمط الانتاج وشكل التملك ان النمط الجديد للانتاج خاضع لهذا الشكل من التملك بالرغم من الغائه الشروط التي يرتكز عليها هــذا الشكل من التملك

ان هذا التناقض الاساسي ينطوي على بذرة جميع التناقضات في المجتمــع الراهــن

وقد يبدو للوهلة الاولى في نظــر ذهن نقدي يتشبث بالكلمات دون ان يتغلغل الى لب المحتوي الذي تدل عليه ان التناقض المشار اليه هنا من قبل انجلز هو بين الاقتصاد والقانون ، وهو ما يعالجه السيد ب ستروفه وعلى أي حال، فان حدا ادنى من الجهد مطلوب لادراك مبلغ خطل مثل هذا الرأي

حين يتحدث انجلز عن الانتاج الاجتماعي على اعتباره متناقضا مع التملك الفردي فانه يقصد الورشة الالية الحالية حيث يتحد عمل العمال في كل واحد ، وبالتالي حيث المردود نتاج **للعمل الاجتماعي** • ومهمــا يكن من شيء فان تنظيم العمل في مثل هذه الورشة يتقرر بالحالة الراهنة للتكنولوجيا ؛ انه يسم حالة **القــوى المنتجة من دون البنيــة الاقتصادية للمجتمــع الراهن** الراسمالي ) الذي يتسم بصورة رئيسية واولية **بعلاقات الملكية** الملازمة له ، يعني بكون الورشة الالية موضوع البحث ليست ملكا للعمــال المتحدين فيها بــل للراسمالي الذي يستثمر هؤلاء العمال وهكذا فان التناقض بين العمل **الاجتماعي** في المعمل والتملك **الفردي** لهذا العمل هو نفس التناقض الذي نعرفه من قبل بين القوى المنتجة للمجتمع الراسمالي وعلاقات الملكية فيه وهذا ما اوضحه على افضل صورة انجلز نفسه

---

* **الاشتراكية الطوباوية والعلمية** ١٨٩٢ ص ٢٦ يستشهد بليخانوف بالترجمة الروسية لكتــاب انجلــز (٢٥٩) .

« لكن بالضبط كما أن المانيفاكتورة القديمة في حينها والحرفة اليدوية التي اصبحت أعظم تطورا تحت تأثيرها قد دخلت في نزاع مع اغلال النقابات الحرفية كذلك الصناعة الحديثة اليوم في تطورها الاكمل تدخل في نزاع مع الحدود التي يقصرها عليها نمط الانتاج الرأسمالي ان القوى المنتجة الجديدة قد تجاوزت منذ الآن النمط الرأسمالي في الانتفاع بها »

من الواضح ان انجلز لا يقصد في حال من الاحوال التناقض بين (( **القانون** )) و (( **الاقتصاد** )) . وفيما عدا كراس **الاشتراكية الطوباوية والعلمية** الذي أستشهد منه لا نعرف قطعة واحدة مكتوبة بقلم ماركس وانجلز توفر **حتى ذريعة خارجيــة خالصة ولفظيــة على الاقل** لتفسير النظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي بالطريقة التي يفسرها بها السيد ب ستروفه

نقول هذا بالاشارة الى « التناقض بين القانون والاقتصاد مثلا البنيــة الاقتصادية للرأسمالية ) الذي الصقه صاحبنا الناقد بماركس وسوف نسأل كيف سيكون الامر اذا ما فهـم التناقض المفروض علـى ماركس بمعنى التناقض بين الظواهر الاقتصادية ( التي لا يحدد مفهومها على وجه تام من قبـل الاقتصاد والمؤسسات القانونية لهذا المجتمع ؟ أفلن يتبين ، في هذا الحال ، ان السيد ب ستروفه يقول بالضبط ما قاله انجلز ؟

لعل الامر هنا ايضا يبدو كذلك للوهلة الاولى لكن هذا الموضوع يتضح مرة اخرى في صورة مغايرة عند امعان النظر فيــه

مما لا ريب فيه أن تنظيم العمل في الورشة ظاهرة اقتصادية وعلى أي حال، فان هذه **الظاهرة الاقتصادية** تتناقض لا مع القانون، بل مع **ظواهر اقتصادية** اخرى، وبالخاصة علاقات الملكية في المجتمع البورجوازي التي تنطوي على «الاساس الفعلي للقانون البورجوازي وتوحيد هذا الاساس الواقعي مع « البنية الفوقية القانونية» التي تنهض فوقه يعني تقديم نظرية شخص آخر لا نظرية كارل ماركس الذي قرر بنفسه التمييز بين البنية الفوقيــة ( القانون ) والاساس ( علاقات الانتاج وانا لندرك جيدا أنه يكون من الايسر حتى درجة كبيرة نقد » ماركس لو انه لم يقرر هـذا التمييز*

---

* ان ادراك هذه الملاءمة يعبر عنه بكل سذاجة عند السيد ب ستروفه بالكلمات التالية الرأي الذي قدمته يحول على حد سواء دون مفهومي ماركس وستاملر عن « الثورة الاجتماعية » ان تكيف القانون مع الاقتصاد الاجتماعي لا ينقطع لحظة واحدة وتطور بنية اجتماعية معينة هو الذي يحول هـذا الاطار ويبوسمه » ( المصدر نفسه ، ص ٦٧٢ ) [ النص بالالمانية في الاصل الروسي ] لشد ما انت عليه من صواب ، ايها « الناقد » لشد ما كان يستحسن لو ان « رأيك » تطابق مـع رأي ماركس ولشد ما كان من الافضـل والالطف لو ان آراءك التي لا تتطابـق مع آراء ماركس كانت تتفق مع الواقـع التاريخي وآسفاه ، فالامر لا يقتصر على انها لا تتفق معه ، بل هي **((تناقضه))**.

ولكن ما العمل بهذا الخصوص ؟ ان ماركس لم يكن مضطرا على أي حال لان يلوي الحقيقة بحيث تناسب « النقاد » !

كيفما قلبت المسألة فلا بد من الاقرار بان السيد ب ستروفه **شوش الامور بصورة رهيبة** ، وانه من الصعب حتى الدرجة القصوى او بالاحرى **من المحال تماما** ، العثور على اية ظروف محتملة تخفف حتى درجة ما الذنب عن هذه الشوشة هذا الذنب الذي يقع بصورة حازمة على كاهله وفي الارجح على كاهل ستاملر ايضا

وكما هي عادته ، فان السيد ب ستروفه ينتقد هذا الكاتب انه لا يستطيع الاستمرار دون « نقد » ) ؛ ومهما يكن من شيء ، فانه عاجز عن الخلاص من تأثيره

وليس هذا مكان الاسهاب في موضوع ستاملر نفسه لكن يجب ان نشير بصورة عابرة الى انه اغوى عددا لا بأس به من الماركسيين في بلادنا هؤلاء الذين فسدوا و ثلموا بفعل ما يسمى الفلسفة النقدية ، العزيزة جدا في الوقت الحاضر على قلوب جميع اولئك الذين يحاولون « ثلم » تناقضاتنا الاجتماعية

## ٦

لقد سبق فأشرنا الى انه اذا كان جوهر ما يسمى المسألة الاجتماعية يستقيم في عدم التوافق بين القانون البورجوازي والاقتصاد البورجوازي فان الضرورة التاريخية للثورة الاجتماعية لا يمكن اذن ان يجري الحديث عنها الا على افواه المجانين الحالمين ونظرا لهذه الاحوال المرضية ، فان منظري الحق والناس الاذكياء في الحياة العملية من عالم البورجوازية صاحبة الاعمال لن يجدوا صعوبة في تبين اين يعض الحذاء على حد تعبير الالمان ، ولن يكون امام البورجوازيين الفاضلين اذن ما يفعلونه سوى التذمر بنكد وعقد الحاجبين بصورة متوعدة كيما يعمد ممثلوهم البرلمانيون من فورهم الى اعطاء الحذاء شكلا جديدا لكن المرء يستطيع تماما ان يسأل مع ذلك ما اذا كان التطور الطبيعي ، في هذه الحال ، سيتبع الصيغة الثانية للسيد ب ستروفه ، وهي الصيغة التي سميناها **صيغة التناقض المثلوم** ؟

تناولنا اعلاه ، كمثال ، التشريع الخاص بالشركات المساهمة ولسوف نعود الآن الى هذا المثال ، نظرا لملاءمته والآن اخبرني أيها القارىء العزيز ما نوع العلاقة التي سوف تنشأ بين الحياة الاجتماعية التي تتطلب الاكثار من الشركات المساهمة ونظام الاجازات الذي يعوق هذا التكاثر ؟ كما نرى ذلك ، فانه سينشأ بينهما **تناقض** سوف **ينمو باستمرار** حتى يزول نظام الاجازات مفسحا المكان امام نظام الامر الواقع . أهذا صحيح ؟ مما لا ريب فيه انه كذلك واذا كان الامر

كذلك ، فان ما لدينا هنـا هو اذن ظاهرة تثبت حقيقـة قول هيغل المأثـور **التناقض يقود قدما** . وهذا الاستدلال الجديد يحمـل المرء بدوره ، على ادراك الوضع المضحك لاولئك « النقاد الذين انصرفوا الى نقد هيغل والحديث عن « **ثلـم التناقضــات** » .

ولعل السيد ب ستروفه يرد بأن **تناقضا احد** بين قاعدة قانونية بالية وحاجة اجتماعية جديدة لا يشكل ضمانة على أن الصراع بين حماة القاعدة القديمة واعدائها **سوف يحتد** . لسوف يكون ذلك صحيحا ونحن على **استعداد** لقبولـه في حالات تافهـة مثل الحالـة المدرسيـة سابقا حيث يمكـن لنمـو التناقض المذكور اعلاه ان يترافق في بعض الاحوال **بتراخ** في الصراع الاجتماعي يعني **بثلـم** التناقض بين الفرقاء المتحاربين وصحيح انه من الواجب الاشارة الى ان ذلك لا يعدو كونه افتراضا لا بد من اثباته ، ونحن انما نقبل به مجاملة للسيد ب ستروفه لكن أيمكـن ان يحدث ذلك حيث لا يكـون المقصود امورا حقيرة مثل التشريع الخاص بالشركات المساهمة ، بل انتفاضات اكبرى في حياة المجتمع تتناول اساس القانون بالذات **البنية الاقتصادية و علاقات الملكية** ؟ ان الواقـع التاريخي غير المزخرف يرد على هذا السؤال **بالنفي** . اننا نعرف على وجه كامل بأية طريقـة جرى التطور في الصين خلال فترة من انحطاطها طويلـة جدا وغير مكتملة بعد ، ومهما يكن من شيء فاننا نعرف على خير وجه ان نمو التناقضات بين الحاجات الاجتماعية الجديدة والنظام الاجتماعي القديم يترافق عادة في المجتمعات المتقدمـة باحتداد الصراع بين المجددين والمحافظين وان في مقدورنا ان نطبق على مثل هـذه المجتمعات ( المجتمعات السائرة « **قدما** » ) ما قيل **عن النضال في سبيل الحق** على لسان أيهرنغ في كراسته الشهيرة

« كل حق في العالم يكسب بالنضال ؛ كل مبدأ قانوني هام لا بد ان ينتزع مـن اولئك الذين عارضوه ان مصالـح الالوف من الناس وطبقـات بأكملهـا تنصهر بصورة تدريجية مع القانون القائم بحيث لا يكن الغاؤه دون الحاق ضرر بالغ بهم اثارة مسألة الغاء قانون معين او مؤسسـة معينـة تعني اعلان الحرب على جميع مثل هذه المصالح وبالتالي فان اية محاولة من هذا النوع تثير بصورة طبيعية من خلال فعـل غريزة حفظ البقاء معارضة قوية من جانب المصالح ذات العلاقة وبالتالي تؤول الى الصراع يبلغ هـذا الصراع حده العظمى عندما تتخـذ المصالح شكـل الحقوق المكتسبة ان جميع المكاسب التي تصادف في تاريخ القانون الغاء العبودية ونظام القنانة وحرية الملكية العقارية والحرف وحرية الضمير وما شابه ـ جميع هـذه المكاسب تم الفوز بهـا بواسطة نضال شرس غالبا ما استمر قرونا ، والطريق التي اجتازها القانون خلال تطوره غالبا ما اتسمت بسيول من الدماء ، وهي مبذورة في كل مكان بخرائب المؤسسات القانونية المدمرة* »

---

* Der Kampf um's Rechtt , 3 , Auflage ، ص ٦ ، ٧ ، ٨ .

اذا سمي هــذا النوع من التطــور الاجتماعي تطــورا تحقق من خــلال **تلــم التناقضات** ، فاننا نحار اذن فيما يجب تسمية **احتدادها** .

ويورد السيد ب ستروفه مثالين ايضاحا لصيغته البائيــة ودفاعا عنها وكلا المثالان يملكان على اي حال خاصية لا تناسبه ، الا وهي انهما « يناقضانه بأعظم الوضوح

المثال الاول « لنفترض انه نشأت ، بنتيجة تطور الصناعة ، حركة للطبقــة العاملة عملية اقتصادية » ( Praktischwirtschafliche ) ويصدر مرسوم أقسى يحظر الاضطرابات والتجمعات العمالية وتتصاعد اعمال القمع والى جانبها المعارضة بيد أن حركة الطبقة العاملة ، في تطورها اللاحق ، تتجاوز اعمال القمع التي يثلم سلاحها ، وبالنتيجة تلغى القوانين الموجهة ضد حرية الطبقة العاملة أن لدينا ههنا مثالا على تناقض يزداد اولا ثم يضعف بحيث يربح احد الفريقين آخر الامر*

حين « **يربح** » احد الفريقين فان التناقض ، وهو ابعد ما يكون عن الازدياد يتم الخلاص منه هذا بدهي ان المسألة كلها هي ما اذا كان التناقض **يضعف او** على العكس من ذلك ، **يزداد** خلال المرحلة التي تسبق مباشرة انتصار احد الفريقين المتنازعين ويرد السيد ب ستروفه بنفسه على هذا السؤال بالنفي ففي مثاله الخاص ، **تنمو** المعارضة او المقاومة حتى يتبين ان اعمال القمع عاجزة ، يعني حتى يربح العمال وصحيح ان الغاء مثل هذا القانون تسبقه ، في مثاله ، مرحلــة حيث « اعمال القمع يثلم سلاحها » بيد ان وجود مثل هذه المرحلة **مجرد افتراض**.
هل سيقول السيد ب ستروفه ان مثل هذا الافتراض يتفق كليا مع الواقــع التاريخي ؟ اذا قال انه يتفق ، فلسوف نجيب اذن بأن تاريخ القوانين الموجهة ضد التجمعات العمالية يشهد **ضــد** افتراضه وفي الحقيقة هل كان الغاء القوانين المناهضة للتجمعات في بريطانيا هذا البلد الكلاسيكي للمواطأة مسبوقا بتطبيقها الاقل قسوة ؟ ابدا لقد كان الوضع مختلفا كل الاختلاف عشية الغائها وحسب هويل فقد كان الاستياء من مثل هذه القوانين متصاعدا باستمرار مؤديا الى تدابير قمعية جديدة ؛ وحين تبين ان التشريع الموجه ضد التجمعات بكل معنى الكلمة عقبة بالغة الضعف حيــال التيار المتصاعد لحركة الطبقــة العاملة حاولت الحكومة ان **تشحذ السلاح** بالاستنجاد بقوانين اخرى مثل قوانين الفتنة(٢٦٠) ولقد اشتدت اذن مرارة العمال حتى ادى الاستياء ومحاولات الاغتيال(٢٦١) الصادرة

* ارشيف ، المجلد الرابع عشر الجزء الخامس والسادس ، ص ٥٧٥ .

من وسطهم الى اجبار الحكومة على الغاء القوانين البغيضة*
ونحصل على نفس المعلومات بالضبط من آل ويب ومن كيولمان الذي لا يفعل على اي حال في هذه الحال سوى تكرار ما قاله آل ويب**
وليس المثال الثاني الذي يورده « ناقدنا » بأشد حسما من المثال الاول . ويتعلق هذا المثال «بالقانون المناهض للاشتراكية لعام ١٨١٨ (٢٦٤) » ، هذا القانون الشهير الصادر في المانيا ان السيد ب ستروفه يشير الى ان هذا القانون طبق مع نمو حركة الطبقة العاملة ، بدرجة متزايدة الضعف ابدا ، وقد الغي اخيرا ويسأل ناقدنا وما ذلك ؟ نمو في المقاومة ام ضعف فيها بالاحرى » ؟
ولسوف نرد على هذا السؤال بسؤال آخر أي نوع من المقاومة (Widerstände ) نقصد اذا كان نقصد مقاومة الحكومة الامبراطورية لمطامح الاشتراكيين الديموقراطيين من جهة واحدة ومقاومة الاشتراكيين الديموقراطيين لمساعي الحكومة الامبراطورية من جهة ثانية ، فان التطبيق الاقل قسوة للقانون الذي أعقبه الغاء هذا القانون لا يعني اذن في حال من الاحوال أي ضعف في مثل هذه «المقاومة» وهو ما ادركه جيدا الاشتراكيون الديموقراطيون والحكومة الامبراطورية على حد سواء فالتطبيق الاقل قسوة للقانون المناهض للاشتراكية لم يعن اكثر من ان الحكومة ادركت عدم جدواه ، وانعدام الجدوى هذا كان نتيجة لاكتساب الاشتراكيين المهارة التآمرية وتعلمهم كيفية الافلات من شراك الشرطة ولم يعمل القانون الذي فقد مبرر وجوده على التخفيف من استياء العمال ، بل زاد فيه ، مثيرا الجماهير العاملة من جراء المضايقات البوليسية غير المحتملة وحين رات الحكومة الامبراطورية ان النتائج هي على العكس مما كان متوقعا ، وجدت ان الاستمرار في تطبيق القانون

---

* ماضي ومستقبل التريديونيون ، بقلم جورج هويل ترجمة لوكور غراغيزون ١٨٩٢

** بياتريس وسيدني ويب « كان القانون العام والانظمة القديمة تستخدم دونما رحمة لتكملة قوانين الائتلاف وفي الغالب بتركيبات قسرية وكان القضاة الاسكوتلنديون بصورة خاصة يطبقون قانون العقوبات في اسكوتلندا على حالات الائتلاف البسيط وان مجمل نظام القمع الذي اتصف به ادارة الوصاية على العرش(٢٦٢) قد بلغ في تلك المرحلة اوج الطغيان الذي لم يتجاوزه أي من ملوك الحالف المقدس ( تاريخ التريديونيونية ، لندن ١٨٩٤ ، ص ٨٤ – ٨٥ )

كيولمان اصبحت ظروف العامل بعد عام ١٨٩٥ اشق من ذي قبل بنتيجة انخفاض الاجور الذي لم يسبق له مثيل ما قيس بالهبوط الشامل في الاسعار وهذا ما يسهل على المرء فهم اسباب التشكل الشامل للجمعيات السرية والمؤامرات وهو ما أدى الى اعمال قمعية شرسة » Die Gewerksschaftsbewegung ) ايينا ١٩٠٠ ص ٣ ) [ النص وارد بالالمانية في الاصل الروسي ] في الحقيقة يا له من ثلم للتناقضات

بشدة بل مجرد بقائه ، امر مزعج وغير ذي فائدة ولذلك الغته واذا كنا قد استعدنا الآن ذكرى تاريخه ، فذلك كي نبين كيف ان **القوانين التي فقدت مبرر وجودها تلغى ، لكن ليس كيف ان التناقضات (( تثلم )) .**

الآن وقد تم كل شيء فان التاريخ العاري من الزينة لا يقدم الا شهادة شحيحة في مصلحة الصيغة الثانية للسيد ب. ستروفه بيد انه اذا انخرط مع ذلك في نقد اولئك الذين يعترفون بصواب ملاحظة هيغل بشأن التناقض الذي يقود قدما ، فلا بد ان لديه سببا جديا لذلك ما عسى ان يكون هذا السبب ؟

انه يجيب بنفسه عن هذا السؤال بصراحة تستحق عظيم المديح ، فيقول

لقد شددت من قبل على واقع انه فيما يجري التطور الاجتماعي متبعا صيغة نمو النقائض فلا بد بالضرورة للجيشان الاجتماعي ان يتخذ شكل الثورة السياسية ومهما يكن من امر فان هذه الفكرة التي تقدم في اساس النظرية الشهيرة لدكتاتورية البروليتاريا تنهار جنبا الى جنب مع المجرى الجدلي للتطور* » .

كذلك هو الامر اذن يقال لنا أن لب الموضوع يقوم في **الثورة السياسية ودكتاتورية البروليتاريا** . اننا نسجل ذلك

**ان حافزا سيكولوجيا ثابتا الى نسف الاساس النظري للنظرية الشهيرة عن دكتاتورية البروليتاريا والثورة السياسية ، من حيث هما ضروريتان لتحرر هذه الطبقة الاجتماعي ، قد قاد الناقد السيد ب . ستروفه ، على عتبة القرن العشرين ، الى اقامة اعتراضاته على الماركسية (( الاورثوذكسية )) على مقدمات هي أكثر من مقدمات ناقصة .**

فالسيد ب ستروفه ينسب تحت تأثير هذا الحافز السيكولوجي الثابت، الى النظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي مضمونا يختلف كليا عما هو عليه في واقع الامر ومن الطبيعي ان تجر هذه الخطيئة الاساسية من جانبه في اذيالها عددا من الاخطاء الاخرى الاكثر او الاقل اهمية ان فهمه الخاطىء للنظرية الماركسية انعكس في ذهن صاحبنا « الناقد ، في شكل (( **ابهام** )) النظرية نفسها. وهكذا تبين كما علمنا ، غموضا في حقيقة ان قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الانتاج فيه هي في هذه النظرية نوع من الماهيات او الاشيا ويعتقد صاحبنا « الناقد» ان هذا الغموض وحده هو السبب في ان المرء يستطيع ان يتحدث عن التناقض بين جميع القوى المنتجة المأخوذة جملة واحدة ، وجميع علاقات الانتاج المأخوذة جملة واحدة ايضا وان يتصور الثورة الاجتماعية من حيث هي تصادم بين تلك القوى وهذه العلاقات ولقد علمنا من السيد ب ستروفه ايضا ان تصور ماركس الاجتماعي ــ السياسي عن العالم يتسم بابهام آخر اذ هو تمسك من جهة واحدة

---

* المصدر نفسه ، ص ٦٧٤

بتلك النظرة عن **التطور الاجتماعي من خلال التناقضات المتصاعدة ، وهي النظرة** التي يدافع عنها حاليا اتباعه « **الاورثوذكسيون » كما كان ميالا من جهة ثانية** الى نظرة عن التطور **الاجتماعي « تدور حولها الآن السياسة « الاجتماعية** للسيد ب سترو فه ، **وهي النظرة التي تعبر عنها صيغة التناقض المثلوم وفي** الوقت نفسه ، فان **مؤلف رأس المال** لم يكن **عارفا بما بين هاتين النظريتين من تنافر** لنحلل « **الابهام** » الاول

في الورشة الآلية الحالية يعني في المصنع يتخذ عمل **البروليتاريين** المشتغلين هنا طبيعة **العمل الاجتماعي ، في** حين أن المصنع نفسه يخص **فردا** او **افرادا** . ان تنظيم العمل في المصنع يتناقض مع علاقات الانتاج الاجتماعية الا وهي **علاقات الملكية** في المجتمع الراهن لكن ما هو **المصنع بالذات ؟ بقدر ما هو مجموع من** **ادوات** العمل المتقدمة فهو تركيب مما نسميه **القوى المنتجة الاجتماعية** وبقدر ما تطلب حصيلة **ادوات** العمل المتقدمة **تنظيما** معينا لهذا العمل ، يعني بعض **العلاقات بين المنتجين ،** فالمصنع هو **علاقة انتاج اجتماعية*** . **واذا جعلت هذه العلاقة تتناقض** مع علاقات الملكية في المجتمع الراسمالي ، **اذا لم يعد في مقدور المصنع أن ينسجم مع الرأسمال ،** فان هذا يعني اذن أن **قسما معينا** من علاقات **الانتاج** الاجتماعية لا **يقابل** بعد الآن القسم الآخر وأن عبارة قوى المجتمع **المنتجة تتناقض مع علاقات** الملكية فيه يجب أن تفهم بهذا المعنى **التطوري الذي يحول دون اية فكرة عن تلك** القوى **وهذه العلاقات من حيث هي ماهيات معينة مستقلة وهذا هو السبب في**

تصبح من المحال ، في الحقيقة ، الحديث عن تنافض بين القوى المنتجة **وجميع علاقات الانتاج** (**المأخوذة جملة**) **ولكن من ذا** يتحدث عن هذا غير صاحبنا « الناقد » ؟ وعلى أي حال فان **أيا من كارل ماركس او فريديريك انجلز لم يفعل ذلك****

---

* ليست الآلات مقولة اقتصادية باكثر من الثور الذي يجر المحراث ان الآلات مجرد قوة منتجة الورشة الحديثة القائمة على اساس تطبيق الآلات ، هي علاقة انتاج اجتماعية مقولة اقتصادية ( **بؤس الفلسفة** ، ص ٧٠ .

** وعلى أي حال فلا بد عند هذه النقطة من اجتذاب انتباه القارىء الى السمة التالية للمصطلحات التي يستعملها الكاتبان اللذان اتينا على ذكرهما فحين يتحدثان عن التناقض الرئيسي الذي يدفع **التطور الاجتماعي قدما** فانهما يستخدمان كلمتي **علاقات الانتاج** بالمعنى الاضيق **لعلاقات الملكية** وان مثالا على ذلك هو الفقرة التي قدمناها في ملحوظة سابقة والمأخوذة من مقدمة **في نقد** ، **وهي تقرر ان علاقات الانتاج الجديدة لا تحل مكان العلاقات القديمة قبل ان تتطور الشروط** المادية لوجودها وانه ليقصد ايضا **في هذا** السياق من **الشروط المادية لوجود علاقات الانتاج** الجديدة علاقات الملكية تلك **العلاقات** المباشرة بين المنتجين **في عملية الانتاج ( يعني تنظيم العمل في مصنع او معمل النسيج ) التي يجب ان تسمى كذلك علاقات الانتاج** بالمعنى **العريض ولعل هذه الواقعة هي التي خدعت « الناقد » السطحي**

ولنلاحظ ان السيد ب ستروفه الذي كان يتحدث طوال الوقت عن التناقض بين القانون والاقتصاد تذكر مع ذلك على حين غرة ان هـذا التناقض لا شكل في النظرية الماركسية القوة الدافعة الرئيسية للتطور الاجتماعي ولذا مضى ليتحدث عن التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج الاجتماعيـة Mieux vaut tard que jamais !* ومن جهة اخرى فان هذه العودة الى المركز النظري الحقيقي لنظرية ماركس لا يمكن ان تكون لهـا قيمة في الواقع الا اذا تكلف السيد ب ستروفه عناء **فهـم** كلمات ماركس قبل التصدي لنقدها ومهما يكن من شيء ، فان **فهمها** امر يعتبره ضروريا

لقد انتقل السيد ب ستروفه بصورة لا شعورية من فهم خاطىء لنظرية ماركس الى فهم آخر لا يقل عنه خطأ والاكثر من ذلك انه اخفق في ملاحظة ان هذين النمطين الخاطئين من الفهم «**متنافران**» . ومع ذلك فانه يخطر في ذهنـه احيانا الشعور الغامض بأن ثمة امرا مشوشا وعندئذ تهدئة لوجدانه النظري الخاص ومنعا لقيام الاعتراضات من جانب قرائه يوجه اللوم في منحى آخر ويتهم ماركس بذلك الابهام وذلك الدمج للافكار المتنافرة اللذين يشكلان على وجـه الدقة الصفة الرئيسية لنقده الخاص ان هذا النوع من الحيلة النقدية لن يرضي جميع القراء ، لكنه يبدو مرضيا تماما في نظر السيد ب ستروفه نفسه ان شخصا ما مسرور على الاقل

ولنلاحظ ظرفا آخر

لقد أخذ السيد ب ستروفه على ماركس لتوه أن جميع القوى المنتجة ، **مأخوذة جملة** ، تدخل في نظريته في تناقض مع جميـع علاقات الانتاج الاجتماعيـة المأخوذة جملة هي الاخرى لكن ما الذي سمعناه منه قبل صفحات قليلة ؟ هـذا ما سمعناه تصوروا فقط ان علاقات الانتاج التي تصبح اشتراكية أكثر فأكثر تولد نظاما اجتماعيا يصبـح راسماليا اكثر فأكثر وان تأثير الاقتصاد في القانون وهو ابعد ما يكون عن احداث اي تكيف متبادل بينهما يزيد اكثر فأكثر هذا التناقض القائم ما بينهما كذلك — كما يرى السيد ب ستروفه — يمثل مجرى التطـور الاجتماعي لاولئك الماركسيين الذين يعترفون بالقانـون الجدلي للتطور لكن ماركس نفسه اعترف بهذا القانون وبنتيجة ذلك ، فلا بد انه كان يملك هو الآخر الفكرة عينها عن سياق التطور الاجتماعي ومهما يكن من شيء ، فان **هـذه** الفكرة لا تشبه في حال من الاحوال الفكره التي اخذناها بعين الاعتبار **فهناك** ( في الفكرة التي درسناها لتونا ) تتناقض القوى اكثر فاكثر باستمرار مـع علاقات الانتاج التي من الواضح انها تلعب دور **عنصر محافظ** ، اما **هنا** فان هـذا

* [ وصولك متأخرا افضل من عدم وصولك مطلقا ! ]

**العنصر المحافظ** يتحول الى عنصر **تقدمي** ان علاقات الانتاج تصبح اشتراكية أكثر فأكثر باستمرار ، والتناقض يقوم ليس بين علاقات الانتاج المتخلفة والقوى المنتجة المتقدمة ، بل بين علاقات الانتاج المتقدمة والنظام القانوني المتخلف ( الذي « يصبح راسماليا اكثر فأكثر باستمرار ) وانه ليزعم أن هـذا كله هو **وفقا لماركس !** ما هذا كله تفكير مشوش ؟ ان السيد ب ستروفه يعزف على نفس اللحن الواحد ليس هو مخطئا ؛ **فقد** نشأ الخطأ كله عن التشويش من قبل كارل ماركس الذي كان يعتقد بنظريتين متنافرتين بيد اننا نستطيع الآن ان نفهم معنى هذه الحجة لاننا بتنا نعرف ان هذا التشويش لا يصدر عن ماركس بل عن ناقده ولن نجد اية صعوبة في الكشف عن المكان الذي شوش هـذا الاخير الامور فيه وبخصوص اي شيء فعل ذلك

ان السيد ب ستروفه ، الذي اخذ على ماركس أن قواه المنتجة ، المأخوذة جملة تتناقض مع جميع علاقات الانتاج الاجتماعية ، المأخوذة جملة هي الاخرى ، استشعر في الوقت نفسه ان لومه لا يقوم على اساس متين وان تطـور القوى المنتجة يترافق ايضا ، عند ماركس **بتبدل في العلاقة المتبادلة بين المنتجين في عملية الانتاج** • وعلى اي حال فانه لم يعرف **اية علاقات انتاجية** تخضع للتبدل بصـورة متوازية مع تطور القوى المنتجة ، واية علاقات تتخلف عن هذا التطور ، فيخلق تخلفها الحاجة الى انتفاضة اجتماعية جذرية ــ الثورة الاجتماعية ولقد استخدم ، في جهله نفس تلك الحيلة الخرقاء التي نسبها الى ماركس لقد تناول ، **« مأخوذة جملة »** جميع علاقات الانتاج الاجتماعية واعلن ان ماركس والماركسيين يحسبون ان مثل هذه العلاقات تصبح **اشتراكيـة** اكثر فاكثر في حين أن النظام القانوني يزداد تشربا اكثر فأكثر بروح **الراسمالية** • ان ماركس والماركسيين «الاورثوذكسيين» لم ينادوا قط بالطبع بأي شيء من هذا القبيل وعلى اي حال فان العبث الاساسي » المنسوب اليهم ، الذي « **يتناقض** » بصورة مباشرة مع عبث «اساسي» آخر منسوب اليهم في موضع آخر من قبل الناقد نفسه أمر يميز حتى درجة فائقة الافكار المشوشة السائدة في راس السيد ب ستروفه بشأن نظرية ماركس عن التطـور الاجتماعـي

## ٧

في الحقيقة ان مدى هذه الفوضى لا حدود لـه ، ونحن لا نشعر اننا قادرون على وصفه بكل امجاده اذ لا بد في سبيل ذلك من ريشة انسان مثل درجافين ، بيد اننا ، ختاما لوصفنا ، لا بد لنا من الاتيان على ذكر احد **« الابهامات »** •

يرى السيد ب ستروفه ان مفهوم **حصيلة العلاقات الانتاجية في مجتمع معين** يتشابك ، في نظرية ماركس ، بمفهوم جملة العلاقات القانونية المشخصة وكيما يشكل القارىء حكمه في الامر سوف نورد مثالين او ثلاثة امثلة

**المثال الاول** ان العلاقات المتبادلة بين المنتجين في الورشة الآلية الحديثة تشكل كما رأينا علاقات الانتاج الاجتماعية وعلى أي حال فان هذه العلاقات المتبادلة في عملية الانتاج لا تنطوي على اية علاقات قانونية فيما بينهم ان مثل هذه العلاقات تقوم بينهم وبين مخدومهم بيد ان تلك قصة اخرى

**المثال الثاني** عند ماركس ان **القيمة** علاقة انتاج اجتماعية وعلى اي حال ، فان مفهوم القيمة لا يتشابك مع مفهوم العلاقات القانونية بين الناس الذين يدخلون في صفقات تبادلية بين بعضهم بعضا

**المثال الثالث** ان **المنافسة** علاقة انتاجية ملازمة للمجتمع البورجوازي وانها لتؤدي الى قيام العديد من العلاقات القانونية لكن مفهومها لا يتشابك مطلقا بمفهوم مثل هذه العلاقات

**المثال الرابع** ان **الرأسمال** لكن كفى ان القارىء يستطيع هو نفسه ان يرى الآن ان السيد ب. ستروفه يشوش الامور بصورة لا نهاية لها أما من جانبنا فسوف نضيف فقط ان « ناقدنا انجر في هذه الحال الى خطيئته العجيبة بفضل ستاملر الذي ما كان يستطيع افلاتا من نفوذه

لنعد الآن الى النقطة المركزية في الموقف الذي يتخذه « ناقدنا ـ حججه عن الصيغ المختلفة للتطور الاجتماعي

لقد قلنا منذ البداية انه لا يوجد ماركسي « اورثوذكسي واحد يقر بصحة صيغه الاولى ومن بعد شددنا ، في نقدنا للسيد ب ستروفه على ان التطور الاجتماعي يجري من خلال **احتداد** التناقضات وليس من خلال **تلمها** • ولعل بعض القراء اعتبروا ذلك اقرارا بصحة تلك الصيغة بالذات التي اعلناها مغلوطة وهذا هو السبب في اننا نجد من الضرورة بمكان ان نوضح الامور بينما نحن نذكر القارىء بأن ماركس نفسه لم يكن ميالا الى الصيغ » وقد سخر بمرارة من برودون في كتابه **بؤس الفلسفة** ، لان هذا الاخير كان مولعا بالصيغ

ويتذكر القارىء « صيغة التناقض التي رسمها السيد ب ستروفه .

| | |
|---|---|
| ب | ج |
| ب٢ | ج٢ |
| ب٣ | ج٣ |
| ب٤ | ج٤ |
| ب٥ | ج٥ |

**٦ب**          **٦ج**

**نب**          **نج**

من اين ظهرت **ب** ؟ ومن اين ظهرت **ج** ؟ **اتكـون ب** سببا لوجود **ج ؟ اتكون ج** سببا لوجود **ب** ؟ هذا كله ملفوف بالالغاز كل ما نعلمه من السيد ب ستروفه هو ان **التفاعل** موجود بين **ب** و **ج** ، **لكن هذه الصيغة لا تعبر حتى عن التفاعل** ؛ كل ما تفعله هو الاشارة الى ان **ج تنمو بصورة مطردة مع نمو ب** . ولقد اقتصر السيد ب ستروفه على هذا البيان في افتراضه بأن صيغة تعبر عن العلاقة بين نمو **ج** ونمو **ب** تصف بكمال كاف النظرة التي يؤمن بهـا الماركسيون « الاورثوذكسيون بخصوص مجرى التطور الاجتماعي يقول كل من الظاهرتين **ب** و **ج** تنمو من خلال تراكم عناصر متجانسة وفي الوقت نفسه ، ونتيجة لذلك ، ينمو ايضا التناقض القائم بينهما ، هذا التناقض الذي يقضي عليه آخر الامر انتصار الظاهرة الاقوى ان **نب** تدمر **نج**

لكن اذا **نب** دمرت **نج** ، فان حصيلة « التفاعل » بين الظاهرتين **لا بد ان تجد** تعبيرها كذلك في الصيغة الاولى للسيد ب ستروفه ومع ذلك فانها **لا تعبر** عن هذه الحصيلة ، بـل ختامهـا يشير فقط الى ان **ج** تنمو بصورة مطردة مع نمو **ب** ، لكن لا يشير الى ان نمو **ب** يؤدي الى دمار **ج** وبنتيجة ذلك فان صيغة السيد ب . ستروفه يجب ان تصحح قبل كل شيء كما يلي

**نب**          **نج**

**ب**          **ج**

**٢ب**          **٢ج**

**٣ب**          **٣ج**

**نب**          **نج**

ن          ٠ج

ن [ او بالاحرى ( ن + س ) ] ب

لنمض قدما ونر ما اذا كانت هـذه الصيغة المصححة قليلا **تتفـق مع مجرى** التطور الاجتماعي حيث يجري هذا التطور من خلال **احتداد** التناقضات

ان هذه **الثورة الاجتماعية** دمرت تدميرا تاما « النظام القديم واستهلت على اكمل وجه سيادة فورية للبورجوازية ومهما يكن من شيء ، فقد تهيأت **بفعـل** عملية مديدة **للتطور الاجتماعي** استمرت عدة قرون فالنضال الذي خاضته **الطبقة** ، سالفة ضد الاستقراطيـة الروحية والزمنية بدا باكرا منذ القرن الثالث عشر ولم

يهن في اشكال شديدة التنوع حتى عام ١٧٨٩* ان البورجوازية التي دفعت في ذلك العام اعداء تاريخيين الى المعركة الحاسمة انما خلقتها ، كما يشير الى ذلك **البيان الشيوعي** على خير وجه ، سلسلة من الثورات في انماط الانتاج والمبادلة ، وقد ترافقت كل خطوة جديدة في قوتها **الاقتصادية** ببعض المكاسب**السياسية** يعني **القانونية )** ان كل من يعتقد ان النظام الاقطاعي ظل على حاله دون تبدل طوال وجوده يقع في خطأ جسيم فالانتصارات التي كانت البورجوازية المتقدمة تحرزها كانت تبدل باستمرار البنية الاجتماعية الاقطاعية التي كانت تلك الانتصارات تدخل اليها باستمرار اصلاحات متنوعة اكثر او اقل اهمية ولقد كان يمكن ان يعتقد ان هذه الاصلاحات يجب أن تثلم التناقضات القائمة داخل المجتمع الاقطاعي وبالتالي تهيىء انتصار النظام الجديد بصورة سلمية ومتدرجة وغير ملموسة على وجه التقريب لكن الامور سارت خلاف ذلك كما هو معروف لدى الجميع فالاصلاحات التي تمكنت البورجوازية من تحقيقها لم تثلم التناقضات بين الطموحات التجديدية والنظام الاجتماعي القديم بل اعطت دفعة جديدة لنمو قواه، وشجعت تلك الطموحات اكثر من ذي قبل وبذلك **زادت من حدة** هذه التناقضات اكثر فأكثر مهيئة بصورة تدريجية العاصفة الاجتماعية التي لم تعد القضية مع بدايتها قضية **اصلاح** بعد الآن بل قضية **ثورة ،** لا قضية **تبدلات ضمن النظام القديم بل قضية القضاء التام عليه**** وهذا هو السبب في ان حقد الطبقة الثالثة على **النظام القديم** كان عشية الثورة اقوى حتى درجة كبيرة منه في أي وقت مضى*** وكما يشير توكفيل الى ذلك فان القضاء السابق على قسم من مؤسسات الاجتماعية جعل مؤسسات باقية بغيضة مئة مرة اكثر من ذي قبل**** وهذه الملحوظة صحيحة بقدر ما تنطوي على الحقيقة بأن التنازلات

---

صحيح انها [ الثورة ] باغتت العالم ومع ذلك لم تكن سوى تكملة لجهد طويل جدا والخاتمة المفاجئة والعنيفة لعمل جرى تحت أبصار عشرة أجيال من البشر دي توكفيل **النظام القديم والثورة ،** الطبعة الثانية باريس ١٨٥٦ ص ٥٥ [ **النص بالفرنسية في الاصل الروسي ]**

** انتهى الشريع من عصر الى عصر الى المساس بامتيازات النبالة وهو ما شوهد في **كل مكان ، كما حانت في كل مكان الساعة حيث لم يعد المقصود ادخال الاصلاحات على هذه الامتيازات او الاستعاضة** عنها أو تقييدها بل ازالتها الى غير رجعة هنري دونيول ، **الثورة الفرنسية والاقطاع، الطبعة الثانية ،** باريس ١٨٧٦ ص ٦ ) **[ النص بالفرنسية في الاصل الروسي ]**

*** **« هذا هو السبب في أن هذا القرن كان ينطوي على مثل هذا القدر من النفور حيال الاقطاعية وحقوق الاسياد » دونيول المؤلف نفسه الصفحة نفسها ) [ النص بالفرنسية في الاصل الروسي ]**

**** المصدر نفسه ، ص ٧٢

-بي يقدمها **القديم الى الجديد** لا «**تثلم**» في حال من الاحوال التناقض بين **القديم والجديد**.
لكنها خاطئة بقدر ما يقصد توكفيل ان يقول ان النير الاقطاعي كان عشية الثورة في فرنسا اخف منه في اي وقت مضى. فالغاء **قسم** من المؤسسات الاقطاعية لا يعني بعد اي **تخفيف** للنير الاقطاعي فالنمو السريع للمتطلبات الاجتماعية الجديدة كان يمكن أن يجعل – ولقد جعل كما نرى – **القسم الباقي** اشد ايذاء للتقدم الاجتماعي، وبالتالي أشد وطأة واعظم عرضة للحقد مما كان عليه من قبل النظام الاقطاعي بأكمله* ولقد كان هناك فيما عدا ذلك، حتى في ظل النظام القديم انواع مختلفة من المؤسسات ويعترف توكفيل نفسه بأن الامتيازات التي كانت تفصل بين النبالة والبورجوازية في فرنسا لم **تنقض** مع مرور الوقت، **بل ازدادت في واقع الامر**** وعلى حد تعبيره فان رجلا من الطبقة الوسطى كان يجد من الاسهل عليه أن يصبح نبيلا في ايام لويس الرابع عشر منه في ايام لويس السادس عشر ويستطرد قائلا انه بقدر ما كانت النبالة الفرنسية تتحول عموما الى عصبة كانت تكف اكثر فأكثر عن كونها ارسقراطية*** ولقد برهن مؤرخون آخرون على اكمل وجه على هذه الامور جميعا ومثال ذلك ان دونيول يشير الى التذمر العام الذي كان قائما عشية الثورة ضد نمو الاضطهاد الاقطاعي ان كل محلة تشكو من نمو هائل [ للاضطهاد الاقطاعي ] وتحاول ان تدعم شكواها بالحقائق**** ويعبر الفريد رامبو بما لا يقل من جزم عن ذلك عن الفكرة بأن الاصلاحات التي انتزعتها البورجوازية من الارسقراطية لم تضعف اعمال القمع من جانب النظام القديم ويقول هذا الباحث

« فيما كان النظام القديم يحاول ان يصحح البعض من نقائصه بدا كأنه يقاسي الامرين في سبيل زيادة مساوئه احتدادا في ذلك الزمن [ السابق للثورة مباشرة ] ابعدت مراسيم ١٧٧٩ و ١٧٨١ و ١٧٨٨ جميع أفراد الطبقة الثالثة العاميين ) عن مناصب الجيش وجعل البلاط الملكي ، الذي ما كان يجرؤ على اصدار مرسوم في هذه المسألة ، قاعدة لسلوكه ان تكون جميع الامتيازات الاكليريكية ، من أبسط المناصب غير الرهبانية

---

* **ويصح هذا الامر اكثر لانه كان زمن لم يكبح النظام الاقطاعي فيه تقدم المجتمع ، بل على النقيض من ذلك شجعه . وكان فوستيل دي كولانج على حق حين اشار ، بخصوص القلاع الاقطاعية** الى ما يلي لم يعد الناس ، بعد عشرة قرون ، يضمرون سوى الحقد لهذه القلاع السيدية كانت مشاعرهم مقتصرة عند بنائها على المحبة والامتنان ، فهي لم تشيد ضدهم ، **بل من اجلهم » ( تاريخ المؤسسات السياسية في فرنسا القديمة ، المجلد الرابع ، ص ٦٨٢ – ٦٨٣ ) [ الشاهد بالفرنسية في النص الروسي ]**

** المصدر نفسه ، ص: ١٤٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦

*** المصدر نفسه ، ص ١٥٦ ، ١٥٧

**** **الثورة الفرنسية والاقطاع ، ص ٤٤ قارن مع الصفحة ٤٢ ايضا : « والاكثر من ذلك** ان هذه الامور جميعا سجلت لانها اتخذت مؤخرا حدة جديدة » [ **بالفرنسية في النص الروسي** ]

حتى أغنى الاديرة وقفا على النبالة وحدها ورفضت البرلمانات أن تقبل في وسطها أي قاض لا يستطيع ان يثبت انحداره من جيلين من النبلاء ، كما رفض برلمان بوردو طوال سنتين ان يضع المستشار دوباتي في منصب رئاسته ونظرا لان المحاكم العليا كانت بين أيدي النبلاء كان العاميون والجماعات الريفية يخسرون جميع القضايا التي يرفعونها ضد مطامع طبقة الاسياد [ seigneurie ] ، وهو ما ادى الى اشتداد الاقطاعية في الريف مجددا كانت الحكومة الملكية تدعم أي اضطهاد يشنه الملاكون العقاريون ومفوضو الاراضي ضد الفلاحين ولقد عبر العاميون في بعض عرائضهم لعام ١٧٨٩ عن الرغبة في ان يكون نصف البرلمانات من غير النبلاء كان عليهم يكسبوا الضمانات التي حاولت اسرة هوغنو كسبها خلال حكم هنري الرابع وبرز روح الرجعية الشاملة بصورة جامعة سواء في مرسوم برلمان باريس الذي حكم باحراق كتاب بونسرل عن الامتيازات الاقطاعية ١٧٧٦ وحظر استخدام المنجل في حصاد الحنطة أم في مرسوم عام ١٧٨٤ الذي نص على أن جميع الوشاحات المصنوعة في المملكة الفرنسية يجب ان تكون متساوية الطول والعرض واخيرا انصرفت السلطة الملكية بالذات التي انتزعت من البرلمان أي حق في الاشراف على التشريع والمالية وحلت قسرا جمعيات عام ١٧٨٨ الى اقامة ما لم يكن له وجود ابدا في فرنسا من قبل ـ نظام من الاستبداد غير المقيد لقد صارت أشد طغيانا من حكومة لويس الرابع عشر ، وذلك في وقت كان يتضح للجميع فيه انها عاجزة عن استخدام سلطانها من أجل الصالح العام* »

ويدين العالم الروسي السيد م كوفالفسكي ، في تعارض مع العلماء الفرنسيين الذين استشهدنا بهم لتونا ، استعمال عبارة الاقطاعية في تطبيقها على البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية في فرنسا القرن الثامن عشر وهو يقول

« ليس ما يعطي فكرة أشد خطلا عن النظام الاقتصادي والاجتماعي في فرنسا من تسميته بالنظام الاقطاعي فهذه العبارة لا تنطبق عليه أكثر من انطباقها مثلا على نظام الملكية العقارية الروسية عشية عام ١٨٦١** »

لكنه يكفي ان نقرأ الفصل ( الثاني من المجلد الاول ) الذي أخذنا منه السطور الموردة هنا لنرى مبلغ ما عانت الزراعة الفرنسية والطبقة الزراعية الفرنسية من بقاء نظام يسميه السيد كوفالفسكي نفسه اقطاعيا . وفضلا عن ذلك يلاحظ السيد

* تاريخ الثورة الفرنسية ، الطبعة السادسة ، المجلد الثاني ص ٥٩٩ ـ ٦٠٠ ويتفق رامبو اتفاقا تاما مع رأي شيريست الذي يستشهد به والذي يقول « كان لمؤسساتنا السياسية مصير عجيب اذ هي لم تتحسن بعد هنري الرابع فبدلا من أن تتقدم مع مرور الزمن ومع تقدم الافكار والاخلاق تقهقرت رغما عن الاخلاق والافكار والازمان ان حكومة النظام القديم باتت [ عشية ١٧٨٩ ] أشد نقصا واعظم عداء لطموحات الطبقة المثقفة مما كانت عليه في العصور الوسيطة » .

** اصل الديموقراطية الحديثة ، المجلد الاول ، ص ٥٩ .

كوفالفسكي ، في اتفاق تام مع المؤرخين الفرنسيين الذين استشهدنا بهم ، ان النبالة والسلطات الملكية على حد سواء فعلت كل ما في وسعهـا ، عشية الثورة ، للحفاظ على المؤسسات الاقطاعية الباقيـة ولتقوية اهميتها **العملية** . فهو يقول ان ربع القرن السابق للثورة يقـدم لنا عددا من المحاولات لاستعادة الالزامات والمدفوعات
ل تم مع في القو الى ود نه عمالها*
ودونيول ان الحكومة الفرنسية في ذلك العصر عززت بصـورة اصطناعيـة روح العصبة وروح المعالي من خلال تشريعها**

وباختصار ، فان هـذا الكتاب الذي وضعه بحاثة روسي ، مثله كمثل كتابات السابقين له في الخارج ، يشهد على ان الازمان التي سبقت الثورة الفرنسية مباشرة اتسمت **ليس بتلم التناقضات** بين النظام القديم والحاجات الاجتماعيـة الجديدة ، بل على النقيض من ذلك **باحتداد شديد فيهما** . لكن السيد كوفالفسكي والمؤرخين الفرنسيين بينوا على حد سواء ان احتداد التناقضات كان هو نفسه الحصيلةالمعقدة لعملية تاريخية مديدة كان النظام القديم خلالها يتفتت اكثر فاكثر وكان المدافعون عنه يفقدون موقعا اثر آخر وما يترتب على هذه الحقيقة التاريخية التي لا جدال فيها هو اولا ، ان الانتصارات التي احرزها المجددون على المحافظين والتي قادتالى **الاصلاحات لا تحول دون الثورة ، بل على النقيض من ذلك تستدعيها اكثر فاكثر ،** مثيرة في المحافظين مساعي رجعية هي أمر طبيعي في مثل هذه الاحوال ، ومثيرة في المجددين تعطشا الى فتوحات جديدة واذا شئنا ان نصف في صيغة واحدة هذه العملية التاريخية حيث **الثورة لحظة من التطور** وهي تتهيأ بالاصلاحات*** احتجنا الى ما هو اعقد من صيغة التناقضات التي يقترحها السيد ب. ستروفه اننا لا نعرف اية صيغة قادرة على اعطاء اي تعبير مرض عن هذه العملية متعددةالجوانب. ومهما يكن من شيء فاننا نستطيع ، على أساس جميع الاشياء التي قلناها عن مجرى الصراع الذي خاضته الطبقة الثالثة ضد النظام القديم ، ان نتحدث عن الحاجة الى تعديلات اساسية على الصيغة الاولى للسيد ب. ستروفه

اذا كان تطور العناصر التاريخي الجديد في مجتمـع جديد يتسم بانتصارات المجددين وهزائم المحافظين ، فان الصيغة التي اشرنا اليها يجب اذن ، بكل تأكيد ،

---

* المصـدر نفسـه ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥

** المصـدر نفسـه ، ص ٤٠

*** السيد ستروفه « وهكذا كان من نصيب ازماننا ان تشك في ان الاصلاحات الاجتماعية يصحبها الانتهازيون المصدر نفسه ، ص ٦٧٩ ) [ الفقرة بالالمانية في النص الروسي ]

ان المقصود هم الماركسيـون « الاورثوذكسيون » ولسوف يتضح للقارىء مما قلنـاه في النص ان مآخذه فيما يخصنا على الاقل ، لا اساس لـه على الاطلاق ، ومع ذلك فهو يعتبرنا من بـين اشـد الاورثوذكسيين اورثوذكسيـة .

ان تدل بصورة محددة جيدا على هذا الواقع بالغ الاهمية ومع ذلك لا نجد ادنى تلميح الى هذه الحقيقة ان الامر على النقيض من ذلك فهي تقول ان نمو ب يترافق بصورة ثابتة بنمو مطرد في ج ، وذلك حتى اللحظة حيث نب تدمر نج فلا بد اذن ، كيما تعبر عن مجرى الامور الفعلي ، ان تبدل الصيغة اولا كما يلي

| | |
|---|---|
| ب | نج |
| ٢ب | ( ن ـ ١ ) ج |
| ٣ب | ( ن ـ س ) ج |
| | |
| نب | ج |
| مب | ج |

ان على الصف الاول هنا ان يعبر عن التطور الدائب للحاجات الاجتماعية الجديدة والصف الثاني عن التبدلات التي لا تقل عن ذلك دأبا في النظام القديم الا وهي التنازلات التي ينتزعها المجددون من المحافظين لكن نظرا لان هذه التنازلات لا تحول ، كما نعلم من قبل ، دون اي احتداد في التناقضات بين القديم والجديد ، فمن الواجب ان نضيف الى الصفين اللذين نملكهما من قبل صفا ثالثا يعبر عن نتيجة التفاعل بين ب النامية باستمرار و ( على العموم ، يعني بالرغم من النجاحات المؤقتة للرجعيين ) ج المتناقصة باستمرار لا نقل عن ذلك وحين نضيف هذا الصف الثالث يصبح لدينا

| | | |
|---|---|---|
| ب | نج | د |
| ٢ب | ( ن ـ ١ ) ج | ٢ د |
| ٣ب | ( ن ـ س ) ج | ٣د |
| | | |
| نب | ج | ند |
| مب | ج | مد |

ومهما تكن الصيغة الجديدة بعيدة عن المثل الاعلى ، يعني عما يجب ان يعطي تعبيرا كاملا عن التطور الفعلي من خلال التناقضات ، فهي مع ذلك اقرب الى الحقيقة حتى درجة كبيرة من الصيغة الاولى للسيد ب. ستروفه ، حيث تستقيم ميزتها في ان التحيز غريب عنها وان الاصلاحات فيها ، كما هي الحال في الحياة الواقعية ، لا تحول دون الثورة ان الامر على النقيض من ذلك ، فهي تبين ان امكانية الثورة ، وهي أبعد ما تكون عن الامتناع ، تخلقها الاصلاحات ان ما يمكن لنظرة قصيرة البصر او مغرضة ان تعتبره « ثلما » للتناقضات هو في واقع الامر مصدر لاحتدادها.

# ٨

نعود فنقول ان المجرى الفعلي لتطور المجتمعات البشرية التاريخي لا يمكن التعبير عنه بما هو واجب من الكمال في « صيغة » وحيدة ومع ذلك ، فقد يتضح لهذا السبب بالذات انه من المفيد جدا القيام بمحاولة اخرى لاعطاء تعبير تخطيطي عن هذا المجرى

ولسوف نطلب من القارىء ان يسجل هذا المقتطف الذي نعتذر مسبقا بكل اخلاص عن طوله

« لا يتطور النظام السائد الذي يحيا الناس في ظله ويعملون الا بصورة بطيئة وعبر نضال شاق فبعد صراع مديد ونكسات عديدة ومحاولات مغبوطة وجهود دائبة في سبيل المضي قدما يقوم آخر الامر نظام يلبي على أساس الخبرة الماضية الحاجات الحالية وتستطيع القوى الفردية ان تتطور تحت حمايته بأعظم الجدوى في صالح المجتمع ؛ لكنه لا تكاد اوضاع ملائمة حتى هذه الدرجة تستقر حتى تظهر حاجات جديدة لم تؤخذ لها الاحتياطات من قبل وعندئذ يظهر مسعى الى تعديل النظام القائم والى تغييره بصورة تدريجية بينما تظهر من جانب آخر في سبيل موازنة هذا المسعى ، رغبة منحازة تريد الحفاظ على النظام القديم باكمله ان الاشكال المنشأة بغرض الخير العام تتشبث بها بعناد قرب النهاية المصالح الخاصة والانانية ومع مرور الزمن لا يطالب بالمحافظة على الاشكال القديمة وغير المتبدلة سوى المصالح الكاذبة التي لا تفهم المغزى الذي كان لمثل هذه الاشكال ذات مرة وفي الختام غالبا ما يبقى شكل عار واحد ، غير قابل للحياة البتة تجد الحياة الجديدة والنشيطة بعده تعبيرا لها في أشكال جديدة كل الجدة الى أن يأتي اليوم حيث يدمر فيه الشكل القديم كليا ، وذلك حتى في تظاهراته الخارجية* »

ان لدينا ههنا شيئا يشبه كذلك صيغة للتقدم الاجتماعي وهي صيغة نأمل الا ينكر احد صحتها حتى « الناقد الاقدر على المثابرة » ان **حاجات اجتماعية** محددة تولد **اشكالا محددة للحياة اليومية** تكون ضرورية لتقدم المجتمع اللاحق ومهما يكن من شيء ، فان هذا التقدم الذي اصبح ممكنا بفضل الاشكال المعطاة للحياة اليومية يؤدي الى نشوء حاجات اجتماعية جديدة لا تتفق بعد الآن مع **الاشكال القديمة** للحياة اليومية التي خلقتها **الحاجات السابقة** . وهكذا ينشا **تناقض** ينمو اكثر فأكثر تحت تأثير التقدم الاجتماعي المتواصل ويؤدي في آخر المطاف الى أن تفقد الاشكال القديمة للحياة اليومية ، وهي التي خلقتها في يوم من الايام حاجات المجتمع اللاهبة ، كل مضمون نافع ، فتلغى اذن بعد صراع يستمر فترة تطول او تقصر وتفسح المكان لاشكال **جديدة** .

---

* ادولف هيلد ، Entwicklung der Grossindustrie [ ص ١٩ من الترجمة الروسية ]

ان هذه الصيغة للتقدم الموضوعية تعبر كما سوف يتبين القارىء عن العلاقة المتبادلة ( « التفاعل » ) بين **المضمون والشكل** . فالمضمون هو **الحاجات الاجتماعية التي لا بد من تلبيتها** ، أما **المؤسسات الاجتماعية فهي** الشكل ويولد المضمون الشكل ، **وبذلك يضمن** لنفسه التطور اللاحق **ومهما** يكن من شيء فان هذا التطور **يؤدي الى أن يصبح** شكله غير مرض ، فينشأ تناقض والتناقض يؤول الى الصراع ، **والصراع الى** دمار الشكل **القديم** والاستعاضة عنه بشكل **جديد** يضمن بدوره التطور **اللاحق** للمضمون الذي يؤدي الى ان يصبح الشكل غير مرض مرة اخرى **وهكذا دواليك** ، حتى ينتهي التطور الى الثبات **ذلك** هو بالذات القانون الذي تحدث عنه **الراحل نقولاي** تشيرنيشفسكي بالكلمات البليغة التالية

« تبدل ابدي للاشكال ؛ انكار ابدي للشكل كما ولده مضمون معين او كفاح معين وبنتيجة ازدياد هذا الكفاح تطور اعلى للمضمون نفسه ان كل من يفهم هذا القانون العظيم الابدي والعمومي ، كل من يتعلم ان يطبقه على أية ظاهرة كانت ـ اواه ، بأي هدوء سوف يرحب بالفرص التي يتهرب الاخرون منها وحين يردد ما قاله الشاعر

**Ich hab « mein » Sach auf Nichts gestellt**
**Und mir gehört die ganze welt***

فانه لن يندم على أي شيء فات زمانه ، وسوف يقول « ليحدث ما يحدث فان يومنا آت »

**هذا القانون العظيم عن انكار الشكل الذي ولده مضمون معين بنتيجة النمو اللاحق لهذا المضمون** هو في الحقيقة قانون عمومي ، اذ لا يخضع له تطور الحياة الاجتماعية فحسب ، **بل تطور** الحياة العضوية ايضا** وهو في الحقيقة **ابدى**

* [ اراهن على كلمة « لا » والعالم ملك لي ]

** « ذلك ان كل حياة سلسلة غير منفصمة من تطور المادة العضوية مرتبطة ابدا بتبدلات في الشكل مقابلة لها » ( **هيكل ، المورفولوجيا العامة للعضويات** ، الفصل السابع عشر ) [ الفقرة بالالمانية **في الاصل الروسي** ] ويتظاهر هذا القانون بوضوح وبروز مدهشين **في** علم الجنين عند الحيوانات **التي تتطور** بواسطة التحول ، بعض انواع الحشرات على سبيل المثال ثنائية الجناح ، قشرية الاجنحة ، **الخ** ) وكما هو معروف لدى الجميع فان التحول يمكن ان يكون **ناقصا** أو **كاملا** وفي الحالة **الاخيرة تتحول اليرقة** الى **خادرة** ، ومن بعد تتكيس **في قشرة تحميها** من أي تأثير ضار من جانب العالم **الخارجي** وحين تنتهي سلسلة التحولات داخل عضوية الخادرة تصبح القشرة الواقية **نافلة** ، **بل تعوق** الوظائف الحيوية اللاحقة للعضوية **تناقضها** ، وبالتالي تنفتح حين يبلغ التناقض درجة **معينة من الشدة** وبنتيجة ذلك فان ما لدينا هنا هو انفجار ثوري **انفصام في التدرج** وعلى العموم فان الطبيعة ثورية عظيمة وهي لا تبدي الا اهتماما ضئيلا « بتلم التناقضات » .

بمعنى ان عمله لن يتوقف الا حين ينتهي اي تطور كان  بيد ان هذا القانون العظيم والابدي والعمومي هو في الوقت نفسه تلك (( **الصيغة للتناقضات** )) التي من الارجح انها تعبر بصورة افضل من اية صيغة اخرى عن راي ماركس في مجرى التطور الاجتماعي

وهذا ما نقرؤه في الجزء الثاني من الكتاب الثالث من **رأس المال**

ما دامت عملية العمل مجرد عملية بين الانسان والطبيعة تظل عناصرها البسيطة مشتركة بين جميع اشكال التطور الاجتماعية  بيد ان كل شكل تاريخي خاص لهذه العملية يطور اكثر فأكثر اسسه المادية واشكاله الاجتماعية  فكلما تم بلوغ مرحلة معينة من النضوج يتم الاعراض عن الشكل التاريخي الخاص الذي يعبد الطريق امام شكل أعلى وتنكشف لحظة الوصول الى مثل هذه الازمة بالعمق والسعة اللذين بلغتهما التناقضات والناحرات بين علاقات التوزيع  وبالتالي الشكل التاريخي الخاص لعلاقات الانتاج المقابلة لها من جهة واحدة  والقوى المنتجة  من جهة ثانية  عندئذ ينشأ نزاع بين التطور المادي للانتاج وشكله الاجتماعي*

التأثير الانتاجي للانسان في الطبيعة ونمو القوى المنتجة المتضمن في هذا التأثير – هذا هو **المضمون** ؛ وبنية المجتمع الاقتصادية وعلاقات الانتاج الخاصة به توفر **الشكل** ، الناشىء عن مضمون معين ( الدرجة الخصوصية في « تطور الانتاج المادي  والمطروح بنتيجة **التطور اللاحق لذلك المضمون** . واذا ما نشأ التناقض بين الشكل والمضمون مرة  فانه لا « يثلم » بل **يزداد** ، وذلك بفضل النمو المتصل للمضمون الذي يتجاوز حتى درجة بعيدة قدرة الشكل القديم على التغير بصورة متفقة مع الحاجات الجديدة  وهكذا تحين ساعة عاجلا او آجلا ، حيث يصبح القضاء على **الشكل القديم** والاستعاضة عنه **بشكل جديد** ضروريا لا مندوحة عنه ذلك هو معنى النظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي

وان كل من يدرك هذا المعنى الواضح وضوحا تاما والعميق جدا في الوقت نفسه قد  أيضا الاهمية الثورية **للجدلية الماركسية** في تطبيقها على المسائل الاجتماعية

« أصبحت الجدلية ، في مظهرها الصوفي  زيا المانيا  كان يلوح انها تمجد الاشياء القائمة  اما في مظهرها العقلاني  فهي فضيحة وفظاعة بالنسبة الى مملكة البورجوازية ومفكريها العقائديين  لانها تتضمن  في تفهمها للاشياء الراهنة والاعتراف بها  فكرة انكارها المحتوم في الوقت نفسه  فكرة دمارها الضروري  ولانها تنظر الى شكل اجتماعي متطور تاريخيا في حركته الدائمة  التي تأخذ  الاعتبار طبيعة هذا الشكل الانتقالية ووجوده المؤقت على حد سواء  انها لا تلتزم بأي شيء او تخضع

---

* **رأس المال** ، الكتاب الثالث ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ (٢٦٨) .

له   فهي بحكم جوهرها نقدية وثورية معا* »

اتخذ وجهة نظر **ماركس** ، ايها القارىء العزيز   وسوف ترى مبلغ الضعف اليائس والخراقة المضحكة اللذين تتصف بهما جهود اولئك « النقاد  الذين يحاولون بكل كد ان **يدخلوا الى نظرية ماركس** المتماسكة عنصرا ما من « الثلم  العزيز جدا على قلوبهم   وعندئذ **لن تزعجك** « الابهامات » العديدة والمذهلة في الاغلب التي يحاول هؤلاء السادة **المحترمون ادخالها الى تفسير** نظرية ماركس   واذا انت فقدت صبرك تماما آخر الامر ، **وانطلقت من** بين شفتيك كلمات الغضب ، فلن يكون ذلك اذن لان ما تتصف به **حججهم** الصبيانية من قـوة وهميـة قد اغضبتك ، بل لانك واجد انه من غير الجائز **ومن الشائن الادعاء** الذي ينادي به بعضهم وهم يعتبرون ويسمون انفسهـم **ماركسيين**   **نحن نفهـم** على أكمل وجه أن مثل هـذا الادعاء السخيف يستحق **الادانة الاشد** ، ولـذا لن ندهش مطلقا اذا انت هتفت وقد ضاق ذرعك

بحق السماء ايها **السادة النقاد** ! **أي** نوع من الماركسيين انتم ؟! لقد زرع ماركس التنانين   بينما لستم **انتم**   لستم انتم   حسنا ، باختصار ، انتم عضويات من قياس مختلف !   »

ولسوف نرى في **مقالتنا التالية** بأي اخفاق « ينتقد  السيد ب. ستروفه ، معتمدا على الفلسفة « **النقدية** » ، مفهوم ماركس عن الثورة الاجتماعية   ولسوف نتعرف فيها الى **حججه الموجهة** ضد ما يسميه السادة النقاد **نظرية ماركس عن املاق البروليتاريا** ، ويتصدى للدفاع عـن نظريـة **ثلـم التناقضات القائمـة في المجتمـع الراسمالي** ، وهي النظرية التي قدمها دعاة البورجوازية منـذ زمن طويل

---

* **رأس المال** ، ص ١٩ (٢٦٩)   حيال هذه الايضاحات من قبل ماركس لا بـد للمرء ان يعتبر امرا غريبا   وفي الوقت نفسه مميزا حتى الدرجة القصوى للنقاد من طرازب   ستروفه يعلن **هؤلاء** السادة ان **جدلية ماركس هي** الحلقة الاضعف في نظريته   ويقول السيد ستروفه النقطة القاتلة في نظرية **التطور التي لا جدال** في انهـا المظهر الاكثر تمييزا والاعظم بريقا لاشتراكية ماركس تكمن فيهـا ايضا ، **وهي تكمن** بصورة رئيسيـة في « جدليتهـا » التي يزعم انهـا لا تقهر »
المصدر نفسه   ص ٦٨٦ ا   [ الفقرة بالالمانية في النص الروسي ]   ان السبب الفعلي في هذا البيان يتضح بجلاء من الكلمات التي تعقب مباشرة هذه الفقرة   وهي للسيد ب   ستروفه نفسه « هذه التناقضات **التي لا حصر لها لا** يمكن التخلص منها الا اذا رفض المرء كليا « الثورة الاجتماعية » من حيث هي مفهـوم نظري » [ **الفقرة** بالالمانيـة في الاصل الروسي ]   ان فاوست غوتـه يخاطب مفيستوفيلبس كما يلي   ان النجمة الخماسيـة تعذبك   ويمكن أن يقال عن ذهننـا   النقدي « ن ما يعذبه هو مفهـوم الثورة الاجتماعيـة   بكلام   ( « Zusam Menbruchstheorie
في ارتباطه بمفهوم **ثورة سياسية يكون معناها دكتاتورية البروليتاريا**

## المقالـــة الثانيـــة

ليس السيد ب ستروفه اول ولا آخر رواد نظرية « ثلم » التناقضات بين مصالح البروليتاريا ومصالح البورجوازية ان لهذه النظرية انصارا عديدين سابقين للسيد ستروفه ، ولسوف يكون لها ايضا المزيد من الانصار بعده ، نظرا لانها تنتشر بسرعة فائقة في الشريحة المثقفة من البورجوازية الصغيرة ، يعني تلك الطبقة التي حكم عليها مركزها بالذات ان تتذبذب بين البروليتاريا والبورجوازية وانها لتستأهل الدراسة الوثيقة بالضبط لانها تنتشر بمثل هذه السرعة ، ساعية لفرض نفسها على اعتبارها الاشتراكية الاحدث والاكثر نقدية » ايضا ، هذه الاشتراكية التي جاءت تحل مكان الاشتراكية التي يزعم انها ابطلت والتي ينادي بها ماركس واتباعه المذهبيون وينبغي لكل من يريد ان يكافح تلك النظرية ان يعرف على حد سواء اصولها النظرية وقيمتها الحالية بحيث لن يستشعر القارىء اية دهشة اذا نحن تركنا ناقدنا لبرهة من الزمن كي نتمكن من الحصول على معرفة افضل السابقين له وعن اقاربه الاكثر او الاقل بعدا والموجودين على قيد الحياة بعد

### ١

ان سعر قوة العمل وفضل القيمة يتناسبان عكسا . فبقدر ما تباع قوة العمل بسعر اغلى يكون معدل فضل القيمة ادنى والعكس بالعكس فمصالح بائع قوة العمل هي على طرفي نقيض مع مصالح الشاري واذا ما أخذ هذا التناقض في جوهره فانه لا يمكن الخلاص منه كما لا يمكن ثلمه » حتى ينتهي بيع العمل وشراؤه يعني حتى يتم القضاء على نمط الانتاج الراسمالي . ومهما يكن من شيء ، فان الحدود التي يتم بموجبها بيع قوة العمل وشراؤها يمكن ان تتغير في هذا الاتجاه او ذاك فاذا تغيرت في مصلحة البائعين ارتفع سعر قوة العمل وحصلت الطبقة العاملة في صورة الاجور ، على نصيب في القيمة التي يخلقها عملها اكبر من ذي قبل وهو ما يؤدي بدوره الى تحسن في مركزها الاجتماعي وتقلص المسافة الفاصلة بين البروليتاريا المستثمرة والراسماليين الذين يستثمرونها . واذا تغيرت الحدود التي تباع قوة العمل بموجبها في مصلحة الشارين انخفض سعرها اذن وحصلت الطبقة العاملة على حصة اصغر مما كانت تحصل عليه قبلا من القيمة التي يخلقها عملها وهو ما يترتب عليه بصورة محتومة تدهور في وضع البروليتاريا الاجتماعي واتساع المسافة الفاصلة بينها وبين البورجوازية ويبدو ان لنا الحق في الحالة

الاولى في التحدث عن ثلم التناقض ان لم يكن بين العمال واصحاب العمل فعلى الاقل بين مصالح العامل من جهة واحدة ووجود النظام الراسمالي من جهة أخرى وفي الحقيقة ان هـذا صواب في الظاهر فقط ؛ فقد رأينا من قبل ، في مقالتنا الاولى ان تحسن الاوضاع الاجتماعية للبورجوازية الفرنسية لم يعمـل على ثلم التناقض بين مصالحها ومصالح النظام القديم ، بل زاد من حدته اكثر فأكثر وعلى أي حال ، فان اولئك الذين يخافون الحركة الثورية للبروليتاريا كانوا على الدوام ميالين الى التفكير بأن التحسن التدريجي في حياة الطبقة العاملة قادر على ابعاد الخطر وتخليص المجتمع من الاختلاجات العاصفة وهذا هو السبب في ان الناس من هذه المقولـة يحاولون ان يؤكدوا لانفسهـم وللاخرين ( واحيانا للاخرين وحدهـم ) ان اوضاع البروليتاريا **تتحسن** مع تطـور الراسماليـة وانهـا **تقترب مـع مرور الزمـن من البورجوازية اكثر مما كانت عليـه في البداية** ، ولا بد من الاعتراف بأن غريزتهـم المحافظة تحفز فيهم اعتبارا ليس هو على خطل تام ففيمـا تقلص الفاصـل بـين المستثمرين والمستثمرين لا يكفي في حال من الاحوال ليمنع الانفجار الثوري فان **اتساع** هذا الفاصل لا يفتح امام المحافظين الفاضلين اي منظور آخر سوى الانتشار السريع لمذاهب **الاشتراكية الديموقراطية الثورية** بين العمال

لكن ما الذي نراه في **الواقع** ؟ في أي اتجاه تتغير شروط بيع قوة العمل مع توطد النظام الراسمالي وتطـوره ؟

هذا سؤال انقضى زمن طويل على الاقتصاد المبتذل وهو منصرف اليه لقد جاء بفيلق من العلماء الذين يبذلون جميع الجهود ليبرهنوا على ان شروط بيع قوة العمل تتغير باستمرار في مصلحة البروليتاريا التي تحصل على نصيب متزايد باستمرار من الدخل الوطني وهنري تشارلز كاري ، الاقتصادي الاميركي الشهير، هو الذي صاغ بصفاء هذه النظرية منذ عام ١٨٣٨* وقد استعارها منه **باستيـا** المشهور الذي لا بد لنا من دراسة حججه بمزيد من الدقة

يؤكد لنا باستيا في كتابه **التناسقات الاقتصادية** ان العناية الالهية ، بدافع من عدالتها وطيبتها ، هيأت للعمل نصيبا افضل من الراسمال** وتقوم هذه الفكرة السارة على اساس البدهية التالية « التي لا تتزعزع »

> ان النصيب المطلق الذي يعود الى الرأسمالي من المنتج الاجمالي يزداد اطرادا مع الراسمال ، لكن نصيبه النسبي يتناقص في حين ان نصيب العامل ، على النقيض من ذلك يزداد بصورة مطلقة ونسبية على حد سواء »

---

* يستطيع القارىء الروسي ان يتعرف الى تفكير كاري من كتابـه **مبادىء العلـم الاجتماعي** الذي صدر في ترجمة روسية بقلم الامير شاخوفسكوي عام ١٨٦٩ والجدول الوارد في الصفحة ٥٠٦ من هـذا الكتـاب يتعلق بالمسألة التي تعنينا هنـا

** **التناسـقات** ، الطبعـة الثانيـة ، ص ٢٠٦

ويقدم باستيا ايضاحا لهذه البدهية جدولا متماثلا تماما مع الجدول الذي نصادفه في كتاب كاري **مبادىء العلم الاجتماعي**

| | المنتج الاجمالي | نصيب العمل | نصيب الراسمال |
|---|---|---|---|
| المرحلة الاولى | ١٠٠٠ | ٥٠٠ | ٥٠٠ |
| المرحلة الثانية | ٢٠٠٠ | ١٢٠٠ | ٨٠٠ |
| المرحلة الثالثة | ٣٠٠٠ | ١٥٥٠ | ١٠٥٠ |
| المرحلة الرابعة | ٤٠٠٠ | ٢٨٠٠ | ١٢٠٠ |

ويهتف باستيا في غبطة

« ذلك هو القانون العظيم والرائع والمعزي والضروري والثابت للراسمال والبرهان. ذلك يعني فيما يبدو الاغضاء من تلك الخطابات ضد **جشع و استبداد** الاقوى للحضارة والتسوية التي انبثقت عن القدرات البشرية*

ولسوف يرى القارىء بنفسه ان البرهان على مثل هذا القانون الرائع والمعزي جدا يكون امرا سارا جدا لكن لا بد له ، آسفا ، ان يقر بأن براهين باستيا تفتقر الى الاقناع ان حججه جميعا تستقيم في الاشارة الى أن النسبة المئوية المرافقة للتطور الصناعي في البلدان المتحضرة تنخفض ، وكل من يملك ادنى اطلاع على الاقتصاد السياسي يدرك ان هذا البرهان واهن جدا ومهما يكن من شيء ، فان هذا الاقتصادي الفرنسي اللامع لا يملك الوقت للتوقف عند البراهين بل يتعجل الامر للانتقال الى النتائج الرائعة والمعزية التي تبرز من قانونه الرائع والمعزي ، فيصرخ ساخطا

كفوا أيها الرأسماليون والعمال عن النظر الى بعضكم بعضا بعين التحدي والحسد صموا آذانكم عن تلك الخطابات السخيفة التي لا يضاهي وقاحتها الا جهلها والتي تبدأ بتشجيع الخلاف الحالي تحت ستار الوعد بالعمل من أجل خير الصالح العام ، الخ ، الخ**

---

* المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧

** المصدر نفسه ، ص ٢٠٩

ان **هذه** الخطبة العاطفية لا تترك مكانا لادنى شك في السبب الذي جعل باستيا في حاجة الى القانون الضروري والثابت الذي استعاره من كاري ( دون اشارة الى المصدر ) فغرض الاستنجاد بهـذا القانون هو مصالحـة العمال مع الراسماليين ونسف نفوذ الاشتراكيـة .

## ٢

يرى جولين كاوتز ان باستيـا واحد من ابرز المفكرين الذين انصرفوا خلال السنوات الاخيرة الى دراسة الاقتصاد السياسي* وهو تقدير لا يستطيـع المرء الموافقة عليه كان باستيا يملك من دون ريب القدرة على العرض الواضح ، بـل ربما المتألق ، لكن **افكاره** كانت على الدوام **سطحية** جدا **وحججه** كانت **ضعيفة** جدا بحيث لا يمكن اعتباره **عالما** متألقا لم يكن اكثر من **داعية** لامع للاستثمار الراسمالي، ودفاعه البارز عن هذا الاستثمار هو الذي ضمن له نفوذا قويا ومديدا على الكثيرين جدا من اصدقاء السلام الاجتماعي وبهـذا المعنى ـ وبهذا المعنى وحـده ـ يصيب جوليان كاوتز حين يصف عمل باستيا بالاهميـة والخصب** وبالفعل ، فان نفوذ باستيا على الاقتصاديين من اصحاب الاتجاه المحافظ اكثر او اقل كان على الدوام اقوى حتى درجة كبـيرة مما يحسب الكثيرون من اولئك الذين تدهشهـم سطحيته **الرائعـة** لكن الخالية من **العزاء** على وجه التقريب ، حتى اذا كانت هـذه السطحية ضرورية بطريقة ما ويلاحظ لويجي كوسا ان تأثير القسم السليم مـن افكار باستيا لم يجد له تعبيرا في اعمال تلاميذه بقدر ما وجد هذا التعبير في الاتجاه الشامـل **للغالبية** اقتصاديينا الفرنسيين المعاصرين وكذلك **لقسم كبير** من زملائهم الالمان والايطاليين*** ويقصد كوسا من «القسم السليم» «ردا لسفسطة انصار الحماية والاشتراكيـين ولقد راينـا من قبـل أن اي دحض للسفسطات الاشتراكية يرتكز عند باستيا على اساس مهلهل لكن ذلك لا يشكل لب المشكلة ان كوسا على حق حين يقـول ان **الاتجاه الشامـل** لباستيا لا يبرح يحيا في كتابات الكثيرين جدا من الاقتصاديين في بلدان مختلفـة فقـد كان لقانونه الرائـع و الضروري عن توزيع المنتجات بين العمال والراسماليين انطباع قوي وعميق بصورة خاصة ومما يجدر بالملاحظة ان اكتشاف هذا القانون نسب الى باستيا حتى في موطن كاري نفسه الذي مما لا ريب فيه ان الاقتصادي الفرنسي استعار منه

---

* Die geschichlitche Entwicklung der Nationaloekonomie und ihrer Literatur المجلد الثاني فيينا ١٨٦٠ ص :٥٧٨

** المصـدر نفسـه الصفحة نفسهـا

*** تاريخ المذاهب الاقتصادية ، باريس ١٨٩٩ ، ص ٣٣٦ .

القانون وعرضه على حد سواء ومثال ذلك ان الاحصائي الاميركي البارز ادوارد اتكنسون يعلن بصراحة انه بالرغم من أنه لا يجد الا وقتا قليلا « من أجل مطالعة الكتب او النظر في نظريات الاجور* فانه يعتقد ان باستيا كان سباقا لايجاد نظرية صحيحة عن العلاقات بين مصالح العمال واصحاب العمل ويستطرد قائلا

« قبل سنوات عديدة ، انحفرت في ذهني عبارة واحدة من كتاب باستيا **التناسقات الاقتصادية** ، وتمكنت بتطبيقها من ملاحظة ظواهر الاجور في مجرى حياتي العملية ببصيرة اوضح جدا وهذه هي تلك العبارة النصيب المطلق الذي يعود الى الرأسمالي من المنتج الاجمالي يزداد اطرادا مع الرأسمال ، لكن نصيبه النسبي يتناقص ، في حين أن نصيب العامل ، على النقيض من ذلك ، يزداد بصورة مطلقة ونسبية على حد سواء** »

ولقد استعار أتكنسون هذه الفقرة ليصدر بها دراسته « ما الذي يصنع معدل الاجور ورسم جدولا على اساس بعض المعطيات المتعلقة بصناعة الحديد والصلب الاميركية مستلهما فيه باستيا وهو جدول يمكن تسميته على حد تعبيره ، « **مؤشرا لتقدم العامل انطلاقا من الفقر ولتقدم الرأسمالي في اتجاه الفقر***** » .
ان قانون باستيا **الرائع** يفقد في هذه الصياغة الجديدة قسما هاما من **طبيعته المعزية** اذ يثير في القارىء توقعات بالغة الكآبة بشأن المصير المقبل **للرأسماليين في المجتمع الرأسمالي** . ومهما يكن من شيء ، فان العلماء المنزهين عن الاغراض ، في جهلهم الامور باستثناء مصالح العلم الخالص ، ودون ان يربكهم العطف على الرأسماليين المساكين يستشهدون بكتاب أتكنسون بكل طيبة خاطر وهكذا نصادف احالات عديدة اليه في كتاب الاستاذ سكولتزه ـ غافرنيتز عن الانتاج الكبير وهو في راي السيد ب. ستروفه « قد يكون الدراسة الاختصاصية الاكثر شمولا عن التاريخ الاجتماعي للصناعة البريطانية**** وهذه الدراسة الشاملة عن اقتصاديات الصناعة القطنية البريطانية قادت سكولتزه ـ غافرنيتز الى اليقين بأنه على الرغم من ان الزيادة في المنتج الوطني الاجمالي تعود على نصيب العمل والرأسمال بمقادير اكبر بصورة مطلقة ، فان اسهام الرأسمال فيها يتناقص نسبيا ، في حين ان اسهام العمل يزداد نسبيا ويقول سكولتزه ـ غافرنيتز

---

* [ النص بين الاقواس الصغيرة بالانكليزية في النص الاصلي ]

** **توزيع المنتجات وآلية وميتافيزياء المبادلة** ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٣ ـ ٢٤

*** المصدر نفسه ، ص ٣٣٥ [ النص بين الاقواس الصغيرة بالانكليزية في النص الاصلي]

**** جيرهارت فون سكولتزه ـ غافرنيتز Der Grossbetrieb الترجمة الروسية بقلم ل. ن. كراسين. اصدره وقدم له ب.ب. ستروفه ، سان بطرسبورغ، ١٨٩٧ ، المقدمة ، ص ١ .

« يحصل العمل على نصيب متعاظم باستمرار من المنتج الوطني الكامل فقد أخذ يحصل فاكثر على ما يتبقى بعد دفع حصص الفائدة والارباح*

هذا هو نفس ذلك القانون المعزي لكاري ــ باستيا ، ومن المستغرب ان السيد ستروفه اخفق او لم يشأ ان يشير الى ذلك في مقدمته ــ ذات المنطق الفقير جدا على العموم ــ لكتاب سكولتزه ــ غافرنيتز وانــه لعديم الجدوى كذلك ان نضيف ان قانون التوزيع الرائع والمعزي قاد صاحبنا الالماني الرزين الى نفس النتائج السارة التي قاد اليهــا ذات مرة الفرنسي الطائش سكولتــزه ــ غافرنيتــز يؤكــد لنــا ما يلــي

« تستقيم العواقب الاجتماعية للعملية ألتي وصفناها في تحقيق المساواة بين الاضداد في الملكية وهي دون أن تجعل الغني اغنى او الفقير افقر تقود الى نقيض ذلك ، وهو البرهان احصائيا بخصوص بريطانيا

وهكذا فمن السهل جدا بلوغ الاستدلال عن السلام الاجتماعي الذي كرس له الهر الاستاذ من قبل محلدين منفصلين من اعمال البحث***

ويجد سكولتزه غافرنيتز انه من الضرورة بمكان عظيم ان يستلفت انتباه قرائه الى النتائج المعزية التي خلص اليها لان حقيقــة الفاصل المتعاظم بين الغني والفقير بالمعنى الذي يعلقه عليه ماركس وانجلز تعترف به ، حسب تعبيره حتى الدوائر التي تتبين انها تعارض الماركسية بصورة حازمة**** لكنه يوشك فيهذا المجال ان يسقط في المبالغة فبقدر معرفتنا تتشرب الدوائر المناوئة للماركسية اكثر فأكثر بالشعور المعزي بثبات و ضرورة قانون كاري ــ باستيا وعمليا ، فان أي عالم بورجوازي يحترم نفسه يسعد ايما سعادة اذا توفرت له الفرصة ــ في اية قطعــة من البحث العلمي ــ للاسهاب بشأن الفجــوة التي تزداد ضيقا بين الاغنيــاء والفقراء ان « ثلم »التناقض بين الرأسماليين والعمال هو في الوقت الحاضرموضوع شائع جدا في الادبيات الاقتصادية البورجوازية

---

* المصــدر نفســه ص ٢٢٩

** المصدر نفســه ، الصفحــة نفسهــا

*** **Zum sozialen Friden - Eine Darstellüng der social - politischen Erziehung des englischen Volks im neumzchten Zahrhundert**. لايبــزغ ١٨٩٠

**** المصدر نفســه ، المجلد الثاني ، ص ٤٩٣

## ٣

يرى سكولتزه ـ غافرنيتز ان تقلص المسافة بين الاغنياء والفقراء في بريطانيا قد برهن عليه « الاحصائي الرئيسي » في هذا البلد ، روبرت جيفن ، في بيان بعنوان زيادة المداخيل المعتدلة » يفترض انه القي في اجتماع للجمعية الاحصائية الملكية في شهر كانون الاول من عام ١٨٨٧ ويشير سكولتزه ـ غافرنيتز الى هذا البيان سواء في كتابه Zum sozialen Frieden ( المجلد الثاني ، ص ٤٨٠ ) او في كتابه **الانتاج الكبير** ( ص ٢٢٩ في الترجمة الروسية ) بيد انه أخطأ حين نسبه الى جيفن فالحقيقة ان البيان القي في اجتماع ذكره سكولتزه ـ غافرنيتز ، لكن **غوسشن** هو الذي القاه* ومن الطبيعي أن هذا الامر لا يسيء مطلقا الى قيمة الخطاب بالذات ، لكنه لايجوز حرمان غوسشن من اكاليل الغار التي يستحقها، هذه الاكاليل التي لا يجوز تقديمها الى جيفن حتى خطأ ! Suum cuique

ويبدو ان الخطاب عن زيادة المداخيل المعتدلة اقنع الكثيرين الى جانب سكولتزه ـ غافرنيتز فبعد القائه عبر كوليه ( ٦ كانون الاول ١٨٨٧ ) ، وهو حاكم مصرف انكلترا ، عن شكره الجزيل للخطيب لانه ابان حتى اية درجة يتناقض مع الحقيقة ذلك الهذر المبتذل عن اثراء الاغنياء المتعاظم باستمرار وزيادة فقر الفقراء ويقول الحاكم المحترم

> في هذه الايام حيث تسود النظريات والمقترحات الهائجة بشأن توزيع الثروة هو اقيم من يبين بطريقة بالغة اليسر قابلة للجدال ان التوزيع المطالب به بكل هذا الحماس هو في حقيقة الامر رهن التحقيق الناشط ، لكن الصامت ، من خلال الفعل المنتظم للقوى الاقتصادية**

ومهما يكن من شيء ، فانه يمكن اعتبار رأي السيد كوليه قاطعا بصورة ناقصة بل لعل بعض المتشككين يفترضون ان حاكم مصرف انكلترا ، مثله كمثل ادوارد أتكنسون ، لا يملك الوقت الكافي لدراسة النظرية الاقتصادية التي لا بد على أي حال من معرفتها من أجل فهم المعطيات الاحصائية فهما صحيحا ولذا فاننا سنأتي على ذكر اقتصادي الماني هو غوستاف شمولر الذي ينظر الى كتابات الاحصائي البريطاني الرئيسي » ، يعني جيفن ، بشيء من الارتياب ، لكنه يجد

---

* راجع **زيادة المداخيل المعتدلة** ، وهو البيان الافتتاحي لرئيس الجمعية الاحصائية الملكية ، المحترم ج ج غوسشن ، في **مجلة الجمعية الاحصائية الملكية** ، كانون الاول ١٨٨٧

** **مجلة الجمعية الاحصائية الملكية** ، كانون الاول ١٨٨٧ محاضر جلسات السادس من كانون الاول ص ٦١٣ .

مع ذلك ان نتائج غوسشن قائمة على اساس تحليل للواقع موضوعي ومقنع*
ولذا كان من المجدي ان نتعمق اكثر فيما لدى وزير الخزانة البريطاني السابق
من اقوال

كان غوسشن على اتفاق تام مع كوليه في رايه بشأن الاهمية الاجتماعية العظيمة للمعطيات التي اوردها ، وهو يخاطب المستمعين اليه قائلا

« لا ادري ما اذا كانت الاحصاءات التي قدمتها لكم ستترك في اذهانكم حتى درجة ما مثل الانطباع الذي تركته في ذهني ذلك انه يخيل الي فيما يطالب بعض الناس ببناء المجتمع مجددا بصورة مصطنعة ان نوعا من الاشتراكية الصامتة يتقدم في الوقت الحاضر ؛ فثمة حركة صامتة في اتجاه توزيع لاحق للثروة على منطقة اعرض ، وهو يبدو لي مهما تكن وجهة النظر التي يؤخذ بعين الاعتبار منها انه يجب ان يكون موضوع الانشراح الوطني ولم تطبق اية علاجات عنيفة بغرض احداثه لكن الفعل المستمر للقوانين الاقتصادية ، في ظل نظام من الحرية التجارية والصناعية هو الذي أدى الى النتيجة التي وصفتها وافضل ما في هذه الاشتراكية الاوتوماتيكية هو انها تعمل فيما يبدو حتى في ايام الكساد فعلى الرغم من الشكوى من انعدام الربح ومن الاوقات السيئة على العموم وعلى الرغم من نقص العمل وعدم انتظام الاستخدام حتى بالنسبة الى اولئك الذين يشتغلون فان الهيئة المركزية الكبرى للمجتمع توطد مركزها الاقتصادي**

يرى القارىء أن غوسشن والمستمعين اليه كانوا على حد سواء تحت تأثير المطالبة ببناء مجتمع مجدد بصورة مصطنعة وفي الحقيقة ان مثل هذه المطالبة كانت تجري باصوات مرتفعة جدا في بريطانيا في الوقت الذي القى غوسشن خطابه فيه ، وهو وقت من الركودة الصناعية والبطالة اللتين ادتا الى قيام الاضطرابات بين العمال فقد كانت الاجتماعات للعاطلين عن العمل تعقد في لندن ومانسشتر وبيرمنغهام ولايستر ويارموث وغير ذلك من الامكنة ، وكانت خطابات لاهبة تلقى فيها ولقد حسب البعض اذن ان بريطانيا في عشية ثورة اجتماعية ، بل لقد عين بعضهم كما يقول سيدني ويب ميقات الثورة العتيدة عام ١٨٨٩ الذكرى المئوية للثورة الفرنسية الكبرى***. وما كان يمكن لهذا هياج الذي اجتاح العقول ان يكون مستلطفا لدى الوزراء او لدى الطبقات العليا عامة ، ولذا فلا بد من الاقرار

---

* Was verstehen wir unter dem Mittelstande ? Hat er im 19 Jahrhundert zu - oder abgenommen , Gottingen 1897 , s. 27

ويأتي على ذكر خطاب غوسشن ايضا روبرت ميير في كتابه Handwörterbuch der Staats Wissenschaften المجلد الثاني ص ٣٦٦

** مجلة الجمعية الاحصائية الملكية ، كانون الاول ١٨٨٧ ، ص ٦٠٤

*** الاشتراكية الحقيقية والكاذبة ، منشور طوباوي ، العدد ٥١ ، ص ٣ .

بأن غوسشن كان **يخطب في** وقت حيث الشروط غير ملائمة تقريبا « **للبحث** الموضوعي في الظواهر الاقتصادية ومن المعروف جيدا على أي حال ان حب الحقيقة تتغلب احيانا على عقبات خارجية هائلة وبالرغم من أن غوسشن وجد على الارجح انه من العسير جدا المحافظة على هدوئه المعنوي وحياده العلمي ، فان هذا لا يعني بعد انه لا بد ان يرتبك وان يرى تطور بريطانيا الاقتصادي من خلال موشور مستبقاته الطبقية من يدري ؟ لعل « الاشتراكية الاوتوماتية التي اكتشفها تتغلغل حقا اكثر فأكثر في الحياة الاجتماعية البريطانية ؟ وعلى أي حال فالسؤال هو **على أي أساس فعلي تقوم ثقة الوزير البريطاني في تطور هذه الاشتراكية البطيء والصامت لكن الثابت ؟**

واليكم الاساس الفعلي لهذه الثقة لقد اخبرته الاحصاءات بأن عدد الاشخاص البدني والحقوقي ) المسجلين عام ١٨٧٥ في القائمة **د** * والذين يحصلون على مداخيل تتراوح بين ١٥٠ — ١٠٠٠ ليرة سترلينية بلغ ٣١٧٨٣٩ في حين **ازداد** هذا العدد في ١٨٨٦ حتى ٣٧٩٠٠٤ تعني ارتفع بنسبة ٢٦ر١٩ بالمائة وخلال المرحلة نفسها **انخفض** عددالاشخاص الذي يبلغ دخلهم **١٠٠٠ ليرة سترلينية او اكثر** من ٢٢٨٤٨ ( ١٨٧٧ ) الى ٢٢٢٩٨ ( ١٨٨٦ وهو **انخفاض** يبلغ ٢٠٤٪ وان تحليلا اكثر تفصيلا للاحصاءات اتاح لغوسشن ان يرسم الجدول التالي

| | ١٨٧٧ | ١٨٨٦ | النسبةالمئوية للزيادةاوالنقصان |
|---|---|---|---|
| بين ١٥٠ و ٥٠٠ ل.س | ٢٨٥٧٥٤ | ٣٤٧٠٢١ | + ٤ر٢١ |
| بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ل.س | ٣٢٠٨٥ | ٣٢٠٣٣ | صفر |
| بين ١٠٠٠ و ٥٠٠٠ ل.س | ١٩٧٢٦ | ١٩٢٥٠ | — ٥ر٢ |
| اكثر من ٥٠٠٠ ل.س | ٣١٢٢ | ٣٠٤٨ | — ٣ر٢ |

ومن هنا استنتج غوسشن انه « في الاوقات العادية وفي اوقات الكساد ، في مثل الاوقات التي اجتزناها مؤخرا والتي من المؤكد انها لم تكن اوقات ازدهار كبير ،

* كانت مسجلة تحت هذا العنوان المداخيل الحاصلة من الاعمال الصناعية والتجارية ومن الرساميل الموظفة في المشروعات الاجنبية والمستعمرية ومن المهن الحرة ولقد كانت مسجلة تحت هذا العنوان ايضا المداخيل النقدية غير الدورية

كان هناك مع ذلك زيادة مرضية ومستمرة في عدد المداخيل التي دون ١٠٠٠ ليرة سترلينيـــة

بيد ان احصائيات ضريبة الدخل البريطانية لا تسجل في القائمة د جميـــع اولئك الذي يمكن ان ينسبوا الى الطبقة الوسطى ان عددا لا بأس به من مثـل هؤلاء الاشخاص مسجلون ايضا في القائمة هـ التي تضم ايضا فضلا عن الموظفين في الخدمات العامة الاشخاص المستخدمين بصورة خاصة او لدى الشركات ولقد ارتفع عدد الاشخاص الذين تضمهم هذه القائمة من ٧٨٢٤٤ حتى ١١٥٩٦٤ خلال العقد موضوع البحث ويرى غوسشن ان هذا النمو يشهد كذلك على توطد المركز الاقتصادي « للهيئة المركزية الكبيرة في المجتمع يعني الطبقة الوسطى

ومما لا ريب فيه أن هذه الارقام هامة على الصعيد النظري لكنها لا تملك في حال من الاحوال الاهمية التي ينسبها غوسشن اليها

فاولا ، تشهد المعطيات عن العقد ١٨٧٧ ــ ١٨٨٦ كما اشار الى ذلك من قبل السيد اسابيف على انخفاض في عدد المداخيل الكبيرة

« ان الانخفاض الحاد في اسعار جميع السلع والارباح التي انخفضت في جميع المشاريع حتى نصف المستوى المتوسط او دون ذلك ، والعدد الكبير من الافلاسات حتى ١٨٧٧ كان متوسط الافلاسات ٨٥٠٠ افلاسا في العام وقد ارتفع هـذا العدد الى أكثر من بين ١٨٧٧ و ١٨٨٤ ) ــ هذه الامور جميعا ادت الى ان عددا كبيرا من الاشخاص الاغنياء الذين تتراوح مداخيلهم بين ٢٠٠ ليرة سترلينية في اواسط السبعينات ما عادوا يحصلون الا بكل صعوبة على أكثر من ٥٠٠ ليرة سترلينية ، في حين هبط اولئك الذين تزيد مداخيلهم على ٥٠٠ ــ ليرة سترلينية الى فئة ادنى يعني فئة اولئك الذين تتراوح مداخيلهم بين ١٥٠ ٥٠٠ ل.س*

أما كيف اثر الكساد الصناعي في نمو الثروة الوطنية في بريطانيا ، فهذا ماتبينه الارقام في السنوات بين ١٨٦٥ و ١٨٧٥ ارتفع الرأسمال الاجمالي لبريطانيا من ٦١١٣٠٠٠ الف ل.س الـى ٨٥٤٨٠٠٠ الف ل.س ، يعنـي بزيادة ٤٠٪ ؛ وفي السنوات بين ١٨٧٥ و ١٨٨٥، ارتفع من ٨٥٠٠٠٠٠ الف ل.س. الى ١٠٠٣٧٠٠٠ الف ل.س. يعني ازداد بنسبة ١٧،٥٪ فقط**

ومن السهل ان نفهم ان المعدل الادنى للتراكم الراسمالي يعود الى انخفاض في مستوى الارباح خلال الكساد الصناعي ، وهذا الانخفاض في الارباح كان كافيا لوحده لنقل دافعي ضريبة الدخل من القوائم الاعلى الى القوائم الادنى لكنه جدير بالملاحظة ان المستوى الادنى من الارباح لم يكن هو نفسه مطلقا في مختلف انواع المشاريع ،

---

* ايسابيف **اسس الاقتصاد السياسي** ، الطبعة الرابعة ص ٦١٩

** ب جيفن « تراكم الرأسمال في بريطانيا العظمى » **مجلة الجمعية الاحصائية الملكية** ، آذار ١٨٩٠ ، ص ١٥١ .

بل كان ملموسا بقوة خاصة في **المشاريع الصناعية** ، وكان أضعف حتى درجة كبيرة في تلك المشاريع **غير المنتسبة** بصورة مباشرة الى الصناعة وهكذا لم يكن لدى بائعي المفرق الا شكاوى قليلة جدا يقدمونها ولقد تعرض لخسائر ضئيلة ايضا اولئك الذين وظفوا رأسمالهم في الخارج مثلا في القروض الخارجية وما شابه ويشير احد اعضاء اللجنة المعينة للاستقصاء في كساد الصناعة* الى ان الاستثمارات الراسمالية البريطانية في الخارج كانت أحد الاسباب في الظاهرة التي بدت مستغربة للوهلة الاولى وهي ان المبلغ الاجمالي للمداخيل الخاضعة للضريبة ازداد بالرغم من كساد الاعمال ونظرا لان زيادة هذا المبلغ الاجمالي ترافقت مع ذلك بانخفاض في المداخيل الكبيرة فقد كان لا بد من الافتراض بأن راسمالا اصغر حجما نسبيا وظف في اعمال تجارية داخل البلاد وخارجها ذلك كان رأي الاقلية في اللجنة ان الزيادة الكبيرة في عدد المداخيل الواطئة والانخفاض في عدد المداخيل الكبيرة في القائمة **د** حدثا على الارجح ضمن حدود كبيرة من جراء أن الصناعة التي تنتسب اليها المشاريع الكبيرة ذات الراسمال الضخم لم تنتج المداخيل في حين كانت التجارة رابحة وبالخاصة تجارة التجزئة ، والقسم الاكبر منها يشرف عليه الرأسمال الصغير**

ان الاشتراكية الاوتوماتية لوزير الخزانة البريطاني تفقد نظرا لهذه الاعتبارات وحدها قدرا كبيرا من صفاتها الرائعة و المعزية لكنه يبدو لنا ان ثمة ما يؤسى له اكثر من ذلك ايضا حين نتذكر ان **سببا آخر** لنمو اجمالي المداخيل الخاضعة للضريبة ( القائمة **د** ) كان بكل بساطة **التكليف الحكومي الاكمل للمداخيل الخاصة** . وكانت اكثرية اللجنة على اتفاق تام مع اقليتها في الاشارة الى هذا السبب . لكنه فيما لم يتساءل الاغلبية كيف تناول هذا السبب عدد الاشخاص المسجلين بمداخيل معتدلة فان الاقلية اشاروا بصواب تام الى انه كان يجب ان **يزيد هذا العدد** كنتيجة لتكليف الكثيرين من دافعي الضرائب الجدد من اصحاب الامكانات المتوسطة هؤلاء الذين ما كانوا يجدون من قبل اية صعوبة في التهرب من هذا الشرف***

وهكذا لا يقوم الاساس **الفعلي** للنتائج السارة التي خلص غوسشن اليها على اي أساس مطلقا ومن المؤكد انه لا يقل عن ذلك افتقارا الى الاساس ذلك اليقين السار عند اولئك الاصدقاء للسلام الاجتماعي الذين يعتقدون ان غوسشن برهن على ان الفاصل بين الاغنياء والفقراء يضيق اكثر فأكثر

---

* انظر **التقرير الختامي للجنة الملكية المعينة للاستقصاء في كساد التجارة والصناعة ، رأي الاقلية في اللجنة** ، ص ٨٢

** المصدر نفسه ص ٨٩ كانت هذه الاحوال الجيدة نسبيا للتجارة نتيجة للانخفاض الهائل في أسعار المصانع

*** المصدر نفسه ، ص

ولسوف نطلب من القارىء ايضا ان يلاحظ ما يلي كان غوسشن يقدر تقديرا عاليـا التقرير الختامي الذي استشهدنا بـه والذي يدرس اسبـاب الكساد في الصناعة ، وكان يعبر عن اسفه لان النتائـج التي خلص التقرير اليهـا لم تجتذب الانتباه الواجب من القراء* ولقد يعتقد انه قام هو نفسه بدراسة شاملة لهذه النتائج ونقلها الى المستمعين اليه بكل كمالها وتنوعها ، لكن الحقيقة هي العكس من ذلك فقد كان موقفه من التقرير موضوع البحث عابثا جدا بحيث وجد في الامكان ان يستخدم دونما اي تحفظ على الاطلاق الاحصاءات التي قالت الاقلية عنها بكـل صراحة ان اهميتها ليست مثلما حسب للوهلة الاولى ومثلما تنسب اليها من قبل غوسشن نفسه بعـد وقت قصير من نشر التقرير الختامي ولقـد وجد الخطيب « الفاضل » انه من الحكمة الا يأتي في خطابه على ذكر هذا الراي الذي عبرت الاقلية عنه فقد كانت « موضوعيته » صلبة وحازمة حتى درجة فائقة

كان غوسشن راغبا في ادخال السرور الى قلب المستمعين اليه ، هؤلاء الذين كانوا تحت التأثير الشديد للاضطرابات العمالية ؛ ونظرا لانه تشبث بالارقام الاولى التي وقعت بين يديه راح يطبق عليها ، في نص جديـد ، تلك النظرية بالذات التي قدمها من قبل كاري وباستيا وأمثالهم من دعاة الرأسماليـة وشكر المستمعون السعداء الخطيب من صميم قلوبهم كما غمر الفرح علماء قاريين من أمثال شمولر وسكولتزه ــ غافرنيتز فرجال العلم الموضوعيون هؤلاء ما كانـوا معنيين بأي تحقيق نقدي للحجج التي قدمها الوزير البريطاني ، ذلك انهم فرحوا هم ايضا ، حين سمعوا ان قانون باستيا الرائع والمعزي يمكـن ان يدعم بمعطيات جديدة وبما أن براهين غوسشن استقبلت باحترام من جانب شمولر وسكولتزه ــ غافرنيتز وغيرهم من « العلماء فانه لم يعد امام « نقاد » الماركسية خيار آخر سوى الاعلان على رؤوس الاشهاد ان التناقضات الاجتماعية ثلمت بنتيجة «نمو المداخيل المعتدلة».
ان نقادنا لا ينصرفون مطلقا الى نقد العلماء البورجوازيين فقد تخصصوا في « نقد ماركس وحـده

## ٤

كان غوسشن نفسـه يدرك ان المعطيات التي قام تقريره عليهـا بشأن نجاح الاشتراكية الاوتوماتية تفتقر الى البرهان وهو السبب في محاولته اسنادها باعتبارات غير مباشرة ولسوف نتعرف الى احد هذه الاعتبارات حين نعالج احوال الطبقـة العاملـة في بريطانيـا ؛ أما الآن ، فسوف نأخـذ بعين الاعتبار بعضا مـن الاعتبارات الاخرى

---

* مجلة الجمعية الاحصائية الملكيـة ، كانون الاول ١٨٨٧ ، ص ٥٩١ .

يقـول غوسشـن

يبدو سنة بعد سنة ان عددا اكبر من الاشخاص يصبحون مساهمين في الشركات وبذلك يسهمون في الثروة التي تنشأ عن الفعالية الصناعية والتجارية العريضة الجارية في البلاد*

ومن المعروف لدى الجميع أن هذا الاعتبار الذي تناوله سكولتزه ـ غافرنيتز وسواه من أنصار « السلام الاجتماعي » احدث انطباعا عميقا في بعض الاشتراكيين. وهكذا خلص الهر برنشتاين الى النتيجة بأن « الشكل الذي اتخذته الشركة المساهمة يعاكس حتى درجة كبيرة الاتجاه نحو مركزة الراسمال من خلال مركزة الانتاج وهو يعتقد انه

لو استعمل الاقتصاديون المعارضون للاشتراكية هذه الحقيقة بغرض تزيين العلاقات الاجتماعية الحالية ، فانه لا يترتب على ذلك انه ينبغي للاشتراكيين ان يخفوا هذه الحقيقة او ينكروها ان المسألة بالاحرى هي الاقرار بأهميتها الفعلية وبانتشارها** »

مما لا ريب فيه ان اخفاء الحقائق او انكارها بعد قيام البرهان عليها أمر سخيف تماماومضحك جدا بيد أن **الحقائق** شيء **واهميتها الاجتماعية** شيء آخر ان الاهمية الاجتماعية للحقيقة المشار اليها من قبل الهر برنشتاين الذي يتأثر خطا غوسشن وسكولتزه ـ غافرنيتز يمكن ان تفهم باساليب متنوعة فالعلماء البورجوازيون والهر برنشتاين الذي يتعقبهم لم يلاحظوا ان انتشار الشركات المساهمة يمكن أن يكون ـ وهو كذلك بالفعل ـ **عاملا جديدا في مركزة الملكية وزيادة المسافة بين الفقراء والاغنياء** • ولسوف نبرهن على فكرتنا بمثال مأخوذ من التاريخ الاقتصادي لنفس تلك المرحلة التي يعالجها خطاب غوسشن

من المعروف ان زيادة عدد الشركات المساهمة في بريطانيا عبدت له الطريق حتى درجة كبيرة قوانين المسؤولية المحدودة وحين بدأت اللجنة المعينة لدراسة اسباب كساد الصناعة مناقشاتها كانت العواقب الاقتصادية للقوانين الجديدة قد تركت آثارها بما يكفي من الوضوح لنر ما لدى اللجنة من اقوال عنها

في راي غالبية أعضاء هذه اللجنة ان المسؤولية المحدودة ادت الى ادارة للمشاريع اقل حذرا واشد مغامرة مما كان صاحب العمل ميالا اليه حين كان مسؤولا كل المسؤولية عن عملياته وبنتيجة ذلك قادت المسؤولية المحدودة في الانتاج الى انخفاض في الارباح كان يمكن لصاحب العمل العادي ان يجد نفسه مضطرا في ظله الى تقليص امتداد الانتاج وان خسارة الراسمال المسببة عن اخفاق عدد من امثال هذه الشركات لم تمارس ذلك التأثير الذي كان يمكن توقعه بمعنى

* المصدر نفسه ص ٥٩٧

** برنشتاين **المادية التاريخية** ، ص ٨٤ [ يستشهد بليخانوف بالترجمة الروسية للكتاب ] .

نقليص عمليات هذه الشركات ، وذلك نظرا لان الخسائر انقسمت على عدد اكبر من الاشخاص ، وبالتالي نقص الشعور بها وفيما عدا ذلك قامت باستمرار مشاريع جديدة على انقاض المشاريع المنهـارة ، وهي مشاريـع جديدة كان في مقدورها ، بعد ابتياع ملكيـة الشركات السابقـة بأبخس الاسعار ان تواصـل الانتـاج على النطـاق السابـق*

وفي هذه الحال كان اعضاء الاقلية على اتفاق تام مع الاكثرية ففي رأيهم ان المسؤولية المحدودة ادت الى ظهور طبقة خصوصية من اصحاب الاعمال الذين انتفعوا من عدم خبرة اصحاب المبالغ الصغيرة من المال ومن عجزهم كي يعوموا المشاريع وغرضهم الوحيد من ذلك بيـع حصصهم الخاصـة لدى اول فرصـة سانحـة ، دون أي اهتمام بمصير الشركات التي اطلقوها**

ولا نعتقد ان هذا النمط من « الاشتراكية الاوتوماتية » كان قادرا على تنشيط ثلم التناقضات الاجتماعية حتى درجة كبيرة لقد كان فرط الانتاج والمضاربة على الدوام وسوف يظلان عاملين جبارين في دمار الضعفاء اقتصاديا واثراء حفنـة من رجال الاعمال الماكرين ، الماهرين في الصيد في المياه العكرة

ولقد تحدث غوسشن كذلك عن ودائع التوفير الاكبر حجما في المرحلة موضوع الدراسة معتبرا اياها تظاهرة لما تحققه « الاشتراكية الصامتة » العزيزة جدا على قلبه من نصر بطيء ، لكنه مؤكد** غير أنه لو تمعن بعناية في التقرير الذي يوجه اليه بكل اصرار انتباه المستمعين اليـه لوجد نفسه مضطرا الى الموافقة على ان الحقيقة التي قدمها تتيح تفسيرا آخر اقل « عزاء » حتى درجة كبيرة وكمـا اشار الى ذلك بصواب أ اوكونور احد اعضاء اللجنة الذي سجل رأيا مخالفا ، فان زيادة عدد ودائع التوفير المصرفية قد يكون السبب فيها الفرص الاقل ( بنتيجة كساد التجارة ) لاستثمار المبالغ الصغيرة في المشاريـع الصناعية*** ونظرا لتفسير الحقيقة هذا ، وهو تفسير اكثر من مرجح فان في مقدور المرء ان يفهـم بكل سهولـة ان الحصيلة المتعاظمة لودائـع التوفير المصرفيـة تسير يدا بيد مـع انخفاض الطلب على العمال الصناعيين

مهما يكن هذا النوع من الاشتراكية « صامتا و اوتوماتيا » فانه لاينطوي دائما الا على قدر ضئيل من العـزاء .

ونستطيع الان ان نترك غوسشن لبرهـة من الوقت وان نتوجـه الى خبـير بريطاني آخر هو هذه المرة الاحصائي ميكائيل مولهال .

---

* التقرير الختامي ، ص : ١٨

** المصـدر نفسـه ، ص : ٥٧

*** مجلة الجمعية الاحصائية الملكية ، كانون الاول ١٨٨٧ ، ص : ٦٠٢

**** التقرر الختامـي ، ص ٧٢

يورد مولهال في كتابه **قاموس الاحصاء** الارقام التالية بشأن زيادة عدد المداخيل من ٢٠٠٠ ل.س فما فوق*

| السنة | العدد | لكل مليون من السكان |
|---|---|---|
| ١٨١٢ | ٣٩٧٦٥ | ٣٫٣١٤ |
| ١٨٥٠ | ٦٥٣٨٩ | ٣٫١١٥ |
| ١٨٦٠ | ٨٥٥٣٠ | ٢٫٩٤٩ |
| ١٨٧٠ | ١٢٠٣٧٥ | ٤٫٢٠٦ |
| ١٨٨٠ | ٢١٠٤٣٠ | ٦٫٣١٣ |

وقد ازداد عدد الاشخاص الذين يتمتعون بمداخيل تزيد على ٥٠٠٠ ل.س. كما يلي

| السنة | العدد | لكل مليون من السكان |
|---|---|---|
| ١٨١٢ | ٩٠٤ | ٣٤ |
| ١٨٥٠ | ١١٨١ | ٥٦ |
| ١٨٦٠ | ١٥٥٨ | ٥٣ |
| ١٨٧٠ | ٢٠٨٠ | ٦٧ |
| ١٨٨٠ | ٢٩٥٤ | ٨٨ |

واذا اخذنا الاعداد الخاصة بكل طبقة نسبة الى مجموع السكان وجدنا

* الارقام المتعلقة بالسنوات قبل ١٨٦٠ هي لبريطانيا العظمى، وبعد ١٨٦٠ هي للمملكة المتحدة.

| الاشخاص من اصحاب | لكل مليون من السكان | | معدل الزيادة |
|---|---|---|---|
| | ١٨٦٠ | ١٨٨٠ | |
| الثروة الكبيرة | ٥٣ | ٨٨ | ٦٦ بالمائة |
| الثروة الميسورة | ٢٩٤٩ | ٦٣١٣ | ١١٢ بالمائة |

ويقول مولهال ان «هذا يبرهن على انتشار اوسع للثروة ، بصورة مناقضة للانطباع العام بأن « الغني يزداد غنى كل يوم* »

هذا كله رائع جدا ومعز للغاية لكننا حين نلتقي بمولهال نفسه في موضع آخر وفي ظروف مختلفة ، نطلع على امور اقل روعة وعزاء حتى درجة كبيرة

انه يقر بناء على حسابات معينة ان الثروة في المملكة المتحدة موزعة كما يلي

| الطبقة | ملايين الليرات السترلينية | عدد الاشخاص | ل.س لكل راس |
|---|---|---|---|
| الغنية | ٣٢٧٠٠٠ | ٩١٢٠ | ٢٨٠٠٠ |
| المتوسطة | ٢٣٨٠٠٠٠ | ٢١٢٠ | ٩٠٠ |
| العاملة | ١٨٢١٠٠٠٠ | ٥٥٦ | ٣١ |
| الاطفال | ١٧٩٤٠٠٠٠ | — | — |

ما الذي تنبىء عنه هذه الارقام ؟ انها تبرهن على ما يلي ان قرابة ٨٠ بالمائة من الثروة الاجمالية هي بين ايدي ٥ر١ بالمائة من مجموع السكان البالغين والطبقة المتوسطة تعد ١١ بالمائة من السكان وتملك ١٨ بالمائة من الثروة**

ليس لدى مولهال ما يقوله عن الطبقة العاملة ذلك انالفئات التي هي من نصيبها هزيلة بصورة بائسة ! ويترتب على ذلك ان « انتشار الثروة ليس على القدر

* قاموس الاحصاء ، ص ٣٢١

** ميكائيل مولهال ، الصناعات وثروة الامم ، لندن ١٨٩٦ ص ٠٠

الذي يؤكده لنا مولهال يا للاسف ، يا للاسف العظيم ، ذلك اننا كنا على وشك بلوغ حالة ذهنية سارة جدا لكن لنر الان ما لدى صاحبنا الاحصائي من اقوال اخرى لنسأله كيف عمل هذا الانتشار للثروة » في الماضي*

يبدو لي وفقا لحساباته الخاصة** انا اذا اعتبرنا عدد الثروات التي تزيد عى ٥٠٠٠ ل.س في عام ١٨٤٠ مائة واحدة وجدنا ان هذا العدد ارتفع الى ٢٣٣ عام ١٨٧٧ والى ٢٧٠ عام ١٨٩٣ ومع ذلك فاذا اعتبرنا مائة واحدة عدد الثروات المراوحة بين ١٠٠ – ٥٠٠٠ ل.س في عام ١٨٤٠ وجدنا ان هذا العدد ازداد فقط الى ٣ ٢ في عام ١٨٧٧ والى ٢٤٩ في عام ١٨٩٣ وهذا يعني أن الثروات التي تزيد على ٥٠٠٠ ل.س تتكاثر بسرعة اعظم من تلك الثروات التي دون ٥٠٠٠ ل.س. وهو عكس المرغوب فيه ، وهذا الاحتقان [ في الطبقات العليا – ج.ب. ] يزداد شدة فيما يبدو بقدر ما نصعد الى اعلى*** » بعض « الانتشار يبدو ان مولهال نفسه يذهل لذلك ، ولذا يسرع فيعزينا بالجدول التالي

| | ١٨٤٠ | ١٨٧٧ | ١٨٩٣ |
|---|---|---|---|
| السكان | ١٠٠ | ١٢٦ | ١٤٦ |
| المالكون لاكثر من ١٠٠ ل.س. | ١٠٠ | ٢٠٥ | ٢٥١ |

ففيما ازداد السكان بنسبة ٤٠٪ في خمسين سنة ، ازداد عدد الاشخاص الذين يملكون اكثر من ١٠٠ ل.س. بنسبة ١٥١ بالمائة « وبكلام آخر فان الطبقة الاجتماعية التي يمكن اعتبارها فوق متناول العوز ازدادت منذ عام ١٨٤٠ ثلاث مرات اسرع من زيادة مجموع السكان****

ولسوف نحلل ادناه بصورة مفصلة الطبيعة المعزية لهذا الرخاء كله اما الآن فنستلفت انتباه القارىء الى هذا الراي لمولهال فيما يتعلق بأوضاع الطبقة العاملة في بريطانيا

---

* تقوم النتائج السابقة على اساس معطيات تتعلق بالسنوات الخمس المنتهية في كانون الاول ١٨٩٣

** سوف نرى ادناه ان هذا الحساب تعبير واهن عن المجرى الفعلي للتطور

*** المصدر نفسه ، ص

**** المصدر نفسه ، ص

تحسن اوضاع الطبقات العاملة امر واضح من العدد المتعاظم لودائع التوفير في المصارف فقد كان دون ٤ بالمائة من السكان في المملكة المتحدة عام ١٨٥٠ وارتفع حاليا الى ١٩ بالمائة من السكان ومع ذلك فآلام الطبقة المعوزة في مدننا الكبرى اعظم منها في أي وقت مضى ، وقد وصف اوضاع هذه الطبقة بصورة مناسبة على اعتبارها اسوأ حتى درجة كبيرة من اوضاع آل هوتنتو*

ياله من هبوط مضحك **من الرفيع الى المبتذل .**

## ٥

نستطيع ان نرى الآن أن **الاشتراكيــة الصامتــة لغوسشن و انتشار** الثروة **لمولهال** هما على حد سواء من خارج هذا العالم ولقد كان **مولهال** نفسه ملزما بالاقرار بأن في الشرائح العليا من المجتمع احتقانا متعاظما ابدا لكنه اذا كان الامر كذلك فان **التناقضات الاجتماعية ،** اذا هي اخذت بعين الاعتبار في مظهرها الاقتصادي ، **ابعد ما تكون عن (( الانثلام )) ، بل تشتــد اكثر فأكثر ،** وهي نتيجة يحاول مولهال ثلمها بالاشارة الى ان عدد الاشخاص الذين يملكون في بريطانيا ثروات تزيد على ١٠٠ ل.س. يزداد بسرعة اعظم جدا من زيادة السكان ولقد حان الاوان لننظر بمزيد من الدقــة في هذا العزاء الزائف

لنتصور مجتمعا يتألف من ثلاث طبقات الغنيــة والميسورة والفقــيرة ولنتصور ، طلبا للبساطة ان الطبقة الفقيرة تعيش حصرا **من بيــع عملهــا** وان الطبقة الميسورة تشتغل **بالتجارة ،** فيما تتألف الطبقة الغنية من اصحاب الاعمال الراسماليين والملاكين العقاريين ؛ وان الطبقة الفقيرة **تعد الف** شخص والطبقــة الميسورة **مائة** شخص والطبقة الغنية **عشرة** اشخاص** ان نصيب كل من هذه الطبقات من الدخل الاجتماعي مقدار سوف نسميه **ب** وبنتيجة ذلك فان دخل المجتمع الاجمالي يساوي ٣ **ب ؛ ووسطيا ،** فأن عضوا من الطبقة الغنيــة هو **أغنى عشر مرات من** أي عضو من الطبقــة الميسورة التي سوف يكــون أي عضو منهــا ، بدوره ، اغنى عشر مرات من أي عضو ينتسب الى الطبقــة الفقــيرة تلك هــي الاوضاع **النسبية** للطبقات في مرحلة معينة من الزمان ولننقل عام ١٨٧٥

وهذه هي خمس وعشرون سنة تنقضي **يتضاعف** خلالها الدخل الاجتماعي قد أصبح اذن نصيب كل طبقة اجتماعية الآن ٢**ب بدلا من ١ ب السابقة***،

---

* المصــدر نفســه

** **الشخص** هو رب عائلــة ويحصل على دخل محدد

*** تبسيطا لحساباتنا سوف نفترض ان السكان لم يزيدوا خلال هذه المرحلة .

بحيث نستطيع ان نقول الان ان الرخاء الاقتصادي لكل طبقة من طبقات المجتمع قد تضاعف . ومهما يكن من شيء ، فان العلاقة بين هذه الطبقات ظلت ثابتة كما كانت من قبل بالضبط ، فالغني وسطيا اغنى عشر مرات من الميسور الذي تساوي ممتلكاته وسطيا ، بدوره ، عشر مرات ما يملكه الفقير وبنتيجة ذلك فاننا لا نملك اي حق في الحديث سواء عن « انتشار الثروة » في مجتمعنا او عن الاشتراكية الاوتوماتية من حيث تغير توزيع المداخيل في اتجاه ثلم التناقضات بين الطبقات الاجتماعية ولسوف نمضي قدما ونحن نحتفظ بهذه النتيجة في ذاكرتنا

ولنفرض ان ضريبة الدخل قائمة في مجتمعنا ، يدفعها جميع الاشخاص الذين مداخيلهم ١٠٠ ل.س. فما فوق ولنفترض كذلك ان الطبقتين الغنية والميسورة تضمان شخصا واحدا دخله دون ١٠٠ ل.س. ، في حين لا يوجد في الطبقة الفقيرة شخص واحد يبلغ دخله هذا الرقم بنتيجة ذلك فانه ليس في هذه الطبقة شخص واحد دفع ضريبة دخل عام ١٨٧٥

لكن كيف صارت الامور بعد خمس وعشرين سنة من ذلك التاريخ ، حين تضاعف الدخل الاجمالي لكل طبقة من طبقات المجتمع ؟

اذا افترضنا اولا انه كان في الطبقة الفقيرة ، قبل ٢٥ سنة ٢٥٠ شخصا يساولون سنويا بين ٥٠ — ١٠٠ ل.س. وثانيا ان توزيع الثروة ضمن كل طبقة ظل ثابتا ، فانه سيكون لدينا الآن ، في الطبقة الفقيرة ، ٢٥٠ شخصا يحصلون على ١٠٠ — ٢ ل.س. وبالتالي فانهم خاضعون لضريبة الدخل وهكذا فان عدد دافعي ضريبة الدخل من بين الفقراء سوف يزداد بالرغم من انه لم يحدث اي « انتشار للثروة » ، طالما ان الغني سوف يكون اغنى عشر مرات من الميسور وهذا الميسور اغنى عسر مرات بعد من الفقير

وعلى اي حال، فحتى اية درجة سوف يزداد عدد دافعي ضريبة الدخل الفقراء؟

ان هذا يتوقف بالطبع على توزيع الثروة ضمن طبقة الميسورين فلنفترض ان هذه الطبقة كانت تضم قبل ٢٥ عاما ٢٥ شخصا دخلهم السنوي يتراوح بين ٥٠٠ — ليرة سترلينية ان هؤلاء الاشخاص الخمسة والعشرين سوف يحصلون في الحال — بعد مضاعفة دخل هذه الطبقة مع بقاء توزيع ذلك الدخل على حاله — على مبلغ يتراوح بين ١٠٠٠ — ٢٠٠٠ ليرة سترلينية واذا افترضنا ان الاشخاص الذين يحصلون على ١٠٠٠ ل.س.ونيف يمكن تسميتهم المكلفين الكبار ، فسوف نرى ان مقولة مثل هؤلاء المكلفين سوف يلتحق بها الاونة ٢٥ شخصا ينسبون الى الطبقة المتوسطة . وبنتيجة ذلك فان العدد الاجمالي للمكلفين البسطاء ( وبكلام آخر العدد الاجمالي للمداخيل المعتدلة* » ) سوف يبلغ الآن ٣٢٥ ( ٧٥

* [ الكلمات بين الاقواس الصغيرة بالانكليزية في النص الروسي ] .

هم الباقون من العدد السابـق الذي هو ١٠٠ ، و ٢٥٠ دخلا جديـدا كانت تخص الطبقة العاملة فيما مضى ) ، يعني انه **ازداد حاليا بنسبة ٣٢٥ بالمائة** .

ولنتابع حساباتنا ان ٢٥ شخصا من طبقة التجار يحصلون على مبلغ يتراوح بين ١٠٠٠ ــ ٢٠٠٠ ل.س. سوف يسجلـون الآن في قائمـة المكلفين الكبـار ، في نفس **المقولـة** التي تضم الاشخاص من الطبقة العليا المؤلفة من الصناعيين والملاكين العقاريين وكان هؤلاء يعدون **عشرة** من قبل فاذا اضفنا اليهم ٢٥ شخصا مـن **الطبقـة المتوسطـة** وجدنا ان عدد المكلفـين الكبار بلـغ حاليا ٣٥ ــ **زيادة بنسبـة ٢٥٠ بالمائـــة** .

لقد ازداد عدد المكلفين الكبار بصورة اسرع حتى درجـة ما من عدد المكلفـين المعتدلين لكنه سوف يكون من السهل ان نرى اننا واصلون ، مع بعض التغيير في ارقامنا الافتراضية الى نتيجـة معاكسة

وبالفعل لنفترض انه ليس لدينا سوى عشرة اشخاص يحصلون على دخل يتراوح بين ٥٠٠ ــ ١٠٠٠ ل.س. عام ١٨٧٥ فبعد ٢٥ سنة مع مضاعفة دخل الطبقة المتوسطة سوف يحصـل هؤلاء الاشخاص العشرة على دخل يتراوح بـين ١٠٠٠ ــ ٢٠٠٠ ل.س. وبالتالي يلتحقون بالمكلفين الكبار لضريبة الدخل فاذا اضفنا عددهم الى عدد المكلفين الكبار السابقين الذين يبلغ عددهم الاجمالي عشرة ايضا فيما نذكر وجدنا ان لدينا الاونة عشرين من هؤلاء المكلفين في هذه المقولة الامر الذي يعني ان **عددهم لم يزدد الا بنسبة ١٠٠ بالمائـة** . ونظرا للزيادة الاسرع جدا في عدد المكلفين المعتدلين » نصبح الآن في وضع نرفع اصواتنا فيه بخصوص الاشتراكية الاوتوماتيـة ونتحدث في نقود غير نقدية عن الفكرة القائلـة ان المعتقد الماركسي قد بطل وقس على ذلك وعلى أي حال فحقيقة الامر انه لم يحدث اي «انتشار للثروة» طالما ان كل طبقة اجتماعية تحصل على **نصيبهاالسابق** من الدخل القـومي

ولسوف نصل بالضبط الى نفس النتيجة « السارة ــ بالمعنى الذي يقصده غوسسن ــ اذا افترضنا ان مركزة الملكية في طبقة الصناعيين والملاكين العقاريين حدثت بصورة اسرع منها في طبقة التجار وهو أمر ممكن ــ بل مرجح حتى درجة كبيرة ــ دونما ادنى طعن في المعتقد الماركسي*

---

* « تجتاز تجارة التجزئة حاليا ثورة صناعية مماثلة لتلك الثورة التي مرت بهـا المانيفاكتورة في السنوات الاولى من هذا القرن والمعهد الصغير هو شبيه الحائك على المغزل اليدوي هـذا ما يقولـه هـ و ماكروستي في كتابه الهام **نمو الاحتكار في الصناعة الانكليزية ( منشور فابي ، رقم ٨٦ ، ص ٣ )** [ هـذه الفقرة واردة باللغة الانكليزية في النص الروسي ] فاليـوم ، حيث يجتاز التاجر الصغير « ثورة صناعية فان التمركز سوف يجري سريعا في تجارة التجزئة كما يبرهـن على ذلك كتيب ماكروستي لكنه لا بد في سبيل تأثر تجارة التجزئة « بالثورة الصناعية من ان يكون التمركز جرى ببطء اعظم منه في الصناعة ولا بد ان هذا الظرف اثر بدوره في نمو المداخيل «المعتدلة».

لقد افترضنا حتى الآن، مع نمو الدخل القومي ، ان نصيب كل طبقة اجتماعية لم يتغير لنر الآن كيف ينعكس **النمو غير المتساوي في مداخيل الطبقات المختلفة** في قوائم دافعي ضريبة الدخل

لنفترض ان الدخل الاجتماعي تضاعف **اربع مرات** وانه يوزع كما يلي تحصل الطبقة العاملة على ٤ر٢ والطبقة الموسطة ٤ر٤ والطبقة العليا على ٤ر٦ حين تضاعف دخل الطبقة العاملة فسوف تضم هذه الطبقة ــ بالضبط كما افترضنا في افتراضنا السابق ــ **٢٥٠ شخصا يحصلون على دخل يبلغ ١٠٠ ل.س. فما فوق ولا بد لهؤلاء الاشخاص الآن ان يدفعوا ضريبة الدخل ، وبذلك** يزيدون عدد المكلفين المعتدلين وفيما مضى كانت الطبقة موسطة تنتسب بكاملها الى هذه الفئة « **المعتدلة أما الآن وقد تضاعف دخل الطبقة المتوسطة** اربع مرات فان عددا كبيرا من افرادها سوف ينتقلون الى فئة **المكلفين الكبار** ما حجم هذا العدد ؟ **اذا افترضنا ان الطبقة المتوسطة كانت تضم فيما مضى ٢٥** شخصا يحصلون على دخل يتراوح بين ٢٥٠ ــ ٥٠٠ ل.س. فان كلا من هؤلاء الاشخاص الخمسة والعشرين اذا افترضنا **توزيعا ثابتا** لمداخيل الطبقه المتوسطة المتضاعفة اربع مرات بين اعضائها ) سوف يحصل الاونة على دخل يتراوح بين ــ ٢٠٠٠ ل.س. يعني سوف يعبر الخط الفاصل بين المكلفين **المتواضعين والكبار** لضريبة الدخل ومهما يكن من شيء فان الطبقة نفسها كانت تضم ، وفقا لافتراضنا السابق خمسة وعشرين شخصا يتراوح دخلهم بين ٥٠٠ ــ ١٠٠٠ سترلينية فمع تضاعف دخل الطبقة المتوسطة اربع مرات سوف يحصل هؤلاء الاشخاص الآن على دخل يتراوح بين ٢٠٠٠ ــ ٤٠٠٠ ل.س. لكل منهم وبذلك يسملون بحق اعظم في فئة المكلفين **الكبار** . وبنتيجة ذلك فان خمسين عضوا فقط من الطبقة المتوسطة ( ١٠٠ ناقصا ٢٥ ناقصا ٢٥ سوف يبقون ضمن فئة المكلفين المعتدلين فاذا اضفنا عدد مثل **هؤلاء** الاشخاص الى عدد ٢٥٠ ) المكلفين اصحاب الامكانات المتواضعة من **الطبقة الدنيا** وجدنا ان العدد الاجمالي للمكلفين اصحاب الامكانات المتواضعة هو الآن ٣٠٠ ٥٠ زائدا ٢٥٠ **لقد ارتفع بنسبة ٢٠٠ بالمائة .**

واذا انتقلنا الى **جدول** المكلفين الكبار وجدنا انه ينبغي لنا الآن ان نضيف الى عددهم السابق البالغ **عشرة** ٥٠ آخرين ( خمسة وعشرين شخصا دخلهم بين ١٠٠٠ ــ ٢٠٠٠ ل.س. وخمسة وعشرين آخرين يتراوح دخلهم بين ٢٠٠٠ ــ ٤٠٠٠ ل.س. ) وبالتالي فان العدد الاجمالي سوف يكون ٦٠ : **لقد ارتفع بنسبة ٥٠٠ بالمائة .**

واذا افترضنا ان المركزة سوف تنقص عدد المكلفين المتواضعين الى ٢٥٠ وعدد **المكلفين** الكبار الى ٥٥ فلسوف يترتب على ذلك ان **مجمل المداخيل** المعتدلة **ارتفع** بنسبة ١٥٠ بالمائة ، **والمداخيل الكبيرة** بنسبة ٤٥٠ بالمائة

وعلى اي حال فان كل محاكمتنا هذه لم تأخذ بعين الاعتبار **زيادة السكان** .
**وقد** يزداد السكان ١ ـ بصورة اسرع من زيادة الدخل الاجتماعي ٢ ـ بسرعة **مماثلة** لها ٣ ـ بسرعة ابطأ من زيادة الدخل الاجتماعي ولسنا معنيين هنا الا **بالحالة الثالثة** التي تتفق مع الواقع الراسمالي فلنأخذ هذه الحالة بعين الاعتبار

سوف نفترض ان عدد افراد مجتمعنا تضاعف مرتين في فترة خمسين سنة ، **فيما** الدخل الاجتماعي **تضاعف اربع مرات** ، وهو يساوي الآن ١٢ر٤ والطبقة **العاملة** تحصل على ٢ر٤ والطبقة الموسطه على ٤ر٤ والطبقة العليا **على** ٦ر٤

ونظرا لان دخل الطبقة العاملة المضاعف يوزع الآن بين عدد متضاعف من الاشخاص. فانه يترتب على ذلك ( مع بقاء توزيع المداخيل ضمن هذه الطبقة على حاله ) ان رخاء كل عامل فرد لن يزداد وهذا يعني انه **لن تلتحق اية شريحة من الطبقة العاملة بصفوف دافعي ضريبة الدخل**

وسوف تكون الامور مختلفة مع الطبقة المتوسطة فهنا تضاعف الدخل اربع مرات في حين تضاعف عدد الاشخاص مرتين فقط وبنتيجة ذلك فان كل شخص سوف يكون **اغنى مرتين** منه قبلا ان عدد الاشخاص الذين يحصلون على دخل يتراوح بين ١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ ل.س. سيكون قد بلغ ٥٠ الآن . وهؤلاء سوف ينتسبون الآن الى جدول المكلفين **الكبار** ، فيما يظل الباقون الذين يعدون ١٥٠ ( ٢٠٠ ناقصا ٥٠ في جدول المداخيل **المتواضعة** . وبذلك فان **عدد المداخيل (( المعتدلة )) سيكون قد ازداد** بنسبة ٥٠ بالمائه

كانت **الطبقة العليا** تضم من قبل عسرة مكلفين كانوا بالطبع في الفئة العليا ورأدت زياده عدد السكان مرتين عددهم الى عشرين لا بد ان يضاف اليهم خمسون آخرون من **الطبقة المتوسطة** التحقوا الآن **بالفئة** العليا ان المجموع الآن **هو** ٧٠ ٢٠ زائدا ٥٠ لقد **ارتفع** بنسبة ٦٠٠ بالمائة

وحتى اذا افرضنا ان مركزه الملكية انقصت عدد المكلفين الكبار الى ٥٥ فاننا **نجابه** مع ذلك حقيقه زيادة كبيره في عدد المكلفين الكبار زيادة تبلغ ٤٥٠ بالمائة

ما الذي تثبته جميع هذه الامثلة التي من المؤكد انها اسأمت القارىء ؟

هذه الامثلة تثبت فيما تثبته ما يلي

**١ ـ ان الزيادة في عدد المكلفين من اصحاب الامكانات المتواضعة ـ وهذه نتيجة للزيادة في الدخل الاجتماعي ـ لا تشهد بحد ذاتها على (( انتشار الثروة )) أو على نجاحات (( الاشتراكية الاوتوماتية )) ، وذلك بقدر ما هي متلائمة تماما مع زيادة كبيرة في تفاوت توزيع الثروة الاجتماعية .**

**٢ ـ بقدر ما يكون تمركز الملكية اعظم في الطبقة العليا من المجتمع تكون الزيادة في عدد المكلفين من اصحاب الامكانات المتواضعة ابرز . وان عدد «المداخيل المتواضعة» سوف يزداد في بعض الحالات بسرعة اعظم من المداخيل الكبيرة ، بالرغم من الزيادة الكبيرة جدا والمتواقتة في التفاوت الاجتماعي .**

٣ ـ في المجتمعات الرأسمالية الحالية يزداد عدد المداخيل المعتدلة بسرعة اعظم من زياده حجم السكان ألاجمالي ومهما يكن من شيء فان الاستدلال من ذلك على ان الثروه ازدادت انتشارا وان التفاوت نقص معناه اظهار انعدام تام ومخز لفهم الموضوع فلا بد للمرء اولا كي يدرك جيدا كيفية توزيع الدخل القومي في المجتمعات الحالية ان يحدد **درجة زيادة هذا الدخل في المرحلة المأخوذة بعين الاعتبار وكيفية تقسيم هذه الزيادة بين الطبقات المنفصلة** اما اولئك الذين يتحدثون عن انتشار الثروه ويقارنون زيادة **السكان** مع عدد **المداخيل المعتدلة** المتعاظم فلم يقدموا اي اسهام على الاطلاق الى هذا التحديد*

وبالتالي فان حججهم لن تكشف سوى عن وهنها التام

واذا نظرنا من وجهة نظر هذه النتائج الى المعطيات التي يقدمها مولهال في كتابه **قاموس الاحصاء** ادركنا على الفور كيف ولماذا يمكن لهذه المعطيات ان توجد جنبا الى جنب مع معطيات من الواضح انها تملك معنى على طرفي نقيض معها

يقول مولهال ان عدد الاشخاص في بريطانيا الذين يملكون اكثر من ١٠٠ ل.س. يزداد بسرعه اعظم كثيرا من زيادة السكان هذا صحيح جدا لكن مولهال لايسأل نفسه عن السرعة التي ينمو بها الدخل القومي في بريطانيا وحقيقة الامر ان هـذا الدخل يزداد بسرعة اعظم من زيادة الاشخاص في هـذه الفئـة التي يشير مولهال اليها وهو السبب في ان **زيادة هذا العدد تسير يدا بيد مع الزيادة الاسرع جـدا في التفاوت الاجتماعي** ، وهو ما تثبته على اوضح صورة المعطيات التي يقدمها مولهال هذا بالذات في كتابه **الصناعات وثروة الامم** وصحيح ان المعطيات المقدمة في كتابه **قاموس الاحصاء** تبين فيما يبدو ان المداخيل المعدله تزداد في بريطانيا بسرعـه اعظم من زيادة المداخيل الكبيره ؛ ومهما يكن من شيء فاننا نعرف من قبل اولا انه حتى اذا كانت تلك هي الحال بالفعل فهـي لا تبرح بعيدة جدا عن انتشار الثروه ثانيا نحن نعرف ان النصف الثاني من السبعينات تميز بكساد صناعي شديد ادى بصوره مؤقتة الى هبوط في المداخيل الكبيرة وبالتالي الى انخفاض مؤقت

* انظر على سبيل المثال « المادية التاريخيـة لبير نيفيئين ص ٨٧ وما يليهـا وفي السنـة الفائتـة اصدر لويجي نيفري عملا مكرسا لمسألـة تمركز الرأسمال في المجتمـع الرأسمالـي ( **التمركز الرأسمالي** ، تورينو ) وهو يعدد فيه بكل عناية جميع الاسباب التي **تبطىء** التمركز ومن الغريب مع ذلك انه لا يشير مطلقا الى الاسباب التي تموهه ومهما يكن من شيء فان مثل هذه الاسباب موجودة ، واهمها التراكم السريع للثروة في الشريحة العليا من المجتمـع .

في عددها ، بحيث نفهم كيف ولماذا تدل مقارنة الارقام العائدة الى ١٨٦٠ من جهة واحدة والى ١٨٨٠ من جهة ثانية على الزيادة الاسرع في عدد المداخيل المعتدلة بالمقارنة مع المداخيل الكبيرة بيد اننا اذا قارنا النتائج الاجمالية للنمو الاقتصادي على مدى مرحلة طويلة وجدنا ان المداخيل الكبيرة ، بالرغم من النكسات المؤقتة ، تنمو عدديا بسرعة اعظم جدا من المداخيل المعتدلة وفي الحقيقة ان جدول مولهال الذي اوردناه يبين انه كان عام ١٨١٢ في بريطانيا ٣٣١٤ شخصا من أصل ١٠٠٠٠٠٠ نسمة من السكان يزيد دخلهم على ٢٠٠ ل.س. وقد ارتفع عددهم عام ١٨٨٠ الى ٦١٣ شخصا يعني ان عددهم الاجمالي ازداد حتى اقل من الضعف ، في حين ارتفع عدد الاشخاص ذوي الدخل الذي يزيد على ٥٠٠٠ ل.س. من ٣٤ عام ١٨١٢ الى ٨٨ عام ١٨٨٠ لقد ارتفع بنسبة ١٦٣٫٦ بالمائة

هذه الارقام تكذب كليا حديث مولهال عن انتشار الثروة الاجتماعية ، وتؤيده تماما حين يقول ان الثروات التي تزيد عن ٥٠٠٠ ل.س. تتكاثر بصورة اسرع جدا من الثروات التي دون ٥٠٠٠ ل.س. انظر ( اعلاه ص ٥٣٣

ويقول غوسشن في النداء الذي اشرنا اليه سابقا لا تكذب الارقام نفسها ابدا ، لكنه لا بد للمرء من الاعتراف بأنه ليس ثمة مواد صالحة ومناسبة يمكن ان تعالج بسهولة لاغراض الشخص الذي يجمعها بقدر ما تستطيع الاحصائيات ذلك وانما لنتفق مع غوسشن في هذه الحال ؛ في الحقيقة ان الارقام لا تكذب

## ٦

لجأنا في المثال الذي اوردناه الى ارقام افتراضية وسوف نتوجه الآن الى الواقع

وسوف نطلب من القارىء ان يوجه انتباها خاصا الى الارقام التالية التي تبين زيادة الدخل لدى مختلف الفئات في بريطانيا بين السنوات ١٨٤٣ و ١٨٧٩ — ١٨٨٠

| الدخل بالليرات السترلينية | ١٨٤٣ | ١٨٧٩ — ١٨٨٠ |
|---|---|---|
| بين ٥٠٠ و ٥٠٠٠ | ١٧٩٩٠ | ٤٢٩٢٧ |
| بين ٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ | ٤٩٣ | ١٤٣٩ |
| بين ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ | ٢٠٠ | ٧٨٥ |
| ٥٠٠٠٠ فما فوق | ٨ | ٦٨ |

ان عدد الاشخاص الذين تتراوح مداخيلهم بين ٥٠٠ ــ ٥٠٠٠ ل.س. **زاد اكثر من مرتين** وعدد الاشخاص الذين تتراوح مداخيلهم بين ٥٠٠٠ ــ ١٠٠٠٠ ل.س. **زاد ثلاث مرات تقريبا** ؛ وان عدد الاغنياء الذين يكسبون بين ١٠٠٠٠ ــ ٥٠٠٠٠ ل.س. **زاد اربع مرات تقريبا** ؛ واخيرا فان عدد اصحاب الملايين الذين تبلغ مداخيلهم السنوية ٥٠٠٠٠ ل.س. ونيفا **زاد اكثر من ثماني مرات*** .

وهكذا لا مجال للشك ان **التفاوت في** توزيع الدخل القومي **في** بريطانيا **ازداد** حتى درجة كبيرة في المرحلة المذكورة اعلاه وبنتيجة ذلك فليس « انتشار الثروة » اكثر من كذبة تقية

وصحيح ان عدد الاشخاص الذين تتراوح مداخيلهم بين ١٥٠ ــ ٥٠٠ ل.س. **زاد اكثر من** ثلاث مرات خلال المرحلة اياها ، **الامر الذي يترتب عليه ان عدد المكلفين في هذه** الفئة ــ **الاكثر تواضعا بين الجميع ــ ازداد** باسرع من زيادة عدد **المكلفين** في الجدولين التاليين مباشرة ولن يتخلف الا عن الجدولين الرابع ( ١٠٠٠٠ ــ ٥٠٠٠٠ ل.س. والخامس ( ٥٠٠٠٠ ل.س. او اكثر** ) ومع القليل من الارادة الطيبة يستطيع المرء ان يقول بهذا الشأن بعض الكلمات عن انتشار الثروة في الشريحة المتوسطة من المكلفين لكنه لا يجوز ان يسقط في يدنا بسبب هذه الكلمات ذلك اننا ندرك جيدا الآن ان الظاهرة التي اشرنا اليها يمكن ان تنشأ عن العديد من الاسباب التي **لا علاقة لها على الاطلاق « بانتشار الثروة »** . وفضلا عن ذلك فان امامنا حقيقة الزيادة الاسرع جدا في عدد المكلفين من الفئتين العلويتين وبنتيجة ذلك لامجال مطلقا للشك في زيادة التفاوت الاجتماعي***

ونشاهد الزيادة نفسها ايضا في البلدان الراسمالية الاخرى

فبين السنوات ١٨٤٨ و ١٨٨٥ ازدادت الثروات من مختلف الحجوم في **اقليم زوريخ** كما يلي

---

* انظر الملحق ٢ لمذكرة بالغة الاهمية بقلم الآنسة أ سيمكوكس خسارة او ربح الطبقات العاملة خلال القرن التاسع عشر المنشورة في **محاضر مؤتمر المكافآت الصناعية** ، لندن ، ٩٦ ــ ٩٧

** كان عدد المكلفين من الفئة الدنيا عام ١٨٤٣ يبلغ ٨٧٩٤٦ ، وقد ارتفع الى ٢٧٤٩٤٣ في ١٨٧٩ ١٨٨٠

*** الارقام التي اوردناها **تدحض** غوسشن بشدة بحيث لن نتعب القارىء بالانصراف الى تحليل مفصل لاهمية الحقيقة التي قدمها وزير المالية البريطاني ، الا وهي ان عدد المداخيل الواردة في بريطانيا في الجدول هـ ازداد بحدة بين ١٨٧٥ و ١٨٨٦ اننا سنقتصر على القول ان نمو الراسمالية يفترض بالضرورة زيادة في عدد **المستخدمين** سواء لدى الاشخاص الخاصين أم لدى الشركات المساهمة . بيد أن هذا هو ما يقود الى زيادة التفاوت الاجتماعي ؛ هذا هو الذي يقود الى زيادة المداخيل **الكبيرة** ، على العموم بصورة اسرع جدا من زيادة المداخيل « المعتدلة

| حجم الثـروات | ١٨٤٨ | ١٨٨٥ | النمو بالنسبة المئوية |
|---|---|---|---|
| من ٥٠٠٠ الى ٥٠٠٠٠ فرنك (تقريبا) | ٩١٠٠ | ١٧٠٠٠ | ٩٠ |
| من ٥٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠٠٠ | ٩٣ | ٢٦٥٠ | ١٨٥ |
| اكثر من ٥٠٠٠٠٠ فرنك تقريبا | ٣٠ | ١٩٠ | ٥٣٠ |

ويستطيع المرء ان يرى في بال وغلاروس وبرلين وهامبورغ ومملكة سكسونيا وبروسيا نفس العلاقة بين الارقام الدالة على زيادة الثروات من مختلف الاحجام ففي الحقبة بين ١٨٧٩ و ١٨٩٠ ارتفع عدد المداخيل الزائدة على ٩٦٠٠ مارك بنسبة ١٠٠ بالمائة في مملكة سكسونيا في حين ارتفع عدد المداخيل الزائدة على ١٠٠٠٠٠ مارك بنسبة ٢٢٨ بالمائة*

لدينا كذلك لائحة مذهلة من انجل تتعلق **ببروسيا** .

ان عدد المكلفين من مختلف الجداول ارتفع بين ١٨٤٥ و ١٨٧٣ كما يلي

ارتفـع عدد المكلفين

| | | | |
|---|---|---|---|
| في الجدول الاول | ١٠٠٠ — ١٦٠٠ | تالر | بنسبة ١١٠،٢ بالمائـة |
| في الجدول الثاني | ١٦٠٠ — ٣٢٠٠ | تالر | بنسبة ١٣٢،٣ بالمائـة |
| في الجدول الثالث | ٣٢٠٠ — ٦٠٠٠ | تالر | بنسبة ١٥٣،٩ بالمائـة |
| في الجدول الرابع | ٦٠٠٠ — ١٢٠٠٠ | تالر | بنسبة ٢٢٤،٨ بالمائـة |
| في الجدول الخامس | ١٢٠٠٠ — ٢٤٠٠٠ | تالر | بنسبة ٣٧٠،٦ بالمائـة |
| في الجدول السابع | ٢٤٠٠٠ — ٥٢٠٠٠ | تالر | بنسبة ٤٧٦،٣ بالمائـة |
| في الجدول الثامن | ٥٢٠٠٠ — ١٠٠٠٠٠ | تالر | بنسبة ٤٦٨،٤ بالمائـة |
| في الجدول التاسع | ١٠٠٠٠٠ — ٢٠٠٠٠٠ | تالر | بنسبة ٤٣٣،٣ بالمائـة |
| في الجدول السادس | ٢٠٠٠٠٠ فما فوق | تالر | بنسبة ٢٠٠٠،٠ بالمائة |

* انظر Wirtschaftliche Grundbegriffe بقلم نيومان في موجز **الاقتصاد السياسي** ، المجلد الاول ، القسم الرابع ، ص ١٨٦ ويقول بوهمرث « ان الاحصاءات السكسونية » على العموم تحملنا على الاقرار بأنه بالرغم من ان مداخيل الطبقة الموسطة المتراوحة بين ٩٦٠٠ و ٩٥٠٠ مارك تزداد زيادة كبيرة بصورة مطلقة فان نسبتها المئوية من المداخيل الشاملة تنخفض انخفاضا شديدا وهكذا يبدو ان لدينا ههنا نفس مجرى التطور الذي يمكن اقراره من أجل الانتاج صغير الحجم على اساس الاحصاءات الامبراطورية، Die Verthetlung des Einkommens in Prussen und Sachsen ، دريسدن ١٨٩٨ ، ص ١٢

لسوف تشاهدون نفس الشيء الواحد من كل حدب وصوب فالتقدم الفعلي في جميع بلدان العالم الراسمالي يتبع نفس الاتجاه الذي يتبعه في مجتمعنا الافتراضي: **ان عدد المكلفين في الفئات العليا يزداد في كل مكان بمعدل اسرع بصورة لا تقارن من زيادة عدد المكلفين من اصحاب الامكانات المتواضعة** • ان النتائج الحاصلة من خلال مشاهدة الواقع **تتطابق بصورة مذهلة** مع تلك النتائج التي حصلنا عليها حين خمنا ان **الزيادة في الدخل الاجتماعي لا تحسن اوضاع الطبقة العاملة** • ومهما يكن من شيء فان ثمة حالات كثيرة الواقع **يتجاوز حتى درجة كبيرة** فيها مثالنا الافتراضي حيث الفارق في زيادة عدد المكلفين من المقولات المختلفة ادنى حتى درجة كبيرة منه في بروسيا وفقا لجدول انجل ) او على الاقل في اقليم زوريخ والارجح ان السبب في ذلك هو ان مثالنا لم يأخذ بعين الاعتبار بصورة كافية تمركز الملكية في الشريحة الاقل ثروة من المجتمع وفي واقع الامر انه يمكن تماما ان يبطىء هذا التمركز حتى درجة كبيرة من زيادة عدد المداخيل المعتدلة

وباختصار فان طبيعة مثالنا تتفق كل الاتفاق مع الاوضاع الفعلية في المجتمع الراسمالي وعلى اي حال فقد كان مثالنا قائما على افتراض ان **توزيع الدخل الاجتماعي بين طبقات المجتمع المختلفة يزداد تفاوتا اكثر فاكثر** • ومن الواضح ان ذلك هو ما يجري في الواقع

لكنه اذا كان الامر كذلك فان كل اللغة المنمقة عن ثلم التناقضات الاجتماعية، وانتشار الثروة و افقار الراسماليين و اغناء الشغيلة مجرد تهكم على طبقة تحس بحدة وجود التفاوت الاجتماعي وليست عقيدة كاري – باستيا وذريتهما – غوسشن وسكولتزه – غافرنيتز ومن لف لفهما – بأكثر من حديث منمق لكنه يفتقر الى الاقناع يدلي به محامو قضية هي ، مبدئيا على الاقل ، قضية خاسرة

## ٧

اما وقد راينا حقيقة ما ورد اعلاه ، فان في مقدورنا الآن ان نوجه اهتمامنا الى السيد ستروفه

كيف ينظر هذا « الناقد الفاضل جدا الى عقيدة كاري – باستيا ؟

ان المقالة التي نشرها في **ارشيف** براون تتضمن مقاطع توفر اسسا محددة على الاقل من احل اعطاء جواب عن السؤال عما يعتقده بشأن اللون الاخير من هذه العقيدة اقصد انتشار الثروة » الذي اطبق عليه من الهواء الرقيق غوسشن وسكولتزه – غافرنيتز وشركاهما واليكم احد تلك المقاطع

من المعروف لدى الجميع ان ماركس يؤكد على ان **معدل فضل القيمة** ، وبالتالي درجة استثمار عمل الشغيلة من قبل الرأسمالي ، **يرتفع** مع تطور الرأسمالية وانتاجية العمل الاعلى وهذا ما يقوله السيد ستروفه بخصوص هذه الفكرة

« بيد ان هذه الموضوعة هي التي يصعب توفيقها مع الحقائق ولقد كانت في الارجح صحيحة على العموم فيما يتعلق بالمرحلة البدائية من تطور الرأسمالية الكبيرة الانتصار البدئي للانتاج الآلي بيد أنه لا يمكن تقرير ان درجة اعلى من الاستثمار شوهدت في المراحل التالية وسوف تستمر عبر المستقبل غير المحدود والواقع ان معدل فضل القيمة لا يمكن ان يرتفع الا حين تنخفض الاجور او تزداد فضل القيمة لسبب ما وعلى أي حال فان الاجور الاخفض لا يمكن ان تسمى صفة مميزة للتطور الاقتصادي الاحدث في البلدان الرأسمالية وفضلا عن الاجور المنخفضة فان فضل القيمة يمكن ان يزداد اما بفضل ساعات عمل اطول او بفضل شدة اكبر في العمل ومهما يكن من أمر فاننا لا نستطيع ان نتحدث عن ساعات عمل أطول في البلدان الرأسمالية فالعكس هو ما يشاهد بالاحرى وصحيح ان شدة اكبر في العمل متوفرة لكن هذه الزيادة مرتبطة في الاغلب لاسباب فيزيولوجية ، بالاجور الاعلى اولا وهي ثانيا تصطدم في الاغلب بحدود لا يمكن عبورها وهذا هو السبب في ان عقيدة الارتقاع المستمر في معدل فضل القيمة او في درجة استثمار العمل في المجتمع الرأسمالي النامي تبدو عديمة الاساس في نظري ان في مكنة المرء ان يدافع بنجاح كبير عن الاطروحة المضادة ، وهو ما لا يتناقض في واقع الامر مع الطابع العام للتطور الاقتصادي الحديث* »

ان « **الاطروحة المضادة** » **هي بالذات تلك** « **الاطروحة** » **التي قدمها المجددون** الحاليون لعقيدة كاري ـ باستيا ، وقد رأينا من قبل مبلغ افلاس هذه الاطروحة فحين بينا التفاوت **المتزايد** في توزيع الدخل القومي اثبتنا بذلك ان **النصيب** الذي يعود الى **الطبقة العاملة من ذلك الدخل** **يتناقص** • ونظرا لاننا انتهينا من « **الاصول** »، فان في مقدورنا تماما ان نستغني عن « النسخة » وان نقتصر بكل بساطة على اقرار هذا الظرف الرائع والمعزي اكثر او اقل ، الا وهو انها نسخة امينة جدا تكشف عن شبه شديد بالاصول. لكنه نظرا لانه لا بد لنا ، بصورة جزئية على الأقل ، ان نتأثر خطى ناقدنا فمن واجبنا ان ندرس حججه ايضا وفضلا عن ذلك علينا ان نعترف بأن فكرة ماركس عن الدرجة الاعظم لاستثمار العامل من قبل الرأسمالي لم تثبت حتى الآن من قبلنا الا **بصورة غير مباشرة** ، ومن خلال الاشارة الى التفاوت المتعاظم في توزيع الثروة الاجتماعية ليس غير لنر الآن ما اذا كان في مقدورنا ان نقدم اية حجج **مباشرة** في مصلحة تلك الفكرة

* Brauns Archiv ، المجلد الرابع عشر ص ٦٩٤ .

هذا امر محال ، كما رأينا ، في رأي السيد ستروفه الذي يزعم ان فكرة ماركس لا يمكن ان تعتبر صحيحة الا فيما يتعلق بالمرحلة البدئية من تطور الراسمالية وعلى اي حال ، فان هذا غير صحيح البتة

لنأخذ الولايات المتحدة الاميركية حيث الشروط التي تبيع البروليتاريا وفقا لها قوة عملها هي لاسباب عديدة جدا افضل منها في اي بلد اوروبي آخر كيف تغير **نصيب** الطبقة العاملة في تلك البلاد بالمقارنة مع القيمة التي يخلقها عملها ؟

في عام ١٨٤٠ كان هذا النصيب ٥١ بالمائة ، وانخفض الى ٤٥ بالمائة عام ١٨٩٠، وبالتالي فان **نصيب الطبقة العاملة الاصغر ترافق بارتفاع في درجة استثمارها من قبل الرأسماليين .**

لقد اخذت هذه الارقام عن كارول د رايت الذي يفضل بالرغم من كل اخلاصه الوجداني اللون الزاهر على اللون القاتم*

ويتحدث كارول د رايت ايضا عن الانخفاض في نصيب الطبقة العاملة ويرى ذلك في تطور الانتاج الآلي او كما كان ماركس يقول في تبدل التركيب العضوي للرأسمال**

ما لدى « ناقدنا » من اقوال في هذا الشأن ؟ هل يعتقد ان الولايات المتحدة الاميركية لم تخرج بعد من المرحلة البدئية للراسمالية ؟

يستشهد السيد ب. ستروفه بكتاب كارول د رايت ، فلا بد اذن ان يكون مطلعا عليه وعلى أي حال ، فانه يبدو انه اخفق في رؤية ما لدى الاحصائي الاميركي من اقوال عن النصيب الاقل العائد الى الطبقة العاملة ان مثل هذا القصر في النظر أمر بالغ الخراقة(٢٧١)

لقد ارتفع دخل بريطانيا القومي بين السنوات ١٨٦١ و ١٨٩١ من ٨٣٢٠٠٠ الف ليرة سترلينية الى ١٠٠٠٠٠٠ الف ليرة سترلينية ، فيما ارتفعت الاجور من ٣٨٨٠٠٠ الف ليرة سترلينية الى ٦٩٣٠٠٠ الف ليرة سترلينية وهذا يعني ان معدل فضل القيمة الذي كان يساوي ١١٤ر٤٣ بالمائة عام ١٨٦١ ارتفع الى ١٣٠ر٨٠ بالمائة عام ١٨٩١***

---

* انظر كتابه **التطور الصناعي في الولايات المتحدة** ، نيويورك ١٨٠٥ ص ١٩٢٠ أما أن اتكنسون توصل الى نتائج مغايرة في حساباته ، فالسبب في ذلك انه **اتخذ الانخفاض في معدل الارباح على أنه معدل اصغر لفضل القيمة .** ويبين المثال الذي اورده كيف ان معرفة **النظرية الاقتصادية** اساسية من اجل رجل الاحصاء

** المصدر نفسه الصفحة نفسها

*** آرثر ليون بولي ، « التبدلات في متوسط الاجور في المملكة المتحدة بين ١٨٦٠ و ١٨٩٠ » ، في **مجلة الجمعية الاحصائية الملكية** ، حزيران ١٨٩٥

وبودي ان اعرف ما هو راي السيد ب. ستروفه في « المرحلة » التي بلغتها الراسمالية البريطانية في هذه الحقبة من الزمن

او لعل « ناقدنا » يحب ان يكرر الحجج التي حاول السيد بولي بواسطتها ان يخفف من حدة الانطباع الناشيء عن الارقام التي اوردناها ويقنع القارىء بأن نصيب الطبقة العاملة البريطانية من المنتج القومي لم ينخفض مع ذلك فليجرب ذلك ، ولن صعوبة في ان نثبت له مبلغ ضعف مثل هذه الحجج وعلى اي حال فسوف نستلفت انتباهه الآن الى الحقيقة التالية

ان الاحصائيين البريطانيين يضمون تحت عنوان الاجور المدفوعات للخدم المنزليين التي تصدر عن فضل القيمة في واقع الامر ان الخدم المنزليين كثرة في بريطانيا وكانوا يعدون وفقا للسيد ل. ليفي ٢٤٠٠٠٠٠ عام ١٨٨٤ فيما لم يتجاوز عدد العمال الاجمالي ٩٠٠٠٠٠ وفي السنة نفسها ، ووفقا للمصدر نفسه، حصل الخدم المنزليون البريطانيون على مبلغ اجمالي يساوي ٨٦٠٠٠ الف ليرة سترلينية فيما لم يحصل العمال الزراعيون على اكثر من ٦٧٠٠٠ الف ليرة سترلينية واذا افترضنا ان المبلغ الاجمالي المدفوع للخدم المنزليين عام ١٨٩١ لم يتجاوز المبلغ الاجمالي لعام ١٨٨٤ ، واذا عمدنا بعد طرح ٨٦٠٠٠ الف ليرة سترلينية من الاجور الاجمالية المدفوعة للطبقة العاملة البريطانية عام ١٨٩١ الى اضافة هذه الملايين الى المبلغ الاجمالي لفضل القيمة للسنة نفسها ، فان معدل فضل القيمة سوف يرتفع اذن اكثر من ذلك وعلى العموم ، فان الطبقة العاملة البريطانية لا تكاد تحصل على ثلث الدخل القومي

ووفقا للحسابات التي اجراها اندرياس كوستا لعام ١٨٩٩ فقد كان دخل فرنسا القومي موزعا كما يلي

| | ملايين الفرنكات |
|---|---|
| عمال زراعيون | ٢٠٠٠ |
| عمال صناعيون | ٣٦٠٠ |
| عمال مأجورون من مختلف الاصناف | |
| خدم منزليون | ١٤٠٠ |
| حرفيون ومزارعون صغار ومرابعون | |
| وحمالون وعملاء شحن وجنود | |
| وبحارة ودركيون وموظفون صغار | |
| رجال اكليروس ورهبان وراهبات | |
| ومعلمون ومعلمات الخ | |
| راسماليون | |
| ١ ـ في الزراعة | من ٣٥٠٠ الى ٤٥٠٠ |

| | |
|---|---|
| في الصناعة والتجارة واعمال الفندقة والمطاعم | من ٣٥٠٠ الى ٤٥٠٠ |
| اصحاب دخل ومتقاعدون لدى الدولة ومهن حرة | من ٢٥٠٠ الى ٣٠* |

واذا جمعنا هذه الارقام حصلنا على حوالي ٢٢٠٠٠٠٠٠ الف فرنك لايحصل العمال والحرفيون والمزارعون الصغار من مجموعها على **أكثر من الثلث** بالضبط كما كانت الحال في بريطانيا

ان مثل هذه الدرجة العالية من الاستثمار غير ممكنة **الا مع انتاجية للعمل عالية التطور** ، وهي كانت مستحيلة بدنيا قبل ٣٠ ـ ٣٥ سنة حين لم يكد دخل فرنسا القومي يبلغ ، وفقا لحسابات الخبراء ، ١٥٠٠٠٠٠٠ الف فرنك ولذا يخطىء السيد ب. ستروفه كثيرا حين يربط الاستثمار الاعظم للطبقة العاملة بالمرحلة البدئية للرأسمالية

## ٨

لقد اساء ناقدنا » تفسير ارتفاع الاجور في بلدان عديدة وفروع صناعية عديدة خلال السنوات الخمسين الاخيرة لكن أي امرىء يملك اقل المعرفة بالاقتصاد السياسي يعرف ان **الاجور الاعلى** يمكن ان تسير يدا بيد مع **سعر لقوة العمل** اخفض، وبالتالي مع **درجة اعلى لاستثمار العمال** ايضا ان **الاجور** اعلى في بريطانيا منها في القارة ، فيما **سعر قوة العمل** اعلى في القارة منه في بريطانيا هذه حقيقة عتيقة** ومع ذلك فان المدافعين عن الراسمالية وهم يكررون هذه الحقيقة يسكتون عنها بكل تواضع حين يحاولون ان يثبتوا ، على اساس الاجور الاعلى ، الاطروحة المألوفة جدا عن افقار الراسماليين و اثراء العمال ولقد لاحظ ماركس بصورة صائبة جدا في المجلد الاول من **رأس المال**

« وهكذا يمكننا ان نفهم الاهمية الحاسمة لتحول القيمة وسعر قيمة العمل الى شكل **الاجور** ، أو الى قيمة وسعر العمل بالذات هذا **الشكل الظواهري** الذي يخفي العلاقة الفعلية ويظهر في واقع الامر النقيض المباشر لهذه العلاقة يشكل اساس جميع المفاهيم الحقوقية للعامل والرأسمالي على حد سواء واساس جميع شعوذات نمط الانتاج

---

* انظر ف توركان ، « تطور الثروة الخاصة في فرنسا » ، **مجلة الاقتصاد السياسي** ، شباط ١٩٠٠

** انني أؤكد دون ادنى تردد ان الاجور اليومية لا تشكل مقياسا للتكلفة الفعلية للاعمال المنفذة ... ( توماس براسي ، **العمل والاجور** ، لندن ١٨٧٣ ، ص ٦٦ ) .

الرأسمالي وسائر اوهامه بخصوص الحرية ومختلف الاحايل الدفاعية للاقتصاديين المبتذلين* »

ان ما يستحق الملاحظة هو ان السيد ب. ستروفه ، بصفته « ناقدا » لماركس، لم يقتصر على التغاضي كليا عن الاحايل الدفاعية للاقتصاديين السياسيين المبتذلين، بل لجأ هو نفسه اليها وان التظاهرة الابرز لنزوعه الجديد هي من دون ريب ملحوظته بأن « فضل القيمة ، من حيث هي مجسدة في المنتج الفائض ، لا تخلق من قبل العمل الحي فحسب » بل هي وظيفة للرأسمال الاجتماعي بأسره** هذا هو اقصى ما في جعبة الدعاة البورجوازيين وعلى أي حال ، فاننا نصادف لآلىء عظيمة القيمة من هذا الصنف في المقالات التي تسترعي انتباهنا حاليا ، وهي المقالات التي تخصصها الاشارة المتعلقة بزيادة الاجور على اعتبارها برهانا على مستوى ادنى لفضل القيمة .

أما ان يوم العمل في العديد من الفروع الصناعية الرئيسية اقصر حاليا مما كان عليه قبل عقود عديدة ، فهذا صحيح ، لكنه لا يكاد يبعث على القناعة. ان ساعات العمل الاقل كانت بالاحرى نتيجة لشدة العمل الاعظم ومرة اخرى فان هذا كله معرفة شائعة وصحيح ان شدة العمل الاعظم يمكن ، مع مرور الوقت ، ان تصطدم بحدود فيزيولوجية لا يمكن عبورها ، لكن التجربة بينت ان مثل هذه الامكانية لم تصبح بعد حقيقة قائمة***

---

* راس المال ، الكتاب الاول ، سان بطرسبورغ ١٨٧٢ ، ص ٤٦٨

** في مقالة بعنوان « التناقض الاساسي لنظرية قيمة العمل » ، جيزن [ الحياة ] ، شباط ١٩٠٠ ولقد حلل كاريلين هذه المقالة بأدب ، لكن دون هوادة ، في مقالة بعنوان « ملحوظات » نشرت في عددي تشرين الاول وتشرين الثاني من مجلة العلم .

*** العمل في الولايات المتحدة اشد حتى درجة كبيرة منه في اوروبا فالعمال الفرنسيون الذين زاروا المعرض العمالي في شيكاغو ذهلوا حيال شدة العمل لدى الشغيلة الاميركيين انظر تقارير الوفد العمالي الى معرض شيكاغو ، باريس ١٨٩٤ بيد ان الحد الطبيعي لزيادة شدة العمل لم يتم بلوغه حتى في اميركا، وذلك بالرغم من ان شدة العمل فيها تزداد سريعا جدا انظر في هذا الموضوع اميل لوفاسور ، العامل الاميركي ، باريس ، المجلد الاول ، ص ٩٧ وما يليها كذلك لم يتم تجاوز هذا الحد في اوستراليا ان شدة العمل تكون اعظم مع يوم العمل القصير البير ميتان ، الاشتراكية دون مذاهب ، اوستراليا وزيلاندا الجديدة ، باريس ١٩٠ ص ١٣٢ [ هذه الفقرة بالفرنسية في النص الروسي ] وان شدة العمل الاعظم هي هناك مصدر البطالة بالنسبة للعمال الاضعف الذين لا يستطيعون مجاراة العمال الاقوى ( المصدر نفسه ، ص ١٤٦ وصحيح انه لا بد من تقرير حد ادنى للاجور ايضا هناك في سبيل تحقيق مثل هذه الاوضاع .

وبالرغم من ان حقيقة الاجور الاعلى لا يمكن انكارهـا ، فان في مكنة المرء ان يتساءل مع ذلك عن مقدار ارتفاعها ، مثلا في البلدان المتقدمة في القارة الاوروبية وغالبا ما يعطينا الواقع جوابا غير متوقع البتـة عن هـذا السؤال

وفقا لفويت فان المقادير التالية من الاغذية ضرورية لاستعادة قوة العمل

| | حينات | شحوم | ماءات فحم |
|---|---|---|---|
| مع عمل معتـدل | ١١٨ غ | ٥٦ غ | ٥٠٠ غ |
| مع عمل شديـد | ١٤٥ غ | ١٠٠ غ | ٤٥٠ غ |

واذا لم يستهلك العامل الكميات المذكورة اعلاه انهكت عضويته ونسفت قوته على العمل فما يختبره اذن هو عمليـة من الافقار الفيزيولوجي ايكون العامـل الاوروبي الحالي بعيدا عن هذا الافقار ؟

على اساس المعطيات التي جمعها ديوبيتيو ، وجد الاستاذ هكتور دنيس مـن بروكسل ان العامل البلجيكي كان يستهلك وسطيا ، عام ١٨٥٣ ، الكميات التاليـة من المنتجـات

| | |
|---|---|
| آحينـات | ٧٠ غ |
| شحـوم | ٢٦ر٣ غ |
| ماءات فحـم | ٤١٦ غ |

وهذا يعني انه لم يكن في مقدور البروليتاري البلجيكي ، في تلك الفترة ، ان يستعيد بواسطة الطعام الطاقة المبذولة في عملية الانتاج ، الامر الذي يترتب عليه بصورة مؤكدة اذن ان سعر قوة العمل كان في ذلك الحين دون قيمته .

وخلال السنوات الثلاثين الغريبة التي تلت ذلك اجتازت الراسمالية البلجيكية مرحلة « لامعة من نموها ، لكن قوة العامل البلجيكي كانت لا تزال تدمر من جراء الغذاء الناقص وفي الثمانينات كانت عضويته تحصل على ما يلي

| | |
|---|---|
| آحينــات | ٨٢،٢٧٨ غ |
| شحــوم | ٧٧،٩٢٦ غ |
| ماءات فحـم | ٥٨٩،٤٠٨ غ* |

يا له من تقدم عظيم يا للمصير الذي يحسد العمال البلجيكيون عليـه ان العامل يحصل الآن على المقدار الرائع الذي يبلغ **اثني عشر** غراما زائدا من الآحنيات، هذا اذا لم نقل شيئا عن الكميات الاضافية من الشحوم ، وبالخاصة من ماءات الفحم وبعد ذلك كيف يمكن للمرء الا يتحدث عن ثلم التناقضات الاجتماعية ؟ واذا ما استمر التحسن في اوضاع العمال البلجيكيين على هذه الوتيرة ، فانهم قـد يحصلون اذن في المرحلة الجيولوجية القادمة **تقريبا** على المقادير اللازمة من أجل تغذية عضويتهم التغذية الصحيحة

اذا أخذنا الامور جديا ، فاننا لا نملك الحق في الحديث بكل ثقة عن اي تحسن، حتى **ازهـد** تحسن ، في غذاء العامل البلجيكي فالامور جميعا هنا تتوقف علـى العلاقة بين مصروفه اليومي الحالي من قوة العمل وما كان هذا المصروف عليه في الخمسينات فاذا **زاد** هذا المصروف فلعل غذاءه قد اصبح **أقل كفاية من ذي قبـل** ، وذلك بالرغم من بعض الزيادة في الاغذيــة وبنتيجـة ذلك فان الغرامات الاثني عشر الزائدة من الآحينات لا يمكن ان تمنعنا من استخلاص استدلالات متشائمة بخصوص العواقب الاجتماعية للتقدم الراسمالي

ان كل ما نعرفه هو ان العامل البلجيكي لا يبرح عاجزا اقتصاديا عن استعادة قوة عمله بواسطة غذائه واليكم ما قاله في هذا الموضوع انسان لا يمكن في حال من الاحوال اتهامه بالعقائدية العنيــدة للماركسيين الاورثوذكسيين ، الا وهو حاكم الفلاندرز الغربي

« من المعروف الجراية الدنيا للجندي هي ٠٦٦ غراما من الخبز و ٢٨٥ غراما من اللحم و ٢٠٠ غراما من الخضراوات الا ان عمالنا الذين يكدحون منذ الصباح حتى الليل ، يحتاجون الى مقدار اكبر من ذلك الطعام وعلى أي حال ، فان ما يستهلكون لا يداني حتى الحد الادنى مما يستهلكه الجندي**

ولا تبرح قوة عمل البروليتاري البلجيكي تبـاع دون قيمتها فيما ارتفعت اجوره من دون ريب « بصورة كبيرة » تماما خلال نصف القرن الاخير ونحن نعرفـه انه بقدر ما يكون مستوى الاجور ادنى فان اي ارتفاع فيها يبدو اشد تأثيرا فاذا كان العامل يحصل على بنس واحد في اليوم ، فان ارتفاعا يساوي فلسا واحدا يمكن اذن ان يسمي بكل مهابة **زيادة تساوي ٢٠ بالمائة !** ومهما يكن من شيء ، فمن المفروغ

---

* هكتور دنيس ، **الكساد الاقتصادي والاجتماعي** ، بروكسل ١٨٩٥ ، ص ١٤٥

** اورد هذه الفقرة هكتور دنيس ، المؤلف المذكور ، ص ١٤٤ والاسناد الى الثمانينات

منه ان هذا الارتفاع « الكبير » لا يقضي في حال من الاحوال على الفقر الفيزيولوجي والاجتماعي للانسان العامل

ان السيد ب. ستروفه بالغ الاستياء من قانون الاجور الفولاذي(٢٧٣) « سعيد الذكر ومن المؤكد انه من المحال الدفاع اليوم عن هذا القانون ، فقد بين ماركس افلاسه بكل وضوح لكن المرء لا يستطيع الا ان يقر كذلك بأن القانون يمكن ان يلوح ذهبيًا في نظر الكثيرين من العمال البلجيكيين ، حتى في الصياغة التي صاغه بها لاسال ورودبرتوس

## ٩

اقترح الاقزام على بير جنت بطل ابيسن ان يخرجوا عينه اليسرى من موضعها قليلا واضاف زعيمهم مهونا عليه الامر صحيح انك ستكون احول قليلا بعدئذ، ولكن جميع الاشياء التي تقع اذن تحت نظرك سوف تبدو لك جميلة ومرضية ولقد خضع ناقدنا لعملية مماثلة على ايدي مدرسة برنتانو التي تعز تقليد كاري ــ باستيا مثل حدقة عينها ولا ندري ايا من عينيه اخرجت قليلا من موضعها بفضل تلك المدرسة المحترمة لكن اقل ما يقال هو ان العملية تمت بحيث يبدو له النظام الراسمالي حاليا ان لم يكن في اجمل صورة وابعثها على الرضا ، فعلى الاقل اكثر جاذبية بصورة لا تقارن مما لو كان بصره سليما وتقدم لنا حججه عن الاستثمار الراسمالي للنساء والاولاد احد البراهين العديدة الممكنة على ذلك

لقد عبر كاوتسكي في مساجلة مع برنشتاين عن فكرة تقول ان العدد المتزايد للنساء العاملات والاولاد العاملين يشهد على افقار الطبقة العاملة ويبدو ان هذه الفكرة اساءت السيد ب. ستروفه حتى درجة كبيرة ، فهو يلاحظ بصورة لاذعة بدا لي وانا اقرأ كاوتسكي اني استمع الى خطاب يلقيه الفاضل ديكورتينس في مؤتمر زوريخ (٢٧٤) « اذا شاطرت كاوتسكي رأيه عن عمل النساء ، فلا بد ان اقبل كذلك المقترحات العملية بشأن هذا العمل المقدمة من الاجتماعيين ــ السياسيين الكاثوليين* ممتاز لكن كيف يرى السيد ب ستروفه نفسه هذا الموضوع ؟ هذا ما سوف تعلمونه الآن

انه يعترف بأن استخدام عمل النساء والاولاد في المانيا ارتفع حتى درجة هائلة خلال السنوات ١٨٩٢ ــ ١٨٩٥ ، لكنه يستطرد قائلا ان مثل هذه الزيادة شوهدت على الاخص في حقل التجارة ، وعلى العموم في تلك الفروع من الاقتصاد

* ارشيف ، ص ٧٣٢ ــ ٧٣٣

حيث يعمل في الاغلب افراد عائلات الملاكين الخاصة ومن هنا استخلص النتيجة المعزية بأن راي كاوتسكي في هذا النوع من العمل يجب ان يؤخذ * cum grano salis وهو يقول : « ليس مجرى التطور على العموم على ذلك القدر من الانتظام الذي يبديه مخطط نظرية الافقار كما ان معناه ليس هو نفسه حتى هذه الدرجة**

ويستطرد مقدما اشارة معزية ايضا الى الولايات المتحدة الاميركية حيث نقص استخدام النساء **نسبيا** ، ونقص عمل الاولاد ايضا **بصورة مطلقة** ، في الفترة بين ١٨٤٠ و ١٨٩٠ .

ويترتب على ذلك ان الرأسمالية هي ذلك الرمح بالذات الذي يشفي الجروح التي يحدثها لقد كانت لعوبا حقا في المرحلة البدائية فلم توفر ايا من الرجال البالغين او النساء او الاولاد في سعيها لان تخضع لحكمها جميع الاشياء الحية والقادرة على انتاج فضل القيمة وحين تبلغ الرأسمالية سن الرشد تصبح الطف وترخي بصورة تدريجية العنان المشدود ومن بعد فان درجة استثمارها للبروليتاريا تنخفض ، فاذا النساء والاولاد الذين ساقتهم بقسوة يتمكنون اخيرا من الاستمتاع بالفراغ في بيوتهم الخاصة ، في شروط تتحسن هي الاخرى ليس بصورة مطلقة فحسب بل بصورة نسبية ايضا يعني بالمقارنة مع الشروط المتوفرة في منازل الرأسماليين وهذا كله يبعث على سرور عظيم ورائع ومعز وحتمي بحيث نجد انفسنا عاجزين عن فهم السبب في خروج السيد ب ستروفه ضد **«الرتابة»** .

ومن المؤكد ان الرتابة تترك انطباعا اليما حين نصطدم بها في **« مخطط نظرية الافقار »**، لكنها سارة جدا بل ليست هي متعبة في حال من الاحوال في **مخطط اثراء العمال وافقار الرأسماليين** وسوف نستشهد اثباتا لذلك بالسيد ب ستروفه نفسه ان جميع حججه الاقتصادية الحالية تفهة ورتيبة جدا لكنه لا بد ان يكون المرء تلميذا كالحا لماركس حتى لا يتأثر بنفوذها المشرف

والمشكلة الوحيدة هي ان الواقع القاسي يناقض بحدة بالغة هذه الحجج المشرفة لننظر على الاقل الى استثمار عمل النساء والاولاد من قبل الرأسمال لقد نسي السيد ب. ستروفه ان عدد النساء المشتغلات في **العمل الصناعي** — عدد النساء **كاسبات الاجور — ارتفع بنسبة ٨٢ بالمائة** في المانيا بين سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٩٥ فيما الزيادة المقابلة في العاملين الذكور ارتفعت **بنسبة ٣٩ بالمائة** فقط واذا نحن لم نخدع بتلمذتنا » المنحازة ، فان مثل هذه الارقام تشير اذن الى زيادة **مطلقة ونسبية على السواء** في عدد النساء اللائي يستثمرهن الرأسمال لكن ما الذي يلقي بالنسوة تحت النير الثقيل للرأسمال ؟ مما لا ريب فيه انه ليس **« الاثراء »** المزعوم للبروليتاريا

---

* [ مع قليل من الملح ]

** المصدر نفسه ، ص ٧٣٤

وصحيح ان كارول د رايت يقول ان عدد النساء المشتغلات في عمل المصانع في الولايات المتحدة كان اكبر **نسبيا** عام ١٨٥٠ منه عام ١٨٩٠ ، لكنه يستطرد هو نفسه فيلاحظ ان الارقام **المضبوطة** عن عمل النساء لا وجود لها الا منذ عام ١٨٧٠*. لكن ما الذي نراه ابتداء من هذا العام ؟ اننا نرى **زيادة متصلة ـ مطلقة ونسبية على حد سواء ـ في اتساع عمل النساء** . ولقد اورد كارول د رايت هذا نفسه ، في تقريره السنوي الحادي عشر ارقاما تبين منها حسب تعبيره بالذات ، ان نسبة الاناث فوق السنة العاشرة من العمر المستخدمات في مختلف الاعمال في الولايات المتحدة **ارتفعت** )) ( التشديد من قبلنا ـ **ج.ب.** من ١٤ر٦٨ بالمائة ( من الرقم الاجمالي للسكان الاناث ـ **ج.ب.** عام ١٨٧٠ الى ١٧ر٢٢ بالمائة عام ١٨٩٠ ، فيما **انخفضت** نسبة الذكور » (التشديد من قبلنا ايضا ـ **ج.ب.** من ٨٥ر٣٢ بالمائة عام ١٨٧٠ الى ٨٢ر٧٨ بالمائة عام ١٨٩٠ موثقة كليا الحقائق الحاصلة في الاستقصاء الحالي يعني في التقرير السنوي الحادي عشر لمفوض العمل ـ **ج.ب.** ) « بأن الاناث يدخلن حتى درجة ما الى بعض المواقع على حساب الذكور**

كانت النساء عام ١٨٧٠ يشكلن ١٤ر١٤ بالمائة من قوة العمل في الصناعات المانيفاكتورية والميكانيكية*** وهي نسبة ارتفعت الى ١٨ر٢٠ في عام ١٨٩٠****

« وبالتالي فقد تم البرهان بصورة مطلقة على حقيقة ان نسبة الاناث العاملات لقاء الاجور ـ ج ب تزداد تدريجيا***** »

ولابد للسيد ب. ستروفه ان يقع على النتيجة نفسها في الكتاب الشهير لسارتوريوس Die Nordamerikanischen Gewerkschaften unter dem Einfluss der Fortschreitenden Productionstechnik . برلين ١٨٩٦ وحيث نجد في الصفحة ١٠٩ الجدول التالي الذي يبين الزيادة النسبية والمطلقة لعمل النساء في عدد من الولايات في البلاد

* **التطور الصناعي** ، ص : ٢٠٤

** **التقرير السنوي الحادي عشر لمفوض العمل** ، واشنطن ١٨٩٧ ، ص : ٢١.

*** الكلمات الثلاث الاخيرة بالانكليزية في النص الاصلي

**** المصدر نفسه ، ص ٢٢

***** المصدر نفسه .

| | العاملات في المصانع | | السكان | |
|---|---|---|---|---|
| | ١٨٥٠ | ١٨٨٠ | ١٨٥٠ | ١٨٨٠ |
| بنسلفانيا | ٢٢٠٧٨ | ٢٧٠٤٦ | ٢٣١١٧٨٦ | ٤٢٨٢٨٩١ |
| نيوجرسي | ٨٧٦٢ | ٢٧٠٩٩ | ٤٨٩٥٥٥ | ١١٣١١١٦ |
| ايلينوا | ٤٩٣ | ١٥٢٣٣ | ٨١٥٤٧٠ | ٣٠٧٧٨٧١ |
| نيويورك | ٥١٦١٢ | ١٣٧٤٥٥ | ٣٠٩٧٣٩٤ | ٥٠٨٢٨٧١ |
| اوهيو | ٤٤٣٧ | ١٨٥٦٣ | ١٩٨٠٣٢٩ | ٣١٩٨٠٦٢ |
| نيوهامشاير | ١٤١٠٣ | ٢٩٣٥٦ | ٣١٧٩٧٦ | ٣٤٦٩٩١ |

تبين هذه الارقام من الذي تؤخذ كلماته cum grano salis — كاوتسكي أم السيد ب ستروفه ؟

وماذا عن عمل الاولاد ؟

في الفترة بين عام ١٨٧٠ وعام ١٨٨٠ **ارتفع** عدد الاولاد العاملين الذين بين العاشرة والخامسة عشرة في الولايات المتحدة من ١٣ر٩ بالمائة من جميع الاولاد الذين في هذه الفئة من العمر الى ١٦ر٨٢ بالمائة

وعلى العكس من ذلك **انخفض** هذا العدد الى ١٠،٣٤ بالمائة في السنوات بين ١٨٨٠ و ١٨٩٠ ، وذلك بنتيجة تشريع المصانع الذي حد من استخدام عمل الاولاد وانخفض عدد الاولاد المستخدمين في الصناعة بصورة رئيسية في ولايات نيو انكلاند حيث كان تطبيق القانون فعالا بصورة خصوصية اما حيث كان هذا التطبيق

اقل فعالية، فان عمل الاولاد **اتخذ نسبة اوسع أيضا مما كان عليه في العقد السابق*** .

ليست الاحابيل الهادفة الى تبرير الذات التي يلجأ اليها « نقاد ماركس » بقادر على اخفاء الحقيقة عن انظار الباحث المدقق من الممارسات الدفاعية للاقتصاديين المبتذلين ان كل من له عينان للرؤية سوف يدرك ان تطور الراسمالية يقود الى تلك النتائج بالذات التي تحدث ماركس عنها **ان الرأسمال يسعى ، اذ لم يكتف** باستثمار العمال المذكور البالغين **الى اخضاع النساء والاولاد اكثر فأكثر لسلطانه.** ومما لا ريب فيه ان خضوع النساء والاولاد المتعاظم له يعني التدهور في المركز الاجتماعي للطبقة العاملة

لكن السيد ستروفه سيخبرنا بأن زيادة عدد الاولاد المستخدمين في المصانع لجمها تشريع المصانع ، على الاقل في بعض الولايات**

وسوف نجيب بأنه فعل ذلك لكن هذا لا ينفي او حتى **يعدل** في حال من الاحوال المعنى الشامل للنظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي اما ان في مكنة تشريع المصانع ان يحمي بعض مصالح الطبقة العاملة فهذا ما اعترف به من قبل **بيان الحزب الشيوعي***** وعلى اي حال ، فليست المسألة ما اذا كان تشريع المعامل حمى أو لم يحم **بعض** مصالح العمال ، بل المسألة هي ما هو **المجموع الجبري** لتلك العواقب المترتبة على تشريع المصانع التي هي مفيدة للبروليتاريا ولها مقدار **موجب ،** ولذلك الاتجاه نحو تفاقم الاوضاع الاجتماعية للطبقة العاملة وهو الاتجاه الملازم للراسمالية والذي يملك مقدارا **سالبا** وفي راي ماركس ان هذا المجموع الجبري **لا يمكن ان يكون مقدارا موجبا ،** يعني أن أوضاع العامل الاجتماعية تسوء أكثر فأكثر **بالرغم** من المحسنات التي يحصل عليها من تشريع المصانع ان هذا ـ وهذا وحده ـ هو الذي لا يبرح اتباع ماركس « الاورثوذكسيون يؤكدون عليه ، أما الذين يسمون نقاده فيقولون **العكس ،** حيث يعملون على اثبات أن الاصلاح الاجتماعي » الشهير **سبق فحسن** أوضاع العامل الاجتماعية . وسوف يحسنها أكثر من ذلك أيضا مع مرور الزمن بحيث يتطور **نمط الانتاج الرأسمالي** بصورة غير ملحوظة في الوقت المناسب على الارجح في العصر الجيولوجي التالي الى **نمط اشتراكي . من هو على صواب ؟** ان جميع الاشياء التي علمناها حتى الآن ، وجميع الحقائق والظواهر التي عالجناها تشهد بحزم في مصلحة ماركس

---

* لوفاسور ، **العامل الاميركي ،** المجلد الاول ، ص ١٩٨

** انظر ملحوظته عن التأثير الممكن « للاصلاح الاجتماعي في العمل النسائي ( **ارشيف ،** ٧٣٣ )

*** « وانه ليستفيد من انقسامات البورجوازيين فيما بينهم فيجبرهم على الاعتراف الشرعي بمصالح خاصة للطبقة العاملة هكذا نفذ قانون يوم العمل من عشر ساعات في انكلترا » بيان **الحزب الشيوعي ،** ص ١١٧ ، الفصل الاول ، « البورجوازيون والبروليتاريون(٢٧٥) » ) .

و الاورثوذكسيين » من اتباعه فالمسافة بين البروليتاريا والبورجوازية **ازدادت في** الحدود **الاقتصادية** ، والطبقة العاملة اصبحت **افقر نسبيا** لان **نصيبها** من المنتج **القومي** نقص نسبيا ومهما **تكن** بالنسبة الى **الطبقة العاملة اهمية** تشريع المصانع وغيره من المهدئات الاخرى « للاصلاح الاجتماعي **فهي** بعيدة عن موازنة الاتجاهات **المتعاظمة** عند الراسمالية الى الانتقاص من الطبقة العاملة لقد كانت البروليتاريا في وضعية الرجل الذي يسبح ضد تيار عنيف: اذا هو استسلم لقوة التيار دون ابداء اية مقاومة حمله هذا التيار بعيـدا **جدا** الى الخلف ؛ وعلى أي حال ، فقـد ابدى مقاومة وحاول ان يشق طريقه قدما ، وهو السبب في أن التيار لا يستطيع أن يحمله **الى الوراء** بقدر **استطاعته** ؛ **ومهما يكن من شيء ، فالرجل يتقهقر** لان **التيار** **أقـوى** جـدا من جهـوده*

## ١٠

عالجنا حتى الآن **التدهور النسبي** في أوضاع العمال ولم ننس على **أي** حال **أن** بعض « النقاد بما فيهم السيد ب ستروفه حاولوا أن يبرهنوا على أن ماركس تحدث لا عن تدهور نسبي بل عن تدهور **مطلـق** في تلك الاوضـاع واذا صدق المرء هؤلاء السادة فان كل حديث « الاورثوذكسيين التدهور نسبي لا يعدو كونه سفسطات مشاحنين لا شأن لهم سعرون انهـم خسروا قضيتهم في **المناقشة** لكنهم يكرهون الاقرار بذلك لكن ما هي وقائع هذه القضية ؟

لقد بين ماركس في كتيب بعنوان **العمـل المأجور والرأسمال** نذكر بأنـه يعتمد على محاضرات القاها في الجمعية الالمانية في بروكسل **عام ١٨٤٧** أن شرط العمـل **يزداد سوءا نسبيا** حتى في الحالة ـ وهي الحالة الاكثر ملاءمة للعمال ـ حيث يؤدي النمو السريع في الراسمال من جراء زيادة الطلب على قوة العمل الى اجور أعلى

* توصل راونتري على اساس دراسة دقيقة للارقام المتعلقة بمدينة يورك الى النتائـج التالية ـ ان عشرة بالمائة من سكان المدينة يحصلون على أقل من ٢١ شلنا و ٨ بنسات في الاسبوع، **وبالتالي يحيون في اوضاع يسميها « البؤس الاولي** ٢ ـ ان ١٧٫٩٣ **بالمائة من السكان يعيشون في شروط** البؤس الثانوي يعني انهم بالرغم من حصولهم على أكثر من شلنا و ٨ بنسات في الاسبوع يتكبدون مصاريف اضافية مختلفة ـ انتاجية وغير انتاجيـة **البؤس دراسة لحياة المدن** الطبعـة **الثانية** ، ص ٢٩٨ وفي رأي راونتري ان ما بين ٢٥ ٣٠ بالمائة من مجمل السكان الحضريين **يعيشون في البؤس** المصدر نفسه ، ص ٣٠ **هذه هي الاشتراكية الاوتوماتيـة** ويستطرد **راونتري** قائلا ان مثل هذا البؤس ساد ، بالرغم من زيادة الثروة القومية ، حتى خلال « **الازدهار الذي لـم يسبق لـه مثيل** » (المصدر نفسه ، ص ٣٠٤ ) لقد كان غوسشن على حق بالفعل « **فالارقام لا تكـذب** » .

« النمو السريع في الرأسمال المنتج يؤدي الى نمو يعادله سرعة في الثروة والترف والحاجات الاجتماعية والمسرات الاجتماعية وهكذا فعلى الرغم من ارتفاع مسرات العامل، فان ما تمنحه من الرضى الاجتماعي ينخفض بالقياس الى مسرات الرأسمالي المتعاظمة، الممنعة على العامل وبالقياس الى حالة تطور المجتمع على العموم ان رغباتنا ومباهجنا تنبثق من المجتمع وبالتالي فاننا نعيشها بواسطة المجتمع وليس بواسطة الاشياء التي تعمل على ارضائها ولما كانت ذات طبيعة اجتماعية، فهي ذات طبيعة نسبية اذن*

ما عسى أن يكون ذلك سوى التدهور **النسبي** في أوضاع الطبقة العاملة ؟ ولنستطرد

ازداد دخل العامل مع نمو الرأسمال السريع فان الهوة الاجتماعية التي تفصل العامل عن الرأسمالي تتسع في الوقت نفسه كما أن سلطان الرأسمال على العمل أو تبعية العمل للرأسمال يتعاظم في الوقت نفسه

أما أن نقول ان للعامل مصلحة في نمو الرأسمال السريع فذلك لا يعني سوى الفتات التي تسقط في جعبته ستكون أغنى بقدر ما يضاعف من ثروة الغير بسرعة أعظم وأن كتلة العبيد التابعين للرأسمال يمكن أن تكبر أكثر فأكثر بقدر ما يكبر عدد العمال الذين يمكن استخدامهم أو ايجادهم فاذا كان الرأسمال ينمو سراعا فقد ترتفع الاجور لكن ربح الرأسمال يرتفع بسرعة أعظم بما لا يقاس فوضع العامل المادي قد تحسن لكن على حساب وضعه الاجتماعي ان الهوة الاجتماعية التي تفصله عن الرأسمالي قد اتسعت**

أما ان ماركس لم يتعرض مطلقا عن فكرة التدهور **النسبي** في أوضاع الطبقة العاملة كما يؤكد « النقاد لنا »، فهذا ما تثبته هذه المقتطفات بصورة لا تقبل الشك وانها لتبين فضلا عن ذلك أن ماركس ما كان ليتوقف عن الحديث عن **افقار** الطبقة العاملة حتى اذا لوحظ تحسن **مطلق** في أوضاعها ومهما يكن من شيء فانه من الصحيح ان ماركس في تحليله للتطور الفعلي للمجتمع الرأسمالي كما هو معطى في الكتيب، يجد أن نمو الرأسمال أبعد ما يكون عن الارتباط الدائم بتحسن مطلق في أوضاع الطبقة العاملة

**« بقدر ما ينمو الرأسمال المنتج يتسع تقسيم العمل وتطبيق الآلات . وبقدر ما يتسع تقسيم العمل وتطبيق الآلات تتسع المنافسة بين العمال كما تتقلص اجورهم اكثر فأكثر***».**

---

* **العمل المأجور والرأسمال**، جنيف ١٨٩٤ ص ٣٤ [ يستشهد بليخانوف بالترجمة الروسية الصادرة في جنيف ]

** المصدر نفسه، ص ٣٩ (٢٧٧)

*** المصدر نفسه، ص ٤٧ والتشديد في الاصل (٢٧٨) .

وانه ليستطرد ليبين أن تطور الراسمالية يدفع الى صفوف أصحاب الاجور فئات جديدة أبدا من السكان ، وهو يختتم الكتيب بالنتيجة الجامعة التالية

**« اذا كان رأس المال ينمو بسرعة فان المنافسة بين العمال تنمو بسرعة أعظم بما لا يقاس ، يعني ان وسائط الاستخدام ووسائط المعيشة الخاصة بالطبقة العاملة تتناقص نسبيا بصورة ابعد مدى للغاية ، ومع ذلك فان النمو السريع للراسمال هو الفضل الشروط من اجل العمل المأجور* »**

ومما لا ريب فيه أن ماركس كان يفكر في ذلك الحين في أن النقص النسبي في مصادر الكسب لا بد أن يؤول بصورة محتومة الى اجور أدنى وهو السبب في مناداته بأن تطور الراسمالية يؤدي الى الانخفاض في الاجور وذلك راي كان يؤمن به بصورة مشتركة مع اشتراكيين عديدين في ذلك الزمن**

ومهما يكن من شيء ، فان آراء ماركس الاقتصادية لا تظهر في شكلها المتكامل في الكتيب الذي اتينا على ذكره*** اذ هو لا يميز بعد فيه بين الربح وفضل القيمة ، والاجر وسعر قوة العمل لذا نتوجه الى كتابه الرئيسي ـ **راس المال** .

يقول ماركس في الكتاب الاول من **راس المال** ان سعر قوة العمل يمكن أن **ينخفض** بنتيجة انتاجية أعلى للعمل ، وذلك رغم **الزيادة** المتواقتة في وسائط المعيشة التي تحت تصرف الشغيل**** بنتيجة ذلك يرسم هنا فارق بين التفاقم **النسبي** و **المطلق** في أوضاع الشغيل وفي موضع آخر من الكتاب نفسه يلاحظ ماركس ما يلي حين يأتي على ذكر راي غلادستون عن كون الزيادة المسكرة » في ثروة بريطانيا الاجتماعية جعلت الفقير أقل فقرا

« الطبقة العاملة قد بقيت « فقيرة » سوى أنها « أقل فقرا » نسبيا بقدر ما تنتج للطبقة الغنية « زيادة مسكرة في الثروة والقوة » فهي قد بقيت اذن على نفس الدرجة من الفقر نسبيا فاذا لم تكن حدود الفقر القصوى قد ضاقت فهي اتسعت وذلك لان حدود الثروة القصوى اتسعت***** »

ما عسى أن يكون ذلك غير الافقار **النسبي** للطبقة العاملة ؟

وصحيح أن ماركس يشير في **راس المال** الى الاسباب التي تعمل على **تحقيق انخفاض في الاجور** . لكنه فيما يقيم تمييزا بالغ الاهمية بين **الاجر** الذي يتناوله الشغيل وبين **سعر قوة عمله** ، فانه لا يؤكد بعدئذ البتة ان درجة أعلى من استثمار

---

* المصدر نفسه ، ص ٤٨ (٢٧٩)

** انظر على سبيل المثال لويس بلان **تنظيم العمل** ، الطبعة الخامسة ، ص

*** راجع ملحوظة انجلز في مقدمة الكتيب

**** **راس المال** ، الكتاب الاول ص ٤٥٤ [ الطبعة الروسية (٢٨٠) ] .

***** المصدر نفسه ، ص ٥٦٢ [ الطبعة الروسية (٢٨١) ] .

العامل يجب بصورة حتميــة ان تؤدي الى انخفاض في أجره  لا ، فالمعنى المباشر والواضح لنظريته في شكلها النهائي يقول ان الانخفاض في سعر قوة العمل والتفاقم النسبي في أوضاع الطبقــة العاملــة يمكن ان تترافقا بارتفاع في اجره*  ولذا لا يستطيع المرء الا ان يدهش لبراعة اولئك الذين يتصدون لدحض ماركس بالاشارة الى أن الاجور ارتفعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر  ان تلك البراعــة لأهل اعظم المديح بحق هذه الملحوظة ـ بقدر ما هي صحيحة ـ التي تشير بصورة خاصــة الى ما يسمى العمال الحاذقين ، فيما أورد ماركس في رأس المال أمثلة من حياة العمال غير الحاذقين على الاغلب**

## ١١

لا يحب السيد ب  ستروفه تلك الفقرة من راس المال حيث يقول ماركس انه بقدر ما ترتفع انتاجية العمل وبقدر ما يزداد ارتباط العمال بوسائط العمل تصبح شروط حياتهم اقل ارضاء  ولا بد ان يتذكر القارىء الفقرة الشهيرة التالية

« واخيرا فان القانون الذي يحقــق دائما التوازن بين فائض السكان النسبي ، أو الجيش الصناعي الاحتياطي ، وبين اتســاع وطاقــة التراكم ، هــذا القانون يشــد العامل الى الرأسمال بصورة أمتن من الاغلال التي قيد فولكان بروميثوس الى الصخرة بهــا ، انه ينشىء تراكما للبؤس مع تراكم الرأسمال  وهكذا فان تراكم الثروة في القطب الواحد هو في الوقت نفسه تراكــم للبؤس والام الكد والعبودية والجهل والقســوة والانحطاط الذهني في القطب المقابل ، يعني في جانب الطبقــة التــي تنتــج منتجهــا الخاص في شكــل الراسمــال*** »

ويعتقد السيد ب  ستروفه ان هذه السطور لا تتفق مع الاحوال الفعلية في المجتمــع اليوم  وانــه لو كانت تتفق معها لكان « التطور نحــو الاشتراكيــة » مستحيلا كليا

لندرس هذا الرأي لصاحبنا  الناقد

---

* المصدر نفسه  ص  ٥٥٦ ، راجع ملحوظات السيد ستروفه في مقالته Randglossen في نيوزيت ، العدد التاســع ، ص  ٥٧١

** وهكذا يقدم التحفظ التالي وهو يناقش مسكن ومأكل العمال البريطانيين  « ان حدود هــذا الكتاب تجبرنا على الاهتمام بصورة رئيسية بذلك القسم الاقل اجورا من البروليتاريا الصناعية وبالعمال الزراعيين الذين يشكلون معا غالبية الطبقة العاملة » ( رأس المال ، المجلد الاول ، ص  ٥٦٣ [ الطبعــة الروسيــة  ]

*** رأس المال ، المجلد الاول  ص  ٥٥٦

**اصحيح أم غير صحيح** ان شروط وجود الشغيلة تصبح مضمونة اقل فاقل مع التطور في انتاجية العمل ؟

ان الناس الذين قاموا بدراسة دقيقة لهذه المسألة والذين لا تحوم حولهم حتى الآن ، بقدر معرفتنا شبهة « المذهبية يقولون انه صحيح

وبالفعل لنتذكر راي اللجنة البريطانية التي درست كساد الصناعة كان **غالبية** اعضاء اللجنة من الراي القائل ان في مكنة الامم المتحضرة في الوقت الحاضر ان تنشىء من المانيفاكتورات' اكثر من حاجة السوق العالمية* ان التعارض بين القوة المنتجة وقدرة المستهلك يقود الى الكساد في الصناعة والى ارباح ادنى واننا نترك للقارىء ان يحكم **كيف** ان شروط وجود العمال لا بد ان تتأثر بمثل هذه الاحوال الناجمة عن الوضع المتطور جدا لقوى المجتمع المنتجة

وكان راي **الاقلية** اقل جزما وتحديدا فقد حدث في رايهم تبدل هائل خلال السنوات الاربعين السابقة نشر التقرير عام ١٨٨١ ) في حياة الامم المتمدنة التي بلغت انتاجية العمل عندها مستوى عاليا جدا من التطور بحيث تقوم الصعوبة الرئيسية حاليا ليس في غلاء المنتجات او ندرتها بل في ايجاد العمل الذي يؤدي انعدامه الى حرمان الغالبية الكبرى من السكان من جميع وسائط المعيشة**

وليحكم القارىء بنفسه مرة اخرى ما اذا كانت هذه الامور جميعا تناقض او تؤيد كلمات ماركس الموردة اعلاه

ولم تترك اللجنة مجالا للشك بشأن طبيعة الصعوبة الناشئة عن تطور انتاجية العمل فهي تقوم في رأيهم في نقص موارد الاجور بالنسبة الى الطبقة العاملة ، يعني في خلق **فرط نسبي في السكان . وهذا ما قاله ماركس بالضبط .**

وهكذا مع تطور الرأسمالية فان شروط بيع قوة العمل **قد تبدلت ضد مصلحة البائعين** ، وهو تفسير كاف للانخفاض الذي اثبتناه في نصيب الطبقة العاملة من الدخل القومي لكننا حين نقول ذلك لا ننكر في حال من الاحوال الاجور المرتفعة في بعض فروع الانتاج بل نشير فحسب الى ان مثل هذا الارتفاع يسير جنبا الى جنب مع انخفاض في سعر قوة العمل وفضلا عن ذلك فهو ليس كبيرا بقدر ما يريدنا المدافعون عن الرأسمالية ان نعتقد

ولقد اكد جيفن ان مستوى الاجور ارتفع بنسبة ١٠٠ وحتى اكثر **بالمائة*****

---

* انظر ص ١٧ من **التقرير النهائي للجنة** الذي كثيرا ما استشهدنا بـه

** المصـدر نفسـه ، ص ٥٤

*** « تقدم الطبقات العاملة خلال نصف القرن الاخير » ، **خطاب القي في الجمعية الاحصائية** الملكيـة ونشر في **دراسات في المالية** ، المجموعة الثانية ، لندن ١٨٨٦ ، راجع مقالته « ملحوظات اخرى عن تقدم الطبقات العاملة » ، الخ ، في **مجلة الجمعية الاحصائية الملكية** ، آذار ١٨٨٦ ولقد نشرت « الملحوظات » في **دراسات في الماليـة** أيضـا

في بعض فروع الصناعة البريطانية بين سنة ١٨٣٣ و ١٨٨٣ تلك مبالغة مذهلة اشارت اليها جهات مختلفة ان اية مقارنة بين الارقام الخاصة بعام ١٨٣٣ والارقام الخاصة بالثمانينات لن تكشف الا القليل جدا وذلك لهذا السبب البسيط الا وهو انه في عام ١٨٣٣ يعني قبل اصلاح قوانين الفقراء (٢٨٤) ، كان الكثيرون من العمال مع اسرهم يعيشون على اغاثة دوائرهم وهو ما ادى من دون ريب الى انخفاض مصطنع في مستوى الاجور* وفضلا عن ذلك ، فحتى هذه المقارنة غير الجائزة علميا لا تؤكد دائما النتيجة الزاهرة التي استخلصها « الاحصائي البريطاني الاول » هكذا على سبيل المثال بلغ اجر البحار القدير ٦٠ شلنا في الشهر عام ١٨٣٣ ، وفي الثمانينات كان يقف عند المستوى نفسه . وفي عام ١٨٣٣ كان المؤلفون الموسيقيون في لندن يكسبون ٣٦ شلنا في الاسبوع وسطيا ، وفي الثمانينات لم تكن اجورهم اعلى** . وعلى اي حال ، فلم يكن ذلك هو الشيء الرئيسي ؛ كان الشيء الرئيسي ان هذا الارتفاع في الاجور في بريطانيا ترافق بمجموعة من الظواهر انتقصت حتى درجة كبيرة من نتائجه الملائمة بالنسبة للعمال فخلال المرحلة التي نستعرضها حقق التطور المدني خطوات كبيرة الى الامام ازدادت بنتيجتها مصاريف العامل الاساسية زيادة كبيرة، وارتفعتاجور المساكن*** ، وكانالعمال مضطرين اذن الى الانتقال الى عملهم بالقطار او الحافلات الكهربائية ، فيما كانوا من قبل قادرين على الذهاب الى اماكن عملهم مشيا على الاقدام الخ وفضلا عن ذلك ، فان فقدان الساعات بسبب الطوارىء ازداد تواترا عما كان عليه سابقا ولقد حسب السيد غيبي ، الامين العام لاتحاد السباكين اعتمادا على السجلات التي في متناول يده ان اعضاء الاتحاد يخسرون حتى ٢٠ بالمائة من وقت العمل دون ادنى ذنب من

* انظر الملحوظة المناسبة لبنجامين جونس في « مناقشة بحث السيد جيفن » ، مجلة ، الخ آذار ١٨٨٦ ، ص ٩٦ انه لمن البدهي انه يقدر ما ازداد النقص المصطنع في مستوى الاجور قبل قانون عام ١٨٣٤ عظم الانطباع الحاصل من التحسن الظاهري في احوال العامل المادية بعد اصدار القانون حيث اصبحت الاجور الوسيلة الوحيدة للمعيشة بالنسبة الى الجماهير الكادحة

** الملحوظة التي قدمها بنجامين جونس نفسه ، في الصفحة نفسها كذلك قدمت اعتراضات قوية عديدة ضد جيفن في مؤتمر المكافآت الصناعية حيث كشف لويد جونس عن الانحراف الشاعري الذي يمارسه بعض الاحصائيين البريطانيين الاخرين انظر تقرير ذلك المؤتمر ص ٣٥

*** في رأي شادويك ان الايجارات تضاعفت في لندن مجلة الجمعية الاحصائية الملكية ، آذار ١٨٨٦ ، « مناقشة بحث السيد جيفن » ، ص ٩٧ ) وتجد الانسة اديث سيمكوكس انالايجارات الاعلى تبتلع ثلاثة اخماس الزيادة في اجور العمال المترتبة على مستويات المدفوعات الاعلى ( تقرير مؤتمر المكافآت الصناعية ، ص ٩٢ )

جانبهم* ان هذا الرقم ذو دلالة على حجم الجيش الاحتياطي من العمال الذي يميل ناقدنا » الى انكار وجوده**

ويعتقد هوبس أن « احوال الاستخدام العامة في بريطانيا بالغة الاضطراب وان خسارة الوقت والطاقة اعظم مما كانت عليه قبل نصف قرن او خلال القرن الثامن عشر*** ومن المؤكد ان هذه الحقيقة غابت عن انتباه « العلماء » الذين يرثرون عن الاشتراكية الاوتوماتية » في المجتمع الرأسمالي

ونستطيع أن نتبين من المثال الذي يقدمه غوسشن بالذات مبلغ طيش المثلين الاكثر « احتراما » للبورجوازية حين يبدؤون الحديث عن « اثراء » العمال . ان غوسشن تأييدا لحجته عن « الاشتراكية الاوتوماتية » التي ابتدعها ، يشير الى حقيقة ان عدد المنازل التي تعطي ايجارا دون ١٠ ليرات سترلينية ازداد ، في الفترة بين ١٨٧٥ و ١٨٨٦ ، ببطء اعظم جدا من عدد المنازل التي تتراوح ايجاراتها بين ١٠ — ٢٠ ل.س وانه ليعزو ذلك الى أن قسما كبيرا جدا من الطبقة العاملة اصبح اعظم رخاء ، وبذلك اصبح يطلب مسكنا أغلى ومهما يكن من شيء ، فقد تكهن هو نفسه بأن المعترضين سوف يشيرون الى الايجارات الاعلى ، وهي حقيقة شائعة

ولقد قدم الجواب مسبقا على هذا الاعتراض الذي لا مفر منه ان في مكنة العمال على الاقل ان يدفعوها**** يعني الايجارات الاعلى لا سبيل الى افحام مثل هؤلاء البحاثة « الموضوعيين » !

ان الاقتصاديين من « اصحاب النوايا الطيبة لا يقلون عنا ادراكا بأن الاجور الاعلى لا تضاهي بحد ذاتها تحسنا في اوضاع العمال وعلى أي حال ، فهم يغضون النظر عن هذه الحقيقة في الاغلب ، على الارجح في مصلحة « السلام الاجتماعي » وانهم ليتحدثون بصراحة في حالات اخرى اقل دقة ونستطيع كمثال على ذلك ان نشير الى لوفاسور الشهير الذي يقول بصورة معقولة جدا في كتابه سكان فرنسا

---

* المصدر نفسه ، ص ٣٠

** وطبيعي ان هذا الميل ليس ملازما له وحده اليكم الملحوظة المعزية التي يقدمها لوفاسور « في الازمان العادية يستطيع المرء ان يقول في غموض ان اقل من عشر عمال الصناعة هم دون عمل ، ومن المرجح ان اقل من جزء واحد من عشرين جزءا من المأجورين ( بما فيهم النساء والاولاد ) هم دون عمل ( العامل الاميركي ، المجلد الاول ، ص ٥٨٤ ) [ هذه الفقرة بالفرنسية في النص الروسي ] ليس هذا بالشيء القليل جدا ، يا سيد لوفاسور ان « أقل من العشر » هو خسارة هائلة لاتعوض ناشئة عن التناقض في علاقات الملكية في المجتمع وحالة قواه المنتجة

*** [ يستشهد بليخانوف بالكتاب الروسي الذي يحمل عنوان مشاكل الفقر والبطالة ، سان بطرسبورغ ، ١٩٠٠ ، ص ٢٣٩ ، وهو الكتاب الذي ضم مؤلفي جون هوبسون مشاكل البؤس ومشكلة العاطلين عن العمل ، المترجمون الى الروسية ]

**** مجلة الجمعية الاحصائية البريطانية ، كانون الاول ١٨٨٨ ، ص ٦٠٢ .

« حين يغادر العمال قراهم ينساقون مع اغراء الاجور الاعلى وتغيب عن انظارهم قضايا البطالة والاسعار العاليـة للمساكن والطعام والاغراء بمزيد من المصروف ان الكثيرين منهم غيروا اوضاعهم دون تحسين في نصيبهم*

وفي موضع آخر من الكتاب نفسه تغيب هـذه الاعتبارات العاقلة عن انظار العالم المبجل الذي يعترف على أي حال بالضعف حيال آراء باستيا الفلسفية عن التناسق الاجتماعي** ويتحدث بالاعتماد على الارتفاع في مستوى الاجور عن التحسن الشامل في شروط العمال الحياتية***

واذا كان القارىء راغبا عن اتباع مثال مثـل هؤلاء العلماء الموضوعيين ، لكنه يريد ان يأخذ **دائما** بعين الاعتبار **جميع** مظاهر شروط العمال الحياتيـة فانه سيوافق معنا على ان التحسن في الاحوال المادية للبروليتاريا كان زهيدا تماما حتى في بريطانيا العظمى ان الاشارة المألوفة هي الى نقصان **الاملاق** في هذا البلد من حيث هو برهان بارز على تقدم الطبقات العاملـة بيـد ان ماركس لاحظ في عصـره

ان الاحصاءات الرسمية تصبـح مضللة أكثر فأكثر بشأن مدى الاملاق الحالي بقدر ما يتطور مـع تراكم الرأسمال الصراع الطبقـي وبالتالي الوعي الطبقي عنـد الكـادحـين****

ويجب ان يضـاف الى ذلك ان الانخفاض في عدد الفقراء الذين يعيشون على الاغاثة العامـة نشأ كذلك عن مجموعـة من القوانين التي أعاقت **أكثر فأكثر** تقديم **المعونة المنزلية** الى جميع الفقراء عامة ، وبالخاصة الى **العمال البالغين** الذين يحصلون على بعض المكاسب على الاقل وبنتيجة مثل هذه القوانين ، التي طبقت بقسوة لا رحمة فيها هبط عدد الفقراء الذين يحصلون على مثل هذه المساعدة في انكلترا وبلاد الفال من ٩٥٥١٤٦ ٥ر٥ بالمائة من السكان ) عام ١٨٤٩ الى ٦٠٠٥٠٥ ( ٩٥ر١ بالمائة من السكان ) عام ١٨٩٧ وعلى أي حال ، فان عدد نزلاء الملاجىء **ارتفع** من ١٣٣٥١٣ الى ٢١٤٣٨٢ وصحيح ان حصة الفقراء من هذه المقولة بالمقارنة مع مجموع السكان لم تتغير عمليا ٧٧ر. في الحالة الاولى و ٧٠ر. في الحالة الثانية*****.

---

* **السكان الفرنسيون** ، المجلد الثاني ، ص ٤١٣ راجع ايضا هنري جولي ، **فرنسـا المجرمـة** ، باريس ١٨٨٩ ، ص ٥٩٣

** **العامل الاميركي** ، المجلد الاول ، ص ٥٩٣

*** **السكان الفرنسيون** ، المجلد الثالث ، ص ٨٦ وما يليها راجع ايضا **العامل الاميركي** ، المجلد الثاني ص ٥١٢ وما يليهـا

**** **رأس المـال** ، المجلد الاول ، ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤ (٢٨٥)

***** ب ف اسكروت **Das englischen Armenwesen** لايبزغ ١٨٦٦ ، ص ٤٢٢ راجـع أيضـا كتابـه **Die Entwicklung des Armenwesen in England seit dem Zahre 1885** ، لايبز ١٨٦٦ ص ٦٤

بيد ان هذا الثبات بالذات في العدد النسبي من نزلاء الملاجىء هو الذي يجب أن يحملنا على التفكير في أن النقص الذي يجري الحديث كثيرا عنه في الاملاق البريطاني هو **وهم لا يمكن ان يخدع الا اولئك الذين يريدون ان يخدعوا ، ولهم عيون لكن لا يرون بها** . وان الآنسة اديث سيمكوكس لعلى صواب تام حين تقول ان احصاءات الاملاق البريطاني ابعد ما تكون عن كونها مقياسا حقيقيا للفقر في هذه البلاد وهي تقول « ان اكثر من ١٠ بالمائة من الذين يموتون كل عام يموتون في الملاجىء او المستشفيات » ( التي تديرها اعمال الاحسان ــ ج ب ) » وهذه النسبة من الوفيات تشكل مليونين ونصف المليون بحيث ان حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون من السكان هم اما مملقون فعليون أو هم في حالة شديدة من البؤس بحيث دفعوا عبر حدود الاملاق بفعل المرض* »

## ١٢

هذه لوحة كئيبة جدا ، لكن لوحة على هذا القدر من الكآبة لا يمكن هي بالذات ان تعبر على اكمل وجه عن طبيعة الواقع القاتمة وانا لنعلم من مصدر آخر ان نسبة الوفيات بين الملقين اعلى جدا مما تحسب الآنسة اديث سيمكوكس. ان **سدس** سكان لندن ، اغنى مدينة في العالم ، **يموتون** في الملاجىء او المستشفيات التابعة لها لكن هذا ليس كل شيء فثمة اسباب تحمل على الاعتقاد بأن مابين ٢٠ ــ ٢٥ بالمائة من السكان البريطانيين يموتون في شروط قريبة جدا من حالة التسول بحيث لا بد للدائرة ان تتحمل تكاليف مأتمهم** وان حوالي ٢٠ بالمائة من جميع اولئك الذين يبلغون سن الخامسة والستين في انكلترا وبلاد الغال لا بد لهم ان يطلبوا الاغاثة العامة ، وذلك وفقا لارقام قدمها تشارلزبوث ، الباحث المشهور*** ولما كان بين السكان الانكليز بالطبع طبقات يتعرض منها للفقر عدد قليل من الشيوخ ، هذا اذا حدث ذلك لهم ، فانه يترتب على ذلك ان الطبقة العاملة تضم عددا نسبيا اعلى من ذلك من الفقراء الشيوخ **ان ما بين ٤٠ ــ ٥٠ بالمائة من جميع البروليتاريين يقعون في الفقر المدقع في شيخوختهم** في لندن والاقاليم الاخرى****

---

* تقرير مؤتمر المكافآت الصناعية ، ص ٨٩

** التقرير الخامس والاخير للجنة العمل الملكية القسم الاول ، لندن ١٨٩٤ تقرير كتبه و ابراهام و م اوستن و أ . مادوسلي و ت مان ، ص ١٢٨

*** الاملاق ، ١٨٩٢ ، ص : ٥٤ الفقير المسن في انكلترا وبلاد الغال ، لندن ١٨٩٤ ص ٣٤

**** تشارلز بوث ، ص : ٣٩ لكن ، مرة اخرى ، ليس هذا كل شيء . فثمة مناطق ريفية حيث جميع العمال المسنين يموتون في المآوى .

هذا رهيب بالمعنى الحرفي للكلمة ومع وجود مثل هذه الامور الفظيعة يتحدث المدافعون عن البورجوازية عن انتشار الثروة ، وثلم التناقضات الاجتماعية وما شابه وفي الحقيقة يمكن ان يقال ان صفاقتهم تبلغ الاوج ولا يستطيع المرء الا الذهول أمام عجز نقاد الماركسية عن ان يكونوا تقديين بمثل هذه الصفاقة وامام استسلامهم اكثر فأكثر لنفوذ اولئك الدعاة !

ان كل من يعرف شيئا عن شرط الطبقة العاملة الانكليزية لن يدهش حين يعلم ان نسبة الانتحار في انكلترا مرتفعة بصورة خصوصية بين الشيوح الذين بلغوا الخامسة والخمسين فما فوق* ان البروليتاريين الشيوخ ، بعد حياة من الكد الذي يقصم الظهر والذي يعكس شدة في العمل لا يقدر عليها الا العامل الانكلوسكسوني يغادرون طواعية هذا الفردوس الارضي الى الفردوس السماوي. وبقدر ما يكون العامل الانكليزي اكثر ثقافة يلجأ اكثر الى الانتحار على اعتباره الوسيلة الافضل للافلات من البؤس وفي الاقاليم حيث لا يستطيع ٢٧ بالمائة من السكان ان يوقعوا اسماءهم تبلغ نسبة الانتحار ٥ر٥٧ في المليون ؛ وفي الاقاليم حيث ما بين ١٧ ــ ٢٥ بالمائة من السكان لا يستطيعون توقيع اسمائهم ترتفع نسبة الانتحار الى ٢ر٦٩ في المليون من السكان واخيرا فان اعلى نسبة للانتحار ، ٣ر٨٠ في المليون من السكان ، هي في المناطق حيث نسبة الاميين لا تتجاوز ١٧ بالمائة** والسبب واضح فبقدر ما يكون الانسان اكثر ثقافة يجد صعوبة اعظم في تحمل الاذلال الناجم من الفقر ، وعلى العموم في تحمل مشاق الحياة او لعل تفسيرا آخر يكون انسب هنا ؟ لعله يمكن الافتراض ان نسبة الاشخاص الذين لايستطيعون توقيع اسمائهم تتناقص ــ كما رأينا في روسيا ــ جنبا الى جنبه مع ازدياد التطور الصناعي، بحيث يكون العدد المتعاظم من الانتحارات النتيجة المربحة لزيادة الثروة «الاجتماعية»؟ وفي كلتا الحالتين نخلص الى نتيجة ليس فيها شيء من الاطراء البتة بالنسبة الى المواساة عن ثلم التناقضات الاجتماعية

بالرغم من الوحشية القاسية التي تمارس بها البورجوازية البريطانية احسانها فان عدد الفقراء المسجلين في الاغاثة في لندن الغنية يسبق زيادة السكان*** كيف يمكن بعد مثل هذه الامور ان يتهم ماركس وانجلز بالمبالغة حين يقولان في البيان الشيوعي

---

* راجع اوغل « في الانتحار في انكلترا وبلاد الغال » ، مجلة الجمعية الاحصائية الملكية ، آذار ١٨٨٦

** اوغل المصدر نفسه ، ص ١١٢

*** هوبسون ، المصدر نفسه ، ص ٢١

**« يصبح العامل الحديث ... مملقا ، والاملاك يتطور بصورة أسرع من تطور الثروة والسكان(٢٨٦) »** . *

اذا كانت تلك هي الاوضاع في بريطانيا العظمى التي تمكنت على الاقل ، بنتيجة سنواتها الطوال من السيطرة على السوق العالمية ، من تحسين اوضاع بعض الاقسام من البروليتاريا فيها حتى درجة ما ، فما عسى ان يكون الوضع في البلدان الاخرى التي لا تنعم بميزات الاحتكار الصناعي ؟ ان فكرة عن ذلك يمكن الحصول عليها من الحقيقة الموردة اعلاه ، الا وهي ان العامل **البلجيكي** ملزم ببيع قوة عمله دون قيمتها ولسوف نورد حقائق عديدة تميز اوضاع **البروليتاري الفرنسي** .

في الفترة بين ١٨٣٣ و ١٨٤٣ كان سعر الخبز الابيض في فرنسا ½ ٣٤ سنتيما للكيلو غرام الواحد وفي ١٨٩٤ كان الكيلو غرام من الخبز يكلف بين ½ ٣٧ — ٤٠ سنتيما في باريس* وفي ١٨٣١ — ١٨٤٠ كان سعر الجملة للكيلو غرام من لحم العجل فرنكا واحدا وخمسة سنتيمات وسعر الكيلو غرام من لحم الخنزير ٧٨ سنتيما ؛ وفي ١٨٩٤ كان سعر لحم العجل فرنكا واحدا و ٦٤ سنتيما ولحم الخنزير فرنكا واحدا و ٥٤ سنتيما** وفي ١٨٥٤ كان سعر الالف بيضة ٥٢ فرنكا وهي تكلف اليوم ٨٢ فرنكا*** وفي ١٨٤٩ كان الهيكتولتر من البطاطا ( الدرجة الدنيا ) يكلف بين ½ ٣ — ½ ٤ فرنكا وسعر اليوم تتراوح بين ٧ — ½ ١٢ فرنكا وكان الكيلو غرام من الزبدة يكلف بين ١،٢٨ — ١،٩٠ فرنكا عام ١٨٤٩ ، أما السعر اليوم فيتراوح بين ٢،٠٥ و ٤،٢٦ واخيرا فان سعر الفاصولياء تضاعف بين ١٨٤٩ و ١٨٩٢****

ووفقا لبيلوتيه ايضا فان اسعار المواد الغذائية ارتفعت في فرنسا بين ٢٢ — ٢٣ بالمائة خلال السنوات الثلاثين الاخيرة في حين لم يزدد متوسط الاجور اكثر من ١٧ بالمائة***** واذا اضفنا الى ذلك الايجارات المحلقة في المدن الكبرى لا يمكن الا ان نخلص الى النتيجة بان الاوضاع المادية للبروليتاريا الفرنسية **تدهورت ليس بصورة نسبية فحسب بل بصورة مطلقة ايضا** خلال العقود الثلاثة وتؤيد الاحصاءات هذه النتيجة كل التأييد ، اذ تبين ان العامل الفرنسي يحصل على تغذية دون ما كان يحصل عليه قبل خمسين سنة******

---

* فرنان بيلوتيه **الحياة العمالية في فرنسا** باريس ١٩٠٠ ، ص ١٨٣

** المصدر نفسه ، ص ١٨٦

*** المصدر نفسه ص ١٨٩

**** المصدر نفسه ١٩١

***** المصدر نفسه ، ص ١٩٤

****** المصدر نفسه ، ص ١٨٧ و ١٩٠ و ١٩٤

ان التدهور المطلق للاوضاع الاقتصادية للبروليتاريا الفرنسية يجلب بالطبع املاقا اعظم في اذياله «يصبح العامل الحديث مملقا ، والاملاق يتطور بصورة اسرع من تطور الثروة والسكان». وفي السنوات الخمس بين ١٨٨٦ و ١٨٩١ ازداد سكان العاصمة الفرنسية بنسبة ٤،٠١ بالمائة ؛ وفي الفترة نفسها ارتفع عدد الملقين في هذه المدينة النيرة بنسبة ٢٣،١ بالمائة. ولم تكن فترة السنوات الخمس هذه استثناء. فالجدول التالي يبين ان زيادة الاملاق اتخذت منذ زمن طويل نسما سيرة في باريس

| السنوات | النفقات على الملقين الباريسيين | السكان |
|---|---|---|
| ١٨٥٠ | ٥ | ١،٠٥٣،٢٦٢ |
| ١٨٧٠ | ١٠ | |
| ١٨٩٢ | ١٨ | ٢،٣٨٦،٢٣٢* |
| ١٨٩٥ | ٢٠ | |

لا تحسبوا ان هذه الاشياء جميعا تشير الى باريس وحدها. فالوضع هو نفسه حتى درجة كبيرة في جميع ارجاء فرنسا. ففي ١٨٧٣ كان هناك ٦٧١٥ مكتبا للاحسان في فرنسا تقدم الاغاثة لعدد من الفقراء يبلغ ٨٠٦٠٠٠ نسمة. وفي ١٨٦٠ كان ١١٣٥١ مكتبا تغيث ١١١٥٩٠٠٠ نسمة ؛ وفي ١٨٨٨ كانت مثل هذه المكاتب تعد ١٥١٣٨ وكان عدد الفقراء المسجلين فيها يبلغ ١٦٤٧٠٠٠**. ان عدد الملقين قد ارتفع خلال ٢٨ سنة ( ١٨٦٠ ـ ١٨٨٨ ) بنسبة ٤٢ بالمائة في حين كانت زيادة السكان ٥،٤ بالمائة فقط. «**يصبح العامل الحديث مملقا ، والاملاق يتطور بصورة اسرع من تطور الثروة والسكان ...**»

## ١٣

ان الاقتصاديين البورجوازيين الذين يشمخون برؤوسهم كبرياء لدى مشهد نقص العدد الرسمي للملقين في بريطانيا يخفضون عيونهم بكل تواضع في وجه الاحصاءات عن الاملاق الفرنسي ، ويتذكرون بصورة مناسبة جدا في الوقت نفسه ان ارقام الاملاق الرسمي التي جمعوها بانفسهم لا تثبت شيئا. واننا لنعتقد

* المصدر نفسه ، ص : ٢٨٩

** لوروا ـ بوليو ، مبحث نظري وعملي في الاقتصاد السياسي ، باريس ١٨٩٦ ، المجلد الرابع ، ص ٤٦٨ .

بدورنا ان هذه الارقام ، اذا اخذت بصورة منفصلة لا يمكن ان تخدم كقرينة لا تخطىء عن شرط البروليتاريا الاقتصادي ولذا نجد انه من الضرورة بمكان ان **نتحقق** من شهادة مثل هذه الارقام بمساعدة الاحصاءات من نمط آخر

في السنوات الخمسين ١٨٣٨ ـ ١٨٨٨ زادت **الجريمة** في فرنسا كما يلي

| عدد الاحكام بالسجن من اجل | زيادة بنسبة |
|---|---|
| جرائم العنف | ٥١ بالمائة |
| الاعتداء على الملكية | ٦٨ بالمائة |
| الاعتداء على الاخلاق العامة | ٢٤٠ بالمائة |
| التشرد والتسول | ٤٣٠ بالمائة* |

ان الزيادة المذهلة في عدد الاحكام بسبب التسول والتشرد تؤكد بصورة صريحة الشهادة الرسمية للاحصاءات الخاصة بالاملاق في فرنسا التي كان يمكن ان يراودنا بعض الشك بشأنها وبالتالي فانه لا بد لنا من الاقرار بصحة الاحصاءات

ولا يعترض احد بأن فرنسا بلاد في سبيل الانحطاط فهي لا تزال احد البلدان الاغنى في اوروبا ولا تشاهد الزيادة السريعة في الاملاق في فرنسا وحدها اليكم جدولا يبين الزيادة في عدد الناس المغاثين في بروكسل والمجمعات الحضرية الهامة المجاورة لها وذلك بين السنوات ١٨٧٥ و ١٨٩٥**

| الكومونة | شخص يحصل على الاغاثة من اصل | |
|---|---|---|
| | ١٨٧٥ | ١٨٩٤ |
| شايربيك | ٩ | ٤ |
| بروكسل | ١٦ | ١٢ |
| مولنبيك | ١١ | ١٠ |
| لايكن | ١٦ | ٢٥ |
| أندرليشت | ٣٥ | ٨ |
| سان ـ جوسيه | ٢٤ | ١٥ |
| سان ـ جيلس | ٢٥ | ٢٠ |
| ايكسل | ٢٠ | ١٧ |

* هـ جولي ، **فرنسا المجرمة** ، ص ٢٠ وان مصدرا آخر يعطينا الزيادة في عدد الاحكام على التسول والتشرد كما يلي ١٦ من كل ١٠٠٠٠٠ من السكان في فرنسا عام ١٨٣٨ ؛ وفي ١٨٨٧ كان عدد الاحكام ٨٥ انظر التقرير الهام « الاجرام والتشرد » الذي قدمه كافاليري الى مؤتمر جنيف للاخصائيين في الاجرام والذي نشر في محاضر المؤتمر )

** راجع **تنظيم الاحسان العام** ، بقلم لويس برتران ، بروكسل ١٩٠٠ ، ص ١٦ .

فباستثناء لايكن يمكن ان نشاهد زيادة سريعــة حتى الدرجة القصوى في الاملاق في جميع المجمعات ففي اندرليشت كان هنــاك شخص واحد من كل ٣٥ من السكان يعيش على الاحسان عام ١٨٧٥ ؛ وفي ١٨٩٤ كان هناك شخص مفاث من بين كل ٨ من السكان. ولقد مضت بروكسل الى ابعد من ذلك ايضا ان ربع السكان فيها ملزمون بالتسول وفي المحافظات – في بروج وايبر وانجيين ونيفيل وتورنيه – لم تكن الامور افضل من ذلك ، **بل أسوأ في بعض الاماكن** ؛ ففي بعض هذه المدن كان ثمة مملق مغاث **من كل اثنين او ثلاثة من السكان*** وهكـذا نرى انـه في بلجيكا ايضا تصبح العامل مملقا والاملاق بتطور بصورة أسرع من تطور الثروة والسكــــان »

ان المؤلف الذي اخذنا عنه هذه الارقام سرع فيقدم تحفظا قدم من قبل مرات عديدة في هــذه المقالـــة ان عدد الفقراء المغاثين لا يبين المدى الفعلي للفقر** ومما لا ريب فيه ان هذا امر لا يجادل انسان فيــه لكنــه من المؤكد ان الزيادة السريعة الفائقة لهذا العدد لا تظهر أي تحسن في شرط الطبقة العاملة أي عامل يمكن ان يطلب الصدقة الا اذا كان البؤس قد تغلب على حس الكرامة الانسانيــة والكبرياء الطبقيــة عنــده ؟

وفي المانيا ، حيث اتساع الاملاق الرسمي ادنى حتى درجة كبيرة منه في بلجيكا ، نصادف هذه الظاهرة الباعثة على الاهتمام في المدن التي سكانها أقل من ٢٠ الف نسمة تبلغ النسبــة المئوية للمملقين المغاثين ٤،٧٥ وفي المدن التي يتراوح عــدد السكان فيها بين ٥٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ نسمة ترتفع تلك النسبة الى ٦،٣٩ ، واخيرا فان هذه النسبة تبلـغ ٦،٥١ من مجموع السكان حيث يتجاوز هؤلاء ١٠٠٠٠٠ نســمة***

ههنا نشاهد مرة اخرى أن الفقر ينمو بصورة اسرع من زيادة السكان ، هذا اذا لم يكـن ينمو بصورة اسرع من زيادة الثـروة ما عسى ان يقـول السيد ب. ستروفه في هذا الشأن ؟

لعله يقول ان عدد الفقراء المغاثين في المانيا انخفض حتى درجة كبيرة في السنوات الاخيرة ؟ هــذا صحيح لكن لماذا انخفض هذا العدد ؟ بكـل بساطة لانه حدث **تغيير في نظام تقديم الاغاثة** وثمــة مسافة كبيرة بين هــذا التغيير وبين **التحسن** في أوضــاع العمــال

---

* المصـدر نفســه ، ص ١٧

** المصـدر نفســه ، ص : ١٦

*** لوروا – بوليو ، المؤلف المذكور ، المجلد الرابع ، ص : ٤٧١ .

ولسوف نطلب كذلك من ناقدنا ان سجل ان **الجريمة** لاتزداد في فرنسا وحدها بل كذلك في جميع البلدان الرأسمالية التي درست في هذا المجال* ففي عام ١٨٨٢ كان هناك ١٠٤٣ حكما قضائيا لكل ١٠٠٠٠٠ من السكان في المانيا تجاوزوا الثانية عشرة ولا يخدمون في القوات المسلحة ؛ ولقد ارتفع هذا العدد الى ١٢٥١ عام ١٨٩٥** ما السبب في هذه الزيادة في الاجرام ؟ ان الاشتراكيين الفرنسيين لويس بلان في كتابه **تنظيم العمل )** قد ربطوا منذ زمن طويل بينها وبين **الصعوبات المتعاظمة في الصراع من اجل الوجود ، وبالخاصة افقار الطبقة العاملة .**

ولقد ايدت التجربة هذه الدلالة كليا ويقول الاستاذ ليست الذي استشهدنا به لتونا ان تبعية الجريمة للاوضاع الاقتصادية معروفة لدى الجميع ولا يرتاب فيها أحد*** ثم يستطرد فيلاحظ ان من واجب المرء ان يفهم من الاوضاع الاقتصادية اولا وقبل كل شيء **الشرط العام** للطبقة العاملة ( die **Gesammtlage** der arbetenden **Klasse** ) يعني في جميع المجالات وليس في المجال المالي وحده واننا لنعرف من قبل أن اجورا أعلى — وهو شيء لا يكف الاقتصاديون البورجوازيون عن العزف عليه — لا تقود بعد الى تحسن شامل في الشروط الحياتية البروليتارية والجريمة التي تزداد اسرع كثيرا من زيادة السكان تذكرنا بهذه الحقيقة التي لا جدال فيها وبالفعل لاحظوا ان **الجنح عند الاحداث تزداد بصورة اسرع جدا من الجريمة عند البالغين .** فبين ١٨١٦ و ١٨٨٠ تضاعف الرقم الاجمالي للجرائم المرتكبة من قبل البالغين في فرنسا **ثلاث مرات** ، في حين أن عدد حالات الجنوح عند الاحداث تضاعف **اربع مرات****** وازداد الجنوح عند الاحداث بصورة اسرع من ذلك ايضا بعد عام ١٨٨٠ ويرى فوليه ان اكثر من نصف الموقوفين في فرنسا حاليا بتهم مختلفة هم من الاحداث

وكان هناك بصورة موازية **لجنوح** الاحداث زيادة عندهم في نسبة **البغاء والانتحار** اللذين كانا من قبل نادرين جدا ولا نشاهد هذا

في باريس وفي جاداتها المزدحمة
حيث يغلي الفساد والرذيلة

فحسب بل في جميع ارجاء فرنسا وما وراء حدودها كذلك ففي المانيا التقية

---

* انظر انكريكو فيري ، **السوسيولوجيا الاجرامية** ، باريس ١٨٨٣ ، ص : ١٦٣ وما يليها

** الدكتور فرانزفون ليست ، **Das Verbrechen als sozial - pathologische Erschenung** ، دريسدن ١٨٩٩ ، ص ١٢ — ١٤

*** المصدر نفسه ، ص : ١٩

**** الفرد فوليه « المجرمون الاحداث » ، **مجلة العالمين** ، كانون الثاني ١٨٩٧ ، ص : ٤١٨ .

ارتفع عدد المجرمين الصغار **حوالي خمسين بالمائة*** بين ١٨٨٢ و ١٨٩٥ ولم تتخلف هذه البلاد التقية في مضمار البغاء ايضا فبين ١٨٧٥ و ١٨٩٠ كان سكان برلين يزدادون **بنسبة ٣ ـ ٤ بالمائة** سنويا فيما عدد البغايا يزداد **بنسبة ٦ ـ ٧ بالمائة**** •

اثمة ضرورة للتوقف طويلا عند اسباب نمو الجريمة والرذيلة بين الاحداث ؟ يكفينا كي نفهم هذه الاسباب ان نتذكر على سبيل المثال ان ستين بالمائة من الجانحين الاحداث في فرنسا هم من بين **المتسولين والمتشردين** ، فيما خمسة وعشرون بالمائة يساقون الى المحاكم البورجوازية **بسبب السرقة***** • فبسبب من **انعدام الرعاية** ، وهو ما يرتبط بدوره بزيادة اتساع استخدام عمل النساء المأجور يكتسب الاولاد عادات **التشرد** وبالتالي يضطرون الى التسول والسرقة حتى لا يموتوا جوعا **ان زيادة الجريمة عموما ، وجنوح الاحداث خصوصا ، تشهد بصورة لا تدحض على تفاقم الوضع الاجتماعي للبروليتاري •**

ولسوف نلاحظ بصورة عابرة ان الاعتراف بمثل هذه الحقيقة التي لا تقبل الجدال **لا يلزم الاشتراكيين الديموقراطيين بتأييد** مطلب الاشتراكيين المسيحيين الخاص **بحظر** استخدام النساء **في** المصانع فالاشتراكيون الديموقراطيون يرون أن مثل هذا الحظر لن يحسن أوضاع العمال الاجتماعية بل سوف يزيدها سوءا اذ يعطي دفعا جديدا وبالغ القوة لاكثر الاشكال قسوة وفظاظة لاستثمار النساء من قبل الرأسمال ان ظهور مثل هذه الاشكال للاستثمار وتوطدها لم يساعدا البتة حتى الآن في تحسين شرط الجماهير الكادحة وهذا هو السبب في ان الاشتراكيين الديموقراطيين يعارضون معارضة تامة الاقتراح الرجعي الصادر عن الاشتراكيين المسيحيين ان هذا منطقي جدا واذا كانت السخرية جائزة هنا فمن الواجب ان يوجه الى ب ستروفه الذي بلغت به الجراة ان يسخر من كاوتسكي لتهافته المزعوم حين رأى في تطور استخدام النساء في الصناعة برهانا على افقار الطبقة العاملة لكنه لم يؤيد في الوقت نفسه مطلقا الاقتراحات العملية التي قدمها ديكورتينز

لا بد للمرء حين يتحدث عن الجريمة ان يتذكر ان زيادتها السريعة تسير يدا

---

* فون ليست ، **المؤلف المذكور** ، ص : ١٧

** بول هيرش **Verbrechen und Prostitution** برلين ١٨٩٧ ص ٧٠

راجع كتابا هاما بقلم هوسونفيل **اجور النساء ومصائبهن** ، باريس ١٩٠٠ ، الذي يبين الرباط الوثيق بين الفقر والبغاء

*** فردينان دريفوس ، **الشقاء الاجتماعي** ، باريس ١٩٠١ ، ص ٨

بيد مع العدد الهائل من **المرتدين الى الاجرام*** ولقد اشار ف ليست بهـذا الشأن الى ما يلـي **لا تمارس عقوباتنا اي تأثير على العموم في اتجاه التحسين او التخويف ، فهي لا تمنع الجريمة** يعني لاتلجم كائنا من كان انها بالاحرى تقوي من النزوع نحو الجريمـة**

هذا صحيح لكن لا نقل عنه صحة ان المرتدين الى الاجرام هم من وسط متميز اخلاقيا كل التميز مما يسمى **الجنوح الطارىء** . ومن سوء الحظ انه وسط اذا لم نكن الجهل هو الذي يسود فيه سيادة تامة على وجه التقريب فهي على الاقل **خشونة الاخلاق وانحطاطها** ولا يقتصر الامر على خشونة الاخلاق وانحطاطها ان الكثيرين من افراده يحملون من دون ريب خاتم **الانحلال** ، وتنطبق عليهم بقـوة خاصة كلمات موسلي التالية ثمة طبقة من المجرمين تتصف بتعضية بدنيـة وذهنية معيبة فضعاف العقل او المصابون بالصرع الذين بجنون اوهم منحدرون من اسر الجنون موجود فيها نسبهم عالية جدا*** ولسوف نحيل كل من **يريد برهانا على هذه الكلمات الى كتاب بالغ الاهمية بقلم الدكتور** أ لوران عنوانه **عادات سجون فرنسا** ، وقد صدر في السنة الفائتة وفيـه مقدمة لا تقل عن ذلك اهمية بقلم لاكاسان****. ان لوران ولاكاسان سواء في البعد عن المبالغات السخيفة **لمدرسة لامبروزو** ويحصل كل من يقرأ كتاب لوران بعناية على قناعـة وطيدة بأن **المجتمع** حين يعاقب المرتدين الى الجريمة ، يقتص في الاغلب من منحلين هم نتاج منفعل ومرضي لعملية اجتماعية تاريخية واذا كان عدد مثل هؤلاء الناس يتعاظم. جنبا الى جنب مع عدد المتسولين والمتشردين والبغايـا والقوادين وغيرهم من ممثلي البروليتاريا الرثة أفليس من الواضح اذن اننا نملك الحق في القول مع ماركس

**« وبالتالي فان تراكم الثروة في القطب الواحد هو في الوقت نفسه تراكم للفقر وعناء العمل والعبودية والجهل والشراسة والانحطاط الذهني في القطب المقابل(٢٨٧) »**

---

* **لا يشكل استثناء للقاعدة العامـة الا عدة اقاليم سويسرية حيث الرقـم العام ونسبـة المرتدين الى الاجرام يتناقصان على حد سواء ومهما يكن من أمر فلا يمكن ان تؤخذ هذه الاقاليـم بعين الاعتبار بسبب من وضعها الاستثنائي الذي يمكن بشأنه مراجعة مثلا كتاب غينو ، الاجرام في جنيف في القرن التاسع عشر** جنيف ١٨٩١ ص ١١٧ راجع **Die Selbsmorde im Kanton Zurich in Vergleichung mit der zahl der Verbrechen » in Zeitschrift für schweizerische Statistik** لعام ١٨٩٨ ويعمل زيورشر على اثبـات الانخفاض في **الجريمـة** يترافق بارتفاع عدد الانتحارات

** المصـدر نفسـه ، ص ١٦

*** **الجريمة والجنون** ، باريس ١٨٨٠ ص ٣٠

**** كتبت عـام ١٩٠١ .

هذه حقيقة لن تتمكن انصار برنتانو الحاليون و « نقاد » ماركس ان **يدحضوها** اكثر مما فعل باسيا واتباعه المباشرون ونظرا **لهذه الحقيقة** فما اعظم دهشتنا حيال اولئك الناس الذين يعتبرون من قبيل المبالغة القصوى الفكرة التي يعبر عنها ماركس وانجلز والتي تقول ان اوضاع العمال الاجتماعية في العصر الوسيط كانت افضل مما هي عليه في المجتمع الراسمالي حاليا وقد لا تكون هذه الفكرة مستساغة عند اولئك الذين يودون **ثلم** التناقضات الملازمة للمجتمع اليوم ومهما يكن من شيء فليس انصار ماركس الوحيدين الذين يعترفون بصحة هذا البيان*

وعند هذه النقطة يتوقف السيد ب. ستروفه ليذكرنا باحدى حججه التي يعتبر انها لا تقاوم اذا كان تراكم الثروة في قطب واحد يسير يدا بيد مع تراكم البؤس والانحلال البدني والانحطاط الاخلاقي في القطب الاخر فكيف يمكن للثورة الاشتراكية ان تقوم اذن ؟ أتكون طبقة عاملة منحلة قادرة على تحقيق أعظم ثورة عرفها التاريخ**

وسوف نرد على ذلك بأن ماركس وانجلز لم **يعتمدا قط على العناصر المنحلة للبروليتاريا كقوة ثورية** ، وهو ما يقرره بصورة جازمة ، على حد سواء ، **بيان الحزب الشيوعي** ومقدمة كتاب انجلز ***Der Deutsche Bauernkrieg*** ومهما يكن من شيء فان تطور الراسمالية لا يجر فحسب في اذياله التدهور النسبي والمطلق ايضا في بعض الاماكن لشرط البروليتاريا ولا يخلق فحسب « **المنتجات المنفعلة للتفسخ الاجتماعي** » ، بل يقدم كذلك زادا للتفكير لاولئك البروليتاريين الذين لايشكلون قسما من تلك المنتجات المنفعلة ؛ وانه ليشكل من مثل هؤلاء البروليتاريين **جيش**

---

* « كانت اوضاع العامل اذن » ( في العصر الوسيط ) « محتملة تماما ، واضيف انه لا بد كانت نظرا للمعلومات التي يقدمها لنا النقد الحديث ، متفوقة على أوضاع عمالنا ان ذلك الرفيق المزعوم كان يتمتع بوضع يحسده عليه جدا العمال في زماننا هوبرت – فالورو **النقابات الحرفية للفنون والمهن اليدوية** ، باريس ١٨٨٥ ، ص ٤٤ – ٤٥) ، راجع كذلك الفريد فرانكلين، **الحياة الخاصة في الماضي ، الفنون والاخلاق والعادات عند الباريسيين من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر . كيف كان المرء يصبح معلما .** باريس ١٨٨٩ ، ص ٦٥ « ان الحقيقة التي تتضح من دراسة معمقة ومنزهة لنظام النقابات الحرفية هي ان اوضاع العامل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانت متفوقة على اوضاعه الراهنة »

** ان هذه الحجة ، مثلها كمثل الغالبية من الحجج الاخرى ، قد استعارها « ناقدنا » من خصوم ماركس البورجوازيين انظر مثلا كتاب كيركوب **تاريخ الاشتراكية** ، ص ١٦٠ ( اننا نستشهد بالطبعة الثانية ، لكن الحجة التي نشير اليها تصادف كذلك في الطبعة الاولى )

*** جدير بالذكر ان باكونين اتهم ماركس وانجلز لاعراضهما عن وضع أية آمال في « **البروليتاريا المفقرة** » . انظر **الدولة والفوضى** ، ص ٨

**الثورة الاجتماعية** المتعاظم ابدا واما اشار ماركس الى ازدياد الاملاق الخ ، تحدث كذلك عن « **استثناء الطبقة العاملة التي تنمو باستمرار وتتدرب باستمرار ، والتي تنمو وتتنظم من جراء آلية عملية الانتاج الرأسمالي بالذات** التشديد من قبلنا ) خذوا فرنسا او المانيا بعين الاعتبار على الرغم من الزيادة السريعة في الجريمة والبغاء وغير ذلك من علائم الانحطاط الروحي عند **بعض العناصر** من الجماهير الكادحة فان الطبقة العاملة ، **بمجموعها** ، تكتسب ابدا المزيد من الوعي الطبقي وتتشرب اكثر فأكثر باستمرار بالروح الاشتراكي **ان تفاقم شرط البروليتاريا الاجتماعي لا يضاهي في حال من الاحوال خلق الشروط التي تعوق تطور وعيها الطبقي.**
ومن المؤكد ان الفوضويين على طريقة باكونين يستطيعون وحدهم ان يتخيلوا ان **البؤس بحد ذاته هو اروع** الوسائل الممكنة للتحريض الاشتراكي بيد ان **الرخاء** ، اذا ما اخذ بحد ذاته ، لبعيد عن ان نكون دائما « **ملهما** » للروح الثوري **ان الاشياء جميعا مرهونة بظروف الزمان والمكان .**

ان النقاد الذين يرون ان التفاقم في مركز الطبقة العاملة الاجتماعي لايتلاءم مع تطور الوعي الطبقي يبرهنون فقط على عدم فهم التفسير المادي للتاريخ الذي هم مغرمون مع ذلك بالاشارة اليه وان عدم الفهم هذا يتناول كذلك تفكيرهم **عن الشروط الاقتصادية الضرورية من أجل انتصار البروليتاريا على البورجوازية**
ويقول هؤلاء السادة ان القوة السياسية لاية طبقة معينة **تتحدد** بقوتها الاقتصادية والاجتماعية ولذا فان الزيادة في القوة السياسية للبروليتاريا يجب ان تفترض زيادة في قوتها الاقتصادية ، والعكس بالعكس أي أن ضعف هذه القوة الاقتصادية يؤدي بالضرورة الى التخفيف من أهمية البروليتاريا السياسية وهذا هو في المانيا راي ديفيد وفولتمان وكامبفمير والكثيرين غيرهم من انصار المناهج الجديدة* وانه لمن المشكوك فيه ما اذا كان السيد ب. ستروفه ينضم الى هذا الرأي بتمامه ذلك انه اشبه بنمط محافظ من **الباكونينية**** ; وليس هو كذلك متفقا مع كاوتسكي الذي تحدث في رده الى برنشتاين عن افلاسه النظري وفي رأي السيد ستروفه انه لا بد بالضرورة في سبيل انتصار البروليتاريا من قوة تنظيمية » لا يمكن اكتسابها الا بصورة متدرجة على اساس التنظيم الاقتصادي والمؤسسات الاقتصادية*** ان الحقيقة متداخلة بصورة وثيقة مع الخطل في هذا الرأي أما ان القوة التنظيمية ضرورية للبروليتاريا ، مثلما كانت ضرورية لاية طبقة اجتماعية اخرى تسعى الى علاقات انتاج جديدة فهذا ما لا جدال فيه

---

* انظر كامبفمير **Wohin steuert der Okonomische und staatlische Entwicklung** برلين ١٩٠١ ، ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٥ وغير ذلك من المواضيع

** بخصوص وصف رأي باكونين عن السياسة والاقتصاد ، انظر كتيبي **الفوضوية والاشتراكية**،

*** ارشيف ، المجلد الاول ، ٧٣٥

وهو ما لم يضعه الماركسيون الاورثوذكسيون موضع التساؤل قط **ولكن** لماذا بحسب السيد ب. ستروفه ان مثل هذه القوة لا يمكن اكتسابها الا على اساس التنظيم الاقتصادي يعني ـ اذا نحن فهمناه بصورة صحيحة ـ على اساس الجمعيات التعاونية وما شابهها من المؤسسات الاقتصادية ؟ اذا لم يكن في وسع القوة التنظيمية للبروليتاريا ان تتطور الا في حدود تطور مؤسساتها الاقتصادية »، فان هـذه القوة **لن تستطيع قط ان تتطور حتى الدرجة الضرورية والكافية** من اجل الانتصار على البورجوازية لان مثل هذه المؤسسات العمالية ، **في المجتمع الراسمالي،** سوف تكون على الدوام تافهـة جـدا بالمقارنة مـع المؤسسات التي تشرف البورجوازيـة عليهـا

وفيما عدا ذلك فان ناقدنا يصيب ايضا حين يقول ان القوة التنظيمية للبروليتاريا ـ مثلها كمثل ايـة قوة اخرى ـ لا يمكن كسبها الا **بصورة متدرجة .** لكن لماذا يجب ان تحول هذه الفكرة الصائبـة دون فكرة **الثـورة الاجتماعية ؟ ان** البورجوازية الفرنسية على أي حال قد اكتسبت **أيضا** قوتها التنظيمية بصورة متدرجة ومع ذلك تمكنت من انجاز ثورتها الاجتماعية

وعلى أي حال فان الاعتبار القائل ان كسب القوة التنظيمية كسبا **تدريجيا ـ** مثلهاكمثل اية قوة اخرى ـ امر محتوم هو احد المدافع الصغرى التي وضعهـا السيد ب. ستروفه الى جانب بعض مدافع الحصار ذات العيار الثقيل في البطارية النظرية التي توجه النار في مقالته الى مفهوم **الثورة الاجتماعية** البغيض جدا اليـه ووفقا لمشروعنا الاصلي فقد كان علينا ان نهاجم **تلك** البطارية في المقالة التي بين يدي القارىء الآن بيد اننا وجدنا انفسنا ملزمين بعدئذ بأن نحلل بصورة مفصلة نظرية ثلم التناقضات الاجتماعية من وجهة النظر الاقتصادية ولذا كان علينا ان نؤجل الى مقالتنا التالية هجومنا على البطارية المنصوبة ضد مفهوم الثورة الاجتماعية ولسوف نصفي الحسابات اخيرا في تلك المقالة مع صاحبنا « الناقد » ونرى بمزيد من الوضوح نوع الماركسية الذي يبشر به حاليا

## المقالـة الثالثـــة

### ١

من المعروف عن السيد ب. ستروفه انه يحب الاسهاب في (( **نظرية المعرفة** )) . وصحيح انه لم يجد حتى الآن انه من الضروري ( او الممكن ) ان يقدم آراءه «المعرفية» الخاصة باية درجة من التماسك والوضوح بل من المشكوك فيه ما اذا كان يملك اية آراء مفهومة من هذا النوع ، الامر الذي لا يمنعه من الاشارة الى « نظرية المعرفة »

في جميع الحالات المناسبة والاسوأ من ذلك حتى درجة كبيرة في جميع الحالات غير المناسبة ونظرا لذلك لا يمكن للمرء ان يدهش لحقيقة ان الاعتبارات المعرفية تنطوي على سلاحه الرئيسي في النضال ضد « **الثورة الاجتماعية** »

وكيما يبين « ناقدنا لنا مبلغ انعدام اي اساس لتلك الفكرة الزائفة **النظرية** » ، **فانه يفسر لنا كيف ينبغي فهم** « النظرية » من قبل اي امرىء لا يريد ان يذنب بحق نظرية المعرفة واليكم ما تعلمناه منه في هذا الشأن

ان مبدأ التطور اذ لا يقول شيئا عن **لماذا** تحدث التبدلات ، يخبرنا بوضوح تام **كيف** تجري انه يعرفنا بأشكالها ، والشكل يمكن تحديده بكلمة واحدة **التواصل** ( **die Stetgikt** ) ان التغير غير المنقطع هو التغير الوحيد الذي يمكننا فهمه وهذا هو السبب في ان الموضوعة القديمة **natura non facit saltus** ( الطبيعة لاتقوم بوثبات ) يجب ان تكمل بموضوعة اخرى **intellectus non patitur saltus** ( العقل لا يطيق الوثبات ) ويقول هيغل ان **التبدلات الكمية** تتحول بعد اجتيازها حدا معينا الى **تبدلات نوعية** وما أكثر ما يشير الماركسيون الاورثوذكسيون الى هذه الصيغة وهم يتخيلون بكل سذاجة انها تقدم تفسيرا واقعيا لمجرى الثورة الاجتماعية وعلى اي حال فهي في واقع الامر لا تفسر الظواهر بل تصفها فحسب بمعونة المقولات المنطقية* مؤكدة على طبيعة التغير المتصلة وهذا هو السبب في ان الاشارات اليها تفتقر الى الاقناع فلا بد لنا بصورة محتومة من الوصول الى النتيجة بأن فكرة الثورة الاجتماعية لا تصمد للنقد ومن الواجب وضعها ضمن قوسين جنبا الى جنب مع فكرة حرية الارادة ( بمعنى الفعل بدون سبب وجوهرية النفس ، وقس على ذلك ؛ فنحن نعرف منذ أيام كانط ان هذه الافكار بالغة الاهمية بالمعنى العملي لكنها عديمة الاساس كليا من زاوية النظرية

هذا هو خط المحاكمة الذي يتبعه السيد ب. ستروفه الذي يبذل جهدا كبيرا في دعم حججه بالاستشهادات من كتابات سكوبه وكانط وسيغفارت وزيبهن وحتى السيد ف. كيستياكوفسكي وبالرغم من ان هايني كان على حق حين قال ان الاستشهادات تزين الكتاب فاننا نتوصل اكثر فأكثر الى القناعة ، ونحن نتبع محاكمة « ناقدنا » انه ابعد ما يكون عن جميع الكتاب الذين « يتزينون » بالاستشهادات والذين يتصفون بوضوح الفكر وتماسكه

اذا كانت فكرة **الثورة الاجتماعية** لا تصمد للنقد فلا بد ان يطرح السؤال اذن ماذا عن تلك الثورات الاجتماعية التي حدثت من قبل في التاريخ ؟ أيجب اعتبارها كما لو انها **لم تحدث مطلقا** ، ام يجب الاقرار بانها لم تكن ثورات بالمعنى الذي يقصده الماركسيون الاورثوذكسيون من هذه الكلمة ؟ لكنه حتى اذا قلنا ، مثلا ان الثورة الفرنسية لم تحدث قط بصورة فعلية فان احدا على وجه

---

* **ارشيف ، الخ** ، ص ٦٧٩

التقريب لن يصدق ذلك واذا نحن اكدنا ان تلك الثورة العظمى لا تشبه في حال من الاحوال الثورة التي يتحدث عنها الماركسيون الاورثوذكسيون ، فان اولئك الناس العنيدين سوف يقاطعوننا ، مبينين اننا نشوه الحقائق فقد كانت الثورة الفرنسية، في رأي الماركسيين الاورثوذكسيين ثورة اجتماعية بكل معنى الكلمة وصحيح انها كانت **ثورة البورجوازية** ، وقد جاء الآن ــ في رأي الماركسيين الاورثوذكسيين ــ دور **الثورة البروليتارية** . لكن هذا لا يغير الامور فاذا كانت فكرة **الثورة الاجتماعية** عديمة الاساس لان الطبيعة لا تقوم بوثبات ولان الذهن لا يطيق هذه الوثبات فان مثل هــذه الحجج الوطيــدة يجب ان تطبق اذن بدرجــة متساويــة على كلتــا **ثورة البورجوازية وثورة البروليتاريا** واذا كانت الثــورة البورجوازية قد حدثت قبل زمن طويل بالرغم من ان الوثبات « **مستحيلة** » وان التغيرات « **متصلة** » فان لدينا اذن جميع الاسباب للاعتقاد بأن الثورة البروليتارية سوف تحدث كذلك في الوقت اللازم ، هذا اذا لم تصطدم طبعا بعقبات أكثر جدية من تلك العقبات التي يدل عليها السيد ب. ستروفه في حججه « المعرفيــة »

لكن لننظر مليا الى تلك الحجج

ان الصيغة الهيغلية لا **تفسر** الظواهر بل **تصفهــا** فحسب كذلك هــي الحال لكن ليس بيت القصيد هنا فالمسألة هي ما اذا كان **الوصف** المعطى من قبل الصيغة » **صوابا أم خطأ** فاذا كان صوابا فمن الواضح اذن ان « الصيغة» صحيحة ؛ واذا كانت « الصيغة صحيحة فانه لا يقل عن ذلك وضوحا اذن ان هيغل كان على صواب ؛ واذا كان من الواضح ان هيغل على صواب فانه لا يقل عن ذلك وضوحا اذن ان **الطبيعة المتصلة للتغيرات** ــ التي **تــدل** عليها صيغة » هيغل كما يعترف بذلك السيد ب. ستروفه نفسه ــ لا تحول دون امكانية تلك « **الوثبات** » بالذات التي يؤكد لنا ان الطبيعة لا تقوم بها وان الذهن لا يطيقها

## ٢

لا بد ان نلاحظ ، على العموم ، ان « **الوثبات** » تسخر من ناقدنا وانهــا تتغلغل بصورة لا تقاوم حتى الى منطقة خط تفكيره الخاص وان هذا ليتضح على افضل صورة من مقتطف اخذه عن سيغفارت

يقول سيغفارت انــه اذا تغير شيء ما تحت ابصارنا ، مثلا اذا تحول الورق الازرق الى ورق أحمر او ذابت قطعة من الشمع موضوعة في موقد ، فاننا نتعامل اذن مع **عملية متصلة** لا تعطينا سببا للافتراض بأن مادة معينة يستعاض عنها بمادة أخرى ان الامر على النقيض من ذلك اذ ان تواصل التغيرات الحادثة هنا يقنعنا

بأن الشيء ظل على حاله حين حدث تغير في جميع خصائصه الملموسة بصورة مباشرة مثل الحرارة واللون والمظهر الخارجي وغير ذلك

ان حجج سيغفارت هذه يوردها ناقدنا على اعتبارها تميط اللثام عن انعدام اية اسس لفكرة **الثورة الاجتماعية** وحقيقة الامر انها أبعد ما تكون عن تدمير هذه الفكرة ، بل هي تؤيدها انها تجيب ــ بقدر ما تجيب ــ عن السؤال **في اية شروط ولماذا يستمر شيء معين في البقاء على حاله بالضبط بالرغم من التغيرات التي اجتازها** • وعلى اي حال فهي لا تنطوي على ادنى برهان على فكرة ان التغيرات السريعة والجذرية التي يحق لنا ان نسميها وثبات مستحيلة في الاشياء المحيطة بنا ان العكس صحيح ان احد الامثلة التي يقدمها سيغفارت يذكرنا بصورة مقنعة جدا بن مثل هذه التغيرات ممكنة تماما ، وطبيعية جدا وليس فيها ما يثير الدهشة على الاطلاق فحين تذوب قطعة من الشمع موضوعة في موقد فان ثورة كاملة تحدث في حالتها **كانت** قاسية لكنها **اصبحت** مائعة وبالرغم من ان هذا التغير الاساسي يفترض بالطبع عملية « **متواصلة** » اكثر او اقل او تسخينا للشمع « **تدريجيا** » اكثر او اقل* ، فان ذلك التغير نفسه لا يحدث « **تدريجيا** » بل **بصورة مفاجئة** حالما يتم الوصول الى درجة الحرارة اللازمة للذوبان ان ما يجري هنا من دون ريب هو وثبة **لا جدال** فيها مطلقا ، ومع ذلك تصدى السيد ب. ستروفه ليبرهن لنا على ان **الطبيعة لا تقوم** بوثبات وعلى ان الذهن لا يطيقها كيف يمكن ان يكون ذلك ؟ او لعله يقصد ذهنه الخاص وحده ، الذي **لا يطيق الوثبات** في الحقيقة لهذا السبب البسيط ، الا وهو انه ، كما يقولون « **لا يستطيع أن يطيق** » **دكتاتورية البروليتاريا** •

واذا شئنا ، بعدما تكبدنا عناء الحصول على فهم مضبوط لحجج سيغفارت ان نطبقها على المجتمعات البشرية فلا بد لنا ان نقول ، على سبيل المثال ، ما يلي اننا على قناعة من أن فرنسا ، في اوائل القرن التاسع عشر قد ظلت فرنسا ( **تلك البلاد** « **بالذات** » ) بالرغم من ان جيشانا اجتماعيا جرى فيها في اواخر القرن الثامن عشر ، وقد عرف باسم الثورة الكبرى ؛ نحن واثقون من ذلك اولا لان جميع التبدلات في هذا البلد خلال الثورة وبعدها جرت بصورة متواصلة في ارض محددة في مكان معين ) وثانيا لان سكان هذا البلد من وجهات نظر عديدة مثلا فيما يتعلق بالعرق واللغة ) ، كانوا في القرن التاسع عشر مثلما كانوا قبل الثورة وثالثا لان لكنه لا حاجة بنا الى تعداد جميع « لان هذه ؛ ان علينا ان نبين

---

* سوف يدرك القارىء ان تواصل التسخين ليس ضرورة فاذا انا اوقفت التسخين بعد رفع حرارة الشمع الى الدرجة ح وتركته يبرد حتى الدرجة ح\٢ ثم رحت اسخنه من جديد حتى يذوب ، فسوف تكون النتيجة هي نفسها كما حين يكون التسخين متواصلا ، سوى انها سوف تستغرق زمنا اكثر وتتطلب المزيد من الحريرات

فقط أن مسألة لماذا ومتى يستمر شيء معين ( أو بلد ) **في البقاء « نفسه بالذات » بالنسبة الينا** هي امر واحد فيما مسألة ما اذا كانت التغيرات السريعة والجذرية المسماة ثورات ( او ما يشبه ذلك ) ممكنة ومعقولة في تنظيم المجتمعات البشرية او في خصائص الاشياء ) هي أمر آخر وحتى اذا كان المؤلفون الذين يستشهد بهم السيد ب. ستروفه يعطوننا جوابا جامعا عن **أول** هذين السؤالين فان هذا الظرف السار لن يعطينا الحق مع ذلك ، او ادنى اثر للحق في حسم السؤال **الثاني** بمعنى سلبي

ولعل السيد ب. ستروفه يعترض بأنه كائنة ما كانت الامور بخصوص الاستشهاد المأخوذ عن سيغفارت وبخصوص العديد من الاستشهادات الاخرى التي يوردها فان هذه الفقرة من كانط تشكل جوابا عن السؤال الثاني لنقرأ هذه الفقرة التي سوف نوردها كاملة

**« لا يكون اي تبدل ممكنا الا بسبب عمل السببية المتواصل فليس ثمة تمييز للواقع في الظاهرة كما ليس ثمة تميز في مقدار الازمان ، حتى ازهدها ؛ وهكذا تنشأ حالة جديدة للواقع من الحالة الاولى حيث لم يكن لها وجود ، عبر جميع الدرجات اللامتناهية ، وجميع التميزات التي هي دائما بين الدرجة والاخرى دون الفارق بين و و ٢ * »**

ولعله يبدو انه يترتب على ذلك ان الوثبات مستحيلة بحيث ينهض من جديد امامنا السؤال المحير بشأن ما ينبغي لنا عمله « بالوثبات التي جرت من قبل في التاريخ وعلى أي حال فاننا نكتشف بعد اعمال الفكر ان هذا الاستشهاد المربك ليس مخيفا بقدر ما يتوهم ناقدنا

ان كانط يتحدث عن **حالات** تختلف عن بعضها بعضا **بالمقدار وحده**** ما المقصود من سلسلة من الحالات المتعاقبة التي تختلف عن بعضها بعضا بالمقدار وحده ؟ انها سلسلة من **التبدلات الكمية** . ويقول كانط ان السلسلة **متواصلة** بمعنى ان **الوثبات** فيها غير قابلة للتفكير ولنفرض ان ذلك صحيح ؛ لكن ما شأن ذلك بمسألة ما اذا كانت الوثبات ممكنة **حين تنطور التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية ؟** لا شأن له على الاطلاق فالمسألة لا تحل في حال من الاحوال حين نعلم من كانط ان الوثبات مستحيلة في عملية متواصلة من التغيرات في الكمية ولقد اشرنا اعلاه الى ان صيغة هيغل وفقا للسيد ب. ستروفه بالذات تتحدث كذلك عن

---

* **نقد العقل الخالص** [ يستشهد بليخانوف بالكتاب الروسي الذي ترجمه ن م سوكولوف ، سان بطرسبورغ ، ص : ١٨٤ ويستشهد السيد ب ستروفه بالطبعة الالمانية الثانية التي اصدرها كارل كيرباخ ، حيث توجد الاسطر المذكورة اعلاه في الصفحتين ١٩٤ ـ ١٩٥ ]

** **« اذا كانت الحالة ب تختلف عن الحالة ٢ بالمقدار وحده ، اذن »** ، الخ ( المصدر نفسه ، ص ١٨٣ من الترجمة الروسية لسوكولوف [ التشديد من قبلنا ] ) .

الطبيعة المتواصلة في حدود بقائها تغيرات **كمية** ، بيد انها تعلن ان الوثبات لا مفر منها حين تتطور الكمية الى النوعية  واذا كان السيد ب. ستروفه راغبا في دحض هيغل – ودحض **الماركسيين الاورثوذكسيين** في الوقت نفسه – فقد كان عليه ان يوجه ضرباته النقدية في **هذه النقطة** بالذات  كان عليه ان يبين ان الكمية **لا** تتطور الى النوعية ، أو – **اذا هي تطورت** – انه ليس ثمة وثبة في هذه الحال ، ولا يمكن ان يكون ثمة وثبة  وفي حقيقة الامر ان السيد ب. ستروفه اقتصر على الاستشهاد من **نقد العقل الخالص** بفقرة تقول ان الوثبات مستحيلة في **حالات التبدلات في الكمية** يا له من منطق غريب ! ويا له من « ناقد » مدهش

وستطرد كانط فيقول ان مقدارا معينا من الواقع ينشأ بالمرور عبر الدرجات الاقل جدا القائمة بين لحظات محدودة من التغير  لكن **أي نوع** من النشوء يقصد ، ونشوء **أي شيء** ؟ انه يرد على هذا السؤال بعبارات جازمة  ليس الجوهر هو الذي ينشأ  هذا الجوهر **الذي تظل** كميته ثابتة في الطبيعة ، بل **حالة جديدة من الجوهر فحسب***  حسن جدا  لنتذكر ذلك ولنتساءل أيكون نشوء **حالة** جديدة ( للجوهر ) النوع الوحيد من النشوء القابل للتفكير ؟ الا يمكن ان تنشأ **علاقة** جديدة ( بين أقسام الجوهر ) ؟ انها **لا** يمكن ان تنشأ فحسب ، بل هي تنشأ باستمرار وهي لا تنشأ باستمرار فحسب بل يجب أيضا ان تنشأ باستمرار بنتيجة تلك التغيرات بالذات في حالة الجوهر التي يقصدها كانط  يعني **بنتيجة حركته**  وان هذا النشوء للعلاقات الجديدة هو المنطقة حيث تتطور الكمية الى نوعية ، وحيث « **التبدل المتواصل** » يؤول الى « **الوثبات** » .

## ٣

حين يتحد الاوكسجين بالهيدروجين ، هل تمر ذرة الماء المتشكلة حديثا عبر «جميع الدرجات التي لا حصر لها» والتي تفصلها عن ذرة الهيدروجين (أو الاوكسجين) ؟ لا نعتقد ذلك لهذا السبب البسيط  الا وهو ان المرء لا يستطيع حتى ان يتخيل « **الدرجات** » المتوسطة بين الماء وعناصره المركبة  **ان هذا النوع من التواصل غير قابل للتفكير** ، « **فالذهن لا يستطيع احتماله** » .

لنأخذ مثالا آخر  لنفترض ان بلدا اصدر قانونا يحدد يوم العمل بتسع ساعات ، لكن العمال يعتقدون ان عملهم يدوم طويلا جدا ، فهم يطالبون بانقاص يوم العمل الى ثماني ساعات  ويلبي الشارعون طلبهم اخيرا  ويصبح يوم العمل من ثماني ساعات قانونا اعتبارا من تاريخ محدد  ولنقل الاول من كانون الثاني من

* المصدر نفسه ، ص : ١٨٢ ، ١٨٣ من الترجمة عينها [ التشديد من قبلنا مرة اخرى ] .

السنة التالية   ان السؤال هو ما اذا كان في مقدور المرء ان يتحدث هنا عن اية مراحل لا حصر لها » بين القانون الجديد والقانون القديم ؟ بالطبع لا ؛ لم يكن ثمة مثل هذه المراحل   لقد عدل الشارعون حدود يوم العمل بمقدار ساعة واحدة ، وبصورة فورية . كانت هذه وثبة ، وان تكن بالطبع ذات نسب اقل ارباكا من الثورة الاجتماعية ؛ واذا نحن رحنا ، « دون ان نطيق الوثبات » ، نتحدث عن « التواصل »   فسرعان ما نضطر الى الاقرار بأنه لم يكن له وجود هنا ، وهو السبب في ان الذهن « لا يطيقه » هنا . ويترتب على ذلك ان المرء لا يستطيع الاستغناء عن الوثبات حتى في « الاصلاح الاجتماعي »

وهذا مثال آخر ، أكثر « ثورية » حتى درجة ما   في ٢٤ شباط ١٨٤٨ اعلنت الجمهورية في بلدية باريس   فليخبرنا السيد ب. ستروفه مم تشكلت وكان يمكن ان تتشكل   الدرجات التي حصر لها   بين ملكية تموز والجمهورية الثانية   أيمكن ان يكون ذلك في الحركة الثورية للشعب الباريسي الثائر الذي انقص بصورة متدرجة فرص الحفاظ على الملكية بتغلبه بصورة متدرجة على مقاومة الجيش ؟ ومهما يكن امر   فانه يكون امرا بالغ الغرابة ان يشار الى هذه الانتفاضة الظافرة للشعب على اعتبارها برهانا على ان الوثبات مستحيلة   فاذا ما لجأ السيد ب. ستروفه الى مثل هذه الاشارات فسوف يبرهن على العكس مما يسعى الى اثباته

ولقد لاحظ كانط نفسه ان التغير لا تتعرض له الا الاشياء التي   تبقى   ، يعني تستمر في الوجود   فالاستهلال ــ مثل الزوال ــ ليس تغيرا البتة في الشيء الذي ينشأ او يزول* . لكنه اذا كان الامر كذلك ــ وهو كذلك حقا ــ فانه من الجلي اذن ان التغير عامة   وبالتالي التغير المتدرج والمتواصل ، لا يفسر ايا من النشوء او الزوال   واذا كنا لا نستطيع أن نفسر ايا من نشوء الاشياء او زوالها   فاننا لا نفهمها عموما   ولا يمكن ان يجري الحديث عن موقف علمي حيالها من جانبنا

ان التواصل الذي يتحدث كانط عنه هو ذلك التواصل بالذات الذي رفعه لبنز الى مرتبة القانون الذي سماه قانون التواصل . لكن ليبنز بالذات اعترف باننا نكتشف   لدى تعاملنا مع   الاشياء المركبة » ، ان تغيرا صغيرا يسبب احيانا فعلا كبيرا جدا   نعني بكلام آخر يسبب ثغرة في التدرج ، وثبة   وفي راي لبنز ان مثل هذه الوثبات مستحيلة في « الاشياء البسيطة   وحدها à l'égard des principes ou des choses simples »   لان ذلك سيكون معناه مناقضة الحكمة الالهية**   واذا تركنا جانبا موضوع الحكمة الالهية ، فاننا سوف

* « التغير نوع من الوجود يعقب نوعا آخر من الوجود للاشياء نفسها ، وبالتالي فان جميع الاشياء التي تتغير تستمر في الوجود والشيء الوحيد الذي يتغير هو شرطها » ( نقد العقل الخالص، طبعة كيرباخ ، الجزء الثاني ، ص : ١٧٩ )   [ الفقرة واردة بالالمانية في النص الروسي ]

** نظرا لان كلمات ليبنز ليست في متناول يدنا ، فسوف نشير على الاقل الى كتاب مبادىء تاريخ الفلسفة لاوبرويغ ، برلين ١٨٨٠ ، المجلد الثالث ، ص : ١٢٠ .

نسجل ان جميع الامثلة التي اوردناها اعلاه اخذت من حقل الاشياء المركبة الامر الذي يعني ان ليبنز نفسه ما كان ليعمد الى الاعتراض عليها من وجهة نظر قانون التواصل لكن هل نقول انه ما كان ليعمد الى الاعتراض ؟ يخيل الينا انه لو تكهن بنوع الاستعمال الذي سوف يطبقه « لقانونه بعض الفلاسفة المزعومين في حقبة آتية من الزمن لاضاف بشأنها نوعا ما من التحفظ اللاذع هذا اذا لم يكن يخشى الاساءة الى اولئك السادة المحافظين الكثيرين دائما الذين اجتنب « ذهنهم » « **الوثبات** » لفترة طويلة من الزمن وبالخاصة حين يتعلق الامر بذلك الشيء المركب » المسمى العلاقات الاجتماعية ـ السياسية

ولسوف نلاحظ بصورة عابرة ان مسألة الاشياء البسيطة ايضا لا تحل ببساطة تامة كما خيل الى ليبنز وكانط ولنأخذ على سبيل المثال المحاكمة التي اصبحت مألوفة لدينا لمؤلف **نقد العقل الخالص**

انه يقول ان مقدارا جديدا من الواقع ( آ ـ ب ) ينشأ من خلال جميع الدرجات الاقل الموجودة بين و ب ولنفترض ان الامر كذلك ولنأخذ درجتين متتاليتين بصورة فورية من تلك الدرجات القائمة بين النقطتين المشار اليهما ان السؤال هو كيف ينشأ ذلك المقدار من الواقع الذي يساوي الفارق بين تينك الدرجتين ؟ هنا لا يمكن افتراض الا امرين ١ ـ انه ينشأ **بصورة فورية** او ٢ ـ انه ينشأ **بصورة متدرجة** فمعنى ذلك انه يجتاز هو نفسه درجات متوسطة عديدة بيد ان ذلك مناقض لشرط مهمتنا ما دمنا قد تناولنا درجتين متتاليتين **بصورة فورية** وبنتيجة ذلك لا يبقى امامنا الا الافتراض الثاني الذي ينص على ان الفارق بين الدرجتين اللتين تناولناهما ينشأ **في الحال** ان هذا النشوء **في الحال** احدى تلك **الوثبات التي** يزعم انها مستحيلة وهذا يعني انه **ليست الوثبات** ما لا **يطيقه الذهن** ، بل **التواصل** .

ان **الموضوعة** القائلة ان **الوثبات لا وجود لها ، بل الاستمرار وحده** ، يمكن ان تعارض بحق تام **بالنقيضة** التي ينص معناها على ان **التغير يحدث دائما** في الواقع **بوثبات ؛ وعلى أي حال ، فان سلسلة من الوثبات الصغيرة والمتعاقبة بسرعة تندمج بالنسبة الينا في عملية « متواصلة » واحدة .**

ومن الطبيعي ان نظرية صحيحة للمعرفة يجب أن تحقق المصالحة بين هذه **الموضوعة** وهذه **النقيضة** في **تركيب** واحد ولا يمكننا ان ندرس هنا كيف يمكن تحقيق المصالحة بينهما في مجال « **الاشياء البسيطة** » ، لان ذلك سوف يأخذنا بعيدا جدا* انه يكفينا عند هذه النقطة ان نعرف ونتذكر انه في « **الاشياء المركبة** »

---

* **لا بد أن نلاحظ على اي حال ان علينا ان نأخذ هنا بعين الاعتبار ، قبل كل شيء ، الطبيعة الجدلية للحركة .**

التي غالبا ما ينبغي لنا التعامل معها في دراسة الطبيعة والتاريخ ، **تفترض الوثبات تغيرا متواصلا ، بينما التغير المتواصل يؤدي الى الوثبات بصورة محتومة .** هذان **مظهران** ضروريان لنفس **العملية** الواحدة فلنخذف احدهما ذهنيا فاذا العملية كلها تصبح مستحيلة وغير قابلة للتفكير*

## ٤

يقول فيلسوف أفسس الغامض (٢٨٨) « **الاشياء جميعا تجري** ولا شيء ثابت الاشياء جميعا تجري ، ولا شيء ثابت ، **كما ردد على الدوام** انصار الطريقة الجدلية لكنه اذا كانت جميع الاشياء تجري وجميع الاشياء تتغير واذا كانت الظواهر تتحول باستمرار بعضها الى البعض الآخر ، فانه ليس من اليسير دائما تعيين **الحدود الفاصلة** بين الظاهرة الواحدة والظاهرة الاخرى

يقـول انجلـز

« من أجل أغراضنا اليومية نعرف ونستطيع أن نقول ، مثلا ، ما اذا كان حيوان ما حيا أم لا لكننا اذا دققنا في الامر وجدنا أن هذه مسألة بالغة التعقيد في كثير من الحالات وهو ما يعرفه الحقوقيون على خير وجـه **لقد** عصروا ادمغتهـم عبثا بغرض اكتشاف حد عقلاني يكون قتل طفل في احشاء أمه جريمة ما وراءه ولا يقل عن ذلك استحالة تحديد لحظة الوفاة بصورة مطلقة ، لان علم الغريزة يثبت أن الموت ليس ظاهرة آنيـة ، مؤقتة بل عملية طويلة الامد جدا

وبالطريقة نفسها فان كل كائن هو في كل لحظة نفسه وليس بنفسه فهو في كل لحظة يتمثل مواد من الخارج ، ويتخلص من مواد أخرى ؛ وفي كل لحظة تموت بعض الخلايا في جسده وتبني خلايا اخرى نفسها من جديد ؛ وخلال فترة من الزمن تطول او تقصر تكون مادة جسده قد تجددت كليا ، واستعيض عنها بذرات أخرى من المادة ، بحيث أن كل كائن عضوي هو نفسه دائما ، ومع ذلك فهو شيء آخر غير نفسه (٢٨٩)

---

* بين هيغل قبل زمن طويل تهافت الحجج الجارية عن موضوع عدم قيام الطبيعة بالوثبات ، فهـو يقول « الا اننا بينا ، عموما ، أن التبدلات في الوجود لا تقتصر على الانتقال من مقدار الى آخر ، بل هي كذلك الانتقال من الكم الى النوع، والعكس بالعكس » ( **المنطق ، مؤلفات هيغل**، المجلد الثالث، ص ٤٣٤ ) [ الفقرة واردة بالالمانيـة في النص الروسي ] ويتوهـم السـيد ب ستروفـه أن الاستشهادات التي أساء انتقاءها من مؤلفين مختلفين تدحض فكرة هيغل هذه وعلى أي حال ، فحقيقة الامر انها لا تتضمن أقل تلميح الى دحضها انظر من أجل عرض أكثر تفصيلا لنظرية هيغل من الوثبات كتيبنـا **مدافع جديد عن الحكم المطلق او مصائب السيد تيخوميروف .**

ان السيد ب. ستروفه ، الذي هو من دون ريب مطلع على هذه الاعتبارات ، يحاول ان ينسب الى الماركسيين الاورثوذكسيين اشياء لم يفكروا او يريدوا قط ان ينطقوا بها هو يلومهم لتوقعهم العثور على هوة حيث لا يمكن أن يوجد الا تقاطع طرق يكاد ان يكون غير ملموس اما حديثهم عن الثورة الاجتماعية هذه الثورة التي تعني خطا فاصلا جدا – وفي واقع الامر مستحيلا – بين نظامين اجتماعيين ، النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي ، فهو بصفه على اعتباره يفتقر الى اي أساس نظري معقـول

ولا يمكن لمثل هذه الحجج ان تربك الا الماركسي الذي لم يكون بعـد نظرة متماسكة عن العالم اما الماركسي الذي فكر مليا في الموضوعات الاساسية لنظريته فيعرف ان التطور في حقيقة الامر لا يحدث بالضبط كما يحب « النقاد ان يجري بالضبط فاذا رأيت أن التسخين يحول الجليد الى ماء والماء الى بخار فلا بد لي اذن من القيام بجهد فائق كي اخفق في ملاحظة **الوثبات** التي هيأها **التغير المتدرج** هنا ومن الطبيعي أن مثل هذه الوثبات لا تحدث في كل مكان لكنه حيث لا تحدث، او حيث مانراه على اعتباره وثبة يتألف في حقيقة الامر من سلسلة من الانتقالات المتدرجة لكن غير الملموسة – حتى في مثل هذه الحالات نملك في الاغلب كل امكانية للتمييز بين الظواهر بقدر من الدقة الكافية من أجل الغرض الذي نلاحقه وهكذا فعلى الرغم من أن الموت **عمليـة** تجري بقدر من البطء اعظم او أقل وهي ليست **فعلا** مفاجئا فان في مقدورنا في الغالبيـة الكبرى من الحالات أن نميز بـين الحي والميت بحيث اذا قطع ايفان رأس سيميون بضربة فأس استطعنا أن نقول دون خوف من الوقوع في الخطل أن فصـل رأس سيميون عن جسده فعل حرمه مـن الحياة وينطبق الشيء نفســه على حقل الظواهر الاجتماعية – السياسيـة فالتطور الاجتماعي لا يحول في حال من الاحوال دون **الثورات** الاجتماعية التي هي **لحظات** في ذلك التطور ان مجتمعا جديدا يبرعم في أحشاء المجتمـع القديم لكن حين تأتي ساعة المخاض تتوقف مجرى التطور البطيء على حين غرة ويكف النظام القديم عن احتواء النظام الجديد في احشائه لهذا السبب البسيط ، الا وهو انه **يزول جنبا الى جنب مع هذا الاخير** هذا ما نسميه **الثورة الاجتماعية .** واذا اراد السيد ب ستروفه أن يحصل على فكرة تصويرية عن الثورة الاجتماعية، فاننا نحيله مرة أخرى الى الجيشان الاجتماعي الهائل الذي وضع حدا في فرنسا لوجود ذلك النظام القديم الذي تطورت الطبقة الثالثة طويلا ضمنه ويرى السيد ستروفه انـه ليس مقدرا للنظام الرأسمالي أن يقضي بمثل هـذا الموت السريـع والمعتنف ونحن ندعه يفكر بالضبط على هواه لكننا نطلب منه أن يقدم دفاعا عن ذلك الرأي ، شيئا أكثر اقناعا من اعتباراته الخرقاء والواهنة بشأن « **التواصل**».

وفيما لا تصمد حجج « ناقدنا » للنقد على صعيد المنطق ، فان لها أهميتها من وجهة النظر **السيكولوجية** . ومن هذه الزاوية فان للمقارنة مع بعض الحجج المستخدمة من قبل الهر برنشتاين قدرا من الاهمية

يقول انجلز في كتابه **لودفيغ فيورباخ** ان العالم كلية من العمليات حيث الاشياء وصورها في الذهن ، يعني **الافكار** ، عرضة لتغير متصل ولقد وجد الهر برنشتاين من الضرورة بمكان أن يخضع موضوعة انجلز هذه « **للنقد** » ، معلنا أنه يعترف « **بالطبع** » بأن هذه الموضوعة صحيحة « مبدئيا لكنه ينتابه الشك بخصوص درجة صحة الفكرة الكامنة وراءها وكيفية فهم **التغير المتصل** وكيما يشرح الهر برنشتاين الاشياء التي تبدو مشكوكا فيها في نظره يورد المثال التالي وفقا لعلماء الفريزة ، فان مركبات العضوية الانسانية تتعرض لتغير متصل وخلال حقبة زمنية لا تتجاوز العشر سنوات تتم في هذه العضوية استعاضة كاملة عن مجموع مادتها وبالتالي يمكن القول ان أي شخص في أية دقيقة معينة لا يكون بالضبط ما كان عليه قبل دقيقة واحدة ، وهو يتعرض في نهاية فترة معينة من الزمن لتغير مادي كامل وعلى أي حال فانه يظل بالرغم من ذلك كله نفس **الشخص** مثلما كان من قبل وصحيح انه يتقدم في السن ويتغير انه يتطور لكن هذا التطور تحدده خصائص عضويته وبالرغم من امكانية ابطائه أو التعجيل فيه فانه لا يمكن أن يؤول الى تحويل انسان معين الى مخلوق من نوع آخر وعلى هذا الاساس ، فقد اعتقد الهر برنشتاين أن موضوعة انجلز المذكورة اعلاه يجب أن تعدل كما يلي ان العالم كلية من الاشياء الجاهزة والعمليات واننا لنشاهد فيه عمليات يتطلب اكتمالها أقل من ثانية واحدة ، لكننا نشاهد فيه كذلك عمليات لا بد لها من قرون ، بل من الوف السنوات وهي يمكن تسميتها **أزلية** من وجهة النظر العملية وفي الاحايين لا يكون في وسعنا فحسب بل يكون من الضروري لنا أن نتجرد عن بعض الصفات النوعية في الاشياء بهدف بعض أغراض البحث أو العرض ومهما يكن من أمر فان الصيغ الجدلية كما يعتقد الهر برنشتاين تحض على مثل هذا التجريد حتى حين يكون غير جائز البتة أو يكون جائزا ضمن حدود معينة فقط وههنا يكمن خطر الصيغ الجدلية

ولا نود أن نعالج هنا مسألة حتى أية درجة يعدل انجلز **بالتعديل** الذي ادخله الهر برنشتاين كما لن نسهب هنا بشأن سذاجة ملحوظات الهر برنشتاين النقدية هذه السذاجة المدهشة والقمينة بتلميذة صغيرة ان الصفة المميزة الرئيسية فيه من حيث هو ناقد للاسس الفلسفية والسوسيولوجية للماركسية تستقيم على العموم في عدم فهمه الموضوع الذي ينقده* الا اننا غير معنيين على

---

*** بخصوص مآثره في حقل « النقد » انظر مقالتنا « النفاق ضد كانط او ارادة الهر برنشتاين ووصيته » في العددين ٢ ـ ٣ من زاريا**

الاطلاق بهذا الشأن هنا ، بل كل ما نبتغيه هو العثور على معنى التوبيخ الذي يوجهه الهر برنشتاين هنا الى الجدليين عموما والى الماركسيين خصوصا وباختصار فهم موضع اللوم لانهم لم يمنحوا الصفات النوعية في الاشياء ما يكفي من الاعتبار واما نسجل ذلك فلنذكر بما يأخذه السيد ب. ستروفه على الماركسيين الاورثوذكسيين

فعنده ان هؤلاء الناس يركزون قدرا كبيرا من الاهتمام على الصفات النوعية للمفهومين المتعارضين **للرأسمالية** و **الاشتراكية** ويخونون الجدلية اذ يغيب عن نظرهم التطور المتدرج والمتواصل لاشكال الحياة الاجتماعية*

وهكذا فان امامنا **لومين على طرفي نقيض** فوفقا للهر برنشتاين **التطور** هو الذي يمنع الماركسيين الاورثوذكسيين من رؤية **الاشياء** الجاهزة ؛ ووفقا للسيد ستروفه ، هم لا يرون **التطور** من جراء **مفاهيمهم** المحددة بصورة حادة ان الهر برنشتاين يعتقد انهم مفرطو الاخلاص للجدلية ، اما السيد ستروفه فيرى انهم لا يخلصون لها بما فيه الكفاية

وكلا هذان اللومان صادران عن نفس المصدر الواحد — فكرة مغلوطة عن الجدلية

فلسبب ما يعتقد الهر برنشتاين ان الجدلية تجهل ما سماه هيغل **حقوق الذهن** ، يعني لا تعنى بتحديد دقيق للافكار ولسبب ما يتوهم السيد ستروفه ان اخذ « حقوق الذهن بعين الاعتبار معناه خيانة الجدلية

ومهما يكن من شيء ، فان الصفة المميزة للناس القادرين على التفكير الجدلي هي انهم في حقيقة الامر خالصون من هاتين النقيصتين على حد سواء فهم يعرفون ان تطور اي « شيء يقود الى **انكاره** والى انتقاله الى « **شيء** » آخر بيد انهم يعرفون كذلك على خير وجه ان هذه العملية للانتقال من الشيء الواحد الى الشيء الآخر لا يمكن لنا ان نفهمها الا حين نتعلم ان نميز بينهما دون ان نسمح لافكارنا عنها بالانصهار في كل واحد غير متميز وحقيقة الامر ان المسألة هي مسألة **نشوء اشياء متنوعة لا التغيير المتواصل في نفس الشيء الواحد**

وكيما نعبر عن الموضوع بتعابير هيغل ، فانه يمكن القول ان الذي يبقى مخلصا للطريقة الجدلية انما هو ذلك الذي يكون في وسعه ان يمنح **العقل** والذهن على حد سواء ما هو حق لهما فذلك الذي ينسى حقوق « العقل يصبح **ميتافيزيائيا** ، وذلك الذي تغيب عن نظره حقوق « الذهن يقع في الشكية**

---

* **ارشيف** ، ص ٦٨٨

** انظر بهذا الخصوص موسوعة هيغل « الضخمة » الفقرة ٨١ وملحقها انظر كذلك **علم ظواهر الفكر** ، بامبرغ وفورزبورغ ، ١٨٠٧ ، ص : ١٣٤ وما يليها ولقد لاحظ هيغل بكل صواب ان « des Etwas ist die erste Negalion der Negalion » ( **المؤلفات** ، المجلد الثالث ، ص : ١١٤ ) .

ان كل من يتوهم ان انصار الطريقة الجدلية **يعرضون** عن حقوق الذهن »
انما يملك فهما عن الطبيعة الفعلية لهذه الطريقة ضئيلا بقدر ذلك الذي يرى في **الموقف الذي يراعي** تلك الحقوق خيانة للجدلية والحالة الاولى هي حالة الهر برنشتاين والحالة الثانية هي حالة السيد ستروفه

وعلى اي حال ، فما اهمية ذلك كله بالنسبة الى السيدين ستروفه وبرنشتاين؟ يكون من قبيل الخطأ الفادح ان نتخيل ان ما يسمى نقد الماركسية يسعى الى تلبية بعض الحاجات النظرية الجدية ان النقاد جوهريا لا يعنون بالنظرية الا قليلا جدا وما يريدونه هو التغلب على اتجاه عملي معين أو اضعافه على اقل تعديل ــ **الاتجاه الثوري** عند البروليتاريا الواعية طبقيا ان « النقد » بالنسبة اليهم سلاح في النضال الفكري ضد هذا الاتجاه وليس لحججهم قيمة عندهم الا بقدر ما تساعد على الاساءة الى مفهوم ذميم جداً بالنسبة اليهم ــ مفهوم **الثورة الاجتماعية** . وهذا الهدف العملي يبرر كل الوسائل بما فيها الوسائل النظرية كائنة ما كانت ، واذا ما قدم « ناقد ضد الماركسيين الاورثوذكسيين تهمة لا تتفق البتة مع تهمة قدمها ضدهم في الوقت نفسه « ناقد آخر فليس ثمة **تناقض** هنا ، بل مجرد **تنوع في الوحدة** ان كلا « الناقدين » متفقان كل الاتفاق فيما بينهما على ان قرطاجة ، يعني مفهوم **الثورة الاجتماعية** ، يجب أن تدمر ، وهو ما يجعلهما **زميلين في التفكير** ويخلق التعاطف المتبادل ما بينهما وأما **الذريعة** الواجب انتقاؤها من اجل دمار قرطاجة هذه فهذا ما يقرره كل واحد منهما على طريقته الخاصة دون ان يأبه مطلقا بما اذا كانت الذريعة التي اختارها شخصيا تجرد من كل معنى الذريعة التي اختارها حليفه وان لدى « النقاد » مبررا جيدا كي يتمردوا ضد كل ما هو مصحف

وكما رأينا فان لنظرية التطور التي يدافع عنها السيد ستروفه هذا العيب الاساسي على صعيد النظرية ، الا وهو انها **لا تدع مجالا الا للتغير في الاشياء القائمة من قبل من دون استهلال أشياء جديدة** . غير ان هذا عيبا يدير نخوه عينا عمياء ، عن طيبة خاطر السيد ب. ستروفه نفسه وكل البورجوازية الكبيرة والصغيرة المثقفة ونصف المثقفة ، التي تبغي التغلب بمساعدة « السلاح الفكري » على الطموحات الاجتماعية الثورية للبروليتاريا ان غريزة الطبقة المحافظة ، التي تسخر دائما من ايديولوجيي الطبقات العليا ، تسخر الآن من منظري المعرفة » البورجوازيين فهي تجعلهم يفخرون باخطائهم النظرية العديدة والصارخة ويتباهون بها مثلما يتباهى الطاووس بذيله الرائع وينظرون باحتقار الى اولئك الذين تفادوا مثل هذه الاخطاء .

٥

لعل القارىء يقول لنا أنه لايمكن الحديث **مطلقا** عن انطواء السيبدين ب. ستروفه وإ برنشتاين على الغريزة **المحافظــة** ، لانهما يؤيدان بحزم **الاصلاح الاجتماعي** كائنا ما كان موقفهما **من الثورة الاجتماعية** . والمشكلة هي أن الدفاع الحازم عن الاصلاح الاجتماعي يقوم اليوم جنبا الى جنب مع **الغريزة المحافظة للبورجوازية**
واليكم على سبيل المثال ما لدى الهر فرنر سومبارت من أقوال في هذا الشأن:

« ان الفكرة التي اجتذبت خـلال النصف الثاني من القرن الراهن أروع العقول اقصد امكانية قيام الانتاج الاجتماعي في المستقبل القريب بدون صاحب العمل الرأسمالي- **هذه الفكرة لا تحيا اليوم الا في ممثلي جيل مائت من اصحاب الرؤى الاجتماعيين وااننا لنعرف اليوم ان صاحب العمل لا يمكن ان يصبح نافلا الا من خلال عملية عضوية بطيئة ... فثمة مجال للعمل الشديد والواسع من جانب الرأسمالية طوال قرون قادمة وانه ليسعدنا ان نرحب بمنظورات قيام اناس على رأس عملنا الاقتصادي** لسنوات عديدة قادمة يرشدون اليوم ايضا الحياة **الاجتماعية** أصحاب الاعمال البارعين والتجار **الامبراطوريين ، ومدراء الشركات المساهمة الكبرى وفضلا عن ذلك ـ وبقدر لا يقـل تقريبا أهمية عن ذلك ـ قادة دولتنا والاعمال الحضرية والتعاونية عندنا*** »

ان منظور قيام أصحاب الاعمال البارعين ومدراء الشركات المساهمة الكبرى والتجار الامبراطوريين ومن شابههم على رأس التقدم الاقتصادي لا ينفصل مطلقا عن منظور قيام هـذه الاخوية الفاضلة « **على رأس** » **مستثمري العمـل المأجور** ان الرجل الذي يسعـده الترحيب بالمنظور الواحد لن يقـل عن ذلك سعادة بالترحيب بالمنظور الآخر وان مثل هذا الرجل يناصر من دون ادنى ريب موقفه البورجوازية التي يعز مصالحها بهذا القدر الكبير ان غريزة حفظ البقاء تتحدث بفمه ، ومع ذلك فهو مدافع متحمس عن « **الاشتراكية** » .
وانـه ليؤكـد لنـا

« بيد ان هـذا لا يعني **مطلقا** ان المثل العليا الاشتراكية يجب ان تستسلم للمجال العملاق لنشاطات الرأسمالية الراهنـة **العكس بالاحرى ؛ انهـا لا تحصل على امكانيـة التحقق الا على الطريق الرأسمالية** وهذا صحيح في حالتين اذا اعتبرنا كمثـل أعلـى اشتراكي التدبير المنهج للانتاج وللقوى المطلقة العقال للتداول التجاري بمساعدة اتحاد للكارتلات ، وايضا حين نضع في المقدمة الدفاع عن مصالح العمل ضد مصالح الملكيـة وان المثل الاعلى الاخير يتحقق من خلال التحول البطيء للنظام الاقتصادي السائد ، وهـذا

---

* **على وجه التاكيد ! من نظرية وتاريخ الحركة التجارية** . مترجم عن الالمانية ومنشور كملحق للترجمة الروسية لكتاب و كولمان **الحركة النقابيـة** ، سان بطرسبورغ ، ١٩٠١ ، ص : ٩٥ ـ ٩٦ .

**ما يقصده تشريع المصانع ، وضمان العمال من قبل الدولة ، وعلى العموم جميع الاصلاحات في التشريع والادارة التي تستعيض عن التضامن الخاص البدئي بشأن استئجار العمال بعلاقة مؤسسة على القانون العام* »**

ما المقصود من مصالح الملكية يعني مصالح الملكية الراسمالية ، ملكية اولئك التجار واصحاب الاسهم واصحاب الاعمال الذين تنبأ لهم الهر فرنر سومبارت في سرور بالغ بسيادة طويلة جدا ؟ انها تعني مصالح استثمار العمل المأجور وان الدفاع عن مصالح العمل المأجور ضد مصالح الملكية معناه تخفيض مستوى استثمار العامل من قبل الراسماليين ويقوم السؤال هل انخفض هذا المستوى من جراء الاصلاحات المدخلة على العلاقة بين العمل والراسمال وهي الاصلاحات التي ما اكثر ما قرعها في آذاننا انصار نظرية الابطال المتدرج للراسمالية ؟ كلا لم تكن تلك هي الحال حتى وقتنا الراهن ان الامر على النقيض من ذلك اذ نحن نعرف جيدا ان **النصيب النسبي** للطبقة العاملة في الدخل الاجتماعي **انخفض** في جميع البلدان الراسمالية المتقدمة بالرغم من جميع تلك الاصلاحات بيد ان ذلك معناه **مستوى اعلى لاستغلال الطبقة العاملة وزيادة في تبعيتها حيال الراسماليين .** وبنتيجة ذلك فان الاصلاحات آنفة الذكر لم تحقق اية تبدلات **ملموسة** في علاقات الانتاج الراسمالية ولا تحد في حال من الاحوال من **الحقوق الاساسية للملكية الرأسمالية .** واذا كانت كل الاشتراكية الممكنة في أيامنا الحاضرة ترتد الى مثل هذه الاصلاحات ، فلا عجب اذن في أن « المثل العليا الاشتراكية » تتحقق على أفضل وجه على أساس **رأسمالي** . ان البورجوازية الصناعية المتقدمة في البلدان الراسمالية قد ادركت منذ زمن طويل ان تحقيق **مثل هذه** « المثل العليا » ، **وهو ابعد ما يكون عن الحاق الضرر بها ، يوفر لها فائدة عميمة** وهذا هو السبب في انها على استعداد الآن بعدما عارضت بكل حزم في الماضي تدخل الدولة في موقف العمل حيال الراسمال كما عارضت النقابات العمالية لان تطالب بمثل هذا التدخل ولان تساعد مثل **هذه** النقابات على **الظهور** لقد ادركت ان بيع العمل بالتجزئة في الورشة الالية الضخمة سخف وعبث** » على حد تعبير أحد الدعاة البورجوازيين الكبار للتريديونيونية وهذا هو السبب في ان الكتاب والعلماء البورجوازيين خرجوا دعاة راسخين لمثل هذا النوع من الاشتراكية***

---

* **المصدر نفسه ، ص ٩٦ التشديد من سومبارت**

** بول بورو **عقد العمل ودور النقابات المهنية** ، باريس ١٩٠٢ ص ٢٥٧

*** **وعلى أي حال ، فيجب ان نلاحظ ان موقف الراي العام البورجوازي في بريطانيا حيال النقابات اخذ يتعرض مؤخرا لتبدل حاد ان كل عدد من الصداقة(٢٩٠) يتضمن اليوم عمليا ، خبرا جديدا عن مجرى « الحرب » ضد النقابات ويبدو ان البورجوازية البريطانية تعود الى الفكرة القائلة**

ان الهر فرنر سومبارت ، من حيث هو بورجوازي متعلم يعرف الاشياء الجيدة حين تقع عليها عيناه تهزه بلاغة فائقة حين يتحدث عن **الاشتراكية ... على اساس رأسمالي** لكن لاحظ ايها القارىء العزيز ان هــذا النوع من الاشتراكية هو ذلك « **الاصلاح الاجتماعي** » بالذات الذي قامت له دعاية كبيرة والذي يوصي به باصرار شديد ويصفه بحذق بالغ السادة أ برنشتاين و ب. ستروفه ومن لف لفهما ولن نقول ان « المثل العليا الاشتراكية للهر سومبارت تتفق كل الاتفاق مع خطط نقادنا للاصلاح الاجتماعي بل لقد تختلف في بعض الامور بيد اننا نستطيع ان نقول بكل ثقــة ان « اشتراكية » الهر سومبارت لا تتميز من «الاصلاح الاجتماعي» للسيد ب. ستروفه اكثر مما يتميز من بعضهما بعضا نوعان من نفس الجنس الواحد. **هذه نغمة متغيرة على نفس اللحن الواحد** . وهذا هو السبب في أن السيد ب. ستروفه يمجد الهر ف سومبارت ويرفعه الى السماء ، فيما يضع هذا الاخير امالا كبارا في « الماركسية الجديدة للسيد ب. ستروفه* ان الطيور على اشكالها تقع وهذان الطائران يسترشدان بنفس الغريزة الطبقية

لقد اعطى السيد بردياييف في كتابه الشهير تعبيرا ممتازا عن ذلك المفهوم الخاص بالاصلاح التدريجي للمجتمع الرأسمالي ، وهو المفهوم الذي يتميز به « النقاد » على طريقة ب. ستروفه انه يقول

**« ان التصحيحات التي يجريها التطور الراسمالي نفسه سوف ترتق ثغرات المجتمع القائم حتى يصبح القماش الاجتماعي كله جديداً كل الجدة** ** **»**

انه ليكون من الصعب ان تطرح الامور بصورة اروع والمشكلة هي أن اعطاء تعبير رائع لفكرة ما لا يعني حذف عناصر الخطأ فيها ان ظهور « قماش اجتماعي » **جديد** بنتيجة ترقيع تام للقماش **القديم** هو **الحالة الوحيدة ، المعترف بها من «النقاد»، لانتقال الكمية الى النوعيــة** . بيد أن هــذه الحالــة مشكوك فيها اذا انا رفوت **الجوارب** » فهي سوف تظل جوارب ولن تتحول الى **قفازات** ، وذلك حتى في الحالة القصوى حيث يتعرض القماش باكمله للتجديد بنسبة مائة في المائة وينطبق الامر نفسه على ترقيع الثقوب في المجتمع الرأسمالي لقد انشىء الاسلوب الراسمالي في الانتاج بفضل **القضاء** على نظام النقابات الحرفية الاقطاعي وليس كنتيجة لاي **ترقيع** لهذا النظام وانه لمن العصي كليا على الفهم كيف ولماذا يمكن لترقيع «القماش»

---

**ان النقابات تعوق منافستها للبلدان الاخرى في السوق العالمية واذا لم تتوقف هذه « الحرب ضد النقابات عاجلا فان « اشتراكيــة » البورجوازية البريطانية سوف يطويهــا النسيان بعدما بينت انهــا لا تستطيع ، بالرغم من كل سلامتها ، ان تعيش جنبا الى جنب مع الرأسمالية الا حتى حد معين**

* انظــر الطبعــة الثالثــة لكتابه **Sozialismus und soziale Bewegung in XIX Zehrhundert**

** **الذاتيــة والفرديــة ، ص ٢٠٠**

الراسمالي ويجب عليه ( حتى عبر التبدل الابطأ ) ان يؤدي الى القضاء على **علاقات الانتاج الراسمالية والاستعاضة عنها بعلاقات انتاج اشتراكية** ان التعبير المجازي الذي استخدمه السيد بردياييف لا يمكن الا ان يبرز بصورة اشد تهافت ذلك النوع من النظرية التطورية التي يدافع « النقاد » عنها ولقد رأينا من قبل أن هذه النظرية لا تستطيع ان تفسر **الا تغيرا** طرأ على « الاشياء القائمة من قبل ، وليس **نشوء** اشياء جديدة ونستطيع الآن ان نرى بكل بوضوح انها لا تستطيع ان تخدم كارشاد نظري **الا بالنسبة الى اولئك الذين لا تمضي « مثلهم العليا الاشتراكية» الى أبعد من الترقيع « المتواصل » للشقوق في المجتمع الراسمالي** • واما بالنسبة الى اولئك الذين يبغون خلق نظام اجتماعي جديد فان تلك النظرية لا معنى لها على الاطلاق انها نظرية **للاصلاح الاجتماعي** البورجوازي اخرجت في معارضة نظرية **الثورة الاجتماعية للبروليتاريا** •

ان الترقيع المتواصل للقديم والاعتقاد بصورة لا تقل عن ذلك « تواصلا» ان **القماش القديم** المرقع يتحول « بصورة متواصلة » الى شيء جديد كل الجدة معناه الايمان بصورة متواصلة بمعجزة تستخف صراحة «وبصورة متواصلة بجميع قوانين التفكير الانساني وان هذا **الايمان** ، الذي لا يعدو كونه على صعيد النظرية **رذيلة غير طبيعية** ، ينسب الآونة الى ما يسمى طوباوية الماركسيين الاورثوذكسيين ! يا لهم من نقاد

وفي واقع الامر ان الطوباويين هم منظرو **« الترقيع » لا الماركسيون** الاورثوذكسيون وعلى اي حال ، فان طوباوية مثل هؤلاء المنظرين هي ضرب خاص وجديد من الطوباوية حزب لم يسبق له وجود قط في تاريخ النظريات الاجتماعية. ان الايمان بالقوة الخلاقة التي يتحلى الترقيع بها تتواجد في سلام في اذهان النقاد مع رصانة تامة ومتأصلة ترضى بصورة عاقلة جدا بالشعور المبهج بأن الطوابع البريدية ـ كما يقول غليب اوسبنسكي في أحد مؤلفاته ـ سوف تصبح ارخص بما قيمته كوبيك كامل في حقبة مقبلة من التاريخ وليس هذا بكل شيء ان تلك الطوباوية امر لا يمكن التفكير فيه البتة بدون تلك الرصانة بالضبط مثلما لا يمكن التفكير « **بالقعر** » بدون « **القمة** » ، او التفكير بالقطب **الموجب** بدون القطب **السالب** • ان الاذهان » المرائية والرصينة لمنظري الترقيع لا تطيق اية وثبات اخرى باستثناء طوابع البريد الارخص في المستقبل البعيد كله وانهم ليطيعون دونما تحفظ على الاطلاقي صوت فكرهم في كل ما يتعلق بالنشاطات العملية لقد دخلوا عمليا ، الى ذلك العصر من الطوباوية **الواعية** التي يتعاظم رضاها عن ذاتها بقدر ما تتلاءم مطالبها بمزيد من الكمال والاتفاق مع مخطط الترقيع لكن بقدر ما يدركون رصانتهم بمزيد من الاعتزاز تزداد قناعتهم رسوخا بأنه مسموح لهم الانسياق مع **الآمال الكاذبة** لقد سمحوا لانفسهم راضين **بالايمان** بأن رقعا

تتراكب فوق رقع اخرى سوف تنتج « قماشا اجتماعيا جديدا وبان الطوابع البريدية الارخص سوف تؤذن ببداية العصر الذهبي ومهما يكن من أمر ، فان ايمان « النقاد لا يشبه في حال من الاحوال الايمان الرخيص والاعمى للفانين العاديين ، انه **مشرب كليا بالجحود** ، نظرا لان « النقاد » **يؤمنون** بما **اعلنوا** هم انفسهم انه **يتعذر الدفاع عنه نظريا** انه ايمان لا يقدر عليه الا الكانطيون ، هؤلاء الذين بينوا اولا لانفسهم وللاخرين انه لا تصمد للنقد حجة واحدة من الحجج المقدمة للبرهان على وجود الله ، ومن بعد اكتسبوا « ايمانا » مفاجئا بالله ان سيكولوجية مثل هؤلاء « المؤمنين » تذكر حتى درجة ما بسيكولوجية بودكوليسين بطل غوغول ، هذا الرجل الذي يعي جيدا ، في اعماق قلبه ، انه لا يملك ادنى رغبة في الزواج وانه لن يتخذ له زوجة قط ان نفوره من قيود الحياة الزوجية لن يخضع قط لامثال كوشكاريف وعلى أي حال فهذا لا يمنعه من القول حين تأخذ في التفكير ، حين تكون في ساعات فراغك ، تدرك انه حان الاوان للزواج بعد كل شيء ولم لا ؟ **انك تحيا** ، ومن ثم تأخذ في رؤية الامور في نور كئيب جدا في الحقيقة انك تبدأ تشعر بوخز الضمير(٢٩١) والفارق الوحيد هو ان بودكوليسين يفتقر الى تلك التربية النقدية التي يتصف بها الاصلاحيون من المدرسة الجديدة وان بودكوليسين ليصبح تحت تأثير كلماته الخاصة صاحب ذهنية زواجية على الاقل من وقت لآخر وبصورة مقتضبة ، في حين أن « نقادنا » لا يمضون في حال من الاحوال الى أبعد من الترقيع اذ لا تتخلى عنهم لحظة واحدة فكرة ان **تجديد القماش الاجتماعي طوباوية** واذا لم يكن « النقاد » يسخرون من القراء الذين لم يتباركوا بالنعمة « النقدية ، واذا كانوا يؤمنون حقا بما يحول ، حسب رأيهم بالذات دون الايمان فان ما لدينا اذن هو حالة بالغة الاهمية من « ازدواج الشعور »

يقول السيد ب. ستروفه

« ينطلق كل اشتراكي من الاشتراكية من حيث هي مثل اعلى سياسي ـ معنوي ، فالاشتراكية بالنسبة اليه فكرة ضابطة يخضع بمساعدتها الاحداث والافعال الفردية لتقدير وقياس سياسيين ـ اخلاقيين ولا يختلف الامر مع طبقة كاملة تعمل ، وقد نظمت في حزب على اعتبارها شخصا سياسيا ـ معنويا واحدا ان من واجب الحركة الاشتراكية الديموقراطية ، مثاليا ، ان تخضع نفسها لهدف نهائي ، والا تفككت ان الايمان بهدف نهائي هو ديانة الاشتراكية الديموقراطية ، وليست هذه الديانة « شأنا خاصا بل مصلحة حزبية اجتماعية بالغة الاهمية* »

---

* ارشيف ، ص ٦٩٨ ـ ٦٩٩

وان هذا ليقال مع الوعي النظري بأن الهدف النهائي طوباوية لا قل ما شئت فان مثل **هـذه « الديانة »** مستحيلة بدون ازدواج في الشعور بيد اننا نحن الاشتراكيين الديموقراطيين في كامل عقلنا ؛ اننا لا نعاني من أي « ازدواج في الشعور وليست بنا ادنى حاجة الى ديانة السيد ب. ستروفه اننا ممتنون له جدا من أجل **« فكرته الضابطة »** . بيد اننا لا نحتاج اليها هي الاخرى اننا نحدث عن هدفنا النهائي ليس لانه من قبيل **خيبة الامل البناءة** ، بل لاننا **على يقين راسخ من حتميـة تحقيقـه** . وبالنسبة الينا فان مثلا أعلى غير قابل للتحقيق بصورة واضحة ليس هو بالمثل الاعلى بل هو مجرد **ترهة لا** أخلاقية ان **حقيقة المستقبل هي مثلنا الاعلى** ، المثل الاعلى للاشتراكية الديموقراطية الثورية. أما انه سوف يتحقق ، فهذا امر مضمون بالنسبة الينا بفعل مجرى التطور الاجتماعي الراهن بأكمله ؛ وهذا هو السبب في أن ثقتنا بقيامه في المستقبل لا تنسب الى الدين في نظرنا أكثر مما تنتسب اليه ، ثقة « النقاد » ـ وهي ثقة نشاطرهم اياها ـ بأن السمس التي غربت اليوم لن تتخلف عن ألسروق غدا تلك مسألة معرفة معصومة أكثر او اقل وليست مسألة ايمان ديني أكثر او اقل رسوخا

## ٦

لكن ما الذي يجعل ناقدنا » على هذه القناعة الراسخة بأن **« هدفنا النهائي »** لا يمكن الا ان يكون موضوع **« ايمان » فقط** بالنسبة **الينا** ؟ ولماذا لا يسمح لنا بالحديث عنه الا بالنظر الى « حقنا الالهي » في قدر وافر من الطوباوية ؟ ان السبب في ذلك هو تخلينا عن **أرض الواقعية** عند الحديث عنـه

لكن ما هي الواقعية ؟ انها الماركسية المراجعة والمنقحة والمنقاة والمكملة من قبل السيد ب. ستروفه

> « ان الرأي الواقعي المعروض في هذه المقالة يقوم كذلك على أساس أفكار ماركس ، وبالخاصة على الموضوعة الاساسية للمادية التاريخية فيما يتعلق بالتكيف المتقدم باستمرار للقانون مع الاقتصاد ؛ وكذلك على الراي غير الواقعي الذي يعمل بالمفهوم النظري الزائف « للثورة الاجتماعية » ماركس ضد ماركس* »

لقد بينا في مقالتنا الاولى التي تعالج نقد « نقادنا مبلغ الضعف الذي يؤسف له والذي يتصف به فهم السيد ستروفه « للموضوعة الاساسية للمادية التاريخية بخصوص التبعية السببية بين القانون والاقتصاد وان كل من قرأ هذه المقالة بانتباه يدرك أن الرأي الواقعي لصاحبنا الناقد يقوم على سوء فهم

* المصدر نفسه ، ص ٦٩٠.

اساسي ، كما أن كل امرىء يدرك ذلك لا بد ان نفهم ما الذي يجب أن نتوقعه من مثل هذا النقد « الواقعي » (( **لهدفنا النهائي** )) بيد انه ليس ثمة ضرر في اخضاع هذا النقد أيضا لنقد مفصل ودقيق

نخطىء السيد ستروفه حين يسمي مذهب ماركس عن العلاقة بين الاقتصاد والقانون الموضوعة **الاساسية** للمادية التاريخية وحقيقة الامر انها **ليست سوى احدى الموضوعات الاساسية لتلك النظرية** • فلا بد ان يوضع جنبا الى جنب معها مذهب ماركس عن العلاقة بين الاقتصاد و**آراء** الناس **وعواطفهم** و**الاهداف** التي يتخذها الناس في تقدمهم التاريخي

لماذا تبدو بعض هذه الاهداف **طوباوية** في نظرنا ؟ وعلى العموم فيم يستقيم مقياس (( **الواقع** )) ؟ لنصغ الى ما لدى السيد ب. ستروفه من أقوال ؟ انه يقول

« **ان الحركة مظهر تاريخي** والاشتراكية تملك الواقعية دائما بقدر ماهي محتواة في حركة ناجمة عن النظام **الاقتصادي** الراهن ـ لا أكثر ولا أقل*

الاشتراكية محتواة في حركة ناجمة عن النظام الاقتصادي الراهن وهي ليست (( **واقعية** )) الا بقدر ما تكون محتواة في هذا النظام عظيم لكن كيف تكون الاشتراكية محتواة في تلك الحركة ؟ هذا ما يمكن فهمه باحدى طريقتين

١ ـ ان الاشتراكية محتواة فيها بقدر ما تشكل جزءا من آراء ومشاعر المساهمين في الحركة ؛ ٢ ـ هي محتواه فيها بقدر ما **ينجح** المساهمون فيها **في لحظة معينة في تحويل الواقع المحيط بهم بصورة تتفق مع آرائهم وعواطفهم** • واذا نحن قبلنا التفسير الاول وصلنا الى النتيجة بأن الاشتراكية « واقعية بقدر **ما تكون موضع طموح المساهمين في حركة** ناجمة عن النظام التاريخي الراهن يعني بقدر ما تكون (( **هدفهم النهائي** )) وهذه نتيجة منطقية على خير وجه ؛ سوى أنها تحرم نقادنا من أي شيء يسببه الحق في تسمية الهدف النهائي للاشتراكية الديموقراطية الراهنة **طوباوية** فمما لا ريب فيه أن طموحا الى ذلك الهدف يلون آراء وعواطف قسم كبير من أولئك الذين انضموا حاليا الى الحركة الناجمة الخ

وما هي النتيجة التي يقودنا اليها التفسير الثاني ؟ هذه النتيجة هي أن الاشتراكية واقعية بقدر ما يمكن تطبيقها في الوقت الراهن يعني في وقت ننخرط فيه، انا وانت ايها القارىء العزيز، في مساجلة بشأن **واقعيتها** ـ « لا أكثر ولا اقل وجميع الاشياء التي لا يمكن تنفيذها في تلك المرحلة يتضح أنها **طوباوية** عظيم ومهما يكن من أمر فلا بد لنا في هذه الحالة أن نرد الى **ميدان الطوباوية لا الهدف النهائي للاشتراكية الديموقراطية الراهنة فحسب ، بل كذلك جميع تلك الاهداف الخاصة بها التي لا يمكن تحقيقها بقواها الحاضرة** وهكذا يوسع مجال الطوباوية

---

* المصدر نفسه ، ص : ٦٦٨

بصورة عريضة ، فيما مجال الفعاليات « **الواقعية** » على النقيض من ذلك يضيق حتى درجة كبيرة وفيما عدا ذلك فان **أي** وجه اجتماعي يصبح بالنسبة الينا طوباويا اذا هو وضع نصب عينيه اي هدف آخر غير هدف أن يكون عديم المبالاة بشأن اية أهداف اخرى على الاطلاق فلا بد أن يكون اي هدف آخر بصورة مؤكدة ، **معينا للمستقبل** ؛ فأي هدف آخر **يفترض** ، بالضرورة.**الاستياء من الحاضر**، بحيث اذا اتخذ اي امرىء ذلك الهدف كانت تلك حقيقة تبين بكل وضوح أنه غير راض عن **الامور الجارية في الوقت الراهن بنتيجة الانتظام الحالي للقوى الاجتماعية** ؛ وكل هدف آخر ينطوي على الرغبة في تغيير هذا الانتظام في هذا الاتجاه أو ذاك ؛ وهكذا فكل هدف آخر يغادر حدود « **الواقعية** » هذه نتيجة منطقية تماما أيضا بيد أنها ليست النتيجة التي ينتهي اليها السيد ب. ستروفه أو زملاؤه من أصحاب الذهن النقدي فبالرغم من انضمامهم الى الراي عن الشرط الاساسي لواقع الاشتراكية الذي لا بد ان تترتب عليه تلك النتيجة بصورة لا مفر منها فهم لم يكملوا المحاكمة بل توقفوا في منتصف الطريق وهم يعترفون ، من حيث هي واقعية بذلك النمط من الاشتراكية التي تفتقر ، رغما عن استيائها من الاوضاع القائمة ، الى الشجاعة اللازمة كي تمضي قدما الى أبعد من رتق الشقوق في مطامحها الاصلاحية وهنا لا بد أن يتضح أن جميع المهمات التي يتطلب انجازها بالضرورة **القضاء على العلاقات الرأسمالية في الانتاج** هي **طوباوية** .

والآن وقد علمنا فيم يستقيم مقياس الواقعية التي نبحث عنها نجد انفسنا وجها لوجه أمام مسألة أخرى ابغض من المسألة الاولى ما اذا كان في الامكان التوفيق بين ذلك المقياس وبين نظرية ماركس **الحقيقية** ــ وليس المشوهة من قبل الناقد » ــ عن **أهداف تقدم الانسانية التاريخي** .

لا بد لنا ان نرد بالنفي عن هذا السؤال لقد قدم لنا السيد ب. ستروفه ، في مظهر معدل حتى درجة ما ذلك الالتباس شبه الواقعي للافكار التي تم التعبير عنها بحيوية بالغة في « **دستور الايمان** » (٢٩٢) سيىء الذكر والتي تتلخص بالفكرة المكررة على مفاتيح مختلفة ( لكن مع ادعاء العلم دائما والقائلة ان هدفنا النهائي لا نكف عن كونه طوباوية الا حين ــ وبصورة أدق الا **اذا** ــ توصلت الطبقة العاملة بأسرها في عملية **تطورها** المستقل ودون اي اسهام من جانب « **الجرثومة** » الثورية، الى القناعة بأن مصالحها تتطلب تحقيق ذلك الهدف بصورة فورية

ان هذه الخليطة من الافكار التي ضللت الكثيرين* في بلادنا يمكن أن تعتبر محاكاة ساخرة وخبيثة للمقدمة الشهيرة لكتاب **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** لولا أن اولئك الذين ينغمسون فيها لا يتخذون هيئة الرزانة الاصفى والاصدق

---

* راجع كتابنا **الملخص** من اجل هيئة تحرير **رابوتشيادييلو** [ **قضية العمال** ] جنيف ١٩٠٠. (٢٩٣) .

# ٧

ان خطيئتهم تصدر عن الفقرة التالية من تلك المقدمة

« لا ينقرض نظام اجتماعي قط قبل ان تكون سائر القوى المنتجة التي يتوفر لها مجال فيه قد تطورت لا كما ان علاقات الانتاج الجديدة والاعلى لا تظهر قط قبل ان تكون شروط وجودها المادية قد نضجت في احشاء المجتمع القديم وبالتالي فان الجنس البشري لا يضع ابدا نصب عينيه سوى تلك المهمات التي يسعه حلها مادمنا سنتبين دائما حين نمعن النظر في الامر ، ان المهمة نفسها لا تنشأ الا حين تكون الشروط المادية لحلها قد توفرت مسبقا او هي على الاقل في سبيل التكون (٢٩٨) » .

وهكذا فان الجنس البشري لا يضع نصب عينيه دائما الا تلك المهمات التي يستطيع حلها وبنتيجة ذلك ، فاذا هو لم يتخذ بعد اية مهمة خصوصية ــ مثلا القضاء التام على علاقات الانتاج الراسمالية ــ فمعنى ذلك أن مثل هذه المهمة لايمكن انجازها بعد وبنتيجة ذلك فلا يمكن ان يطمح الى تحقيق مهمات تتجاوز امكانات عصرنا الا امرؤ غادر ارض **الواقع** وانطلق نحو ميدان **الطوباوية** .

هكذا يفكر الكثيرون من « النقاد واذا ما هم استمدوا القوة من هذا الراي لا يجدون صعوبة كبيرة في التمييز بين العنصر «الواقعي» والعنصر «الطوباوي» في برنامج الاشتراكية الديموقراطية وانه لامر معروف لدى الجميع أن الطبقة العاملة هي التي تمثل اليوم المطامح التقدمية للجنس البشري الى تحويل العلاقات الاقتصادية فما هي اذن المهمات العملية التي انخرطت في انجازها في الوقت الراهن ؟ هذه المهمات هي يوم عمل اقصر ، وشروط صحية افضل في ورشة العمل، وتنظيم النقابات والجمعيات التعاونية ، وهكذا دواليك أما القضاء على علاقات الانتاج الراسمالية فلم تضعه البروليتاريا بعد في عداد المسائل **العملية** لليوم الراهن الامر الذي بين أن الشروط المادية المطلوبة من أجل انجاز تلك المهمة لم تنضج بعد

صحيح أن في الطبقة العاملة شريحة تعمل من اجل تشريك وسائل الانتاج وتوزيع المنتجات وقد منحت هذا الهدف الاولوية الاعلى في برنامجها ، وهي الشريحة المؤلفة من **الاشتراكيين الديموقراطيين** الذي يأملون في تحقيق القيادة على البروليتاريا **بمجموعها** وقد يتحقق هذا الهدف ذات يوم ، لكن حتى يحدث ذلك فان تشريك وسائل العمل وتوزيع المنتجات سوف يظل عنصرا **طوباويا** في البرنامج الاشتراكي الديموقراطي ان المهمات التي تتوفر **مسبقا** الوسائل من أجل تحقيقها هي وحدها المهمات الواقعية .

ان **الطبيعة الميتافيزيائية** هي السمة المميزة **لهـذه** السلسلة من القياسات فاولئك الذين ابتدعوها يفكرون على غرار جميع **الميتافيزيائيين** نعم نعم لا لا وكل ما عدا ذلك **فهو** من الشرير فعندهم أن **الشروط المادية** لتحقيق اية مهمة اجتماعية معينة **اما** موجودة **واما غير** موجودة **واما كلمات** ماركس بأن مثل هـذه السروط قد تكون **في سبيل التكون** فلا تترك فيهـم **ادنى انطبـاع** أو على الاقـل لا تساعدهم بأية طريقة كانت **في تحديد** اين تبدأ الاشتراكية **« الواقعية »** واين تبدأ الاشتراكية **الطوباوية**

ان تكوّن الشروط المادية من اجل انجاز **مهمـة** اجتماعية معينـة أمر لا يمكن تمييزه بصورة متواقتـة من قبل **كل ذلك** « **الجنس البشري** » الذي يتوجب عليـه انجاز تلك **المهمـة في** الوقت الواجب ان **هذا** « **الجنس البشري** » يتألف من شرائح وافراد يتسمون بدرجة متفاوتة من التطور ( الشرائح ) **أو** حتى بمواهب طبيعيـة متفاوتة الافراد ) وما **يفهمه** البعض من حيث **هو** ضرورة **تاريخية** قد لا يرتاب فيه البعض الآخر **مطلقا** ان اية جماعة من الناس **يسلكون** نفس الطريق الواحد لا بد أن تضم دائما اولئك الذين يتحلون **ببعد النظر ويرون الاشياء** من مسافة كبيرة واولئك الذين يتصفون بقصر البصر ولا يميزون تلك **الاشياء الا** حين تكون في متناول اليد لكن أيكون معنى ذلك أن أصحاب النظر **البعيد يجب أن يعتبروا** «طوباويين فيما أصحاب النظر القصير وحدهم يجب أن **يعتبروا** « واقعيين ؟ انه يبدو أن الامور لا يجوز أن تكون كذلك انه يبدو **ان اصحاب النظر البعيد** هم بالاحرى الذين يميزون الاتجاه بصورة افضل من الباقين بحيث **يكون حكمهم عليه** أقرب الى **الواقع** من حكم أصحاب النظر القصير وقد يصادف **اناس يريدون أن يأخذوا** على أصحاب النظر البعيد طرحهم المسألة قبل الاوان فيما يتعلق **بالامور التي لا** بد للجماعة برمتها أن تمر بها في وقت لاحق وعلى أي حال ، فأن **الحديث اولا** بصورة مبكرة جدا عن **شيء فعلي** لايعني بعد مغادرة **أرض الواقع ؛** وفيما **عدا ذلك** ، فكيف للمرء أن يحكم ما اذا كان **الاوان** قد حان أم لا من أجل طرح اية **مسألة معينة ؟** تصوروا انه بقـدر ما يتحدث أصحاب النظر البعيد **في** وقت ابكر مثلا عن **منزل يقوم على الطريق** يستطيع المسافرون أن يتوقعوا الحصول **فيه** على الراحة **التي يحتاجون** اليها فانهم سوف يقتربون من **هذا** البيت بصورة ابكر لان رؤيته سوف **تحملهم على** الاسراع في خطاهم في هذه الحال **لن يكون من المبكر جدا** بالنسبة الى **أصحاب** النظر البعيد **أن يتكلموا** ، هذا اذا كان المسافرون يقدرون بالطبع قيمة وقتهم

في الحقيقة أن دور اصحاب النظر البعيد **في هـذه الحال** سوف يشبه حتى درجة كبـيرة الدور الذي يلعبـه **الاشتراكيون الديموقراطيون في** التقدم الشـامل للطبقـة العاملـة .

« ان الشيوعيين يتميزون عن بقيــة احزاب العمال في نقطتين هما

ـ في مختلف النضالات القوميــة التي يخوض غمارها البروليتاريون في مختلف البلدان يُبرز الشيوعيون ويضعون في المقدمة المصالح المشتركة للبروليتاريا بأسرها بصورة مستقلــة عن كل جنسيــة

٢ ـ في مختلف مراحل التطور التي لا بد للنضال بين البروليتاريين والبورجوازيين من اجتيازها يمثل الشيوعيون دائما وفي كل مكان المصالح العامة للحركة بأسرها

فالشيوعيون هم من الناحية العملية الفريق الاحزم والاكثر تقدما من أحزاب الطبقة العاملــة في جميع البلدان ، الفريق الذي يدفع الى الامام سائر الفرق الاخرى وهم من الوجهة النظرية يمتازون على بقية البروليتاريين بادراك واضح لخطة سير الحركة البروليتارية وظروفها ونتائجهــا العامــة الاخيرة

يناضل الشيوعيون في سبيل بلوغ الاهداف المباشرة وتحقيق المصالح المؤقتة للطبقة العاملة الا انهم في الحركــة الحاليــة يدافعون في الوقت ذاته عن مستقبل الحركــة ويمثلون هــذا المستقبل* »

ان ما قاله ماركس وانجلز هنا عن **الشيوعيين** في الاربعينات ينطبق على أكمل وجه على الاشتراكيين الديموقراطيين في الوقت الراهن

انهم يقاتلون في سبيل بلوغ الاهداف الفورية للطبقة العاملة ، بيد أنهم يعنون في الوقت نفسه بمستقبل الحركة والعناية بمستقبل الطبقة العاملة معناها القتال في سبيل هدفها النهائي القتال الآن ـ اليوم وغدا ، وفي اليوم الذي بعده ، وفي كل دقيقــة ,واذا ما فهم مستقبل الحركة بصورةصائبة ـ وانه ليفهم بصورة صائبة من قبل اولئك الذين استطاعوا ان يفهموا مجرىالتطور الاقتصادي الراهن ـ فان الدفاع عن الهدف النهائي لا ينطــوي اذن على مثقال ذرة من الطوباوية ان الحديث عن الطوباوية في هذه الحال معناداعطاء الكلمات معنى اعتباطيــا تمامــا

فالهدف النهائي هنا لا يقل (( **واقعية** )) عن التطور الاقتصادي الحالي

ان الاشتراكية الديموقراطية الثورية تمثل في الممارسة القسم الاحزم والابعد نظرا دائما من البروليتاريا في جميع البلدان المتحضرة وهي بالنسبة الى بقيــة البروليتاريا ، على وجه التقريب مثل أصحاب **النظر البعيد** في مثالنا بالنسبة الى أصحابالنظرالقصير** انهم يرون **منذ الآن ما لا يراه بعد** غيرهم منالبروليتاريين، وحين يشرحون لهؤلاء الطريق الواجب اتباعها في المستقبل **يحققون فهما** لحركتهــم

---

* **بيان الحزب الشيوعي** ، جنيف ١٩٠٠ ، ص : ١٦ ـ ١٧ و ٣٧ (٢٩٥)

** مع هــذا الفارق الا وهو انه اذا كان اصحاب النظر البعيد يرون الاشياء القريبــة بصورة أسوا من رؤية اصحاب النظر القصير لها ، فان الاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين يفهمون عادة حتى مصالح العمال الفورية بصورة أفضل من اولئك الذين لا يعترفون « بالهدف النهائي » .

ويعجلون بها   أين يمكن للمرء   بحق السماء ، **ان يرى « طوباوية »** هنا ؟ كيف يمكن لهذا الا يكون **« واقعيا »** ؟

ان حقيقة أن الاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين قادرون على أن يشرحوا للبروليتاريا مستقبل حركتها الخاصة   **« هدفها النهائي »** ، تثبت أن الشروط المادية الضرورية لتحقيق ذلك الهدف هي منذ الآن في سبيل التكون وأن هذه العملية يستطيع تمييزها اولئك الذين يملكون البصر الاحد   **كذلك** هو الامر من وجهة نظر نظرية ماركس التاريخية   ومع ذلك فهم   نقادنا   هذه النظرية بطريقة بالغة السخف بحيث يرون أنه من قبيل الطوباوية القيام بأية محاولة من جانب أصحاب النظر البعيد لامعان النظر في هذه العملية وتحديد نتيجتها الاخيرة   أيها الرب القدير   كيف أخفق مثل هؤلاء السادة في رؤية ما هو واضح   (٢٩٦)

## ٨

لكن لعل   النقاد   على نمط ستروفه اخفقوا حتى الآن في ادراك الموضع الدقيق الذي ارتكبوا فيه   غلطة شنيعة   ؟ لنعالج لبعض الوقت أيضا أمر هؤلاء الواقعيين   الحصيفين   لسوف نتبع الحيلة التربوية البدائية ، لكن الاساسية تماما في بعض الاحيان ، التي استخدمها المربي الروسي الكبير ن ٠ غ   تشيرنيشفسكي والتي تستقيم في ارجاع الكلمات الى حروف ومقاطع   **م ـ أ   ما ؛ م ـ أ   ما ـ ماما** ، وهكذا دواليك

ان العلاقات الاقتصادية تقرر **آراء** البشر **وافعالهم** ٠ ومهما يكن من شيء ، فان البشر يدركون دائما طبيعة علاقاتهم الاقتصادية الخاصة ، كما أن آراءهم لا تتطور دائما بمثل السرعة التي تتطور بها علاقاتهم **الاقتصادية**   فالاغلب أن تتخلف **الآراء** وراء **الاقتصاد** حتى درجة أكبر أو أقل ، ولا تنسف **العلاقات الاقتصادية الجديدة الآراء القديمة** وتؤدي الى قيام **آراء جديدة** الا مع مرور الزمان وبصورة تدريجية فقط   فالسبب يظهر دائما قبل ظهور نتيجته   ونظرا لهذا الظرف الذي لا مراء فيه   فان الاشخاص أو جماعات الاشخاص الذين يتحلون بموهبة الرؤية يستطيعون أن يلعبوا دورا فعالا في تقدم الجنس البشري   فحين يدركون أهمية العلاقات الاقتصادية القائمة يفسرونها لاولئك الذين يكون بصرهم أقل حدة   وبذلك يؤثرون في آرائهم   ويؤثرون في أفعالهم أيضا من خلال هذه الآراء ، الامر الذي يؤدي الى مزيد من التطور في نظام اقتصادي معين*   ومهما يكن من شيء   فان الاشياء

* في الحقيقة أن العملية التاريخية الخاصة بالفهم والتغير في آراء الناس لا تقتصر على الفهم والتبدل في الآراء **الاقتصادية** وحدها   الا اننا بسطنا **الموضوع** لنجعل وصفه أشد حيوية .

جميعا تتحرك ، وليس شيء ثابتا ففهم ما يكمن خلف التغير يعني ادراك ما سوف تكون الحصيلة في المرحلة **الاخيرة** من التطور ، ولا يمكن ان يتحقق الفهم التام بوسيلة أخرى ، وهو ما عرفه البشر منذ أيام ارسطو وليس السعي الى تحديد المرحلة الاخيرة الحصيلة النهائية لعملية تطورية معينة بالامر المشروع تماما فحسب ، بل هو الزامي بالنسبة الى جميع الراغبين في تحقيق فهمه ولذا كان من واجب جميع الناس الراغبين في فهم العلاقات الاقتصادية في المجتمعات المتحضرة المعاصرة ان يستخدموا كل طاقاتهم الذهنية ليعلموا الى اين يمضي تطور هـذه العلاقات **وكيف سوف تنتهي** عملية تطورها فاذا كان هؤلاء الناس على ثقة من انها سوف تنتهي الى القضاء على **علاقات الانتاج الراسمالية والاستعاضة عنها بعلاقات انتاج اشتراكية،** واذا كانت تعاطفاتهم او مركزهم الطبقي تخولهم الاغتباط بهذه النتيجة فهم اذن **سوف يبينون ذلك للآخرين ويستحثونهم لاستخدام جميع الوسائل من أجل المساعدة في تحقيق هـذه النتيجة** التي سوف تصبح **الهدف النهائي** لجميع جهودهم واساس برنامجهم برمته واذا هم لم يكونوا على خطل في هذا المضمار واذا كان « مجرى الامور متجها حقا نحو هدفهم النهائي فان في مقدورهم تماما ان يقولوا اذن انهم يقفون على ارض الواقع الصلبة ، وانهم **ليسوا هم الطوباويين بل اولئك الذين يعتبرون هدفهم النهائي على أنـه طوباوي** .

ليس الهدف النهائي للاشتراكية الديموقراطية الثورية في عصرنا شيئا آخر سوى التعبير الواعي عن اتجـاه غير شعوري ملازم لتطور المجتمـع الراهن ان الاشتراكية الحالية التي يسير الاشتراكيون الديموقراطيون الثوريون تحت رايتهـا تملك الحق في أن تدعى الاشتراكية **العلمية**، لهذا السبب الوحيد الا وهو أنها حققت اخيرا تلك المهمة النظرية فائقة الاهمية التي عينها شيلنغ في زمانه للعلم الاجتماعي في كتابه **نظام المثالية المتسامية** ، هذا الكتاب بالغ الغنى في مضمونه الا وهي مهمـة شرح كيف أن نشاطات البشر التاريخية الواعية ( **« الحرة »** ) ، **وهي أبعد ما تكون عن نفي ما** يسمى **الضرورة التاريخية** ، تفترض هـذه الضرورة من حيث هي شرط أساسي لقد انطلق **الاشتراكيون الطوباويون** من هذا المبدأ المجرد او ذاك واعتمدوا عليه اما انصار **الاشتراكية العلمية فينطلقون** من وعي الضرورة التاريخية ويعتمدون عليه وان لكلا الفريقين هدفا نهائيا بيـد أن « الهدف النهائي للطوباويين يتصل بالواقع بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن اتصال الهدف النهائي لانصار الاشتراكية العلمية بهذا الواقع وهذا هو السبب في أن هوة تفصل بين الفريقين ، وفي أن أنصار الاشتراكية العلميـة يجدون من الصعوبة البالغـة أن يوافقوا على العناصر الطوباوية التي كثيرا ما تصادف بعد في برامج الاشتراكيين أصحاب النمط الاعرض » في التفكير انهم لا يطيقون الطوباويات ، ولذا سموا **عصبيين** او **متهبين**، لو أطلقت عليهم أسماء مداهنة اخرى

لا بد من فهم النظام الاقتصادي القائم اذا كان لا بد للمرء ان يؤثر في التقدم التاريخي وفهم النظام الاقتصادي القائم يعني ادراك عملية تطوره حتى وبما في ذلك **نتيجته الاخيرة** • واذا ما تم التأكيد على تلك النتيجة مرة فان هذه **النتيجة** تصبح بصورة حتمية (( **هدفنا النهائي** )) لدى أول محاولة لنا من اجل القيام **باسهام ايجابي** في التقدم التاريخي اطردوا الهدف النهائي من الباب ولسوف يدخل من جديد من النافذة ، هذا اذا لم تغلقوا جميع النوافذ بصورة محكمة بحيث تمنعون اية محاولة من اجل **فهم** عملية معينة من التطور الاجتماعي او اية محاولة **للعمل** بصورة تتفق مع الفهم الذي حصلتم عليه

أما أن يصبح « الهدف النهائي بالنسبة الى الاشتراكي طوباوية أكثر أو أقل تقوى انا على يقين راسخ من استحالة تحقيقها فهذا ما يتطلب أن اقنع نفسي اولا بأن **تطور** النظام الاقتصادي الراهن لن تكون له ، ولا يمكن أن تكون له في جوهره ، اية نتيجة اخيرة واذا ما تبين مرة ان هذه النتيجة مستحيلة فلا بد اذن من الاعتراف بأن سعي المرء الى تنظيم جميع نشاطاته بحيث يجعل تلك النتيجة اقرب يفتقر الى أي أساس نظري ان استحالة النتيجة الاخيرة **تجرد (( الهدف النهائي )) من أي أساس في الواقع** لكن ما هو المقصود من مثل هذا الاعتراف باستحالة النتيجة الاخيرة ؟ ان المقصود منه هو القناعة بأن **عملية تطور الرأسمالية سوف تستمر أبداً** ، يعني بكلام آخر ان **الرأسمالية باقية أبدا أو على الاقل حتى زمن غير محدود بحيث لا مجال حتى لمجرد التفكير في الغائها** • وهذا هو كما سوف تتبينون الايمان المألوف لدى الهر فرنر سومبارت الذي حمل الينا الخبر العظيم والسار بأن الاشتراكية لاتنفي الراسمالية ، يعني أن **تطور الاشتراكية نفسه لن يضع حدا للنمط الرأسمالي في الانتاج** • وتلك هي كذلك قناعة السيد ب. ستروفه و « النقاد الآخرين*

ولو ان مثل هذه القناعة نشأت في ذهن أحد الاشتراكيين فانه لا يتبقى أمامه في الحقيقة الا أن يضع جانبا (( **الهدف النهائي** )) لحزبه على اعتباره طوباوية تقية وأن يعترف **برتق الشقوق** من حيث هو النشاط الاجتماعي الوحيد الذي يقف على **أرض الواقع** • وعلى أي حال فان المعنى الوحيد لذلك لا يمكن ان يكون سوى أن الهدف الاخير بالنسبة الى الاشتراكي لن يصبح طوباوية الا عندما **يكف عن كونه اشتراكيا** •

---

* يؤكد لنا السيد بولغاكوف ما يلي « الشيء الوحيد الذي يتيح لنا تأكيد معطيات العلم هو أن التطور الاقتصادي الحالي يؤول الى الزوال التدريجي لاكثر اشكال استثمار الانسان للانسان قسوة ـظه » **الرأسمالية والزراعة** ، المجلد الثاني ص ٤٥٦

## ٩

ان السيد ب سروفه ستشعر نفسه أن اليقين بالقوة التي لا حدود لها عمليا لنمط الانتاج الرأسمالي و قابليته للتكيف هو **شرط أولي** أساسي لذلك الموقف الذي يوصي به خيال الهدف النهائي من حيث هو الموقف الوحيد اللائق برجل مفكر ولقد كان بب هذا اليقين فينا هو العرض الذي نتوخاه من نقد مفهوم **الثورة الاجتماعية** بمساعدة الاعتبارات المعرفية العميقة المعينة لاطلاعنا على التهافت التام لذلك المفهوم الزائف ,والملخصة على أفضل وجه في السؤال الشهير الذي يطرحه كوزما بروتكوف (٢٩٧) **أين هي بداية تلك النهاية التي تنتهي البداية بهـا ؟** ولقد انصرف ، **بهدف تهيئتنـا** لقبول ذلك اليقـين ، الى طمأنتنا بأن التناقضات الاجتماعية (( **تثلم** )) بصورة تدريجية وبأننا سوف نتبين ، اذا ما نظرنا الى الامور دون المستبقات التي بثتها فينا الماركسية الاورثوذكسية ، أن فضل القيمة المجسدة في المنتج الفائض وظيفة للرأسمال الاجتماعي بكامله* وحين يعطى مفهوم استثمار العامل من قبل الرأسمالي مثل هذه (( **النظرة الواقعية** )) يلتف بضباب بالغ الكثافة من النقد بحيث نكف كليا عن فهم السبب الذي يملي بالضرورة **الغاء** علاقات الانتاج الرأسمالية ولمصلحــة من — باستثناء الطوباويين و التلامذة و المذهبيين وما شابه — وعندئذ تتقرر بصورة اوتوماتية مسألة **((الهدف النهائي))** للاشتراكيين اننــا سوف نعامل هذا الهدف ، في أفضل الاحوال ، باستخفاف على اعتباره نوعا من الخيبة المهذبة **ان (( نقـد )) السيد ب . ستروفه غاص بالاخطاء والتناقضات** لكنه يملك الجدارة التي لا جدال فيها الا وهي **بقاؤه من أولــه الــى آخره أمينا (( لهدفه النهائي ))**

ان اولئك الذين ينضمون الى (( **النظرة الواقعية** )) للسيد ب ستروفه — وما اكثرهم في بلادنا — يتحدثون باستمرار عن النقد الذي لا يستطيعون بدونه أن يخطـوا خطوة واحـدة وذلك أن شيطانــه يجربهـم ليل نهــار لكن ما يبــدو غريبا جدا للوهلة الاولى هو أن النقد الذي ينصرف اليه « نقادنا يجعلهم عرضــة حتى درجة فائقــة **لادراك غير نقــدي على الاطلاق لنظريات الممثلين الاحدث** للاقتصاد البورجوازي ، بما فيهم ذلك المدعو بوهم — باويرك الذي هو باستيا عصرنا الحاضر وبقدرما ما يستخدم سلاح النقد بمزيد من الهمة تزداد **هوية الافكار** قوة واكتمالا بين النقاد الحثا الواحد والمدافعين المحترفين عن البورجوازية من الجانب

---

* لقد عبر عن هذه الفكرة الاخيرة في مقالة بعنوان « التناقض الاساسي في نظرية قيمة العمل » ، **جيزن** [ **الحياة** ] عدد شباط ١٩٠٠

الآخر ويتضح اذن أن شيطان « النقد » الذي جرب « النقاد » هو (( **بعبع** ))
**البورجوازية الحالية .**

وليس هذا غريبا الا لدى النظرة السريعة الاولى ، أما اذا تمعنا في الامر فانه يتبين أن الموضوع كله بسيط جدا ومفهوم جدا

ان رسالة نقادنا التاريخية تستقيم في تصحيح ماركس بحيث تفرغ نظريته من كل محتواها الثوري الاجتماعي ان ماركس الذي يتمتع اسمه بشعبية فائقة لدى البروليتاريا الثورية في جميع البلدان المتحضرة ماركس الذي دعا الطبقة العاملة لاسقاط النظام الاجتماعي الراهن **بالقوة** ، ماركس الذي كان ، على حد تعبير ليبكنخت الرائع ، ثوريا **بالعاطفة والمنطق على حد سواء** – ماركس **هذا** بفيض جدا الى بورجوازيتنا الصغيرة المثقفة التي يشكل النقاد ايديولوجييها فهذه البورجوازية تنفر من نتائجه المتطرفة وتروع لحميته الثورية ومهما يكن من شيء ، وكما هي الاوضاع اليوم ، فانه من العسير الاستغناء عن ماركس ان السلاح النقدي **الخاص به** أساسي في الصراع ضد المحافظين من جميع الالوان الرجعية والطوباويين من مختلف الاشكال نارودنية النزعة لذا كان لا بد من تخليص النظرية الماركسية من طبيعتها الثورية فماركس **الثوري** يجب أن يعارضه ماركس **الاصلاحي ،** ماركس (( **الواقعي** )) ان ما لدينا ههنا هو (( **ماركس ضد ماركس** )) وهكذا يندفع النقاد الى العمل ان جميع الموضوعات التي يمكن أن تخدم البروليتاريا كسلاح فكري في نضالها الثوري ضد البورجوازية تطرح الواحدة بعد الاخرى من نظرية ماركس الجدلية والمادية ونظرية التناقضات الاجتماعية من حيث هي حافز للتقدم الاجتماعي ؛ ونظرية القيمة عامة ونظرية فضل القيمة خاصة ؛ والثورة الاجتماعية ودكتاتورية البروليتاريا – ان جميع هذه الاجزاء المركبة الاساسية للاشتراكية العلمية الماركسية التي تفقد بدونها كل مضمونها الجوهري – ينادى بها **تفاصيل ثانوية** لا تقابل أوضاع العلم الراهن فهي مفرضة ، وطوباوية ، وبالتالي يجب اجتثاثها في مصلحة التطور غير المغلول للموضوعات الاساسية التي وضعها هذا المفكر ماركس ضد ماركس ان عمل النقد يتقدم بصورة متواصلة وانه ليخرج بصورة تدريجية من بوتقة مثل هذا النقد ماركس يكشف لنا بعدما برهن لنا بطريقة فذة على الضرورة التاريخية **لقيام نمط الانتاج الرأسمالي ،** عن تشكك فائق حيال كل ما يتصل بالاستعاضة عن الرأسمالية بالاشتراكية لقد عمل النقاد على تحويل ماركس **الثوري الى ماركس يكاد أن يكون محافظا ؛** ولقد تمت هذه الامور جميعا فيما يبدو بمساعدة موضوعاته وانه ليمكن القول ان مثل هذا التحول اختبره أرسطو وحده هذا الذي حوله المدرسيون في العصور الوسيطة من فيلسوف وثني الى ما يشبه أبا الكنيسة المسيحية ...

يقول ماركس

أصبحت الجدلية ، في مظهرها الصوفي ، زيا المانيا اذ كان يلوح أنها تمجد الاشياء القائمة أما في مظهرها العقلاني فهي فضيحة وفظاعة بالنسبة الى مملكة البورجوازية ومفكريها العقائدين ، لانها تتضمن في تفهمها الاشياء الراهنة والاعتراف بها فكرة انكارها المحتوم في الوقت ذاته ، فكرة دمارها الضروري ، ولانها تنظر الى كل شكل اجتماعي متطور تاريخيا في حركته المالمة ، وبالتالي تأخذ بعين الاعتبار طبيعة هذا الشكل الانتقالية ووجوده المؤقت على السواء ؛ ولانها لا تلتزم بأي شيء أو تخضع له ، فهي بحكم جوهرها نقدية وثورية معا* »

ولقد بقي ماركس لواقعي حتى آخر ايامه أمينا لروح **الجدلية** هذا وهذا الظرف هو الذي يستاء له جدا النقاد الذي يصححون » نظريته من زاوية « **الواقعية** » وهو تصحيح ادى الى نظرية **ترفض ، وهي تقدم « تفسيرا ايجابيا » للرأسمالية ، أن تفسر « انهيارها الحتمي »** وان تحللها في « **مظهرها العابر** » ومن هذه الزاوية فان **ماركس ، كما « صححه » « نقادنا » ، لم يحلل الا انماط الانتاج السابقة للرأسمالية والاشكال السياسية التي تطورت على أساسها**

وهكذا تشكل الماركسية الجديدة عندنا السلاح الاوثق بين يدي البورجوازية في صراعها من أجل السيادة الفكرية في بلادنا**

ان السيد ب ستروفه يؤيد « الاصلاح الاجتماعي ولا يمضي هذا الاصلاح الشهير كما نعرف من قبل الى أبعد من رتق القماش الاجتماعي البورجوازي. وما أبعد هذا الاصلاح كما هو وارد في نظرية السيد ب ستروفه ، عن تهديد حكم البورجوازية بل هو يعدها بالتأييد ، ويساعد على توطيد « **السلام الاجتماعي** » واذا كانت بورجوازيتنا الكبيرة لا تبرح تعارض هذا الاصلاح فهذا لا يمنع « **الماركسية الجديدة** » عندنا من أن تكون التعبير الافضل والاكثر تقدما عن المصالح الشاملة السياسية بالخاصة للطبقة البورجوازية **ككل** ان منظري بورجوازيتنا الصغيرة يرون أبعد مما يرى ويحكمون بصورة أفضل مما يحكم رجال الاعمال الذين يتزعمون البورجوازية الكبيرة وبالتالي فانه من الواضح أن الدور القيادي في الحركة التحررية **للطبقة « المتوسطة »** عندنا سوف يخص منظري بورجوازيتنا الصغيرة ولن نأخذنا مثقال ذرة من العجب اذا ما مضى بعض « نقادنا » **مسافة طويلة جدا في هذا الاتجاه وتسلموا على سبيل المثال قيادة الليبراليين عندنا .**

---

* انظر مقدمة الطبعة الالمانية الثانية للكتاب الاول من **رأس المال** (٢٩٨)

** لا تختلف سيكولوجية نقاد ماركس الاوروبيين الغربيين عن سيكولوجية « نقاده الروس الا في حدود تقدم البورجوازية الغربية في السن على بورجوازيتنا وعلى أي حال فليس ثمة هنا أي فارق أساسي ولا يمكن أن يكون ثمة مثل هذا الفارق انه اللحن نفسه ، وان يكن على مفتاح آخر .

لقد عبرنا قبل سنوات عديدة في صحيفتنا **الاشتراكي الديموقراطي** (٢٩٩) عن الفكرة بأن النظرية النارودنية شاخت كليا وان الانتليجنتزيا البورجوازية عندنا ، بعد انفصالها عن النارودنية سوف تحتاج الى نسخة عن آرائها **محولة على النمط الاوروبي*** ولقد حدث هذا التحويل على النمط الاوروبي اليوم في خطوطه الرئيسية لكن في شكل لم نكن نتوقعه وحين تحدثنا عن ضرورة **هذا** التحويل على النمط الاوروبي **لم يخطر** في بالنا انه سوف يتم تحت راية **ماركسية ((مصححة))**. ولكن المثل يقول عش تر

اما وقد اطلعنا على اخطاء السيد ب ستروفه وعلى أسبابها فضلا عن ذلك ؛ واما وقد فهمناه الآن ليس من زاوية مفاهيمه المختلطة فحسب بل في رسالته أيضا — فاننا نستطيع أن نفارقه وان نتمنى له كل الازدهار ان واجبا آخر ينتظرنا لقد رأينا بصورة خاصة تهافت هذا النقد لنظرية ماركس عن التطور الاجتماعي كما ابتدعه السيد ب ستروفه ورأينا على الاخص فشل محاولته البرهان على استحالة (( **الوثبات** )) في ميدان الفكر والحياة ان علينا الآن أن نبين كيف فهم مؤسسا الاشتراكية العلمية هذه (( **الوثبات** )) المسماة **الثورة الاجتماعية** ، وكيف شاهدا **الثورة الاجتماعية البروليتارية** المقبلة وهذا ما سوف نفعله في مقالتنا التالية الذي سوف تكون بداية القسم **الثاني** من **نقد نقادنا**

* * *

* انظر عرضنا للكتيب **الاشتراكي الديموقراطي** ( جنيف ١٩٠٠ ) .

# الفهم المادي للتاريخ

## المحاضرة الاولى

( ٦ آذار ١٩٠١

ايها السيدات والسادة

حين يعمد مؤرخ ما ـ وبالطبع مؤرخ لا يفتقر كليا الى موهبة التعميم ـ الى استعراض ماضي الجنس البشري وحاضره في خاطره ينكشف مشهد مثير وجليل أمام عينيه وانكم لتدركون من دون ريب أن الانسان موجود في هذا العالم كما يفرض العلم الحالي منذ العصر الرباعي البعيد جدا يعني على الاقل منذ مائتي الف سنة بيد أننا اذا وضعنا هذه الحسابات جانبا ـ وهي حسابات تخمينية دائما ـ وافترضنا كما كان المرء يفعل في الايام الطيبة القديمة ان الانسان ظهر في العالم حوالي اربعة آلاف سنة قبل العصر المسيحي فسوف نحصل على حوالي مائتي جيل تعاقبت الواحد تلو الآخر كيما تتساقط من بعد مثل الاوراق في الغابة عند اقتراب الخريف وان كلا من هذه الاجيال والاكثر من ذلك كل فرد يشكل جزءا من كل جيل، قد انصرف الى ملاحقة اهدافه الخاصة ؛ لقد ناضل كل واحد في سبيل وجوده الخاص أو في سبيل وجود ذويه واقربائه ؛ وكانت مع ذلك حركة شاملة ، كان شيء نسميه **تاريخ الجنس البشري**

واذا نحن تذكرنا الشروط التي عاش فيها اسلافنا اذا تصورنا على سبيل المثال وجود اولئك الذين وجدوا المأوى فيما يسمى المساكن المتراكمة ، واذا قارنا ذلك النمط من الحياة مع نمط حياة السويسري الحالي مثلا ، فسوف نشاهد فارقا شاسعا ذلك انه كان في حياة الجنس البشري لا الحركة وحدها بل ما نسميه **التقدم** ايضا فقد ازدادت المسافة التي تفصل الانسان عن سلفه الاكثر او الاقل شبها بالقرود العليا وتنامت سلطة الانسان على الطبيعة ولذا كان من الطبيعي على أكمل وجه ـ بل أقول اكثر من ذلك من المحتوم ان يقوم هذا السؤال : ماذا كانت أسباب تلك الحركة وهذا التقدم ؟

هذا السؤال ايها السيدات والسادة هو السؤال العظيم عن اسباب تقدم الجنس البشري وتطوره التاريخيين وهو السؤال الذي شكل موضوع ما درج على تسميته فلسفة التاريخ ، وفي اعتقادي انه يجب أن يسمى فهم التاريخ المأخوذ بعين الاعتبار من حيث هو علم يعني **التاريخ الذي لا يكتفي بدراسة كيف جرت الظواهر بل يريد أن يعرف لماذا جرت في شكل محدد من دون أي شكل آخر**

ولقد كان لفلسفة التاريخ ، مثلها كمثل أي موضوع آخر تاريخها الخاص . واريد بذلك ان اقول ان اولئك الذين درسوا في مراحل مختلفة **اسباب** التقدم التاريخي اعطوا اجوبة مختلفة عن هذا السؤال الكبير **لقد كان لكل عصر فلسفته التاريخية الخاصة** .

ويمكنكم تماما ان تشيروا الي انه وجدت غالبا مدارس **متعددة** لا **مدرسة واحدة فقط** لفلسفة التاريخ في نفس المرحلة التاريخية الواحدة ، وهو ما اتفق معكم فيه ، لكني اسألكم في الوقت نفسه ان تسجلوا ان المدارس الفلسفية المختلفة التي قامت في مرحلة تاريخية معينة تقاسمت على الدوام شيئا مشتركا ، شيئا يتيح لنا **ان** نعتبرها من حيث هي اجناس متنوعة من نفس النوع الواحد وان في مقدورنا أيضا بالطبع ، ان نعثر فيها على آثار من الماضي ولذا كان في مقدورنا أن نبسط السؤال الذي نستعرض فنقول انه **كان لكل مرحلة تاريخية فلسفتها الخاصة عن التاريخ**

ولسوف نعالج في احاديثنا بعض هذه الفلسفات ، فابدأ **بالفلسفة اللاهوتية** ، وبكلام آخر **بالفهم اللاهوتي للتاريخ** .

ما المقصود من **الفلسفة اللاهوتية** أو **الفهم اللاهوتي للتاريخ** ؟ انه الفهم الاكثر بدائية وهو على صلة وثيقة بالجهود الاولى التي بذلها الفكر الانساني من أجل الحصول على بعض الفهم للعالم المحيط

وفي الحقيقة ان الفكرة الابسط التي يستطيع الانسان ان يشكلها عن الطبيعة هي أن يرى في هذه الطبيعة لا ظواهر ترتبط ببعضها بعضا وتخضع لقوانين ثابتة بل احداث تقع بفعل ارادة واحدة او ارادات متعددة تشبه ارادته الخاصة ويرى الفيلسوف الفرنسي غويو في أحد كتبه انه سمع ولدا يصف قمرا بأنه **فظيع** لانه يرفض الظهور في السماء كان هذا الولد يعتبر القمر **حيا** ؛ وان الانسان البدائي ، مثله كمثل ذلك الولد قد اعتبر الطبيعة بأسرها حية وكانت **الاحيائية** الطور الاول في تطور الفكر الديني وكانت خطوة العلم الاولى القضاء على التفسير الاحيائي للظواهر الطبيعية وتحقيق فهم لها من حيث هي ظواهر تخضع لقوانين محددة وفيما يحسب الطفل ان القمر يرفض الظهور لانه فظيع فان العالم الطبيعي يفسر لنا حصيلة الشروط الطبيعية التي تساعدنا في كل حين على رؤية أي جرم سماوي أو تمنعنا من رؤيته .

لكنه اذا كان العلم قد حقق خطوات سريعة نسبيا في دراسة الطبيعة وفهمها ، فقد تطور ببطء اعظم جدا في دراسة المجتمع البشري وتاريخه كان التفسير الاحيائي للظواهر التاريخية مقبولا بعد حتى حين كان التفسير الاحيائي للظواهر الطبيعية يبدو سخيفا كان يرى انه في الامكان تماما في وسط متحضر نسبيا ، وعلى الاغلب حتى في وسط عالي الحضارة ان يفسر التقدم التاريخي للجنس البشري على اعتباره تظاهرة لارادة الوهية واحدة او الوهيات متعددة وهذا التفسير للعملية التاريخية على اعتبارها ناشئة عن ارادة الهية ما هو ما نسميه **الفهم اللاهوتي للتاريخ .**

وكيما اقدم لكم مثالين عن هذا النوع من الفهم أتوقف عند الفلسفة التاريخية لرجلين شهيرين ، القديس اوغسطينوس اسقف هيبو ( الجزائر اليوم ) وبوسويه اسقف مدينة مو ( في فرنسا )

كان القديس اوغسطينوس ٣٥٤ ـ ٤٣٠ يعتقد ان الاحداث التاريخية وقف على العناية الالهية والاكثر من ذلك انه كان على يقين راسخ من انه لايمكن استخدام أي مقياس آخر بخصوصها ولقد كتب يقول

**« انظروا الى هذا الاله ، الاحد والجبار ، صانع جميع النفوس والاجساد وخالقها الذي جعل من الانسان حيوانا عاقلا مركبا من جسد ونفس هذا الاله ، مبدأ كل حكم وكل واجب وكل نظام ، الذي منح الاشياء جميعا عددا وثقلا وقياسا ، والذي تشتق منه جميع صنائع الطبيعة من كل صنف وثمن اني أسأل ما اذا كان يمكن الاعتقاد بأن هذا الاله يستطيع ان يقبل بأن تبقى امبراطوريات العالم وسيطرتها وعبوديتها خارجا عن قوانين عنايته الالهية » مدينة الله ترجمة اميل سيسه الكتاب الخامس ، الفصل الحادي عشر ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ )**

ولم ينفصل القديس اوغسطينوس عن وجهة النظر الجامعة هذه في أي تفسير له للاحداث التاريخية

وحين كان المقصود كيفية تفسير عظمة الرومان وصف اسقف هيبو بتفصيل دقيق كيف كانت العناية الالهية في حاجة الى تلك العظمة فكتب يقول

**« بعدما ازدهرت ممالك الشرق في العالم لسنوات متتالية عديدة شاء الله ان تصبح الامبراطورية الغربية ، التي كانت الاخيرة في الترتيب الزمني ، الاولى بين الجميع عظمة واتساعا ؛ ونظرا لانه وضع في اهدافه ان يستخدم هذه الامبراطورية لمعاقبة عدد كبير من الامم عهد بذلك الى رجال كانوا تواقين الى المديح المتزلف والشرف ، لكنهم كانوا يرون مثل هذا المجد في مجد بلدهم وكانوا دائما على استعداد للتضحية بانفسهم في سبيل رخائها ، وبذلك تغلبوا على جشعهم ورذائلهم الاخرى من أجل هذه الرذيلة الواحدة ـ حب المجد ذلك انه لا سبيل الى انكار حقيقة ان حب المجد رذيلة » ، الخ ( المجلد الاول ، ص : ٣٠١ )**

وحين كان المقصود ظهور قسطنطين الامبراطور المسيحي الاول برزت على المسرح ارادة الله التي حلت واوضحت جميع الامور باعظم اليسر ويقول القديس اوغسطينوس

« ان الله الطيب ، الذي شاء ان يمنع اولئك الذين يعبدونه من الاقتناع بأنه من المحال الفوز بالممالك والعظمة على الارض بدون ارادة الابالسة الجبارة ، رغب في اسباغ عظمة عطفه على الامبراطور قسطنطين الذي ابتعد عن اللجوء الى الالهة الكاذبة ، بل كان يعبد الاله الحقيقي الاوحد ، هذا الذي بذل له من بركاته أكثر مما تجاسر انسان قط على الرغبة به » ( المجلد الاول ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ )

واخيرا حين كان المقصود تقرير السبب في دوام الحرب الواحدة اكثر من حرب اخرى كان القديس اوغسطينوس يقول ان تلك هي ارادة الله

« كما يتوقف على الله ان يشقي البشر او يواسيهم حسب مقاصد عدالته أو رحمته ، فهو الذي يتحكم ايضا في طول الحروب فيختصر من مدتها او يطيلها على هواه » ( المجلد الاول ، ص ٣٢٣ )

هكذا يتضح ان القديس اوغسطينوس كان وفيا بصورة ثابتة لمبدئه الاساسي ومن سوء الحظ ان الامانة لمبدأ محدد لا تكفي لتفسير الاحداث التاريخية المصادفة تفسيرا صائبا انه من الضرورة بمكان اولا وقبل كل شيء **انتقاء** المبدأ الاساسي **الصحيح** ، وفيما عدا ذلك ينبغي للمؤرخ الذي يرغب في البقاء وفيا لمبدئه الاساسي ان يقوم بدراسة جامعة لجميع الحقائق التي تسبق او ترافق الظاهرة التي يتصدى لتفسيرها فالمبدأ الاساسي يمكن ويجب أن يخدم فقط من حيث هو خط مرشد في تحليل الواقع التاريخي

ومن كلتا هاتين الوجهتين للنظر فليس في مقدور نظرية القديس اوغسطينوس ان تصمد للتمحيص وهي لا توفر أي منهج من اجل تحليل الواقع التاريخي واما بخصوص مبدئها الاساسي فسوف اسألكم ان تلاحظوا ما يلي لقد تحدث القديس اوغسطينوس بيقين عظيم وتفصيل كبير عما سماه قوانين العناية الالهية حتى ليتساءل المرء رغما عنه فيما هو يطالعه ما اذا كان الله قد كشف له عن جميع اسراره الاكثر خفاء وان المؤلف نفسه ليخبرنا في الكتاب نفسه وباليقين نفسه والوفاء نفسه لمبدئه الاساسي ان **طرق الرب خفية** . لكنه اذا كان الامر كذلك فلماذا التصدي لمهمة دراسة هذه « الطرق وهي المهمة العقيمة والعاقة معا ؟ لماذا تنبغي الاشارة الى هذه « الطرق الغامضة » من حيث هي تفسير لاحداث الحياة البشرية ؟ ان التناقض واضح ونظرا لذلك لم يكن بد حتى لرجال اصحاب ايمان لاهب وراسخ من رفض التفسير اللاهوتي للتاريخ هذا اذا كانوا راغبين في ان يأخذوا على الاقل التاريخ بشيء من الاعتبار واذا كانوا راغبين عن التأكيد بأن **الغموض** ، يعني

**ما هو غير قابل للتفسير وغير قابل للفهم ، يفسر جميع الاشياء ويضعها في متناول الافهام .**

لننتقل الآن الى بوسويه ( ١٦٢٧ - ١٧٠٤ ) لقد تناول بوسويه مثله كمثل القديس اوغسطينوس ، وجهة النظر اللاهوتية في تفسير التاريخ وكان على يقين من أن المصائر التاريخية للشعوب، او حسب تعبيره les révolutions des empires خاضعة لارشاد الله ، فكتب يقول في كتابه **احاديث عن التاريخ العمومي**

« كانت هذه الامبراطوريات في الاغلب حلقة ضرورية مع تاريخ الشعب المختار فقد استخدم الله الاشوريين والبابليين للاقتصاص من هذا الشعب ، والفارسيين لاعادته من جديد ، والاسكندر وخلفاءه الاولين لحمايته ، وانطيوكوس اللامع وخلفاءه لاختباره ، والرومان للحفاظ على حريته ضد ملوك سوريا الذين كانوا طامعين في دماره ولقد وجد اليهود حتى يسوع المسيح تحت سلطان الرومان انفسهم لكنهم حين انكروه وصلبوه ساعد هؤلاء الرومان بالذات عن غير قصد في الثأر الالهي وابادوا هذا الشعب العاق » ، الخ ( احاديث ، طبعة الاخوة غارنيه ، ص ٣٣٤

وباختصار ، فان جميع الامم وجميع الدول الكبيرة التي تعاقبت في الحلبة التاريخية نشدت ، بطرق متنوعة ، نفس الهدف الواحد - **تقدم الدين المسيحي وتمجيد الله** .

ولقد بين بوسويه لتلميذه الخاص على أساس وحي الروح القدس للقديس يوحنا وهو الوحي الذي شرحه هذا الاخير في سفر **الرؤيا** ، كيف سقطت دينونة الله السرية على الامبراطورية الرومانية وعلى روما بالذات ، متحدثا عن ذلك كله - هو الآخر - وكأن طرق الرب لم تعد **غامضة** والشيء الجدير بالذكر هو ان مشهد التطور التاريخي لم يثر فيه شيئا سوى **الافكار عن غرور الشؤون الانسانية** ، فيقول

« وهكذا حين يمر امام ناظريك بصورة متواقتة - لا اقول الملوك والاباطرة ، بل جميع تلك الامبراطوريات التي ارتجف الكون لها ، حين ترى الاشوريين القدماء والجدد ، والميديين ، والفرس ، والاغريق والرومان يتقدمون أمامك في اثر بعضهم بعضا ويسقطون البعض في اثر البعض اذا جاز التعبير ، يشعرك هذا السقوط المروع بأنه لا امان بين البشر وبان عدم الاستقرار والقلق هما نصيب الشؤون الانسانية» (احاديث، ص : ٣٣٩ ).

هذا **التشاؤم** صفة مميزة لفلسفة بوسويه التاريخية ، والتفكير الدقيق يحمل المرء على الاعتراف بأن هذه الصفة انعكاس صحيح لجوهر المسيحية وبالفعل ، فان المسيحية تلوح للمؤمنين بوعد العزاء بقدر كبير من العزاء ! لكن بأية طريقة تعزي ؟ انها تعزي بصرف انتباه المؤمنين عن جميع الاشياء الارضية ، باقناعهم بأن جميع الاشياء على الارض مجرد غرور وبأن السعادة غير ممكنة الا بعد الموت .

واني لاسألكم أيها السيدات والسادة ان تتذكروا هذه الصفة التي سوف تزودنا في لاحق هـذا العرض بمواد من أجل المقارنة

وصفة مميزة أخرى لفلسفة بوسويه التاريخيـة هي أنـه ، خلافا للقديس اوغسطينوس لم يقتصر في تفسيره الاحداث التاريخية على اللجوء الى مسيئة الله بل وجه انتباهه الى ما اسماه **الاسباب الخاصة لحركة الامبراطوريات** .

لقـد كتب يقـول

« ذلك ان الله نفسه الذي اعطى الكون التسلسل والذي اراد ، هو الجبار ، ان ينشيء النظام بحيث تكون اجزاء مثل هذا الكل الفسيح تابعـة لبعضها بعضا ـ هـذا الله بالذات اراد أن يكون لمجرى الشؤون الانسانية تسلسله ونسبه ما اريد أن اقول هو ان البشر والامم يملكون الصفات بصورة متناسبة مع العظمة المعينة لهم ـ فباستثناء بعض الاحداث الفائقة التي شاء الله ان تظهر مشيئته وحدها فيها ، لم يحدث تغير كبير الا وكانت له اسبابه في القرون السابقة ونظرا لان في جميع الشؤون شيئا قـد هيأها ، شيئا يقرر وجوب القيام بها ويجعلها تتعاقب ، فان الهدف الحقيقي لعلم التاريخ هو أن يؤكد لكل مرحلـة معينة الاسباب الخفية التي حضرت التغيرات الكبرى والمصادفات الهامة التي ادت الى وقوعها » ( **احاديث** ، ص : ٣٣٩ ـ ٣٤٠ )

وهكذا وفقا لبوسويه تقع في التاريخ احداث لا يظهر فيها الا اصبع الله وبكلام آخر يفعل الله فيها **بصـورة مباشرة** . ومثل هـذه الاحداث هي اذا جاز التعبير **معجزات تاريخيـة** . ومهما يكن من شيء فان التبدلات الحادثة في أيـة مرحلة معينة مع الاتجاه العادي للامور تقع بفعل اسباب ناشئة عن المراحـل السابقة **وتستقيم مهمـة العلم الحقيقي في دراسة هـذه الاسباب التي لا تنطوي على اية اشياء فوق طبيعية طالما انها لا تدور الا حول طبيعة البشر والامم** .

وبنتيجة ذلك كرس بوسويه ، في فهمه اللاهوتي للتاريخ ، مكانا فسيحا من اجل **تفسير طبيعي للاحداث التاريخية** . وصحيح أن هذا التفسير الطبيعي كان على صلة وثيقـة **بالفكرة اللاهوتية** ما دام الله في آخر تحليل قد اسبغ على البشر والامم بصورة ثابتة صفات تتناسب مع العظمة المعينة لهم بيد ان مثل هذه الصفات وقد منحت مرة تتظاهر بصورة مستقلة وبقدر ما تتظاهر لا يحق لنا فحسب كما يقرر بوسويه ذلك بصـورة جازمـة بل **يجب علينـا أن نبحث عن تفسـير طبيعـي للتاريـخ** .

ان لفلسفة بوسويه التاريخية ميزة كبـيرة على فلسفة القديس اوغسطينوس التاريخية في اصرارها على الحاجة الى دراسة الاسباب الخاصة للاحداث وعلى أي حال فليست هذه الميزة في واقع الامر سوى الاعتراف ـ وهو بالطبع اعتراف غير شعوري وغير ارادي ـ **بالعجـز والعقـم** اللذين يعاني منهما المفهـوم اللاهوتي بالخاصة نعني هذه الطريقة التي تستقيم في تفسير الاحداث بتدخل قوة واحـدة او قوى متعددة فوق طبيعيـة .

ولقد استغل خصوم اللاهوت في القرن التالي هذا الاعتراف بصورة بارعة وكان اخطرهم **فولتير ، بطريريك فيرنيي** ، الذي قدم هـذه الملحوظات الحادة في كتابه الشهير **دراسة في عادات الامم**

**« ليس ما هو اجدر بعجبنا من الطريقة التي اراد الله بها ان تقوم الكنيسة ، حيث جعل الاسباب الثانوية تتفق مع مراسيمه الابدية لندع باحترام ما هو الهي لاولئك الذين اوكلت اليهم الاشياء الالهية ولنتوجه الى الاشياء التاريخية حصرا » ( دراسة ، طبعة بييشور ، المجلد الاول ، ص : ٣٤٦ )**

وهكذا وضع التفسير اللاهوتي للتاريخ جانبا ان فولتير يتوجه الى الاحداث التاريخية على وجه الحصر ، ويحاول ان يفسرها باسبابها الثانوية ، يعني باسبابها **الطبيعية** لكن فيم يستقيم العلم اذا هو لم يستقم في تفسير طبيعي للظواهر ؟ ان فلسفة فولتير التاريخية هي **دراسة في التفسير العلمي للتاريخ** .

لناخذ هـذه الدراسة بعين الاعتبار بمزيد من التفصيـل ومثال ذلك لنـر **ما هي الاسباب التي قادت في رأي فولتير الى سقوط الامبراطورية الرومانية .**

جرى انحطاط روما ببطء وخلال مرحلة طويلة لكنه آل عبر الكوارث الـى سقوط هـذه الامبراطورية الواسعـة ويشدد فولتير على هاتـين الناحيتـين ١ ـ **البرابرة** و ٢ ـ **النزاع الديني** .

فالامبراطورية الرومانية دمرت من قبل البرابرة ويسأل فولتير

**« لكن لماذا لم يبادوا من قبل الرومان مثلما اباد ماريوس السيمريين(.. ؟ ذلك لانه لم يكن ثمة ماريوس اذن ولان الاخلاق تغيرت لقد كان في الامبراطورية الرومانية الان رهبان اكثر مما فيها جنود ، وكان هؤلاء الرهبان يسافرون في جماعات من مدينة الـى مدينـة وغرضهم تأييد او تدمير فكرة حلول جسـد الكلمة ودمه في الخبز والخمر » ( المصدر نفسه ، المجلد الاول ، ص : ٣٧٧ )**

**« قد اصبح احفاد سكيبيوس بارعين في المجادلة وانتقل الاحترام الشخصي من أمثال هورتانسيوس وشيشرون الى امثال كيريلوس وغريغوريوس وامبرواز ؛ لقد ضاع كل شيء ، واذا كان لا بد للمرء ان يدهش لامر ما ، فذلك لان الامبراطورية الرومانيـة استمرت لفترة اخرى من الزمن » ( المصدر نفسه ، المجلد الاول ، ص : ٣٧٧ )**

تستطيعون ان تروا هنا بكل وضوح ما هو السبب الرئيسي لسقوط روما في راي فولتير **كان هذا السبب انتصار المسيحية** ، وهو ما عبر فولتير عنه بسخريته اللاذعة المألوفة فتحت المسيحية الطريق الى السماء ، لكنها ضيعت الامبراطورية» المصدر نفسـه ، المجلد الاول ، ص ٣٧٧ ) هل كان على حـق ؟ او لعله كان مخطئا ؟ هذا شيء لا يهمنا في الوقت الحاضر فالامر الهام بالنسبة الينا هو تقدير آراء فولتير التاريخية ، وهي التي سوف نخضعها للتحليل النقدي في وقت لاحق

هكـذا نرى أن الامبراطورية الرومانيـة سقطت ، فيمـا يرى فولتير ، بسبب

المسيحية لكن الجنس البشري يستطيع بالطبع ان يسأل **لماذا انتصرت المسيحية في روما ؟**

وفي راي فولتير ان قسطنطين هو الذي كان الاداة الرئيسية في تحقيق انتصار المسيحية ، ويصفه فولتير وفقا للحقيقة التاريخية ، كحاكم شرير ومنافق لكن أيكون في مقدور اي انسان حتى اذا كان امبراطورا شريرا جدا ومتطيرا ان يحقق الانتصار لاي دين كان ؟ كان فولتير يعتقد بامكانية ذلك ، ولم يكن الوحيد في مثل هذا الاعتقاد بل ذلك هو اعتقاد جميع الفلاسفة في ذلك الحين ولسوف استشهد كمثال على ذلك برأي كاتب آخر بخصوص اصل الشعب اليهودي والمسيحيه

فاذا كان **التفسير اللاهوتي** للتاريخ يستقيم في نسب التطور التاريخي لارادة وافعال ــ المباشرة او غير المباشرة ــ قوة واحدة او عدة قوى فوق فوق طبيعية فـ **التفسير المثالي** يستقيم في نسب هذا التطور التاريخي نفسه الى تطور الاخلاق والافكار او **الرأي** كما كان يقال في القرن الثامن عشر

ونقد كتب سوار يقول

اقصد بالرأي حصيلة كتلة الحقائق والاخطاء في أمة ما ، وهي حصيلة تقرر احكامها عن الاحترام او الازدراء وعن الحب او الحقد وتقولب نزعاتها ورذائلها وفضائلها وباختصار اخلاقها » ( سوار **خلائط ادبية ، المجلد الثالث** ، ص ٤٠٠ )

فاذا كانت الآراء تسود العالم فمن الواضح انها السبب الاساسي والاعمق للتطور التاريخي ولا سبب لنعجب اذا ما رجع اي مؤرخ الى الآراء على اعتبارها قد تقرر آخر الامر الاحداث في أيــة مرحلة من التاريخ

اذا كانت الآراء تفسر الاحداث التاريخية **عموما** ، **فمن الطبيعي جدا أن نبحث في الافكار الدينية** ( في المسيحية مثلا ) عن السبب الاساسي لازدهار او انحطاط أيــة امبراطورية الرومانية على سبيل المثال ) وبنتيجة ذلك يظل فولتير وفيا لفلسفة التاريخ في عصره حين يقول ان المسيحية تسببت في سقوط الامبراطورية الرومانية.

الا أنه كان في عداد فلاسفة القرن الثامن عشر كثيرون عرفوا بانهم ماديون مثلا **دولباخ** مؤلف الكتاب الشهير **نظام الطبيعة** ، **وهيلفيتيوس** الذي وضع الكتاب لا نقل عن ذلك شهرة ، **في الفكر** وانه ليكــون من الطبيعي جدا ان نفترض ان هذين الفيلسوفين لم يوافقا على **التفسير المثالي للتاريخ .**

بيد ان هذا الافتراض خاطىء ، مهمــا بدا طبيعيا فبالرغم من كون دولباخ وهيلفيتيوس ماديين في **فهمهما للطبيعــة** ، فقد كانا **مثاليين في ميدان التاريــخ** كان الماديون في ذلك العصر مثلهم كمثل فلاسفة القرن الثامن عشر كمثل مجموعة الموسوعيين كلها يعتقدون ان العالم تحكمه الآراء ، وان تطور الافكار هو التفسير الاولي للتطور التاريخي برمته

« ان الجهل والخطأ والوهم وانعدام الخبرة والتفكير والبصيرة ـ هذه هي المصادر الحقيقية للشر الاخلاقي ان البشر لا يسيئون الى انفسهم والى شركائهم ( associés ) الا لافتقارهم الى ادنى فكرة عن مصالحهم الخاصة » ( **نظام الطبيعة** ، المجلد الثاني ، الفصل الاول ، ص ٥ )

ونقرأ في موضع آخر من الكتاب نفسه ما يلي

« يبرهن لنا التاريخ ان الامم ، في موضوع الحكم ، كانت على الدوام العوبة جهالتها وتهورها وسذاجتها ومخاوفها ، وقبل كل شيء العوبة الاهواء التي استولت على العامة . فما أكثر ما غيرت الشعوب اشكال حكوماتها مثلها كمثل المرضى الذين يتقلبون ابدا في اسرتهم ، عاجزين عن ايجاد وضعية مريحة لهم ، غير انها لم تملك قط القوة او القدرة على اصلاح جذري وعلى بلوغ المصدر الحقيقي لشرورها لقد اضطربت دون انقطاع بأهواء عمياء » ( المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص ٢٧ )

ان هذه الشواهد تبين لنا ان الجهل هو في رأي المادي دولباخ سبب المصائب الاخلاقيـة والسياسية فاذا كانت الشعوب شريرة فالجهل هو السبب في ذلك واذا كانت حكوماتها سخيفة فالسبب في ذلك عجزها عن اكتشاف المبادىء الحقيقية للتنظيم الاجتماعي والسياسي واذا اخفقت الثورات التي قامت الشعوب بها في القضاء على الشر الاخلاقي والاجتماعي فالسبب في ذلك **ان الشعوب لاتملك المعرفة الكافية** لكن ما الجهل ؟ ما الخطأ ؟ ما الوهم ؟ ان الجهـل والخطأ والوهم مجرد آراء مغلوطة واذا كان الجهل والخطأ والوهم قد منعت الشعوب عن التوصل الى الاساس الحقيقي للتنظيم السياسي والاجتماعي فمن الواضح ان العالم سادتـه **الآراء الخاطئة** وبنتيجة ذلك انضم دولباخ ، في هذه المسألة ، الى نفس الآراء التي اعتنقتها الغالبية من فلاسفة القرن الثامن عشر

وأما هيلفيتيوس ، فلن استشهد هنا الا برأيه بخصوص النظام الاقطاعي فقد كتب ما يلي في رسالة الى سورين بشأن كتاب مونتسكيو **روح القوانين**

« لكن ماذا يريد بحق الشيطان ان يعلمنا اياه في كتابه **مبحث الاقطاعات** ؟ اتلك قضيـة ينبغي لفكر حكيم وعاقل ان يسعى الى حلها ؟ أي تشريع يمكن ان ينتج عن هـذه الفوضى الهمجية من القوانين المقررة عنوة ، والحائزة على الاحترام بفعل الجهل ، والمناوئة ابدا لنظام جيد في الامور **المؤلفات** ، المجلد الثالث ص ٣١٤

وكتب في موضع آخر يقول

ان مونتسكيو اقطاعي حتى درجة كبيرة والحكومة الاقطاعيـة قمـة العبث ( **المؤلفات** ، المجلد الثالث ، ص ٣١٤ )

وهكذا يجد هيلفيتيوس ان الاقطاعية ، يعني نظاما كاملا للمؤسسات الاجتماعية والسياسية ، هو قمـة العبث وهو بالتالي يدين بأصولـه **للجهل** ، او بكـلام آخر **للآراء الخاطئة** . وانه ليترتب على ذلك ان الآراء تسود العالم ابدا ، لخيره او لشره .

ولقد سبق لي ان قلت ان ما يهمنا ليس نقد هذه النظرية ، بل فهم سليم لها بحيث نتحقق من ماهيتها أما وقد حصلنا الآن على بعض المعرفة بهـا فانه لايجوز لنا فحسب بل ينبغي لنا ان نخضعها للتحليل

ان المسألة ما اذا كانت هذه النظرية مصيبة أو مخطئة

أصحيح ان الناس الذين لا يدركون مصالحهم الخاصة يعجزون عن الدفاع عنها بصورة معقولة ؟ هــذا صحيح بصورة لا تقبل الجدال . أصحيح ان الجهل جلب على البشرية قدرا كبيرا من الشر وان نظاما اجتماعيا وسياسيا يقوم على خضوع الانسان للانسان واستثمار الانسان للانسان كما كانت حال الاقطاعية ما كان يمكن ان يوجد الا في زمن الجهل والمستبقات المتأصلة عميقا ؟

اجل هذا صحيح ولا استطيع ان اتخيل كيف تمكن المجادلة في مثل هــذه الحقيقــة الناصعــة

وباختصار أصحيح أم خطل ان الرأي بالمعنى الذي وضعــه سوار يمارس عظيما في السلوك البشري ؟

اولئك الذين يملكون بصيرة نافذة الى البشر سوف يقولون ان هذا امر لا شك فيــه ولا جدال فيــه هو الآخر

أيبدو انه يترتب على ذلك اذن ان الفهم المثالي للتاريخ مؤسس على الحقيقــة بحيث لا يمكننا ان نرفع ايــة اعتراضات عليــه ؟

سوف أجيب عن ذلك بنعم ولا في وقت واحد واليكم ما اقصده من ذلك

ان الفهم المثالي للتاريخ صحيح بمعنى انه يحتوي على جزء من الحقيقــة وبالفعل ، فان فيه جزءا من الحقيقــة . فالآراء تمارس تأثيرا كبيرا جدا في الناس ، الحق بالتالي ان نقول ان الآراء تحكم العالم بيد اننا نملك كذلك كل الحق في التساؤل أليست الآراء التي تحكم العالم خاضعة بدورها لشيء آخر ؟

وبكلام آخر فان في مقدورنا ومن واجبنا ان نتساءل ما اذا كانت الآراء والمشاعر الانسانية وقفا على المصادفة وحدها وطرح هذا السؤال يعني في الحال الرد عليه بالنفي ذلك ان الآراء والمشاعر الانسانيــة ليست في حال من الاحوال وقفا على المصادفة فنشوؤها وتطورها على حد سواء خاضعان لقوانين نستطيع ويجب علينا ان ندرسهــا وحالما تقبلون بهذا الافتراض ــ وكيف يمكن للمرء الا يقبل به ؟ ــ تلتزمون بالاقرار بأنه اذا كانت الاراء تحكم العالم فهي لا تفعل ذلك اذن على غرار حاكم مطلق وذلك لانها تخضع بدورها لشيء آخر ، وبنتيجة ذلك فان ذلك الذي يرجع الى الآراء لابعد ما يكون عن اطلاعنا على السبب الاساسي والكامن عميقــا للتطــور التاريخــي

**وبالتالي فان الفهم المثالي للتاريخ يحتوي على جزء من الحقيقة ، ولا يحتوي على أي حال على الحقيقة كلهــا .**

ولا بد لنا في سبيل معرفة الحقيقة كلها من الاستمرار في بحثنا من ذات النقطة التي توقف عنه عندها الفهم المثالي للتاريخ ان من واجبنا ان نقرر بكل دقة **اسباب نشوء وتطور الآراء عند الناس الذين يحيون في المجتمع .**

وتسهيلا لهذه المهمة فلنقم بدراستنا بطريقة منهجة بحيث نرى قبل كل شيء ما اذا كانت الآراء يعني حسب راي سوار حصيلة الحقائق والاخطاء الشائعة بين الناس هي فطرية فيهم مولودة معهم بحيث لا تزول الا بزوالهم وهذا يعني ان نتساءل **ما اذا كان للافكار الفطرية وجود .**

لقد كان زمان اعتقد الناس فيه بحزم انالافكارفطريةموجودة.على الاقل بصورة جزئية ومع هذا الافتراض وجدوا من الممكن في الوقت نفسه ان يؤمنوا بأن مثل هذه الافكار تنطوي على مخزون معين مشترك بين البشرية جمعاء وثابت في جميع الازمان والاجواء

وهذا الراي الذي شاع مرة دحضه بصورة ظافرة الفيلسوف الانكليزي البارز **جون لوك** ١٦٣٥ ـ ١٧٠٤ ) الذي برهن في كتابه الشهير **دراسة في الفهم الانساني أن** ذهن الانسان لا ينطوي على أية افكار او مبادىء او مفاهيم نطرية ان الافكار والمبادىء تنشأ عن **التجربة** الانسانية وهذا ينطبق سواء على المبادىء التأملية او المبادىء العملية او المبادىء **الاخلاقية** وان هذه المبادىء الاخيرة تتغير مع الزمان والمكان وحين **يدين** الناس عملا ما فهم يفعلون ذلك لان هذا العمل **يؤذيهم ؛** وحين **يمتدحون** عملا فهذا يعني انهم يعتبرونه **نافعا**

وبالتالي فالمصلحة لا المصلحة الشخصية بل المصلحة الاجتماعية هي التي تقرر احكام البشر في ميدان الحياة الاجتماعية

تلك كانت نظرية لوك التي ايدها بحماسة جميع الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عسر وبنتيجة ذلك فان لنا الحق في القبول بهذه النظرية من حيث هي منطلق نقدنا لفهمهم للتاريخ

لا تحتوي اذهان البشر على أية افكار فطرية والتجربة هي التي تقرر **الافكار التأملية ،** في حين ان المصلحة الاجتماعية تقرر **الافكار (( العملية )) .** لنقبل بهذه الموضوعة ولنر ما هي النتائج التي تنشأ عنها .

## المحاضرة الثانية

## ( ١٥ آذار ١٩٠١ )

ايها السيدات والسادة

اذا كان التكرار أم العلم حسب المثل اللاتيني فالتلخيص مدبرة منزله اذن فالتلخيص يجرد ما تم كسبه ويثمنه بحيث سوف ابدأ محاضرتي الثانية بخلاصة للمحاضرة الاولى

قلت في المرة الماضية ان الفهم اللاهوتي للتاريخ يستقيم في نسب التطور التاريخي وتقدم النوع البشري الى فعل قوة واحدة او عدة قوى فوق طبيعية ، الى ارادة اله واحد او عدة آلهة

ومن بعد عمدت الى النظر في فلسفة التاريخ عند **القديس اوغسطينوس** و **بوسويه** وبينت ان فلسفة التاريخ عند بوسويه تتفوق على فلسفة التاريخ عند القديس اوغسطينوس في رفضها لاي تفسير للتطور التاريخي على اعتباره عمل الرب المباشر واصرارها على ضرورة البحث عن الاسباب **الخاصة** للاحداث التاريخية ، وبكلام آخر عن **اسبابها الطبيعية** .

ان البحث عن الاسباب الطبيعية للاحداث يعني رفض وجهة النظر **اللاهوتية** واتخاذ النظرة **العلمية** نظرا لان هذه النظرة العلمية تستقيم في تفسير الظواهر بواسطة اسبابها الطبيعية وذلك في اعراض تام عن ادنى تأثير من جانب القوى فوق الطبيعية

واستشهدت بفولتير الذي قال انه يترك الاشياء الآلهية لاولئك الذين اوكلت اليهم مثل هذه الشؤون فهو نفسه لا يعنى الا بالاسباب **التاريخية** ، يعني الطبيعية. لقد كانت وجهة نظر فولتير مثلها كمثل وجهة نظر جميع الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر نظرة علمية ومهما يكن من أمر فلما كان العلم نفسه يجتاز طريق التقدم والتطور لم يكن لنا بد من تحليل وجهة النظر التي اعتنقها فولتير بمزيد من التفصيل فوجدنا انها كانت وجهة نظر **مثالية** ، بمعنى ان فولتير ، مثله كمثل جميع فلاسفة القرن الثامن عشر بما فيهم اولئك الذين كانوا مثل دولباخ وهيلفيسيوس ماديين في فهمهم للطبيعة قد ارجع التطور التاريخي الى **تطور الافكار** او تطور **الآراء** كما كانوا يقولون في ذلك العصر

وحين انتقلت الى نقد هذا الفهم للتاريخ قلت انه كان صحيحا نسبيا نظرا لان الآراء الفعلية تمارس تأثيرا عظيما في **السلوك الانساني** ومن بعد اضفت ان نشوء الآراء وتطورها خاضعان بدورهما لبعض القوانين بحيث لا يستطيع المؤرخ ، بنتيجة

ذلك ، ان يعتبر الآراء من حيث هي السبب الاساسي والاعمق للتطور التاريخي ان من يرغب في اجراء دراسة اعمق لهذا التطور يجب ان يوغل اكثر ويدرس تلك الاسباب التي تؤول في كل مرحلة تاريخية معينة الى تغلب بعض الافكار من دون سواها

وحين اختتمت محاضرتي السابقة قلت لكم في اي اتجاه تتقدم هذه الدراسة، وفعلت ذلك في اتجاه اشار اليه جون لوك ١ ـ لا وجود لاية افكار فطرية ؛ ٢ ـ تنشأ الافكار من التجربة ؛ ٣ ـ واما بشأن الافكار **العملية** فالمصلحة ( الاجتماعية لا الشخصية هي التي تقود الى وصف بعض الاعمال **بالصالحة** وبعض الاعمال الاخرى **بالطالحة** .

هذا ما نعرفه من قبل فلنحاول الآن ان نتعلم اشياء جديدة

تميز القرن الثامن عشر من القرن التاسع عشر بحدث تاريخي هو **الثورةالفرنسية** التي اجتاحت فرنسا مثل الاعصار فدمرت **النظام القديم** وكنست جميع **مخلفاته** ، ومارست تأثيرا عميقا في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية لا في فرنسا وحدها بل في اوروبا بكاملها وما كان يمكن الا ان يكون لها تأثير في فلسفة التاريخ ايضا

ماذا كان نوع ذلك التأثير ؟

كانت الحصيلة الاكثر مباشرة للثورة احساسا من **الاعياء الهائل** ان الجهود الكبيرة التي قام الناس بها في ذلك الحين جلبت **حاجة ملحة الى الراحة** وشوهد كذلك فضلا عن هذا الشعور بالاعياء ـ الحتمي بعد اي مصروف كبير من الجهد ـ **بعض الشك** لقد ساد في القرن الثامن عشر ايمان راسخ بانتصار **العقل** ، وفولتير هو القائل ان العقل سوف ينتصر دائما في نهاية الامر لكن الاحداث الثورية سحقت هذا الايمان فقد جرت احداث كثيرة لم تكن متوقعة ، وخرجت ظافرة امور عديدة كانت تبدو مستحيلة تماما ومنافية للعقل بصورة مطلقة وقلبت حسابات وتوقعات حكيمة عديدة راسا على عقب بمنطق الحقائق المتوحسة بحيث جعل الناس يقولون في انفسهم انه **من المرجح ان العقل لن ينتصر قط** . ولدينا في هذا الشأن شهادة قيمة قدمتها امراة ذكية وهبت نظرة نافذة الى الاحداث الجارية من حولها تقول مدام دي ستال ـ هولشتاين

ان معظم الناس وقد روعوا بالتقلبات المخوفة التي قدمت الاحداث السياسية مثالا عليها فقدوا كل اهتمام في تهذيب انفسهم وصدمتهم قوة المصادفة بشدة بحيث فقدوا الايمان بتفوق القدرات الذهنية **في الادب** ، باريس ، العام الثامن للثورة ، المقدمة ، ص ١٨ )

وهكذا خشي الناس قوة المصادفة لكن ما المصادفة ، وما معنى احداث المصادفة في حياة المجتمع ؟ ان في هذه الاسئلة مواد للمناقشة الفلسفية ، الا اننا نستطيع ان نقول دون الدخول في مثل هذه المناقشة ان الناس في الاغلب **يعزون الى المصادفة جميع الاشياء التي تظل اسبابها مجهولة منهم** وهذا هو السبب في انهم يحاولون اخيرا ، كلما اثقل عليهم عنصر المصادفة بشدة وطويلا بقوته ، ان يجدوا لتفسيرات لتلك الظواهر التي اعتبروها حتى ذلك الحين بنات الحظ وان يكتشفوا اسبابها وهذا ما نشاهده في حقل العلم التاريخي **في اوائل القرن التاسع عشر .**

ان **سان سيمون** ، وهو احد المفكرين الاكثر موسوعية والاقل منهجية في النصف الاول من ذلك القرن ، قد حاول ان يبدع اسس **العلم الاجتماعي** ان هذا العلم الاجتماعي – **علم المجتمع الانساني** او الفيزياء الاجتماعية كما كان يسميه احيانا – يستطيع في رأيه ويجب عليه ان يصبح في مثل دقة **العلوم الطبيعية** ان من واجبنا ان ندرس الوقائع التي تنتسب الى ماضي الجنس البشري بحيث نكتشف قوانين تقدمه ولن نكون في مقدورنا ان نتنبأ بالمستقبل الا حين نفهم الماضي وقام سان سيمون في سبيل فهم الماضي وتفسيره بدراسة تركزت بصورة رئيسية على تاريخ اوروبا الغربية بعد سقوط الامبراطورية الرومانية

انه شاهد في ذلك التاريخ نضالا شنه **الصناعيون** ( او الطبقة الثالثة كما كانوا يسمون في القرن الماضي ) ضد **الارستقراطية** فقد تحالف الصناعيون مع الملكية وتأييدهم للملوك اتاح لهؤلاء الملوك استلام السلطة السياسية التي كانت فيما مضى بين ايدي الاسياد الاقطاعيين ومنحتهم الملكية دعمها لقاء هذه الخدمات فتمكنوا بفضله من كسب عدد من الانتصارات الهامة على اعدائهم ولقد حقق الصناعيون بصورة تدريجية بفضل عملهم الشاق وتنظيمهم ، سلطانا اجتماعيا قويا اعظم حتى درجة كبيرة من السلطان الاجتماعي الذي كان للارستقراطية وكانت الثورة الفرنسية كما رآها سان سيمون مجرد فصل في الصراع الكبير العريق بين **الصناعيين والنبالة** ولقد استقامت جميع مقترحاته العملية في مشاريع اجراءات اعتقد انه من الواجب اتخاذها لدعم انتصار الصناعيين وتوطيده وتثبيت هزيمة النبالة ومهما يكن من شيء ، فقد كان الصراع بين الصناعيين والنبالة صراعا بين **مصلحتين متعارضتين** واذا كان هذا الصراع قد ملأ ، على حد تعبير سان سيمون كل تاريخ اوربا الغربية منذ القرن الخامس عشر فان في مقدورنا ان نقول ان صراعا بين مصالح اجتماعية رئيسية حدد التطور التاريخي خلال تلك المرحلة وبنتيجة ذلك نكون قد ابتعدنا كثيرا عن فلسفة التاريخ للقرن الثامن عشر فليست الآراء بل المصالح الاجتماعية ، او بالاحرى مصالح الاقسام المركبة الرئيسية

**للمجتمع** ، **مصالح الطبقات** ، والصراع الاجتماعي الناجم عن تعارض هذه المصالح **هي التي تسود العالم وتحدد مجرى التاريخ**

وتركت آراء سان سيمون التاريخية تأثيرا حاسما في واحد من ابرز المؤرخين الفرنسيين ــ **اوغستان تييري** الذي حقق ثورة في العلم التاريخي الفرنسي بحيث يعود تحليل آرائه بفائدة عظيمة علينا

وآمل انكم تتذكرون تلك الفقرة من دولباح التي استشهدت بها والتي تتعلق بتاريخ الشعب اليهودي ففي رأي دولباح ان هذا التاريخ كان من صنع رجل واحد هو **موسى** الذي صاغ طابع اليهود واعطاهم **بنيتهم الاجتماعية والسياسية** كما اعطاهم **دينهم** ولقد قال دولباخ بهذا الشأن ان لكل امة موساها الخاص ولم **تكن** فلسفة التاريخ للقرن الثامن عشر تعرف سوى الشخصيات سوى **الرجال العظام** ، اما **الجماهير** ، **الشعب من حيث هو شعب** ، فلم يكن له وجود على الاطلاق.

وكانت فلسفة التاريخ لاوغستان تييري ، في هذا الشأن النقيض المباشر لفلسفة التاريخ للقرن الثامن عشر اذ كتب في احدى **رسائله عن تاريخ فرنسا** ما يلي

انه لمستغرب جدا المؤرخين رفضوا بعناد ينسبوا الى جماهير الشعب اية عفوية واية أفكار فحين يهاجر شعب كامل بحثا عن مقام جديد فذلك ــ كما يخبرنا المؤرخون والشعراء ــ لان بطلاعزم على تأسيس امبراطورية بغية اسباغ المجد على اسمه ؛ وحين تصبح عادات جديدة مستقرة فذلك لان أحد الشارعين ابتكرها وفرضها وحين تقوم مدينة ،فذلك لان أحد الامراء اسسها الشعب والمواطنين هم دائما السبارة لتفكير رجل واحد*

لقد نفذت الثورة من قبل الجماهير الشعبية وهذه الثورة التي كانت لاتزال طرية في أذهان الناس خلال مرحلة عودة الملكية حالت دون النظر الى التطور التاريخي على اعتباره شأنا موقوفا على بعض الشخصيات الاكثر او الاقل حكمة **والاكثر** او **الاقل** فضيلة ان المؤرخين يرغبون حاليا في **تاريخ للشعوب** بدلا من الانصراف الى دراسة افعال **الرجال العظام** وبوادرهم

كانت هذه النتيجة عظيمة الاهمية جدا وهي أهل لان نتذكرها

لكن لنمض قدما ان التاريخ تصنعه الجماهير هذا حسن لكن لماذا هي تصنعه ؟ وبكلام آخر **حين تعمد الجماهير الى الفعل ، فما غرض هذا الفعل ؟** يقول لنا اوغستان تييري ان هذا الغرض هو تأمين مصالحها وانه ليسأل

أتريدون ان تعلموا بصورة أكيدة من الذي صنع مؤسسة معينة ومن خطرت له فكرة أي مشروع اجتماعي معين ؟ من أجل ذلك جدوا من الذين كانوا في حاجة فعلية الى تلك المؤسسة او هذا المشروع ففي اذهانهم كان لا بد تنشأ الفكرة الاولى عنهما ،

---

* **عشر سنوات من الدراسات التاريخية** ، لاهاي ١٨٨٥ ، ص ٤٨

وعنهم كان **لا** بد ان تصدر الارادة **في** العمل **في** هذا الاتجاه واليهم كان **لا** بد ان يعود الدور الرئيسي في تحقيقهما **is facit qui prodest**: هــذه الحكمــة **تنطبق على** التاريخ والعدالة على حد سواء **عشر سنوات** ، ص ٣٤٨ )

وهكذا فان الجماهير تفعل وفق مصالحها الخاصة فالمصلحة **هي مصدر أية** ابداعية اجتماعية والمحرك الرئيسي لها ولذا كان من اليسير ان نفهم انه **حـين** تصبح مؤسسة ما مناوئة لمصالح الجماهير تباشر هذه الجماهير الصراع ضدها ، ونظرا لان المؤسسة التي تسيء الى **جماهير** الشعب تكون في الاغلب نافعة للطبقــة صاحبة الامتيازات فان الصراع ضد هذه المؤسسة يصبح صراعا ضد هذه **الطبقة** المميزة ان **صراع الطبقات والمصالح المتعارضة** يلعب دورا هاما في فلسفة التاريخ عند اوغستان تييري وهكذا كان تاريخ انكلترا طافحا بهذه الصراعات بدءا من الفتح النورماندي وحتى الثورة التي أطاحت بأسرة ستوارت المالكة وفي الثورة الانكليزية في القرن السابع عشر كانت طبقتان منخرطتين في الصراع الفاتحون ــ النبالة والمغلوبون ــ الجماهير الشعبية بما فيها البورجوازية

ويقول مؤرخنا

كل من جاء اسلافــه مع الفاتح غادر قصره للانضمام **الى المعسكر الملكي كي يشغل** مركزا قياديا يتفق مع مرتبته وتدفق سكان المدن على المعسكر الناهض **ويستطيع** المرء ان يقول ان شعار تجمع الجيشين كان كما يلي من جهة واحدة **البطالــة والسلطة** ، ومن جهة ثانيــة **العمل والحرية** ان جميع المتبطلين ، مهما كان أصلهم اولئك الذين كان غرضهم الوحيد في الحياة ملاحقة المتعة دونما أي جهد ، تجندوا **في القوات الملكيــة** دفاعا عن المصالح التي تتفق مع مصالحهم فيما أسر طائفة الغزاة القدامى التي انصرفت الى الصناعة حاليا اتحدت مع حزب العموم* »

ان هذا الصراع بين طبقتين لــم **يقرر مجرى التاريــخ في الميــدان الاجتماعي** والسياسي وحده بل شوهدت آثاره **في ميدان الافكار ايضا ففي راي تييري ان** المعتقدات الدينية التي كان الانكليز يعتنقونها **في القرن** السابع عشر كانت **محددة** بموقفهــم الاجتماعي

لقد شنت الحرب من الطرفين من أجل مصالح ايجابية ولم يكن كل ما عدا **ذلك** الا عارضا بعة وكان معظم الذين انحاز الى جانب **الرعايا مشيخيين** ، **يعني** لا يرضون بأي نير حتى في الدين أما اولئك الذين ابدو القضية الناهضة فقد **كانوا** أسقفيين أو بابويين فحتى في حقل الدين كانوا يعملون على ممارسة السلطة **وفرض** الضرائب**

وهكذا ترون اننا ابتعدنا اكثر فاكثر عن فلسفة التاريخ للقرن الثامن عشر .

---

* **عشر سنوات من الدراسات التاريخية** ص ٩١

** المصــدر نفســه ، ص ٩٢

فقد كانوا يؤكدون في ذلك القرن ان الآراء تحكم العالم  لكن الآراء مقررة ومحددة الآن بالصراع الطبقي حتى في الحقل الديني

ولاحظوا ان المؤرخ الذي تحدثت عنه لتوي لم يكن الوحيد الذي يفكر على هذا الفرار ، بل شاطره فلسفته التاريخية جميع المؤرخين البارزين لعصر عودة الملكية ولقد كان **مينيه** ، وهو معاصر لاوغستان تييري ، يرى هذا الرأي ايضا ، وقد وصف التطور الاجتماعي بالكلمات التالية في مؤلفه البارز **في الاقطاعية**

تقرر المصالح السائدة الحركة الاجتماعية  وتحقق هذه الحركة اهدافها رغما عن عوائق متنوعة  وانها لتتوقف عن تحقيق هذه الاهداف وتفسح المكان لحركة اخرى تكون غير ملموسة في البداية ولا تتكشف الا حين تصير سائدة  كذلك كان تطور الاقطاعية التي كانت موجودة في الحاجات الانسانية قبل أن تصبح حقيقية ــ وهي المرحلة الاولى وفي المرحلة الثانية كانت موجودة في حقيقة الامر  فيما كفت عن كونها ضرورية ، وهو ما وضع حدا لوجودها الفعلي*

لقد ابتعدنا كثيرا  ههنا ايضا ، عن فلسفة التاريخ للقرن الثامن عشر  كان هيلفيتيوس يأخذ على مونتسكيو دراسته العميقة للقوانين الاقطاعية  فالنظام الاقطاعي بالنسبة الى هيلفيتيوس هو قمة العبث ، وهو بهذه الصفة لا يستحق مثل تلك الدراسة الدقيقة  أما مينيه فكان يعتقد  على النقيض من ذلك ، انه كان زمان ــ والعصور الوسيطة شاهدة على ذلك ــ لبى فيه النظام الاقطاعي حاجات المجتمع ، وبالتالي كان نافعا له  وهو يقول ان هذه المنفعة هي التي جاءت به الى الوجود  وكان مينيه يكرر باستمرار انه ليس الناس هم الذين يجرون الاشياء في اذيالهم  بل الاشياء هي التي تجر الناس في اذيالها  وقد اخذ الاحداث بعين الاعتبار من وجهة النظر هذه في تاريخه للثورة الفرنسية حيث قال في وصفه الجمعية التأسيسية

كان للطبقات الارستقراطية مصالح متعارضة مع مصالح الحزب الوطني  وهذا هو السبب في ان النبالة والطبقة العالية من الاكليروس  اللتين كانتا تجلسان عن يمين  كانتا في معارضة مستمرة لذلك الحزب  طبعا باستثناء بعض الايام من الحماسة الجامعة  ان هؤلاء المستائين من الثورة ، الذين كانوا عاجزين سواء عن منعها بتضحياتهم أو عن كبحها بانضمامهم اليها  قد نهضوا دائما ضد جميع اصلاحاتها**

وهكذا تتحدد الجماعات السياسية بالمصالح الطبقية  وهذه المصالح تولد بعض الدساتير السياسية  ويقول لنا مينيه ان دستور عام ١٧٩٤

كان من صنع الطبقة المتوسطة التي كانت الطبقة الاقوى في ذلك الحين لان القوة السائدة  كما هو معروف لدى الجميع  هي التي تستلم المؤسسات دائما  لكنه حين

* مينيه  **في الاقطاعية** ، القسم الاول ، الفصل التاسع ، ص ٧٧ ــ ٧٨ .

** **تاريخ الثورة الفرنسية** ، المجلد الاول  ص ٤.

تخص رجلا واحدا فذلك هو الاستبداد وحين تخص عدة رجال فذلك هو الامتياز ؛ وحين تخص الجميع فذلك هو القانون ان القانون اكتمال المجتمع بالضبط مثلما هو الاصل فيه ولقد آلت فرنسا اليه اخيرا بعدما تخطت الاقطاعية التي كانت مؤسسة ارستقراطية وتخطت الحكم المطلق الذي كان مؤسسة ملكية

وفي موضع آخر من الكتاب نفسه كتب ما يلي

لكن الملكية سقطت فعليا في العاشر من وهو اليوم الذي سجل عصيان الجماهير ضد الطبقة المتوسطة وضد العرش الدستوري بالضبط مثلما كان الرابع عشر من يوم عصيان الطبقة المتوسطة ضد الطبقات صاحبة الامتيازات وضد حكم التاج المطلق وكان العاشر من آب بداية المرحلة الدكتاتورية والاستبدادية من الثورة ونظرا لان الظروف كانت تزداد صعوبة يوما بعد يوم اندلعت حرب واسعة كانت تتطلب انتفاضة من الطاقة وهذه الطاقة العفوية وغير المنظمة من جراء صدورها عن الشعب ، جعلت حكم الطبقة الدنيا مضطربا وقمعيا وقاسيا لقد تغيرت الاوضاع كليا اذن لم تعد القضية قضية حرية بل قضية سلامة عامة ولم تكن مرحلة الجمعية التي جاءت في اعقاب دستور عام ١٧٩١ وذلك حتى اقام دستور العالم الثالث للثورة حكومة الادارة شيئا آخر سوى حملة مديدة للثورة ضد الاحزاب السياسية وضد اوروبا ولقد كان من العسير عليها على وجه التقريب ان تكون غير ذلك

كان مينيه مثل تييري ممثلا راسخا للطبقة المتوسطة ونظرا لان المسألة تتعلق بتقدير الفعاليات السياسية لهذه الطبقة ، فقد مضى بعيدا جدا حتى تمجيد العنف فهو يقول

« لا يؤخذ الحق الا بالقوة

ونجد عند **غيزو** الاتجاه نفسه ، والتعاطفات نفسها ووجهة النظر ذاتها ، سوى انه يعبر عن ذلك الاتجاه وهذه التعاطفات بمزيد من الحدة ، كما ان وجهة النظر عنده اشد وضوحا ولقد صاغ بصورة جلية منذ عام ١٨٢١ في كتاباته **دراسات في تاريخ فرنسا** ، رأيه فيما يشتمل على اساس البنيان الاجتماعي

حاول معظم الكتاب والعلماء والمؤرخون والدعاة أن يعرفوا حالة المجتمع ودرجة حضارته او نوعها من خلال دراسة المؤسسات السياسية ، فيما كان من الاحكم أن يباشروا بدراسة المجتمع نفسه حتى يعرفوا مؤسساته السياسية ويفهموها فالمؤسسات نتيجة قبل أن تصبح سببا ، والمجتمع ينتجها قبل أن يتغير بسببها ان من واجب المرء ، بدلا من استقصاء انظمة الحكم وأشكاله من أجل ما كانت عليه أوضاع الشعب ، ان يدرس أولا وقبل كل شيء اوضاع الشعب كي يعرف ما يجب ان تكون عليه حكومته أو ما يمكن تكون عليه ان المجتمع وتركيبه ، واسلوب حياة الافراد وفقا لوضعهم الاجتماعي ، والعلاقات بين الطبقات المختلفة من الافراد وباختصار حالة الاشخاص

( l'état des personnes ) تلك هي بالتأكيد المسألة الاولى التي تجذب انتباه المؤرخ الذي يريد يشهد حياة الشعوب العالم الذي يريد يعرف كيف كانت تحكم*

الثورة الانكليزية ؛ الثورة الفرنسية الصراع الاجتماعي ثلاثون قرنا ؛ المناقشات في مجلس النواب ؛ الدساتير الرد على تعنيف ما ؛ توطئة كتاب غيزو **من السار** ، الخ ماذا كتب غيزو في كانون الثاني ١٨٤٩ ؟ كتيبه **في الديموقراطية** وكانت الظروف قد اختلفت اذن وكما قال هو نفسه أما الآن الح ارمان كاريل الكسيس دي توكفيل طبيعة الانسان ؛ رسالة الى ابيه ؛ النظام الاجتماعي الادب

وهكذا فاني آمل ان يكون لي الحق بعد كل هذه الاستشهادات في القول ان علماء الاجتماع والمؤرخين ونقاد الفن ارجعونا جميعا منذ السنوات الاولى من القرن التاسع عشر الى النظام الاجتماعي من حيث هو الاساس الكامن لظواهر المجتمع البشري ونحن نعرف ما هو ذلك **النظام الاجتماعي** ، فغيزو يسميه l'état des personnes انه **حالة الملكية** لكن من اين جاءت هذه الحالة التي تدور حولها الاشياء جميعا في المجتمع ؟ حالما نحصل على جواب واضح ومضبوط عن هذا السؤال يصبح في مقدورنا ان نفسر مجرى التطور التاريخي واسباب تقدم الجنس البشري بيد ان هذا السؤال الهام ـ سؤال الاسئلة ـ هو ما اخفق المؤرخون في الجواب عنه

وهكذا فان لدينا تناقضا ان الافكار والمشاعر والآراء **محددة** بالنظام الاجتماعي؛ ان النظام الاجتماعي محدد بالآراء ان **ب** هي سبب **ج** ، في حين ان **ج** هي سبب **ب** وسوف نرى في محاضرتنا التالية كيف الخروج من هذا المأزق

## المحاضرة الثالثة

( ٢٣ آذار ١٩٠١

أيها السيدات والسادة

في معالجة تطور فلسفة التاريخ اقتصرت حتى الآن على فرنسا بصورة رئيسية. فباستثناء القديس اوغسطينوس ودولباخ كان جميع الكتاب الذين عرضت لكم آراءهم التاريخية فرنسيين (٢٠١) ولسوف نجتاز الآن الحدود الفرنسية ونعبر الى المانيا

كانت المانيا في النصف الاول من القرن التاسع عشر ارضا كلاسيكية للفلسفة .

---

* غيزو **دراسات في تاريخ فرنسا** الدراسة الرابعة ، ص ٧

فن فخته وشيلنغ وهيغل والكثيرين من الفلاسفة الآخرين الاقل اهمية والاقل شهرة ، لكن الذين لا يقلون اخلاصا في البحث عن الحقيقة ، قد تعاقبوا في سبر اغوار مسائل الفلسفة ، هذه المسائل العويصة ، القديمة جدا والجديدة مع ذلك وكانت فلسفة التاريخ تحتل مكانا قياديا بين تلك المسائل العويصة وبالتالي فلن يكون امرا عديم الجدوى بالنسبة اليكم اذا ما راينا كيف رد الفلاسفة الالمان على السؤال المتعلق باسباب التطور التاريخي وتقدم الجنس البشري

ونظرا لافتقارنا الى الوقت الضروري من أجل تحليل مفصل لفلسفة التاريخ التي قدمها كل واحد من هؤلاء الفلاسفة لا بد لنا ان نقتصر على التعرف الى آراء اثنين من اعظمهم – شيلنغ وهيغل ومع ذلك لن نعالج الآراء التاريخية لهذين الفيلسوفين الا بصورة سطحية ومثال ذلك انني لن اتطرق ، بالنسبة الى شيلنغ الا الى مفهومه عن الحرية

ان التطور التاريخي سلسلة من الظواهر تخضع لقوانين محددة والظواهر التي تخضع لقوانين محددة هي ظواهر **ضرورية** .

والمطر مثال على ذلك ، فهي ظاهرة خاضعة لقانون وهذا يعني انه من المؤكد ان قطرات من الماء سوف تهطل على الارض اذا ما توفرت شروط معينة وهذا مفهوم بكل وضوح فيما يتعلق بقطرات من الماء لا تملك شعورا ولا ارادة وعلى اي حال فان الناس ، لا الاشياء الجامدة هم الذين يعملون في الظواهر التاريخية والكائنات البشرية تملك شعورا وارادة ولذا كانت هناك اسباب سليمة لطرح السؤال كما يلي أليس مفهوم **الحرية الانسانية** منفيا بمفهوم الضرورة الذي لا يمكن ان تكون خارجه أية معرفة علمية سواء في التاريخ أو في العلوم الطبيعية ؟ واذا صيغ السؤال بطريقة أخرى فهو كما يلي **أيمكن التوفيق بين حرية البشر في الفعل وبين الضرورة التاريخية ؟**

قد يبدو هذا محالا للوهلة الاولى وان الضرورة تحول دون الحرية . والعكس بالعكس لكن الامور لن تبدو كذلك الا في نظر المرء الذي ينظر الى الاشياء بصورة سطحية **دون التنقيب** خلف القشرة الخارجية للظواهر ومهما يكن من شيء فان ذلك التناقض الصارخ – التعارض الظاهري بين الحرية والضرورة – لا وجود له في واقع الامر فالحرية ، الابعد ما تكون عن نفي الضرورة ، هي مقدمتها واساسها. وهذه الموضوعة هي التي حاول شيلنغ البرهان عليها في احد فصول كتابه الذي يحمل عنوان **نظام المثالية المتسامية** .

ففي رأيه ان الحرية مستحيلة دون الضرورة

فاذا لم يكن لي بد ، في أفعالي من اخذ حرية الآخر وحدها بعين الاعتبار فسوف اكون عاجزا عن **التكهن بعواقب افعالي الخاصة** نظرا لان ادق حساباتي سوف تضطرب في اية لحظة بفعل حرية الغير وهو السبب في أن افعالي يمكن

آن تؤول الى نتائج مغايرة **كليا لتوقعاتي** وبنتيجة ذلك لن انعم بأية حرية وسوف تكون حياتي عرضة **لهوى المصادفة** وليس في امكاني الوثوق من حصيلة افعالي الا اذا كان في مقدوري **التكهن بأفعال** اشباهي من البشر ؛ وكي يكون ذلك في مستطاعي ينبغي لتلك الافعال **ان تخضع لقوانين معينة** ، يعني يجب أن تكون محددة بشيء ما يجب ان تكون **ضرورية** **وهكذا** فضرورة افعال الغير هي الشرط الاول لحرية افعالي الخاصة ومن جهة **اخرى** ، فحين يتصرف الناس بصورة متفقة مع **الضرورة** يستطيعون في الوقت نفسه الحفاظ على حرية فعلهم كاملة وما الفعل **الضروري ؟** انه ذلك الفعل الذي **لا يمكن لفرد** خاص الا القيام به في شروط محددة لكن ما مصدر استحالة عدم القيام **بذلك الفعل ؟ هذا** ما تقرره **طبيعة ذلك** الانسان التي صنعت كما هي عليه بفعل وراثته **وتطوره** السابق ان طبيعته هي بحيث لا يستطيع الا ان يفعل بطريقة **معينة** في شروط **معينة** هذا واضح اليس كذلك ؟ ولنضف الى ذلك حقيقة ان طبيعة **هذا الفرد** الخاص هي بحيث لا يمكنه الا ان يحس رغبات محددة وبذلك نوفق **بين** مفهوم **الحرية** ومفهوم **الضرورة** اني **حر** حين يكون في مقدوري ان افعل **كما اريد** ، **بيد** ان عملي الحر هو في الوقت نفسه عمل ضروري لان رغبتي محددة **بطبيعتي وبالظروف** المعطاة وبالتالي فالضرورة لا تحول دون الحريــة فالضرورة **هي تلك** الحرية بالذات سوى انها تشاهد في مظهر آخر من وجهة نظر اخرى

وبعدما استلفت **انتباهكم الى** رد **شيلنغ** على المسألة الكبيرة الخاصة بالحريــة والضرورة انتقل الى زميلــه وخصمــه ــ **هيغــل** .

كانت فلسفة **هيغل** ، **مثلها** كمثل فلسفة شيلنغ فلسفة **مثالية** ففي رأيه ان **الروح** أو **الفكرة** ، **تشكل** الماهية كما تشكــل نفس الاشياء الموجودة جميعا وليست المادة نفسها سوى **مجرد** تظاهرة للروح ، أو الفكرة أيكون **ذلك** ممكنا ؟ اتكون المادة تظاهرة للروح **حقا ؟ هــذه** مسألة شاسعة الاهميــة من وجهة النظر الفلسفية بيد انه لا **حاجة بنــا الى** معالجتها هنا ان ما ينبغي لنا عمله الآن هو ان نأخذ بعين الاعتبار **الآراء التي** نشأت في نظام هيغل على **هذا** الاساس المثالي

وفقا لآراء هذا المفكر الكبير **ليس التاريخ سوى تطــور الروح العمومي حسب الزمان** ان فلسفة التاريخ **هي** التاريخ في ضوء العقل وهي تأخذ الحقائق كمــا هي والفكرة الوحيدة **التي تدخلها** اليها هي ان **العقل يحكم العالم** ومما لا ريب فيه ان هذا يذكركم **بالفلسفة** الفرنسية في القرن الثامن عشر التي كانت تقول ان العالم تحكمه الآراء او **العقل** ، **الا** ان هيغل فهم هذه الفكرة على طريقته الخاصة فهو يقول في **محاضراته عن** فلسفة التاريخ أن اناكساغوراس كان السباق الى الاقرار، بلغة الفلسفة بان **العقل يحكم** العالم ، وهو لا يقصد من ذلك عقلا واعيا لذاته ، لا يقصد من ذلك الذهن بصفته هذه ، بل **القوانين العامــة** . ان حركــة الجملــة

الشمسية تتبع قوانين ثابتة وهذه القوانين تشتمل على عقلها بيد ان ايا من الشمس او الكواكب التي تتحرك وفقا لتلك القوانين لا تعي ذلك وبالتالي فالعقل الذي يوجه التطور التاريخي هو ، وفقا لهيغل ، **عقل لا شعوري ، مجرد مجموعة من القوانين تخدم حركة التاريخ** . واما الفكر الانساني والآراء الانسانية التي اعتبرها الفلاسفة الفرنسيون للقرن الثامن عشر المحرك الاول في حركة التاريخ فيعتقد هيغل انها محددة في معظم الحالات باسلوب الحياة ، أو بكلام آخر **بالنظام الاجتماعي**.
ولقد توجه الى هذا النظام الاجتماعي في بحثه عن تفسير للتطور التاريخي وهكذا فهو يقول في فلسفته التاريخية ان سقوط سبارطه تسبب عن التفاوت الشديد في الملكية كما يقول ان الدولة ، من حيث هي تنظيم سياسي ، تدين بأصلها للتفاوت في الثروة ولصراع الفقراء ضد الاغنياء لكن هذا لم يكن كل شيء فقد كان اصل العائلة وفقا لهيغل وثيق الارتباط بالتطور التاريخي الاقتصادي للشعوب البدائية وباختصار فان هيغل دون اعتبار لدرجة مثاليته قد رأى ، مثله كمثل المؤرخين الفرنسيين المذكورين في المحاضرة السابقة ، ان **النظام الاجتماعي** هو الاساس الارسخ في حياة الشعوب ولم يكن في هذا المجال متخلفا عن عصره لكنه تقدم عليه ايضا كان عاجزا كليا عن تفسير **اصل النظام الاجتماعي** فالقول معه ان النظام الاجتماعي لشعب ما في اية مرحلة معينة ، مثله كمثل بنيته السياسية وآرائه الدينية والجمالية وشرطه الاخلاقي والذهني يتوقف على **روح العصر** ، معناه عدم تفسير أي شيء على الاطلاق لقد كان هيغل بوصفه مثاليا يعتبر الروح المحرك الاولي للحركة التاريخية فحين ينتقل شعب ما من مرحلة من تطوره الى مرحلة اخرى فهذا يعني أن **الروح المطلق** او العمومي ) الذي يشكل هذا الشعب ناقلا له يرتفع الى طور اعلى من تطوره ولما كانت مثل هذه التفسيرات لا تفسر شيئا على الاطلاق فقد كان هيغل يدور في نفس الحلقة المفرغة التي كان المؤرخون وعلماء الاجتماع الفرنسيون يدورون فيها لقد فسروا النظام الاجتماعي بحالة الافكار وفسروا حالة الافكار بالنظام الاجتماعي

وهكذا نرى أن تطور العلم الاجتماعي في جميع فروعه قاد من مختلف الزوايا ــ زوايا الفلسفة والتاريخ بكل معنى الكلمة وتاريخ الآدب الى نفس القضية الواحدة **التحقق من أصل النظام الاجتماعي** وما ظلت القضية دون حل كان العلم يراوح مكانه في طريق منطقية مسدودة حين كان يقرر ان **ج** هي سبب **ب** فيما هو يشير في الوقت نفسه الى **ب** على اعتبارها السبب في **ج** وعلى العكس من ذلك فان جميع الاشياء سوف تصبح واضحة بالتأكيد حالما تحل مسألة النظام الاجتماعي

وكان حل هذه القضية هو ما سعى **ماركس** اليه حين وضع فهمه **المادي** للتاريخ.

يروي لنا ماركس في مقدمة كتابه **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** كيف قادته دراساته الى هذا الفهم يقول

وقاد استقصائي الى النتيجة التالية الا وهي ان العلاقات الحقوقية وأشكال الدولة على حد سواء **لا** يمكن ان تدرك من تلقاء ذاتها كما **لا** يمكن ان تدرك من زاوية ما يسمى **التطور العام للفكر الانساني** بل ان جذورها تمتد في شروط الحياة المادية هذه التي **يجمع هيغل حصيلتها** على غرار الانكليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر تحت اسم « **المجتمع المدني** » وأن من واجبنا على أية حال البحث عن تشريح المجتمع المدني في الاقتصاد السياسي

وكما ترون فتلك هي نفس النتيجة التي توصل اليها على حد سواء المؤرخون وعلماء الاجتماع ونقاد الادب الفرنسيون والفلاسفة المثاليون الالمان غير ان ماركس يتجاوزهم **جميعا** **فقد** سأل عن الاسباب المقررة لبنية المجتمع المدني واجاب بأنه **يجب البحث عن تشريح المجتمع المدني في الاقتصاد السياسي** وهكذا فالنظام الاقتصادي لاي شعب هو الذي يقرر بنيته الاجتماعية وهذه البنية الاجتماعية تقرر بدورها بناه السياسية والدينية وغير ذلك ولكنكم سوف تسألون: لكن أليس للنظام الاقتصادي سببه الخاص هو الآخر بالتأكيد ، فهو له سببه أيضا ، مثله كمثل أي شيء آخر في العالم ، وهذا السبب ـ **السبب الاساسي لاي تطور اجتماعي ، وبالتالي لاي تقدم تاريخي ـ هو النضال الذي يخوضه الانسان ضد الطبيعة ، في سبيل وجوده الخاص .**

ولسوف أقرأ عليكم ما يقوله ماركس في هذا الشأن

ان البشر يدخلون ، في سياق انتاج حياتهم الاجتماعية في علاقات محدودة لا غنى عنها ومستقلة عن ارادتهم علاقات توافق مرحلة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية وان الحصيلة العامة لتلك العلاقات الانتاجية تشكل بنية المجتمع الاقتصادية وهي الاساس الواقعي الذي تنهض عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية والذي تقابله أشكال محددة من الوعي الاجتماعي اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط التطور الحياتي الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة فليس وعي البشر هو الذي يقرر وجودهم بل الامر على النقيض من ذلك وجودهم الاجتماعي هو الذي يقرر وعيهم وان قوى المجتمع المنتجة المادية تدخل في مرحلة معينة من نموها نزاع مع علاقات الانتاج القائمة أو ـ وهذا ما لا يعدو كونه التعبير الحقوقي عن الامر نفسه ـ مع علاقات الملكية التي كانت فعالة ضمنها حتى ذلك الحين وعندئذ تتحول هذه العلاقات من أشكال لتطور القوى المنتجة الى قيود لها فيبدأ عصر من الثورة الاجتماعية ومع تبدل الاساس الاقتصادي تتعرض كل البنية الفوقية الهائلة للتحول بسرعة تزيد أو تنقص ، وحين يأخذ المرء مثل هذه التحولات بعين الاعتبار فلا بد له أن يقيم مفارقة بين التحول المادي لشروط الانتاج الاقتصادية ، وهو ما يمكن معرفته بمثل دقة العلوم الطبيعية ، وبين الاشكال الحقوقية والسياسية والدينية والجمالية والفلسفية باختصار الاشكال الايديولوجية التي يعي البشر فيها ذلك النزاع ويكافحونه . وكما ن

أينا في فلان من الناس لا يمكن ان يعتمد على رايه الشخصي بنفسه كذلك لا يمكننا أن نحكم على مثل تلك المرحلة من التحول من وعيها الذاتي بل الامر على النقيض من ذلك يجب تفسير هذا الوعي على أساس تناقضات الحياة المادية على اساس النزاع القائم بعين القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج فلا ينقرض نظام اجتماعي قط قبل تكون سائر القوى الانتاجية التي يتوفر لها مجال فيه قد تطورت كما ن علاقات الانتاج الجديدة والاعلى لا تظهر قط قبل ان تكون شروط وجودها المادية قد نضجت في أحشاء المجتمع القديم نفسه وبالتالي فأن الجنس البشري لا يضع أبدا نصب عينيه سوى تلك المهمات التي يسعه حلها ما دمنا سنتبين دائما ، حين نمعن النظر في الامر ان المهمة نفسها لا تنشأ الا حين تكون الشروط المادية لحلها قد توفرت مسبقا أو هي على الاقل في سبيل التكون

اني ادرك تماما ان هذه اللفة ربما بدت غامضة نوعا ما بالرغم من كونها واضحة ودقيقةحتىالدرجةالقصوى،ولذا اسرع فأوضح **الفكرة الاساسية** للفهمالماديللتاريخ.

يمكن تلخيص فكرة ماركس الاساسية كما يلي ١ – **ان علاقات الانتاج تقرر جميع العلاقات الاخرى القائمة بين الناس في حياتهم الاجتماعيـــة** ٢ – ان علاقات الانتاج تقررها بدورها **حالـــة القوى** المنتجة لنر اولا ما هي **القوى المنتجة**

لا بد للانسان مثل جميع الحيوانات الاخرى ، من خوض النضال في سبيل وجوده وكل نضال يتطلب منه مصروفا معينا من قواه ، وشرط هذه القوى يقرر نتيجة النضال وترتهن تلك القوى عند **الحيوانات بنبيـــة عضويتها بالذات** فقوة **الحصان** البري تختلف بشدة عن قوة **الاسد** ، وسبب هـــذا الاختلاف هو الفارق في **تعضيتهما** ومن المؤكد ان تعضي الانسان البدني يمارس تأثـيرا حاسما في الطرق التي نناضل بها في سبيل الوجود وفي نتيجة هذا النضال وعلى أي حال فان بنية الانسان البدنية تمنحه بعض الميزات التي لا تملكها الحيوانات الاخرى فهو يملك **اليدين** على سبيل المثال وصحيح ان جيرانه – الحيوانات **ذات الاربع ايـــد** القرود – تملك ايادي ايضا الا انها أقل تكيفا من اليد الانسانية مع اصناف مختلفـــة من العمل

ان **اليد** مع الذراع ، هي **الاداة الاولى** ، **الآلة** الاولى التي استخدمها الانسان في صراعه من أجل الوجود وتخدم عضلات الذراع والكتف كنوع من النابض من أجل توجيه الضربات او رمي الاشياء ومهما يكن من شيء فقد انفصلت الآلة تدريجيا عن الانسان فالحجر خدم الانسان اولا بوزنه ، بكتلته لكن هذه الكتلة ربطت فيما بعد الى مقبض ، وبذلك تم الحصول على **فأس او مطرقة** وهكذا افادت يد الانسان اداته الاولى في **انتاج ادوات اخرى** ، افادت في تكييف المادة من اجل الصراع ضد الطبيعة ، يعني ضد كل المادة المستقلة الاخرى وبقدر ما ازداد احكام هذه المادة المخضعة وتطور استخدام الادوات تنامت قوة الانسان حيال الطبيعة وتعاظم سلطانه عليهـــا .

ولقد سمي الانسان حيوانا صانعا للادوات ، وهو تعريف اعمق مما يبدو للوهلة الاولى وفي الحقيقة انه حالما اكتسب الانسان القدرة على اخضاع وتكييف قسم من المادة من أجل النضال ضد كل المادة الباقية جعل الانتقاء الطبيعي وغير ذلك من الاسباب المشابهة تمارس الآن تأثيرا ثانويا تماما في التغيرات الطارئة على جسم الانسان فليست اعضاؤه البدنية هي التي تتغير بعد الآن بل ادواته والاشياء التي يكيفها لاستخدامه بمعونة تلك الادوات ؛ وليس جلده هو الذي يتغير مع المناخ الآن . بل **ثيابه** لقد توقف التحول البدني للانسان ( او اصبح ضئيلا جدا لا اهمية له ) ، مفسحا المكان **لتطوره التكنولوجي** وكان هذا التطور التكنولوجي **تطورا للقوى المنتجة** مارس تأثيرا حاسما في **تجمع** الناس وفي حالة ثقافتهم

ويميز العلم المعاصر انماطا اجتماعية متعددة ١ ـ **النمط القنصي** ٠ ٢ ـ **النمط الرعوي** ، ٣ ـ **النمط الزراعي او المقيم** ، ٤ ـ **النمط الصناعي والتجاري**

ويتسم كل من هذه الانماط بعلاقات محددة بين الناس علاقات لا تتوقف مطلقا على ارادتهم بل تقررها حالة **القوى المنتجة** ولنأخذ علاقات **الملكية** كمثال على ذلك

ان بنية الملكية وقف على نمط الانتاج ، نظرا لان توزيع الثروة واستهلاكها يرتبطان بصورة وثيقة بأسلوب الحصول عليها وعند الشعوب القناصة البدائية يضطر رجال عديدون الى الاتحاد كيما يأسروا طريدة كبيرة وهكذا يصطاد الاوستراليون الكنغر في جماعات من عشرات الرجال كما يحشد الاسكيمو اسطولا صغيرا من زوارق الكياك كي يصيدوا الحيتان وتعتبر الكنغرات او الحيتان المأسورة والمسحوبة الى الشاطىء غنائم مشتركة وكل قناص يأكل قدر حاجته كي يرضي شهيته وعند الاوستراليين كما عند الشعوب القناصة الاخرى تعتبر الارض الخاصة بكل قبيلة قناصة ارضا جماعية وكل قناص يبحث عن الطرائد داخل حدود هذه الارض كما يجد من المناسب ان يفعل والالزام الوحيد المترتب عليه هو عدم دخول اراضي القبائل المجاورة

وعلى أي حال فان في هذه الملكية المشتركة سلعا يستخدمها الفرد حصرا فثيابه واسلحته تعتبر ملكيته الشخصية فيما الخيمة واثاثها يعتبران ملكية الاسرة وبالطريقة نفسها فان الزورق الذي يستخدمه جماعة من الاسكيمو تتألف من خمسة او ستة رجال هو ملكيتهم الشخصية ان العامل الذي يقرر ملكية أي شيء هو طريقة صنعه ، نمط الانتاج لقد وضعت بيدي الخاصتين شفرة على فأس من الصوان وبذلك جعلتها خاصتي ؛ ولقد شيدنا انا وزوجتي واولادي كوخا ـ انه يخص الاسرة اذن لقد قنصت برفقة زملائي من رجال القبيلة فالحيوانات التي قتلنا ملكية مشتركة بيننا ان الحيوانات التي قتلتها لوحدي في أرض القبيلة تخصني لكن اذا حدث ان شخصا آخر أجهز على حيوان جرحته ،

فهو يخص كلينا . والجلد يعود الى ذلك الذي وجه **الضربة** القاضية . ويحمل كل سهم شارة صاحبة للتحقق من هويته . واليكم **هذه الحقيقة المرموقة** : قبل تطبيق الاسلحة النارية كان للهنود الحمر في **أميركا الشمالية قواعد** صارمة جدا من أجل قنص البيسون . فاذا اصابت عدة سهام هذا الثور ، **فتوزيعها** يقرر أي جزء من حيوان القتيل هو من نصيب كل قناص . **وهكذا يكون الجلد** من نصيب ذلك الذي جاء سهمه اقرب الى القلب . لكن بما **أن الطلقات النارية** لا تحمل علامات فردية جعلت جثـة الحيوان توزع ، بعد ظهور **الاسلحة النارية** ، في حصص متساوية ، وبالتالي كانت **ملكية مشتركـة** .

هذا المثال برهان دامغ على العلاقة الوثيقة **بين الانتاج** وبنية الملكية .

وهكذا فعلاقات البشر في عملية الانتاج تقرر **علاقات الملكية** ، ما كان غيزو يسميه l'état de la propriété . وعلى أي حال . **فاذا ما اعطيت** علاقات الملكية هـذه فان في مستطاع المرء ان يفهم بكل يسر نظام **المجتمع بأكمله** ، اذ هو يتخذ شكله وفقا لكل الملكية . وهكذا تحل نظرية ماركس **مشكلة حيرت المؤرخين** والفلاسفة في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

وما اكثر ما قيل — وفي الحقيقة لا يزال **يقال — ان ماركس** افترى على الناس حين انكر وجود أي حافز آخر غير **الحافز الاقتصادي** — أي السعي الى الحصول على الثروة المادية . ليس هذا صحيحا . وبيانا **لمدى خطله اورد** مثالا من **علم الحيوان** .

تعلمون بالطبـع ان البنيـة التشريحية **لاي حيوان بكاملها** . فضلا عن عاداته وغرائزه . تقررها الطريقة التي يحصل بها **على طعامه** ، أي بكلام آخر اسلوب نضاله في **سبيل الوجود** . بيد أن هذا لا يعني مطلقا **انه ليس للاسد** الا حاجة وحيدة هي التهام اللحم . او انه ليس للخروف الا رغبة **واحدة هي أن يقضم** العشب . ما ابعد ذلك . ان للحيوانات الكاسرة والنباتيـة على **السواء حاجات** عديدة اخرى وميولا عديدة أخرى . **الحاجة الى التكاثر** ، والحاجة **الى اللعب** ، وقس على ذلك . ومهما يكن من شيء . فان الطريقة التي تتم بها **تلبيـة هـذه الحاجات** المتعددة تقررها الطريقـة التي يحصـل **الحيوان** بهـا على طعامـه . **ولنأخـذ** كمثال علـى ذلك الحيوانات اثنـاء اللعب .

## المحـاضرة الرابعـة

أيهـا السيـدات والسـادة

قبل أن اتطرق الى ما تمكن تسميته **فلسفة الفن من وجهة نظر الفهـم المادي للتاريخ** اود ان اقدم اليكم بعض الايضاحات بشأن **القانون والدين** .

وكيما ابين لكم كيف يرتبط القانون عند **أي شعب ببنيته الاقتصادية** اسألكم

ان تأخذوا بعين الاعتبار ـ كما اشار لوتورنو الى ذلك بصورة صائبة جدا في كتابه **تاريخ الملكية** ـ ان التنظيم الاكثر او الاقل عدلا للمصالح المادية والاهتمام بحماية هذه المصالح هما الاساس الراسخ لجميع المدونات القانونية المحفوظة وبالفعل لنأخذ القانون المدني مثالا على ذلك ما القانون المدني ؟ انه مجمل المؤسسات الشرعية المعينة لتنظيم العلاقات القانونية الناشئة بين الناس في مجال مصالحهم الخاصة ، نعني في حدود اعتبارهم افرادا خاصين وتشتق هذه العلاقات القانونية من مصدرين مختلفين انها تولد من القرابة التي توحد بعض الافراد في جماعة تعرف باسم العائلة،او هي تنبع من السلطةالتي يمارسهاالانسان على الاشياء في العالم الخارجي ، على المادة من حيث هي مسيرة من قبله وخاضعة لارادته وتشتمل حصيلة العلاقات من النوع الاول على قانون العائلة واما العلاقات من النوع الثاني فتشكل قانون الملكية وقانون الالتزام او بكلام آخر **قانون الوقف ( الارثي )** ( Ceux de la seconde forment le droit des biens et des obligations ou en d'autres termes le droit du patrimoine )

واما الحق in rem حق الملكية فقد بينت لكم من قبل كيف ينشأ من **العلاقات الاقتصادية** من **علاقات الانتاج** الاوستراليون والاسكيمو واما تقوم حقوق الملكية مرة فان في مقدور المرء ان يفهم بسهولة انها تولد بعض القواعد الخاصة بنقل الملكية بطريقة انتقالها من شخص الى آخر وانه لمن الواضح على اكمل وجه ايضا ان نقل الملكية من شخص الى آخر يؤدي الى قيام بعض **الالتزامات**. واخيرا فانه من المفهوم على خير وجه ان المؤسسات المعينة لتنظيم العلاقات الناشئة بين الناس تتطلب **ضمانات معينة من جانب المجتمع** ولقد عرف القانون من حيث هو **حصيلة التعليمات او القواعد السلوكية الواجب التقيد بها التي يمكن فرضها على الانسان بالالزام الخارجي او البدني**

فحين يعتدي شخص على حقوق شخص آخر يخضعه المجتمع **بالقصاص** هذا هو اساس **قانون العقوبات** .

« **الملكية سرقة** » هذا التعريف مغلوط تماما من وجهة النظر النظرية **فالسرقة تفترض وجود الملكية الخاصة** . وليس بين القبائل الشيوعية المتوحشة سرقة لانه ليس عندها ملكية خاصة

**القانون العام** يتخذ نظام المجتمع شكله وفقا لشكل الملكية ولقد رأينا من قبل ان علاقات القانون العام بين الاتباع والعاهل في القانون الايرلندي القديم ، كانت قائمة على اساس علاقات الملكية ويمكننا ان نرى في اليونان القديمة وروما القديمة كيف خلق الملاكون العقاريون ارستقراطية استمتعت لوحدها **بالحقوق السياسية** ولم يشترك الناس في الحكومة الا في تلك المدن حيث كان في مقدورهم ان يحصلوا على ملكية الارض .

وهكذا نرى بوضوح عظيم كيف ان المؤسسات الحقوقية مقررة بعلاقات الملكية
**العائلة** **ان العائلة احادية الزواج كما كرسها القانون** تدين بأصلها لتطور الملكية الخاصة وانحلال **ملكية العشيرة الشيوعية .**

**الدين** ما الدين ؟ ثمة تعريفات لا حصر لها للدين واما انا فافضل التعريف الذي اعطاه الكونت غوبله دالفييلا الذي كان يفهم من الدين **الشكل الذي يدرك الانسان فيه موقفه من القوى فوق الانسانية والسرية التي يعتبر نفسه تابعا لها .**
وانه ليعرف عموما بأن الدين مارس تأثيرا هائلا في تطور النوع الانساني ولا آتي هنا على ذكر بوسويه او فولتير وليس ثمة مجال للشك في درجة هذا التأثير الذي لا بد للمرء في سبيل فهمه من الحصول على فهم لاصل الدين او موقف الانسان من القوى فوق الطبيعة

كيف ينشأ في الانسان الاعتقاد بوجود قوى فوق طبيعية ؟ السبب بالغ البساطة ان الاعتقاد بتلك القوى يدين بنشوئه **للجهل .**

لقد نقل الانسان البدائي خصائص اناه الى بعض المخلوقات والاشياء في العالم من حوله وانه لمن الصعب تخيل حركة او عمل لا يسترشدان بنوع من الارادة او الوعي وحسب رؤية الانسان البدائي فان الاشياء جميعا في الطبيعة حية وتتقلص اتساع هذه الحياة الوهمية اكثر فاكثر في عينيه بقدر ما يتعلم أن يساهد بمزيد من الحدة وبقدر ما تتحسن محاكمته لكن بقدر ما يكون لميدان هذه الحياة الوهمية وجود ، فهو مسكون بالآلهة

ولاحظوا ان مثل هذه **الاحيائية لا تمارس** في المراحل الاولى **ادنى تأثير في سلوك** الانسان في المجتمع ففي البداية لم تكن فكرة الآلهة او فكرة العالم الآخر بعد الحياة **تتضمنان أي محتوى اخلاقي** ، بل كانت الحياة المقبلة تعتبر مجرد تواصل للحياة على الارض ؛ ان أرض الموتى تشبه حتى درجة كبيرة ارض الاحياء ، ولها نفس الاعراف ونفس الطريقة في الحياة ان الحياة بعد اللحد مجرد نسخة عن الحياة الارضية ، عالم يسكنه الناس ، والمصير نفسه ينتظر الصالحين والاشرار على السواء.

وبدات الفوارق تتغلغل بصورة تدريجية ان الحياة في العالم الآخر بهيجة للبعض لكنها محزنة ومرهقة للبعض الآخر وفي بعض الحالات كانت الحياة الآتية من نصيب الكبار والاثرياء وحدهم ، فيما نفوس الرجال والنساء العاديين اما ان تفنى مع اجسادهم واما تلتهمها الآلهة وفي حالات اخرى كانت مقامات مختلفة تنتظر نفوس الراحلين فالمقام الواحد هو للكبار والمحاربين والاغنياء ، والحياة فيه وفيرة وبهيجة والمقام الآخر هو للعبيد والفقراء الذين وجودهم بائس والذين لا ينعمون على أي حال بالمسرات المعينة لاولئك الذين يرافقهم حظهم السعيد ماوراء القبر ولا وجود بعد في هذه الحال لمظهر الجزاء الاخلاقي لكنه ظهر بصورة متدرجة في وقت لاحق وهكذا يمضي المحاربون المتزوجون في جزر فوتونا هورن في بولينيزيا

مباشرة الى السماء اذا هم سقطوا في ساحة الوغى فيتقاسمون حياة الآلهة وينعمون بالطعام الوفير واللذيذ وبالتسلية واللهو ان مكان الشرف لاولئك الذين قتلوا في المعركة واذا هم احسوا الشيخوخة تقترب استحموا في المياه المنعشة لبحيرة فايولا وخرجوا منها يزهون شبابا وفتنة

وباختصار ، فان الجزاء على الجرائم يشاهد للمرة الاولى على اعتباره مسألة خاصة في هذا العالم وفي العالم التالي على حد سواء لكن سلطان الآلهة ينمو بعدئذ جنبا الى جنب مع نمو سلطة الحكام الارضيين وتتكاثر وظائفها ان الآلهة ، غير الراضية عن انزال العقاب على الجرائم التي تمسها مباشرة تعاقب كذلك تلك الجرائم التي تورط فيها خدامها وعبادها المخلصون وفي وقت لاحق تظهر الآلهة — على الاقل تلك الآلهة التي تقيم في أرض الموتى — على اعتبارها قضاة يزنون جميع الافعال الانسانية في ميزانهم القانوني وينزلون العقاب حتى بالانتهاكات التي لاتمسهم مطلقا ومن بعد تأصلت فكرة اله من حيث هو القاضي الاسمى وبتداع طبيعي فكرة اله يوزع المكافآت اله يكافىء في العالم الآخر اولئك الذين عانوا الظالم في هذا العالم ، اله العدل والرحمة الذي يمسح في العالم الآتي الدموع التي ذرفها المؤمنون في هذه الحياة من جراء البؤس الذي لا يستحقون

وبنتيجة ذلك فان فكرة الله كما صاغها لبشر بصورة تدريجية تسير بصورة موازية للتغير الاجتماعي ولم يصبح الدين عاملا في الحياة الاجتماعية ، عاملا يصنعه التطور الاجتماعي كما رأينا ، الا في المجتمعات ذات التطور العالي نسبيا واذا كان في مقدورنا ان نربط بين التطور الاجتماعي والتطور الاقتصادي فسوف يكون اذن ملء الحق في القول ان تطور الدين يقرره التطور الاقتصادي

**ولننتقل الآن الى الفن .**

يقر العلم بأن الحيوانات العليا منها لا تبذل كل طاقتها العضلية والذهنية في تلبية حاجات وجودها المادي ، بل تبذلها كذلك في اغراض لا تتوجه نحو الحصول على اية ميزات بل نحو تسليتها الخاصة وحدها وباختصار ، فان لها العابها وان للبشر العابهم ايضا **وهذه الالعاب هي في واقع الامر النشاطات الفنية في الحالة المضفية .**

لنأخذ اولا **الرقص** من حيث هو الفن الاكثر بدائية ان ذكور بعض انواع الطير تنفذ رقصات حقيقية امام اناثها حين تغازلها

ومثل هذا الرقص موجود بالنسبة الى البشر ايضا تلك هي رقصات الغزل التي يتبدل طابعها مع تطور العادات وتظهر الى جانب هذه الرقصات رقصات اخرى يختلف شأنها كل الاختلاف

**رقصات الصيد** تتألف هذه الرقصات من محاكاة لحركات واساليب وطرق الحيوان الذي هو طريدة القبيلة الرئيسية وهكذا فان المولدين الاوستراليين يحاولون محاكاة الكنغر والآمو اللذين يلعب قنصهمـا دورا حاسما في حياتهـم وبالطريقة نفسها تقلد رقصات كمشادال حركات الدب الخرقاء وعند الهنود الحمر سبق رقص الجاموس المنفذ في ازياء مناسبة صيد البيسون واستطيع ان اقدم اليكم امثلة عديدة اخرى من هذا النوع لكني احسب اني قدمت ما فيـه الكفاية ، وافضل ان انتقل الآن الى **رقصات النساء** .

**الرقصات الجادة** ، التي تصور عادة احداثا مختلفة في صراعهن من أجل الوجود وفي عملهن ان النساء الاوستراليات يقلدن الغوص بحثا عن اصداف البحر واقتلاع الاعشاب الاكيلة لاطعام اولادهن او تسلق الاشجار لالتقاط الفلنجر

واضيف الى ذلك كله ان العاب الاولاد محاكاة للعمل الذي ينجزه من هـم اكبر منهـم سنـا

ماذا تمثل هـذه الرقصات جميعا ؟ انهـا تكرر ، في الالعاب والفن البدائي ، **فعاليات البشر الانتاجية . ان الفن صورة مباشرة لعملية الانتاج .**

**رقصات الحرب** الحرب مجرد نوع آخر من القنص حيث العدو هو الطريدة وانه ليصور كذلك في رقصات تمثل حوادث القتال وهي تترافق احيانا بحوار مأسوي وهكذا يجري سكان كاليدونيا الجديدة الحوار التالي مـع زعمائهم في رقصـاتهـم

— هل سنهاجـم اعداءنـا ؟
— نعم سوف نهاجمهـم
هـل هـم أقويـاء ؟
— كلا ليسـوا أقويـاء
— هل هم شجعـان ؟
— كلا ليسـوا شجعـانا
— هـل سنقتلهـم ؟
— أجـل سوف نقتلهـم
— هـل سنأكلهـم ؟
— نعـم سوف نأكلهم
وهكـذا دواليـك

ويرافق الرقص احيانا بالغناء ، وعندئذ يصبح اثرا فنيا حقيقيا ، مثل رقصة الامبي الـي وصفها ستانلي في كتابـه **في ظلمات افريقيـا** . انظر الشاهد ( المؤلف المذكـور ص : ٤٠٧ ) .

**الاغاني** **يترافق العمل دائما بالغناء عند الشعوب البدائية** ، واللحن والنص فيه ثانويان فيما التاكيد على الايقاع ويمل الابداع الغنائي ايقاعات العمل بكل دقة ؛ ان الموسيقى تدين له للعمل اغنى لصوت واحد او لعدة اصوات حسبما ينجز العمل من فرد واحد جماعة

**استنتاجات بوشر**

الى الاستنتاج العمل و شعر صوره المرء يتساءل هل كانت هذه العناصر الثلاثة مستقلة عن بعضها بعضا بادىء الامر أم لعلها ولدت سوية ولم تنفصل الا في وقت لاحق بعد مرحلة مديدة من التمايز ؟ اذا كان الامر كذلك ، فأي من هذه العناصر الثلاثة كان النواة ، وقد التحق العنصران الاخران بـه فيما بعد ؟ **ان الجواب** هو ان العمل كان يشكل النواة وقد انضم اليـه في وقت لاحق العنصران الاخران ـ الموسيقى والشعر

**أمثلـة** اغنية للحمالين الزنوج استخدمها الرحالة البريطاني **بورتون**

**المغنـي** **الرجل الابيض الشرير قادم من الساحل .**

**الجوقة** **تعقبـه ، تعقبـه !**

**المغنـي** **سوف نتبعـه ، الرجل الابيض الشرير**

**الجوقة** **تعقبـه ، تعقبـه !**

**المغنـي** **وسوف نظل معه ما اعطانا طعاما جيدا .**

**الجوقة** **تعقبـه ، تعقبـه !**

وهذه اغنيـة للحصادين في لثوانيـا

**كليب ، كلاب ، كلاب ،**

**كليب ، كليب كليب ،**

**كليب ، كليب ، كلاب ، كلاب .**

ويترافق هذا كله بالشتائم من قبل المراقب او صاحب العمل وهذه اغنيـة للنساء اللثوانيات اللائي يستخدمن الطاحون اليدوي

**غني ، غني ، يا طاحوني ،**

**لا اعتقد اني وحدي .**

أو ايضـا :

**ايـه ، أيهـا الفتى الرقيق ،**

**لماذا وقـع بصرك علـي ،**

**أنـا الفتاة المسكينة ، الـخ .**

**الرسم .** الشعوب القناصة رسامون ممتازون

**التزيين** ان الزينة التي كانت مستعملة في تلك الازمان السحيقة تبين بكل وضوح تطور الفنون التزيينية ولقد كانت صناعة الفخار البدائية تجمل بزينات خطية خالصة تستقيم في خطوط متعرجة او اقواس او اشكال ماسية مختلفـة وزوايـا وخطوط متقاطعـة

وعلى اي حال فلنترك سكان تلك الاجزاء الواقعة في الجهة المقابلة من الكرة الارضية وغاباتهم المليئـة بأشجار الاوكاليبتوس ولننتقـل الى القارة الاوروبية ولسوف نختار هنا لاسباب عديدة فرنسا كأفضل مثال لنا

كانت فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر بلادا متحضرة ليس فيها الا آثار ضئيلة للشيوعية البدائية وقد انقسم سكانها لقرون عديدة الى طبقتين كبيرتين — الارستقراطية وعامة الشعب او الطبقة الثالثة

كيف اثر هذا الانقسام في الفن الفرنسي ؟ جوابـا عن هـذا السؤال سوف اسألكم ان تتذكروا كلمات مادلون في مسرحية موليير **السخيفات الغاليات**

« Oh ! mon père , ce que vous dites là est du dernier **Bourgeois** Celà me fait honte de vous ouïr parler de la sorte

ان الرجل النبيل يأخذه الخجل اذا تحدث على طريقـة **البورجوازية** وهكذا كانت طريقة البعض في الحديث تتفق مع البنيـة الاجتماعيـة ، وهو اتجاه ما كان يمكن الا ان يجد له تعبيرا في الادب والفن على حد سواء ولقد بين هيبوليت تين بكل وضوح كيف ان المأساة الفرنسية ولدت من عادات واذواق الارستقراطية الفرنسية في القرن السابع عشر وفي الحقيقة ان هذه العادات والاذواق كان لها تاثير شديد جدا في الادب لا في فرنسا وحدها بل في انكلترا ايضا بحيث كان شكسبير موضع النقمة التامة ابان عودة الملكية ( ١٦٠٠ — ١٦٨٨ كانت مسرحيته **روميو وجولييت** تعتبر اذن مسرحية تافهـة

وفي الوقت نفسه لم يكن من المألوف ان يظهـر على خشبـة المسرح الا الملوك والملكات والابطال والاميرات كي يتحدثوا عن امور لا تقل اهمية عن امتلاك التيجان او سقوط الدول لقد كان الناس مثلهم كمثل مادلون بطل موليير يخشون

يا ابي ما تنطق به مبذل جدا ويخجلني ان اسمعك تتحدث بهذه **الطريقة**] .

ان يكونوا مبتذلين وقد ظهر ابطال العصور القديمة على المسرح في زي الماركيزات، وفي اواسط القرن الثامن عشر، كان قيصر يمثل على المسرح وعلى رأسه **شعرمستعار،** فيما كان اوليس يظهر بين الامواج **وعلى وجهه المساحيق . فولتير بخصوص هملت**

تصوروا ايها السادة لويس الرابع عشر في قاعة المرايا ( في فرساي ) يحيط به بلاطه المتألق وتصوروا مهرجا يرتدي الاسمال ويشق طريقه عبر ذلك التجمع من الابطال والعظماء والنساء الفاتنات الذين يشكلون ذلك البلاط وانه ليقترح عليهم ان يتخلوا عن كورنيل وراسين ومولير من اجل بونشينيلو الذي يبدي دلائل على الموهبة لكن يصر على التكشير ما رأيكم ؟ كيف ستكون ملاقاة مثل هذا المهرج ؟

**رد الفعل** ان المهزلة الباكية ، وهي **نوع** وسط بين المهزلة والمأساة ، تحمل الناس العاديين ، الفاضلين او شبه الفاضلين ، الى المسرح حيث تظهرهم في اوضاع خطيرة ومهيبة واحيانا مفجعة تبث الفضيلة فينا وتثير اشجاننا لدى رؤية الشقاء وتجعلنا نصفق لانتصار الفضيلة وهذا **النوع** من المهزلة الذي ادخله لاشوسيه الى فرنسا ظهر للمرة الاولى في انكلترا ان التحرر مطلق العنان للادب ، وللمسرح على الاخص خلال مرحلة عودة الملكية قد قاد ، في نهاية القرن السابع عشر الى رد فعل حرضته الاحداث السياسية فمشاعر الجمهور حملت المؤلفين على الكتابة بمزاج الفضيلة وكان بلاكمور ، وهو شاعر تافه ، هو الذي شن الحملة الصليبية ضد التحرر الكلبي الذي كان سائدا على المسرح وكان جيريمي كولييه هو الذي وجه الضربة القاضية ، وقد تبعه في ذلك ليلو ( **الفضول القاتل** ، ١٧٣٧ ) حيث شيخان

وهكذا يخضع الفن في المجتمع البدائي الاكثر او الاقل شيوعية للتأثير **المباشر** للاوضاع الاقتصادية ولحالة القوى المنتجة وفي المجتمع المتحضر يتقرر تطور هذه الفنون الجميلة **بالصراع الطبقي** الذي يتقرربدوره بطبيعة الحال بالتطور الاقتصادي، لكن عمل البنية الاقتصادية يتم في جميع الحالات **بوساطة** الطبيعة

* * *

# في كتاب بقلم مازاريك

**اسس الماركسية الفلسفية والسوسيولوجية . دراسات في المسألة الاجتماعية ،**
بقلم توماس مازاريك الاستاذ في الجامعة التشيكية في براغ ترجمه عن الالمانية
ب نقولاييف ، موسكو ١٩٠٠

هذا كتاب لا بد ان يقراه كل انسان معني « **بنقد الماركسية** » وصحيح **ان** لغة الترجمة فظيعة ، وما اغلب ما **يخفق** المترجم في **فهم** المؤلف بحيث يستحسن التعرف الى الاصل الالماني لكن الكتاب حتى في الترجمة الروسية **الفظيعة ،** لا بد ان يعود ببعض الفائدة على القراء ، اذ يميط اللثام لهم عن **سيكولوجية اولئك** « **النقاد** » الذين يتسترون خلف عبارات واهية عن ضرر الاورثوذكسية ، وعن **الحاجة** الى السير قدما آسف **الى النكوص على الاقدام** ، وهكذا دواليك

ان السيد مازاريك ناقد علمي وضليع وحازم ، وان لم يخل من بعض **اللطف** الذي ينبىء بالتفوق ولقد درس الماركسية في ادق التفاصيل و ــ الويل لنا ، نحن الماركسيين « الاورثوذكسيين ــ اطاح بهذه النظرية الى الابد ، حيث **برهن** على ان ماركس وانجلز ــ لكن لا ، **تلك** ليست الطريقة السديدة في مناقشة **الموضوع،** بل يجب أن نأخذ الامور في ترتيبها الصحيح

وهكذا فمادية ماركس بنية **معقدة** جدا ، ومن الجلي تماما ان ماركس **حاول** ان يقدم تركيبا لاراء متباينة نضجت في زمانه **ولا يستطيع** الناقد **الموضوعي ان** يمنع بمثل هذا التركيب ان فلسفة ماركس وانجلز **تحمل** طابع **الانتقائية ، وعلى** الرغم من ميلهما الى النقد فان أيا منهما **لا يملك تلك** القدرة **النقدية او تلك الطاقة** الابداعية اللازمتين لدمــج العناصر المتنافرة في الاتجاهات الحالـيــة في كل **واحد** متناسق ص ٨٢ )

وهكذا يتضح ان ماركس وانجلز **انتقائيان** وحين تعرفنا بصورة اوثق **الى** هذا الحكم القاسي من ناقدنا الموضوعي » تذكرنا رئيس محكمة الجنايات في قصة

هرتزن **اغفال** الذي يقول هل تعتبرني يا سيدي تركيا ام يعقوبيا حتى تتوقع مني بدافع الكسل الخالص ، ان اضاعف من بؤس رجل بائس مسبقا الخ

ويقول هرتزن بهذا الصدد لاحظوا ان اليعقوبيين في الماضي اتهموا بجميع العيوب لكن شرف اتهامهم بالكسل يعود على وجه الحصر الى فلاديمير باكوفليفيتش وبالطريقة نفسها بالضبط يعود شرف اتهام ماركس وانجلز **بالانتقائية الفلسفية** الى السيد مازاريك حصرا ونحن نوجه تهانينا الى الهر الاستاذ في الجامعة التشيكية فهو على الاقل لا يفتقر الى **الاصالة** .

لكن علام ترتكز التهمة **الاصيلة** التي يوجهها السيد مازاريك ؟ انها ترتكز على اثباتات عديدة لا تقل **اصالة** عن التهمة بالذات

كان ماركس هيغليا في البداية لكنه انحاز بعدئذ الى وجهة نظر فيورباخ فهو اخذ **الطريقة الجدلية** عن هيغل واخذ **المادية** عن فيورباخ ومهما يكن من شيء فان الجدلية والمادية متنافرتان فناقدنا الموضوعي يقول ان الجدلية المادية contradicto in adjecto ص ٤٥ فاذا كان على حق فلا بد لنا من الاقرار على مضض بان فلسفة ماركس ( وانجلز ) مشربة بالانتقائية حقا لكن اهو على حق ؟ تلك هي المسألة ما الذي نقوله الفعل

هذا ما نقول وفقا لنظرية المعرفة عند ماركس وانجلز يكون المفهوم انعكاسا للاشياء في الدماغ ؛ ما هو هذا الانعكاس ، وكيف هو ممكن عموما هذا ما لن ندرسه حاليا لكنه من الواضح ان جدلية المفاهيم مستحيلة مع مثل وجهة النظر هذه ص ٤٥ — ٤٦ ) .ونحن ايضا « **لن ندرس حاليا** » مسألة كيفية انعكاس الاشياء في الدماغ لكننا نصر على معرفة السبب في ان **جدلية المفاهيم مستحيلة مع مثل وجهة النظر هذه** » فمن الواضح ان المقصود هنا هو **كيف تجري الامور في الطبيعة** فاذا كانت الاشياء جميعا تجري **جدليا** كما يقول انجلز ، فمن البدهي اذن ان **المفاهيم التي هي « انعكاس للاشياء في الدماغ »** يجب ان تكون ايضا من طبيعة جدلية ومن المستغرب أن مثل هذا الاعتبار البسيط ويمكن ان نقال الذي **لا مفر منه** ، لم يخطر للسيد مازاريك لا بد ان السبب في ذلك بعض الشرود العابر

ويستطرد السيد مازاريك قائلا لا يعترف ماركس بالمعرفة المزدوجة كما يقول هيغل المعرفة الجدلية العليا والمعرفة البسيطة بواسطة العقل يقول الاصل الالماني verstandesmässige وهو يعني **المعرفة بمساعدة الذهن** وليس **العقل** كما ترجم السيد ب نقولاييف ذلك **ج . ب .** ) ، العقل الذي لا يتغلب على التناقضات » ( ص ٤٦ ) .

هذا يتوقف على الظروف يا صاحبنا الناقد الموضوعي فلو انك قرأت بانتباه كتاب انجلز **ثورة الهر اوجين دوهرنغ في العلوم** ، او على الاقل كتابه **الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية** ، لما نسيت ما يقوله فيهما عن علاقة الفكر **الجدلي** بالفكر **الميتافيزيائي** فانجلز يضع الفكر الجدلي فوق الفكر الميتافيزيائي لكن لا يخطر له البتة ان ينكر **الصلاحية النسبية لهذا الفكر الاخير** فالفكر الميتافيزيائي ( **او الذهني** ) اساسي بصورة مطلقة ضمن بعض الحدود ، لكنه بعيد جدا عن كونه كافيا من اجل فهم مناسب للعمليات الجارية في الطبيعة والحياة الاجتماعية **فلا بد من استكماله بالفكر الجدلي**(٣٠٤) • هكذا كان انجلز يفكر وهو بالطبع لم يتحدث في هذه الحال باسمه وحده بل باسم ماركس ايضا ومع ذلك يساوي ناقدنا الموضوعي بين هذه الفكرة وبين **الرفض التام** للفكر الميتافيزيائي ( الذهني وهو يقدم هذا الرفض **المخترع من حيث هو حجة** ضد المادية الجدلية أي نوع من النقد هو هذا النقد ؟

ونقرأ بعد قليل لا يعترف ماركس بأية معرفة قبلية فبالنسبة اليه لا وجود لاية مفاهيم قبلية عن الزمان او المكان وعلى العموم ليس ماركس ذاتيا يعني ليس مثاليا وبالتالي فهو حازم في رفضه جدلية هيغل ويمتدح انجلز وماركس فيورباخ من حيث هو انسان تغلب على جدلية هيغل لكنهما من بعد يقبلان على حين غرة الجدلية بكاملها ص ٤٦ )

لا بد لنا هنا من فرز الاشياء فحين امتدح ماركس وانجلز فيورباخ «لتغلبه» على جدلية هيغل كانا يقصدان الجدلية **المثالية** التي لم يكفا قط منذ ذلك الحين عن النظر اليها في ضوء سالب لكنهما حين دافعا عن الطريقة الجدلية واوصيا بها كانا يقصدان ( وهذا ما استلفتنا اليه انتباه القارىء باستمرار ) الجدلية **المادية** التي ادت لهما خدمات جلى في تقديم البرهان العملي على الاشتراكية وليس هنا أي تناقض على الاطلاق

اما انهما لم يعترفا بجدلية هيغل « **بكاملها** » ( كما يؤكد ناقدنا الموضوعي ) فهذا ما يتبين من نقدهما لها على اعتبارها **مثالية** فلماذا التأكيد على ما لم يكن له وجود قط ؟

ويتصدى السيد مازاريك للبرهان لنا على ان الجدلية **المادية** هي contradicto in adjecto، وهذا هو الآن لا يميز هذه الجدلية من الجدلية **المثالية** ، ويؤكد ان ماركس وانجلز اللذين رفضا في البداية هذه الجدلية الاخيرة قبلا بها من بعد على حين غرة بكاملها ان القيام بمثل هذه الوثبات المفاجئة وغير المبررة منطقيا يكشف عن اضطراب تام في المحاكمة

لكن لنسمع **مرة اخرى ما** لدى صاحبنا الناقد الموضوعي من اقوال
وفي كل الاحوال ، **فان ماركس** وانجلز سعيا الى البرهان على الجدلية في الطبيعة وحدها بيد ان **الجدلية** ، **انطلاقا** من الطبيعة ، تجد سبيلها الى الدماغ ( الذي هو جزء من الطبيعة ايضا ) ، بحيث يتضح في النهاية ان المادية تملك نفس طريقة المثالية ص ٤٦ الترجمة الروسية تقول « الجدلية طريقة مثلها كمثل المثالية ضبط وهذا لا معنى له البتة )
ان ما قاله ناقدنا لتوه يبين طيشه وتعجله في التصدي للتأكيد بأن جدلية المفاهيم مستحيلة وفي الحقيقة انه اذا كانت العمليات الجارية في الطبيعة جدلية واذا كانت الجدلية **انطلاقا** من الطبيعة تجد سبيلها الى الدماغ يا له من اسلوب مذهل فانه من **الواضح** اذن ان جدلية المفاهيم **ممكنة وضرورية** على حد سواء ولقد اشرنا **من** قبل الى هذا الظرف الذي يعترف به حاليا صاحبنا الناقد الموضوعي » **الذي لم** يجده من قبل اهلا للملاحظة ولقد ابهجنا هذا كثيرا من اجلنا ، ومن اجل ماركس ، ومن اجل الجدلية ومن اجل ناقدنا ايضا
ان مادية ماركس تستقي من اجل جدليتها من نفس المصدر الذي استقى هيغل منه مرة اخرى يا له من اسلوب مذهل انه يرفض هو الآخر القانون المنطقي للتناقض ( في الترجمة الروسية للسيد ب نقولاييف **الموضوعة عن التناقض** ) ويمدح انجلز هيراقليطس يمثل مديح هيغل له ويرى ماركس في الحركة ينبوع كل حياة ، فنحن نحيا في ملء حركة متصلة ؛ والشيء الوحيد الجامد هو تجريدنا للحركة — mors immortalis
مرة اخرى يا له من خليط غير مفهوم من الافكار
اننا نعرف من قبل ان انجلز أقر **بالصلاحية النسبية** للفكر الميتافيزيائي وهذا الاعتراف يضاهي الاعتراف **بالاهمية النسبية** وان لم تكن **المطلقة** بالطبع ) **للقانون المنطقي للتناقض** • لكن الاعتراف بالاهمية النسبية لهذا القانون **لا يتضمن انكاره في حال من الاحوال** • ولم ينكر هيغل مثله كمثل ماركس وانجلز أهميته النسبية ابدا ولو أن ناقدنا تكلف عناء دراسة **منطق** هيغل لادرك أي هراء نسبه الى هؤلاء المفكرين لكن الامور جميعا تبين أن ناقدنا العالم **لا يعرف هيغل مطلقا** ، وهو حين يتحدث عنه يرضى بتكرار بعض التفاهات الخالية من ادنى مضمون نقدي حقيقي
ولنتابع وماذا في اعتبار ماركس الحركة مصدرا للحياة كلها ؟ يثبت هذا أن مصدر الجدلية » في ماديته هو نفس مصدر مثالية هيغل ؟ في نظام هيغل **حركة الفكرة** هي « مصدر الجدلية وليس **حركة المادة** التي هي مصدر الحياة كلها وفقا لماركس وليس وفقا له كيف يمكن للمرء أن يحشر معا هذين المصدرين » المتمايزين تماما ؟

ولن نتوقف عند المديح الرفيع لهيراقليطس فمن المفروغ منه ان هذا لا يشكل برهانا على ما يود السيد مازاريك البرهان عليه
وبالتالي يجب الا ندهش اذا كان انجلز احيانا النص الالماني يقول ( unter der Hand ) – سريا بصورة غير ملحوظة يقبل الجدلية الذاتية بكل وضوح ص ٤٦
اننا نعتقد ان انجلز اعترف بالجدلية الذاتية لا ( unter der Hand ) فحسب بل بصراحة تامة وبصورة علانية ولا يمكن لهذا ان « يدهش الا اولئك الذين لا يملكون أي فهم على الاطلاق لنظرة انجلز عن العالم والامر الذي لا ريب فيه هو ان السيد مازاريك واحد من هؤلاء فاذا هو نسب الى انجلز اعترافا مسسرا ( unter der Hand ) فقط بالجدلية الذاتية فذلك انه يرى هو نفسه ان **أي** اعتراف بها **يبعث على الدهشة** . ومع ذلك ، فأي شيء يمكن ان يكون ابسط او اكثر طبيعية ؟ اذا كانت مفاهيمنا « **انعكاسات** » للعمليات الجارية في الطبيعة **فلا يمكن اذن الا ان تتضمن العنصر الجدلي***. ان كل من يعترف بوجود العمليات الجدلية في الطبيعة **ملزم بالاعتراف** « **بالجدلية الذاتية** » من عساه يجد هذا الامر باعثا على الدهشة » ؟
ويقول السيد مازاريك بعناد اخفق ماركس وانجلز في فهم أن جدلية هيغل لا تناسبهما وهذا ظرف بالغ الاهمية فنحن نصادف تناقضات عديدة بصورة مفصلة في كتاباتهما وهذا ما يفسره التناقض في البرهان النظري المعرفي على النظام أكمله ص ٤٦
أيعتقد ناقدنا حقا ان ماركس وانجلز اخفقا في فهم ذلك ؟ لقد رفض ماركس انجلز بالفعل جدلية هيغل **المثالية** لماذا تزعم انك نسيت هذا « **الظرف بالغ الاهمية** » ؟ اننا نعرف السبب فيه فأنت تدرك ان اعتراضات جديدة عديدة رفعت على الجدلية **المثالية** ، فيما عجزت عن ابتكار اعتراض جدي واحد على الجدلية **المادية** تتملص من هذا المأزق حاولت ان تنقل اللوم فنسبت الى ماركس جدلية هيغل المثالية ومما لا ريب فيه ان هذه حيلة مناسبة جدا لكن هي درجتها من الاقناع ؟
يغالط السيد مازاريك نفسه في الصفحة التالية حين يقول صحيح ان ماركس وانجلز ينهضان ضد هيغل ويدينان طريقته والسؤال الآن هو ما عسانا نفعل بالظرف بالغ الاهمية الخاص باخفاقهما في فهم ان جدلية هيغل لاتناسبهما؟

---

* لا يسعنا هنا ان نناقش كيف يجب أن تفهم عبارة « **الانعكاس** » بل سوف نعالج هذا الامر بالتفصيل في موضع آخر وهو أمر ضروري جدا لان النقاد يعزفون عليه ويصفونه على العصا . وعلى أي حال فقد قدمنا تفسيرا جزئيا له في مقالتنا « المادية مرة أخرى » .

وكما ذكرت فان هذا الظرف يكمن خلف جميع اخطائهما ويدرك السيد مازاريك نفسه مبلغ عدم مناسبة **هذا** التناقض له ويحاول ان ينتقص من اهميته يطمسه كما سوف نقول ، السيد ستروفه وانا ) ب **Redensarten** التالية

لكنه في الامكان الحديث اكثر من ذلك ضد هيغل وبمزيد من الحمية كما فعل شوبنهاور . ومع ذلك فان شوبنهاور هذا نفسه ، الذي ادرك خطيئة هيغل ، استخدم طريقة لا تقل عن ذلك خيالا وذاتية ولقد قاتل ماركس وانجلز بالطريقة ذاتها عبثا ، ضد الضغط المطبق عليهما من قبل هيغل ص ٤٧ )

**قاتلا عبثا ضد الضغط !** لا بد ان توافق أيها الهر الاستاذ ان هذا تعبير بالغ الغموض واذا كان هذا كل ما يسعك قوله عن طريقة ماركس فان مطامحك النقدية لتتجاوز كثيرا اذن قدرتك النقدية

وعلى أي حال ، فان صاحبنا الاستاذ لم ينته بعد من استقصائه في طريقة ماركس فلنسمعه حتى النهاية

لا وجود للجدلية الموضوعية هذا شيء سمعناه من قبل لكننا نسألك أن تثبته لنا أيها الهر الاستاذ ليس في الطبيعة ذاتها أي تناقض جدلي مرة أخرى ليس هذا **برهانا** ، بل تكرار جديد لما طلبنا من الناقد **ان يبرهن عليه لنا** نستطيع ان نتحدث عن الانجذاب والدفع بالمعنى الطبيعي العلمي للعباره وعن الحب والحقد ، وعن الحرب والسلام في المجتمع الانساني ، لكن هذا كله لا هو جدلية هيغل ولا هو جدلية ماركس وبنتيجة ذلك فثمة نوعان من الجدلية **جدلية هيغل وجدلية ماركس** . ولم يفسر صاحبنا الاستاذ الفارق بينهما لنا بل وصف الاشياء بطريقة توحي بأن جدلية ماركس لا تختلف في حال من الاحوال عن جدلية هيغل وهذا هو ما يسميه نقدا باللمصطلحات الغريبة ! يا للناقد غير المفهوم ان بقية العبارة التي نسخناها **ليست هي مرة اخرى برهانا ، بل تكرار لما يتطلب البرهان** يا لها من حدة مذهلة للفكر النقدي !

ومن بعد يزعم صاحبنا الاستاذ انه يبتغي ان نحلل بعناية مثالا على الجدلية في الطبيعة استشهد انجلز به ، وينادي بأن هذا المثال تضمن شيئا متميزا مما يريد انجلز البرهان عليه » ( ص ٤٧ ــ ٤٨ ان المقصود هو المثال الشهير عن بذرة الشوفان لن اطيل بشأن هذا المثال فمن الواضح على الفور انه غير مناسب ــ فعلى الاقل التلقيح والنمو والتطور والتكاثر ( Vermehrung في الالمانية ) شيء يختلف عن الفرضية ــ ضد الفرضية ــ التركيب عند هيغل هذا بالفعل عملية تطور ،وفي تواصلها وتبدلاتها اللامتناهية في الصغر تختلف بصورة جوهرية عن الثلاثية » ( ص ٤٧ ) وهذا كل شيء ويستطرد صاحبنا الاستاذ فيضيف هذه الملحوظة الموجزة فقط ان الامثلة الاخرى من المجالات المختلفة للمعرفة تقدم أيضا لوحة عن التطور غير الجدلي

اما ان التلقيح والنمو والتطور والتكاثر **شيء مختلف** عن الفرضية وضد الفرضية والتركيب فهذا بالفعل ما هو « **واضح على الفور** » ، لكنه من **الواضح على الفور** ايضا انه لا يثبت اي شيء على الاطلاق **فعلى اي حال** حين **يسقط** جسم يكون **انعكاسه** شيئا يختلف ،يختلف تماما عن **نظرية الميكانيك** القائلة ان **زاوية السقوط تساوي زاوية الانعكاس** . لكن هل يثبت هذا « الظرف بالغ الاهمية خطل النظرية ؟ وهل يخطر في بال انسان ان يرتاب في هذه النظرية **ذات الحدين** بالاشارة الى ان الحركة عملية متصلة ومترافقة بتبدلات لامتناهية في الصفر ؟ تعطف ، أيها الهر الناقد ثمة سبب صالح يجعلك ترى العالم ، كما تقرر انت نفسك ، بصورة توحيدية

لقد اخذنا الاونة فكرة عن مبلغ عمق « النقد » الذي يوجهه الاستاذ الى جدلية ماركس ويستطرد السيد مازاريك فيناقش هيغل على هذا الفرار

سبق لهيغل ان قدم مفهوم التطور والتقدم ، لكن هذا المفهوم لا يتفق مطلقا مع الآراء الراهنة فهو يرى التطور من خلال وساطة الكارثة ، وساطةالجيشانات والتناقضات الكبرى ويتبعه فيورباخ في هذا ، ويتبع ماركس كليهما (ص ٤٨).

يتحدث الاستاذ هنا مرة اخرى عن شيء « **لم يكن له وجود قط** » فهيغل لم يقل ابدا ان التطور لا يحدث الا من خلال وساطة الكارثة ، وساطة الجيشانات والتناقضات الكبرى لقد كان يدرك على خير وجه ان عملية التطور تستقيم ايضا في **التغيرات والتناقضات اللامتناهيــة في الصغر** ، وهو يضيف ان هــذه التغيرات والتناقضات اللامتناهية في الصغر . **وهي ابعد ما تكون عن الحيلولة دون « الجيشانات والتناقضات الكبرى » ، تؤدي احيانا اليها بصورة حتميــة** . ولقد وضع موضع تساؤل صلاحية الموضوعة الشهيرة القائلة **ان الطبيعــة لا تقوم بوثبات** واذا كان الهر الاستاذ من الجامعة التشيكية يجد ان حجج هيغل لا اساس لها ، فليدحضها. وعلى اي حال فهو لا يبذل حتى اي مسعى في سبيل ذلك ، بل **يقتصر على تشويه فكر هيغل** يا لبعض النقاد !

الا ان هذا التشويه مميز جدا بحد ذاته ، اذ هو يميط اللثام عن الاساس سيكولوجي لجميع الهجمات الراهنة على الجدلية الهيغلية فهذه الجدلية تغيظ البورجوازيين الصغار لانها تبرر « **الجيشانات الكبرى** » Das ist des Pudels Kern وبالطبع فان المبرر نفسه يفسر الموقف الاشد سلبية الذي يتخذه هؤلاء البورجوازيين الصغار انفسهم من جدلية ماركس المادية وان « الظرف الهام » يشكل احدالبراهين الاثبت على الانحطاط العميق في الفكر الفلسفي بين البورجوازيين المثقفين في ايامنا

ولا بد ان القارىء ادرك الآن السبب في ان فلسفة ماركس وانجلز تتسم « **بالانتقائية** » < ذلك ان هذه الفلسفة هي **جبر الثــورة** الحقيقي > ولو كان في الامكان نزع مضمونها الثوري منها فسوف يوقف « النقاد » من امثال السيد مازاريك

هجماتهم في الحال ، كما سوف تجد انصارا عديدين بين تلك العناصر المثقفة من البورجوازية الصغيرة وهي عناصر على استعداد دائما للدفاع عن **الاصلاحات الاجتماعية،** لكن قلبها ينخلع لمجرد التفكير في الثورة الاجتماعية
« Reformation nicht Revolution ! هذا ما يهتف السيد مازاريك به في الفقرة ١٤٦ من كتابه ، وهي فقرة حذفها المترجم الروسي لسبب ما ( أيمكن للرقيب ان يحظر مثل هذه المعارضة للثورة بالاصلاح ؟ ) ويترافق هذا الهتاف المليء بالمعاني بعظة رفيعة الاخلاق في موضوع انه دون اصلاح حقيقي في فكرنا واخلاقنا لن نفعل بواسطة الثورة سوى طرد الشيطان للاستعاضة عنه ببعلبوث الخ ص ٥٥١ ــ ٥٥٢ في الاصل الالماني ) وتترك هذه العظة في القارىء تأثيرا اعظم لان الواعظ يرفع عينيه بكل تقوى في اتجاه السماء

وهو يقول بصدد تزايد عدد حالات الانتحار في البلدان المتحضرة مع ماركس نتبين بوضوح خاص متى ظهر عنده هذا النمط من التفكير وهو نفسه يتحدث عنه بعدما دمر فيورباخ السماء لم يتبق امام الفلسفة الا تثوير الارض فاوست وقايين ومانفرد ورولا وايفان ( في **الاخوة كارامازوف** (٢٠٥) ــ **ج . ب** ) ــ هؤلاء العمالقة المحدثون جميعا بدأوا النضال ضد الالوهية وخلصوا الى الثورة او الموت يا للهول ارحمني يا الله انا الخاطىء ــ **ج . ب .** وتخلص شوبنهاور من الله ايضا واعلن ان جوهر العالم ارادة عمياء تفتقر الى جميع الطموحات ولقد استعاض ماركس وانجلز ايضا عن الله بالمادة ( قال الاحمق في نفسه لا يوجد اله » ــ **ج . ب .** ، واستسلما لسلطان المصادفة العمياء وكان انجلز يرى باستمرار في الشر الاعمى قوة عالمية محركة ؛ ان التاريخ مصنوع من اهواء الجشع العمياء ومن التعطش الى السلطة وليس في العالم الاعمى والبغيض مكان او زمان للفرح والحب. وحين اسلم يسوع الروح خيم الظلام على الارض كلها واظلمت الشمس ، هذا ما يقوله الانجيلي ؛ ويهبط الظلام بالطريقة نفسها على عالم الانسان الباطن ( das innere وهو ما ترجمه السيد ب. نقولاييف بالداخلي ــ **ج . ب .** حين يموت الله فيه ، او يقتله الانسان واليسار الهيغلي قتل الله بمثل الطريقة التي قتله شوبنهاور بها كما استكمل عمل هيغل من قبل فيورباخ وشتراوس وشترنر وماركس وكان ظلام على وجه الارض كلها واظلمت الشمس » ص ٥٠٥ )

لا بد من الاقرار بصراحة بأن السيد مازاريك يكتب بكل تأكيد عن الله بصورة جيدة والسيد ستروفه والسيد برديايف عندنا يكتبان كذلك عن الجوهر بصورة جيدة لكنهما لا يليقان باشعال شمعة امام السيد مازاريك انهما يفتقران الى السمو والشعور اللذين يميزان التبشير الالهي عند الهر الاستاذ في الجامعة التشيكية . وصحيح ان السيدين ستروفه وبرديايف اخذا مؤخرا في الكتابة عن

السامي لكن كليهما يفتقران الى البراعة الضرورية ومما لا ريب فيه انهما يحققان الكمال في الوقت المناسب

وهل ثمة ضرورة للاضافة بأن السيد مازاريك استثمر بكل الوسائل < وهــذا لاغراضه ضد الثورية > مقدمــة انجلز الشهيرة لكتاب ماركس عن الصراع الطبقي في فرنسا (٣٠٦) ؟ انه يرى فيها « انكارا تاما للثورة < ويترتب على ذلك ان انجلز مثله كمثل السيد تيخوميروف ، (( لم يعد ثوريا (٣٠٧) )) > ولقد حاولنا ان نبين في مقدمة الطبعة الجديدة من **بيان الحزب الشيوعي** ان انجلز حين اعلن ان الاسلوب الثوري في العمل غير مناسب لم يكن يقصد بكل معنى الكلمــة الا المانيا المعاصرة ولم يعلق في حال من الاحوال على حججه واستنتاجاته الاهمية العمومية التي يعزوها النقاد اليها ولا ندري مبلغ ما كانت عليه حججنا من **قوة الاقناع** ، لكن رسائل انجلــز الى بول لافارغ (٣٠٨) المنشورة حديثا في الصحيفة الباريسية **الاشتراكي** تبرهن على **صحتها** وبعد نشر هذه الرسائل اصبح كل حديث مهلهل عن انجلز (( **شاهد النور** )) في اخريات حياته < وانه (( **لم يعد ثوريا** )) > عديم المعنى ،

تبقى هو مسألة **السبب في ان انجلز ، الذي كان في وسعه ان يعبر عن افكــاره بحيوية ووضوح عظيمين ، فعل ذلك هذه المرة بمثل هذه الطريقة الغامضة والمضللة .**

ليس ثمة سوى جواب واحد عن هذه المسألة ، الا وهو ان انجلز انصاع لاصرار السياسيين **العمليين** في حزبه ونظرا لما ادى اليه هذا الاذعان من انجلز من التباس في الافكار فلا بد من الاقرار بأنه لم يكن في موضعه وانه لا يجوز قط على العموم التضحية بمصالح النظرية على مذبح المصالح العملية الخاصة باللحظة الراهنة. **هــذا اولا وقبل كل شيء غير عملي .**

لكن كفى بصدد هذا المظهر من الموضوع ان السيد مازاريك توصل الى مزيد الاكتشافات في نظرية ماركس وانجلز فضــلا عن عنصر (( **الانتقائيــة** )) آنف الذكر وهكذا فهو يأتي على ذكر **الدارونيــة** التي يعتبرها هذان المفكران انتصار الجدلية في العلم البيولوجي ويرى السيد مازاريك ان الدارونيــة لا تتفق مــع الماركسية وذلك للسبب التالي يقدر ماركس وانجلز في الدارونية ، اولا وقبل كل شيء فكرة التطور لكنهما يخفقان في ملاحظة ان هذه الفكرة تناقض جدليتهما ومادتهما التاريخية انا نصادف هنا نمط المحاكمــة نفسه الذي شاهدناه في البداية ان السيد مازاريك **يكرر اية موضوعــة يجد من المناسب اثباتها** ، ويرى بسذاجة فائقة ان التكرار اثبات وعلى أي حال ، فسوف نحاول ان نكون منصفين بحقه **فتكراره** يجر في اذيالــه ما يشبه **الاثبــات** اذا تركنا جانبا ان داروين يعترف بقوى للتطور تختلف كل الاختلاف عن تلك القوى التي يعترف ماركس بها فان الدارونية تعالج بكل بساطة لا حقيقة تطور العالم والمجتمع بل في الاغلب مايتطوران به وكيفية ذلك » ( ص ٤٩ )

اعترف داروين ببعض قوى التطور في الانواع الحيوانية والنباتية **هذا** صحيح لكن فيم يختلف رأيه بشأن هذه القوى عن رأي ماركس ؟ لا يقول السيد مازاريك شيئا بهذا الشأن ، ونحن عمليا لا نعرف شيئا عنه لهذا السبب البسيط الا وهو ان ماركس لم يكتب شيئا في هذا الموضوع فيما يوافق انجلز عموما ، على آراء داروين لعل ما يريد السيد مازاريك قولـه هو ان داروين حتى في انحرافاته **السوسيولوجية** عن **الموضوع البيولوجي** يستمر في اعتناق وجهة نظر لا علاقة لها البتة بالمادية التاريخية وبهذا المعنى فان بيانه معقول وهو لا يناقض الحقيقة فالحقيقة ان داروين لم يتوصل الى المادية التاريخية ، والحقيقة انه كان ميالا الى تطبيق نظريته **البيولوجية** على تعليل الظواهر **الاجتماعية** لكن تلك خطيئة **داروين** وليست خطيئة **ماركس** فاذا كان داروين خلط بين مقولتين من الظواهر يجب ان تظلا منفصلتين ، فهل يمكن لهذا السبب ان نتهم **بالانتقائية** ماركس وانجلز اللذين اعتنقا في مجال **البيولوجيا** وجهة نظر الدارونية وفي السوسيولوجيا وجهة نظر **المادية التاريخية** ؟ هـذا الموقف لا يمكـن تبريره الا اذا اقررنا بأن المرء لا يمكن ان يكون في وقت واحد **دارونيا** في البيولوجيا **وماركسيا** ( نصيرا للمادية التاريخية ) في السوسيولوجيا لكن **هذا لم يثبت بعد وهو بالضبط ما ينبغي اثباته.** هذا شيء لا يثبته ناقدنا ، وهو يسقط باستمرار في ذات الخطيئة المنطقية الواحدة ان السلاح الرئيسي لنقده هو Petitio principi

وتستقيم انتقائية ماركس ايضا ( ومثله انجلز ) في انه لم يكن **ماديا** فحسب، بل كان **وضعيا** كذلك ، حتى دون ان يشك هو نفسه في الامر ص ٥٩ )

لكن ما هي **الوضعية** ؟ لا يعرف السيد مازاريك هـذا المفهوم الفلسفي بحيث لا تبقى امامنا الا التخمين في هذا الصدد وهكذا فهو يجد انجلز على سبيل المثال **وضعيا** حين يقول فهم العالم الواقعي ـ الطبيعة والتاريخ ـ بالضبط كما يمثل لكل امرىء تقترب منه حرا من الافكار المثالية المسبقة والتضحية بلا هوادة بكل فكرة مثالية لا يمكن التوفيق بينها وبين الحقائق المدركة في ترابطهـا الخاص وليس في ترابط وهمي ان المادية لا تعني شيئا اكثر من ذلك (٣٠٩) من الواضح ان الاستاذ يعتقد ان المادي لا يستطيع ان يتحدث على هذا الغرار وهو يعتقد ذلك لانه لا يعرف المادية ويستطيع المرء ان يجد أي مقدار من مثل هذه الوضعية في اعمال الماديين الفرنسيين للقرن الثامن عشر ( انظر على سبيل المثال نهاية الفصل السادس من الجزء الثاني من **نظام الطبيعـة** لكن ما علاقة الاستاذ بذلك ؟ انـه لا يبتغي أي تعامل مع الماديـة بيد انـه لا يملك اية معرفة عنها ، فهو يقـول فيورباخ كان يفكر بطريقة نقدية جدا بحيث كان عاجزا عن قبول المادية بأكملهـا وبجميع عواقبها ( ص ٥٥ ) لكن هذا شيء سمعـه الاستاذ من انجلز الذي **كان يعرف** ما تعنيه هذه الكلمات حين كتبها ، فيما السيد مازاريك **لم يعرف** ماتعنيه

حين **نسخها** وبنتيجة ذلك دعمها بالاعتبار التالي وهـذا هو السبب في اننـا نجده ( فيورباخ ـ **ج • ب •** ) يقدم مثل هذه الاعتذارات الاصيلة حين أجاب عن سؤال عن اصل الروح انه يأتي من نفس المكان الذي جاء الجسد منه ، وانه تطور مع الجسد جنبا الى جنب ، الخ ( ص ٥٥ ) ما هو الشيء « الاصيل » جدا في هذا ؟ لقد قال **لامتري** على سبيل المثال الشيء نفسه على وجه الدقة ، وهو الذي قبل المادية بالطبع **(( بجميع عواقبها ))** ولماذا هذه « الاعتذارات ؟ هل تبين الحقائق شيئا مناقضا لما يقول فيورباخ عن العلاقة المتبادلة بين الروح والمادة ؟

وبالمناسبة ، بضع كلمات عن المادية ينادي صاحبنا الناقد الموضوعي بما يلي انه لمفهوم بما فيه الكفاية هنا ان المسألة كلها تستقيم فيما اذا كان العلم الحالي والبيولوجيا بصورة خاصة ، واجدا الجراة الكافية لاقتراح مذهب ينص على ان الروح اعلى نتاج للمادة كما يقول انجلز واعتقد انه ليست بي حاجة الى القول ان اي باحث لزمن طويل مضى ، لم يجازف بمثل هذا التأكيد ومهما يكن من شيء ، فان انجلز لا يدع مجالا لادنى شك في عقائديته المادية » ( ص ٥٦ ) ممتاز لكن لنفتح ترجمة فرنسية لكتاب **هكسلي** عن **هيوم** حيث نصادف الفقرة التاليـة في الصفحة ١٠٨ **(( من المؤكد أن أي امرىء مطلع على حقائق الامر لا يشك حاليا في أن جذور علم النفس تكمن في فيزيولوجيا الجهاز العصبي • ان ما نسميه عمليات الذهن هي وظائف للدماغ ، ومواد الشعور منتجات للفعاليـة الدماغيـة ))** التشديد من قبلنا ) اليس هذا نفس ما يقوله انجلز في الفقرة آنفة الذكر حيث سمى **الروح** على وجه الدقة ما سماه هكسلي **مواد شعورنا ؟ أو** لعل العالم الطبيعي البريطاني الشهير لم يكن **دارسا جديا للطبيعـة ؟**

ويسأل السيد مازاريك انجلز بصورة قارصة من أين تأتي الامور جميعا ـ سواء المادة او الرأس البشري ؟ ص ٥٥ ) ويبين السؤال الساذج بصورة تفوق الوصف مرة أخرى ان الاستاذ لا يملك ادنى فكرة عن المادية ابدا لـم يزعم الماديون ان في مقدور مذهبهم ان يقدم اجوبة عن **مثل** هذه الاسئلة ، بل ما صرحوا به على الدوام هو ان هذه **الاسئلة تقوم خلف حدود المعرفة** • ويستطيع الاستاذ العالم ان يجد بهذا الشأن بعض الصفحات ذات الفائدة العميمة في كتابات لامتري ، وهو مادي بجميع العواقب لا يملك عنه اية معرفة على الاطلاق لكن اذا كان الماديون يعرضون دائما عن الجواب عن **مصدر (( جميع الاشياء )) ، بما فيها** الاشياء **المادية ))** فهذا لا يمنعهم من التفكير بأن مذهبهم يقدم اجوبة عن المسائل الواقعة في مدى ادراكنا بصورة افضل من اي نظام فلسفي آخر وليس ثمة الزام بالطبع بالموافقة على مثل هذا الادعاء هناك انواع مختلفة من الامور لا تتطلب الموافقـة عليهـا ) لكن اي امرىء يعترض على ذلك لا بـد لـه ان **يدحض** الماديين لا ان **يضايقهم بأسئلة يبين طرحها بالذات ان المضايق لا يملك ادنى تصور نقدي حقا .**

انـنا عاجزون كليا عن ان نقدم في هذه العجالة المقتضبة والمتواضعة ) **جميع** **نفائس** الفكر الفلسفي المبعثرة في مختلف صفحات كتاب السيد مازاريك الذي لم **يكرس** فيـه للفلسفة سوى قسم واحد تتلوه اقسام اخرى لا تقـل ثروة بالنفائس **التي** ينبغي للقارىء نفسه جمعها أما من جانبنا فسوف ننتقي ــ وذلك لضيق المكان ــ نفيسة واحدة تتعلق **بالفهم المادي للتاريخ** •

« المسألة هي كما يلي هل تشكل علاقات الانتاج والحاجات الحيوانية او كيفما صيغت مثل هذه العلاقات القوى المحركة الاولية للتاريخ ؟ هل هي القوى الرئيسية ؟ هل هي قوى خلاقة حقيقية ص ١١٦

في الحقيقة ، ايها القارىء العزيز ان السيد مازاريك يرى انـه من الممكن « صياغة » علاقات الانتاج على اعتبارها « حاجات حيوانية هذه في الحقيقة نفيسة النفائس وانه لمن المحال ، ومن غير الضروري الدخول في أي مناقشة لاحقة مع رجل قمين **بمثل** هـذه « **الصيغ** » •

وحين نطالع القسم الذي كرسه السيد مازاريك للمادية التاريخية لا يسعنا الا ان نتذكر صاحبنا العجوز الطيب السيد كاريف ان السيد مازاريك الذي يعرف الروسية وغالبا ما استشهد بالمؤلفين الروس مدين جدا فيما يبدو للسيد كاريف الذي استعار منه عددا كبيرا من « صيغه المرموقة سوى انـه عدلها وكملها فجعلها مضجرة ومتحذلقة ولقد استعار كذلك بعض الصيغ من السيد نقولاي ميخائيلوفسكي وغيره من النقاد الروس للمادية التاريخية ومن الطبيعي انـه وشح مثل هذه الاستعارات بعنصر هائل من الاطناب والحذلقة

ولقد ابان السيد مازاريك بجميع هذه الاستعارات وهذين الاطناب والحذلقة في « نقده لآراء ماركس التاريخية عن شبه مرموق بالهر ادوارد برنشتاين Les beaux esprits se rencontrent [ ان الطيور على اشكالها تقع ]

ولسوف يفهم القارىء بعد كل ما قيل اعلاه ان السيد مازاريك لا يحب نظرية القيمة عند ماركس وعلى الاخص نظرية فضل القيمـة وبالطبع ما كان يمكن ان يكون الامر خلاف ذلك

وختاما سوف نقول مرة اخرى لجميع المهتمين بنقد الماركسية اياكم اياكم الا تقرؤوا كتاب السيد مازاريك بالرغم من الترجمة الروسية السيئة ، فهو سوف يكشف عن الجوهر السيكولوجي لذلك النقد الذي يبدو انه الزي الشائع وبهذا المعنى يمكننا ان نقول انه ايها السيد مازاريك النادر نحن الماركسيين يسعدنا أن نشاهد ظهور مثل هذا الناقد

* * *

# ليس هذا الرعد من سحابة عاصفة

## ( رسالة الى رئيس تحرير [ كفالي ] )

سيـدي

تريد أن تعرف رايي في مقالات السيد ب كما نشرت في ج تحت عنوان و (٣١٠) ان رأيي فيها هو نفس رأيك ـ يعني **أنها تافهة** بيد أنك تقول انه كان لها بعض الاثر في اناس لم يدرسوا قط من قبل المسائل التي تعالجها هذه المقالات بحيث أعتقد انه سيكون من المفيد نوعا ما اخضاعها لتحليل جامع وسوف ابدأ **بالفلسفة** .

ان السيد ب يحتقر جدا فلسفة هيغل التي يسميها **رجعية** بيد أن تسمية فيلسوف ما بالرجعي لا يعني بعد تعريف فلسفته فالمفكر الذي يتعاطف مع الاتجاهات الرجعية في المجتمع يمكن في الوقت نفسه أن يضع نظاما فلسفيا يستحق كل **الانتباه** بل **التعاطف** من جانب **التقدميين** فمن واجب المرء أن يكون قادرا على التمييز بين **المقدمات النظرية** للكاتب و**النتائج العملية** التي يستخلصها هو نفسه من مقدماته النظرية فقد تكون النتائج العملية خاطئة او مناوئة لتقدم الانسانية ، ويمكن مع ذلك **للمقدمات** الكامنة خلف هذه **النتائج** المغلوطة أو الضارة ان تثبت **صحتها وفائدتها على حد سواء** ـ فائدتها بمعنى انها اذا **فسرت بصورة صحيحة** ـب الى حجة جديدة أو حتى الى مجموعة من الحجج التي تدافع عن **المطامح التقدمية** وهذا هو السبب في أن النعوت من طراز **الرجعي** أو **التقدمي** لا تسم **في** حال من الاحوال الجدارات أو الاخطاء **النظرية** لاي فيلسوف على وجه التحديد فكل من يريد ان نقضي على هذا الفيلسوف في رأي الناس المفكرين يجب أولا أن يدحض القسم **النظري** من مذهبه ، ولا يحق له الا بعد تفنيد القسم النظري ان يتطرق الى **الطموح** العملي أو الى **تأثير** البيئة الاجتماعية التي دفعت المفكر الى **تشويه الحقيقة** أو **منعته من بلوغها** . فاذا تحقق هذا الشرط ساعدت الاشارة الى عواطف المفكر السياسية ( الرجعية أو التقدمية ، الخ على تحديد أصول أخطائه واذا لم يتحقق هذا الشرط أصبح **النقد اتهاما** وتحول **الاتهام** الى **تعنيف** خالص وقد يكون للتعنيف غرض رفيع ، لكنه **لا** يشكل بديلا عن **النقد** .

ولا **ينقد** السيد ب هيغل بل **يعنفه** فحسب ، واحالته الى فوندت لا تثبت اي شيء على الاطلاق نظرا لان العبارات التي يوردها لا تتضمن شيئا سوى **حكم غير مبرر** . **او لعل** السيد ب يعتقد أن من واجبنا الايمان **بنفوذ** فوندت ؟ الا ان النفوذ مرشد هزيل في الفلسفة ولو أن الجنس البشري آمن بالنفوذ بصورة دائمة ما كانت لدينا في الوقت الحاضر فلسفة او أي نوع آخر من **المعرفة** ومهما يكن من شيء فلا أعتقد أن السيد ب طالبنا بأن **نؤمن بنفوذ** فوندت بل الارجح أنه اشار الى رأي هذا الكاتب على اعتباره رجلا ذكيا ومثقفا ورأي الرجل الذكي والمثقف ذو أهمية على الدوام والمشكلة هي أن الناس الاذكياء والمثقفين غالبا ما يخفقون في الاتفاق في سائر النقاط بحيث ليس أسهل من معارضة رأي الرجل الذكي والمثقف الواحد برأي الرجل الذكي والمثقف الآخر الذي لا يقل عنه ذكاء وثقافة ولا بد للسيد ب من الموافقة على أن هذا الامر يعقد الموضوع حتى درجة كبيرة

يشير السيد ب الى فوندت ومن المؤكد أن له ملء الحق في ذلك بيد أني **أملك** نفس الحق في الاشارة الى كاتب آخر وهو روسي هذه المرة كان بطبيعته بالغ الذكاء ، وقد كرس وقتا كبيرا ( كما سوف يتبين من **مذكراته** ) لدراسة فلسفة هيغل دراسة دقيقة وهذا الكاتب هو **الكسندر هرتزن** .

يقـول هرتزن

« حين اعتدت لغـة هيغل وتعلمت طريقته بدأت اتبين أن هيغل أقرب جدا الـى آرائنا من اتباعه ؛ هكذا كان **في** كتاباته الاولى ، وكذلك كان كلما أخذت عبقريته الشكيمة أسنانها واندفعت قدما في نسيان تام **لبوابـة براندنبورغ**(٣١١) فلسفة هيغل جبر للتقدم ؛ **فهي** تحرر الانسان بصورة فائقة ، وتدمر بصورة تامة عالم الاسطورة البالية ومهما يكن من أمر فهي مصاغة بصورة رديئة وربما عن عمد

ان الكتاب الروس من الاتجاه النارودني و الذاتي مثلهم كمثل السيد ب مناوئون جدا لهيغل الذي لا **يعرفونه البتـة** مثلهم في ذلك كمثل السيد ب ايضا ومثال ذلك أنهم يعتبرون أنه كان لهيغل تأثير ضار للغاية في عبقرية بيلنسكي الذي يؤكدون أنه لم يأخذ في التفكـير كما هو واجب الا حين « **انفصل عن القلنسوة الفلسفية** » للفيلسوف الالماني (٣١٢) ولقد تم البرهان قبل سنوات عديدة في الصحافة الروسيـة الدورية على أن تعلـق بيلنسكي بفلسفة هيغـل يشهـد على مطالبـه الحازمة في مسائل النظرية ولا يمكن في حال من الاحوال اعتباره **مرحلة من الركودة في تطوره الذهني** ولقد تم البرهان في ذلك الحين على أن بيلنسكي ، حتى حـين « انفصل عن قلنسوة هيغل الفلسفية لم يتخل عن وجهة نظر فلسفة هيغل بيد أنه لم يكن بد من اثبات مثل هذه الاشياء للنارودنيين والذاتيين لسبب وحيد ، الا وهو أن هؤلاء السادة جهلـة في الفلسفة ولا يفهمون شيئا من آراء بيلنسكي الفلسفية . ولم تكن ثمة حاجة لمحاولة شرح هذه الامور جميعا لهرتزن لانه كان

يعرفها هو نفسه جيدا على اعتباره رجلا ضليعا جدا في الفلسفة ويقول هرتزن

« لم يتخل بييلنسكي جنبا الى جنب مع هذا الفهم الضيق لهيفل ، عن فلسفة هذا الاخير بل الامر على النقيض من ذلك كانت تلك نقطة الانطلاق لما حققه من مزج حي ورائع وأصيل لافكاره الفلسفية مع أفكار الثورة

ويترتب على ذلك اذن أن أفكار هيغل الفلسفية يمكن بكل يسر أن تمتزج بالافكار التقدمية ويترتب عليه أيضا أن الادب الروسي مدين بشدة لهيغل في شخص أحد ممثليه الاعظم موهبة وهذا شيء يختلف كل الاختلاف عما يرويه لنا النارودنيون و الذاتيون الروس ومن بعدهم صاحبنا الصارم السيد ب

وانا ادعو السيد ب الى تفنيد رأي هرتزن الذي استشهدت به

وحين يتصدى لهذا التفنيد لا بد له أن يوجه انتباهه « النقدي الى كاتب روسي آخر كان مثله كمثل هرتزن وبصورة مغايرة للسيد ب يعرف ويفهم جيدا فلسفة هيغل .وهذا الرجل هو **نقولاي تشيرنيشفسكي** .

لقد تحدث تشيرنيشفسكي بصورة مفصلة ، في كتابه **مقالات عن العصر الغوغولي في الادب الروسي** ، عن هيغل بخصوص التعلق به في حلقة بييلنسكي ــ ستانكيفيتش الشهيرة (٢١٣) وكما يقول تشيرنيشفسكي فان الخدمة الرئيسية والابرز التي قدمها هيغل تستقيم في اخراجه الفلسفة من ميدان الفكر المجرد وفي الانتباه الحاد الذي يخص بـه **الواقـع** .

أصبح تفسير الواقع واجبا أوليا على الفكر الفلسفي ومن هنا كان الانتباه الفائق الموجه الى الواقع الذي لم يعط من قبل أي تفكير وهو واقع شوه بقسوة حتى يلائم المستبقات الشخصية الضيقة لكن الامور جميعا في الواقع رهن بالظروف بشروط المكان والزمان وهو السبب في هيغل اعترف بأن البيانات العامة السابقة المستخدمة في الحكم على الخير والشر دون اعتبار الظروف والاسباب المنتجة لظاهرة ما ان مثل هذه البيانات العامة والمجردة غير مرضية **لا وجود لاي حقيقة مجردة** ؛ فالحقيقة مشخصة ، يعني أنه لا يمكن اعطاء بيان محدد الا عن حقيقة محددة ما ، بعد دراسة جميع الظروف التي ترتهن بها*

وفي مكان آخر ايضاحا لمقالة كرسها تشيرنيشفسكي لتحليل أحد مؤلفاته وهو **العلاقة الجمالية بين الفن والواقع** ، يصف موقفه من هيغل كما يلي

« كثيرا ما نرى أناسا يواصلون عملا علميا يتمردون على أسلافهم الذين كانت أعمالهم منطقا لاعمالهم الخاصة هكذا كان ارسطو مناوئا لافلاطون كما أن سقراط أذل السفسطائيين حتى الدرجة القصوى وهو قد كان لهم خلفا ويصادف كثير من مثل

---

* **سوفريمينيك** ، ١٨٥٦ الكتاب التاسع « نقد ص ويوجد حاليا كما هو معروف ، طبعة منفصلة **لمقالات عن العصر الغوغولي في الادب الروسي** ليست في متناول يدي .

هـذه الامثلة في العصور الحديثة ايضا لكنه يصادف فيها أيضا عدد كبير من الحالات المبهجة حيث يدرك مؤسسو أحد الانظمة الجديدة بكل جلاء الرابطة التي تجمع بين آرائهم الخاصة وآراء أسلافهم ويسمون انفسهم بكل تواضع تلامذة لهم وحيث يميط هؤلاء التلامذة اللثام بكل صدق حين يكتشفون بعض النقائص في المفاهيم التي نادى بها اسلافهم ، عن مدى ما ساعدت هذه المفاهيم على تطور أفكارهم الخاصة كذلك كان موقف سبينوزا من ديكارت مثلا وانه ليشرف مؤسسي العلم الحالي أنهم نظروا الى أسلافهم باحترام بل بحب بنوي على وجه التقريب ؛ لقد اعترفوا بصورة جامعة بسعة عبقرية هؤلاء الاسلاف وبما تتسم به عقيدتهم من طبيعة سامية ، هذه العقيدة التي تتضمن اراءهم الخاصة بصورة مضفية وهذا ما يعيه السيد تشيرنيشفسكي وهو يتبع قدوة اولئك الذين يطبق أفكارهم على مسائل علم الجمال

ان موقفه من النظام الجمالي الذي تصدى للبرهان على عدم صلاحيته لم يكن معاديا البتة ؛ لقد أقر بأنه يتضمن بذور النظرية التي كان يحاول هو نفسه بناءها ، وانه لم يكن يفعل الا تطوير بعض النقاط الاساسية الموجودة ايضا في النظرية السابقة ، لكن بصورة مناقضة لبعض الافكار الاخرى التي نسب اليها أهمية أعظم والتي بدت له عاجزة عن الصمود للنقد لقد كان يحاول باستمرار ان يبين القربى بين نظامه الخاص والنظام السابق ، بالرغم من أنه لم يخف البتة ما بينهما من فارق جوهري

وحتى يفهم القارىء هذا البيان الجازم من تشيرنيشفسكي بشأن موقفه من السابقين له لا بد من بعض الايضاحات ، ويحسن السيد ب عملا اذا هو تعمق فيها

عالج كتاب تشيرنيشفسكي **العلاقة الجمالية بين الفن والواقع** بصورة نقدية النظام الجمالي للكاتب الالماني الشهير **فيشر** الذي كان **هيغليا خالصا** ونظرا لان تشيرنيشفسكي وجد من الضرورة بمكان أن يعلن صراحة أنه لم يتخذ في كتابه موقفا معاديا من فيشر ، فقد كان معنى ذلك أنه اعتبر من الامور الضارة نشر العداوة لنظام هيغل الفلسفي بين القراء الروس* وفيما عدا ذلك فمن كان يقصد تشيرنيشفسكي حين تحدث عن مؤسسي العلم الحالي ؟ من المؤكد انه كان يقصد **فيورباخ** الذي طبق آراءه على مسائل علم الجمال ، وليس على علم الجمال وحده وحسب تعبيره ، فان مؤسسي العلم الحالي كانوا ينظرون الى روادهم باحترام ، وبحب بنوي على وجه التقريب ؛ فقد اعترفوا على اتم وجه بسعة عبقرية هؤلاء الرواد وبالطبيعة السامية لمذهبهم الذي يميط اللثام عن آرائهم الخاصة وهي في

---

* اولئك الذين طالعوا **علم الجمال** لهيغل **وعلم الجمال** لفيشر يدركون مبلغ استحالة فصل النظرية الجمالية المقدمة في كتاب فيشر عن الموضوعات الواردة في فلسفة هيغل ومن المؤكد السيد ب لم تقرأ هذين الكتابين لكنه اذا تكلف يوما عناء النظر فيهما فلن يجد الجرأة على الارتياب في كلماتي .

حالة المضغة بعد ومن هم اذن رواد « مؤسسي العلم الحالي ؟ ان السيد ب
نفسه لن يجد صعوبة كبيرة في الرد على السؤال **فالمثاليون الالمان الكبار** هم رواد
فيورباخ في الفلسفة ومن بين هؤلاء كان **هيغل** أقربهم الى فيورباخ وهو ما يعرفه
جميع المطلعين على تاريخ الفلسفة الالمانيــة وكما أشار الى ذلك تشيرنيشفسكي
نفسه في مناسبات عديدة ويترتب على ذلك أن تشيرنيشفسكي يرى انه مما يشرف
فيورباخ انه كان بعيدا عن الشعور بالعداء حيال هيغل بل كان ينظر اليه باحترام
وبحب بنوي على وجه التقريب ولقد وجد تشيرنيشفسكي نفسه أن من الضرورة
بمكان ان يؤكد على أنه ينظر الى هيغل كمثل نظرة فيورباخ اليه حسب تعبيره بالذات.
ولا سببه هذا مطلقا الموقف السلبي حيال الرجعي هيغل الذي نشاهده في مقالة
السيد ب ماالسبب في ذلك ؟ لسبب بكـل بساطـة أن تشيرنيشفسكي يعرف
هيغل أما السيد ب فلا يملك ادنى معرفة به*

لكن تشيرنيشفسكي لم يقتصر على مجرد **تقرير** احترامه لهيغل بل **شرح في**
اسلوبه المحكم المألوف السبب في نظره الى هيغل بهذه الطريقة الخصوصية لقد ادرك
وهذه هي كلماته بالذات كما يستطيع القارىء أن يرى ) أن نظام هيغل ينطوي على
بذور نظرية حاول هو نفسه أن يضعها ، وانه انما طور بعض النقاط الهامة التي كانت
موجودة أيضا في النظرية السابقة ونظرا لذلك فلا يمكن أن يكون ثمة عجب
احترام تشيرنيشفسكي لهيغل حتى بالنسبة الى الجاهل وبالفعل هل يمكن
المنافقين والمغرورين بصورة مرضية أن يسمحوا لانفسهم بالنظر في ازدراء
الى مفكر يميزون في مذهبه بذور افكارهم الخاصة ؟

واذ يكـن ثمـة ما يدعو الـى العجب في الاحتـرام الذي كان يضمـره
شيرنيشفسكي لهيغل فمن يمكن أن يعجب للاحترام الذي كان يضمره مؤلـف
**رأس المال** لهيغل **الا الجهلة مرة أخرى** ؟ كانت آراء مؤلف **رأس المال** التطور الطبيعي
لآراء فيورباخ الذي كان **أستاذ تشيرنيشفسكي** في الفلسفة وكان هو نفسه **تلميـذا
لهيغـل** ولقـد ادرك ماركس أن ( كي نستخدم كلمات تشيرنيشفسكي ) فلسفـة
هيغل تتضمن بذور نظرية حاول هو نفسه أن يضعها ؛ وانه انما طور بعض النقاط
الهامة التي كانت موجودة ايضا في فلسفة هيغل لكنها كانت تناقض بعض المفاهيم
الاخرى التي نسب اليها هذا الاخير اهمية أعظم والتي بدت له ( ماركس ) عاجزة
عن الصمود لاي نقـد

واحسب اني أستبق الامور هنا فقبـل مناقشة العلاقـة بين آراء ماركس
الفلسفية وفلسفة هيغل يجب أن نقرر كيف يجب أن ينظر الى هذا الاخير من **جانبنا** ،
نحن القراء والكتاب المثقفين والحياديين لاوائل القرن العشرين

---

* وعلى أي حال ، فان تشيرنيشفسكي يعتبر هيغل **رجعيا قط** ، بل سماه **ليبراليا معتدلا**.

قلت اعلاه ان المسائل الفلسفية لا يمكن حلها بالاشارة الى **النفوذ** ، واني لاتصرف بصورة بالغة الرداءة اذا انا نسيت ذلك **الآن** ، يعني حين يتحدث كتاب متنفذون في الشؤون الفلسفية مثل الكسندر هرتزن ونقولاي تشيرنيشفسكي في مصلحة هيغل وضد السيد ب لا ، فمهما يكن نفوذ هذين الرجلين عظيما ، فان من واجبنا أن نعتمد على محاكمتنا الخاصة وان نقرر بأنفسنا ، من خلال جهودنا الخاصة وعلى أساس معرفتنا الخاصة ، كيف يجب أن ننظر الى فلسفة هيغل التي كانت مصدرا لنظرية الالماني فيورباخ ونظرية تلميذه الروسي نقولاي تشيرنيشفسكي

وانه ليفيدنا في تقرير هذا الامر أن نبين السبب في أن تشيرنيشفسكي كان يرى في فلسفة هيغل بذور آرائه الخاصة أو بصورة ادق آراء استاذه الخاص فيورباخ

ان لب الموضوع تقوم **« في الانتباه الفائق للواقع » الذي يشكل في راي تشيرنيشفسكي ميزة هيغل الرئيسية على سابقيه في ميدان الفلسفة .**

ان اولئك الذين استقى السيد ب منهم احتقاره لهيغل ، اقصد النارودنيين والذاتيين الروس يصفون عادة الفلسفة المثالية الالمانية على اعتبارها تشويها لا نهاية له للواقع بغرض ملاءمة النظريات التأملية ولقد نادوا طويلا بالويل والثبور بشأن هذا التشويه بحيث جعل القراء قليلو التضلع في تاريخ الفكر الفلسفي يصدقونهم وبالتالي فقد يجد البعض مما يبعث على العجب ملحوظة تشيرنيشفسكي عن اهتمام هيغل الوثيق بالواقع ومع ذلك فالملحوظة صحيحة تماما

يشير هيغل في **الموسوعة** الى ان الشباب ميالون لتناول الافكار المجردة في حين انالانسان المجرب لايرى اية جاذبية فيالعبارة المجردة **اما ـ أو**( entweder - oder ) بل يبحث عن أساس التشخيص لعل تشيرنيشفسكي كان يفكر في هذه الكلمات حين تحدث عن اهتمام هيغل الوثيق بالواقع ؛ وفي جميع الاحوال ، فمما لاريب فيه انه كان على حق تام وانه كان في مقدوره أن يقول أشياء أكثر مما قال بالفعل فقد كان يملك كل الحق في التأكيد بأنه كان لفلسفة هيغل بفضل اهتمامه الفائق بالواقع ، تأثير هائل ، وان كان لا يحظى بعد بالتقدير الكافي ، في تطور الفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر وان الناس الذين يفكرون ادركوا عدم ملاءمة وجهة النظر المجردة **اما ـ أو** بفضل هذه الفلسفة حتى درجة كبيرة

يفسر تشيرنيشفسكي فكر هيغل مستخدما **الحرب** كمثال فيسأل

« هل الحرب مسيئة أم مفيدة ؟ على العموم لا يستطيع المرء ان يعطي هنا جوابا جازما ، بل لا بد له أن يعرف اية حرب هي المقصودة ؛ ان جميع الاشياء رهن بظروف المكان والزمان لقد كانت معركة ماراتون حدثا عظيم المنفعة في تاريخ الجنس البشري والمطر مثال آخر « هل المطر خير ام شر ؟ هذا سؤال مجرد لا يمكن الجواب عنه بصورة

محددة فالمطر نافع أحيانا لكنه يسبب الضرر في أحيان أخرى يكن بصورة اندر ؛ يجب على المرء أن يسأل بصورة محددة هل كان المطر نافعا اذا هطل بعد استكمال زراعة القمح ، واذا استمر طوال خمس ساعات ؟ في هذه الحال يمكن اعطاء جواب محدد أجل ، لقد كان نافعا

ذلك الذي يفكر بصورة مجردة يتبع الصيغة المجردة **اما — أو** entweder oder الهيغلية ) **المطر اما** ضار **أو** نافع ؛ الحرب **اما** مسيئة **أو** مفيدة واما ذلك الذي يبحث ، تبعا لنصيحة هيغل عن **أساس التشخيص** فسوف يسأل ، كما فعل تشيرنيشفسكي **أي نوع من المطر** هو المقصود بالضبط ؛ **اي نوع من الحرب** هو قيد المناقشة ؟ وللوهلة الاولى قد يبدو من المشكوك فيه مجرد وجود اناس يتبعون الصيغة المجردة **اما — او** الحرب **أما** مسيئة **أو** مفيدة ) ؛ وحقيقة الامر أن ثمة الكثيرين من هذا النوع* ؛ وقبل زمن هيغل كان هناك عدد اكبر منهم ان النظرة المجردة **اما — أو** لا تشكل صفة « للشباب الفر فحسب بل لقد كانت عصور حيث كان جميع الناس الذين يفكرون ، مع استثناءات قليلة جدا يتخذون هذا الموقف ولشد ما كانوا يدهشون لو علموا أنه موقف غير مرض تلك كانت الحال في فرنسا القرن الثامن عشر على سبيل المثال

ان رجال الانوار الفرنسيين لذلك العصر نظروا الى الحياة الاجتماعية على اعتبارها تعارضا مجردا بين **الخير** و **الشر** ، بين **العقل** و **اللاعقل** ، ولم يتخلوا عن هذا الراي الا في حالات استثنائية جدا فاذا ما اعتبرت مرة ظاهرة اجتماعية معينة ، **الملكية الاقطاعية** مثلا ضارة و **لامعقولة ،** فانهم ما كان ممكن ان يوافقوا قط على انها كانت **معقولة** في الماضي الابعد أو الاقرب واليكم واحدا من أمثلة عديدة قال هيلفيتيوس في رسالة الى سورين بشأن كتاب مونتسكيو الشهير **روح القوانين** ما يلي لكن ما الذي يريد بحق الشيطان أن يعلمنا اياه في كتابه **مبحث الاقطاعيات** ؛ أهذا موضوع يمكن لذهن حكيم وعاقل أن يسعى الى حل الغازه؟ اي تسريع ممكن أن ينتج عن هذا التيه الهمجي من القوانين المقرره عنوة ، والمحترمة بفعل الجهل والمتعارضة دائما مع نظام جيد للاشياء** ؟ » ويلاحظ هيلفيتيوس في موضع آخر مونتسكيو اقطاعي حتى درجة كبيرة ، ومع ذلك فالحكومة الاقطاعية قمة العبث*** ونحن ننظر حاليا الى الاقطاعية بصورة مغايرة ؛ فنحن نفهم في

---

* مثلا ليون تولستوي الذي خلص الى النتيجة بأن **الحرب ضارة دائما وبصورة لاتقبل الجدال.**

** **المؤلفات الكاملة** باريس ١٨١٨ المجلد الثالث ، ص ٢٦٦

*** المصدر نفسه ، ص ٣١٤

الوقت الحاضر انهـا في حينهـا لم تكن عديمة المعنى في حال من الاحوال*
بيد اننا ننظر الى **الامور بهذه الطريقة** من دون اي طريقة أخرى لاننا نعرف حتى أي مدى ترتهن جميع الاشياء بشروط الزمان والمكان وحتى اية درجة تفتقر الـى الاساس تلك الحقائق الزائفة الناجمة عن الراي **المجرد اما ـ او** الحرب **اما مسيئة أو مفيدة ؛** الاقطاعية **اما معقولة أو عديمة المعنى ،** الخ ومهما يكن من شيء فلم يكن هيلفيتيوس مدركا لذلك بعد فكان على غرار الغالبية العظمى من معاصريه يعتنق الراي **المجرد اما ـ او .**

أو خذوا بعين **الاعتبار تاريخ الاشتراكية** لقد كان في مقدور المرء ، في أوائل القرن التاسع عشر ، ان يصادف موقفا سالبا حيال التفكير المجرد بشأن الصيغـة (( **اما ـ أو** )) في كتابات بعض **المؤلفين** الاشتراكيين وفي مقدوري الاستشهاد ببعض الفقرات ذات الاهمية البالغة من سان سيمون واتباعه ومع ذلك فان موقفهم السالب من العبارة **المجردة اما ـ او** قد كان **الاستثناء بالاحرى منه القاعدة العامة .**
كان الاشتراكيون في **ذلك الزمان أميل** الى اعتناق وجهة النظر المجردة التي ورثوها عن القرن الثامن عشر ، **وكانوا ينظرون** من وجهة النظر هذه الى أهم القضايا العملية في عصرهم ونحن نسميهم **طوباويين** لهذا السبب ، ولهذا السبب وحده ولقد اقترحت المدارس المختلفة **لهؤلاء الطوباويين** مشاريع مختلفة جدا من أجل تنظيم المجتمع ومهما كانت هذه **الخطط** متغايرة فقد اتفقت جميعا على نقطة واحدة كانت كل منها تعتمد على نظرة محددة الى الطبيعة الانسانية** كانت **الطبيعـة**

---

* يقدم فوستيل دي كولانج تفسيرا جيدا **لطريقـة** تغير موقف الطبقات الدنيا من القصـور الاقطاعية في مختلف العصور ، فيقول « وبعد ستة قرون لم يكن لدى البشر الا الحقد على هذه القلاع السيدية أما حين شيدت فلم يضمروا لها سوى الحب والامتنان فهي لم تبن ضدهم بل من أجلهم كانت المخفر العالي حيث كان حاميهم يسهر وينتظر العدو كما كانت المستودع الموثوق لمحاصيلهم وخيراتهم كان كل قصر حصين خلاص منطقته فوستيل دي كولانج ، **تاريخ المؤسسات السياسيـة في فرنسـا القديمـة** ، المجلـد الرابـع ص ٦٨٢ – ٦٨٣ [ الفقـرة بالفرنسيـة في النـص الاصلـي ]

** في رأي كونسيدران ان القضية الاجتماعية العامة ( le Problème social général ) يجب أن تكون كما يلي « اذا ما أعطي **الانسان** وحاجاته وأذواقه وميوله فان علينا أن نحدد النظام الاجتماعي الانسب لطبيعتـه » ( **المصير الاجتماعـي** ، الطبعـة الثالثـة ، المجلد الاول ص ٣٣٢ [ الفقرة بالفرنسية في النص الاصلي ]

وكذلك يعلن ديزامي « مقياسي ، قاعدة اليقين عندي هو علم **العضوية الانسانية** ، يعني معرفة حاجات الانسان ومواهبه وأهوائه » ( **مدونة الجماعـة** ، بقلم ت ديزامي باريس ١٨٤٢ ، ص ٩ )
[ الفقرة بالفرنسيـة في النص الاصلي ]
واستطيع أن أورد الكثير من مثل هـذه الامثلـة

**الانسانية السلطة العليا** < بالنسبة الى الاشتراكيين السلطة التي كانوا يتوجهون اليها في جميع النقاط التي تحتمل المناقشة في البنية الاجتماعية ونظرا لان الاشتراكيين في ذلك الزمن كانوا يعتبرون الطبيعة الانسانية ثابتة فمن الواضح ن في وسعنا الحسبان انه يمكن ان نعثر من بين جميع الانظمة الاجتماعية العديدة الممكنة على نظام اجتماعي يكون الانسب للطبيعة الانسانية ؛ ومن هنا كان السعي الى العثور على النظام الافضل او بالاحرى النظام الانسب للطبيعة الانسانية وكان مؤسس كل مدرسة يفترض انه هو الذي اكتشف مثل هذا النظام كما كان مؤسس كل مدرسة ( مذهب يقترح طوباويته الخاصة لكن هل في الامكان العثور على النظام الافضل للبنية الاجتماعية ؟ كلا هذا محال >

وادرك رجال الانوار في القرن الثامن عشر أن طابع الانسان يتبدل مع البيئة ويقول هيلفيتيوس « L'homme est tout édueation » [ الانسان تربية كله ] ، وفي **هذا الصدد** كان رجال الانوار في القرن الثامن عشر على صواب تام وبالفعل ، فان **طبيعة** الفارسي او المصري القديمين لا تشبه طبيعة الاغريقي او الروماني القديمين فيما (( **طبيعة** )) الاغريقي أو الروماني القديمين شيء يختلف كل الاختلاف عن طبيعة الانكليزي الحالي أو مواطن الولايات المتحدة الاميركية واذا افترضنا أن نظاما اجتماعيا محددا تتناسب كليا مع طبيعة الانسان ، فيما جميع الانظمة الاخرى تنتهك هذه الطبيعة بدرجة اعظم او اقل فاننا نعلن بذلك ان التاريخ بأسره يتنافر مع الطبيعة الانسانية باستثناء المرحلة الماضية أو الحاضرة او المقبلة ، التي نستطيع ان ننسب اليها نظامنا المفضل بيد أن هذا الراي **يحول دون أي نوع من التفسير العلمي للتاريخ** وهذا هو السبب في اننا نقول اليوم ان انظمة الكتاب الاشتراكيين المذكورين كانت **غير علمية** الامر الذي لا يمنعنا بالطبع من ان نجد فيها **تفاصيل** مفردة كانت لها اسهامات هامة بصورة استثنائية في العلم ان مؤلفي الانظمة الطوباوية اتخذوا **الموقف التجريدي اما ـ أو بالاحرى من الموقف المشخص** ما كانوا يعرفون بعد انه لا وجود للحقيقة المجردة وان الحقيقة مشخصة دائما ، وان الامور جميعا في الحياة الاجتماعية رهن بظروف المكان والزمان

اذا شئت أن اوجز بكلمات قليلة اسهام ماركس في العلم الاجتماعي قلت ان نظرياته **وجهت ضربة قاضية الى الطوباوية** وبالفعل فهو لم يتوجه قط الى الطبيعة الانسانية . ولم يكن يعرف اية مؤسسات علمية **اما** تتفق مع هذه الطبيعة **أو** لا تتفق معها واننا لنجد منذ كتابه **بؤس الفلسفة** تعنيفا لبرودون مرموقا ونموذجيا جدا لا يعرف السيد برودون ان التاريخ بأسره ليس سوى تحول متصل للطبيعة الانسانية ... » ( باريس ١٨٩٦ ص ٢٠٤ )(٢١٤)

ويقول ماركس في **رأس المال** ان الانسان حين يبدل البيئة بنشاطاته يبدل طبيعته الخاصة ايضا ( **رأس المال ، المجلد الثالث** ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ) (٢١٥) لنأخذ بعين الاعتبار الملكية الخاصة لوسائل الانتاج مثلا لقد كتب الطوباويون الشيء الكثير في هذا الموضوع وخاضوا المساجلات ضد بعضهم بعضا ومع الاقتصاديين بخصوص ما اذا كان يجب أن تكون للملكية الخاصة وجود ، يعني ما اذا كانت تتفق مع الطبيعة الانسانية ان جميع الطوباويين قد اعتبروا المسألة من موقف **اما ـ أو** فيما وضعها ماركس على أساس مشخص ذلك أن أشكال التملك وعلاقات الملكية تتقرر وفقا لنظريته بتطور القوى المنتجة فهذا الشكل من الملكية يناسب مرحلة معينة من تطور تلك القوى ، وذاك الشكل يناسب مرحلة اخرى ؛ بيد انه لا يمكن تأكيد اي شيء مطلق هنا **نظرا لان أي قرار مطلق سوف يكون مجردا بالضرورة ؛ بيد أنه لا وجود لاية حقيقة مجردة ؛ فالحقيقة مشخصة دائما والاشياء جميعا رهن بظروف الزمان والمكان** •

بمثل هذه النظرة الى الموضوع يصبح أي موقف سلبي حيال اية محاولة للعثور على النظام الاجتماعي الافضل طبيعيا تماما ففي كل مرحلة معينة يكون النظام الافضل هو ذلك النظام الافضل اتفاقا مع حالة قوى المجتمع المنتجة وفي الوقت نفسه فان النظام الاسوأ هو ذلك النظام الذي يقيم العقبة الاكدأ في سبيل تطور هذه القوى اللاحق ان نظاما اجتماعيا كان معقولا على خير وجه قبل قرن او قرنين يمكن أن يتبين انه لا معقول البتة في الوقت الراهن

ان الموقف السلبي حيال الطوباويات هو الذي يمنح النظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي ملء الحق في تسميتها نظرية **علمية** • وليست النظريات العلمية بالطبع معصومة عن الخطأ ايضا فماركس يمكن أن يخطىء مثل اي انسان آخر لكن النقطة الهامة هي أن ماركس اتخذ موقفا مشخصا جعل من الممكن اتخاذ موقف علمي حيال الموضوع ، يعني موقفا حيال الموضوع من **وجهة نظر الضرورة الخاضعة للقوانين التي تتسم بها العملية الجارية فيه** ؛ ان رجال الانوار في القرن الثامن عشر والطوباويين في جميع الازمان نظروا الى الظواهر الاجتماعية من الموقف **المجرد** وغير العلمي بالتالي ) **اما ـ أو** وهو موقف يحول دون اية امكانية لاكتشاف **الحقيقة المشخصة** ويترك مكانا لحلول توحي بها الميول الذاتية الموجبة والسالبة

وجه ماركس ضربة قاضية الى الطوباوية ، وقد كان في مقدوره ان يفعل ذلك بفضل **الطريقة بالذات التي تبناها عن هيغل والتي امتدحها تشيرنيشفسكي بصورة فائقة** وكانت طريقة هيغل جيدة لانها كانت تحول دون امكانية الحكم المجرد على الاشياء وكانت تتطلب تقدير هذه الاشياء من وجهة نظر شروط المكان والزمان

وفي وسع المرء بعدما قيل أن يفهم السبب في تقدير فلسفة هيغل من قبل التقدميين مثل هرتزن وتشيرنيشفسكي كانت تلك الفلسفة تقول انه ينبغي للمرء أن يقف على أرض مشخصة وأن ينظر الى الاشياء من وجهة نظر ظروف المكان

والزمان ومهما يكن من أمر فان هذه الظروف قابلة للتغير وبالتالي « فالاشياء جميعا سيالة ، ولا شيء ثابتا » ، كما قال هيراقليطس ، وهو أحد الجدليين القدماء الابرز ليس في الطبيعة أو الحياة الاجتماعية أو مفاهيم الانسان شيء أو يمكن أن يكون شيء في وسعه ادعاء الثبات وهكذا تفقد الركودة أي مسوغ نظري ، وتثبت الحركة الدائمة أنها القاعدة الاساسية لكل ما هو موجود

وهذا ما عبر عنه بصورة ممتازة نقولاي تشيرنيشفسكي بالذات الذي قال في مقالته نقد المستبقات الفلسفية ضد ملكية الارض المشاعة »

تتابع أبدي للشكل ؛ رفض أبدي للشكل الناشيء عن مضمون أو مسعى محددين ، كنتيجة لامتداد هذا المسعى والتطور الاسمى لذلك المضمون ؛ كل من فهم هذا القانون الابدي والعمومي العظيم وتعلم ان يطبقه على أية ظاهرة ـ أواه لشد ما يستفيد بكل ثقة من الفرص التي تفلت من الآخرين وحين يكرر ما قاله الشاعر

Ich hab ' mein ' Sach anf Nichts gestellt
Und mir gehört die ganze welt,*

فانه لن يأسف على شيء عفا الزمان عليه بل يقول ما سوف يكون سوف يكون ويومنا آت بعد

وان هناك أناسا حقيرين لا يملكون أي خبرة فلسفية البتة ، أناسا لم يقرؤوا ابدا صفحة واحدة من كتاب هيغل بل لم يشاهدوا هذه المؤلفات حتى عن بعد يملكون الجسارة على تسمية جبر التقدم هذا ( كي نستشهد بتقدمي آخر من التقدمين عندنا فلسفة للرجعية ! كان الجهل دائما عظيم الثقة بالذات ، مغرورا صفيقا لكنه في هذه الحال بلغ أقصى حدود الغرور والصفاقة أيضا في رغبته المتباهية في « نقد » أشياء غير مألوفة البتة

وللقارىء ملء الحق في السؤال عما اذا كان هيغل لوى الحقائق وعلائقها الفعلية ليجعلها متناسبة مع نظريته الا يمكن أن يكون ثمة مبررات بعد لما يوجهه اليه خصومه من لوم مرير ؟ وكما يقول المثل لا دخان بلا نار

لم يكذب المثل هذا ما أجيب به ؛ ان اللوم الموجه الى هيغل لا يفتقر الى الاساس لقد كان في واقع الامر حالات لوى فيها الحقائق ليكيفها مع نظريته ؛ ومهما يكن من شيء ، فلا أعتقد انه أعظم ذنبا من ف أ لانج الذي شوه تاريخ المادية بصورة فظيعة في مصلحة ما يسمى الفلسفة النقدية . وعلى أي حال ، فليس للجدلية ادنى علاقة بذلك . حين لوى هيغل الحقائق ( كلما فعل ذلك ) ، فلم يكن السبب تمسكه بالطريقة الجدلية التي كانت تتطلب أعظم الاهتمام بالعلاقات الفعلية بين الاشياء ان لوي الحقائق شيء لم يكن لهيغل مندوحة عنه أحيانا من جراء

* [ قامرت على « لا » فالعالم ملكي ]

**المثالية التي كان نظامه الفلسفي مشبعا بها** ولا بد للمرء كي نفهم ذلك من أن نتذكر كيف هي الامور في فلسفة التاريخ عند هيغل

فهيغل بوصفه **جدليا** – بصورة مضادة لرجال الانوار في القرن الثامن عشر – اعتبر التاريخ من حيث هو **عملية تطورية** ينبغي لنا أن نفهمها في **ضرورتها** يعني بكلام آخر من حيث هي جزء من **نمط خاضع لقوانين*** ويوفى هذا الغرض أولا وقبل كل شيء **بدراسة الحقائق** ويقول هيغل

« يجب ن نأخذ التاريخ كما هو ؛ يجب ان نتصرف تجريبيا وعلى أي حال لا ننساق مع نفوذ المؤرخين الخبراء وبالخاصة الخبراء الالمان الذين يستمتعون بسلطان عظيم ويفعلون بالضبط ما يلومون الفلاسفة عليه يعني يسمحون لانفسهم باختراعات قبلية في التاريخ** »

ولا تحسبوا أن ادانة هيغل القاسية (( **للاختراعات القبلية** )) مجرد عبارة لا ، فكل من قرأ بانتباه كتابه **فلسفة التاريخ** يعرف بأي فكر عميق اخذ بعين الاعتبار ما تحت تصرفه من مواد تجريبية ففي هذا الكتاب اشارات عديدة قيمة تتعلق بالرابطة السببية الحقيقية وغير المخترعة بين الظواهر التاريخية وأما الافكار الواردة هناك بشأن تأثير **البيئة الجغرافية في التطور التاريخي للمجتمعات الانسانية** فان واقعيتها الرزينة تبعث بكل بساطة على الذهول اقرؤوا الفصل Geographische Grundlage der Weltgeschichte وقارنوا بينه وبين كتاب متشنيكوف **الحضارة والانهر التاريخية الكبرى** او مبحث راتزل الشهير **Anthropogeographie** وسوف ترون كم كانت افكار هيغل في هذا الحقل قريبة من افكار رجال العلم المعاصرين عندنا

بيد أن هيغل بوصفه مثاليا مطلقا اعتبر التطور المنطقي **للفكرة المطلقة** السبب الرئيسي والاعمق لجميع الظواهر في الطبيعة والحياة الاجتماعية ولذا كانت العلوم الطبيعية والتاريخية عنده نوعا من **المنطق المطبق** وهكذا قلبت الجدلية (( **رأسا على عقب** )) ، واذا الرجل نفسه الذي اعتاد ان يقول ان من واجبنا ان نأخذ التاريخ كما هو وحذر المستمعين اليه من الاختراعات القبلية ».ينساق هو بالذات مع مثل هذه الاختراعات ويقسو على مواده التجريبية اذا هي لم تتناسب معها*** .

---

* « تاريخ العالم تقدم في وعي الحرية تقدم يجب ان نعترف به في ضرورته ». ( **فلسفة التاريخ** ، منشورات د هانس ، ص [ الفقرة بالالمانية في النص الاصلي ]

** المصدر نفسه ص ١٣

*** من أجل مزيد من التفاصيل انظر « Zu Hegel's sechzigsten Todestag » في **نيوزيت** لعام ١٨٩١ .

قلب الجدلية راسا على عقب » صفة بالغة **الاهمية** والفائدة بالنسبة الينا
تميز **Vorlesungen** هيغل عن التاريخ العالمي ومما لا ريب فيه أن هذا يضعف
قيمتها العلمية ؛ وليست الجدلية الملومة هنا ، بل **الطبيعة المثالية لفلسفة**
**هيغل** . وحين فضح فيورباخ ومن بعده ماركس فساد **المثالية** الهيغلية **قوما** من وضع
الجدلية وجعلا منهـا اداة جبارة للبحث العلمي* **اما ان يعزى** فساد **المثالية**
الهيغلية الى الجدلية المادية الماركسية **فهذا يعني اما الاخفاق في فهم** حقيقة
الامر واما تشويهـا مقصودا

ويصم السيد ب اذنيه عن اية طريقة علمية غير **الطريقة الاستقرائية** وانه
لمن اليسير أن يبين له ان **للاستدلال** مثل حقوق **الاستقراء** بقدر ما يتعلق الامر بالبحث
العلمي** لكن هـذا سوف يلهيني عن الموضوع **الذي اعالجه** فأنا اعالج
الجدليـة وليست بي رغبة في الاستطراد لنر ما اذا كان الاستقراء يحول
دون الجدليـة

في الادبيات العلميـة الطبيعية الالمانيـة كتاب عنوانه **Naturliche Schöpfun**
**gsgeschichte** . وهو بقلم **هيغل** بالذات الذي يعارض السيد ب بكل طيبة خاطر
« **احادينه** » **بمادية** ماركس وتعرض **الفصول الاولى من هذا المؤلف** آراء لينايوس
كوفيه واغاسيز وغيرهم من الطبيعيين القدماء من **الاتجاه قبل الداروني** القديم
واني لانصح بشدة السيد ب **أن يمعن النظر في هذا العرض** وكيما أساعده في
هذا سوف أسأله عن أية طريقة ساعدت **لينايوس وكوفيه وأغاسيز** في صياغة
آرائهـم وبكلام آخر ما اذا كان هؤلاء العلمـاء البارزون تمكنـوا من استخدام
الاستقراء ؟ ان كل من يملك بعض المعرفة بالعلوم **الطبيعية** سوف يجيب دون تردد
بالايجاب في الحقيقة انه كان في مقدور **هؤلاء العلماء** ان يستخدموا الاستقراء
وقد استخدموه وهم توصلوا **بواسطة هذا الاستقراء الى آرائهم** حسنا لكن
فيم تختلف هذه الآراء التي تم بلوغها **استقرائيا** عن **تلك الآراء** التي صاغها في وقت
لاحق داروين وهيكل وغيرهما من علماء الطبيعة **بواسطة الاستقراء ايضا** ؟
< يجيب هيكل نفسه كما يلي في راي داروين **واتباعه** ان مختلف الاجناس
التي تنتسب الى نفس النوع الواحد من الحيوانات **والنباتات** تمثل ذراري مشتقة
بصروة مختلفة من نفس **الاشكال** البدئية الواحدة ؛ ومن **بعد** ، وفقا لنظرية التطور

---

* يتحدث فيورباخ عن فساد المثالية الهيغلية في عدد **كبير من مؤلفاته** ومثال ذلك استطيع **Grundsatze der philosophie der Zukunft** وينتقد ماركس بشيء من السخرية مثالية هيغل في كتابه **العائلة المقدسة أو نقد النقد النقدي** .

** يستطيع السيد ب ان يقرا عن ذلك في كتاب **ما اكثر ما** استشهد به **نظام المنطق** لجان ستوارت ميل المجلد الاول ص ٥٣٦ ـ ٥٣٩ الطبعة الثامنة

فان جميع الانواع التي من نفس المرتبة الواحدة تشتق من شكل مشترك أوحد ؛ ويمكن قول الشيء نفسه عن جميع الاصناف من نفس المرتبة الواحدة ولكن خصوم داروين منطلقين من وجهة النظر المعارضة يرون ان جميع أجناس الحيوانات والنباتات مستقلة تماما عن بعضها بعضا سوى ان اولئك الافراد الذين ينتسبون الى نفس الاجناس الواحدة يشتقون من شكل مشترك ولقد صاغ لينايوس هذا المفهوم كما يلي ان هناك أجناسا معددة بقدر ما خلق منها في الاصل من قبل اللامتناهي الاجناس tot sunt diversae quot diversas formas ab initio creavit infinitus*

سجل هذا الفارق وتذكر كيف يصف انجلز نظرة **الميتافيزيائي** الى العالم ان الاشياء وانعكاساتها الذهنية ، المفاهيم هي منعزلة بالنسبة الى الميتافيزيائي ويجب اعتبارها الواحد تلو الآخر في معزل عن بعضها بعضا فهي مواضيع للبحث ثابتة جامدة معطاة بصورة حاسمة نهائية (٣١٦) الا نعتقد أن هذا التعريف ينطبق على أفضل صورة على لاينوس وأتباعه خصوم داروين الذين كانوا يعتبرون الاجناس النباتية والحيوانية اشكالا ثابتة وجامدة معطاة بصورة نهائية الى الابد ؟ اذا كان الامر كذلك حقا فاننا نستطيع حسب مصطلحات انجلز ان نسمي مذهب الاجناس القديم **ميتافيزيائيا** وانظر الآن كيف يصف انجلز نفسه النظرة **الجدلية** الى العالم ان الجدلية تعتبر الاشياء وانعكاساتها الذهنية ( المفاهيم ) في علاقتها المتبادلة ، في ترابطها ، في حركتها ، وفي ظهورها واختفائها الطبيعة اثبات الجدلية و العلم الحديث بين أن الطبيعة ، في آخر الامر تعمل جدليا وليس ميتافيزيائيا ؛ وانها لا تدور في الوحدة الابدية لحلقة متكررة باستمرار بل تجتاز تطورا تاريخيا فعليا ويجب بهذا الصدد أن يسبق اسم داروين اسماء الآخرين جميعا فقد وجه الى التصور الميتافيزيائي عن الطبيعة الضربة الاقسى ببرهانه أن جميع الكائنات العضوية والنباتات والحيوانات منتجات عملية تطورية استمرت ملايين السنين (٣١٧) وكما نستطيع أن نرى ، فان نظرة انجلز الجدلية الى العالم ( وبالطبع نظرة ماركس أيضا هي النظرة التي نادى بها ارنست هيكل — في **تطبيقها على الطبيعة** ومهما يكن من شيء فان آراء **هيكل الجدلية صيغت استقرائيا ، بالضبط مثل الآراء الميتافيزيائية للاينوس وكوفيه واغاسيز وغيرهم من المبرزين في علم الحياة القديم .** ما معنى ذلك ؟ معناه ان **النظرة الجدلية الى العالم لا تحول دون الاستقراء ، مثلها كمثل النظرة الميتافيزيائية الى العالم .** وهذا هو السبب في انه **من المستغرب على الاقل معارضة الاستقراء بالجدلية .**

---

* انظر Naturliche Schöpfungsgeschichte ، بقلم هيكل ، برلين ١٨٦٨ ، ص ٣٤ .

**الاستقراء هو التعميم بواسطة التجربة*** والنظر الى الاشياء من حيث هي مستقلة وثابتة ومعطاة بصورة نهائية والى الابد لا يحول البتة دون التعميم وبالتالي **فالاستقراء يتلاءم مع النظرة الميتافيزيائية الى العالم** وبالطريقة عينها ، فان تعميما مؤسسا على التجربة يتلاءم مع النظر الى الاشياء على اعتبارها مترابطة ومندمجة في عملية من التبدل المتصل وبالتالي **فالاستقراء يتلاءم تماما مع النظرة الجدلية** الى الاشياء ايضا واذا كان السيد ب يستخدم مع ذلك الاستقراء لتخويفنا نحن انصار الجدلية فانما يحدث ذلك لانه لم يفهم طبيعة الاستقراء وطبيعة الجدلية على السواء.

ان الاستقراء وهو ابعد ما نكون عن الحيلولة دون الجدلية يكشف بالضرورة عاجلا او آجلا ، اذ يصنع مخزوننا من التعميمات ، عن فساد النظرة الميتافيزيائية ، ويؤول بنا الى النظرة **الجدلية** ويقدم تاريخ علم الحياة برهانا ممتازا على ذلك ، وهو ما يستطيع السيد ب أن يتبينه بنفسه اذا قرأ على الاقل كتاب هيكل **Naturliche Schöpfungsgeschichte** الذي اتيت اعلاه على ذكره

سجلوا كذلك أن **التفكير الجدلي لا يحول دون التفكير الميتافيزيائي أيضا** ، بل كل ما يفعله هو تعيين حدود محددة له تقوم مملكة الجدلية وراءها وهذا امر لا يرغب نقاد الطريقة الجدلية في اخذه بعين الاعتبار ومع ذلك فهيغل هو الذي شرحه بصورة ممتازة جدا ففي رأي هيغل ان المعرفة تبدأ حين تؤخذ الاشياء في انفصالها وفوارقها وهكذا فان الجواهر المفردة والقوى والانواع ، الخ ،متفاضلة في دراسة الطبيعة ؛ انها مبتة في عزلتها التامة وحين تكون الامور على هذا الفرار ، فان « التفكير بما له من وسائل **ميتافيزيائية** يسود في الفكر العلمي بيد أن المعرفة لاتنتهي في هذه المرحلة ، بل تمضي قدما ونجاحها التالي يستقيم في الانتقال من وجهة نظر الفهم ( **او الميتافيزيائية** ) الى وجهة نظر « **العقل** » او **الجدلية** . فالعقل لا توقفه الحدود المقررة من قبل الفهم ففيما يثبت هذا الفهم الاشياء والظواهر على اعتبارها ثابتة ومستقلة ومنفصلة عن بعضها بعضا بهوة لا قرار لها يستقصي العقل هذه الاشياء والظواهر في عملية تغيرها في عملية ظهورها ودمارها وفي عملية تفاعلها وانتقالها من الواحد الى الآخر**

اذا تركت جانبا الانطباع الغريب حتى درجة ما الناجم عن المصطلحات غير المالوفة في الوقت الحاضر « الفهم العقل فلا بد أن توافق على أن حجج هيغل بشأن حقوق « **الفهم** » بالمقارنة مع حقوق « **العقل** » صحيحة على اكمل وجه في جوهرها وانها تحدد مجرى التطور العلمي على ادق وجه ولولا المصطلحات

---

* الاستقراء بكل معنى الكلمة يمكن أن يعرف بايجاز على اعتباره التعميم من التجربة جون ستوارت ميل المصدر المذكور المجلد الاول ص ٣٥٤ )

** انظر الفقرة ٨٠ من **موسوعة** هيغل الكبيرة الجزء الاول ) .

غير المألوفة حاليا لخيل الى المرء نه نقرأ مبحثا كتبه داروني حالي **ملحوظة** يملك بعض الثقافة في الفلسفة ) عقد العزم على أن نقرر بصورة غير منحازة كيف تنتسب آراء لاينوس وغيره من انصار مذهب ثبات الانواع الى الآراء الاكثر تقدمية لداروين واتباعه وبعد هذا كله هل يستطيع المرء أن يتحدث بمثل هذه الطريقة المسؤولة عن الطبيعة غير العلمية تفكير هيغل ومهما يكن من شيء فان السيد ب لا يفهم لسبب في أن انجلز سمي ميتافيزيائية تلك الآراء عن الانواع الحيوانية والنباتية التي تشبه آراء لاينوس ففي اعتقاده ان كلمتي ميتافيزياء و ميتافيزيائي تعنيان شيئا مغايرا تماما فلننور الناقد

ما الميتافيزياء ما الذي تعالجه انها تعالج غير المشروط أو الاولي اللامتناهي المطلق وعلى اي حال ، فما هي الصفة المميزة الرئيسية لغير المشروط أو الاولي في مذاهب الفلسفة القديمة قبل الكانطية بالتأكيد هي الثبات والديمومة وانما السبب في ذلك أن غير المشروط ، الثابت ، اللامتناهي مستقل عن شروط المكان والزمان التي تغير أي موضوع واية ظاهرة ولذا كان هو غير المشروط ثابتا

لنر الآن ما هي تلك الصفة المميزة للمعرفة التي تستخدمها اولئك الذين يسميهم انجلز الميتافيزيائيين كما يمكن ان يتضح من معرفة لاينوس للانواع فالثبات هو الصفة المميزة لتلك المعرفة وفي هذه الحال فان المعرفة هي في ذاتها وبطريقتها الخاصة غير محددة وغير مشروطة وبنتيجة ذلك فطبيعة مثل هذه المعرفة تماثل طبيعة « غير المشروط التي كانت تشكل موضوع الميتافيزياء القديمة

وهذا هو السبب في أن انجلز يسمي ميتافيزيائية جميع تلك العلوم التي خلقها الذهن نستعير مصطلحاته يعني التي هي ثابتة ومنفصلة عن بعضها بعضا*

واذا وعى السيد ب هذه الامور جميعا التي هي جديدة عليه بصورة غير متوقعة فسوف يدرك أن انجلز لم يكن أول كاتب استخدم عبارتي «الميتافيزيائي» و «الجدلي» بالمعنى الذي نستخدمهما به ان هيغل هو الذي ابتدع هذه المصطلحات

ويحاول السيد ب أن يعارض انجلز بماركس فيستشهد بصفحات كرسها ماركس **لتاريخ المادية الفرنسية** • ويستطيع المرء أن يتبين من هذه الصفحات ان ماركس لم يستخدم عند كتابتها كلمة (( **الميتافيزياء** )) بالمعنى الذي شرحته لتوي والذي كان في ذهن انجلز ففي ذلك الحين وصف ماركس **كل الفلسفة المثالية**

---

* أشرت الى مذهب لاينوس عن الانواع كي أعرف هذه الآراء بكل دقة بيد أن تاريخ علم المجتمع لا يتضمن أمثلة أقل ان لم تكن أوضح على ذلك تذكروا ما قيل أعلاه عن الطوباويين ورجال الانوار وانه ليفيد أن تطالع الفقرة ٣١ من **موسوعة** هيغل من اجل فهم آرائه عن الميتافيزياء القديمة .

**الالمانيـة** بالميتافيزياء  ومن المؤكد ان السيد ب مبتهج لانه وقع على هذا التناقض المزعوم  وهو لا يرتاب مطلقا بمـا كان لذلك من أهميـة كبـيرة في تاريخ تطـور ماركس الذهنـي

والامر هو أن الصفحات التي استشهد بها السيد ب تشكل فصلا ( نشر بصورة منفصلة في وقت لاحق ) من كتاب كتبه ماركس بالتعاون مع انجلز بعنوان **العائلـة المقدسة أو نقد النقد النقدي** ،وقد نشر في فرنكفورت على الماين عام ١٨٤٥  ولقد كانت القطيعة مع مثالية هيغل ذكرى حديثة بعد بالنسبة الى ماركس يوم تأليف هذا الكتاب ، وكانت هذه المثالية بالذات لا تبرح عدوا بالغ الخطورة  ويقول ماركس وانجلز في تمهيد الكتاب   ليس لمذهب الانسانية الحقيقية عدو اشـد خطرا في المانيا من مذهب الروحانية او المثالية التأملية (٢١٨)   ففي أوقات النضال يصعب الافلات من التطرف كما يتعذر على وجه التقريب تفادي الظلم حيال العدو فماركس ايضا لم يكن عادلا بحق **المثاليـة** الالمانيـة  وحين ازدراها على اعتبارها **ميتافيزيائية*** فقد عارض بها **المادية**  ومهما يكن من شيء ، فقد اتضح لـه في وقت لاحق انه مضى بعيدا جدا  لقد تذكر ما للمثالية الالمانية من فضائل **منهجيـة** وادرك أن المادية القديمة التي وجدت لها تعبيرا في ماديـة القرن الثامن عشر لـم تتخلص من العيوب الملازمة **للميتافيزياء** القديمة  وعندئذ كف عن استخدام كلمـة **ميتافيزياء** بالمعنى الذي ربطه بهـا في كتاب **العائلـة المقدسـة** واعطى الكلمـة المعنى الادق الذي شرحته أعلاه والذي قرره هيغـل من قبل  وهو المعنى الذي تتسم الكلمة به في مؤلفات انجلز التي يهاجمها السيد ب  الام يعود اذن **الفارق في الرأي بين ماركس وانجلز** كما اكتشفه السيد ب ؟ انه يقوم في أن ماركس استخدم كلمـة « **ميتافيزياء** » في كتاب **العائلـة المقدسة** بمعنى يختلف عن الطريقة التي استخدمها انجلز بها عام ١٨٧٠ في كتابه **ثورة الهر اوجين دوهرنغ في العلوم**** وهـذا كل شيء  انـه ليس بالشيء الكثير  الا ان هـذا القليل سوف يتقلص اكثر فاكثر اذا تذكرنا أن **انجلز نفسه ، في الاربعينات ، استخدم كلمة ميتافيزياء بنفس المعنى الذي استخدمها ماركس به في ذلك الحين*** ؛ وفي السبعينات** ( وقبل ذلك بوقت

* السبب هو أن هيغل بالذات  الذي عرض طبيعة الميتافيزياء القديمة بمثل ذلك التألق ، وجد ن المرء **لا** يستطيع على أي حال الاستغناء عن الميتافيزياء  وسعى الى وضع ميتافيزياء **جديـدة** تكون خالصـة في رأيه من عيوب الميتافيزياء القديمة  ولقد قال صراحة ان العنصر **الجدلي** في الفلسفة يجب  يستكمل بالعنصر **الميتافيزيائي**  ولقد صنعت مثالية هيغل من هذين العنصرين  وحين **وصفها** ماركس **بالميتافيزياء**  يقصد عنصرها الميتافيزيائي من دون عنصرها الجدلي

** العرض آنف الذكر للنظرة الميتافيزيائية والجدلية عن العالم مأخوذ من هذا الكتاب

*** انظر الكتاب نفسـه ، **اهـل العائلـة**  الذي كتبـه ماركس بالتعاون مع انجلـز كمـا ذكـرت أعـلاه .

طويل ايضا ) **استخدم ماركس نفسه هذه الكلمة بالمعنى الذي علقــه انجلز عليها في مساجلتــه مع دوهرنغ** وعلى أي حال ففي الامكان أن نجـد البرهان على ذلك في التعليقات النقدية على « **مادية العلماء الطبيعيين** » التي صادفها السيد ب في المجلد الاول من **رأس المال** والتي اثارت غضبه* وتوضح هذه الملحوظات ما سماه انجلز **العنصر الميتافيزيائي في المادية القديمة** . ومع ذلك فهذا برهان **غير مباشر** يمكن ان يغيب معناه عن ذهن السيد ب وهذا اثبات أكثر مباشرة ان كتاب **ثورة الهر اوجين دوهرنغ في العلوم** قد كتب في اتصال ايديولوجي وثيق **وحتى في تعاون** مع ماركس. ولقد اكد انجلز فيه انه يعبر عن آراء **يتقاسمها مع ماركس** ولو أن ماركس وجد أن الامر ليس كذلك وأن انجلز يعتبر الميتافيزياء بصورة مختلفة عنه لاوضح بكل تأكيد هذه الحقيقة للقارىء وهو ما لم يفعله وبنتيجة ذلك فالمصطلحات التي يستخدمها انجلز لا تناقض البتة آراء ماركس في ذلك الحين

ان التغيير في المعنى الذي استخدم ماركس وانجلز به كلمة **ميتافيزياء** يمكن أن يسمى صفة مرموقة في تاريخ تطورهما الذهني ولا يمكن الا لامرىء لا يريد أن يفكر أو هو عاجز عن التفكير كليــا أن يرى تناقضا هنــا وأن يعارض بين ماركس **الاربعينات** وانجلز **السبعينات** .

ويصدم السيد ب بشدة لان انجلز يقدم بيكون ولوك على اعتبارهما ميتافيزيائيين. بيد ان انجلز منحهما هذا الاسم بنفس المعنى الذي كان يمكن له استخدامه بصدد لاينوس يعني كي يبين أنهما لم يعتنقا وجهة النظر **الجدلية** هل كان انجلز على حق أم لا **اذا هو كان مخطئا** فان من واجب السيد ب اذن أن يبين خطيئة انجلز بالكشف عن الطبيعة الجدلية لفلسفة بيكون ولوك وهذا ما أخفق السيد ب فيه لسبب بسيط وهو أنه يجهل بيكون ولوك**. والميتافيزياء والجدلية. لقد اقتصر على اثارة **تصخب بشأن استعمال كلمات ظل معناها مجهولا منه** يا له من ناقــد !

وعلى أي حال فقد آن لي أن اختم حديثي ولسوف أدرس في رسالة اخرى هذا الناقد من وجهة نظر اخرى لكنني اجزم بأن وجهة النظر هذه سوف تحدث انطباعا أفضل من الانطباع الذي حصلنا عليه لتونا ان الامر على النقيض من ذلك فأنا اخاف جدا من أننا سوف نضطر لان نكرر حين نسمع جلجلة نقده الراعد **ليس هــذا الرعد من سحابة عاصفة !**

* * *

---

* سوف اعالج سخف هذا الغضب في رسالة اخرى

** لا ... لي أن أتحدث عن لوك في رسالتي التالية حيث أبين مبلغ ضآلة فهم السيد ب **له** .

# في كتاب كروتشه

بنيدتو كروتشه **المادية الاقتصادية والاقتصاد السياسي الماركسي**

**دراسات نقدية** ترجمة ب. شوتياكوف منسورات ب.ن. زفوناريوف

سان بطرسبورغ ١٩٠١

يعتبر السنيور بنيديتو كروتشه نفسه ماركسيا وعلى أي حال ، فثمة انواع متباينة من الماركسيين فهناك حسب كروتشه بالذات ، من هم على استعداد دائما لقبول آراء ماركس « دون مناقشة وبذلك الانعدام للحرية والاصالة الذهنية الذي يشاهد في ادبياتهم ص ٢٤٣ ) ويسمي السنيور كروتشه مثل هؤلاء الماركسيين **مبتذلين** ص ٢٤٤ ) ومع ذلك فهناك ماركسيون من معدن آخر ، اولئك الذين ينقدون معلمهم والذين يتسمون « بالاصالة الذهنية والى هؤلاء ينتسب السنيور ب. كروتشه الذي يعتقد ان دراساته « النقدية » تنطوي بمجموعها على استقصاء تام في جميع القضايا الاساسية للماركسية ( ص ٣ ) ومهما يكن من شيء فهو يضيف الى ذلك هذا التحفظ المتواضع **« اذا لم اكن مخطئا »** ، الا ان لهجته الوقحة تبين قناعته بأنه لا وجود هنا لمثل هذه الخطيئة وان الموضوعات الاساسية للماركسية درست بالفعل بصورة جادة وجامعة ( و **« نقديا »** بالطبع ) في دراساته وليس هذا الادعاء ، كما يستطيع الجميع ان يتبينوا ، بالادعاء الضئيل لكن اهو متين الاساس ؟ هذا ما سوف نراه الآن

ان السنيور ب كروتشه « يحلل « قانون ماركس عن انخفاض معدل الربح فالماركسيون « المبتذلون » يقبلون هذا الفرض « دون مناقشة » كما صاغه معلمهم واثبته ولم يكن في مقدور السنيور كروتشه بما يتصف به من حرية واصالة ذهنية ان يترك هذا القانون « دون دراسة لقد استخدم « الحجج المنطقية » و الحسابات الحسابية » ، وحتى الحدس المستنير للحس السليم ص ٢٥٦ ، تقول الترجمة الروسية استدلال الحس السليم ، لكن هذه خطيئة مطبعية ، زلة قلم او هفوة وقد قادته هذه الاشياء جميعا الى اليقين الحازم بأن ماركس

اخطأ خطأ فادحا في هذه الحالة ، حتى ان طريقته « تتحطم بين يديه » ص ٢٥٩).
وفي مكان آخر من الدراسة نفسها يؤول التحليل العلمي للسنيور كروتشه الى نتيجة ابعث من ذلك على الاسى بالنسبة الى مؤلف **رأس المال** انه يتضح ان ماركس اخترع قانونه عن انخفاض معدل الربح « بدافع كراهيته لذلك النوع من الاقتصاد السياسي الذي كان يسميه بكل ازدراء الاقتصاد السياسي المبتذل » ( ص ٢٥٦).
لا بد ان الامور ساءت جدا ونحن الماركسيين المبتذلين لم يراودنا في ذلك ادنى شك رهيب هو الحلم ، لكن الرب رحيم لنوجه عينا يقظة الى صاحبنا الماركسي ذي الذهن النقدي لعلنا نجد انه خلط بكل بساطة بين الامور جميعا ، متبعا في ذلك العادة الشهيرة « لنقاد » ماركس الآخرين

ان « حدس الحس السليم يقول مايلي ان امامنا ، وفقا لفرضية ماركس التخطيطية بكل معنى الكلمة ، الطبقة الراسمالية من جهة واحدة ، وطبقة البروليتاريين من جهة ثانية إلام تقود التقدم التكنولوجي ؟ انه يزيد ما لدى الطبقة الراسمالية من ثروة الا يتضح لكل عاقل ان الراسماليين ، هؤلاء الذين ينفقون ثروة **تنخفض قيمتها** ، « ( التشديد في النص ــ ج.ب. ) » ، سوف يتلقون بنتيجة التقدم التكنولوجي من البروليتاريين **نفس الخدمات** « التشديد في النص ــ ج.ب. ) » التي كانوا يتلقونها في الماضي ، وبالتالي ان العلاقة بين قيمة الخدمات وقيمة الراسمال سوف تتبدل في مصلحة الاولين ، يعني معدل الربح سوف يزداد فمع انفاق الثروة « الراسمال ) التي كانت في الاصل تنتج خلال خمس ساعات عمل وهي تنتج الآن في اربع ساعات يستمر العمال يكدحون خلال الساعات العشر نفسها لقد كانت النسبة السابقة خمسة الى عشرة ، وهي الآن اربعة الى عشرة ان الاسفنجة تكلف اقل لكنها تمص نفس المقدار من الماء ص ٢٥٧

لنتصور اننا نتعامل مع صناعي يحول كل عام مقدارا معينا من القطن الى خيوط في مصنع الفزل الخاص به ولنفترض فضلا عن ذلك ان تحسينا مفاجئا طرأ على آلة الفزل **ضاعف** من **انتاجية عمل** الفزال كيف يؤثر هذا التحسين المفاجىء في مقدار الراسمال الثابت ، يعني الاسفنجة التي تمتص ، حسب تعبير كروتشه عمل العمال الحي ؟ بما ان انتاجية عمل الفزال **تضاعفت** ، فمن الواضح انه حاليا **سوف يحول كمية مضاعفة من القطن** الى خيوط غزل ولا بد للصناعي ان يوفر هذه الكمية المضاعفة من القطن للعامل ، الامر الذي يعني ان نفقاته السابقة على الخامات ، مع بقاء الشروط الاخرى ثابتة ، **سوف تتضاعف** ( بغض النظر عن اية نفقات اضافية اخرى ) ومن هنا يتضح ان السنيور كروتشه فهم اهمية التقدم التكنولوجي بصورة ضئيلة حين تساءل « كيف كان في مقدور ماركس ان يتصور ان نفقات الراسمالي تزداد دائما مع التقدم التكنولوجي ؟ » ( الصفحة نفسها ) ومهما يكن من شيء فانه يتبين في الممارسة انه لم يكن في مقدور ماركس ان يتصور ذلك فحسب بل كان هذا التصور من واجبه ايضا

لكن ليس هذا كل شيء ان التقدم التكنولوجي الذي ضاعف انتاجية عمل الغزال قد استقام في **تحسينات الآلات** والآلات المحسنة تكلف اكثر عادة ـ ولديك هنا عامل آخر يزيد من نفقات الراسمالي ، ودليل جديد على أن السنيور كروتشه كان على قدر كبير من السذاجة حين تساءل كيف كان في مقدور ماركس ».الخ.

الا ان السنيور كروتشه يمضي فيفترض الراسمال يحسب لا في حجمه الحكمي بل في قيمته الاقتصادية وهذا الراسمال يجب ان يكون له اقتصاديا مع افتراض ان الشروط الاخرى جميعا لم تتغير ) قيمة أقل والا لم يتحقق أي تقدم تكنولوجي ص ٢٥٨ )

ههنا يبدي صاحبنا الناقد مرة اخرى سذاجة قصوى ومؤثرة تقريبا ان التقدم التكنولوجي « **يجب** » ان ينقص قيمة الراسمال الثابت والا لم يتحقق أي تقدم تكنولوجي ـ هذا كل ما لدى السنيور كروتشه من اقوال دحضا لقانون ماركس لكن ، وآسفاه ، هذا قليل جدا يستقيم التقدم التكنولوجي في انتاجية عمل أعلى ، يعني في اشتمال كل وحدة معينة من المنتج على مقدار من العمل أقل من ذي قبل غير أنه لا يترتب على ذلك ان السلع تنتج الآن بآلات أقل كلفة ، بل العكس هو الصحيح فالتقدم التكنولوجي يتطلب عادة استخدام آلات اكثر تعقيدا، وبنتيجة ذلك أكثر كلفة وتلك هي الحال ليس في مجال **الانتاج** فحسب ، بل في **تداول** السلع أيضا ان سفينة عابرة للمحيط تكلف اكثر جدا من مركب شراعي ، وبالرغم من ان **تكاليف الشحن** انخفضت حتى درجة كبيرة مع تطور الملاحة عبر المحيطات وصحيح انه ليس في الامكان انكار وجود **اسباب مضادة هنا** ، وقد قدم ماركس لائحة مفصلة بها في كتابه **راس المال** ( المجلد الثالث ، القسم الاول ، ص ٢١٣ وما يليها في الطبعة الالمانية (٣١٩) ) ولقد ضم في عدادها الخامات الارخص ، والآلات والاقسام المركبة الاخرى للراسمال الثابت وهو يقول « ومثال ذلك ان كمية القطن التي يشتغلها غزال اوروبي واحد في معمل حديث ازدادت بصورة هائلة بالمقارنة مع الكمية التي كان يشتغلها فيما مضى غزال اوروبي بدولاب الغزل ومع ذلك فان قيمة القطن المشغول لم تزدد بمثل زيادة كتلته وينطبق الامر نفسه على الآلات والراسمال الثابت الآخر » ( المصدر نفسه ، ص ١٢٧ (٣٢٠) ) « في حالات منعزلة يمكن ان تزداد كتلة عناصر الراسمال الثابت ، **فيما تظل** قيمته على حالها ، او تنخفض ( الصفحة نفسها (٣٢١) ) الا ان ذلك لا يحدث الا في حالات منعزلة ، فاجمالا تزداد قيمة الراسمال الثابت ، وان لم تكن تزداد بمثل سرعة زيادة كتلة عناصره ان اي تلميذ بارع يعرف ذلك لكن هذه بعض الحقائق الجديدة الباعثة على الاهتمام في الولايات المتحدة الاميركية ارتفع عدد المشاريع الصناعية ( باستثناء المناجم ذات الانتاج السنوي الذي لا يقل عن ٥٠٠ دولار بنسبة ٤٤ بالمائة خلال العقد المنصرم بين ١٨٨٩ / ١٨٩٠ و ١٨٩٩ / ١٩٠٠ ؛ وارتفع عدد العمال المستخدمين

فيهـا بنسبة ٢٥ بالمائـة ؛ وارتفعت الاجور الاجماليـة بنسبة ٢٣ بالمائة ؛ وازداد الراسمال الموظف في هذه المصانع ( من الواضح ان المقصود هو ما يعرف بالراسمال **الثابت** بنسبة ٥١ بالمائـة ؛ واخيرا فان النفقات المختلطة ازدادت بنسبة ٦٣ بالمائـة ( انظر مقالة فرانز «Aus den Vereinigten Staaten في **نيوزيت** للسابع عشر من ايار ١٩٠٢ ) هذه الارقام تبين ان الراسمال الثابت يزداد بسرعة اعظم من الراسمال المتحول في الولايات المتحدة وما نشاهد هناك بعبارات **الزمان** نشاهد في روسيـا **بعبارات المكان** . ان صناعـة الحديد والفولاذ في **جنوبي روسيا** افضل تجهيزا حتى درجة بعيدة من صناعة **الاورال** ، وهو السبب في **وجود رأسمال ثابت اعظم جدا** نسبة لكل عامل في صناعة الحديد والفولاذ **في الجنوب مما في الاورال** واكرر ان هـذا ما **يعرفه كل تلميذ مدرسة** ومع ذلك يواصل السنيور كروتشه التساؤل في هذه الحال ، ما جدوى تحسين طرق الانتاج ؟ انه لا يشك مطلقا ، في سذاجته «النقدية»، في أن آلة اكثر تقدما ، وبالتالي ( في معظم الحالات ) اعظم كلفة ، **تحول كلفة أقل الى كل وحدة منفصلة من المنتج مما تفعل الآلة الاقل كلفة** ولو عرف ذلك لفهم اذن مبلغ سخف « الحدس المستنير للحس السليم عنـده ، ومبلغ خراقتـه وعجزه حين ينقد قانون انخفاض معدل الربح بيـد انه يجهل ذلك وبالتالي فهو مبتهج بنقده ايما ابتهاج

لقد انتقيناهـذه الدراسة الخصوصية للسنيور كروتشه لانها تؤكد حقيقـة المثل الفرنسي les beaux esprits se rencontrent . فمن المعروف لدى الجميع ان السيد توغان ــ بارانوفسكـي ، في الادب الروسي ، استخـدم حججا مماثلـة ليدحض قانون ماركس (٣٢٢) ولقد دحض السيد كاريلين بصورة ممتازة محاكمة الناقد ( في **المجلة العلمية** (٣٢٣) ) فيما تناول مؤخرا كاوتسكي حجج السيد توغان لتمحيصها في **نيوزيت** بمناسبة صدور الترجمة الالمانيـة لكتاب السيـد توغان عن الازمات ، وهو الكتاب الذي يشتمل على تفنيده الزائف لماركس وبالطبع فنحن لن نكرر هنا حجج كاريلين وكاوتسكي*

---

* ان كاوتسكي الذي بين نقـد السيد توغان ــ بارانوفسكي لا يعدو كونه عودة الـى وجهـة نظر الاقتصاد السياسي المبتذل يسبغ عليه مع ذلك قدرا كبيرا من المديح ففي رأي كاوتسكي ان السيد توغان « ناقـد بارز جـدا على وجه التقريب وبالفعل ، فان هـذا الكاتب يتصف باجتهاد كبير وبشيء من البراعـة **الوصفيـة** ومهما يكن من شيء فهـو ميت بقدر ما يتعلق الامر بالنظريـة الاقتصادية أو هو لم يولد لهـا بعـد ويخيل الينـا ان المديح الذي تلقاه من كاوتسكي في غـير موضعـه البتـة ونعتقد انـه في الامكـان تفسيره بنفس ذلك الانحراف السيكولوجي الذي يحمـل الاشتراكيين في كل بلد على حـدة على الاعتقاد بأن بورجوازية البلدان الاجنبية أفضل من بورجوازيتهم كان كاوتسكي ضجرا جدا من النقاد » الالمان

وبودنا ان نسجل فحسب انه كلما توصل مفكران كبيران الى اكتشاف كبير ما فانه مما يبعث على الاهتمام دائما حسم مسألة ما يسميه العلماء الالمان Priorität من يحتل مكانة الاولوية في دحض قانون ماركس عن انخفاض معدل الربح السنيور كروتشه أم السيد توغان ـ بارانوفسكي ؟ ماذا يقول التقويم الزمني ؟ ان دراسة السنيور كروتشه « النقدية » التي ندرسها صدرت لاول مرة في منشور علمي ايطالي **في أيار ١٨٩٩** ( انظر مقدمة كتابه . ص ٢٤ الهامش ) وفي نفس الشهر من السنة نفسها « دحض السيد توغان ـ بارانوفسكي ماركس **في المجلة العلمية** . من الواضح ان الاولوية لا تعود الى اي منهما ان المفكرين ( الناقدين ) قد تلاقيا لكن اذا أنت قلت ، أيها القارىء العزيز ، ان كلا هذين المفكرين النقديين استعارا فكرتهما « النقدية من شخص ثالث هو اقتصادي نقدي اكثر منهما فسوف نجيب **انك على صواب** افتح Verhandlungen der an 28 und 28 September in Wien abgehaltenen Generalversammlung des Vereins für Sozialpolitik über Kartelle und über ländliche Erbrecht لا يبزغ ١٨٩٥ ، وسوف تجد في الصفحة ٢١٨ الكلمات التالية بقلم الاستاذ جوليوس وولف ، الناقد الاشتراكي الشهير

يبدو ان حلقات عديدة تشاطر في وجهة نظر الاستاذ برنتانو القائلة ان الراسمال الثابت يزداد بالمقارنة مع الراسمال المتداول وتشكل وجهة النظر هذه ، وان يكن في صياغة مختلفة قليلا ، جزءا من العقيدة الاشتراكية ولا يمكنني ان اتفق معه ، على الاقل ليس بصورة مطلقة فقبل اسابيع قليلة قام صناعي من زوريخ تربطني به علاقات ودية ببعض الحسابات في هذا الصدد وهو نفسه غزال ويملك معرفة جامعة بتاريخ الغزل ، وعلى الاخص في بريطانيا ، يعني في البلد الذي يستعير منه الهر برنتانو والاشتراكيون بكل طيبة خاطر المواد التي تؤيد حججهم وذلك لاسباب مفهومة تماما ولقد حسب هذا الصناعي ان الراسمال الثابت هو حاليا في الغزل دون ما كان عليه فيما مضى فالابنية والمغازل ومختلف الآلات اصبحت حاليا أقل كلفة نسبيا ، وبالمقابل ، فان الاجور ارتفعت واذا كان الامر كذلك فانه لا وجود للقانون الطبيعي ( Naturgesctz ) للتطور الاقتصادي الذي يقصده الهر برنتانو

من الواضح ان الصناعي الزوريخي الذي يذكره الهر وولف ليس غير فريدريخ برتو الذي اصدر ، **في اوائل ١٨٩٥** كتيبا بعنوان Fünf Briefe über Marx an Herrn Dr. Julius Wolf Professor der Nationalökonomie in Zurich مع مقدمة بقلم الدكتور وولف بالذات ويورد المؤلف في الصفحات ٤٧ ـ ٤٩ من هذا الكتيب ارقاما الغرض منها بيان انه ليس الراسمال **الثابت** هو الذي اظهر في

واقع الامر زيادة نسبية بل الراسمال **المتحول** ( لاحظـوا ان الهر برتو يستخـدم مصطلحات ماركس **الراسمال الثابت و المتحـول** ) واما الارقـام التي يوردهـا الهر برتو فيمكن القول **انها حتى** اذا برهنت حقا على ما يبتغيه **فليس في مقدورها ان تدحض** قانون ماركس **الذي تؤيده** ارقام ذات اهميـة اعظم جدا من ارقام الصناعي الزوريخي **فحتى في هذه الحالة ، وهي الفضلى** يمكنها ان تشير الى ان صناعـة لغزل في بريطانيا **تخص تلك الاستثناءات** للقاعدة العامة التي اشار ماركس اليهـا بيد ان ارقام الهر برتو **لا** تتضمن حتى اقل ظل لما يتصدى للبرهان عليه بذلك الطيش في القضايا النظرية **الذي يميز الكثيرين جدا من** « رجال النشاط العلمي » ، وهذا ما يمكن ان سبينه بكل **سهولة اي** امرىء يتكلف عناء مطالعة المقتطف المذكور اعلاه من **Fünf Briefe über Marx an**.ونستطيع ان نحيل اولئك المعنيين بمعرفة الاتجاه الذي تسلكه نسبـة **الراسمال** الثابت الى الراسمال المتحول في صناعـة القطن في بريطانيـا الـى كتـاب **الانتـاج الكبـير** ، الخ ، بقلـم الهر سكولتزه ــ غافرنيتز ، سان بطرسبورغ ١٨٩٧ ويغص هـذا الكتاب بـدوره بالمغالطـات وسـوء التقدير وسوء **الفهم** ، **والسفسطات** ، الا انه يتضمن بعض المعطيات المفيدة جدا عن القضية التي **نعالجها**

وكائنـا ما كان الامر ، فان مفكرينا التقيا في حقل **الانتحال** النقـد حقـا يا لـه من نقـد !

ان الحجج المذكورة اعلاه للماركسي « الاصيل ذهنيا » تعطينا فكرة واضحـة جدا عن سذاجته **الاقتصادية** لكن هذه جوهرة اقتصادية اخرى من جواهره تزيدنا يقينا ــ وعلى أي حال ، **فالوفرة** ليست مصيبة

انـا نقرأ في **الدراسة** التي عنوانها تأويلات جديدة للنظرية الماركسية عن القيمـــة »

« بنى ماركس مفهومه الخاص عن القيمة ؛ لقد عرض تحويل **القيمة** الى **السعر** وارجع طبيعـة الربح الى **فضل القيمة** . وبالنسبة الي فان كل قضية نقد الماركسية ترتد الى مايلي هل مفهوم ماركس خاطىء اساسا كليا اذا كانت المقدمات مغلوطة أو جزئيا من جراء الاستنتاجات المغلوطة ) ؟ أو ايضا اذا كان مفهوم ماركس صحيحا اساسـاً أفلم يحشر في مقولـة **لا** يخصها ؟ هل طلب من هذا المفهوم شيء لا يعطيه ؛ مع الاخفاق ايضا في معرفة حقيقته الفعلية ؟ وبعد وصولي الى النتيجة الثانيـة تساءلت في أيـة شروط وبأية فروض تكون نظرية ماركس **مفهومـة ؟** » ص ٢١٦ ــ ٢١٧

ويرد السنيور كروتشه على نفسه جوابا على هذا السؤال المصاغ بكل وضوح: « ان مفهوم قيمة **العمل** يصح بالنسبة الى مجتمع مثالي حيث منتجات العمل هي الفوائد الوحيدة وحيث **لا** وجود للفوارق الطبقية ص ٢٣١ وهكذا سوف يكون لدينا : ١ ــ مجتمع اقتصادي دون فوارق طبقية . قانون قيمة العمل.

٢ ـ تقسيم اجتماعي للطبقات اصول الربح الذي لا يمكن نعته بفضل القيمة **الا بالمقارنة مع النمط السابق وبقدر ما تحول مفاهيم ذلك الربح الى هذا النمط** ( التشديد من السنيور كروتشه ) ٣ ـ التمييز التكنولوجي بين صناعات متنوعة تتطلب بالضرورة تركيبا مختلفا للراسمال ظهور المعدل المتوسط للربح الذي ، **بالمقارنة مع النمط السابق، يمكن أن يعتبر من حيث هو فضل قيمة محولة ومسواة)».** ( ص ٢١٣ ، التشديد من قبلنا )

وفي الدراسة التي عنوانها في مسألة تأويل ونقد بعض مفاهيم الماركسية حيث تدرس المسألة اياها توضح فكرة السنيور كروتشه كما يلي

ليست قيمة العمل عند ماركس تعميما منطقيا بل **حقيقة فهمت واتخذت نموذجا ،** يعني شيئا متميزا تماما من المفهوم المنطقي هي ليست تجريدا شاحبا بل تملك كل غنى الحقيقة المشخصة* وتفيد هذه **الحقيقة** المشخصة في ابحاث ماركس من حيث هي مقارنة ، قياس ، نموذج ص ٦٠.

جميع هذه الامور تبدو واضحة قيمة العمل مجرد « حقيقة فهمت من حيث هي نموذج واسم فضل القيمة يمكن أن يطبق على الربح من وجهة نظر مثل هذه « الحقيقة ـ النموذج فحسب حسنا ، حسنا ، هذه هي الطريقة التي فهم بها صاحبنا الماركسي الفذ مؤلف **رأس المال** هل (( **سمى** )) ماركس مرة الربح فضل القيمة ؟ تطبيق مثل هذا الاسم عليه يعني تعمية تلك المفاهيم بالضبط التي ينبغي ايضاحها فعند ماركس ان الربح **مثله كمثل الفائدة او الريع العقاري ،** يشكل **جزءا** من القيمة التي يخلقها عمل العمال غير مدفوع الاجرة لكن اذا كان هذا يوفر اساسا لتسميته فضل قيمة ، فانه يجب علينا اذن ان نطبق « الاسم نفسه **على الفائدة والريع العقاري** ايضا ومن الواضح انه لا يمكن توقع أي شيء صالح من مثل هذه المصطلحات لكن هذه الامور جميعا يجري الحديث عنها بصورة عابرة فقط فالشيء الرئيسي بالنسبة الينا هنا هو انه ، وفقا لماركس ، لا يشكل الربح مطلقا جزءا من فضل القيمة في « مجتمع منتج اقتصادي دون فوارق طبقية من صنع الخيال وحده ، **بل في المجتمع الرأسمالي الحالي الذي هو (( حقيقة تجريبية)) لا جدال فيها .** هذا أمر لا يفهمه صاحبنا الماركسي « صاحب الذهنية النقدية » فهو مشرب جدا بروح الاقتصاد السياسي المبتذل بحيث ان السؤال يفرقع منه بكل بساطة لماذا ينبغي للمرء ان يسمي تحولا لفضل القيمة شيئا هو الحصيلة الاقتصادية الطبيعة للراسمال الذي يجب ( لانه راسمال ) ان ينتج ربحا ؟ ( ص ٢٣٠ )

---

* يضيف السنيور كروتشه في الهامش لا يجوز نسيان **الحقيقة المشخصة لا** تتطلب تكون حقيقة تجريبية بل حقيقة هي افراضية خالصة يعني موجودة بصورة جزئية فحسب في واقع تجريبي .

هذا شيء لا مثيل له وبعد هذا كيف يمكن للمرء أن يناقش الامور مع السنيور كروتشه او ان يفسر له أن غرض ماركس العلمي كان على أي حال ، ان يبرهن **لماذا تكون ممكنة** هذه الحصيلة الاقتصادية الطبيعية للراسمال المسماة ربحا **وما هو مصدرها** ، او ان يقدم له فضل القيمة من حيث هي **مصدر** « الحصيلة الطبيعة ؟ سوف يكون ذلك كله عبثا ، مضيعة للوقت ؛ فالماركسي نقدي الذهنية سوف يجيب بيقين لا يقهر ان وجود فضل القيمة غير ممكن الا في مجتمع وهمي **دون** انقسامات طبقية ، وبالتالي ان ربط فضل القيمة بمصدر الربح — هذه الحصيلة **الطبيعية** للراسمال — معناه اماطة اللثام عن ذلك الافتقار للتفكير الاصيل وهو الافتقار الذي يسم — يا لخزيهم — الماركسيين المبتذلين مما لا ريب فيه ان السنيور كروتشه سليل مباشر للرجل في الخرافة التي وضعها الكاتب الروسي ايفان كريلوف. هذا الرجل الذي **اخفق في ملاحظة الفيل** ، وهو لا يرى ما يحدق فيه وجها لوجه

في الحقيقة ان ذرية هذا النموذج المرموق للطبيعة الانسانية عديدة جدا وهي تتضمن جميع « نقاد ماركس الذين يؤمنون بوجود التناقض بين المجلدين الاول والثالث من **رأس المال** ولقد بينا في استعراض لكتاب فرانك **نظرية القيمة عند ماركس واهميتها** ( انظر **زاريا** العددين ٢ — ٣ ص ٣٢٤ وما يليها ) انه لا يوجد في الواقع أي تناقض بين المجلدين ، وان المجلد الثاني — الذي شمله النسيان تقريبا في هذه الحالة — يتضمن دلالات لا لبس فيها على **الطريقة** التي حل بها ماركس التعارض بين قانون القيمة من جهة واحدة وقانون المعدل المتساوي للربح من جهة ثانية ولقد أشرنا في عرضنا الى الصفحتين ١٥٢ و ٢٥٣ من المجلد الثاني وهما تقابلان في الترجمة الروسية الصفحتين ١٨٥ و ٣١٥ من الطبعة الثانية من الاصل الالماني ) ولننشر الآن الى بعض الفقرات الاخرى من المجلد نفسه في الصفحة ٧٩ يقول ماركس انه وفقا للطريقة الراسمالية في حساب الربح يميل زمن اطول لفترة التداول بالنسبة الى الراسمال في مختلف ميادين التوظيف وذلك حيثما كانت ازمان التداول مختلفة ، الى تحقيق زيادة في الاسعار ، وباختصار **يفيد من حيث هو أحد اسباب تحقيق التساوي في الارباح** ( التشديد من قبلنا المقتطف الموجود في الصفحة ٩٧ من الطبعة الثانية للاصل الالماني (٣٢٤) ) هذا في روح المجلد الثالث تماما. ومن بعد فان المقتطف في الصفحة ٨٨ هذا نصه كل عمل يضيف قيمة يمكن ان يضيف فضل قيمة ايضا ، وسوف يضيف فضل قيمة دائما في ظل الانتاج الراسمالي، نظرا لان القيمة التي يخلقها العمل رهن بمقدار العمل نفسه في حين ان فضل القيمة التي خلقها هذا العمل رهن بمدى ما يدفعه الراسمالي لقاءه وبنتيجة ذلك فان التكاليف التي ترفع من سعر سلعة ما دون ان تضيف الى قيمتها الاستعمالية ، والتي يجب تصنيفها اذن من حيث هي نفقات غير منتجة بقدر ما يتعلق الامر بالمجتمع، يمكن أن تكون مصدر اثراء بالنسبة الى الراسمالي الفردي ص ١٠٧ من الاصل

الالماني (٣٢٥) ) ولا بد ان يدرك القارىء ان هذه النفقات غير المنتجة لا يمكن ان تفيد كمصدر للثروة بالنسبة الى الرأسماليين الفرادى لولا ان فضل القيمة المنتزعة من الطبقة العاملة قد وزعت بين اصحاب العمل بصورة مطردة مع رأسمال كل واحد منهم واخيرا في الصفحة ٢٦٩ لدى طرح مسألة كيفية الاستعاضة من المنتج السنوي عن قيمة الرأسمال المستهلك في الانتاج وكيفية امتصاص حركة هذه الاستعاضة من قبل استهلاك فضل القيمة من جانب الرأسماليين واستهلاك الاجور من قبل العمال يلاحظ ماركس انه يلمح الى مبادلة المنتجات وفقا لقيمتها لكن يقدم تحفظا عظيم المغزى ترجم الى الروسية بصورة بائسة وسوف نورده اولا من الاصل ان حقيقة تباعد الاسعار عن القيم لا يمكن على اي حال ان تمارس اي تاثير في حركات الرأسمال الاجتماعي فعلى العموم هناك مبادلة نفس المقادير من المنتجات بالرغم من ان الرأسماليين الفرادى منخرطون في علاقات قيمة لم تعد بعد الآن مناسبة مع توظيفات كل منهم ومع كميات فضل القيمة المنتجة بصورة افرادية من قبل كل واحد منهم ص ٣٦٨ من الطبعة الثانية (٣٢٦)* ) فاذا ظلت مبادلة مقادير المنتجات على حالها مع تباعد **الاسعار** عن **القيم** ، فان هذا يوضح من جهة واحدة **ان المبلغ الاجمالي للقيم المبادلة** سوف يبقى على حاله هو الآخر واذا لم يؤثر التباعد المذكور اعلاه **في حركات** الرأسمال الاجتماعي ، فان مثل هذا التباعد لا يمكن من جهة اخرى ان يغير طبيعة **عملية خلق تلك الكمية من فضل القيمة الممتصة من قبل الرأسمال الاجتماعي والموزعة بين الرأسماليين الفرادى** وبنتيجة ذلك فكيفما اجبنا على مسألة التباعد بين الاسعار المتوسطة والقيم ـ ايجابا أم سلبا ـ فان جوابنا **لا يمكن ان يؤثر** في حل مسألة مصدر فضل القيمة الاجتماعية واذن يترتب على ذلك **ان المجلد الثالث من «رأس المال» لايمكن ان يتناقض مع المجلدالاول،** وان النقاد بحثوا عن التناقضات حيث لا وجود لاي تناقض ، يعني انهم اساؤوا فهم ماركس كليا

ومع ذلك لم يكن فهمه بالامر بالغ العسر فاذا كان « النقاد اعتنقوا الرأي بأن اسعار السلع المتوسطة تتطابق ، وفقا للمجلد الاول ، مع قيمها فقد فعلوا ذلك تلقاء انفسهم واما ماركس فأكد ، في المجلد المذكور ، بأنه لا وجود بالفعل لمثل هذا التطابق وقد اعلن انجلز من جانبه ان فكرة مثل هذا التطابق لا اساس لها ...سة ففي اعتراضه على اوجين دوهرنغ اشار الى ان ماركس لم يناد بأن الصناعي الفردي في سائر الظروف مهما كانت ، يبيع ما يحصل عليه من منتج فائض بقيمته الكاملة يقول ماركس بصورة جلية ان ربح التاجر يشكل ايضا قسما من فضل القيمة وحسب الافتراضات الموضوعة لا يكون هذا ممكنا الا حين يبيع الصناعي

* هذه الفقرة واردة بالالمانية في النص قبل ترجمتها ] .

منتجه الى التاجر بسعر **دون** قيمته  **ثورة الهر اوجين دوهرنغ في العلوم** ، الجزء الثالث ، ص ٢٢٦ (٢٢٧) ) ويقول انجلز من بعد بالاشارة الى فقرة من المجلد الاول  يستطيع الهر دوهرنغ ان يتبين من هـذا وحده ان **المزاحمـة تلعب دورا رئيسيا في توزيع فضل القيمة** ، والبيانات المعطاة في المجلد الاول هي في الواقع كافية، مع بعض التفكير  لايضاح تحول فضل القيمـة الى اشكالها الثانوية  على الاقل في سماته الرئيسية  المصدر نفسـه ص ٢٢٨ (٢٢٨) ) ان الكلمات التي شددنا عليها توفر بحد ذاتها دلالة واضحة بصدد **الاتجاه الذي ينبغي فيه البحث عن حل « اللغز » الشهير**  وحين اقترح انجلز نفسه في مقدمة المجلد الثاني ان اللغز يجب ان يحله العلماء الذين يرون ان وجهـة نظر رودبرتوس كانت المصدر الخفي لنظرية ماركس الاقتصادية ، فقد كان يجب ان يكون واضحا على خير وجه في نظر أي رجل عاقل كيف هي الامور  ويجب ان يلاحظ القارىء ان انجلز خاطب اولئك الناس بالذات الذين كانوا يمجدون رودبرتوس ضـد ماركس ، وخاطبهم **وحدهم**  لقـد دعاهم لان يبينوا ان اللغز يمكن حلـه بمعونة نظريـة رودبرتوس الاقتصاديـة **ليس دون أي ابتعاد عن قانون القيمة فحسب ، بل بالاحرى على اساس هذا القانون.** ولقد قدم هذا الاقتراح بكل بساطة وعلى وجه الحصر لانهم لا يستطيعون تناوله دون التخلي عن نظرية رودبرتوس الاقتصادية  ويعرف كل من يملك اطلاعا واسعا على نظرية هذا الاخير ان قانون القيمـة في اعتقاده بعيـد عن كونه سائدا في المجتمـع الراسمالي  وكان انجلز يفكر في هذا المظهر من نظرية رودبرتوس حين قدم اقتراحه المراوغ الى اتباع رودبرتوس  هذا الاقتراح الذي فهمه  النقاد  على انه ضمانة البرهان على تطابق الاسعار مع القيم في المجلد الثالث من **رأس المال** . وكان هذا خطأ رديئا في التقدير  لكن مسؤوليته تقع على النقاد وليس على المجلد الثالث أو على ماركس وانجلـز

وبنتيجة ذلك فان نظرية القيمة عند رودبرتوس تختلف اختلافا كبيرا عن نظرية ماركس في الموضوع نفسه  وفي الحقيقة انها تختلف حتى الدرجة القصوى ، وان لم يكن النقاد يشكون في ذلك طبعا  ويصوغهـا رودبرتوس كما يلـي  اذا بودلت السلع بصورة مطردة مع مقدار العمل المصروف في انتاجها ، فقانون القيمة قابـل للتطبيق على اكمل وجه ، والا فيبدو ان هذا القانون يتعثر  **ولقـد فهـم ماركس المسألة بطريقة اوسع جدا** ، وهو ما يتضح من المجلد الاول من **رأس المال** وما تبرهن عليه بصورة أفضـل من ذلك ايضا احدى رسائلـه الى كوغلمان بتاريخ ١١ تمـوز ١٨٦٨  حيث يقـول

أما بخصوص **سنترالبلات** ، فان الرجل يقوم بأعظم تنازل ممكن حين يقبـل بأنه اذا كان المرء يعني شيئا ما بالقيمة ، فان النتائج التي استخلصتها يجب أن تقبل  وان الرجل السيء الحظ **لا** يرى أنه حتى اذا لم يكن في كتابي أي فصل عن  القيمة » ، فان تحليل

العلاقات الواقعية الذي اعطيه سيتضمن البرهان **والدليل على علاقة** القيمة الفعلية كل ذلك **اللغو** عن ضرورة اثبات مفهوم القيمة **منشؤه الجهل** التام بالموضوع المعالج وبال**طريقة** العلمية على حد سواء فكل طفل يعرف أن **أمة تتوقف** عن العمل لن أقول لسنة واحدة ، بل حتى لاسابيع قليلة ، سوف **تفنى** **وان كل طفل** يعرف أيضا ان كتل المنتجات المقابلة للحاجات المختلفة **تتطلب** كتلا **مختلفة ومحددة** كميا من العمل الاجمالي **للمجتمع** أما ان هذه **الضرورة** الخاصة **بتوزيع العمل الاجتماعي** بنسب معينة لايمكن البتة **الاستغناء** عنها بواسطة **شكل خصوصي** للانتاج الاجتماعي ، بل يمكن فقط تغير **نمط ظهورها** فهذا أمر مفروغ منه ليس ثمة **قوانين** طبيعية يمكن الخلاص منها ان ما يمكن ان يتغير **في** ظروف مختلفة تاريخيا **انما هو الشكل** الذي تؤكد فيه هذه القوانين نفسها الشكل الذي يؤكد **هذا** التوزيع للعمل نفسه فيه في حالة اجتماعية حيث يتظاهر تداخل العمل الاجتماعي **في المبادلة الخاصة** لمنجات العمل الانفرادية هو على وجه الدقة **القيمة التبادلية لهذه** المنتجات

ان العلم يستقيم بالضبط في البرهان **على الكيفية** ( **في** الاصل **zu entwickeln** شرح ) التي **يؤكد** بها قانون القيمة نفسه **ذلك بحيث اذا أراد** امرؤ منذ البداية بالذات

يفسر جميع الظواهر التي **تناقض فيما يبدو ذلك القانون** ، فلا بد له ان يقدم العلم قبل العلم وانها لخطيئة ريكاردو بالضبط **أنه** يتناول **في** فصله الاول عن القيمة جميع المقولات الممكنة والواجب شرحها على أنها **معطاة كيما** يثبت تطابقها مع القانون

ليس لدى الاقتصادي المبتذل أوهى فكرة عن **أن علاقات** المبادلة اليومية الفعلية **لا** يمكن أن **تكون متماثلة بصورة مباشرة** مع مقادير القيمة **ان** ماهية المجمع البورجوازي تستقيم بالذات **في** هذا انه **لا** يوجد أي تنظيم واع للانتاج **بصورة قبلية** ان العقلاني والضروري طبيعيا انمايؤكد ذاته من حيث هو **معدل يعمل** بصورة عمياء ثم يحسب الاقتصادي المبتذل انه توصل الى اكتشاف عظيم حين **يعلن** بكل فخر — بصورة معارضة للكشف عن الترابط الباطن — ان الاشياء **تلوح مختلفة في ظاهر الامر** وبالفعل فانه يتباهى بأنه يتمسك بالمظهر **ويأخذ هذا المظهر على أنه** الحقيقة الاخيرة فما جدوى العلم (٢٢٩) ؟

**ان القيمة التبادلية شكل يتخذه عمل قانون القيمة ، نمط لعمل هذا** القانون **وليست هي اكثر من مقولة تاريخية** لكن **فيما نمط** فعل القانون آنف الذكر **يتبدل مع تبدل العلاقات الاجتماعية** ، فان **العمل نفسه** راسخ رسوخ عمل القوانين الابدية للطبيعة وبالتالي فاذا شاهدنا **ان نمط** عمله **يتغير** او **يصبح أعظم تعقيدا** لسبب او لاخر ، ولنقل بسبب **المزاحمة بين الراسماليين** ، فهذا لا يعني ان **العمل بالذات** ينتهي او يحذف بصورة جزئية على الاقل **لا** ، بل هو **يبقى ساري المفعول** تماما فيما هو يتظاهر بصورة **مغايرة** ، **او يتداخل مع فعل** قانون آخر ، ومن واجب الباحث ان يتتبعه عبر جمهرة **الاشكال والتداخلات الجديدة** . ولقد انجز

ماركس هذه المهمة في كتابه **رأس المال** .واما رودبرتوس **فهو لم يخفق في حلـه فحسب** ، بل اعتبر هذا الحل امرا متعذرا وحسب تعبيره بالذات فقـد كانـ احدى أخطاء ماركس ان « er nimmt den Arbeitswerth aller Güter schon in dem heutigen Zustande als realisiert an, während dies nur durch Gesetze geschehen kann ) انظر رسالته الى ر ميير بتاريـخ ٨ ايلول ١٨٧١ المنشورة في كتـابـه Briefe und sozial politische Aufsätze . المجلـد الاول ص ٩٩ ــ ١٠٠ فعند رودبرتوس يستقيم قانون القيمـة باجماله في **تحديد علاقات مبادلة السلع بمقدار العمل** المصروف في انتاج كل منها وبكلام آخر ، فان رودبرتوس **خلط فصـل القانـون باحد انماط ( « اشكال » ) عمله المقررة في كل مرحلة خصوصية بفعل بنية المجتمع الاقتصادية** ويكرر نفس الخطيئة كل من يفكر ان ماركس غض النظر في المجلد الثالث من **راس المال** عن نظريته عن القيمة لكن هذا يكفي. فالقارىء ستطيع أن يرى بنفسه كم تبعد فكرة ماركس عما ينسبه اليه السنيور كروتشـه بحقيقته المفهومة والمتخذه من حيث هي نموذج

لا بد للمرء كي ينتقد ماركس او أي مفكر آخر ان **يفهمـه** هـذا هو لب الموضوع وهو ما يستشعره المرء بصـورة مزعجـة في كل من صفحات دراسات السنيور كروتشه النقدية لقد اخفق في فهم نظرية ماركس الاقتصادية ، او نظريته التاريخية وليس لنا متسع هنـا لمقتطفات كبيرة ولذا سوف نقتصر على بيـان واحد فقط فالسنيور كروتشـه بعد امتداحه انطونيو لابريولا لانه « **يسلم** » في كتابه عن التأويل المادي للتاريخ بوجود الايديولوجية وحتى لما سردد لديه كثيرا من انعدام الشعور بمركزه وعدم فهمه ، فانه يضيف « بما ان الانسان لا يعيش في المجتمـع وحده بل في الطبيعـة ايضا ، فان لابريولا يقر بقـوة العرق والمزاج و » حوافز الطبيعة واخيرا فهو لا يغمض عينيه عن الشخصية الانسانية يعني أفعال اولئك الذين يسمون رجالا عظاما والذين اذا لم يكونوا مبدعين للتاريخ فهم بكل تأكيد متعاونون فيه ( ص ٢٩ ــ ٣٠ ) ويسمي السنيور كروتشه هذه الامور جميعا **تنازلات** ( ص ٣٠ ) ,ومما لا ريب فيه ان هذا التعبير سوف يحظى بتأييد الاستاذ كاريف الشهير لكن الماركسيين المبتذلين » سوف يردون بضحك ساخر ليعمل السنيور كروتشه الفكر جيدا في نظرية ماركس التاريخية لسوف يرى اذن **انها ابعد ما تكون عن نفي « حوافز الطبيعة » ، بل هي بكل بساطة تفترض وجودها** ( كما يمكن ان تتضح على سبيل المثال من المجلد الاول من **رأس المـال** ) وبالطريقة نفسها بالضبط ، فانه لم يخطر قط في بال أي ماركسي جاد ان ينكـر افعال الرجال العظام لكن من المشكوك فيه أن يعتبرهم أي منهم متعاونين » في التاريخ . فالفكرة المتشاركة مع هذه الكلمة تستقيم في ان البشر العظام يعملون

مع التاريخ **سوية او جنبا الى جنب** ــ وهو عبث واضح ، على الاقل في نظر اخويتنا من الماركسيين المبتذلين* ولا تقل وضوحا عن ذلك بالنسبة الينا الحقيقة القديمة القائلة ان الناس لا يعون دائما شروطهم الحياتيـة ومهما يكن من شيء ، فان نشاطاتنا موجهة جميعا في المحل الاول نحو تنمية **الوعي** عند البروليتاريا اما ان نرى أي « تنازل هنا ، فهذا معناه السلوك على غرار امرىء اخفق في ملاحظة ما يحدق فيـه وجها لوجه

ولن نناقش « تنازلات » لابريولا الاخرى التي عولجت من قبل في الادب الروسي ( انظر مقالة كامنسكي في **الكلمة الجديدة** (٣٣١) )

بعدما قيلت جميع الاشياء ، فلن يدهش الماركسيون المبتذلون اذا عرفوا ان صاحبنا الماركسي الاصيل ذهنيـا ينتسب الى مقولـة **الخصـوم الصريحـين للطريقـة الجدليـة والمادية** ومن الطبيعي انه لا يملك كذلك ادنى فكرة عن ذلك فدون ان يستشعر ظلا من الشك يردد الرأي القائل ان **المادية الفلسفية تستقيم في الاعتراف بأن الظواهر الروحية لا تعدو كونها مظهرا خارجيا لا واقعيا تستتر خلفه الظواهر الفيزيائية** ( ص ١٩٠ ) ان **مثل** هذه السخافات البينة لاتستأهل أي تفنيد، ولذا فنحن لن نرد على التعنيف الموجه الينا شخصيا ، الا وهو اننا نادينا ، في كتابنا **دراسات في تاريخ المادية** ، « بالحاجة الى العودة الى دولباخ وهيلفيتيوس » ( ص ١٩ ــ ٢٠ لقد عدنا الى دولباخ وهيلفيتيوس بمعنى اننـا وجدنا من الضرورة بمكان ان نقارن مادية ماركس مع المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر وان نكتشف القرابة والروابط الارثية بين هذين الطورين في تاريخ النظرة المادية الى العالم ولو ان السنيور كروتشه لم تعمه المستبقات البورجوازية الصغيرة المألوفة ضد المادية ، ولو أنه فهم آراء ماركس ، لوجد ان ما يدعو الى الاستغراب ليس هو شعورنا بالحاجة الى هذه المقارنة . بل عدم التعبير عن هذه الحاجة في وقت ابكر في الادبيات الفلسفية

ويقول السنيور كروتشه عن نفسه انه لم يفلت من قوة نقد كانط ص ١٧٥ في المسائل الاخلاقية ولسوف نضيف ان « نقد كانط ترك اثرا عميقا لا ينكر في **مجمل** نظريته الى العالم . وههنا تكمن سر تمارينه « النقدية الخاصة أنه تستشعر ان **الكانطية** تتنافر مع آراء ماركس التاريخية والاجتماعية السياسية المسربة بصورة كاملة بروح **التجربـة** . لكنه بدلا من رفض الكانطية بصورة جازمـة او الاعراض بصورة تامة عن الماركسية تجرب ان تجمع النقيضين بمحاولة تعديل الماركسية ليجعلها آخر الامر تكف عن مناقضة ما **لا يمكن الا ان تناقضه** وعنده ، كما هي الحال عند الكثيرين غيره يزين هذا الجهد الشديد لكن غير المنتج بلصاقة

* في مسألـة دور ما يسمى الرجال العظام واصحاب المراكز النائفـة ، انظـر مقالنـا في مجموعـة الدراسـات **عشرون عاما** (٣٣٠)

**النقـد** ان تاريخ الفكر البشري لا يكاد يعرف اسما اقل ملاءمة لما يجب أن يدل عليه.
وهكذا فلن كتاب السنيور كروتشه هديـة هزيلـة الى القارىء الروسي والاسوأ من ذلك ان السيد شويتاكوف ترجمه بصورة **بالغة الرداءة** ومثال ذلك اننا نقرأ في الصفحة ١٣٢ من ترجمته ان نظرية ماركس التاريخية لا تعدو كونهـا **شريعـة** ، موجزا للتأويل التاريخي ، وان « الموجز ينصح بالتركيز على جوهر المجتمع الاقتصادي بهدف فهم افضل لتضاريسه وتبدلاته **ما جوهر المجتمع الاقتصادي**؟
ونلتفت الى الاصل فنجد ( ص ١١٥ Sostrato economico della societa يعني **الاساس الاقتصادي للمجتمـع** . ولا يعبر هذا ايضا عن نظرة ماركس بصورة دقيقة ، لكن لـه معنى على الاقل ، في حين ان « **الجوهر الاقتصادي** » عبث خالص
ولقد ورد في الهامش في الصفحة ٦١ واجمالا ، فان شكل القيمة الذي ينصرف ماركس اليه هو **معادلـة بين قيمتين مشخصتين** » ما معنى الانصراف الى شكل للقيمـة ؟ وما « **المعادلـة** » بين القيم ؟ ويقول النص الايطالي ص ٥٣
« la consezione del valore nel **Capital** del Marx e insomma il paragone fra due valori concretie » وهذا يعني باختصار فان تعريف القيمـة في كتاب ماركس **رأس المـال** مقارنة بين قيمتين مشخصتين » نظريا ، كما نعرف من قبل ، هذا خطأ لكن ليس ثمة « **انصراف الى** » او « **معادلة** » **هنا** وهو ما يرفع خطيئة السنيور كروتشه الى القوة الثانية ان ترجمة السيد شويتاكوف تتضمن هفوات عديـدة من هـذا الطراز

* * *

# كارل ماركس

ان العدد الخامس والثلاثين من **ايسكرا** يصدر بمناسبة الذكرى العشرين لوفاة كارل ماركس الذي خصصت له معظم صفحات هذا العدد

اذا كان صحيحا ان الحركة الاممية العظيمة للبروليتاريا كانت الظاهرة الاجتماعية الابرز في القرن التاسع عشر فمن الواجب الاعتراف بأن مؤسس رابطة السفيلة الاممية (٢٣٢) كان الرجل الابرز في هذا القرن لقد كان مقاتلا ومفكرا في وقت واحد ، ولم يقتصر على تنظيم القوى الاولى للجيش الاممي الخاص بالعمال الصناعيين ، بل صهر ، جنبا الى جنب مع صديقه المخلص فريديريك انجلز ، السلاح الفكري الجبار الذي انزل به هذا الجيش حتى الآن هزائم ساحقة عديدة بالعدو ، وسوف يحقق به آخر الامر انتصاره التام اننا ندين لكارل ماركس بأن الاشتراكية اصبحت علما. واذا كان البروليتاريون الواعون سياسيا يدركون اليوم على أكمل وجه ان الثورة الاجتماعية ضرورية لتحرر الطبقة العاملة التام ، وان الثورة يجب أن تكون من شأن الطبقة العاملة نفسها واذا كانوا أعداء للنظام البورجوازي لا يلينون ولا يكلون فمصدر ذلك نفوذ الاشتراكية العلمية وتختلف الاشتراكية العلمية من وجهة نظر العقل العملي عن الاشتراكية الطوباوية في انها فضحت بصورة جازمة التناقضات الاساسية للمجتمع الراسمالي وبينت بصورة لا رحمة فيها العبث الساذج لسائر خطط الاصلاح الاجتماعي ـ وهي احيانا خطط فذة ودائما ذات نية سليمة ـ التي قدمها الاشتراكيون الطوباويون من مختلف المدارس على اعتبارها الوسائل الافضل من أجل الخلاص من الصراع الطبقي ومن أجل التوفيق بين البروليتاريا والبورجوازية ان البروليتاري الحالي ، الذي تعلم نظرية الاشتراكية العلمية والذي لا يبرح امينا لروحها لا يمكن الا ان يكون ثوريا من وجهة النظر المنطقية والعاطفية على حد سواء يعني لا يمكن الا ان ينتسب الى النوع الاخطر من الثوريين

ولقد كان من نصيب ماركس شرف كونه الاشتراكي الابغض الى البورجوازية في القرن التاسع عشر ولقد حظي في الوقت نفسه بالحظ السعيد الذي يحسد عليه اذ اصبح المعلم الاعظم احتراما للبروليتاريا في ذلك العصر ونظرا لانه صار مركزا لخبث المستثمرين فقد اكتسب اسمه تبجيلا اعظم لدى المستثمرين واليوم، في السنوات الاولى من القرن العشرين يرى فيه البروليتاريون الواعون سياسيا في جميع أرجاء العالم معلما لهم ويعتزون به من حيث هو احد المفكرين الاشد شمولا والاعظم عمقا من حيث هو احدى الشخصيات الانبل والاشد تفانيا في التاريخ بأسره

قالت احدى صحف فيينا البورجوازية في اواخر نيسان ١٨٩٠ ان القديس الذي يحتفل بذكراه في الاول من أيار يدعى كارل ماركس وبالفعل فان تظاهرة الاول من أيار السنوية التي يقوم بها عمال العالم ترفع اجلالا عظيما وان يكن غير متعمد الى ذكرى هذا العبقري الذي صهر برنامجه في كل متماسك صراع العمال اليومي في سبيل شروط افضل لبيع قوة عملهم والنضال الثوري ضد النظام الاقتصادي القائم ومهما يكن من شيء فليس بين هذا الاجلال وبين الاحتفالات الدينية شيء مشترك ، فالاجلال الذي تقدمه البروليتاريا الحالية الى قدسها هو الاعظم بقدر ما كانت جهود هذا الاخير اعظم عونا في تقريب الاجل السعيد حيث تبني الانسانية المحررة ملكوت سمواتها على الارض مخلفة السماء للملائكة والطيور (٢٣٢)

ان بين السخافات الحاقدة المشاعة عن ماركس الافتراء بأن مؤلف **رأس المال** كان معاديا للروس وفي الحقيقية انه كان يكره القيصرية الروسية التي لعبت على الدوام الدور الدنيء للدركي الدولي المستعد لسحق اية حركة تحرر كلما بدات

لقد اهتم ماركس بكل عمق بجميع التظاهرات الجدية لتطور روسيا الداخلي ، والاهم من ذلك انه كان يعي الموضوع وعيا شاملا ندر ان يشاهد بين المعاصرين الاوربيين الغربيين ويروي عامل الماني يدعى ليسنر ، في ذكرياته عن ماركس ، كيف اغتبط ماركس اغتباطا عظيما لدى صدور الترجمة الروسية لكتاب **رأس المال** وكم كان سروره عظيما بالاعتقاد بأنه يظهر في روسيا اناس قمينون بفهم افكار الاشتراكية العلمية ونشرها ونعلم من مقدمة الترجمة الروسية **لبيان الحزب الشيوعي** التي وقعها مع انجلز ان تعاطفه مع الثوريين الروس ورغبته الجامحة في مشاهدتهم ظافرين آلا به الى استعظام حركتنا الثورية في ذلك الحين بصورة فائقة. وان الترحيب القلبي الذي كان يلقاه المنفيون الروس في منزل المضياف* يشهد

* يقول العامل لينسر نفسه بيت ماركس على الدوام مفتوحا لجميع الاصدقاء الاهل للثقة » .

عليه موقفه من لوباتين وهارتمان وان خلافاته مع هرتزن قد نشأت من جهة واحدة عن سوء فهم عابر ومن جهة ثانية عن تشككه المحق حيال الاشتراكية ذات النزعة السلافيـة التي من المؤسف ان مواطننا اللامع اصبح بشيرا لها في الادب الاوروبي العربي تحت تأثيـر الخيبات المريرة للاعوام ١٨٤٨ ــ ١٨٥١ وان نقـد ماركس القارس للاشتراكية ذات النزعة السلافية الوارد في المجلد الاول من **رأس المال** ، لاهل للمديح وليس للاستهجان وعلى الاخص في أيامنا الراهنة حيث ينبعث هذا النوع من الاشتراكية في بلادنا في صورة برنامج الحزب الذي يسمي نفسه الاشتراكي الثوري(٢٣٤) واخيرا فان نضال ماركس المرضد باكونين في رابطة السغيلة الامية لا شأن له بالاصل الروسي لهـذا الفوضوي بل كان مصـدره التعارض الذي لا سبيل الى توفيقه بين آراء الرجلين* وحين باشرت منشورات جماعة تحرير العمل (٢٣٥) للمـرة الاولى في نشر الافكار الاشتراكية الديموقراطية بين الثوريـين الروس عبر انجلز في رسالة الى فيرا زاسوليتش (٢٣٦) عن الاسف لان هذا الامر لم يحدث في حياة ماركس الذي كان يغتبط حسب تعبيره لمشروع الجماعة الادبي

وما عسى كان يقول المؤلف العظيم لكتاب **رأس المال** لو انه عاش ليرى كم هم كثرة اتباعه بين العمال الروس ؟ أي فرح كان يملأ قلبه لو بلغته احداث كتلك التي جرت مؤخرا في روستوف على الدون (٢٣٧) ! كان الماركسي الروسي شيئا نادرا في زمانه، وكان التقدميون الروس ينظرون الى هذا الشيء النادر بابتسامة اشفاق طيب في أحسن الاحوال ؛ أما اليوم فتسود افكار ماركس في الحركة الثوريـة الروسية ، واولئك الثوريون الروس الذين يرفضون هذه الافكار كلها او بعضها بدافع العادة كفوا في الحقيقة منذ زمن طويل ، **بالرغم من لغوهم الثوري الغاضب في الاغلب** ، **عن** كونهم تقدميين والتحقوا ، **دون وعي منهم بهذه الحقيقة** ، **بمعسكر الرجعيين الفسيح.**

وما اكثر الترهات التي قيلت ورددت أيضا عن الصدامات السياسية المتكررة بين ماركس وخصومه وان بعض الناس المسالمين لكن غير المدركين يعزون مثـل هـذه الصدامات الى ما يسمونه روح المشاكسة **مطلقة العنان** عنده هذا الروح الذي يزعم انه يصدر عن طبيعته الشموس وفي الحقيقة ان النضال الادبي المتواصل

*في كتابه **دراسات في التاريخ الحديث للاقتصاد السياسي** الطبعة الروسية ص ٢٩٤ يكرر السيد توغان ــ بارانوفسكي وهو ماركسي سابقا واقتصادي مبتذل حاليا ، ثرثرة الفوضويين القائلة ان ماركس ساعد في التشهير ضد باكونين وليس هذا مكان تحليل الحجج المستخدمة لدعم مثل هـذه **الافتراءات** بل سوف نعالجها بمزيد من التفصيل في **زاريا** حيث سوف ينـال المؤلف الطائش للسيد توغان بارانوفسكي المعاملة التي يستحقها ومهما يكن من شيء فيجب الاشارة الى ان صاحبنا الماركسي السابق لم يبذل أي جهد لتقدير مصادره بصورة نقدية بل كرر **الاتهام** تقديم أي اثبات ، **الامر** الذي يحول بدوره بيانه الى **تشهير**

تقريبا الذي لم يكن له بد من خوضه وبالخاصة عند بداية نشاطاته الاجتماعية لم تكن طبيعته السبب فيه بل الاهمية الاجتماعية للفكرة التي يدافع عنها لقد كان احد اوائل الاشتراكيين الذين انحازوا كليا الى موقف الصراع الطبقي في النظرية والممارسة على السواء وفصلوا بين مصالح البروليتاريا ومصالح البورجوازية الصغيرة فلا عجب اذن هو اضطر في الاغلب الى التصادم مع منظري الاشتراكية البورجوازية الصغيرة الذين كانوا كثرة في ذلك العصر ، وعلى الاخص بين «المثقفين» الالمان ان ايقاف مساجلته مع مثل هؤلاء المنظرين كان يعني التخلي عن فكرة توحيد البروليتاريا في حزب خاص بها حزب تكون له هدفه التاريخي الخاص ، لكنه لا يتجرجر في اذيال البورجوازية الصغيرة ولقد قالت صحيفة ماركس **المجلة الرينانية الجديدة** في نيسان من عام ١٨٥٠ ما يلي تستقيم رسالتنا في نقد لا هوادة له موجه ضد اصدقائنا المزورين حتى اشد مما هو موجه ضد اعدائنا الصريحين وحين نتخذ هذا الموقف نسعد برفض اية شعبية ديموقراطية رخيصة كان الاعداء الصريحون اقل خطرا لانه لم يعد في مقدورهم بعد الآن ان يطمسوا الوعي الطبقي لدى البروليتاريين فيما كان الاشتراكيون البورجوازيون الصغار، ببرامجهم «عديمة الطبقات»، يملكون بعد نفوذا على عدد كبير من العمال. وكان النضال ضدهم محتوما ، وقد خاضه ماركس بتلك البراعة المميزة له التي لا مثيل لها. ولايجوز لنا ان ننسى اننا نعمل في شروط مماثلة حتى درجة كبيرة لتلك الشروط التي كانت سائدة في المانيا قبل الثورية ان من واجبنا ، نحن الذين يحيط بنا من كل حدب وصوب منظرون بورجوازيون صغار للاشتراكية الروسية النوعية ان نتذكر بصورة حازمة ان مصالح البروليتاريا تلزمنا نحن الآخرين بأن ننقد بصورة لا هوادة فيها اصدقاءنا المزورين — مثلا « الاشتراكيين الثوريين المعروفين جيدا من قرائنا ان من واجبنا أن نفعل ذلك دونما اعتبار للاستياء الذي يمكن ان يثيره نقدنا الصارم بين اولئك الاصدقاء للسلام والوفاق بين العصب الثورية المختلفة ، الطيبين لكن غير المدركين

نظرية ماركس اليوم هي « جبر الثورة » ، وفهمها شيء اساسي بالنسبة الى اولئك الذين يبتغون خوض نضال واع ضد الاوضاع القائمة في بلادنا وان هذا لصحيح جدا بحيث كان زمان حيث استشعر عدد كبير من ايديولوجيي البورجوازية الروسية حافزا لان يصبحوا ماركسيين لقد كانت افكار ماركس لا غنى عنها بالنسبة اليهم في نضالهم ضد نظريات النارودنية السابقة للطوفان التي كانت تتناقض بحدة بالغة مع العلاقات الاقتصادية الجديدة في روسيا وهذا ما ادركه جيدا اولئك الايديولوجيون البورجوازيون الشبان الذين كانوا افضل اطلاعا من سواهم على ادبيات العلوم الاجتماعية الحديثة ولقد احتشدوا تحت راية الماركسية وكسبوا قدرا من الشهرة وهم يقاتلون تحت هذه الراية لكنه حين هزم النارودنيون وذهبت

هباء نظرياتهم العتيقة قرر ماركسيونا أصحاب القناعة الحديثة ان الماركسية انهت عملها وانه حان الاوان لاخضاعها لنقد صارم ونفذ هذا النقد بحجة ان التفكير الاجتماعي يجب ان **ينتقدم** ؛ ومهما يكن من شيء فقد كانت حصيلته الوحيدة ان حلفاءنا الجدد **تقهقروا** واتخذوا الموقف النظري للبورجوازيين الاوروبيين الغربيين من الصيغة الاجتماعية الاصلاحية ومهما تكن بائسة حصيلة هذه الحملة الصليبية النقدية التي زمر لها عاليا ، ومهما يكن مؤلما بالنسبة الى الاشتراكيين الديموقراطيين الروس ان يعاينوا التحولات « النقدية لاولئك الذين حاربوا مؤخرا جنبا الى جنب معهم ضد العدو المشترك وكانوا يتأملون في امكانية اجتذابهم الى صفهم آخر الامر فانه لم يكن لهم بد لدى التفكير من الاعتراف بأن انسحاب اصحابنا الماركسيين الجدد الى الجبل المقدس للاصلاحية البورجوازية لم يكن امرا طبيعيا جدا فحسب ، بل كان في الوقت نفسه تأكيدا غير مباشر لصحة الفهم المادي للتاريخ الذي وضعه ماركس ففي الاعوام ١٨٩٥ – ١٨٩٦ توجهت الماركسية الى اناس ما كانوا يملكون . بحكم مركزهم الاجتماعي وذهنيتهم وصفاتهم الاخلاقية ، اي شيء مشترك سواء مع البروليتاريا او مع نضالها التحرري لقد كان زمن كانت الماركسية فيه الزي الشائع في كل مكتب في سان بطرسبورغ ولو ان مثل هذا الوضع استمر لاثبت ان مؤسسي الاشتراكية العلمية كانا مخطئين حين قررا ان نمط **التفكير** يتمفصل على اسلوب **الحياة** ، وان الطبقات العليا لا يمكن أن تصبح حاملة لافكار الثورة الاجتماعية في عصرنا بيد أن « نقد ماركس الذي بوشر فور انتهاء النضال ضد التطلعات الرجعية للتارودنية برهن مرة اخرى على ان ماركس وانجلز كانا على حق ان نمط تفكير النقاد قد حدده وضعهم الاجتماعي وهم حين تمردوا على تعصب العقيدة انما نهضوا في الواقع ضد المضمون الاجتماعي الثوري لنظرية ماركس انهم ليسوا بعد الآن في حاجة الى ماركس الذي كان يفيض طوال حياة من الكد الذي لا ينقطع ومن النضال والمشاق بحقد مقدس على الاستثمار الرأسمالي ان ماركس ، قائد **البروليتاريا** الثورية قد بدا في انظارهم غير لائق و غير علمي وحاجتهم **الوحيدة** هي الى ماركس ذلك الذي اعلن في **بيان الحزب الشيوعي** انه على استعداد لتأييد البورجوازية بقدر ما هي ثورية في نضالها ضد الملكية المطلقة والنفاق البورجوازي الصغير لقد كانوا معنيين فقط بالنصف **الديموقراطي** من برنامج ماركس **الاجتماعي** الديموقراطي وكان هذا طبيعيا جدا لكن طموحات نقادنا الطبيعية على أكمل وجه هي التي بينت انعدام اي اساس على الاطلاق للاعتماد عليهم من حيث هم اشتراكيون ان مكانهم في صفوف المعارضة الليبرالية التي منحوها ناطقا ادبيا قديرا ومتحمسا وحريصا في شخص السيد سروفه . رئيس تحرير مجلة **التحرير** (٢٣٨)

ان النظرية الماركسية قد اجتازت امتحان الزمن ، وليس في روسيا وحدها ومن المعروف لدى الجميع ان العلماء الغربيين نظروا اليها شزرا لمدة طويلة من حيث هي الذرية للتعصب الاجتماعي الثوري ، لكنه اتضح اكثر فاكثر مع مرور الزمن وحتى بالنسبة الى اولئك الذين كانوا يرون الاشياء من خلال موشور الضيق الفكري البورجوازي ان لذرية التعصب الاجتماعي الثوري ميزة واحدة على الاقل لاجدال فيها الا وهي تقديمها طريقة عظيمة الفعالية للبحث في الحياة الاجتماعية فبقدر ما يعظم التقدم في دراسات الحضارة البدائية والتاريخ والقانون والادب والفن يقترب العلماء اكثر فأكثر من المادية التاريخية* بالرغم من ان غالبيتهم العظمى اما لا يعرفون شيئا عن نظرية ماركس التاريخية او يخشون آراءه المادية التي تبدو في اعين البورجوازية الحالية لا أخلاقية وخطيرة على السلام الاجتماعي وهكذا نرى أن التفسير المادي للتاريخ يشق طريقه في عالم العلم ويبين الكتاب الصادر مؤخرا للاستاذ الاميركي زيليغمان **التأويل الاقتصادي للتاريخ** ، ان الكهنة الكبار للعلم الرسمي يدركون اكثر فاكثر بصورة تدريجية الاهمية العلمية العظيمة التي تتسم بها نظرية ماركس التاريخية وعلى اي حال فقد ساعدنا زيليغمان على ادراك الاسباب السيكولوجية التي اعاقت حتى الآن الاعتراف والتفهم الصحيحين لهذه النظرية في العالم البورجوازي للعلم فهو يقر صراحة بأن العلماء ذعروا لاستنتاجات ماركس الاشتراكية ، وهو يحاول ان يبين لزملائه ان في الامكان الاعراض عن هذه الاعتبارات الاشتراكية ، فيما يمكن قبول النظرية التاريخية الكامنة وراءها. ان هذه الحيلة البارعة التي استخدمها على اي حال بوضوح ، وان يكن في شيء من الخجل السيد ب ستروفه في كتاب **ملحوظات نقدية** ، تشكل برهانا جديدا على القول المأثور القديم بأنه من الايسر على جمل عبور ثقب الابرة من ان ينتقل ايديولوجي للبورجوازية الى وجهة نظر البروليتاريا لقد كان ماركس ثوريا قلبا وقالبا وقد ثار ضد اله الرأسمال ، بالضبط مثلما نهض بروميتوس غوته ضد زوس وإنه ليستطيع ان يقول عن نفسه مثله كمثل بروميثوس انه كان من واجبه ان يثقف الناس الذين يتحاشون عبادة صنم معاد للبشر كل هذا العداء ، فيما هم قمينون باختبار العذاب الانساني والافراح الانسانية وهذا الصنم هو الذي يخدمه الايديولوجيون البورجوازيون ان واجبهم هو الدفاع عن امتيازاته باسلحتهم الايديولوجية بالضبط كما يؤيدهم الشرطة والجيش بهراوتهم وبنادقهم. ليس في مقدور أية نظرية ان تنال الاعتراف من العلماء البورجوازيين الا اذا كان في الامكان البرهان على انها لا تسيء الى اله الرأسمال وان العلماء في فرنسا والبلدان

---

* نأتي من بين الكتاب الاحدث على ذكر بوخر وفون ديرشتاين وهايلد برانت وايسبيناس وهورنز وفيورجيرد وغروس وتشيكوتي والمدرسة الكاملة من الاثنولوجيين الاميركيين .

الناطقة بالفرنسية لاشد صراحة في هذا الصدد من الآخرين ومثال ذلك ان المؤرخ المعروف لافاليه يقول ان علم الاقتصاد يجب ان يبنى من جديد ، لانه لم يعد يقوم برسالته بعدما عرض باستيا الطائش الدفاع عن النظام القائم للخطر ومؤخرا كان اوغست بيشو صفيقا جدا ، في كتاب يعالج المدرسة الفرنسية للاقتصاد السياسي، بحيث قدر المذاهب الاقتصادية المختلفة من وجهة النظر التالية اي مذهب منها يستطيع ان يقدم السلاح الاشد فعالية في مكافحة الاشتراكية وهكذا يتضح ان ايديولوجيي البورجوازيـة ، حتى حين يتناولون افكار ماركس سوف يظلون على الدوام « نقادا له وان مقياس موقفهم النقدي حيال ماركس هو درجة البعد بين آراء هـذا الثوري الحازم الذي لا يكل وبين مصالح الطبقة السائدة وانه لمن الوضح ايضا ان العلماء البورجوازيين من اصحاب التفكير الحازم سوف يعترفون بصلاحية افكار ماركس التاريخية باسرع من اعترافهم بنظريته الاقتصادية فالمادية التاريخية يمكن تجميدها بسهولة اعظم من نظريته عن فضل القيمـة على سبيـل المثال فهذه النظرية الاخيرة التي سماها ناقـد بورجوازي بارز لماركس بصورة مناسبة جدا ، نظرية الاستثمار ، سوف تحافظ على سمعتها من حيث هي نظريـة فاسـدة بين الفئات المثقفـة والمتعلمـة من البورجوازية ان مثـل هؤلاء البورجوازيين المثقفين والمتعلمين في ايامنا يفضلون نظرية اقتصادية « ذاتيـة » على نظرية ماركس الاقتصادية ، وذلك لان النظرية الاولى تعتبر بصـورة ملائمـة جدا ظواهر حياة المجتمع الاقتصادية بصـورة خارجة تماما عن ارتباطها بعلاقات الانتاج الذي تجذر فيها استثمار البورجوازية للبروليتاريا ــ وهي حقيقة من المربك جـدا طمسها اليوم والوعي الطبقي عند العمال يحقق مثل هذا التقدم السريع

ليس في الامكان قبـول افكار ماركس الاقتصادية والتاريخيـة والفلسفية في الاجمال الجبار لمضمونها الثوري الا من قبل ايديولوجيي البروليتاريا التي ترتبط مصالحهـا الطبقيـة بالثـورة الاجتماعيـة ــ بالقضـاء على النظام الراسمالـي لا بالحفاظ عليـه



# هوامش

## دراسات في تاريـخ الماديـة

كان بليخانوف ينوي أن يكتب هـذه **الدراسات** كسلسلة من المقالات لمجلـة نيوزيت ( **الحيـاة الجديـدة** ) التي هي المجلة النظرية للاشتراكيين الديموقراطيين الالمان وذلك منذ عام ١٨٩٢ ولقد استغرقت كتابتها منه ثمانية عشر شهر ولم ينته منهـا الا حوالي نهايـة عام ١٨٩٣

وفي ١٨٩٣ شكر كارل كاوتسكي ، رئيس تحرير **نيوزيت** ، بليخانوف علـى مقاله عن دولباخ ، لكنه بعد شهرين ، في ١٩ تموز ١٨٩٣ وقد تلقى المقالـة عن هيلفيسيوس وكان ينتظر مقالة عن ماركس كتب الى بليخانوف رسالة عبر فيها عن شكه في امكانيـة نشر هذه الدراسات في **نيوزيت** بسبب طولها واقترح أن تنشر في كتاب وتشهد رسالة كاوتسكي المؤرخة في ٢٧ كانون الثاني ١٨٩٤ على أنـه تلقى المقالة عن ماركس وهكذا لم تنشر **الدراسات** في **نيوزيت** كما لم تنشر بصورة منفصلـة ولم تصدر في كتاب الا عام ١٨٩٦ في شتوتغارت بعنـوان Beiträge Zur Geschichte des Materiaeismus I Holbach. II Helvetius III Marx وكانت المقدمة التي كتبها بليخانوف خصيصا للكتاب تحمل هـذا التذييل « يوم رأس السنـة ١٨٩٦ وفي عام ١٩٠٣ اصدر الناشرون أنفسهم طبعة المانية ثانية للكتاب الذي لم يصدر بالروسية في حياة بليخانوف

كان كتاب فريدريخ لانج **تاريخ المادية ونقـد أهميتهـا في الوقت الراهن** ، الذي صدر عام ١٨٦٦ محاولة لنقد المادية من وجهة نظر الكانطية الجديدة

وأما كتاب سوري **موجز تاريخ الماديـة** فقد صدر في باريس عام ١٨٨٣ ، وهو محاولة مماثلة للكتاب السابـق

ص ٣٤

كارل ماركس **رأس المـال** ، الكتاب الاول ، الجزء الاول منشورات دار اليقظة العربية بدمشـق ، ص : ٢٥

ص ٣٤

٣ ـ **لودفيغ فيورباخ ونهايـة الفلسفة الكلاسيكية الالمانيـة** منشورات دار دمشـق ص ٤٧ ـ ٤٩ .وبليخانوف يورد هذه الفقرة بالروسية من ترجمته الخاصة للكتاب

٤ ـ ظهر كتاب كانط **نقـد العقل الخالص** عام ١٧٨١ ص ٤٠

٥ ـ **لامب** هو خادم كانط وهو هنـا تجسيـد لنفاق البورجوازية الصغيرة الالمانيـة ويقصد بليخانوف النقد الساخر الذي أخضع هايني له التناقضات في نظرية كانط ، مفسرا اياها بالروح البورجوازية الصغيرة التي تنبت في فلسفة كانط أيضا ويعتقد هايني أن كانط بعدما دحض امكانية اثبات وجود الله في **نقد العقل الخالص** ) أحس الاسف من أجل خادمه المسكين **لامب** فعاد من أجل اسعاد هـذا الاخير وبرهن على وجود الله في **نقد العقل العملي** ص ٤٠

٦ ـ بخصوص نقد هيغل لتعاليم كانط عن الشيء في ذاته انظر **مؤلفه علم المنطق** ، وهو نقـد ناقص لانه ينطلق من وجهة نظر مثاليـة ص ٤٠

٧ ـ هنريخ هايني Deutschland Ein Winter Marchen ص ٤٤

٨ ـ **المراسلات الادبيـة والفلسفية والنقديـة** ـ مجلة جرى تداولها مخطوطة في باريس ١٥ ـ ١٦ نسخة ) من ١٧٥٣ حتى ١٧٩٢ وقد أصدرها فريديريك غريم وهـو موسوعي بارز وأديب ودبلوماسي وكانت المجلـة ترسـل الى الشخصيات البارزة والسلطات في ذلك الحين وتناقش في صفحاتها القضايا العلمية والادبية وغيرها وقـد صدرت **المراسلات** في كتاب عام ١٨١٢ ص ٤٥

٩ ـ من قصيدة هايني Deutschland Ein Winter Marchen ص ٤٥

**بطريريك فيرنيي** هو فولتير وقد اشتقت هذه الصفة من اسم ملكية له قرب جنيف حيث قضى فولتير أكثر من عشرين عاما من حياته ص ٤٥

ـ **عصر فيدرا ومبغض البشر** ـ القرن السابـع عشر عصر كتاب المسرح الفرنسيين الكبـار جان راسين مؤلف مسرحيـة **فيدرا** ١٦٧٧ وجان باتيست موليير مؤلف مسرحية **مبغض البشر** ١٦٦٦ ص ٤٧

ان **سقراط** الذي سجن وحكم عليه بالموت لنضاله ضد الديموقراطية الاثينيـة لم يسـع الى الهروب من السجن بالرغم من توسلات أصدقائه وتناول السم منتحرا

ويقال ن الجنرال الروماني ماركوس **اتيليوس ريغولوس** الذي وقـع أسيرا في أيدي القرطاجيين في الحرب البونيـة الاولى القرن الثالث قبل الميلاد ارسـل الى روما للتفاوض من أجل السلم وتبادل الاسرى لكنـه حين وصل روما أشار بلهفـة على مجلس الشيوخ برفض شروط القرطاجيين ومن بعد ونظرا لانه لم يشأ ينكث بعهده عاد الى قرطاجة حيث عذب حتى الموت ص ٤٧

١٣ ـ **الجانسيون** وقد سمـوا كذلك باسم اللاهوتي الكاثولـي الروماني الهولنـدي جانسينيوس يمثلون الاتجاه المعارض بين الكاثوليين الفرنسيين في القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر وكانوا يعبرون عن استياء قسم من البورجوازية الفرنسية من الايديولوجية الاقطاعية للكاثولية الرسمية ص ٤٨

١٤ ـ كلمات لمفيستوفيلس في مسرحية غوته الشهيرة **فاوست** . ص ٤٨

١٥ cabucinades ـ مواعظ مبتذلة وتافهـة وسميت كذلك بنـاء على رهبنـة الكابوشيين ص ٤٩

١٦ ـ **الفيلسوف الجاهل** ـ مبحث فلسـفي بقلم فولتير ١٧٦٦ ) مكرس لقضية المعرفـة وكوندورسيه هو الذي كتب هوامش طبعة كيهلي **لمؤلفات** فولتير ص ٥٣

١٧ ـ الاشارة الى الفقرة التالية من كتاب عمانوئيل ـ جوزيف سابيس **ما هي الطبقـة الثالثة** ؟ المنشور عشية الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ « ما هي الطبقة الثالثة ؟ كل شيء ـ ماذا كانت حتى الآن من وجهة النظر السياسية ؟ لا شيء ـ ما الذي تسعى اليـه ؟ أن تكون شيئا » ص ٥٥

١٨ ـ **الفيزيوقراطيون** ـ اتجاه في الاقتصاد السياسي البورجوازي الكلاسيكي نشأ في الخمسينات من القرن الثامن عشر في فرنسا وكان الفيزيوقراطيون دعاة حازمين للزراعة الرأسمالية الكبـيرة والغاء الامتيازات الطبقيـة ومذهب الحماية وكانوا يدركون ضرورة الخلاص من النظام الاقطاعي راغبين في تحقيـق ذلك بالاصلاحات السلمية دون الحاق ادنى ضرر بالطبقات الحاكمة والحكم المطبق وكانوا قريبين من فلاسفـة الانوار البورجوازيين الفرنسيين في القـرن الثامن عشر في آرائهـم الفلسفيـة ص ٥٧

١٩ ـ يقصد بليخانوف سلسلة من الكشوفات الفاضحـة للاحتيالات الضخمة والعقود المشبوهة من جانب رجال الاعمال البورجوازيين وأعضاء المجالس النيابية المرتشين والصحافـة الفاسـدة

ففي فرنسا كان افلاس ( ١٨٨٨ شركة باشرت بناء قنال بناما هو الذي قاد الى محاكمـة بناما » التي أماطت اللثام عن فساد عدد من الوزراء والشيـوخ والنواب والصحافة وغير ذلك ولقد أصبحت عبارة « بناما » كلمة شائعة تدل على الاحتيال الضخم والعقود المشبوهة

وفي ألمانيا كانت قضية « ملك الخطوط الحديدية ستراسبرغ التي انتهت بافلاس عدد من المصارف في مختلف البلدان ١٨٧٨

وفي ايطاليا كانت العقود المشبوهة لاصحاب بنك روما الذين انتفعوا فضلا عن فريق من الوزراء ورجال الدولة ، من ايداعات زبائنهم الذين افلسوا كليا بعد انهيار المصرف ١٨٩٧ ) ص ٥٩

٢٠ ـ حين نوه ممثلو النبالة والاكليروس في احدى الجلسات الاولى لمجلس الدولة العام بأن حق الفتح التاريخي هو الاساس في امتيازاتهم ، رد عليهم بكل اعتزاز الاب سيييس المنظر البورجوازي

« أهذا كل شيء ، يا سادة ! سوف نصبح فاتحين بدورنا . » ص ٦٣

٢١ ـ في العشرين من حزيران ١٧٨٩ تجمع ممثلو الطبقة الثالثة في قاعة للعب الكرة في أحد قصور فرساي ونادوا بأنفسهم الجمعية الوطنية الفرنسية وأقسموا ألا يغادروا القاعة حتى يتم اعلان الدستور ص ٦٣

٢٢ ـ في العاشر من آب ١٧٩٢ الغيت الملكية الفرنسية نتيجة انتفاضة شعبية ، واستولت الجماهير على قصر التويلري الملكي عنوة وارغمت الجمعية التشريعية على الغاء السلطة الملكية وتم اعتقال الملك واقتيد الى السجن ص ٦٣

٢٣ ـ أصحاب النزعة الاوروبية واصحاب النزعة السلافية ـ اتجاهان في الفكر الاجتماعي في أواسط القرن التاسع عشر

وكان أنصار النزعة الاوروبية يرون أنه من واجب روسيا أن تسلك نفس طريق التطور التي سلكتها أوروبا الغربية ومن هنا الاسم الذي يطلق عليهم وأن تجتاز المرحلة الرأسمالية وكانوا يشددون على الدور التقدمي للبورجوازية ومثلهم الاعلى السياسي الدول الدستورية الملكية والبورجوازية البرلمانية في أوروبا الغربية ، وبالخاصة بريطانيا وفرنسا وكان موقفهم من الرق سلبيا وجناحهم اليساري هرتزن وأغاريوف وبييلنسكي حتى درجة ما ) يشاطر الاشتراكيين الطوباويين آراءهم

أما أنصار النزعة السلافية فقد نادوا « بنظرية » الطريق الخاص والاستثنائي لتطور روسيا التاريخي على أساس النظام المشاعي والاورثوذكسية اللذين يخصان السلافيين وحدهم وكانوا يعارضون بصورة جذرية الحركة الثورية في روسيا وفي الغرب على حد سواء نظرا لمناداتهم بأن تطور روسيا التاريخي ينفي أية امكانية للجيشانات الثورية واذا كان أصحاب النزعة السلافية ينادون ببقاء الارستقراطية، فقد كانوا يعتقدون أنه من واجب المليك ألا يتجاهل الرأي العام ، واقترحوا دعوة زمسكي سوبور يتألف من ممثلين منتخبين عن مختلف قطاعات المجتمع وعلى أي حال فقد كانوا ضد أي دستور وأي تقييد صوري للحكم المطلق وفي أواخر الخمسينات وأوائل الستينات تقارب الاتجاهان على أساس ايديولوجية بورجوازية ليبرالية مشتركة ص ٦٦

٢٤ يقصد بليخانوف هنا النارودنيين الشعبيين ) الذين كانوا يرون بأن روسيا تستطيع بلوغ الاشتراكية متجاوزة أسلوب التطور الراسمالي وكانوا يعتبرون المشاعة الفلاحية مضغة الاشتراكية ص ٦٦

٢٥ ـ أعلن وليم الثاني قبل وقت قصير من انتخابات الريخستاغ في شباط ١٨٩٠ سعيا وراء كسب الشعبية ، أنه يؤيد تحديد ساعات العمل بصورة قانونية ، واصدر مراسيم عن تحضير مؤتمر للدولة لمناقشة مسألة العمل ولتحضير مؤتمر دولي حول تشريع العمل . ص ٦٦

٢٦ في المسرحية القديمة كانت خاتمة المأساة تتم أحيانا بتدخل اله يظهر بواسطة آلية مسرحية ( deus ex machima ) ص ٦٦

٢٧ ـ اثباتا لنظريته استخدم كونديالك في مؤلفه الرئيسي **مبحث الاحساسات** ١٧٥٤ صورة تمثال ولقد بين الفيلسوف وهو يسبغ على هذا التمثال الاحساسات بصورة متتالية أنه يكتسب جنبا الى جنب مع هذه الاحساسات جميع الوظائف الذهنية والفكرية ص ٧٤

٢٨ ـ في الحقيقة أن المركيزة دوديفال هي التي قالت ذلك وكانت تعقد هي الاخرى ، شأنها شأن دي بوفلر صالونا أدبيا شهيرا ص ٧٩

٢٩ ـ **فراو بوشمولتز** ـ شخصية من سلسلة من الروايات كتبها المؤلف الساخر ستنده في أواسط القرن التاسع عشر ، وهي تجسد المراءاة البروسية ص ٨٠

٣٠ ـ **العصبة** العصبة الكاثولية اتحاد رجعي للكاثوليين الفرنسيين تأسس عام ١٥٧٦ لمحاربة البروتستانتيين الهوغنوت ابان الحروب الدينية في القرن السادس عشر

**الفروند** ـ حركة قام بها النبلاء والبورجوازيون ضد الحكم المطلق في فرنسا ١٥٤٨ ـ ١٥٥٣ ص ٠٤

٣١ الجندي ورجل الدولة الانكليزي الشهير جون تشرشل دوق مارلبورو الاول ( ١٦٥٦ ١٧٢٢ قد اضطر الى مغادرة البلاط في أعقاب المؤامرات والخصومات التي قامت زوجته بها وكانت في خدمة الملكة وقد نسب فولتير سقوط مارلبورو الى قصة ذات صلة بزوجين من القفازات ص ١١٩

٣٢ ـ **تيرم تيرمينوس** ، اسطورة رومانية ) ـ اله هو حامي الحدود ، وكان يعبد في صورة معلم وكان كل معلم يعتبر مقدسا وكل من يحركه من مكانه يلعن ص ١٢٠

٣٣ كان هيلفيتيوس يقصد من « الامراء العظام » كاترين الثانية قيصرة روسيا والملك البروسي فريديريك الثاني وهما اللذان اتخذا دور العاهلين المستنيرين حماة العلم والفلسفة ولقد عاش لامتري وفولتير في بلاط فريديريك الثاني وكانت كاترين الثانية تراسل فولتير والموسوعيين وقد دعت ديدرو ودالامبير الخ ، الى بطرسبورغ ص ١٢٢

٣٤ ـ كارل ماركس وفريديريك انجلز **العائلة المقدسة** منشورات دار دمشق ص ٦٩ ـ ٧٠ ص ١٣٤

٣٥ كارل ماركس وفريديريك انجلز **العائلة المقدسة** منشورات دار دمشق ص ٧٠ ـ ٧٢ ص ١٣٥

٣٦ ـ انظر المجلد الاول من هذه المؤلفات الفلسفية المختارة لبليخانوف ٣٥٦ ـ ٣٨٠ . ص ١٣٦

٣٧ ـ كارل ماركس وفريديريك انجلز **العائلة المقدسة** ، منشورات دار دمشق
ص ١٠٨ ص ١٣٩

٣٨ ـ كارل ماركس ، **رأس المال** ، منشورات دار اليقظة العربية ، الكتاب الاول ،
الجزء الاول ، ص ٢٥ ص ١٤٠

٣٩ ـ الاشارة الى مرحلة عودة ملكية آل بوربون ( ١٨١٤ ـ ١٨٣٠ ) ، وقد قطعتها
الايام المائة لنابليون ١٨١٥ ص ١٤٠

لم يكتب بليخانوف دراسة خاصة عن سان سيمون بالرغم من تخصيص صفحات عديدة له في مقالتيه « الاشتراكية الطوباوية في القرن التاسع عشر » و « الاشتراكية الطوباوية الفرنسية في القرن التاسع عشر » ( راجع المجلد الثالث من هذه الطبعة ) ص ١٤٣

كارل ماركس **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي في العمل الاجور والرأسمال ودراسات اقتصادية أخرى** ، منشورات دار دمشق ، ص ٥٣ ص ١٤٥

٤٢ كارل ماركس ، **رأس المال** ، الكتاب الاول ، الجزء الاول ، منشورات دار اليقظة
العربية ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨ ص ١٤٧

٤٣ كارل ماركس ، **رأس المال** ، الكتاب الاول ، الجزء الاول ، منشورات دار اليقظة
العربية ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ص ١٤٧

٤٤ كارل ماركس ، **رأس المال** ، الكتاب الاول ، الجزء الاول ، منشورات در اليقظة
العربية ، ص ٢٦٩ ص ١٤٨

٤٥ كارل ماركس ، **رأس المال** ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، منشورات دار اليقظة
العربية ، ص ٧٢ ص ١٤٨

٤٦ كارل ماركس ، **رأس المال** ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، منشورات دار اليقظة
العربية ، ص ٣٠٨ ص ١٥١

٤٧ كارل ماركس ، **رأس المال** ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، منشورات دار اليقظة
العربية ، ص ٣٠٨ ص ١٥١

٤٨ كارل ماركس **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي ، في دراسات اقتصادية**
منشورات دار دمشق ، ص ٥٣ ص ١٥٧

٤٩ فريديريك انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية**
منشورات دار دمشق ص ٦٠ ص ١٦٦

٥٠ ـ فريديريك انجلز **أنتي دوهرنغ** ، منشورات دار دمشق ، ص ٢١ ص ١٧٠

٥١ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، الطبعة الانكليزية ، موسكو ،
ص ٥٧ ص ١٧٢

فريديريك انجلز ، **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات
دار دمشق ، ص ٧٢ . ص ١٧٢

٥٣ ــ الاشارة الى **قمع** انتفاضة حزيران ١٨٤٨ التي قام بها العمال في باريس وكومونة باريس في أيار ١٨٧١ ص ١٧٤

٥٤ ــ ك ماركس و ف انجلز ، **المؤلفات المختارة** في ثلاثة مجلدات المجلد الاول موسكو ١٩٧٣ ص ٤٢١ الطبعة الانكليزية ) ص ١٧٥

٥٥ ــ ك ماركس و ف انجلز **المؤلفات المختارة** في ثلاثة مجلدات المجلد الاول موسكو ١٩٧٣ ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤ الطبعة الانكليزية ) ص ١٧٦

٥٦ ــ كارل ماركس ، **رأس المال** الكتاب الاول ، الطبعة الانكليزية ، موسكو ص ١٧٧

٥٧ ــ **الفنان الحدث القادم من سالامنكا** ــ احدى شخصيات رواية فولتير الفلسفية **قصة جيني أو الملحد والحكيم .** ص ١٧٨

٥٨ ــ كارل ماركس **رأس المال** ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، منشورات دار اليقظة العربية ص ٦٥ ص ١٧٩

٥٩ ــ الاشارة الى هزيمة روسيا في حرب القوم في ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦ التي بينت تعفن وعجز نظام ملكية الاقنان في الريف مما حمل الحكومة على الغاء القنانة وتحقيق سلسلة من الاصلاحات في الستينات من القرن الماضي مما عجل في تطور النظام البورجوازي في روسيا ص ١٩٦

٦٠ ــ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** في **دراسات اقتصادية**، منشورات دار دمشق ص ٥٣ ــ ٥٤ ص ١٨٣

٦١ ــ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي في دراسات اقتصادية** ، منشورات دار دمشق ص ٥٤ ص ١٨٤

٦٢ كارل ماركس ، **رأس المال** ، الكتاب الاول الجزء الاول ، منشورات دار اليقظة العربية ص ــ ١٢٢ ص ١٨٤

٦٣ كارل ماركس ، **رأس المال** ، الكتاب الاول الجزء الاول ، منشورات دار اليقظة العربية ، ص ٥٦ ص ١٨٥

٦٤ ــ ك ماركس و ف انجلز **البيان الشيوعي** منشورات دار دمشق ص ٤٦ ــ ٤٨ ص ١٨٦

٦٥ ــ ك ماركس و ف انجلز ، **البيان الشيوعي** منشورات دار دمشق ص ٦٥ ــ ص ١٨٦

٦٦ ــ ك ماركس و ف انجلز ، **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ، ص ٥٩ ص ١٨٧

٦٧ ــ ك ماركس و ف انجلز **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ، ص ٩٧ ص ١٨٧

٦٨ ــ **انصار الضرورة المسيحيون** ــ شيعة مسيحية كانت تنادي بأن الارادة غير حرة وبأن المخلوقات الاخلاقية لا تتصرف بحرية بل تبعا للضرورة ص ١٨٧

## بضـع كلمات دفاعا عن الماديـة الاقتصادية

هذا رد على مقالة في المادية الاقتصادية » التي نشرها الليبرالي البورجوازي ف غولتسيف في عدد نيسان من مجلـة **الحياة الروسية** لعام ١٨٩٦

وصدرت مقالة بليخانوف في السنة نفسها في العدد التاسع من المجلة مع هـذا العنوان الثانوي رسالـة مفتوحة الى ف غولتسيف وكانت تحمـل الاسم المستعار س اوشاكوف

والعبارات الواردة بين أقواس حادة هـي ملحوظات بليخانوف على نسخـة باقيـة من المجلـة

٦٩ ـ **الحياة الروسية** ـ مجلة أدبيـة سياسية شهرية صدرت في موسكو من ١٨٨٠ حتى ١٩١٨ ، وكان اتجاهها شعبيا ليبراليا حتى عام ١٩٠٥ وقد ظهرت فيها مقالات للماركسيين في التسعينات ص ١٨٨

٧٠ ـ انظر المجلد الاول من هـذه الطبعة ، ص ٤٣٣ ـ ٦٨٤ ص ١٨٨

٧١ ـ شرح فوستيل دي كولانج هـذا الرأي في كتابه **المدينـة القديمـة** ص ١٨٩

٧٢ ـ أخذت هذه الملحوظة من ملحق عثر عليه في محفوظات بليخانوف ص ١٩١

٧٣ ـ هذا النـوع من التشخيص من خصائص الطبيب الزائف سفاناريل في مسرحتي موليير **الطبيب رغما عنـه** و **الطبيب السارق** ص ١٩٦

٧٤ ماركس و ف انجلـز **المؤلفات المختـارة** في ثلاثـة مجلدات الطبعـة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٣ المجلد الاول ، ص ١٥٩ ص ٢٠٠

٧٥ ـ **اوبلوموف** ـ عنوان رواية من تأليف غونتشاروف وقـد أصبح اسم اوبلوموف رمزا[1] للعطالة والركودة والانفعالية ص ٢٠٥

٧٦ ـ ك ماركس **مقدمـة اسهام في نقـد الاقتصاد السياسي** ، **في دراسات اقتصادية** منشورات دار دمشق ص ٥٣ ـ ٥٤ ص ٢٠٥

٧٧ ـ يستشهد بليخانوف من مقالة مغفلة عنوانها الارض والحرية نشرت في مجلة **الارض والحريـة** ، العدد الاول ٢٥ تشرين الاول ١٨٧٨ ص ٢٠٦

٧٨ ـ **مدرسة مانشستر** ـ اتجاه في الاقتصاد السياسي الانكليزي في أواسط القـرن التاسع عشر وكان انصار هذه المدرسة ، وهم أنصار التجارة الحرة ، يعبرون عن مصالح البورجوازية الصناعيـة وينادون بالتجارة الحرة وعدم تدخـل الدولـة في الحياة الاقتصاديـة ص ٢٠٦

٧٩ تشيرنيشيفسكي هو مؤلف كتاب **ملحوظات عن ميل** ص ٢٠٧

٨٠ ـ الاشارة الى قصيدة رايلييف **المواطن** ص ٢٠٨

٨١ ـ **ايفان يرمولايفيتش** ـ شخصية في مجموعة قصص للكاتب اوسبنسكي **الفلاح وعمله** ص ٢٠٨

٨٢ ـ **اليقينيـة** ـ عقيدة دينيـة اخلاقيـة تبشر بموقف تأملي متصوف حيال الحياة ، والانفعاليـة والخضوع للارادة الالهيـة ص ٢٠٩

٨٣ ـ « سفيستوك الصغير القسم الساخر من مجلـة **سوفريمينيك** ( المعاصر ) ( ١٨٣٦ ـ ١٨٦٦ ، وكان دوبروليوبوف يلعب الدور الرئيسي فيـه وكان هذا القسم يسخر بشـدة من التفاؤل العقيـم لدى الليبراليـين ومن عجزهـم حيـال النضـال العنيف ص ٢١٤

٨٤ ـ المقصود مقالة غلينسكي الشباب وقادته المنشورة في العدد العاشر من مجلـة **ايستوريشلسكي فيسنيك ( الغدير التاريخي )** لعام ١٨٩٥ ص ٢١٤

٨٥ ـ المقصـود المشتركون في الحركـة الثورية الروسيـة في الستينات من القـرن التاسع عشر وكان تشيرنيشفسكي زعيما لهم ص ٢١٤

## بعض الملحوظات عن التاريخ

نشرت هـذه الملحوظات وهي عرض لكتـاب ب **لاكومـب أسس التاريـخ السوسيولوجيـة** لاول مرة في مجلـة **سامارسكي فستنيـك ( تدبير سامارا )** ، العدد الثامن في كانون الثاني والعدد العاشر في ١٤ كانون الثاني ، مـن عام ١٨٩٧ تحت الاسم المستعار ب بوشاروف ، ومن بعد أعيد طبعها كملحق لكتاب بليخانوف **تطور النظرة الاحادية عن التاريخ** ، عام ١٩٠٦

٨٦ ـ اوغست كونت هو مؤسس المذهب الوضعي وكان يرى ان **الحيـاة الاجتماعيـة** تقوم على أساس التطور الذهني الذي يمر بثلاثة أطوار ، **الطور اللاهوتي والطور** الميزيائي والطور الوضعي كونت يعتبر ان **الطور الوضعي هو الطـور** العلمي الحقيقي هذا الطور الذي تحقق في نظام كونت يتطابق مع سيادة العلاقـات البورجوازية ص ٢١٨

٨٧ ـ يستخدم بليخانوف بالروسيـة كلمـة **أرشين** وهو مقياس روسي قديم يساوي ٧١ر١٢ سم ص ٢٢٠

٨٨ ـ حاول اوين وأتباعـه عدة مرات بغرض البرهان على امكانيـة تحقيق مشاريعهم الاشتراكية الخياليـة يؤسسوا مستعمرات جماعيـة في الولايات المتحـدة وغيرها من البلدان ص ٢٢٠

٨٩ ـ في الرابـع عشر من تشرين الاول ١٨٠٦ هزمت جيوش نابليون القوات البروسية في ايينا واحتلت برلين بعد أيام قليلـة ص ٢٢٤

٩٠ ـ مؤلف **نظام الحقوق المكتسبة** هو فرديناند لاسال مؤسس وزعيم الرابطة العامة للعمال الالمان . ص ٢٢٥

## في الفهم المادي للتاريخ

هذه المقالة تحليل لكتاب الفيلسوف الماركسي الايطالي انطونيو لابريولا **دراسات في التصور المادي عن التاريخ** الذي صدر في روما في ١٨٩٥ – ١٨٩٧

ونشرت مقالة بليخانوف في مجلة **روسكويه سلوفو ( الكلمة الروسية )** ، العدد ، ١٨٩٧ بتوقيع ن كامنسكي

٩١ – **الذاتيون** – أنصار الطريقة الذاتية في علم الاجتماع وكانوا ينكرون الطبيعة الموضوعية لقوانين التطور الاجتماعي ويرجعون التاريخ الى نشاط بعض الابطال الفرديين و الشخصيات البارزة وكان النارودنيون الليبراليون ، وفي عدادهم ك. ميخائيلوفسكي يمثلون الطريقة الذاتية في علم الاجتماع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ص ٢٢٨

٩٢ – **المعلم والتلامذة الروس** – هي التسمية التي اطلقت في الصحافة الروسية الشرعية على ماركس وأتباعه الروس تضليلا للرقابة ص ٢٢٨

٩٣ – صدر كتاب ماركس وانجلز **العائلة المقدسة** في فرنكفورت على الماين عام ١٨٤٥ وصدر كتاب ماركس **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** الذي تتضمن مقدمته زبدة المادية التاريخية في برلين عام ١٨٥٩ ص ٢٢٩

٩٤ – تعبير الوتر الاقتصادي استعمله ميخائيلوفسكي في عرض له بعنوان الادب والحياة في المجلة الروسية **روسكويه بوغاتستفو ( الثروة الروسية )** العدد الاول ، ١٨٩٤ ص ٢٣٠

٩٥ – **الغائية** – مذهب مثالي عن الملاءمة في الطبيعة ص ٢٣٣

٩٦ – المقصود بول لافارغ الذي عممت كراسته **المادية الاقتصادية لماركس** أفكار ماركس في هـذا الموضوع ص ٢٣٤

٩٧ – يقابل بليخانوف بين هزيمة ايطاليا في الحرب العدوانية الايطالية الحبشية في ١٨٩٥ – ١٨٩٦ والانتصار الروماني في قرطاجة ، أحد المراكز التجارية الاغنى في شمالي أفريقيا ، ابان الحروب البونية في القرنين الثالث والثاني قبل المسيح ص ٢٤٢

٩٨ – تشيرنيشفسكي هو مؤلف **دراسات عن العصر الغوغولي في الادب الروسي** ص ٢٤٢

٩٩ – المقصود هو كارل ماركس ص ٢٤٤

قامت حروب دينية متواصلة بين الكاثوليين والهوغنوت في فرنسا خلال القرن السادس عشر ص ٢٥٤

– يقصد بليخانوف من عبارة السادة الذاتيون القدامى الممثل الرئيسي للطريقة الذاتية في علم الاجتماع ميخائيلوفسكي وأنصاره ص ٢٥٥

١٠٢ – من مسرحية غوغول **المفتش العام** . ص ٢٥٥

١٠٣ . يقصد بليخانوف بعض البيانات الصادرة عن ميخائيلوفسكي قد اسعدها بعنف في كتابه **تطور النظرة الاحادية في التاريخ** راجع المجلد الاول من هـذه الطبعـة ص ٦٥٦

١٠٤ ـ المقصود نقولاي ـ دانيلسون الذي اشتهر كماركسي بين النارودنيين ولقد دعا دانيلسون في كتابه **ابحاث في اقتصادنا الاجتماعي بعد الاصلاح** ، المنشور عام ١٨٩٣ الى تجاوز الرأسمالية وتوجيه جميع الجهود الى توحيد الزراعة والصناعة النامية بين أيدي المنتجين على أساس اقامة انتاج اجتماعي كبير قاعدته المشاعة الفلاحية النارودنيون يعتقدون ان هذا الكتاب لا بد الحق الخزي بالماركسيين الروس لتشويههم المزعوم للماركسية ص ٢٥٦

## [ في « العامـل الاقتصادي » ]

هذه المقالـة رد على عرض ميخائيلوفسكي « في الكلمات الجديـدة **والكلمـة الجديدة** » المنشور في عدد تشرين الاول من مجلة **الثروة الروسية** لعام ١٨٩٧ وهو العرض الذي كتب ردا على مقالة بليخانوف تحت الاسم المستعار كامنسكي ) في الفهم المادي للتاريخ الصادرة في عدد ايلول من مجلة **الكلمـة الجديدة** لعام ١٨٩٧ انظر هذا المجلد ص ٢٢٨ ـ ٢٥٨

وكانت المقالة مهيأة للنشر في **الكلمـة الجديدة** نفسها ، لكن هذه المجلة حظرت من قبل المراقبة في كانون الاول ١٨٩٧

وحاول بليخانوف في ١٧٩٩ نشرها في مجلة **البدايـة** ، لكن دون نجاح

وقد كتبت المقالة في أواخر ١٨٩٧ وأوائل ١٨٩٨ ولم يكن لها عنوان

١٠٥ . **الكلمة الجديدة** ـ مجلة شهرية علمية وأدبية وسياسية صدرت في سانبطرسبورغ من ١٨٩٤ حتى ١٨٩٧ وقد نشرت مقالات لماركسيين ثوريين في عدادهم بليخانوف ولينين قبل ن تحظر الحكومة القيصرية صدورها

**الثروة الروسية** ـ مجلة شهرية صدرت في سان بطرسبورغ من ١٨٧٦ حتى ١٩١٨، واصبحت منذ أوائل التسعينات الناطقة باسم النارودنيين الليبراليين بزعامة ميخائيلوفسكي الذي شن حملة ضد الاشتراكيين الديموقراطيين الروس

**الفكـر الروسي** ـ مجلة شهرية ذات اتجاه نارودني ، صدرت في موسكو من ١٨٨٠ حتى ١٩١٨ وكانت هيئـة تحريرها تنشر أحيانـا مقالات بقلم ماركسيين مـع احتفاظها بالاتجاه النارودني ص ٢٥٧

١٠٦ ـ هذا التعبير مأخوذ من عنوان مقالة بيساريف نزهة في بساتين الادب الروسي ». وكان بيساريف ديموقراطيا ثوريا روسيا وناقدا أدبيا ص ٢٥٨

١٠٧ ـ المقصود كتاب بلوس **الثورة الالمانية من ١٨٤٨ حتى ١٨٤٩** . ص ٢٥٩

٨٠ فجوة في المخطوطة تنقص صفحة كاملـة ص ٢٦٠

٩٠ انظر هذا المجلد ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨

ــ **بوبشنسكي** و **دوبشنسكي** ــ شخصيتان من مسرحية غوغول **المفتش العام** ص ٢٦٣

استخدم ميخائيلوفسكي عبـارة الشباب الدالبين علـى نعت « السادة الشيوخ الذاتيين » الذي أطلقه بليخانوف على ميخائيلوفسكي وانصاره ص ٢٦٤

كارل ماركس **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو ١٩٧٠ ص ٢٠

وقد الشاهد وفقا للطبعة الاولى من كتاب بليخانوف **تطور النظرة الاحاديـة عن التاريـخ** ص ٢٦٤

١١٣ ــ اتبـاع ماركـس ص ٢٦٧

ــ انظر هذا المجلد ، ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ ص ٢٦٧

١١٥ ماركس و ف انجلز ، **المؤلفات المختارة** في ثلاثة مجلدات المجلد الثالث موسكو ١٩٧٣ ص ١٣١ ص ٢٦٩

فريديريك انجلز **انتي ــ دوهرنغ** منسوراب دار دمسق ص ص ٢٦٩

١١٧ ــ صدرت المجلة في باريس من ١٨٢٥ الى ١٨٢٦ ص ٢٧٠

١١٨ ــ في عرضه لكتاب بليخانوف **تطور النظرة الاحادية عن التاريخ** كتب ميخائيلوفسكي يقول مما لا ريب فيه أن الناس حسني النيـة يجب أن « ينشطوا تطور الوعي الذاتي لدى الناس عامة ولدى « بروتزفوديتيلي » خاصة سوى أن هذه الكلمة بروتزفوديتيلي ليست صالحة ، **فهي تفوح برائحة الاصطبل** فقد اعتدنا كلمة « الشعب » في هذه الحالات والمقصود منها الجماهير العاملة ص ٢٧٠

١١٩ كلمة غريتشن في **فاوست** غوتـه ص ٢٧٥

ــ شاهد من قصيدة نكراسوف في القرية » ص ٢٧٧

ــ قصيدة فكتور هوغو « اليوم في ديوان **التاملات** ، المجلد الثاني ص ٢٧٧

١٢٢ ــ المقصود كتاب السيد توغان ــ بارانوفسكي **الازمات الصناعية في انكلترا الحديثة ، أصلها وأثرها في حياة الشعب** ، وقد نشر عام ١٨٩٤ وكان توغان ــ بارانوفسكي في ذلك الحين « ماركسيا شرعيا » وكان يستعمل المصطلحات الماركسية ص ١٨٤

١٢٣ ــ **البهاليل الادبيون** ــ تعبير لميخائيلوفسكي استخدمه بليخانوف ضده في كتابه **تطور النظرة الاحادية عن التاريخ** ص ٢٨٤

١٢٤ كارل ماركس ، **رأس المـال** ، المجلد الاول الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤ ص ٢١ ص ٢٨٧

١٢٥ ــ **سكالوزوب** ــ شخصية في مسرحية غريبوئيدوف **فرط الذكاء مصيبة** ص ٢٨٨

١٢٦ ــ تنقطع المخطوطة هنـا ص ٢٨٨

# في مسألة دور الفرد في التاريخ

نشرت هذه المقالة في **المجلة العلمية** ، العددين الثالث والرابع لعام ١٨٩٨

١٢٧ ـ المقصود ن ميخائيلوفسكي الذي رد على صدور مقالة كابليتز في « هوامش ادبية لعام ١٨٧٨ » ص ٢٨٩

١٢٨ ـ انظر الهامش رقم ٦٨ ص ٢٩٠

١٢٩ ـ انظر الهامش رقم ٩١ ص ٢٩٣

١٣٠ ـ يشير بليخانوف الى قصة تورغنيف كوخ ششيعروف يونيرد ص ٢٩٣

١٣١ ـ **أكاكي أكاكييفيتش** ـ بطل قصة غوغول المعطف ص ١٩٧

١٣٢ ـ هزمت فرنسا فير الحرب الفرنسية البروسية في ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ ص ٢٩٩

١٣٣ ـ **لوغلوب** ـ مجلة تأسست في باريس عام ١٨٢٤ وتوقف عن الصدور عام ١٨٣٢ ص ٣٠٣

١٣٤ ـ **حرب الخلافة النمسوية** ( ١٧٤٠ ـ ١٧٤٨ ) ـ شنتها النمسا بتأييد من بريطانيا وهولندا وروسيا ضد بروسيا واسبانيا وفرنسا وبعض الدول الالمانية والايطالية فبعد موت الامبراطور كارل الرابع ادعى بعض خصوم النمسا حقهم في جزء من أراضيها وأدت الحرب الى فقدان النمسا القسم الاعظم من سيليزيا الصناعية التي الحقت ببروسيا كما حصلت ايطاليا على بعض أراضيها ص ٣٠٤

١٣٥ ـ حسب بنود معاهدة الصلح في ايكس لاشابيل ( ١٧٤٨ ) كان على فرنسا أن تتنازل عن جميع الاراضي التي كانت قد استولت عليها في الاراضي الواطئة ص ٣٠٤

١٣٦ ـ **حرب السنوات السبع** ( ١٧٥٦ ـ ١٧٦٣ ) ـ وقعت بين مجموعتين من الدول ، بروسيا وبريطانيا والبرتغال من جهة وفرنسا والنمسا وروسيا وسكسونيا والسويد من جهة ثانية ، وكان السبب الرئيسي فيها محاولات النمسا استعادة سيليزيا الي فقدتها في حرب الخلافة النمسوية ، وكذلك النزاع الانكلو ـ فرنسي على المستعمرات في كندا والهند وقد أعطت الحرب بريطانيا كندا والهند ص ٣٠٤

١٣٧ ـ ان صعود بطرس الثالث الى عرش روسيا وكان يجل فريديريك الثاني بحيث رفض مواصلة الحرب ضد بروسيا سهلت على بروسيا الاحتفاظ بسيليزيا ص ٣٠٥

١٣٨ ـ أعدم لويس السادس عشر على المقصلة في ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ ص ٣١١

١٣٩ ـ **الجيروندیون** ـ حزب البورجوازية الكبيرة ابان الثورة الفرنسية ص ٣١١

١٤٠ ـ **رجعية ترميدور** ـ مرحلة الردة السياسية والاجتماعية التي اعقبت الانقلاب ضد الثوري في فرنسا في ٢٧ تموز ١٧٩٤ ٩ ترميدور ) الذي وضع حدا لدكتاتورية اليعاقبة الذين أعدم روبسبيير زعيمهم وترميدور وفلوريال وميسيدور وبرومير الخ ـ أسماء أشهر حسب التقويم الجمهوري الذي طبقته الجمعية في خريف ١٧٩٣ ص ٣١١

١٤١ ـ معركة اركول ـ بين فرنسا والنمسا في ١٥ ـ ١٧ تشرين الثاني ١٧٩٦ . ص ٣١١

١٤٢ ـ **١٨ برومير** ٩ تشرين الاول ) ١٧٩٩ يوم الانقلاب الذي قام به نابليون ،واستعاض عن الادارة بالقنصلية ص ٣١١

**الادارة** ـ الحكومة الفرنسية بعد انقلاب ٩ ترميدور ٢٧ تموز واستمرت من ١٧٩٥ حتى ١٧٩٩ ص ٢١١

## في الازمــة المزعومــة في الماركسيــة

هذا المنشور خلاصة لمحاضرة لبليخانوف موجهة ضد نقاد ماركس وبالاخص ادوارد برنشتاين وكونراد شميدت ، وقد ألقاها في جنيف ومدن أخرى في سويسرا وايطاليا في أواخر ربيــع واوائل صيف ١٨٩٨

وكانت هذه المحاضرة في وقت لاحق أساسا لعدة مقالات من بينها « برنشتاين والمادية و كونراد شميدت ضد كارل ماركس وفريديريك انجلز

١٤٤ ـ **الشباب** ـ معارضــة بورجوازية صغــيرة نصف فوضوية في الحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني نشأت عام ١٨٩٠ وكان الشباب ينكرون أي نوع مــن المشاركــة في النشاطات البرلمانيـــة ويقنعون جوهرهــم الانتهــازي بالعبارات اليسارية شبه الثورية وقد طردوا من الحزب في تشرين الاول ١٨٩١ في مؤتمر ايرفورت ص ٣٢١

١٤٥ ـ شن برنشتاين حملة على الماركسية الثورية بمقالته قضايا الاشتراكية » التي نشرت في **نيوزيت** الصحيفــة النظريــة للاشتراكيين الديموقراطيين الالمــان في عام ١٨٩٨ ص ٣٢١

١٤٦ ـ نشرت مقالة كونراد شميدت « كانط ، حياته وتعاليمه ، وهي استعراض لكتاب كرونبرغ الذي يحمل العنوان نفسه في الملحق الثالث لصحيفة **فورفارتس** ، الصحيفة المركزية للحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني في ١٧ تشرين الاول ١٨٩٧ ص ٣٢١

١٤٧ المقصود مقالة ادوارد برنشتاين « نقاط التفوق الواقعية والايديولوجية للاشتراكية» في **نيوزيت** العدد ٣٤ ٢٧ أيــار ١٨٩٨ ص ٣٢٢

١٤٨ ـ نشرت **الموسوعة** في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ( ١٧٥١ ـ ١٧٨٠ ) ، وقد أصدرها ديدرو ودالامبير وكان غرضها مكافحة النظام القديم » والاكليريكيــة وتنمية العلوم والفلسفة والفنون التقدميــة

والمقتطف الذي كان في نيــة بليخانوف ايراده من فقرة ديدرو **السبينوزي** وليس السبينوزية ) هي بالتأكيد الفقرة التي استشهد بها في مقالته«برنشتاين والمادية انظر الصفحة ٣٣٧ من هذا المجلد ) ص ٣٢٥

١٤٩ كارل ماركس ، **رأس المــال** المجلد الاول ، الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤ ص ٢٩ ص ٣٢٨

١٥٠ ـ **حقيقة لاباليس** ـ الحقيقة المؤكدة من تلقاء ذاتها دونما حاجة الى برهان . ص ٣٣٠

## برنشتاين والمادية

هذه أول مقالة لبليخانوف ضد التحريفية نقد ادرك بليخانوف ما تجره البرنشتاينية في أذيالها من خطر بصورة أكبر مما فعل المنظرون الآخرون للاممية الثانية فنهض ضدها بحزم

وقد نشرت المقالة في **نيوزيت** ، العدد ٤٤ ٣٠ تموز ١٨٩٨ وبالروسية في مجموعة **نقد لنقادنا** عام ١٩٠٦

١٥١ ــ المقصود مقالة برنشتاين نقاط التفوق الواقعية والايديولوجية للاشتراكية قضايا الاشتراكية القسم الثاني المجموعة الثانية » المنشورة في العددين ٣٤ ــ ٣٥ من نيوزيت لعام ١٨٩٨ ص ٣٣١

١٥٢ ــ يستشهد برنشتاين بكتاب ستريكر **العالم والجنس البشري** . ص ٣٣١

١٥٣ ــ يخطىء بليخانوف في استشهاده فالشاهد وارد في الصفحة ٩١ من الطبعة الفرنسية ص ٣٣٢

١٥٤ ــ يخطىء بليخانوف حين يقول ان انجلز وافق على موضوعة « اننا لانؤمن الا بالذرة فانجلز مثله كمثل ماركس ، اتخذ موقف النظرية المادية عن الانعكاس واعتبر أن المادة قابلة للمعرفة ويقدم بليخانوف بهذه الصياغة تنازلا للادرية يرتبط بأخطاء أخرى مثلا تأكيده أن أفكارنا ليست نسخا أو انعكاسات للموضوعات بل هيروغليفات ، علامات للموضوعات ص ٣٣٣

١٥٥ ــ فريديريك انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات دار دمشق ، ص ٥٢ ص ٣٣٤

١٥٦ ــ كان ادوارد برنشتاين عام ١٨٨١ رئيس تحرير **الاشتراكي الديموقراطي** صحيفة الحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني التي كانت تصدر في زوريخ وفي ١٨٨٨ انتقل برنشتاين الى لندن حيث انحرف الى التحريفية بتأثير التريديونيونية والادبيات الاقتصادية البورجوازية ص ٣٣٤

١٥٧ ــ فريديريك انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات دار دمشق ص ٥٤ ص ٣٤٠

١٥٨ ــ فريديريك انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات دار دمشق ص ٤٥ ص ٣٤٢

١٥٩ ــ فريديريك انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات دار دمشق ص ٦٠ ص ٣٤٢

١٦٠ ــ فريديريك انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات دار دمشق ص ٤٧ ص ٣٤٢

١٦١ ــ المقصود اطروحة ماركس للدكتوراه « الفارق بين فلسفة الطبيعة عند ديموقريطس وابيقور » . ص ٣٤٣

١٦٢ ـ حين يؤكد بليخانوف على وحدة المبادىء الاساسية للمادية قبل الماركسية والمادية الجدلية ( في معالجـة المسألـة الرئيسيـة للفلسفـة ) لا يبين الفارق الجوهري بينهما وهو يخطىء حين ينشىء تكافؤا مادية سبينوزا ومواقف ماركس وانجلز الفلسفية وهو يقول في مقالته « في الازمة المزعومة في الماركسية في الحقيقة ان المادية الحالية هي سبينوزية أصبحت اكثر وعيا لذاتها انظر ص ٣٢٥ من هـذا المجلد ) ص ٣٤٣

١٦٣ ـ فريديريك انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهايـة الفلسفـة الكلاسيكيـة الالمانيـة** ، منشورات دار دمشق ص ٣٠ ص ٣٤٣

١٦٤ كان العنوان المفترض للمقالة التالية هو « فريديريك انجلز وكونراد شميدت». ص ٣٤٣

## علام يجب أن نشكـره

كتب بليخانوف هذه المقالة كرسالة مفتوحة الى كاوتسكي بعد مؤتمر شتوتغارت للحـزب الاشتراكـي الديمقراطي الالماني في ٣ ـ ٨ تشرين الاول ١٨٩٨ وكان برنشتاين قـد وجـه الى المؤتمر بيانا عرض فيـه موضوعاتـه « النقـدية » الرئيسية الموجهة ضد الماركسية أثار مناقشة حامية حول مسألة التحريفيـة واتخـذ قرار اخـيرا بادانـة التحريفيـة ، لكـن لم تتخذ ضـد برنشتاين أيـة تدابـير تنظيميـة

وكانت العبارة الختامية في خطاب كاوتسكي في المؤتمر التي شكر بهـا برنشتاين ، هي التي حفزت بليخانوف الى كتابـة مقالتـه التي نشرت في صحيفة **Sächsische Arbeiter Zetung** الاعـداد ٢٥٣ ٢٥٥ ٣٠ تشريـن الاول و ٢ و ٣ تشرين الثاني ١٨٩٨

١٦٥ ـ يشير بليخانوف الى موضوعة برنشتاين الشهيرة ، « الحركة هي كل شيء وليس الهدف الاخير شيئا » التي شرحها في مقالتـه « نضال الاشتراكية الديموقراطية وثورة المجتمـــع » ص ٣٤٨

١٦٦ ـ يقصد بليخانوف مقالته الخاصة « النفاق ضد كانط » ص ٣٥٢

## النفـاق ضـــد كانــط

كتب بليخانوف مقالـة « النفاق ضـد كانط » ردا على كراسـة برنشتاين **Die Voraussetzungen des Sozialismus und die Aufgaben der Sozial-Demokratie** ( **مقدمات الاشتراكية ومهام الاشتراكية الديموقراطية** ) التي ظهرت عام ١٩٠ في طبعة روسية ثانية تحت عنوان « المادية التاريخية »

في مجلة الاشتراكيين الديموقراطيين الروس **زاريـا** **الفجر** ) العددين الثاني والثالث وهي **المجلة التي** كانت تصدر **في** الخارج وكانت **نيوزيت** وكذلك صحيفة الحزب **الاشتراكي الفرنسي الحركة الاشتراكيـة** ، قد رفضتا نشرها

وفي توطئة الفصل الاخير من كتابـه **المادية التاريخيـة** ، « كانط ضـد النفاق » يوضح **برنشتاين كلمة النفاق كما يلي المقصود بها بصورة عامة** ، طريقة التعبير **الخاطئة أو المتهورة** أو المستخدمة بصورة مغلوطة عن عمد وكان المقصود من توطئة **برنشتاين معارضة** ما يزعم أنه الماركسية المذهبيـة والمرائيـة بالكانطية وقد غير **بليخانوف** ترتيب العبارة عنـد برنشتاين فجعلها « النفاق ضـد كانـط »

١٦٧ ــ من قصيـدة نكراسوف « **في القريـة** » ص ٣٥٦

ــ من قصيدة بورجر « **لنورا** » ص ١٥٦

١٦٩ ماركس و **ف انجلز** ، **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ص ٩٦ ص ٣٥٨

١٧٠ ــ المقصود بيان **انجلز ضد** « **الشباب** » في الاشتراكيـة الديموقراطية الالمانيـة انظر الهامش **رقم ١٤٤** ) ص ٣٥٨

١٧١ كلمات مفيستوفيليس **في فاوست** غوته ص ٣٥٨

١٧٢ ــ **جوردان** ــ احدى **شخصيات** مسرحية موليير **البورجوازي النبيل** . ص ٣٦١

١٧٣ يقصد بليخانوف **مقالة برنشتاين** « **الجدلية والتطور** » المنشورة **في نيوزيت** ، العددين ٢٧ ــ **٢٨ لعام ١٨٥٩ ردا** على مقالة كاوتسكي « برنشتاين والجدلية » التي نشرت **في العدد ٢٨** من **المجلـة** نفسـها ص ٣٦٣

١٧٤ ــ ك ماركس و ف **انجلز** ، **المؤلفات الكاملة** ، المجلد السادس ، موسكو ١٩٧٦، ص ١٧٩ ص ٣٦٥

١٧٥ المقصود مقالة **بليخانوف** « برنشتاين والمادية » ص ٣٦٥

١٧٦ ــ المقصود مقالة « **برنشتاين والماديـة** » المنشورة **في نيوزيت** العـدد ٤٤ لعام ١٨٩٨ وكانت **ردا على مقالـة** برنشتاين « das realistische und das ideologische Moment des Sozialismus » الوارد ذكرهـا **في الشاهـد** ص ٢٦٦

١٧٧ ــ **الحوليات الالمانية الفرنسية** ــ اصدرها كارل ماركس وأرنولد روج بالالمانية في باريس ، ولم يصدر منها **الا** عدد واحد في شباط ١٨٤٤ ص ٣٧٠

١٧٨ ــ ك ماركس و ف **انجلز** ، **المؤلفات الكاملة** ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٥ ص ١٧٥ ــ ١٧٦ ص ٣٧٠

١٧٩ ــ انظر مؤلف بليخانوف « **الاطوار البدئيـة** لنظرية الصراع **الطبقي** » ( ص ٤٢٩ ــ ٤٧٨ من **هـذا المجلـد** ) ص ٣٧٢

١٨٠ كارل ماركس ، **رأس المـال** ، المجلد الاول ، **الطبعة الانكليزية** ، موسكو ١٩٧٤ ص ٥٧٩ . ص : ٣٧٣

١٨٢ ـ انظر مقالة بليخانوف الثانية ضد ستروفه المنشورة في هـذا المجلد حيث يفند التأكيدات التطورية المبتذلة التي جاء هـذا الاخير بها بشأن ثلم التناقضات بـين العمل ورأس المال في المجتمع البورجوازي ص ٣٧٦

١٨٣ ـ ف انجلز **انتي ـ دوهرنغ** ، منشورات دار دمشق ، ص ٣٠ ص ٣٧٩

١٨٣ كارل ماركس **رأس المـال** المجلد الاول الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤ ص ٥٧٩ ص ٣٨٠

١٨٤ ـ انظر ص ٥١٥ ـ ٥٧٧ من هذا المجلد ص ٣٨٠

١٨٥ ـ **الاتجاه الاقتصادي الاقتصاديون** اتجـاه انتهازي في الحركة الاشتراكيـة الديموقراطية الروسية عند منعطف القرن وكانوا من أنصار برنشتاين كما كانوا يقصرون مهمات الطبقة العاملة على النضال الاقتصادي في سبيل أجور أعلى وشروط عمل أفضل، الخ، مؤكدين ان النضال السياسي هو من شأن البورجوازية وحـــدهـا ص ٣٨٢

١٨٦ ـ المقصود صحيفة **قضية العمال** الناطقة باسم الاقتصاديين ، وقد صدرت في جنيف من ١٨٩٩ ـ حتى ١٩٠٢ ص ٣٨٢

## كونراد شميدت ضد كارل ماركس وفريدريك انجلز

هـذه المقالـة والمقالات التالية لهـا التي كتبهـا بليخانوف ضد كونراد شميدت ، تمثل مع مقالاته ضد برنشتاين أفضل ما كتبه في فضح التحريفية

فمنذ شباط ١٨٩٨ بعدما ظهرت في الصحافة مقالات برنشتاين التحريفية التي لمح فيها الى كونراد شميدت على اعتباره ثقة في الفلسفة قرر بليخانوف مهاجمة كونراد شميدت

وكتبت هـذه المقالـة بالفرنسية في خريف عام ١٨٩٨ ونشرت في العـدد الخامس من **نيوزيت** بتاريخ ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٨ وقد قوبلت مقالة بليخانوف بالارتياح الكبير من جانب جميع الماركسين الثوريين ونشرت بالروسية عام ١٩٠٦ في مجموعة أعمال بليخانوف التي تحمل عنوان **نقد لنقادنا**

١٨٧ ـ ك ماركس و ف انجلز **المؤلفات المختارة** في ثلاثـة مجلدات ، المجلد الثالث، الطبعة الانكليزية موسكو ١٩٧٤ ٣٤٧ ٣٨٤

١٨٨ ـ ك ماركس و ف انجلز ، **المؤلفات المختارة** في ثلاثة مجلدات المجلد الثالث موسكو ١٩٧٣ ص ص ٣٨٤

١٨٩ ـ فريدريك انجلز ، **لودفيغ فيورباخ ونهايـة الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات دار دمشق ص ٠٧ ص ٣٨٤

١٩٠ ـ **أعمال غوتـه** ، برلين ، منشورات غوستاف همبل ، المجلد الثاني ص ٢٣٠ . ص ٣٨٧

١٩١ ـ **حكيم كونغسبرغ ـ كانط** ص ٣٩٢

١٩٢ ـ فريديريك انجلز ، **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات دار دمشق ص ٣٠ ص ٣٩٤

١٩٣ ـ ك ماركس و ف انجلز ، **المؤلفات المختارة في ثلاثة مجلدات** المجلد الثالث، الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ٣٦١ ص ٣٩٥

١٩٤ ماركس و ف انجلز ، **المؤلفات المختارة في ثلاثة مجلدات** المجلد الثالث، الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ٣٤٦ ص ٣٩٥

١٩٥ ـ من **فاوست** لغوتـه ص ٣٩٩

## المادية ام الكانطية

بعد نشر مقالة بليخانوف « كونراد شميدت ضد كارل ماركس فريديريك انجلز » نشر شميدت مقالته « **بعض الملحوظات عن مقالة بليخانوف الاخيرة في نيوزيت** » ، **نيوزيت** ، العدد الحادي عشر ، ١٨٩٨ واستاء بليخانوف من هجمات شميدت ضد الماركسية والمادية التي كشفت عن جهل كبير وعن تفكيره الكانطي الجديد ، فرد عليه في مقالته « **المادية أم الكانطية** » التي نشرت في **نيوزيت** في شباط من عام ١٨٩٩ وتبين مراسلات بليخانوف مع كارل كاوتسكي التي بين أيدينا أن كاوتسكي سعى الى التخفيف من حدة حجج بليخانوف والى عدم اغضاب كونراد شميدت ، فلم يعط بليخانوف في **نيوزيت** متسعا أكبر مما خصص لكونراد شميدت وقد ظهرت هذه المقالة في الروسية عام ١٩٠٦ في مجموعة من مؤلفات بليخانوف بعنوان **نقـد لنقادنـا**

١٩٦ ـ انظر هـذه المجلد ، ص ٢٨٥ ص ٤٠

١٩٧ ـ يخطىء بليخانوف هنا في سعيه الى الانفصال عن « فلسفة الهوية المبتذلة » بين المادة والفكر ، كما يخطىء في بعض المواضع الاخرى حين يؤكد أن الاحساسات « لا تشبه مطلقا » الموضوعات التي تسببها هذا تنازل للادرية وبنتيجة ذلك لم يتخذ بليخانوف موقف النقد من هربرت سبنسر مقررا أن هذا الاخير طور نظرية الماديين الفرنسيين ، بينما كان سبنسر في واقع الامر لا ادريا ونصيرا للدين. ص ٤١٤

## المادية مرة اخرى

هـذه المقالة هي رد بليخانوف على مقالة كونراد شميدت « was ist Materialismus ? » ( ما هي المادية ؟ التي ظهرت في **نيوزيت** في شباط ١٨٩٩ . وقررت هيئة تحرير المجلة انهاء المساجلة بهذه المقالة ، مانحة كونراد

شميدت الكلمة الاخيرة   عندئذ طلب بليخانوف من ليبيكنخت أن ينشر رده على شميدت في صحيفة **فورفارتس** ، الا ان هيئة تحرير هـذه الصحيفـة وجدت من الانفضل الامتناع عن نقد « الهرطقة الفلسفية » لشميدت وحولت المخطوطة الـى صحيفة Sozialistische Monatshefte ونشرت هذه المقالة بالروسية عام ١٩٠٦ في مجموعة لاعمال بليخانوف بعنوان **نقـد لنقادنـا**

١٩٨ كارل ماركس ، **رأس المـال** ، المجلـد الاول ، الجـزء الاول ، منشـورات دار اليقظة العربية بدمشق   ص ٢٤ — ص ٤١٩

١٩٩ ـ من الواضح أن بليخانوف يخطيء هنـا حين يقرر ان الاحساسات والتصورات لا تشبه الاشياء التي نجمت عنها   ففي الحقيقة أن الاحساسات والتصورات نسخ ثانية   أو صور عن موضوعات العالم الحقيقي — ص ٤٢١

ـ يقدم بليخانوف تنازلا للادرية حين يقول ان الذاتية هي الخاصية الاولية المميزة للمكان والزمان   ففي الحقيقة ان الزمان والمكان شكلان واقعيان موضوعيا لوجود المادة كما تنعكس في الذهن البشري — ص ٤٢١

٢ ـ أخطأ بليخانوف في عرضه النظرية الماركسية عن الانعكاس حين تحدث عما يسمى « نظرية الهيروغليفات   التي تستقيم في التأكيد بأن الاحساسات والتصورات والمفاهيم البشرية ليست نسخا ثانيـة عن الموضوعات بـل مجـرد علامـات أو هيروغليفات   انظر نقد هذه النظرية في كتاب لينين ، **المادية والمذهب التجريبي النقدي** ، منشورات دار دمشق — ص ٤٢١

## رد على استبيان لصحيفـة

## « الجمهورية الاشتراكية الصغـيرة »

نشر هذا الرد مع عدد من أجوبة اشتراكيين من بعض البلدان الاخرى في ملحق نصف شهري لصحيفة **الجمهورية الاشتراكية الصغيرة** في ٢٢ ايلول ١٨٦٩

٢ ـ **قضية دريفوس** ـ كانت محاكمة استفزازية اتهم فيها زورا دريفوس ، وهو ضابط يهودي من هيئة اركان الجيش الفرنسي ، بالتجسس والخيانة العظمى ، وذلك من قبل بعض الملكيين الرجعيين في هذا الجيش   وقد حكم على دريفوس بالسجن المؤبد من قبل محكمة عسكرية   وقد استغلت الدوائر الرجعية الفرنسية قضية دريفوس لتحريض النزعة المضادة للسامية والهجوم على النظام الجمهوري والحريات الديموقراطية   وحين شن في عام ١٨٩٨ بعض الاشتراكيين والديموقراطيين البورجوازيين التقدميين   مثل اميل زولا وجان جوريس واناتول فرانس ) حملة من أجل اعادة النظر في قضية دريفوس اتخذت هذه القضية طابعا سياسيا

ملحوظا ، فانقسمت البلاد الى معسكرين في احدهما الجمهوريون والديموقراطيون وفي الآخر كتلة الملكيين ورجال الدين واعداء السامية والقوميون وقد أطلق سراح دريفوس عام ١٨٩٩ تحت ضغط الرأي العام وبرئت ساحته عام ١٩٠٦ وأعيد الى الجيش ص ٤٢٣

## آراء كارل ماركس الفلسفية والاجتماعية

ألقى بليخانوف هذا الخطاب في اجتماع في سويسرا في أواخر التسعينات في الاغلب في أواخر ١٨٩٧ أو أوائل ١٨٩٨

٢٠٣ كارل ماركس **رأس المال** ، المجلد الاول الجزء الاول مشورات دار اليقظة العربية بدمشق ص ٢٤ ص ٤٢٧

## الاطوار البدئية لنظرية الصراع الطبقي

قرر بليخانوف عام ١٨٩٨ أن يكتب مقدمة لطبعة روسية جديدة لكتاب ماركس وانجلز **بيان الحزب الشيوعي** بمناسبة الذكرى الخمسين لصدوره وقد اتضح ان هذا المشروع طويل أدى آخر الامر الى مقالة مستقلة حررت مع الاعتبار الواجب لجميع حالات نقد الماركسية في أواخر القرن التاسع عشر وقد صدرت الطبعة الروسية الثانية **للبيان** مع مقدمة بليخانوف في جنيف عام ١٩٠٠

٢٠٤ ماركس و ف انجلز **المؤلفات** المجلد الاول من الطبعة الالمانية ص ٣٤٣ – ٣٤٦ ص ٤٢٩

٢٠٥ – مؤلف انجلز تحليل لكتاب كارلايل **الماضي والحاضر** انظر ك ماركس و ف انجلز **المؤلفات الكاملة** ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٥ ، ص ٤٤٤ – ٤٦٨ ص ٤٢٩

٢٠٦ ماركس و ف انجلز **المؤلفات الكاملة** ، المجلد الثالث موسكو ١٩٧٥ ص ٤٧٥ ص ٤٢٩

٢٠٧ – المقصود كتاب بقلم فريدريخ ألبرت لانج الفيلسوف الكانطي الجديد الالماني **Geschichte des Materialismus und Kritik seiner Bedeutung in der Gegenwart** ص ٤٣٠

٢٠٨ – ك ماركس و ف انجلز ، **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ص ١٣ – ١٤ ص ٤٣٠

٢٠٩ – يشكل الاستيلاء على الباستيل ( **١٤ تموز ١٧٨٩** ) بداية الثورة الفرنسية **١٠ آب ١٧٩٢** – يوم العصيان الشعبي في باريس الذي أدى الى الاطاحة بالملكية . ص ٤٣٨

المقصود كومونة باريس ١٨٧١ وهي أول دكتاتورية **للبروليتاريا في** التاريخ

وقد استمرت ٧٢ يوما من ١٨ آذار حتى ٢٨ أيار عام **١٨٧١** ٤٣٩

كارل ماركس ، **رأس المـال ،** المجلد الاول الطبعة **الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤**

ص ٧٠٣ ص ٤٣٩

ماركس و ف انجلز ، **البيان الشيوعي** ، منشورات **دار دمشق ، ص** ٤٩ ٤٤٣

ماركس و ف انجلز ، **البيان الشيوعي** ،منشورات **دار دامشق** ، ص: ٩٣ ص ٤٤٩

٢١٤ – **جمعية الفصول** ( Société des Saisons ) منظمة جمهورية اشتراكية

سرية قادهـا بلانكـي وباربس وكانت ناشطـــة **فـي باريس فـي** الاعـوام

١٨٣٧ – ١٨٣٩ ٤٥٠

يفتقر بليخانوف الى روح النقد في تقديره لآراء غيزو **وأتباعه في مسألة** الصراع

الطبقي حين يجمعها مع ماركس وانجلز انه **لا** يبين **الفارق** النوعي بينهـا

المبادىء الجديدة التي ادخلتها الماركسية الى نظرية **الصراع الطبقي** ٤٥٢

ماركس و ف انجلز ، **البيان الشيوعي** ، منشورات **دار دمشق** ، ص: ٥٣ ص ٤٥٣

كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو **١٩٧٠** ، ص ص ٤٥٣

٢١٨ – **دياكري** – فلاحون فقراء بالارض في شمالي شمال شرقي **أتيكا ؛ بارالي** ، سكان

بحريون وتجار وحرفيون وبحارة **بيدي** – سكان **السهول** ، **ملاكون عقاريون**

في اليونان القديمة القرن السادس قبل الميلاد ٤٥٥

– **روسيا الصغرى** – اسم اوكرانيـا المستعمل في الوثائق **الرسميـة في** روسيـا

القيصريـــة ص ٤٥٥

ماركس و ف انجلز، **البيان الشيوعي** ، منشورات **دار دمشق**، ص ٩٦ ٤٥٦

– **مؤلف آخر** – المقصود بلتوف اسم مستعار لبليخانوف ) ، **وقـد** كان موضوع

مقالـة كاربيف ص ٤٥٧

كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو **١٩٧٠ ، ص** ص ٤٥٨

كارل ماركس **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو **١٩٧٠** ص ص ٤٥٩

ماركس و ف انجلز **البيان الشيوعي** ، منشورات **دار دمشق** ، ص:٥٩ ص ٤٦٠

ماركس و ف. انجلز **البيان الشيوعي** ، منشورات **دار دمشق ، ص** ٤٢ ص ٤٦١

ماركس و ف. انجلز **البيان الشيوعي ،** منشورات **دار دمشق** ، ص ٤٣ ص ٤٦١

ماركس و ف انجلز ، **مؤلفات مختارة** في ثلاثة مجلدات ، **المجلد** الثالث

موسكو ١٩٧٣ ص ٤٨٨ ص ٤٦٣

ماركس و ف انجلز ، **مراسلات مختارة** ، منشورات **دار دمشق** ، ص ٥٤٦

٥٤٨ . ( انجلز الى ف بورجيوس ، ٢٥ كانون **الثاني ١٨٩٤** ) . ص ٤٦٣

٢٢٩ ماركس و ف. انجلز **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ص: ٤٦ ص ٤٦٣

٢٣٠ ماركس و ف. انجلز **البيان الشيوعي** منشورات دار دمشق ، ص ٦٠ ص ٤٦٤

٢٣١ ـ ك. ماركس و ف. انجلز **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ص ٩٥ ص ٤٦٤

٢٣٢ ـ ك. ماركس و ف. انجلز **المؤلفات الكاملة** المجلد الثالث موسكو ١٩٧٥ ص ١٣٧ ص ٤٦٥

٢٣٣ ـ ك. ماركس و ف. انجلز **المؤلفات الكاملة** المجلد الثالث موسكو ١٩٧٥ ص ١٨٥ ص ٤٦٥

٢٣٤ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو ١٩٧٠ ، ص ٢١ ص ٤٦٦

٢٣٥ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو ١٩٧٠ ، ص ٢٠ ص ٤٦٧

٢٣٦ كارل ماركس ، **الصراعات الطبقية في فرنسا** ، منشورات دار دمشق، ص ٢٢ ص ٤٧٢

٣٧ كارل ماركس **الصراعات الطبقية في فرنسا** ، منشورات دار دمشق، ص ٢١ ص ٤٧٢

٢٣٨ كارل ماركس ، **الصراعات الطبقية في فرنسا** ، منشورات دار دمشق،ص ص ٤٧٢

٢٣٩ كارل ماركس ، **الصراعات الطبقية في فرنسا** ، منشورات دار دمشق، ص ٢٠ ص ٤٧٤

٢٤٠ كارل ماركس ، **الصراعات الطبقية في فرنسا** ، منشورات دار دمشق، ص ٢٢ ص ٤٧٤

٢٤١ كارل ماركس ، **الصراعات الطبقية في فرنسا** ، منشورات دار دمشق، ص ٢٤ ص ٤٧٥

٢٤٢ ماركس و ف. انجلز ، **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ، ص ١٧ ص ٤٧٥

٢٤٣ ـ ك. ماركس و ف انجلز **مؤلفات مختارة في ثلاثة مجلدات** المجلد الاول ، موسكو ١٩٧٣ ص ٢٠ ص ٤٧٦

## نقـــد لنقادنـــا

كانت هـذه المقالات السيد ستروفه في دور ناقد النظرية الماركسية عن التطور الاجتماعي » ، ردا على مقالة ستروفه « نظرية ماركس عن التطور الاجتماعي المنشورة عام ١٨٩٩ في مجلة **Archiv für soziale Gesetggebung und Statistik** ( **محفوظات التشريع الاجتماعي والاحصاء** ) وقد ظهرت **في زاريا** ( **الفجر** ) ، الصحيفة النظرية للماركسين الروس التي كانت تصدر في شتوتغارت. وبما أن المشروع الاصلي كان يقتضي ان تكون الجزء الاول من العمل ، فقد تضمنت بصورة خاصة نقدا لمراجعة ستروفه للماركسية في ميدان الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع وكان الجزء الثاني الذي لم يكتب قـط ، يراد منـه نقـد آراء ستروفه الفلسفية

٢٤٤ ـ التاريخ المضبوط هو ٢٧ آب ١٨٩٠ فريديريك انجلـز وبول ولورا لافارغ **مراسلات** ، المجلد الثاني ، موسكو ١٩٦٠ ، ص ٣٨٦ ص ٤٧٨

٢٤٥ ـ **محفوظات التشريع الاجتماعي والاحصاء** ـ مجلة أسسها عام ١٨٨٠ الاشتراكي الديموقراطي الالماني هـ براون ص ٤٧٩

٢٤٦ ـ كارل ماركس **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** موسكو ١٩٧٠ ص ٢٠ ـ ٢١ ص ٤٨٣

٢٤٧ ـ ك. ماركس و ف. انجلز ، **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق، ص ٤٥ ص ٤٨٥

٢٤٨ ـ ك. ماركس و ف. انجلز ، **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق، ص ٤٦ ص ٤٨٥

٢٤٩ ـ ك. ماركس و ف. انجلز **البيان الشيوعي** منشورات دار دمشق، ٥٠ ص ٤٨٥

٢٥٠ ـ كارل ماركس ، **رأس المال** ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٤ ، ص ٤٢٨ ـ ٢٥٠ ص ٤٨٥

٢٥١ ـ المقصود كتاب ستاملر **الاقتصاد والقانون من وجهة نظر الفهم المادي للتاريخ . بحث اجتماعي فلسفي** ، لايبزغ ١٨٩٦ حيث ينتقد المؤلف الماركسية من الموقف الكانطي الجديد ص ٤٨٦

٢٥٢ ـ **القانون المدني** ـ المدونة القانونية الفرنسية ـ مدونة نابليون ـ صدر عام ١٨٠٤ وقد قرر الغاء العلاقات الاقطاعية وأسبغ الصفة الشرعية على حكم البورجوازية كان يقوم على أساس مبادىء مساواة جميع المواطنين أمام القانون والسيطرة غير المقيدة للملكية الخاصة ص ٤٨٧

٢٥٣ ـ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو ١٩٧٠ ، ص ٢٠ ص ٤٨٩

٢٥٤ ـ من قصيدة ميخائيل ليرمنتوف ، **متسيري** ص ٤٩٠

٢٥٥ ـ ان نظام الاجازات لانشاء الشركات المساهمة قد نص على امكانية حصول أية شركة مساهمة جديدة على الاذن من هيئات الدولة المناسبة وهو نظام أعاق انشاء الشركات المساهمة وقد استعيض عنه في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر بما سمي نظام الامر الواقع ان أية شركة مساهمة منشأة حديثا لا تتطلب سوى طلب تسجيلها من قبل الوزارة المناسبة ص ٤٩١

٢٥٦ ـ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو ١٩٧٠ ، ص ٢٠ ص ٤٩٣

٢٥٧ ـ من خرافة ايفان كريلوف **الطلمة** ص ٤٩٥

٢٥٨ ـ ك. ماركس و ف. انجلز ، **مؤلفات مختارة في ثلاثة مجلدات** ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ١٣٧ ص ٤٩٦

٢٥٩ ـ ك ماركس و ف انجلز ، **مؤلفات مختارة في ثلاثة مجلدات** ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ١٣٤ ص ٤٩٦

٢٦٠ ـ في عام ١٧٩٨ أصدرت الحكومة البريطانية ، خشية من الاحداث الثورية في فرنسا، ما سمي قوانين التحريض التي تنص على انزال العقوبة المشددة بأي تهجم على الحكومة أو القوانين ، سواء شفهيا أو بالكلمة المطبوعة وقد الغيت هذه القوانين

في ١٨٠٠ وفي ١٧٩٩ ١٨٠٠ أصدر البرلمان قوانين الائتلاف التي تحظر الاتحادات العمالية وهي القوانين التي آلت الحركة العمالية المتنامية الى الغائها ص ٥٠٠

٢٦١ ـ الاعتداء على حياة الناس بدوافع سياسية ص ٥٠٠

٢٦٢ ـ **الوصاية** ١٨١١ ١٨٢٠ ـ الفترة التي كان فيها أمير الغال جورج الرابع المقبل وصيا على جورج الثالث أبيه ص ٥٠

٢٦٣ ـ الحلف المقدس ـ اتحاد رجعي لثلاثة اباطرة الروسي والنمسوي والبروسي عقد عام ١٨١٥ في باريس بعد هزيمة نابليون وكان الهدف منه التأييد المتبادل الملوك الاوروبيين في المحافظة على الحدود الاوروبية المنشأة بعد الحروب النابليونية ومجابهة الحركة الثورية ص ٥٠٠

٢٦٤ ـ اتخذ **القانون المناهض للاشتراكية** عام ١٨٧٨ في المانيا لحظر المنظمات الاشتراكية الديموقراطية في البلاد والصحافة العمالية ونشر الادبيات الاشتراكية وقد ألغي عام ١٨٩٠ تحت ضغط حركة الطبقة العاملة ص ٥٠

٢٦٥ ـ ك ماركس و ف انجلز **المؤلفات الكاملة** ، المجلد السادس ، موسكو ١٩٧٦ ص ١٨٣ ص ٥٠٣

٢٦٦ ـ ألغي نظام الرق في روسيا القيصرية عام ١٨٦١ ص ٥١٠

٢٦٧ ـ من قصيد غوته Vanitas Vanitatum Vanitas ! ص ٥١٤

٢٦٨ كارل ماركس ، **رأس المال** ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٤ ، ص ٨٨٣ ـ ٨٨٤ ص ٥١٥

٢٦٩ كارل ماركس ، **رأس المال** المجلد الاول الطبعة الانكليزية موسكو ١٩٧٤ ص ٢٩ ص ٥١٦

٢٧٠ ـ **الجمعية الفابية** ـ منظمة اصلاحية تأسست في بريطانيا عام ١٨٨٤ في عداد أعضائها المفكرين سيدني وبياتريس ويب ص ٥٢٤

٢٧١ ـ تعديل لاستشهاد من مسرحية الكسندر غريبوئيدوف **كثرة الذكاء مصيبة** ص ٥٤٥

٢٧٢ ـ كارل ماركس ، **رأس المال** ، المجلد الاول الطبعة الانكليزية موسكو ١٩٧٤ ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ٥٤٨

٢٧٣ ـ **قوانين الاجور الفولاذية** ـ مذهب للاقتصاد السياسي البورجوازي وقد أطلق لاسال هذه الصفة عليها فالاقتصاديون البورجوازيون نادوا استنادا الى الموضوعة القائلة أن للاجور حدودا طبيعية في نمو السكان بأن الطبيعة من دون الشروط الاجتماعية هي السبب في الفقر والبطالة في الطبقات العاملة من أجل نقد هذا القانون راجع مؤلفي ماركس **نقد برنامج غوتا** و **رأس المال** ص ٥٥١

٢٧٤ ـ المقصود خطاب ألقاه ديكورتينز أحد ممثلي الحزب الكاثولي السويسري في المؤتمر الدولي المنعقد في زوريخ عام ١٨٩٧ بصدد تسوية المسألة العمالية ولقد اقترح ديكورتينز أن يطالب المؤتمر بحظر العمل النسائي في المصانع ، والهدف من ذلك حماية الاسرة . وقد رفض اقتراحه على اعتباره رجعيا . ص ٥٥١

٢٧٥ ـ ك. ماركس و ف. انجلز ، **البيان الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ، ص ٥٧ ص ٥٥٥

٢٧٦ ـ كارل ماركس **العمل المأجور والرأسمال في دراسات اقتصادية** ، منشورات دار مشق ، ص ٣٤ ص ٥٥٧

٢٧٧ كارل ماركس ، **العمل المأجور والرأسمال** في **دراسات اقتصادية** ، منشورات دار دمشق ص ٤٠ ص ٥٥٧

٢٧٨ ـ كارل ماركس **العمل المأجور والرأسمال** ، في **دراسات اقتصادية** منشورات دار دمشق ، ص ٤٧ ص ٥٥٧

٢٧٩ كارل ماركس ، **العمل المأجور والرأسمال** في **دراسات اقتصادية** منشورات دار دمشق ص ٤٨ ص ٥٥٨

٢٨٠ كارل ماركس **رأس المال** ، المجلد الاول ، الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤ ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠ ص ٥٥٨

٢٨١ كارل ماركس ، **رأس المـال** ، المجلد الاول ، الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤ ص ص ٥٥٨

٢٨٢ كارل ماركس **رأس المال** المجلد الاول الطبعة الانكليزية موسكو ١٩٧٤ ص ٦١١ ص ٥٥٩

٢٨٣ كارل ماركس **رأس المال** ، المجلد الاول الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤ ص ٦٠٤ ص ٥٥٩

٢٨٤ ـ بموجب قانون الفقـراء المتخذ في بريطانيـا عام ١٨٣٤ كان المشردون ومتسولو الشوارع يرسلون الى ورشات العمل التي كانت في واقع الامر سجونا للفقراء ص ٥٦١

٢٨٥ كارل ماركس **رأس المال** ، المجلد الاول الطبعة الانكليزية موسكو ١٩٧٤ ٦١٢ ص ٥٦٣

٢٨٦ و ف. انجلز **المؤلفات الكاملة** ، المجلد السادس ، ص ٤٩٥ ص ٥٦٦

٢٨٧ كارل ماركس ، **رأس المال** المجلد الاول الطبعة الانكليزية موسكو ١٩٧٤ ص ٦٠٤ ص ٥٧٢

٢٨٨ ـ **فيلسوف افسس الغامض** ـ هو هيراقليطس من افسس أحد فلاسفة العصـور القديمة الرئيسيين ومؤسس الجدلية ، وقد سمي الغامض » لانه كان من العسير فهـم بياناتـه ص ٥٨٣

٢٨٩ ماركس و ف. انجلز ، **مؤلفات مختارة** في ثلاثة مجلدات موسكو ١٩٧٣ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ص ٥٨٤

٢٩٠ ـ **العدالة** ( Justice ) ـ صحيفـة اسبوعيـة للاتحاد الاشتراكي الديموقراطي البريطاني وقد صدرت من عام ١٨٨٤ حتى عام ١٩٢٥ ص ٥٨٩

٢٩١ ــ من مسرحية غوغول **الزواج** . ص ٥٩٢

٢٩٢ ــ **دستور الاعيان** ــ عنوان البيان الذي يشرح الموضوعات الرئيسية للانتهازية الروسية ــ المذهب الاقتصادي انظر الهامش رقم ١٨٥ ص ٥٩٣

٢٩٣ ــ **الملخص من أجل هيئة تحرير رابوتشيه ديلو** ــ مجموعة مواد نشرتها جماعة تحرير العمل مع مقدمة لبليخانوف جنيف ١٩٠٠ وكانت موجهة ضد الانتهازية الروسية وبالخاصة ضد الاقتصاديين وجريدتهم **رابوتشيه ديلو** ص ٥٩٥

٢٩٤ ــ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو ١٩٧٠ ص ٢١ ص ٥٩٦

٢٩٥ ــ ك. ماركس و ف انجلز ، **مؤلفات مختارة** في ثلاثة مجلدات المجلد الاول موسكو ١٩٧٢ ، ص ١٢٠ ص ٥٩٨

٢٩٦ ــ تعديل لشاهد من خرافة كريلوف **الطلعة** ص ٥٩٩

٢٩٧ ــ **كوزما بروتكوف** ــ اسم مستعار هجائي استخدمه فريق من الشعراء الروس في الستينات من القرن التاسع عشر ص ٦٠٢

٢٩٨ ــ كارل ماركس ، **رأس المال** المجلد الاول الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤ ص ٢٩ ص ٦٠٤

٢٩٩ ــ **الاشتراكي الديموقراطي** ــ مجموعة أدبية وسياسية نشرها في الخارج فريق تحرير العمل ولعبت دورا في نشر الماركسية في روسيا ص ٦٠٥

## الفهم المادي للتاريخ

مجموعة من المحاضرات القاها بليخانوف في جنيف على عمال سويسريين وايطاليين وبعض ممثلي الانتليجنتزيا الروسية في الايام الثامن والخامس عشر والثالث والعشرين والثلاثين من عام ١٩٠ ونشرت للمرة الاولى في الصحيفة الفرنسية **المجلة الاشتراكية الجديدة** عام ١٩٢٦

٣٠٠ ــ السيمبريون ــ قبائل جرمانية تقطن شبه جزيرة جوتلاند ، وقد زحفوا على روما وهزموا عام قبل المسيح على يد القنصل الروماني كايوس ماريوس ص ٦١٢

٣٠١ ــ كان دولباخ من سلالة المانية ص ٦٢٤

٣٠٢ ــ كارل ماركس ، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، موسكو ١٩٧٠ ص ٢٠ من الترجمة الانكليزية ص ٦٢٧

٣٠٣ ــ كارل ماركس، **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي**، موسكو ١٩٧٠ ، ص ٢٠ ــ ٢١. ص ٦٢٩

## في كتاب بقلم مازاريك

نشرت هذه المقالة في مجلة **زاريا** ( **الفجر** ) عام ١٩٠ وكان توماس مازاريك استاذ الفلسفة في جامعة براغ مؤسسا ومفكرا لحزب شعبي واقعي ) بورجوازي ليبرالي تشيكي ورئيسا للجمهورية التشيكوسلوفاكية لعدة سنوات .

وفي « نقده للماركسية عارضها مازاريك بايديولوجية بورجوازية قومية النزعة وبشر بنوع من «الديموقراطية الدينية» القريبة من «الاشتراكية الاخلاقية».

٣٠٤ ـ ك مارکس و ف انجلز **المؤلفات المختارة في ثلاثة مجلدات** ، المجلد الثالث، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ — ص ٦٤١

٣٠٥ ـ **قايين و مانفريد** ـ شخصيتان في مسرحيات بايرون **رولا** ـ عنوان قصيدة لموسيه **ايفان** ـ احدى شخصيات كتاب دوستويفسكي **الاخوة كارامازوف** — ص ٦٤٦

٣٠٦ ـ **الصراعات الطبقية في فرنسا** ـ منشورات دار دمشق ، ص ٢٠ — ص ٦٤٧

٣٠٧ ـ يورد بليخانوف عنوان الكراسة الشهيرة بقلم تيخوميروف « **لماذا لم أعد ثوريا** » — ص ٦٤٧

٣٠٨ ـ هاتان رسالتان من انجلز الى لافارغ مؤرختان في السادس من آذار ١٨٩٤ والثالث من نيسان ١٨٩٥ انظر ك ماركس و ف انجلز ، **مراسلات مختارة** ، منشورات دار دمشق ص ٥٥٢ و ٥٦٦ — ص ٦٤٧

٣٠٩ ـ ك ماركس و ف انجلز ، **المؤلفات المختارة** في ثلاثة مجلدات ، المجلد الثالث ، الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٣ ص ٣٦١ — ص ٦٤٨

## ليس هذا الرعد من سحابة عاصفة

هذه المقالة الموجهة ضد الفوضوي الجيورجي ف ن تشيركيزوف ( ف مارفيلي ) قد ظهرت في الصحيفة الجيورجية الاسبوعية **كفالي** ، الاعداد ٢٦ ـ ٢٨ لعام ١٩٠١ ، ووقعت بالاسم المستعار **ايديم** .

**كفالي** صحيفة ميسام ـ دازي المنظمة الليبرالية القومية صدرت من عام ١٨٩٣ حتى عام ١٩٠٤ في تيفليس ( تبيليسي )

٣١٠ ـ الحرف « ب » يقصد به ف ن تشيركيزوف الذي نشر في الصحافة الفوضوية الاوروبية مجموعة من المقالات مناوئة للماركسية

والحرف « ج » يقصد به الصحيفة الجيورجية **Iveria** جريدة بيرفيلي ـ دازي التي كانت تعبر عن مصالح حركة التحرر الوطني للانتليجنتزيا الجيورجية وان مقالة مارفيلي « رحلة الى بلجيكا » التي يشير بليخانوف اليها بالحرف « و » قد نشرت في الصحيفة **ايفيريا** — ص ٦٥١

٣١١ ـ بنيت **بوابة براندنبورغ** في برلين في ١٧٨٩ ـ ١٧٩٣ وهي تستخدم في هذا السياق على اعتبارها رمزا للملكية الظافرة — ص ٦٥٢

٣١٢ ـ المقصود الفقرة التالية من رسالة بيلنسكي الى بوتكين بتاريخ الاول من آذار عام ١٨٤١ أشكرك جزيل الشكر يا يغور فيودوروفيتش وانحني لفلسوتك الفلسفية ؛ لكنه لي الشرف مع كل الاجلال الواجب لنفاقك الفلسفي بأن أعلمك بأنني لو تدبرت أمري لارتقاء الدرجة العليا من سلم التطور فانني سوف

اطنب منك حتى وتتذاك بأن تقدم الي تقريرا عن جميع ضحايا شرط الحياة والتاريخ ، جميع ضحايا الصدفة ، والتطير ، ومحاكم التفتيش ، وفيليب الثاني ، وهكذا دواليك ؛ والا فاني اقفز من الدرجة العليا ورأسي الى الاسفل

وكان بيلنسكي يطلق على هيغل لقب يفور فيودوروفيتش ص ٦٥٢

٣١٣ ـ كانت الحلقة الفلسفية الادبية برئاسة ستانكيفيتش في الثلاثينات من القرن الماضي ، وكان أعضاؤها يعارضون نظام ملكية الاقنان في روسيا ويعنون بالفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٦٥٣

٣١٤ ـ ك ماركس و ف انجلز **المؤلفات الكاملة** المجلد السادس ، موسكو ١٩٧٦ ، ص ١٩٢ ص ٦٥٩

٣١٥ كارل ماركس ، **رأس المال** ، المجلد الاول ، الطبعة الانكليزية ، موسكو ١٩٧٤ ص ١٧٣ ص ٦٦٠

٣١٦ ـ ف انجلز **أنتي ـ دوهرنغ** ، منشورات دار دمشق ص ٢٩ ص ٦٦٤

٣١٧ ـ ك ماركس و ف انجلز ، **المؤلفات المختارة** في ثلاثة مجلدات ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ١٢٩ من الترجمة الانكليزية ص ٦٦٤

٣١٨ ـ ك ماركس و ف انجلز **المؤلفات الكاملة** المجلد الرابع موسكو ١٩٧ ، ص ٧ ص ٦٦٧

## في كتاب كروتشه

نشر كروتشه عام ١٩٠ ، وهو فيلسوف وداعية ايطالي كان يعتبر نفسه في مطلع حياته ماركسيا مجموعة من مقالاته التصحيحية التي ظهرت في مجلات ايطالية مختلفة من ١٨٩٥ حتى ١٨٩٩

وان عرض بليخانوف لهذه المقالات قد نشر في **زاريا ( الفجر )** ، العدد الرابع ، آب ١٩٠٢ وعنوان كتاب كروتشه في عرض بليخانوف غير صحيح ، لانه نشر في الروسية تحت عنوان **المادية التاريخية والاقتصاد الماركسي دراسات نقدية**

٣١٩ ـ كارل ماركس ، **رأس المال** ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٤ ص ٢٣٢ ـ ٢٤٠ من الترجمة الانكليزية ص ٦٧١

٣٢٠ ـ كارل ماركس ، **رأس المال** ، المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٤ ص ٢٣٦ ص ٩٧١

٣٢١ ـ كارل ماركس ، **رأس المال** المجلد الثالث ، موسكو ١٩٧٤ ص ٢٣٦ ص ٦٧١

٣٢٢ ـ نشرت مقالة توغان ـ بارانوفسكي « الخطيئة الرئيسية لنظرية ماركس التجريدية عن الرأسمالية » في عدد من صحيفة **Nauchnoye Obozreniye**

**المجلة العلمية )** لعام ١٨٩٩ وفيها يؤكد المؤلف أن ثمة تناقضا بين المجلدين الاول والثالث من كتاب ماركس **رأس المال** وينكر وجود قانون القيمة في ظل النظام الرأسمالي ص ٦٧١

Nauchnoye Obozreniye **( المجلة العلمية )** التي ظهرت في سان بطرسبورغ من ١٨٩٤ حتى ١٩٠٣ ، وكانت تنشر مقالات بقلم علماء ودعاة من مختلف المدارس والاتجاهات وقد نشرت ايضا مقالات لماركس وانجلز ولينين ص ٦٧٢

**ن . كاريين** ـ ان مقالة زاسوليتش « ملاحظات قارىء على « القضاء » على نظرية ماركس عن الريح من قبل توغان ـ بارانوفسكي وستروفه » ظهرت في **المجلة العلمية** تحت هذا الاسم المستعار في تشرين الثاني ١٩٠٠ ص ٦٧٢

٣٢٤ كارل ماركس **رأس المال** المجلد الثاني موسكو ١٩٧٤ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ من الترجمة الانكليزية ص ٦٧٦

٣٢٥ كارل ماركس ، **رأس المال** ، المجلد الثاني ، موسكو ١٩٧٤ ، ص ١٣٩ ـ ١٥٠ ص ٦٧٧

٣٢٦ كارل ماركس ، **رأس المال** المجلد الثاني ، موسكو ١٩٧٤ ص ٣٩٧ ص ٦٧٧

٣٢٧ ـ ف انجلز ، **انتي ـ دوهرنغ** مطبوعات دار دمشق ص ٢٤٣ ص ٦٧٨

٣٢٨ ف انجلز ، **انتي ـ دوهرنغ** مطبوعات دار دمشق ، ص ٢٤٤ ص ٦٧٨

٣٢٩ ـ ك ماركس و ف انجلز **مراسلات مختارة** ، مطبوعات دار دمشق ص:٣٢٠ ص ٦٧٩

٣٣٠ انظر ص ٢٨٩ ـ ٣٢١ من هذا المجلد ص ٦٨١

٣٣١ ـ ان مقالة بليخانوف « في الفهم المادي للتاريخ » انظر ص ٢٥٧ ـ ٢٨٩ من هذا المجلد ) قد نشرت تحت الاسم المستعار ن كامنسكي في مجلة Novoye Slovo **( الكلمة الجديدة )** العدد الثاني عشر ١٨٩٧ ص ٦٨١

## كارل ماركس

نشر هذا المقال في ايسكرا ، **العدد ٣٥ ، الاول من آذار ١٩٠٣**

**ايسكرا ( الشرارة** ـ هي الجريدة الماركسية السرية الاولى لكل روسيا ـ اسسها لينين عام ١٩٠٠ وقد لعبت دورا حاسما في تنظيم الحزب الماركسي الثوري للطبقة العاملة في روسيا وكانت الجريدة تطبع في الخارج وترسل الى روسيا سرا وكان أعضاء هيئة تحريرها ف لينين و ج ف بليخانوف و ل مارتوف و ف زاسوليتش و بوتريسوف

٣٣٢ ـ **رابطة الشغيلة الاممية ـ هي الاممية الاولى**،اول منظمة جماهيرية أممية للبروليتاريا وقد أسسها كارل ماركس في ١٨٦٤ ولقد قامت الاممية الاولى بعمل كبير في دمج الاشتراكية مع حركة الطبقة العاملة ص ٦٨٣

٣٣٣ ـ من قصيدة هايني : Deutschland Ein Winter Märchen : . ص ٦٨٤

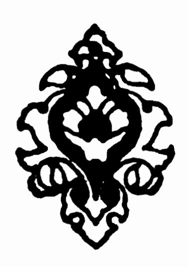
٣٣٤ ـ **الاشتراكيون الثوريون** ـ حزب للبورجوازية الصغيرة الروسية أنشىء في أواخر عام ١٩٠١ وأوائل عام ١٩٠٢ كان الاشتراكيون الثوريون يطالبون بتصفية الملكية العقارية وقد طرحوا شعار ملكية الارض المتساوية » وقد لجأوا الى الارهاب الفردي في نضالهم ضد الاوتوقراطية وكانت آراؤهم ذات الطبيعة النارودنية غريبة عن الماركسية ص ٦٨٥

٣٣٥ ـ **جماعة تحرير العمل** ـ الجماعة الماركسية الروسية الاولى ، وقد أسسها بليخانوف عام ١٨٨٣ في سويسرا قامت هذه الجماعة بعمل هام في نشر الماركسية في روسيا ونشرت في الخارج ووزعت في روسيا أعمال ماركس وانجلز وكانت منشوراتها الخاصة تعمم الماركسية أيضا ص ٦٨٥

٣٣٦ ـ الاشارة الى رسالة انجلز الى فيرازاسوليتش بتاريخ ٢٣ نيسان ١٨٨٥ ص ٦٨٥

٣٣٧ ـ الاشارة الى اضراب روستوف على الدون عام ١٩٠٢ ، وقد اشترك فيه حوالي ثلاثين الف عامل ص ٦٨٥

٣٣٨ ـ **Osvobozhdenige( التحرير )** ـ مجلة نصف شهرية صدرت في الخارج في ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥ ، وكان ستروفه يرأس تحريرها ، وهي الناطقة باسم البورجوازية الليبرالية الروسية ، وكانت تنادي بآراء الليبراليين الملكيين المعتدلين ص ٦٨٧



يضم هـذا المجلد الثاني من أعمال بليخانوف الفلسفية مؤلفات بالغة الاهمية في شرح النظرية الماركسية والدفاع عنها ضد المحرفين الذين نشطوا بشدة في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، بعد وفاة انجلز ، « لمراجعة » الماركسية و « تصحيحها » ، وفي حقيقة الامر لافراغها من مضمونها الثوري وتحويلها الى مجرد نظرية بورجوازية في جملة النظريات العديدة التي تعبر عن موقف البورجوازية ووجهة نظرها من الاقتصاد والفلسفة ومختلف المجالات الاخرى على حد سواء .

ويولي بليخانوف ، في دفاعه عن الفلسفة الماركسية ، اهتماما خاصا لدراسة وتعميم قضايا هامة من المادية التاريخية مثل العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، وانماط التطور الاجتماعي ، ودور الجماهير والفرد في التاريخ ، وماهية الاشكال المختلفة للوعي الاجتماعي وترابطاتها ، مثل الفن والدين ، وغير ذلك .

ويتصدر هـذا المجلد عمل بارز لبليخانوف هو دراسات في تاريخ المادية الذي يقدم عرضا تاريخيا فلسفيا ممتازا عن تطور المادية الفرنسية ودورها في تاريخ الفلسفة ويصف الدور الذي لعبته مادية ماركس من حيث هي الاكتمال التام للفلسفة المادية .

وفيما عدا ذلك ، فان هـذا المجلد غني جدا بالابحاث التي تشرح الفهم المادي للتاريخ ، وتفند نظرية « العوامل » ، وتفضح دور التحريفيين من أشباه برنشتاين وكاوتسكي وشميدت وستروفه وغيرهم ، من الذين حاولوا التخفي التام عن المضمون الثوري للفلسفة الماركسية ، والاستعاضة عنه بلون من الوان الكانطية الجديدة . ولقد كان لهـذه الدراسات أهميتها العظيمة في رد هجمات التحريفيين وفي توطيد نفوذ الفلسفة الماركسية ليس في صفوف الطبقة العاملة الروسية وحدها ، بـل في الحركة العمالية الاممية بأسرها .

وكان لينين يقدر تقديرا عاليا أعمال بليخانوف ، ويقول ان جيلا كاملا من الماركسيين الروس تعلموا منها ، وكان يطالب جميع اعضاء حزبه ، وبالخاصة الشبان ، بدراستها بصورة عميقة ، لانه لم يكتب قط ، حسب تعبيره ، أفضل منها عن الماركسية في أي مكان في العالم .

**النشر والتوزيع في الاقطار العربيـة**

دار دمشق

دمشق : شارع بور سعيد هاتف ١١١٠٤٨

بيروت ـ شارع سوريا ـ بناية صمدي وصالحة

**السعر : ٤٥ ل ٠ ل**